

الجزء السادس

الأدب في المغرب والأندلس

من أوائل القرن السابع إلى أواسط القرن العاشر للهجرة

(أوائل القرن الثالث عشر إلى أواسط القرن السادس عشر للميلاد)

تأليف

عمر فروخ

عضو مجمع اللغة العربية في دمشق

عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة

عضو جمعيّة البحوث الإسلامية في بومباي

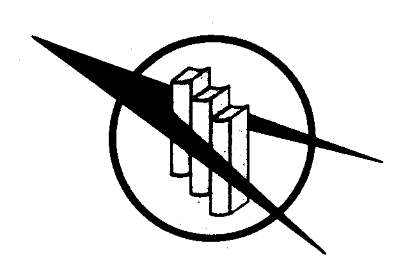
عضو المجمع العلمي العراقي في بغداد

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى

حزيران (يونيو) ١٩٨٣

تاريخ الأدب العربي

٦



الكلمة الأولى

سيكون الفصلُ الأوّلُ من هذا الجزءِ السادِس طويلًا جِدًّا، ذلك لأنّه سيَعرِضُ صورةَ العصر في الأندلس أيام بني نَصْرٍ أو بني الأحمر (٦٢٩ - ٨٩٧ هـ) ثمّ في المَغْرِب كُلِّه: في أيّام بني مَرينٍ في فاسَ (٥٩٢ - ٩٥٧ هـ) وبني زَيّانَ في تِلِمْسان (٦٣٣ - ٩٦٢ هـ) والدولةِ الوطّاسيّة في باديةِ الجزائر (٦٣٣ - ٩٦١ هـ) والدولةِ الحَفْصيّة في تُونِسَ (٦٢٥ - ٩٨٢ هـ)؛ وتلك حِقبةٌ تمتدُّ أربعةَ قرونٍ كواملَ.

ولِطولِ هذا العصر سببانِ رئيسانِ: طولُ ذلك العصر نفسهِ من حيثُ الزمنُ ثمّ الحاجةُ إلى شيء من التوسُّعِ في السَّعْيِ لِردِّ التُّهمة عن ذلك العصر بأنّه عصرُ ٱنحطاطٍ، مَعَ العلم بأنّ الحياةَ العُمرانيةَ والحياةَ الثقافيّة ثمّ الحياة السياسيّة نفسَها - في المغربِ خاصّةً - كانتْ كلُّها مُزدَهِرةً.

إنّ الضَّعْفَ السياسيَّ في الأندَلُس (في سلطنةِ غَرناطةِ الضيّقةِ الرُّقْعةِ والخاضعةِ للنُّفوذِ النَّصرانيّ) قد أدّى - كما يُنْتَظَرُ في مِثلِ هذه الحال - إلى ضَعْفٍ في الأدب عامّةً وفي الثقافة أيضاً. غيرَ أنّ هذه القاعدةَ العامّةَ قد خرَقَها في الأندَلُس، وفي ذلك الحينِ، نهضةٌ عُمرانيّة من البناء ومن الزُّخرف لم يَسْبِقْها نهضةٌ مِثلُها ولا لَحِقَها نهضةٌ مِثلُها. إنّ قصورَ الحمراءِ في غَرناطةَ معالمُ من فنّ البِناء وَفنّ الزُّخرف وعُنوانٌ لِحَضارة لم تَرْقَ إليها حضارةٌ أخرى. ولهذه الآثارِ العَربية في الأندلس (إسبانيةَ اليومَ) قيمةٌ ٱقتصاديّةٌ تقوم عليها حياةُ الإسبان، أولئك الإسبانِ الذين كانت صدورُ كُبَرائهم قد ضاقتْ بالإسلام وبالمُسلمين، فقاتلوا المُسلمين - بِقيادةِ البابويّة - ثمّ أخْرجوهم من دِيارِهم بوَحْشيّة لم يَعرِفها إلّا عصرُنا الحاضرُ في فِلَسْطين وفي غيرِ فِلَسطينَ أيضاً، بالأمسِ القريب.

لَيْسَ من المعقولِ، ولا من المألوف، أنْ نَصِفَ بالٱنحطاطِ الفِكريّ أوِ الٱنحطاط

الأدبي عصراً كان فيه القُرطبيّ المُفسّرُ (ت ٦٧١ هـ) ثمّ آبنُ آبنُ عُصفورِ الإشبيليُّ (ت ٦٦٩ هـ) وآبنُ مالكٍ (ت ٦٧٢ هـ) النَّحْويّانِ الكبيران ثمّ آبنُ البَنّاء العَدَديُّ (ت ٧٢١ هـ) والقَلَصاديُّ (ت ٨٩١ هـ) الرِّياضيّانِ ثمّ تلك الكَوْكَبَـةُ من عُلماءِ التاريخ والجُغرافية والآجتماع المُوسِعِيّين (وبعضُهم يقول: المَوْسوعيّون): عبدُ الواحدِ المَرّاكُشيّ (ت ٦٤٥ هـ) وأبو المُطَرِّفِ بنُ عَمِـــيرةَ (ت ٦٥٨ هـ) وحـــازمٌ القَرْطاجَنّيُّ (ت ٦٨٤ هـ) وآبنُ الأبّارِ القُضاعيُّ (ت ٦٨٥ هـ) وبنو سعيدٍ العَنْسيِّ الذين ملأوا القرنَ السابع ثمّ آبنُ عبدِ المَلِكِ المَرّاكُشيّ (ت ٧٠٢ هـ) وآبن منظورٍ (ت ٧١١ هـ) صاحـبُ قاموسِ «لِسانِ العَرَبِ» ثمّ آبنُ خاتمةَ (ت ٧٧٠ هـ) وابن أبي حَجَلَـةَ (ت ٧٧٦ هـ) ولِسانُ الـدين بنُ الخطيـب (ت ٧٧٦ هـ) وآبنُ بطّوطـةَ الرحّالـةُ (ت ٧٧٩ هـ) ويحيى بنُ خَلْدونٍ (ت ٧٨٠ هـ) وأبو حَمّو الثاني (ت ٧٩١ هـ) وآلُ مرزوقٍ الذين ملأوا القرنَ الثامن بالفِقه والأدب ثمّ الكوكبُ الوضّاءُ عبدُ الرحمن بنُ خَلْدونٍ (ت ٨٠٨ هـ) مُؤسّسُ علمِ التاريخ ومُوجِدُ علم الآجتماع في العالم كُلّهِ ثمّ الوَنْشَريسيّ (ت ٩١٤ هـ) صاحب كتاب «المِعيار»، وقد جَمَعَ فيه آراءً طيّبة في الإدارة وفي التربية والتعليم.

وإذا نحنُ نَسِينا في هذه الصورة الزاهيةِ - مِنَ الحُكّامِ - بني نصرٍ أو بني الأحمر ملوك غَرناطةَ - مَعَ أنّهم تركوا لنا في الحضارة العُمرانية أثراً لا يُنسى - فلا يجوزُ لنا أن نَنْسى المَنصورَ المَرينيَّ يَعقوبَ بنَ عبدِ الحقّ (٦٥٦ - ٦٨٦ هـ) ويحيى بنَ عبد الواحدِ الحَفْصِيَّ (٦٢٥ - ٦٤٧ هـ) وأبا حَمّو موسى الثانيَ (٧٦٠ - ٧٩١ هـ).

الأمَم كُلُّها تَمُرُّ في أدوارٍ من الرُّقيِّ ومن الآنحطاط مَرّةً بعدَ مرّةٍ. وَأرى أنَ المسلمين لم يَمرّوا في ماضِيهم في مِثْلِ هذا الآنحطاطِ الذي يَمُرّونَ بِهِ في عصرِهِمُ الحاضرِ، لأنّهم يَفْقِدون في عَصْرهم الحاضرِ هذا رجالَ دولةٍ من أمثال الذين عَدَدْناهم في الأسطر السالفة. فعَسَى أن يبعثَ اللهَ فينا من يَرُدُّ لنا تلك المَكانةَ التي كانتْ لنا من قبلُ. إنّه على كُلِّ شَيءٍ قدير.

الأحد في ٢٠ من صفر ١٤٠٣ = ١٩٨٢/١٢/٥.

عمر فروخ

★ إنّ التراجم مرتّبة في هذا الكتاب كلّه على سنوات الوفيات. ولكنّ اتّفق هنا ،حيث وضع على رقم الصفحة نجم صغير «(★)، أن تأخّرت ترجمة مرتبة واحدة، وكان حقّها أن تتقدّم (أو تقدّمت وكان حقّها أن تتأخّر). وهذا ينطبق على التراجم السّت المثبتة على هذه الصفحة وعلى الصفحة التالية.



مقدمة

هذا الجُزءُ يَصِلُ بنا إلى الفتح العثماني في المَغْرِب (أي إلى نحو سنة ٩٣٠ هـ = ١٥٢٤ م). غير أن نَفَراً من الذين أدْرَكَهُمُ الفتحُ العثمانيُّ قد بَقُوا مُدّةً بَعْدَ ذلك الفتح، فدخل نفرٌ منهم في نِطاق هذا الجزء.

وبهذا الجُزءِ السادسِ الحاضرِ تنتهي السلسلة التي عَمِلْتُ في وَضْعِها جيلاً كاملاً من الدهر (١٣٧٠ - ١٤٠٣ هـ = ١٩٥١ - ١٩٨٣ م)(*) . وقد كنت جمعت في تلك الأثناء ألوفاً من البطاقات. فربّما كان الأديبُ مُقِلًّا أوْ ربّما كانت معرفتُنا بأخبارِه ضئيلة جدًّا، فيكونُ له بطاقةٌ واحدةٌ من هذه البطاقات. وربّما كانتْ مصادرُ أخبارِه ومراجُعها كثيرةً، وعددُ مُصنّفاتِه كبيراً، فيكون له عشرُ بطاقاتٍ أو عِشرونَ أو أكثر.

ولم يكن بالإمكان أن يدخُلَ كلُّ آسمٍ على بطاقةٍ (أو على عددٍ من البطاقات) في مَتْنِ هذا الكتاب. لقد كان لي طريقةٌ في قَبولِ الأديب أو الشاعر أو العالم في سِلْكِ تراجمِ هذا الكتاب. هذه الطريقة تقوم على ثلاثةِ أُسُسٍ: (أ) أن يكونَ للشخص المُختارِ نصوصٌ على مُستوًى ما من الجودة، و(ب) أن يكونَ له تاريخُ وفاةٍ دقيقٌ أو قريبٌ من الدِّقّة، و(جـ) أن يكونَ له أثرٌ ثقافيٌّ أو لفتةٌ بارعة.

وقد كان آختيارُ التراجم مُضْنياً. كنتُ أرْجِعُ إلى كلِّ بطاقةٍ ثم أعودُ إلى المصادر والمراجع التي على تلك البطاقات صفحةً صفحةً. فإذا لم أجدْ نصًّا صالحاً لأن تبنى عليه ترجمة مستقلّة، وضعت البطاقة المتعلّقة به جانباً. ثمّ أرجع إلى تلك البطاقات التي وُضِعَتْ جانباً فأنظُرُ فيها مرّةً ثانية، فقد أجِدُها تصلُحُ لتكونَ إضافةً إلى صورة العصر الذي أُعالجه. فإذا لم تصلُحْ لذلك أيضاً أهملتُها مرّةً واحدة. ولا شكّ في أن هذا العملَ يقتضي وقتاً طويلاً. ومَعَ هذا كلِّهِ، فأنا لا أستطيعُ أنْ أزعُمَ أنّ كلَّ ترجمةٍ تستحقُّ الدخولَ في هذا الكتاب قد دخلت فيه، كما لا أستطيعُ أن أقولَ أيضاً إنّ كلّ

---

(٣) الجيل ثلث قرن (نحو ثلاثة وثلاثين عاماً).

ترجمة قَبِلْتُها هي أفضلُ من كلّ ما أهملته من التراجم. إنّ للجُهْدِ الإنسانيّ حدوداً من المكان وقُيوداً من الزمان، ولا يُمْكِنُ عند النظر في كلِّ ترجمةٍ أنْ أعودَ إلى كلّ جملةٍ تتعلَّقُ بتلك الترجمة في كلّ كتابٍ بينَ يَدَيَّ أو في متناول يَدِي من قُرْبٍ أو من بُعْدٍ.

وأُريدُ أن أعودَ مرّةً أُخرى إلى نَفَرٍ من الذين يُحقّقون الكُتُبَ.

في هذا الجزء ترجمةٌ صاحبُها آبنُ شعيب الكرياني. لهذا الشاعر ترجمةٌ في «الإحاطة في أخبار غَرناطة» للسان الدين بن الخطيب. وقد جاء لهذا الشاعر مقطوعة منها البيت التالي (مصر-شركة طبع الكتب العربية-١٣١٩ هـ، الجزء الأوّل، ص١٤٣):

كان اللقاء فكان حظّي ناظري وسطا الفراق فصار حظّي مسمعي.

وفي عام ١٩٥٥ للميلاد (بعد الطبعة الأولى (بستّةٍ وعِشرينَ عاماً أو تزيدُ)أصدرت دارُ المعارف في مصر طبعةٍ جديدة من «الإحاطة» على صفحةِ الغِلاف منها: «حَقّقه وقدّم له محمّدُ عبد الله عِنَان». وقد جاء فيها هذا البيت (١ : ٢٨٥) على الشكل التالي:

كان (اللّقا) فكان حظّي ناظري (وسْطَ) الفراق فصار حظّي (مَسمع).

ولم ينس محقّق طبعة دار المعارف أن يَضَعَ سكوناً على السين وفتحة على الطاء في كلمة «وسط». وكذلك حذف الهمزة من كلمة اللقاء (ويختلّ وزن البيت بذلك) ثمّ حذف أيضاً الياءَ من القافية «مسمعي» (والياء هنا ضمير)، فأصبح حقّ «مسمع» أن تصبح «مسمعا» (والمعنى يجيز ذلك، ولكن القافية لا تجيزه).

فأين التحقيق؟

ورجعة جديدة إلى «نفح الطيب» في موضع واحد من مواضع كثيرة. في قصيدة ابن الأبار المتعلّقة بالآستنجاد بسلاطين المغرب لإنقاذ الأندلس هذا البيت (٤ : ٤٥٧ هـ) وقد جاء على هذا الشكل:

يا للجزيرة أضحى أهلها جَزَراً للحادثاتِ وأمسى جَدُّها تَعِسا.

وقد ضبط المحقِّق كلمة «تعسا» بفتح التاء وكسر السين فصار المعنى أن الجَدّ

(بفتح الجيم: الحظّ، السعد) أصبح تاعساً. وهذا غير مقبولٍ في المنطق، فنحن لا نقول: إنّ الخير أصبح شرًّا. بل نقولُ: إنّ الحالَ آنقلبتْ من الخير إلى الشر. وكذلك الأندلسُ (في بيت آبن الأبّار) قد تبدّلت بِجِدِّها (بحظّها) تَعَساً (بفتح التاء والسين).

إنّ الذي ضَبَطَ كَلِمَةَ «تَعِس» في هذا البيتِ يجب أن يكونَ قريباً في مُناقلةِ الحديثِ من عوّامٍّ الناس. إنّ العامّة هُمُ الذين يقولون: «فلانٌ حظُّه تعيس» فيُخْطِئون مرّتَيْنِ: مرّةً حين يَتَوهّمون أن «الحَظّ» ذاتَه يُصبح تَعِساً، وأنّ الخيرَ نفسَه يُصبحُ شرًّا، وأنّ الغِنى يُصبح فَقْراً. ثمّ هم يُخْطِئون مرّةً ثانيةً حينما يقولون: «تعيس» على وزنِ فعيلٍ، مكانَ تَعِسٍ أو تاعِسٍ.

نحن نقرأ في الكتاب المُنزل (٢: ١٠٨، سورة البقرة): «.... ومَنْ يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بالإيمانِ فَقَدْ ضَلّ سَواءَ السَّبيل».

غير أنّنا نَستطيعُ في بابِ البلاغة أنْ نقول: «أضحى غِناه فَقْراً» (لأنّ فُلاناً أساء آستعمالَ المالَ فَوَضَعَهُ في غيرِ مَواضعِه فأضاعه ولم ينتَفِعْ به). وكذلك نستطيعُ أن نقولَ: «أصبحَ خيرُه شرًّا» (لأنه أتْبَعَ الخيرَ الذي صَنَعَهُ إلى بعضِ الناس مَنًّا أو أذًى). ونستطيعُ أنْ نقولَ (في باب البلاغة) أيضاً: «إنّ جَدّه قد أمسى تَعَسا» (لأنّه أضاعَ الفُرصةَ السانحةَ للقيام بعمله في الوقت المناسب). وكُلُّ هذا ليس من بابِ قولِ آبنِ الأبار في شيء.

وفي «نفح الطيب» أيضاً حاشيةٌ مؤلمةٌ (٥: ١٩)، فقد ذَكَرَ المحققُ أنّ أبا بكر بن عاصمٍ قد تولّى القضاءَ سَنَةَ ٨٨٨ (ثمانٍ وثمانينَ وثمانِمِائَة)، مَعَ أن أبا بكرٍ هذا قد تُوُفِّيَ سَنَةَ تِسعةٍ وعشرين وثمانمائة (راجع تقويم ذلك في ترجمة أبي يحيى بن عاصم: ابن أبي بكر بن عاصم) المتوفّى سنة ٨٦٠ للهجرة في الأغلب. ولقد تنبّه خير الدين الزركلي إلى أن هذا التاريخ ٨٨٨» خطأ مطبعيّ (راجع الأعلام الطبعة الرابعة، ٧: ٤٨ في حاشية العمود الأوّل).

ومرةً أُخرى إلى «أزهار الرياض». لهذا الكتاب- وهو مطبوعٌ في ثلاثة أجزاءٍ- فهارسُ مستقلةٌ بكُلِّ جُزء (وهذا غيرُ مقبولٍ- إلّا إذا كان المُحققون الكبارُ،

وهم ثلاثة، قد دُفِعَتْ لهم أجورُ التحقيق على أساسِ العملُ منفردينَ، فتناولَ كلُّ واحدٍ منهم جزءاً). ولقدِ آهتمّ المُحقّقون الثلاثة بالفهارسِ ، ولكنْ على دَرَجاتٍ مختلفة: ففي الجزء الأوّل من الفهارس هذه التي تَلي، وعلى الترتيب التالي أيضاً: فهرس الأعلام- فهرس الشعراء- فهرس القبائل- فهرس الأماكن- فهرس الكُتُب- فهرس القوافي- فهرس الموضوعات. وفي الجزء الثاني تفصيلٌ أكثرُ للفهارسِ : فهرس الشعراء (قبلَ فهرس الأعلام)- فهرس الأعلام- فهرس القبائل- فهرس الأماكن- فهرس الكتب- فهرس الأيام (المعارك)- فهرس الأمثال- فهرس القوافي- فهرس الموشّحات والأزجال- فهرس أنصافِ الأبيات- فهرس الموضوعات. وأمّا الجزء الثالث ففيه: فهرس الأعلام- فهرس الشعراء- فهرس القبائل- فهرس الأماكن- فهرس الكتب- فهرس القوافي- فهرس الموضوعات.

ولا أُريدُ الآنَ أن أشْغَلَك بترتيب الأَسماءِ في كلّ فهرس وفي كلّ جزء، فإنّ ذلك يطول. ولَقَدْ أحْبَبْتُ أن أُشيرَ إلى ذلك هنا لِيُعْلَمَ. مقدارُ ذلك التَّعَبَ الذي يُعانيه المؤلّفُ الجادُّ في الآستفادة من كثيرٍ من الكتب. إنّ ذلك المؤلّفَ الذي أَعنيه مُضطرٌّ إلى أنْ يكون مُحَقِّقاً لعددٍ كبيرٍ من الكتب التي يُوضَع على غِلافِها أنّها بتَحقيق فلانٍ أو بتحقيق فلانٍ وفلانٍ أو بتحقيق فلانٍ وفلانٍ وفلان.

ثم إنّي لا أدفعُ نفراً من المؤلّفين عن حقّهم بالآهتمام بأقطارِهِمُ المُختلفةِ في التاريخ وفي الأدب. إنّ هذا المَنْحى قديمٌ جدًّا، وأكثرُ ما يلجأ إليه المؤلّفون في هذا الباب تفصيلُ أخبارِ أقطارهم. غيرَ أنّي أعتقدُ أن هذا العملَ، وإن كانتْ له فائدةُ التفصيلِ، فإنّه لا يصوّرُ الحقيقةَ. لقدِ آضْطُرِرْتُ في تأليفي المدرسيّ- في التاريخ وفي الأدب وفي الجغرافية أيضاً- إلى أن آخُصَّ «لُبنانَ» بكتبٍ خاصّةٍ في ذلك. ولكن الذي يُطالعُ هذه الكتبَ المدرسيةَ التي ألّفتُها أو شاركتُ في تأليفها يرى أنّني كنتُ دائماً أرْسِمُ إطاراً للثقافة العربية في إطارٍ من الثقافة الإنسانية حولَ الموضوع اللُّبنانيّ الذي أُعالِجُه بِحَسْبِ المَنْهج اللبناني للتعليم. إنّ التاريخَ- كما ذكرتُ في كتابي «تجديد التاريخ»، مثلاً- لا يجري في مجارٍ مُنْفصلةٍ. ومثلُ ذلك الأدبُ في كلّ أمّةٍ، فإنّه لا يُمْكِنُ أنْ يخلُصَ من آثار الآداب الأخرى، فلا بدَّ في تاريخ الأدب العربي الحديثِ من

إشارات واضحةٍ إلى الآداب الأجنبية شرقيةً وغربيةً. لا الأدبُ العربيُّ خَلَصَ، في تاريخه الحديث، من آثارٍ فرنسيةٍ وإنكليزية أو ألمانيةٍ أو هنديةٍ، أو إفريقيةٍ أو أميركيّة؛ ولا هذه الآدابُ كلُّها قد خَلَصَتْ، في تاريخها الحديث وفي تاريخِها الوسيط أيضاً، من الآثارِ العربية. ولكنّ هذا موضوعٌ ليسَ هنا مكانُ تفصيلِه.

قد يستغرب نفَرٌ من القُرّاءِ إذا رأَوْا أنّني ضَمَمْتُ إلى كتابٍ في تاريخ الأدب تراجِمَ لِفُقهاءَ ولِعُلَماءَ في السياسة والتاريخ والرّياضيات. إنّ أولئك النَّفَرَ يجبُ ألّا يستغربوا ذلك، ذلك لأنّ التعبيرَ البارعِ عن الفِكْر الفِقهيّ والفكر الفلسفيّ والفكر السياسيّ والفكر الرياضيّ أوجهٌ من وُجوه الأدب. أضِفْ إلى ذلكَ كُلِّه أن الأديبَ الحقَّ هو الذي يُشارك في عدد من فنون المعرفةِ الإنسانية. ثمّ يجب أن نَحْمِلَ قولَ ٱبنِ خَلدونٍ (المقدّمة، بيروت - دار الكتاب اللبناني - ١٩٦١ م، ص ١١٠٧): « ولهذا كان شُيوخُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، يَعيبون... المتنبّيَ والمَعَرِّيَّ بِعَدَمِ النَّسج على الأساليب العربية.. فكانَ شِعرُهُما كلاماً منظوماً نازلاً عن طَبَقَة الشعر. والحاكمُ في ذلك هو الذَّوْق »، على مَحْمَلِ التَشدُّدِ في التعريف - وإلّا فَمَنْ يستطيعُ أن يُنْكِرَ على المَعرِّيِّ « طَبَقَتَه الساميةَ في الشعر » حينما يَقْنِصُ مِثْلَ هذا المعنى ثمّ يُجريهِ في هذا اللفظِ السهل والتَّشبيه البارع فيأتي بهذا الوصفِ المُبتكَر للبَرْقِ في اللَّيْلةِ الظَّلماء (الديوان، مصر - مطبعة هندية - ١٣١٩ هـ، ص ٢١):

إذا ما ٱهتاجَ أحْمَرَ مُستَطيراً حَسِبْتَ اللَّيْلَ زَنجِيًّا جَرِيحا.

إنّ هذا وَصْفٌ يَعْجِزُ عن مِثلِهِ المُبصرون.

المصادر والمراجع

في كلّ ترجمةٍ في هذا الكتاب مقطعٌ يَسْبِقُه الرقمُ « ٤ ». المقصودُ أن يأتيَ بعدَ هذا الرقم ما لصاحب الترجمة من الكُتُب أو ما كُتُبٍ عنه من الكتب أو في الكتب.

كان المفروضَ أنْ استخدمَ طبعةً واحدة من « الديباج المُذْهَب » مثلاً. ولكنْ، برُغْمِ حَجْمٍ مكتبتي الخاصّة، فإنّ هنالك كُتَباً لا أَمْلِكُها، فأنا أستعيرُها من مكتبةِ الجامعة الأميركيةأو من مكتبة الجامعة العربيّة (في بيروت). وفي عدد من الأحيان لا يكون كتاب من هذه الكتب معي فأُضْطَرَّ إلى استخدام طبعةٍ أحصُلُ عليها (وفي أحيان كثيرة أُشيرُ إلى ذلك). وربّما يكونُ الكتابُ معي، فتحتاج إليه المكتبةُ العامّة فأردُّهُ إليها (نِهائيًّا أو مُوَقَّتاً) فيغيبُ هذا الكتاب من قائمةِ المراجع (بعدَ الرقم « ٤ ») أحياناً.

ولا أستطيع أن أقولَ إنّ كلَّ كِتابٍ أُثْبِتهُ قد رأيتُهُ بعَيْنَيْ رأسي، وإلّا فما الفائدةُ من عملِ أولئك الذين يعْمَلون في « تأليف قوائمِ المطبوعات »؟

ثمّ إنّ هذا المقطع الرابعَ- ذا الرقم « ٤ »- دليلٌ للقارىء إذا هو أحبَّ أن يتوسّعَ في آثارِ صاحب الترجمة المُعيّنة. وفي كثير من المراجعِ دليلٌ آخرُ إلى مصادرَ ومراجعَ ليست مذكورةً في كتابي. أنا لم أذكرُ المقالاتِ التي كُتبت في أبي العَلاء المَعرّي أو في عبدِ الرحمن بنِ خَلْدونٍ، ولكنّني أَثْبَتُّ في ترجمةِ أبي العَلاء « مَرْجِعاً من تأليف يوسفَ أسعَدَ داغرٍ » فيه مُعْظَمُ المقالاتِ التي نُشِرَتْ في المجلّات وكانت تتناول حياةَ أبي العلاء المَعرّي أو خصائصَه وآثارَه، كما ذكرتُ- في ترجمة عبد الرحمن بنِ خَلدونٍ- كتاباً لعبدِ الرحمن بدوي فيه مثل ذلك عن عبدِ الرحمن ابن خَلْدونٍ.

فهرس هذا الجزء

لقد كان ترتيبُ هذا الفهرس في هذا الجزء السادس عملاً شاقاً لعدد من الأسباب أوّلها أنّ الأسماء في هذا الجزء كثيرةٌ جدًّا (راجع ص ٧١٢ وما بعدها)؛ ثمّ إنّ التداخلَ في أنساب الرجال في هذا الجزء خاصّةً كان كثيراً (كما نلاحظ مثلاً في سلاسلِ النسب لبني الأحمر أو لآل مرزوقٍ)، فحينما يكونُ في نَسَبِ أبي يحيى بن عاصمٍ (ص ٦٤١) خمسةٌ أسماؤهم «محمّدٌ» في نَسَقٍ واحدٍ مُتتابعٍ يصبح من الصعب الكلامُ على الأبِ وعلى الأخِ وعلى الابنِ بوضوحٍ (راجع مثلاً ترتيب أسماء «ابن الأحمر» وترتيب أسماء «ابن مرزوق».

لقد رتّبتُ أسماءَ بني الأحمر على النَّسَب ثمّ جعلتُ بين أهلّةٍ كبارٍ أرقاماً. إنّ كلَّ رقمٍ يدلّ على مرتبةِ صاحبه في تولّي عرضِ غرناطة. أمّا بنو مرزوقٍ فاتّبعتُ في سرد أسمائهم ترتيباً أقربُ إلى التاريخ.

وكان منشأ الصعوبة، هنا وفي الأجزاء الباقية، حُبُّ الرواةِ للاختصار: فربّما اكتفى الراوي للأخبار أو المؤلّفُ للكتب بقولهِ: وكان ابنُ الأحمر، قالَ ابن مرزوقٍ، وأخذ فلانٌ العلمَ على ابنِ مرزوقٍ وما يقرُبُ من ذلك.

ولقد حاولتُ أن أتغلّبَ على هذه الصعوبة في أثناء التأليفِ فكنتُ أحاولُ أنْ أُكْثِرَ، مَعَ كلِّ اسم غامضِ الدّلالةِ أو كثيرِ الوُرودِ، من القرائنِ الدالّةِ عليه (اسمه، كنيتهِ، لَقَبِهِ، تاريخِ وفاته، صلته بأستاذه أو بتلميذه، إلخ). ولعلّ القارىء يعجَبُ حينما يراني أُثبتُ تاريخَ الوفاة لرجلٍ مرّتين أو ثلاثاً في الصفحة الواحدة. غير أنني لم أنقُلْ كلَّ هذه التفاصيل في الفهرس، ولكنّني كنتُ أستنيرُ بها في أثناءِ ترتيبِ هذا الفهرس.

ومَعَ هذا كلّهِ فإنّني لا أُحِيلُ أنْ يكونَ قد بَقِيَ في هذا الفهرس شيءٌ من الخطأ أو التداخل أوِ السهو. من أجل ذلك وضعتُ أحياناً إلى جانبِ عدد من الأسماء وإلى جانبِ عددٍ من أرقام الصَّفَحات علامةَ آستفهامٍ أو كلمةَ «راجعْ» كي يكونَ القارىء مُتَنَبِّهاً عند مُحاولةِ الآستدلالِ برقمِ الصفحةِ على الآسمِ المطلوب.

هذه السلسلة

بهذه الجزء السادس من تاريخ الأدب العربي «تنتهي هذه السلسلةُ بحَسْبِ المنهج الذي كنت قد وضعتُه لها حينما بدأتُ جمعَ الموادِّ لتأليفها، مُنذُ آثنينِ وثلاثينَ عاماً. لم أكن في ذلك الحين أفكّر في المُضِيّ بها الى أبعدَ مِنَ الفتح العثمانيّ. ذلك لأنّني كنت أُدْرِكُ أن التأليفَ المُنَظَّمَ يحتاجُ إلى وقت طويل. ولو أنّني أحْبَبْتُ الآنَ أن أبدأ مُلْحَقاً لتاريخِ الأدب العربي في العصر الحديث (على المِنهاج الذي سِرْتُ عليه في الاجزاء الستّة الماضية) لآحْتَجْتُ إلى رُبْعِ قرنٍ جديد. وهذا أمرٌ مستحيلٌ عليَّ ووراءَ المستحيل أيضاً.

في هذه السلسلة منهَجٌ مُتّبعٌ لم يختلف في ترجمة من التراجم إلاّ على مَنْهَجٍ آخرَ، وذلك في التراجم التي ليس فيها «مختارات». وبما أنّ هذه السلسلة وُضِعَتْ على «النسق التاريخيّ»، فقد كان من الصعب أنْ أتقدّم إلى ترجمة (عند الطبع خاصّةً) إلاّ بعدَ آستيفاء الكلام الضَّروريّ في التراجم السابقة. لقد وَقَعَ في يديّ كُتُبٌ في تاريخ الأدب (وفي غير تاريخ الادب أيضاً)، ولم يكن فيها منهجٌ: كانتْ كُتُباً من عمل الخواطر (مقالاتٍ مفردةً تُسمّى آستبداداً «تاريخَ الأدب»: يأتي فيها المتأخّر قبلَ المتقدّمِ، ويأتي آخر الموضوعِ قبلَ أوّله، ويَنْسى المؤلّفُ جانباً من البحث بعدَ أن يكونَ قدِ آنتقل إلى عددٍ من البحوث الأُخرى فيَرْجعُ إلى ما كان فيه، أو مِنْ عَمَلِ التعليق) يبدأ المؤلّفَ بِقطعةٍ من الإنشاء الكلاميّ البليغ ثمّ يُورِدُ مرة بعد مرة عدداً من الأبيات أو من الأسطر - وأكثر التأليف الذي أَقْصِدُه هنا بهذه الكلمة يكون في الشعر عادة - ثمّ إنّك لا ترى «الشكل» الكافي (أو الضروريّ) أحياناً، ولا الشرحَ المفيد (مُقيَّداً بالتاريخ أو بالمصدر أو بالقاموس على الأقل). لقد كنت أنا أَرْجعُ إلى القاموس وإلى القواميس (عند محاولة شرح كَلِمةٍ كنتُ أعْرِفُها من قبلُ) وربّما كنتُ أَرْجعُ إلى الكلمةِ الواحدة التي وَرَدَتْ مرتيّنِ في صَفْحةٍ واحدة إلى القاموس مرّتينِ أو أكثرَ من

مرّتين (ذلك لأنّني كنت أُريدُ أن أرى ما يَقْصِدُه الشاعرُ أو الكاتبُ منها لا ما شاعَ من معناها أو ما كنتُ أنا قد عَرَفتُه من معناها). وكثيراً ما يُلاحظُ القارىءُ (في جميع أجزاء هذه السلسلة) أنّني أقولُ أحياناً «لَيْسَتْ هذه الكلمةُ في القاموس» – وأعني بالقاموس هنا «القاموس المحيط» للفيروزابادي – أو ليستْ هذه الكلمة في القاموس بالمعنى الملموح هنا، أو أنّني كنت لا أضع التفسيرَ وراءَ قاطعة (:)، بل في أهِلّة كِبار (......)، كلّ ذلك كي أترُكَ للقارىء أيضاً إمكانَ النظر في المعاني المقصودة أو المقبولة أو القريبة من الصِّحّة.

ولهذا الجزء السادسِ من هذه السلسلة قِصّةٌ أُخرى:

بدأتُ بإعداد هذا الجزء (بعدَ الانتهاء من تأليفه) للطبع (بِعَدَدٍ من الإصلاحات هُنا وهُنالك) في أوائلِ عام ١٩٨٢ (اثنين وثمانين) وقدّمتُ نِصْفَه الأوّل للمَطْبعة. ثمّ بدأ الطبعُ والتصحيح. ولمّا بدأ الاجتياحُ الإسرائيلي (وعانتْ مدينةُ بيروتَ ذلك القَصْفَ المُرَوِّعَ من الأرض والبحرِ والجوّ) كان نصفُ الكتاب في المَطْبعة والنصفُ الآخَرُ معي في البيت. أمّا النِّصف الذي كان في المَطبعة فقد سلّمتُ فيه أمرِيَ إلى الله (ولم يَنفعني في ذلك إلاّ ذلك). وأمّا النصفُ الثاني الذي كان معي فقد كنتُ – بعد اتّكالي على الله وتسليمِ الأمر في كل شيءٍ إليه وحْدَه من قبلُ ومن بعدُ – أحْرِصُ عليه أكثَرَ من حِرصي على كلِّ شيءٍ آخَرَ: تَرَكْتُ بَيْتي ثلاثةَ أشهُرٍ، فكانتْ «بقيّةُ ذلك الجزءِ» معي. وكنتُ إذا نَزَلتُ (في أثناءِ القَصْف إلى الملجأ – أو ما كان يُسمّى ملجأً) أخذتُ هذه البقيةَ معي (لا أريدُ أنّ أقولَ أنا لك سَبَبَ ذلك، ولعلّك تُدْرِكُ سببَ ذلك.

وغادرتُ بيروتَ إلى الجبل فكانت بقيةُ هذا الجزء معي في السيّارة إلى جانبي (بينما كان هنالك أغراضٌ كثيرةٌ في صُندوق السيّارة). – ولم يَحْفَظْني ويحفَظْ هذه البقيّةَ إلاّ اللهُ.

كنتُ دائماً أقولُ في نفسي: لو تَلِفَتْ هذه البقيّةُ من الجزءِ السادسِ، فماذا يكونُ مصيرُ السِّلسلةِ – وَهِيَ مبتورةٌ من آخِرِها؟ – . ولكّن اللهَ سَلَّمَ.

وفي خِتام هذه الكلمةِ أحمَدُ الله على أنْ تفضّلَ عليّ - إلى جانبِ أفضالهِ الكثيرة - بإتمامِ هذه السِّلسلةِ على هذا الوجهِ، وأرجو أن أكونَ قد أدَّيْتُ بها رِسالةً أحبَبْتُ أنْ أُؤَدِّيَها: آستخراجَ صورةٍ وافيةٍ للأدبِ العربيّ، قدر الأمكان، مجموعةٍ في كِتابٍ واحد.

«ولا تَقولَنَّ لشَيْءٍ: إنّي فاعِلٌ ذلك غَداً، إلاّ أنْ يَشاءَ اللهُ»(★).

والحمدُ للهِ أوّلاً وآخِراً وبينَ ذلك كثيراً.

بيروت، الاربعاء

في الرابع من جمادى الأولى ١٤٠٣،

١٦/٢/١٩٨٣م.

ع.ف

(★) القرآن الكريم ١٨ (سورة الكهف) ٢٣.

★ إنّني الآن أحاول أن أضع تتمّة لهذه السلسلة في جزء واحد، أو أكثر من جزء واحد في الأغلب، بعنوان «معالم الأدب العربي في العصر الحديث» ولكنّي سأترك الحواشي الكثيرة التعقيد ثمّ استيفاء المصادر والمراجع (والحواشي الكثيرة التعقيد واستيفاء المصادر والمراجع كانا محتاجين إلى الجانب الأوفر من اعداد كلّ ترجمة) فعسى أن يعين الله على ذلك.

صورة العصر في المغرب والأندلس

- في أيام بني الأحمر -

سيكون هذا الفصل التمهيديُّ طويلًا جدًّا لطولِ المُدّة التي يحاول وصفَها في تلك البقاع الواسعةِ المترامية التي يجري فيها تاريخ هذه المدّة: من بَرْقَةَ شرقاً إلى شِنْقيطَ (موريتانيا: بلادِ البيضان) على البحر الأخضر أو بحرِ الظُّلُمات (المحيط الأطلسي) ثمّ من جبال البرانس (الفاصلة بين فرنسةَ وإسبانية) في الشَّمال إلى خطّ الاستواء (من قارّةِ إفريقيَة) جَنوباً[1].

دولة بني الأحمر (أو بني نصر)

في مَطْلعِ القرنِ السابع للهجْرة (الثالثَ عشَرَ للميلادِ) كان لا يزَال في الأندلس - إلى جانب الحُكْمِ المُوَحِّديّ - ظلٌّ من الحكم المَحَلّي لبني غانيةَ في الجزائرِ

---

(١) كان تحقيق الأسماء (أسماء الأشخاص وأسماء القبائل والبلاد - وخصوصاً فيما يتعلّق بالمغرب ثمّ ببلاد السودان الغربي على الأخص) صعباً جدًّا: كنت أوَدّ أن أصل إلى اللفظ المحليّ معَ إثبات اللفظ المعرّب أيضاً. لقدِ آعتمدت «تاريخ السودان» (السودان الغربي) لعبد الرحمن بن عبد الله السعدي (أنجي ١٨٩٨ م) وتاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس لمحمود كعت بن الحاج المتوكل كعت التنبكتي (باريس ١٩٦٤ م).
ولقد كنت اجتهدت في تحقيق هذه الأسماء بالرجوع إلى عدد من المراجع العربية والأجنبية (كدائرة المعارف الإسلامية) ثمّ اتّفق أن لقِيت نفراً من الأصدقاء فصحّحوا لي عدداً من الأسماء. ولقد أحببت ألا أذكرَ أسماءهم كيلا يُنسبَ ما بقي من الأسماء بلا تحقيق إلى تساهلهم. وبعد، فإنّني قدِ آعتمدت في ذلك كلّه آجتهادي، راجياً ألا يكون الخطأ في ذلك كثيراً. وسأكون شاكراً لكلّ من يتفضّل فينبّهني إلى تصحيح ما بقي من خطأ، في هذا الباب وفي غيره أيضاً.

الشرقية (جزائر البِليار: مَيورقة ومِنورقة ويابسة) ولبني مَرْدانيشَ في شرقيّ الأندلس.

ولمّا ضَعُفَ الموّحدون في المَغرب جعل وُلاتُهم في الأندلس يَتنازعون، فثارَ عليهم مُحمّدُ بنُ يوسفَ بنِ هودٍ (من أعقابِ بني هود ملوكِ الطوائف في سَرَقُسْطَةَ) ودخل مدينَةَ مُرْسِيَةَ (٦٢٥ هـ = ١٢٢٧ م) ثمّ آمتدّ سُلطانُه، في جَنوبيّ الأندلس، على شاطبةَ وقُرْطُبَةَ وإشبيلية وجبلِ طارقٍ ثمّ على مرفأ سَبْتَةَ في المغرب.

وتَصَدّى لمُنافسة مُحمّدِ بنِ يوسفَ بنِ هودٍ على حُكْمِ بقايا الأندلس رجلٌ من قُرْطُبَةَ آسمُهُ مُحمّدُ بنُ يوسفَ بنِ نَصْرٍ (بنِ الأحمر) بعدَ أنِ آسْتَبدّ بحُكمِ غَرْناطَةَ (٦٢٩ هـ = ١٢٣٢ م). ثمّ آشتدّتِ المُنافسةُ بينَ الرجلين وجعل كلّ واحدٍ منهما يَسْتَنْجِدُ بالطاغيةِ (فرديناند الثالث ملك قشتالة) ويَبْذُلُ له الحصونَ والمُدُنَ الإسلامية حتّى يُعينَه على خصمه. وفي كلّ مرّة كانتْ أرضُ المسلمين في الأندلس تتقلّص من غيرِ أنْ يستفيدَ المتنافسانِ شيئاً. ولجأ آبنُ الأحمر مرّةً إلى فرديناندَ الثالثِ لِيُعينَه على ثائرٍ صغيرٍ في إشبيليةَ، ثمّ سار آبنُ الأحمر وفردينانْدُ لحِصارِ إشبيلية. وبعدَ عامين سقطتْ إشبيليةُ ولكنْ في يدِ فرديناندَ لا في يدِ آبنِ الأحمر (٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م).

وجازَ يعقوبُ المنصورُ المرينيُّ إلى الأندلس مراراً وحارب الإسبانَ وآنتصرَ عليهم، وكان في كلّ مرّة يتركُ الغنائمَ والأسلابَ لبني الأحمر ليَقْوَوْا بها على أعدائهم. ولكنّ بني الأحمر كانوا قليلي الوفاءِ لبني مَرينٍ قصيري النظر في ما يتعلّق بالصالح لهم، فكانوا مرّة يتآمرون مَعَ الطاغيةِ على بني مَرين ومرّة يُحَرّضون الدُويلاتِ البربرية في المغرب ويساعدونها على قتال بني مرين. ومَعَ ذلك فقدِ آنتصر يعقوبُ المنصور المرينيّ على الإسبانِ في مُعْظَمِ المعاركِ التي خاضها في الأندلس. وبلغتْ مَهابةُ يَعقوبَ المنصورِ المرينيّ في قلوبِ الإسبانِ إلى (أنْ طَلَبَ شانجُه الرابعُ ملكُ قشتالةَ من المنصور عَقْدَ معاهدةٍ للصُلْح. فعُقِدَتِ المعاهدةُ على ما أملاهُ المنصورُ المرينيّ. وبعدَ عقدِ الصُلح حضَرَ شانجه الرابعُ بنفسه وقابل المنصور المريني على مَقْرُبَةٍ من وادي لَكُّه (في جَنوبيّ الأندلس) وأراد أنْ يقدّم إلى المنصور هديّةً، فطلب المنصور منه «كُتُبَ الإسلامِ التي

كان الإسبانُ يَسْتَوْلونَ عليها عند آستيلائِهم على المُدُنِ الإسلامية. فَبَعَثَ شانجُه إلى المنصور قَدْراً عظيماً من تلك الكتبِ وعَدَداً مُهِمًّا من المَصاحف الكريمة. فنَقَلَ المنصورَ هذه الكتبَ والمصاحفَ إلى مدينةِ فاس ووَقَفَها على طَلَبَةِ العلم».

وبرُغْمِ العداوةِ التي كان بنو الأحمر يُضْمِرونها ويُظْهِرونها لبني مرينٍ، فإنّ بني مرينٍ لم ينقطعوا عن الجواز إلى الأندلُس والدفاع عن المسلمين. وفي سَنَةِ ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) جاز أبو الحَسَن المريني إلى الأندلس، ولكنّ القشتاليّين والبرتغاليّين آجتمعوا على حربِ المسلمين في مَعْركَةٍ قُرْبَ مَصَبِّ نهر سالادو على المُحيط الأطلسي وهزموهم. وبعدَ أن آستولى ألفونسُ الحادي عَشَرَ ملكُ قشتالةَ على عددٍ من المدن الإسلامية مَنَحَ أبا الحجّاجِ يوسُفَ المؤيَّدَ بالله مَلِكَ غَرْناطةَ هُدْنَةً مَداها عَشْرُ سَنَواتٍ.

كلُّ هذا وبنو الأحمر في غَرناطَة يتنازعون فيما بينَهم ويُعادون بني مَرينٍ ويُوالون الإسبان حيناً بعدَ حينٍ. ولم يستطعِ الإسبانُ أنْ يَسْتَوْلوا على ما بَقِيَ في يد المسلمين من الأندلس لأنّهم هم أيضاً كانوا في هذهِ الحِقْبة مُختلفينَ فيما بينهم، فقد كانتْ أُسرةُ أرغونَ تُحاربُ أُسرةَ قشتالة. ولكنْ في عام ١٤٦٩ م (٨٧٣ - ٨٧٤ هـ) تزوّجَ فرديناندُ الخامسُ ملكُ أرغونَ إيسابلَ أُختَ هنري الرابعِ ملكِ قشتالة. وتوفّيَ هنري الرابع (١٤٧٤ م) وخلّف آبنةً قاصرةً فنُصِبَتْ إيسابل على العرش فآتّحد بذلك عَرشُ أرغونَ وعرشُ قشتالة.

زالَ الخِلافُ الذي كان بين أُسْرةِ أرغونَ وأُسرة قشتالة فسارت إيسابلُ على رأسِ جيشٍ وحاصرتْ غَرْناطةَ بنفسِها - وكان ملوكُ غَرْناطَة لا يزالونَ متخاصمين يَكيدُ بعضُهم لبعضٍ. وجاء شتاءٌ قاسٍ، وضيّق الإسبان الحِصار على غَرْناطة - ولم يكنْ قد بَقِيَ للمسلمين من جميعِ مُلْكِ الأندلسِ سِواها - فآضْطُرّ أهلُها إلى الآستِسْلامِ (٨٩٧ هـ = ١٤٩١ م) على أنْ يَبْقى من أهل غَرْناطة في غَرْناطة مَنْ شاءَ وأن يَخْرُجَ منها من شاء. وكان في معاهدةِ الآستسلامِ سبعةٌ وسِتّونَ شرطاً لم يَفِ الإسبانُ للمسلمين بشَرْطٍ منها.

***للمقارنة بالأُسَر الحاكمة في المشرق القريب

- في بلاد الروم (آسية الصغرى: في أماكن مختلفة منها):
السلاجقة التُّرك ٤٦٤ - ٨٨٨هـ (١٠٧٢ - ١٤٨٣ م).
- في مصر:
بقايا من الأيوبيّين ٥٦٤ - ٦٥٠ هـ (١١٦٨ - ١٢٥٢ م)
المماليك البحرية ٦٤٨ - ٧٩٢ هـ (١٢٥٠ - ١٣٩٠)
المماليك البُرجيّة ٧٨٤ - ٩٢٢ هـ (١٣٨٢ - ١٥١٦ م)
- في الشام (سورية):
الباطنّيون (الإسماعيلية- جبال النُصيرية: في الغرب)
٥٥٧ - ٦٧١ هـ (١١٦٢ - ١٢٧٢ م)
بقايا من الأيوبيّين في مدن مختلفة (في الشّمال خاصّة)
٥٧٤ - ٩٣٠ هـ (١١٧٨ - ١٥٢٤ م)
- في اليمن (في أماكن مختلفة من جَنوبيّ شبه جزيرة العرب):
٥٩٣ - ٩٢٣ هـ (١١٩٧ - ١٥١٧ م)

بنو عُثمانَ (الأتراك العثمانيّون)

في بلاد الروم (آسية الصغرى) ٦٩٩ هـ (١٢٩٩م) وما بعد.
فتح القُسطنطينية ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م)
الفتح العثماني في المشرق ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م)
الحكم العثماني في الجزائر ٩٣١ هـ (١٥٢٤ م).

الصورة السياسيّة في أيام بني نصر (بني الأحمر) في غرناطة:

بنو مرين (من زناتة) في فاس	٥٩٢ - ٩٥٧ هـ (١١٩٦ - ١٥٥٠ م)
بنو هود في مرسية	٦٢٠ - ٦٦٨ هـ (١٢٢٣ - ١٢٧٠ م)
بنو حفص في تونس	٦٢٥ - ٩٨١ هـ (١٢٢٨ - ١٥٧٣ م)
بنو نصر في غرناطة	٦٢٩ - ٨٩٧ هـ (١٢٣١ - ١٤٩٢ م)
بنو زيّان بن عبد الواحد بتلمسان	٦٣٣ - ٩٥٧ هـ (١٢٣٥ - ١٥٥٠ م)
بنو مزني في بسكرة (الجزائر)	٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) وما بعد.

الحفصيّون في تونس

كان الحفصيّون فرعاً من الموحدين، وهم يَنتسِبون إلى أبي حفصٍ يحيى بنِ عُمَرَ الهِنتاتيّ. وكان أبو حفصٍ هذا من الأنصارِ الأقوياء الذين ثَبّتوا حُكْمَ الموّحدين في المغرب. ثمّ إنّ الناصرَ المُوحّدي نَصَبَ أبا محمّدٍ عبدَ الواحدِ الحَفَصيّ، سَنَةَ ٦٠٣ (١٢٠٧ م) نائباً عنه في مدينة تُونسَ. وكانتْ هذه النِيابة وِراثيةً في الحفصيّين.

ولّما جاء إلى نِيابةِ تُونسَ، سَنَةَ (١٢٢٧ م)، ٦٢٦ هـ، أبو زكريّا يحيى بنُ عبد الواحدِ، كان الموحّدون في مَرّاكُشَ قد ضَعُفوا ونشأ إلى جانبهم بنو مَرينِ الذين جعلوا ينافسونهم على حُكمِ المغرب. فٱنتهزَ أبو زكريا يحيى بنُ عبد الواحدِ الفُرصَةَ وأعلنَ

آستقلالَه بالقُطر التُونسي. واستطاعَ أبو زكريا أن يَمُدَّ مُلكَه إلى القُطر الجزائريّ (حتّى مدينتَيِ الجزائرِ وتِلِمْسانَ) وإلى القُطر المغربي (حتّى سِجِلْماسَةَ ومِكْناسَة وسَبْتَةَ وطَنْجة). وكذلك كان أبو زكريا حاكماً عُمرانيًّا بنى القَصْر في القَصَبة (المدينة الداخلية: القلعة) وبنى سوقَ العطّارين (مركزَ الحياةِ الآقتصادية في مدينةِ تُونسَ) وبنى المساجدَ فآزدهرَ القُطر التونسيّ في أيامِه آقتصادياً وعُمرانياً وثقافياً. وبنى أبو زكريا هذا مكتبةً ضمّت، فيما قِيلَ، سِتّةً وثلاثينَ ألفَ كتابٍ.

وجاءَ بعدَ أبي زكريا آبنُه محمّدٌ المُستنصرُ بالله (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ)، وعُمُرُهُ نحوَ عِشرينَ سَنَةً، فنازعه العَرشَ آبنُ عمّهِ اللحْيانيُّ ثمّ خَلَصَ العَرْشُ للمستنصر. ولكن في آخرِ سَنَةِ ٦٦٨ (١١٧٠ م) هَاجم مَلِكُ فرنسةَ لويسُ التاسعُ - الملقَّب: القدّيسَ لويسَ - شَماليَّ تُونِسَ بأربعينَ ألفَ جُنديٍّ فطالتِ الحربُ بين المَلِكين سِجالاً نحوَ سِتّةِ أشْهُر. ثمّ فشا الطاعونُ في تُونِسَ وآمتدّ إلى الجيشِ الفرنسيّ فهَلَكَ فيه خلقٌ عظيمٌ فِيهِمُ المَلِكُ لويسُ نفسهُ. فآضطُرَّتْ فرنسةُ إلى سَحْبِ جيوشِها وعَقْدِ الصُلح ودَفْعِ غَرامةٍ كبيرةٍ لتونسَ. وزادتِ الحضارةُ في أيام المستنصرِ بالله هذا حتّى بلغتْ إلى التَرَفِ، فكان هذا الترفُ إيذاناً بالسقوط في التقهقر.

غَرِقَتْ تُونسُ في النزاعِ على العَرْش وفي الفِتَنِ زَمَناً طويلًا، من سَنَةِ ٦٧٦ إلى سَنَةِ ٧٩٦ (١٢٧٧ - ١٣٩٣ م). ثمّ جاء إلى عرشِ الحَفْصيّين في تونسَ أبو فارسٍ عزّوزُ (عبدُ العزيز) بنُ أحمدَ (٧٩٦ - ٨٣٧ هـ) فآستردّتْ تونسُ هدوءها ومكانَتَها وقُوّتَها وآزدهارَها. ولكنّ المرينيّين أصحابَ مَرّاكُشَ ناجزوه القِتال فآستطاعَ أنْ يَتَغلَّبَ عليهم ويتوغّلَ في المغرب حتّى وَصَل إلى مدينةِ فاس، فجَنَح المرينيّون إلى الصلح. وكان لعزّوزٍ هيبةٌ وسُلطةٌ فعَظُمتْ مكانَتُه في أقطارِ المَغْرب وفي الأندلس أيضاً. وكان عزّوزٌ عمرانيًّا فمكّنَتْه ثروةُ تونسَ يومَذاك من إقامة القِلاع والمُسْتشفياتِ والمكتبات. غيرَ أنّ الدولةَ الحفصيّة كانت قد هَرِمَتْ بالنِزاعِ الداخليّ وبالترفِ وبالزمَنِ أيضاً وزادَ طَمَعُ الإسبانِ فيها فهيّأ اللهُ لها مجاهدَيْنِ هما خيرُ الدين وأخوه عَروجٌ العثمانيّان فدفَعوا عنها خَطَرَ القَراصنة الأوروبيّين[1].

(١) القراصنة: لصوص البحر. والقرصنة قديمة جدّا عُرفت في أيام الفينيقيين (أو الكنعانيّين) الذين =

ثم زاد هذا الخطرُ كثيراً فٱستنجد أهل الشَّمال الإفريقيّ بالدولة العثمانية.

بنو مرين:

إنّ الحفصيّين خَلَفوا الموحّدين في تونسَ بالسِلْم، أما المرينيّون فقدِ انتزعوا الحُكم من الموحّدين بالحرب. بدأتْ دولةُ بني مرينٍ بالاستيلاء على مدينةِ فاس ثمّ على مدينة مَرّاكُشَ في آخرِ ذي الحِجّة من سَنَةِ ٦٦٧ (١٢٦٩/٨/٣٠ م). ولكن القتالَ لم يهدأْ في المغرب، فإنّ دولةَ الموحّدين لم تَنْقَرِضْ إلّا في سَنَةِ ٦٧٤ (١٢٧٥ م) ثمّ إنّ القتالَ ظلّ دائراً بين المرينيّين وخصومِهم من الطامعين بالمُلك في أقطارِ المغرب المختلفة.

يَرْجِعُ الفضلُ في نشأة دولةِ بني مَرينٍ إلى السُلطان يعقوبَ بنِ عبدِ الحقّ (٦٥٦ - ٦٨٥ هـ) وكان قديراً حازماً لم تقتصرْ جُهوده على توحيدِ المغرب، بلِ ٱمتدّتْ جهودُه إلى مساعدةِ أهلِ الأندلسِ أيضاً، فقد جاز إلى الأندلس أربعَ مرّاتٍ في نحوِ عَشْرِ سَنَواتِ (٦٧٤ - ٦٨٤ هـ) وٱستطاع أن يَهْزِمَ الإسبانَ ويدفَعَ عن مُسلمي الأندلس شرًّا كثيراً. ولم يكنِ النصارى الإسبان وحدَهم أعداءً للسُلطان المَريني، بل كان بنو الأحمرِ المُسلمينَ يخافون على مُلْكِهِمُ الصغيرِ من المرينيّين فكانوا في أكثرِ الأحيانِ يُمالئون المَلِكَ النَصْرانيَّ على السُلطان المُسلم. ولكنّ الإسبانَ ٱضطرّوا بعدَ هزائِمِهِمُ المُتواليةِ إلى طلَب الصلح فعقد المنصورُ المَريني مَعَهم صُلْحاً وأخذ فيما أخذَه في مُقابلِ هذا الصلح أحمالاً من كتب العلمِ التي كان نصارى الأندلس قد سلبوها من

= كانت لهم سفن تطوف في البحار. وعرفها الإغريق (قدماء اليونان - وقد ورد ذكرها في الأوذيسة، وهي ملحمة منسوبة مع أختها الإلياذة إلى هوميروس من أحياء القرن التاسع قبل الميلاد). وقد بقيت هذه «اللصوصية» إلى العصر الحديث.

كان القراصنة جماعة من المغامرين يسطون على السفن وعلى الشواطىء للسلب والنهب. وربّما قتلوا، وربّما دمّروا أيضاً. ومعَ أن نفراً من هؤلاء كانوا يقومون بمثل هذا العمل بدافع شخصيّ، فإنّ عدداً من الدول الأوروبيّة في العصر الحديث (إنكلترة وفرنسة وهولندة وإسبانية والبرتقال وإيطالية) كان يستخدم هؤلاء في مهاجمة سفن المسلمين وفي الاعتداء على الشواطىء الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط (وخصوصاً في الحوض الغربي منه) وعلى الشواطىء الشرقية من المحيط الأطلسيّ (سواحل المغرب). وكانت حركة عروج وأخيه خير الدين بربروسّا ردًّا على القرصنة الأوروبيّة للدفاع عن مراكب المسلمين وعن البلاد الإسلامية.

المدن الإسلامية. وكان عهدُ المنصور المَرينيّ عهدَ قوّةٍ وآزدهارٍ آقتصاديٍّ وثقافيّ أيضاً.

وتُوفي المنصورُ المَريني في الثاني والعِشرين من المُحرّم من سَنَةِ ٦٨٥ (١٢٨٦/٣/٢٠ م). فخلَفه آبنُه يوسُفُ الملقّب بالناصر. فعاد الإسبان وبنو الأحمرِ إلى المُقاومة. ولكنّ الناصرَ آستطاعَ أن ينتصر على الإسبان، سَنَةَ ٦٩١ (١٢٩٢ م) في مَعْرَكَةٍ بحريةٍ آنتصاراً باهراً. وكذلك ثار على الناصرِ نفرٌ من الناقمين في المغرب نفسِه وآستعانوا باليهود الساكنين في المغرب، فتغلّبَ الناصر على هؤلاءِ جميعاً. ولكنّ الناصرَ لم يَنْجُ من المؤامراتِ فقدِ آغتالَه أحدُ خِصيانِه، سَنَةَ ٧٠٦ (١٣٠٦ م).

وآمتدّ بعدَ الناصرِ عصرٌ من الضَّعف طويلٌ. ومَعَ أن السُلطانَ أبا الحسنِ عليَّ بنَ عُثمانَ (٧٣١ - ٧٥٢ هـ) يُعَدّ في السلاطين الأقوياء الحازمين، فإنّ أيامَ حكمِه الطويلةَ كانتْ مملوءةً بالقلاقل الداخلية والخارجية. ولم يَعْرِفِ المغربُ آنذاك عِزّةً صحيحةً وآزدهاراً مُستقراً إلاّ في أيام أبي عِنانٍ فارسٍ.

أبو عنان

أشهر سلاطينِ بني مرينِ المتأخرين أبو عِنانٍ فارسُ بنُ الحسنِ (٧٥٢ - ٧٥٩ هـ)، فإنّه لمّا آستتبّ له الأمرُ آستردّ تِلِمْسانَ (٧٥٣ هـ) من يدِ سُلطانِها أبي سعيدٍ الزّيّانيّ أحدِ بني عبدِ الواد[1] الذين كانوا قد نازعوا بني مرينٍ على جانبٍ من المَغرب، ثمّ قتله. وصمد[2] أبو ثابتٍ الزعيمُ بنُ عبدِ الرحمن، بعدَ أبي سعيدٍ الزناتيّ، لبني مرينٍ ولكنّ أبا عِنانٍ هزمه فتمّتْ سيادةُ بني مرينٍ على المغرب الأوسط (القُطر الجزائري).

وكذلك آستولى أبو عنانٍ على جانبٍ من إفريقيَة (المَغْرب الأدنى - القطر التونسي). ثمّ إنّ عهدَ أبي عنانٍ في المُلك كان عهداً آستبحرتْ فيه الحَضارةُ وآتّسعَ

(١) في إحدى زوراتي للجزائر لحضور عدد من ملتقيات الفكر الإسلامي سألت عن هذا الاسم «عبد الواد». وقد قال لي مرّة الشيخ سليمان داوود بن يوسف - وهو من أفاضل المؤرّخين ومن علماء الأباضية - أن المفروض أن يكون أصل هذا الاسم «عبد الواحد». غير أنّه لم يشأ أن يقطع في ذلك.

(٢) صمد: قصد، هاجم (والعامّة يستعملون هذا الفعل بمعنى «ثبت»).

العلمُ وعمّ العُمرانُ وآرتقتِ الثقافة، فقد بنى أبو عنانٍ المدارسَ والزوايا - وآشتهرتِ المدرسة البوعنانية في فاسَ بما كان فيها من آثارِ العُمران والزُخْرُف وبما ضمّتْ من الطلّاب ومن مجاميع الكتب. ويكفيه فخراً أن العلّامَة عبدَ الرحمنِ بنَ خَلْدونٍ آختار أنْ يَنْزِلَ عنده لمّا بارح بلدَهُ تونسَ. ثمّ كتب «مقدّمته» الشهيرةَ وقدّمها إليه.

غيرَ أنّ كلَّ هذا الإحسانِ لم يُنْقِذْ أبا عِنانٍ من يدِ الطُغيان فقد قتله وزيرُه الحسنُ بنُ عُمَرَ الفودوديُّ (٧٥٩ هـ = ١٣٥٨ م).

بنو وطّاس

في ذلك الحينِ لم تكُنِ الحدود ثابتةً بين القُطر الجزائريّ والقُطر المَغْربي (المغرب الأقصى). وكذلك لم يخلُصِ الحُكم في المغرب لبني مَرينٍ، فقدِ آستبدّ بنو عبدِ الواد (عبدِ الواحدِ؟)[1] - وهم فَرْعٌ من بني زَيّان - بالحُكم في تِلِمْسانَ (٦٣٣ - ٧١٨ هـ) ثمّ عاد الحُكم في تلمسان إلى المَرينيّين مُدّةً. ثمّ عاد فرعٌ آخرُ من بني زَيّان إلى الحكم، سَنَةَ ٧٦٠ (١٣٥٩ م).

ولمّا انقرضتْ دولة بني مرين عاد الأمر كلُّه إلى فرعٍ من بني مرينٍ يعرفون ببني وطّاس. ولم يكن في أيام بني وطّاسٍ سِوى النزاع الداخلي الذي فَسَحَ المجالَ أمامَ البرتغاليّين للاستيلاء على مُعْظَمِ شواطىءِ المغرب. لقد بلغ المغرب في أيام الدولة الوطّاسية دَرْكَ النِزاع والفساد. وفي سَنة ٨٩٧ (١٤٩٢ م) سقطتْ غَرْناطةُ آخرُ بلادِ المُسلمين في الأندلس، فانتقلَ جماعاتٌ من المسلمين من الأندلس إلى المغرب.

وعاشت الدولة الوطّاسية - مَعَ كلّ ما كان فيها من القلاقل والفِتَنِ - إلى سَنَةِ ٩٦١ (١٥٥٤ م) لما انبسط الحكم العُثماني على الجزائر.

القطر الجزائري

كلُّ بلادٍ تؤلّفُ دولةً تَتْبَعُ في آسمها وفي إدارتها كُرسِيَّ (العاصمة) فيها. وبما أن

---

(١) راجع، فوق، الصفحة السابقة، الحاشية الأولى.

الأقطار المَغْربية كان فيها كُرْسِيّان للحكم (عاصمتان) إحداهُما مدينةُ تُونِسَ في المغرب الأدنى (القُطر التونسي) والثانيةُ منهما مَرّاكُشُ في المغرب الأقصى، فإنّ القُطرَ الجزائري كان، في الواقع، مقسوماً بين تَيْنِكَ العاصمتين، ولم يكنْ في القطر الجزائريّ دولةٌ عامّة - برُغْمِ ما نشأ فيه، بينَ الحينِ والحين، من الدُويلاتِ الخاصّة - مرّةً تزيدُ حُصّةُ تونس منه ومرّة تزيدُ حصّة مَرّاكُشَ.

من أجل ذلك كانت أقسامٌ مختلفةٌ من القطر الجزائريّ تتْبَعُ مرّةً حكم الحَفْصيّين في تونسَ ومرّةً حُكْمَ المَرينيّين في مَرّاكُش.

ومَعَ أنّ اعتداءَ الإفرِنْجِ (من الإيطاليّين والفرنسيّين والإنكليز وغيرِهم) كان كثيراً على طولِ الشواطىء المغربية، فإن شواطىءَ القُطر الجزائري نالَها من ذلك الاعتداء نصيبٌ أكبرُ لوقوعِ القُطر الجزائريّ في وَسَطِ تلك الشواطىء.

ولقد شاركَ أبناءُ القُطر الجزائريّ في هزيمةِ الحَمْلة الصليبية التي قادَها القدّيسُ لويسُ على قَرْطاجَة (شَمالِيَّ مدينةِ تونس) مُشاركةً فعّالة، سَنَةَ ٦٦٩ (١٢٧٠ م).

وعانتْ شواطىءُ القُطر الجزائري من القَرْصنة الأُوروبيّة شرًّا كثيراً. وكان القراصنة الأوروبيّون يُغيرون على الشواطىء ويَخْطَفون الذين يتّفق وجودُهم هناك. كان القَراصنةُ يَحْمِلون أولئك المخطوفين إلى أقطارِ أوروبَة ويبيعونهم رقيقاً مُستَعْبَدين. ولم يكنِ في القَرْصنة عُنصرٌ اقتصاديٌّ تِجاريّ فحَسْبُ، بل كان فيه عنصرٌ دينيّ صليبيّ أيضاً. ولما طالَ شرُّ القرصنة على الشواطىء من القُطر التونسي خاصةً، نشأتْ هنالك حركةٌ إسلاميةٌ للجهاد تولاها المجاهدان العُثمانيان خيرُ الدينِ وأخوه عَروجُ. والقرصنة الأوروبية لم تكن مشاريعَ فرديةً شعبيةً، بل كانتْ حَرَكَةً دوليةً جَماعيةً ولكن يتولاها في الظاهر أفرادٌ. إن الدُوَلَ الأوروبية (إيطالية وإسبانية والبرتغال خاصة) كانتْ بينَ الحينِ والحين، حينما تستطيعُ، تحتلُّ عدداً من المدن الساحلية في القُطر التونسي أو القُطر المغربي أوِ القطر الجزائري. وفي سَنَةِ ٩١٠ (١٥٠٤ م) احتلَّ الإسبانُ المَرسى الكبيرَ في وَهْرانَ. ولم يَبْقَ الجِهادُ الفرديُّ قادراً على أنْ يدفَعَ الاعتداءَ الدوليَّ، فاستَنْجَدَ أهلُ الجزائرِ بالعُثمانيين فجاء العثمانيون

لِنَجْدَتِهِمْ وبدأوا في المَغْرب حُكْماً إدارياً امتدّ فيما بعدُ إلى تُونسَ ولكنْ لم يَصِلْ إلى المَغْربِ الأقصى.

أما على الصعيدِ الداخليّ فإنّ زَيّانَ بنَ أبي حَمّو الثاني تَولّى تِلمْسانَ سَنَةَ ٧٩٦ (١٣٩٣ م) وقطَع دعوةَ المَرينيين. من ذلك الحينِ يمكنُ أن يُقال إن جانباً من الجزائر قد أصبحَ له شكلٌ دوليٌّ خاصٌّ. هذا الشكلُ الدوليُّ الخاصّ الذي نشأ في تِلمْسانَ، بعيداً عن الساحل، استمرَ مدةً إلى ما بعدَ الحُكمِ العُثماني.

ليبيا

كان تاريخُ ليبيا، في هذه الحِقبة، منذ ٧٢٤ هـ = ١٣٢٤ م، يدور حول طرابُلُس الغرب في الأكثر. ولقد تولّى طرابلسَ بنو ثابتِ بنِ عمّارٍ غيرَ مستقلّين بها لأنّ الحَفْصيّين والمَرينيّين والإفرنجَ كانوا يتنازعونها ويتداوَلون الحُكمَ عليها. ولم يكن في مقدورِ وُلاتِها من بني عَمّارٍ أكثرَ من أن يَرْضَوْا بالدولة التي تسيطر عليهم أو أن يستظهروا بالعرب (البدو) على مقاومة الدول مقاومةً محدودة.

وفي سَنَةِ ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) استولى تُجّارُ جَنَوَةَ الإيطاليّون على طرابلسِ الغربِ فتكاتف على افتدائها نفرٌ من السلاطين والأمراء والناس منهم أبو عِنانٍ المَرينيُّ المشهور، ومنهم أبو العبّاس أحمدُ بنُ مكّيٍ صاحبُ قابسَ (وقابس مدينةٌ ساحليةٌ في جَنوبيّ القُطر التونُسي) وبعضُ أهل الحامَةِ والجَريد (في جَنوبيّ القطر التونُسي أيضاً).

ومَعَ أنّ آلَ ثابتِ بنِ عمّارٍ كانوا في أواخرِ أيامهم خاضعين للدولة الحفصية في تُونِسَ، فقد أدركَ أبو فارسٍ عَزّوزٌ (عبدُ العزيز الحفصي) أنّ آلَ عمّارٍ ليسوا قادرين على حِماية طرابلسَ من الإفرِنْجِ فسار إليها واستولى عليها فانقرضتْ بذلك وِلايةُ بني عمّارِ بنِ ثابتٍ (٨٠٣ هـ = ١٤٠١ م).

ولَمّا بدأ الضّعْفُ يَدِبّ في الدولة الحفصيّة عادتِ القلاقلُ إلى طرابُلُسَ فَطَمِعَ الإسبانيّون بها وآستولَوْا عليها (٩١٦ هـ = ١٥١٠ م). وآضطربت الأمورُ في ليبيا حتى أنقذها الحكمُ العثمانيُّ، سَنَةَ ٩٥٨ = ١٥٥١ م، من ذلك الآضطراب.

السودان الغربي (أو المغربي)(★)

السُّودانُ هو المِنْطَقة المُمتدّة في قارّة إفريقية (جَنوبَ مِصْرَ وليبيا والقُطْرِ الجزائريّ والقطر المَغْربي) من البحرِ الأحمرِ شرقاً إلى بحر الظُّلُمات (المحيط الأطلسي: الأطلنطيقي) غرباً. وهذه المِنطقة تقعُ، عِنْدَ الجُغْرافيّينَ العربِ، شَمالَ خطِّ ٱلاَستواء، ذلك لأنّ قُدماءَ الجغرافيين مُنْذُ أيام اليونان قد ظنّوا أنّ ما وراءَ (جَنوبَ) خطّ الاَستواء بِحارٌ أو قِفارٌ أو غاباتٌ كثيفةٌ تَمْلأُها الوُحوشُ الضاريةُ والهوامُّ المُهْلكة، وأنّها لا تَصْلُحُ لسُكْنى البَشَر.

ولمّا قَسَمَ القُدَماءُ «الرُّبْعَ المَعْمورَ» (الجانبَ المَسْكونَ) من الأرض (ما بينَ خطّ الاَستواء والقُطْبِ الشَّماليّ) جعَلوه سبعةَ أقاليمَ (أوْ مُناخاتٍ) وجعَلوا السودانَ في الأَقليمين الأوّلِ والثاني وعدُّوهما «مُنْحَرِفَيْنِ عنِ ٱلاَعتدال» لِشدّةِ الحَرِّ فيهما، ثم لِقِلّة مُوافَقَتِها للسُّكنى ولِنَشْأة الحضارة.

وهذا السودانُ قِسمانِ شرقيٌّ وغربيٌّ. والقِسمُ الشرقيُّ منه يُعْرَفُ اليومَ بآسمِ السودانِ المِصريّ (بحُكم الجِوار) - وهُوَ جُمهوريّةُ السودانِ - وفي السودانِ الشرقيِّ كينيا (جنوبَ جمهوريّة السودان) وأوغندة وجانبٌ من حَوْضِ نهر الكونغو (وإن كانَ حَوْضُ نهرِ الكونغو أحقُّ أن يُنْسَبَ إلى أواسط إفريقية. ولا صلةَ كبيرةً له الآنَ ببحثِنا لأنّ الإسلامَ دَخَلَ إلى حوض الكونغو في زمنٍ متأخّرٍ عن العصرِ الذي نعالجه).

وأمّا القِسمُ الغَرْبيّ من السودانِ فيَمْتدُّ من الحدودِ الغربيةِ لجُمهوريّة السودان اليومَ إلى الشواطىءِ الواقعةِ على المُحيط الأطلسي من الغَرْبِ ومن الجَنوب. ويدخُلُ فيه (في السودانِ الغربي: غربيِّ إفريقية) شادُ وبلادُ النكّار (النيجرِ) ومالي والسّنغالُ وبلادُ غانَةَ وساحلُ العاج وما يُجاوِرُ هذه كلَّها من الأقسام السياسية الحديثة.

بدأ دخولُ الإسلامِ إلى السودانِ الغَرْبِي مُنْذُ القرنِ الرابعِ للهِجْرة (العاشر

(★) راجع الحاشية على الصفحة ٢٥ والمتعلّقة بضبط الأعلام الجغرافية وأسماء الأشخاص والقبائل في هذا الفصل، وخصوصاً فيما يتعلّق بالسودان الغربي.

للميلاد) من طريقِ التجّار المُتردّدين على المناطق المُختلفة. ثمّ زادَ آنتشارُ الإسلام مَعَ قيامِ حَرَكةِ المُرابطينَ في القرن التالي. ولقد كان لدولةِ المرابطين (٤٤٨ - ٥٤١ هـ) خاصّةً ثمّ لدولة المُوحّدين (٥٢٤ - ٦٦٧ هـ) أثرٌ كبيرٌ في آزدياد آنتشارِ الإسلام.

والبحث في جُغرافيّة السودانِ الغربيّ وتاريخِه مُعَقّدٌ جدًّا لأسبابٍ منها أسماء الأمكنةِ التي تَرِدُ على صُوَرٍ مختلفةٍ بآختلافِ لَهجات السُكّانِ الكثيرةِ. ثمّ إنّ هذه الأسماء قد تكونُ أحياناً أسماءَ قبائلَ. أضِفْ إلى ذلك كُلّه أن هذه الأسماء نفسَها لا تُطْلَقُ عادةً على أماكنَ مُتحَيِّزَةٍ، ذلك لأنّ مساكنَ القبائلِ تَتداخَلُ ثمّ تَتّسعُ وتضيقُ بحَسْبِ آمتدادِ سُلطةِ رُؤَساءِ القبائلِ أو تقلُّصِ تلك السُّلطةِ.

وبعدَ ذلك تأتي الرِواياتُ التاريخيّةُ المُتضاربةُ والمُختلطةُ بالخُرافاتِ وما تَنْساهُ الذاكرةُ الإنسانيةُ من الأحداثِ ثمّ ما تُضيفُه من الأحداثِ إلى ذلك القَصَصِ الشّعبيّ القائم على النَّقْلِ الشَّفَويّ من جيلٍ إلى جيلٍ.

ثمّ إنّ معالجةَ الحياةِ السياسية في السودانِ الغربيّ لا يُمكِنُ أن تكون على أساس الوَحَدات السياسية (الدُّوَل) التي نَعْهَدها في أيامنا، بل على أنها مِساحاتٌ من الأرض تضيقُ أو تَتّسِعُ بحَسْبِ قوّةِ المُتَغلّبين عليها من أرباب الأُسَر ورؤساء القبائل.

حوض النّكّار وحوض السنغال

يبدأ نهرُ النيلِ الغربيُّ (النّكّار)، تمييزاً له من نهرِ النيلِ الشرقيّ أو نيلِ مِصْرَ[١] من غربيّ إفريقيَةَ، مُتّجِهاً نحوَ الشّمال الشرقيّ حتّى يَصِلَ إلى نُقطةٍ عند طَرَف الغابات الآستوائية على الحدود الجَنوبية من الصحراء الكبرى، ثمّ يَعْطِفُ نحوَ الجَنوب ويَسْتمِرُّ على سَمْتهِ (في آتجاهه) إلى أن يَصُبَّ على مقرُبَةٍ من خليج فرنانـدوبو اليومَ.

وأما نهرُ السَّنَغال فيقَعُ في الطَرَفِ الجَنوبيّ الغربيّ من السودان المغربي: يبدأُ في مِنطقةِ فوتا جالون (بلاد فَوْتَ) ثمّ يَتّجِهُ شمالاً. وبعدَ آنحناءٍ شديدٍ يتّجهه غرباً ليصُبَّ

(١) في مقدّمة ابن خلدون (٥٤/٩٢): «.... ويسمّى نيل السودان، ويذهب إلى البحر المحيط فيصبّ فيه عند جزيرة أوليك (؟). وعلى هذا النيل مدينة سلا (قرب الرباط، في المغرب) وتكرور وغانة - وكلّها لهذا العهد في مملكة ملك مالي.

في بحر الظُلُمات (المحيطِ الأطلسي) شَمالَ العاصمةِ دكَارَ، عندَ بلدةٍ جديدةٍ هي سان لويس. ومَعَ أنّ كَلِمةَ تكرور تُطلَقَ، عِنْدَ المسلمين، على مُعْظَمِ السودان الغربي، فإنّها أكثرُ آنطباقاً على ذلك الجزءِ الغربيّ الذي يُسمّى بعضُه (على بحرِ الظلمات) «السنغال».

الإسلام في السودان الغربي

إنّ آنتشارَ الإسلامِ في السودان يَرْجِعُ إلى جُهود جماعة من البربر يحسن الكلام على نفر منهم هنا.

البربر أوِ السكّان الذين كانوا في المغرب عند الفتح الإسلامي قِسمانِ رئيسان: البرانس والبُتْر. ومن البرانسِ: صِنهاجةُ وكُتامَةُ. «وتحت صِنهاجَة قبائلُ كثيرةٌ تنتهي إلى السبعين منهم لَمْتونةُ وكَدّالةُ (بكاف معقودة) ومَسوفة..... وتحت هذه القبائـل بطونٌ وأفخاذٌ تَفوتُ الحصرَ...... ومن صِنهاجَة «المُلَثّمون».... ومَوْطِنُ هؤلاءِ المُلَثّمـين أرضُ الصحراءِ والرِّمـالُ الجَنوبيّـةُ فيما بينَ بلادِ البربر وبلادِ السودان.... وكان دينُ صِنهاجَة أهلِ اللِّثامِ المجوسيّةَ فدخلوا في الإسلام بعدَ فتحِ الأندلس (٩٢ للهجرة = ٧١١ م). وكانتِ الرِّئاسةُ فيهم لِلَمْتونةَ. وثَبَتَ مُلْكُ لمتونة وطال فجاهدوا أُمَمَ السودان ودَعَوْها إلى الإسلام، فدانَ بالإسلام كثيرٌ من أهل السودان.

ثمّ آفترقَ أمرُ لَمْتونةَ بعدَ ذلك وأصبحَ مُلْكُهم طوائفَ وأصبحتْ رئاستُهم شِيَعاً، مُدّةً من الزمن - نحوَ مِائةٍ وعِشرين سَنَةً - إلى أن قام فِيهِمُ الأميرُ أبو عبد الله محمّدُ بنُ تِيفاوُتَ المعروفُ بتاسَرْتَ اللَّمتونيُّ فآجتمعوا عليه وبايعوه.

ولمّا تُوُفّيَ محمّدُ بنُ تيفاوُتَ قامَ بأمرِ صِنهاجة يحيى بنُ إبراهيمَ الكَدّاليّ، وكان بنو صِنهاجة يسكُنون الصحراءَ التي تَليها من الجَنوب غاباتُ بلادِ السودان ويَلِيها من الغَرْب البحرُ المحيط. وكان آبْنُ تيفاوُتَ يُتابعُ الجِهادَ في بلادِ السودان للدفاعِ عن قبيلتهِ صِنهاجةَ ولِنَشْرِ الإسلام.

وفي سَنَةِ ٤٢٧ للهجرة (١٠٣٥ م) ذهب يحيى بنُ إبراهيم إلى الحجّ. ولَمّا رَجَع مرّ

بالقَيْروان فَلَقِيَ فيها أبا عِمرانَ موسى بنَ عيسى الغَفْجوميّ الفاسيّ. وخاطبه في أمر البربر الذين يَعيشون في جَنوبيّ المَغْرب وأنّهم لَيْسوا على علمٍ كافٍ بأمورِ الإسلام. فكَتَبَ أبو عِمرانَ رِسالةً إلى أحدِ أتباعهِ واجاجَ بن زَلْو[1] اللَّمطيّ (وكان يسكُنُ في بلدةِ نَفيسٍ، على مَقْرُبَةٍ من سِجِلْماسةَ - جَنوبَ جبالِ الأطلس عندَ الحُدود الشّمالية للصحراء) وأعطاها لِيَحْيى بنِ إبراهيم. فأشار واجاجُ على أحدِ طُلّابه عبدِ الله بنِ ياسينَ الجَزوليّ[2] بأنْ يُرافِقَ يحيى بنَ إبراهيم. وكان ذلك في رَجَبَ من سَنَةِ ٤٣٠ (ربيع عام ١٠٣٩ م)[3].

ورأى عبدُ الله بنُ ياسينَ أنّ أفضلَ الوسائلِ لِتَنْشِئَةِ جيلٍ يقومُ بالجِهاد ويَحْمِلُ الدَّعوةَ إلى الإسلام إقامةُ رِباطٍ (أو رباطةٍ) في نَهْرِ النيل الغربيّ (النيجَر) يربّي فيه أتباعَه تربيةً خالصةً مقطوعةً من مشاكلِ البِيئة الاجتماعية العامّة.

في هذه الأثناء تُوُفِّيَ يحيى بنُ إبراهيمَ الكدّاليُّ فاختارَ عبدُ الله بنُ ياسينَ من قبيلةِ لَمْتونَةَ أميراً على فروعِ قبيلةِ صِنهاجَةَ هو يحيى بنُ عُمَرَ اللَّمتونيُّ، وظلّ عبدُ الله بنُ ياسينَ صاحبَ دَعوةِ المرابطين (نسبةً إلى الرِباطة التي كان عبدُ الله بنُ ياسينَ قد أقامها في نهر النيل الغربي). غيرَ أنّ عبدَ الله بنَ ياسينَ كان في الحقيقة الحاكمَ الفِعْليَّ من وراءِ يَحْيى بنِ عُمَرَ.

وعبدُ الله بن ياسينَ لم يَكْتَفِ بالدعوة بالكَلِمَةِ الحَسَنة، بل جَعَلَ يُجاهِدُ قبائلَ البربرِ في جَنوبيّ المَغْربِ حتّى حملها جميعاً على الطاعة ونشّأها على الدين الخالص (السلوك الخالي من شوائب الوثنيّة) وجعلها قوّة سياسيّة مرهوبة الجانب.

ثمّ تُوُفِّيَ يحيى بنُ عُمَرَ اللَّمْتوني، سَنَةَ ٤٤٧ للهجرة فقدّمَ عبدُ اللهِ بنُ ياسينَ لرئاسةِ صِنهاجَةَ أخاً ليحيى بنِ عُمَرَ هو أبو بكرِ بنُ عُمَرَ، في المُحَرّمِ من سَنَةِ ٤٤٨ (أولِ أيامِ الربيع من عام ١٠٥٦ للميلاد).

---

(١) زَلو (بزاي ساكنة).

(٢) قبيلة كزولة (بكاف معقودة ساكنة، تلفظ كما يلفظ أهل القاهرة الجيم: جزولة). أما حركة هذه الجيم فتكون بالفتح (وهو أشهر) وتكون بالضم.

(٣) كانت وفاة أبي عمران الفاسيّ سنة ٤٣٠ هـ.

وفي سنة ٤٥١ للهجرة (١٠٥٩ م) تُوُفِّيَ عبدُ الله بنُ ياسينَ، ورأى أبو بكرِ بنِ عُمَرَ أنّ العِبءَ أثقلُ من أن يَحمِلَه رجلٌ واحدٌ فعَهِدَ إلى ٱبنِ عمٍّ له هو يوسفُ بنُ تاشفينَ بنِ إبراهيمَ اللَّمْتونيُّ وفوّضَ إليه جانباً من الأمر السياسيّ ومِنَ الجِهاد في قبائلِ البربرِ القريبةِ من شَمالِيِّ المَغْرب وبَقِيَ هو يُجاهِدَ في الجَنوبِ قريباً من بلادِ السودان. ولكن في ذي القَعْدةِ من سَنَةِ ٤٥٣ (مطلع عام ١٠٦١ م). نظّم يوسفُ بنُ تاشفينَ الجيشَ الذي كان بإمْرَتِهِ، وكان - كما بدا فيما بعد - يُريدُ الاستقلالَ بالحُكم. ولقد كانتْ رَغبةُ أبي بكرِ بنِ عُمَرَ في الجِهاد والدعوةِ في بلادِ السودان أكبرَ عندَه من الرَّغبة في الحُكْم السياسيّ، فلم يُقاوِمْ عَمَلَ يوسُفَ بنِ تاشفين.

وظلّ أبو بكرِ بنُ عُمَرَ يُجاهِدُ في الجَنوب ويدعو حتّى أدْرَكَتْهُ الوَفاةُ، سَنَةَ ٤٨٠ للهجرة (١٠٨٧ م). في ذلك الحينِ كانَ الإسلامُ قدِ ٱتّسعَ ٱنتشارُه في بلادِ السودان وبدأتْ تَنْهَض في السودانِ دُوَلٌ مُسلمةٌ.

مالّي أو مالي[١]:

على ضِفاف نهرِ النيل الغربيّ هذا مُدُنٌ مُهِمّة (زال عددٌ منها منذُ زمنٍ). من هذه المُدُنِ كُلِّها (ٱبتداءً من منابعِ النيجر): جارِبُ، كانكابا، برمكو[٢]، نياني (مالي القديمة)، جِنّة، دِيا، ثمّ (قبلَ ٱنعطافه جَنوباً) بامبا. وعلى مسافةٍ قليلةٍ من هذا المُنْعَطَفِ (إلى الشَّمال الغرْبي) تقومُ مدينةُ تنبكت (تمبكتو)، ثمّ بعدَ ٱنعطافه مدينة كاو. (كاغو).

والمدينةُ التي تُعْرَفُ اليومَ بٱسْمِ مالي بُنِيَتْ على هَضَبة تكثُرُ فيها الزراعةُ، بناها أحدُ شيوخِ جماعاتِ مَندةَ في زَمَنٍ لا نُحَقِّقُه، ولكنْ - على كلِّ حالٍ - قبلَ القرنِ الرابعِ للهِجرة (العاشرِ للميلاد). والعاصمة الأولى لهذه المملكة كانت جارب في أعلى

---

(١) بلاد مالى (اليوم) كانت تعرف عند المسلمين باسم بلاد التكرون (بالنون في آخرها) ويقال لها اليوم «التكرور» (بالراء). وكان هذا الاسم يطلق أيضاً على معظم بلاد السوادن الغربي (غربيّ أفريقية).

(٢) برمكو (في المصادر الأجنبية وفي المصادر العربية الحديثة): باماكو.

نهرِ النكّار (النيجر قريباً من منابعه) في مِنْطقة كانشابا. ودَخَلَ الإسلام إلى كانشابا وعَمَّها مُنْذُ القرن الرابعِ للهِجرة (الحادي عَشَرَ للميلاد).

ومالي دَخَلَها الإسلامُ من طريقِ التُجّارِ، في نحو ٤٠٠ للهِجرة (١٠١٠ م)، وفي سَنَةِ ٤٤٢ للهِجرة (١٠٥٠ م) آعتنَقَ مَلِكُها باراماندانا[١] الإسلامَ. وأدّى هذا الملك فَريضةَ الحجّ، فكان بذلك قُدوةً لجميعِ ملوكِ مالي الذين جاءوا بعدَه.

ومرّ من الزمن قرنانِ كان – في أثنائهما – تاريخُ مالي القائمُ على الرواياتِ الشعبيّة (مثلَ غيرِه من تاريخ بلاد السودان) كثيرَ الغُموض. في هذه الحِقبة، ونحوَ سَنَةِ ٤٩٥ للهِجرة (١١٠٠ م)، كان المَلِكُ موسى كَتَع – والمُلقّب: عَلّا كُيْ (كُيْ بِضمّ فسكون: الرئيس) – قد أدّى فريضةَ الحجّ أربعَ مرّاتٍ، فيما قيل. غيرَ أنّ التاريخَ السياسيَّ الواضحَ لِمَمْلكةِ مالي يبدأ بمجيءِ ملكٍ آسمه سُنْ دياتا.

إلى الشَّمالِ الغربي من مِنطقة مالي كانتْ تقوم بلدةُ صوصو (وربّما كانتْ « صوصو » ★آسماً لِمقاطعةٍ ولِلُغَةٍ أيضاً). ففي سَنَةِ ٦٢١ للهِجرة (١٢٢٤ م)، أو بعدَ ذلك بقليلٍ، آستَوْلى سومان غورو سيّدُ صوصو على ماندِنْغ[٢] (آسم مالي القديم) وأخذَ أبناءَ مَلِكِها الآثْنَيْ عَشَرَ وقَتَلَهُمْ إلّا واحداً كان كسيحاً (مُقْعَداً) يُدعى سُنْ دياتا (السيّد الأسد).

آستطاع سُنْ دياتا، برُغْمِ عاهتِه، أن يهرُبَ من أسْر سومان غورو وأن يجمَعَ حولَه أنصاراً ويقاتلَ بهم ثمّ يستعيدَ ماندنغ من يَدِ سومان غورو، سَنَةَ ٦٣٣ للهِجرة (١٢٣٥ م). وأحَبَّ سومان غورو أنْ يستردَّ ما فَقَدَهُ في حربِ سُنْ دياتا، فَنَشِبَتْ بينَ المَلِكَيْنِ معرَكَةٌ في كيريني، عند مدينة كوليكورو (شَمالَ برمكو)[٣] فآنهزم سومان غورو وسَقَطَ في المعرَكةِ قتيلًا. وتابعَ سُنْ دياتا فُتوحَه حتّى آستطاعَ أن يُلْحِقَ إمبراطوريّة صوصو كلّها بِمَمْلكتهِ. ونحوَ سَنَةِ ٦٣٨ للهِجرة (١٢٤٠ م) آسْتَوْلى على غانَة وخَرَّبَها.

---

(١) برما (أو باراما) ثم ندنا (أو ندانا) بإدغام النون في الدال. ولعل له صيغاً أخرى.

(٢) ماندنغا (اسم قبيلة). ★ أو « كوكو » أيضاً.

(٣) في الكتب الحديثة: باماكو.

ولمّا ٱتّسعتْ مملكةُ سُنْ دياتا أصبحتْ عاصمتَهُ جارِبُ (في مقاطعة كانغابا) في أعالي حوضِ النيجرِ متطرّفةً جدًّا: مُوغلةً في الغابات الاستوائية وبعيدةً عن طريق القوافل، فبنى مدينةً - على نَحْوِ مِائَتَيْنِ وثلاثين كيلومتراً شَمالَ جارِبَ - سمّاها، على الأرْجَحِ، نيامي. أمّا قبائلُ الفولاني[1] (في الغرب) فيقولون فيها: مالي ومِيلِي (بإمالة الياءين)، والبربرُ يقولون: ميل ومِيليت (بإمالة الياءين الأوليين). والعربُ يقولون: ماليل ومِيليل (بإمالة الياءاتِ الثلاثِ). أمّا الهَوْسا (وهم جماعاتٌ لغويّةٌ لا عِرقيةٌ) فيقولون: وَنْكَرْ.

وبعدَ سَنَةِ ٦٣٨ للهِجرة لم يَقُمْ سُنْ دياتا بحَمَلاتٍ جديدة، ولكنَّ قُوادَه ٱستطاعوا أن يُوسعوا رُقعةَ الإمبراطوريّة. وفي النِّصف الثاني من القرنِ السابع للهِجرة (والنصف الثاني من القرن الثالثَ عَشَرَ للميلاد) بَلَغَتْ إمبرطوريّة مالي أقصى ٱتّساعِها وذِروةَ عَظَمَتِها.

وفي مَدى جيلٍ من الدهر (٦٧٠ - ٧٠٧ للهِجرة) بعدَ سُنْ دياتا، تَوالَى على عرشِ مالي خمسةُ مُلوكٍ أو يَزيدون لم يكنْ فيهم مَنْ يَسْتَحِقُّ لَقَبَ مَلِكٍ سوى مَوْلًى (عبدٌ رقيقٌ أعتقه سيِّدُه) يُدعى سَبَكورا أو سكورا (٦٨٤ - ٧٠٠ هـ) ٱغتصب العرشَ ولكنْ ردَّ إلى مالي شيئاً من عَظَمَتِها.

ثمّ جاء أشهرُ ملوكِ مالي في صَفَحات التاريخ: مَنْسا موسى أوِ المَلِكُ موسى (٧١٢ - ٧٣٨ هـ) فزادَ في ٱتّساعِ رُقْعة الإمبراطوريّة. وٱشْتَهَرَ منسا موسى بقِيامِه بِالحَجّ سَنَةَ ٧٢٤ للهجرة (١٣٢٤ م)، فإنّه حَمَلَ مَعَه مالاً كثيراً وٱصْطَحَبَ حاشيةً وفيرةً وتَصَدَّقَ بأموالٍ كثيرة.

ولمّا عاد مَنْسا موسى إلى السودان ٱصْطحبَ نفراً من العُلماءِ والأدباءِ، يحسُنُ أنْ نذكُرَ منهم هنا الشاعرَ الغَرْناطيّ إبراهيمَ بن محمّدٍ الساحليَّ المشهورَ بالطُوَيْجِنِ[2]، وكان مُهَنْدِساً أيضاً أدخَلَ البناءَ بالطابوق أو القِرميد (الطين

(١) فلّاتا (بالفاء وشدّة على اللام ثمّ تاء مثنّاة من فوقها) إسم قبيلة. والفلّاتي (بفتح الفاء وتشديد اللام وتاء قبل الياء الأخيرة) والفلّاني (بضمّ الفاء وتشديد اللام ثمّ نون قبل الياء).

(٢) في الإحاطة (١: ٣٣٧ وما بعد): دخل إلى بلد السودان فاتّصل بملكها واستوطنها زماناً طويلاً. كانت وفاته ٧٤٧ هـ (راجع ترجمته في هذا الجزء).

المطبوخ) وبنى عدداً من المساجد في تُنْبُكْتُ وكاغو، على الطريقةِ الهَرَمِيَة (بسطوح عالية مَخْروطة تنتهي بنقطة) ممّا يساعد على تخفيف الحرّ عن المصلّين.

وبعدَ منسا موسى هذا بدأ آنحدارُ إمبراطوريّة مالي.

غانة

غانةُ، في الأصلِ، لَقَبٌ للملوكِ الذين حكموا تلك البلادَ التي عُرِفَتْ فيما بعدُ بآسمِ غانة. ثمّ أُطْلِقَ هذا الآسمُ «غانةُ» على عاصمةِ المملكةِ وعلى البلادِ الداخلةِ في حُكْمِ تلك المملكة. ويبدو أنّ عاصمةَ إمبراطوريّة غانَة كانت في وعكري أو في قُنْبَ (قُنْبَ صالحٍ، وَهِيَ الآنَ خرائبُ على نحوِ مِائَتَيْ ميلٍ - ثلاثِمِائَةِ كيلومترٍ شَمالَ برمكو)[١].

وقيمةُ غانةَ في التاريخ تَرْجِعُ إلى مَعْدِنِ الذهب الكثيرِ في أرضها. ثمّ هي مملكةٌ قديمةٌ عَرَفَها التاريخُ منذُ القرن الثاني قبلَ الميلاد. وقد كانتْ أكبرَ ممالك السودانِ في غربيّ إفريقية.

في أواسطِ القرنِ الثاني للهجرة (نحو ٧٧٠ م) كانت تحكم غانةَ أسرةٌ سودانيةٌ من السُنْغي[٢]، وكان النزاعُ بينَ هذه الأسرةِ وبينَ قبائلِ البربر في الشَّمال شديداً. وفي سَنَةِ ٣٨٠ للهجرة (٩٩٠ م) آحتَلّتْ قبيلةُ لَمتونَة مدينةَ أُوداغَشّتَ (أو أوداغُسْتَ)، وجعَلَتْها مركزاً تجاريًّا كبيراً. هذه المدينةُ قد زالتِ الآنَ، ولا نَعرِفُ مَوْقِعَها بالتدقيق. غيرَ أنّ ذلك لم يَمْنَعِ الأُسرةَ السُنغيّةَ من البقاء في الحكم ومن مَدّ حُدودِها ما بين تُنْبُكْتَ والبحرِ المُحيط (الأطلسي) ما بين نهر النيل الغربي (النيجر) ونهر السنغال. وذلك في القرن الخامس للهجرة (الحادي عَشَرَ للميلاد).

---

(١) راجع، فوق، ص ٤٠، الحاشية الثانية.

(٢) تلفظ «صغاي» (بصاد مضمومة ثمّ غين كأنّها قاف ثمّ نون خفيفة كأنّها مضمرة: مدغمة في الياء). ولعل معناها: السنّي، نسبة إلى سنّة رسول الله (؟).

في سَنَةِ ٤٦٩ للهجرة (١٠٧٦ م) آستَوْلى أبو بكر بْنُ عُمَرَ على مدينة قُنْب عاصمةِ غانةَ ودَخَلَ جانبٌ كبيرٌ من أهلِ البلاد في الإسلام. غيرَ أنّ جهادَ أبي بكرِ بْنِ عُمَرَ في قبائلِ البربر لم يُمَكِّنْهُ مِنَ الآحتفاظ بعاصمةِ غانةَ طويلًا، إذِ آضطُرَّ إلى الآنسحاب منها ثمّ قُتِلَ في ادرارَ (جبالِ الأطلس)، سَنَةَ ٤٨٠ للهِجرة (١٠٨٧ م) وهُوَ يُقاتلُ البربر.

وبعدَ سَنَةِ ٤٨٠ للهجرة أخذَتْ قوّةُ ملوك غانةَ السُنْغي في التراجُعِ حتى آقتصَرَتْ مملكَتُهم على بُقعةٍ إلى غرب نهرِ النكّار فيها بَسسّيكونو على مَقْرُبَةٍ من النهر ثمّ وَعُكْري المُوغلةُ غرباً. أمّا المناطق الأخرى التي كانتْ خاضعةً لمملكةِ غانةَ فقد أصبحتْ ممالكَ مُستقلّةً.

وفي سَنَةِ ٦٣٣ للهجرة (١٢٣٥ م) آستَوْلَتْ مالي على مدينة غانةَ. وبعدَ خَمْسِ سَنَواتٍ دُمِّرَتْ مدينةُ غانة.

ولقد كان لغانةَ أثرٌ كبيرٌ في آنتشارِ الإسلام في السودانِ الغَرْبي، فإنّ الأُسَرَ التي كانتْ تحكُمُ فيها والقبائلَ التي كانتْ تسكُنُها وتعمَلُ في الرَّعْيِ - وفي الزِّراعةِ أيضاً - وَهِيَ في الأغلبِ قبائلُ سُنْغي (صغاي)، ثمّ هِيَ مُختلفةُ الأُصولِ مختلفةُ المساكن. وبما أن هذهِ القبائل كانتْ كثيرةَ العَدَدِ مُتفرّقةً في المناطِقِ فقدِ آتّسعَ آنتشارُ الإسلامِ علـى يَدَيْهـا حتّـى وَصَلَ إلى أطرافِ الغاباتِ الآستوائيةِ - جَنوبَ الصحراءِ الكُبرى.

ليس لنا عِلْمٌ بالتاريخ الذي بدأ فيه آنتشارُ الإسلامِ في السودان المَغربي. وليسَ ثمّت ما يمنَعُ من أن يكونَ انتشاره قد بدأ منذ مجيء العرب إلى المغرب، منذُ القرنِ الأولِ للهِجرة، من طريق التجارة ومن طريق دُعاةٍ مُتطوّعينَ. ويذكُرُ لويسُ ماسينيون في تَقْويمِه «العالم الإسلامي» (بالفرنسية، طبعة ١٩٥٤ باريس) أنّه كان في كانمَ[١] (شادَ اليومَ) شِبهُ دولةٍ يسكُنُها مُسلمونَ منذُ القرنِ التاسعِ للميلاد (الثالثِ للهِجرة) في الأغلب (ص ٣٥٩).

---

(١) كانم (بفتح النون وبضمّها أيضاً) وتشاد أو «شاد» (بلا تاء في أوّلها).

غيرَ أنّ مِنَ الثابتِ أنّ الإسلامَ بدأ انتشاراً واسعاً في مُعْظَمِ أراضي إفريقِيَةَ الغربية (السودانِ المَغْربي) منذُ مَطْلَعِ القرنِ الخامس للهجرة (الحادي عَشَرَ للميلاد). ولكنْ إذا نحن آستَعْرضنا «الديباج المذهب» لآبنِ فرحَونٍ اليَعْمُريِّ (ت ٧٩٩ هـ) - وهو مَغْربيُّ الأصلِ - ثمّ كتابَ «نَيْلِ الآبتهاج بتطريزِ الديبــاج لأحمدَ بنِ أحمدَ بنِ أقيــتٍ المعروفِ بلقـب بابـا التُّنْبُكْتي (ت ١٠٣٦ هـ) - وهو من تنبكت (تمبكتو) المركزِ الأكبرِ للثقافة في السودان الغَرْبي (أو المَغْربيّ) - لم نَرَهُما ذكَرا أحداً من الأدباء أو العُلماء أو الفُقَهاء قبلَ القرنِ التاسع للهِجرة، ممّا يدُلّ على أنّه لم ينشأْ في تلك البلادِ أحدٌ من ذَوِي التقدُّمِ والشُهْرةِ في هذه الفنون قبل ذلك التاريخ.

كانم - برنو[١]

من المؤرّخين مَنْ يُعالجُ تاريخَ كانمَ مستقلّا عن تاريخ بُرنو، ومِنهم مَنْ يَسوقُ تاريخَهُما في سَرْدٍ واحدٍ. وأظنّ أنّ المنهجَ الثاني أدْعى إلى الآختصار.

وكانمُ - في الأصل - آسْمُ مدينةٍ ثُمّ أُطْلِقَ هذا الآسمُ على دولة. وكانمُ هذه كانت تقعُ إلى الشرق الشّمالي من بحيرة شاد، وهِيَ اليومَ مقاطعةٌ في جمهوريّة تشاد. أمّـا برنو فهي مقاطعـةٌ إلى غَرْبِ بُحيرةِ شاد. وكـان سكّـانُ المُقاطعتين - كانمَ وبُرنو - أخلاطاً من القبائل.

يبدو أنّ تأسيسَ هذه الدولة كان على يدِ قبيلةِ زُواغةَ البربريّة، وَهِيَ قبيلةٌ بَدْوية كانت تسكُنُ إلى الشّمال من كانمَ، وكان آنتشارُها في تلك الأصقاع واسعاً. وقد بدأ دخولُ الإسلام إلى كانم منذُ القرنِ الرابعِ للهِجرة (العاشر للميلاد) على يد التجّار الذين كانوا يأتون إليها من ليبيا ومِصْرَ، أو يَمرّون بها. ولمّا بدأ القرنُ السادسُ للهجرة (٥٠١ هـ = ١١٠٨ م) كان الإسلام قدِ اتّسع آنتشاره ثم آستقرّ. ولكن يبدو أيضاً أن الحُكْم كان، إلى ذلك الحين، «مَشْيَخةً بَدْويّةً» ثمّ آنتقل إلى دَوْلةٍ مَلَكيّة، فيما بعدُ.

---

(١) برنو (الأصل في الباء أن تكون ساكنة، وهي هنا شبه مفتوحة، مع ميل إلى ضمّها).

وفي الرواية أنّ أوّلَ الملوكِ المسلمين في هذه الدولة حومى أو أومى (٤٧٨ - ٤٩٢ هـ)، ثمّ يضطرب سياق الملوك لأنّ اسم حومي (محمّد؟) يكثُرُ فيهم. ولمّا جاء دونما بنُ حومي (نحو ٤٩٠ - ٥٤٥ هـ = ١٠٩٧ - ١١٥٠ م) ٱستطاع، في أثناء رئاستهِ الطويلةِ الأمَدِ أن يُؤَيِّدَ سلطة قبيلتهِ في كانم. وقد حجّ مرَّتينِ ثمّ غرِقَ، في المرّةِ الثالثة، في البحر الأحمر.

ويأتي في هذه السلسلة حومي آخرُ أو محمّد بنُ عبد الجليل الملقّب سَلْمى (سالم؟)، وقد حكم من سَنَةِ ٥٩٠ إلى سَنَةِ ٦١٨ للهجرة (١١٩٤ - ١٢٢١ م) فوسّع المملكةَ وسيطر على قبيلةِ زغاوة (التي كانت هِيَ مسيطرةً على كانمَ وما حولها). وفي أيامهِ أيضاً بدأ زَوالُ الوثنيّة. ثمّ أصبحتْ جيمي (نجمينا)[1] عاصمةً للدولة.

وبعدَ السلطان محمّد بن عبد الجليل جاء ٱبنُهُ دونَما (ت ٦٤٩ هـ = ١٢٥١ م) فكان عهدُه مَمْلوءًا بالحروب. ولكنّه حَرَصَ على إقامة صِلاتٍ بالحفصيّين أصحاب تُونِسَ فأرْسَلَ إلى السلطان الحَفْصيّ المُسْتنصر (أبي عبدِ الله محمّدِ بنِ يحيى) هدايا نفسيةً كان فيها زُرافةٌ (وكان دونَما يدعى في ذلك الحينِ سُلطان بُرْنُو، وكانتْ عاصمتَه مدينةُ كوكه أو جاجا أو كاكا - بكاف عربية أو بكاف معقودة). ويبدو أن برنو كانتْ مُنفردةً بحُكْمِ نفسِها ولكنّها كانت تابعةً لِمملكةِ كانَم. ثمّ يمُرّ قرنٌ أو يزيدُ قليلًا فنرى كانَم نَفسها تابعةً لسُلطان بُرنو؛ ويُرْسِلُ سلطانُها أبو عمروٍ عُثمانُ بنُ إدريسَ، سَنَةَ ٧٩٤ للهجرة (١٣٩١ م) رسولًا إلى الظاهر بَرْقوقٍ سُلطانِ مِصْرَ يشكو إليه غاراتٍ على أرضه ذَهَبَ فيها أخوه وسَلَفه في الحُكم عمرٌو (أو عُمَرُ) بنُ إدريسَ بنِ إبراهيمَ، إلى جانب عددٍ كبيرٍ من الرعايا سقطوا قَتْلى أو أَسْرى في يَدِ المُغيرين.

وبعدَ جيلٍ من الدهر (نحو ٨٤٣ هـ = ١٤٤٠ م) أصبحتْ مملكة بُرْنو على

---

(١) هذه اللفظة « نجمينا » تشويه من الاسم الذي يرجع في أصله إلى العربية: إن جمنا (استرحنا) والعامّة يقولون جمّينا (إن جمّينا تكتب كلمة واحدة: انجمّينا).

جانبٍ من القوّة فأخَذَ جيرانُها يُدارونها، وربّما دَفَعوا لها الجزى. ثمّ بعدَ جيلٍ آخرَ جاء إلى عرش بُرنو الغازي علي بن دونَما (٨٨١-٩٠٩ هـ) فقضى على المُنازعات على العرش ونظّم مَرافِقَ الدولة ثمّ بني، إلى الغرب من بُحيرة شادَ، سَنَةَ ٨٨٩ للهجرة (١٤٨٤ م)، عاصمةً جديدةً سمّاها «غسْرَغّمو» (قصرَغمو أو بَرْنُنْ بُرْنو[1]: حصن بُرْنو) وبسَطَ سُلطتَه على مَنْ كان يجاوره شَرْقاً وغرباً.

وجاء بعدَ عليّ هذا سُلطانٌ هو إدريسُ كَتَع كُرْمُي (؟) فحكم من سَنَةِ ٩٠٩ إلى سَنَةِ ٩٣٢ للهِجرة (١٥٠٣-١٥٢٦ م)، فعادتْ كانُمُ إلى الخضوع لمملكة بُرْنو وبَقِيَتْ قبائلُ بولالا شبهَ مُستقلّةٍ (تَعيشُ في تلك المملكة ولكن تدفع جزِية).

امبراطوريّة الصوصو (صو) في كَياكَ (كانياغا)

جاءت جماعاتٌ من التّكْرور (حوض نهر السنغال)، في القرن السادس للهِجرة (الثاني عَشَرَ للميلاد) وآستبدّتْ بالسيطرة على كَياكَ: كانياغا (إلى الغرب من أواسط نهر النيجر). وفي سَنَة ٥٧٦ للهِجرة (١١٨٠ م) نَهَضَ جُنديٌّ وَعكريّ (سلنكي: نسبة إلى مدينة سيلّا من مدن السنغال) يدعى ديارا كنتي (؟)-وكان هذا الآسمُ يُطْلَقُ أيضاً على الأسرة الحاكمة وعلى البلد. وقد كانتْ تلك الأُسرةُ الحاكمةُ وثنيّةً.

وجاء[2] بعدَ ديارا كنتي آبنُه صوماغورو (صوماهورو) كنتي (نحو ١٢٠٠-١٢٣٥ م: ٥٩٨-٦٣٣ هـ) وآحتلّ ماندنغ (في أعالي حوض النيجر)، فشجّعه ذلك على أنِ يحتلَّ جارِبَ (كانغابا) في الجَنوب ثمّ غانةَ في الشّمال.

غيرَ أنّ هذا النصرَ كان خاوياً فإنّ النهبَ والقتل اللذين سادا بعد هذا الاحتلال حملا التُّجّارَ المسلمين (في غانةَ خاصّة) على الهِجرة إلى ولاتن (إلى

---

(١) برنن برنو أصلها برنو (مدينة، حصن) برنو (مضاف ومضاف إليه: برنو برنو- وفي لغتهم تدخل النون بين المضاف والمضاف إليه فيصبح التركيب الإضافي: برنن برنو.

(٢) راجع، فوق، ص ٤٠ «تاريخ مالي».

الشَّمال الشرقي من بلدة غانة، على الحدود بينَ مِنْطقة الغابات ومنطقة الصحراء) وعلى إنشاء محطّةٍ تجارية في ولاتن أخذتْ، على طريقِ القوافِل، مكانَ غانَة، وذلك نَحْوَ سَنَةِ ٦٢١ للهِجرة (١٢٢٤ م).

ويقال إنّ صوماغورو لمّا آحتلّ ماندنغ قتل أحدَ عَشَرَ آبناً لملك ماندنغ. غيرَ أن واحداً من هؤلاء الأبناء - وآسْمُهُ: صندياتا[1]، وكان كَسيحاً - نجا من القتل. ثمّ إنّه جمع أنصاراً له، وفي سَنَةِ ٦٣٣ للهِجرة قاتل صوماغورو، فآنهزمَ صوماغورو وقُتل، فعادتْ فُلولُ أتباعِهِ إلى التكرور؛ وعادت ماندنغ إلى حكم صندياتا.

امبرطوريّة سنغي (صُغاي)

تطلق كلمة سنغي على قبائل من أصول مختلفة كانت تسكن في الحوض الأدنى للنكار (في منتصف الطريق بين آنحنائه في الشَّمال ومَصبّه في الجَنوب). وفي نحو ٢٦٠ للهِجرة (٨٧٢م) كانت مملكتهم كوكو★ (بضمّ الكافين أو بفتحها) أكبر ممالك السودان. في ذلك الحين كان يسكُنُها جماعاتٌ من البربر. ففيها وُلِدَ أبو يزيدَ مَخْلَدُ بنُ كَيْدادٍ الزَّناتيّ النكّاري (نسبة إلى النيجر؟) الإباضي الذي ثار على الفاطميّين (أصحاب تونس).

وفي نحو سَنَةِ ٣٧٠ للهِجرة (٩٨٠ م) كان حكّام كوكو مسلمين. وبعدَ قرنٍ من الزمنِ آعتنقتْ أسرة «زا» (جا، ديا: الجاءون: الذين جاءوا من اليمن) الإسلامَ. ولكنْ يبدو أن السكّان الأصليّين (من السودان) ظلّوا على الوثنيّة زماناً طويلاً.

ثمّ دخلتْ مملكة سُنْغَيْ، سَنَةَ ٦٤٨ للهجرة (١٢٥٠ م) في حكم مالي. وفي سَنَةِ ٦٧٥ للهِجرة (١٢٧٥ م) أسّس علي كولون أسرةَ سي أو شي، أو شيا (الجُباة، الخلفاء: خلفاء جا؟). وفي نحو ذلك الزمنِ آنتقلتْ عاصمة سُنْغي إلى مدينة كوكو.

ويبدو أن حُكّام مالي كانوا، بينَ حينٍ وآخرَ، يَبْسُطون سُلطتَهم على بلادِ

---

(١) راجع، فوق، ص ٤١.

★ صوصو

سُنْغَيْ هذه. وبين سَنَةِ ٧٢٦ وسَنَةِ ٧٣٧ (١٣٢٥ - ١٣٣٥ م) كانت كوكو وما يَتْبَعُها داخلةً في سلطان مالي. وقد زار موسى صاحب مالي، سَنَةَ ٧٢٦ (مدينَةَ) كوكو.

ثمّ إنّ أُسرةَ الجائينَ ٱستعادتِ ٱستقلالَها. وفي سَنَةِ ٨٧٠ للهجرة (١٤٦٤ م) أقام عليٌّ الكبيرُ إمبراطوريّة سُنْغي. ومن ذلك الحين عُرِفَتْ هذه الأُسرةُ بٱسْم صُنّي. وجاء صُنّي عليٌّ إلى العرش (نحو ٨٧٠ - ٨٩٩ هـ) فٱسْتطاعَ ٱستردادَ تنبكت، سَنَةَ ٨٧٤ للهجرة (١٤٦٩ م)، بعدَ أن كان الطوارقُ قدِ ٱسْتَوْلَوْا عليها، سَنَةَ ٨٣٧.

ويُقَال إنّ صُنّي عليًّا هذا كان يهتمُّ بأغراضِهِ الشخصيّة أكثرَ مِنَ ٱهتمامِه بما سوى ذلك. ولم يكن حُكمه في تنبكتَ صالحاً فهَجَرها الزُّعماءُ من أهلِها وهجرها تُجّارُها إلى وَلاتُنْ. وفي سنة ٨٩٨ للهجرة (١٤٩٢ م) ماتَ صنّي عليٌّ فجاء بعدَه بارو (أبو بكر داؤ). ولكن في العام التالي ٱستطاعَ أحدُ القُوّادِ من الوصول إلى الحكم، وكان مُسْلِماً مُخْلِصاً، فٱرتقى العرشَ بٱسْمِ أسْكِيا محمّدٍ الأوّلِ فنَظَّمَ الإدارةَ وأنشأ جيشاً نِظاميًّا وأقرّ الأمنَ فعادتْ تنبكتُ مركزاً للثقافة الإسلامية. ثمّ إنّه أسّس أُسرةً حكمتْ قرناً كاملًا من الزمن. من سَنَةِ ٩٠٠ إلى سَنَةِ ١٠٠٠ للهجرة (١٤٩٣ - ١٥٩١ م).

وفي سَنَةِ ٩٣٥ للهجرة (١٥٢٨ م) كُفَّ بَصَرُ محمّدٍ وأُصيبَ بالعجز فٱسْتبدّ بالمُلْك مكانَه ٱبنُهُ موسى. ولكنْ وَقَعَ التنافسُ على الحُكم بينَ نفرٍ مِنَ القُوّادِ ونفرٍ من المُغامرين وٱضْطربَ الأمرُ حتّى جاء أسكيا إسحاقُ، سَنَةَ ٩٤٦ للهجرة (١٥٣٩ م) فتغلّب على خُصومه وقَتَلهم. وجاء بعدَ أسكيا إسحاقَ أخوه داوُودُ (سَنَةَ ٩٥٦ هـ). ولقدْ تابعَ إسحاقُ وأخوه داوودُ سِياسَةَ أبيهما أسكيا محمّدٍ الأوّلِ في نَشْرِ الإسلام[١].

---

(١) هذه الأحداث والتي تليها وقعت بعد الحقبة التي يعالجها هذا الجزء، ولكنّ الاستمرار قليلًا في سردها يجعل الصورة التاريخية لتلك البلاد التي يغيب عنّا كثير من تاريخها أكثر وضوحاً ثمّ يدل على اتّصال مجرى الثقافة الإسلامية في ذلك الجانب من الأرض.

ولمّا مات داوودُ، سَنَةَ ٩٩٠ هـ (١٥٨٢ م) عادَ الاَضطرابُ إلى البلاد، ولم يَسْتَطِعِ ابنه محمّدٌ الثالثُ أن يُدارِيَ الأحداثَ التي كانتْ في أيامه.

في ذلكِ الحينِ كان على عَرْشِ المغربِ سُلطانٌ قويٌّ قديرٌ هو أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ محمّدٍ المعروفُ بالمنصور الذهبي، وقد حَكَمَ من سَنَةِ ٩٨٦ إلى سَنَةِ ١٠١٢ للهجرة (١٥٧٨-١٦٠٣ م). ولا رَيْبَ في أن المنصورَ لمّا نَظَرَ إلى قُوّته وإلى ضَعْفِ الممالك السودانية كان قدْ داخَلَهُ الطَّمَعُ في الاَستيلاءِ على مناجمِ المِلْح ومناجم الذهب في بلاد السودان. وكان بينَ المنصور سُلطانِ المغرب وإسحاقَ الثاني مَلِكَ كاغو مُفاوضاتٍ سياسية لم تُثْمِرْ، فأرْسَلَ المنصورُ إلى السودانِ جيشاً كبيراً بقيادةِ قائدٍ اَسْمُهُ جُؤذر. ومعَ أن الجيش المغربيّ لم يَصِلْ منْهُ إلى أرضِ السودانِ إلّا أقلُّه-لِطولِ الطريق ومَشَقّةِ التحرُّكِ في الصحراء-فإنّ الجيشَ المَغْربي قد تغلّب، بما كان لديه من المدافع، على جيش القبائل السودانية (التي زادتْ على مِائَةِ ألفٍ من الرجال) لأنّها كانت تُحارب بأدَواتٍ بِدائية من النِّبال والرِّماح. كان ذلك في أواخِرِ سَنَةِ ٩٩٩ للهجرة (١٥٩١ م). وقد فرَّ أسكيا[1] إسحاقُ الثاني (غرباً) عبرَ نَهْرِ النكّار (النيجر). ويبدو أنّ شَيْئاً من المُقاومة للمَغاربة قدِ اَستمرّ في أرضِ السودان، ولكنّ تلكَ المُقاومَة اَنتهتْ في العام التالي واَنقرضتْ باَنتهائها إمبراطوريّةُ سُنْغي.

ودّاي

وَدّايُ مِنطقــة تتّصــلُ بهــا باجرمــةُ ودارفورُ، غَرْبَ بُحيرةِ شاد (بحيرة لامي)، وَهِيَ أحقُّ أن تكونَ من أواسطِ السودان أكثرَ مِنها من غَرْبه.

وقد تأخّرَ دُخولُ الإسلام إلى ودّاي حتّى القرنِ العاشرِ للهجرة (السادسَ عَشَرَ للميلاد). قِيلَ دَخَلَها الإسلامُ على يَدِ رَجُلٍ اَسْمُه صالحٌ. من أجلِ ذلك

(١) أسكيا: الشيخ (؟).- «اسكيا»: الذي ليس هو، الآخر (غير الذي كان من قبل). هذه ملاحظة أبداها الزميل في مجمع اللغة العربية بالقاهرة الدكتور عبد الله الطيّب (الخرطوم).

تُعْرَفُ «ودّايُ» بآسْمِ دارِ صالحٍ أو دارِ صُليحٍ أيضاً. أمّا الآسْمُ «ودّايُ» فيُقال فيه إنّه آتٍ من «وَداعَةَ». وأهلُ المِنطقة يفضّلون على آسْمِ «ودّايَ» آسْمَ بُركو (بضمّ الباء).

أمّا الأحداثُ التي دارتْ في ودّايَ فمتأخّرةٌ عن العصر الذي نُقُصّ تاريخَه في هذا الكتاب.

الحياة الثقافية
- في أيام بني الأحمر -

سألجأُ في تصويرِ هذا العصرِ إلى إيرادِ عددٍ وافٍ جدًّا من الكتب في فنون العلم المختلفة. ومَعَ أنّ عدداً كبيراً جِدًّا من هذه الكُتُبِ لا يُعَدُّ في نِطاقِ الأدب، فإنّه يدُلُّ على رُقِيٍّ الحياة الثقافية بلا ريب. ثمّ إنّنا نرى في هذه الكتبِ مَيْلاً كبيراً إلى الموضوعاتِ الدينيّة، مِمّا يتّفقُ عموماً حينما تضعُفُ القوّةُ السياسية في الأُمّة، فالدينُ مَلاذٌ وملجأٌ في أيامِ المِحَنِ والضَّعْف.

وسببُ الإطالةِ في هذا الفصلِ لصورةِ هذا العصرِ حِرْصٌ مِنَّا على أن نُوقِنَ أن هـذا العصرَ الذي لم يكن وَضّاءً في السياسة، قد كان وضّاءً جِدًّا في الثقافة. وسيرى القارئُ أن عدداً كبيراً مِنَ الأسماء - مِنْ أسماء الكتب ومن أسماء مُؤلِّفي الكتب - يدفَعُ عن هذا العصر «تُهمةَ الانحطاط» التي أرادَ نفرٌ من الأغيارِ ومنّا أيضاً أن يُلْصِقوها به.

العلوم الدينية:

من أوائلِ الذين يُشارُ إليهم في هذا الباب، وفي العلومِ الدينية، محمّدُ بنُ عبدِ الله المُرسيُّ (٥٧٠ - ٦٥٥ هـ) له: رِيُّ الظَمْآنِ أو التفسيرُ الكبير (في أكثرَ من عِشرينَ جُزءاً) - التفسيرُ الأوسط (في عَشْرةِ أجزاءٍ) - التفسير الأصغرُ (ثلاثةُ أجزاءٍ). ومنهم المُقرئُ أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ حسنٍ الفاسيّ (٥٨٩ - ٦٥٦ في الأغلب) له اللآلىء الفريدةِ في شَرْحِ القصيدة الشاطبية. ثمّ منهم ابنُ عَبْدونٍ المِكناسيّ (ت ٦٥٩ هـ)(★★). ومنهم المفسّرُ الكبير أبو بكرٍ القُرطبيُّ (ت ٦٧١ هـ)(★★).

(★★) لأصحاب الأسماء من الذين أشير إليهم بنجمين تراجم مستقلّة في هذه السلسلة (يهتدى إليها بسنوات وفياتهم).

ومنهم أيضاً أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ خَضِرٍ الشاطبيُّ (ت ٦٧٤ هـ) له: قواعدُ الخطّ - كتابانِ في قراءة وَرْشٍ[١]. وكذلك منهم عبدُ السلامِ بنُ عليٍّ الزَواويُّ وَلِيَ قضاءَ المالكية في دِمَشْقَ وٱنتهتْ إليه رئاسةُ الإقراء فيها له: عددُ الآيِ - التنبيهاتُ على معرفةِ ما يَخْفى من الوقوفات (في القراءات). ثمّ يأتي هنا الشاعرُ مالكُ بنُ المُرحَّل (ت ٦٩٩ هـ)[★★]. ثمّ أبو جَعْفَرِ بنِ الزبيرِ الغَرناطيُّ (ت٧٠٣ هـ)[★★] صنّف: البُرهانَ في ترتيبِ سُوَرِ القرآنِ - مِلاكُ التأويلِ تتمّةٌ لكتابِ «دُرّة التنزيل وغُرّة التأويل» لفخرِ الدين الرازيّ (ت٦٠٦ هـ)[٢] أو ردٌّ عليه.

ويأتي هنا أيضاً عبدُ الواحدِ بنِ محمّدٍ المالقيّ (ت ٧٠٥ هـ) له: الدُرُّ النَثيرُ والعَذْبُ النَميرُ في شرح كتابِ التَيْسير لأبي عمروٍ الدانيّ المتوفى سنة ٤٤٤ للهجرة[★★]. ثمّ هنالك ميمونُ الفَخّارُ (ت٧١٦ هـ) له: التُحفةُ في القِراءات - الدُرّة - المَوْرد. وكان لأبي عبدِ اللهِ محمّدِ بن محمّدٍ الخَرّازُ الشَريشيُّ (ت٧١٨ هـ) إمامُ القُرّاء في فاسَ: أرجوزةُ موردِ الظمآن في رسمِ القرآن - عُمدةُ البَيانِ في رسم القرآن - الحُصْريةُ في القِراءات - شرح العَقيلة[٢] في القِراءات - شرح ابن برّي[٣] - الدُّرَر اللوامع في أصل مقرأ نافع. وذكر عبد الله كنّون (النبوغ المغربي ٢١٦)[٤] كتباً في علوم القرآن لابن البناء العدديّ (ت ٧٢١ هـ) منها: تفسير الباء في البَسْملة - تفسيرُ الاسمِ (باسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم) في البسملة - تفسير سُورة الكَوْثر - تفسير سورة العَصْر - حاشيةٌ على الكشّاف - الدليلُ في مرسوم خطّ التنزيل - المُتشابهُ اللفظِ في القرآن - تسميةُ الحروف وخاصّيةُ وجودِها في أوائلِ السُوَر.

ولابن آجرّوم[★★] (ت٧٢٣ هـ): البارعُ في قِراءة نافعٍ - شرح حِرزِ الأماني (في القراءات) للشاطبي. وهنالك «الأجوبة» (في التفسير) لابن البقّال (ت ٧٢٥ هـ). ثمّ هنالك أحمدُ بن الحسن بن الزيات الكَلاعي له: لَذّة السَمْع في القراءات السَبْع - قصيدةٌ

(١) عثمان بن سعيد (لقبه ورش) من القرّاء المشهورين، مولده ووفاته في مصر (١١٠ - ١٩٧ هـ).

(٢) للفخر الرازي ترجمة في الجزء الثالث من هذه السلسلة.

(٣) عقيلة أتراب القصائد؟ (للشاطبي).

(٤) ابن برّي: عليّ بن محمّد بن الحسين الرباطي (ت ٧٣١ هـ) عالم بالقراءات.

(★★) له ترجمة في هذا الجزء.

على نَمَط الشاطبية (حِرزِ الأماني). ثمّ هنالك لأبي الحسنِ عليِّ بنِ محمّدِ آبنِ برّيّ الرِباطيّ (ت ٧٢٥ هـ) وكان من أهلِ تازةَ ورئيسَ ديوانِ الإنشاء فيها: أرجوزةٌ في مَخارج الحروف - أرجوزة مشهورة هي «الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع»، مطبوعة (الأعلام للزركلي ٥ : ١٥٦) وعليها شُروحٌ ولها مختصراتٌ منها: المختار من الجوامع في مُحاذاةِ الدُرَر اللوامع لأبي زيدٍ عبدِ الرحمنِ بنِ محمّدِ بن مخلوفِ الثَعالبي الجزائري (ت ٨٧٥ هـ) صنّفه سَنَةَ ٧٤٢ (الجزائر ١٣٢٤ هـ).

وكان أحمدُ بنُ محمّدٍ العشّابُ القُرطبيُّ وزيراً في تُونِسَ، له تفسيرٌ (للقرآن) مختصرٌ. ولابنِ القَوبعِ التُونسي (ت ٧٣٨ هـ)(**) تفسيرُ سُورةِ ق. ولابنِ جُزَيٍّ مرتّبُ رِحْلةِ ابنِ بطّوطةَ (ت ٧٤١ هـ)(**): البارعُ في قراءةِ نافعٍ - التسهيلُ لعلوم التنزيل (مطبوع، راجع الأعلام للزركلي ٦ : ٢٢١). وكذلك لإبراهيمَ بنِ محمّدٍ الصفاقسي (٦٩٧ - ٧٤٢ هـ) «المُجيد في إعرابِ القرآنِ المَجيد» (ألّفه مَعَ أخيه محمّد). ولمحمّدِ آبنِ عليٍّ البَلَنْسيّ العَنْسيُّ (ت ٧٤٦ هـ) «صِلة الجمعِ وعوائد التذييل لمَوْصول كِتابَي الإعلامِ والتكميل لمُبْهَماتِ القرآن».

ولمحمّدِ بنِ عليٍّ بنِ عابدٍ الفاسيُّ (ت ٧٦٢ هـ) اختصارُ الكشّاف (للزمَخشريّ) أزال عنه صِبغةَ الاعتزال. وكذلك لأبي القاسمِ السَلوليّ (من أحياء القرن التاسع) تفسيرٌ للقرآن. وللجادَريِّ أو الجادِيريّ (ت ٨١٨ هـ): النافعُ في أُصول حَرْفِ نافعٍ[1] - شرح ضَبْط القيسيِّ - شرح ابنِ برّي[2]. ولمحمّدِ بنِ يحيى بن جابرٍ الغسّاني المكناسيّ (ت ٨٢٧ هـ) كتابٌ في رسمِ القرآن. ولأحمدَ بن محمّدِ المَسيلي (ت ٨٣٠ هـ) تفسيرٌ للقرآن.

---

(١) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (بالتصغير) المدني المتوفّى في المدينة، سنة ١٥٩ هـ (٧٧٥ م) على الأصح (وفيات الأعيان ٥ : ٣٦٨ - ٣٦٩)، وفي الأعلام للزركلي (الطبعة الرابعة ٨ : ٥) سنة ١٦٩ هـ، وهو أحد القرّاء السبعة.

(٢) ابن برّي النحوي أبو محمّد عبد الله بن برّي المتوفّى ٥٨٢ هـ (له ترجمة في الجزء الثالث من هذه السلسلة). ولعلّ المقصود بابن برّي هنا: أبو الحسن عليّ بن محمّد التازي (ت ٧٣١ هـ) من الماهرين في العلوم العربية والقراءات (النبوغ المغربي ٢٠٩).

ومن المُكْثرين في التأليفِ أبو زيدٍ عبدُ الرحمن بنُ محمّدٍ الثعالبيُّ[1] الجزائريّ (٧٨٦ - ٨٧٥ هـ) له: الجواهرُ الحِسانُ في تفسيرِ القرآن (الجزائر ١٣٢٧ هـ) - المُختار من الجوامع في مُحاذاة الدُرَر اللوامع في أصل مقرأ الإمامِ نافعٍ (الجزائر ١٣٢٤ هـ، راجع سركيس ٦٦١؛ بروكلمان، الملحق ٢: ٣٥٠، السطر العشرين).- نفائسُ المَرْجان في قِصَصِ القرآن. وكذلك لأبي عبدِ الله الحسنِ (أو الحسين) بنِ عليٍّ الشوشاوي السِمْلاليّ (ت ٩٠٠ أو ٨٩٩ هـ): إعانة المُبتدئين (في القِراءات) - الفوائدُ الجميلةُ على الآياتِ الجليلة - شرحُ موردِ الظمآنِ في رسم القرآن. ويأتي هنا محمّدُ بنُ عبدِ الكريم المَغيلي التِلِمساني (ت ٩٠٩ هـ) له البدرُ المنير في علومِ التفسير. ثمّ هنالك لابن غازٍ المِكناسيِّ (ت ٩١٩ هـ)(**) نَظْم قراءة نافع.

..... علوم الحديث

يحسُن البدءُ هنا بعليٍّ بنِ إبراهيمَ الأُميّيّ الشَريشي (٥٦١ - ٦٤٢ هـ) كان عليه مَدارُ الفُتْيا في وقتهِ، وله تآليفُ في الحديثِ والفِقه. ومن المؤلّفين في الحديثِ القاسمُ ابنُ محمّدِ بنِ الطَيْلسانِ القُرطبي (٥٧٥ - ٦٤٢ هـ) له: الجواهر المفصّلات في المُسَلْسلات - غرائبُ أخبارِ المُسْنَدين[2] - ما وَرَدَ من الأمرِ في شُرْبِ الخمر - بيانُ المِنَن على قارىء الكِتاب والسُنن[3]. ثمّ هنالك محمّدُ بن عَتيقٍ اللاردي (٥٦٣ - ٦٣٧ هـ) له: أنوارُ الصباح في الجمع بين الكُتب السِتّةِ الصِّحاح[4] - مطالعُ الأنوار في شمائلِ المُختار (رسول الله). ثمّ هنالك أيضاً محمّد بن يوسُفَ بن مسدي (بفتح الميم أو بضمّها) الغَرْناطي (ت ٦٦٣ هـ)، له: المُسْنَدُ الغَريب (جمع فيه مذاهبَ علماءِ

(١) راجع، في الثعالبي هذا، تاريخ الجزائر العامّ ٢: ٢٦٢ - ٢٦٤؛ سركيس (معجم المطبوعات العربية) ٦٦١.

(٢) المسند (بضمّ فسكون ففتح - والتي تجمع جمع مذكر سالماً): الحافظ لحديث رسول الله والموثوق في روايته.

(٣) الكتاب (القرآن الكريم) والسنن (المقصود: أحاديث رسول الله عامّة).

(٤) والصحاح: صحيح البخاري (ت ٢٥٦ هـ) - صحيح مسلم (ت ٢٦١ هـ) ثمّ كتب السنن: لابن ماجة (ت ٢٧٣ هـ) - وأبي داوود السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) - والترمذي (ت ٢٧٩ هـ) - والنسائي (ت ٣٠٢ هـ).

الحديث) - المُسَلْسلات - الأربعون (حديثاً) المختارة في فضل الحجّ والزِيارة (زيارة المدينة) - مُعْجَمٌ (ترجم فيه لشيوخه). وهنالك أيضاً محمّدُ بنُ أحمدَ العَزَفي (بفتح ففتح) السَبْتي (٦٠٧ - ٦٧٧ هـ) أكملَ نظم « الدرّ المُنَظَّم في مولدِ النبّي المُعظّم » (من تأليف والدِه أحمدَ). ومن المؤلّفين في الحديثِ عبدُ الله بن سعدِ بنِ أبي جَمْرَةَ الأندلسيّ (ت ٦٩٩ هـ في الأغلب) له جمعُ النهاية (اختصر فيه صحيحَ البُخاري) - بهجةُ النفوس (شرح جمع النِهاية)، والكتابان مطبوعان.

وهنالك محّمدُ بنُ إبراهيمَ اليَقوريُّ الأندلسيّ (ت ٧٠٧ هـ) له إكمال الإكمال (للقاضي عِياضٍ على صَحيحِ مسلم). وكان ابنُ رُشَيْدٍ السَبَتي (ت ٧٢١ هـ)(**) صاحبُ الرِحلَة من كِبارِ علماءِ الحديث، له: تَرْجُمانُ التراجمِ (في وَجهِ مناسبة تراجِمِ البخاري) - إفادة النَصيح بأسنادِ الجامعِ الصحيح - السَّنَنُ الأبْيَنُ والموردُ الأمْعن في المحاكمة بين الإمامينِ (البُخاري ومُسلمٍ في الحديث المُعْنعَن[1]. ولابن الشاطِّ القاسمِ ابنِ عبدِ الله الإشبيلي (ت ٧٢٥ هـ) كتابُ التعريف برِجال البخاري - حاشيةٌ على صحيح مسلم. ولأبي القاسم التجيبي السبتي (ت ٧٣٠ هـ) «أربعون حديثاً في الجهاد ».

ومن أكابرِ العلماء في الحديثِ محّمدُ بنُ محّمدِ بنِ سيدِ الناس اليَعْمُريُّ (٦٧١ - ٧٣٤ هـ) أصلُه من إشْبِيلِيَةَ ولكنه ولد ثمّ توفي في القاهرة. له: عُيون الأثر في غَزَوات سيّدِ ربيعةَ ومُضَر[2] وفي شمائله إذ هي أشرف شمائل البشر (عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِيَر) (القاهرة ١٣٥٦ هـ، دمشق ١٣٥٨ هـ) - بُشرى اللبيب بذِكرى الحبيب (مجموع قصائد في مدح الرسول مرتّبة على الشعراء) مطبوع (سترالند في شماليّ شرقيّ ألمانية ١٨١٥ م) - المقامات العليّة في الكَرامات الجَليّة (مدائح في الرسول) - النَفحُ الشَّذِيّ شرحُ جامعِ التِّرْمِذيّ - عُدّةُ المَعاد في عَروضِ « بانتْ سُعادُ » (لكعبِ بنِ زهيرٍ في مدح الرسول) - مِنَحُ المِدَح (قصائدُ للصحابة

---

(١) الحديث المعنعن: المسند إسناداً متّصلاً: حدّثنا فلان عن فلان عن فلان الخ (حتّى يصل إلى رسول الله).

(٢) ربيعة ومضر (قبيلتان كبيرتان قويّتان ومعظم عرب الشمال). والمقصود بسيّد ربيعة ومضر هنا « محمّد رسول الله ». الأثر (هنا: أحاديث رسول الله).

رجالاً ونساءٍ) - تحصيلُ الإصابة في تفضيلِ الصَحابة.

وهنالك عَلَمُ الدين القاسمُ بنُ محمّدِ البِرزاليُّ (٦٦٥ - ٧٣٩ هـ) الإشبيليّ، نسبة إلى برزالةَ (قبيلةٍ من البربر، كان أصلُ أهله من إشبيلية، وكان مولده في دِمَشْقَ، له: ثُلاثيّات مُسنَدِ أحمدَ بنِ حَنْبَلٍ - العَوالي المُسندة - تأليفٌ في طبقات المُحَدّثين - مُعْجَم شيوخه. ثمّ هنالك عائشةُ بنتُ عليٍّ الصَنهاجيّةُ كانتْ عالمةً بالحديث.

ولابن جُزَيٍّ (ت ٧٤١ هـ)(**) مرتّبُ رِحْلة ابنِ بطّوطةَ: وسيلةُ المُسلم في تهذيبِ صحيحِ مُسلمٍ.

وصنّفَ أبو بكرٍ الكَتّانيُّ، سنة ٧٤٣، الإلمامَ لِذَوِي النُهى والأحلام. ولعيسى بنِ مسعودٍ الزَواويّ (٦٦٤ - ٧٤٣ هـ) إكمال الإكمال. وهنالك كذلك عبدُ المهيمن الحَضْرميُّ (ت ٧٤٩ هـ)(**) السبتيُّ، كان له تَقدُّمٌ في علم الحديث وضَبْطِ رجاله. صنّفَ مَشْيخةً (ثَبَتاً بأسماء شُيوخه احتوتْ على ألفِ شيخٍ). وكان محمّدُ بنُ جابرٍ الوادي آشيُّ (٦٧٣ - ٧٤٩ هـ) واسعَ المعرفة بالحديث قليلَ البِضاعة في الفِقه نَعَتَهُ ٱبنُ خَلْدونٍ بإمامِ المُحدّثين في تُونسَ، له «أربعون حديثاً» (تدُلُّ بِرواياتِها عنْ رجالٍ مُتباعدينَ في الأوطانِ على اتّساع رِحْلته). وله تعاليقُ وأسانيدُ في الفِقه.

ويذكُرُ عبدُ الله كَنّونُ (ص ٢١٦، ٢١٧) أبا عبدِ الله الكرسبوطيَّ الفاسيَّ المولودَ سَنَةَ ٦٩٠ ثمّ يذكُر الكرسوطيَّ الفاسيّ (لعلّهما واحدٌ، وٱختلافُ التهجئة من خطأ الطبع) ويُورد مَعَ ذكرِهما عدداً من كتب الحديث والفِقه. كما يذكر كنّون أيضاً (ص٢١٦) أبا القاسم بنَ عِمرانَ الحَضْرَميّ السَّبْتي ويُورد له «الشافي في اختصار التيسير والكافي» في فضل علوم القرآن والحديث. وهنالك عبدُ الله بن محمّد بن فَرْحونٍ (٦٩٣ - ٧٦٩ هـ)، أصلُه من تونسَ ومولده ومنشؤه ووفاتُه في المدينة (لم يخرُجْ منها إلّا إلى مكّةَ)، له: الدرّ المُخلَّص من التقصّي والمُلَخَّص (جمع فيه أحاديث الكتابين) - كشف المُغطّى في شرح مختصر المُوطّا (شرح للكتاب السابق كما في الديباج ١٤٥، الأسطر ٦ - ٨).

ولمحمّدِ بنِ محمّدٍ النَدْروميِّ التِلمسانيّ (ت بعد ٧٧٧ هـ) ثَبَتٌ (ذَكَرَ فيه ما أخذه عن مُعاصريه من عُلماءِ الحديث). وكان أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ سعيدِ الرُعينيّ الأندلسيّ

الفاسيّ (٦٨٥ - ٧٧٨ هـ) فقيهاً مُحدّثاً (نفح الطيب ٢ : ٥٦٠) له تُحفة الناظرِ في غرائب الحديث. ولعلّ كُتُبه: تَنبيهَ الغافلِ وتعليم الجاهل - الجامعَ المفيد - الاعتمادَ في الجهاد، قد كانت في الحديث.

ولابنِ مرزوقٍ (ت ٧٨١ هـ)(**) شرحُ عُمدة الأحكام عن سيّد الأنام - المُسند الصحيح الحَسَن في مآثر مولانا أبي الحسن (!).

وكان في هذه الحِقبة سِراجُ الدين عمرُ بنُ نورِ الدين الأنصاريُّ الأندلسيُّ (٧٢٣ - ٨٠٣ هـ)، جَلسَ للإقراء في دِمَشْقَ والقاهرةِ، له: أسماءُ رجالِ الكتب الستّة - طبقاتُ الأولياء (تاريخ الفكر الأندلسيّ ٤٠٠). ومن كِبار عُلماءِ الحديثِ سِراجُ الدين عُمَرُ بنُ عليٍّ المعروفُ بابنِ المُلقّن (٧٢٣ - ٨٠٤ هـ) أصلُه من وادي آشَ ومولدُه ووفاتُه بالقاهرة له كتبٌ كثيرة جدًّا منها: إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال - التذكرةُ في علوم الحديث - إيضاح الارتياب في معرفة ما يَشْتَبِهُ ويَتَصحّفُ من الأسماء والأنساب - الإعلام بفوائدِ عُمدة الأحكام - التوضيحُ لشرح الجامعِ الصحيح (للبخاري) - المقنع في علم الحديث - خصائص أفضل المخلوقين - غاية السُول (السؤول) في خصائص الرسول - شرح عمدة الحكّام - النُّكَتُ اللِطافُ في بَيان الأحاديثِ الضِعافِ المُخرَّجة في مُستَدْرَكِ الحافظِ أبي عبد الله الحاكمِ النَسْيابوري - البدرُ المنير في تخريج أحاديثِ الشرح الكبير - « خُلاصة البدر المنير » (في تخريج أحاديث شرح الوجيز للرافعي!) - طَبقات المُحدّثين - شرح زوائدِ مسلمٍ على البُخاريّ - شرح الجامع الصغير - مختصر شُعَبِ الإيمان - ثلاثةُ شروحٍ على المِنهاج (وهو شَرْحٌ على صحيحِ مسلمٍ للنَّوَويّ).

ثمّ هنالك يحيى بنُ أحمدَ النَّفْزِيُّ السرّاجُ الرُنديُّ الفاسيّ (ت ٨٠٥ هـ) الذي آنتهتْ إليه رئاسةُ الحديث في بلدِه ووقتِه، له تقييد أو « مشيخة ». ولأبي القاسمِ قاسمُ بنُ عليٍّ التِينمَلّيّ الفاسيّ المالَقّي (٧٤٣ - ٨١١ هـ) « بَرْنامجٌ » في مَنْ أخذ عنهم، خرّج له الصلاح الأقفهسيّ جُزءاً من مَرْويّاته سماه « تُحفةَ القادمِ من فوائد الشيخ أبي القاسم ». وهنالك محمّدُ بنُ عبدِ الملك المِنْتوريُّ (ت ٨٣٤ هـ) الغَرْناطيُّ الأصلِ المَغربيُّ الدارِ له: فِهرِسْتٌ (يشتملُ على مَرويّاته) - الأمالي في الأحاديث العوالي.

ولمحمّدِ بنِ أحمدَ بنِ مرزوقٍ العَجيسي التِلمساني المعروف بالحفيد(**) (٧٦٦ - ٨٤٢ هـ): أنواعُ الزَراري في مُكرّرات البخاري - المَتْجر الربيح في شرح الصحيح (للبخاري) رَجَزٌ في علم الحديث - روضة الإعلام بأنواع الحديث السامِ (السامي). ولأبي القاسم السّلويّ من أحياءِ القرنِ التاسع: شرحُ صحيحِ مسلمٍ. ولأبي زيدٍ عبدِ الرحمن بنِ محمّدٍ الثعاليّ الجزائريّ (٧٨٦ - ٨٧٥ هـ): الأنوار (في المُعجزات النبويّة). وفي نحو سَنَةِ ٨٧٥ صنّفَ أحمدُ بنُ زكريّا المَغربي «مُعلّم الطُّلّاب بما للحديث من الألقاب» (طبَقات الحديث: صحيح، حَسَن، مرفوع، مُرْسل.....، ضعيف الخ).

وكان محمّدُ بن يوسفَ السّنوسي (٨٣٢ - ٨٩٥ هـ) متعدّدَ نواحي الشخصيةِ كثيرَ التأليف له في الحديث: مكمّلُ إكمال الإكمال - شرحُ مُشكلات البخاري - مختصرُ الزركشي على البخاري - مختصر الرَوْض الأُنُف (للسُهيلي) - مختصر الأبي[1] على (صحيح) مسلم. ومن الأسماء المشهورة في هذا الباب أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ القاسم التلمساني المعروفُ بابنِ الرصّاع (ت ٨٩٤ هـ)، كان قاضياً وإماماً في جامعِ الزيتونة في تُونسَ الحاضرةِ، له: تُحفة الأخيار في الصلاة على النبيّ المُختار - تذكرة المُحبّين في أسماء سيّد المُرسلين - الهداية الكافية. ومن علماء الحديث في هذه الحِقبة أحمدُ بنُ زَرّوقٍ (ت ٨٩٩)(**)، له كتبٌ في الحديث والفِقه والتصوّف. ولابنِ غازٍ المِكناسيّ (ت ٩١٩ هـ)(**): إرشاد اللبيبِ إلى مقاصدِ حديثِ الحبيب - الفِهرِسةُ المُباركة (فِهرس لمحدّثي فاس ولآثارهم).

..... علوم الفِقه:

وكانتِ الرَّغبةُ في الفِقه دائماً شديدة. فمن فُقهاءِ هذه الحِقبة عبدُ السلام بنُ غالبٍ المَسْراتيّ المعروفُ بابنِ غلّابٍ (ت في القيروان ٦٤٨ هـ) له: الوجيز في الفِقه. ومنهم راشدُ بنُ الوليدِ الفاسيُّ (ت ٦٧٥ هـ) له: كتابُ «الحلال والحرام» - حاشيةٌ على المُدوّنة. ومنهم عبدُ الله بنُ سعدِ بن أبي جَمْرةَ (حمزة) الأندلسيّ (ت ٦٩٩ هـ في

(١) الأبّي (بالضمّ) هو محمّد بن خلفة (بالكسر) بن عمر من بلدة أُبّة (بينها وبين القيروان ثلاثة أيام) من علماء الحديث ومن الفقهاء، توفيّ سنة ٨٣٧ هـ (١٤٢٤ م).

الأغلب) له: المُقنع في الأحكام.

ومن فُقهاء هذه الحِقبة أيضاً الزَّناتي (ت ٧٠٢ هـ) له: شرحٌ على الموطّأ - شرح المدوّنة (ص ٢١٦، ٢١٧). ومنهم أيضاً محمّدُ بنُ عبدِ الملك المَرّاكُشي(**) له: الجمعُ بين كتابَيْ ابنِ القطّان الفاسي وابن المَوّاقِ الغرناطيّ على «كتاب الأحكام» لعبد الحقّ الإشبيليّ (ص ٢١٧).

ومن كِبارِ الفقهاء ابنُ الحسنِ الصغيّرُ (بالتصغير في الأغلب) عليُّ بنُ عبدِ الحقّ الزَرْويليّ (ت ٧١٩ هـ) قاضي فاسَ له: الدرّ النَثير في النوازل والأحكام - تَقْييدٌ على المُدوّنة (في عدّة مجلّدات) - فَتاوى - تقييد على الرسالة (لابن أبي زيد) - تقييد على التهذيب.

ولابن الفَخّار الجُذامي المالِقي (ت ٧٢٣ هـ)(**) شرح الرسالة - تحريم الشِطْرنج - شرح المختصر (؟). ولابن الشّاطّ القاسم بن عبيد الله الإشبيلي (ت ٧٢٥ هـ): غُنيةُ الرائض في علم الفرائض. ولمحمّدِ بنِ عبد الله بن راشدٍ القَفْصي (ت بعد ٧٣١ هـ): لُباب اللباب فيما تضمّنه الكتاب من الأركان والشروط والموانع والأسباب (في فروع الفقه، تونس ١٣٤٦ هـ) - الشِهاب الثاقب في شرح مختصر ابن الحاجب (في الفروع) - المُذْهَبُ في ضَبْطِ قواعدِ المذهب - الفائقُ في معرفة الأحكام والوثائق - النَّظْم البديعُ في آختصار التفريع - تُحفة اللبيب في آختصار كتاب آبنِ الخطيب (؟). ثمّ هنالك لمحمّدِ بنِ أحمدَ بنِ جُزيٍّ (٦٩٣ - ٧٤١ هـ): القوانينُ الفِقهية: قوانينُ الأحكام الشرعية ومسائل الفروع الفِقهية (تونس ١٣٤١ - ١٣٤٤ هـ) - الأنوار السنيّة في الألفاظ السنّية (؟). ولعبدِ الله بنِ عليٍّ بنِ سَلَمونَ الكِنانيّ الغَرْناطيّ (٦٦٩ - ٧٤١ هـ) الشافي في تحريرُ ما وقع من الخِلافِ بين التبصرة والكافي - وثائق. ثمّ هنالك لعيسى بنِ مسعودٍ الزَواويّ (٦٦٤ - ٧٤٣ هـ): شرحُ جامع الأُمّهات - مناقبُ مالكٍ (بهامش تزيين الممالك للسيوطي، القاهرة ١٣٢٥ هـ). وكذلك لعزٍّ الدين محمّدِ بنِ عبدِ السلام الهوّاريّ المُنَسْتيريّ (٦٧٦ - ٧٤٩ هـ) قاضي الجماعة في تُونِسَ: شرح جامع الأمّهات (لآبن الحاجب) - شرح مختصر آبنِ الحاجب - تقاييدُ على مختصر آبن الحاجب (؟). ديوان

فَتاوَى. وهنالك عبدُ الرحمن الجَزوليّ (ت ٧٤١ هـ) له تقييدٌ على الرِسالة (لآبن أبي زيدٍ القيرواني!).

وهنالك أيضاً آبنُ أبي يَحيى التَّسوليّ (ت ٧٤٩ هـ) له: تقييدٌ على المُدوّنة - شرح الرِسالة - شرح التهذيب - شرح الأجوبة (ص ٢١٧). ثمّ يأتي السطّيّ (ت ٧٥٠ هـ) له: تعليقٌ على المُدوّنة - تعليقٌ على مختصر آبنِ شاسٍ (عبدِ اللهِ بنِ محمّدٍ المِصري المالكيّ المُتوفّى ٦١٦ هـ؟) - شرحُ الحَوْفيّة (عليّ بنِ إبراهيمَ الحَوْفيّ المِصري المتوفّى ٤٣٠ هـ) (ص ٢١٨).

ويحسُنُ قطعُ الكلامِ هنا للتأكيد على قيمة «التَوْثيق» في الفِقه.

اهتّم المغاربةُ والأندلسيّون بالوثائقِ (العُقود التي تُنظَّم بين المتعاملين لدى الكاتبِ العَدْلِ) وألّفوا فيها. من هؤلاء جميعاً عبدُ الله بنُ عليٍّ بنِ سَلمونَ الغَرناطيّ (ت ٧٤١ هـ) وأبو إسحاقَ إبراهيمُ بن يحيى الغَرْناطي (ت ٧٥١ هـ) وأبو القاسمِ بنُ سَلمونَ بن عليٍّ البيّاسيّ الغَرناطي (ت ٧٦٧ هـ) له: العِقْد المُنظّم للحُكّام فيما يجري بينَ أيْديهم من الوثائق والأحكام. وألّف فيها محمّدُ بنُ أحمدَ الفِشتاليّ (ت ٧٧٧ هـ). ثمّ هنالك القاضي أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ الملكِ بن شُعيبٍ الفاسي (ت ٧٧٧ أو ٧٧٩ هـ) له الفائقُ في (علم التأليف بـ) ـالوثائق. ولأبي عِمرانَ موسى بنِ عيسى المَغيليّ (ت ٧٩١ هـ) المُهَذّبُ الرائقُ في تدبيرِ الناشيء من القُضاة وأهلِ الوثائق - قِلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود.

ثمّ استمر الاهتمام بذلك طويلاً، فلأحمدَ بنِ يحيى الوَنشريسيّ التلمساني (ت ٩١٤ هـ): الفائق في الأحكام والوثائق.

ونعودُ إلى المجرى الرئيسِ العامّ في فروعِ الفِقه.

كان من كبار الفقهاء والقضاة، في العلم والإقراء والقضاء، الشريف الغرناطيّ (ت ٧٦٠ هـ)(**) له: حصر مثارات (؟) القضاة بالأدلّة.

وليوسفَ بنِ عُمَرَ الأنفاسيْ (٦٦١ - ٧٦١ هـ) إمامِ جامعِ القَرَوِيّين بفاسَ تقييدٌ على رسالة ابن أبي زيدٍ تداوله الناسُ في أيامه. ولمحمّدِ بنِ محمّدٍ الربعي التونسي (٦٨١ - ٧٦٣ هـ) «مشَيخةٌ» خُرِّجتْ له. ولمحمّدِ بن الحسن المالِقي (ت ٧٧١) شرحُ

مُختصرِ ابن الحاجب. ثمّ لأبي عِمرانَ العَبْدوسيّ (ت٧٧٦ هـ): تقييدُ على المُدوّنة - تقييد على الرسالة - تقييد على التهذيب (ص٢١٧).

ومن كِبار الفُقهاء الإمامُ الحافظ أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ قاسمٍ الفاسيّ المعروفُ بالقَبّاب (ت ٧٧٩ هـ) له: اختصار أحكامِ ابنِ القطّان - شرحُ قواعد القاضي عِياضٍ - بيوعُ ابن جَماعةَ - فَتاوى (ص ٢٠٥، ٢١٨). ومن الفقهاء محمّدُ بنُ أحمدَ الشريشيّ (٦٩٤ - ٧٧٩ هـ) له: شرحُ المِنهاج (للنوويّ، أربعة أجزاء) - زوائدُ الحاوي الصغير على المنهاج - اختصار الروضة.

وهنالك أبو عبدِ الله محمد بن سعيد الرعيني الأندلسي الفاسي (٦٨٥ - ٧٧٨ هـ) الفقيه المحدّث (نفح الطيب ٢ : ٥٦٠) له: اختصار المقدّمات (لابن رشد) - الأسئلة والأجوبة - القواعدُ الخمسُ - المُقدّمات (؟) - شرحُ المقدّمات - الجامعُ المُفيد - تنبيه الغافل وتعليم الجاهل - الروضة البهية في البسملة والتصلية - المهاد في الجهاد (ص ٢١٧).

ومن كبارِ الفقهاء محمّدُ بنُ أحمدَ بن مرزوقٍ التلمساني (٧١٠ - ٧٨١ هـ)(**) له تآليفُ عديدةٌ في فنونٍ كثيرة (راجع الديباج، القاهر، ص ٣٠٥ - ٣٠٩). أمّا الإمامُ الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ)(**) فشُهرته بالأصولِ أكبرُ من شُهرته في الفروع.

ومن كبار الفقهاء ومشهوريهم الإمام الشاطبيّ(**) المشهور أبو اسحاق إبراهيم بن موسى (ت ٧٩٠ هـ). كان مُفسّراً ومحدّثاً وفقيهاً وأصوليًّا نظّاراً[1] ولُغويًّا ونحويًّا وبيانيًّا له آستنتاجاتٌ جليلة وبحوث مُحَرَّرة[2] وقواعدُ محقّقةٌ وكان حريصاً على آتباع السنّة مُجانباً للبِدَع وأهلِها. وكان شاعراً ناثراً، قال لمّا آبْتُلِيَ بأهلِ البِدَع:

بُلِيتُ، يا قومُ، والبلوى مُنوَّعة ... بمن أُداريهِ حتّى كاد يُرْديني[3].
دفعُ المَضرّة لا جلْبٌ لمصلحةٍ[4]: ... فحَسْبِيَ اللهُ في عقلي وفي ديني!

(١) النظّار: المُناظر (الذي يحاول نصر رأيه بالبراهين) وخصوصاً في العقائد الدينية.
(٢) محرّرة (مصحّحة، مضبوطة).
(٣) أردى فلان فلاناً: أهلكه، أماته.
(٤) غايتي دفع الضرر لا الاستفادة الماديّة. في قواعد الفقه أنّ دفع الضرر عن الناس مقدّم على جلب المصلحة لهم.

ومن أقواله: «أمّا من تعسّفَ وطلَبَ المُحتملات والغَلَبَةَ بالمُشكلات وأعرضَ عن الواضحاتِ فيُخاف عليه التشبّه بمن ذمّه (ذمّهم) الله في قولهِ: ﴿فأمّا الذين في قلوبهم زَيْغ فيَتّبعون ما تَشابَهَ[1] منه ٱبتغاءَ الفِتنة وٱبتغاءَ تأويلِه[2]. وما يعلَمُ تأويلَه إلّا اللهُ. والراسخون في العلم يقولون: آمنّا به، كلٌّ من عند ربّنا. وما يذّكّر إلّا أولو الألباب﴾[3].

وكان لا ينظر في كتب المتأخّرين (القريبين من عصره) قال في مقدّمة «الموافقات»:

... وأمّا ما ذكرتم من عدم ٱعتمادي على[4] التآليف المتأخّرة فليس ذلك منّي محضَ رأيٍ، ولكنٍ ٱعتمدْتُه بحسب الخِبرة عند النظر في كتب المتقدّمين معَ المتأخّرين. وأعني بالمتأخّرين (نفراً) كابنِ بشيرٍ وابن شاسٍ وابن الحاجبِ[5] ومَنْ بَعْدَهم، ولأنّ بعض مَنْ لَقِيتُه من العلماني بالفِقه أوصاني بالتحامي[6] عن كتب المتأخّرين....

ومن كتب الإمام الشاطبي: الموافقات أو عنوان التعريف بأصول التكليف (في أصول الفِقه يتوسّط فيه بين مالكٍ وأبي حنيفة) - المجالس (شرح فيه كتابَ البيوع من صحيح البخاري) - ٱلاعتصام (في التوحيد، وقد تكلّم فيه على البدع وتعريفها ومآخذها وأحكامها) - البِدَع والحوادث[7] - أصول النحو - عُنوان الاتّفاق في علم

(١) الزيغ: الميل (بالفتح) والانحراف عن الحقّ والهدى. تشابه الأمران: أشبه كلّ واحد منهما الآخر (الأمر المتشابه: الذي يحتمل معنيين أو أكثر).

(٢) التأويل: الخروج (في التفسير) عن ظاهر الكلام.

(٣) اللبّ (بالضم): العقل. هذه الآية في المتن من سورة آل عمران (٣: ٦ أو سبعة، بحسب التعداد في المصحف).

(٤) «على» زائدة (راجع السطر التالي).

(٥) لم أهتد إلى ابن بشير هذا إلّا في مقدّمة ابن خلدون (بيروت ١٩٦١، ص ٨٠٧، ١٠٢١) وهو من الشرّاح المتأخّرين على «المدوّنة» (في الفقه المالكي) - ابن شاس هو عبد الله بن محمّد (ت ٦١٦ هـ) شيخ الفقهاء المالكية في عصره في مصر. - وابن الحاجب هو عثمان بن عمر (ت ٦٤٦ هـ) من كبار علماء العربية (النحو)، وله كتب في الفقه أيضاً. ولد في مصر، وسكن الشام مدّة، وتوفّي في الإسكندرية.

(٦) العلماني (؟): الكثير العلم. التحامي عن الشيء: اجتنابه، تركه.

(٧) البدعة (الجديد في الدين ممّا لم يفعله السلف). الحوادث (جمع حادثة): ما أحدثه الناس ممّا لا يقرّه الدين.

الأشتقاق- شرحٌ على الخلاصة[1] (في النحو)- الإفادات والإنشادات (فيه طُرَفٌ ومُلَح أدبيّات وإنشادات، أي مقاطعُ من الشعر).

ومن الذين شَهِدوا القرنين الثامنَ والتاسعَ محمّدُ بنُ عبدِ الرحمن الغماريّ المَرّاكُشيُّ، صنّف سَنَةَ ٨٠١ كتاب «إسماع الصُّمِّ في إثبات الشرف من قِبَلِ الأُمّ»[2]. ومنهمُ ٱبنُ عَرَفَةَ الوَرْغَميُّ التونسيّ (ت ٨٠٣ هـ) شيخُ الإسلام في المغرب، له: المُخْتَصر في الفقه- الطرق الناصحة في عمل المناصحة[3]- المبسوط في الفقه- مختصر الفرائض[4]- شرح الفرائض الحَوْفية[5]- الحدودُ الفِقهية. وكذلك منهم ٱبنُ المُلَقِّنِ (ت ٨٠٤ هـ)، وإن كان أكثرُ كُتُبِهِ شروحاً ومُختصراتٍ، له: الإعلامُ بفوائدِ عُمدة الحُكّام- خُلاصةُ الفتاوي في تسهيلِ أسرارِ الحاوي[6]- تصحيح الحاوي- شرح الحاوي الصغير- عُجالة المُحتاج على المِنهاج (للنووي)- شرحُ منهاج النووي (في فروع الفِقه الشافعي)- العِقْد المُذْهَبُ في طَبَقات حَمَلةِ المَذْهَب (؟= العِقد المذهب في طبقات الشافعيّة) نُزْهة النُّظّار في قُضاة الأمصار- كلامٌ على سُنّة الجُمُعة القَبْليّة والبَعْديّة[7] (الهند ١٣١٤ هـ، في مجموعة)- شرح تَنْبِيه الشيرازي (بروكلمان ٢: ١١٣، الملحق ٢: ١٠٩؛ الزركلي ٥: ٢١٨؛ سركيس ٢٥٢).

ولسعيدِ بنِ محمّدٍ التُّجيبيّ العَقباني التِّلِمْسانيّ (٧٢٠ - ٨١١ هـ) شرح الحَوْفية (في

---

(١) الخلاصة: ألفية ابن مالك.

(٢) المفروض أن يكون النسب المعتمد من جانب الأب. فعند العرب قول خاطىء هو أن الأمّ وعاء (أي لا يرث الطفل شيئاً من خصائصها، وهذا طبعاً خطأ). ويبدو أن هذا الكتاب محاولة لنقض هذا الرأي الخاطىء.

(٣) تناصح الرجلان: نصح كلّ واحد منهما الآخر. وناصح فلان نفسه في التوبة: كان مخلصاً فيها وصادقاً.

(٤) الفرائض (هنا) تقسيم الإرث.

(٥) أبو القاسم أحمد بن محمّد بن خلف الحوفي القلاعي الإشبيلي (ت ٥٨٨ هـ) أصله من حوف مصر، كان قاضياً في إشبيلية ومن البارعين في الفرائض (تقسيم الإرث) له فيها «تصانيف كبير ومتوسّط ومختصر، وكلّ ذلك ممّا بلغ في إجادته الغاية» (ابن فرحون ٥٣ - ٥٤؛ بروكلمن ١: ٤٨٠، الملحق ١: ٦٦٣ - ٦٦٤).

(٦) الحاوي (؟).

(٧) في صلاة السنّة قبل صلاة الجمعة وبعد صلاة الجمعة أقوال للفقهاء.

الفرائض)- شرح الجمل للخونجي (محمّد بن نامارو المتوفّى ٦٤٦ هـ). وهنالك عبد الرحمن بن يحيى الأصنوني المغيلي صنّف، سنة ٨١٦، شرح التلمسانية.

وكان محمّدُ بنُ أحمدَ الوانّوغي التونِسيّ (٧٥٩ - ٨١٩ هـ) متعدّدَ نواحي الشخصية واسعَ الإلمامِ بكثيرٍ من فنون المعرفة الدينية والطبيعيّة حتّى قال هو عن نفسه: «أعْرِفُ ثلاثينَ عِلْماً لا يَعْرِفُ أهلُ عصري أسماءَها»! وتآليفه كثيرةٌ، وربّما كرّر التأليفَ في الموضوع الواحد مِراراً (راجع شذرات الذهب ٧: ١٣٨ - ١٤١؛ بغية الوعاة ١٣).

وهنالك الفقيه المشهور أبو بكر بن عاصم (ت ٨٢٩ هـ)(**) الغرناطي، له: تحفة الحكّام في نُكَتِ العقود والأحكام (أرجوزة في قواعد القضاء)، ويُقال لها العاصمية وتحفة عاصم أيضاً (الجزائر ١٨٨٣، باريس ١٨٨٣ (؟)، الجزائر ١٨٩٢ - ١٨٩٣ م؛ الجزائر ١٢٨١ - ١٢٨٣ هـ، فاس ١٢٨٩ هـ) ؛ عليها شروح: لأبي عبد الله محمّد ابن أحمد ميّارة (ت ١٠٧٢ هـ) (القاهرة ١٣١٤ هـ)؛ لعليّ بن عبد السلام التسولي (بولاق ١٢٥٦، القاهرة).

ومن الفقهاء أبو موسى الجَنَاتيّ (ت ٨٣٠ هـ) له تقييدٌ على المُدوّنة. (ص ٢١٧).

والغالبُ على تصانيفِ تقيّ الدينِ محمدِ بنِ أحمدَ الفاسيِّ (٧٧٥ - ٨٣٢ هـ) التاريخُ، ولكن له: إرشادَ الناسكِ إلى معرفةِ المناسك (في الحجّ). ولقاسمِ بنِ عيسى القيروانيّ (ت ٨٣٧ هـ): شرح المُدوّنَة - شرحُ رسالة ابن أبي زيدٍ القيروانيّ (مصر ١٣٣٠ هـ) - خُلاصةٌ من غاية التحصيل وترك التعليل والتزويل (التأويل!) للبرذعيّ (راجع نهاية التحصيل...، بروكلمان ٢: ٣١١، سطر ١٩، الملحق ٢: ٣٣٧، السطر ٤ من أسفل). - شرح التهذيب (مختصر من المدوّنة) لِآبنِ البراذعيّ المتوفّى سنة ٣٧٢ هـ (!).

وهنالك يوسفُ بنُ إبراهيمَ الوانّوغيُّ (ت بعد ٨٣٨ هـ) له: كِفاية الناسك في علم المناسك.

ومن الفقهاء البارعين في الأدب أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ إبراهيمَ بن الشرّانِ الغَرناطيّ، كان لا يزالُ حيًّا في سَنَةِ ٨٣٧، له تصانيفُ منها: الأرجوزة المنظومة في

الفرائض (تقسيم الإرث). وقد شرحها الحاسب المشهور القَلصادي المتوفّى سنة ٨٩١.
جاء في مقدّمة هذه الأرجوزة (نيل الابتهاج ٣١١-٣١٢):

دوامُ حالٍ من المحالْ — واللطف موجود على كلّ حالْ[١].
وعادة الأيام معهودة: — حرب وسلم والليالي سِجالْ[٢].
مَنْ لليالي بٱئتلاف؟ وكم — مِنَ ٱعتبارٍ في ٱختلاف الليالْ[٣]!
والشمس بعدَ الغيم تُجْلى، كما — للغيث من بعد القُنوط ٱنهالْ.
والنصر بالصبر مُحلّى الظُّبا، — والجَدّ بالجِدّ مَريشُ النِّبالْ[٤].
وما على الدهر ٱنتقادٌ على — حالٍ، فإنّ الحالَ ذاتُ ٱنتقالْ.
والسيف قد يصدَأُ في غِمدِه، — ثمّ يُجَلّي صَفْحَتَيْهِ الصِّقالْ.
والفَرَجَ الموهوبُ تجري به — لطائفٌ لم تَجْرِ يوماً ببالْ.
فصابرِ الدهرَ بحالَيْهِ من — حُلْوٍ ومُرّ وٱعتدا وٱعتدالْ[٥].
فما له[٦] صبرٌ على حالةٍ. — وإنّما الصبرُ حُلِيُّ الرجالْ.
ولا يَضِقْ صدرُك من أزْمةٍ — ضاقتْ، فصُنْع الله رحْبُ المَجالْ.

والواضح أنّ هذه الأبيات من مقدّمة الأرجوزة قبل الوصول إلى معالجة تقسيم الإرث.

وٱبنُ مرزوقٍ الحفيدُ محمّدُ بنُ أحمدَ (ت ٨٤٢ هـ)(**) من المشاهير، له: ٱغتنام الفرصة في محادثة عالم قَفْصةَ (ابن يحيى بن عقيبة، في التفسير والفِقه)- شرح مختصر خليل- الأمل في شرح الجمل (للخونجيّ). وهنالك أحمد بن محمّد البرزليّ

---

(١) اللطف (لطف الله بعباده): رعاية الله للبشر بدفع المكروه عنهم.
(٢) معهودة (جرت العادة بأنها سيئة). سجال: متداول (مرّة يكون النصر لهؤلاء ومرّة لأولئك).
(٣) اعتبار = عبرة (درس ذو مغزى). اختلاف الليالي (تنقّلها خيراً وشرًّا).
(٤) الظبة (بضمّ ففتح بلا تشديد): حدّ السيف (لا ينفع الضرب بالسيف إلّا مَعَ الصبر والثبات في القتال). مريش النبال (يوضع للسهم ريش في مؤخرته حتّى يستقيم سيره في الهواء): يصيب هدفه.
(٥) صابر الخصم خصمه: باراه في الصبر (في طول الصبر) وغلبه (صبر أكثر منه).
(٦) للدهر

(٧٤١ - ٨٤٤ هـ)، وقد طال عمره كثيراً، وكان إمام جامع الزيتونة في تونس، له: جامع مسائل الأحكام فيما نزل من القضايا بالْمُفتين والحكّام. وهنالك محمّد بن محمد الغرناطي (٧٨٢ - ٨٥٣ هـ) له: ٱنتصار الفقير السالك لترجيح مذهب مالك. ولقاسم ٱبن سعيد العقباني التلمساني (ت ٨٥٤ هـ) تعليق على ابن الحاجب (في الفقه! راجع الزركلي ٦ : ١٠). ثمّ هنالك لإبراهيم بن فائد الزواويّ الجزائري (٧٩٦ - ٨٥٧ هـ): تسهيل السبيل لمقتطف أزهار خليل - فيض النيل في شرح مختصر خليل - تحفة المشتاق في شرح مختصر خليل بن إسحاق.

وفي سَنَةِ ٨٦٤ صنّف محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ منصورٍ القيسي الأندلسيّ فتوًى في حقوق المرأة المطلّقة.

وذكر خيرُ الدين الزِركليّ ٱثنينِ بٱسمِ محمّدٍ العقباني أثبَتَ مَوْتَهما سَنَةَ ٨٧١: أحدُهما محمدُ بنُ أحمدَ بنِ قاسمِ بنِ سعيدٍ من أهل تِلِمْسانَ له «تُحفةُ الناظر وغُنية الذاكر في حِفظ الشعائر وتغيير المناكر» (٦ : ٢٣١)؛ وثانيهما محمّدُ بنُ العبّاسِ بنِ محمّدِ بنِ عيسى التلمساني النحويُّ أورَدَ له «فتاوَى» وعدداً من كتبِ النحو (٧ : ٥٣). وقد ذَكَرَ بروكلمنُ الأوّلَ منهما (الملحق ٢ : ٣٤٦). وذكر بروكلمن «العقبانيَّ» مجرّداً وأوردَ له حاشيةً على كتابِ ابنِ الحاجب: مُنتهى السؤال (السؤلِ) والأملِ في عِلْمَيِ الأصولِ والجَدَل (الملحق ١ : ٥٣٨، السطر ١١).

وهنالك القوري (ت ٨٧٢ هـ) له: شرح مختصر خليل (في ثمانية مجلّدات) - المنهلُ المورود شرح المَقْصِدِ المحمود لابن الجنّان (من أحياء القرن الثامن) - شرح وثائق الغَرْناطيّ (ص٢١٦، ٢١٧). ولأبي زيدٍ عبدِ الرحمنِ بنِ مخلوفٍ الجزائريِّ (٧٨٦ - ٨٧٥ هـ): جامع الأُمّهات في أحكام العبادات - الإرشادُ إلى مصالحِ العباد - شرحٌ على مُختصر خليلِ بنِ إسحاقَ - شرحٌ على مُختصر ٱبن الحاجب (في فروع الفِقه، جمع فيه نُخَبَ كلامِ ابنِ رشدٍ وابنِ عبدِ السلام وابنِ هارونَ وخليلِ بنِ إسحاقَ وٱبْنِ عرَفةَ).

ونَسَبَ بروكلمنُ (٢ : ٣١٩ مرتين، الملحق ٢ : ٣٤٧، ٣٤٨) «الدُّرَرَ المكنونةَ في نوازل المازونة» إلى أبي عمرانَ موسى بنِ عيسى المغيلي المازوني (ت ٧٩١ هـ) وإلى

ٱبنـهِ أبي يحيى زكريا (ت٨٨٣ هـ)، مع أنّ الفرقَ بينَ سَنَتَيْ وفاتَيْها تُحيل أن يكونَ الثاني ٱبناً للأولِ (ولعل المازونة هذه رسالةٌ أوْ أُرجوزة. ومازونةُ في الأصل فَرَعٌ من قَبيلةِ مغيلة).

وهنالك عبدُ العزيز بنُ عبدِ العزيزِ اللَّمْطيُّ المِكْناسيُّ (ت ٨٨٠ هـ) من أهلِ فاسَ له تقاييدُ على مُختصر خليلٍ (ص ٢٢٠). ثمّ هنالك محمّدُ بنُ محمّدٍ المشذّالي (ت ٨٦٦ هـ) له: تكملةُ حاشيةِ أبي مهدي الوانّوغي على المدوّنة - مختصر البيانِ لابن رشد (رتّبه على نَسَقِ مسائل ٱبنِ الحاجب وجَعَله شرحاً له وردَّ كلّ مسألةٍ إلى موضعها من الإحالات، فجاءت في غايةِ الاتقان والتيْسير؛ وترك من مسائله ما لا تعلّقَ له أصلاً بكلام ٱبنِ الحاجب ولا يَقْرُبُ إليه بوجه) - ٱختصارُ أبحاث ٱبنِ عرَفَةَ (في مختصر ابنِ عرَفَةَ لتلك المسائل المتعلّقة بكلامِ ٱبنِ شاسٍ وابن الحاجب. ثمّ شرح هذه مَعَ زيادةِ شيءٍ يسيرٍ ممّا لم يطلّع عليه ٱبنُ عرَفَةَ). ثم هنالك أبو زكريّا يحيى بنُ عبدِ السلام العلمي القُسنطيني (ت ٨٨٨ هـ) له: تقاييد على المدوّنة - مُختصر خليلٍ - الرسالة. ومن مشاهيرِ الفقهاء والمؤلّفين الإمام محمّدُ بنُ يوسفَ السنوسيُّ (ت ٨٩٥ هـ) له كُتُبٌ منها: شرح مختصر ٱبنِ عرَفَةَ - مكمّل إكمال الإكمال - نُصرة الفقير في الردّ على أبي الحسن الصغير (بالتصغير!) - شرح الوغليسية - نظم في الفرائض - تعليقٌ على (مختصر!) ٱبنِ الحاجب - شرحٌ على الحَوْفية (في الفرائض). ولمحمّدِ بنِ عليٍّ بنِ الأزرقِ (ت ٨٩٦ هـ)(**) شفاءُ الغليل في شرح مُختصر خليل. وهنالك أحمدُ بن زِكري التلمساني (ت ٨٩٩ هـ) له مسائلُ القضاء والفُتيا.

وهنالك أيضاً محّمدُ بنُ أحمدَ السقطي المالَقيّ، كان في أواخرِ القرن التاسع، له كتابٌ في الحِسْبة. ومن فقهاء هذه الحِقبة محّمدُ بن (محمّد بن) يوسفَ الموّاق (ت ٨٩٧ هـ)، عالم غَرْناطةَ في وقته، له: شرحُ مختصرِ خليل. ثمّ يأتي هنا أحمدُ بنُ أحمدَ المعروفُ بزَرّوق (ت ٨٩٩ هـ) له: شرح على رِسالة ٱبن أبي زيدٍ (مصر ١٣٣٢ هـ). وقد أورد له عبد الله كنّون (ص ٢١٨) عدداً من الكُتُبِ في الفِقه وأصول الفِقه والتصوّف لم يُميِّزْ بعضَها من بعضٍ (راجع أيضاً شذرات الذهب ٧: ٣٦٣).

ولأبي سالمٍ إبراهيمَ بنِ هلالٍ (ت ٩٠٣ هـ) شيخِ سِجلْماسةَ ومُفتيها: كتابُ

المناسك (فاس ١٣١٨ هـ) - فتاوى (ص ٢١٧ ثمّ بروكلمن، الملحق ٢ : ٣٤٨).

وكان محمّدُ بن عبدِ الكريم المغيليّ (ت ٩٠٩ هـ) من القائمين بنشر الإسلام وبالأمرِ بالمعروف والنَّهْي عن المُنْكَر في المغرب نفسِه ثمّ في بلادِ السودان فدَخَلَ بلادَ أهر وبلادَ كنّو وكشن ثمّ رحل إلى بلادِ التكرور فوَصَلَ إلى بلدةِ كاغو واجتمع بسُلطانها ساسكي محمّدِ الحاج؛ له تصَانيفُ منها: مُغْني النبيلِ شرحُ مختصرِ خليلٍ - إكليلُ المُغني (حاشيةٌ على مختصر خليل) - أحكام أهل الذِّمة. وكان له شعرٌ يسيرٌ عادي عليه جفافُ لُغةِ العلماء (راجع في ذلك كلّه نيل الابتهاج ص ٣٣٠ - ٣٣٢). من هذا الشعر في إنكار صِحّة المنطق والاكتفاء بقولِ الشرع (وقد كَتَبَ بذلك إلى الإمام جلالِ الدين السُّيوطيّ المُتوفّى سنة ٩١١):

سَمِعْتُ بأمرٍ ما سمعتُ بِمِثْلِهِ؛ وكلُّ حديثٍ حُكْمُه حُكْمُ أصلِهِ[١].
أيمكِنُ أنّ المرءَ في العِلم حُجّةٌ ويَنْهَى عن الفُرقان في بعض قوله[٢]؟
هلِ المنطقُ المَعْنيُّ الاّ عِبارةٌ عن الحقِّ أو تحقيقِه حين جَهْلِه[٣].
مَعانيهِ في كلِّ الكلامِ؛ وهل ترى دليلاً صحيحاً لا يُرَدُّ لشكله[٤]؟
خذِ الحقّ حتى من كَفورٍ، ولا تُقِمْ دليلاً على شخصٍ بمذهبِ مثلِهِ[٥].
عَرَفْناهم بالحقِّ، لا العكسُ، فٱسْتَبِنْ به لا بِهِمْ، إذ هم هُداةٌ لأجلِهِ[٦].

وفي سَنَةِ ٩٠٩ هـ صنّفَ يوسف دليلي البرغماويُّ بنُ محمّدٍ العجيزيّ الحنفي كتاب

---

(١) الحديث (القول المروي عن رسول الله) أو كلّ قول آخر. حكمه حكم أصله (تكون مرتبته في الصحة كمنزلة راويه (أو قائله) من الصدق والثقة.

(٢) الفرقان: القرآن الكريم. ينهى عن الفرقان في بعض قوله (يجعل أقوال الرسول - في بعض الأمور - فوق قول القرآن، كالذين يقولون إنّ السنّة أو أقوال الرسول وأفعاله، تنسخ بعض ما جاء في القرآن).

(٣) المنطق «طريق» للوصول إلى الحقّ أو لاستخراج المجهول من المعلوم.

(٤) معاني المنطق (أحكامه) مأخوذة من الكلام المألوف (ولكن مرتّبة على منهج مخصوص). والدليل الصحيح (على صحّة حكم) يقاس بدليل آخر قام على صحّة حكم آخر.

(٥) لا تحكم على إنسان بمسلك شخص آخر (ولو كانا رفيقين أو جارين أو من أتباع دين واحد).

(٦) نحن نعرف مكانة كلّ إنسان بما في قوله من الصواب، ولا نعرف صواب القول من منزلة قائله عندنا. لأجله = لأجل الحقّ.

المُهمّات في العِبادات (في الفِقه الحَنَفي). ولأبي الحَسَنِ عليٍّ بنِ القاسم التُّجيبي الزقّاقِ (ت ٩١٢ هـ): المنهجُ المُنتخَبُ إلى أصول المذهبِ - لاميّةٌ (في واجباتِ القاضي). وعلى هذينِ المُصنّفين شروحٌ كثيرةٌ مُعظمها مطبوع (بروكلمان ٢: ٣٤١ - ٣٤٢، الملحق ٢: ٣٧٦؛ الزركلي ٥: ١٣٧ = ٤: ٣٢٠).

ومن مشاهيرِ الفقهاءِ أحمدُ بن يحيى التِلمساني الونشريسيّ (ت ٩١٤ هـ) له: إيضاحُ المسالك إلى قواعدِ الإمام أبي عبدِ الله مالك - المنهج الفائق والمنهل الرائق في أحكام الوثائق (في آداب المُوثِّق - طبع فاس ١٢٩٨ هـ؛ في نشرة المراسلات الافريقية بالفرنسية ١٨٨٤ م) - المِعيارُ المُعْرِب عن فتاوَى علماءِ إفريقيةَ والأندلسِ والمَغْرب (فاس ١٣١٤ - ١٣١٥ هـ؛ الوثائق المراكشية بالفرنسية، باريس ١٩٠٨ م) - أسنى المتاجر في بيانِ أحكامِ من غَلَبَ على وطنه النصارى ولم يُهاجِرْ وما يترتّبُ عليه من العقوبة والزواجر (منشن بألمانية ١٨٦٦ م) - كتاب الأقضية (نشره مركز الدراسات العُليا في المغرب، المجلّد الثامن، ١٩٣٧ م).

وفي هذه الحِقبة يأتي محمّدُ بنُ عبدِ الله اليَفَرْنيُّ المِكناسي (ت ٩١٧ هـ) قاضي فاس، له المجالس (في الفِقه) - التنبيه والإعلام فيما قضى به القُضاة وأفتى به الحُكّام من الأوهام (ص ٢١٨). ولابنِ ميمونٍ الادريسيِّ (٩١٧ هـ) رسالةُ الإخوان من أهل الفِقه وحملة القرآن (ص ٢١٧). ومن الفُقهاء والمكثرين في التأليف محمّدُ بن أحمدَ بن غازٍ الفاسيُّ المِكناسيُّ (٨٤١ - ٩١٩ هـ)(**)، له في الفِقه: تحرير المقالة في نظائر الرِسالة (رسالة ابْنِ أبي زيدٍ القيرواني) وهي منظومة - الكُليّات الفِقهية. ولإبراهيمَ الفجيجيّ (ت ٩٢٠ هـ)(**) المفيد في الفِقه. وفي هذه الحِقبة أيضاً مِمّن لا نَعْرِفُ زَمَنَهم بالدِقّة أبو منصورٍ المغراوي السِجِلْماسيّ، له المسائلُ الفِقهية المَنُوطة بالأحكام الشرعية. ثمّ هنالك عبدُ النور العِمرانيّ، له تقييدٌ على المُدوّنة - فتاوى. وربّما دَخَلَ في هذه الحِقبة القاضي محمودُ كعت بن المتوكّلِ كعتٍ الكرمنيُّ داراً التُنْبُكْتِيّ مسكناً الوعكري الصِنهاجي (٨٦٥ - ٩٥٥ هـ)، ولعلّه قد بَلَغَ أشُدَّه في سَنَة ٩٢٥ هـ، له تقييدٌ على مُختصر خليل. وربّما دخل فيها أيضاً محمّدُ بن محمّدٍ الرُّعَيْنيّ الحطّاب

(**) له ترجمة في هذا الجزء.

الصغير (٩٠٢ - ٩٥٤ هـ)، أصلُه من المَغْرب ومولِدُه ومنشؤُهُ في مَكّةَ ووفاتُه في طرابُلُسَ (ليبيا)، وهو فقيه مالكيّ من علماءِ المتصوّفين، له: مواهبُ الجليل في شرحِ مُختصر خليل - إرشاد السالكِ المحتاج إلى بيانِ المُعْتَمِرِ والحاجّ - هدايةُ السالك المُحتاج إلى بيان أفعال المعتمر والحاجّ (أوردَ بركلمان ٢ : ٥٢٦ ، هذين العُنوانين على أنها كتابان مستقلّان) - تحريرُ الكلام في مسائلِ الالتزام (فاس ١٣٠٥ هـ) - شرحُ نظائرِ رسالةِ ابنِ أبي زيدٍ (لابن غز) - مواهب الجليلِ في شرح مُختصر أبي الضياء سيدي خليل (مصر: مطبعة السعادة ١٣٢٨ - ١٣٢٩ هـ؛ المطبعة الميمنية ١٣٣١ هـ).

ومن فقهاء الإباضيّة أبو طاهرٍ إسماعيلُ بنُ موسى الجيطاليّ، من جيطالَ في جبَلِ نفّوسةَ (جنوبَ غربيّ ليبيا اليومَ) له قناطرُ الخيرات (يصف فيه مرورَ المؤمنين على مقاماتٍ سبعَ عَشْرَةَ من قناطرِ الصِراط حتّى يَصِلوا إلى الجنان؛ (القاهرة ١٣٠٧ هـ) - قواعدُ الإسلام (القاهرة ، بلا تاريخ) معَ شرحٍ لعبدِ الله بن محمد الكسبي. ثمّ هنالك أبو الفضل أبو القاسم بنُ إبراهيمُ البرّاديّ الدمّاريّ تلميذُ أبي سكن عامرٍ الشمّاخيّ. صنّف البرّاديُّ، سَنَةَ ٨١٠ هـ؛ «الجواهرَ المُنتقاةَ من إتمام ما أخلى (أخلّ) الدارجيني به (في) كتاب طبقات المشايخ (راجع ترجمة الدارجيني ، ت ٦٧٠). ثمّ يأتي أشهرُ مصنّفي الإباضيّةِ أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ سعيدِ بنِ عبدِ الواحد الشمّاخيّ اليفرنيّ العامري (ت ٩٢٨ هـ)، له: كتاب السِّيَر (مختصرٌ ثمّ تكملةٌ لكتابِ السِّيَر(*) لأبي زكريّا يحيى بن أبي بكر الورجلاني الإباضي المتوفّى سنة ٤٧١ هـ ومن كتاب طبقات المشايخ للدرجيني المتوفى سنة ٦٧٠ ومن كتاب الجواهر المنتقاة للبرّادي) - سرد الحُجّة على أهل الغَفْلة. وهنالك مصنّف إباضيّ آخَرُ، لعلّه من هذه الحِقبة، هو سالمُ بنُ سعيدٍ الصائغي (أو الضائغي؟) له: «لُبابُ الآثار الواردة عن مشايخِ (المشايخ؟) المتأخّرين الاخيار (في الأديان).

أصول الدين وعلم الكلام

وفي الفقهاء من يَغْلِبُ عليه عِلمُ الكلام (في تخريج الأدلّة أو في سِياقة الجدال، وفي

الدفاع عن الرأي المُعْتَقَدِ أو الردّ على آراء المُخالفين في الاعتقاد) أو يَغْلِبُ عليهم التصوّفُ (من إقامة الأحوال الروحية مكانَ الأسباب الماديّة). من هؤلاء جميعاً عبدُ الحكيمِ بن برّاجان الأندلسي له « شرحُ الأسماء الحسنى ». ومنهم محمّدُ بنُ خليلٍ التونِسيّ السكوني (ت ٧١٦ هـ) له « لحن العوامّ فيا يتعلّق بعلم الكلام ». ومنهم المتصوّف عليُّ بنُ محمّدِ بن فَرْحونٍ (ت ٧٤٦ هـ) له: الزاهر (ديوان شعره) - التصدير والتعجيز (أو التذييل) : وكذلك منهم أبو اسحاقَ إبراهيمُ بنُ محمّدٍ المُرسيّ الأندلسي (ت ٧٥١ هـ) له « زهرُ الكِمام في قِصّة يوسفَ عليه السلام » (وهي مَقاماتٌ فيها شواهدُ من القُرآن الكريم والحديث ومن التأمّلِ والأخلاق وأشياءُ من القَصَص، شِعراً ونثراً مسجوعاً). وقد كان لهذه القِصّة شهرةٌ (طُبعت في بودابست سنة ١٨٨١ م؛ القاهرة سنة ١٢٢٧، ١٣٠٦، ١٣٤١ هـ).

ويبدو أنّ كُتَبَ الأصولِ (أصول الدين وأصول الفِقه) كانت في هذه الحِقبة قليلةً. ففي هذا الباب يدخل محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ عليٍّ بنِ البقّال (ت ٧٢٥ هـ) من أهلِ تازة ثمّ سكن فاس. وكان مُلِمًّا بعددٍ من فنون العلم ولكنّه اشتهر بالأصول، له « الأَجْوبة في التفسير والأصول ». وهنالك مُعاصره ابنُ الشاطّ الإشبيليّ (ت ٧٢٥ هـ) له « أنوارُ البروق في تعقّب القواعد والفُروق ». وفي هذه الحِقبة أيضاً محمّدُ بنُ سعيدِ بنِ محمّدِ بنِ عُثمانَ الرُّعَيْنِيُّ (٦٨٥ - ٧٧٨ هـ) الأندلسيُّ الأصلِ الفاسيُّ الدارِ مولداً ووفاةً، له: اختصار المُقدّماتِ المُمهّدات (لابنِ رشدٍ) - اختصارُ حدود الشيرازي - الأسئلة والأجوبة - تنبيه الغافل وتعليم الجاهل - الجامع المفيد - الاعتماد في الجهاد. وكذلك لعبدِ الرحمنِ بنِ أحمدَ الوغليسيّ (ت ٧٨٦ هـ): المقدّمةُ (أو العقيدةُ) الوغليسية - رسالةٌ في الإيمان والإسلام.

وقد مرّ الكلامُ على الإمام المشهور أبي إسحاقَ الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ) عندَ الكلامِ على الفِقه.

وتبرُزُ الإشارة هنا إلى أنسلمو تورميدا الذي وُلِدَ في جزيرة مَيورقَة وتعلّم في لاردة (إسبانية) وبولونيا (إيطالية) وأصبحَ راهباً فرنسيسكانيّا. وكان قد صنّف مُناظرة باللغة الكاتالانية (لهجة شَماليّ شرقيّ إسبانية) اسمُها « الجِدالُ بين الحِمار

والفرنسيسكاني أنسلمو تورميدا ». وقد نَصَحَهُ الأُسقُفُ نقولا مارتلّ بأن يعتنقَ الإسلام - وكان الاسقُف مارتلّ نفسُه مسلماً في قلبه. فانتقلَ انسلمو إلى تُونِسَ سَنَةَ ٨٢٣ هـ (١٤٢٠ م) - قبلَ خروجِ العرب من الأندلُسِ باثنينِ وسبعين عاماً - واعتنق هنالك الإسلامَ وتسمّى عبدَ الله بن عبدِ الله، وعُرف بالتَرْجُمانِ المَيورقيّ[1]، ثمّ صنّف رسالةً عُنوانها: تُحْفة الأريب (أو اللبيب) في الردّ على أهل الصليب.

وهناك أيضاً يحيى بنُ إبراهيمَ بنِ عُمَرَ الرقيليّ من أحياء القرن التاسع له: تجريد المِلّة (في الردّ على اليهود) - كتاب المُجادلة مع اليهود والنصارى.

ومن علماء الكلام في القرن التاسع أبو حفصٍ عُمَرُ بنُ جامعة الإباضيّ له كتاب في العقيدة عليه عددٌ من الشروح. ثمّ هنالك عبدُ العزيزِ بنُ عبدِ العزيز اللَّمْطي المِكناسي (ت نحو ٨٨٠ هـ) له نظمٌ في المَنْطِق وفي الأصول وفي الفِقه. وله تقاييد على « مختصر خليل » (في الفقه).

ولأحمدَ بنِ عبدِ الله الجزائري الزواويّ (٨٠٠ - ٨٨٤ هـ) قصيدةٌ في التوحيد (علم الكلام) تُلْفى بعناوينَ مُختلفةٍ: المنظومةُ الجزائرية - القصيدُ - كِفايةُ المريد (وهي نيِّفٌ وأربعُمائَةِ بيتٍ شَرَحها كثيرون). ومن المُكثرين في التأليفِ أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ أحمدَ بنِ محمّدِ بنِ عيسى البرنسي الفاسيّ المعروفُ بزَرّوق (٨٤٦ - ٨٩٩ هـ) من أهلِ فاسَ، ولكنّه توفّي في تكرين بجوار طرابُلُسَ (ليبيا)، له كُتُبٌ منها: شرحُ مختصر خليل - شرح رسالة أبي زيدٍ القيروانيّ - الجُنّة للمعتصم من البِدَع بالسُّنّة[2] - شرح العقيدة القدسيّة، الخ. ولأبي العبّاس أحمد بن محمّد الفاسيّ (؟)

---

(١) يذكر عبد الله بن عبد الله الترجمان الميورقي في هذه الرسالة بلده ومنشأه ثمّ رحلته ودخوله في الإسلام في أيام الأمير الحفصي (في تونس) أبي العبّاس أحمد (٧٧٢ - ٧٩٦ هـ) وأيام ابنه أبي فارس عزّوز (٧٩٦ - ٨٣٧ هـ) وبيّن مقصود الرسالة في تسعة أبواب (ستّ وثمانين صفحة): وقد طبعت هذه الرسالة في لندن بلا تاريخ. وطبعت في تونس ١٢٩٠ هـ وفي مصر ١٨٩٥ م و ١٩٠٤ م (راجع بروكلمان ٢ : ٣٢٢ - ٣٢٣، الملحق ٢ : ٣٥٢؛ معجم المطبوعات العربية ٦٣٠ عن كشف الظنون).

(٢) الجنّة (بالضمّ): الوقاية. البدعة: الأمر المحدث في الدين ممّا لا يتّفق مع المرويّ في الدين (وإن كان هنالك بدعة حسنة لا ضرر منها ثمّ بدعة سيّئة). السنّة: قول رسول الله وعمله.

أُرجوزةٌ « في أنّ اللغة فضيلة الإنسان » (في المنطق!) صنّفها سَنَةَ ٩٠٠ هـ. ثمّ هنالك أحمد بن محمّد بن زِكْري التِلِمْسانيّ (ت ٩٠٦ هـ) أو قبلَ ذلك بقليل (راجع الأعلام للزركلي، ط ٤، ١:٢٣١ والحاشية التي معه). ولابن زِكري هذا: مُوصل المقاصد (أُرجوزة) - بُغية الطالب - المسائل العشر المسمّاة ببغية المقاصد وخلاصة المراصد (بروكلمن، الملحق ٢: ٢٥٧).

التصوف

وحينما تضعُفُ السُّلطة السياسيةُ أو تختلّ الحياةُ الاجتماعية تتّسعُ الأحوالُ الصوفية، لأنّ الذين يَعْجِزون حينئذٍ عن القيام بالإصلاح الاجتماعي أو يقصّرون في دفع عجلة القوّة المادّية يعتزلون الحياةَ العامّةَ ويستُرون عَجْزَهم بالتظاهر بحياةِ التقوى والتوكُّل.

ففي أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن كان ابنُ الرقّامِ شمسُ الدين أبو الفضل القاسمُ بنُ سعدٍ السبتي التونسي (ت ٧٠٥ هـ)؛ له: اصطلاحُ الصوفية والتنبيه على مقاصدهم الجُزئيّة والكُلّيّة - تكملةُ الأنوار من علوم المُجرّبين الأبرار. وكذلك كان محمّدُ بنُ أبي القاسم الحِمْيَريّ (بروكلمن ٢: ٣٢٧) المعروفُ بابنِ الصبّاغ، له دُرّة الأسرار وتُحفة الأبرار في مناقب سيدي أبي الحسن الشاذلي (تونس ١٣٠٤ هـ).

وفي هذه الحِقبة ابنُ الحاجِّ الفاسيّ أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ محمّدِ العَبْدَريّ القَيْرواني التِلِمْسانيّ (ت القاهرة ٧٣٧ هـ) له: شموس الأنوار وكُنوز الأسرار (الكبرى: سحر وطلاسم) طبع في مصر ١٢٩٧ هـ ثمّ ١٣٢٩ هـ. - المُدخل أو مَدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة، كشف فيه عن معائبَ وبِدَعٍ يفعلُها الناسُ ويتساهلون فيها أكثرُها ممّا يُنْكَرُ وبعضها ممّا يُحتمل (طبع في الاسكندرية ١٢٩٧ هـ والقاهرة ١٣٢٠ هـ) - بلوغ القَصْد والمُنى في خواصّ أسماء الله الحسنى.

ونَجِدُ في القرن الثامن أبا عبدِ الله محمّدَ بنَ سعيدٍ الصِنهاجي، عاشَ في النصف الأوّل من القرن الثامن، له: كنز الأسرار ولَواقح الأفكار - التُحفة الظريفة في الأسرار الشريفة. وكذلك نَجِدُ لعليِّ بنِ عُمَرَ الهوّاريِّ التونسيِّ « مناقبَ الصالح عيّاد

الزيّات ». ونجدُ أيضاً عُمَرَ الجزائريَّ الرشيديَّ، جاء إلى تُونِسَ سَنَةَ ٧٥٧ هـ، وصنّف ابتسام العروس ووَشْيَ الطُّروس في مناقبِ أبي العبّاسِ أحمدَ بنِ عروس (تونس ١٣٠٣ هـ) - قَمْعُ النفوس من كلامِ آبنِ عروس - ديوان (القاهرة ١٨٨٠ م).

وفي هذه الحِقبة كان جمالُ الدين أبو المحاسن يوسفُ بنُ عليّ الندروميّ (من ندرومة قرب وهران بالجزائر اليوم) له قَبَسُ الأنوار وجَمْع الأسرار (في معاني الحروف في أسماء النبات والحيوان) صنّفه سنة ٧٨٦. وفيها الفقيهُ الخطيبُ العارفُ المحقّق أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ إبراهيمَ بنِ عبّادٍ(**) النَّفْزيُّ الرُّنديُّ (٧٣٣ - ٧٩٢ هـ).

وكان فيها أيضاً أبو العبّاس أحمدُ بنُ يوسفَ التُّجيبيّ بن البنّاء السَرَقُسطيّ الفاسيّ (توفيّ في فاس قُبيل مبدأ القرن التاسع) نظم في التصوّف، له: المباحث الأصلية عن جملة الصوفية. وفيها أحمدُ التادليّ المتوفّى في تُونِس بُعيدَ القرن الثامن، له: مناقبُ الصالحة عائشة بنت عِمران المنوبيّ. ثمّ هنالك محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ يعقوبَ الكوميّ التُونِسي، صنّف بُعيدَ ٨١٠ هـ « تيسير المطالب ورَغْبة الطالب ».

ومن المتصوّفةِ المشهورين المُكثرين من التأليف شهابُ الدين أبو العبّاس أبو الفضل أحمدُ بنُ أحمدَ بنِ محمّدِ بنِ عيسى بن زَرّوقٍ الحضّار البرنسي الفاسي (ت ٨٩٩ هـ)، له: الكِناش (أصول الحقيقة والطريقة، مطبوعاً معَ شرحٍ بقلمِ محمّدِ بن أحمدَ الخرّوبيِّ وبعنوانِ: قواعد التصوّف، القاهرة ١٣١٨ هـ) - النصيحة الكافية لمن خصّه الله بالعافية (القاهرة ١٢٨١ هـ) - المَقْصِدُ الأسمى فيما يتعلّق بمقاصد الأسما (الأسماء الحسنى) - المَقْصِد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى - الوظيفة[1] الزرّوقيّة - وظيفة - دعاء - دعاء الصباح ودعاء المساء - نصائحُ - مفاتيح العزّ والنصر في التنبيه على بعض ما يتعلّق بحزب البحر[2]: سفينة النجا (النجاة) فيمن إلى الله التجا (التجأ) - شرح حزب البحر - عمدة (عدّة) المُريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر خواصّ الوقت - شرح القصيدة النونية[3] - شرح عقيدة

---

(١) الوظيفة: أدعية دينية معيّنة يقرأها صاحبها في أوقات راتبة (بآستمرار في أوقات معلومة).

(٢) « حزب البحر » لأبي الحسن عليّ بن عبد الله الشاذلي (ت ٦٥٦ هـ).

(٣) يذكر بروكلمن « شرح القصيدة النونية » هذه، الملحق ٢: ٢٦٢ ثمّ يُحيل (للقصيدة النونية) على ١: =

الغزّاليّ - أُرجوزة في عيوب النفس - تمهيد (تأسيس) عقائد التصوّف وأصوله (أعاد صوغه وحرّره عليُّ بنُ حسام الدين المتقي الهنديّ بعنوان: قواعد الطريقة في الجمع بين الشريعة والحقيقة) - مكاتبة إلى كافّة الفقراء (في الشروط الخمسة للقبول في الطريقة) - الذِكْر (الحقيقي) - الدُّرَر المنتخبة في الأدوية (الأدعية؟) المُجرّبة - الجامع لجُمَلٍ من الفوائد والمنافع - المواهب السنيّة - المباحث السنيّة في خواصّ منظومة نور الدين الدِّمياطيّ (نظم أسماء الله الحُسنى) - الكشف - شرح الحكم العطائية[1] - شرح المقدّمة الوغليسية[2].

وفي سنة ٨٣٠ هـ صنّف محمّدُ المفضّلُ بنُ الهادي بنِ أحمدَ بنِ عزّوزٍ «كشف الرانِ[3] عن فؤادِ مانع الزيارة ومدّعي تفضيل الوظيفة على القرآن والدليل (على ذلك) والبرهان. وفي سَنَةِ ٨٦٠ هـ صنّف عليُّ بنُ عيسى بنِ سلامةَ البَسْكريّ «اللوامع والأسرار في منافع القرآن والأخبار».

وفي هذه الحِقبة أيضاً إبراهيمُ التازيّ الوهراني (ت ٨٦٦ هـ) له: النُّصح التامّ للخاصّ والعامّ (قصيدة في المواعظ والحكم) - المراديّة (؟). وله في هذا الجزء ترجمة مفردة. ومن المتصوّفة المشهورين أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ سُليمانَ الجزولي (ت ٨٧٠ هـ) صاحب «دلائلِ الخيرات» (بروكلمن ٢ : ٣٢٧) له ترجمة مفردة.

وهنالك محمّدُ بنُ محمّدِ بن يعقوب الكومي التونسي (ت بعد ٨٨٠ هـ) له: تيسير المطالب ورغبة الطالب (في أسرار الحروف) - الإيماء إلى علم الأسماء (بروكلمن ٢ :

= ٤٨٤ (الترقيم للطبعة الأولى) أو ١ : ٦٣٧ - ٦٣٨ (الترقيم للطبعة الثانية). ثمّ وقعتُ في بروكلمن، الملحق ١ : ٤٨٤ على «القصيدة النونية» لأبي الحسن عليّ بن عبد الله الشُشتري المتصوّف (ت ٦٦٨ هـ). وفي نفح الطيب (٢ : ١٨٦ - ١٨٧): وقال (الششتري)، وهي من أشهر ما قال: «أرى طالباً منّا الزيادة لا الحسنى......»، وهي طويلة مشهورة في الشرق والغرب، وقد شرحها شيخ شيوخنا (كذا ثلاث مرّات) العارف بالله تعالى سيدي أحمد زرّوق.

(١) الحكم العطائية لأحمد بن محمّد بن عطاء الله الاسكندري (ت ٧٠٩ هـ) المتصوّف.

(٢) المقدّمة الوغليسية (في الأصول: أصول الدين) لأبيّ زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي (ت ٧٨٦ هـ).

(٣) الران: الغطاء والحجاب الكثيف. الزيارة (لقبر الرسول في المدينة). الوظيفة (راجع الحاشية على الصفحة السابقة). على القرآن (على قراءة القرآن).

٣٢٨)؛ وفي سنة ٨٩١ هـ صنّف أبو النجم ركن الدين الخطيب المغربي «عقائق الحقائق».

ومن أكابر رجالِ التصوّف الإمام أبو عبد الله مُحمّدُ بن يوسف بن عمر بن شُعيب السنوسيّ (نسبة إلى قبيلةٍ من المغرب) التِلِمساني الحَسَني (٨٣٢ - ٨٩٥ هـ) كان متعدّدَ نواحي الشخصية مُلِمًّا بعددٍ كبيرٍ من علوم الدين ومن علوم الدنيا حتّى أيْساغوجي (المُدخل إلى المنطق) والفلسفة والطِبّ وعِلم الجبر والمَقابَلة وعلم الأسطرلاب (الفلك). ولكنّه انفرد بعِلم الباطن (التصوّف) وفاقَ به أهلَ بلدهِ وزمنه. ومن أقواله:

«من الغرائبِ في زمانِنا هذا أن يُوجد عالمٌ جُمع له علم الظاهر (الفِقه) والباطن (التصوّف) على أكملِ وجه بحيث يُنْتَفَعُ به في العِلمين. فوجود مثلهِ في غاية النُّدور. فمَنْ وجَدَه فقد وجد كَنْزاً عظيماً دُنْيا وأُخرَى فَلْيَشُدَّ عليه يدَه لئلاّ يضيعَ عن قريبٍ فلا يَجدَ مثلَه شرقاً وغرباً أبداً - الوليُّ الحقيقيّ من لو كُشِفَتْ له الجنّةُ وحُورُها ما ٱلْتفتَ إليها ولا ركَنَ لغيرِه تعالى. فهذه حقيقة العارف. - حقيقة العبودية امتثالُ الأمرِ وٱجتنابُ النّهْيِ مَعَ كمالِ الذِّلّة والخُضوع».

وللإمام السنوسي من الكتب: شرح الفاتحة - شرح صحيح البخاريّ - مكمّل إكمال الإكمال (شرح على صحيح مسلم) - شرح الفرائض الحَوْفيّة - المقرّب المستوفي في شرح فرائض الحَوْفي - شرح كَلِمتَيْ الشهادة - الدليل على أن الشهادتين تجمعان جميع صفات الله ورسوله - شرح أسماء الله الحُسنى - العقيدة الكبرى = عقيدة أهل التوحيد والتسديد المُخرِجة من ظلمات الجهل ورِبْقة (رِبقات) التقليد المُرغمة أنفَ كلِّ مُبتدعٍ عنيد، القاهرة ١٣٠٦ - شَرْحُها للسنوسيّ نفسهِ (أعمدة أهل التوفيق والتسديد في عقيدة أهل التوحيد) مصر ١٣١٧ هـ. - العِقْد الفريد (المنهاج السديد)؟ - العقيدة الوسطى (السنوسية الوسطى = الجمل = المرشدة) مَعَ شَرْحٍ لها للسنوسي - حاشية عليها لمحمود المَقْدسي، تونس ١٣٢١ هـ. - العقيدة الصغرى = عقيدة أهل التوحيد الصغرى = أمّ البراهين في العقائد (مختصر محتو على عقائد التوحيد)، ليبسك ١٨٤٨ م، الجزائر ١٨٩٦ م، فاس (مراراً)، فاس (في مجموعة) ١٣١٧ هـ، جاوى ١٣١٨ هـ، مصر ١٢٧١، ١٢٧٣، ١٢٨٨، ١٢٩٧،

١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٦ ، ١٣٢٣ هـ - شَرْحٌ عليها للسنوسي: توحيد أهل العِرفان ومعرفة الله ورسوله والبرهان (بالبرهان)، تراني (قرب باري في إيطالية) ١٩١٤ م؛- مع شرح لها باللغة الملاوية لزين العابدين محمّد بتّاني، بنانع ١٣١٠ هـ - شرح (بالأردو)؟ لمحمّد زين بن جلال الدين ( ) بومباي ١٣١٠ هـ - (نشره غابرييلي)، تراني (قرب باري في ايطالية) ١٩١٤ م - (نشرها هورتن في «نصوص قديمة» رقم ٣٩) بونٌ (ألمانية) ١٩١٦ م - (نشرها لوشياني في المجلّة الافريقية وعلّق عليها باللغة الفرنسية) الجزائر ١٨٩٦ م (راجع معجم المطبوعات العربية ١٠٥٨ ، قارنه ببروكلمن، الملحق ٢ : ٣٥٣ : المجلة الإفريقية، رقم ٤٢ ، عام ١٨٩٨ م)- حاشية لمحمّد بن أحمد الدسوقي (ت ١٢٣٠ هـ)، بولاق ١٢٨١ ، ١٢٩٧؛ القاهرة ١٢٩٠ ، ١٢٩٥ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣٣١ الخ - حاشية لإبراهيم الباجوري (١١٩٨ - ١٢٧٧ هـ)، بولاق ١٢٧٢ ، ١٢٧٧ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٨ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣١٠ ، ١٣٣٠ (مع شرح أحمد الأجهوري على الهامش) ثمّ (طبع حجر) القاهرة ١٢٧٩ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٨ ، ١٣٠٧ ، ١٣١٠ ، ١٣١٨ هـ - حاشية لعبد الله بن حجازي الشرقاوي (ت ١٢٢٧ هـ)، القاهرة ١٢٩٢ هـ - حاشية لأبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي العريف (ت ١٠٩٦ هـ) في مجموعة، فاس ١٣٠٦ - ١٣٠٨ هـ - حاشية: ذريعة اليقين إلى أمّ البراهين لمحمّد بن عمر النوويّ الجاويّ، القاهرة ١٣١٣ هـ ، مكّة ١٣١٧ هـ - حاشية لمحمّد زين، الاستانة ١٣٠٢ هـ - حاشية: سراج الهدى لمحمّد زين السمباوي (باللغة المالاوية)، مكّة ١٣٠٣ هـ.

وللإمام السنوسي أيضاً: المقدّمة (في الفلسفة: الإلّهيات والتوحيد، نشرها لوشيانو) الجزائر ١٩٠٨ م - شرح المقدّمة (شرحها السنوسي)- مختصر المقدّمة (المواهب الربانية، شرحها إبراهيم بن الحسن البنّاني السرقسطي) مطبوعة على هامش «العقيدة الصغرى»، القاهرة ١٣٠٤ ، ١٣٢٢ هـ. - نصرة الفقير = نصرة أهل الدين وأهل اليقين على من تعرّض في التطريق (؟) (في الردّ على أبي الحسن الصغير،

بالتصغير؟، المكناسي) - عمدة ذوي الألباب - كتاب الحدائق - جواب عمّن (؟) سأله عن وزن الأعمال - صلوات - رسالة (بلا عنوان) - جواب عن سؤال عن أبيات لبعض الصوفية - ترجمة (؟) المقامة النبوية - جواب على سؤال أُلْقِيَ على بعض الأخيار في النوم - المُجرَّبات (المحلّي بالمجرّبات)، بولاق ١٢٧٩ هـ، مصر ١٢٩٦، ١٣١٦ هـ؛ (بهامش مجرّبات الديربي) القاهرة ١٣١٨ هـ. - شرح كتاب ايساغوجي (شرح الايساغوجي) - مختصر علم المنطق (مع حاشية الباجوري على شرح السنوسي على مختصر السنوسي في علم المنطق)، ضمن مجموعة، مصر ١٢٩٢ هـ. - مختصر المنطق مع شرحه للسنوسي نفسه، حاشية على الشرح لمحمّد بن الحسن البنّاني السرقسطي (ت ١١٩٤ هـ)، فاس ١٣٠٢ هـ - حاشية على مختصر المنطق للباجوري، القاهرة ١٢٩١، ١٣٢١ هـ - الطبّ النبوي = تفسير ما تضمّنته كلمة (!) خير البرية من غامض أسرار الصناعة الطبّيّة - شرح على حديث «المعدة بيت الداء».

ومن المؤلّفين في التصوّف، في هذه الحِقبة بركاتُ بن أحمدَ بن محمّد العروسي النجّار القسنطينيّ، كان في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر، له: وسيلة المتوسّلين في الصلاة على سيّد المرسلين - تذكرة الغافل وتبصرة الجاهل.

ومن الذين ألّفوا في التصوّف أبو عبد الله محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ السكّاكِ المِكْناسيُّ (ت قبيل ٩١٤ هـ) له استنزال اللطائف الرِضْوانيّة - نُصْح ملوك الإسلام بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام - أُسلوبٌ من الكلام على «لا حولَ ولا قُوّةَ إلاّ بالله».

ويأتي في هذه الحِقبة أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ محمّدِ الصبّاغُ قاضي القضاة في القَلْعة (في القُطر الجزائريّ) كان في أوائل القرن العاشر، وقد صنّف بُستان الأزهار في مناقب زمزمِ الأخيار ومَعْدِنِ الأنوار سيدي أحمدَ بنِ يوسفَ الرشيدي (دفين مِليانة بالقطر الجزائري نحوَ سَنَةَ ٩٢٠) - شفاء الغليل - شرح على الذِكْر - وله أقوالٌ نشرها رينيه باسّه، باريس ١٨٩٠ م.

ثمّ هنالك الفقيهُ الصوفي محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ صَعْدٍ التلمساني[1] (ت مصر ٩٠١ هـ)

---

(١) راجع بروكلمن، الملحق ٢: ٣٦٢، وفيه بن سعد (خطأ في الطبع)، ثم الأعلام للزركلي ٦:٢٣١ (٥: ٣٣٥).

تلميذ السنوسيّ، له: النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب - روضةُ النِّسرين في مناقب الأربعة المتأخّرين (الهوّاريّ، وإبراهيم التازي والحسن أبركان وأحمد بن الحسن الغماري) - مفاخر الإسلام في فضل الصلاة على النبيّ عليه السلام.

وعاش في النصف الأوّل من القرن العاشر برهانُ الدين إبراهيمُ بنُ محمودٍ الشاذليُّ (ت نحو ٩٠٦ هـ) له: أصولُ مقدّماتِ الوصول - حزب المغرب - التفريد بضوابط قواعد التوحيد.

التاريخ والجغرافية

يَلي ٱتّساعَ التأليفِ في العلوم الدينية، في عصرِ بني نَصْرٍ، ٱتّساعُ التأليفِ في التاريخ لأنّ التاريخَ من الفُنون التي يتأسّى بها الناس في أيام ضَعْفِهِم. فمِنْ أوائلِ الذين ٱشتغلوا بِكتابة التاريخ في هذا العصر يوسُفُ بنُ محمّدٍ البيّاسيُّ (ت ٦٥٤ هـ)، له الإعلامُ بالحروب في صَدْرِ الإسلام. وفي أيّامِه كان أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ عبدِ الله بن الأبارِ القُضاعي (★★) (ت ٦٥٨ هـ) الذي كَثُرَتْ تصانيفه في التاريخ السياسيّ والتراجم وفي تاريخ الأدب. ثمّ يأتي أبو الحسنِ عليُّ ٱبنُ موسى بنِ سعيدٍ العَنْسيّ(★★) (ت ٦٨٥ هـ) آخِرُ الذين عَمِلوا في تأليف كتاب «المُغْرِبِ في حُلى المَغْرب»، له «كتابُ الجُغرافية» (بيروت - المكتب التجاري ١٩٧٠ م). ولعبدِ العزيز بنِ محمّدٍ المَلْزوزيّ(★★) (ت ٦٨٥ هـ) كتابٌ في تاريخ المغرب لا نَعْرِفُ له عُنواناً خاصًّا. ثمّ يأتي أبو محمّدٍ العَبْدريُّ البَلَنْسيّ(★★) صاحب «الرِحلةِ المَغْربية» التي بدأ القيامَ بها سَنَةَ ٦٨٨ للهجرة.

فإذا ٱنتقَلْنا إلى القرن الثامنِ وَجَدْنا أبا العبّاس الغِبريني (★★) (ت ٧١٤ هـ) صاحبَ «عُنوانِ الدِراية فيمن عُرِفَ من العلماء في المِائَةِ السابعةِ بِبِجايةَ» (في القطر الجزائري اليوم)، وَهُوَ كتابُ تراجمَ؛ ثمّ وَجَدْنا ٱبنَ عِذاري (★★) (ت ٧٢٥ للهِجرة، في الأغلب)، وله «البَيانُ المُغْرِبِ في أخبار إفريقيةَ والمَغْرب»، سَرَدَ فيه أولاً تاريخَ المَغْرِبِ ثمّ تاريخَ الأندَلُس. وهنالك أبو الحسن عليُّ بنُ عبدِ الله (أو ٱبنِ محمّدٍ) الفاسيُّ(★★) (ت ٧٢٦ هـ) له «الأنيس المُطرِبُ برَوْضِ القِرْطاس في أخبارِ ملوك

المَغْرب وتاريخِ مدينة فاس ». وهنالك قاضي غَرْناطةَ أبو عبد اللهِ محمّدُ بنُ يحيى بن أبي بكرٍ (قُتِلَ شهيداً في وَقْعةِ طَريفٍ، ٧٤١ هـ) له « التمهيدُ والبَيانُ في فضلِ الشهيدِ عُثمانَ بنِ عفّان » - وكأنّه نَظَرَ عند تأليفِ هذا الكتابِ إلى مَوْتِه هو شهيداً. ولأبي البقاءِ خالدِ بنِ عيسى البَلَويّ(**) رِحلة (٧٣٦ - ٧٤٠ هـ) سمّاها « تاجَ المَفرِق بتَحْليَةِ عُلماءِ المَشْرق »، وقد مَلأها بالسَّجْع. ويأتي هنا أيضاً أبو الحسنِ عليٌّ الجزنائي(**) (ت ٧٤٩ هـ) له « زهرُ الآس » (في بناء مدينة فاس). وفي هذا العصر المؤرّخ المُوسِعي لسانُ الدين بنُ الخطيب(**) (ت ٧٧٦ هـ) والرّحالةُ آبْنُ بَطّوطةَ(**) (ت ٧٧٩ هـ)، وشُهْرتُهما في فُنونِهما واسعة. ولأبي زكريّا يحيى بنِ محمّدِ بنِ خَلْدونٍ(**) (قُتِلَ بتِلْمسانَ، سَنَةَ ٧٨٠ هـ)، له « بُغْيةُ الرُّوّاد في ذِكرِ الملوك من بني عبدِ الواد ». ثمّ هنالك لعبدِ اللهِ بنِ إبراهيمَ الأَصيليّ (ت ٧٩٢ هـ) « عُمدةُ الطالب في نَسَبِ آلِ أبي طالبٍ ».

ومن كبارِ المؤرّخين مؤسّسُ عِلمِ التاريخ ومُوجِدُ علمِ الآجتماع عبدُ الرحمنِ آبنُ خَلْدونٍ(**) (ت ٨٠٨ هـ). ويأتي هنا أبو الفضلِ أبو القاسمِ إبراهيمُ البَرّاديُّ تلميذُ الشيخِ عامرٍ الشمّاخي (ت ٧٩٢ هـ). وقد صنّف البَرّاديُّ، سَنَةَ ٨١٠ هـ، كتابَ الجواهرِ المُنْتَقاةِ في إتمام ما أخَلَّ به كتابُ الطَبَقات » (القاهرة ١٣٠٢ هـ). وكتابُ الطَبَقاتِ المُشار إليه هنا، هو « طَبقاتُ المشايخ » (في حياةِ الرسولِ والصَّحابةِ والأئِمّةِ الرُستُميّين وعلماءِ الإباضيّة) لأبي العباسِ أحمدَ بنِ سعيدٍ الدَّرْجِينيّ، ألّفه الدَّرجينيُّ بُعيدَ سَنَةَ ٦٢٦ للهِجرة.

ومن أُسرةِ بني نَصْرٍ (أو بني الأحمرِ) في غَرْناطةَ أبو الوليدِ إسماعيلُ بْنُ يوسُفَ بنِ مُحمّدٍ(**) (ت ٨١٠ هـ، في الأغلب) له عددٌ من كُتُبِ التاريخ: نَثْرُ الجُمانِ في شِعْرِ مَنْ نَظَمَني وإياهُ الزمانُ - نَثيرُ إفراد (؟) الجُمان في نَظْمِ فُحولِ الزمان (من أحياء المِائةِ الثامنة) - مشاهيرُ بيوتاتِ فاس - حديقةُ النِّسْرين في أخبارِ بني مَرينٍ. ولأبي العبّاسِ أحمدَ بنِ الحُسينِ (أو الحسن) بنِ عليٍّ بن قُنْفذٍ (ت ٨١٠ هـ) « كتاب الوَفَياتِ » مُرتَّباً على السِّنين، وهو على غايةٍ من الإيجاز. ثمّ يأتي القاسمُ بنُ عيسى بنِ الناجي القَيْرَوانيّ (ت ٨٣٧ هـ) القاضي، وخطيبُ جامعِ الزيتونةِ، له « معالمُ

الإيمان » (في أقسام) : وصفِ المساجدِ القديمة ، تاريخِ بناءِ القَيْروان ، وتَراجمَ نَفَرٍ من المشاهير). وبعد أمَدٍ نَجِدُ مُحمّدَ بنَ عليٍّ الشاطبيَّ المَغْربيَّ الذي صنّف ، في تازة (في المَغرب الأقصى) ، سَنَةَ ٨٧٠ للهجرة ، « عُقودَ الجُمان في (مختصر) أخبارِ الزمان » . ثمّ هنالك محمّدُ بنُ عبدِ الله بن عبدِ الجليل التَنَسِيّ (ت ٨٩٩ هـ) ، له « نَظْمُ الدُّرَرِ والعِقْيانِ في بَيانِ شَرَفِ بني زَيّان » .

ويأتي أخيراً أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ غازٍ(★★) (ت ٩١٩ هـ) ، له « الرَّوْضُ الهَتون في أخبار مِكناسةِ الزيتون » . ثمّ يأتي في أعقابِ هذا العصرِ أبو العبّاس أحمدُ آبنُ أبي عثمانَ سعيدِ بنِ عبدِ الواحد الشَّمّاخيُّ اليَفْرَنيُّ العامريُّ المُتوفّى في جبَل نَفّوسةَ (جَنوبَ غربيّ ليبيا اليومَ) في جُمادى الأولى من سَنَةِ ٩٢٨ (نَيْسانَ - إبريلَ ١٥٢٢ م) ، له كتابُ « السِّيَرِ » آخْتَصَرهُ من كتابِ أبي زكريّا يحيى بنِ أبي بكرٍ الوَرْجَلانيّ (ت ٤٣١ هـ) وعنوانه : « السِّيَرُ وأخبارُ الأئِمّة » (تاريخ أئمّةِ الإباضيّة في مَزابَ بجَنوبيِّ الجزائر) ومن كتاب الطَبَقات للدرجيني ومن الجواهرِ المُنتقاةِ للبرّاديّ (راجع في الدرجينيّ والبّراديّ ، فوق ، ص ٨١) ثمّ زادَ على هذه الكتب تَرَاجِمَ (إلى قريبٍ من زَمَنِه).

والسياسةُ العامّة شديدةُ الصِلة بالتاريخ . ولقد مرّ بنا شيءٌ من ذلك في الكلام على أبي بكرٍ محمّدِ بنِ الوليدِ الطُّرطوشيّ(★★) (ت ٥٢٠ هـ) ويحسُنُ هنا مدُّ الكلامِ قليلاً في أبي حَمّو موسى (الثاني) بنِ أبي يعقوبَ يوسُفَ بنِ أبي زكريّا يَحْيى بن أبي يحيى يَغْمُراسَنَ بن زَيّانَ . ويَغْمُراسَنُ بنُ زَيّانَ (٦٠٣ - ٦٨١ هـ) هذا آستَقلّ بمدينةِ تِلمْسانَ (القُطر الجزائري) بعدَ ضَعْفِ دولة المُوَحِّدينَ وأنشأ سلطنةَ فَرْعِ زيّانَ من بني عبدِ الواد .

وُلِدَ أبو حمّو موسى بنُ يوسُفَ ، سَنَةَ ٧٢٣ للهجرة (١٣٢٣ م) ، في غَرْناطة (الأندلُس) حيثُ كان أبوه مُبْعَداً . وفي أواخرِ سَنَةِ ٧٣٦ للهجرة (أواسطِ ١٣٣٦ م) آسْتولى المَرينيّون على تِلِمْسانَ وأزالوا مُلْكَ بني زَيّان . ثمّ إنّ أبا حمّو موسى بنُ يوسُفَ آستطاع بعدَ أمدٍ ، في صَفَرَ من سَنَةِ ٧٦٠ (كانون الثاني - يناير ١٣٥٩ م) ، وفي حديثٍ طويل ، أن يدخُلَ تِلِمْسانَ ويُعيدَ مُلْكَ بني زَيّان . وجعَلَ أبو حمّو موسى

(الثاني) هذا لدولةِ بني زيّانَ قوّةً وأُبّهَةً. غير أنّ الدهرَ لَمْ يَصْفُ لأبي حمّو فنازَعَهُ أولادُهُ ثمّ قُتِلَ هُوَ في مَعْركَةِ الغيران (على نِصف يوم ٍ من تلمسان - في محاربة آبنهِ عبدِ الرحمنِ - في رابع ِ ذي الحِجّة من سَنَةِ ٧٩١ (٢٣/ ١١/ ١٣٨٩ م).

وكان أبو حمّو موسى بنُ يوسُفَ حازماً حكيماً وإداريًّا عُمرانيًّا ومُثقّفاً مُصَنِّفاً وَصَلَ إلينا منه كتابٌ قَيِّمٌ في السِياسة العامّة آسمه[1] «واسطةُ السُّلوك في سِياسة المُلوك»، ألَّفَهُ بينَ ٧٧١ و٧٧٧ للهجرة (١٣٣٩ - ١٣٧٥ م) وجعَلَهُ أربعةَ أقسام ٍ: في قواعدِ المُلك والوصايا والآداب والحِكَمِ المُرشِدة إلى طُرُق الصواب (في الحُكْم) - في قواعدِ المُلْكِ وأركانهِ وما يَحتاجُ إليه المَلِكُ في قِوام ِ سُلطانه - في الأوصاف التي هي نِظام المُلْك وكَماله وبَهْجَتُه وجَماله - في الفِراسة (معرفة خفايا الناس من النظرِ إلى وُجوهِهم ومن كلامهم وسُلوكِهم) وهي خاتمة السياسة.

ولا شكَّ في أن أبا حمّو قدِ آعتمد عدداً من المصادر آستقى منها أحكامَه وأمْثِلَته أبرزُها أثراً في كِتابه: سراجُ الملوك للطُّرطوشيّ (ت ٥٢٠ هـ) - كتاب العِقْد لابن عبدِ ربّه (ت ٣٢٨ هـ) - المنهج المسلوك في سياسة الملوك لعبد الله آبن عبد الرحمن[2] - سُلْوانُ المُطاع في عُدوانِ الاتّباع لمحمّدِ بن عبدِ الله بن ظَفَرِ المالكيّ (ت ٥٦٥ هـ).

---

(١) الأسطر التالية المتعلّقة بأبي حمّو موسى (الثاني) الزيّاني مستقاة من البحث التالي: النظرية السياسية للسلطان أبي حمّو الزيّاني الثاني لوداد القاضي - في مجلة «الأبحاث» (مجلة يصدرها مركز الدراسات العربية ودراسات الشرق الأوسط: كلية الآداب والعلوم - الجامعة الأميركية، رئيس التحرير: إحسان عبّاس - الجامعة الأميركية في بيروت) السنة ٢٧ (١٩٧٨ - ١٩٧٩ م).

(٢) هو جلال الدين أبو النجيب أبو الفضائل عبد الرحمن بن نصر (الله) بن عبد الله بن نصر بن عبد الله الشيزري (نسبة إلى شيزر - قرب حماة في شماليّ الشام: سورية) التبريزي العدوي النبراوي (بفتح ففتح فيهما)، عاش مدّة طويلة في حلب وكان كاتباً عند صلاح الدين الأيوبي، وتولّى القضاء في طبريّة. ثمّ كانت وفاته سنة ٥٨٩ للهجرة (١١٩٣ م). وكان عبد الرحمن بن نصر هذا مصنّفاً له: النهج المسلوك (أو نهج السلوك) في سياسة الملوك (ألّفه لصلاح الدين الأيوبي) ثمّ خلاصة الكلام في تأويل الأحلام (راجع بروكلمن ١: ٦٠٣، الملحق ١: ٨٢٢ - ٨٢٣). وقد اضطرب يوسف اليان سركيس في فهرسته الجامع «معجم المطبوعات العربية والمعرّبة» فأورد اسمه في أمكنة مختلفة، قال: أبو الفرج عبد الرحمن نصر بن عبد الله الشيرازي نبغ في حلب (سنة) ٥٦٥، له خلاصة الكلام في تأويل الأحلام، باريس ١٨٦٤ (ص ١١٧٥)؛ وقال: الشيخ عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، توفّي ٥٨٩، له «المنهج =

وتحاول ودادُ[1] القاضي صُنعَ نظريّةٍ سِياسيةٍ لأبي حمّو تُقيمها على الأُسُس التالية: خُلُقُ المَلِك: القاعدةُ الرُّباعية (الفضائل الأربعة: العقل والشجاعة والعدل ثمّ الكرم والحِلم والعَفْو كأنّها شيءٌ واحدٌ، حتى يُصْبِحَ العددُ هنا أربعةً). وأما الأساس الثاني فهو رعيّةُ الملك (وتُسمّيها صاحبةُ المقال: القاعدةَ البيروقراطية)، أي مرافقُ الدولة أو خُطَطُها أو مناصبها والموظفون مِنَ الذين يقومون بالعمل في هذه المناصب. والأساس الثالث: مال المَلِك (القاعدة الآقتصادية) أوِ الجِباية وإنفاقُ مالِ الدولة وحُسنُ القِيام على هذا المال في جِبايتِهِ وفي إنفاقه. والأساس الرابع: جيشُ المَلِك (القاعدة العسكرية) حُسنُ معاملةِ الجُند والتفطُّنُ لمقاصِدِ العَدُوّ وحركاته. والأساس الخامس: فَراسة المَلِك (القاعدة السيكولوجيّة). ولقد أولى أبو حمّو هذا الأساس آهتماماً كبيراً فيما يتعلّق برجاله وأعوانه وبما يتعلّق بخُصومِه وأعدائه.

ولا ريب في أن هذا الكتاب - واسطة السلوك في سياسة الملوك (كما يظهر من مقال وداد القاضي) - نصائح شخصيّة جمعها أبو حمّو من طريق حياته (من قراءته في الكتب ومن اختباره في الإدارة والحرب). ويبدو أن أبا حمّو قد حاول أن يبوّبها تبويباً عاقلاً نافعاً.

ولا يغيب عن المطالع في مقال وداد القاضي أن أبا حمّو قدِ آستفاد من كتاب «كليلة ودمنة»، كما استفاد من المأثورات عن أفلاطون والواردة في الكتب العربية. إنّ ما سمّته وداد القاضي: خُلُقُ المَلِك أو القاعدةَ الرُّباعية - وهي العقل والشجاعة والعدل... والحِلم... - إنّما هي الفضائل الأربع عند أفلاطون (ت ٩٧٠ قبل الهِجرة = ٣٤٧ ق. م.)، وإن كان أبو حمّو قد جمع في كتابه كلَّ الأقوال التي

= المسلوك في سياسة الملوك، بولاق ١٨٤١ م (١٢٥٧ هـ)؛ مصر ١٣٠٦ و ١٣٢٦ هـ (ص ١٢٧٧). وبعد سطرين ذكر عبد الرحمن بن نصر الشيرازيّ وأحال على الشيرازي. راجع أيضاً الأعلام للزركلي (الطبعة الرابعة) ٣: ٣٤٠. وقد قبلت وداد القاضي عنواناً للكتاب «المنهج المسلوك...» (ص ٧٩). وهنالك أيضاً «المنهج المسلوك في سياسة الملوك» ليوسف بن أيوب بن يحيى (بروكلمن الملحق ٢: ١٠١٧).

(١) هي (الآنسة الدكتور) وداد بنت عفيف بن حسن بن محي الدين القاضي من أسر بيروت الكريمة المعروفة (ولدت في بيروت ٢٢/ ١١/ ١٩٤٣ م).

توافق مَقْصِدَه من غيرِ أن يوزّعها بين مصادرها. ولقد أشارتْ ودادُ القاضي إلى مثل ذلك.

وفي هذا الباب من السياسة العامّة يأتي شمسُ الدين أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ عليِّ بنِ محمّدٍ الأصبحي المعروفُ بآبنِ الأزرق الأندلسيّ، تولّى القضاءَ في غَرناطةَ ثمّ غادر الأندلس إلى تِلِمْسانَ (في العُدْوة المَغْربية)[1] - لمّا استولى الإسبانُ على غَرناطةَ - ويبدو أن وفاتَه كانت بُعيد ذلك (قُبيل آنتهاء القرن الهِجريّ التاسعِ والقرن الميلادي الخامسَ عشَرَ). وأحبّ آبنُ الأزرقِ هذا أن يسلُكَ سبيلَ آبنِ خَلْدونٍ (ت ٨٠٨ هـ) في فَهْمِ التاريخ فهماً آجتماعيًّا، فوصل إلينا من كُتُبِهِ: الإبريزُ المسبوكُ في كيفيّة آدابِ الملوك (صنّفه سَنَةَ ٨٨٣ هـ) - تحبيرُ الرياسة وتحذيرُ السياسة - بدائعُ السِّلك في طبائع المُلْكِ، قال فيه أحمدُ بنُ أحمدَ بابا التُّنْبُكْتيُّ (ت ١٠٣٦ هـ) (نيل الابتهاج ٣٢٤): «... بدائعُ السلك في السياسة السُّلطانية، كتابٌ حَسَنٌ مُفيدٌ في مَوضوعه، لَخّص فيه (آبنُ الأزرق) كلامَ آبنِ خَلْدونٍ في مُقدّمةِ تاريخِه وغيرَه مَعَ زَوائِدَ لا يُستغنى بوجهٍ عنها» (لا يستغنى عنها بوجه).

ومن المتأخّرين في هذا الدورِ محمّدُ بنُ عبدِ الكريم المَغِيلي التِلِمْساني[2]، له «تعريفٌ فيما يَجِبُ على الملوك»، وقد طُبع بعنوان «تاجِ الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين» (بيروت ١٩٣٢ م) - «أحكام أهل الذمة».

ومن السياسة الخاصّيّةِ (سياسةِ الإنسانِ نفسَه) النِّكاحُ. وقد وَصَل إلينا من

---

(١) في نيل الابتهاج (ص ٣٢٤): الغرناطي وقاضي الجماعة في غرناطة... كان حيًّا في حدود التسعين وثمانمائة، ارتحل لتلمسان لمّا استولى العدوّ على بلده ثمّ للشرق. ولم أقف على وفاته. - راجع أيضاً بروكلمن ٢: ٣٤٣؛ الأعلام للزركلي ٧: ١٨١ (٦: ٢٨٩، مع الحاشية الطويلة المفيدة). وقد قدّر الزركلي تاريخ وفاة ابن الأزرق فكانت عنده ٨٩٦ هـ (١٤٩١ م). ومن الصواب أن تؤخّر بضع سنوات أخرى.

(٢) هو محمّد بن عبد الكريم بن محمّد المغيلي - نسبة إلى مغيل (بفتح فكسر) بلد قرب فاس (القاموس ٤: ٥١) - التلمساني مفسّر وفقيه ونحويّ ومنطقي ومن العارفين بالاجتماع والسياسة (راجع نيل الابتهاج ٣٣٠ - ٣٣٢؛ بروكلمن، الملحق ٢: ٣٦٣؛ الأعلام للزركلي (ط ٤، ٦: ٢١٦). وكانت وفاته ٩٠٩ هـ (١٥٠٣ م).

تصنيفِ أبي عبدِ الله محمّدِ بنِ أحمدَ التِّجانيِّ(★★) صاحبِ الرِّحْلة والمُتوفّي نحوَ سنة ٧١٧ للهِجرة (١٣١٧ م) «تُحفة العَروس[١] ونُزهة النفوس». وكذلك وَصَل إلينا من تصنيف أبي عبدِ الله عُمَرَ بنِ محمّدٍ النّفْزاويّ[٢] كتاب الرَّوْضِ العاطرِ في نُزهة الخاطر = المطبوعُ بعُنوانِ «تنويرِ البِطاح في معرفة كَيْفية النِّكاح» (القاهرة: بلا تاريخ؛ فاس ١٣١٠ هـ؛ تونس ١٩٢٨ م. ثمّ هو منقول ومطبوع في اللغات الفرنسية والإنكليزية والألمانية).

علوم التعاليم

علومُ التعاليم هي العلوم التي تجري في الأعداد كثيراً أو قليلاً، أو هي العلومُ الرياضية والطبيعية في تصنيف المعارف الإنسانية عندنا اليومَ. وهنا موضعُ ملاحظةٍ يحسُنُ أنْ تتكررَ مرّةً بعدَ مرة: إن «العلم» ليس فقط مُفرداتِ المعارف القائمةَ على القواعد الدقيقة كالحساب والفلك والموسيقي، ولكنّ «نعتَ» العلم ينطبقُ أيضاً على كل فنٍّ من فنون المعرفة الإنسانية كالفلسفة والأدب والتاريخ إذا نحن سِرْنا فيه على منهجٍ معيّن.

وعصرُ بني نصرٍ في الأندلس كعصر بني مَرينٍ في المغرب لم يَخْلُ من علوم التعاليم. أما قِلّةُ هذه العلوم في الأندلس فلأنّ العربَ لم يكن لهم في الأندلس، في تلك الحِقبة، سوى مدينة غَرْناطةَ وما حولَها، فلا يُنتظرُ أن يكونَ فيها «علم» كثيرٌ وإن كثرتْ فيها الفُنون الأدبية واللُّغوية والدينية، لأنّ هذه الفنونَ أقربُ إلى العاطفة - والعاطفةُ تَقْوَى في أيامِ الضَّعْف السياسيّ. أما قِلّةُ علومِ التعاليمِ في المغرب في ذلك الحينِ فتَرْجِعُ في رأي عبدِ الله كنونِ (النبوغ المغربي، ص ١٩٨، راجع ١٩٩) إلى أنّ سلاطينَ المَرينيينَ لم يشجّعوا هذه العلومَ كما شجّعها الموحدونَ في

---

(١) العروس تقال للرجل وللمرأة.

(٢) كتب النفزاوي هذا لأبي عوانة الزواوي وزير السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز الذي تولّى من سنة ٧٩٦ إلى سنة ٨٣٧ للهجرة (١٣٩٤ - ١٤٣٣ م). ويبدو أن الزواوي كان في أوّل هذه المدّة (راجع بروكلمن ٢: ٣٣٤، الملحق ٢: ٣٦٨ - ٣٦٩).

بعضِ أدوارهم ، وخصوصاً في أيام يعقوبَ المنصورِ المُوحّدي (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ).

★ ★ ★

يبرُزُ في هذا العصرِ ثلاثةٌ من علماءِ الرياضيّات أوّلُهم في تاريخ الوفاةِ محمّدُ ابنُ إبراهيمَ بنِ الرقّامِ المُرْسيُّ الأندلسيُّ (ت ٢١ صفر ٧١٥) وكان مشاركاً في الرياضيّات والفيزياء وعلمِ النبات وفي الطِبّ ، له كتابٌ في علم الظِّلال (فيزياء : بصريّات؟) وفي المِساحة (الهندسة المستوية) في كتاب له عُنوانُه « التكسير » ، أوّلُه : « التكسيرُ صِناعةٌ يُنْظَرُ فيها في مِساحة الأشكال » (راجع الأعلام للزركلي ، ط ٤ ، ٥ : ٢٩٧ ؛ بروكلمن ، الملحق ٢ : ٣٧٨).

وأمّا الشمسُ المُشرقةُ في الرياضيّات ، في هذا العصر ، فكان أبا العبّاسِ أحمدَ بنَ محمّدِ بنِ عُثمانَ الأزْديّ المَرّاكُشي المعروفُ بابنِ البنّاءِ العَدَديّ (٦٤٩ - ٧٢١ هـ) ، صنّف كُتُباً كثيرةً في الحساب والجبر والهندسة والفلك والتنجيم والجُغرافية والنبات. وتقومُ شُهرتُه على كتابه المعروف بعُنوانِ « تلخيص أعمالِ الحساب »[1]. ويبدو أن اهتمامَ ابنِ البنّاء - بالإضافة إلى إحاطته بفُروعِ هذا العلمِ - كان مُنْصَبّاً على تَيْسيرِ الحُسبانِ على الناس[2].

ثمّ يأتي يَعيشُ بنُ إبراهيمَ بنِ يوسُفَ بن سَمّاكٍ (ت نحو ٧٧٣ هـ) له : مراسمُ الانتساب في علم الحساب - رفعُ الإشكال في مِساحة الأشكال (في الهندسة المُستوية) - علم القبّان (فيزياء - علم الحِيَل : ميكانيك) وغيرُها في موضوعاتٍ أُخرى[3]

(١) حقّقه وترجمه (نقله إلى الفرنسية) وعلّق ليه الدكتور محمّد السويسي، تونس (منشورات الجامعة التونسية) ١٩٦٩ م.

(٢) راجع تمهيد محمّد السويسي لكتاب « تلخيص أعمال الحساب » (الحاشية السابقة)؛ تراث العرب العلمي لقدري طوقان، الطبعة الثالثة، ٤٢٩ - ٤٣٢؛ بروكلمن ٢ : ٣٣٠ - ٣٣١ ، الملحق ٢ : ٣٦٣ - ٣٦٤؛ النبوغ المغربي ٢٢٠ - ٢٢١؛ الأعلام للزركلي ١ : ٢١٣ - ٢١٤ (٢٢٢).

(٣) راجع الأعلام للزركلي ٩: ٢٧١ (٨: ٢٠٥ - ٢٠٦)؛ ووفاته في بروكلمن (٢: ٣٤٤) قبل سنة ٧٧٤ هـ. ثمّ يذكره بروكلمن (الملحق ٢: ٣٧٩) باسمه وينسب إليه الكتب التي ذكرها له من قبل ولكن يجعل وفاته سنة ٨٩٥ هـ = ١٤٨٩ م.

ولعلّ من علماء هذا العصرِ (وفي القرنِ الثامنِ للهجرة؟) أبا عبدِ اللهِ بنِ هلالٍ، قال فيه عبدُ الله كنون (النبوغ المغربي ١٩٨): إمامُ التعاليم وأنّه شَرَحَ كتاب المِجَسْطي لِبَطْلَيْمُوسَ القَلوذيّ.

ويبدو أنّ علم الفلك والحُسبانَ الفلكيّ كانا على مستوًى صالحٍ من الرقيّ، فإنّ أبا عليٍّ الحسنَ بنَ عُمَرَ المرّاكُشيَّ (ت نحو ٦٦٠) كان له كتابُ «جامعِ المبادىء والغايات في علم المِيقات» (بروكلمن ١ : ٦٢٥، الملحق ١ : ٨٦٦).

ومن البارعين في علم الفلك في هذا العصر مُحيِي الدين أبو الفتحِ يحيى بنُ محمّدِ ٱبنِ أبي الشُّكر (أو شُكر) المعروفُ بالحكيم المَغْربيّ (ت بين ٦٨٠ و ٦٩٠ هـ)، كان من أهل قُرطُبَةَ ثمّ رَحَلَ إلى المشرق وعَمِلَ مَعَ نصيرِ الدين الطوسيّ في مرصد مَراغَةَ[1]. ولابن أبي الشُّكر كُتُبٌ كثيرةٌ في الرياضيّات والفلك منها (في الهندسة والمُثَلّثات): تحرير أُقليدسَ في أشكال الهندسة - كتاب المَخْروطات (تحرير المخروطات لأبولونيوس) - إصلاح كتاب منالاوُس في الأشكال الكُرِيّة - تهذيب كتاب ثُيودوسيوس في الأُكَرِ - رسالة في ٱستخراج الجُيوب الواقعة في الدائرة - رسالةٌ فيما تفرّعَ عن الشكّل القَطّاع من النِّسَبِ على سبيل الإيجاز. ثمّ له (في الفلك والحُسبان الفَلَكيّ): الحُكْم على قَرائن (قِران)[2] الكواكب في البروج الاثْنَيْ عَشَرَ - مقالات تتعلّق بحركات الكواكب - مقالة في ٱستخراج تعديل النهار وساعات المشرق (شروق الشمس)، والدائر من الفلك بطريق الهندسة - مُلَخّص المِجِسْطيّ (؟ من نقل أبي الفرج غريغوريوس المَلَطيّ المتوفّى ٦٨٥ للميلاد) - زِيجٌ (جدولٌ وتفسيرٌ لهذا الجدول) لتقويم الكواكب يشتمل على مِائَتَيْنِ وواحدٍ وأربعينَ فَنًّا من الحساب - تسطيح الأُسطرلاب - أربعُ مقالات في النجوم - رسالة الخطا والإيغور[3]. وكذلك

(١) مراغة في آذربيجان الفارسية (في منطقة جبلية في أقصى الشمال - جنوب تبريز). وكان فيها مرصد من أكبر المراصد القديمة. اجتمع في هذا المرصد نفر كثيرون من علماء الفلك المسلمين.

(٢) القران (بالكسر): وجود نجمين على ممر واحد من خطّ البصر.

(٣) الخطا: (بخاء معجمة مفتوحة وطاء مهمله مفتوحة وألف): كاتاي - قبائل من الترك كانوا يعيشون شمال نهر جيحون، في أواسط آسية وكانوا على الوثنية، ومساكنهم كانت في مناطق تابعة للصين (راجع في تحقيق ذلك تاريخ ابن الآثير ٩ : ٢٩٧، ١١ : ٨١، ٨٣، ٨٤ ع، ٨٥ ثمّ راجع فهرس الأعلام (في تاريخ =

له كتب في التنجيم[1].

ويأتي هنا شمسُ الدين أبو العبّاسِ محمّدُ (أحمدُ) بنُ مسعودٍ الخزرجيّ السَّبْتي (من أهل سَبتةَ) المغربي (ت ٦٩٨ هـ)، قيل فيه إنّه مخترعُ علمِ الزايرجة[2].

ثمّ يأتي أبو مَقْرَعٍ (بفتح فسكون ففتح: النبوغ المغربي ٢٢١ مرّتينِ) أو أبو مقرعة (نفح الطيب ٢ : ٦٩٣، السطر السادس من أسفل) البطّوي[3] له رجز في التقويم والتنجيم[4].

ولشمسِ الدين محمّدٌ الجَزوليُّ (ت نحو ٧٤٥ هـ): كتاب العمل بالأسطرلاب - رسالة في العمل بالجَيْب الغائب (؟) - رسالة في رُبْع المساترة (؟) - رسالة في ثُمْن الدائرة (بروكلمن ٢ : ٣٣١ - ٣٣٢، الملحق ٢ : ٣٦٤ ابن الجزولي).

ومن عُلماءِ الفلك أبو زيد اللَّجائيّ الفاسيّ (ت ٧٧٣ هـ) اخترع اسطُرلاباً مُلصقاً بالجدار والماء يدير شبكته (؟) على الصفحة، فيأتي الناظر فينظر إلى ارتفاع الشمس كم هو وكم مضى من النهار، أو ينظر ارتفاع الكواكب في الليل.

ثمّ نَجِدُ للزُّبيرِ بن أحمدِ بن إبراهيمَ بنِ الزبير (ت ٧٩٠ هـ) تذكرة ذَوِي الألباب في استيفاء العمل بالأُسطرلاب (بروكلمن ٢ : ٣٤٤). ثمّ يأتي في هذا النَّسَقَ أبو الحسن عليُّ بنُ موسى بنِ عبدِ الله بن محمّدِ بن حَيْدورٍ[5]، له: الاَعتباراتُ النظريّة في الأحكام

= ابن الآثير) لاتمام التحقيق. والايغور أيضاً من الترك. - طريقة الحسبان الفلكيّ عند هاتين الأمتين.

(١) راجع في الحكيم المغربي: الأعلام للزركلي ٩: ٢١٠ (٨: ١٦٦)؛ بروكلمن ١: ٦٢٦، الملحق ١: ٨٦٨ - ٨٦٩؛ تراث العرب العلمي لقدري طوقان ٤٢٤.

(٢) في تاج العروس (الكويت ٦: ٢٥): الزايجة صورة مربّعة أو مدوّرة تعمل لموضع (مواضع) الكواكب في الفلك لينظر (فيها) في حكم المولد (مولد الشخص من حيث السعد والنحس) في عبارة المنجمين. - راجع في ابن مسعود السبتي بروكلمن ١: ٦٥٥، الملحق ١: ٩٠٩ - ٩١٠.

(٣) يمكن أن يكون اسمه الكامل: أبو محمد عبد الحقّ بن عليّ البَطُّوِيّ (نسبة إلى بطّوية في الريف، شمال المغرب) الورزيزيّ الجموليّ المرجوشيّ السوسيّ، له رجز في التقويم والتنجيم (لعلّه: «بروج القمر عند العرب» الذي حرّره موتيلنسكي وطبعه (الجزائر ١٨٩٩ م) - راجع النبوغ المغربي ٢٢١؛ بروكلمن ٢ : ٣٣١، الملحق ١: ٣٦٤).

(٤) راجع في اللجائي النبوغ المغربي ٢١٤ - ٢١٥؛ تراث العرب العلمي ٤٣٧.

(٥) في النبوغ المغربي، ص ٢٢١، السطر الخامس: هيدور (بالهاء). راجع أيضاً بروكلمن الملحق ١: ٣٦٥ - (بالحاء).

النجومية - شرح تلخيص أعمال الحساب لابن البناء العَدَديّ.

ثمّ يأتي الجاديريّ (بالياء بعدَ الدال، النبوغ المغربي ١٩٩، ٢٢١) أو الجادريّ (بكسر الدال وبفتح الدال: راجع بروكلمن، الملحق ٢ : ٢١٧) وهو أبو زيدٍ عبدُ الرحمنِ المُؤقّتُ في مسجد القَرَوِيّين في فاس (ت ٨١٦ هـ)، له روضة الأزهار في علم الليل والنهار.

ثمّ يأتي محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ يَحْيى بن الحبّاكِ (ت ٨٦٧ م)، له: بُغيةُ الطُّلابّ في علم الأُسطرلاب - شَرْحُ روضةِ الأزهار في علم الليل والنهار (للجاديري) - تُحْفَةُ الطُّلاّبِ في عددِ السنينَ والحسابِ (راجع بروكلمن ٢ : ٣٣٢، الملحق ٢ : ٣٦٥ ؛ نيل الابتهاج ٣٣٣ فاس).

ومن الفنونِ التي تأخُذُ من الرياضيّات ومن الفيزياء الموسيقى. في نحو سَنَةِ ٧٠٠ للهجرة صنّف محمّدُ بنُ إبراهيمَ الصَّلاحيُّ للناصرِ لدين الله المَرينيّ (٦٨٥ - ٧٠٦ هـ) أبي يعقوبَ يوسُفَ بنِ يعقوبَ بنِ عبدِ الحقّ[1] كتاباً في آلاتِ الموسيقى أثبتَ بروكلمنُ (٢ : ٣٣٣) عنواناً له: «الإمتاع والانتفاع»[2].

وفي العلم الطبيعيّ على الحَصْر (الفيزياء) يأتي شِهاب الدين أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ يوسُفَ التيفاشيّ(★★) التونسيّ (ت ٦٥١ هـ)، له: أزهارُ الأفكار في جواهر الأحجار - مطالعُ البدور ومنازلُ السرورُ (في المعادن) - فصلُ الخِطاب في مداركِ الحواسِّ الخَمْسِ لأُولي الألباب - الأحجار التي توجَدُ في خزائنِ الملوك وذَخائرُ الرؤساء وغيرُها. ثمّ هنالك أبو الحسن بنُ يوسُفَ المديونيُّ الحكيمُ (في نحوِ هذا العصر) له الدَوْحةُ المُشْتَبِكَة في ضوابطِ دارِ السِكّة (النبوغ المغربي ٢٢١) لِسَكِّ العِملة، وفي هذا العَمَلِ جانبٌ من الفيزياء.

ومَعَ أن الصَنْعة (الكيمياء القديمَة) قد عاشتْ في المشرقِ والمَغْرب مُدّةً طويلةً ثمّ

---

(١) يورد بروكلمن عادة أسماء الأعلام مختصرة. وقد وردت جملة بروكلمن كما يلي: للمرينيّ أبي يعقوب بن يحيى بن عبد الحقّ.

(٢) لعلّ العنوان الكامل: الامتاع والانتفاع بآلات السَّماع.

إنّها ٱستمرّتْ في أوروبّة إلى نصفِ القرنِ الماضي ، فإنّ العصرَ الذي نبحَثُ في أعلامه الآنَ لم يَجْمَعْ من علماءِ الكيمياء من كان ذا أثرٍ بارز . هنالك مثلاً أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ عُمَرَ الزواويُّ النجّارُ البِجائِي (من أحياء القرن التاسع في القطر الجزائري) له فصلٌ في الكيمياء ثمّ تُحْفَةُ الناظر ونُزهة المَناظر (بفتح الميم - بروكلمن ، الملحق ٢ : ٣٦٧) ، وعُنوانُه لا يَدُلُّ على موضوعه .

كان حظُّ العصرِ المَريني من الطِبّ أوْفَرَ من حظّهِ من الكيمياء . كان فيه (النبوغ المغربي ٢٠٠) أبو الحسنِ عليُّ بنُ الشيخِ الطبيبِ بن أبي الحسنِ عليٍّ العَنْسِيُّ المَرّاكُشِيُّ (وفي ٱسمِه شيءٌ من الخِلاف) ، وقد كانَ مُشارِكاً في عددٍ من العلوم الكونية ، له في الطِبّ : الأمراضُ السِرّيّةُ وعِلاجُها - الأذكمة (؟؟) وصِفاتُها وما يُطْلَبُ أن يُتَجَنَّب فيها . ثمّ له : النساءُ وما يُحْمَدُ أو يُذَمُّ مِنهنّ ، وَضَعَهُ بِرَسْمِ السُّلطانِ أبي الحسن المَرينيِّ (٧٣٢ - ٧٤٩ هـ) .

ويبدو أنّ من البارعين في الطِبّ في ذلك العصرِ أحمدَ بنَ شُعيبٍ الجزنائيّ(★★) (ت ٧٤٩) ، وكانَ كاتباً وشاعراً وطبيباً جعَلَه السُّلطانُ أبو سعيدٍ المَريني (٧١٠ - ٧٣٢ هـ) في جُملة الكُتّاب ، ولكنْ أجرى عليه رِزْقَ (مُرَتَّبَ) الأطبّاءِ لِتَقدُّمِهِ في الطِبّ ، فكان كاتِبَهُ وطَبِيبَهُ . وكذلك فَعَلَ السُّلطانُ أبو الحسنِ المَرينيّ (٧٣٢ - ٧٤٩ هـ) بعدَ ذلك (النبوغ المغربي ٢٠٠) .

ومن المُؤلّفين في الطِّبّ أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ عليٍّ اللَّخْميّ الشُّقوريُّ (نِسبة إلى بلدة شَقورةَ ، من نواحي جَيّانَ) الأندلسيُّ ، صنّفَ سَنَةَ ٧٤٩ للهِجرة : تحقيق النبأ عن أمر الوَبأ (في طاعونِ سَنَةِ ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ م) أو الموت الأسود (الطاعون الكبير) الذي ٱنتشَرَ في أوروبّة سَنَةَ ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) وٱسْتمرّ إلى سَنَةَ ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) ثمّ عاد إلى أوروبّة ١٣٦١ - ١٣٦٢ و ١٣٦٩ للميلاد (٧٦٢ و ٧٧١ - ٧٧٢ للهِجرة) . وله أيضاً مُجَرَّبات في الطِبّ (راجع بروكلمن ٣ : ١٢٧٩ ، السطر ٢٨ وما بعد ؛ الأعلام للزركلي ، ط ٤ ، ٦ : ٢٨٥) .

ومن البارزِينَ في التطبيب وفي التأليفِ في الطِّبّ أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ عليٍّ ٱبنِ عبدِ اللهِ القِرِبْلِيانيّ (نسبة إلى قِرِبْلِيانَةَ أو كَرَابِلْيانْتِه على مقرُبة من أُورْيُولَةَ ، شَرْقَ

مُرْسِيَةَ ، في الجَنوبِ الشرقيّ من الأندلُس) . كان عالماً بالأعشاب وطبيباً جرّاحاً سَكَنَ مَرّاكُشَ مُدّةً ثمّ عادَ إلى الأندلُسِ فَتُوُفِّيَ في غَرْناطةَ (سَنَةَ ٧٦١ هـ) . وللقِرْبِلْيانيِّ هذا كتابٌ في الأعشاب (النباتات المُستَخْدَمَةِ في تركيبِ الأدوية) ثمّ كتابُ « الآستقصاءِ والإبرامِ في عِلاجِ الجِراحاتِ والأورامِ » ألّفهُ للسّلطانِ أبي الجُيوشِ نَصْرِ بن محمّدٍ النَّصْرِيِّ الذي جاء إلى الحُكْم سَنَةَ ٧١١ للهجرة ثمّ خُلِعَ سَنَةَ ٧١٣ . وكانتْ وفاتُه في وادي آشَ (قربَ غَرناطةَ) سَنَةَ ٧٢٢ هـ (راجع بروكلمن ، الملحق ٢ : ٣٦٦ ؛ الأعلام للزركلي ، ط ٤ ، ٦ : ٢٨٥) .

وفي أيامِ المَرينيّينَ (وربّما في النصف الثاني من القرن الهجري الثامن) كانتْ عائشةُ بنتُ الشيخِ الكاتبِ الوجيهِ أبي عبدِ الله بنِ الجيّارِ المُحْتَسِبِ[1] في مدينةِ سَبْتَةَ في شَماليِّ المَغْرب . زادتْ سِنُّها على السبعينَ ، وكانت عارفةً بالطِّبّ وبالعقاقير ، بصيرةً بالماء (النَظَرِ إلى بول المريض) وبِعلاماتِه (راجع النبوغ المغربي ٢١٥) .

ومن المذكورين في هذه الحِقبةِ الشريفُ الصِقِلّيُّ أحمدُ بنُ عبدِ السلام التُونسيُّ ، كانَ في أيامِ أبي فارس عبد العزيز الحفصي (٧٩٦ - ٨٣٧ هـ) وصَنّفَ له كتابَ الأطبّاء (أو كتابَ حِفْظِ الصِّحّة) المعروفَ بالطِبّ الشريف . وله شرحٌ على ألفية ابنِ سينا (بروكلمن ٢ : ٣٣٣ ، الملحق ٢ : ٣٦٧) .

وفي سَنَةِ ٨٩٧ للهجرة صنّفَ أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ الملكِ الحَسَني المَصْموديُّ من أهلِ تِلِمْسانَ كُتُباً جعَلَها بروكلمن (٢ : ٣٣٤ ، الملحق ٢ : ٣٦٧) في فصلِ الكيمياء وعلومِ الجَفرِ ، هي : تُحفةُ مَنْ صَبَرَ على تَطْهير الحَجَر (وهُوَ عُنوانٌ شديدُ اللُّصوقِ بالكيمياء ، فالمقصودُ بالحَجَرِ هنا حَجَرُ الفلاسفة الذي تُحَكُّ بِهِ المَعادنُ الخسيسةُ فَتُصْبِحُ ذهباً ، في ظنّهم) - الوافي في تدبير الكافي - المحنة المنكية (؟) لمبتدىء القراءة المكّية .

ويأتي في أواخرِ هذه السلسلةِ عبدُ القاهرِ بنُ محمّدِ التُونسيُّ ، صنّفَ سَنَةَ ٨٩٩

---

(١) المحتسب هو الذي يتولّى الحسبة (في الدولة الإسلامية): مراقبة السوق (مراقبة الأسعار والأخلاق العامّة والبضائع والأطعمة).

للهجرة كتابَ الطِّبّ في تدبير المُسافرين ومَرْضى الطاعونِ (بروكلمن، الملحق ٢ : ٣٦٧).

رثاء البلدان:

الدُّنيا دُوَلٌ - والدَّولةُ: ٱنتقالُ الأمرِ من جماعةٍ إلى جماعةٍ، مرّةً يكونُ لهؤلاءِ ومرّةً يكونُ لأُولئكَ؛ وربّما كان لقومٍ ثمّ لم يَعُدْ إلَيْهِمْ - والقاعدةُ أنّ كلَّ دولةٍ (بمَعْنى مُلْكِ أسرةٍ أو فردٍ جماعةً★ من الناس أو رُقعةً من الأرض وبمعنى حِيازةِ الإِنسان ثروةً أو تمّتعِ فردٍ بجاهٍ) لا تعيشُ إلى الأبد، بل لا بُدَّ لها من عُمُرٍ طبيعيٍّ تَحْيا في مداهُ ثمّ تسقُطُ ليقومَ غيرُها مكانَها، كما يقولُ ٱبنُ خلدونٍ. ولقد كان من الطبيعيّ جِدًّا أنْ يحزَنَ أهلُ كلِّ دولةٍ على زَوالِ دَوْلَتِهِمْ أوْ خوفاً من أن تَزولَ دولتُهم حينما يبدأُ ٱنحدارُها نحوَ الزوالِ الأكيد.

ولقد أرادَ الإِسلامُ مِنَ الناسِ أن يكونَ لهم في زَوالِ الدُّوَلِ والأُمَمِ عِبرةٌ فلا يَظْلِمُ بَعْضُهُمْ بعضاً ولا يأتوا بما يُعَجِّلُ زَوالَهم أو يجعَلُ زَوالَهم شديدَ الألمِ لهم - ما دامَ ذلك الزوالُ أمراً لا مفرَّ منه - أو سَيِّءَ العواقبِ عليهم وقومهم. ويكْفينا هُنا قولُ اللهِ تعالى: ﴿وما أرسَلْنا من قَبْلِكَ إلّا رِجالاً نُوحي إِلَيهِمْ من أهلِ القُرى. أَفَلَمْ يَسيروا في الأرض فينظُروا كيف كان عاقبةُ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ؟ وَلَدارُ الآخرةِ خيرٌ للّذينَ ٱتّقَوْا. أفلا تَعْقِلونَ؟﴾ (١٢ : ١٠٩، سورة يوسف). وقال اللهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسيروا في الأرض فتَكونَ لهم قُلوبٌ يَعْقِلون بها أوْ آذانٌ يسْمَعون بها؟ فإنّها لا تَعْمى الأبصارُ، ولكنْ تَعْمى القلوبُ التي في الصُّدور﴾ (٢٢ : ٤٦، سورة الحجّ).

ومن أوائل الذين يحسُنُ الاَسْتِشْهادُ بِهم مِنَ الشُعراءِ في هذا الموضوع عُبيدُ اللهِ بنُ قَيْسِ الرُّقَيّاتِ (ت ٧٥ هـ) الأُمَويُّ قال في قصيدتهِ الهَمْزيّةِ المشهورة (راجع الجزء الأوّل من هذه السلسلة) يخافُ على دَوْلةِ بني أُميَّةَ القُرَشية أنْ تزولَ بالنِّزاع الذي كان بينَ الطامِعِينَ في الحُكْم (وقد سَقَطَتِ الدولةُ الأُمويّة، سَنَةَ ١٣٢ للهِجرة - عام ٧٤٩ للميلاد):

★ «جماعة» (بالنصب): مفعول به من المصدر «ملك» مضافاً إلى فاعله (أسرة أو فرد).

حبّذا الغيشُ حينَ قومي جميعاً ... لم تُفرِّقْ أمورَها الأهواءُ ؛
قبلَ أنْ تطمَعَ القبائلُ في مُلْـ ... ـكِ قُرَيْشٍ وتشمَتَ الأعداءُ .
أيُّها المُشتهي فَناءَ قُرَيْشٍ ؛ ... بيَدِ اللهِ عُمْرُها والفَناءُ .
إنْ تُودِّعْ مِنْ البِلادِ قُرَيْشٌ ... لا يَكُنْ بعدَهُمْ لِحَيٍّ بَقاءُ .

كانَ عُبيدُ اللهِ بنُ قيسِ الرُّقَيّاتِ يَخْشى على مُستقبل الدولةِ الأُمَويّةِ. أمّا البُحْتُريُّ، في العصرِ العبّاسيّ، فقد جاءَ إلى العِراق بعدَ وفاةِ أبي تمّامٍ (٢٣٢ هـ = ٨٤٦ م) لِيُجرِّبَ حظَّهُ في التَكَسُّبِ بالشعر. لم يَلْقَ البُحتريُّ الناشئُ بعدَ ذلك الشاعرِ الراسخِ المكانةِ تَوْفيقاً، فذَهَبَ في يومٍ من الأيامِ إلى المدائن - وَهِيَ مَشْهَدٌ لِمَدينةٍ قديمةٍ، على نحوِ عشرينَ ميلاً شَرْقَ بَغْدادَ - ووَقَفَ عِندَ إيوانِ كِسرى يُعَزّي نفسَه (الخائبةَ في التَكَسُّبِ بالشعر) بزَوالِ تلك الدولةِ العظيمة التي كانت قد بَنَتْ ذلك الإيوانَ (المَقرَّ المَلَكِيَّ) ثمّ زالتْ، فقال (راجع الجزء الثاني من هذه السلسلة) قَصيدتَهُ السِّينيةَ: « صُنْتُ نفسي عَمّا يُدَنِّسُ نفسي ». فمن هذه القصيدة:

حَضَرَتْ رَحْلِيَ الهُمومُ فَوَجَّهْـ ... ـتُ إلى أبيضِ المدائنِ عَنْسي[1]،
أتَسَلّى عنِ الهُمومِ وآسَى ... لِمَحَلٍّ من آلِ ساسانَ دَرْسٍ[2].
ذَكّرَتْنيهِمُ الخُطُوبُ التَّوالي، ... ولَقَدْ تُذْكِرُ الخطوبُ وتُنسي[3].
فكأنَّ الجِرمازَ من عَدَمِ الأُنْـ ... ـسِ وإخلالِه بَنِيّةُ رَمْسٍ[4].
لو تراه عَلِمْتَ أنّ اللَّيالي ... جَعَلَتْ فيه مأتماً بعدَ عُرْسِ .

(١) الرحل: البيت، المسكن؛ نزلت عليّ الهموم في بلدي فسافرت وجئت إلى العراق. العنس: الناقة القويّة. أبيض المدائن: المدائن (بلدة على نحو عشرين ميلاً شرق بغداد).

(٢) أسي (بفتح فكسر ففتح) فلان على فلان: حزن عليه وأشفق. آل ساسان: ملوك الفرس. درس: دارس، ممحوّ المعالم.

(٣) الخطب (بالفتح): المصيبة.

(٤) الجرماز: بناء عظيم كان عند أبيض المدائن، وقد عفى(امّحى) أثره (تاج العروس - الكويت ١٥ : ٥٩). من عدم (فقدان) الإنس (بالكسر): الناس، السكّان، وإخلاله (ترك الناس له). البنيّة (بالفتح): كلّ ما يبنى. رمس: قبر.

وكانتِ الدواعي لِرِثاءِ المُدُنِ في الأندلس كثيرةً، بعدَ أنْ بدأ الإسبانُ النّصارى يستَوْلون على المُدُنِ الإسلامية في تلك الحربِ الصليبيةِ التي سَبَقَتِ الحربَ الصليبيةَ في المَشْرق.

في نَفْحِ الطِيب (٤ : ٣٥٢، راجع ٣٥٤، ٣٥٥؛ راجع وفيات الأعيان ٥ : ٢٧): أنّ مِنْ أوّلِ المدنِ العظيمةِ التي ٱستولى عليها الإسبانُ مدينةُ طُلَيْطُلَةَ، أخذها ألفونسو السادسُ، سَنَةَ ٤٧٨ للهجرة، من يدِ القادرِ يحيى بنِ إسماعيلَ بنِ ذي النون. فقال بعضُ الشعراء يَرْثيها (نفح الطيب ٤ : ٤٨٣ - ٤٨٦) بقصيدةٍ ليستْ من عيونِ الشعر، ولكنَّ فيها عاطفةً قويّةً مِنَ التعبير وكَشْفاً عن أسبابِ ضَعْفِ الأُمَمِ. من هذه القصيدةِ الطويلةِ:

طُلَيْطُلَةٌ أباحَ الكُفْرُ منها ... حِماها. إنّ ذا نَبأ كبيرُ.
فليس مِثالَها إيوانُ كِسرى، ... ولا مِنها الخَوَرْنَقُ والسَّديرُ[1].
ألم تَكُ مَعْقِلاً للدين صَعْباً ... فذلّله كما شاءَ القدير[2]؟
وكانتْ دارَ إيمانٍ وعِلمٍ ... مَعالِمُها التي طُمِسَتْ تُنير[3]،
فعادتْ دارَ كُفْرٍ مُصطفاةً ... قدِ ٱضطربتْ بأهْليها الأمور[4]:
مساجِدُها كَنائِسُ، أيُّ قلبٍ ... على هذا يَقرُّ ولا يَطير؟
أنأمَنُ أن يَحِلَّ بنا ٱنتقامٌ ... وفينا الفِسْقُ أجمع والفُجور★؟
وأكلٌ للحرامِ، ولا ٱضطرارٌ ... إليه؟ فيسهُلُ الأمرُ العسير.
يَزولُ السِّتْر عن قومٍ إذا ما ... على العِصيانِ أُرْخِيَتِ السُّتور.
خُذوا ثأرَ الدِّيانة وٱنْصُروها، ... فقد حامتْ على القَتْلى النُّسورُ.

---

(١) إيوان كسرى لا يشبهها. ولا منها (وليس من نوعها أو مكانتها) الخورنق والسدير (قصران في جنوبيّ العراق من أيام المناذرة).

(٢) القدير: الله تعالى.

(٣) معالمها (مدارسها ومساجدها الخ التي طمست أو محيت الآن كانت من قبل تنير).

(٤) مصطفاة (مختارة): اختار الإسبان أخذها (الآن) دون غيرها. مصطفاة (أيضاً): مأخوذة. - اصطفى فلان مال فلان: أخذه كلّه (القاموس ٤ : ٣٥٢، السطر التاسع من أسفل).

(★) أجمع (بالضمّ) توكيد للفسق (فينا جميع أنواع الفسق). ثمّ «أجمع (بالفتح) حال من «فينا» (فينا جميعاً فسق).

ولا تَهِنوا، وسُلّوا كُلَّ عَضْبٍ تَهابُ مَضارباً منه النُّحورُ[1].
لقد صُمّ السَميعُ، فلم يُعَوِّلْ على نَبأٍ، كما عَمِيَ البصيرُ[2].
تُجاذِبُنا الأعادي بٱصْطِناعٍ فَيَنْجَذِبُ المُخَوَّلُ والفقيرُ[3]:
فباقٍ في الدِّيانة تحتَ خِزْيٍ تُثَبِّطُه الشُّوَيْهَةُ والبَعيرُ[4]،
وآخرُ مارِقٌ هانَتْ عليه مَصائِبُ دينِه، فلَهُ السَّعيرُ[5].
كَفَى حَزَناً بأنّ الناسَ قالوا: إلى أينَ التحَوُّلُ والمَسيرُ؟
أنَتْرُكُ دُورَنا ونَفِرُّ عنها وليسَ لنا وَراءَ البحرِ دُورُ؟
لقد ذَهَبَ اليقينُ فلا يقينٌ، وغَرَّ القومَ باللهِ الغَرورُ[6].
فلا دينٌ ولا دُنْيا، ولكنْ غُرورٌ بالمعيشةِ ما غُرورُ[7].

وكَثُرَ رِثاءُ المُدُنِ والدُّوَلِ في الأندلُس. ومِنْ أشْهَرِ ما قيلَ في ذلك قصيدةُ ٱبْنِ عَبْدونٍ (ت ٥٢٩ هـ، راجع ترجمته في الجزء الخامس): «الدَّهْرُ يفجَعُ بعدَ العَيْنِ بالأَثَرِ».

وجرتْ بينَ ملوك المغرب وملوكِ الأندلس مكاتباتٌ، فكانتْ رسائلُهم في ذلك - في البكاء على أحوال المسلمين في الأندلس وفي ٱستنهاضِ بعضِ أولئك الملوكِ هِمَمَ بَعْضِهِمُ الآخرِ - مثلَ تلك القصائدِ.

---

(١) لا تهنوا: لا تضعفوا. العضب: السيف. تهاب (تخاف). النحر (أعلى الصدر: المكان الذي ينحر أو يذبح منه البعير).

(٢) كانت الأخبار تأتي بالخطر على طليطلة فلم يلق الأمراء بالاً إلى ذلك.

(٣) الاصطناع: تقريب الناس إليك بشيء من المغانم المادّيّة. المخوّل: الذي خوّله الله (أعطاه) ملكاً أو خيراً كثيراً.

(٤) تثبّطه (تعوقه عن الحرب أو الهجرة) الشويهة (الشاة الصغيرة) أو البعير (الحيوان الكبير): يخاف أن يحارب أو يهاجر فيخسر شيئاً (صغيراً أو كبيراً) يملكه.

(٥) السعير: نار جهنّم (في الآخرة). مارق: خارج من الإسلام (كافر).

(٦) اليقين: الإيمان الثابت. الغرور (بالفتح): إبليس. راجع القرآن الكريم (٣١: ٣٣، سورة لقمان): ﴿.... فلا تغرّنّكُمُ الحياة الدنيا، ولا يغرّنّكم بالله الغَرور﴾.

(٧) ليس لهؤلاء دين، ولا هم يفهمون ما الدنيا (الحياة الكريمة)، ولكنّهم مغرورون (مفتونون، متعلّقون) بالمعيشة العاديّة. غرور ما غرور (اهتمام بشيء قليل جدًّا من أسباب الحياة).

إنّ أسبابَ الخوف على مُستقبل المسلمين في الأندلس كانتْ كثيرةً مُنْذُ أيامِ ملوك الطوائف حينَما بدأَ تنازعُ ملوكِ الطوائف ثمّ آستيلاءُ الإسبانِ النصارى على البُلدان وعلى الحُصون من أيدي الحُكّام المسلمين. ففي سَنَةِ ٤٨٨ للهجرة - لمّا آستَوْلى السيّدُ القُمْبِياطور على بَلَنْسِيَةَ قال آبنُ خَفاجةَ (٤٥٠ - ٥٣٣ هـ) يأسى لِحالِها (نفح الطيب ٤ : ٤٥٥):

عاثَتْ بساحَتِـكِ الظُّبا، يا دارُ، ومَحـا محاسِنَـك البِلى والنّارُ[1]؛

فـإذا تردّدَ في جَنابِـك ناظرٌ طـالَ آعتبارٌ فيك وآستعبارُ[2].

أرضٌ تقاذَفَتِ الخُطوبُ بأهْلِها، وتَمَخّضَـتْ بخَرابِهـا الأقـدار[3].

كَتَبَـتْ يَدُ الحَدَثان في عَرَصاتِها: (لا أنتِ أنتِ ولا الدِّيارُ ديار)[4].

وقال القاضي أبو بكرٍ بنُ العَرَبيّ لمّا جرت معركةُ ٥٢٧ للهجرة (١١٣٣ م) - عندَ إشبيليةَ (؟) - حينما جاءَ إلى تفسير قولِهِ تعالى: ﴿آنْفروا خِفافاً وثِقالاً﴾، الآيةِ (٩ : ٤١، سورة التوبة) ما يلي (نفح الطيب ٤ : ٤٧٦ - ٤٧٧):

ولقد نَزَل بنا العدوُّ - قَصَمَهُ اللهُ تعالى - سَنَةَ سبعٍ وعِشرين وخَمْسِمِائَةٍ فجاسَ ديارَنا[5] وأسَرَ جيرَتنا وتوسّطَ بِلادَنا..... فقلتُ للوالي والمُوَلَّى عليه[6]: هذا عدوُّ اللهِ قد حَصَلَ في الشَّرَكِ والشَّبَكة[7]، فَلْتَكُنْ عِندَكم بَرَكَةٌ، ولْتَكُنْ منكم إلى نُصرةِ

---

(١) عاث: أفسد، أتلف، أهلك. الظبا (بالضم) جمع ظبة (بضمّ ففتح بلا تشديد): حدّ السيف. وفي نفح الطيب: ظبا (بالكسر) يقصد ظباء جمع ظبية (غزال)، وهو خطأ. البلى: القدم (بكسر ففتح): تقادم الزمن والتهرّؤ والهلاك.

(٢) فإذا تردّد (نقل البصر من مكان إلى مكان) في جنابك (أطرافك، أقسامك) ناظر (عين). الاعتبار: الاتّعاظ بالمصائب. استعبار: بكاء (حزن).

(٣) الخطب (بالفتح): المصيبة. تقاذفت الخطوب بأهلها (شرّدت المصائب أهلها من مكان إلى مكان). تمخّضت (تحرّكت ثمّ انجلت) الأقدار (جمع قدر - بفتح ففتح: وقوع ما كان الله تعالى قد قضاه أو حكم به في سابق علمه) عن خرابها.

(٤) الحدثان (مفرد): كناية عن الليل والنهار. والحدثان أيضاً: المصائب. «لا أنت أنت ولا الديار ديار» مطلع قصيدة لأبي تمّام يمدح بها القائد العبّاسيّ أبا سعيد محمّد بن يوسف الثغري.

(٥) جاس بلادنا: وطئها، جاء إليها.

(٦) للوالي على البلد (إشبيلية؟) وللمولّى عليه: لأهل البلد (للناس كلهم).

(٧) في الشرك والشبكة (أصبح بين أيديكم بعيداً عن مراكز تموينه ومحاطاً برعيّتكم).

الدين المُتَعيِّنَةِ عليكم[1] حَرَكَةٌ: فَلْيَخْرُجْ إليه جميعُ الناس حتّى لا يَبْقى منهم أحدٌ في جميعِ الأقطار (إلّا خَرَجَ إليه) فيُحاطَ به[2]، فإنّه هالكٌ لا مَحالةَ إنّ يَسّرَكُمُ اللهُ له. فَغَلَبَتِ الذُّنوبُ ورَجَفَتْ بالمعاصي القُلوبُ، وصارَ كُلُّ أحدٍ من الناسِ ثَعْلَباً يأوي إلى وِجارِه[3]، وإنْ رأى المَكيدةَ بِجارِه★★. فإنّا للهِ وإنّا إليه راجعونَ، وحَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ.

– وفي رَمَضانَ من سَنَةِ ٥٦٤ نَظَمَ الشاعرُ أبو جعْفَرٍ أحمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ الكِنانيُّ الوَقَّشيُّ قصيدةً في مَدْحِ السُّلطانِ يوسفَ بنِ عبدِ المؤمن (ثاني سَلاطينِ الموحّدين) وقال فيها يَصِفُ حالَ الأندُلسِ ويَحُثُّ على الجِهاد (الذيل والتكملة ١ : ١٩٧ – ١٩٩):

ألا ليْتَ شِعري، هل يُمَدُّ لِيَ المَدى ... فأُبْصِرَ حَفْلَ المُشركين طريدا[4]؟

وهل ،بَعْدُ ،يُقْضى في النَّصارى بنُصرَةٍ ... تُغادِرُهم للمُرْهَفاتِ حَصيدا[5]؟

ويغزو أبو يعقوبَ في شانتِ ياقبٍ ... يُعيدُ عَميدَ الكافرين عَميدا[6]؟

ويفْتَكُّ من أيدي الطُّغاة نواعماً ... تَبدَّلْنَ من نَظْمِ الحُجول قُيودا[7]

وعَفّرَ منهُنّ التُّرابُ ترائبـاً ... وخدّدَ منهنّ الهَجيرُ خُدودا[8]؟

---

(١) المتعيّنة على الوالي وعلى الناس: الواجبة عليهم.

(٢) يحاط به: يصبح محصوراً من كلّ جانب.

(٣) الوجار شقّ في الأرض يدخله الحيوانات كالثعالب والأرانب.

(★★) .... مع أنه يرى استيلاء العدو على أرض جاره أو يرى أن العدو يقتل جاره.

(٤) يمدّ لي المدى (المسافة): يطول عمري. الحفل: الاجتماع. طريد: مطرود، مشرّد.

(٥) المرهف: السيف. حصيد: محصود (مقتول).

(٦) أبو يعقوب: السلطان يوسف بن عبد المؤمن. شانت ياقب (سانت ياغو، اليوم) بلد في أقصى الشمال الغربي من جزيرة الأندلس. عميد الكافرين: رئيس الإسبان. عميد: معمود (مضروب على رأسه بالعمود) مقتول (ويزول ملكه).

(٧) الطغاة جمع طاغية (وكان العرب يطلقون كلمة طاغية على كلّ ملك من ملوك الإسبان). نواعم جمع ناعمة (فتاة شابّة، امرأة فتيّة). الحجل (بالكسر): الخلخال (بالفتح). بدلاً من أن يتأنّقن في لبس الخلاخيل في أرجلهنّ للزينة أصبحت القيود توضع في أيديهنّ وأرجلهنّ في الأسر والسجن.

(٨) عفّر فلان الشيء: مرّغه في الغبار أو أدخله في التراب. التريبة: الجانب الأعلى من الصدر. خدّد: شقّق. الهجير: حرّ نصف النهار (كناية عن العمل وقت الظهر) حينما يستريح الناس عادة بالقيلولة (بالنوم بعد الظهر).

ولمّا عظُمَ خطَرُ الإسبانِ على بَلَنْسِيَةَ قبلَ سُقوطِها[١] جاء من أهلِها وفْدٌ إلى السُّلطانِ أبي زكريّا الحَفْصيِّ صاحبِ تُونسَ، في رَجَبَ من سَنَةِ ٦٣٦. وكان في الوفدِ ابنُ الأبّارِ القُضاعيُّ[٢] فأنشدَ قصيدتَه السينيّةَ «أدْرِكْ بِخَيلِكَ خَيْلِ اللهِ أندَلُسا» بين يَدَيِ السُّلطانِ الحَفْصِيِّ.

وفي هذا الوقتِ نفسِه، قُبيلَ سقوطِ بَلَنْسِيةَ، وجّهَ بعضُ الشُّعراءِ إلى السْلطانِ الحفصيّ أبي زكريّا نفسِه قصيدةً مطلَعُها «نادَتْكَ أندَلُسٌ فَلَبِّ نِداءَها»[٣] جاء فيها (نفح الطيب ٤: ٤٧٩ - ٤٨٣):

تِلْكَ الجزيرةُ لا بَقاءَ لها، إذا ... لم يَضْمَنِ الفتحُ القريبُ بقاءَها[٤].
أشْفى على طَرَفِ الحياةِ ذَماؤُها، ... فَٱسْتَبْقِ للدينِ الحَنيفِ ذَماءَها[٥].
حاشاك أنْ تَفْنى حَشاشَتُها، وقد ... قَصَرَتْ عليكَ نِداءَها ورَجاءَها.
إيهٍ، بَلَنْسِيَةٌ، وفي ذِكراكِ ما ... يَمْري الشُّؤونَ دِماءَها لا ماءَها[٦].
كيفَ السبيلُ إلى ٱحتلال معاهدٍ ... شَبَّ الأعاجمُ دونَها هَيْجاءَها[٧].
بأبي مدارسُ كالطُّلول دوارسٌ ... نَسَخَتْ نواقيسُ الصليبِ نِداءَها[٨].

وأشهرُ القصائدِ في هذا البابِ قصيدةُ أبي البقاء صالحِ بنِ يزيد الرُّنْديِّ (ت ٦٨٤ هـ): «لِكُلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقصانُ» (راجع ترجمة الرندي هذا في هذا الجزء). ومعَ أنّ هذه القصيدةَ قد عُرِفَتْ بٱسْمِ «رِثاء الأندلُس»، فإنّها قد نُظِمَتْ

---

(١) استولى الإسبان عليها ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م).
(٢) ابن الأبار القضاعي (ت ٦٥٨ هـ؛ راجع ترجمته في هذا الجزء).
(٣) لبّى: أجاب.
(٤) إذا لم تنقذها أنت قريباً، فإن الإسبان سيستولون عليها.
(٥) أشفى: قرب، اقترب. الذماء: بقيّة الحياة. الدين الحنيف: الإسلام.
(٦) مرى يمري (مسح): يمري الحالبُ ضِرعَ (بالكسر) النعجة ليسيل اللبن منه. الشأن (بالفتح، وجمعه شؤون): مجرى الدمع من العين. يمري الشؤون: يجعلنا نبكي حزناً.
(٧) احتلال: سكنى. المعهد (المنزل الذي ألفه الإنسان). شبّ: أوقد. الأعاجم (هنا): نصارى الإسبان الذين لا يتكلّمون العربية. دونها (دون رجوعنا أو وصولنا إليها). الهيجاء: الحرب.
(٨) مدارس (هنا) مآذن، مساجد (لأنّ المسجد في الإسلام مكان الدراسة والعلم). الطلل: بقايا البناء بعد تهدّمه (الأصح: المكان الذي زال منه البناء). دوارس (جمع دارس: ممحوّ).

قبلَ سُقوطِ الأندلس بقَرْنَيْنِ كاملين.

وكان بينَ أبي المُطرِّفِ أحمدَ بنِ عبدِ الله بنِ عُمَيْرَةَ (٥٨٢ - ٦٥٨ هـ) وأبي عبدِ الله محمّدِ بنِ عبدِ الله بنِ الأبّارِ القُضاعيِّ (٥٩٥ - ٦٥٨ هـ) صَداقةٌ ومُكاتباتٌ. فلمّا سقطتْ بَلَنْسِيةُ وَرَدَ على آبنِ عُميرةَ رِسالةٌ مِنَ آبنِ الأبار (في شأنِ بَلَنْسِيَةَ، فيما يبدو، وبعدَ آنقطاعِ المكاتبةِ بينَهما زَمناً)، فَرَدَّ عليها آبنُ عُميرةَ برسالةٍ طويلةٍ من النثر والنظم جاء فيها (نفح الطيب ٤: ٤٩٠-٤٩٦):

..... وأعودُ من حيثُ بدأَ الأخُ الذي أَبُثُّه شَوْقي وأتَطَعَّمُ حلاوةَ عِشرتهِ باقيةً في حاسّةِ ذَوْقي، طارَحَني حديثَ مَوْرِدٍ جفَّ وقَطينٍ خفَّ[١]. فيا -للهِ- لِأتراب دَرَجوا[٢] وأصحابٍ عنِ الأوطان خرَجوا. قُصَّتِ الأجنحةُ وقيل: طِيروا، وإنّما هو القتلُ أوِ الأسرُ أو تَسِيروا. فتفرّقوا أيديَ سبا وآنتشَروا مِلْءَ الوِهادِ والرُّبى[٣]. ففي كلّ جانبٍ عَويلٌ وزَفْرةٌ، وبكلّ صَدْرٍ غَليلٌ وحَسْرة[٤]. ولكلّ عينٍ عِبْرةٌ لا تَرْقأُ من أجْلِها عَبْرة[٥]. داءٌ خامَرَ بِلادَنا حينَ أتاها، وما زال بها حتّى سَجّى[٦] على مَوْتاها، وشَجَا[٧] لِيَوْمِها الأطولِ كَهْلَها وفَتاها. وأنْذَرَ بها في القوم بُحرانُ أنيجة[٨] يومَ أثاروا أُسْدَها المَهيجَة، فكانت تلك الحُطَمَةُ طَلَّ الشُّؤبوبِ[٩] وباكورةَ البَلاء

(١) طارح فلان فلاناً حديثاً: حاوره بحديث. المورد: مكان شرب الماء. القطين: الساكن. خفّ: ارتحل.

(٢) الترب (بالكسر)- تربك من كانت سنّه مثل سنّك. درج: ذهب (مات). النداء (هنا): الأذان (النداء إلى الصلاة).

(٣) تفرّقوا أيدي سبأ (في كلّ مكان)، كما تفرّق أهل اليمن بعد انفجار سدّ مأرب. الوهدة (بالفتح): ما انخفض من الأرض.

(٤) الغليل: شدّة العطش وحرارته (والحزن).

(٥) عبرة (بالكسر): عظة، درس، مغزى، (وبالفتح): دمعة، بكاء. رقأ: جفّ (الدمع) وانقطع.

(٦) سجّى الميت (بفتح فسكون): غطّاه.

(٧) شجا الأمر فلاناً (جعله يحزن).

(٨) كان قد سبق سقوط بلنسية معركة أنيجة (أو أنيشة) التي دلّت على ضعف المسلمين هنالك. البحران: شدّة الحرّ (ودخول المريض في الهذيان من شدّة الحمّى). الحطمة (بضمّ ففتح): النار الشديدة. الناقة التي تضرب الأرض بخفّها ضرباً شديداً، الحادث العنيف. الطلّ: أول المطر، المطر الخفيف.

(٩) الشؤبوب: الدفعة (بالضمّ): الكبيرة من المطر. سقوط أنيجة (وهي بلدة صغيرة) كان البدء لسقوط المدن الكبيرة (مثل بلنسبة).

المَصْبوب. أثْكَلَنا إخواناً[١] أبكانا نَعِيُّهم.....

في نفح الطيب (٤: ٣٨٥ وما بعد):

ولم يَزَلْ بنو مَرينٍ يُعينون أهلَ الأندلُسِ بالمالِ والرجال، وتركوا منهم حُصّةً مُعْتَبرةً[٢] من أقاربِ السلطان بالأندلس غزاةً. فكانتْ لهم وقائعُ في العدُوِّ مذكورةٌ ومواقفُ مشهورةٌ. وكان عندَ آبنِ الأحمرِ[٣] منهم جماعةٌ بغَرْناطةَ وعليهم رئيسٌ من بيتِ مُلْكِ بني مَرينٍ يُسمّونه «شيخَ الغُزاة». ولمّا أفضى المُلْكُ إلى السُّلطانِ الكبيرِ الشهيرِ أبي الحسنِ المَرينيِّ، وخَلَصَ له المَغرِبُ وبعضُ بلادِ الأندلُسِ، أمر بإنشاء الأساطيلِ الكثيرة برَسْمِ الجِهاد بالأندلس وآهتمّ بذلك غايةَ الآهتمام.

فقَضَى الله تعالى أنِ آستَوْلى الإفرنْجُ على كثيرٍ من تلك المراكب بعدَ أخْذِهِمُ الجزيرةَ الخضراء، وكانَ الإفرنْجُ قد جَمَعوا جُموعاً كثيرةً برَسْمِ الآستيلاء على ما بَقِيَ للمُسلمين بالأندلس. فآسْتَنْفَرَ[٤] أهلُ الأندلسِ السُّلطانَ أبا الحسنِ المذكورَ، فجاء بنفسِه إلى سَبْتَةَ - فُرضةِ المَجاز[٥] ومحلِّ أساطيلِ المسلمين - فإذا بالإفرِنْج جاءوا بالسُّفُنِ آلتي لا تُحصى ومَنَعوه من العُبور وإغاثة أهلِ الأندلُسِ حتّى آسْتَوْلَوْا على الجزيرةِ الخضراءِ[٦] وأنْكَوْهُ في مَراكبِه أعظمَ نكايةٍ[٧]، ولله الأمرُ.

وقدْ أفصحَ عن ذلك كتابٌ صَدَرَ من السُّلطانِ أبي الحسنِ المذكور إلى سُلْطانِ مِصْرَ والشامِ والحِجاز المَلِكِ الصالحِ بنِ المَلِكِ الناصرِ مُحمّدِ بنِ الملكِ المنصورِ قلاوُونَ الصالحيِّ الألْفِيِّ[٨].....

---

(١) أثكلتنا (أفقدتنا بالموت). النعيّ (بتشديد الياء): الذي يعلن خبر الموت.

(٢) حصّة (قسم) معتبرة (وافية، كثيرة): جماعة من جنود بني مرين.

(٣) ابن الأحمر لقب لكلّ سلطان من سلاطين بني نصر في غرناطة.

(٤) استنفر الرجل قومه: دعاهم (وأوجب عليهم) أن يسيروا للحرب.

(٥) الفرضة: الخليج (على النهر أو البحر) ترسو فيه السفن. المجاز (بحر المجاز) الذي يجوز (ينتقل) فيه الناس بين برّ المغرب وبرّ الأندلس.

(٦) الجزيرة الخضراء: الطرف الأقصى من جنوبي جزيرة الأندلس، ومدينة هناك أيضاً.

(٧) أنكوه (في القاموس: نكوه - بفتح ففتح فسكون): غلبوه، قهروه..... أغرقوا كثيراً من مراكبه.

(٨) الملك المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) الصالحي (لأنّ الملك الصالح نجم الدين أيوب قد أعتقه سنة ٦٤٧ للهجرة) (الألفي، لأنّ سيّده كان قد اشتراه بألف دينار).

وبَعْدَ خَمْسِ صَفَحاتٍ من دِيباجةٍ في التَمَدُّحِ والمديح وبثِّ الأشواق وذِكْرِ المفاخر تبدأُ رِسالةُ أبي الحسنِ المَرينيِّ إلى المَلكِ الصالح (٤: ٣٩١ وما بعد):

.... لمّا وَصَلَنا مِنَ الأندلُسِ الصريخُ[١]، ونادى مُنادٍ للجهاد عَزْماً لِمثْلِ نِدائه يُصيخ[٢]، أنبأنا أنّ الكُفّارَ قد جَمَعوا أحزابَهم من كلِّ صَوْبٍ[٣]، وحَتَمَ عليهم باباهُمُ اللعينُ التناصُرَ من كُلِّ أوْبٍ[٤]، وأنْ تَقْصِدَ طوائِفُهُمُ البلادَ الأندلسيّةَ بإيجافِها وتَنْقُصَ بالمُنازلةِ أرضَها من أطرافِها[٥] لِيَمْحوا كَلِمَةَ الإسلامِ منها ويُقَلِّصوا ظِلَّ الإسلامِ عنها. فقدّمْنا مَنْ يَشْتَغِلُ بالأساطيل مِنَ القُوّاد، وسِرْنا على أثَرِهِمْ إلى سَبْتَةَ مُنْتَهى المَغْرِبِ الأقصى وبابِ الجِهاد. فما وَصَلْناها إلّا وقد أخَذَ أخْذَهُ العدوُّ الكافرُ، وسَدَّتْ أجفانُ الطواغيتِ[٦] على التعاونِ مَجازَ العُبور.... لكنّنا - مَعَ انسدادِ تلكَ السبيلِ...... - حاوَلْنا إمدادَ تِلْكُمُ البلادِ بِحَسْبِ الجُهْدِ، وأصْرَخْناهُم[٧] بِمَنْ أمكَنَ مِنَ الجُنْد..... وأمَرْنا لصاحبِ الأندلس مِنَ المال بما يُجَهِّزُ به حَرَكَتَه لِمُداناة مَحَلِّ حِزْبِ الضلال[٨]...... وقد كان من لُطْفِ اللهِ حين قضى بأخْذِ هذا الثَّغْرِ[٩]، أنْ قَدَّرَ لنا فَتْحَ جبلِ طارقٍ[١٠] من أيدي الكُفْر وهُوَ المُطِلُّ

---

(١) الصريخ: الاستغاثة.

(٢) عزما (مفعول به من نادى). يصيخ: يميل (بسمعه). - كان عزمنا في الاستجابة لندائه أكيداً مخلصاً مثل استغاثته بنا.

(٣) لمّا وصل من الأندلس الصريخ.... أنبأنا (أخبرنا). صوب: جهة.

(٤) حتم: أوجب، فرض. لمّا كُتبت هذه الرسالة، سنة ٧٤٥ للهجرة (١٣٤٥ م) كان البابا في رومية كليمنت السادس (١٣٤٢ - ١٣٥٢ م). الأوب: الجهة والناحية.

(٥) الإيجاف: السرعة (الاستيلاء على الأراضي بلا حرب). تنقص (فعل متعدّ) طوائف الإسبان (فاعل) بالمنازلة (القتال، المبارزة في القتال) الأرض (مفعول به) من أطرافها (جوانبها). راجع القرآن الكريم: ﴿أولم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ (١٣: ٤١، سورة الرعد).

(٦) الأجفان جمع جفن (بالفتح): مركب حربي (؟). الطواغيت (جمع طاغوت: الشيطان) كناية عن الإسبان.

(٧) أصرخ: أغاث، ساعد.

(٨) لمداناة محلّ حزب الضلال (للاقتراب من الإسبان المهاجمين بجيش: للحيلولة بينهم وبين احتلال المدن).

(٩) الثغر: المكان الذي يخشى مجيء العدوّ منه (برًّا أو بحراً).

(١٠) جبل طارق: رأس صخري مشرف على البحر عند طرف جزيرة الأندلس جنوباً.

على هذه المدَرَةِ[١]، والفُرصةُ منها - إنْ شاء اللهُ - مُتَيسِّرَةٌ[٢].... وعُدْنا لحَضْرتِنا[٣] فاسَ لِتَستريحَ الجُيوشُ من وَعْثاءِ السفرِ[٤] وتُرْتَبطَ الجِيادُ وتُنْتَخبَ العُدَدُ[٥] لوقتِ الظهورِ المُنْتَظَر وتكونَ على أُهبةِ[٦] الجِهاد.....

وعِندَ عَوْدِنا من تلك المُحاولة، تَيسَّرَ الرَّكْبُ الحِجازيّ[٧] مُوَجِّهاً إلى هُنالِكُمْ رَواحِلَه[٨]، فأصْدَرْنا إليكم هذا الخِطابَ.... وآعتقادُنا فيكم في ذاتِ اللهِ لا يُخْشى جَديدُه من البلاء[٩]. وما لكم من غَرضٍ بهذه الأنحاءِ فَمُوَفًّى قَصْدُه على أكملِ الأهواء[١٠]... والبِلادُ بآتّحادِ الوُدِّ مُتّحدةٌ، والقلوبُ على ما فيه مَرْضاةُ الله - عزَّ وجلَّ - مُنْعَقِدةٌ. جعَلَ الله ذلكُمْ خالصاً لربِّ العِباد مَدْخوراً ليومِ التَّنادِ[١١] مَسْطوراً في الأعمالِ الصالحةِ يومَ المَعاد[١٢]..... والسلامُ الأتمُّ يخُصُّكُمْ كثيراً أثيراً[١٣] ورَحْمَةُ اللهِ وبَركاتُه. وكُتِبَ يومَ الخميس السادسَ والعِشرين من صَفَرَ المُباركِ من عامِ خمسةٍ

---

(١) المدرة: القرية (المدينة) المبنيّة بالطين (أي مدينة الجزيرة الخضراء التي بنيت هنالك لتكون مكاناً لتجمّع الجيوش).

(٢) ... متيسّرة (سهلة) لمهاجمة الإسبان.

(٣) الحضرة: العاصمة.

(٤) وعثاء السفر (شدّته والتعب الذي يقاسيه المسافر).

(٥) ارتباط الجياد (الخيل): إعدادها للحرب. العدّة (بالضمّ): آلة الحرب.

(٦) الأهبة: العدّة (بالضمّ) الوسيلة، الاستعداد.

(٧) الركب الحجازي: القافلة المتوجّهة إلى الحجاز للحجّ.

(٨) الراحلة: الحيوان (البعير، الحصان، الخ) الذي يسافر الناس عليه.

(٩) نحن نعتقد أنكم إذا دُعيتم إلى مثل هذه المساعدة في الدفاع عن المسلمين في الأندلس، «لا يخشى جديده من البلاء» (الاختبار): أنتم معروفون أن أعمالكم الماضية كانت للدفاع عن الإسلام والمسلمين (وهذا ملموح في ثنايا الرسالة)، فلن يكون موقفكم الجديد إلّا كمواقفكم القديمة.

(١٠) وما لكم (ما ترغبون فيه) من غرض (حاجة أو رغبة) بهذه الأنحاء (في بلادنا: المغرب) فموفّى (نقوم لكم به) على أكمل الأهواء (على أحسن ما ترغبون).

(١١) مذخوراً: مدّخراً، محفوظاً. التناد = التنادي (يوم القيامة)، إذ يكثر فيه تنادي الناس: ينادي أصحاب النار أصحاب الجنّة (يستغيثون بهم لشيء من الماء مثلاً) وينادي أصحاب الجنّة أصحاب النار (ليذكّروهم بأن أعمالهم - أعمال أصحاب النار - في الدنيا لم تكن صالحة).

(١٢) يوم المعاد: يوم القيامة (عودة البشر كلّهم إلى ربّهم للحساب).

(١٣) الأثير: الفاضل، الكريم.

وأربعينَ وسَبْعِمِائَةٍ [١].

وفي سَنَةِ ٧٥٠ للهجرة (١٣٥٠ م)، أو بعدَها بقليلٍ كَتَبَ لِسانُ الدينِ بنُ الخطيب على لِسانِ سُلطانِ غَرناطةَ أبي الحجّاجِ يوسفَ النيّار بنِ إسماعيلَ (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) «رسالةً إعلاميّةً» (من الدعاية الرسمية) يُشَدِّدُ فيها عزائمَ الرعيّة على شيءٍ من الصبر على الضيق النازل بغَرناطةَ ويُمَنّيهمْ [٢] بفَرَجٍ أوسعَ مَدًى. في هذه الرسالة (نفح الطيب ٤: ٤٤٢ - ٤٤٤):

.... فقد عَلِمْتُم، ما كانتِ الحالُ آلتْ [٣] إليه من ضِيقةِ البلادِ والعِباد بهذا الطاغيةِ [٤] الذي جرى في مَيْدانِ الأملِ جَرْيَ الجَموحِ [٥]، ودارتْ عليه خَمْرةُ النَّخْوةِ والخُيَلاءِ مَعَ الغَبوق والصَّبوح [٦]، حتّى طَمَحَ بسُكْرِ آعتزازه. و (قد) مُحِّصَ [٧] المُسلمون على يدهِ بالوقائع التي تُجاوِزُ مُنتهى مِقْداره [٨]، وتَوَجَّهَتْ إلى آستِئْصال الكَلِمَةِ [٩] مَطامِعُ أفكاره، ووَثِقَ بأنّه يُطْفِئُ نورَ الله بناره. ونازَلَ جَبَلَ الفَتْحِ فشَدَّ مُخَنَّقُ حِصاره [١٠].... وساءتِ الظُّنونُ في هذا القُطر الوحيد [١١] المُنْقطع بين الأُمّة الكافرة والبُحور الزاخرة والمَرام البعيد. وإنّنا صابَرْنا بالله [١٢] تعالى تَيّارَ سَيْلِهِ واستضأنا بنورِ التوكُّل عليه في جُنْحِ هذا الخَطْب ودُجُنَّةِ لَيْلِهِ [١٣]، ولجأنا إلى

---

(١) يوافقه في التقويم الميلادي ٩/٧/١٣٤٤.

(٢) يجعل لهم أمنية: أملاً مقبلاً.

(٣) آلت: رجعت، صارت (وصلت).

(٤) كان المسلمون في الأندلس يطلقون على ملوك إسبانية لقب «الطاغية» (الظالم المتجبّر).

(٥) الجموح: الحصان النشيط النافر الذي لا يكاد يمكّن أحداً من ركوبه.

(٦) خمرة (الصواب: خمر). الخيلاء: التكبّر. الحماسة، التعاظم، التكبّر. الغبوق: شرب الخمر مساء. الصبوح: شرب الخمر صباحاً.

(٧) محّص: طهّر، اختبر، نفى الكدر والشوائب من المعادن. محّص (القتال) الناس: نفى منهم من لا يصلح (أهلك أكثرهم).

(٨) قتل من المسلمين أكثر ممّا كان هو قادراً على قتله (لضعف المسلمين وتخاذلهم).

(٩) استئصال: اقتلاع. الكلمة (كلمة التوحيد).

(١٠) جبل الفتح: جبل طارق.... اشتدّ عليه الحصار.

(١١) الوحيد (هنا) المنفرد بنفسه والمنقطع عن إخوانه المسلمين.

(١٢) صابرنا بالله (استعنّا بالله ليكون صبرنا على القتال أكثر من صبر عدوّنا).

(١٣) الجنح: الجانب من الليل. الدجنّة: الظلام.

مَنْ بيده نواصي الخلائق [١].... وفَسَحْنا مَجالَ الأمل في ذلك المَيْدانِ المُتَضايِق....
ولم نُقَصِّرْ - مَعَ ذلك - في إبرامِ العَزْمِ وٱسْتِشْعار [٢] الحَزْمِ وإمدادِ الثُّغورِ بأقصى
الإمكان وبَعْثِ الجيوش إلى ما يَلينا على الأحيان [٣]. فَرَحِمَ اللهُ انْقِطاعَنا إلى كَرَمِه
وٱلْتِجاءَنا إلى حَرَمِهِ [٤]، فجَلّى [٥] بفَضْلِه، سُبحانَه، ظُلَمَ الشِّدّةِ ومَدّ على الحريم
والأطفال ظِلالَ رَحْمتِه المُمْتَدّةِ.....

وبَيْنَما شَفَقَتُنا على جبلِ الفتح تُقِيمُ وتُقْعِدُ، وكَلَبُ [٦] الأعداء عليه يُبْرِقُ
ويُرْعِدُ، والرجاءُ واليأسُ خَصْمانِ: هذا يُقَرِّبُ وهذا يُبَعِّدُ، إذ طَلَعَ علينا البشيرُ
بٱنفراج الأزمة وحَلِّ تلك العَزْمة ومَوْتِ شاهِ تلك الرُّقعةِ [٧] وإبقاءِ الله تعالى على
تلك البُقعةِ [٨]، وأنَّه، سُبحانَه - أَخَذَ الطاغيةَ [٩] أكْمَلَ ما كان ٱغْتِراراً وأعظَمَ
أنصاراً.... وأنّ مَنْ بيده الأمرُ طَرَقَهُ بحَتْفِه [١٠] وأهْلَكَهُ بِرُغْمِ أنْفِه، وأنّ مَحَلَّته
عاجلَها التَّبابُ والتَّبارُ [١١]، وعاثَتْ في منازِلِها النارُ [١٢]..... وأنّ حُماتَها [١٣] يَخْرُبون

---

(١) إلى من بيده.. (إلى الله). الناصية: مقدّم الرأس أو شعر مقدّم الرأس.

(٢) استشعار (لبس) الحزم (البّت في الأمور): تظاهرنا بذلك.

(٣) الثغر: المكان الذي يخشى مجيء العدوّ منه. يلينا: يكون إلى جانبنا، على مقربة منّا. على الأحيان: حيناً بعد حين (؟).

(٤) الحرم: المكان الذي يحميه صاحبه. حرم الله: المكان الذي لا يجوز فيه القتال.

(٥) جلّى: كشف.

(٦) الكلب (بفتح ففتح): شدّة الأذى.

(٧) الأزمة: الشدّة. العزمة: الإرادة. شاه (ملك) الرقعة: رقعة الشطرنج (بالكسر): كناية عن ملك الإسبان ألفونسو الحادي عشر الذي توفّي في أثناء حصار جبل طارق، عام ١٣٥٠ للميلاد (٧٥١ هـ). - التعبير «شاه تلك الرقعة» مأخوذ من المقامة المضيرية لبديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨ هـ).

(٨) تلك البقعة (التي كانت قد بقيت للمسلمين في الأندلس).

(٩) أخذ الطاغية: أماته.

(١٠) طرقه (أتاه بغتة) بحتفه (بهلاكه).

(١١) التباب والتبار: الهلاك.

(١٢) عاث: أفسد.

(١٣) الحماة: الجنود (المدافعون، الأبطال).

بيوتَهم بأيديهم وينادي بِشَتاتِ[1] الشَّمْل مُناديهم. وتلاحَقَ الفُرسانُ[2] مِنْ جَبَلِ الفَتْح (ذلك) المَعْقِلِ[3] الذي عليه من عِنايةِ الله تعالى رواقٌ مضروب، والرِّباطِ [4] الذي مَنْ حارَبَه فَهُوَ المحروب[5]. فأخْبَرَتْ بانفراجِ الضِّيق وآرْتفاع العائق لها عنِ الطريق.... وأنّ النصارى - دَمَّرَها الله تعالى - جَدّتْ في آرتحالها[6] وأسرعتْ بجيفةِ طاغِيَتها [7] إلى سوءِ مآلِها[8] وحالِها، وسَمَحَتْ للنار والنَّهب بأسلابِها وأموالها [9]. فبَهَرَنا هذا الصُّنْعُ الالَهيّ الذي مهد الأقطارَ بعدَ رَجَفانِها [10] وأنامَ العُيونَ بعد سُهادِ أجْفانِها.... ورأينا سِرَّ اللطائفِ الخَفِيّةِ كيف سَرَيانُه في الوجودِ وشاهَدْنا بالعِيانِ أنوارَ اللطائفِ الإلَهيّة والجود. وقُلْنا: إنّما هو الفَتْح الأوّلُ شُفِعَ بِثانٍ، وقواعدُ الدين الحَنيفِ أُيِّدَتْ من صُنْعِ الله بِبُنْيانٍ[11]. اللّهُمَّ، لك الحمدُ على نِعَمِكَ الباطنةِ والظاهرة ومِنَنِك[12] الوافرة. إنّك وَلِيُّنا[13] في الدُّنيا والآخِرة.

وهنالك رسائلُ أخرى بهذا المعنى لا تخرُج عن هذا الإطار - من ضَعْف المسلمين حيناً وتخاذُلِ أُمرائهم حيناً آخرَ، ومن تناصُرِ الدُّول النَّصرانية في أُوروبّة على إخراج المسلمين من الأندلُس. وكانتِ البابويّةُ تَتزَعّمُ هذه الحَرَكةَ - ممّا لا حاجةَ إلى الاستشهاد بها. إنّ ما ذَكَرْتُه يُجزِئُ عمّا لم أذْكُرْهُ. وفي هذه الصَّفَحات الكِثارِ التي

---

(1) الشتات: التفرّق.

(2) تلاحق الفرسان: لحق بعضهم بعضاً (فرّوا، هربوا، انهزموا).

(3) المعقل: الحصن (بالكسر).

(4) الرباط: المكان الذي يكون فيه مدافعون على حدود الدولة الإسلامية.

(5) المحروب: المسلوب (الخاسر).

(6) جدّت في ارتحالها: أسرعت في سفرها (رجوعها إلى بلادها).

(7) جيفة (جثّة) طاغيتها (ملكها: ألفونس الحادي عشر).

(8) إلى سوء مآلها: مرجعها، مصيرها (مرجع الملك بعد الموت إلى جهنم).

(9) سمحت للنار والنهب بأسلابها وأموالها (؟).

(10) مهد (بلا تشديد وبتشديد): عمل على تسهيل الأمر وتهيئته (تسكينه).

(11) الفتح الأوّل (موت الطاغية ألفونسو الحادي عشر؟). الفتح الثاني (انسحاب الإسبان وتركهم محاصرة المسلمين؟). قواعد (أسس) الدين الحنيف (الإسلام) أُيدّت (قويت، زاد، رسوخها) ببنيان (بدعائم، بكمال).

(12) المنن جمع منّة (بالكسر): نعمة.

(13) الوليّ: الذي يتولّى أمر الناس (الصاحب، النصير، الحليف، الكفيل، الخ).

مرّتْ نوعٌ من الأدب (أدبِ التفجّع) ونماذجُ وافيةٌ لأُسلوبِ لِسانِ الدينِ بنِ الخطيب.

– ومن رسالةٍ لِلِسانِ الدين بنِ الخطيب، بعدَ أن وَرَدَ خبرٌ بأن بني مرينٍ كانوا قد عَزَموا على إنجاد غَرْناطةَ ثمّ جاء خبرٌ ثانٍ بأنّهم عَدَلوا عن ذلك (نفح الطيب ٤: ٤١١ – ٤١٥):

.... ونَحْنُ مهما شُدَّ المُخَنَّقُ بكم نَسْتَنْصِرُ، أو تَراخى ففي وُدِّكم نَسْتَبْصِرُ، أو فَتَحَ اللهُ تعالى فأبوابكم نُهَنِّىءُ ونُبَشِّرُ. وقَرّرْنا عندكم أن العَدُوَّ في هذه الأيام توقّف عن بلادِ المُسلمين فَلَمْ تَصِلْ منه إليها سَرِيّةٌ[١]، ولا بطشتْ له (فيها) يدٌ جَرِيّةٌ[٢]... ولا نَدري أَلْمكيدةٍ تُدَبَّرُ.... أو لشاغلٍ في الباطن لا يظهَرُ[٣]؟ وبعدَ ذلك، وَرَدَتْ على بابِنا من بعضِ كِبارِهم وزُعماءِ أقْطارِهم مُخاطباتٌ يَنْدُبون فيها إلى جُنوحها لِلسِّلْمِ في سبيلِ النُّصْح[٤]... فلم يَخْفَ عنّا أنه أمرٌ دُبِّرَ بِلَيْلٍ[٥]... فوَجّهنا إليه... لِنَعْتَبِرَ ما لَدَيْهِ[٦]... فتأتّى ذلك وجَرّ مُفاوضةً أعدنا (في الحاشية: أعددنا) لأجلها الرسالةَ[٧] واسْتَشْعَرْنا البَسالةَ[٨].... ونحن نرتقبُ ما يخلُقُ اللهُ تعالى من مُهادنةٍ تحصُلُ بها الأقواتُ المُهيّأة لِلاَنْتِسافِ[٩]، وتسكّن (في الحاشية: تسكين) ما ساء البلادَ المسلمةَ من هذا الإرجاف[١٠].... أو حربٍ يبلُغُ الاَستبصار فيها غايتَه[١١].... ولم

---

(١) السريّة (في الأصل): جيش يذهب للجهاد ولا يكون فيه محمد رسول الله. وهنا: حملة عسكرية فقط.
(٢) جريّة = جريئة (وحذفت الهمزة للموافقة في السجع مع «سريّة»).
(٣) ....لشاغل في الباطن: لمشاكل داخلية (في بلاد الإسبان).
(٤) .. يطلبون منا أن نجنح (نميل) إلى السلم (الصلح) في سبيل النصح (اقرأ: على سبيل النصح): حبًّا بفائدتنا نحن (المسلمين).
(٥) أمر دبّر بليل (مكيدة، خداع).
(٦) تظاهرنا أننا قبلنا اقتراح الإسبان فأرسلنا إليهم مفاوضين.
(٧) الرسالة (هذه الرسالة).
(٨) استشعر الرجل: لبس الشعار (ثوب يلبس ملاصقاً للبدن). استشعرنا البسالة (الشجاعة): تظاهرنا بالقوة (بينما كنا نكتب إليكم هذه الرسالة لنستغيث بكم).
(٩) فعلنا ذلك (قبلنا الهدنة) خوفاً على المواسم التي قرب حصادها ونخشى إذا جاء الإسبان بحملة عليها أن ينتسفوها (يقتلعوها): يتلفوها.
(١٠) الإرجاف: نشر الأخبار السيئة (التهديد بالحرب).
(١١) حرب يبلغ الاستبصار (حسن النظر) فيها غايته (تمامه): حرب ليست لصالحنا.

نَجْعَلْ سَبَبَ الاعتزازِ فيما أرَدْنا وشموخَ الأنف فيما أصْدَرْنا إلّا ما أشَعْنا من عَزْمِكُمْ [١] على نُصْرَةِ الإسلام وارتقابِ خُفوقِ الأعلام [٢].... ثمّ اتّصل بنا الخبرُ الكارثُ [٣] بما كان من حَوْرِ العزائمِ المؤمنة بعدَ كَوْرِها [٤]، وتسويفِ مواعيدِ النُّصرةِ بعدَ فَوْرِها [٤] وأنّ الحَرَكَةَ مُعْمَلَةٌ إلى مَرّاكُشَ [٥] الجهةِ التي في يَدَيْكُمْ زِمامُها..... فسُقِطَ في الأيدي المَمْدودةُ [٦]... وخَسِئَتِ الأبصارُ المُرْتَقِبةُ [٧] وساءت الظُّنونُ وذَرِفَتِ العُيونُ. وأكْذَبَ الفُضلاءُ الخبرَ ونَفَوْا أنْ يُعْتَبَرَ. وقالوا: هذا لا يُمْكِنُ حيثُ الدينُ الحَنيفُ والمُلْكُ المُنيف [٨] والعُلماءُ الذين أخذَ اللهُ تعالى مِيثاقَهم وحَمَّلَ النصيحةَ أعناقَهم [٩]. وهذا المُفْتَرَضُ [١٠] يأباهُ اللهُ تعالى والإسلامُ، وتأباه العُلماءُ والأعلامُ، وتأباه المآذنُ والمنابرُ، وتأباه الهِمَمُ الأكابرُ. فبادَرْنا نَسْتَطْلِعُ طَلْعَ هذا النبأ الذي إن كان باطلاً فهو الظَّنُّ، ولله المَنُّ [١١]. وإن كان خِلافَه لِرأيٍ تَرَجَّحَ.... فنحن نُوفِدُ كلَّ من يقدم إلى الله تعالى بهذا القُطْرِ في شفاعةٍ ويمدّ إليه كفَّ ضَراعةٍ ومن يُوسَمُ [١٢] بصلاحٍ وعِبادة.... يَتطارَحون عليكم في نَقْضِ ما أُبْرِمَ ونَسْخِ

---

(١) أشعنا: أذعنا، أعلنا.

(٢) ارتقاب (انتظار) خفوق (تموّج) الأعلام (الرايات): مجيئكم لمساعدتنا.

(٣) الكارث: الشديد الوقع على النفس (المنذر بكارثة).

(٤) الحور: الرجوع (عن العزم)، نقض ما كان الإنسان قد عزم عليه. الكور: لفّ الشيء على الجسم (إحكام الرباط، تأكيد الأمر). الفور (الإسراع في العمل).

(٥) إن الجيوش التي كانت متّجهة من مراكش (عاصمة المغرب) إلى الأندلس لقتال الإسبان، هي الآن معملة (مسرعة) نحو مراكش (بسبب النزاع بين السلطان أبي الحسن المريني علي بن عثمان وأبي عنان فارس، سنة ٧٥١ للهجرة، على العرش – راجع الاستقصا ٢ : ٨٥).

(٦) سقط في الأيدي الممدودة (الطالبة للمعونة): تحيّرت واضطربت.

(٧) خسئت: ضعفت (فقدت القدرة على معرفة الأمور). المرتقبة: المنتظرة.

(٨) الدين الحنيف: الإسلام. المنيف: العالي (الثابت القوي).

(٩) العلماء مسؤولون عما يصيب أمتهم.

(١٠) المفترض = المفروض (رجوع بني مرين عن وعدهم بنصرة الأندلس ومحاربة الإسبان).

(١١) نستطلع طلع النبأ: نبحث عن صحة الخبر. المنّ: النعمة، الإنعام على الناس.

(١٢) يقدم (؟). الضراعة: السؤال (من الله) بتذلّل وخضوع. وسم (بالبناء للمجهول): صار له علامة. – ... نرسل إليكم أفراداً تقبل شفاعتهم عندكم (؟) ويتضرّع إلى الله كي تقبلوا منه (؟).

ما أُحْكِمَ[١]، فإنّكم[٢] تَجْنونَ به على مَنِ ٱسْتَنْصَرَكُمْ عَكْسَ ما قَصَدَ.... وهَبِ العُذْرَ يُقْبَلُ في عَدَمِ الإعانةِ وضَرورةِ الٱستعانةِ والٱستكانة، أي عُذْرٍ يُقْبَلُ في الٱطّراح والإعراضِ الصُّراح[٣]. كأنّ الدينَ غيرُ واحدٍ[٤]، كأن هذا القُطْرَ لِكَلِمَةِ الإسلامِ جاحدٌ، كأنّ ذِمامَ[٥] الإسلامِ غيرُ جامعٍ.... فنحنُ نسأَلُكم باللهِ الذي تَساءَلونَ به والأرحامِ[٦]، ونأنَفُ لكم من هذا الإحْجام. ونَتَطارَحُ عليكم أنْ تَتْرُكوا حَظَّكُم في أهلِ تلك الجِهةِ[٧] حتّى يحكُمَ اللهُ بَيْنَنا وبينَ العَدُوِّ الذي يَتَكالَبُ عَلَيْنا بإدْبارِكم بعدَما تضاءلَ لِٱسْتِنْفارِكم[٨].... وما ذَهَبْتُمْ إليه لا يَفوتُ[٩]..... إنّما الفائتُ ما وَراءَكم من حيثُ تأنف من سَماعِه أوِدّاؤُكم[١٠] ودينٌ يَشْمَتُ به أعْداؤُكم[١١]. فأسْعِفوا بالشَّفاعةِ فيمن بِتِلْكَ الجِهة المَرّاكُشيّةِ قَصْدَنا[١٢]، وحاشا إحسانَكم أنْ يَرْضى فيه رَدَّنا.....

---

(١) يتطارحون: يتبادلون الآراء في أمر ما (هنا: يلقون بأنفسهم بين أيديكم بذلّة). في نقض ما أبرم (في إبطال ما كنتم أقررتموه) وفي نسخ ما أحكم (تبديل ما كان قد جُعل فرضاً واجباً).

(٢) فإنكم (إقرأ: وإلّا فإنكم - فإن لم تفعلوا فإنكم).

(٣) اطّراح الأمر: تركه جملة وإهماله. الإعراض (الالتفات عن الأمر، ترك الاهتمام بالشيء) الصراح (الواضح الذي لا تردّد في تفسيره).

(٤) كأنّ ديننا غير دينكم.

(٥) الذمام: العهد، الحقّ، الحرمة (وجوب الدفاع عمّا يتّصل بالإنسان).

(٦) في القرآن الكريم: ﴿فاتّقوا الله الذي تَساءلون به والأرحام﴾ (٤: ١، سورة النساء): خافوا الله. تساءلون = تتساءلون به بينكم (حينما يقول أحدكم للآخر: أسألك بالله - بأنّني وإيّاك نعبد ربًّا واحداً) واتّقوا (خافوا على) الأرحام (القرابة التي بيننا في الدين، وفي النسب أيضاً) أن تقطعوها وتتركوا نصرنا فيستولي علينا العدوّ الكافر.

(٧) اتركوا الآن الخلاف الذي بينكم في تلك الجهة (مرّاكش - من الخلاف على تولّي العرش) إلى أن تنقذونا من العدوّ (الإسبان) الذي يتكالب (يعلن العداوة لنا ثمّ يثب علينا من كلّ جانب) بإدباركم (إذا رأى أنّكم تتخلّفون عن نصرتنا).

(٨) استنفاركم: الاستغاثة بكم.

(٩) ما ذهبتم إليه (حلّ مشكلة الخلاف على العرش) لا يفوت (لا يمضي زمنه، يمكن أن تعالجوه بعد مدّة). إنّما الفائت (الذي تخسرونه ثمّ لاتنقذونه) ما وراءكم (ما تركتموه وراءكم: لا تهتمّون به، أي ضياع بلاد الأندلس).

(١٠) الوادّ: المحبّ.

(١١) ودين (أي الإسلام) يشمت به أعداؤكم - إذا زال عن الأندلس.

(١٢) ابعثوا إلى مساعدتنا أولئك الجنود الذين رددتموهم إلى مدينة مرّاكش.

أدب المولد[*]

المَوْلِدُ، هنا، ذِكرى ميلادِ محمّدٍ رسولِ الله - في ثاني عَشَرَ ربيعٍ الأوّلِ من العام ٥٢ قبلَ الهِجرة (٥٧٠ م) - والآحتفالُ بهذه الذِكرى بِدْعةٌ (شيءٌ لم يكنْ في أيامِ رسولِ الله ولا في أيامِ الصَّحابة). غيرَ أنّ هذه البِدعةَ إذا آتّصلتْ بالتقوى (من صلاةٍ وذكرٍ للهِ) وبالأعمال الصالحة (من خِدمة المجتمع: بالصَّدَقة والوَعْظ والتحدُّث بمآثرِ الإسلام وزيارةِ بعضِ المسلمينَ بعضاً تأكيداً للمودّةِ بينَهم) فإنّها تُصْبِحُ حينَئِذٍ بِدعةً حَسَنةً محمودة. أمّا هذا الذي يفعلُه اليومَ جَماعاتٌ من المسلمين عادةً (من إقامة الزينة من الوَرَقِ المُلوّن وإطلاق الرصاص والركْضِ في الشوارع وآستغلالِ المُناسبة الكريمةِ في سبيلِ أغراضٍ دُنْيَويّةٍ مُختلفةٍ - سِياسيّةٍ أو غير سياسيّة) فإنّما هُوَ جاهليّةٌ ووَثَنِيّةٌ أيضاً. وعلى هذا قال الإمام شَيْخُ الإسلام آبنُ تَيْمِيَّةَ (ت ٧٢٨ هـ).

« .... وأمّا آتّخاذُ مَوْسِمٍ غيرِ المواسمِ الشرعيّة[١] كبَعْضِ ليالي شهر رَبيعٍ الأوّلِ التي يُقالُ إنّها ليلةُ المولدِ[٢]، أو بعضِ ليالي رَجَبَ[٣] أو ثامِنَ عَشَرَ ذي الحِجّة[٤] أوْ

(*) للدكتور محسن جمال الدين كتاب في ثمان وأربعين صفحة، على صفحته الأولى: في رياض الأندلس: احتفال الموالد النبويّة في الأشعار الأندلسيّة والمغربية والمهجرية، الطبعة الأولى، بغداد (مطبعة دار البصري) ١٩٦٧ م. - ومع أن هذا الكتاب يتناول أشياء كثيرة لا صلة لها بالمولد: دخول الإسلام إلى المغرب والأندلس (ص ٨ - ١٤) ثمّ اهتمام العلماء والأمراء والخلفاء في ميلاد الرسول الأعظم (ص ١٤ - ١٩)، وهو فصل في نفر من علماء المغرب والأندلس ليس فيه ذكر للمولد. ثمّ يأتي فصل: الشخصيّات الأندلسية والمغربية التي زارت المشرق أو دخلت الأماكن المقدّسة (ص ١٩ - ٢٠). وابتداء من الصفحة العشرين (أو الحادية والعشرين على الأصحّ) يأتي الكلام على الاحتفال للمولد النبويّ. ولا شكّ في أن الصديق محسن جمال الدين قد نبّه الأفكار بكتابه الموجز إلى موضوع يستحقّ عناية وافية.

(١) في الإسلام موسمان شرعيّان: أوّل شوّال (عيد الفطر: لخروج المسلم من صيام رمضان على طاعة) ثمّ العاشر من ذي الحجّة (عيد الأضحى: لقيام المسلم المستطيع بفريضة الحجّ).

(٢) لا خلاف في أن محمّداً رسول الله قد ولد في شهر ربيع الأوّل؛ ولكنّ هنالك خلافاً في اليوم الذي ولد فيه من شهر ربيع الأوّل.

(٣) لعلّ في ذلك إشارة إلى ليلة الإسراء. إنّ الحادث التاريخي: إسراءِ الرسول صلّى الله عليه وسلم (في السابع والعشرين من رجب) ثابت. ولكنّ الاحتفال بهذه الليلة من كلّ عام لم يكن معروفاً في أيام الصحابة.

(٤) في الثامن عشر من شهر ذي الحجّة (من السنة العاشرة للهجرة) كان الرسول راجعاً من حجّة الوداع. فلمّا =

أوّلِ جُمُعةٍ من رَجَبَ أو ثامنِ شَوّالٍ الذي يُسمّيهِ الجُهّالُ عيدَ الأبرار، فإنّها مِنَ البِدَعِ التي لم يَسْتَحِبَّها السَّلَفُ ولم يفعَلوها[١]».

أمّا الأحتفالُ بذِكرى المولدِ وبذكرى أيامٍ وليالٍ مُختلفاتٍ فبدأ في أيامِ الفاطميّين (في القرن الرابع للهجرة = العاشر للميلاد)، فقد أرادَ الفاطميّون أن يجعلوا لِحُكْمِهِمُ السياسيّ وَجاهةً فأتّخذوا عدداً من المُناسباتِ المشهورة وتألّفوا بها عَوامَّ الناسِ بإقامة المآدِبِ العامّة وبإقامة مَعالِمِ الزينة بالأنوار وبِقراءة السيرة (النَّبَويّةِ أو غيرها من السِّيَرِ). وأحبَّ العامّةُ ذلك. ولم يكُنْ في مثلِ هذه الاحتفالات ضَرَرٌ (إذا كانتْ للتقوى ولفائدةِ الناس)، ولكنّها - على كُلِّ حالٍ - ليستْ فَرْضاً على الناس.

وأحبّ نَفَرٌ من العلماءِ أيضاً وَضْعَ سِيرةٍ للرسول صلى الله عليه وسلم وقراءةَ تلك السيرةِ على الناس في عددٍ من المُناسبات العامّة أوِ الخاصّة (شُكْراً للهِ على شفاءِ مريضٍ أو نجاحِ مشروعٍ أو ما يُشْبِهُ ذلك).

وبينما كان عوامُّ الناس ونفَرٌ من الزُّعماءِ السياسيّين يَحْرِصون على الاحتفال بذكر المَوْلد، كان هنالك مقاومةٌ لهذا الاحتفال على أنّه بِدعة. أمّا صلاحُ الدين الأيوبي فقد كان يُشَجِّعُ هذه الاحتفالاتِ لأغراض دِفاعيّة. كان الإفرنجُ الصليبيّون يجتمعون في المواسم النَّصرانية، فإذا رأَوْا غُرّةً من المسلمين هاجموهم. فدعا صلاحُ الدين إلى إقامة مواسمَ إسلاميةٍ في أيامِ المواسمِ النصرانية باسماءٍ مختلفةٍ وٱختَرَعَ عدداً من مثل تلك المواسم أيضاً ثمّ جعَلَ للموسمِ الواحدِ (في يومٍ ما من الأيام) أسماءً مختلفةً في الأماكن المختلفة[٢].

= وصل إلى غدير خمّ نزل (ليستريح)، لأنّ السفر القديم كان مراحل. ففي ذلك المكان آخى الرسول صلّى الله عليه وسلّم علي بن أبي طالب. الحدث تاريخيّ فيما يبدو. ولكنّ الاحتفال بذكرى هذه الحادثة بدعة يمكن أن تكون بدعة حسنة، ولكنّها ليست عيدا شرعيًّا.

(١) فتاوى ابن تيمية (القاهرة ١٣٢٦ هـ) ١ : ٣١٢.

(٢) كانت هذه المواسم (الأعياد الشعبية) تحمل معنى دينيًّا وغاية سياسيّة حربية. من هذه موسم النبي موسى في القدس وموسم النبيّ روبين في يافا (في يوم واحد؟.......؟) وأربعاء أيوب في بيروت، وخميس المشايخ (خميس الدعسة) في حمص، الخ. وقد كادت هذه المواسم تنسى الآن.

وكانتْ غايةَ صلاحِ الدين من ذلك أنْ يكونَ من المسلمين جَماعاتٌ مجتمعةٌ مُتأهّبةٌ في أيامِ آجتماع النصارى في أعيادهم لئلّا يُهاجِمَ الإفرنْجُ الصليبيّون بلدةً مُسلمةً والمسلمونَ فيها أو حولَها غافلون عن ذلك. وآنتشرتْ هذه المواسم في الشامِ ومِصْرَ والعراقِ ثمّ عاشَ عددٌ منها بعدَ ذلك زماناً طويلاً.

يُخْبِرُنا آبنُ جُبيرٍ في «رِحلتِه» أنّه شَهِدَ آحتفالاً بذكرى مَوْلِدِ الرسولِ في مَكّةَ، في أواخرِ القرنِ السادس للهِجرة (أواخر القرن الثالثَ عَشَرَ للميلاد).

وفي مطلع القرن السابعِ للهِجرة كان مُظفّرُ الدين كوكْبوري صِهْرُ صلاح الدين الأيوبي (زوجُ أُختِه) يُقيم آحتفالاتٍ لذكرى المولد في وِلايته، في إرْبِلَ، بالعراق. وقد نَظَمَ آبنُ دِحْيَةَ الكلبيُّ المُتَوفّى سَنَةَ ٦٣٣ للهِجرة (١٢٣٥ م) لكوكبوري «مولداً» (سيرةً لرسولِ الله: التنويرَ في مولدِ السِّراج المنير).

ومن الشام ومِصْرَ آنتقل هذا الاحتفالُ بذكرى مَوْلِدِ الرسول إلى المَغْرب والأندلس، ثمّ إلى الهِنـد أيضاً. قال السَّخاويُّ (ت ٩٠٢ هـ=١٤٩٧م) في كتابه «التِبْرِ المسبوكِ في نصيحة الملوك» (ص١٣ - ١٤): «ولا (يزال) أهلُ الإسلامِ يَحْتَفلون بشَهْرِ مولدِه، صلّى اللهُ عليه وسلّم: يَعْمَلون الولائمَ لذلك ويتصدّقون في لَياليهِ بأنواعِ الصَّدَقات ويُظْهِرون السرورَ ويَزيدون في المَبرّاتِ ويَتَغَنَّوْنَ بِقراءة مَوْلِدِه الكريم... وأكثرهم بذلك عِنايةً أهلُ مِصْرَ والشامِ. وللسُّلطانِ في تلك اللَّيالي مَقامٌ يقومُ فيه... فلقد حَضَرْتُ ليلةَ مَوْلِدٍ مِن سَنَةِ ٧٨٥ (*) عندَ الظاهرِ برقوق».

والبديعيّاتُ (مدحُ رسولِ الله) فنٌّ قديمٌ جدًّا بدأه كَعْبُ بنُ زُهيرِ بنِ أبي سُلمى (ت ٢٦ هـ = ٦٤٥ م) في أيام الرسولِ (راجعِ الجزء الأوّل من هذه السلسلة). ثمّ آتّسعَ القَوْلُ في ذلك. وخَرَجَ هذا الفنُّ من المدح المألوفِ إلى التَغنّي به في المُناسبات، وفي ذِكرى مولدِ رسولِ اللهِ، صلّى اللهُ عليه وسلّم، من كُلِّ عام. فَمِنَ الذين وَضَعوا

(*) ليلة المولد (بالحسبان العربي): العرب يحسبون اليوم من غروب الشمس إلى غروبها في اليوم التالي، فالليلة عندهم قبل النهار. فليلة المولد، إذن، هي الثاني عشر من شهر ربيعِ الأول (من سنة ٧٨٥ للهجرة: ١٦/ ٥/ ١٣٨٣ م). أمّا في حسباننا اليوم (في الرزنامة) فليلة المولد في تلك السنة كانت (عندنا اليوم) أول ليل الحادي عشر من ربيعِ الأول ٧٨٥ هـ (١٥/ ٥/ ١٣٨٣ م).

« مَوالدَ » لِتُتلى أو لِتُنْشَدَ في هذهِ المناسبةِ الكريمة من كلِّ عام (في المشرق): آبنُ المَغْربيّ أبو القاسمِ بنُ الحسين بن علي (ت ٤١٨ هـ) له قصيدة في مدح الرسول (نفح الطيب ٧: ٤٨٨ - ٤٨٩) ثم أبو الفرجِ بنُ الجَوْزي (٥٩٧ هـ) وعبدُ الرحيم البُرَعيّ اليَمَنيّ (ت ٨٠٣ هـ) والسَّخاوي صاحبُ الضوءِ اللامع (ت ٩٠٢ هـ) وعائشةُ الباعونية (ت ٩٢٢ هـ) وابنُ الدَّيْبَع الشَّيْبانيّ (ت ٩٤٤ هـ) وآبْنُ حَجَرٍ الهَيْتمي (٩٧٤ هـ).

وقال أهلُ المغرب وأهل الأندلس كثيراً في مدح رسولِ الله وأنشدوا المدائحَ فيه في المناسبات (وفي ذِكرى المولد خاصّةً). وفي هذا الفصلِ الطويلِ لَمَحاتٌ من ذلك. وسيرى القارئُ أني لو أردتُ آستعراضَ كُلِّ ما قيل في هذا الموضوعِ هنا لَبَلَغَ هذا الفصلُ نِصْفَ هذا الجُزءِ.

فَمِنَ الذين نَظَموا في « مولِد رسولِ الله » خاصّةً أبو العباسِ بنُ العريفِ الصوفيُّ (ت ٥٣٦ هـ)، له عددٌ من المدائح في الرسول (نفح الطيب ٧: ٤٩٧ - ٤٩٩). من ذلك مثلاً:

وحقِّكَ، يا محمّدُ، إنّ قلبي ... بِحُبِّكَ قُربةٌ نحوَ الإلـهِ.[1]
جَرَتْ أمواهُ حُبِّكَ في فُؤادي ... فهام القلبُ في طيبِ المِياه.
فَصِرْتُ أرى الأُمور بعَيْنِ حقٍّ، ... وكنتُ أرى الأُمورَ بعينِ لاهي.[2]
إذا شُغِفَ الفُؤادُ به وِداداً، ... فهل يَنْهاه عن ذِكْراه ناهي؟[3]

وَلِآبْنِ العريفِ أيضاً « صلاةٌ على النَبِيّ » تُشْبِهُ « دلائلَ الخَيْرات » (أي إيرادَ المعاني المُخْتلفةِ في جُمَلٍ مُتقاربةٍ في اللّفظ). مِنْ ذلك (نفح الطيب ٧: ٤٩٨ - ٤٩٩):

صَلّى الإلـهُ على النبيّ الهادي ... ما لاذتِ الأرواحُ بالأجسادِ[4].
صلّى عليه اللهُ ما آسْوَدَّ الدُّجى ... فَكَسا مُحَيّا الأُفْقِ ثَوْبَ حِدادِ.

(١) قربة: تقرّباً. وسيلة للقرب. - أنا أحبّك ليقرّبني حبّي لك من الله.
(٢) اللاهي: الذي يسهو، يغفل عن الأمور.
(٣) ذكراه: ذكرى الرسول.
(٤) لاذ: التجأ - وهو يقصد ما دام في الأجساد أرواح (ما دامت هذه الدنيا).

صلّى على خيرِ الأنامِ مُحمّدٍ مَنْ خَصّهُ بالنورِ والإرشادِ.
صلّى الإلَهُ على رسولٍ فاتحٍ فَتَحَ الظلامَ بنوره الوَقّادِ.
صلّى عليه مَنْ أراه جَلالَهُ وأنالَهُ من ذاك كُلَّ مُرادِ[1].

وهذه القصيدةُ في نفح الطيب واحدٌ وثلاثونَ بَيْتاً على هذا النَّوْعِ مِنَ السَّرْد.

فإذا نحن ٱنتقَلْنا إلى الأندلس وجَدْنا بعضهم يَنْسِبُ بديعيّةً إلى القاضي عِياضِ ٱبنِ موسى بنِ عِياضٍ (ت ٥٤٤ هـ). ولكنّ المَقّريّ يقول (نفح الطيب ٧: ٣٢٣ - ٣٢٤):

هنالك قصيدةٌ « في التَوْرية بسُوَرِ القُرآن و (في) مدح النبي صلّى اللهُ عليه وسلّم[2]... وَهِيَ من غُرَرِ القصائدِ. وكثيرٌ من الناس يَنْسِبُها للقاضي الشهير عالمِ المَغْرب أبي الفضلِ عِياضٍ. وكنتُ أنا في أوّلِ الٱشتغال مِمّنْ يعتقدُ صِحّة هذه النِّسبةِ حتى وَقَفْتُ على البديعيّة المَوْصوفة لرفيقه أبي جعفرٍ[3]، فإذا هي منسوبة للناظم ابن جابر »[4].

غيرَ أنّ القولَ في « البديعيات » عامةً وفي « المَوْلديّاتِ » خاصةً قدِ ٱتّسعَ في زمَنٍ لاحقٍ وكَثُرَ حتى أصبح يَعْيا على الحصر.

أما الرحّالة ٱبنُ جُبيرٍ (ت ٦١٤ هـ) فقد وَصَفَ طَرَفاً من الٱحتفال بالمولد النّبويّ

---

(١) جلاله: عظمته (عظمة الله) - لعلّ في هذا البيت إشارة إلى المعراج (حينما وصل رسول الله إلى قرب عرش الرحمن).

(٢) في كل « فاتحة » للقول معتبره حقّ الثناء على المبعوث بـ« البقرة ».
الفاتحة هي السورة الأولى في المصحف، والبقرة هي السورة الثانية.

(٣) أبو جعفر الغرناطي أو الإلبيري (ت ٧٧٩ هـ) رفيق ابن جابر الضرير (ت ٧٨٠ هـ) - راجع ترجمتيهما في هذا الجزء. في هذا النصّ من « نفح الطيب » انقطاع في السرد أو نقص في الكلام. أن أبا جعفر الغرناطي هذا (ت ٧٧٩ هـ) لا يمكن أن يكون رفيقاً للقاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ). ولعلّ الكلام يستقيم اذا قلنا: ... حتّى وقعت على هذه البديعيّة الموصوفة (في كلام يتناول ابن جابر الاندلسي الهوّاري) لرفيقه أبي جعفر، فإذا هي منسوبة للناظم ابن جابر.

(٤) راجع الحاشية السابقة.

في مكة. وصل آبنُ جُبير إلى مكة في ثانيَ عَشَرَ ربيعِ الآخِرِ (يوم ذكرى المولد ★)فنظم قصيدة منها (نفح الطيب ٢ : ٤٩٢ - ٤٩٤):

بلغتَ المُنى وحللْتَ الحَرَمْ فعادَ شبابُكَ بعدَ الهرمْ.(١)

فأهْلًا بمكَةَ، أهْلًا بها، وشُكراً لِمَنْ شُكرُه يُلتزَمْ...(٢)

نبيٌّ شفاعتُه عِصمةٌ، فيومَ التّنادي به يُعتَصمْ،(٣)

ويَرْعى لزُوّاره في غَدٍ ذِماماً، فما زال يرعى الذِّممْ(٤).

عليه السلامُ، وطوبى لمنْ ألَمّ بتُربته فآستَلمْ(٥)

ثُمّ إنّ لآبنِ جُبيرٍ أشعاراً كثيرةً في الحجاز وفي مدح الرسول. فَمِنْ هذهِ الأشعارِ ممّا يقرُبُ من أدبِ المَوْلدِ قولُه (نفح الطيب ٢ : ٤٩٣):

أُحِبُّ النَّبيَّ المُصْطفى وآبْنَ عَمّهِ عَلِيًّا وسِبْطَيْهِ وفاطِمَةَ الزَّهْرا.(٦)

هُمُ أهلُ بَيْتٍ أُذْهِبَ الرِّجْسُ عَنْهُمُ؛ وأطْلَعَهُمْ أُفْقُ الهُدى أنْجماً زُهْرا.(٧)

مُوالاتُهم فرضٌ على كلِّ مُسْلِمٍ، وحُبُّهُمُ أسْنى الذَّخائرِ لِلأُخْرى(٨).

(★) وصل ابن جبير إلى مكّة يوم الخميس الثالث عشر لربيع الأول ٥٧٩، وهو الرابع من شهر آب - أغسطوس، عام ١١٨٣م (راجع «رحلة ابن جبير» بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٩ هـ = ١٩٥٩ م، ص ٥٨، راجع ص ٤٤ و٤٩).

(١) الحرم: الحرم المكّيّ (المساحة المحيطة بالكعبة).

(٢) .... شكراً (لله).

(٣) يوم التنادي: يوم القيامة.

(٤) في غد (يوم القيامة). الذمّة والذمام: العهد، الأمن، الكفالة.

(٥) تربته (قبر الرسول). استلم: قبّل.

(٦) المصطفى (المختار من جميع الناس). علي: عليّ بن أبي طالب. سبطاه = سبطا رسول الله (الحسن والحسين آبنا عليّ بن أبي طالب). فاطمة الزهراء (البيضاء) ابنة الرسول وزوج الإمام عليّ.

(٧) أهل البيت هنا (رسول الله وفاطمة وعليّ والحسن والحسين). وأهل البيت في القرآن الكريم (٣٣ : ٣٣، سورة الأحزاب): نساء النبيّ: ﴿وقَرْنَ في بيوتكنّ ولا تَبرّجْنَ تبرّج الجاهلية الأولى وأقِمْنَ الصلاة وآتينَ الزكاة وأطِعْن الله ورسوله، إنما يريد الله لِيُذهبَ عنكمُ الرجسَ، أهلَ البيت، ويطهّركم تطهيرا﴾. أطلعهم (جعلهم). زهرا = بيضاً (لامعة). - أفق فاعل «أطلع».

(٨) الذخيرة: ما يخبئه الإنسان ويعدّه (ليستعين به في المستقبل). الأخرى: يوم القيامة.

وما أنا لِلصَّحْبِ الكِرامِ بِمُبْغِضٍ ، فإنّي أرى البَغضاءَ في حَقِّهم كُفْرا .[١]
هُمُ جاهدوا في الله حَقَّ جِهادِهِ: وَهُمْ نَصَروا دِينَ الهُدى بالظُّبا نَصْرا .[٢]
عَلَيْهِمْ سَلامُ اللهِ ما دامَ ذِكْرُهم لدى المَلَإِ الأعلى ، وأكْرِمْ بهِ ذِكْرا[٣] .

ويبرُز هنا أبو العباس محمدُ بنُ أحمدَ العزَفي السَّبْتيّ المَغْربي ، فقد ألف (نحو سنة ٦٣٣ هـ) « الدرَّ المُنتظَمَ في مَدْحِ النّبيّ المُعَظَّمِ » (راجع نفح الطيب ٢ : ٣٦):

أهـلُ الحديـثِ عِصابـةُ الحـقّ فـازوا بدَعْوةِ سيّـدِ الخَلْـقِ.[٤]
فَوُجوهُهُمْ زُهْرٌ مُنَضَّرَةٌ لألاؤهـا كتألُّـقِ الـبرقِ.[٥]
يـا لَيْتَـني معَهم فيُدْرِكَـني مـا أدْركوه بهـا من السبـقِ[٦].

ولأبي زيدٍ الفازازيُّ (ت ٦٣٧ هـ) عددٌ من القصائد في مدحِ الرسول (نفح الطيب ٧ : ٥٠٧ - ٥١٢) ، منها (٧ : ٥٠٨):

أيُّ نورٍ كَشَفَ اللهُ بِـــهِ سُدَفَ الباطلِ عنّا أجمعينْ.[٧]
خَتَمَ اللهُ بـــه أنوارَه عِندَما أكْمَلَ سِنَّ الأربعينْ.[٨]
وأتانـــا بدليـــلٍ بَيِّنٍ عَجَزَتْ عنهُ دواعي المُدّعينْ[٩]
فأَعِـدْ أنبـاءه فَهْيَ[١] مُنَـى أنفسِ القائلِ والمُستمعينْ.[١٠]

وهنا يأتي أيضاً ابنُ عربيٍّ (ت ٦٣٨ هـ) ، ولَعَلَّ في « الصلاة الأكْبريّة »[١١] له ما

---

(١) الصحب: اصحاب رسول الله.
(٢) الظبا جمع ظبة (بضم ففتح): حد السيف.
(٣) الملأ الأعلى: العالم العلوي (الإلّهي) مع الملائكة.
(٤) أهل الحديث: الذين يشتغلون برواية أحاديث رسول الله. عصابة: جماعة على رأي واحد. سيد الخلق: محمد رسول الله. فازوا (نجحوا) لمّا استجابوا لدعوة رسول الله والاهتام بأقواله وأفعاله.
(٥) زهر جمع أزهر: أبيض، لامع ، طاهر ، نقيّ. النضرة: الجمال والانشراح (في الوجه) التألّق اللمعان.
(٦) من السبق إلى الخير والأجر.
(٧) السدفة (بالضمّ): الظلمة.
(٨) لمّا بلغ محمّد عليه الصلاة والسلام سنّ الأربعين بعثه الله رسولاً وجعله خاتم (آخر) الأنبياء.
(٩) في الأصل كذا: دواعي. لعلّها: دعاوى.
(١٠) انباؤه: أخبار (رسول الله).
(١١) راجع سركيس ١٧٨.

يقرُب إلى «أدَبِ المَوْلِدِ». ومَعَ إدريسَ بنِ محمّدِ بنِ محمّدِ بنِ موسى الأنصاريِّ القُرْطُبيّ (ت آخِرَ سَنَةِ ٦٤٧ هـ) نقتربُ في مُخَمَّسَتِه من «أدبِ المولد» (نفح الطيب (٧: ٤٤١ - ٤٤٤):

أهْلًا بكم، يا أهلَ هذا النادي، أهلَ آعتقادِ الوَعْدِ والميعادِ[١]،
أهْدُوا الصلاةَ إلى النبيِّ الهادي وصِلُوا السلامَ لـه مَـعَ الآبادِ[٢]
يَنْدَى نسيماً مُذْكِراً تَسْنيما.[٣]

أوْصافُـه من كـلّ حُسْنٍ أبهَجُ: العَرْفُ ينفَحُ والسَّنا يتبَلَّجُ[٤]،
فتَـأَرَّجُ الأرجـاءُ منـه وتَبهَجُ. فـاقَ الزواهرَ نورُهـا يتَوهّـجُ[٥]
والزُّهْرَ نَفّاحَ النسيمِ وَسِيما[٦]

وفي مُوَشَحَّةٍ لآبنِ سَهْلٍ الإشبيليّ (ت ٦٤٩ هـ) نَفَسٌ قريبٌ جِدًّا من «التوشيح» الذي يُقْرأ عادةً في الموالد مَعَ عُذوبةٍ وطَلاوةٍ عُرِفَ آبْنُ سَهْلٍ بها ونَفقِدُ جانباً كبيراً منها في شِعر غيرِه. وفي ترجمة آبنِ سَهْلٍ جانبٌ وافٍ من المُوشّحةِ المذكورة.

وآبنُ الجَنّانِ الأنصاريُّ (ت بُعيد ٦٥٢ هـ) عالمٌ وأديبٌ مترسّل وشاعرٌ ومِنَ الذين أكْثروا القولَ تبرُّكاً بمديح رسولِ الله. وله في هذا الجزء ترجَمةٌ مستقلّة. ثم له موشّحةٌ بارعةٌ في مولدِ الرسول مطلَعُها (نفح الطيب ٧: ٤٣٢):

اللهُ زادَ مُحمّداً تكريما
وحَباهُ فضلًا من لَدُنْهُ عظيما[٧]

---

(١) .... الذين يؤمنون بالوعد (النشر من القبور) والميعاد (اجتماع الناس في الآخرة للحساب).

(٢) الآباد جمع أبد: دهر (مدّة لا تنتهي).

(٣) يندى (يصدر منه هواء رطب بارد) يذكّر الناس بوصف التسنيم (والتسنيم عين ماء في الجنّة).

(٤) أبهج: أكثر نضارة (حسناً وتألّقاً). العَرف: الرائحة الطيّبة. نفح الطيب (المسك، مثلاً): انتشرت رائحته. السنا: الضوء. تبلّج الصبح: ظهر وأنار.

(٥) تتأرّج الأرجاء (نواحي البلاد): تكتسب رائحة (طيّبة). الزواهر: الزهر (بالضم) جمع أزهر: نجم مضيء. توهّج: زاد اتّقادا أو اشتعالاً (نوراً).

(٦) نفح النسيم: تحرّك. نفح الطيب: انتشرت رائحته.

(٧) إن كلمة «لدُنْهُ» مشكولة (نفح الطيب ٧: ٤٣٢، السطر ١١) بكسرة على الهاء. ولا يمكن أن يكون =

وآختصّه في المُرسلين كريما

ذا رأفــةٍ بالمُؤمنــين رحــيما[1] صَلّوا عليــــه وسلّموا تسلــيما.

وفي ترجمة آبن الجنان جانب من هذه الموشحة.

ولابنِ الجنان أيضاً عددٌ من القصائد في مدح الرسول. وله أيضاً «رَمَضانيّةٌ» (الإحاطة ۲: ۲۵۷ - ۲۵۸)، وهي تدخُلُ في هذا الباب مادامَ الجامعُ بينَ الرَّمَضانية والمِيلادية مديحُ رسولِ الله. ومطلَعُ هذه الرَّمضانية:

مضي رَمَضانٌ أو كأنّي بهِ مضى — وغابَ سَناهُ بعد أنْ كان أَوْمضا.[2]

فيـا عهدَه قد كانَ أكرَمَ مَعْهَدٍ؛ — ويا عَصْرَه أعْزِزْ علي أنِ آنقضى[3]

أَلَمَّ بنـا كالضيفِ في الطَّيفِ زائراً — فخيّمَ فينـا ساعـةً ثمّ قَوَّضا[4].

فيا ليتَ شِعري، إذ نوَى غُربةَ النَّوى، — أبِالسُّخطِ عنّا قد تولّى أم الرِّضا.[5]

ثمّ قال مشيراً إلى ليلةِ القَدْرِ[6]:

= هذا من عمل محقّق الكتاب، بل من مساعد أو من متبرّع. إن هذه الكلمة «لدنه» ترد في القرآن الكريم مرّتين (٤: ٤٠، سورة النساء): ﴿.... ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ ثمّ (١٨: ٢، سورة الكهف): ﴿لينذر بأساً شديداً من لَدُنه﴾. والنون في «لدن» مبنية على السكون، فإذا أضيفت «لدن» إلى الهاء (ضمير الغائب) كانت الهاء مضمومة. فهي شبيهة «عن»، فنحن نقول: عنه (بضم الهاء لا بكسرها)، وكذلك نقول: «لدنه» بسكون النون وضمّ الهاء.

(١) في القرآن الكريم (٩: ١٢٨، سورة التوبة): ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم: عزيز عليه ما عَنِتُّم (يعزّ عليه: يؤله أن تلقَوا مشقّة أو مكروها)، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

(٢) كأنّي به مضي (مضى منذ زمن يسير جدًّا. سناه: نوره. أومض: لمع لمعاناً خفيفاً (رأى الشاعر أن رمضان لم يطل كثيراً = إن تقوى الشاعر وحبّه للصيام جعلاه يشعر أن هذا الشهر كان قصيراً).

(٣) أعزز عليّ أن انقضى: قد شقّ عليّ أن ينقضي (لم أكن مسروراً بانتهائه).

(٤) ألمّ: زار زيارة خفيفة. الطيف: الحلم (بالضمّ)، المنام. خيّم: نزل، حلّ، سكن. قوّض: رفع الخيمة، رحل، سافر.

(٥) اذ (لمّا) نوى (قصد رمضان) غربة النوى (الفراق - ليعود الينا بعد أحد عشر شهراً). تولّى: ذهب.

(٦) ليلة القدر تكون في ليلة وتْرٍ من العشر الليالي الأخيرة من رمضان: ۲۱، ۲۳، ۲۵، ۲۷ أو ۲۹. - من أحيا هذه الليلة (سهر فيها إلى الصبح ثمّ اتّفق أن دعا دعاء صالحاً، فإن الله يستجيب هذا الدعاء).

وإن قُضِيَتْ قبلَ التَّفَرُّقِ وَقْفَةٌ فمَقْضِيُّها من ليلةِ القَدْرِ ما قضى[1].
فيا حُسْنَها من ليلةٍ جَلّ قَدْرُها، وحَضّ عليها الهاشميُّ وحَرّضا[2].
وقال: اَطلُبوها تَسْعَدوا بِطِلابِها فحرّكَ أربابَ القلوب وأنْغضا[3].
جَزاهُ إلَهُ العرشِ خيرَ جزائه وأكْرَمَنا بالعَفْوِ منه وبالرِّضا؛
وصلّى عليهِ مِنْ نَبِيٍّ مُبارَكٍ رَؤوفٍ رحيمٍ للرِّسالة مُرتضى.
عليه سلامُ اللهِ ما اَنهَلّ ساكبٌ وذهَّبَ مَوْشِيَّ الرِّياضِ وفَضّضا[4].

ولأبي الحجّاجِ يوسُفِ بن موسى المُنْتَشاقِرِّي (القرنَ الثامنَ[5]) في أدبِ المَوْلِدِ شِعرٌ منه مُسدَّسَةٌ[6] ثمّ منه قصيدةٌ طويلةٌ (٦٥ بيتاً) جاء فيها (نفح

(١) يبدو أن الشاعر قد طلب ليلة القدر (سهر أملاً في أن يراها، فلم يرها).

(٢) الهاشميّ: محمّد رسول الله. حضّ عليها وحرّضا: حثّ المسلمين على السهر في الليالي العشر الأواخر من رمضان في التقوى والعبادة.

(٣) أرباب (اصحاب) القلوب: الذين يذهبون في العبادات مذهباً روحيًّا (يدركون الجانب الظاهر والمعنى الخفي من العبادة). أنغض: أخذ الأمر بالجدّ (بالكسر) وجهد في تنفيذه؛ حرّك، دفع.

(٤) انهلّ ساكب (هطل مطر كثير). وذهّب موشيّ الرياض وفضّضا: أنبت في الأرض نباتاً مذهباً (بضمّ الميم وفتح الهاء: بلون الذهب) وفضّضا.... (بلون الفضّة).

(٥) من نفح الطيب: كان المنتشاقري هذا فقيهاً (٧: ٥١٢) قاضياً في رندة ومن شيوخ (أساتذة) لسان الدين بن الخطيب (٥: ٦٠٥)، ولكن لسان الدين نفسه يذكر أنّه لقي المنتشاقري مدّة قصيرة جدًّا (٦: ١٣٩). وكانت بينهما مراسلة (راجع ٦: ١٣٥ - ١٣٨). وتآليف المنتشاقري كثيرة (٦: ١٤٥). ولمّا انتهى لسان الدين بن الخطيب من تأليف كتاب «الإحاطة بأخبار غرناطة»، سنة ٧٧١ للهجرة (راجع الإحاطة ١: ٦٨، مقدّمة عبد الله عنّان) كان المنتشاقري لا يزال حيًّا (٦: ١٤٥).

(٦) وصف المقّري المسدّسة (القصيدة المسمّطة: ذات الاختلاف في قوافيها) والتي يتألف كلّ بيت (كلّ مجموع من ستّة أشطر) من أربعة أشطر بقافية مستقلّة ثمّ شطرين هما قفلة لكلّ بيت بقافية ثابتة (هي الميم في شطري القفلة). وقد قال المقري في وصفها (٧: ٥١٢ - ٥١٣): «وترتيبها على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب، فيما عدا الرويّ (يقصد الحرف الأساسي في قافية القفلة) فإنه على حرف الميم. وكذا آخر الشطر الذي قبله فإنه ميم أيضاً». وهذا نصّه (نص التسديس: المسدّسة) بحروفه، ما عدا حرف الواو فإني لم أجده وكملته على منواله.

وترتيب الأبجدية عند أهل المغرب، كما يبدو في هذا التسديس: من الألف إلى الزاي (أخت الراء) كترتيب المشارقة. ثمّ تستمرّ الأحرف على النسق التالي: ط، ظ، ك، ل، م (والميم غائبة من الأبيات لأنها في قافية القفلة)، ن، ص، ض، ع، غ، ف، ق، س، ش، هاء، واو، ى (ألف مقصورة: ى بلا نقط)، ي (بنقطتين تحتها).

الطيب ٦: ١٤٠ - ١٤١):

حُبّي ومَدْحي أحمدَ الهادي آلذي فوزُ الأنامِ يَصحُّ في تصديقِهِ[١].
أسْمَى الوَرى في مَنْصِبٍ وبِمَنْسِبٍ من هاشمٍ زاكي النِّجار عَريقهِ[٢].
الحقُّ أظهرَهُ عَقيبَ خَفائِهِ، والدينُ نظّمه لَدى تفريقِهِ[٣].
ونفى هُداه ضَلالةً من جائرٍ مُسْتَوْثِقٍ بِيَغوثِهِ ويَعوقِهِ[٤].
سُبحانَ مُرْسِلِهِ إلَيْنا رَحمةً يَهْدي؛ ويُهْدى الفضلُ من توفيقِه[٥].
والمُعجِزاتُ بَدَتْ بصِدق رَسولِهِ وحقيقِهِ بالمأثُرات خليقِهِ[٦]:
كالظَّبْيِ في تَكْليمِه، والجِذْع في تَحْنينِه والبَدْر في تَشْقيقِهِ[٧]؛
والنارِ إذْ خَمَدتْ بنُور وِلادةٍ، وأُجاجِ ماءٍ قد حَلا من ريقِه[٨].

---

(١) أحمد الهادي: محمد رسول الله. - فوز الإنسان (في الآخرة بدخول الجنّة يمكن إذا صدّق الإنسان برسول الله) وعمل بما جاء به رسول الله.

(٢) المنصب (هنا): المقام (مقام الرسالة). المنسب: النسب. زاكي: طاهر. النجار: الأصل. العريق: الكريم الأصل.

(٣) محمّد رسول الله أظهر الحقّ بعد أن كان الحق خافياً (بين الناس)، ثمّ نظم الدين بعد أن كان الدين (بين الناس) فوضى.

(٤) هُداه (هدى الرسول). الضلال والضلالة: السير في طريق الباطل. الجائر: الظالم، الحائد عن الطريق المستقيم. مستوثق: معتقد، متمسك. يغوث ويعوق من الأصنام التي عبدتها جماعات من عرب الجاهلية.

(٥) هو يهدي (بالبناء للمعلوم) الناس. ويُهدى (بالبناء للمجهول) الفضل (نائب فاعل مرفوع):(زيادة الخير عمّا عند الآخرين) من توفيقه (من موافقة الناس لما جاء الرسول به؟). - ويجوز «يهدي» (بالبناء للمعلوم) الفضل (مفعول به زيادة الخير فيه عمّا عند غيره)..... المعنى، على كل حال، غامض لضعف التركيب.

(٦) دلت معجزات رسول الله على صدق رسول الله. المأثُرة: العمل الكريم. وحقيقه بالمأثرات خليقه (؟ وبحقيقه: بما عرف عنه من الأعمال الكريمة) خليقه (لا وجه لإعرابها بالجرّ): إنّ صدق الرسول المعروف والمشهور جعله خليقاً: مستحقًّا، قادراً وأهلاً للمعجزات التالية؟)

(٧) كلّمه الظبي وحنّ الجذع لفقده (راجع موشّحة ابن سهل الإشبيلي، ت ٦٤٩ هـ). وأشار مرّة إلى البدر فانشقّ البدر قسمين.

(٨) يوم مولد رسول الله انطفأت النار في فارس (وكانت تلك النار في الهيكل في ذلك الحين مشتعلة منذ ألف سنة بلا انقطاع). في التاريخ: إن النار انطفأت (في نحو ذلك الزمن). الأُجاج: الماء الشديد الملوحة.

والزادُ قَلّ، فزادَ من بَرَكاتـهِ فكفى الجُيوشَ بتَمْره وسَوِيقِه [١].

غيرَ أنّ «مُسَدَّسَةَ المُنْتَشاقريّ» (نفح الطيب ٧: ٥١٢ - ٥١٧) أعْلى نَفَساً وأحسَنُ مَعانِيَ وأقربُ إلى الجوّ الروحي للنُّبُوَّة. قال المنتشاقريُّ:

حَـلَّ في طَيْبَـةٍ رسولٌ كريمٌ فعليـه الصلاةُ والتسليمُ [٢].

★ ★ ★

صَفْوَةُ الخَلْقِ خاتَمُ الأنبيـاءِ، مُرشِدُ النـاس للطريـق السَّواءِ،
والعِماد المَـلاذُ في اللأواء وشفيـعُ العُصاة يومَ الجزاء [٣]:
يومَ يبـدو لَدَيْـهِ جـاهٌ عظيـمُ فعليـه الصـلاة والتسليـم.

★ ★ ★

أذهَـبَ الغَيَّ نورُه والغياهِـبْ فأضـاءتْ مَشارقٌ ومغـارِبْ [٤]،
وغـدا الحـقُّ غالبـاً للأكـاذِبْ وبـدَتْ منـه للأنـامِ عجائـبْ
صِـدْقُ أقوالـهِ بهـا معلومُ فعليـه الصـلاة والتسليـم.

★ ★ ★

كُـلُّ دينٍ بِدينـهِ مَنْسوخُ [٥]؛ فَسِوَى مـا قَضى بـهِ مَفْسوخْ.
لِهُـداهُ بكـلِّ قلـبٍ رُسوخُ، فالورى مـادح لـه ومُصيخُ [٦].
كُلُّهُمْ في هَوى النـبيِّ يَهِـيمُ، فعليـه الصـلاة والتسليـم.

★ ★ ★

---

(١) السويق: نقيع الشعير.

(٢) طيبة: المدينة المنوّرة.

(٣) العماد (الذي يُعتمد ويُعتمد عليه). الملاذ: الملجأ. اللأواء: ضيق المعيشة وشدّة المرض. يوم الجزاء: يوم القيامة.

(٤) الغيّ: الضلال. الغيهب: الظلام.

(٥) منسوخ: ملغى. الدين لا يلغى، وإنما الذي نسخ (بالبناء للمجهول) هو الشريعة (نظام المعاملات). الإسلام لم يلغ الدين كما أنزل على موسى وعيسى. ولكن الناس نسوا (بضم السين) هذين الدينين. ثم جاء الإسلام بحقيقة الدين وأبطل شريعة الدينين السابقين لأنّ الأحكام تتغيّر بتغيّر الأزمان.

(٦) مصيخ: مائل بسمعه.

فـــاقَ بالمَوْلِـــدِ السعيـــدِ رَبيـــعُ أنّ فيـــه بـــدا الجَلالُ الرفيعُ:
مَنْ هُوَ الذُّخْرُ والعِماد المَنيـــع، فَمَـــلاذٌ للمُذْنِبـــينَ شفيـــعُ
ورَؤوفٌ بالمُؤمنـــين رحـــيمُ[1] فعليـــه الصـــلاةُ والتسلـــيم.

★ ★ ★

قـــد سَما قـــدرُه بغـــيرِ تَناهي[2] وعـــلا جاهُـــهُ عـــلى كـــلّ جاهِ:
آمِرٌ بالتُّقـــى، عنِ الشرِّ نـــاهِ؛ مَنْ يُطِعْـــهُ يَنَـــلْ ثَوابَ الإلَـــهِ،
ولـــه عِنْـــدَه النَّعيـــمُ المُقـــيم[3]. فعليـــه الصـــلاة والتسلـــيم.

وفي هذا السِّلك يأتي الإمامُ مالكُ بنُ المُرَحَّل المالَقيّ السَّبْتيّ (الأندلُسيّ المَغْربيّ) والمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦٩٩ للهِجرة فيزيدُ على ٱبنِ سَهْلٍ الإشبيليّ في الصِّناعة (راجع ترجمة الشاعرين) ولم يُقَصِّرْ عنـه في الطّلاوة. غيرَ أنّ ٱبْنَ المُرَحَّلِ يفضُلُ ٱبْنَ سَهْلٍ في أنّه جَلا الكلامَ على الرسولِ، صلّى اللهُ عليه وسلّم، في جَوّهِ الروحيّ، بينما ٱبنُ سَهْلٍ قد مدّ القولَ في تَشابيهَ مادّيّةٍ تنطوي على تَجْسيم (راجع نفح الطيب ٧: ٤٤٥ - ٤٤٩، مُوَشَّحةَ ابنِ سهل ثمّ ٤٥٣ - ٤٥٩، موشّحة ابن المرحّل).

ولأبي عبدِ اللهِ مُحمّدٍ التَّنَسِيّ (من أحياءِ القرن الثامن للهجرة) كتابانِ في تاريخ ٱلمَغْرب: «راحُ الأرواح فيما قالَه المَوْلى أبو حَمّو من الشعر وقيلَ فيه من الأمداح وما يُوافِقُ ذلك على حَسْبِ الاقتراح» ثمّ «نَظْمُ الدُّرِّ والعِقْيانِ في شَرَفِ بني زَيّانِ ومُلوكِهِمُ الأعيانِ» عَرَضَ فيهما لأدبِ المَوْلِدِ ولٱحتفالِ المَغاربة بليلةِ المَوْلِدِ. جاء في نفح الطيب (٦: ٥١٣ - ٥١٥):

وكان السُّلْطانُ أبو حَمّو المَمْدوحُ بهذهِ القصيدة[4] يَحتفلُ لِلَيلةِ مَوْلِدِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم غايةَ الاحتفال، كما كان مُلوكُ المَغْرب والأندلُس، في ذلك العصر

(١) راجع القرآن الكريم (٩: ١٢٨، سورة التوبة).
(٢) التناهي: بلوغ الشيء إلى نهاية يقف عندها.
(٣) نعيم مقيم: دائم.
(٤) «ما على الصبّ في الهوى من جناح»، ليحيى بن خلدون.

وما قَبْلَه، (يفعَلون). ومِنَ احتفالِه له[1] ما حكاه شيخُ شُيوخِ شيوخِنا الحافظُ سيدي أبو عبد اللهِ التَّنَسِيُّ ثمّ التِلِمْسانيُّ في كتابه «راحِ الأرواح....»، ونصُّه:

إنه[2] كان يُقيمُ لَيْلَةَ المِيلاد النَّبَويِّ - على صاحبِهِ الصلاةُ والسلام - بمشورة[3] من تِلِمْسانَ المحروسة مدعاة حُفَيلة يُحْشَرُ فيها الناسُ خاصّةً وعامّةً، فما شِئْتَ من نمارقَ مصفوفةٍ وزَرابِيَّ مَبْثوثَةٍ[4] وبُسُطٍ مُوشّاةٍ ووَسائِدَ بالذهَبِ مُغَشّاةٍ[5]، وشَمْعٍ كالأُسْطُوانات وموائِدَ كالهالات، ومَباخِرَ منصوبةٍ كالقِبابِ يَخالُها المُبْصِرُ تبراً مُذاب[6]. ويُفاضُ على الجميعِ أنواعُ الأطعِمَةِ كأنّها أزهارُ الربيعِ المُنَمْنَمَةُ[7] تَشْتَهيها الأنفُسُ وتَسْتَلِذها النواظرُ. ويُخالِطُ حُسْنُ ريّاها الأرواحَ ويُخامِرُ[8]. رُتِّبَ الناسُ فيها على مَراتِبِهم ترتيبَ احتفالٍ، وقد عَلَتِ الجميعَ أُبَّهَةُ الوَقارِ والإجلال.

وَبِعُقْبِ ذلك يَحْتَفِلُ المُسْمِعونَ[9] بأمداحِ المُصْطفى عليه الصلاةُ والسلام، ومُكَفِّراتٍ تُرَغِّبُ في الإقلاع عن الآثام[10]، يَخْرُجون فيها من فنٍّ إلى فنٍّ ومن أُسلوبٍ إلى أُسلوب ويأتون من ذلك بما تَطْرَبُ له النُّفوسُ وترتاحُ إلى سَماعه القلوب. وبالقُرْب من السُّلْطان - رضْوانُ اللهِ تعالى عليه - خِزانَةُ المِنجانةِ[11] قد زُخْرِفَتْ

---

(١) الاحتفال: الاجتماع للقيام بتكريم إنسان أو حادثة.

(٢) __أبو حمّو.

(٣) مشورة (هنا) يبدو أنّها مكان أو بناء خاصّ أو جانب من بناء.

(٤) في القرآن الكريم (٨٨: ١٥ - ١٦، سورة الغاشية): ﴿..... ونمارق مصفوفة وزرابيّ مبثوثة﴾. النمرق والنمرقة (بضمّ النون فيهما): الوسادة (المخدّة) الصغيرة يتكّئ الجالس عليها. الزربيّة (بالفتح): بساط كثيف أو حصير (والعامّة يقولون: «سجّادة»). مبثوثة: متفرّقة في أماكن مختلفة.

(٥) الوشي: النقش في النسيج بأشكال مختلفة وألوان مختلفة (التزيين). مغشّاة: مستورة (عليها تزيين كثير بخيوط الذهب).

(٦) حَقّ «مذاب» النصب: مذاباً. في التجويد (قراءة القرآن) يمكن الوقوف على المرفوع والمجرور بالسكون، ولكنّ المنصوب يجب الوقوف عليه بالفتحة. ولكنّ الكاتب هنا أراد أن يناسب بين «مذاب» و«كالقباب» في السجع. وهذا خطأ.

(٧) المنمنم: (هنا) المزخرف (المزيّن) المرقّش (بألوان مختلفة).

(٨) الريّا: الرائحة الطيّبة. خامر: خالط.

(٩) المسمع: المغنّي. المصطفى: المختار (رسول الله).

(١٠) يبدو أن المكفّرات (هنا) قصائد دينية تحثّ على الإقلاع (ترك) عن الآثام (الذنوب).

(١١) المنجانة (بجيم فارسية): ساعة تدلّ على الوقت.

كأنّها حُلَّةٌ يَمانيّةٌ لها أبوابٌ موجفة[1] على عَدَدِ ساعاتِ اللّيْل الزمانية. فمهما مضت ساعةٌ وَقَعَ النَّقْرُ بقَدْرِ حِسابها، وفُتِحَ عِندَ ذلك بابٌ من أبوابها وبَرَزَتْ منه جارية صُوِّرتْ في أحسنِ صورةٍ في يَدِها اليُمنى رُقْعةٌ مُشتمِلةٌ على نَظْمٍ في تلك الساعةِ بآسْمِها مسطورةٌ فتَضَعُها بينَ يَدَيِ السُّلْطانِ بلَطافةٍ، ويُسْراها على فَمِها كالمُؤدِّيَةِ بالمُبايَعَةِ حقَّ الخِلافة. هكذا حالُهُم إلى آنْبِلاجِ عَمودِ الصباحِ ونِداء المُنادي: حيَّ على الفلاح[2].

وينقُلُ المقّريُّ قِطعةً ثانيةً في هذا الموضوعِ نفسِه من كتاب التَّنَسيّ: نظم الدُّرِّ والعِقيانِ «....»، (نفح الطيب ٦:٥١٤ - ٥١٧). ومَعاني هذهِ القِطعة الثانية هي معاني القِطعة الأُولى مَعَ شيء مِنَ الاختلاف في التعبير ومَعَ آختصارٍ يسيرٍ هنا وتفصيلٍ يسيرٍ هناك. ويكثُرُ التفصيلُ في وَصْفِ المِنجانة مَعَ ذكرِ الأشعار التي تُقال عند كلِّ ساعةٍ من ساعاتِ الليل.

ويبدو أنه كان لِلسانِ الدين بنِ الخطيبِ (ت ٧٧٦ هـ) ميلاديّاتٌ (قصائدُ طِوالٌ قِيلَتْ في ذِكرى المولدِ النَّبَوِيِّ الكريم). من ذلك مثَلاً قولهُ من قصيدةٍ (نفح الطيب ٦: ٤٥١ - ٤٥٥):

تألّقَ نَجْدِيًّا فأذْكَرَني نَجْدا ... وهاجَ بِيَ الشَّوْقَ المُبَرِّحَ والوَجْدا[3].

ثمّ يقول:

إذا أنتَ شافَهْتَ الديارَ بِطَيْبَةٍ ... وجِئْتَ بها القبرَ المُقدَّسَ واللَّحْدا[4]،

وآنَسْتَ نوراً من جنابِ مُحمَّدٍ ... يُجلّي القُلوبَ الغُلْفَ والأعيُنَ الرُّمْدا[5]،

---

(١) موجفة: مغلقة (أوجف الباب: أغلقه).

(٢) نداء المنادي: أذان المؤذّن. حيّ على الفلاح (الأذان لصلاة الصبح: بين ظهور الفجر وطلوع الشمس).

(٣) تألّق (البرق): لمع. نجديّاً: من جهة نجد (شماليّ شبه جزيرة العرب). المبرّح: المتعب، المعذّب. الوجد: الحبّ.

(٤) شافه الرجل المكان: اقترب منه. طيبة: المدينة المنوّرة. القبر: قبر رسول الله.

(٥) الأغلف: الذي عليه غطاء طبيعي (قلب أغلف: لا تصل إليه النصيحة أو الحقيقة). العين الرمداء (التي أصيبت بمرض الرمَد فحال ذلك دون رؤيتها الأشياء بوضوح).

فَنُبْ عن بعيدِ الدارِ في ذلك الحِمى وأذرِ بـه دمْعاً وعَفِّرْ به خدّا[١]؛
وقـل: يا رسولَ الله، عبدٌ تقاصَرَتْ خُطاه، وأضحى من أحِبَّتِهِ فَرْدا[٢].
ولم يَستطِعْ، مِنْ بَعْدِ ما بَعُدَ المَدى، سوى لَوْعةٍ تَعتادُ أو مِدْحَةٍ تُهدى[٣].
تَداركْـهُ، يا غَوْثَ العِبادِ، برحمةٍ؛ فجودُكَ ما أجْدى وكفُّكَ ما أنْدى[٤]!
أجـارَ بِكَ اللهُ العِبادَ من الرَّدى وبَوَّأهُم ظِـلاًّ من الأمن مُمْتَدّا[٥].
حَمَى دِينُكَ الدُّنيا وأقْطَعَكَ الرِّضا وتوّجَـكَ العَلْيـا وألْبَسَكَ الحمدا.
تقدَّمْتَ مُختـاراً تأخّرتَ مبْعَثاً؛ فقد شَمِلَتْ عَلْياؤكَ القَبْلَ والبَعْدا[٦].
وعِلّـةُ هذا الكونِ أنتَ؛ وكلُّ ما أعادَ فأنتَ القَصْدُ منه وما أبْدا[٧].
فماذا عسى يُثْـني عليـك مُقَصِّرٌ، ولم يألُ فيكَ الذِّكرُ مدْحاً ولا حمدا[٨].
عليك صلاةُ اللهِ، يا كاشِفَ العَمى، ومُذْهِبَ لَيْلِ الرَّوعِ وَهْوَ قدِ ارْبَدّا[٩].
تقضّى زماني في «لَعَلَّ» وفي «عَسَى» فلا عزمةٌ تَمْضي ولا لَوْعَةٌ تَهْدا[١٠]
إلى أنْ أحُطَّ الرَّحْلَ في تُرْبِكَ الـذي تَضَوَّع نَـدًّا ما رأيْنا له نِدّا[١١].
لِمَوْلِـدِكَ اهْتزَّ الوجودُ فأشْرَقَـتْ
قُصورٌ بِبُصْرى ضـاءتِ الهَضْـبَ والوهْـدا[١٢]

(١) ناب فلان عن فلان: قام مقامه وفعل ما يجب عن الآخر. أذرى فلان الدمع: نثره (بكى). عفّر (مرّغ بالتراب)
(٢) أضحى من أحبته فرداً: لم يبق له محبّ (؟).
(٣) تعتاد (بالبناء للمعلوم)= تعتاده (تعود إليه مرة بعد مرة).
(٤) أجدى: أنفع. ما أجدى: ما أنفعه. ما أندى كفك: ما أكثر نداها (كرمها).
(٥) بوّأ الله العبد مكاناً: أنزله فيه وأسكنه.
(٦) اختارك الله للرسالة قبل جميع الأنبياء، ولكن جعلك آخرهم في الزمن.
(٧) والله خلق هذا العالم من أجل أن تكون أنت رسولاً إليه. وكل شيء خلقه الله بعد ذلك كان أيضاً من أجلك. أبدأ: فعل الشيء ابتداء (للمرّة الأولى). أعاد العمل: عمله ثانية وثالثة الخ.
(٨) ألاَ يألو ألْواً: قصّر. الذكر (القرآن الكريم).
(٩) الروع: الخوف. اربدّ: تغيّر لونه (أظلم، اشتدّ).
(١٠) اللوعة: حرقة الحبّ أو الحزن.
(١١) الندّ: (بالفتح): الرائحة الطيّبة، (بالكسر): المثيل، الكفؤ.
(١٢) اهتز الإنسان (طرب، فرح). لمّا ولد الرسول: أضاءت السماء وظهرت أقطار العالم واضحة، حتى إن المباني التي في بصرى (في الشام) رؤيت من مكّة. الهضب: المكان العالي. الوهد: المكان المنخفض.

ومن رُعْبهِ الأوْثانُ خرّتْ مَهابةً، ومن هَوْلِهِ إيوانُ كِسْرى قدِ ٱنْهدّا[١].
وغاضَ له الوادي، وصبّحَ عِزَّه بُيوتاً لنارِ الفُرس أعدمها الوَقْدا[٢].
رَعَى اللهُ منها ليلةً أطلَعَ الهُدى على الأرضِ من آفاقِها القمرَ السَّعْدا.

ولِلِسانِ الدينِ بنِ الخطيب «ميلاديّة» بارعةٌ رقيقةٌ لم يَحْفَظِ المَقّريُّ منها سوى الأبياتِ التاليةِ (نفح الطيب ٦: ٥٠٩ - ٥١٠):

ما على القلبِ بَعْدَكم من جُناحِ أنْ يُرى طائراً بغيرِ جَناحٍ[٣]،
وعلى الشوق أنْ يَشِبّ إذا هَبْـ ـبَ بأنفاسِكِمْ نسيمُ الصباحِ[٤].
جِيرةَ الحيِّ، والحديثُ شُجونٌ والليالي تَلينُ بعدَ الجِماحِ[٥]،
أتَرَوْنَ السُّلُوَّ خامَرَ قلبي بعدَكم؟ لا، وفالِقِ الإصباحِ[٦]!
ولَوَ ٱني أُعطى ٱقتراحي على الـ ـأيّامِ ما كان بُعْدُكم بٱقتراحي.
ضايقَتْني فيكم صُروفُ اللّيالي وٱستدارتْ عليَّ دَوْرَ الوِشاحِ[٧]؛
وسَقَتْني كأسَ الفِراقِ دِهاقاً في ٱغتباقٍ مُواصَلٍ وٱصطباحِ[٨].
وٱستباحتْ من جِدّتي وفَتائي حَرَماً لم أخَلْهُ بالمُستباحِ[٩].
يا تُرى - والنفوسُ أسرى الأماني ما لَها مِنْ وَثاقِها مِنْ سَراحِ؟
هل يُباحُ الوُرودُ بعدَ ذِيادٍ أو يُتاحُ اللّقاء بعدَ ٱنتزاحِ[١٠]؟

---

(١) خر: سقط. إيوان كسرى: قصر شرق بغداد كان لملوك الفرس. وقد انشقّ جانبه ليلة مولد الرسول وسقط عدد من شرفاته (وفي التاريخ ما يدلّ على حدوث ذلك في نحو ذلك الوقت).

(٢) غاض الوادي (النهر): غار ماؤه وجفّ (في ذلك الحين غار الماء في بحيرة ساوة في فارس). العزّ: القوة والمجد. صبحنا الحادث: جاءنا صباحاً. - في ذلك الحين انطفأت النار في الهيكل الكبير بعد أن ظلّت مشتعلة ألف عام بلا انقطاع.

(٣) جناح (بالضم): لوم، ذنب.

(٤) شبّ الشوق (المحبة): أشتعل، زاد. هبّ: جرى، قَوِيَ.

(٥) الشجن (بفتح ففتح): الغصن. الحديث شجون (أنواع مختلفة ومتشعبة). الجماح: الشدة والعصيان.

(٦) السلوّ: النسيان. خامر: خالط. فالق الإصباح (الله تعالى)، والواو للقسم.

(٧) صروف الليالي: الأحداث والمصائب. واستدارت عليّ دور الوشاح (أحاطت بي من كل مكان).

(٨) دهاقاً: مملوءاً. الاغتباق والاصطباح: شرب الخمر مساء وصباحاً.

(٩) الجدة: الزهو والقوة. الفتاء: الشباب.

(١٠) الورود: شرب الماء. ذياد: طرْد، منع. الانتزاح: البُعاد.

وإذا أعوزَ الجُسومَ التلاقي، ناب عنه تعارُفُ الأرواح.

ويرى المَقّريُّ، بحَقٍّ، أنّ أبا زكريّا يَحيْى بنِ خَلْدونٍ (ت ٧٨٠ هـ) قد حاكى هذه القصيدةَ لِلِسانِ الدين لمّا مَدحَ السُّلطانَ أبا حمّو في مَوْلِدِ سَنَةِ ثمانيَةٍ وسَبْعينَ وسَبْعِمِائَةٍ (في صيف عام ١٣٧٦ م) فقال (نفح الطيب ٦ : ٥١٠ – ٥١٣):

ما على الصَّبِّ في الهَوى من جُناح أنْ يُرى حِلْفَ عَبْرةٍ وآفتضاح [١].

(وفي ترجمة يحيى بنِ خلدونٍ مختاراتٌ من هذه القصيدة).

ولابن زَمْرَكَ المُتوَفّى سَنَةَ ٧٩٥ – أو بعدَها بقليلٍ (نفح الطيب ٧ : ١٧١ – ١٩٥) بَديعيّاتٌ تجري في قصائدَ ومُوشّحاتٍ. من هذه البديعيّاتِ قصيدتُه التي أنْشَدَها في مَولِدِ سَنَةَ ٧٦٧ للهِجرة (نفح الطيب ٧ : ١٧٩ – ١٨٣):

زارَ الخَيالُ بأيْمَنِ الزَّوْراءِ فجلا سَناهُ غياهبَ الظَّلْماءِ [٢].

قال فيها:

يا ليتَ شِعْري، هل أُرى أطْوي إلى قبرِ الرسولِ صحائِفَ البَيْداءِ
فَتَطِيبَ في تلك الرُّبوعِ مدائحي ويَطولَ في ذاك المَقامِ ثَوائي [٣]؟
حيثُ النُّبُوّةُ نورُها مُتألِّقٌ كالشمس تُزْهى في سَناً وسَناءِ [٤]؛
حيثُ الرِّسالةُ في ثَنِيّةِ قُدْسِها رَفَعَتْ لِهَدْيِ الخَلْقِ خيرَ لِواءِ [٥]؛
حيثُ الضريحُ، ضريحُ أكْرَمِ مُرْسَلٍ، فَخْرِ الوُجودِ وشافعِ الشُّفَعاءِ:
المُصْطفى والمُرْتضى والمُجتبى والمُنْتقى مِنْ عُنْصُرِ العَلْياءِ [٦].

---

(١) الجناح (بالضم): اللوم، الذنب. العبرة: الدمعة (البكاء).

(٢) الزوراء: المكان الذي في الطريق إليه انحناء. والزوراء علم على مدينة بغداد لأن نهر دجلة ينعطف قبل الوصول إليها. السنا: النور. الغيهب: الظلمة. الظلماء: الليل.

(٣) الثواء: المكث (بالضم): الإقامة.

(٤) متألّق: لامع. تزهى (كذا في الأصل): تفتخر تتكبّر. لعلّها «تزهو»: تضيء، تنير. السنا: النور. السناء (بالهمزة): العلو، الارتفاع.

(٥) ثنيّة (؟) قدسها (الطهارة، البركة، السمّو والرفعة): قدسها الخالص التامّ الكامل.

(٦) المصطفى: المختار. المجتبي: المقرّب.

وَبِلَيْلَةِ المِيلادِ كَمْ مِنْ رَحْمَةٍ - نَشَرَ الإِلَهُ بها - ومِنْ نَعْماء .
قد بَشَّرَ الرُّسْلُ الكِرامُ بِبَعْثِه، وتقَدّمَ الكُهّانُ بالأنباء .
أكْرِمْ بها بُشْرَى على قَدَمٍ سَرَتْ في الكَوْنِ كالأرواح في الأعضاء
أمْسى بها الإسلامُ يُشْرِقُ نورُه، والكُفْرُ أصْبح فاحِمَ الأرجاء .
هُوَ آيَةُ اللهِ التي أنوارُها تَجْلو ظَلامَ الشكِّ أيَّ جَلاء .
والشّمسُ لا تَخفى مَزِيَّةُ فَضْلِها إلاّ على ذي المُقْلة العَمْياء .
يا مُصْطَفًى - والكَوْنُ لم تَعْلَقْ به، من بعدُ، أيْدي الخَلْقِ والإنشاء[1]،
يا مُظْهِرَ الحقِّ الجَلِيِّ ومُطْلِعَ النْـ نُورِ السَّنِيِّ الساطِعِ الأضواء ،
يا مَلْجَأَ الخَلْقِ المُشَفَّعَ فِيهِمُ، يا رحمةَ الأمواتِ والأحياء ،
يا آسِيَ المَرْضى ومُنْتَجَعَ الرِّضا ومُوَاسِيَ الأيتام والضُعَفاء[2]
أشكو إليك، وأنتَ خيرُ مُؤَمَّلٍ، داءَ الذُّنوبِ. وفي يَدَيْكَ دَوائي.
إنْ كُنْتُ لم أخْلُصْ إليكَ، فإنّما خَلَصَتْ إليك مَحبّتي ونِدائي[3].

ثمّ يستطردُ ٱبنُ زَمْرَكَ إلى مدح محمّدٍ الخامسِ الغَنيِّ بالله مَلِكِ غَرناطةَ[4]، مَعَ الإشارة إلى الاحتفال بالمَوْلِدِ:

وَبِسَعْدِ مَوْلايَ الإمامِ مُحَمَّدٍ تَعِدُ الأماني أنْ يُتاحَ لِقائي.
يا ٱبْنَ الخلائفِ مِنْ بني نَصْرٍ ومَنْ حاطوا ذِمارَ المِلّةِ السَّمْحاءِ[5]
مِنْ كُلِّ مَنْ تَقِفُ المُلوكُ بِبابِهِ يَسْتَمْطِرونَ سَحائبَ النَّعْماء .

---

(١) الكون (هنا) العالم، الوجود. الإنشاء: الإيجاد من العدم. - ٱختارك الله (يا محمّد) قبل أن يبدأ الله خلق هذا العالم.

(٢) الآسي: الطبيب، المداوي. منتجع الرضا (الذي يطلب الناس رضاه). المواسي: الذي يساوي الآخرين بنفسه - الذي يواسي أو يحاول تخفيف آلام الآخرين.

(٣) خلص فلان إلى المكان: استطاع أن يصل إليه مخترقاً ٱزدحام الناس.

(٤) محمّد (الغنيّ بالله) بن يوسف ثامن سلاطين بني نصر في غرناطة (٧٥٥ - ٧٦٠ هـ) وخامس من كان اسمه محمّداً منهم.

(٥) الذمار: الكيان والحرمة (ما يجب على الإنسان أن يدافع عنه). الملّة السمحاء: الدين الليّن السهل (لا تعقيد ولا تشدّد فيه)، الإسلام.

قَوْمٌ إذا قـادوا الجُيوشَ إلى الوَغى فالرُّعْــبُ رائدُهم إلى الأعـداء؛
والعِزُّ مَجْلوبٌ بكـــلِّ كَتيبــةٍ، والنصرُ معقودٌ بكـــلّ لِواء.
يا فخرَ أندَلُسٍ وعِصْمَةَ أهْلِها، يَجْزيكَ عنها اللهُ خيرَ جَزاء،
كم خُضْتَ طَوْعَ صَلاحِها مِنْ مَهْمَهٍ لا تَهْتَدي فيه القَطا للماء[1].
عَظَّمْتَ ميلادَ النبيِّ مُحمَّدٍ وشَفَعْتَــه باللَّيْلــةِ الغرّاء[2].
أَحْيَيْتَ لَيْلَكَ ساهراً فأفَدْتَنا قُوتَ القُلوبِ بذلك الإحْياء[3].

ولاَبْنِ زَمْرَكَ مُوَشّحةٌ في ذِكْرِ المَوْلِدِ (نفح الطيب ٧: ٢٨٠ - ٢٨١) مطلعها:

لَوْ تَرْجِعُ الأيامُ بعدَ الذَّهابْ، لم تَقْدَحِ الأيامُ ذِكْرى حَبيبْ[4].
وكُلُّ مَنْ نـامَ بِلَيْلِ الشبابْ يُوقِظُه الدهرُ بِصُبْحِ المَشيبْ[5].

★ ★ ★

والبيتان الأخيرانِ فيها[6]:

(هل يُحْمَلُ الزادُ لِدارِ الكريمْ) المُصْطفى الهادي شَفيعٌ مطاعْ[7].
فجاهُــه ذُخْرُ الفقيرِ العديمْ وحُبُّــه زادي، ونِعْمَ المَتـاعْ

---

(١) المهمه: الأرض المقفرة (الخالية). القطا: طير قويّ الحاسّة للماء.
(٢) الغرّاء: البيضاء (المباركة). الليلة الغرّاء (؟). لعلّها ليلة عاشوراء (راجع، تحت، ص ١٣٠ - ١٣١).
(٣) قوت القلوب: غذاء الروح. الإحياء: سهر الليل في العبادة. في الحاشية (نفح الطيب ٧: ١٨٣): ان الشاعر يورّي هنا (يشير) إلى كتاب «قوت القلوب» (لأبي طالب المكيّ) وكتاب «إحياء علوم الدين» (لأبي حامد الغزاليّ). هذا التعليل بعيد.
(٤) قدحت الأيّام في الشيء: أتلفت جانباً منه. لم تقدح الأيام ذكرى حبيب (لم تنسني حبيبي). - مهما يَنْقَضِ على المحبّ من الزمن لا ينس أحباءه (لقد شاخ الشاعر، ولكنّه ما يزال يرجو الذهاب إلى الحج؟).
(٥) إذا غفل الإنسان في أيام شبابه (عن بعض العبادة)، فإنه يعود (إلى ذلك الجانب من العبادة) حينما تتقدّم به السن.
(٦) البيت في الموشّح (وفي المسمّط) عدد من الأشطر يجمع بينها ترتيب معيّن في قوافيها.
(٧) «هل يحمل الزاد لدار الكريم» شطر للفقيه الزاهد أبي عبد الله أبي الحجّاج يوسف المنصفي (نسبة إلى المنصف، وهي قرية قرب بلنسية). وكان للمنصفي رحلة إلى المشرق. وسكن سبتة وهو من أحياء النصف الأول من القرن السابع للهجرة (راجع المغرب ٣:٣٥٤؛ نفح الطيب ١: ١٨١، ٣: ٥٩٥، ٤: ٣٣٦).

واللهُ سمّــاه الرؤوفَ الرحــيمْ، فجارُهُ المكفولُ ما إنْ يُضاعْ[١].
عسى شفيـعُ الناسِ يومَ الحِسابْ وملجـأُ الخَلْقِ لِرَفْعِ الكُروبْ[٢]
يَلْحقَــني منــه قَبولٌ مُجــابْ يَشْفَـعُ لي في مُوبِقاتِ الذُّنوبْ[٣].

★ ★ ★

يـا مُصطفًى، والخَلْقُ رَهْنُ العَدَمْ، والكَوْنُ لم يَفْتُـقْ كِمامَ الوُجودْ[٤]:
مَزِيّــةٌ أُعْطِيتَهــا في القِــدَمْ بهــا عــلى كُــلِّ نَــبيٍّ تَسودْ،
مَوْلِــدُكَ المرقومُ لمّــا نَجَمْ أنْجزَ لِلأُمّــةِ وَعْــدَ السُّعودْ.
نادَيْــتُ لو يُسْمَــحُ لي بالجوابْ شَهْرَ ربيـعٍ، يـا رَبيـعَ القُلوبْ،
أطْلَعْتَ لِلْهَـدْيِ بغيـرِ ٱحتجابْ شمْساً، ولكنْ مـا لها مِنْ غُروبْ.

ويبدو أنّ من المُناسباتِ التي كان أهلُ الأندلُس (والمَغرب) يَحْتَفِلونَ لها ذِكْرَى عاشوراءَ (العاشرِ من المُحَرّم: الشهرِ الأوّلِ من السَّنَة الهِجريّة - وفي العاشر من المُحَرّم مِنْ سَنَةِ ٦١ = ١٠/١٠/٦٨٠ م) كانت مأساةُ عاشوراءَ ومقتلُ الحسين بن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه. ولاَبْنِ زَمْرَكَ (نفح الطيب ٧: ٢٢١) مِنْ قصيدةٍ في مدحِ مُحمّدٍ الغَنيِّ بالله النَّصْرِيِّ يذكُرُ فيها عاشوراءَ:

يــا أيُّهــا المَوْلى الــذي بَرَكاتُـهُ رَفَعَــتْ لِواءً للنَّدى مَنْشورا[٥]،
لَــكَ راحــةٌ تُزْجي الغَمامَ بأنْمُــلٍ فَجَّرتَ منهــا بالنَّوالِ بُحورا[٦].

---

(١) راجع القرآن الكريم (٩: ١٢٨، سورة التوبة). ما أن يضاع: لا يضاع («أن» زائدة).
(٢) يوم الحساب: يوم القيامة. الكرب: الحزن الشديد.
(٣) الذنب الموبق (المهلك، العظيم).
(٤) المصطفى: المختار للرسالة (محمد رسول الله). والخلق (الواو للحال: حينما كان البشر لا يزالون) رهن العدم (قبل وجودهم في هذا العالم). الكون (هنا): هذا العالم. الفتق: الشقّ. الكمام: الكأس (الأوراق الخضر التي تغلّف الزهرة قبل أن تتفتّح الزهرة). - أن الله قضى أن يكون محمّد رسولاً إلى هذا العالم قبل أن يخلق الله هذا العالم.
(٥) المولى: السيّد (محمّد رسول الله). الندى: الكرم.
(٦) تزجي: ترسل، تسيّر. الأنملة: طرف الإصبع (كناية عن سهولة تسيير الأمور). النوال: العطاء (الخير، الفائدة).

واليَوْمَ مَوْسِمُ قُرْبَـــةٍ وعِبـــادةٍ   وغداً - ظَفِرْتَ بأجْره - عاشورا[1].
راعَيْـــتَ فيـــه سُنَّـــةً نَبويّـــةً   تَرْوي الثِّقاتُ حديثَه المشهورا.
لا زِلْـتَ، عامَكَ كُلَّه، في غِبْطةٍ   لُقِّيـتَ منهـا نَضْرةً وسُرورا[2].

ولِآبْنِ زَمْرَكَ أيضاً قصيدةٌ يبدو أنّه مَدَحَ بها الغنيَّ بالله النَّصريَّ وَوَرَدَ فيها ذِكْرُ عاشوراءَ (نفح الطيب ٧: ١٧٦ - ١٧٧). من هذه القصيدة:

مولايَ، يـا آبْنَ السابقينَ إلى العُلا   والرافعِـــينَ لِواءَهـــا المنشورا،
أبنـاءُ أنصـارِ النَـبيِّ وصَحْبُـهُ   في الذِّكْرِ أصْبَحَ فَخْرُهُمْ مذكورا[3]؛
والمُؤْثِرون - وربُّنـــا أثنـــى بهـــا؛   في الحَشْرِ خُلِّدَ وَصْفُهم مسطورا[4]،
فاضـتْ علينـا من يَدَيْـكَ غمائِمٌ   وتَفَجّرَتْ من راحَتَيْـــكَ بُحورا،
في مَوْسِمٍ للـــدينِ قـــد جَدَّدْتَـه   وأقَمْـتَ فينـا عِيـدَهُ المشهورا.
أضعـافَ مـا أهْدَيْتَنـا من مِنّـةٍ   تُهْـدِي إلَيْـكَ ثَوابَهـا عاشورا[5].

أمّا في السودان الغَرْبيِّ خاصّةً فيبدو أنّ الآهتمامَ كان بالفِقه وما يتّصل به؛ وأمّا النِّتاجُ الأدبيُّ والتأليفُ في العلوم العقلية والاجتماعية فكان في زَمَنٍ متأخّرٍ جِدًّا. ثمّ إنّ هذا النتاجَ كُلَّه لم يظهَرْ بالطبع إلاّ قليلاً جِدًّا، كما أنّ وُصولَنا إلى هذا النتاج - مخطوطاً ومطبوعاً - كان أيضاً صعْباً.

وعلى كلّ حالٍ، فإنّ هنالك بضعةَ نَفَرٍ وَرَدَ ذِكْرُهم في «نَيْلِ الآبتهاج»، منهم عبدُ العزيز التَكْروريُّ الذي رَحَلَ إلى المشرق في منتَصَفِ القرن التاسع (ص ١٨٢).

---

(١) القربة: العمل الذي يسرّ الآخرين ويقرّبك منهم.

(٢) الغبطة: النعمة، حسن الحال، السرور. في القرآن الكريم (٧٦ : ١١، سورة الدهر): ﴿فوقاهم (صرف عنهم) الله شرّ ذلك اليوم (يوم الحساب، يوم القيامة) ولقّاهم (أعطاهم) نضرة (حسناً وإضاءة في وجوههم) وسروراً﴾.

(٣) في الذكر (في القرآن الكريم).

(٤) المؤثرون: الذين يفضّلون الآخرين (بفتح الخاء) على أنفسهم. الحشر (سورة الحشر). في القرآن الكريم (٥٩ : ٩، سورة الحشر): ﴿ويؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة﴾ حاجة إلى ذلك الشيء الذي يعطونه لغيرهم.

(٥) المنّة: الإحسان، الإنعام.

ومنهم مُحمّدُ بنُ أحمدَ ٱبنِ أبي مُحمّدٍ التازختي (نحو ٨٧٠ - نحو ٩٣٦ م) والمشهورُ بِلَقَبِ أَيْدَ[1] أحمدَ رَحَلَ إلى تكدةَ فَلَقِيَ فيها المَغِيليَّ (ت ٩٠٩ هـ) وحَضَرَ دُروسَه. ثمّ رَحَلَ إلى المشرق وأخَذَ عن نَفَرٍ من العلماء في مِصْرَ ومكّةَ. وٱجتهدَ (في تخريج مسائلِ الفِقه) وصار من مُحصِّلي العُلماءِ مُحَدِّثاً ومُحَقِّقاً ومُتَفَنِّناً في عددٍ من العلوم. ثمّ قَفَلَ إلى السودانِ ونَزَلَ في بلدةِ كشنَ فأكرمه صاحبها غايةَ الإكرام وولّاه قضاءها (ص ٣٣٥).

وأخَذَ الفقيهُ الحافظ مخلوفُ بنُ عليٍّ بنِ صالحٍ البلباليّ (تُوُفِّيَ بعدَ ٩٤٠ هـ) العِلَمَ (وكانتْ قد تقدّمتْ به السِنُّ) عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ بنِ محمّدِ أقيتَ في بلادِ ولاتن ثمّ سافَرَ للغَرْب (للمغرب) فأخذ عن ابن غازي (ت ٩١٩ هـ). بعدَئِذٍ دَخَلَ بلادَ السودان، مثلَ بَلَدِ كند وبَلَدِ كشن وغيرهما وأقرأ أهلَها وجرى بينَه وبينَ العاقبِ الأنْصمني خِلافٌ. ثمّ إنّه دخل تَنْبُكْتَ ودرّس فيها. وعاد حيناً إلى مَرّاكُشَ ثمّ رَجَعَ إلى بلادِه (ص ٣٤٤).

وهنالك أيضاً عبدُ الرحمن بنُ عليٍّ بنِ أحمدَ القصريُّ الفاسيُّ السُّفيانيّ المعروفُ بلقَبِ سقين أبي محمّدٍ (نحو ٨٧٠ - نحو ٩٥٦ هـ) أخَذَ عن زَرّوقٍ (ت ٨٩٩ هـ) وعن ابن غازي (ت ٩١٩ هـ). ثمّ إنّه رَحَلَ إلى الشرق (سَنَةَ ٩٠٩ هـ). ثمّ رَجَعَ إلى بلاد السودانِ ودَخَلَ كانو وغيرَها وبَقِيَ هنالك مُدّةً عادَ بعدَها إلى فاس، سَنَةَ ٩٢٤ للهجرة وتولى الخَطابةَ فيها في جامعِ الأندلس[2]. وبعدَ وفاةِ محمّد بنِ محمّدِ بنِ الإمامِ القوري (ت   هـ) تولّى الفُتْيا فيها أيضاً، مُدّةً وجيزةً، فيما يبدو. فلمّا عُزِلَ عن الفُتْيا أكبَّ على رِوايةِ الحديث وإقرائِه إلى أن أدْرَكَتْهُ الوفاةُ (ص ١٧٦ - ١٧٧).

ثمّ يأتي محمّدُ بنُ محمودِ بنِ عمَرَ بنِ محمّدِ أقيتَ بنِ عُمَرَ بن يحيى الصِّنْهاجيّ (٩٠٩ - ٩٧٣ هـ). ولمّا تُوُفِّيَ والدُه (سَنَةَ ٩٥٥ للهِجرة - راجع ترجمته) قاضي

---

(١) أيد، أيت: ابن.

(٢) في جامع عُدْوة الأندلسيين - الجانب الذي سكنه المهاجرون من الأندلس في مدينة فاس.

تَنْبُكْتَ تولّى هو القضاءَ بعده. وكانت له معرفةٌ بالبلاغة والمَنْطِقِ، وله تعليق على رَجَزِ المغيلي في المنطق (ص ٣٤٠).

ولا بدّ من الإشارة، قبلَ انتهاء القرنِ العاشرِ للهجرة، إلى أبي بكرِ بنِ أحمدَ بنِ عُمَرَ بنِ محمّدِ أقيتَ التنبُكْتيّ (٩٣٢ - ٩٩١ هـ)، كانتْ له معرفةٌ باللُّغةِ والفِقه، كما كانت له «تآليفُ صِغارٌ في التصوُّفِ» وغيرِه، منها «مُعينُ الضُعفاء في القناعة» (ص ١٠٢). وكذلك تحسُنُ الإشارة إلى العاقبِ بنِ محمّدِ بن عُمَرَ بنِ محمّدِ أقيتَ بن عُمَرَ بنِ عليٍّ بنِ يحيى التنبكتيّ (٩١٣ - ٩٩١ هـ)، كان قويّ القلب صُلْباً في الحقّ مِقْداماً ومُسَدَّداً في أحكامِه ثمّ جَسوراً على السُّلطان وعلى من دُونَه. وله مَعَ جميعِ هؤلاءِ وقائعُ كانوا يَخْضَعون له فيها. أمّا إذا لم يفعلوا ذلك فكان يَعْزِلُ نفسَه من القضاء ويَلْزَمُ بيتَه، فيُلاطفونه حتّى يَرْجِعَ إلى مَنْصِبه. وقد فَعَلَ ذلك مِراراً. وكان العاقبُ بنُ محمّدٍ هذا قد رَحَلَ إلى المشرق وأدّى فريضةَ الحجِّ واتّصلَ بنَفَرٍ من العلماء فأخَذَ عنهم وأجازوه (ص ٢١٨ - ٢١٩).

ومن الفُقهاء العاقبُ بنُ عبدِ اللهِ الأنصمنيّ المَسوفيّ (تُوُفِّيَ بعدَ ٩٥٠ هـ) من أهل أكدسَ - وهي بلدةٌ قريبة من بلادِ السودان - أخَذَ عنِ الإمامِ محمّدِ بنِ عبدِ الكريم المَغيلِي التِلمْساني (ت ٩٠٩ هـ)، وكان المَغيلي قد رَحَلَ إلى بلادِ السودان وبلادِ التَكْرورِ. ثمّ رَحَلَ العاقبُ بنُ عبدِ الله إلى المَشْرق وأخَذَ عن جلالِ الدين السيوطيّ (ت ٩١١ هـ) في مِصْرَ وغيرِه، في أثناءِ طريقِه إلى الحجّ. وللعاقبِ تصانيفُ منها تعليقةٌ على قولِ خليلٍ[١] - جُزْءٌ في وُجوبِ صلاةِ الجُمُعةِ في قرية أصمن - الجوابُ المحدود على أسئلةِ القاضي محمّدِ بنِ محمودٍ - أجوِبَةُ الفقيرِ عن أسئلة الأمير، أجابَ فيها السلطانَ أسكي الحاجّ محمّد (ص ٢١٧ - ٢١٨، راجع ٣٤٤).

---

(١) خليل بن إسحاق الجندي (لأنّه كان يلبس ثياب الجند): فقيه ملكي (ت ٧٧٦ هـ)، له كتاب في الفقه مشهور بعنوان «مختصر خليل».

ابن أبي البقاء البلنسيّ

١ - هو الأستاذُ أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ سُليمانَ الأنصاريُّ المعروفُ بابنِ أبي البقاءِ، أصلُه من سَرَقُسْطَةَ (ومسكنُه في بَلَنْسِيَة). كانتْ وفاتُه سَنَةَ ٦١٦ للهجرة (١٢١٩ - ١٢٢٠ م).

٢ - كان ابنُ أبي البقاءِ البَلَنسيُّ بارعاً في العربية (النَّحْو) واسعَ العلمِ بها، وقد تَصدَّرَ لتَعْليمِها، وكانتْ له عِنايةٌ بتقييدِ الآثار (الحديث؟). ثمّ هو شاعرٌ مجوِّدٌ، له رثاءٌ وله وصفٌ جيدٌ وغزلٌ.

٣ - مختارات من شعره

قال ابنُ أبي البقاءِ البلنسيُّ من قصيدةٍ له في الرثاء:

قد علّمَتْني الليالي أنّ ريقَتَها صابٌ، وإنْ قال قومٌ إنّها عَسَلُ[١].

إنّ الذي كانتِ الآمالُ مُشْرِقَةً بهِ وعيش الأماني بُرْدُها خَضِلُ[٢]،

أصاب صَرْفُ الليالي منه قُطْبَ حِجًى.

يا مَنْ رأى الشُّهْبَ أعيَتْ دونَها السُّبُلُ[٣].

- وقال يَصِفُ السَّيْفَ:

وذي رَوْنقٍ كالبَرْقِ، لكنَّ وَعْدَهُ صَدوقٌ؛ ووَعْدُ البرقِ كِذْبٌ. ورُبّما[٤]....

---

(١) الريقة: الريق (اللعاب - بالضم - القليل): كناية عن السرور القليل الذي تحاول الدنيا أن تهبه للناس. الصاب: شجر له عصارة (بالضمّ) مرّة.

(٢) بردها (بالضمّ) ثوبها (وفي الأصل، ضبطت الكلمة بفتح الباء من البرد، ضدّ الحرّ، ولا معنى له). الخضل: المبتلّ، الناعم.

(٣) الحجى: العقل. قطب حجى (مركز العقل): المستند الذي يدور عليه العقل. صرف الليالي: المصائب. يا من رأى الشهب أعيت دونها السبل (كانت المصيبة بموت هذا الرجل عظيمة إلى حدّ أن النجوم وقفت عن الدوران) لقد اضطرب كلّ شيء بعد موته.

(٤) الرونق: الحسن (بالضمّ)، اللمعان. يبرق السيف إذا هزّه صاحبه ليضرب به. السيف يبرق وهو على وشك أن يصيب فيقتل. أمّا البرق (الذي في الغيم) فقد يظهر فيتبعه مطر أو لا يتبعه مطر. وربّما (فيها اكتفاء): وربّما أمطر (الغيم بعد البرق).

عَقَدْتُ نِجادَيْهِ لِحَلِّ تمائمي ... وقلتُ له: كُنْ للمكارم سُلَّما[1].
وساءَ الأعادي إذ بكَتْ شَفَراتُه، ... وسرَّ ولاةَ الوُدِّ لَمّا تَبَسّما[2].

- وله في الغزل:

غيرُ خافٍ على بصيرِ الغرامِ ... أنّ يومَ الفِراقِ يومُ حِمامِ[3]:
عَبَراتٌ تَصُدُّ عن نَظَراتٍ، ... ونشيجٌ يَحولُ دونَ الكلامِ[4]،
ودِماءٌ تُراقُ بِاسْمِ دُموعٍ، ... ونُفوسٌ تودي بِرَسْمِ سَلام
شَرِبَتْ، بَعْدَكَ، الليالي حياتي ... غيرَ أَوْشالِ لَوْعَتي وسَقامي[5].

٤ - ** الذيل والتكملة ١: ٢١٥ (رقم ١٤٣).

ابن غيّاث الشريشيّ

١ - هو أبو عمرٍو محمّدُ بنُ عبدِ الله بنِ غيّاثٍ الجُذاميُّ الشَّريشيّ، كان مولدُه سَنَةَ ٥٣٦ للهجرة (١١٤١ - ١١٤٢ م). كَتَبَ في شَبيبَتِه عنِ الأميرِ إسماعيلَ بنِ عبدِ المؤمن (من وُلاةِ الموحّدين في الأندلس؟). ثمّ إنّه زارَ مَرّاكُشَ ومَدَحَ أُمَراءها. وكانتْ وفاتُه في المُحَرَّمِ من سَنَةِ ٦٢٠ (شباط - فبراير ١٢٢٣ م) في الأغلب: أو ٦١٩ (الوافي ٤: ١٠).

---

(١) النجاد (بالكسر) ما يحمل به السيف فيعلّق في العنق. التميمة: حجاب يعلّق على الصبي لمنع إصابته بالعين (من خرافات العامّة). عقدت نجاديه لحلّ تمائمي: بدأت بحمل السيف (بالقتال والحرب) لمّا حلّت عنّي تمائمي (لما جاوزت سنّ الطفولة): باكراً - وقلت..... كن (في يدي: سأقاتل بك) في سبيل الوصول إلى معالي الأمور.

(٢) الشفرة: حديدة السيف التي تقطع. بكت شفرة السيف (سال عليها الدم من قتال الأعادي). تبسّم السيف: كثر بريقه (لكثرة تحريكه للضرب به).

(٣) الحِمام (بالكسر): الموت.

(٤) تكثر العبرات (الدموع) في العين حتّى تعجز العين عن النظر. النشيج: إرتفاع الصوت بالبكاء.

(٥) بعدك (بعد فراقك). شربت الليالي حياتي (ذهبت من الحياة: بطلت بعدك قيمة الحياة). الوشل (بفتح ففتح): الماء القليل (بقيّة الشيء). اللوعة: حرقة يجدها الإنسان في نفسه من أثر حبّ أو ألم أو حزن. السقام: الضعف، المرض.

٢ - كان أبو عمرِو بنِ غياثٍ ذا مكانةٍ في قومِهِ، كما كان أديباً وكاتباً مُحسناً اتّصلتْ المكاتباتُ بينَه وبينَ نفرٍ من أُدباءِ زَمانه منهم مَثَلًا ابنُ مَرْجِ الكُحْل[١]، وكانت تلك المكاتباتُ تجري في نَثْرٍ وفي شعرٍ. وشعرُه كثيرٌ رقيقٌ جيّدٌ. ويبدو أن مُعْظَمَ شعرِه كان في مدحِ الملوكِ والرؤساء.

٣ - مختارات من آثاره

- لأبي عمرِو بنِ غيّاثٍ أبياتٌ في العِتاب والنَّسيب، هي (نفح الطيب: ٢: ٦٠٨):

أوْدِعْ فؤادِي حَسْرةً أوْ دَعِ ؛ نَفْسَكَ تُؤذي. أنتَ في أضْلُعي[٢].
أمْسِكْ سِهامَ اللَّحظِ أوْ فَارْمِها: أنتَ بما ترمي مُصابٌ معي[٣].
مَوْقِعُها القلبُ، وأنتَ الذي مَسْكَنُه في ذلك المَوْضِعِ.

- قالَ أبو الحسنِ الرُّعينيّ[٤]: لَقِيتُ (ابنَ غياثٍ) سَنَةَ خمسَ عَشْرَةَ (وستّمائةٍ) وأخذتُ عنه ثمّ استَجزْتُه[٥] سَنَةَ ستَّ عَشْرَةَ فكَتَبَ إليّ مُجيزاً:

..... قسَماً بما يكونُ به القَسَمُ[٦]، لقدِ استَفْتَحْتَ باباً وإنّه لَمُغْلَقٌ مُبْهَمٌ[٧]؛ واستَنْطَقْتَ أعْجَمِيًّا، ومِنْ أيْنَ له أنْ يُفْصِحَ الأعجمُ. ونَفَخْتَ حيثُ لا ضَرَمَ[٨]:

---

(١) ابن مرج الكحل (راجع الجزء الخامس، ص ٦٩١).
(٢) أودع (أجعل في) فؤادي حسرة أو دع (اترك وضعها). إنّك إن فعلت (ووضعت حسرة في قلبي) فإنّك تؤذي نفسك أيضاً لأنّك محبوبي الذي أجعله أنا بين أضلعي (في قلبي).
(٣) إرم سهام اللحظ: أطلقها عليّ.
(٤) هو أبو الحسن عليّ بن محمّد بن عليّ الرعينيّ (٥٩٢ - ٦٦٦ هـ).
(٥) طلبت منه إجازة (شهادة) بما أخذته عنه من العلم والسماح لي بأن أعلّم الناس ما تعلّمته منه.
(٦) بما به يكون القسم (الحلف باليمين): بالله تعالى.
(٧) استفتحت باباً (طلبت فتح باب): طلبت منّي شيئاً (إجازة). وانّه (أنّ هذا الباب): إعطائي إجازات. وانّه لمغلق (ليس لي عادة بإعطاء إجازات). المبهم: الشيء الساذج (الذي لا علامات فيه)....
(٨) ونفخت حيث لا ضرم: لا مادّة قابلة للاشتعال بالترويح (بنفخ الريح) عليها.

أُعيذُهـا نَظَراتٍ منـكَ صادقـةً		أنْ تحسَبَ الشحمَ فيمن شحمُه وَرَمُ[1].

.....[2] ولقد تركتُ مِنْ الأشياخِ [3] مَنْ لا يَنْبغي أنْ يُترَكَ ويَجِبُ أن يُتَيَمَّنَ بِهِ ويُتَبَرَّكَ. غيرَ أنّ القِدَمَ والهَرَمَ والألَمَ[4] صَرَفَتْني عنِ الإسهابِ والتطويل [5]. وما يُطيل شيخٌ له بعدَ نَوْماتِ العُيونِ بالليل نَظْرةُ تَخْبيلٍ[6]؛ وكُتُبُه تَخْييلٌ وعَيْشه تنكيل[7]. وقدِ آتّضحَ له من السبعين إلى الثمانين السبيلُ [8].

- وله أبياتٌ في الصِّبا والشَّيْب:

صَبَوْتُ، وهل عارٌ على الحُرّ إنْ صَبا		وقِيدَ بُعَيْدَ الأربعينَ إلى الصِّبا [9]؟

يرى أن حُـبَّ الحُسْن في اللهِ قُرْبَةً		لِمَنْ شاء بالأعمال أنْ يَتَقَرَّبـا.

وقالوا: مَشيبٌ. قلتُ: واعَجَبًا لكم،		أيُنْكَرُ نُورٌ قـد تَخَلَّلَ غَيْهَبا [10]؟

وليس مَشيبـاً مـا تَرَوْنَ، وإنّما		كُمَيْتُ الصِّبا مِمّا جرى عاد أشْهبا [11].

٤ - ** المغرب ١ : ٣٥ ؛ برنامج الرعيني ٩٩ (رقم ٣٧)؛ الذيل والتكملة ٦ : ٢٩٥ - ٢٩٦ (رقم ٧٨٠)؛ تحفة القادم ١٢٩ ؛ الوافي بالوفيات ٤ : ١١ ؛ نفح الطيب ٢ : ٦٠٨ .

---

(١) البيت للمتنبّي. الشحم: مادّة يصبح بها الجسم سميناً. الورم: انتفاخ من مرض.
(٢) كان ابن غياث يريد أن يذكر نفراً من شيوخه (أساتذته). وهم غير مذكورين في الأصل.
(٣) الأشياخ: الشيوخ (الأساتذة).
(٤) القدم (طول الزمن) يدعو إلى النسيان. الهرم (طول العمر) يدعو إلى الضعف. الألم (ذهاب الصحّة) يدعو إلى قلّة الصبر وقلّة الاحتمال.
(٥) الإسهاب: إكثار التعابير للمعنى الواحد. التطويل: الإتيان بمعان كثيرة.
(٦) بعد نومات العيون (بعد أن ينام الناس في الليل). نظرة تخبيل: تدلّ على الخبل (بفتح ففتح): الجنون أو فساد التفكير.
(٧) كتبه (كذا في الأصل). والكتب جمع كتاب بمعنى الحكم أيضاً. يقول: إنّ أحكامه من عمل الخيال لا صواب فيها. التنكيل: العقاب الشديد الذي يراد به ردع الآخرين عن أعمال السوء.
(٨) اتّضح (بان، ظهر).... السبيل (النهاية، الموت).
(٩) صبا: مال (إلى المحبوب). قاد: جرّ. الصبا: العشق (الجهل في أيام الشباب)..
(١٠) الغيهب: الظلام (هنا: سواد الشعر). في الوافي: «بدر» مكان «نور».
(١١) الكميت (الحصان الأحمر اللون). كميت الصبا (نشاط الشباب). أشهب (أبيض اللون).

الرفّاء المُرسيّ

١ – هو الأستاذُ أبو عليٍّ الحسنُ بنُ عبدِ الرحمن بنِ محمّدِ بنِ أحمدَ بنِ موسى بن عبدِ الرحمن الكِنانيُّ المُرْسِيُّ، من أهلِ مُرْسِيَةَ. أخذَ القِراءاتِ عن أبي جعفر (بن)(١) الحصّار. وماتَ الرفّاءُ في بلدِهِ مُرْسِيَةَ سَنَةَ ٦٣٣ للهِجرة (١٢٣٥ – ١٢٣٦ م) في الأغلب.

٢ – كان الرفّاءُ المُرسيُّ مُقرِئاً ونَحْوِياً، وكان أديباً شاعراً مطبوعاً صاحبَ مُقَطَّعاتٍ، وفي شعرِه تكلُّفُ لُزومِ ما لا يلزَمُ. ويبدو أنّه كان يُكثِرُ من وَصْفِ المآكل.

٣ – مختارات من شعره

– قال الرفّاءُ المُرسيُّ في المُجَبّنات (نوعٍ من الحَلْوى: عَجينٍ مَحْشُوٌّ بالجُبْن يُقلى بالسَّمْنِ ويُغْمَسُ في القَطْر، كالقطائف)(٢):

شُغِفْتُ بِحُبِّ أبكارٍ حَبالى، وَوَدّي لو بَنَيْتُ بها عَروسا(٣).
إذا لاحتْ بُدوراً في المقالي تراءتْ للعيون بها شُموساً(٤).

– وله في النسيب (من لزومِ ما لا يلزَمُ بِكَلِمَتَيْنِ أوْ أكثرَ):

أتى فأَسَى كُلَّما كلّما، وبانَ الأسى كُلَّما كلّما(٥).

---

(١) في بغية الوعاة (ص ٢٢٣): أبو جعفر بن الحصّار. وفي نفح الطيب (٢: ٥٠) أبو جعفر الحصار.

(٢) يمكن أن تقلى بالسيرج (بالسين المهملة المكسورة) أو الشيرج (بالشين المعجمة المفتوحة): دهن السمسم.

(٣) شغف الرجل (بالبناء للمجهول): أصيب شغاف (بالضمّ) قلبه (غلاف قلبه) من الحبّ. أبكار جمع بكر (بالكسر) كناية عن القطيفة (وجمعها قطائف) التي تكون مثنيّة ومختومة الطرفين أو تكون من قطعتين أطبقت إحداهما على الأخرى وختمت دائرتها. حبالى (كناية عن انتفاخ القطائف لكثرة ما في جوفها من الجبن). بنى الرجل بالمرأة (اتّخذها زوجاً له) لأنّه يبني بيتاً (خيمة) تضمّهما معاً. ودّ (بالضم أو بالكسر أو بالفتح): الحب، الرغبة (بالفتح).

(٤) لاحت بدوراً (تكون بيضاء حينما تكون عجيناً). المقالي (هنا) جمع مقلاة (صفحة تقلى فيها الأطعمة). تراءت شموساً (حينما تقلى تصبح صفراء أو حمراء).

(٥) أسى: داوى. كلّما (بالضمّ): في كلّ مرّة. كلّم (بالفتح): جرح. بان: ابتعد، ذهب. الأسى: الحزن. كلّم (في القافية): خاطب. – إذا نظر المحبوب بعينيه إلى المحبّ، شعر المحبّ بأنّه قد جرح (قلبه). فإذا عاد المحبوب فخاطب المحب شعر المحبّ بأنّه قد شفي من جروح قلبه.

وروّى الغَليـــلَ، ومِنْ بَعْدِمــا شفي الصبَّ ماءُ اللَّمى آلَما[1]
وثلّمَ مـــا شاء من قربـــةٍ وزاد فقـد ثَـلَّ مـا ثلّما[2].
وسَلّ عليـــــه حُسامَ النَّوى، ومَنْ يأسُ ما سَلَّ ما سَلّما[3].
وضَرّمَ نـــارَ الجَوى في حَشاه فألْحَفَـه ضُرَّ مـا ضَرّمـا[4].
وعَدّمَـه الصبر من بعـدِه يرى فرصةً عـدَّ ما عدّما[5].
أعَيْنَيْـه، كُفّا؛ فأصْلُ البلا - إذا ما آعْترى وآنْتَمى - أنْتُما[6].
ويــا صاحِبَيْـــهِ، ألا عُذْتُما، وهلّا إذا عُذتما عُدتما[7]؟
وقـــد قُلْتُما أنْ سَيَقْضي أسىً؛ ومِنْ قَبْلـهِ قُلْـتُ ما قُلْتُما[8].

٤ - ** تحفة القادم ١٥٨؛ الوافي بالوفيات ١٢: ٦٦ - ٦٧؛ بغية الوعاة ٢٢٣.

---

(١) روّى الغليل (حرّ العطش، العطش الشديد): أطفأ العطش. الصبّ: المحبّ. ماء اللمى (سمرة الشفاه) ريق (المحبوب). آلم (أدخل الألم على النفس)، لأن المحبوب حجب ريقه (بعدئذ) عن المحبّ.

(٢) البيت غامض. ثلّم: قطّع، شقق. (قرابة نسب؟) - في الأصل «قربه» مضبوطة بضمّة فسكون فكسرة. زاد (؟). ثلّ: هدم.

(٣) النوى: الفراق، البعاد. يأسو: يداوي. ما سلّ: أثر الحسام (السيف). سلّم (؟): ألقى السلام، نجّى، أنقذ...... (؟).

(٤) الجوى: ألم الحبّ. الحشا: الباطن، القلب. ألحفه: غطّاه (باللحاف). ضرّ: أذى، مرض. ضرّم: أشعل النار.

(٥) عدّمه: أعدمه، أفقده. الصبر (مفعول به). من بعده (بالضمّ؟): فراقه، بعاده. - يرى فرصة (مفعول به ثان مقدّم). عدّ (مفعول به أوّل مؤخّر). عدّم (بالبناء للمجهول): في هذه الفرصة التي لا يرى المحب في أثنائها محبوبه يستطيع المحبّ أن يعرف الأشياء التي عدمها (فقدها لما ابتعد محبوبُه).

(٦) كفّا: توقّفا (عن الدمع، البكاء). اعترى: أصاب. انتمى (انتسب): إنّ ابتلاء المحبّ بالمصائب راجع إلى أن عينيه تريان المحبوب اعتزى= انتمى (؟).

(٧) ويا صاحبيه (رفيقيه). عذتما: التجأتما (احتميتما من أن يصيبكما الحبّ بالمصائب). وإذا كنتما أنتما قد عذتما (ونجوتما) من الحبّ، فلماذا ما عدتما (رجعتما) إليه (وأنقذتماه ممّا هو فيه). عدتما (في الأصل) بالدال المهملة. وقاعدة لزوم ما لا يلزم في هذه الأبيات أن تكون «عذتما» (بالذال المعجمة). عذتما (الثانية) لعلّها مستعملة فعلًا متعديّاً (وليست في القاموس بهذا المعنى) - يقصد أنجيتماه، أنقذتماه.

(٨) قضى: مات. الأسى: الحزن. - وأنا قبلكما قلت عن هذا المحبّ أنّه سيموت من الحب (ومع ذلك فهو لا يزال حيًّا).

أبو عبد الله بن عسكر

١ - هو القاضي أبو عبدِ اللهِ بنُ عسكرٍ (المرقبة العليا ١٢٣) أو أبو عبدِ الله محمّدُ آبنُ عسكر (نفح الطيب ٢ : ٣٥١): محمّدُ بنُ عليٍّ بنِ عُبيدِ اللهِ بنِ الخَضِرِ بنِ هارونَ الغسّانيُّ المالَقيّ (الذيل والتكملة ٦ : ٤٤٩)، أصلُه من إحدى قُرى مالَقةَ، وكان مولدُه نحوَ سَنَةِ ٥٨٤ للهجرة (١١٨٨ - ١١٨٩ م).

تلقّى أبو عبدِ الله بنُ عسكرٍ العلمَ على نَفَرٍ كثيرين في الأندلس وفي العُدْوة (المَغْربية) وفي المَشْرق. وقد وَلِيَ قضاءَ مالَقَةَ نِيابةً عنِ القاضي أبي عبدِ اللهِ محمّدِ بنِ الحسنِ بنِ محمّدِ بن الحسنِ النُّباهيّ[1] - عندَ آنتقالِ الحُكْم في الأندلس من بني هودٍ إلى بني الأحمرِ - (نحوَ ٦٣٠ هـ) ثمّ تولّى قضاءها مُستبِدًّا (مُستقِلًّا) إلى آخرِ حياتهِ في رابعِ جُمادَى الآخِرَةِ من سَنَةِ ٦٣٦ (١٢/١/١٢٣٩ م).

٢ - كان أبو عبدِ اللهِ بنُ عسكرٍ مُستقيمَ السيرةِ ماضيَ العزيمةِ عادلاً. وكان مُتَوَقِّدَ الذِّهنِ واسعَ المعرفة بالقِراءة (للقُرآن الكريم) وبالحديث والفِقْه والنَّحْو والتاريخ. وكان مُؤَلِّفاً صَنّفَ عدداً من الكُتُب منها: مَقامةٌ سَمّاها «رسالةَ آدّخارِ الصبر وآفتخارِ القصر والقبر»، وَهِيَ غريبةٌ في بابها - المَشْرَعُ الرَّوِيُّ في الزيادةِ على غَرِيبَيِ الهَرَوِيّ[2] - أربعون حديثاً (آلتزم فيها آسمَ شيخهِ آسْمَ الصَّحابيّ)[3] - نُزْهَةُ الناظر في مناقبِ عمّارِ بنِ ياسرٍ[4] - الجزء المُخْتَصَرُ في السُّلُوِّ عن ذَهاب البصر[5] - الإكمالُ

---

(١) تولّى القضاء بمالقة من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٦٣٠ هـ في أيام الأمير محمّد بن يوسف بن هود الذي كان مستبدًّا بما كان قد بقي للعرب في الأندلس قبل مجيء بني نصر أو بني الأحمر.

(٢) أحمد بن محمّد الهرويّ (ت ٤٠١ هـ) له كتاب غريب القرآن (الألفاظ القليلة الاستعمال في اللغة) وغريب الحديث.

(٣) اشترط أن يكون كلّ حديث من الأربعين حديثاً قد رواه صحابي اسمه كاسم أحد شيوخ أبي عبد الله آبن عسكر أو أن تكون الأربعون حديثاً رواها صحابة أسماؤهم كلّهم كاسم شيخ واحد من شيوخ ابن عسكر (؟).

(٤) عمّار بن ياسر (ت ٣٧ هـ) من الصحابة وأحد السابقين إلى الدخول في الإسلام، ومن الولاة والقادة الشجعان.

(٥) ألّفه لأبي محمّد بن أبي خرص (بضمّ الخاء) الضرير الواعظ.

والإتمام في صِلة الإعلام بمحاسنِ الأعلام من أهلِ مالَقَةَ الكِرام[1].

ولأبي عبدِ اللهِ بن عسكرٍ نظمٌ جيّدٌ يأتي فيه أحياناً بلُزومِ ما لا يلزَمُ. وهو أديبٌ مُحْسِنٌ في النثر والنظم مَعَ المقدرة على وُجوهِ البلاغة.

٣ - مختارات من آثاره

- لمّا كان أبو عِمرانَ موسى بنُ سعيدٍ[2] بالجزيرة الخضراء مُقَدَّماً على أعمالِها من قِبَلِ ابنِ هودٍ[3] وَصَلَ (إليه) كتابٌ مِنَ الفقيه القاضي أبي عبدِ الله محمّدِ بنِ عسكرٍ قاضي مالَقَةَ، مَعَ أحدِ الأدباء، منه (نفح الطيب ٢: ٣٥١-٣٥٢):

أُفاتِحُ مَن قلبي بعَلْياه واثقٌ، وإنْ كانتِ الأبصارُ لم تنسخِ الوُدّا[4].

وَثِقْتُ بما لي من ذِمامِ تَشَيُّعي بآلِ سعيدٍ فٱبْتَغَيْتُ به السَّعْدا[5].

وبالحبّ يدنو كُلُّ مَنْ أقصَتِ النَّوى بِرُغْمِ حِجابٍ للنَّوى بَيْنَنا مُدّا[6].

يا سَيِّدي الذي حَمّلني ما أمالَ أسماعي من الثناء عليه أنْ أهجُمَ على مُفاتحتِهِ شافعاً في مُوصِلها إليه، واثقاً بالفَرْعِ لعلم الأصل[7]، مُؤَمِّلًا للإفضال بتحقيق الفضل[8]. إنْ لم تَقْضِ بٱجتماعٍ بَيْنَنا الأيامُ فلا[9] تُجْزِئُ من المُشافهة بَيْنَنا أَلْسُنُ الأقلام ويُوحي بعضُنا إلى بعضٍ بسُوَرِ الوِداد[10]. والحمدُ للهِ الذي أطْلَعَكَ في ذلك

---

(١) لهذا الكتاب اسم آخر، هو: مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من العلماء والرؤساء والأخيار وتقييد ما لهم من المناقب والآثار. وأبو عبد الله بن عسكر مات قبل أن يكمل هذا الكتاب، فتولّى كماله (إكماله) ابن أخته أبو بكر بن محمّد بن خميس.

(٢) من آل سعيد العنسيّ (راجع الجزء الخامس، ص ٣٣٨).

(٣) محمّد بن يوسف بن هود المستبدّ بجنوبي الأندلس باسم المتوكّل (٦٢١ - ٦٣٥ هـ).

(٤) أفاتح: أبدأ بمخاطبة ...- الأبصار لم تنسخ الودّ (؟).

(٥) الذمام: العهد، الحرمة، الحق. التشيّع: الانتماء إلى قوم أو رأي.

(٦) أقصى: أبعد (فعل ماض). النوى: البعاد، الفرقة، الفراق.

(٧) لعلم الأصل (لمعرفتي بمكانة ال سعيد وفضلهم).

(٨) الإفضال: الإحسان إلى الآخرين. تحقيق الفضل: الثقة بأن يحدث الإحسان الجديد (قياساً على ما عرف عن آل سعيد من الفضل السابق).

(٩) كذا في الأصل (المعنى يقتضي أن يقال: فلا أقلّ من أن تجزىء ....).

(١٠) الوداد: المحبّة. سور الوداد (بالمحبّة الكاملة، المحبة السامية).

الأُفُقِ بدْراً [١]، وأدْناك من هذه الدارِ فَصِرْنا لِقُرْبِ مَنْ يَرِدُ عنك لا نَعدَمُ لك ذِكْراً [٢]. فكُلٌّ يُثني بالذي عَلِمَتْ سعْدٌ [٣] ويَصِفُ من خِلالِكَ ما يَقْضي (به) ذلك الجْدُ [٤]. ولمّا كان إحسانُك يُبَشِّرُ به الصادِرُ والواردُ ويُحَرّض عليه الغائبُ والشاهد [٥]، مَدَّ أملَه نحوَك مُوصِلُ هذه المُفاتحةِ، وليسَ له وسيلةٌ ولا بِضاعة إلّا الأدبُ [٦]، وهِيَ - عندَ بَيْتِك الكريم - رابحة. وهو من شَتَّتَ خُطوبُ هذا الزمانِ شَمْلَه وأبانتْ نوائبُه صبرَه وفضلَه [٧]. وما طَمَحَ بِبَصرِهِ إلّا إلى أُفُقِكَ [٨]، ولا وَجَّه رجاءه إلّا نحو طَرَفِك [٩]. والرجاءُ من فَضْلِكَ أن يعودَ وقد أثْنَتْ حَقائِبُه [١٠] وأعْنَقَتْ مِنَ الحمْدِ ركائِبُه [١١]. ودُمْتَ غُرّةً في الزمنِ البَهيمِ [١٢] مخصوصاً بأفضَلِ التَحِيَّة والتَّسْليم.

- ومن شعره في النسيب، وفيه عاطفةٌ فِطرية من الطُّفولة العَذْبة (نفح الطيب ٢ : ٣٥٢):

---

(١) .... بدراً (معروفاً مشهوراً نافعاً).

(٢) .... ذكرك عندنا لا ينقطع.

(٣) إشارة إلى قول الشاعر: «وما قلت إلّا بالذي علمت سعد» (أي بما هو معروف ومشهور).

(٤) الخلال: الصفات، الخصال الحميدة. ذلك الجد (القديم الذي لقومك).

(٥) الصادر (الذاهب من عندنا) والوارد (القادم علينا) والغائب (الذي ليس معنا الآن) والشاهد (الحاضر بيننا): جميع الناس.

(٦) .... لا يجمع بينك وبينه إلّا المعرفة بالأدب (بالشعر) مثلًا، وإلّا فإنّه ليس قريناً لك في الغنى أو الجاه أو المكانة.

(٧) أبانت: أبعدت، قطعت. نوائبه (نوائب الزمان: المصائب).

(٨) أفقك: بلدك (المكان الذي أنت فيه).

(٩) طرفك (الجانب من البلاد حيث أنت).

(١٠) إشارة إلى قول الشاعر الأمويّ نصيب (بالتصغير) بن رباح (ت بين ١٠٥ و١١٠ هـ):

فعاجوا فأثنَوْا بالـذي أنـت أهلـه، ولو سكتوا أثنـت عليـك الحقائـب.

(راجع الجزء الأوّل، ص ٦٢٣): ما كان في حقائبهم من الهدايا والعطايا.

(١١) الركوبة: المطيّة يسافر الناس عليها. أعنقت: مدّت أعناقها وهي تسير (مسرعة). من الحمد (يحمدونك سروراً بما نالوا منك).

(١٢) البهيم: الساذج، الغفل (بضمّ فسكون): الذي لا معالم فيه أو إشارات تهدي السائرين.

أهواكَ، يا بَدْرُ، وأهوى الذي يَعْذِلُني فيك، وأهوى الرقيبْ[1]؛
والجارَ والدارَ ومَنْ حَلَّها وكُلَّ مَنْ مرّ بها مِنْ قريبْ؛
وكلَّ مُبْدٍ شَبَهاً مِنْكُمُ، وكُلَّ من يَلْفِظُ بآسْمِ الحبيبْ.

- وقال يصف رجُلًا أحدبَ ويقارنه بشكلٍ هندسيٍّ مثلَّث (الإحاطة ٢ : ١٢٥):

وأحدبٍ تحسَبُ في ظهرهِ سفينةً في نَهرٍ عائمهْ.
مُثلّثُ الخِلقةِ، لكنّه في ظهرهِ زاويةٌ قائمهْ.

- وصف البُلغة (والبلغة حِذاء خفيف مألوف في الشّمال الإفريقيّ وفي الأندلس، وهي، في الأصل، تُتَّخَذُ من الحَلْفاء[2]. والبُلغة لا تزال معروفةً في المغرب إلى اليوم، وتُصنَعُ من جِلْدٍ عاديٍّ ذي لون أبيضَ أو أصفرَ في الأكثر). وهذه الأبيات من قصيدة قالَها الشاعرُ في مدح السلطان المأمون أبي العَلاء بنِ المَنْصورِ المُوَحِّديِّ (٦٢٦ - ٦٣٠ هـ):

رَكِبْتُ إلى لُقْياكَ كُلَّ مَطِيَّةٍ مُبَرَّأةٍ أنْ تَعْرِفَ الأبَ والنَّسْلا[3].
إذا نَسَبوها فالتَّنوفةُ أُمُّها، ووالِدُها ماءُ الغَمَام إذا آنْهَلّا[4].
وما عَلِمَتْ يوماً غِذاءً، وإنّما أعارَ لها الأعضاءَ صانِعُها فَتْلا[5].
وقد ضمُرتْ حتّى آغتدتْ من نُسوعها
فلو عُرِّضَتْ للشمسِ ما أسْقَطَت ظِلّا[6].

---

(١) البدر: المحبوب الجميل الذي يشبه البدر. يعذل: يلوم. الرقيب: الذي يتابع أعمال المحبّين لينغّص عليهم حياتهم (يمنعهم من الالتقاء، يشي بهم، إلخ).

(٢) الحلفاء: نبات ينبت على أطراف الماء له أوراق ليفيّة تشبه سعف النخيل تصنع منه حبال، ويشتعل أيضاً بسرعة وشدّة.

(٣) يشبّه البلغة بالمطيّة (الدابة التي يسافر الناس عليها)، سوى أنّها لا أبوان لها ولا نسل (أولاد) لها.

(٤) التنوفة: الفلاة (الأرض الواسعة لا ماء فيها). أنهلّ: انهمر (هطل: سقط بكثرة).

(٥) أعضاؤها (أقسامها) لم تأت من النموّ بالغذاء، ولكن الذي صنع البلغة كان قد فتل أوراق الحلفاء على أشكال مختلفة.

(٦) ضمرت: أصبحت نحيلة أو هزيلة. اغتدت (كذا في الأصل بالدال المهملة): أصبحت. النسع (بالكسر) سير عريض من جلد. اغتدت من نسوعها(؟).

وما في قَراها قدرُ مَقْعَد راكبٍ، ولكنّها ساوَتْ مِساحتُها الرِّجْلا[1].
لِتَبْليغِها المُضْطَرَّ تُدعى ببُلغةٍ، وإنْ قِسْتَ بالتَّشْبيهِ شَبَّهْتَها نَعْلا[2].
سأشكُرُها جُهدي وأُثني بفضْلِها؛ فقد بَلّغَتْني خيرَ مَنْ وَطِىءَ الرَّمْلا[3]:
مَليكاً كأنّ الشمسَ فوقَ جَبينِه وليثَ الشَّرى في دِرْعِه حامياً شِبْلا[4].
إذا رامَ أمراً لم يكُنْ فيه مِنْ « عَسَى »؛ وإنْ قالَ: كُنْ، لم يَخْشَ في غَرَضٍ مَوْلى[5].
وما ذاك إلّا أنّ في الله هَمَّهُ
فيُجْري له، في ذلك، القولَ والفِعْلا[6].

٤ - ★★ الذيل والتكملة ٦: ٤٤٩ - ٤٥٢ (رقم ١٢١٨)؛ المرقبة العليا ١٢٣، راجع ١١٢؛ الإحاطة ٢: ١٢٢ - ١٢٥؛ نفح الطيب ٢: ٣٥١ - ٣٥٢، ٣: ٣١١، ٤: ٣١١ - ٣١٢، ٥: ١٣٠.

محمّد بن أحمد الاستجيّ

١ - هو أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ الله بنِ أحمدَ الإستِجيُّ، كان أسلافه من سُكّانِ إستِجةَ ثمّ ٱنتقلوا إلى مالَقةَ.

وُلِدَ أبو عبدِ الله الإستِجيُّ في مالَقَةَ وتلَقّى العِلمَ على نفرٍ منهم أبو جَعفرٍ أحمدُ بنُ يحيى بنِ إبراهيمَ الحِمْيَريُّ القُرطُبيّ وأبو محمدِ بنُ حَوْطِ الله وأبو عليٍّ عُمَرُ بنُ عبدِ

(١) القرى (بالفتح): الظهر.
(٢) لتبلغيها المضطرّ: للوصول بالمحتاج إلى السفر تسمّى بلغة (تبلّغه مقصده). - في عملها (خدمتها لصاحبها تشبه المطيّة) أمّا شكلها فيشبه النعل.
(٣) جهدي: بأقصى طاقتي. أثني بفضلها: أشكرها على فضلها.
(٤) الشري: الجبل. ليث (أسد) الشرى يكون شديداً ضارياً. هم أسد الشرى (شجعان أقوياء). - .... في درعه حامياً شبلًا (؟).
(٥) لم يكن فيه من «عسى»: لم يكن فيه تردّد. المولى: السيد. لم يخش (يخف) في غرض (في أمر من أموره) مولى (سيّداً فوقه يمنعه ممّا يريد).
(٦) .... كلّ همّه أن يرضي الله بأعماله. من أجل ذلك يجري له الله ذلك (يساعده الله على تنفيذ كلّ ما يريده من قول أو فعل).

المجيد الأزديُّ وأبو عليٍّ بنِ سيري[١]. ثم إنه أقرأ في بلده مالَقَةَ وهو بَعْدُ في العِشرين من العُمُر.

ويبدو أنّ الاستجيَّ هذا قد جاء إلى غَرْناطَة[٢] في آخرِ عُمُرِه - سَنَةَ ٦٣٩ للهِجرة - ومَرِضَ فيها ثم تُوُفِّيَ في أواخرِ سنَةِ ٦٣٩ هـ (١٢٤٢ م) في الأغلب.

٢ - كان محمّدُ بنُ أحمدَ الإَستجيُّ من حَمَلَةِ العِلم والمُشتغلين بالحَديث، ولكنّ الأدبَ غَلَبَ عليه. وله نثرٌ وشِعر لَيْسا في الغاية من الإجادة. ثمّ هو مُصَنِّفٌ له: ظهورُ الإعجاز بينَ الصُّدور والأعجاز[٣] (شرحٌ لديوان المتنبّي) - شمس البيان في لَمْس البَنان - الزَهرة الفائحـــةُ في الزهرة اللائحة (؟) - نَفْـح الكِامـات[٤] في شَرْح المقامات - آقتراح المتعلّمين في آصطلاح المُتكلّمين - التصوّر والتصديق في التَّوْطِئة لعلم التحقيق (في المنطق؟) - رَقْمُ الحُلَلِ في نَظْمِ الدُّوَل - مِفتاح الإحسان في آصطلاح الإحسان[٥]، هذا بالإضافة إلى ما له من شِعرٍ ونَثْر وخُطَب ورسائلَ. وهذه الكُتُبُ الدالّةُ على آتّساعِ نِطاق معرفتهِ لم يَصِلْ إلينا منها شيءٌ.

وفي شعرِ أبي عبدِ الله الإستِجيّ شيءٌ من العُذوبة - برُغْمِ ما يبدو عليه من التقليد - فقد ذَكَرَ لِسانُ الدين بنُ الخطيب للاستجيّ مطلعَ قصيدةٍ هو: «ما لِلنَّسيم لدى الأصيل عَليلا[٦]؟» ثمّ أوْرَدَ منها بيتاً واحداً هو:

حتّـــى النسيمُ إذا ألَمَّ بأرضِهِمْ   خَلَعوا عليــه رِقّـــةً ونُحولا[٧].

٣ - مختارات من آثاره

- قال محمّدُ بنُ أحمدَ الاستِجيُّ على طريقةِ أهلِ التصوّف في ذِكْرِ الأماكن المُقدّسة:

---

(١) ......

(٢) يبدو أنه انتقل من مالقة إلى غرناطة لمحنة كانت قد وقعت عليه في مالقة.

(٣) الإعجاز (بالكسر): عجز بعض الناس عن فعل ما يقدر عليه بعضهم الآخر. الأعجاز (بالفتح) جمع عجز (بفتح فضمّ): الشطر الثاني من بيت الشعر. الصدور جمع صدر: الشطر الأول من بيت الشعر.

(٤) نفح: انتشار الرائحة، الكمامة: الأوراق الخضر التي تضم الزهرة قبل أن تتفتح الزهرة.

(٥) الإحسان.... الإحسان (؟).

(٦) الأصيل: منتصف الوقت بين الظهر والمغرب. العليل: الضعيف (القليل الحرّ).

(٧) ألمّ: مرّ (بأرضهم) أو نزل نزولاً خفيفاً (قليلاً).

قِفوا في رُبى نجْـدٍ، ففي القلبِ مَرْساهُ؛ وغَنّوا إذا أبْصرتُمُ ثَمَّ مَغْناهُ[١].
أما هذه نجدٌ؟ أما ذا هُوَ الحِمى؟ فهل عَمِيَتْ عَيْناه أمْ صُمَّ أُذْناه[٤]؟
دَعْوهُ يُوَفّي ذِكْرُه بِلِسانِـه دُيونَ هَواهُ قبلَ أنْ يَتَوَفّاه[٣].
ويـا سائقـاً عِيسَ الغَرام بلَوْمِـهِ
- وكُـلٌّ إذا يَغْشاه في الحُـبِّ يَخْشاه[٤]-
أرِحْها، فقدذابتْ منَ الوَجْدِ والسُّرى، ولم يَبْـقَ إلّا عظمُها وبَقاياه[٥].
ويا صاحِبي، عُجْ بي على الخَيْفِ من مِنَى؛ ويا ذا التُّقى، مَنْ لي بأنِّيَ ألْقاه[٦]؟
وعَرِّجْ على وادي العَقيقِ فإنّني أسائلُ عَمَّنْ كان بالأمسِ سُكْناه[٧].
وقُـلْ لِلَيـالٍ قـد سَلَفْنَ بعَيْشِهِ وعُمْرٍ على رُغْمِ العَذولِ قَطَعْناه[٨]،
هَلِ العَوْدُ أرجُوهُ أمِ العُمْرُ يَنْقَضي فأقْضِي ولا يُقْضى الذي أتَمَنّاه[٩].؟

- وله من بَرْنامج مَشْيَخَته (وفيه تكلُّفٌ كثيرٌ وتَوْرياتٌ وإشارات مُختلفةٌ إلى الأدب والنحو والتاريخ):

ما هذه الأنوارُ اللائحة والأنوارُ الفائحة[١٠]. إنّي لأَجِدُ رِيحَ الحِكْمة ولا أُفَنَّدُ،

---

(١) المرسى: النزول، البقاء، السكنى. المغنى: المكان المعمور (الذي يسكنه الناس).

(٢) الحمى: المسكن الذي يجب علينا حمايته.

(٣) قبل أن يتوفّاه الله (قبل أن يموت).

(٤) العيس جمع عَيْساء: الناقة. - يا أيّها الذي يسوق النياق إلى نجد (مكان المحبوب) وهو ينشد لوم الحبّ. - وكلّ إنسان يرى هذا المحبّ يخاف منه (لتبدّل جسمه بالنحول من أثر الحب)؟ -.

(٥) أرحها: اترك العيس مدّة بلا سير (بلا سفر) فلعلها تستريح قليلاً (لكثرة أسفار هذا الحب عليها ولبعد أسفاره). الوجد: شدّة الحبّ أو ألم الحبّ. السرى: السير في الليل.

(٦) عاج: مال (إلى مكان لينزل فيه). الخيف ومنى في الحجاز (من مناسك الحجّ) يكنى بها عن مكان المحبوب.

(٧) ... عن المحبوب الذي كان يسكنه.

(٨) العذول: اللائم. سلفن (مضين - بفتح الضاد) بعيشه (بالعيش فيه؟).

(٩) العود: الرجوع إلى ذلك المكان. فأقضي (أموت). لا يقضي الذي أتمنّاه (لا يتاح لي ما أتمنّى: زيارة المحبوب).

(١٠) الأنوار (الأولى) جمع نُور (بالضمّ): الضوء، الضياء. الأنوار (الثانية) جمع نَوْر (بالفتح): الزهرة. اللائحة: البادية للنظر. الفائحة: التى تنتشر منها الرائحة الطيبة.

وأَرِدُ مَوْرِدَ النِّعْمة ولا أُكَنَّدُ[1]. أمِسْكُ دارينَ يُنْهَبُ أم الصَّنْدَلُ في الضِّرامِ المُلْهَبِ[2]؟ أمْ تفتّحَتْ أبوابُ الجنّةِ ففاح نَسيمُها، وتوضّحَتْ أسبابُ المِنّة فلاحَ وَسيمُها[3]؟

(وقال في صُلْبِ هذا البَرْنامَج في ذِكْرِ نَفَرٍ من شُيوخه):

ومِنْهُمُ الفقيهُ الأجَلُّ العالِمُ العَدْلُ المُحدِّثُ[4]. الأكملُ المتفنّنُ الخطيب القاضي أبو محمّدِ بنِ حَوْطِ الله[5]، سَمِعْتُ عليه كُتُباً كثيرةً بمالَقَةَ بِقراءةِ الفقيه أبي العباسِ آبنِ غالبٍ[6]، ولَقِيتُه بقُرْطُبَةَ - وهُوَ قاضيها - وحَدّثني عن جَدّي وعن جُملةِ شُيوخٍ. وله بَرْنامَجٌ كبيرٌ. وأَخوه القاضي الفاضل أبو سُلَيمانَ منهم.

ومنهمُ الفقيهُ الأَجلُّ العالِمُ العَلَمُ الأوحَدُ النَّحْوِيُّ الأديب المُتَفَنِّنُ أبو عليٍ عُمَرُ آبنُ عبدِ المجيد الأزدي[7]، قرأت عليه القُرآنَ العزيزَ مُفْرَداً[8]، وكتابَ الجُمَل والإيضاح وسِيبَوَيْه[9] تَفَقُّهاً[10]. وما زِلْتُ مُواطِناً له إلى أنْ تُوُفِّيَ، رَحِمَهُ اللهُ.

---

(١) أفنّد (يُنسب إليّ الفند) بفتح ففتح - : ضعف الرأي (الجنون). أكنّد (ينسب إليّ الكنود: كفران النعمة أو نكرانها). وفي ذلك اقتباس من القرآن الكريم (١٢ : ٩٤، يوسف): ﴿إنّي لأَجد ريح يوسف لولا أنْ تُفنّدون﴾ ثمّ (١٠٠ : ٦، العاديات): ﴿إنّ الإنسان لربّه لَكَنود﴾.

(٢) دارين اسم لمكانين (في البحرين وفي الشام: سورية) مشهورين بالمسك. نُهب: أُتيح لجميع الناس. الصندل: مادّة طيّبة الرائحة تلقى في النار فتفوح رائحتها.

(٣) لاح: ظهر. وسيمها (شبحها الجميل).

(٤) العدل: الذي تقبل شهادته أمام القاضي (تقال للمذكّر وللمؤنّث وللواحد وللجمع). المحدّث: المشتغل بالحديث (حديث رسول الله).

(٥) القاضي أبو محمّد عبد الله بن سليمان بن حوط الله الأنصاري المالقي (ت ٦١٢ هـ) تولّى القضاء في بلدان عديدة في الأندلس وافريقية. كان فقيهاً أديباً، وله شعر (المرقبة العليا ١١٢). وحوط الله تحريف (فيما يبدو) من حوتللو (حوت: سمكة، و«أللو» علامة التصغير في الإسبانية).

(٦) لعلّه الفقيه القاضي محمّد بن إبراهيم بن محمّد بن غالب الأنصاري (ت نحو ٦٤٠ هـ أو قبيل ذلك). وتولّى قضاء غرناطة، في الأغلب (المرقبة العيا ١٢٤).

(٧) ....

(٨) مفرداً: برواية (في القراءات) واحدة (بقراءة نافع وحدها أو بقراءة ورش وحدها إلخ - راجع ذلك في ترجمة القرطبي المتوفّى سنة ٥٩٠، في الجزء الخامس).

(٩) كتاب الجمل (للزجّاجي) وكتاب الإيضاح (لأبي عليّ الفارسي) ثمّ سيبويه = الكتاب.

(١٠) تفقهاً: فهماً ومناقشة ونقداً (كان يعرف الكتاب من قبل. وهو الآن يريد أن يزداد معرفة به).

وكان فريدَ عصرِه في الذكاء، ولم يكن في طَلَبَةِ الأُستاذِ أبي زيدٍ السُّهيليِّ أنجبُ منه[١].....

ومِنهمُ الفقيهُ الأجلّ العالمُ المُحدِّثُ السيِّدُ أبو محمدٍ القُرطُبيّ[٢]، قرأتُ عليه القُرآنَ بالرِواياتِ مُفْرداتٍ[٣]، وتَفَقَّهْتُ عليه في الجُمَلِ[٤] والأشعار. وأجازَني جميعَ ما رَواه[٥]. وكذلك فَعَلَ كُلُّ واحدٍ مِمّنْ تَقَدَّم.

٤ - ** الإحاطة ٢ : ٢٤١ - ٢٥٠.

موسى بن سعيد العنسي

١ - هو أبو عِمرانَ موسى بنُ محمّـدِ (٥١٤ - ٥٨٩ هـ) بن عبـدِ المَلِـك (٤٢٦ - ٥٦٢ هـ) بنِ سعيدٍ العَنْسيُّ، وُلِدَ في (قلعة يحصُبَ)* في خامس رَجَبَ من سَنَةِ ٥٧٣ للهِجرة (٢٨/ ١٢/ ١١٧٧ م). ثمّ إنّ موسى أدْركَ الفيلسوفَ ٱبنَ رُشْدٍ (ت ٥٩٥ هـ) وتلَقّى عليه شيئاً من العِلم (المغرب ١ : ١٠٤).

بدأ موسى بنُ سعيدٍ حياتَهُ السياسيةَ بأن تولّى الكِتابةَ لعبدِ الواحدِ بنِ يوسفَ بنِ عبدِ المؤمن (أخي المنصورِ المُوحِّديِّ)، حينَما كان عبدُ الواحدِ هذا والياً على الأندلُس (إشبيلية؟). ويبدو أنَّ منافسةً شديدةً كانتْ بينَ عبدِ الواحد والمُسْتنصرِ أبي يعقوبَ يوسفَ الثاني (حفيدِ يعقوبَ الأوّل المنصور) وسُلطانِ المَغْرب (٦١١ - ٦٢٠ هـ). وأرادَ المُستنصرُ أنْ يستميلَ موسى بنَ سعيدٍ فعَرَضَ عليه الوِزارةَ في مَراكُشَ، فلم يقبَلْ موسى (نفح الطيب ١ : ١٨٢ - ١٨٣).

---

(١) أبو زيد (أبو عبد الرحمن) السّهيلي (ت ٥٨١ هـ) صاحب كتاب «الروض الأنف (بضم فضمّ).

(٢) ....

(٣) كل ختمة من القرآن (قراءة كاملة) برواية واحدة في القراءات (راجع الحاشية الثانية على هذه الصفحة).

(٤) الجمل = كتاب الجمل (للزجاجي)

(٥) سمح لي بأنّ أروي عنه (ما تعلمته منه): أعلمه لغيري.

* يحصب (بضم الصاد أو بكسرها).

واَستطاعَ عبدُ الواحدِ أنْ يتولّى المُلكَ في مَراكُش (٦٢٠ - ٦٢١ هـ) عاماً واحداً ثُمّ خُلعَ وقُتل (نفح الطيب ٤ : ٣٨٤). ومعَ أنّ موسى بنَ سعيدٍ لم يكنْ في مَرّاكُشَ يومَ تولّى عبدُ الواحدِ المُلْكَ، بلْ كَتَبَ إليه من إشبيلية يُهنِّئُه (نفح الطيب ٢ : ٣٦٢)، فإنّه ذَهَبَ إلى مَرّاكُشَ (المغرب ٢ : ٥٣) بعدَ ذلك.

ثمّ ثارَ أبو عبدِ الله مُحمّدُ بنُ يوسفَ بنِ هود، سَنَةَ ٦٢٥ للهِجرة (١٢٢٨ م) على المُوحّدين واَسْتبدّ بالصُخيراتِ (قُربَ مُرْسِيَة) واَتّسعَ مُلْكُه في جَنوبيِّ الأندلُس، فمالَ محمّدُ بنُ سعيدٍ العَنْسيّ واَبنُه موسى (صاحبُ هذه الترجَمةِ) مَعَهُ إلى اَبنِ هودٍ ونقَضا وَلاءَهُما للمُوحّدين (كما كانا قد نقضا من قبلُ ولاءهما للمرابطين).

وأرادَ اَبنُ هودٍ أنْ يُكافِئَ بني سعيدٍ على نُصرتِهم له فولّى موسى على الجزيرة الخضراء.

واَتّصلَ اَستبدادُ اَبنِ هودٍ بجَنوبيِّ الأندلُس عَشْرَ سِنينَ ثم قَتَلَهُ أحَدُ وُلاتِه، سَنَةَ ٦٣٥ للهِجرة (في أوّلِ شهورِ عامِ ١٢٣٨ م).

ويبدو أنّ موسى بنَ سعيدٍ قد تَنَقّلَ بعدَ ذلك مُدّةً في مُدُنِ الأندلُس ثمّ رأى أن مُقامَه في الأندلُس أصبح كثيرَ الاَضطراب فعزَمَ على الرِّحلةِ إلى المشرق بِنيَّة الحَجّ، غيرَ أنّه تُوُفيَّ بعدَ وُصولِه إلى الإسكندريّة، وذلك في ثامنِ شوّالٍ من سَنَة ٦٤٠ (٣٠/ ٤/ ١٢٤٣ م).

٢ - كان أبو عِمرانَ موسى بنُ سعيدٍ رَجُلَ سياسةٍ، ودولةٍ مثلَ أهله. وكان كاتباً مُتَرَسِّلاً وشاعراً، إلاّ أنّه أبرعُ في نَثْره منه في شِعره. والذي يبدو أن مَيّزتَه كانتْ في اَتّساعِ مَعْرفتهِ بالتاريخ وبالأدب، وهُوَ أحدُ الذين شاركوا في تأليفِ كتابِ «المُغرِبِ في حُلى المَغْرب».

٣ - مختارات من آثاره

- قالَ أبو عِمرانَ موسى بنُ محمّدِ بن عبدِ الملك بنِ سعيدٍ في المُظفّر عبدِ المَلِكِ

العامري[1] (المغرب ٢ : ٣٠٢) إملاءً (آرتجالاً):

مَلِكٌ لم يَرِثِ الإمارةَ عن كَلالةٍ وبَدْرٌ لم يطلُعْ بغيرِ هالةٍ[2]، إذ كان قد تقدّمَتْ بِبَلَنْسِيَةَ رئاسةُ جَدّهِ أبي بكرِ بنِ عبدِ العزيز[3]، وأوَى مِنه أهلُها - في تلك الخُطوب - إلى حِرْز حريز[4]. فظنّ الناسُ أن التَيْتَلَ في المَخْبَرِ[5] مثلُ الأسد، فقلّدوه تلك القلائدَ فذَبَّ عن نِظامها وآجتهد[6]. فَهزَمَ المُلَثَّمين وأخرجَ عن بلادِه أميرَهُمْ عبدَ الله بنَ غانيةَ. وطلَعَ على تلك الظُّلَمِ كالصُّبْحِ المُبين[7]، إلّا أنّه صادَفَ في شرقِ الأندلُس الأميرَ أبا محمدِ بنَ عِياضٍ أسدَ الحروب وقُطْبَ الخُطوب[8]، رَجُلَ الثَّغْر[9] شُهرةً وشجاعة، وقد ألقى جميعُ تلك البلاد له بالسمع والطاعة. فهَوَتْ قلوبُ أهلِ بَلَنْسِيَةَ إليه[10]. ورامَ آبنُ عبدِ العزيز صَرْفَهُمْ عن ذلك فثاروا عليه. فخَضَعَتْ أقلامُه للسيوف[11]، ودارتْ عليه من الفِتَنِ صُروفٌ[12]. فلم يرَ إلّا الفِرارَ، قائلاً ليس

---

(١) من نسل المنصور بن أبي عامر (ت ٣٩٢ هـ) المستبدّ بأمر الخلافة المروانية في أيام هشام بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر.

(٢) الكلالة: الرجل يموت لا أولاد له ولا زوجة (ان المظفّر لم يصبح ملكاً لأنّه لم يكن هنالك ملوك، بل انتزع الملك من أصحابه). الهالة دائرة (مظلمة أو ملوّنة) ترى حول الجرم المضيء بنفسه كالشمس والقنديل (وهي في الحقيقة ترى حول عين الرائي - أو بين الجسم المضيء وعين الرائي حينما يكون الهواء مشبعاً بالرطوبة على درجة معيّنة). وكانوا من قبل يعتقدون أن الهالة تدلّ على شيء من القداسة.

(٣) هو حفيد المنصور بن أبي عامر.

(٤) الخطب: المصيبة، الحادث المؤذي. أوى: التجأ.

(٥) في القاموس (٣ : ٣٤١): الثيتل (بالثاء المثلّثة) الوعل المسنّ، نوع من بقر الوحش (الغزلان). المخبر: الاختبار (حقيقة الأمر).

(٦) قلّدوه تلك القلائد (ولّوه - بفتح اللام - الحكم). ذبّ: دفع (دافع، حامى عن البلد).

(٧) المبين: الظاهر، الواضح.

(٨) صادف (يقصد: وافق، حدث). آبن عياض: ملك (مستبد) بشرق الأندلس (راجع نفح الطيب ٤ : ٤٥٦). قطب الخطوب (سبب تلك الأحداث الكبار؟).

(٩) الثغر: المكان (برًّا أو بحراً) يخشى مجيء العدوّ منه يحكم منطقة قرية من بلاد الاسبان.

(١٠) هوت إليه القلوب (مالت).

(١١) انهزم أدبه (ورجال بلاطه الأدباء) أمام القوّة.

(١٢) الصروف: المصائب.

علىزأرِ الأسدِ قرارٌ [١]. فجاءتْ به المقاديرُ إلى أن حصّلتْه في يَدِ عَدُوِّه عبدِ الله بنِ غانيةَ، فسَجَنَه في جزيرةِ مَيورقةَ إلى أنْ يسَّر اللهُ سَراحَه على يدِ المُوحِّدين. فحلَّ بمَرّاكُشَ تحتَ نِعمةٍ ضافيةٍ ملحوظاً بعينِ الرِّعاية مُتَفَقَّداً من الأمر العزيز بأجزَلِ جِرايةٍ [٢].

- قال موسى بنُ محمّد بنِ عبدِ الملك بنِ سعيدٍ في نهرِ أنْدَرَشَ (المغرب ٢ : ٢٣٥):

خَلِّــني في نَهْرِ أنْــدَرَشِ كَيْ أُرَوّي عِنــدَه عَطَشي.
مُــدّ مِنْــه مِعْصَمٌ نَضِرٌ في بسيــطٍ بالرِّيــاض وُشِي [٣].
عنــدَ مــا أبْصَرْتُ بَهْجَتَــه حِرْتُ من فِكْرٍ ومن دَهَشِ [٤].

- وقال يُرُد على من عاتبه [٥] بكَثْرَةِ المُطالعة والصبرِ عليها (المغرب ٢ : ١٧٠ = نفح الطيب ٢ : ٣٣٤):

يا مُفنِياً عُمْرَه في الكأس [٦] والوترِ وراعياً في الدُّجى للأنْجُمِ الزُّهُرِ [٧]
يبكي حَبيباً جَفاهُ أوْ يُنادِمُ مَنْ يهفو لَدَيْهِ كغُصْنٍ باسِمِ الزَّهَرِ [٨]،
مُنَعَّماً بــينَ لَــذّاتٍ يُمَحِّقُهــا ولا يُخلِّدُ من فخرٍ ولا سِيَرِ [٩]،

---

(١) يقول النابغة الذبياني:
أُنبئــت أنّ أبــا قابوس أوعَــدني، ولا قرار عــــلى زأر من الأسد.
لا يستطيع أحد أن يطمئنّ إذا كان يسمع صوت أسد (إذا كان إلى جانبه ما يهدّده).

(٢) المتفقّد الذي يعتني به أناس كثيرون. من الأمر العزيز (أمر الملك). أجزل (أكبر، أثمن) جراية: مرتّب جار على الموظّف أو المقرّب باستمرار.

(٣) نضر، ناضر: ريّان، برّاق. وشي (المقصود: الفعل المجهول من وشّى - بتشديد الشين - زيّن).

(٤) الدهش (بفتح أو بفتح ففتح): التحير، ذهاب العقل.

(٥) هو يردّ بهذه الأبيات على ابنه عليّ (ت ٦٨٥ هـ) والمؤلّف الأخير لكتاب المغرب (راجع نفح الطيب ٢ : ٣٣٣ - ٣٣٤).

(٦) الكأس (شرب الخمر) والوتر (سماع الغناء): اللهو.

(٧) الزهر جمع أزهر: لامع، مشرق. راعياً للأنجم الزهر: ساهراً بلا عمل منتج.

(٨) جفاه: هجره. هفا إليه: مال، اشتاق. كغصن (حبيب معتدل القامة كالغصن).

(٩) يمحقها (يضيعها سدى). السيرة: السمعة الحسنة أو التاريخ المكتوب.

وعـــاذلٍ لِيَ فـــيما ظِلْـــتُ أكتُبُـــه:
يُبْـــدي التعجُّـــب من صـــبري ومن فِكَري[1]؛

يقولُ: ما لك؟ قد أفْنَيْتَ عُمْرَك في حِبْرٍ وطِرْس عن الأغصانِ والحِبَرِ[2]
وظِلْتَ تسهرُ طولَ الليلِ في تعبٍ ولا تَرى أبدَ الأيامِ من ضجر[3].
أَقْصِرْ، فإنّيَ أدْرى بالذي طمَحتْ لِأُفْقِهِ همّتي، وأسألْ عنِ الخبرِ[4]،
وٱسْمعْ لقولِ الذي تُتلى مَحاسنُه، من بعدِ ما صار مِثْلَ التُّرْب، كالسُّوَرِ[5]
(جمالُ ذي الأرضِ كانوا في الحياةِ وهم، بعدَ المَماتِ، جمالُ الكُتْبِ والسِّيَرِ)[6].

٤ - ** المغرب (٢: ١٧٠ - ١٧١) ثم راجع ١: ٩٨ - ٩٩، ١٠٤، ١٠٥ - ١٠٧، ١١٠، ١٤٢، ٢٢١، ٢٣٥، ٢٥٣، ٢٥٨، ٣٢٠، ٣٣٤، ٤٢٣ - ٤٢٤، ٤٢٦، ٤٣٤، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٧، ٢: ٣٥، ٥٣، ٦٣، ٧٣، ٨١ - ٨٢، ٨٥، ١٠٣، ١١٠ - ١١٣، ١١٨، ١٢٠، ١٤٥، ١٤٨ - ١٥١، ١٥٣، ١٦٤، ١٨٠، ١٨٥، ٢٠٦، ٢١٠، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٨٨، ٣٠١، ٣٠٨، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢١، ٣٦٢، ٣٧٨، ٣٨٤، ٤٠٦؛ نفح الطيب (٢: ٣٣٣ - ٣٣٥) ثم ١: ١٥٤ - ١٥٥، ١٧٨ - ١٧٩، ١٨٢ - ١٨٣، ٢: ٣٣٧، ٣: ١٨٣، ٣٥١، ٣٦٤ - ٣٦٦، ٤: ١٣٨ - ١٤٠.

الأعلم البطليوسي

١ - هو أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ قاسمِ بن إسحاقَ الأعلمُ البَطَلْيَوْسيُّ[7] النَحْويُّ،

---

(١) العاذل: اللائم. ظلت (بالكسر) = ظللت (بكسر اللام الأولى وسكون الثانية).
(٢) في حبر (مداد أسود يكتب به) وطرس (ورق): في الكتابة والتأليف. الأغصان والحبر (الثوب الجميل من الحرير الأسود) لعلّه يقصد النساء الجميلات (اللواتي قاماتهنّ معتدلة كالأغصان وأبشارهن أو ظاهر جلدهنّ ناعم كالحرير).
(٣) إنّ كلمة ظلت (في هذا البيت وفي البيت الرابع من هذه القطعة أيضاً) مضبوطة (في نفح الطيب ٢: ٣٣٣) بفتح الظاء). أبد الأيام: كلّ الأيام (التي لا تنتهي).
(٤) أقصر (اترك هذا الاعتراض).
(٥) من بعد ما صار مثل الترب (بعد ما مات). تتلى محاسنه كالسور (محاسنه كريمة كالسور في القرآن الكريم - هذه مبالغة غير مستحبّة).
(٦) الواضح أن البيت مضمّن. السيرة (تاريخ رجل عظيم).
(٧) هو غير الأعلم الشنتمري يوسف بن سليمان (ت ٤٧٦ هـ). وفي سنة وفاة الأعلم البطليوسي شيء من الخلاف.

وُلِدَ في بَطَلْيَوْسَ وأخذَ النحوَ عنِ الأستاذِ هُذيلٍ[1] من علماء النحو. ثمّ إنّه تصدّرَ للإقراء في إشبيليــةَ، في عــددٍ من الفنون. وكانــت وفاتُــه في سَنَــةِ ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ - ١٢٤٥ م) في الأغلب.

٢ - كان الأعلمُ البَطَلْيَوْسِيُّ رَجُلًا ضيّقَ الصدرِ بكلِّ شيءٍ كثيرَ الشكوى من الزمن ومن الناس، وهجا حِمْصَ (إشبيلية) ولم يتّفقْ أنْ هجاها أحدٌ قبلَه. وكان بارعاً في النحوِ خاصّةً. وله تصانيفُ منها: تاريخُ بَطَلْيَوْسَ - الجمعُ بين الصِحاح للجوهريّ والغريب المصنّف (راجع بغية الوعاة ١٨٥). وقد بلغتْ تصانيفُه خمسينَ عَدًّا (نفح الطيب ٣: ٤٥١).

وكذلك كان الأعلم البَطَلْيَوْسيُّ أديباً شاعراً. وكان ناقداً أيضاً (راجع نفح الطيب ٣: ٤٥١ - ٤٥٢، ٥٩٦، ٧: ٦ و ٧).

٣ - مختارات من آثاره

- للأعلمِ البَطَلْيَوْسي في الشكوى من الدهر والناس:

** دعِ الأيــامَ تُنْصِفُ من أُناسٍ ... إذا صارتْ لهم حَقَروا الكِراما.[2]
ولا تدمَــعْ جُفونُــك إن تفانَوْا ... ولا تقرأْ عــلى أحــدٍ سلامــا.
ونَكِّــبْ عن مَصارِعِهِمْ جَزاءً، ... ولا تحفَــظْ لمذمومٍ ذِمامــا.[3]
وفكّرْ في صَنيعِهِمُ - وُلاةً - ... لِتَشْكُرَ في تَسَرُّعِــهِ الحِمامــا!
صَحِبْتُ الناسَ جيلاً بعد جيلٍ ... فــلم أرَ من أوَدُّ لــه المُقامــا.
** يــا حِمــصُ، لا زِلْــتِ داراً، ... لكـــلِّ بؤسٍ، وساحـــةْ.

---

(١) الأستاذ هذيل (كذا غير منسوب) ذكره السيوطي في «بغية الوعاة» (ص٤٠٨) نقلاً عن المغرب (١: ٢٦٥)، وسمّاه المقّري في «نفح الطيب» (٤: ١٢٧): «الأديب النحوي هذيل الإشبيلي». راجع أيضاً في «المغرب» (١: ٢٦٥، الحاشية الأخيرة). وفي الغصون اليانعة (ص ٦٩ - ٧١) شيء من أخباره ومن شعره.

(٢) إذا صارت لهم: إذا أصبح لهم نفوذ.

(٣) نكّب: تجنّب، ابتعد. المصرع: المقتل، الهلاك. جزاء: عقاباً (لا تعاقب الذين يقتلهم الدهر).

مـــا فيــكِ موضــعُ راحــةْ   إلّا ومـــا فيـــه راحـــةْ[1]!

– ومن أقوالِهِ في النقد (من نفح الطيب): لِيَكُنْ مَحْفوظُك من النظمِ مثلَ قولِ آبن القَبْطُرْنُه[2]: «دَعاكَ خليلُكَ واليومُ طلّ» (٣: ٥٩٦) – وقال إنّه سَمِعَ أبا بكرِ آبْنِ زُهْرٍ يقولُ: «كلُّ الوشّاحين عِيالٌ على عُبادةَ القزّازِ فيما آتّفق له من قولِه: «بَدْرُ تِمّ...».... وما حَسَدتُ قطُّ وشّاحاً على قولٍ إلاّ آبنَ بَقِيٍّ حينَ وَقَعَ له: «أما ترى أحمدْ.... لا يُلْحَقْ» (٧: ٧).

٤ – ★★ المغرب ١: ٣٦٩؛ القدح المعلّى ١٥٧؛ بغية الوعاة ١٨٥؛ نفح الطيب (راجع المتن)؛ أزهار الرياض ٣: ١٠٢؛ الأعلام للزركلي ١: ٦٠ (٦٢).

طلحة بن حزم الأمويّ

١ – هو أبو محمّدٍ طلحةُ بنُ أبي بكرٍ محمّدِ (ت ٦١٩ هـ) بنِ طلحةَ بنِ محمّدِ بنِ عبدِ المَلِكِ بنِ أحمدَ بنِ خَلَفِ بنِ الأسعدِ بنِ حزمٍ الأُمويُّ اليابُريُّ الإشبيليّ، أصلُ أهلِهِ من يأبُرَةَ[3] ثمّ آنتقلوا إلى إشبيليةَ.

وُلِدَ طلحةُ بنُ حزمٍ الأُمويُّ، في أواخرِ جُمادى الأولى من سَنَةِ ٦٠١ (مطلع كانونَ الثاني – ينايرَ من عام ١٢٠٥ م).

وروى طلحةُ بنُ حزمٍ الأُمويُّ عن أبيه أبي بكرٍ وعمّهِ أبي العبّاس ثمّ عن نَفَرٍ كثيرين منهم أبو بكرِ بنِ قَسّومٍ الزاهدُ (ت ٦٣٩ هـ) وأبو عليٍّ بنِ الشَّلوبين (ت ٦٤٥ هـ) وغيرُهم. ولم يأخُذْ عن أبيه كثيراً لأنّه كان قد عانى مرضاً شديداً في مطلع شبابه، ثمّ إنّ أباه تُوُفِّيَ باكراً (سَنَةَ ٦١٩ هـ). غيرَ أنّ هذا كلّه لم يَمْنَعْهُ من أن يَسْتَدْرِكَ كثيراً من العلم في وقتٍ قصير، فقد تصدَّرَ لتدريسِ النحو وغيرِهِ باكراً ثمّ أجازَ لِنَفَرٍ من الذين درسوا عليه قبلَ أنْ يُجاوِزَ هو العشرينَ من عُمُرِه.

---

(١) موضع راحة (بقدر راحة اليد).

(٢) أبناء القبطرنة ثلاثة أدباء شعراء (راجع تراجمهم في الجزء الخامس).

(٣) يابرة في البرتغال اليوم (شرق لشبونة العاصمة).

وكانتْ وفاةُ طَلحَةَ بنِ حزمٍ في إشبيليةَ سَنَةَ ٦٤٣ للهِجرة (١٢٤٥ م) في الأغلب.

٢ - كان طلحةُ بنُ حزمٍ الأُمويُّ مُقرِئاً للقُرآن قديراً في صِناعة التجويد، كما كان عارفاً بالحديث ونَحْوِيًّا ماهراً ومُتَبحِّراً في التاريخ. ثمّ كانتْ له عِناية بالأدب، ورُبّما نَظَم الشِّعرَ. وشِعرُه عاديٌّ يَميلُ إلى شيءٍ من الضَّعف.

ثمّ هو مُصَنِّفٌ له مُعْجَمُ شُيوخهِ سمّاه «مُلحةَ الراوي وخِتامَ عَيْبةِ الحاوي»[1] (ألّفه سَنَةَ ٦٢٠ هـ) ثمّ وَسَّعَ هذا المُعجمَ (سَنَةَ ٦٣٥ هـ) في بَرْنامجٍ سمّاه «نُغْبةُ الوارد ونُخبةُ مُستفادِ الوافد»[2] (وهو مشتملٌ على أسماءِ مِئاتٍ من الرجال والنساء). ثمّ إنّه عمل فَهارِسَ (لأسماءِ الكتب؟) لِنَفَرٍ من أشياخهِ كأبي أُميّةَ وأبي الوليدِ بنِ الحاجِّ وغيرِهما؛ وقد ظَهَرَ في ذلك كلِّه جَوْدَةُ ٱختيارِه وحسنُ ترتيبه وفضلُ ٱقتداره. وكذلك كان قد بدأ يَزيدُ في «كِتاب الصِّلة» لأبي القاسمِ بنِ بَشْكُوالَ، ولكنْ لم يَسْتَطِعْ إتمامَ ما بدأ به.

٣ - مختارات من آثاره

- قال طلحةُ بنُ حزمٍ الأُمويُّ: كان أبو زكريا يحيى بنُ عائذٍ يُنْشِدُنا في أواخرِ مجالسِ السَّماع (تدريس الحديث):

مجالسُ أصحابِ الحديثِ حدائِقٌ تَنزَّهُ[3] فيها أعيُنٌ وقلوبُ.

ثمّ قال (طلحة بن حزم): وسألني صاحبُنا وشيخُنا أبو محمّدِ بنِ قاسمٍ الحريريُّ تَذْييلَ هذا البيتِ.... فقلتُ:

---

(١) الملحة: ما يستحسن من الأحاديث. الراوي: راوي الحديث. العيبة: وعاء من خوص (جريد النخل). الحاوي: الذي يرقى الأفاعي ويقبض عليها ويلاعبها. والحاوي (الشيء يشتمل على أشياء كثيرة).

(٢) النغبة: الجرعة (بالضمّ) أو ملء الفم من الماء. الوارد: الآتي إلى الماء ليستقي (يشرب أو يملأ وعاء). الوافد: الآتي من مكان بعيد.

(٣) تنزّه = تتنزّه: تسير في البساتين طالبة التفريج عن النفس (وهذا المعنى المقصود هنا خطأ شائع. والتنزّه، في القاموس، الترفّع عن الأمور التي لا تليق).

(مجالسُ أصحابِ الحديثِ حدائِقٌ ... تَنَزَّهُ فيها أعْيُنٌ وقلوبُ).
تَفَجّرَ يَنْبوعُ الشريعةِ وسْطَها ... فأيْنَعَ غُصْنُ العلمِ فَهْوَ رطيبُ[1]؛
وأطلعتِ الأفنانُ زَهْرَ فُنونهِ ... فريحُ الصَّبا من نَشْرِهِنّ تَطيبُ[2]؛
وأثمرتِ الأزهارُ زُهْرَ فوائدٍ ... يَلَذُّ جَنَى مَعْنًى لَهُنّ غَريبُ[3].
كَسَتْ شَمْسُ دينِ المُصطفى كلَّ ما بها ... فللنَّوْرِ في الأوراقِ روق عجيبُ[4].
نَرى طالبي الآثارِ في رَغْدِ عَيْشِهم ... جنابٌ رحيبٌ والمَحَلُّ خَصيبُ[5]:
فللفِكْرِ قَطْفٌ ثمّ للنفس نَعْشةٌ، ... وللعين من حُسْنِ الجميعِ نصيبُ[6].

- ومن نظم أبي محمّد طلحةَ بنِ حزمٍ:

من كان في كَسْبٍ له مُتَنَهْلاً، ... ذاك الذي لا ريب في تَنْقيصهِ[7].
من لا يَريبُك أمرُه في دِرْهَمٍ ... فهو الذي لا شَوْبَ في تَخْليصه[8].
حَكَمٌ له في حُكْمهِ عدلٌ فما ... يرتابُ في الإنصاف في تخصيصهِ[9].
فكأنّ ما حكَموا به من حُكْمه ... عنهُ ٱستفادوه ومن تَمْحيصهِ[10].

٤ - ** الذيل والتكملة ٤: ١٦١ - ١٧٠ (رقم ٣٠٣)؛ بغية الوعاة ٢٧٣.

---

(١) أينع الثمر: نضج (واستعماله للغصن خطأ).
(٢) الفنن (بفتح ففتح): الغصن. الفنون (هنا) الأنواع. الصبا: ريح الشرق. النشر: الرائحة الطيّبة.
(٣) زهر، لعلّها «زهر» (بالضمّ): نجوم (فوائد بارعة مشهورة). جنى يجني: قطف الأثمار. جنى معنى: معان مختارة.
(٤) دين المصطفى (محمّد رسول الله): الإسلام. النور (بالفتح): الزهر الأبيض. روق (حسن منظر؟) لا يستقيم بها الوزن هنا.
(٥) الآثار (هنا) الأحاديث (أحاديث رسول الله). رغد العيش: سعته ونعومته. والجملة: «جناب رحيب والمحلّ خصيب» في محلّ نصب حال (؟).
(٦) للفكر قطف (طالبو الآثار، أي دارسو الحديث، يقطفون من رواية الأحاديث أثماراً شهيّة مفيدة). النعشة (هنا): اغتناء الإنسان بعد فقر أو إنهاضه بعد عثرة، سرور.
(٧) - من كان متساهلاً في انفاق ما يكسبه، فذلك الذي يكسب ماله من وجه غير شرعي (بسهولة).
(٨) - والذي لا تشكّ في أمره عند إنفاق ماله، فذلك لا شوب (لا خلط، لا سوء) في إخلاصه في جمع ماله.
(٩) الحكم (هنا) الله. لا نرتاب في تخصيصه (في إعطاء بعض الناس أكثر من بعضهم الآخر).
(١٠) فإذا وافق حكم الناس على فلان من الناس ما حكم به الله عليه، فأنّهم يكونون قد استفادوا هذا الحكم الصحيح من نعمة الله عليهم، ومن التمحيص: البحث الدقيق في الأمور (؟؟؟).

عنان بن جابر

١ - هو عِنانُ بنُ جابرِ بنِ جامعٍ زعيمُ قبيلةِ بني مِرْداسِ بنِ سُلَيْمٍ - وكان بنو مِرداسٍ هؤلاء قد جاءوا معَ القبائل التي سَرَّحَها الفاطميون من صَعيد مِصْرَ إلى إفريقِيَةَ (القُطر التونسيِّ) آنتقاماً من الذين كانوا قد تَخَلَّوْا عنِ الدعوة الفاطمية (راجع الجزء الربع). وقد كان ملوكُ بني حَفْصٍ يُقرّبون رجالاتٍ من بني مِرداسٍ ويُغْدِقون عَلَيْهِمُ العطايا لِيَسْتعينوا بهم عِنـد الحاجة إليهم في مقاومةِ خُصوم الحَفْصيّين.

وفي أيامِ أبي زكريا يَحْيى بنِ عبدِ الواحد الحفصيِّ (٦٢٥ - ٦٤٧ هـ) حَدَثَ خِلافٌ بين بني مِرداسٍ ويحيى الحفصي، فألقى يحيى الحفصيُّ شيئاً من العداوة بين قَبيلةِ بني مِرداسٍ وقبيلة بني علاق. فاستاءَ عِنانُ بنُ جابرٍ (شيخُ بني مرداس) وآرتحل معَ قومه إلى المغرب الأوسط (القُطر الجزائري).

وكانت وفاة عِنانِ بنِ جابرٍ نحوَ سَنَةِ ٦٤٥ للهجرة (١٢٤٧ م).

٢ - عِنانُ بنُ جابرٍ شيخٌ بَدْوِيٌّ مُستقيمُ السِيرة أبِيُّ النفسِ شُجاعٌ. وشِعْره بَدْوِيُّ الخصائصِ وعليه نفحةٌ جاهليةٌ، وفيه حَماسة (وصف للقتال) وفخرٌ بالنفس. وشعره متينُ السَّبْكِ ولكنْ يتخلّله صِيَغٌ غريبة: ساليٌّ (سالٍ)، تخاير، ضرائر[1].

٣ - مختارات من شعره

- قال عنانُ بنُ جابرٍ يفتخر ويذكر سببَ آنتقالهِ من إفريقية (تونسَ) إلى المغرب الأوسط (القُطر الجزائري):

ولّما رأيتُ الوُدَّ قد بانَ وآنقضى دَعَوْتُ، ونارُ الشَّوْقِ تغزو ضمائري[2]:

---

(١) سالي (بضمتين على الياء) مكان سالٍ (منقوص): الذي يسلو (ينسى)؛ التخاير (التنافس في الخير)، وهو يقصد بها الاختيار؛ الضرائر (جمع ضَرة: ثاني زوجتي الرجل أو جمع ضرورة: ما يضطرّ الإنسان إلى فعله، الحاجة)، وهو يستعملها بمعنى الضرر.

(٢) بان: ابتعد.

أ لا أيُّها الغادي على مَتْنِ ضامرٍ ... سليمِ القَرى عَبْلِ الذِّراعَيْن فاطر[1]

عليه غُلامٌ لا يَمَلُّ من السُّرى ... عليمٌ خبيرٌ بالصُّوى والمخاطرِ[2]،

تحمّل إلى ترشيشَ عنّي تحيّةً ... كما سلّمَ الأحبابُ عِنْدَ التَّزاوُرِ[3].

بِلادٌ بِها نِيطَتْ عَليَّ تمائمي، ... وفيها نما عقلي ولُبّي وخاطري[4].

وبلِّغْ لِنَدْبٍ أرْيَحِيٍّ سَمَيْدعٍ ... سلاماً يُؤدّي عن عِنانِ بْنِ جابرِ[5]

بَعَثْتَ، أبا عبدِ الإلَه، بدائعاً ... مُحبّرةً منظومةً كالجواهرِ[6]،

تُذكِّرني الوُدَّ الذي كان بَيْنَنا ... وتزعُمُ أني ساليٌّ غيرُ ذاكرِ[7].

لَيالٍ وأيّامٌ نَعِمْنا بوَصْلها ... على كرَمٍ مِنّا وحفظِ سرائرِ[8].

وكُنا إذا ما الجَيْشُ صُفَّت جُنودُه ... تَرانا على خيلٍ عِتاقٍ ضوامرِ[9].

فلمّا بدا لي بعضُ ما كنتُ أتّقي ... وحانتْ أمورٌ ضيِّقاتُ المصادرِ[10]،

وعادتْ عليَّ الأرضُ حَلْقَةَ خاتَمٍ ... بلا ذِلَّةٍ مِنّي سِوى طَوْعِ آمرِ،

رأيتُ رِجالاً من رِياحٍ ومالكٍ ... وعَوْفٍ ودبّابٍ وزغبٍ وماجرِ[11]

---

(١) الغادي: الذاهب باكراً. متن (ظهر) ضامر: حصان نحيل البطن (قادر على الجري السريع طويلاً). القرى: الظهر. عبل: سمين. فاطر: الذي فطر (شقّ)، أي شقّت سنّه لحم اللثة وبرزت (في السنة الثانية من عمره؟): أصبح قويًّا.

(٢) السرى: السفر في الليل. الصُّوّة (بضم الصاد وتشديد الواو): علامة توضع على جانب الطريق لمعرفة الاتجاه أو لقياس المسافات. المخاطر (يقصد الأماكن التي فيها خوف).

(٣) ترشيش: تونس. التزاور (تبادل الزيارات أو زيارة بعض الناس بعضاً).

(٤) ناط: علق. التميمة: حرز (بالكسر): قطعة ورق تطوى طيًّا يجعلها مثلثاً متساوي الساقين وتعلق على الصبي الصغير لدفع أذى العين والحسد (يقصد أنه ولد في تونس).

(٥) الندب: الظريف والنجيب (الذكي، الفاضل) الأريحي: النشيط، الحليم (الواسع الخُلق)، الكريم. السميدع: السيّد، الكريم، الشجاع.

(٦) بدائع محبّرة (مزينة): أي قصيدة ذات معان جميلة.

(٧) سالي: (أو ساليّ) يقصد «سال» (بكسرتين على اللام): الذي ينسى.

(٨) سرائر جمع سريرة: ما يكتمه الإنسان أو يسرّه (يضمره) في نفسه.

(٩) الحصان العتيق: الكريم (المعروف النسب)، القادر على الركض. الضامر (النحيل البطن)، السريع.

(١٠) اتّقي: أخشى، أخاف (من العداوة). حان: اقترب. أمر ضيّق المصدر (لا خيار فيه؟) سيّىء العاقبة.

(١١) رياح ومالك وعوف أسماء قبائل، ثمّ دبّاب وزغب (بالضمّ) اسمان. ويبدو أن ماجر أيضاً اسم بطن من قوم الشاعر.

لَهُمْ مَرْقَبٌ دوني وقد كنتُ فوقَهم بسَيفي ورُمحي والوَغى وعشائري [1]،
تبيَّنْتُ حالاً لا أُطيقُ آحتمالَها فحُدتُ بنفسي عن عدوٍّ وجائرِ.
وسلّمتُ أرضَ الشرقِ لا عن مذلَّةٍ، ويمّمْتُ أرضَ الغرب لا عن تخاير [2]
إلى بلَـدٍ لا يَعْرِفُ الذُّلَّ أهلُه كِرامَ العَشايا من هِلالِ بْنِ عامرِ [3].

٤ - ★★ مجمل تاريخ الأدب التونسي ٢٠٢ - ٢٠٥ ؛ عنوان الأريب ٢٠٢ - ٢٠٥ .

ابن سَفَر المَرِيّيّ

١ - هُوَ أبو عبدِ الله محمّدُ (بن عبد الله) بن سَفَرٍ المَرِيّيّ[4] - منسوباً إلى جَدّه - أصلُه من ناحيّة المَريّةَ ولكنّه عاش في إشبيلية. لا نعلَمُ زَمَنَه بالتحديد، ولكن يُنْتَظَرُ أن يكونَ - آستناداً إلى وُرودِ ترجمته في «تُحفة القادم» لابن الأبار المُتَوفّى في مطلع سَنَةِ ٦٥٨ - من أحياءِ النصفِ الأوّلِ من القرنِ السابعِ (الثالثَ عَشَرَ للميلاد).

٢ - آبنُ سفرٍ المَرِيّيُّ أديبٌ بارعٌ وشاعر رقيقٌ محسنٌ كان شاعرَ المَرِيّةِ في عَصْرِه، أحْسَنُ شِعرِه الوصفُ، ووَصْفُهُ من أبدعِ الأوصافِ في جَمال الأندلس.

٣ - مختارات من شعره

- قال ابن سفر المرِّيّيُّ في وصفِ الأندلس (نفح الطيب ١: ٢٠٩ - ٢١٠):

في أرضِ أندلسٍ تُلْتَـدُّ نَعْماءُ ولا يُفارِقُ فيها القلبَ سَرّاءُ [5].

---

(١) - كان لهم مكانة دوني (تحتي)...
(٢) يمّم: قصد. تخاير (يقصد اختيار).
(٣) كريم العشيّة: يحافظ على عفافه (؟). هلال بن عامر: جدّ قبيلة.
(٤) في المغرب: أبو الحسين. وفي نفح الطيب (١: ٢٠٩) المريني (وهو تصحيف). وفي الوافي بالوفيات: المغربي. ويدعى أحياناً: ابن صفر (بالصاد).
(٥) النعماء: الخفض والدعة (العيش في أمن واطمئنان). السرّاء: النعمة والرخاء (سعة العيش) والمسرّة.

وليس في غيرِها بالعيش مُنْتَفَعٌ، ولا تقومُ بحقِّ الأُنسِ صَهباء[1].
وأينَ يُعدَلُ عن أرضٍ تَحُضُّ بها على المُدامة أمواهٌ وأفياء[2]؟
وكيفَ لا يُبْهِجُ الأبصارَ رؤيتُها وكلُّ رَوْضٍ بها في الوَشْي صَنعاء[3]!
أنهارُها فِضّةٌ، والمِسْكُ تُربتُها، والخزُّ رَوْضتُها، والدُرّ حَصْباء[4]
وللهواء بها لُطفٌ يَرِقُّ به مَنْ لا يَرِقّ، وتبدو منه أهْواء[5].
ليسَ النسيمَ الذي يهفو بها سَحَراً، ولا انتشارَ لآلي الطَلِّ أنداءُ[6]؛
وإنّما أرَجُ النَدِّ استَثارَ بها في ماءِ وردٍ فطابتْ منه أرْجاء[7].
وأينَ يبلُغُ منها ما أُصَنِّفه، وكيف يَحْوي الذي حازَتْه إحصاء؟
قد مُيِّزَتْ من جِهاتِ الأرضِ حين بدتْ فريدةً، وتولّى مَيْزَها الماء:
دارتْ عليها نِطاقاً أبحُرٌ خَفَقَتْ وَجْداً بها إذ تبدّتْ وَهْيَ حسناء[8].
لذاك يَبْسِمُ فيها الزَّهْرُ مِنْ طرَبٍ؛ والطيرُ يشدو، وللأغصانِ إصغاء.
فيها خَلَعْتُ عِذاري ما به عِوَضٌ؛
فَهْيَ الرِّياضُ وكُلُّ الأرضِ صَحْراء[9]!

---

(١) الصهباء: الخمر. – حتّى الخمر (إذا شربت في غير الأندلس) لا تحدث للإنسان أُنساً (انشراحاً). والأُنس في الأصل: حديث النساء.

(٢) وأين يعدل عنها: إلى أين ينتقل الإنسان.

(٣) الوشي: التزيين. صنعاء: عاصمة اليمن (مشهورة بالنسيج الجيّد الجميل).

(٤) الخزّ: الحرير. الدرّ: اللؤلؤ. الحصباء: الحصا، صغار الحجارة.

(٥) يرقّ به من لا يرقّ: إنَّ الجافي الطبع يصبح (بعد تنشّق هوائها) رقيقاً لطيفاً. الأهواء جمع هوى: ميل النفس إلى العشق وما يتبعه.

(٦ و ٧) هفت الريح: هبّت وحرّكت الأغصان. السحر: آخر الليل قبيل الفجر. في نفح الطيب (١: ٢١٠) «النسيم» (بالرفع: بضمّة على آخره) وهذا لا يستقيم في الإعراب («فالذي» لا تعرب في المشهور خبراً) معَ الاسم الظاهر في النواسخ. وكذلك المعنى بذلك لا يستقيم. المقصود: ليس الذي يهبّ في الأندلس (في آخر الليل) نسيماً (من الهواء)، ولا قطرات الماء المنتثرة (المتفرّقة) في الغصون من الطلّ (الندى) ماء متجمّعاً، ولكنّ ذلك كلّه مزيج من الأرجِ (الرائحة الطيّبة) ومن ماء الورد.

(٨) يحيط بالأندلس (كالنطاق: الزنّار، من كلّ جانب) أبحُر (بحار وأنهار). وجداً بها: عشقاً لها. تبدّت وهي (أي الأندلس).

(٩) خلعت عِذاري: انغمست في اللهو. والأصح: قضيت كلّ شبابي (في التمتّع باللهو أيضاً). ولا أجد عوضاً (بدلاً) من شبابي.

- وقال في النسيب:

وواعَدتُها والشمسُ تجنَحُ للدُّجى، بزَوْرَتِها شمساً وبدرُ الدُّجى يَسْري[1].
فجاءتْ كما يمشي سَنا الصُّبْحِ في الدُّجى، وطوراً كما مرّ النسيمُ على النهر[2]؛
فعَطّرتِ الآفاقَ حَولي فأشعَرَتْ بمَقْدَمِها، والعَرْفُ يُشْعِرُ بالزَّهْر[3].
فتابعتُ بالتقبيلِ آثارَ سَعْيِها كما يَتَقصّى قارئٌ أحرُفَ السطر[4].
فبِتُّ بها، والليلُ قد نام، والهوى تَنَبّهَ بين الغُصْنِ والحِقْفِ والبَدْر[5].
أُعانِقُها طوراً وأَلْثِمُ تارةً إلى أن دَعَتْنا للنّوى رايةُ الفَجْر،
فَفَضّتْ عُقوداً للتعانُقِ بَيْنَنا. فيا ليلةَ القَدْرِ، اتْرُكي ساعةَ النَّفْرِ[6]!

٤ - ** الوافي بالوفيات ٣: ١١٤؛ المغرب ٢: ٢١٢ - ٢١٣؛ نفح الطيب ١: ١٥٧، ٢٠٩ - ٢١٠، ٢٢٧، ٣: ١٩٨ - ١٩٩، ٢١٢؛ بالنثيا ١٢٩ - ١٣٠.

أبو عليّ الشلَوْبينُ

١ - هو أبو عليٍّ عُمَرُ بنُ محمّدِ بنِ عمرَ بنِ عبدِ الله الأزديُّ الإشبيليُّ المعروفُ بالشَّلَوْبينِ وبالشَّلَوْبينيّ[7]، وُلِدَ في إشبيليةَ سَنَةَ ٥٦٢ للهجرة (١١٦٦ - ١١٦٧ م).

(١) الشمس (الحقيقية) تجنح (تميل) للدجى (لليل، للغروب). شمساً (فتاة جميلة) تزورني في الليل معَ أنّ البدر ظاهر في سماء الليل.

(٢) كما يمشي سناً (ضوء)....: على مهل.

(٣) العَرف: الرائحة الطيّبة.

(٤) سعيها (إليّ): مجيئها، سيرها. كما يتقصّى......: خطوة خطوة.

(٥) بتّ بها (معها). نام الليل: غفَل (طال). الغصن (قوامها) والحقف: ما اعوجّ من الرمل (وسط جسمها) والبدر: وجهها (أعانقها.... وأقبّلها).

(٦) ففضّت......: أنهت لقاءنا. ليلة القَدْر (الليلة السابعة والعشرون من رَمَضان - وهي مباركة وخير من ألف شهر). ساعة النفر: الوقت الذي ينحدر فيه الحجّاج من عرفات (وهو المنسك الأساسي في الحجّ). - يا ليلتنا السعيدة لا تنتهي! (هنا) ليلة القدر (كناية عن الليلة التي قضاها مع محبوبته)، وليلة النفر (كناية عن الصباح الذي اضطرّ فيه إلى مغادرة مكان محبوبته).

(٧) هنالك نحويّ يعرف بالشلوبين الصغير (نحو ٦٢٠ - ٦٦٠ هـ) هو أبو عبد الله محمّد بن علي بن محمّد بن =

أخذ أبو عليّ الشلوبينُ عن جماعةٍ وفيرةِ العددِ من العلماء (راجعْ أسماءهم في «الذيل والتكملة» ٥: ٤٦١ - ٤٦٢). ثمّ تصدّرَ للإقراء نحوَ سَنَةِ ٥٨٠ هـ وٱستمرَّ في ذلك ستّين عاماً. في هذه الأثناءِ كان مُنقطعاً إلى آلِ زُهْرٍ. ثمّ إنّه زارَ مرّاكُش في أيامِ المنصور المُوحّديّ (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ). وكانتْ وفاتُه (نفح الطيب ٤: ٤٧٢) في إشبيليةَ في منتصفِ صَفَرَ من سَنَةِ ٦٤٥ (١٢٤٧/٦/٢١ م).

٢ - قال أبو جَعْفرٍ أحمدُ بنُ الزُبير (ت ٧٠٨ هـ = ١٣٠٨ م) في «صلةِ الصِّلة» (٧٠ - ٧١): «وكان الأستاذُ أبو عليٍّ (الشلوبين) رَحِمهُ اللهُ إماماً في العربيةِ غيرَ مُدافَعٍ، وهو آخِرُ أئمَّةِ ذلك الشأنِ بالمَشْرق والمَغْرب.... أقرأ نحواً من ستِّينَ سَنَةً وعلا صِيتُهُ واشتهرَ ذِكْرُه. وكان ذا معرفةٍ بنَقْدِ الشِّعر وغيرِه بارعاً في التعليم ناصحاً (وبه أبقى اللهُ ما بأيدي أهلِ المَغْرب من علم العربية. وقلّ متأدّبٌ بالأندلسِ من أهلِ وَقْتِنا لم يَقْرَأْ عليه أو نَحْويٌّ لا يَسْتَنِدُ - ولو بواسطة - إليه).

ومن «نفح الطيب»: كان أبو عليّ الشلوبينُ من أعلام إشبيليةَ (٢: ٢٧١) سارَ في المشارق والمغارب ذِكْرُه (٣: ١٩٢) وهو إمامُ النُّحاة (٣: ٤٩٠). ولقد كان له نظْمٌ على منهجِ نظم العلماء مملوءٌ بالإشارات اللغوية والنحوية، متخلّف (رديء).

وكانتْ له مُصنَّفاتٌ منها: كتاب القوانين (في علم العربية: النحو) - كتاب

= إبراهيم الأنصاري المالقي، أخذ العربية (النحو) والقراءات عن عبد الله بن أبي صالح ولازم ابن عصفور مدّة إقامة ابن عصفور في مالقة. وأقرأ الشلوبين الصغير القرآن والعربية في بلده (مالقة) مجّاناً، يقرىء الذين يحبّون التزوّد بالعلم للعلم غير قاصدين التكسّب بما يتعلّمون. وكان يعيش من أملاك له. له شيء من التصنيف: شرح أبيات سيبويه شرحاً مفيداً وكمّل شرح شيخه ابن عصفور على الجزولية (بغية الوعاة ٧٩ - ٨٠). والشلوبيني، في الغالب، نسبة إلى الشلوبينية (سالوبرينيا - وهي بلدة صغيرة في منتصف الساحل الجنوبي على البحر الأبيض. وهي تقع جنوب غرناطة تماماً، ولكن على شاطىء البحر). وهي قرية من قرى إشبيلية (إنباه الرواة ٢: ٣٣٢). وفي القاموس (٤: ٢٤٠): شلوبين أو شلوبينة (بفتح ففتح فيهما) بلد بالمغرب منه أبو عليّ الشلوبيني النحوي. وفي نفح الطيب أيضاً (٣: ٤٩١) «.... وهو منسوب إلى حصن شلوبينة» (في نسخة: شلوبينية). ولكنّ نفرًا من المؤلّفين في الموضوع يذكرون أن الشلوبين هو الأبيض أو الأشقر. وابن خلكان يقول (٣: ٤٥٢): «... هذه النسبة إلى الشلوبين، وهو بلغة الأندلس (نصارى الأندلس): الأبيض أو الأشقر. هكذا ذكروا. والله أعلم». ثمّ راجع الحاشية الثالثة، تعليقاً على قول ابن خلكان.

التوطئة على الجزولية، وهو مشهور (نفح الطيب ٣: ١٨٤). والجزولية أرجوزة في النحو لأبي موسى عيسى بن عبد العزيز الجَزولي (ت ٦٠٧ هـ). وهذه «التوطئة» مختصر لكتاب القوانين. - شرح المقدّمة الجزوليّة (شرحها شرحين: شرحاً كبيراً وشرحاً صغيراً) - تعليق على كتاب سيبويه.

٣ - مختارات من شعره

- وصَل إلَيْنا من أبي عليٍّ الشَّلَوْبينيِّ أبياتٌ من الشعر (المغرب ٢: ١٣٠، نفح الطيب ٣: ٤٩١) يتغزّل فيها بغُلامٍ آسمُه قاسمٌ كان يَهْواه، وهي:

وممّا شَجا قلبي وفَضّ مَدامِعي ... هوًى قَدَّ قلبي إذْ كَلِفْتُ بقاسم[١].

تَشَقّقْتَه جُهدي، فكان - لِشَقْوَتي ... وطول عَنائي - قاسياً غيرَ راحم★.

وكنتُ أظنُّ الميمَ أصلاً، فلم تكُنْ. ... وكانتْ كميمٍ أُلْحِقَتْ بالزَلاقِمِ[٢].

- ولأبي عليٍّ الشلوبينِ أيضاً (القدح المعلّى ١٥٣):

لو لم تكُنْ لِيَ أعراقٌ لها كَرَمٌ، ... ولم يكُنْ في رجال الأزدِ لي سَلَفُ[٣]،

لكان في سِيبَوَيْهِ الفخرُ لي، وكفى ... بذاك فخراً. فكيف العلمُ والشرف[٤]

فالحمد لله حمداً لا آنصرامَ له. ... فكلُّ ذي حسدٍ في مِثْلِ ذا يَقِفُ[٥]

---

(١) شجا: حزن، أحزن. فضّ مدامعي: نثر دموعي (جعلها تتساقط بكثرة). قدّ: قطّع. كلفت بالشيء: أحببته وتعلّقت نفسي به.

(★) العناء (بالفتح): التعب.

(٢) .... الميم أصلاً (كنت أحسب أن اسمه، حقيقةً، قاسمٌ: يقسم بين نفسه ومحبّه قسمة حقّ). ولكنّ.... الميم في اسمه زائدة (فهو قاس). الزلاقم: الحيّات الزرق (من المغرب ونفح الطيب).

(٣) أعراق جمع عرق (بالكسر): أصل (من النسب). الأزد (قبائل من عرب الجنوب).

(٤) سيبويه: عمرو بن عثمان الحارثي (ت ١٨٠ هـ) من أهل البصرة، فارسيّ الأصل، كان إمام النحاة. فكيف العلم والشرف: فكيف إذا أُضيف إلى أصلي الكريم وإلى نسبتي في قبائل الأزد ما بلغت إليه أنا من العلم ومن الشرف (المكانة الاجتماعية)؟

(٥) آنصرام: آنقطاع، آنتهاء. فكلّ ذي حسد في مثل ذا يقف: لا أحد يحسدني في هذه الأمور لأنّه يعلم أنه لا يستطيع آن يبلغ فيها إلى مثل ما بلغت أنا فيها.

٤ - ** التكملة ٦٥٨ (رقم ١٨٢٩)؛ الذيل والتكملة ٥: ٤٦٠ - ٤٦٤؛ صلة الصلة ٧٠ - ٧١ (رقم ١٢٨)؛ المغرب ٢: ١٢٩ - ١٣٠؛ القدح المعلّي ١٥٢ - ١٥٤؛ وفيات الأعيان ٣: ٤٥١ - ٤٥٢؛ الديباج المذهب ١٨٥ - ١٨٦؛ ابن قنفد ٣١٧؛ بغية الوعاة ٣٦٤؛ نفح الطيب (راجع المتن)؛ شذرات الذهب ٥: ٢٣٢ - ٢٣٣؛ الأعلام للزركلي ٥: ٢٢٤ (٦٢).

عبد الواحد المرّاكشي

هو مُحْيِي الدينِ أبو محمّدٍ عبدُ الواحدِ بنِ عليٍّ التميميُّ المرّاكُشيُّ، وُلِدَ في السابع من ربيعٍ الثاني من سَنَةِ ٥٨١ (١٠/٧/١١٨٥ م) في مدينة مَرّاكُش في أسرةٍ كانت، فيما يبدو، غنيّةً وجيهةً مُتّصِلةً بالبيتِ المالك اتّصالاً وثيقاً لا يَبْعُدُ أن يكونَ من جِهَةِ القَرابة.

لَقِيَ عبد الواحدِ المراكشيُّ الطبيبَ الشاعرَ أبا بكرِ بنَ زُهْرٍ، قيل في مَرّاكُشَ وقيل في فاس، ولا نَعْلَمُ ما مَبْلَغُ العلمِ الذي أخذَهُ عنه إذ كانَ مَوْلدُ عبدِ الواحدِ سَنَةَ ٥٨١ وكانتْ وفاةُ ابنِ زهرٍ في سنة ٥٩٥.

وتنقّل عبدُ الواحد المراكشي كثيراً في المغربِ وفي الأندلس وبينهما، وكان وثيقَ الاتّصال بالأميرِ أبي اسحقَ بنِ أبي يوسفَ يعقوبَ المنصورِ الموحّديِّ - وكان حاكماً لإشبيلية في أيام أخيه محمّدٍ الناصر (٥٩٥ - ٦١١ هـ) - . وفي آخرِ يومٍ من سَنَةِ ٦١٣ هـ (٩/ ٤/ ١٢١٧ م) غادرَ عبدُ الواحد الأندلسَ إلى مِصْر ثمّ حجّ (آخرَ سَنَةِ ٦٢٠ هـ = مطلعَ ١٢٢٤ م) وعادَ بعد ذلك إلى مصر. ولعلّه زارَ في أثناء تلك المدّة الشام والعراق.

ويبدو أنّ عبدَ الواحد المَرّاكُشيّ لم يَرْجِعْ إلى المغرب. ومعَ أنّنا لم نسمعْ من أخباره شيئاً بعدَ تأليفِ كتابه «المعجب»، سَنَةَ ٦٢١ للهِجرة، فإنّ وفاتَه كانتْ سَنَةَ ٦٤٥ (١٢٤٧ م) أو بعدَ ذلك بعامٍ أو عامين.

٢ - شُهِرَ عبدُ الواحد المرّاكشيُّ بكتابهِ المُعْجِب في تَلْخيص أخْبارِ المَغْرب، ألّفه

في المَشْرِقِ بطَلَبٍ من وزيرٍ عبّاسيٍّ كان قد «أصفاه وُدَّه وأغْدق عليه إحسانَه» وفَرَغَ من إملائه في رَمَضانَ من سنة ٦٢١ (أيلول - سبتمبر ١٢٢٤ م). ولَعَلَّ ذلك الوزيرَ كان مُؤَيِّدَ الدين محمّدَ بنَ محمّدِ بن عبد الكريم بن بَرْزٍ القُمّي الذي تولّى الوزارةَ للعبّاسيين في بَغدادَ من أواخرِ سَنَةِ ٥٩٥ إلى سنة ٦٢٣ هـ (١١٩٨ - ١٢٢٦ م). ثم إنّنا لم نَسْمَع شيئاً عنْ عبدِ الواحدِ المراكشيِّ بعدَ الفراغِ من إملاء كتابهِ المعجب.

و«المعجب» كتابٌ طريفٌ فيه تاريخٌ وفيه جُغرافيةٌ وفيه أدبٌ واجتماعٌ، وخصوصاً من تلك المُدّةِ التي شَهِدها المؤلّفُ من عهد الدولةِ الموحّدية فأثبتَ عدداً من الحوادث التي شَهِدَها بنفسِه أو رَواها عَمّنْ شَهِدها.

٣ - مختارات من آثاره

- من مقدمّة كتاب «المعجب»:

.... وبعدُ، أيُّها السيّدُ الذي توالتْ عليّ نِعَمُهُ وأخذَ بِضِبْعي من حَضيضِ الفَقْرِ والخُمول اعْتناؤه وكَرَمُه.... فإنّك سألتني - بَوّأك اللهُ أعلى الرُّتَب، كما عَمَرَ بكَ أنْديةَ الأدب... - إملاءَ أوراقٍ تشتملُ على بَعْضِ أخبارِ المَغرِبِ وهَيْئَتِهِ وحُدودِ أقْطارِه وعلى شيءٍ من سِيَرِ مُلوكِه، وخصوصاً ملوكَ المَصامِدَةِ من بني عبدِ المؤمن، من لَدُنِ ابتداءِ دَوْلَتِهِمْ إلى وَقْتِنا هذا - وهُوَ سَنَةُ ٦٢١ - وأن يَنْضافَ إلى ذلك نُبْذَةٌ من ذِكْرِ من لَقِيتُه أو لَقِيتُ من لَقِيَهُ أو رَوَيْتُ عنه بوجهٍ ما من وجوه الرِّواية من الشعراء والعُلَماء وأنواعِ أهلِ الفضل.

- شيء من سيرته (المعجب ٢٦٢ - ٢٦٣):

....فمَرّاكُشُ آخِرُ المُدُنِ في المَغْرِب[١]..... وبهذه المدينةِ، أعني مرّاكُشَ، مَسْقَطُ رأسي. وَهِيَ أوّلُ أرضٍ مَسَّ جِلْدي تُرابَها[٢]. وكان مَوْلدي بها لسَبْعٍ خَلَوْنَ من ربيعٍ الآخِرِ سَنَةَ ٥٨١، في أوّلِ أيام أبي يوسفَ يعقوبَ بنِ يوسفَ بنِ عبدِ المؤمن

(١) في أبعد نقطة من المغرب إلى الجنوب.

(٢) «وأول أرض مسّ جلدي ترابها» شطر من الشعر (راجع نفح الطيب ١ : ١٧٣) من شعر بعض الأعراب (راجع حاشية ٦، نفح الطيب ١ : ١٧٢). وهو بيت مشهور (وفيات الأعيان ٤ : ٢٥٤).

ٱبنِ عليٍّ[١]. ثمّ فَصَلْتُ[٢] منها وأنا ٱبنُ تِسعةِ أعوامٍ إلى مدينةِ فاسَ، فلم أزَلْ بها إلى أنْ قرأتُ القُرآنَ وجوّدتُه ورَوَيْتُه[٣] عن جماعةٍ كانوا هنالك مُبرِّزين في علمِ القُرآنِ والنحو. ثمّ عُدتُ إلى مَرّاكُشَ فلم أزَلْ مُتَردِّداً بين هاتينِ المَدينتَيْنِ[٤]. ثمّ عَبَرْتُ إلى جزيرةِ الأندلس سَنَةَ ٦٠٣ فأدْركتُ بها جماعةً من الفُضلاء من أهلِ كلِّ شأنٍ[٥] فلم أُحصِّلْ - بحمدِ اللهِ - من ذلك كلّهِ إلاّ مَعْرِفةَ أسمائهم ومَوالِدِهِمْ ووَفَياتِهم وعُلومِهم، وٱنفردوا دوني بكلِّ فضيلةٍ. ولا مانعَ لِمَا أعطى اللهُ ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، يَخْتَصُّ برَحْمتهِ مَنْ يشاء، وهُوَ ذو الفضلِ العظيم[٦].

- إشْبِيلِيَةُ (المعجب ٢٧١):

....وإشبيليةُ هذهِ هِيَ حاضرةُ الأندلُسِ في وَقْتِنا هذا[٧]. وَهِيَ التي تُسمّى عِندَهم في قديمِ الزمانِ حِمْصَ، سُمِّيَتْ بذلك لِنُزولِ أجنادِ حِمْصَ إيّاها حينَ ٱفْتَتَحَ المسلمون الأندلُسَ[٨]. وقد زادَ أمرُ هذه المدينةِ على صِفَةِ كلِّ واصفٍ وأتى فوقَ نَعْتِ كلِّ ناعتٍ. وَهِيَ على شاطىء نهرٍ عظيمٍ يَنْصَبُّ من جِبالِ شُقورةَ، وتَنْصبُّ إليه أنهارٌ كثيرة، فلا يَصِلُ إلى إشبيليةَ إلاّ وهو خِضَمٌّ[٩] تَصْعَد فيه السُّفُنُ الكِبارُ من البحر الأعظم[١٠] سبعينَ مِيلاً - وذلك مَرْحَلتانِ[١١] - . وهذه المدينةُ كانت

(١) هو المنصور الموحّدي (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ).
(٢) فصل الرجل من البلد: غادرها، سافر منها.
(٣) رويته (رويت قراءاته وأحكام قراءته والناسخ والمنسوخ فيه، الخ).
(٤) متردّداً بين هاتين المدينتين (هنا: اتنقّل بينهما).
(٥) كلّ شأن (كلّ فرع من فروع المعرفة).
(٦) ﴿يختصّ برحمته.....﴾ (القرآن الكريم ٣: ٧٤، آل عمران، راجع ٢: ١٠٥، البقرة).
(٧) الحاضرة: العاصمة. في وقتنا هذا (زمن المؤلّف: عبد الواحد المراكشي): القرن السابع للهجرة (الرابع عشر للميلاد).
(٨) إشبيلية سميّت حمص لشبهها بمدينة حمص بالشام (سوريا). أمّا الأجناد (المحاربون الذين نزلوا فيها فهم الذين جاءوا في عصر الولاة مع بَلْج بن بِشْر (راجع ذلك في الجزء الرابع - اطلب بلج بن بشر في الفهرس).
(٩) الخضمّ: البحر الواسع.
(١٠) البحر الأعظم: المحيط الأطلسي (الاطلانطيكي).
(١١) المرحلة: المسافة التي يقطعها المسافر في يوم (نحو ٣٠ كيلومتراً؟). والكاتب يجعل المرحلة خمسة وثلاثين ميلاً (رومانيّا) أو اثنين وخمسين كيلومتراً.

قاعدةَ[1] مُلْكِ بني عَبّادٍ، حَسْبَ ما تَقدّمَ، ثمّ صَيّرها المصامدةُ[2] مَنْزِلاً لهم أيامَ كَوْنِهم بالأندلُس، منها ينفُذُ أمرُهم وفيها يَسْتَقِرُّ مُلْكُهم. وبَنَوْا بها قُصوراً عظيمة وأجْرَوْا فيها المِياهَ وغَرَسوا البساتينَ فزادَ ذلك في حُسْنِ هذه المدينة.

٤ - المعجب... (دوزي)، ليدن ١٨٤٧ م ثمّ ١٨٨١ م؛ (محمّد هاشم الكتبي)، دمشق ١٣٢٤ هـ؛ مصر (مطبعة السعادة) ١٣٢٤ هـ؛ مصر (المطبعة الجمالية) ١٣٣٢ هـ؛ (محمّد الفاسي)، فاس ١٩٣٨؛ (صححه.... محمّد سعيد العريان ومحمّد العربي العلمي)، القاهرة (مطبعة الاستقامة) ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م.

★★ صلة الصلة ٧٠ - ٧١؛ التكملة (رقم ١٨٢٩)؛ الديباج المذهب ١٩٠؛ مقدّمة المعجب (في طبعة دوزي وفي طبعة العريان)؛ دائرة المعارف الإسلامية ١: ٩٤؛ بروكلمن ١: ٣٩٢ - ٣٩٣، الملحق ١: ٥٥٥؛ المكتبة العربية الصقلية ٣١٨ - ٨٢١؛ النبوغ المغربي ١٥٤ - ١٥٥؛ الأعلام للزركلي ٤: ٣٢٦ (١٧٦)؛ سركيس ١٧٢٤ - ١٧٢٥؛ بالنثيا ١١٨ - ١١٩، ٢٤٨ - ٢٥٠؛ الأدب المغربي ٣٩٠ - ٣٩٤.

أبو بكر بن البنّاء الإشبيلي

١ - هو أبو بكرٍ محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ الرحمنِ العبيديُّ الإشبيليُّ المعروفُ بابنِ البنّاء، فقد كان أبوه بنّاءً في إشبيليَةَ، ويبدو أنّه قد تأثّرَ بصَنْعةِ أبيه فنشأ على كثيرٍ من الجِدّ والهِمّة والمُثابرة. كان مولدُه في إشبيليةَ سَنَةَ ٥٨١ للهِجرة (١١٨٥ - ١١٨٦ م).

تلقّى أبو بكرٍ بنِ البنّاء العِلمَ على نفرٍ منهم أبو الحسنِ بنُ عَطِيَّة (ت هـ) وأبو بكرِ بنِ طَلْحةَ (ت ٦١٨ هـ) وأبو الحسنِ بنُ جابرِ بنِ الدبّاج (ت ٦٤٥ هـ) وأبو عليٍّ ٱبنُ الشَّلوبينِ (ت ٦٤٥ هـ).

وعَمِلَ أبو بكرِ بنِ البنّاء الإشبيليّ كاتباً لِنفَرٍ من الوُلاةِ على الأندلس ثمّ خَصّ نفسَه بوُلاةِ المُوحّدين على إشبيلية. وفي آخرِ مُدّةِ المُسلمين في إشبيليةَ ٱستبدّ بحُكْمِها

(١) قاعدة (عاصمة): مدينة مهمّة.

(٢) مصمودة قبيلة بربريّة ينتمي إليها سلاطين دولة الموحّدين.

حيناً. ثمّ لمّا آستولى عليها الإسبان (رَمَضَانَ ٦٤٦) آنتقل منها إلى سَبْتَةَ (في العُدوة المَغْربيـــة)، وفيهـــا تُوُفِّيَ وشيكـــاً في السادسِ من شوّالٍ من سَنَـــةِ ٦٤٦ (١٢٤٩/١/٢٢ م).

٢ - كان ابنُ البنّاء الاشبيليُّ أديباً كاتباً ومُتَرَسِّلاً مُكْثِراً وشاعراً. وقد ذَكَرَ المؤرّخون لحياته أن تَرَسُّلَه كان عاديًّا وأن شِعرَه كان قليلَ الرونق. ولكنّه يبدو واسعَ الثقافة، فقد كان مُولَعاً بآقتناءِ نفائسِ الكتب كما كان مُولَعاً أيضاً بنسخ الكُتُبِ النفيسةِ وبتَقْيِيد الأقوالِ والنُّكَتِ البارعة، حتّى قيل إنّه لمّا غادرَ إشبيلية حَمَلَ مَعَهُ خَمْسَمِائَةِ كتابٍ بخَطِّ يدِه.

وكان ابنُ البنّاء الإشبيليُّ على شيءٍ من التناقض في طبعه: كان يظهرُ مُتَدَيِّناً بينما كان جريئاً على سَفْكِ دِماء خُصومه. وكان يبدو متواضعاً وهو يرى نفسَه فوق الناسِ جميعاً. وكان رفيقاً في معاملة الوُلاة: كان يَخْدِمُهم مدّةً ثمّ إذا أرادَ الانفصالَ عنهم فَعَلَ ذلك بيُسْرٍ من غيرِ أنْ يَجِدَ أولئك الوُلاةُ طريقاً إلى لَوْمِهِ.

٣ - مختارات من شعره

- كان السيّدُ أبو عبدِ الله بنُ أبي حَفْصٍ بنِ عبدِ المؤمن المُوحِّدِيُّ والياً على بَلَنْسِيَةَ (في شَرقيّ الأندلس) ثمّ أصبح والياً على إشبيلِيَة (في غربيّ الأندلس). فماتَ في إشبيليةَ، فقال أبو بكرِ بنِ البنّاءِ يَرْثِيه (المغرب ١: ١٤٩؛ راجع اختصار القدح المعلّى ١١٩):

كأنّكَ من جِنْسِ الكواكبِ كُنتَ، لم تُفـارِقْ طُلوعـاً حالَها وتَوارِيا[1].
تَحَلّيـــتَ من شرقٍ يَروقُ تلألُؤاً، فلمّا آنْتَحَيْتَ الغربَ أصبحتَ هاويا[2]

---

(١) كأنّك من جنس الكواكب (مثل الكواكب: مضيء، منير) لم تفارق حالها (الإضاءة، النور). التواري: الاختفاء، الغروب. أنت مثل الكوكب مضيء دائماً (سواء أكنت ظاهراً في السماء أم غائباً عن السماء) ولكن الناس لا يرونك.

(٢) تحلّى الرجل: اتّخذ أو لبس حِلية أو زينة. يروق (يحسن في النظر). انتحى: اتّجه إلى ناحية. الهاوي: الساقط وراء الأفق الغربي (ليغيب كالشمس).

- كان «الباجي» رجلاً ثائراً اَستبدّ بإشبيلية حيناً واَنتزعها من ابنِ هودٍ (في أوائلِ عَشْرِ الثلاثين من القرنِ الهجريّ الرابع). وقد مَدَحه أبو بكرِ بنُ البناء ومدَحَ مَعَهُ نفراً من أهلِهِ وأنصارِه فقال فيهم جميعاً - والأبيات التالية من الشِّعْر الجيّد (اختصار القدح المعلّى ١١٩):

أنْتُمْ وُلاةُ الأمرِ رُغْماً على ... آنافِ أعداءٍ وحُسّادِ[١].

في ضِئْضِىءِ المجدِ اَشتركْتُمْ وفي ... بُحْبوحةِ الرأيِ لدى النادي[٢].

ثلاثةٌ مثلُ الأثافي على الرأ ... يِ الذي يعدو على العادي[٣].

هُزّوا بما أُعْطِيتُمُو قُبّةَ الـ ... ـقصر وهُزّوا قُبّةَ الوادي[٤].

- في الذيل والتكملة (٥: ٦٨١) أن بعضَ خواصٍّ ابنِ البنّاء جَمَعَ له جانباً من رسائله في أربعةِ مُجلَّداتٍ ضخمةٍ. قيل: فلمّا اَطلّعَ اَبنُ البنّاءِ عليها كَتَبَ بخطِّهِ على أوّلِها بيْتَيْنِ من الشعر من نظمهِ هما:

إنّي تأمَّلْتُ فلم أَسْتَجِدْ ... أكثَرَ ما فيه ولم أرْضَهُ[٥].

ورُمْتَ بالإحسانِ فَوْزاً فلا ... سَماءَه نِلْتُ ولا أرْضَهُ[٦].

وهذانِ أيضاً بيْتانِ جيّدانِ من لُزوم ما لا يلزَمُ (بأربعةِ أحرفٍ).

٤ - ** الذيل والتكملة ٥: ٦٨١ - ٦٨٢ (رقم ١٢٨٣)؛ اختصار القدح المعلّى ١١٨ - ١١٩؛ المغرب ١: ٢٤٩.

---

(١) آناف = أنوف (جمع أنف).

(٢) الضئضىء: الأصل. البحبوحه: وسط الدار (المكان الواسع). النادي: مجلس كبار القوم ذوي المكانة والنفوذ.

(٣) الأثفية (بالضم) إحدى حجارة ثلاث ينصب عليها القدر فوق النار. إنَّ الشكل ذا الزوايا الثلاث يكون أثبت من كلّ شكل آخر ذي أربع زوايا أو خمس أو ستّ، الخ. العادي: المعتدي، الهاجم، العدوّ. أنتم على رأي واحد لا يتزعزع.

(٤) بما أعطيتمو (من القوّة ومن حسن الرأي) قبّة القصر.... قبة الوادي....- أنتم بقوّتكم تخيفون قصر الموحدين في مراكش وقصر الوادي (النهر الكبير الذي عليه مدينة اشبيلية مقرّ الوالي على الأندلس من طرف الموحدين).

(٥) استجاد الشيء: وجده جيّداً. أرضه (من الرضا).

(٦) رام يروم: قصد. فلا سماءه نلت ولا أرضه (لم أنل منه شيئاً لا كبيراً ولا صغيراً).

أبو الحسن الدبّاج الإشبيلي

١ - هو أبو الحسنِ عليُّ بنُ جابرِ بنِ عليٍّ بنِ عليٍّ بنِ يحيى اللَّخْمِيُّ الاشبيليُّ المعروفُ بابن الدبّاجِ أو ابنِ الدبّيج (بغية الوعاة ٣٣١)، وُلِدَ سَنَةَ ٥٦٦ هـ (١١٧٠ - ١١٧١ م).

أخَذَ ابنُ الدبّاجِ عن أبي بكرِ بنِ طَلْحةَ وأبي الحسنِ بن خَروفٍ وأبي ذَرٍّ الخُشني وغيرهم. ثمّ تصدّرَ لإقراء القُرآنِ بالقراءاتِ السَّبْع ولتدريسِ النحو (من كتاب سيبَوَيْهِ) والأدبِ (في الكامل للمبرِّدِ ونوادرِ القالي وغيرِهما) نحوَ خمسينَ سَنَةً. وكانتْ وفاتُه في ٢١ مِنْ شَعبانَ من سَنَةِ ٦٤٦ (٩/١٢/١٢٤٨ م).

٢ - كان أبو الحسنِ الدبّاجُ رجُلاً عالماً صالحاً زاهداً من أعلامِ القُرّاء والنحْويّين والأُدباء في زمانهِ، وكان شديدَ الذكاء ظريفَ الدُّعابة. وله مقطّعاتٌ من الشِعر الرصينِ الصحيح وموشّحاتٌ (القدح المعلّى ١٥٦).

٣ - مختارات من شعره:

- قال أبو الحسنِ الدّبّاجُ الإشبيليُّ في الغزل:

لّما تَبدّتْ وشَمْسُ الأُفقِ باديةٌ ... أبْصرتُ شمسَيْنِ من قُرْبٍ ومن بُعُدِ.

من عادةِ الشمسِ تُعشي عينَ ناظرِها، ... وهذه نورُها يَشْفي من الرمَدِ[١].

- وقال يَصِفُ مُجبَّناتٍ (قطائفَ مَحْشُوَّةً بالجُبن ومَقْلُوّة بالسمن، تُغْمَس في القَطْرِ)[٢]:

أحْلى مواقِعِها إذا قَرَّبْتَها ... وبُخارُها فوقَ الموائدِ سامي.

إن أحرقَتْ لَمْساً فإنّ أُوارَها ... في داخلِ الأحشاءِ بَرْدُ سلامِ[٣]!

- وقال في ظاهر الأمور وباطنها:

---

(١) تُعشي: تُضعف البصر (وخصوصاً في الليل).

(٢) القطر: سكّر محلول بقليل من الماء يغلى على النار حتّى يكتسب كثافة معيّنة. ويضاف إليه قليل من الحمض (المادّة الحامضة كيلا يتبلور).

(٣) الأوار: حرّ الشمس والنار.

مـــا جــاء عَفْواً فخُــذْهُ ومــا أبــى فتَجَنّبْ.
ولا تَرُدْ كــلَّ مرعــىً ولا تَرِدْ كــلَّ مشرب[1].
فرُبّما لــذَّ طعْمٌ وفيــه سمّ مُقَشَّب[2].

– وقال في القناعة بالعيش:

رَضِيتُ كَفافي رُتبةً ومَعيشةً فلَسْتُ أُسامي مُوسِراً وَوَجِيها(*).
ومَنْ جرّ أثوابَ الزمانِ طويلةً فلا بُدّ يوماً أن سَيَعْثِرُ فيها!

– وقال في مرّ الأيام بسُرعة:

مــا لي أرى أيّامَنــا تَمرُّ مُرًّا مُسْرِعــا؟
إذ حَسَبْــتُ أشْهُراً حَسِبْتُهُنّ جُمَعــا[3].
ولم نَكُنْ نُعنــى بــأن تُبْطِــئَ أو أن تُسرعــا[4]،
لو لم تكُنْ أعمارُنــا وهُنّ يَذْهَبْنَ معــا!

٤ – ** برنامج الرعيني ٨٨ – ٨٩؛ التكملة ٦٨٣ (رقم ١٩١٠)؛ الذيل والتكملة ٥: ١٩٨ – ٢٠١؛ صلة الصلة ١٣٧؛ المغرب ١: ٢٥٥ – ٢٥٦؛ القدح المعلّى ١٥٥ – ١٥٦؛ بغية الوعاة ٣٣١؛ شذرات الذهب ٥: ٢٣٥ – ٢٣٦؛ نفح الطيب ٢: ٩٥، ٣: ٤٦١، ٤٧٨ – ٤٧٩.

يحيى بن عبد الواحد الحفصي

١ – هو أبو زَكَرِيّا يحيى بنُ عبدِ الواحدِ بنِ أبي حفصٍ، وُلِدَ سَنَةَ

(١) راد يرود: طلب، بحث عن. ورد يرد: ذهب إلى الماء ليشرب.
(٢) وفيه سمّ مقشّب (ممزوج به)– صواب التركيب: طعام مقشّب (ممزوج بسمّ أو بما يفسده).
(*) الكفاف: ما كان مقدار الحاجة بلا زيادة ولا نقصان. رتبة: في المكانة الاجتماعية (من الناحية المعنويّة). معيشة: فيما يتعلّق بالطعام والشراب واللباس (من الناحية المادّيّة). سامى فلان فلانا: نافسه للبلوغ حتّى يبلغ إلى مثل مكانته (العلمية أو الاجتماعية....). الموسر: الغنيّ.
(٣) حسب يحسب (بفتح السين في الماضي وضمّها في المضارع): عدّ. وحسب يحسب (بكسر السين في الماضي وفتحها في المضارع): ظنّ. جمعة: أسبوع.
(٤) نُعنى: نهتمّ، نشغل (بفتح الغين) بالنا.

٥٥٩ هـ(١١٦٣ - ١١٦٤ م). كان الحكّامُ الذين سبقوه في حاضرةِ تونسَ وُلاةً للموحّدين. فلمّا آلَتْ الوِلايةُ إلى أبي زكريّا هذا (٦٢٦ هـ) كانُ الموحّدون قد ضَعُفوا جِدًّا فأعلنَ استقلالَه عنهم. ثمّ اصْطَدَمَ بيحيى بنِ غانيةَ الميورقيّ (وكان بنو غانيةَ لا يزالون أنصاراً للمُرابطين الذين خَلَفَهُمُ الموحّدون في المَغْرِب) فقاتله يحيى وتغلّبَ عليه وقَتَلَه (٦٣١ هـ). ثمّ تغلّبَ أيضاً على قبيلةِ هوّارةَ التي ثارت عليه.

وعَمِلَ أبو زكريا على توسيع رُقْعةِ مُلكِهِ فانتزع من الموحّدين عدداً من المدن (تِلِمْسانَ وسِجِلْماسةَ في الجزائرِ اليومَ إلى جانبِ سَبتةَ وطَنجة ومِكناسةَ في المَغْرب اليوم).

وكانتْ وَفاةُ يحيى بنِ عبدِ الواحدِ الحفصي في بونةَ (أرضِ الجزائرِ اليومَ)، في جُمادى الآخرةِ من سَنَةِ ٦٤٧ (مطلع الخريف من عام ١٢٤٩ م).

٢ - يُعَدُّ يحيى بنُ عبدِ الواحدِ المؤسّسَ للدولة الحَفصية في تُونسَ. وقد كان عظيمَ الهيبة سديدَ الرأي، كما كان تقيًّا عادلاً متواضعاً ومُحبًّا للرعية. وكان مَلِكاً عُمرانيًّا أنشأ جامعَ القَصَبة (القلعة القديمة) وصَوَمعته (مئذنته) البديعة العجيبة (ولمّا اكتمل بناؤها في غُرّةِ رَمَضانَ من سَنَةِ ٦٣٠ بدأ الأذان فيها هو نفسُه). وبنى سوقَ العطّارين (ولا تزال سوق العطّارين إلى اليومِ تحمل الطابعَ التونسيّ القديم) وعدداً من المدارس وأنشأ مكتبةً كبيرة. وكذلك كان أديباً ناثراً وناظماً.

٣ - مختارات من آثاره

- من وصيّةِ يحيى بنِ عبدِ الواحد الحفصيّ لآبنهِ ووليِّ عهدِه أبي عبدِ الله محمّدٍ المُنتصر:

اعلَمْ - سَدّدَك اللهُ وأرشَدَكَ، وهَداكَ لِما يُرضيك وأسْعَدَكَ، وجعلكَ محمودَ السيرةِ مأمونَ السريرة[١] - أنّ أوّلَ ما يَجِبُ على مَنِ آسْترعاهُ اللهُ في خَلْقهِ وجعله مسؤولاً عن رعيّته، في جُلِّ أمرِهم ودِقّه[٢]، أن يُقدِّمَ رِضا الله في كلِّ أمرٍ يُحاولُه، ويكونَ عملُه

(١) سدّدك الله (جعل سيرك مستقيماً). السريرة: الطويّة، الباطن (مايكتمه الإنسان في نفسه).

(٢) الجلّ الكبير، العظيم (العامّ المجمل). الدقّ: الدقيق، الصغير (المفصّل).

وسعيُه وذَبُّهُ[١] عن المسلمين بعدَ التوكّلِ عليه. ومتى فاجأك أمرٌ مُقْلِقٌ أو وردَ عليك هَمٌّ مُرْهِقٌ فريّضْ لُبَّكَ وسكّنْ جأشَكَ[٢].... ولا تُقدِمْ إقدامَ الجاهل، ولا تُحْجِمِ إحجامَ الأخرَقِ[٣] المُتكاسلِ. واعلَمْ أنّ الأمرَ إذا ضاقَ مَجالُه وقَصّرَ عن مُقاومتهِ رِجالُه، فمِفتاحُه الصبرُ والحَزامةُ[٤] وأخذُ الرأيِ من عُقلاءِ الدولة ورؤسائها وذوي التجارِب من نُبهائها[٥]، ثمّ الإقدامُ عليه بعدَ التوكّل على اللهِ فيما لَدَيْهِ..... وعليكَ بتَفَقُّدِ أحوالِ الرعيّةِ: فلا تَنَمْ عن مَصالحهم ولا تُسامحْ أحداً فيهم.... واتّخذْ ثِقاتٍ صادقينَ مُصدَّقينَ لهم في جانبِ اللهِ أوفَرُ نصيبٍ ،وفي رفعِ مسائلِ خَلْقهِ إليكَ أسرعُ مُجيب.

– وقال يَصِفُ روضةً أنشأها قُرْبَ تونسَ العاصمةِ:

وسالَ نَميرُ الماءِ بينَ آخضرارِها ... فجاء كَمثلِ الفَرْقِ بينَ الذوائبِ[٦]،

وإلّا كما شَقّ الكَنَهْوَرَ بارِقٌ، ... وإلّا كمثلِ الصُّبحِ بين الغياهبِ[٧].

قدِ آطّرَدَتْ فيه المذانبُ دائماً، ... ولم تَرَ حُسناً كاطّرادِ المذانبِ[٨].

وللياسَمينِ الغَضِّ في خُضْرِ بُسْطِها ... نثائرُ دُرٍّ أو سبائكُ ساكبِ[٩].

مُعطّرةُ الأردانِ يُنْعِمُ نَفْحُها ... يُحيّيكَ عَرْفُ الطِيبِ من كُلِّ جانبِ[١٠].

---

(١) ذبّ عن شيء: دافع عنه.

(٢) اللبّ: العقل. الجأش: النفس، القلب.

(٣) أحجم: تأخّر (خاف مباشرة العمل). الأخرق: الأحمق والمتحيّر الذي لا يدري ما يجب أن يفعل.

(٤) الحزامة: الفصل في الأمور.

(٥) النبهاء: الأشراف ثمّ ذوو الفطنة (جودة الفهم).

(٦) النمير: الطيّب النافع في الريّ (سقي المزروعات). الفرق (فصل شعر الرأس جانبين). الذُّؤابة (بالضمّ): ضفيرة الشعر. – سال نمير الماء (يقصد: النهر) بين اخضرارها (نبات الأرض الأخضر) كأنّه فرق: خطّ أبيض (لأنّ الفرق في الشعر يكشف عن جلد الرأس) بين الذوائب (الضفائر السود – والعرب تقول للأسود أخضر).

(٧) الكنهور: قطع السحاب العظيمة (والملموح هنا أنّها السوداء – فإنّ الغيوم إذا كثف فيها بخار الماء بدت سوداء). الغيهب: الظلمة (بالضمّ)، الليل الشديد السواد.

(٨) اطّردت الأشياء (كانت متتابعة). المذنب (بالكسر): مسيل الماء (الماء المجرور من نهر أو من حوض).

(٩) الغضّ: الطريّ الناضر (الذي فيه لين ولمعان وجمال). الدرّ: اللؤلؤ. السبيكة: قطعة المعدن (بكسر الدال) التي أُذيبت (فأصبحت صافية خالية من الموادّ الغريبة) ثمّ أعيد سبْكها.

(١٠) الردن (بالضمّ): طرف الثوب. نفحها: ما ترسله من رائحة طيّبة. أنعمت الريح: هبت هيّنة.

٤ ** أزهار الرياض ٣: ٢٠٨؛ فوات الوفيات ٢: ٤٠٠ - ٤٠١؛ المجمل في تاريخ الأدب التونسي ١٨٦ - ١٩٠؛ خلاصة تاريخ تونس ١٠٧ - ١٠٨؛ الأعلام للزركلي ٩: ١٩٣ - ١٩٤ (٨: ١٥٥).

ابن سهل الإشبيليّ

١ - هو أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ سَهْلٍ، وُلِدَ في إشبيليةَ، نحو سَنَةَ ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م)، على اليهوديّة فكان يُعْرَفُ بابنِ سهلٍ اليهوديّ أو الإسرائيليّ. ثمّ لمّا اهْتدى إلى الإسلام، بعدَ أن بلغَ مَبْلَغَ الشبابِ، أصبحَ يُدْعى ابنَ سَهْلٍ الإشبيليَّ والإسلاميَّ. غيرَ أنّ نَفَراً مِنْ مؤرّخي الأدب كانوا يشُكّون في صِحّة إسلامه (راجع نفح الطيب ٣: ٥٢٣ - ٥٢٤).

يبدو أن ٱبنَ سهْلٍ بدأ تَلَقّيَ العلمِ وقراءةَ القُرآنِ قبلَ أن يدخُلَ في الإسلام. وقد درَس على أبي عليّ الشَّلَوْبينيّ (ت ٦٤٥ هـ) وعلى أبي الحسن الدبّاج (ت ٦٤٦ هـ).

وتطوّفَ ٱبنُ سهْلٍ بشعرِه بين بَلاطاتِ الأمراء، فلقد كان في قُرطُبةَ (وله وصفٌ في نهرها: الوادي الكبير)، كما مدحَ صاحبَ مُرسِيَةَ محمّدَ بنَ يوسفَ بنِ هودٍ (٦٢١ - ٦٣٥ هـ). ثمّ ٱنتَقَلَ إلى إشبيلية، مَسْقَطِ رأسه، وسَكَنَها إلى أنِ ٱستولى الإسبانُ عليها، سَنَةَ ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م). فٱنتقلَ إلى العُدوةِ الإفريقية (المغرب). وسكن سَبْتَةَ وأصبحَ كاتباً لِواليها أبي عليٍّ بنِ خلاصٍ. وكانا مرّةً في البحر معاً، في عُرْضِ سَبْتَةَ، فغرِقا، سَنَةَ ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) في الأغلب.

٢ - ٱبْنُ سهْلٍ الإشبيليُّ شاعرٌ مُقِلٌّ مُحسن له قصيدٌ وموشّحاتٌ منوّعةٌ أكثرُها في الغزَل، وأكثرُ غزله في غُلامٍ يهوديّ ٱسمُه موسى. وغزلُه رقيقٌ جدًّا، قيل لأنّه «ٱجتمعَ فيه ذُلّانِ: ذلُّ العِشق وذلّ اليهودية». وكذلك له وصفٌ بارعٌ. وأما موشّحاتُه فَهِيَ منوّعةٌ. وجميعُ شِعره سَلِسٌ عَذْبٌ. وله بديعيّةٌ (في مدحِ الرسول)، قيل نَظَمها قبلَ أن يُسْلِمَ.

٣ - مختارات من شعره

- قال ابنُ سهلٍ الإشبيليُّ في النسيب، وهو من شِعْره الرقيق المشهور:

سَلْ في الظلامِ أخاكَ البَدْرَ عن سَهَري ؛ تَدْري النجومُ، كما يَدْري الوَرى، خَبَري.
أبيتُ أهْتِفُ بالشكْوَى وأشربُ مِنْ دمعي وأَنْشَقُ رَيّا ذِكْرِكَ العَطِرِ[١]؛
حَتّـى أُخَيَّـلَ أني شاربٌ ثَمِـلٌ بينَ الرِياض وبينَ الكأسِ والوَتَرِ[٢].

- وقال يصف نَهْراً يخترق مرجاً:

الأرضُ قد لَبِسَتْ رِداءً أخْضرا، والطَّلُّ يَنْثُرُ في رُباها جَوْهرا[٣].
هاجتْ فَخِلْتُ الزَّهْرَ كافوراً بِها ؛ وحَسِبْتُ فيها التُّرْبَ مِسْكاً أذْفرا[٤].
وكـأنّ سَوْسَنَهـا يُصافِـحُ وَرْدَهـا ثَغراً يُقَبِّـلُ منه خَدًّا أحْمرا[٥].
والنهرُ مـا بينَ الرِّياض تَخالُـه سَيْفـاً تَعَلّقَ في نِجادٍ أخْضرا[٦].

- ومن بَديعِيّة لَهُ يمدحُ فيها الرَّسولَ، وَهِيَ طَويلةٌ:

وركْـبٍ دَعَتْهُمْ نَحْوَ طَيْبَـةَ نِيّـةٌ فما وَجَـدَتْ إلّا مُطيعاً وسامِعا[٧].
تُضيءُ من التَّقْوى خَبايـا صُدورِهِم وقد لَبِسوا اللَّيْلَ البهيمَ مَدارِعا[٨].
تكـادُ مُناجـاةُ النَّبِيِّ مُحَمّـدٍ تَنُمُّ بهم مِسْكاً على الشمّ ذائِعا[٩].

---

(١) هتف فلان: صاح وهو يمدّ صوته. نشق (بفتح فكسر): شمّ. الريّا: الريح الطيّبة.
(٢) أخيّل: أبدو (للناظرين إليّ). الثمل: الذي أثّرت فيه الخمر.
(٣) الطلّ: نقاط الماء المتجمّعة من برد الليل على الأغصان. الجوهر: اللؤلؤ.
(٤) الكافور: طيب أبيض اللون. المسك: طيب أسود اللون. الأذفر: الشديد الرائحة (طيّبةً تلك الرائحة كانت أو كريهة - والمقصود هنا: الرائحة الطيّبة).
(٥) السوسن: الزنبق الأبيض. يشبّه الفم (الأسنان) بالزنبق الأبيض، والخد (لاحمراره: دليل صحّته وجماله) بالورد.
(٦) النجاد: حمالة (بالكسر): سيران من جلد أو نسيج يعلّق بها السيف إلى العنق.
(٧) الركب: الجماعة على الإبل (بكسر فكسر) يسافرون معاً. طيبة (بالفتح): المدينة المنورة.
(٨) البهيم: الذي لا علامة ظاهرة فيه (شديد السواد). المدرع (بكسر فسكون ففتح): الدرّاعة (بالضمّ وتشديد الراء): ثوب من صوف. - لبسوا الليل مدارع: استعانوا على برد الليل بثياب من صوف ثمّ تابعوا سيرهم.
(٩) المناجاة: المخاطبة سرًّا من قرب (أو في الضمير). نمّ: انتشر. ذائع: منتشر.

تَلاقى عـلى وِرْدِ اليَقـينِ قُلوبُهُمْ   خَوافِقَ يُذْكِرْنَ القَطا والمَشارعا (١):
قلوبٌ عَرَفْنَ الحَـقَّ فَهيَ قدِ انْطَوَتْ   عليها جُنوبٌ ما عَرَفْنَ المَضاجعا (٢).

- ولابنِ سَهْلٍ هذه الموشّحةُ المَشْهورة التي كَثُرَ تقليدُها في المَغْرب والمَشْرِق:

هَـلْ دَرَى ظَبْيُ الحِمى أنْ قد حَمى   قلـبَ صبٍّ حَلَّهُ من مَكْنَس (٣).
فَهْوَ في حرٍّ وخَفْـــــقٍ مِثْلَما   لَعِبَـتْ ريحُ الصَّبا بالقَبَس (٤).

* * *

يـا بُـدوراً أشْرَقَتْ يومَ النَّوى   غُرَراً تسْلُـكُ بي نَهْجَ الغَرَرْ (٥).
ما لِنَفْسي في الهوى ذنبٌ سِوى   منكُمُ الحُسْنى ومن عيني النظر (٦).
أجْتَــني اللّـذّاتِ مَكْلومَ الجوا؛   والتَّـداني من حبيـبي بالفِكَرْ (٧).
كُلَّما أشْكوه وَجْــــدي بَسَما   كالرُّبـى بالعـارِضِ المُنْبَجِس (٨).

---

(١) الورد (بالكسر): مكان الماء (ذهاب الناس إلى الماء للشرب). تلاقى - تتلاقى. القطا جمع قطاة (طائر سريع الطيران). المشرعة: الشريعة (مكان شرب الماء). - يجتمع المسلمون الذاهبون إلى طيبة (المدينة المنوّرة، لزيارة قبر الرسول) بيقين (بإيمان ثابت) خوافق (قلوبهم تخفق من فرحة اللقاء أو الوصول إلى المدينة). يذكرن (يذكّرن - بالضمّ والكاف المشدّدة المكسورة) الناس (بالنصب) بالقطا والمشارع (بطيور القطا وهي مسرعة في طيرانها إلى أماكن الماء).

(٢) قلوبهم موجودة بين جُنوب (جمع جنب) ما عرفن المضاجع: الاستلقاء في الفراش (النوم).

(٣) الحمى: ما يجب على الإنسان حمايته. ظبي الحمى (أجمل أهل الحيّ والذي يحميه أهله من أن تمتدّ إليه عين المحبّ). حمى: منع. الصبّ: المحبّ المشتاق إلى المحبوب. قلب صبّ حلّه (المحبوب الذي حلّ: نزل، ملأ) قلب المحبّ. المكنس (بفتح فسكون ففتح): الكناس (بالكسر): المكان تأوي إليه الظباء (هنا: النساء الجميلات) وغيرها من الوحوش.

(٤) الصبا: ريح الشرق. القبس: النار القليلة المحمولة (ولها لهيب) في عود دقيق.

(٥) النوى: البعاد (بالضمّ)، الفراق. الغرّة (بالضمّ): مقدّم الجبين (كناية عن البياض والجمال). - كلّ محبوب من هؤلاء المحبوبين غرّة (كلّ شيء فيه جميل). نهج: طريق. الغرر (بفتح ففتح): الضلال.

(٦) منكم الحسنى (مؤنّث أحسن): فيكم أحسن (أجمل) ما في جميع الناس.

(٧) أجتني: أجنى: أقطف، أنال (القليل من اللذّات). مكلوم: مجروح. الجوا (يقصد: الجواء جمع جوّ: داخل الشيء): القلب. التداني: القرب. - لذّتي الوحيدة أنّني أفكّر في حبيبي (لأنّني لا أستطيع لقاءه).

(٨) الوجد: الحزن (من الابتعاد عن المحبوب). بسم: ابتسم (انفرجت شفتاه فظهرت أسنانه الجميلة - من غير أن يحدث صوتاً). الربوة: الرابية (الأرض المرتفعة قليلاً تسقى بماء وافر وتتعرّض للريح وللشمس =

إذْ يُقـيمُ القَطرُ فيهـا مأتماً، وهْيَ مِنْ بَهْجَتِها في عُرُسِ [١].

* * *

غالِـبٌ لي غالـبٌ بالتُّؤَدهْ؛ بـأبي أفْديـهِ من جافٍ رَقيقْ [٢].

مـا عَلِمْنـا مثْـلَ ثغرٍ نَضَّـدهْ أُقْحُوانـاً عُصِرَتْ منـه رَحيق [٣].

أخـذتْ عَيْنـاهَ منـه العَرْبـدهْ؛ وفُؤادي سِكْرُه ما إنْ يُفيقْ [٤]

فاحِمُ اللِّمَّـةِ معسولُ اللَّمـى ساحِرُ الغُنْـجِ شَهيّ اللَّعَس [٥].

وَجْهُهُ يتلو «الضُّحى» مُبْتسما، وَهْو مِنْ إعراضِـه في «عَبَس» [٦]

* * *

أيُّهـا السائـلُ عن جُرمي لَدَيْـهْ، لي جزاءُ الذنـبِ وَهْوَ المذنـبُ.

أخـذتْ شمسُ الضُّحى من وَجْنَتَيْهْ مَشْرِقـاً للشمسِ فيـه مَغرِبُ [٧].

= فيكثر نباتها وزهرها). العارض: الغيم المقبل (المملوء بالمطر). المنبجس: المنفجر (المتدفّق) بالماء. - شكواي إليه تجعله يبتسم وتظهر أسنانه فيزداد جمالاً، كما أن المطر يُنبت في الربوة أنواع النبات والأزهار فتزداد بذلك جمالاً.

(١) نزول القطر (المطر) كأنّه دموع المأتم (اجتماع النساء عند الميت - بفتح فسكون). وهي (أي الربى) من بهجتها (من جمالها وفرحها - بما فيها من أنواع الزهر.....).

(٢) التوءدة: التأنّي (أنا شديد الحبّ له ولسرعة لقائه، وهو يضرب لي المواعيد البعيدة أو يتغاضى عن رغبتي). الجافي: الغليظ القاسي.

(٣) نضَّد: رتّب، نسّق. الأقحوان زهر له بتلات بيض (تشبّه بها الأسنان السليمة الجميلة) وقلبه أصفر. الرحيق (السائل الحلو في الزهر تشربه النحل ثمّ تمجّه من فيها فيكون منه العسل). والشاعر يقصد بالرحيق «الخمر».

(٤) عينا المحبوب سكرت من رحيق فمه (راجع الحاشية السابقة). العربدة: السكر الذي يؤذي به السكران من حوله. وفؤادي سكره ما إنْ (إنْ هنا زائدة) يُفيق (وفؤادي لا يفيق من سكره - من نظري إلى جمال فمه ومعرفتي بما في فمه - من غير أن أكون قد ذقته).

(٥) فاحم: أسود. اللمّة (بالكسر): الشعر المجاور للأذن (سواد الشعر كناية عن الشباب). اللمى: سمرة في الشفة (كنية عن الشفاه، وعن الريق). الغنج الدلال، جمال العينين. اللعس: سواد قليل في باطن الشفة (كناية أيضاً عن الريق).

(٦) مطلع السورة الثالثة والتسعين في المصحف: ﴿والضحى (أوّل ارتفاع النهار وامتداد الضياء) والليل إذا سجى (هبط بهدوء وسكن)، ما ودّعك ربُّك (تركك، يا محمّد) وما قلى﴾ (أبغض، أبغضك). ومطلع السورة الثانين: ﴿عبس وتولّى أن جاءه الأعمى﴾.

(٧) مشرق للشمس (كناية عن بياض وجهه) فيه (في وجهه) مغرب للشمس (كناية عن حمرة خدوده، كالحمرة التي تتركها الشمس على الأفق الغربي إذا هي غربت).

ذهبَ الدمعُ بأشواقي إلَيْهِ؛ ولَهُ خَدٌّ بلَحْظي مُذْهَبُ[١]:
يَنْبُتُ الوردُ بلَحظي كُلَّما لاحظْتُه مُقْلَتي في الخُلَسِ[٢].
ليتَ شِعْري، أيُّ شيءٍ حَرَّما ذلك الوردَ على المُغترس[٣]؟

★ ★ ★

كُلّما أشْكو إليه حُرَقي غادَرَتْني مقلتاهُ دَنِفا[٤].
تَرَكَتْ ألحاظُه من رَمَقي أثَرَ النَّمْلِ على صُمِّ الصَّفا[٥].
وأنا أشْكُرُهُ في ما بَقي، لستُ ألحاه على ما أتْلفا[٦].
فَهْوَ عِنْدي عادلٌ إن ظَلَما؛ وعَذُولي نُطْقُه كالخرس[٧].
ليسَ لي في الأمرِ حُكْمٌ بعدَما حَلّ من نَفْسي محلَّ النَّفَس.

★ ★ ★

أضْرِمَ النارَ بأحشائي ضِرامْ تتلظّى كُلَّ حينٍ ما تشا.
هِيَ في خَدَّيْهِ بَرْدٌ وسَلام، وَهْيَ ضُرٌّ وحَريقٌ في الحَشا[٨].
أتّقي منه على حُكْمِ الغَرام أسَداً وَرْداً وأهْواه رَشا[٩]

(١) فني دمعي وجفّ من كثرة بكائي (لأنّ حبّي له شديد وهو معرض عنّي). خدّه مذهب (في احمرار من خجله كلّما نظرت إليه).
(٢) يحمرّ خدّه (من الخجل) كلّما نظرت إليه في الخلس (جمع خلسة بالضمّ) مرّة بعد مرّة في غفلة من الذين حولنا.
(٣) أنا الذي أزرع الورد في خدوده (أجعلها تحمرّ من نظري إليها) ثمّ هي حرام عليّ (لا أستطيع أن أقطف منها ما زرعته فيها: أن أقبّلها).
(٤) الدنف: المريض القريب من الهلاك (التلف، الموت).
(٥) الرمق: بقيّة الروح (في الجسد). الصفا جمع صفاة: الصخرة الملساء الصلبة. الصمّ جمع أصمّ وصمّاء. الشيء الأصمّ: الصلب المصمّت (المملوء جوفه). - إنّ مسير النملة على الصخر لا يترك أثراً.
(٦) أشكره في (على) ما بقي (فيّ) من حياة وقوّة. ألحاه (من لحى، يلحى: ذمّ، لعن).
(٧) العذول: الذي يلوم المحبّ على حبّه. كلام عذولي وسكوته سيّان (أنا لن أسمع لوماً في محبوبي من أحد).
(٨) هذه الحمرة التي تشبه النار هي برد وسلام في خدّيه (لا تضرّه)، وهذا اقتباس من القرآن الكريم (٢١ : ٦٩، سورة الأنبياء): ﴿قلنا: يا نارُ، كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾. الحشا: القلب (قلبي).
(٩) أتّقي: أخاف، أجانب. الورد: الأحمر (الأسد الورد: الشديد الضراوة والافتراس). رشأ: غزال

قلـــتُ، لَمَّـــا أنْ تَبَـدَّى[1] مُعْلَما، وَهْوَ من ألحاظـــه في حَرَس[2]:
أيُّهـــا الآخِـــذُ قَلْـــبي مَغْـــنما اجْعَـلِ الوَصْلَ مَكانَ الخُمُسِ[3]!

– من نفح الطيب (٧: ٤٤٥ وما بعد): « من ذلك قولُ أبي اسحاقَ إبراهيمَ بنِ سهلٍ الإسرائيليِّ الإشبيليّ (موشّحةً، ولكنّ) بعضاً ذكَر أنّها من قولِه لمّا أظْهَرَ الإسلامَ، وَهِيَ لا تقتضي رَفْعَ الرّيبة عنه والاتّهام[4]:

جعَـــــل المُهَيْمِنُ حُـــــبَّ أحمدَ شِيمـــــةً[5]
وأتـــــى بـــــه في المُرسلـــين كريمـــةً[6]،
فغـــــدا هواهُ عـــــلى القلوب تَميمـــــةً[7]؛

= صغير. – أنا أحبّه كأنّه غزال جميل بريء ثمّ أخافه (أخاف نتائج هجرانه) كأنّه أسد كريه المنظر شديد الضراوة.

(١) تبدّي: ظهر لي (لمّا رأيته). المُعْلَم: الفارس الشجاع القويّ الذي لا يتلثّم في أثناء المعارك (ولا في غير المعارك) لأنّه لا يخاف من خصومه، بل هم يخافونه. ألحاظه الفتاكة (كالسيوف والرماح) تحرسه.

(٢) أنت أخذت كلّ قلبي (سلبتني القدرة على أن أحب محبوباً آخر)، تصدّق علي بوصلك (بالاقتراب منك). مكان الخمس (في الجهاد توزّع أربعة أخماس الغنائم المنقولة بين الأحياء من الذين اشتركوا في المعركة)، ويبقى الخمس الخامس فيكون لآل بيت الرسول (إذ لا يجوز لهم أن يأكلوا من الزكاة والصدقات) وللمحتاجين من سائر المسلمين. وهنا إشارة إلى آية من القرآن الكريم (٨: ٤١، سورة الأنفال): ﴿واعلموا أنّما غَنِمْتم من شيء (في الحرب) فإنّ لله خُمُسَه (للتصدّق على المحتاجين) وللرسول (لنفقة الرسول ونفقة أهل بيته) ولذي القُربى (لأقارب الرسول) واليتامى والمساكين (الذين يكسبون مالاً لا يكفيهم لحياتهم) وابنِ السبيل﴾ (المنقطع عن وطنه لا يملك ما يتابع به طريقه).

(٣) لم يكن المقّري صاحب نفح الطيب على حقّ في إعلان الارتياب بصحّة إسلام ابن سهل، ذلك لأنّ الإيمانَ شيء بين الإنسان وخالقه، ولا يجوز لنا إذا قال إنسان إنّه مسلم أن نردّ قوله، ما لم يكن لنا دليل على أنّ عملاً من أعماله مخالف للإسلام جهاراً. ولا شكّ في أن الإيمان في الناس على مراتب، فهنالك أفراد إيمانهم أعلى من إيمان أفراد آخرين. غير أن الحكم في ذلك لله وحدَه. ولقد كان في أيام الرسول، صلى الله عليه وسلم، جماعة صحّ الارتياب بإيمانهم فسمّاهم الله « منافقين »، ولم يقل إنّهم كفّار أو غير مسلمين.

(٤) قال إحسان عبّاس في (نفح الطيب ٧: ٤٤٥، الحاشية ٢): لم أجد هذه المخمّسة (الموشّحة) منسوبة لابن سهل الإسرائيلي إلّا في النفح، ولم ترد في ديوانه (طبع صادر ١٩٦٧).

(٥) المهيمن (من أسماء الله الحسنى). أحمد (محمّد رسول الله). شيمة: خلق (بضمّ فضمّ)، العادة (الجميلة).

(٦) كريمة: جوهرة (لؤلؤة) نفيسة (ثمينة، غالية)، فهو خير المرسلين وآخر المرسلين.

(٧) التميمة: الحجاب (ما يعلّق على الأطفال لردّ العين عنهم ومنع الأذى).

وغـــدا هُـــداهُ لهَدْيِهِمْ تَتَمــيا. صلّوا عليـــهِ وسلّموا تسلـيا[١].

★ ★ ★

أبـــدى جَبـــينُ أبيـــه شاهـــدَ نورهِ[٢]،
سَجَعَــــتْ بـــه الكُهّـــانُ قبـــل ظُهورهِ[٣]
كالطــــيرِ غرّدَ مُعْرِبـــــاً بصفــــيرهِ
عن وجـهِ إصباحٍ يُطِلُّ نسيا. صلّوا عليـــه وسلّموا تسلـــيا.[٤]

★ ★ ★

اللهُ أوضَـــحَ فَضلَـــه فتوضّحـــا،
واللهُ بيّنَ حُبّـــه في «والضُّحــــى»[٥]،
والجِـــذْعُ حنَّ لــــه هوًى فتَرَنّحـــا[٦]،
والمـاءُ فـاضَ بِكَفّـهِ تَسْنـيا[٧]. صَلّوا عليـهِ وسَلِّموا تسليمـا.

★ ★ ★

---

(١) الهُدى (بالضمّ) كالهَدي (بالفتح). في القرآن الكريم (٣٣ : ٥٦، سورة الأحزاب): ﴿إنّ الله وملائكته يصلّون على النبيّ. يا أيّها الذين آمنوا، صلّوا عليه وسلّموا تسليما﴾.

(٢) في الأخبار أن عبد الله بن عبد المطلّب (والدَ محمّد رسول الله) كان في جبينه نور يتلألأ (وصل إليه من النور الذي وضعه الله في آدم). ثم إنّ امرأة (في الجاهلية) كانت تريد عبد الله، وكان هو يأبى ذلك (وكان في ذلك الحين زوج آمنة والدة محمّد رسول الله). ويقولون (وهذا من الإسرائيليّات الظاهرة أو الخفية) إنّه بعد مدّة (وكانت آمنة قد حبلت بمحمّد) مرّ عبد الله بتلك المرأة فرأت أن النور الذي كان يتلألأ في جبينه قد اختفى (انتقل إلى الجنين في بطن آمنة) فلم ترغب فيه.

(٣) سجع: غنّى، أكثر الكلام (في الشيء).

(٤) «نسياً» (كذا في الأصل) ولا معنى لها هنا. يجب أن تكون «وسياً» (جميلاً). ثم إن هذه القافية (نسياً) تأتي في آخر مخمس من هذه الموشحة.

(٥) حبّـه (حبّ الرسول). الضحى (السورة الثالثة والتسعون في المصحف) وهي: ﴿والضحى (أول النهار. والواو للقسم) والليلِ إذا سَجى (نزل، خيّم). ما ودّعك ربّك (تركك، يا محمد). وما قلى (أبغضك). وللآخرة خير لك من الأولى (من هذه الدنيا). ألم يجدْك يتيماً فآوى؟....﴾ الخ.

(٦) الجذع جزء من ساق شجرة كان محمد رسول الله يقف عليه ليخطب. فجعل جماعات من الناس يقولون إنهم يسمعون هذا الجذع يحن (يئن حزناً على رسول الله). فقطع عمر بن الخطاب هذا الجذع.

(٧) وفي الاثر أن الجيش عطش مرة ولم يجد ماء ففاض من بين أصابع الرسول ماء شرب منه الجيش حتى =

اخْتَـــثَّ في السَّبْـــعِ الطِّبـــاقِ بُراقَـــهُ،
والأرضُ واجفـــةٌ تخـــافُ فِراقَـــه[١].
سُبحـــانَ مَنْ أدْنـــى سُراهُ فَساقَـــه
شخصاً على مَلِكِ المُلوك كريما[٢]. صلّوا عليـــه وسلّموا تسلـــيما.

★ ★ ★

فأُشِمَّ رَيْحـــانَ القُلوبِ الطَّيِّبـــا،
ودنـــا فأُسْمِـــعَ: «يا مُحمّـــدُ، مَرْحبـــا[٣].
إنّي جَعَلْتُـــكَ جـــارَ عرشي الأقربـــا،
إن كُنتُ قَبْلَكَ قد جَعَلْتُ كَليما[٤]». صلّوا عليـــه وسلّموا تسلـــيما.

★ ★ ★

يـــا ليلـــةً يَجْري الزمـــانُ فتَسْبِـــقُ،
الحُجْـــبُ فيهـــا والأرائـــج تُفْتَـــقُ[٥].
مـــا كـــانَ مِسْكُ الليـــل قَبْلَـــكَ يعبَـــقُ.

= أرتوى. تسنيم: عين في الجنة (ماء عذب).

(١) أحتثّ الدابة: حثّها (حضّها على الإسراع). السبع الطباق (السموات السبع). البراق: دابّة أكبر من الحمار وأصغر من الحصان عظيمة السرعة، إذ تجعل، في كلّ خطوة، حافرها حيث ينتهي بصرها. وعلى البراق كان الإسراء بالرسول من بيت المقدس. الواجف: الخائف المضطرب.

(٢) ملك الملوك: الله سبحانه وتعالى.

(٣) أشمّ (بالبناء للمجهول) أدني منه (جعله الله) يشمّ (بضمّ الشين) ريحاناً (نباتاً ذا رائحة طيّبة). ريحان القلوب (ينعش القلب؟). دنا (اقترب من عرش الرحمن). فأسمع (بالبناء للمجهول: جعله الله يسمع).

(٤) ...إذا كنتُ من قبل قد جعلت موسى يكلّمني (وهو لا يراني)، فقد جعلتك الآن جاراً قريباً جدًّا لعرشي (تسمع وترى).

(٥) الحجب جمع حجاب (دون عرش الرحمن) تفتق (تشقّ ليبصر الرائي من خلال فتوقها: شقوقها). الأرائج جمع أريج وأريجة (رائحة طيّبة). تفتق: يفتح وعاؤها أوّل مرّة (شمّ الرسول في الإسراء رائحة لا عهد للإنسان بها).

بُشرَى، محمّدٌ آستفادَ نسيما[1]. صلّوا عليـــــه وسلّموا تسلـــــيما.

★ ★ ★

حتّـــــى إذا آقْتَعَـــــدَ البُراقَ لِيَنْزِلا،
نادَتْـــــهُ أسرارُ السَّمٰوات العُـــــلا[2]:
«يـــا راحِـــلاً وَدَّعْتُـــه لا عن قِلَـــى،
مـا كان عهدُك بالغُيوبِ ذميما[3]». صلّوا عليـــه وسلّموا تسلـــيما.

٤ - ديوان ابن سهل..... القاهرة ١٢٧٩، ١٢٨٩، ١٢٩٢، ١٢٩٧، ١٣٠٢، ١٣٢٨ هـ؛ فـاس (طبـع حجر) ١٣٢٤ هـ؛ (أبو حسين القرني)، القاهرة ١٣٤٤ هـ=١٩٦٦ م؛ بيروت ١٨٨٥ م (١٣٠٢ - ١٣٠٣ هـ)؛ القاهرة (المكتبة العربية) ١٩٢٦ م. (قدّم له احسان عبّاس)، بيروت (دار صادر ودار بيروت) ١٩٥٣ ثمّ ١٩٦٧ م.

- مختارات من ابن سهل، بيروت (مكتبة صادر) ١٩٥٣.

★★ المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل، تأليف محمّد الإفراني المغربي، فاس ١٣٢٤ هـ= ١٩٠٩ م.

- ابن سهل الأندلسيّ، تأليف عارف تامر.

المغرب ١: ٢٦٤ - ٢٦٥؛ فوات الوفيات ١: ٢٩ - ٣٥؛ الوافي بالوفيات ٦: ٥ - ١١؛ القدح المعلّى ١٤٠ - ١٤١؛ شذرات الذهب ٥: ٢٦٤ - ٢٦٥؛ نفح الطيب ٢: ٣٠٧ - ٣٠٨، ٣: ٥٢٢ - ٥٢٧، ثمّ هنالك موشّحات لابن سهل ومعارضاتها ٧: ١١،

---

(١) عبق (بفتح فكسر): ظهرت رائحته. مسك الليل (ظلام الليل كلّه، لأنّ المسك أسود): كان الليل كلّه يفوح برائحة طيّبة.... آستفاد نسيماً (أصبح له هو أيضاً رائحة طيّبة تفوح في العالم).

(٢) آقتعد فلان الدابة: ركبها. اقتعد الرسول البراق (لينزل إلى الأرض). أسرار السماوات (كائنات في السماء لا يعرفها الناس). القلى: البغض.

(٣) ما كان عهدك بالغيوب (جمع غيب: وجودك في عالم الغيب، في طبقات السماء) ذميما (مذموماً): لقد كنت في عالم الغيب كأنّك في الأصل من أهله. أو: لقد أسرى بك إلى السماء لأنّك مبرّأ من كل عيب (سلوكك بالغيب، في السرّ، كسلوكك الظاهر في العلن). - راجع القرآن الكريم: ﴿آرجِعوا إلى أبيكم فقولوا: يا أبانا، إنّ آبنك سرق. وما شَهِدنا إلّا بما علمنا، وما كنا للغيب حافظين﴾ (١٢: ٨١، سورة يوسف)، ثمّ ﴿الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله به بعضَهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم. فالصالحات (من النساء) قانتات (مطيعات لأوامر الله ولأزواجهنّ) حافظات للغيب (محافظات على سلوكهن في أثناء غيبة أزواجهنّ) بما حفظ الله﴾ (بما كان الله قد وصّى)..... ثمّ ﴿ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ (١٢: ٥٢، سورة يوسف).

٦١ - ٦٥، ٦٩، ٢٤٦ وما بعد، ٤٤٥ - ٤٧٠؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٩٢٥ - ٩٢٦؛ بروكلمن ١: ٣٢٢ - ٣٢٣، الملحق ١: ٤٨٣؛ نيكل ٣٤٤ - ٣٤٥؛ مختارات نيكل ٢٠٩ - ٢١٢؛ الأعلام للزركلي ١: ٣٦ (٤٢)؛ سركيس ١٢٣.

التِيفاشيّ القَفْصيّ

١ - هو شرفُ الدين أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ يوسُفَ بنِ أحمدَ بنِ أبي بكرِ بنِ حمدونِ ابنِ حجّاجٍ[1] القَيْسيُّ التيفاشي، نِسبةً إلى تيفاشَ[2]. وُلِدَ في مدينةِ قَفْصةَ (في غربيّ القُطرِ التونسيّ)، سَنَةَ ٥٨٠ (١١٨٤ م) وبدأ تعلُّمَه فيها على أبي العبّاسِ أحمدَ بنِ أبي بكرِ بنِ جعفرٍ المَقْدسي. ثمّ انتقلَ إلى تُونسَ الحاضرةِ وتابعَ دراستَه في جامع الزيتونة. بعدَئذٍ رَحَلَ إلى مِصْرَ وقرأ على عبدِ اللطيفِ البَغْداديُّ (ت ٦٢٩) ثمّ انتقلَ إلى دِمَشْقَ وقرأ فيها على تاجِ الدين الكِنديّ.

وعادَ التيفاشيُّ إلى تونسَ فولّاه أبو زكريّا يحيى الحَفْصيُّ (٦٢٦ - ٦٤٧ هـ) القضاءَ في قفصةَ. ولكنّه ارتحلَ ثانيةً إلى المشرق. وفي رِحلتِه الثانيةِ ماتتِ امرأتُهُ. ثمّ انكسرَ به المركبُ مرّةً (بعدَ موتِ زوجته) فَغَرِقَ أبناؤه الثلاثةُ وضاعَ ما كان مَعَه من المال.

وتجوّل التيفاشيُّ في المشرق: زارَ العِراقَ وفارسَ ثمّ جاء إلى القاهرة نحوَ سَنَةِ ٦٣٠ (١٢٣٢ - ١٢٣٣ م) وعَرَفَ نفراً من كِبارِها منهم مُحْيِي الدين محمّدُ بن نادي[3] وأبو الحسنِ عليُّ بنُ سعيدٍ العَنْسيُّ (وقد أجازَ له روايَةَ كتابِ «المُغْرِبِ في محاسنِ المَغْرب») ومُكَرَّم بنُ منظورٍ (ت ٦٥٤) والدُ صاحبِ «لسان العرب» وكانتْ وفاةُ التيفاشي القَفْصي في القاهرة، سَنَةَ ٦٥١ (١٢٥٣ - ١٣٥٤ م).

٢ - كان التيفاشيُّ القفصيّ واسعَ الإحاطة بفنونٍ من الأدبِ والعلمِ وشاعراً

---

(١) في «الديباج المذهب» سلسلة نسب أطول. في بروكلمن ١: ٦٥٢، الملحق ١: ٩٠٤ شهاب الدين.

(٢) تيفاش قرية من قرى قفصة (الديباج المذهب ٧٥). وذكر حسن حسني عبد الوهّاب أن تيفاش (الورقات ١: ٤٤٨) في شماليّ عمالة (مقاطعة) قسنطينة في شمالي القطر الجزائري.

(٣) وفي «الورقات» (ص ٤٥٠، ٤٥٥) «ابن ندى».

يَنْهَجُ مَنْهَجَ أدباءِ عصرِهِ في تكلُّف أوجهِ البلاغة؛ غير أن شِعْرَه نازل على المرتبة المَقْبولة. أما شُهْرَتُه ومكانته فتقومان على مُؤلّفاتِه العديدةِ، وإن كانَ أكثرُها وَثِيقَ الصِّلَةِ جدًّا بالناحيةِ الجنسية الصريحة. وللتيفاشيّ كتبٌ منها: فصل الخطاب في مدارك الحواسّ الخمس لأُولي الألباب[1] - الدرّة الفائقة في محاسن الأفارقة (التونسيّين) - أزهار الأفكار في جواهر الأحجار (لعلّه الأحجار الملوكية، ولعلّه في الأصل من كتاب فصل الخطاب) - سجع الهديل في أخبار النيل - الديباج الخُسْرواني في شرح شعر ابن هاني - درّة اللآلي من عيون الأخبار ومستحسن الأشعار - نزهة الألباب في ما لا يوجد في كتاب (نوادر وأشعار تتعلّق بالجنس) - مطالع البدور في منازل السرور - قادمةُ الجَناح (في معاشرة النساء) - رجوع الشيخ إلى صباه في القوّة على الباه - رسالة في ما يحتاج إليه الرجال والنساء في استعمال الباه ممّا يضرّ وينفع.

٣ - مختارات من آثاره

- من تاريخ الموسيقى في المغرب:

.... كان غِناءُ أهلِ الأندلسِ في القديمِ إمّا بطريقةِ النصارى★ وإمّا بطريقةِ حُداةِ العرب[2]. ولم يكُنْ عندهم قانونٌ يعتمدون عليه إلى أن قامتِ الدولةُ الأموية، وكانتْ مُدّةُ الحَكَمِ الرَبَضِيّ[3]، فوفد عليه من المشرق ومن إفريقِيَةَ التونسية من يُحْسِن صَنْعَة التلاحين المدنية[4] وأخذ الناس عنهم، إلى أن وفد الإمام المُقدَّمُ في

---

(١) هذا الكتاب يقع في أربعين جزءاً (نحو ثمانية آلاف صفحة)، وهو مُوسِعة (موسوعة: دائرة معارف) مبنية على الأنواع التي تتناول المعارف الإنسانية المختلفة من مظاهر الطبيعة (الجماد والحيوان) ومن المدارك العلْمية والعمَلية كالطبّ والموسيقى ومن الأحوال الاجتماعية والفكرية كتاريخ الأمم وعلومهم كالفلك وعلم الحجارة الكريمة. وقد اختصر هذا الكتابَ ابنُ منظور مصنّف «لسان العرب». ويمكن أن نعدّ هذا الكتاب سلسلة متوالية في التأليف لأن التيفاشي جعل لكلّ جزء عنواناً مستقلّاً (راجع أيضاً «الورقات»، ص ٤٥٥ - ٤٥٧).

(٢) الحادي: الذي يسوق قوافل الإبل، يقصد بطريقة الحداة «الغناء البدوي».

(٣) الدولة الأموية: الدولة المروانية في الأندلس. الحكم الربضي هو الحكم الأوّل (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) بن هشام بن عبد الرحمن الداخل.

(٤) المُدُنية (بضمّ فضمّ؟): خلاف البدوية. ★ نصارى الأندلس (الأسباك).

هذا الشأن عليُّ بنُ نافعٍ الملقّبُ بزرْيابَ غُلامُ إسحاقَ المَوْصِلّي على الأميرِ عبدِ الرحمن الأوسط[1] فجاء بما لم تَعْهَدْهُ الأسماعُ واتّخذ السلطانُ[2] طريقَتَه ونُسِيَ غيرُها إلى أن جاء ابنُ باجّهِ الإمامُ الأعظمُ فاعتكف مُدّةَ سِنينَ مَعَ جَوارٍ مُحْسنات فهَذّب الاسْتِهْلال[3] والعَمَل ومزج غِناءَ النصارى بغناء المشرق واخترع طريقة الأجدالا (؟)[4] بالأندلس. وقد مال إليها طبعُ أهلِها ورفضوا ما سواها. ثمّ جاء بعده ابنُ جودي وابن الحمّارة وغيرُهما فزادوا ألحانَه[5] تهذيباً واخترعوا ما قَدَروا عليه من الألحان المُطربة. وكان خاتمةَ هذه الصِّناعةِ أبو الحسنِ بنُ الخاسر المُرْسِيُّ[6] فإنّه أدْرك فيها عِلْماً وعَمَلًا ما لم يُدْرِكْه أحدٌ. وله في الموسيقى كتاب كبيرٌ في جُملةِ أسفارٍ. وكلُّ تلحينٍ سُمِعَ بالأندلس والمَغْرب في شعرٍ متأخّرٍ فَهُوَ من صَنْعَته.....

- يوم نعيم بين ليلين غيرِ ذلك:

ويومٍ سَرَقْناهُ من الدهر خِلسةً؛ بلِ الدهرُ أهداه لنا مُتَفَضِّلا.
أُشَبِّهُهُ بينَ الظَلامين غُرّةً لحسناءَ لاحَتْ بين فَرْعَيْنِ أُرْسِلا[7]!

- ذهاب الليل ومجيء الفجر:

---

(1) زرياب (راجع، فوق، ص ٨ في الجزء الرابع). تلميذ إسحاق الموصلي. عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ).

(2) السلطان: صاحب السلطة (الخليفة، الدولة) - يقصد الغناء الرسمي، في البلاط.

(3) ابن باجّه (راجع، فوق، ص ٢١٥ في الجزء الخامس). الاستهلال: مطلع الغناء. العمل: منهج الغناء والسير فيه (؟).

(4) الأجدالا (غير معروفة - وعلامة الاستفهام من الأصل المنقول عنه).

(5) ابن جودي (؟). ابن الحمارة (ضبطها حسن حسني عبد الوهّاب (الورقات ١: ٤٥٤) بتشديد الميم. وتركها شوقي ضيف (المغرب ٢: ١٢٠) مهملة. وكذلك فعل إحسان عبّاس (نفح الطيب ١: ٢٠٥، ٣: ٥٩٧، ٤: ١٣، ١٤٠)، وديدرينغ (الوافي بالوفيات ٢: ٢٤٢). وابن الحمارة الغرناطي تلميذ ابن باجّه، برع في الألحان وفي نظم الشعر. ويرد هذا الاسم في نفح الطيب مرّة بكنية واسم هما أبو الحسن عليّ وثلاث مرّات أبو عامر محمّد. ولعلّ الاثنين واحد.... في ألحانه (في ألحان ابن باجّه).

(6) أبو الحسن بن الخاسر المرسي (؟).

(7) الفرع: الشَّعر. لاحت بين فرعين: ظهر وجهها بين شيء من شعرها في كلّ جانب.

نَبِّهْ نديمَك، إنّ الديك قد صَخَبا والليلُ قَوّضَ من تَخْييمِه الطُنُبا[1].
والفجر في كَبِدِ الليلِ السَّقيمِ حكى سِرَّ المُتَيَّمِ عن أجفانه غُلبا[2].
كأنّه، بظلام الليل مُمْتَزِجاً، سَمراءُ تَفْتَرّ أبْدَتْ مَنْسَماً شَنبا[3].
كأنّما الفجرُ زَنْدٌ قادِحٌ شَرَراً في فَحمةِ الليلِ لاقى الفَحْمَ فالْتَهبا[4].
كأنّ أوّلَ فجرٍ فارسٌ حُمِلَتْ راياتُه البيضُ في آثارِه فكَبا[5].
كأنّ ثانِيَ فجرٍ غُرّةٌ وَضَحَتْ تَسيلُ في وجهِ طِرْفِ أدْهَمٍ وَثَبا[6].

- وصف الزلزال:

أما ترى الأرضَ في زِلزالِها عَجَبا تدعو إلى طاعةِ الرحمنِ كُلَّ تَقي.
أضحَتْ كوالدةٍ خرقاءَ مُرْضِعَةٍ أولادَها دَرَّ ثَدْيٍ حافلٍ غَدَقِ[7].
قد مَهّدَتْهُمُ مِهاداً غيرَ مُضطربٍ وأفْرَشَتْهم فِراشاً غيرَ ما قَلِقِ.
حتّى إذا أبصرَتْ بعضَ الذي كَرِهَتْ مِمّا يَشُقُّ، من الأولادِ، من خُلُقِ[8]،
هزّتْ بهم مَهْدَهُمَ تشا تُنَهْنِهُهُمْ ثمّ استشاطتْ وآلَ الطبعُ للخَرَقِ[9]
فصَكّتِ المهدَ غَضْبي فَهْيَ لافظةٌ بَعْضاً على بَعْضِهِم من شِدّةِ الحَنَقِ[10].

---

(١) صخب: علا صوته واختلط بغيره (يقصد: صاح). الطنب: خشبات حول الخيمة تشدّ أطراف الخيمة إليها. قوّض: هدم، قلع.

(٢) المتيّم: الذي أمرضه الحبّ. غلبا (كذا في الأصل)، لعلّها «حجبا».

(٣) افترّ: ابتسم فظهرت أسنانه. المنسم: الرائحة الطيّبة (كذا يقصد الشاعر). الشنب: البارد! والشنب (بفتح ففتح): الجميل، الصافي.

(٤) الزند: قطعة من الحديد تقدح (تستخرج) بها النار من الحجر. فحمة الليل: اشتداد سواده.

(٥) أول فجر: الفجر الكاذب (أول ظهور نور الصباح من وراء الأفق)ويكون ضعيفاً. كبا: عثر. - كأنّ الفجر فارس (على حصان أسود؟) تتالت وراءه الرايات البيض حتّى غلبته وغطّت عليه!.

(٦) الفجر الثاني: الفجر الصادق (حينما يعمّ النور وجه الأفق الشرقي ولكن قبل أن تستنير الأرض. الغرّة: مقدّمة الوجه أو الرأس (وتكون بيضاء). تسيل: تمتدّ (تظهر ثابتة). الطِّرف: الحصان. الأدهم: الأسود.

(٧) الخرقاء الحمقاء. الدرّ: اللبن. حافل: مملوء. غدق: كثير.

(٨) شقّ: صعب (بضمّ العين)، أتعب.

(٩) تشا تنهنهم: تشاء أن تكفّهم (تردعهم، تمنعهم) عن السلوك السيّء. آل: رجع. الخرق: الحمق. - ...... غضبت وعاد طبعها إلى الاضطراب (بعد الهدوء).

(١٠) صكّ: ضرب.

- مَنامٌ مُنْذِرٌ بِمُصيبة:

وجرى لي في المَنامِ أمرٌ عجيبٌ في السِّراجِ . وذلك أني رأيتُ[1] كأنّي جالسٌ وبينَ يَدَيَّ ثلاثةُ سُرُجٍ موقودةٌ[2]، وإلى جَنْبي زوجتي وهي تنفُخُ على أحدِ السُّرُجِ لِتُطْفِئَه. فأدْرَكني عليها غَيْظٌ شديد ونَهَيْتُها عن ذلك، فألَحّتْ في النَّفْخ عليه. فاضْطربتُ وقُلتُ لها: إنْ أطْفأتِه فأنتِ طالقٌ! فقامتْ فَنَفَخَتْ في السرجِ الثلاثةِ وأطفأتْها. ولم أكُنْ قبلَ ذلك (قد) جرى على لِساني للطلاقِ ذِكْرٌ البَتّةَ[3]، ولا حدّثتُ نفسي بطَلاقِها قَطُّ. وكان لي منها ثلاثةُ بَنينَ. واتّفقَ بعدَ هذه الرؤيا بأيامٍ أنْ مَرِضَتْ فماتتْ. ورَكِبْتُ أنا وأوْلادي الثلاثةُ البحرَ ومَعِيَ مالٌ طائلٌ. فعُطِبَتِ السفينةُ في البحر وغَرِقَ البنونَ الثلاثةُ والمالُ جميعُه. ونَجَوْتُ على لوحٍ مسلوباً[4] من الأهلِ والمال.

٤ - أزهار الأفكار في جواهر الأحجار (بيشيا)، فلورانسا ١٨١٨ م؛ حققه يوسف حسن ومحمود بسيوني (المطبعة العامة للكتّاب ١٩٧٧ م).
- نثار الأزهار في الليل والنهار (جزء من «أزهار الأفكار» - اختصره ابن منظور)، القسطنطينية (مطبعة الجوائب) ١٢٩٨ هـ.
- كتاب الباه في رجوع الشيخ إلى صباه (رجوع الشيخ إلى صباه من القوّة على الباه)، بولاق ١٣٠٩؛ القاهرة ١٣١٦.
- الأحجاز التي توجد في خزائن الملوك وذخائر الرؤساء (راجع الأعلام للزركلي).
- سرور النفس بمدارك الحواس الخمس (هذبه ابن منظور - حققه إحسان عباس)، بيروت (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) ١٩٨٠ م.

★★ الوافي بالوفيات ٨: ٢٨٨ - ٢٩١؛ الديباج المذهب ٧٤ - ٧٥؛ الورقات لحسن حسني عبد الوهّاب، ص ٤٤٨ - ٤٦٠ (راجع له أيضاً: مجلّة الفكر - جوان ١٩٥٩ م - ص ٤ - ١٠؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ٢٠٥ - ٢٠٨؛ مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق ٣٩: ١٢ (لعبد القادر زمامة)؛ المجلّة الأسيوية ١٨٢٨ م، ص ٥ وما بعد؛ بروكلمن ١: ٦٥٢،

---

(١) أي رأيت فيما يرى النائم.
(٢) كذا في الأصل. والصواب: موقدة (من أوقد): مشتعلة.
(٣) البتّة: أبداً، قط، مطلقاً.
(٤) مسلوباً: مجرّداً ممّا أملك.

الملحق ١ : ٩٠٤ ؛ الأعلام للزركلي ١ : ٢٥٩ (٢٧٣ ، راجع الحاشية ، ص ٢٧٤)؛ سركيس ١ : ٦٥١ - ٦٥٢ .

حُميدٌ الأنصاريُّ

١ - هو أبو بكرٍ أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الحسنِ بنِ أحمدَ بنِ يحيى بنِ عبدِ الله الأنصاريُّ القُرطُبيّ المالَقيّ ، أصلُ أهله من قُرطُبَةَ وقدِ آنتقلَ جَدُّه لأبيه - الحسنُ بنُ أحمدَ - إلى مالَقَة . ووُلِدَ حُميدٌ الأنصاريُّ في مالَقَةَ سَنَةَ ٦٠٧ للهِجرة (١٢١٠ - ١٢١١ م) .

سَمِعَ حُميدٌ الأنصاريُّ من أبي الحسنِ بن محمّدٍ الشاريّ[1] . وسمع من كثيرينَ غيرِه في الأندَلُسِ والمَغْرب والمَشْرق . وكان قبلَ رِحْلتهِ (نحو ٦٤٩ هـ) قد تصدّرَ في بَلَده مالَقَةَ للتدريس فأقْرأَ القُرآنَ وحدّثَ ودرّسَ الفِقه والعربيةَ (النحو) .

ورَحَلَ حُميدٌ الأنصاريُّ إلى المشرق بِنِيّةِ الحجّ . ويبدو أنّه وَصَلَ أوّلاً إلى الشام (سورية) ثمّ آنتقل إلى مِصْرَ ، ولكنّه مَرِضَ في مصر ثمّ تُوُفِّيَ في الثاني والعشرين من ربيعٍ الأوّلِ من سَنَةِ ٦٥٢ (١١/٥/١٢٥٤ م) .

٢ - كان حُميدٌ الأنصاريُّ وَرِعاً زاهداً مُتَقَشِّفاً . وقد كان مُقْرئاً للقُرآن مجوِّداً ومُحدِّثاً حافظاً وفقيهاً وماهراً في علم العربية (النحو) . ثمّ هو كاتبٌ وشاعر ، وشِعرُه كثيرٌ عاديٌّ قاصرٌ على الزُّهد والحِكَم .

٣ - مختارات من شعره

- قال حُميدٌ الأنصاريُّ في الناسِ وأحوالِهم :

مَطالِبُ الناس في دُنْيَاكَ أجناسُ   فَاقْصِدْ فلا مَطْلَبٌ يبقى ولا ناسُ[2] .

---

(١) توفّي في رمضان من سنة ٦٤٩ . وفي الديباج المذهب (ص ٤٦): أبو الحسن بن محمّد الشارقي (وتكرار « الشارّي » في الذيل والتذكرة يمكن أن يدّل على أنّ الشاري أصحّ).

(٢) اقصد : اعتدل.

وآرْضَ القناعةَ مالاً والتُّقى حَسَباً ، فما على ذي تُقًى من دهرِه باس[1].
وإنْ عَلَتْكَ رؤوسٌ وآزْدَرَتْكَ ، ففي بَطْنِ الثّرى يَتَساوى الرِّجْلُ والراس.

– وقال في الدنيا وأحوالِها:

ولّما رأيتُ الشَّيْبَ بَيّنَ صُبْحُه وليلَ شَبابي قد مَضى لِسبيلِه[2]،
أقَمْتُ على نفسي فناء دليلها ، فَصِرتُ بوجهٍ مُعْرِضٍ عن دليلِه[3].
وقالتْ: « تَمَتَّعْ من زَمانك ساعةً ، ولا تَبْكِيَنَّ الهَوْلَ قبلَ نُزوله[4]؛
وبادِرْ إلى لَذّاتِ ذاتِك وآغْتَنِمْ طُلوعَ مُحَيَّا البَدْرِ قبلَ أُفولِه[5] ».
وغَرّتْ وما بَرّتْ ، ولكنْ أجَبْتُها: « وكمْ ناصحٍ لي ما أصَخْتُ لِقيلةِ[6] »!.

٤ – ** الذيل والتكملة ١ : ١٣٨ – ١٤٣ (رقم ٢١٤)؛ الديباج المذهب ٤٦ ؛ بغية الوعاة ١٣٥ ؛ نفح الطيب ٢ : ٣٧٨ – ٣٧٩ .

أبو الخطّاب السكوني

١ – هو أبو الخطّاب محمّدُ[7] بنُ أحمدَ بنِ خليلِ بنِ إسماعيلَ بنِ عبدِ المَلِك بنِ خلفِ بنِ محمّدِ بنِ عبدِ الله السُّكونيُّ، أصلُ أهلِه من لَبْلَةَ (في جَنوبِّي البُرتغال اليومَ – غربَ إشبيليةَ). وكان مسكنُه في إشبيليةَ، ثمّ غادَرَها لمّا آستولى عليها

---

(١) بأس: مشقّة، ضرر.
(٢) بيّن: ظهر. ليل شبابي (شعري الأسود، شبابي).
(٣) .... فناء دليلها (؟).
(٤) الهول: المصيبة المخيفة (الموت؟).
(٥) البدر (المحبوب). الأفول: المغيب.
(٦) غرّت (أي الدنيا أو النفس): خدعت. برّت: وفت بما وعدت، صدقت بما قالت. أصخت: أملت سمعي إليه، سمعت منه. القيل: القول.
(٧) جاء في الذيل والتكملة ذكر ثلاثة إخوة لأبي الخطّاب السكوني اسم كلّ واحد منهم « محمّد » أيضاً. هم أبو الحكم (٥: ٦٣٠، رقم ١١٩٩) وأبو عمر (٥: ٦٣٥، رقم ١٢٠١) وأبو الفضل (٥: ٦٣٦، رقم ١٢٠٢).

النصارى (٦٤٦ هـ). روى أبو الخطّاب السُّكونيُّ فُنوناً من العِلمِ عن نفرٍ من أهلهِ ثُمّ عن نفرٍ آخرينَ منهم: أبو عبدِ الله بنُ زَرْقونٍ (ت٥٨٦ هـ) وأبو جعفرِ بنِ مَضاءٍ (ت٥٩٢ هـ) وأبو عِمرانَ المارتلّيُّ الزاهدُ (ت٦٠٤ هـ) وعبدُ المَلكِ بن بَدْرونٍ (ت٦٠٨ هـ) وأبو عُمَرَ بنِ عـــاتٍ (٥٤٢-٦٠٩ هـ) وأبو الحسن بنُ خَروفٍ (ت٦١٠ هـ) وأبو محمّدِ بنُ حَوْطِ الله (ت٦١٢ هـ) وأبو بكرِ بنُ طَلْحةَ الإشبيليُّ (ت٦١٨ هـ).

وكَتَبَ أبو الخطّابِ السُّكونيُّ، في أيامِ شبابه لِبَعْضِ الأمراء ثُمّ تَرَكَ ذلك. وكانتْ وفاتُه عن سِنٍّ عاليةٍ، في العَشْرِ الأواخرِ من شَعْبانَ من سَنَةِ ٦٥٢ (النصف الثاني من آبَ-أغسطس من عام ١٢٥٤ م).

٢- كان أبو الخطّابِ السكونيُّ حافظاً للحديثِ وفقيهاً وعارفاً بالتاريخ، كما كان مُبرِّزاً في علوم اللُّغة. وكان فصيحاً بليغاً يخطُبُ رَوِيَّةً وآرتجالاً بينَ يَدَي الملوكِ وفي المحافلِ الجُمهوريّة. وله شِعرٌ. غيرَ أنّ شِعرَهُ الواصلَ إلينا عاديٌّ ويَنُوءُ بأشياءَ من الضَّعف.

وكان أيضاً مُصَنِّفاً صَنَعَ بَرنامجاً سَمّاه «التَّذكِرةَ» ضَمّنه التعريفَ بشيُوخه وبمدارِكِهِمُ العِلميةِ وبأحْوالهم وبطُرُق أخذهِ عنهم، وقد عَدّ منهم نَيِّفاً وتِسعينَ شيخاً. وكان هذا البرنامجُ ضَخْماً ولكنّه ضاع لمّا غادرَ أبو الخطّابِ إشبيلية.

ولـه أيضاً قصيدةٌ سمّاها «ناظمةَ الفرائض»[1] في عَقْدِ العقائد-الحججُ الإقناعية في المحجورِ إذا استعمل في الخطط الشرعية-النَّفحة الداريّة واللَّمحة البُرهانية في العقيدة السُّنّية والحقيقة الإيمانية. وقد جُمِعَتْ جُملةٌ من رَسائله الإخوانية خاصّةً ومن أشعارِه في كتابِ عُنوانُه «الغُرَرُ والدُّرَر» (جَمَعَه أبو بكرِ بنِ أخيهِ أبي عُمَرَ).

---

(١) في حاشية الصفحة ٦٣٢ (الذيل والتكملة، السفر الخامس): كذا في الأصل. ولعلّها «الفرائد» (إذ الملموح أن هذه القصيدة في العقائد الإيمانية من علم الكلام، بينما «الفرائض»: في المواريث. والفريدة: اللؤلؤة الثمينة النادرة).

٣ - مختارات من شعره

- قال أبو الخطّابِ محمّدُ بنُ أحمدَ السُّكونيُّ صاحب هذه الترجمةِ في السأَمِ من الأسفار ومن أحوال الزمن وأحوال البشر:

أشكو إلى الله ما لاقَيْتُ من زَمَنٍ   في غُربةٍ عارضَتْ في مألفِ الوطن[١].
إذا تنكّرَ لي حالا (؟) تنكّرَ لي   أبناؤه وأثاروا ثائرَ الإحَنِ[٢].
أستغفرُ اللهَ، كم للهِ مِنْ مِنَنٍ!   لُمْتُ الزمانَ، ولا لَوْمٌ على الزمنِ[٣].
فالأمرُ لله في الحالاتِ أجْمَعِها،   والكلُّ لولاه لم يُوجَدْ ولم يكُنِ.
هو الذي خَلَقَ الأشياءَ مُخْترِعاً   فَالْمَحْ بِلامِحَةِ الألبابِ والفِطَنِ[٤].
وكُنْ مَعَ اللهِ في عِلْمٍ وفي أدبٍ   مُسْتَوْضِحاً سَنَنَ القُرآنِ والسُّنَنِ[٥].

- وله في شيءٍ من الجَدَلِ الكلامي (علم الكلام):

بِمَدْرَكِ العقل كلُّ الخلقِ مطلوبُ   كسباً، ولكنْ لِربِّ الخلق مَنْسوبُ[٦].

مشيئةُ الحقّ في الأكوانِ كائنةٌ   عِلْماً قديماً، وسِرُّ الغَيْبِ محجوب[٧].
وكلُّ شيءٍ فمَقْدورٌ بقُدْرتهِ،   وهو المُسبِّبُ، ما للغيرِ تَسْبيبُ[٨].

---

(١) عارضت في مألف الوطن: حالت دون استقراري في وطني.
(٢) حالا (كذا في الأصل). لعلّ المقصود: إذا تنكّر لي وطني (في حال من أحواله) تنكّر لي (أيضاً) أبناء وطني. الصواب أن يقال: حال. ولعلّ «حالا» خطأ من النسخ (في الأصل المخطوط) أو في أثناء التصحيح (عند الطبع) أو من الإهمال.
(٣) المنّة: المعروف، الفضل (بلا مقابل).
(٤) .... مخترعاً (على غير مثال سابق ومن غير مادّة موجودة من قبل)..... فاعرف ذلك بعقلك.
(٥) السنن (بفتح ففتح): الطريقة، المثال. السنن جمع سنّة (بالضمّ فيهما): عمل رسول الله.
(٦) كلّ الناس مطالبون بأن يعملوا أعمالهم بعد تفكير (وإرادة)، مع العلم بأن الله تعالى هو الذي يجعل الإنسان قادراً على أعماله (هذا الرأي يرجع في علم الكلام إلى أن أعمال الإنسان مكتوبة عليه منذ الأزل، ومع ذلك فهو يباشرها بإرادته (أو على الأقل يكون راضياً بها).
(٧) - كلّ ما يحدث الآن وبعد الآن في العالم هو بإرادة الله القديمة......
(٨) إنّ الله وحده قادر على كلّ شيء، وهو مسبّب (موجد) الأشياء كلّها. ولا يستطيع أحد غيره أن يوحد شيئاً.

فَسَلِّمِ الأمرَ للأحكامِ وَٱرْضَ بها ، فكلُّ حُكْمٍ بصَفْحِ اللَّوْحِ مكتوب[1].

٤ - ** الذيل والتكملة ٥: ٦٣٠ - ٦٣٥ (رقم ١٢٠٠).

أبو الحجّاج البيّاسيّ

١ - هو جمال الدين أبو الحجّاجِ يوسفُ بنُ محمّدِ بنِ إبراهيمَ الأنصاريُّ البَيّاسِيُّ، وُلِـدَ في بَيّاسَةَ من كورة جَيّـانَ في ١٤ من ربيـعِ الأولِ من سَنَـة ٥٧٣ (١١٧٧/٩/١٠ م). وقد تَنَقّلَ في البلاد: زارَ إشبيليةَ والجزيرةَ الخضراءَ وغيرَهما ثمّ انتقل إلى تُونسَ ولَزِمَ بَلاطَ أبي زكريّا يحيى الحَفْصيّ (٦٢٦ - ٦٤٧ هـ) ونال عنده حُظْوةً فأجرى أبو زكريّا له راتباً شهْريًّا. وألّفَ البياسيُّ لأبي زكريا كتابَ الإعلام بالحروب الواقعةِ في صدرِ الإسلام. وكانت وفاتُه في الرابعِ من ذي القَعْدة من سَنَة ٦٥٣ (١٢٥٥/١٢/٥ م) في مدينة تونس.

٢ - كان أبو الحجّاجِ البيّاسيُّ أديباً بارعاً مُطَّلِعاً على أقسام الكلام من النظم والنثر، عارفاً بأيّام العربِ وأشعارِها في الجاهليةِ والإسلامِ كثيرَ الحِفْظِ والرواية يحفَظُ النوادرَ والفُكاهاتِ المرويّةَ عن الأندلسيّين ممّا جعله نديماً للملوك. وكان أيضاً عالماً في اللغة. ثمّ هو من أشياخِ المؤرّخين ومؤرّخُ الأندلس (المغرب ١: ٢٠٥، ٤٢٧، ٢: ٧٣). وهو مصنّف له كتاب الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام (من مقتلِ عُمَرَ بنِ الخطّاب إلى ثورة الوليد بن طَريفٍ الخارجي على هرونَ الرشيدِ ببلاد الجزيرة الفراتية). - ذيل على تاريخ ابن حيّان - الحماسة المغربية (انتهى من تأليفها في مدينةِ تُونسَ، في آخرِ شوّالٍ من سَنَةِ ٦٤٦). وله ذيلٌ على كتاب «المتين» (في التاريخ)، لأبي مَرْوانَ حَيّانَ بنِ خلفِ بنِ حيّانَ (ت ٤٦٩ هـ)، وكان ٱبن حيّانُ قد ألّف هذا الكتابَ في عشرةِ أجزاءٍ وجعلَه قاصراً على أحداثِ عصره (نفح الطيب ٣: ١٨١).

---

(١) كن راضياً بالأحكام (بما يحكم عليك الله به في هذه الدنيا)، إذ لا فائدة من الاعتراض عليها فإنّها مكتوبة (عليك) في صفحة اللوح المحفوظ (في السماء، منذ خلق الله السماء والأرض).

٣ - المختار من آثاره

- من مقدّمة كتاب الحماسة المغربية:

..... أما بعدُ، فإنّي قد كُنتُ في أوانِ حَداثتي وزمانِ شَبيبتي ذا وُلوعٍ بالأدب ومحبّةٍ في كلامِ العرب. ولم أزلْ مُتَتَبّعاً لِمعانيهِ ومُفتّشاً عن قواعده ومَبانيه إلى أن حَصَلَتْ لي جُملةٌ منه لا يَسَعُ الطالبَ المُجْتَهِدَ جَهْلُها، ولا يَصْلُحُ بالناظرِ في مِثْلِ هذا العلمِ إلّا أنْ يكونَ عنده مِثْلُها. وحَمَلَتْني المحبّةُ في ذلك العلم والوُلوعُ به على أن جَمَعْتُ مِمّا ٱخْتَرْتُهُ وٱسْتَحْسَنْتُه من أشعار العرب جاهِلِيِّها ومُخَضْرَمِها وإسْلامِيِّها ومُوَلَّدِها[1] ومن أشعار المُحْدَثين من أهْلِ المشرق والأندلس وغيرِهم ما تَحْسُنُ به المُحاضرة وتَجْمُلُ عليه المناظرة[2].

ثمّ إنّي رأيتُ أنّ بَقاءَها دونَ أنْ تَدْخُلَ تحتَ قانونٍ يَجْمَعُها وديوانٍ يُؤَلِّفُها مُؤْذِنٌ بذَهابِها ومُؤَدٍّ إلى فَسادها. فرأيتُ أن أضُمَّ مُختارَها وأجمَعَ مستحسنَها تحتَ أبوابٍ تُقَيِّدُ نافرَها وتَضُمُّ نادرَها. فنظرتُ في ذلك فَلَمْ أَجِدْ أقربَ تبويباً ولا أحسن ترتيباً مّما بَوّبه ورَتّبه أبو تمّامٍ حَبيبُ بنُ أوسٍ رَحِمَهُ اللهُ تعالى في كتابِهِ المعروف بكتاب الحَماسة ولا أحسنَ منَ الاقْتداء به والتَوَخّي لمذهبه لِتَقَدُّمِه في هذهِ الصِّناعة وٱنفرادِه منها بأوفرِ حظٍّ وأنْفَسِ بِضاعةٍ. فٱتَّبَعْتُ في ذلك مَذْهَبَهُ ونَزَعْتُ مَنْزِعَه، وقَرَنْتُ الشِّعر بما يُجانِسه ووَصَلْتُه بما يُناسبه. ونَقّحْتُ ذلك وٱخْتَرْتُه على قَدْرِ ٱستطاعتي وبلوغِ طاقتي وجُهدي....

- وله هجاءٌ فيه مُجونٌ في غُلامٍ يُحبّه كان يقرأُ عليه ثمّ شبّ، قاله يخاطب آخَرَ:

قــد سَلَوْنـا عن الــذي تَدْريـهِ وجَفَوْنــاه إذ جَفـا بالتّيــهِ؛

---

(١) الشعر المخضرم هو الذي نظمه شاعر عاش في الجاهلية والإسلام. والشعر المولّد هو الشعر العبّاسيّ لأنّ عدداً كبيراً من الشعراء العبّاسيّين كانوا مولودين بين أب عربي وأم غير عربيّة، أو لأنّ معانيه كانت مولّدة (مبتكرة أو منظوراً فيها إلى المعاني التي كانت عند غير العرب).

(٢) المحاضرة كلام القوم الذين يحضرون مجلساً واحداً ويتناول الحاضرون فيه كلاماً وأخباراً مّما يحضُرُهم ومن مُتناول أيديهم وذاكرتهم. والمناظرة: المباحثة في أمر بالحاجّة (بإقامة الحُجج) ومحاولة كلّ مناظر أن يتغلّب بالحُجّة على مناظره.

وتَرَكْنــــاهُ صاغِراً لأُنـــاسٍ خَدَعوه بالزُّورِ والتَّمْـويه:
لِمُضِـــلٍّ يَهْديـــهِ نحوَ مُضِـــلٍ وسفيـــهٍ يَقُودُه لِسَفيـــهِ!

٤-★★ المغرب ٢: ٧٣؛ القدح المعلّى ٩٤-٩٥؛ وفيات الأعيان ١: ٢٣٣، ٧: ٢٣٨-٢٤٤ (وفيها مختارات كثيرة من كتاب الحماسة المغربية)؛ نفح الطيب ٣: ١٨١، ٣١٦-٣١٧؛ شذرات الذهب ٥: ٢٦٢؛ بروكلمن ١: ٤٢٤، الملحق ١: ٥٨٨-٥٨٩؛ الأعلام للزركلي ٩: ٣٢٩-٣٣٠ (٨: ٢٤٩).

محمّد بن عبد الله المرسيّ

١ - هو شرفُ الدينِ أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمدِ بنِ أبي الفضلِ السُّلَمي المُرسيّ، وُلِدَ في مُرْسِيَةَ في أوّلِ سَنَةِ ٥٧٠ (صيفِ ١١٧٤) أو آخرِ ٥٦٩. قرأ القرآنَ على أبي الحسينِ محمّدِ بنِ غَلْبونٍ المُرسيّ، وسَمِعَ النحو من أبي الحسنِ عليِ بنِ يوسفَ بنِ شريكٍ الدانيّ والطيّبِ بنِ محمّدِ بنِ الطيّبِ والشَلوبينِ وتاجِ الدين الكِنْدِي، وسَمِعَ الموطّأَ في المَغْرب من الحافظ أبي محمّدٍ عبدِ الله بنِ محمدِ بن عبيد الله الحِجْري.

وبعدَ أن تطوّفَ في الأندلسِ والمَغْربِ في طَلَبِ العلم رَحَلَ، سَنَةَ ٦٠٧ وحَجّ وتطوّفَ في الحِجاز والشامِ والعِراق ومِصْرَ وخُراسانَ يَزدادُ عِلماً أو يتصدّرُ للتدريس[١]. وفي سَنَةِ ٦٢٤ انتقلَ إلى مِصْرَ. وقد كانتْ وفاتُه في عَريشِ مِصْرَ، وَهُوَ مُتوّجهٌ إلى دِمَشْقَ، في خامسَ عَشَرَ ربيعٍ الأوّلِ من سَنَةِ ٦٥٥ (١/٤/١٢٥٧ م)[٢].

٢ - كان مُحمّدُ بن عبدِ اللهِ المُرسيّ مُفسّراً ومُحَدِّثاً وفقيهاً، كما كانت له مُشاركةٌ في شيءٍ من الهَنْدسةِ المُستوية[٣] وفي عِلْمِ الكلام. وكذلك كان أديباً ناثراً وناظماً

(١) راجع معجم الأدباء ١٨: ٢١٠، ٢١١؛ بغية الوعاة ٦١.

(٢) في بروكلمن (الملحق ١: ٥٤٦): في ٣/ ٤/ ١٢٥٧ م.

(٣) في معجم الأدباء (١٨: ٢١١، راجع بغية الوعاة ٦١): «وكان نبيلاً ضريراً يحلّ بعض مشكلات أقليدس». وهذا مستغرب لأنّ الأعمى لا يستطيع معالجة المسائل القائمة على الأشكال (إلاّ إذا كانت كلمة «ضرير» خطأً في النسخ).. ومع أن الصفدي قد ترجم له في الوافي بالوفيات (٣: ٣٥٤ - ٣٥٥) فإنّه لم يذكره في نكت الهميان في نكت العميان.

وعالماً بالنحو. وكانتْ له تصانيفُ كثيرةٌ وَرَدَ له منها: ريّ الظّمآن في تفسيرِ القرآن (كبير جدًّا في عشرين جزءاً، قَصَدَ منه أن يَرْبِطَ عند التفسير بين الآيات)- التفسيرُ الأوسط (عشرةُ أجزاء)- التفسيرُ الصغير (ثلاثة أجزاء)- مختصرُ صحيحِ مُسْلم- كتابٌ في أُصول الفِقه والدين- كتاب في البديع والبلاغة- الإملاء على المُفصَّل (للزَمَخْشري)- الضوابطُ النحوية في علم العربية- الكافي في النحو- تعليقٌ على المُوطّأ. وله عددٌ من التعاليق أيضاً في فنون مختلفة.

٣- مختارات من شعره

- قال محمّدُ بنُ عبدِ اللهِ المُرسيّ في الثّقَةِ بعَفْوِ الله:

قالوا: محمّدُ، قد كَبِرْتَ- وقد أتى | داعي المَنونِ- وما اهْتَمَمْتَ بزادِ[١]!
قلتُ: الكريمُ- مِنَ القبيحِ لضَيْفه | عندَ القُدومِ مَجيئُه بالزاد.

- وقال في الغزل:

قالوا: فلانٌ قد أزال بهاءَهُ | ذاك العِذارُ، وكان بَدْرَ تَمامِ[٢].
فأجَبْتُهُم: بل زادَ نورُ بهائِه، | ولذا تَضاعَفَ فيه فَرْطُ غَرامي.
واستَقْصَرَتْ ألحاظُهُ فَتَكاتِها | فأتى العِذارُ يُمِدُّها بسِهام[٣].

- وقال في أنّ النَجاة (يومَ القيامة) تكون باتّباع كتابِ الله وسُنّةِ رَسولهِ:

من كان يرغَبُ في النجاة فما له | غيرُ اتّباعِ المُصطفى فيما أتى[٤].
ذاك السبيلُ المُستقيمُ، وغيرُه | سُبْلُ الغَوايةِ والضلالة والرَّدى[٥].

---

(١) محمّد (منادى: يا محمد). المنون: الموت. الزاد (هنا): التقوى والأعمال الصالحة التي تنفع الإنسان في الآخرة. في القرآن الكريم (٢: ١٩٧، البقرة): ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

(٢) بهاؤه: جماله. العِذار: الشعر النابت في الوجه. كان بدر تمام: كان وجهه قبل أن ينبت شعر وجهه أبيض كلّه (يشبه البدر)...

(٣) - مع تقدّمه في الشباب خفّ السِّحر في عينيه فعُوِّضَ من ذلك الشَّعرَ الذي يبدأ فينبت في وجهه (وكانوا يَرَوْنَ أنّ بدء نبات الشعر في الوجه يزيد في الجمال).

(٤) المصطفى: محمّد رسول الله. فيما أتى به محمّد رسول الله.

(٥) الردى: الموت، الهلاك.

فاتْبَــعْ كِتَــابَ اللهِ والسُّنَنَ التي صحّتْ فذاك إذا اتَّبعتَ هُوَ الهُدى[1]
ودَعِ السؤالَ بكَمْ وكيفَ؟ فإنّه بـابٌ يَجُرُّ ذوي البَصيرة للعمى[2].
الــدينُ مـا قـالَ النــبيُّ وصَحْبُــهُ والتابعون ومَنْ مَناهِجَهم قَفـا[3].

٤ - ★★ معجم الأدباء ١٨ : ٢٠٩ - ٢١٣ ؛ الوافي بالوفيات ٣ : ٣٥٤ - ٣٥٥ ؛ بغية الوعاة ٦٠ - ٦١ ؛ نفح الطيب ٢ : ٢٤١ - ٢٤٢ ؛ بروكلمن ، الملحق ١ : ٥٤٦ ؛ الأعلام للزركلي ٧ : ١١٠ (٦ : ٢٣٢).

ابن الجنّان الأنصاري

١ - هو أبو عبدِ الله محّدُ بنُ محّدِ بنِ أحمدَ القيسيُّ المعروفُ بابنِ الجنّان[4] الأنصاريّ من أهلِ المَريّة. أخذَ ٱبْنُ الجنّان الأنصاريُّ العلمَ عن نَفَرٍ منهم: أبو الحسن سهلُ بنُ مالكٍ وأبو بكرٍ عزيزُ بنُ عبدِ الملك القيسيُّ المُرسيّ (ت ٦٣٦ هـ) والمعروفُ بٱبْنِ خطّابٍ النَّحْوي (نفح الطيب ١ : ٢٢٢) ثمّ عبدُ الله بن عبدِ الحقّ بنِ قطرالٍ المُتوفّى أيضاً سَنَةَ ٦٣٦ للهجرة (راجع نفح الطيب ٥ : ٢٥٦ و٧ : ٤١٦) ثمّ أبو الربيع بنُ سالمٍ وأبو عيسى بنُ السدّادِ ثمّ أبو عليٍّ الشَّلَوْبينيُّ (ت ٦٤٥ هـ).

واتّصل ٱبنُ الجَنّانِ الأنصاريُّ بالمتوكّلِ محمدِ بنِ يوسفَ بنِ هودٍ صاحبِ مُرسيةَ (٦٢١ - ٦٣٥ هـ). فلمّا استولى الإسبانُ على مرسيةَ (٦٤٠ هـ) انتقلَ إلى أوريولة. ثمّ جاءته دعوةٌ من ابن خلاص صاحبِ سَبْتَة (المغرب) فٱنتقل إلى سبتة. ثمّ انتقل إلى

(١) كتاب الله: القرآن الكريم. السنن (جمع سنّة): العمل الذي كان الرسول يقوم به، والأحاديث التي كان يقولها.

(٢) في الحياة أمور مغيّبة (وراء الحسّ الإنساني) لا فائدة من محاولة معرفتها؛ والبحث عن أسبابها وكيفيّاتها يزيد في غموضها وفي حيرة الباحث.

(٣) الصحب والصحاب: الذين عاشوا في زمن الرسول وعرفوه وصحبوه. التابعون: الذين لم يَرَوُا الرسول، ولكن رأوْا صَحبه. قفا يقفو: تبع.

(٤) اختار خير الدين الزركلي أن يسمّي ابن الجنّان هذا (الأعلام ٧ : ٢٥٦ = ٧ : ٢٩) ابن الجيّان بالياء بنقطتين تحتها. راجع تعليقه.

بِجاية. وفي بِجاية مَرِضَ ثمّ تُوُفِّيَ نحو ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م).

٢ - كان ابنُ الجنّانِ الأنصاريُّ من العلماء بالحديثِ والفِقه، كما كان أديباً وخطيباً بارعاً وكاتباً مترسّلاً وشاعراً مُحسناً. وفنونُ شعرِه الزُّهد والمواعظ والبَديعيّات (القصائدُ في مدحِ الرسول) والألغازُ. والسهولةُ والعذوبةُ تَغلِبانِ على شِعره. ونثُره متينٌ حَسَنُ الصِّناعة. وله موشّحاتٌ.

٣ - مختارات من آثاره

- قال ابنُ الجنّانِ الأنصاريُّ (في مرضِه الذي تُوُفّي فيه) يرجو رحمةَ الله:

جَهِلَ الطبيبُ شِكايتي، وشِكايتي أنّ الطبيبَ هو الذي هو مُمْرِضي[1].
فإنِ ٱرتضي بُرْئي تَدارك فَضلُه، وإنِ ٱرتضي سَقَمي رَضيت بما رَضِي.
ما لي اعتراضٌ بالذي يَقْضي به، لكنْ لِرَحْمتِه جَعَلْت تَعَرُّضي[2].

- وقال في الشفاعة برسولِ الله:

أيَذْهَبُ يومٌ لم أُكفِّرْ ذنوبَه بذِكْرِ شفيعٍ في الذنوب مُشَفَّعِ[3].
ولم أقْضِ في حَقّ الصلاةِ فريضةً على ذي مَقامٍ في الحِساب مُرفَّعِ[4].
أَرَجّي لَدَيْهِ النفْعَ في صِدقِ حُبِّهِ، ومن يَرْتَجِ المُختارَ لا شكّ يُنْفَعِ[5].
وأهدي إلى مثواه منّي تحيّة إذا قصدت باب الرضا لم تُدَفَّعِ.

---

(١) الطبيب (في الشطر الأوّل): الحكيم الذي يداوي الناس. الشكاية: المرض. الطبيب (في الشطر الثاني): الله.

(٢) - مع أنّ الإنسان المؤمن لا يجوز له أن يعترض على أحكام الله، فإنّ ذلك لا يمنع من أن يتعرّض (يتصدّى، يتوجّه) الإنسان في طلب الخير من الله.

(٣) الشفيع المشفّع يوم القيامة محمّد رسول الله (ولكنّه يشفع بعد إذن الله له بذلك). ففي القرآن الكريم (٣٢: ٤، سورة السجدة): ﴿ما لكم من دونه (من دون الله) من وليّ ولا شفيع﴾ ثمّ (٢: ٢٥٥، سورة البقرة): ﴿من ذا الذي يشفع عنده (عند الله) إلاّ بإذنه؟﴾.

(٤) ذو مقام في الحساب (يوم القيامة) مرفع (عالي المقام): محمّد رسول الله.

(٥) المختار (محمّد رسول الله).

- الموشّحة المشهورة.

هذه الموشَّحةُ بديعيّةٌ في مدحِ الرسول وذكر فضائلِه ومُعْجزاتِه. وهي مشهورةٌ جِدًّا لا تزالُ إلى اليوم تُسْمَعُ في المُناسبات الدينية. ولقد كانتْ شُهرتُها مُنذُ أيامهِ هو واسعةً جِدًّا عارضَها أو قلّدها شُعراءُ كثيرون[١]. من هذه الموشّحة.

اللهُ زادَ مُحمّـــــــــــداً تكريـــــــــــا
وحبـــــاهُ فضــــلاً من لَدُنْــــهُ عظـــيما[٢]
واخْتَصّـــــــهُ في المرسلــــــينَ كريمـــــا
ذا رأفـــةٍ بالمُؤمنـــين رحيمـا. صَلّوا عليــه وسلّموا تسليما[٣].

★ ★ ★

حـــــازَ المحامـــــــدَ والمهادحَ أحمدُ[٤]،
وزكَـــــتْ مَناسِبُهَ وطـــابَ المَحْتِـــدُ[٥].
وتأثّلـــــــت عَليــــــاؤه والسُّؤدَدُ[٦]
مجــداً صمــياً حادثـــاً وقديما. صلّوا عليــه وسلّموا تسليما[٧].

★ ★ ★

فخرٌ لآدمَ قـــــد تقــــــادمَ عصرُهُ
من قبــــلِ أن يُـــــدْرَى ويَجْرِيَ ذِكْرُهُ.
سِرٌّ طواه الطِّـــــــــــينُ فَهَمَّ نشرُهُ

---

(١) راجع نفح الطيب ٧: ٤٣٢ - ٥١٩ (في أماكن كثيرة متتالية ومتفرّقة).

(٢) حباه: أعطاه. من لدنه: من عنده (لا تقال إلاّ في الله).

(٣) راجع التعليق في ترجمة ابن سهل الإشبيلي (ت ٦٤٩ هـ) على «صلّوا عليه وسلّموا تسليما».

(٤) أحمد (محمّد رسول الله).

(٥) زكا: طاب، طهر. المنسب (القرابة. والمناسب: أصول الفرد وآباؤه). المحتد: الأصل (الكريم) والطبع (السليم).

(٦) تأثّل: ثبت، عظم. السؤدد (والسودد، أيضاً): السيادة.

(٧) الصميم: وسط الشيء، الخالص النقيّ من كلّ شيء (خيراً أو شرًّا).

معنـى السجودِ لآدمٍ تفهيما[1]. صلّوا عليـه وسلّموا تسليمـا.

★ ★ ★

آياتُـهُ بَهرَتْ سنـاً وسنـاءَ[2]
وأفـادَتِ القَمَرينِ منـه ضِيـاءَ[3]
وعَلَـتْ بأعـلامِ الظُّهورِ لِواءَ[4]
فَهَـدى بـهِ اللهُ الصِّراطَ قويما. صلّوا عليـه وسلّموا تسليمـا.

★ ★ ★

دَنَـتِ النُّجومُ الزُّهْرُ يومَ وِلادتِـهْ،
ورأتْ حليمـةُ آيـةً لسِيادتِـهْ.
وتحدّثَـتْ سَعْـدٌ بذِكْرِ سَعادتِـهْ
فتَفاءلوا، نِعْمَ اليتـيمُ يتـيما[5]. صلّوا عليـه وسلّموا تسليمـا.

★ ★ ★

مـا زال بُرهـانُ النبيّ يلوحُ:
يغـدو بـه الإعجـازُ ثمّ يروحُ،

(١) في الأخبار المرويّة أنّ «محمّداً» (صلّى الله عليه وسلّم) كان موجوداً قبل آدم أبي البشر. وفي هذه المخمّسة أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم (راجع القرآن الكريم، مثلاً، ٢: ٣٤، سورة البقرة) لأنّ «النطفة» التي نشأ منها «محمّد» كانت موجودة في آدم منذ ذلك الحين (وهذه أقوال مخالفة لما ورد في القرآن الكريم، في أماكن كثيرة).

(٢) الآية: العلامة، المعجزة التي يختصّ الله بها بعض خلقه دون بعض (انقلاب العصا حيّة كان آية لموسى). بهر: أدهش، حيّر، غلب، ستر (الأشياء المماثلة). السنا: ضوء البرق. السناء: العلوّ، الرفعة.

(٣) القمران: الشمس والقمر.

(٤) العلم: الجبل. الظهور جمع ظَهر: رأس الجبل. اللواء: الراية (يسير بها الرجل فيتبعه الناس). وعلت....: فاق (محمّد) برسالته جميع الذين جاءوا قبله.

(٥) دنا: اقترب. الزهر: اللامعة. حليمة السعديّة: مرضعة رسول الله. سعد (بنو سعد: قبيلة حليمة السعدية) - في هذه الأشطر علامات ينسبها الشاعر (كما نسب نفر كثيرون مثلها) إلى ولادة الرسول (وليست من الأخبار الصحاح - وقد قال الرسول: أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد: اللحم المجفّف).

حتّـــى أتـــــاه بعــــــدَ ذاك الروحُ[1]
يُوحي لــه وَحْيَ الآلَـهِ حكيما. صلّوا عليــــه وسلّموا تسلـــيما.

★ ★ ★

بَرَكاتُـــــهُ أرْبَـــتْ عــــلى التَّعْــدادِ [2]
كم أطْعَمَــــــتْ من حاضِرِينَ وبـــــادِ
من قَصْعَـــــةٍ أو حَثْيَـــــةٍ من زادِ
رِزْقـاً كريمـاً للجيوشِ عَميما[8]! صلّوا عليــــه وسلّموا تسلـــيما.

★ ★ ★

والجِـــذعُ حنَّ لـــــه حَنـــينَ الوالـــهِ[3]،
يُبـدي الـذي يُخفيـه من بِلْبالـهِ[4].
أفـــلا يَحِنّ مُتَيَّمٌ بجَمالـــــهِ[5]
يشتــاقُ وجهـاً للنـبيّ وَسيما[6]؟ صلّوا عليــــه وسلّموا تسلـــيما.

★ ★ ★

ذاك الشفيـــــــعُ مَقامُــــــــه محمودُ،

---

(١) برهان النبيّ...: ما عهده معاصروه من صدقه وأمانته واهتمامه بخير قومه. الروح: جبريل.

(٢) أربى: زاد. الحاضر: الساكن في المدينة. البادي: الساكن في البادية. القصعة: وعاء صغير يوضع فيه الطعام. الحثية (ليست في القاموس). الحثي: ما يؤخذ (من الأشياء) باليد: مقدار كفّ (شيء قليل).

(٣) العميم: الجمع الكثير.

(٤) كان في صدر مسجد الرسول في المدينة جذع (قطعة من ساق شجرة ضخمة) كان الرسول يقف عليه ليخطب في المسجد. فبعد وفاة الرسول أخذ نفر من الناس يأتون إلى هذا الجذع للتبرّك به ثمّ يقولون إنّهم يسمعون منه حنيناً (صوتاً يدلّ على الشوق والحزن) كحنين الواله (الشديد الحزن، المتحيّر). فقطع عمر بن الخطاب هذا الجذع لأنّه قدّر أن سلوك نفر من الناس عند هذا الجذع يدلّ على الوثنية.

(٥) البلبال: اضطراب العقل وتحييره بأفكار مختلفة تخطر له.

(٦) المتيّم: الذي أمرضه الحبّ.

(٧) الوسيم: الجميل.

ولِواؤه بِيَــــــدِ العُــــــلا معقودُ.
فـــــإذا توافـــــتْ للحِساب وفُودُ[1]،
قالوا: تقـــدّمْ بالأنـــام زَعيما. صلّوا عليـــه وسلّموا تسلـــيما.

★ ★ ★

فيقومُ بالبـــــابِ العَليِّ ويسجُــــــدُ،
ويقولُ: يـــــا مَوْلايَ، آنَ المَوْعِـــــدُ[2].
فيُجـــابُ: قُـــلْ يُسْمَــعْ إليـــكَ، مُحَمّـــدُ!
ونُريـــكَ مِنّـــا نَضْرةً ونَعـيما[3]. صلّوا عليـــه وسلّموا تسلـــيما.

★ ★ ★

أعْظِمْ بِعِزِّ مُحمّـــــــدٍ وبِجاهِـــــــهِ.
أكْرِمْ بـــــه مُتَوَسِّلا لإلَهـــــــهِ[4].
شَرِبَـــتْ كِرامُ الرُّسْلِ فَضْـــلَ مِياهِـــه[5]
فَغَـــدَتْ تُعَظِّمُ حَقَّـــه تعظـيما. صلّوا عليـــه وسلّموا تسلـــيما.

★ ★ ★

يـــــا سامِعي أخبـــــارِه ومَفاخِرهْ
ومُطالـــعي آثـــارِه ومـــآثِرهْ[6]
ومُؤمّـــــــــلي وافي الثوابِ ووافِرهْ،
إنْ شِئَتُمُ فَوْزاً بـــذاك عظـيما، صلّوا عليـــه وسلّموا تسلـــيما.

---

(١) للحساب: ليوم الحساب (يوم القيامة) وفود الأمم المختلفة (من أتباع الأنبياء).
(٢) فيقوم (يقف) بالباب العليّ (بين يدَيِ الله). آن: قرب، حلّ. الموعد: الوعد (وعد الله بتفضيل أمّة محمّد على غيرها من الأمم، ففي القرآن الكريم: ﴿كنتم خير أمّة أُخرجت - بالبناء للمجهول - للناس ﴾).
(٣) النضرة (هنا) تلألؤ الوجه من نشاط أو سرور.
(٤) توسّل الرجل: طلب شيئاً (ممّن هو فوقه) مع الرجاء.
(٥) شربت الرسل فضل مياهه (إنائه): كانت رسالاتهم جزءًا من رسالته
(٦) المأثرة (بضمّ الثاء المثلّثة): المكرمة (العمل الكريم) المتوارثة.

- من وصيّةٍ كتبها ابنُ الجَنّان الأنصاريُّ على لسانِ ابنِ هودٍ[١] إلى أوْلادِه وعُمّاله الموظّفين في دولته).

.... إنّا - واللهُ المُرشدُ - لَنَعْلَمُ أنّ الأمرَ الذي قَلّدَنا اللهُ تعالى منه ما قلّدَهُ، وأسْنَدَهُ إلينا مِن أُمورِ خلقهِ ما أسْنَدَهُ، قد ألْزَمنا من حُقوقهِ الواجبةِ وفُروضهِ الراتبةِ ما لا يُستَطاعُ إلّا بمعونتهِ أداؤُه[٢]، ولا يَسْتَتِبُّ إلّا بتوفيقِ اللهِ تعالى انتهاؤه وابتداؤه. فَهُوَ المشكورُ عَزَّ وجَلَّ على نِعمتهِ والمُستَعانُ على ما يُدني من رِضاه ويُقرِّبُ من رَحمته. وإنّ كلَّ امرِئٍ بشأنهِ مشغولٌ، وعن خُوَيصيّةِ[٣] نفسهِ مسؤول. ونحنُ بما اسْترعانا اللهُ تعالى مشغولون، وعن الكبيرِ والصغيرِ مسؤولون. وعلينا النصيحةُ للهِ في عبادِه وبلادِه، والنظرُ لهم بمُنتهى جِدّ المُجتهد واجتهادِه. ولا قوّةَ إلّا بالله عليه توكّلْنا، وبهِ إليه توسّلْنا[٤]. فعَيْنُنا تسهَرُ لِتنامَ للرعيّةِ عُيونُهم، وتَحرُّكُنا يتّصلُ لِيَحْصُلَ لهم سُكونُهم. وأمَلُنا ألّا نُقرَّ فيهم بحولِ اللهِ تعالى ظُلماً ولا هَضْماً[٥]، ولا نَخْرِمُ لهم في إقامـة حقوق الله ما اَسْتَطَعْنا نَظْماً. وأنّى[٦] يَنْصرِفُ، عن هذا القَصْدِ بعملِهِ ونيّتِه، مَنْ يَعْرِفُ أنّ الله جلَّ جلالُه لا يُجوِّزُ ظُلْمَ ظالمٍ في بَرِيَّتِهِ[٧]. ولَعَلَّ اللهَ الذي حَمّلَنا ما حمّلَنا، واستَعْمَلَنا بمشيئتهِ فيما استعمَلَنا، أنْ يَهَبَ لنا توفيقَه ويَسْلُكَ بنا إلى هُداه طريقَه.

- ذَمّ الدنيا (من خُطبة لابنِ الجنّانِ الأنصاريّ):

.... فَبِئْسَتِ الدارُ داراً لا تُداري، ولا تُقيلُ لعاثرِها عِثاراً[٨]، ولا تَقْبَلُ

---

(١) المتوكّل بن هود صاحب مرسية (٦٢١ - ٦٣٥ هـ).

(٢) الراتب: المتكرّر على نسق واحد. أداؤه: القيام به.

(٣) الخويصيّة تصغير الخاصّية التي هي نسبة إلى الخاصّة (ما يخصّ نفسك دون غيرك).

(٤) نستعين بالله في طلبنا شيئاً من الله.

(٥) الهضم: أن يكون لأحد عندك حقّ فتعطيه جزءًا منه فقط (والظلم أن تسلبه كلّ حقّه).

(٦) أنّى: كيف؟

(٧) البريّة: الخلق (بالفتح) جميع الناس.

(٨) الدار: هذه الدنيا. لا تقيل لعاثر عثاراً (لا ترفع ساقطاً من سقطته): لا تغفر ذنباً (جاء به أحد خطأ).

لِمُعتذرٍ اَعتذاراً، ولا تَقي من جَوْرِها[1] حليفاً ولا جاراً. وليسَ لها من عهدٍ ولا ذِمام: كم فَتَكَتْ بقومٍ غافلين عنها نيامٍ، كم نازلتْ بنوازِلِها من قِبابٍ وخِيامٍ[2]، كم بدّلتْ من سلامةٍ بِداءٍ ومن صِحةٍ بِسَقام.. كم أبادت طوارق حوادِثِها من شيخٍ وكَهْلٍ وغُلام. لا تُبقي على أحدٍ، ولا تَرْثي لوالدٍ ولا ولَدٍ، ولا تُخْلِدُ سروراً في خَلَدٍ[3]، ولا يَمتدُّ فيها لآملٍ أمَدٌ. بَيْنا يُقالُ قَدْ وُجِدَ، يُقالُ قد فُقِدَ! بُعداً لها قد طُبِعَتْ على نَكَدٍ وكَمَدٍ، فالفَرَحُ فيها تَرَحٌ، والحبرة عَبرة[4]، والضَّحِكُ والآبتسام بُكاءٌ وأدمُعٌ سِجامٌ[5]. تُفَرِّقُ الأحِبّةَ بعدَ اجتماعِهم، وتُسْكِنُ الوَحْشَةَ مُؤْنِسَ رِباعِهم[6]، وتُبيحُ بالحِمام[7] حِمى الأعزّةِ فلا سبيل إلى امتناعِهم، وتَسْتَحِثُّ ركائبَ الخلائقِ على اختلافِ أنواعِهم إلى الله عزَّ وجلَّ وارتجاعِهم[8]، فيسيرونَ طَوْعَ الزِّمام[9]، ويُلْقونَ مَقادةَ التذلُّلِ والاستِسْلام، حتّى يَلجأوا بالرُّغام ويَنْزِلوا بُطونَ الرِّجام ويَحِلّوا الوَهْد بعد المَقام السام[10]. فلا ناجٍ من خَطْبِها العظيم ولا سليمٌ[11]: يتساوى في حُكمِ المَنِيّةِ الأغرُّ والبهيمُ

---

(١) وقى، يقي: حمى، دافع عن. الجور: الظلم، الحيد عن طريق الحق.

(٢) نازلت: حاربت، اعتدت. النازلة: المصيبة. قباب (أهل القباب). القبّة: خيمة كبيرة من جلد يسكنها الرؤساء والأغنياء. والخيمة تكون (في العادة صغيرة من شعر أو صوف أو نسيج آخر ويسكنها عامّة الناس). الدنيا عدوّ لجميع الناس.

(٣) لا ترثي لفلان: لا ترحمه. لا تخلد: لا تبقي، لا تديم. ثمّ اقرأ: ولا تخلد سروراً ولا في خلد (في بال): لا يخطر ببال أحد أن الدنيا تدوم لأحد.

(٤) ترح: حزن. الحبرة: السرور. عبرة: دمعة (حزن، أسف).

(٥) السجام مصدر سجم: سال (كثيراً أو قليلاً). وابن الجنّان (هنا) يصف الدموع بالمصدر «سجام» والمصدر (إذا جعلناه صفة) يلزم الإفراد أكان الموصوف مفرداً أو جمعاً.

(٦) الرباع جمع ربع (بالفتح): المكان المسكون.

(٧) الحِمام (بالكسر): الموت.

(٨) تحتثّ: تحرّض وتحثّ على السرعة (تسوق بعنف). الركائب جمع ركوبة: دابّة تركب في السفر. إلى الله (أي بالموت). ارتجاع (الخلق إلى الله: ردّ الناس إلى الله (يوم القيامة) لحسابهم.

(٩) الزمام: لجام الدابة، رسنها.

(١٠) الرغام: التراب. الرجام جمع رجمة (بالفتح): حجر ينصب على القبر. الوهد: الأرض المنخفضة، الحفرة. السام (حقّها أن تكون: السامي): العالي (لأنّ المنقوص تلزمه الياء في التعريف والإضافة: هو سام، ولكنّه سامي المقام والسامي في المقام.

(١١) الخطب: المصيبة. الخطب العظيم: الموت. سليم معطوفة على ناج.

والأعزُّ والمَضيم[1]....

٤ - ** عنوان الدراية ٣٠٢-٣٠٦؛ الإحاطة (١٣١٩ هـ) ٢: ٢٥٦ - ٢٦٤؛ نفح الطيب ٧: ٤٠٦ - ٤٣٨، ٤٤٠ - ٤٤١، ٥٠١ - ٥٠٢، ٥٠٦ - ٥٠٧؛ الأعلام للزركلي ٧: ٢٥٦ (٢٩).

أبو الحسن الشاذليّ

١ - هو نور الدين أبو الحسنِ عليُّ بنُ عبدِ اللهِ بن عبدِ الجبّارِ الشريفُ[2] الزَرْويليّ الشاذِليّ، وُلِدَ في قرية غُمارةَ قرب سَبْتَةَ[3]، سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٦ م) ونشأ فيها وتلقى علومَه الأولى.

تاقت نفسُ أبي الحسن إلى التصوّفِ منذ مَطْلَعِ شبابهِ فٱنتقل إلى زَرْوِيلةَ[4]. ثمّ إنّه جاء إلى فاسَ فَلقِيَ نفراً من أتباع الصوفيّ المشهورِ أبي القاسمِ الجُنيد البَغْداديّ (ت ٢٩٧ هـ) ومن أتباع أبي مدين، أشهرُهم عبدُ السلامِ بن مَشيشٍ (ت ٦٢٥ هـ) وأبو عبد الله محمّد بن حِرْزِهِمْ المعروفُ بابنِ حَرازِمٍ وبأبي حِرْزَمٍ (ت ٦٣٣ م) وأخذَ عنهم مُعْظَمَ معارفهِ وطريقةَ سلوكهِ في التصوّف.

---

(١) المنيّة: الموت. الأغرّ: الأبيض (الكريم الأصل). البهيم: الأسود (المجهول الأصل). ويقال للشيء إذا لم يكن واضحاً في جودته أو في رداءته: لا أغرّ ولا بهيم. المضيم (بالفتح): الذليل.

(٢) أبو الحسن الشاذلي من البربر أهل المغرب الأقصى كما يدلّ على ذلك مولده في قرية غمارة وتقلّبه في المغرب في مطلع حياته - في زرويلة وفاس. ولكنّ أتباعه المتأخّرين رفعوا نسبه إلى العلويين عامّة مرّة، وإلى الأدارسة مرّة ثانية خاصّة - ومن هنا أطلقوا عليه لقب الشريف. ويحسن أن نلاحظ أيضاً أن هؤلاء المؤرخّين لحياته جعلوه يلقى من مشاهير الصوفيّين والعلماء نفراً لم يجمع بينه وبينهم مكان ولا زمان - جرياً على عادة نفر من المؤرخين الذين لا يحكّمون قوانين المنطق وطبيعة العمران ومجاري العادة عند التأريخ. - ومعظم الذين أرّخوا لأبي الحسن الشاذلي شغلوا أنفسهم بالكرامات (شبه المعجزات) وبالروايات الخيالية والمنامات أكثر ممّا رجَعوا إلى التاريخ وإلى ضبط أحداث حياة الشاذليّ بالتواريخ.

(٣) سبته مرفأ المغرب الأقصى على البحر الأبيض المتوسّط.

(٤) زرويلة بلدة كانت عند شفشاون، قريبة من تطوان (في الجانب الشمالي من المغرب الأقصى).

بعدَئذٍ ٱنتقلَ إلى تونِسَ وتلقّى على نَفَرٍ من علمائها التفسيرَ والحديثَ والفِقْهَ والنحوَ والأدبَ ولَقِيَ فيها المتصوّفَ أبا سعيدٍ الباجيَّ (ت ٦٢٨ هـ).

ولعلَّ عبدَ السلام بنَ مشيشٍ كان قد أشار على أبي الحسن الشاذلي بالتوجّه إلى تُونِسَ توسيعاً لطريقةِ التصوّف فٱنتقل أبو الحسن إلى تونسَ وٱتّخذَ رِباطاً[1] في جبل زَغْوانَ وأخذَ ينشُرُ دعوتَه في بلدةِ شاذِلَةَ قريباً من رِباطِه. وكَثُرَ أتباعُ أبي الحسن في تونسَ وعَظُمَ نفوذُه فسَعَى به أبو القاسمِ بنُ البراء قاضي الجَماعة بتونسَ إلى السلطان أبي زكريّا الحَفصيّ (٦٢٦ - ٦٤٧ هـ) فتعرّض أبو الحسن لشيءٍ من الاَضطهاد ثمّ نُفِيَ عن تونسَ فجاء إلى مِصْرَ، ولعلّه في هذهِ الفترةِ ذهب إلى العِراق ولقي في بغدادَ أبا الفتحِ الواسطيَّ (ت ٦٣٢ هـ).

وعاد أبو الحسن الشاذليُّ إلى تونسَ سَنَةَ ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م)، ولكنّه أُزْعِجَ عنها من جديدٍ فرَجَعَ إلى مِصْرَ (٦٤٢ هـ) ومَعَهُ نَفَرٌ من خاصّةِ أتباعهِ أشهرُهم أبو العبّاسِ المُرسيُّ[2]. واستقرّ الشاذليُّ وأتباعُه في الاسكندرية واتّسعت دعوتُه هناك فتعرّض لشيء من الاضطهاد. ثمّ كُفَّ بَصَرُهُ - أو ضَعُفَ كثيراً - سَنَةَ ٦٤٦ هـ. ويُقال إنّه ٱشترك في تلك السنةِ نفسِها في مَعْرَكةِ المنصورة التي نَشِبَتْ بين المسلمين وبينَ الحملةِ الصليبيةِ السادسةِ التي كان يقودُها لويسُ التاسعُ ملكُ فرنسةَ والتي أُسِرَ فيها لويسُ نفسُه.

وسار أبو الحسنِ الشاذليُّ في نَفَرٍ من أتباعه إلى الحجّ - بعدَ أن كان قد حجّ مراراً من قبلُ - فأصابته وَعْكةٌ في قرية حُميثرةَ[3] بصحراء عَيْذابَ من صعيدِ مِصْرَ، فتوفّي في شهر شوّالٍ من سَنَةِ ٦٥٦ (تشرينَ الأوّلَ - أكتوبر ١٢٥٨ م) فتولّى أبو العبّاس المرسيّ دَفْنَهُ.

---

(١) الرباط: محلّ ربط الخيل، وهو مكان تنزل فيه جماعات من المجاهدين لصدّ العدوّ عن تخوم البلاد الإسلامية. ثمّ أصبح الرباط دالاّ على بناء صغير ذي قبّة يقيم فيه رجل أو نفر من الرجال للزهد والتصوّف، أو للعبادة.

(٢) أبو العبّاس المرسي: هو شهاب الدين أحمد بن عمر (ت ٦٨٦ هـ).

(٣) حميثرة (بالتصغير) وبثاء (ثالث حروف الهجاء منقوطة بنقطتين من فوقها) علم (بفتح ففتح) في صحراء عيذاب، من صعيد مصر (راجع القاموس ٢ : ١٤ ثم تاج العروس - الكويت ١١ : ٩٤).

٢ - أبو الحسنِ الشاذليُّ من كِبارِ أصحابِ الطُّرُقِ[١] الصوفية ومن أشهرِهم. وكان الشاذليُّ قد تأثّرَ بعَدَدٍ من كُتُبِ التصوّف المشهورة منها: المواقف والمُخاطبات لمحمّدِ بن عبد الجبّار النِفّريّ (ت ٣٥٤ هـ) - قوت القلوب لأبي طالبٍ المَكّيّ (ت ٣٨٧ هـ) - الرسالة البَيانية لأبي القاسم القُشيريّ (٤٦٥ هـ) - إحياء علوم الدين للغزّالي (ت ٥٠٥). ومَعَ أنّ الشاذليَّ من أصحابِ التصوّف المعتدل في التفكير والسلوك، فإنّ الجانب السلبيّ بارزٌ في حياتهِ جدًّا: إنّ تصوُّفه يقومُ على أربعِ دعائمَ: الذِكْر وبساطة العمل الصالح، التفكير وبساطة الصبر، الفقر وبساطة الشُّكر، الحبّ وبساطة بُغض الدنيا وأهلها، وثمرةُ ذلك محاولةُ الاتّصال بالمحبوب (الله). ويبدو أنّ الشاذليَّ كان في أولِ حياتهِ أكثرَ مَيْلاً إلى الكِفاح والجِهاد والعمل الاجتماعي، ولكنْ لم يُحْرِزْ نَجاحاً في كِفاحه في المغرب الأقصى وتونسَ ومِصْرَ ثمّ نالَه من محاولةِ العملِ الإيجابيّ اضطهادٌ مستمرٌّ، فآثر الإخْلادَ إلى الوجه السلبيّ من التصوّف.

وكان للشاذليّ نظم.

والشاذليُّ مُصَنَّفٌ له: عُمدة السالك على مذهب الإمام مالكٍ في العِبادات وغير ذلك - المقدّمة العِزّية للجماعة الأزهرية (مختصر الكتاب السابق) - كتاب الإخْوة - الرسالة الحَوْذية - التسلّي والتصوّر على ما قضاه اللهُ من أحكام أهل التجبُّر والتكبّر - تخميس رائية أبي مَدْيَنٍ - ديوانٌ - مجموعُ أشعارٍ[٢] - رسالة الأمين - الاختصاص من الفوائد القرآنية والخواصّ (السرّ الجليل في خواصّ حسبنا الله ونعم الوكيل). وللشاذليّ أحزابٌ[٣] كثيرةٌ منها: حزب البَرّ (أو الحزب الكبير) - حزب البحر - حزب الإخفاء - حزب النصر - حزب الطَمْس على عيون الأعداء - حزب اللُّطف - حزب الفَتْح (أو حزب الأنوار) - حزب الضُّحى - حزب

---

(١) الطرق جمع طريقة: أسلوب للحياة الصوفية يقوم على الاقتداء بشيخ صوفي معيّن مع اتّخاذ مسلك معيّن وقراءة أحزاب معيّنة (الحزب: راجع حاشية تالية).

(٢) لعلّ هذا المجموع هو الديوان.

(٣) الحزب: الورد (بكسر الواو): ترتيب لآيات وأقوال على وجه مخصوص يقرأها المتصوّف (أو المتعبّد عامّة) في أوقات معيّنة (راجع نموذج من ذلك في المختارات من آثار الشاذلي).

صلاة الفتح والمَغْرب - حزب الحمد - حزب التفريج - الحزب الأوّل - الحزب الثاني - دعاء.

٣ - مختارات من آثاره

- من حزب البَرّ المعروف بالحزب الكبير:

أعوذُ باللهِ من الشيطان الرَجيم[١]. بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم[٢]: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتِنا فقُلْ: سلامٌ عليكم. كَتَبَ ربُّكم على نفسِه الرحمةَ: إنّه من عَمِلَ منكم سوءاً بجَهالةٍ ثمّ تابَ من بَعدِه وأصلحَ؛ فإنّه غفورٌ رحيم﴾[٣]. ﴿بديعُ السمواتِ والأرض؛ أنّى يكونُ له ولَدٌ ولم تكن له صاحبةٌ؛ وخلَقَ كلَّ شيءٍ. وَهُوَ بكلِّ شيءٍ عليم﴾[٤].....

اللهمَّ، إنّك تعلَمُ أنّي بالجَهالةِ معروفٌ. وأنتْ بالعلمِ موصوف، وقد وَسِعْتَ كلَّ شيءٍ من جهالتي بعِلْمِكَ فَسَعْ ذلك برحمتِكَ كما وَسِعْتَه بعِلْمِك. واغفِرْ لي، إنّك على كلِّ شيءٍ قدير......

يا اللهُ، يا عظيمُ، يا عليُّ، يا كبيرُ: نسألُكَ الفقرَ مِمّا سِواكَ[٥] والغِنى بكَ حتّى لا نشهَدَ إلّا إيّاكَ[٦]. والْطُفْ بنا فيها لُطْفاً عَلِمْتَه يَصْلُحُ لِمَنْ والاكَ، واكْسُنا جلابيبَ العِصْمة في الأنفاسِ واللَّحَظات، واجعَلْنا عبيداً لك في جميعِ الحالاتِ، وعَلِّمْنا من

---

(١) القرآن الكريم (١٦ : ٩٢، سورة النحل): ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾.

(٢) في القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة تبدأ مائة وثلاث عشرة سورة منها بالآية: «بسم الله الرحمن الرحيم». أمّا السورة التاسعة (سورة التوبة) فلا تبدأ بهذه الآية لأنّها نزلت في الحرب وفي «براءة» الله ورسوله من المشركين الذين كانوا لا يزالون إلى ذلك الحين على الوثنية. ومطلع السورة التاسعة: ﴿براءة من الله ورسوله.....﴾. ولذلك تعرف أيضاً بسورة «براءة». ثمّ إنّ الآية «بسم الله الرحمن الرحيم» ترد في سياق سورة النمل (٢٧ : ٣٠) فيكون عدد مرّات البسملة في القرآن الكريم مائة وأربع عشرة بعدد السور.

(٣) القرآن الكريم ٦ : ٥٤ (سورة الأنعام).

(٤) القرآن الكريم ٦ : ١١١ (سورة الأنعام).

(٥) هذه الجملة يجب أن تعني ما يلي: نسألك أن تجعلنا أغنياء عن كلّ أحد سواك، فقراء (محتاجين) إليك وحدك وأن نغنى (نصبح أغنياء بك: بعطائك أنت).

(٦) حتّى لا يكون أمام أبصارنا وبصائرنا غيرك.

لَدُنْكَ عِلْماً نَصيرُ به كاملين في المَحْيا والمَمات.......

اللهمَّ، نسألُكَ إيماناً دائماً، ونسألك قلباً خاشعاً، ونسألك علماً نافعاً، ونسألك يقيناً صادقاً، ونسألك ديناً قِيماً. ونسألك العافِيَةَ من كلّ بَلِيَّةٍ، ونسألك تَمامَ العافيةِ[1]، ونسألك الشُّكْرَ على العافية. ونسألك الغِنى عن الناس.......

- من مقدّمة المقدّمة العِزّيّة ومن خاتمتها:

.... هذه مقدّمةٌ في مسائلِ العباداتِ وغيرِ ذلك على مذهبِ الإمامِ مالكِ بنِ أنَسٍ، رَحِمَهُ اللهُ تعالى، لِيَنْتَفِعَ بها الوِلْدانُ ونَحْوُهُم - إن شاءَ اللهُ تعالى - لَخّصْتُها من كتابي المُسمّى بـ «عُمْدةِ السالك على مذهبِ الإمامِ مالكٍ في العباداتِ وغير ذلك». وَسمّيتُها بـ «المُقدّمة العِزّيّة للجماعة الأزهرية» مشتملةً على أحَدَ عَشَرَ باباً.....

يَنْبغي للإنسانِ ألاّ يُرى إلاّ مُحصِّلاً حَسَنَةً لَمعادِه أو دِرْهَماً لَمعاشِهِ، ويَتْرُكُ[2] ما لا يَعْنيه ويَحْتَرِسُ من نفسِه ويَقِفُ عند ما أشْكَلَ ويُنْصِفُ جليسَه ويُلينُ له جانبَه ويَصْفَحُ عن زَلّتِه ويَلْزَمُ الصبرَ. وإنْ نَظَرَ عالِماً نَظَرَ إليه بعينِ الإجلال، ويُنْصِتُ له عند المَقال. وإن راجَعَه راجَعَه تَفَهُّماً ولا يَعارِضُه في جوابِ سؤال سأله . ومَنَ ناظَرَ في عِلْمٍ فَبِسَكينةٍ ووَقارٍ وتَرْكِ الاستيلاءِ وبِحُسْنِ التأنّي وجميل الأدب، فإنّهما مُعينانِ على طلب العلم........

٤- الشرح (أو الأُنس أو السرّ) الجليل في خواصّ «حسبنا الله ونعم الوكيل»[3]، القاهرة (طبع حجر) بلا تاريخ؛ القاهرة ١٢٩٧ هـ.

- حزب البحر (في مجموع لطيف)، القاهرة (طبع حجر) ١٨٦٥ م (١٢٨٢ هـ)؛ قازان ١٨٩٧ م (١٣١٤ - ١٣١٥ هـ)؛ مع أحزاب أخرى وأشعار وترجمة فارسية تتخلّل السطور في مجموع عنوانه «لوح محفوظ»، لمحمّد محفوظ الحقّ، أرّا (؟) ١٣٠٩ هـ؛ مع أحزاب أخرى بمقدّمة هندستانية وترجمة تتخلّل السطور، لمحمّد عبد القيّم، كاونبور

(١) العافية من كلّ بليّة: الإعفاء (الحماية) من كلّ مصيبة. تمام العافية: تمام الصحّة.

(٢) السياق النحوي يقتضي أن يكون الفعل «يترك» والأفعال التي بعده معطوفة عليه «منصوبة»، ولكن المعنى حينئذ يضطرب ويصبح «وألاّ يترك ما لا يعنيه: أي يهتّم بما لا يعنيه».

(٣) في القرآن الكريم (٣: ١٧٣، سورة آل عمران): ﴿حسبنا الله (إنّ الله يكفينا مكائد أعدائنا ويدفع تلك المكائد عنّا) ونعم الوكيل﴾ (وهو الذي نفوّض إليه أمرنا في كلّ شيء).

١٨٩٦ م؛ مع ترجمة إلى لغة التاميل (في جنوب الهند) في مجموع «نفحة الأنبار (؟)»، لنوح عليّ القادري، بومباي ١٣٢٠ هـ.

- المقدّمة العزّيّة للجماعة الأزهرية، القاهرة (دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابي الحلبي وشركاه) بعد ١٣٣٢ هـ.
- مجموع الأحزاب، القاهرة ١٣١٧ هـ.

★★ شرح حزب البحر:

- شرح .... لأحمد بن أحمد زرّوق[١] (على هامش دلائل الخيرات)، مدراس ١٩٠٨ م.
- اللطيفة المرضية، لابن ماهلا (؟)، القاهرة ١٩٣٥ م.
- فيض الرحمن (حاشية) لحسن العدوي، القاهرة ١٢٨١ هـ.
- خلاصة الزهر.... لمحمّد خليل القاوقجي[٢]، القاهرة ١٣٠٤ هـ.

شرح حزب البرّ (أو الحزب الكبير):

- تنبيه العارف البصير على أسرار الحزب الكبير، للمرتضى الزبيدي[٣]، القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٣٣ هـ.
- شرح حزب البرّ أو الحزب الكبير، تأليف أبي زيد عبد الرحمن بن محمّد الفاسي[٤] (مع «تنبيه العارف»)؛ القاهرة (مكتبة الكلّيات الأزهرية) ١٩٦٩ م.
- الجواهر المضيّة (؟) في شرح العزّية، لصالح بن عبد السميع الآبي الأزهري، القاهرة (دار إحياء الكتب العربية) ١٣٣٢ هـ.
- درّة الأسرار وتحفة الأبرار، تأليف محمّد بن أبي القاسم الصبّاغ الحميري، تونس ١٣٠٤ هـ.
- مجموعة آراء سنيّة للسادة الشاذلية (تحرير محمّد الطيّب الجزائري)، دمشق ١٣٠١ هـ.
- ابن عطا الله ونشأة الطريقة الشاذلية: تحقيق «الحكم العطائية» - لبولس نونا)،
- المفاخر العليّة في المآثر الشاذلية، تأليف محمّد بن محمّد عيّاد......
- أبو الحسن الشاذلي، بقلم علي سالم عمّار، الجزء الأول، مصر، (مطبعة دار التأليف) ١٩٥١ م.
- أبو الحسن الشاذلي الصوفي والعارف بالله، بقلم الدكتور عبد الحليم محمود (أعلام العرب، رقم ٧٢)، القاهرة (المؤسّسة المصرية العامّة للتأليف والنشر) ١٩٦٧ م.

---

(١) أحمد بن أحمد بن زرّوق (ت ٨٩٩ هـ)، له ترجمة في هذا الجزء.

(٢) محمّد بن خليل المشيشي القاوقجي الطرابلسي (ت ١٣٠٥ هـ)، راجع بروكلمن، الملحق ١: ٧٧٦.

(٣) محمّد بن محمّد المرتضي الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) صاحب القاموس العظيم «تاج العروس».

(٤) عبد الرحمن الفاسي (ت ١٠٣٦ هـ).

نكت الهميان ٢١٣ ؛ ابن قنفذ ٣٢٣ ؛ شذرات الذهب ٥ : ٢٧٨ - ٢٧٩ ؛ دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى) ٤ : ٢٤٦ - ٢٤٩ ؛ بروكلمن ١ : ٥٨٣ - ٥٨٤ ، الملحق ١ : ٨٠٤ - ٨٠٦ ؛ النبوغ المغربي ٣٥٧ - ٣٦٥ ؛ الأعلام للزركلي ٥ : ١٢٠ (٤ : ٣٠٥)؛ مجلّة العربي ٦/ ١٩٦٤ و٧/ ١٩٦٤ ؛ سركيس ١٠٨٨ - ١٠٨٩ .

ابن الأبّار القضاعيّ

١ - هو أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ عبد الله (ت ٦١٩ هـ) بن أبي بكرٍ بن عبد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن بنِ أحمدَ بن أبي بكرِ بنِ الأبّارِ القُضاعيُّ البَلَنْسِيُّ ، وُلِدَ في بَلَنْسِيَةَ في أحد الربيعينِ من سنة ٥٩٥ (أوائل ١١٩٩ م) ونشأ فيها .

بدأ ٱبْنُ الأبّار تلَقِّيَ العلمِ على والدِه ثمّ سَمِعَ من نفَرٍ كثيرين منهم: عبد الله بن أيّوبَ بنِ نوحٍ الغافقي السَّرَقُسْطي (ت ٦٠٨ هـ) ومحمدُ بنُ محمدِ بنِ عبد العزيز الأنصاري (ت ٦١٠) وقد أخذ عنه النحو والأدب. ومن شيوخه أبو سليمانَ داوودُ بنُ سُليمانَ بن حَوْطِ الله (نفح الطيب ٤ : ٣٣٥) المُتوفّى سَنَة ٦٢١ للهِجرة - وكان من المشتغلين بالتاريخ ؛ ومنهم أبو الخطّاب أحمدُ بنُ محمدِ بنِ واجبٍ القيسيُّ (ت ٦١٤ هـ) أخذ عنه التاريخ. ومن أكبر شيوخه أبو الربيعِ سُليمانُ بن موسى بن سالمِ بن حسانَ الكَلاعيُّ (ت ٦٢٤ هـ) وكان بارعاً في الحديث والتاريخ معَ العلم بالبلاغة والأدب كما كان له عددٌ من الكُتُبِ. وقد لازمه ٱبْنُ الأبّارِ عِشرين سَنَةً وتخرّج على يَدَيْهِ وتعلّم منه صِناعة الكِتابة ومن شيوخه أيضاً أبو جعفر بن الحصار ، وكان عارفاً بالقراءات (نفح الطيب ٢ : ٥٠).

وفي سنة ٦٢٥ هـ دخل ابن الأبّار في خِدمة الدولة فكتب لأبي عبد الله محمّد بن حفص الموحِّديّ والي بَلَنْسِيَة ثمّ لابنهِ السيدِ أبي زيدٍ ثمّ لزيّانٍ بن مردانيشَ، في السنة التالية. ولمّا حاصرَ دون جاقمةُ صاحبُ بَرْجَلونة (برشلونة) مدينة بلنسية (رَمَضانَ ٦٣٥) ذَهَبَ ابن الابّار في وَفْدٍ إلى سُلْطان تُونسَ أبي زكريا يحيى للاستنجادِ به على الفِرنْجة. وأنشد ابن الابّار يومذاك مِدْحته في أبي زكريا « أدْرِكْ بخَيْلِكَ خيلِ اللهِ أندَلُسا ». وأرسلَ أبو زكريا أسْطولاً لِنَجْدَةِ بَلَنْسِيَة ، ولكنَّ الأُسطولَ وَصَلَ بعدَ فواتِ

الأوان. ولمّا استولى الفرنجةُ على بلنسية (صفر ٦٣٦) خرجَ ابنُ الابّارِ منها بأُسْرتهِ مَعَ الجالينَ عن المدينة. وانتقل إلى تونس واستقرّ فيها. وتقلّبتِ الأحوالُ بابنِ الابّارِ في تونسَ فكتب للسلطان أبي زكريا (٦٣٦ هـ) ثمّ وَزَرَ للمستنصرِ (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ)، كما غَضِبَ المستنصرُ عليه مراراً ورَضِيَ مراراً. وفي العشرينَ من المُحَرَّمِ من سَنَةِ ٦٥٨ (١٢٦٠/٦/٦ م)، في الأغلب، أمر المستنصرُ بقتلهِ، بعد أن بَلَغَ خصومُه في الدسِّ عليه الغايةَ.

٢ - كان ابنُ الابّارِ القُضاعيَّ عارفاً بالتاريخ بَصيراً بطَبَقات الرِجال مُلِمًّا بفنونٍ كثيرةٍ من العلم والأدب، أديباً ناثراً مترسّلاً وشاعراً مُحْسِناً. وكان من فنونهِ المدحُ والاعتذارُ والوصفُ والغزل والنسيب والمُجون. وله ترسُّلٌ كثيرُ التكلُّف.

وكذلك كان ابن الابّار مُصَنِّفاً له من الكتب: كتابُ تَكْمِلَةِ الصِّلة (وهو تكملة لكتاب الصلة لابن بشكُوال، وقد حَثّه على وضع هذا الكتاب شيخه أبو الربيع بن سالم) - تحفة القادم (تراجم شعراء)[1] - إعتابُ الكُتّاب (تراجم لنفر عديدين من الكتاب المشارقة والمغاربة) - الحُلّة السِّيَراء في أشعارِ الأمراء - المُعْجَم في أصْحاب القاضي الإمام أبي عليّ الصَّدَفي - درر السِّمْط في خبر السِّبْط (الحسين بن عليَّ!) - إيماض البرق في أدباء الشرق - إفادة الوفادة (في ذكر الوافدين على الأندلس) كتاب التاريخ - قطع الرياض (في أشعار مختارة) - معادن اللُّجين في مراثي الحسين - هداية المعترف في المؤتلف والمختلف.

٣ - **المختار من آثاره:**

- قال ابن الابّار القضاعي يمدح أبا زكريّا يحيى الحفصي سلطان تونس

---

(١) كتاب «تحفة القادم» مفقود. ولكنّ أبا إسحاق البلفيقي كان قد صنع منه «المقتضب من كتاب تحفة القادم» (بتحقيق إبراهيم الإبياري، القاهرة، المطبعة الأميرية ١٩٥٧ م). والبلفيقي هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد بن إبراهيم بن محمّد بن أبي إسحاق (إبراهيم؟) بن الحاجّ. أصل البلفيقي من مرّاكش ولكنّ مولده ومنشأه في الأندلس وهو ينتسب إلى بلفيق (بفتح الباء، وتروى أيضاً بفتح الفاء مع كسر اللام المشدّدة) وهي حصن قرب المريّة. ولعلّ وفاة أبي إسحاق البلفيقي كانت في مرّاكش في أواخر القرن الثامن للهجرة.

ويستنصره على الإفرنج لإنقاذ بلنسية (نفح الطيب، ٤ : ٤٥٧ - ٤٦٠):

أدرِكْ بخَيْلِكَ خيلِ اللهِ أنْدَلُسا؛ إنّ السبيلَ إلى مَنْجاتِها دَرَسا[١].

وهَبْ لها مِنْ عزيزِ النصرِ ما الْتَمَسَتْ؛ فلم يَزَلْ منكَ عِزُّ النصرِ مُلْتَمسا.

يا لَلْجزيرةِ! أضْحى أهلُها جَزَراً لِلْحادثاتِ، وأمْسى جَدُّها تَعَسا[٢].

في كلِّ شارقةٍ إلْمامُ بارقةٍ يعودُ مأتَمُها عند العِدا عُرُسا[٣].

تَقاسَمَ الرومُ لا نالتْ مُقاسِمَهم إلاّ عقائلَها المَحْجوبةَ الأُنُسا[٤].

وفي بَلَنْسِيَةٍ منها وشاطِبَةٍ ما يَنْسِفُ النَّفْسَ أو ما يَنْزِفُ النَّفَسا[٥].

مدائنٌ حَلّها الإشْراكُ مُبْتَسِماً جَذْلانَ، وارْتَحَلَ الإيمانُ مُبْتَئِسا.

فَمِنْ دَساكِرَ كانتْ دُونَها حَرَساً، ومن كَنائِسَ كانت قَبْلَها كُنُسا[٦].

يا لَلْمَساجدِ عادَتْ للعِدا بِيَعاً، ولِلنِّداءِ غدا أثْناءَها جَرَسا[٧].

---

(١) - أسرع بإنقاذ الأندلس. درس: امّحى (فقد الأمل بنجاتها).

(٢) يا للجزيرة: كان الله في عون جزيرة الأندلس وأنقذها من بليّتها! جزراً: ذبائح. الجدّ (بفتح الجيم): الحظ. التعس: البؤس والشقاء.

(٣) في كلّ شارقة = عند طلوع كلّ شمس: كلّ يوم. البارقة: السيوف (القاموس ٣ : ٢١١، السطر ١٩). الإلمام: النزول، الإصابة، الزيارة. إلمام بارقة: قتل بالسيوف. العدى: الإسبان الإفرنج. وفي طبعة بيروت (٤ : ٤٥٧): بائقة (داهية).

(٤) البيت غامض. - الروم: نصارى الأندلس. تقاسم الروم: توزّعوا الغنائم بينهم. العقائل جمع عقيلة: المرأة المصونة الكريمة. المحجوبة: المخبّأة عن عيون الأجانب. الأنس جمع أنوس: (اللطيف العشرة، المؤانس). - الملموح في معنى البيت: يتقاسم الإسبان (بعد كلّ هجمة على العرب) الغنائم إلّا النساء (فإنّهن يقتلن....) فلا نال (تهنّأ) مقاسم (بضم الميم: صاحب السهم أو النصيب في القسمة) شيء من تلك الغنائم!

(٥) ما ينسف (يدكّ، يهدم، يقتلع الشيء من أصله) أو ما ينزف (ينزح، يلاشي، يفرّغ) النفس = ما يقتل، ما يهلك.

(٦) الدسكرة: المزرعة. كانت تلك الدساكر حماية لتلك المدن التي سقطت في يد الإسبان (فذهبت المدن والدساكر معها). الكنس جمع كناس (بكسر الكاف): بيت الظبي (مساكن للنساء الجميلات).

(٧) البيعة (بكسر الباء): الكنيسة، معبد النصارى. النداء: الأذان، دعوة المسلمين إلى الصلاة من المآذن.

كانـتْ حدائـقَ للأحْـداقِ مُونِقَةً ... فَصَوَّحَ النصرُ من أدْواحِها وعسا[1]

فأينَ عَيشٌ جَنَيْنـاهُ بها خَضِراً؟ ... وأينَ عَصْرٌ جَلَيْنـاه بها سَلِسا[2]؟

مَحـا مَحاسِنَهـا طـاغٍ أُتيـحَ لها، ... ما نام عن هَضْمِها حِيناً ولا نَعَسا[3].

صِـلْ حَبْلَها، أيُّها المَوْلى الرحيمُ، فما ... أبْقى المِراسُ لها حَبْلا ولا مَرَسا[4]

وأحْيِ ما طَمَسَتْ منها العُداةُ كما ... أحْيَيْتَ مِنْ دعوةِ المَهْدِيِّ ما طُمِسا[5]،

أيّـامَ صِرتَ لِنَصْرِ الحـقِّ مُسْتَبِقاً ... وبِتَّ من نور ذاكَ الهَدْيِ مُقْتَبِسا؛

وقُمْـتَ فيهـا بأمرِ اللهِ مُنْتَصِراً ... كالصارِمِ آهْتَزَّ أوكالعارضِ انْبَجَسا[6]

هـذي رَسائِلُها تدعوكَ مِنْ كَثَبٍ، ... وأنـتَ أفضَـلُ مَرْجُوٍّ لِمَنْ يَئِسا

تَؤُمُّ يَحيى بنَ عبدِ الواحدِ بنِ أبي ... حَفْصٍ مُقَبِّلَةً من تُرْبِهِ القُدُسا؛

مَلْـكٌ تَقَلَّدَتِ الأمْلاكُ طاعَتَـهُ ... دِيناً ودُنْيا فغَشّاها الرِّضا لِبسـا

من كـلِّ غادٍ على يُمناهُ مُسْتَلِماً، ... وكـلِّ صادٍ إلى نُعْماهُ مُلْتَمِسا[7].

مُؤَيَّـدٌ لو رمـى نَجْماً لأثْبَتَـه، ... ولو دعا أُفُقاً لَبّى وما احْتَبَسا[8].

ماضي العَزيمـةِ والايّامُ قد نَكَلَتْ، ... طَلْقُ المُحَيّا ووَجْهُ الدهرِ قد عَبَسا[9].

---

(١) للأحداق (للعيون) مونقة (جميلة): تسرّ الناظرين. صوّح = يبس. النضر: الأخضر الريّان. الدوح والأدواح جمع دوحة: الشجرة الكبيرة. عسا، يعسو: يبس.

(٢) جليناه (جلوناه!): أبرزناه، جعلناه. سلساً: ليّناً، رائقاً، مطاوعاً لنا.

(٣) الطاغي: الظالم. وكان مؤرّخو العرب يسمّون كلّ ملك من ملوك الإسبان «طاغية». الهضم: انتزاع جزء من الحقّ من صاحبه. نعس: مال إلى النوم (غفل).

(٤) صل حبلها: اجعلها من أهلك ودافع عنها. المراس: شدّة (العدوّ عليها)؛ كثرة حروبها. ما أبقى المراس لها حبلًا (صلة، قرابة بأحد = تخلّى جميع الناس عنها) ولا مرساة (قوّة على القتال).

(٥) طمس: محا. المهديّ بن تومرت (ت ٥٢٤ هـ) مصلح عظيم، وهو صاحب دعوة الموّحدين ومؤسّس دولتهم (راجع ص ٣٥٩ من الجزء الخامس).

(٦) الصارم: السيف. اهتزّ: تحرّك، تمايل نصله(استعداداً للضرب به أو في أثناء الضرب به). العارض: الغيم المقبل يحمل مطراً. انبجس: تخرّق، هطل منه المطر.

(٧) يمناه مستلماً = مقبّلًا يده اليمنى. صاد: عطشان.

(٨) – لو رمى بسهمه النجم لأصابه ولو دعا الغيم في السماء إلى أن يمطر لأمطر.

(٩) نكل عن الأمر: جبن عنه وتأخّر.

كأنّـه البـدرُ – والعَلْيـاءُ هالَتُـهُ – تَحِفُّ من حَوْلِهِ شُهْبُ القَنا حَرَسا[١].
تدبيرُه وَسِعِ الدُّنيا وما وَسِعَتْ، وعَرْفُ معروفه وَاسىالورىوأسا[٢].
قامتْ على العدلِ والإحسانِ دولَتُه وأنْشَرَتْ من وُجود الجودِ ما رُمِسا[٣].
مُبـارَكٌ هَدْيُـهُ، بـادٍ سَكينتُـه؛ ما قامَ، إلاّ إلى حُسْنَى، وما جَلَسا.
قـد نوّرَ اللهُ بالتقْوى بصيرتَـه، فما يُبالي طُروقَ الخَطْب مُلْتَبِسا[٤].
وربَّ أصْيَـدَ لا تُلْفي بِهِ صَيَداً، ورُبَّ أشْوَسَ لا تَلْقى له شَوَسا[٥].
إلى المَلائـكِ يُنْهى والمُلوكِ مَعـاً في نَبْعَةٍ أثْمَرَت للمجد ما غرسا[٦].
يـا أيُّها المَلِكُ المَنْصورُ، أنتَ لها عليـاءُ تُوسِعُ أعْداءَ الهُدى تَعَسا.
وقـد تَواتَرَتِ الأنبـاءُ أنّـكَ مَنْ يُحيي بِقَتْلِ مُلوكِ الصُّفْرِ أندلسا[٧].
طَهِّرْ بِـلادَكَ منهم، إنّهم نَجَسٌ، ولا طَهـارةَ حتّى تَغْسِلَ النَّجَسا.
واضْرِبْ لهـا مَوْعِداً بالفَتْحِ تَرْقُبُه. لَعلّ يومَ الأعادي قد أتى وعَسى[٨].

– ومن نثره ما كتبه في ترجمة أستاذه أبي الربيع بنِ سالم[٩] في كتاب إعتاب

---

(١) الهالة: ضياء يحيط (في رأي العين) بالقمر عادة. تحفّ: تحيط. القنا جمع قناة: القصبة، الرمح. شهب القنا: النصال المركّبة في رؤوس الرماح (كناية عن كثرة الأسلحة ومضائها).
(٢) تدبيره: حكمه. عرف (رائحة) معروفه (خيره): القليل من معروفه وعطائه. وسع الدنيا وما وسعت: أدرا، نظّم الدنيا وكلّ ما فيها (كل ما وسعته الدنيا). واسى: عزّى، أحسن إلي. الورى: جميع الناس. أسا: طيّب، شفي.
(٣) أنشرت: بعثت من الموت. «وجود» في الأصل، ولعلّها «وجوه»: أنواع. رمس: قبر.
(٤) – لا يبالي إذا نزلت المصيبة فجأة (لأنّه مستعد لجميع المفاجآت).
(٥) الأصيد: المائل العنق تجبّراً (لأنّه ملك عظيم). الأشوس: الذي ينظر بمؤخرة عينه من التكبّر والغيظ (طلباً للانتقام). – قد يتظاهر بعض الناس بالقدرة والشجاعة وليس له شيء منهما.
(٦) – هو في سلوكه وأخلاقه مثل الملائكة، وفي نسبه من الملوك. النبعة: عدد كبير من سبلات القمح أو من القصب أو النخل تنبت من أصل واحد (كناية عن الأسرة العظيمة النبيلة). ما غرسا (بالبناء للمجهول أو للمعلوم!).
(٧) – الشائع بين جميع الناس أنّك وحدك الذي تستطيع أن تتغلّب على ملوك الصفر (الروم، الإسبان الإفرنج) وتنقذ الأندلس.
(٨) ترقبه: تنتظره (الأندلس).
(٩) راجع ٥: ٦٩٣.

الكُتّاب (ص ٢٤٩):

شَيْخي الذي أورثني هذه الصِّناعَة ورَضِيَ اتّخاذَها لي بِضاعةً، وضَمِنَ أنْ لا إضاقةَ (في امتهانها) ولا إضاعة؛ جاعلاً قولَ ابن أبي الخصال[١] شاهداً في الاعتلاق بها والاتّصال: «من جَمَعَ بَلاغةً وخَطّاً لم يَخْشَ في دَوْلة الأفاضل حَطّاً». فاسْتَرْجَحْتُ حَصاته[٢] وأقبلتُ عليها قابلاً وَصاته غيرَ مُسْتَبْدِلٍ به خُطّة ولا مُتَبَوِّئٍ دُونَها خِطّةً لِكَيْلاً أنْقُضَ ما أبْرَمَ وأرْتَبِطَ خلافَ ما اسْتَكْرَمَ[٣]. وكان هُوَ - قدّسَ اللهُ أشلاءَه وأجزلَ من النعيم المُقيم جزاءَهُ[٤] - قد عُنِيَ بي في شَبيبتهِ، فعَتَبَ عليه والي بَلنسيةَ حِينَئِذٍ وحَجَبَه رائحاً عليه وغادياً وألْزَمَهُ مكاناً قاصياً كان به قاضياً[٥]. فخاطَبَهُ مُسْتَعْطفاً برسالةٍ منها:

وبعدُ، فكَتَبَ الذي قَصَر، ثم عاينَ قَصْدَهُ وأبصرَ[٦]؛ واقترفَ فاعترفَ، واجترحَ[٨] فلم يَجِدْ أجْدى مِنْ أنْ قَرَعَ بابَ المغفرةِ واسْتَفْتحَ. وفي عِلْمِ المَوْلى أنّ العبيدَ أهلُ الخطأ ومَظَنّةُ السَّعْي المُسْتَبْطِإ[٨]. إنْ اغْرقوا النَّزْعَ عن قوسِ الاجتهاد[٩]

---

(١) شيخي: أستاذي ومعلّمي. إضاقة: ضيق ذات اليد، فقر. ابن أبي الخصال: أديب شاعر (راجع ص ٢٦١ من الجزء الخامس).

(٢) الخطّ: حسن الخطّ، الكتابة الحسنة لصور الأحرف. الحطّ: الإنحطاط، النزول عن الرتبة العالية. استرجحت حصاته (عقله): وجدتها راجحة (صحيحة، مصيبة).

(٣) الوصاة: الوصيّة، النصيحة. الخطّة (بضمّ الخاء): الطريقة في العمل، المنهاج. الخطّة (بكسر الخاء) القطعة من الأرض. تبوّأ: نزل (في مكان)، سكن. نقض: حلّ، أبطل. أبرم: أحكم، قرّر. ارتبط (الخيل) اقتنى (خيلا) استكرم (الخيل، المرأة، إلخ): وجدها كريمة الأصل فاتّخذها لنفسه (لم أر أن أفعل إلّا ما كان هو يفعل).

(٤) قدّس: بارك. أشلاءه: القطع من جسده (لأنّه كان قد مات شهيداً في المعركة). أجزل: أكثر. النعيم المقيم (الدائم): الخلود في الجنّة. جزاؤه: ثوابه.

(٥) عني بي: اهتمّ بي وسهر على تأديبي. حجبه: منعه من الدخول إلى بلاطه. رائحاً عليه وغادياً...(!) ألزمه مكاناً قاصياً (بعيداً) أجبره على السكنى في مكان بعيد. كان به قاضياً: هو، أي الوالي، اختاره هنالك للقضاء (؟)

(٦) الذي قصّر..... (أي ابن الأبّار).

(٧) اقترف (الذنب): أتاه (أذنب).

(٨) اجترح: اكتسب ذنباً، سبّ، شتم.

(٩) المولى: السيّد. المظنّة: موضع، مكان. مظنّة السعي المستبطأ (المتأخّر) العبيد يسرعون في ارتكاب الخطأ

وأصابوا شاكلةَ المُراد[1]، فكالسِّهامِ في قرطه مَراميها[2]. وإنْ تَنَكّبوا[3] مُرْتَضَى السَّعْيِ الحميدِ وتجنّبوا مُقْتَضى الرأيِ السديدِ، فغيرُ نُكْرٍ (أنّ ذلك) من شِيَمِ العبيد. ومَتَى نُوقِشوا الحساب على كُلّ زَلّة وعُوقوا على كلّ ضِلّة[4]، أفناهُمُ العِقابُ سريعاً وأهْلَكَهُمُ التأديبُ[5] جميعاً...

٤- التكملة لكتاب الصلة (تحرير فرنثيسكو كوديرا)، مدريد ١٨٨٦ - ١٨٨٩ م.
- التكملة لكتاب الصلة (تحرير فنزالس بالنسيه)، مجريط ١٩١٥ م.
- كتاب التكملة لكتاب الصلة (القسم الأوّل المفقود من طبعة الشيخ قداره في مجريط عام ١٨٨٦ - ١٨٨٩ م ومن طبعةغونثالث وبالنثيا، عام ١٩١٥ م)- (عُني بطبعه وتعليق حواشيه ألفرد بل ومحمّد بن أبي شنب)، الجزائر (المطبعة الشرقية) ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٩ م؛ (نشره عزّة العطّار)، القاهرة ١٩٣٥ م؛ القاهرة (مكتبة الخانجي) وبغداد (مكتبة المثنّى) ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٥ م.
- فهارس تكملة الصلة، من عمل الاركون وبالنسيا، مدريد ١٩١٥ م.
- المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي (فرنثيسكو كوديرا إي زيدين)، مدريد (روخس)، ١٨٨٤ - ١٨٨٦ م؛ القاهرة (دار الكاتب العربي) ١٩٦٧؛
- الحلّة السيراء (قطع متفرّقة نشرها دوزي)، ليدن ١٨٤٧ - ١٨٥١ م؛ ثمّ باريس ١٨٦٤، ثمّ ١٨٨٣ م؛ قطع أخرى (نشرها موللر) ١٨٨١ م؛ (حقّقه وعلّق حواشيه حسين مؤنس)، القاهرة (الشركة العربية للطباعة والنشر) ١٩٦٣ م.
- إعتاب الكتّاب (حقّقه صالح الأشتر)، دمشق (مطبوعات مجمع اللغة العربية) ١٣٨٠ هـ = ١٩٦١ م.
- المقتضب من كتاب تحفة القادم: اختيار وتقييد أبي اسحاق ابراهيم بن محمّد بن إبراهيم البلفيقيّ (بتحقيق إبراهيم الإبياري)، القاهرة (المطبعة الأميريّة) ١٩٥٧ م؛ (نشره ألفرد البستاني).....

ثم يتأخّرون في التوبة وإصلاح أخطائهم. أعرقوا: بالغوا (؟). النزع: مدّ القوس (وصع سِيَة القوس - مؤخّرته - في وتر القوس ثمّ جذب الوتر لإطلاق السهم).

(١) الشاكلة: الخاصرة. أصاب الشاكلة (قتل المصاب). أصاب شاكلة الأمر: أحسن العمل وأتقنه...
(٢) في قرطه مراميها (؟).
(٣) تنكّب (الطريق): ابتعد عنه.
(٤) الضلّة (بالكسر): الضلال، ضدّ الهدى، الحيرة، الغفلة عن الصواب.
(٥) التأديب: القصاص، الضرب (في سبيل الإصلاح).

- معارضة «ملقى السبيل» لأبي العلاء المعريّ (مطبوع مع «فتوى في القيام والألقاب» لابن تيمية)، بيروت (دار الكتاب الجديد) ١٩٦٣ م.
- ديوان ابن الأبار (تحقيق عبد السلام الهرّاس)....
★★-الحلّة السيراء (رسالة لعبد الله الطبّاع)، بيروت (دار النشر للجامعيّين).
- ابن الأبار: حياته وكتبه، تطوان (معهد مولاي الحسن)

المغرب ٢: ٣٠٩-٣١٢؛ الوافي بالوفيات ٣: ٣٥٥-٣٥٨؛ فوات الوفيات ٢: ٢٨٣-٢٨٤؛ الذيل والتكملة ٦: ٢٥٣-٢٧٥ (رقم ٧٠)؛ القدح المعلّى ١٩١-١٩٧؛ عنوان الدراية ٢٥٧-٢٦٢؛ ابن قنفذ ٣٢٤؛ شذرات الذهب ٥: ٢٩٥؛ نفح الطيب ١: ٣١٥، ٢: ١١٦، ٥٨٩-٥٩٤، ٥٩٧-٥٩٨، ٣: ١٣٩، ١٤٤-١٤٥، ٤٦٧، ٦٠٣-٦٠٤ (؟)، ٤: ٥٨-٥٩، ١١٩-١٢١، ٣١٩-٣٢٠، ٣٢٣-٣٢٤، ٤٥٧-٤٦٠، ٤٧٢-٤٧٣، ٤٩٠-٥٠٧؛ أزهار الرياض ٢: ٢٠٤-٢٢٧؛ المكتبة العربية الصقلية ٣٢٧-٣٣٢؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٦٧٣؛ بروكلمن ١: ٤١٦، الملحق ١: ٥٨٠-٥٨١؛ الأعلام للزركلي ٧: ١١٠ (٦: ٢٣٢)؛ تراجم إسلامية ٣٤٢-٣٥٣؛ نيكل ٣٣٢-٣٣٣؛ مختارات نيكل ١٩١.

أبو المطرِّف بن عميرة

١ - هو أبو المُطرِّفِ أحمدُ بنُ عبدِ الله بنِ الحسنِ بنِ عَمِيرةَ المخزوميُّ[١]، أصلُه من جزيرةِ شُقْرٍ (قُربَ بلنسية)[٢].

وُلِدَ أبو المُطَرِّفِ في بلنسيةَ، في رَمَضانَ من سَنَةِ ٥٨٠ (كانون الأوّل - ديسمبر ١١٨٤ م) أو قبلَ ذلك بسنتَيْنِ★. بدأ تلقِّيَ العلمِ في الأندلس ثمّ رَحَل (في الأندلس والمغرب؟) فدرس الحديثَ والفِقه وعِلمِ الكلامِ والأدبَ، ولكنّ مَيْلَهُ كان إلى اللغة:

(١) هو غير أبي جعفر أحمد بن عبد الملك بن عميرة (بفتح العين أيضاً) الضبّي اللورقي القارىء المحدّث المتوفّى ٥٧٧ هـ (نفح الطيب ٢: ٦٠١). وغير أحمد بن يحيى بن أحمد عميرة الضبّي (ت ٥٩٩) صاحب بغية الملتمس (راجع ترجمته). ★ في الاحاطة (١: ١٨٥): ٥٨٢ هـ.

(٢) جزيرة شقر بليدة جنوب بلنسية وليست جزيرة. وإنّما قيل لها جزيرة لأنّ الماء (نهر شقر) يحيط بها (وفيات الأعيان، بيروت، ١: ٥٧). راجع تحت (ص ٢١٩) قول أبي المطرّف بن عميرة: هل النهر عقد للجزيرة مثلما عهدنا....؟ وشقر (بالفتح): جزيرة شرقيها (تاج العروس - الكويت ١٢: ٢٢٢). وهي في وفيات الأعيان (١: ٥٧) بالضم: شُقر.

أخذَ عن أحمدَ بنِ هرونَ بن عاتٍ (٥٤٢ - ٦٠٩ هـ) وأبي الربيعِ بنِ سالمٍ وابن حَوْطِ الله وأبي الخطّاب أحمد بن واجبٍ (ت ٦١٤ هـ) وعن الشلوبينِ (ت ٦٤٥ هـ).

وعاد أبو المطرِّفِ فاستقرّ في بلنسيةَ مدّةً ثمّ تولّى القضاءَ في شاطبةَ ثمّ في جزيرةِ مَيُورقَـةَ (٦٢٧ هـ)، وكـان فيهـا لمّـا استولى عليهـا الإسبـانُ (آخرَ رجبَ ٦٢٨ = ١٢٣١/٦/٢ م). ثم إنّـه عـاد إلى بلنسيـة وشَهِدَ سقوطَها[1] أيضـاً (٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م).

عندئذٍ جازَ إلى المَغْربِ فاستَوْطن بِجايةَ مدّةً وأقرأ بها. ثمّ إنّ الرشيدَ المُوحّديَّ (٦٢٠ - ٦٤٠) استَوْزَره. وتولّى القضاءَ بعد ذلك في سَلا ثمّ في مكناسَ ثمّ في سَبْتَةَ. ولمّا استولى المَرينيّون على سبتةَ غادرها إلى تُونِسَ ودخل في خدمة الحفصيّين فاتّخَذَه المُسْتَنْصِرُ باللهِ الحفصيّ (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) مُستشاراً.

وكانتْ وفاةُ أبي المطرّف بن عَميرةَ في تُونِسَ ليلةَ الجُمُعة رابعَ ذي الحِجّة من سَنةِ ٦٥٨ (١٢٦٠/١١/١١ م) في الأغلب.

٢ - كان أبو المُطَرِّفِ بنُ عَمِيرةَ ناثراً وناظماً ومؤرّخاً مؤلّفاً صَنّفَ كتاباً عن «كائنةِ ميورقةَ» (سقوط جزيرةِ ميورقةَ في أيدي الاسبان)، والكتاب مفقود. ويبدو أنّ له كتاباً آخَرَ «التِّبيان في علم الكلام». ويأتي شعره مُطوّلاتٍ ومُقطّعاتٍ، وبعضُ مطوّلاتِه أفضلُ من مقطعاتهِ في البيتين والثلاثة ممّا قاله في عدد من الأغراض العارضة وبناها على تَوْريّات قليلة التوفيق. وفنون شعرِه المدحُ والغزل والشكوى والإخوانيّات (قصائدُ يتبادلها الشعراءُ كما يتبادل سائرُ الناسِ رسائِلَهم). ونثره نوعان: نوعٌ شديدُ التكلّفِ كثير الإشارات حتّى يغمُضَ على القارىء، ولو كان مثقفاً، ثمّ نوعٌ عاديٌّ سهلٌ مُرْسَلٌ ومطلق من الصِّناعة.

٣ - مختارات من آثاره

- قال أبو المُطَرِّفِ بنُ عَمِيرةَ يتشوّق إلى بَلَنْسِيَةَ بعدَ سُقوطِها ورحيلهِ عنها:

---

(١) نفح الطيب: ٤: ٤٦٠.

ويندُبُ عهداً بالْمُشَقَّر فاللِّوى. وأينَ اللوى منه وأينَ المشقّرُ[1]!
تغيّرَ ذاك العهدُ بعَدْي وأهلُه. ومَنْ ذا على الأيامِ لا يتغيّر؟
وأقفَرَ رسْمُ الدارِ إلاّ بَقيّةً لسائِلها عنْ مِثلْ حالي تُخبّرُ.
فلم تَبْقَ إلاّ زَفرةٌ إثْرَ زفرةٍ؛ ضُلوعي لها تنقدُّ أو تتَفَطّر[2]؛
وإلاّ اشْتياقٌ لا يزالُ يَهُزّني، فلا غايةٌ تدنو ولا هو يفترُ.
أقول لساري البرق في جُنْحِ ليلةٍ كِلانا بها قد بات يبكي ويسهَرُ[3]،
تعرّضَ مُجتازاً فكان مُذكِّراً بعهدِ اللِّوى؛ والشيءُ بالشيء يُذكَر.
ألا ليتَ شِعْري، والأمانيُّ ضِلّةٌ؛ وقولي: «ألا يا ليت شِعري» تحَيُّرُ.
هلِ النهرُ عِقْدٌ للجزيرةِ مِثْلما عَهِدنا؟ وهل حَصْباؤه (بعدُ) جوهر[4]؟
وهل للصَّبا ذيلٌ عليه تجُرُّه فيَزْوَرَّ عنه موجُه الْمُتكّسر[5].
وتلك المغاني، هل عليها طَلاوةٌ بما راقَ منها أو بما رَقَّ تسحَرُ؟
ملاعبُ أفراسِ الصَّبابة والصِّبا تروحُ إليها تارة وتُبَكِّر[6].
وقِبْليَّ ذاك النهرِ كانتْ معاهدٌ بها العيش مطلولُ الخميلةِ أخضر[7]،
بحيث بياضُ الصُّبحِ أزرارُ جَيْبهِ تَطيب وأردانُ النسيم تُعَطِّر[8].

---

(١) اللوى: ما استدار من الرمل: المشقّر: حصن في شرقيّ بلاد العرب (والشاعر يكني بها عن وطنه جزيرة شقر).

(٢) تنقدّ: تنقطع. تتفطّر: تتشقّق.

(٣) الساري: السائر في الليل. الجنح: الجزء من الليل. ساري البرق (البرق الذي يلمع ليلاً). كلانا بها (في تلك الليلة) يبكي (أنا أبكي بدموعي، والبرق يسقط في أثره المطر).

(٤) الجزيرة: جزيرة شقر. هل النهر عقد للجزيرة (يحيط بها). الحصباء: الحصى.

(٥) الصبا: ريح لطيفة تهبّ على شبه جزيرة العرب من جبال فارس مارّة فوق مياه خليج البصرة (والعرب يحبّونها). والشعراء يذكرون الصبا ويعنون بها كلّ ريح محبوبة. ازورّ: مال.

(٦) الصبابة: الحبّ. الصبا: الشباب. تروح (في المساء) وتبكّر (في الصباح): دائماً تهبّ عليها هذه الريح.

(٧) القبلة: الجهة. وتستعمل عادة للجهة الجنوبية لأنّ اتّجاه المسلمين في صلاتهم انتقل في عهد الرسول من القدس (شمال المدينة) إلى الكعبة في مكّة (جنوب المدينة).

(٨) الجيب: مدخل القميص في العنق (أعلى الثوب)، والأردان أطراف الثوب (أدنى الثوب). الريح الطيّبة تعطّر أجواء جزيرة شقر.

لَيالٍ بماء الورد ينضَحُ ثوبُها وطيبُ هواءٍ فيه مِسْكٌ وعنبر.
جَنابٌ بأعلاه بَهارٌ ونَرْجِس: فأبيضُ مفترُّ الثنايا وأصفر[1].
كذاك إلى أن صاحَ بالقوم صائحٌ وأنْذَر بالبَيْنِ المُشَتِّتِ مُنْذِر[2].
وفرّقهم أيْدي سَبا وأصابَهم على غِرَّةٍ منهم قَضاءٌ مُقَدَّر[3].

– وقال أبو المطرِّف يمدح الأميرَ أبا زكريّا يحيى بن عبدِ الواحدِ الحفصيَّ سلطان تُونِسَ (٦٢٦ - ٦٤٧ هـ) قبلَ أن ينتقل أبو المطرِّف إلى تونس (وفي الأبيات التالية كثير من الجِناس والطِّباق):

شاقَهُ غِبَّ الخيالِ الواردِ بارقٌ هاجَ غرامَ الهاجدِ[4].
لم يكن بعدَ السُّرى مُسْتَمْتَعٌ فيه للرائي ولا للرائد[5]
مَلِكٌ لولا حُلاه الغُرُّ لم يَجْرِ بالحمدِ لسانُ الحامد.
فضلُه مثلُ سَنا الشمسِ، وهلْ لِسَنا الشمسِ يُرى من جاحد؟
قَهَرَ البَغْيَ بجِدٍّ صادعٍ ما تعدّاه وجَدٌّ صاعد[6].
إنّما آلُ أبي حَفْصٍ هُدًى للوَرى مِنْ غائبٍ أو شاهد.
قَعَدوا فوقَ النجومِ الزُّهْرِ عن هِمَمٍ نَبَّهْنَ عزمَ القاصد.
وعنِ الإسلامِ ذادوا عندما فَلّ طولُ العَهْدِ غَرْبَ الذائد[7].
أيُّ فخرٍ عُمَرِيُّ المُنْتمى وَرِثوه ماجِداً عن ماجد[8]!
ما الفتوحُ الغُرُّ إلاّ لَهُمُ بين ماضٍ بادئٍ أو عائد.

---

(١) جناب: جانب من الأرض. أعلاه (تلاله!). البهار: زهر الربيع (ويطلق عادة على الزهر الأصفر).
(٢) صاح بالقوم صائح (يدعوهم إلى التفرّق أو الهلاك). البين: الفراق.
(٣) أيدي سبأ: في كلّ جهة. غرّة: غفلة. قضاء (حكم) مقدّر (محسوب، مكتوب على الناس).
(٤) غبّ: بعد. الخيال الوارد: الحلم (المنام). الهاجد: النائم؛ الذي يصلّي بالليل.
(٥) السرى: السير في الليل.....
(٦) الجدّ: الجهد (بضمّ الجيم). لعلّها الحدّ (بالحاء المهملة). الصادع: الذي يصدع (يشقّ، يكسر). وصدع بالأمر: أعلنه. الجدّ (بالفتح): الحظّ.
(٧) ذاد: دافع. الغرب: الحدّ (حد السيف). فلّ: ثلم، شقّق، كسّر.
(٨) عمريّ المنتمى: يرجع إلى عمر (بن الخطّاب).

في مُحيّـا لاحـقٍ من سابـقٍ؛ وعـلى المولودِ سِيما الوالـد.

– كان بينَ أبي المُطَرِّفُ بن عَميرةَ وأبي عبدِ الله محمّدِ بنِ محمّدِ بنِ الجَنّان (توفي بعيد ٦٥٠ هـ) وأبي الحسنِ عليّ بن محمّدٍ الرُّعَيْنيّ بنِ الفَخّار (٥٩٢ – ٦٦٦ هـ) مراسلاتٌ. وكانوا جميعاً كثيري التكلّفِ للصِّناعة في رسائلهم مَعَ حَشْدِ الإشارات المُختلفةِ من أدبيةٍ وتاريخية وجغرافية. وبما أنّ حرفَ النونِ موجودٌ في اسْمَيْ أبي الحسنِ الرُعيني وابنِ الجَنّان، فقد كتب أبو المطرّفِ رسالةً التزم في كلِّ كلمةٍ منها حرفَ النون نثراً ونظماً. من هذه الرسالة (الذيل والتكملة ٥ : ٣٤٨ – ٣٤٩):

محاسنُ دُنيانـا تبـينُ لناظرٍ يُنَقِّبُ عنها مُسْتَبِينا لعَيْنِها[1]
نَجيبُ الرُعَيْنِيِّينَ مـارِنُ أنْفِها، ونَدْبُ بني الجَنّان إنسانُ عَيْنِها[2].

البيانُ أنواعٌ. وإنْ ظُنَّ أنّ يمينَه صَناعٌ، فَلِنَسْجِه ناسٌ نَعْرِفهم نقلاً وعَيْناً[3]، ونَعُدّهم زماناً زماناً. فنَجِدُ مناقِلَهم نابِيَةً ونسَبَهُم مُتدانية ومَنازِعَهم عن الإحسان وانيةً[4]: معانٍ عُونٌ وغِيطانٌ وحُزونٌ، ونُكَتٌ تندُرُ ونُبَذٌ عُيونِ النَقْدِ نحوَها تنظر[5]. وإنّما الصِّناعة لناظِمَيْ جُمانِها ومُتناوِلَيْ عِنانِها[6] اللذينِ يُنَوِّعانِ الإنشاء ويَضَعان أمْكِنَةَ النُّقَبِ الهِناءَ[7]...... إنْ نَظَمَا أنْسَيا فِنْدَ زِمّانَ ونابغةَ بني ذُبيانَ وابنَ الحسينِ عندَ بني حَمدانَ وحُنْدُجانَ ونَسيبَه بالحِسان، وابنَ القَيْن ونصيبَه من

(١) – محاسن الدنيا لا تبين (لا تظهر) إلّا للناظر المتأمّل الذي ينقّب (يبالغ في البحث). عينها (هنا): حقيقتها، وجودها المادّيّ.

(٢) النجيب: الفاضل على مثله. الرعينيون: بنو رعين (أفضل بني رعين). المارن: أعلى الأنف (كناية عن الرفعة والشرف). الندب: النجيب. إنسان العين: البؤبؤ (كناية عن أفضل الأشياء).

(٣) الصناع: الماهر، البارع. نقلًا (سماعاً عنهم) وعينا (مشاهدة لهم).

(٤) المنقل (بالفتح): الطريق المختصر. المنقلة (بالفتح): أرض ذات حجارة. نابية (من نبأ أو من نبو): مرتفعة أو غير مستوية. مناقلهم نابية (؟). وانية: ضعيفة، مقصّرة.

(٥) عون (جمع عوان): (هنا) مكرورة، معادة. الغوط والغيط (بالفتح فيهما): أرض واسعة منخفضة ليّنة. الحزن (بالفتح): أرض صلبة يصعب فيها السير. النكتة: الفكرة الطريفة اللطيفة. النبذة (بالضمّ أو بالفتح): القطعة (المنبوذة: القليلة القيمة!).

(٦) الجمانة (بالضمّ): اللؤلؤة الكبيرة. العنان: رسن الدابّة.

(٧) النقبة (بالضمّ): الجرح أو النقرة (بالضمّ) من أثر الجرب. الهناء: القطران (يضعان الأمور مواضعها).

الإحسان [1]. وإن نَثراً فَمَنْ ساكنُ أرّجانَ ونائب ديوان الإنشاء ببَغْدانَ [2] وأصنافٌ كان من شأنهم وكان؟ يميناً بالرحمنِ والمَثاني والقُرآنِ وبالنور والسكينة والنبيّ ومكانهِ من المدينة [3]، إنّهما لَلَبِنَتَا بناءِ البيانِ وأنْجَبُ أبناء الزمان [4]: نزَلاَ منزلَ الفرْقَدْينِ وتناولا أنواعَ المناقبِ باليَدَيْنِ [5]. فمن نزاهةٍ تُناطح كِيوانَ ونَوالٍ يُنسي مَعْنَ بني شَيبانَ [6].

- لمّا استولى الإسبان على بلنسيةَ عَظُمَ الرُّزْءُ على المسلمين، فكتب أبو المُطرِّفِ إلى الشيخ أبي جعفرِ بنِ أُميّةَ (نفح الطيب ١ : ٣٠٥ - ٣٠٨):

ألا أيّها القلبُ المُصرِّحُ بالوَجْدِ، أما لكَ من بادي الصَّبابة من بُدِّ [7]؟
وهــلْ مِنْ سُلُوٍّ يُرتجــى لِمُتَيَّمٍ له لَوْعةُ الصادي ورَوْعة ذي الصَّدّ [8]؟
يَحِنُّ إلى نجـد. وهيهات! حرَّمت صروفُ الليالي أن يعود إلى نجد [9].
أمن بعدِ رُزءٍ في بَلَنْسِيَةٍ ثَوى بأحْنائنا كالنارِ مُضْمَرَةَ الوَقْد [10]،
يُرَجّي أُنـاسٌ جُنّـةً من مصائبٍ تُطاعِنُ فيهم بالمُثَقّفةِ المُلْد [11]؟

---

(١) الفند الزمانيّ والنابغة الذبياني والخندجان (خندج: امرؤ القيس) شعراء جاهليون. ابن الحسين (المتنبّي). بنو حمدان (قوم سيف الدولة). ابن القين (الحدّاد) يقصد به الفرزدق، لأنّ جريراً كان يعير الفرزدق بأنّه من قوم حدّادين (أي مدنيّين).

(٢) بغدان = بغداد. ساكن أرّجان ونائب ديوان بغداد (؟؟).

(٣) المثاني: الآيات (تثنّى: تقرأ ثانية وثالثة، إلخ، تكرّر)، النور والسكينة معروفان والمقصود منهما (هنا) غامض.

(٤) اللبنة: قطعة من الطين المطبوخ أو من الحجر تجعل في بناء الجدران.

(٥) الفرقدان: النجم القطبي (وهو نجم مزدوج). المنقبة: الفعل الكريم والمفخرة.

(٦) كيوان: كوكب زحل. معن بني شيبان هو معن بن زائدة (ت ١٥١ هـ) من الفصحاء والشجعان والكرماء.

(٧) الوجد والصبابة: الحبّ.

(٨) المتيّم الذي تيّمه (أمرضه) الحبّ. اللوعة: التألّم. الصادي: العطشان (المشتاق إلى المحبوب) الروعة: الهيبة. ذو الصدّ: المائل عمّن يريده (المحبوب).

(٩) نجد (الأرض المرتفعة): مقاطعة في شماليّ شبه جزيرة العرب (كناية عن جزيرة شقر).

(١٠) أحناؤنا: ضلوعنا (في قلوبنا).

(١١) جنّة (بالضمّ): حماية، ستر. المثقّف: الرمح. الأملد: الناعم الليّن من الغصون (يقصد الرمح المستقيم الذي ينحني ولا ينكسر).

وهلْ أذنَبَ الأبناءُ ذنبَ أبِيهِمُ   فصاروا إلى الإخراج من جَنّة الخُلْد[١]؟

مَرْحباً بالسحاءة[٢] وما أعارتْ أُفُقي من الوَضاءةِ، ووَرَدَتْ تسحَرُ النُّهى وتسحَبُ ذَيْلاً على السُّهى[٣]..... بلاغةٌ تَفْتِنُ كلَّ لبيب وتَرْعى رَوْضَ كلّ أديب وتَغِضّ على رُغْمِ العدوّ مِنْ حبيبٍ[٤]..... وأجْرَيْتَ خَبَرَ الحادثةِ التي مَحَقَتْ بدرَ التَّمام وذهبت بنَضارة الأيام. فيا مَنْ حَضَرَ يومَ البَطْشةِ وعُزِّيَ في أُنسه بعد تلك الوحشة، أحقًّا أنّه دُكَّتِ الأرضُ ونَزَفَ المَعينُ والبَرْضُ وصَوّحَ[٥] رَوْضُ المُنى وصرّحَ الخَطْبُ وما كَنى؟ أبِنْ لي كيف فُقِدَتْ رَجاحةُ الأحلام وعُقِدَتْ مَناحةُ الإسلام..... أحُلْمٌ ما نرى؟ بل ما رأى ذاك حالمٌ: طوفانٌ يُقال عنده: لا عاصمَ[٦]! مَنَ يُنْصِفُنا من الزمان الظالم؟ اللهُ بما يَلْقى الفؤادُ عالم.

- وقال في تاريخ جزيرة ميورقة: ٱستيلاء الإسبان عليها (نفح الطيب ٤: ٤٦٩ - ٤٧٠) - وقوله هنا من النثر المُرسَل.

إنّ سَبَبَ أخْذِها من المسلمين أنّ أميرَها في ذلك الوقت محمّدَ بنَ عليٍّ بنِ موسى كان في الدولة الماضيةِ أحدَ أعوانِها، وَوَلِيَها سَنَةَ سِتٍّ وسِتِّمِائَةٍ، واحتاج إلى الخشب المجلوبِ من يابِسَةَ[٧]. فأنفذَ طريدةً بحريةً وقِطعةً حربيةً[٨]. فعَلِمَ به والي طُرطوشَةَ فجَهّزَ إليها من أخذها. فعَظُمَ ذلك على الوالي وحدّثَ نفسَه بالغَزْوِ لبلاد الروم[٩]،

---

(١) ذنب أبيهم (آدم).

(٢) السحاءة: الغيمة، السحابة (!). تسحب ذيلًا (تفتخر).

(٣) السها والسهى: نجم خفيّ (لبعده وعلوه).

(٤) غضّ منه: حطّ من قدره. حبيب (أبو تمام الشاعر).

(٥) أجريت خبر الحادثة (ذكرت سقوط بلنسية). محقت بدر التام (ذهبت بنوره، أعادته مظلماً). دكّت الأرض دكًّا: تهدّمت، سقط كلّ ما عليها. نزف: فني، نفد. المعين: الماء الكثير الجاري. البرض: البئر القليلة الماء. صوّح: يبس.

(٦) لا عاصم: لا مانع، لا حام. (ليس ثمّة شيء يمنع المصيبة).

(٧) يابسة: جزيرة صغيرة في أرخبيل البليار (شرق الأندلس).

(٨) طريدة (يبدو أنّها قطعة بحرية).

(٩) طرطوشة: في شمال شرقيّ جزيرة الأندلس (في منتصف المسافة بين بلنسية وبرشلونة). والي طرطوشة الإسباني. بلاد الروم (إسبانية التي كان يحكمها النصارى - والعرب كانوا، في الأندلس، يطلقون اسم الروم على كلّ طوائف النصارى).

وكان ذلك رأياً مشؤوماً. ووَقَع بينَه وبينَ الروم ★ . وفي آخرِ ذي الحِجّة سَنَةَ ثلاثٍ وعِشرين وستِّمِائَةٍ بلغَه أنّ مُسطّحاً من برشلونَة[1] ظهر على يابِسَةَ و (أنّ) مركباً آخرَ من طرطوشةَ انضمّ إليه. فبعث وَلَدَهُ في عِدّةِ قِطَعٍ إليه حتّى نزل مَرْسى يابِسَةَ. ووجد فيه لأهلِ جَنَوةَ[2] مركباً كبيراً، فأخذه وسار حتّى أشْرَفَ على المُسطّحِ فقاتله وأخذه. وظنّ أنّه غالبُ الملوكِ، وغابَ عنه أنّه أشأمُ من عاقرِ الناقة[3]. وإنّ الرومَ، لمّا بَلَغَهُمُ الخَبَرُ، قالوا لِمَلِكِهِمْ وهو من ذُرّية أذْفونْشَ[4]: كيف يَرْضى المَلِكُ بهذا الأمرِ ونحن نقاتلُ بنفوسِنا وأموالنا؟[5]....

٤- ★★ أبو المطرّف أحمد بن عميرة المخزومي: حياته وآثاره، تأليف محمّد بن شريفة، الرباط (جامعة محمّد الخامس) ١٩٦٥ م.

المغرب ٢: ٣٦٣ - ٣٦٤؛ الوافي بالوفيات ٧: ١٣٣ - ١٣٥؛ القدح المعلّى ٤٢ - ٥٢؛ تحفة القادم ١٤٥ - ١٥٠؛ الذيل والتكملة ١: ١٥٠ - ١٨٠ (رقم ٢٣١)؛ أعمال الأعلام ٢٧٣ - ٢٧٤؛ الإحاطة ١: ١٧٩ - ١٨٦؛ الديباج المذهب ٤٦ - ٤٧؛ جذوة الاقتباس ٧٢؛ عنوان الدراية ٢٥٠ - ٢٥٣؛ بغية الوعاة ١٣٧ - ١٣٨؛ نفح الطيب ١: ٣٠٥ - ٣١٧، ٣: ١٤٥ - ١٤٧، ٤٨٧ - ٤٨٨، ٤: ٤٦٩ - ٤٧١، ٤٩٠ - ٤٩٦، ٥٠٦ - ٥٠٧، ٦: ٢٤٦ وما بعد؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧٠٤ - ٧٠٨؛ بروكلمن ١: ٣٨١، الملحق ١: ٥٤٦؛ الأعلام للزركلي ١: ١٥٢ - ١٥٣ (١٥٩)؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ١٩٠ - ١٩٤.

ابن عربيّة[6]

١ - هو أبو عمرٍو عُثمانُ بنُ عتيقِ بنِ عثمانَ القيسيُّ المعروفُ بآبنِ عَرَبيّةَ وُلِدَ في

(١) مسطّح: يبدو أنّه نوع من المراكب. برشلونة: مرفأ كبير مهم في شمالي شرقي جزيرة الأندلس.

(٢) جنوة. مرفأ في أقصى الشمال الغربي من شبه جزيرة إيطالية. ★..... (كذا).

(٣) قالوا اسمه: قدار (بالضمّ)، عقر (ذبح) الناقة التي أرسلها الله اختباراً لقبيلة ثمود قوم النبي صالح، فغضب الله على ثمود وهدم بلادهم.

(٤) الأذفونش في الأصل اسم علم على شخص (كان في إسبانية عدد من الملوك يحملون هذا الاسم). ثمّ أصبح هذا الاسم كاللقب لملوك إسبانية النصارى، كما كان كسرى لقباً لملوك الفرس وقيصر لقباً لملوك الروم والرومان.

(٥) وهذه الرسالة تتمة تصف تشتّت آراء المسلمين وتخاذلهم في القرن الأخير من حياتهم في الأندلس.

(٦) يرد هذا الاسم: عربية (بفتح ففتح) عُرَيْبَة (بتقديم الياء وبالتصغير). وقد اخترت القراءة الأولى.

المهْديّة، سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ - ١٢٠٤ م)، ونشأ بها. ثمّ إنّه ٱنتقلَ إلى تُونِسَ الحاضرةِ وٱتّصلَ بأبي زكريا يحيى بنِ عبدِ الواحدِ (٦٢٦ - ٦٤٧ هـ) فولاّه القضاءَ في تبرسقَ. وكانتْ وفاتُه في تبرسقَ، ٢٨ المحرم ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م).

٢ - كان ابنُ عَرَبيّةَ عالماً بالحديثِ وبالفِقه وبعددٍ من فنونِ الأدبِ، غيرَ أنّ شُهرتَه كانتْ في الشعرِ. وهو شاعرٌ مُجيد يُقلّد المَشارقةَ مِن الإسلاميّين والمُحْدَثين (الأُمويّين والعبّاسيّين). وأغراضُه وُجدانيّةٌ في النسيبِ والعِتاب والوصف. وربّما تكلّفَ استعمالَ الغريب من الألفاظ. وهُوَ مِنَ الذين خَمّسوا القصيدةَ الشقراطيسية لعبد اللهِ بنِ يحيى الشُّقراطيسيّ (ت ٤٦٦ هـ) في مدح الرسول. ثمّ هو مُصنِّف، له: جوامعُ الكَلِمِ النَّبويّة - آثارُ السَّحابة في شُعراءِ الصَّحابة - قصائدُ المِدَحِ ومصائِدُ المِنَح (وهي ديوانه). ثمّ له عدد من الكتب في الحديث والفِقه.

٣ - مختارات من شعره

- قال ابن عربية في النسيب والعِتاب:

ألا، فرَعَى اللهُ الحِمى ونَسيمَه، ... وإن جلَّ ما ألْقاه من ساكني الحِمى[١]،

وتَيَّمكم، يا أهلَ نَجدٍ. فإنّني ... أراكم تَلومون المَشوقَ المُتَيَّما[٢].

هَجَعْتُم. ومَنَ لي بالهُجوع؟ فرُبّما ... ألَمَّ به مِنكم خَيالٌ فسلّما[٣].

أيطرُقُ جَفْناً باتَ مِنِّيَ ساهراً ... ويترُكُ أجْفاناً لكم بِتْنَ نُوّما[٤]؟

ولمّا استطارَ البرقُ قُلْتُ لصاحبي: ... أقلبي هَفا أمْ ثَغرُه قد تبسّما[٥]؟

أعارَ وميضَ البرقِ حُسْنَ ابتسامِهِ ... وماذا عليه لو أعارَ له اللَّمى[٦]؟

---

(١) جلّ: عظم، كثر، اشتدّ. ما ألقاه (من العذاب في البعد عن محبوبي في الحمى).

(٢) تيّم الحبّ الرجل: اشتدّ عليه فأمرضه.

(٣) ألمّ (مرّ، زار) به (فيه: في الهجوع،: الإغفاء، النوم). في الأصل «مسلماً» (ولا وجه لها). اقرأ: فسلّما.

(٤) طرق: زار ليلاً. - أنا سهران لا أرى حبيبي في نومي (ولا في اليقظة - بفتح ففتح). وأنتم تنامون ملء جفونكم، ولكن لا ترونه في منامكم (لأنكم لا تفكّرون به ولا تعرفون مكانته ولا تدركون جماله).

(٥) استطار: انتشر. أقرب المعاني للفعل «هفا» هنا: حنّ، اشتاق.

(٦) اللمى: السمرة في الشفاه.

أوِ البَرَدَ العَذْبَ الذي لن تُذيبَه حرارةُ أنفاسِ امرئٍ قَبّلَ الفَما[١]؟
تعلّم منه خُلّبُ البرقِ خُلْفَه؛ فمِنْ أيِّما بَرْقٍ تراه تعلّما[٢]؟

- وقال في الحنينِ إلى الوطنِ (وقد تكلّف فيه الغريبَ من الألفاظ):

أقولُ لركْبٍ قافلٍ من مُعَرَّسٍ بجَمّة، تَردي بالحُمول مَشاحِجُهْ[٣]:
لكَ اللهُ، أمْتِعْنا عنِ البلدِ الذي أكابرُه أسْلافُنا وأبالجُهْ[٤]؛
وعن وطنٍ، لولا العُلى وطِلابُها لَعَزَّ على مَثوايَ أنّيَ خارجه[٥]
وعن رسمِ إيوانٍ تداعتْ عِراصُه ودُكّتْ حَناياه وخَرّتْ معارجُه[٦]؛
وما صَنَعَ القصرُ العُبيديُّ والحِمى وسورُ المُصلّى والكَثيبُ وعالِجُهْ[٧]؟

---

(١) البرد: قطرات الماء التي تجمد بعد سقوطها من السحاب (كناية عن أسنان المحبوب).

(٢) البرق الخلّب (الذي يبرق ويرعد ثم ينقشع غيمه من غير أن يمطر). الخلف (بالضم): إخلاف الوعد. - هذا المحبوب تعلم قلة الوفاء بالوعد من هذا البرق الذي نراه في سمائنا، فمن أي برق أخذ لون أسنانه البيض وعذوبة ريقه؟

(٣) الركب جماعة (على إبل) في سفر. قافل: راجع. المعرس: المكان الذي ينزل فيه المسافرون في أثناء سفرهم ثم يتابعون السفر بعد ذلك. الجمّة: مكان يجتمع فيه ماء كثير. وجمّة (هنا) بلد (في تونس؟). تردي الخيل: تضرب الأرض بحوافرها ضرباً من سرعة جريها. الحمول جمع حمل (بالفتح): الهودج على الجمل (شبه بيت تركب فيه النساء). مشاحج (؟). المشحج (بالكسر): الغراب. - لعله يقصد البغال التي تحمل النساء والأحمال.

(٤) أمتعنا: حدّثنا حديثاً ممتعاً (يسرنا). الأبالج (؟) - الأبلج: الأبيض، الجميل، الكريم الأصل، الجواد، وجمعها بلج (بالضم).

(٥) خارجه: خارج منه (بعيد عنه). - خارج: خبر «إن» وليست «ظرفاً متعلقاً بالخبر المحذوف (؟).

(٦) الرسم: أثر البناء بعد زواله. الإيوان: البناء العظيم لمجلس الملك. تداعى: تهدّم. العرصة (بالفتح): المكان الواسع بين البيوت لا بناء فيه (والاستعمال هنا خطأ).
دك (بالبناء للمجهول) القصر: هدم كله. الحنيّة: القنطرة المعقودة. خرّ: سقط. المعراج (بالكسر): المصعد (بالفتح): الطريق يصعد فيها السائر. والشاعر يقصد بالمعارج السلالم جمع سلم (بضم ثم لام مشدّدة مفتوحة).

(٧) القصر العبيدي: (القصر الذي كان ينزل فيه أئمة العبيديين (الفاطميين) في المهدية (في القطر التونسي). الحمى (المكان المحروس: مسكن النساء، والقلعة). الكثيب: الرمل المستطيل المحدودب. عالج: الرمل المتداخل المتراكب. لعل الشاعر يقصد بالكثيب وعالج مكانين للنزهة (راجع البيت التالي).

وشاطِئُهُ أنّى تنوّعَ حُسنُه، وخِضرِمُه أنّى تَدَفّعَ مائجه [1]؟
سلام على المَهْدِيّتَيْنِ ففيهما أبٌ بِنْتُ عنه قاصرُ الخَطْوِ هادِجُه [2].

٤ - ★★ رحلة التجاني ٣٧٥ - ٣٨٠؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ١٩٧ - ١٩٩؛ الأعلام للزركلي ٤: ٣٧١ (٢٠٩).

أحمد اللّلْيانيّ

١ - هو أبو العبّاس أحمدُ بنُ إبراهيمَ اللّلْيانيّ - نِسبةً إلى لَلْيانة قُرب المَهْديّة، في القُطر التونسيّ - انتقلَ به أبوه إلى تُونِسَ الحاضرة (العاصمة)، وفيها لازمَ الإمامَ أبا زكريّا البَرقيّ.

تولّى أحمدُ اللّليانيُّ عدداً من أعمال الدولة في أيام المُسْتنصرِ الأوّلِ (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ). وكانتْ له في الوقتِ نفسهِ صِلاتٌ تجاريّة بِفَرنسةَ وإيطاليةَ فجَمَعَ من ذلك ثَرْوةً كبيرةً كانتْ سبباً لَحَسَدِه عليها ثمّ مُصادرتِها. ولم يَشْفِ ذلك غِلَّ السُّلطان له فقَتله بعدَ ذلك في المُحرَّم من سَنَة ٦٥٩ (في آخرِ شهور ١٢٦٠ م).

٢ - كان أحمدُ اللّليانيُّ فقيهاً وشاعراً مَشْرقيَّ الدِيباجةِ مَشرقيَّ الأغراضِ متينَ السَبْكِ صحيحَ التعبير. وفنون شعرِه الغزلُ والعِتاب. وداليّتُه التي تأتي في «مُختاراتٍ من شعرِه» تُذكّرنا باليتيمةِ: «هلْ بالطُلولِ لسائلٍ ردٌّ؟» (راجع ٢: ١٩٧).

٣ - مختارات من شعره

- كان أحمدُ اللّليانيُّ بعيدَ الطموحِ يُحَدِّثُ نفسَه بأمورٍ كثيرة (بالوصول إلى السُّلطة مثلاً). وفي مثل ذلك يقول:

---

(١) أنّى: كيف. الخضرم: البحر العظيم.

(٢) المهديّتين: ... (؟). المهديّة: بلد في منتصف الساحل الشرقي من القطر التونسي. بنت عنه: ابتعدْتُ (من بان يبين). قاصر الخطو (ضعيف عاجز عن المشي). الهادج: الذي يمشي بصعوبة أو بارتعاش.

في أُمِّ رأسي حديثٌ لسامعٍ ليس يُبْصِرْ[1].
فإنْ تطاولَ عُمري وساعَـدَ الجَـدُّ يَظْهَرْ[2].
أرى جُموعـاً صِحاحـاً، ومذهـبي أنْ تُكَسَّرْ[3].

- وله في الغزل:

شادنٌ في القلـب مرتعُـهُ خَصّـه بالحُسْن مُبْدِعُـهُ[4].
لامـني فيـه أخو سَفَـهٍ بكلامٍ لست أسْمَعُه[5].
رُدَّ لي قلـبي لِتَعْذُلَـه، فهْوَ في كَفَّيْـهِ أجمعُـهُ[6].
هـل يُرى دهرٌ يجودُ بـه بعـدَ مـا قـد كـان يمنَعُـه.
وشقيـقِ النفس يُتْحِفُـني بحديـثٍ جَـلَّ مَوْقِعُـه[7]،
لفظُـهُ دُرٌّ يُساقِطُـهُ، وبَناني السمعُ يجمَعُه[8].

- وقال أحمدُ اللّيانيّ في العتاب:

هـذي العُذَيْـبُ، وهـذهِ نَجْـدُ! أينَ الـذي يَقضي بـهِ الوَجْدُ[9]؟

---

(١) أمّ الرأس: الدماغ. لسامع ليس يبصر (يسمع كلامي ولكن لا يتبيّن معناه ولا يدرك ما يخبّئه له المستقبل).
(٢) الجَدّ (بالفتح): الحظّ.
(٣) في البيت توريتان. الجمع الصحيح (جمع الأسماء جمعاً مذكّراً سالماً أو مؤنّثاً سالماً ثمّ، جماعات من الناس: أهل الدولة مثلًا). تكسير الجمع من الكلام جمعه على غير نسق معلوم: جمع ثائر ثائرون (جمعاً سالماً) وثُوّار (جمع تكسيرٍ). وتكسير الجمع (من الناس) تفريقه.
(٤) الشادن: الغزال الصغير (المحبوب). في الأصل: خصّه في الحسن أبدعه. المبدع: الخالق (الله).
(٥) السفه: النقص في العقل.
(٦) عذل: لام. - إذا أردت أن أسمع لَوْمَك في حبيبي حتّى أهجره فاعملْ أوّلاً على أن تردّ إليّ قلبي الذي هو أسير في يدي محبوبي.
(٧) شقيق النفس: الذي هو عندك بمنزلة نفسك (روحك، حياتك). المحبوب. جلّ موقعه: عظم وقعه (تأثيره في نفسي).
(٨) - كلام محبوبي درّ (جوهر، لؤلؤ) يلقي به وهو يتكلّم، وأنا أصغي إليه بانتباه كأنّي ألتقط اللؤلؤ ببناني (أطراف أصابعي) من الأرض.
(٩) العذيب: نبع ماء (وماؤه قليل ولكن حلو) قرب ينبع (ثغر المدينة المنوّرة). هذي العذيب...... هاهي قريبة منّي. الوجد: الحبّ. الذي يقضي به الوجد أن يزور المحبّ أرض حبيبه.

ما هكذا حالُ المُحِبِّ إذا أعلامُ رَبْعِ حبيبهِ تبدو[1].
سَرِّحْ دُموعَ العينِ مُبْتَدِراً وبِذِكْرِ ماضي عَهْدِهِمْ فَاشْدُ[2].
والْثِمْ على شَغَفٍ مواطِئَهُمْ، إنْ عاقَ عن مَقصودِكَ البُعْدُ.
لم أنسَ يومَ وَداعِهِمْ سَحَراً، والدمعُ أسْلَمَ دُرَّهُ العِقْدُ[3].
فعَسَى اللِقاءُ يكونُ مُقْتَرِناً إنْ أنجَدَتْ كَلَفاً به نَجْدُ[4].
ولعلّ ما نرجو تَجودُ به كفُّ الزمانِ ويُسْعِدُ الجَدّ[5].

٤ - ** مجمل تاريخ الأدب التونسي ١٩٥ - ١٩٧؛ عنوان الأريب ١: ٧٣ - ٧٤.

أبو بكر بن سيّد الناس

١ - هو أبو بكرٍ محمّدُ بنُ الفقيه أبي العبّاسِ أحمدَ (٥٦١ - ٦١٨ هـ) بنِ عبدِ الله (٥١١ - ٥٩١ هـ) بنِ محمّدِ بنِ يحيى بنِ محمّدِ[6] بن سيّدِ الناس اليَعْمُريُّ الإشبيليُّ، أصلُ أهلهِ من مَنْبجَ قُرْبَ حَلَبَ (في الشام)، وأصلُ أهلهِ الأقربين من أُبّذَةَ من عَمَلِ جيّانَ.

يذكُرُ أبو بكرٍ بنِ سيّدِ الناس عن نفسِه أنّه وُلِدَ لعَشْرٍ لَيالٍ بَقِيَتْ من شهر أكتوبرَ الأعجميِّ في صدر سَنَةِ سَبْعٍ وتسعين[7]. فعلى هذا يكونُ مولدُه في عاشرِ المُحَرَّم من سَنَة ٥٩٧ (٢١/١٠/١٢٠٠ م)، في الحُجيرة من قُرى إشبيلية، وبدأ تلقّي العلمَ على

---

(١) الأعلام: الجبال، الأماكن العالية البارزة. الربع: المسكن. - لا يفعل أحد مثل فعلي: يرى أرض حبيبه ثمّ لا يذهب إليها.
(٢) ابتدرت العين: سال دمعها. المبتدر (الذي يبكي كثيراً؟). شدا: غنّى - كان ماضي عهدي معهم سعيداً.
(٣) أسلم دره العقد: انقطع سلكه وتفرّقت حبّات لؤلؤه (كناية عن كثرة بكائه).
(٤) أجدت: ساعدت (نجد على إتاحة الفرصة لزيارتها).... مقتربا (!).
(٥) الجدّ (بالفتح): الحظّ.
(٦) ساق الرواة نسب أبي بكر بن سيّد الناس سياقة أطول، مع شيء من الاختلاف (راجع «عنوان الدراية» و «الذيل والتكملة».
(٧) سنة سبع وتسعين وخمسمائة. أكتوبر العجمي (تشرين الأوّل) والشهر العاشر من السنة الشمسيّة في الحسبان الحديث.

أبيه ولازَمَهُ خمسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وعلى جدّتِهِ لأبيه أمِّ العَفافِ نُزهةَ بنتِ سُليمانَ اللَّخْميِّ ولازَمَها سِتَّ سَنَواتٍ ونِصفَ سَنةٍ. ثمّ يذكُرُ نفراً كثيرين من الذين قالَ إنّه تلقّى العلمَ عليهم، منهم: أبو حفْصٍ عُمَرُ بنُ عبدِ الله بنِ عُمَرَ السُّلَمِيُّ (ت ٦٠٣ هـ) وأبو ذَرٍّ مُصْعَبُ بنُ محمّدٍ الخُشَنيّ (ت ٦٠٤ هـ) وأبو الحسن بن خَروفٍ النَّحْوِيُّ (ت ٦٠٩ هـ) وابنُ جُبيرٍ الرحّالةُ (ت ٦١٤ هـ) وأبو القاسمِ محمّدُ بنُ عبدِ الواحد الملاحيّ (ت ٦١٩ هـ) وغيرُهم كثيرون، حتى قال ابنُ عبدِ المَلِكِ المَرّاكُشيُّ (الذيل والتكملة: ٥: ٦٥٧): «وشُيوخُه كثيرون يتعذَّر إحصاؤهم ويدعو إلى السَّأَم آستقصاؤهم»، مَعَ أنّه قد سَرَدَ من أسمائهم ما ملأ أربعَ صَفَحَاتٍ (٥: ٦٥٤ - ٦٥٨). ويبدو أن آبنَ سيد الناس كان مُبالِغاً في عددِ الذين تلقّى عَلَيْهِمُ العِلمَ وفي العلمِ الذي تلقّاه أيضاً، حتّى (الذيل والتكملة ٥: ٦٥٨) «أنكرَ كثيرٌ من الناس عليه ذلك ونَسَبوه إلى آدّعائه ما لم يَرْوِهِ (من العلم) ولقاءِ مَنْ لم يَلْقَهُ (من الشيوخ) على الوجه الذي زَعَمَهُ.

وأكْتَبَ أبو بكرِ بن سيّدِ الناسِ (أيْ جَعَلَ الناسُ يكتبون عنه ما يُلقي من فُروع العلم) بِحُصْنِ القَصْرِ (قربَ إشبيليةَ) مدّةً - وفي الإكتابِ أذهَبَ مُعْظَمَ عُمُرِهِ في الأندلس - ثمّ فَصَلَ عنها وأكتبَ القُرآنَ في قريةٍ خاملة من قُرى شَريشَ (من أقصى الجَنوب الغربيّ من الأندلس) تدعى بُونِينَهْ. ثمّ فَصَل (نَزَحَ) من بُونِينَهْ، بعدَ سَنَةِ ٦٤٠ للهِجرة، إلى سَبْتَةَ (في أقصى الشَّمال من المَغرب، على البحر المتوسّط)، بعدَئذٍ آنتقلَ إلى بِجايةَ (في القُطر الجزائريّ اليومَ) فتولّى الإمامة والخَطابة بجامِعِها.

وفي حُدودِ سَنَةِ ٦٥٤ للهِجرة (١٢٥٦ م)، دعاه المُسْتَنْصِرُ[1] الحَفصيُّ (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) إلى تُونسَ الحاضرةِ وولّاه الإمامة والخُطْبة بجامعِهِ.

وقد كانت وفاتُه بحاضِرَةِ تُونِسَ، في جُمادى الأخيرة[2] من سَنَةِ ٦٥٩ للهِجرة

---

(١) في عنوان الدراية المستنصر (ص ٢٤٧) مرّتين. وفي الحاشية: تخطئة لنيل الابتهاج لأنّه قال المنتصر (راجع نيل الابتهاج ٢٢٩). وفي «خلاصة تاريخ تونس» لحسن حسني عبد الوهّاب «المستنصر (ص ١٠٨ - ١٠٩) أربع مرّات، وفي الصفحة ١٢٥ «المنتصر». وفي زامباوّر (ص ١١٥): «المنتصر» وفي الحاشية المستنصر.

(٢) في «عنوان الدراية (ص ٢٤٩): وكانت وفاته يوم الثلاثاء، الثالث والعشرين جمادى الآخرة، سنة تسع =

(١٢٦١ للميلاد). ولَحِقه قُبيل موته مَرَضٌ في عَيْنَيْهِ (راجع نفح الطيب ٤ : ١١٠).

٢ - كان أبو بكرِ بنُ سَيِّدِ الناس بارعاً في القِراءات حافظاً للحديث عارفاً برجالِهِ وبأسمائهم وبتاريخِ وَفَياتِهم ومَبْلَغِ أعمارهم. وكان يقومُ على البُخاري[1] قياماً حَسَناً. وكان إذا قرأ الحديثَ يُسْنِدُهُ (إلى رُواته) حتّى يَنْتهِيَ إلى النَّبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلّم. ثمّ إذا ٱنتهى الإسنادُ (رُجوعاً إلى الرسول) عادَ إلى ذِكْرِ رِجالهِ من الصَّحابة والتابعينَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ واحداً واحداً يُعَرِّفُهم نَسَباً وٱسماً وصِفةً (حتّى يَنْتهِيَ نُزولاً) إلى شيخه..... ثمّ يذكُرُ لُغةَ الحديث وفِقْهَه والخِلافَ العالي[2] ودقائقَه ورقائقَه والمُستفادَ منه (راجع عنوان الدراية ٢٤٦ - ٢٤٧ ونيل الابتهاج ٢٢٩).

ثمّ هو خطيبٌ ولُغويٌّ وتاريخِيٌّ وشاعرٌ.

وقيل في أبي بكرِ بنِ سيّدِ الناس (الذيل والتكملة ٥ : ٦٥٨ - ٦٥٩): «وتصدّى لإسماع الحديث وغيره مُتظاهراً بِسَعة الرِّواية والإكثار عن[3] الشيوخ... فأنكر كثيرٌ من الناس عليه ذلك.... وعلى الجُملة، فقد كان قاصراً عمّا تعاطاه من ذلك شديدَ التجاسُرِ عليه، مُتأَيِّداً بما ناله من الجاه والحُظوة عند الأمير بِتُونِسَ».

٣- مختارات من آثاره

- قال أبو بكرِ بنُ سَيّدِ الناس يَتشوّقُ إلى زيارةِ البيتِ الحرامِ (الكعبةِ المُشرّفةِ في مكّة):

أيا سائراً نحو الحِجازِ، وقَصْدُهُ ... إلى الكعبةِ البيتِ الحرامِ، بَلاغُ[4].

ومِنـــهُ إلى قَبْرِ النَبيِّ مُحمّــدٍ ... يكونُ لـــه بالرَوْضتَيْنِ مَراغُ[5].

= وخمسين وستّمائة. وفي «الذيل والتكملة» ٨ أو ٧ جمادى الثانية، وفي «نيل الابتهاج»: ثالث عشر جمادى الأخيرة ٦٥٧. توفي بتونس في رجب (شذرات الذهب (٥: ٢٩٩).

(١) كتاب «الجامع الصحيح» (في أحاديث رسول الله) لمحمّد بن اسماعيل البخاري (ت٢٥٦ هـ).

(٢) الخلاف العالي = الخلاف في الأحاديث العوالي التي يرويها أفراد معاصرون للرسول (؟).

(٣) مُدَّعيًا أنّه تَلقّى العلمَ على شيوخٍ كثيرين.

(٤) قصده (نيّته) بلاغ (تبلّغه مرامه وتوجب له الأجر وإن لم يصل) (؟). أو أرجو أن تبلّغ سلامي.

(٥) الروضة الشريفة (مكان قبر الرسول). المراغ والمراغة: المكان الذي يتمرّغ فيه الشخص (يتقلّب على التراب ليحكّ جسمه بالأرض أو للتذلّل أو لليأس، الخ).

فيا أَسَفَا، كم قد تَمَنَّيْتُ قَصْدَهُ فأُدْفع عن قَصْدي له وأُراغ[1].
وقصّر بي جَدّي، إذِ الأمرُ في يدي جميعٌ، وعِنـدي ثروةٌ وفَراغ[2].
(وذا) الآنَ قد خَطّ المَشيبُ بِمَفْرِقي، وكلّلَ رأسي من حُلاه صباغ[3]،
أُعَلِّـلُ نفسي بالمُنـى، وتصُـدّني ذنوبٌ لها عند الفِراق مَصـاغُ[4](؟).
عسى توبــةٌ قبـلَ المَماتِ وزَوْرةٌ فيُنْضَحَ من شَيْنِ الذُّنوبِ رِداغ[5]،
وألقى شُيوخاً يُؤنِسُ المَرْءَ مِنْهُمُ أحاديثُ صِدْقٍ تُجْتَلَى وتُصاغ[6].

- ومن رسالة بخطّ أبي بكر بن سيد الناس يقول فيها (الذيل والتكملة ٥: ٦٥٩ - ٦٦١):

أمّا أصلُنا فَمِنْ مَنْبِجِ الشام. وخرج سَلَفُنا غُزاةً في طالعةِ بَلْجٍ[7] واستوطنوا أُبَّذةَ جَيّانَ - ويقال إنّها شبيهةٌ ببلدِهم في خِصْبِها وآتساع خيرِها - كذا رأيتُهم وسمعتُهم يتلفّظون بها، بالذال المُعجَمة. وفي أخبارها ما يدلُّ على أنّ العرب، إذ ذاك، تكلّموا فيها بالدال المُهمَلة. ... ومولُد جَدِّي الفقيهِ أبي محمّدٍ بأُبَّذةَ سَنَةَ إحدى عَشْرَةَ وخَمسِمائةٍ. وتُوُفِّيَ في إشبيليةَ عامَ (معركة) الأرْك سَنَةَ إحدى وتسعين[8]. ومولدُ أبي بإشبيلية في

---

(١) « ادفع » حقّها النصب بأن مضمرة بعد فاء السببيّة (بعد فعل التمنّي). ولكن يجب حينئذ نصب « أراغ » فيحدث إقواء (عيب: نصب بدل الرفع في القافية). أراغ: أبعد (عن الطريق السويّ).

(٢) الجدّ (بالفتح): الحظّ. في الأصل « إذا » (الصواب إذ). - انا مستطيع أن أذهب إلى الحجّ، ولكن حظّي سيء فلم تتح لي فرصة بعد للذهاب.

(٣) خطّ: كتب (بدأ الشيب في رأسي). كلّل رأسي: أحاط برأسي صباغ (لون أبيض: شيب) من حلاه: زينته. - كان لون مشيبه جميلاً.

(٤) ذنوب لها عند الفراق مصاغ (؟): تنحرف بي عن قصدي.

(٥) زورة (للمدينة، لقبر الرسول). الشين: العيب. نضح: غسل بالماء. الرداغ: الوحل. أرجو إذا زرت مكّة والمدينة أن تغسل تلك الزورة (مع التوبة) ما عليّ من عيب الذنوب.

(٦) شيوخ (أساتذة). أحاديث صدق: أحاديث صادقة (ثابتة، صحيحة). تجتلى: يطلب الإنسان اجتلاءها (النظر إليها). وتصاغ (تجعل زينة لما يحفظه الإنسان من فنون العلم).

(٧) بلج بن بشر القشيري (ت ١٢٤ هـ) قائد جيش جاء من الشام لإخضاع الثائرين في إفريقية (تونس) ثمّ دخل الأندلس وشارك في القتال. راجع أخباره مفصّلة في الجزء الرابع من هذه السلسلة (ص ٤٣ وما بعد).

(٨) سنة ٥٩١ هـ. ومعركة الأرك انتصر فيها الموحّدون على الإسبان في الأندلس وخففوا وطأة الإسبان عن المسلمين هناك. راجع في هذه السلسلة الجزء الخامس (ص ٣٦٠).

جُمادى الآخِرَةِ سَنَةَ إحدى وتسعين (وخمسمائة)، وتُوُفِّيَ بها في مُنتَصَف جُمادى الأُولى سَنَةَ ثَماني عَشْرَةَ وستِّمائة. ومولدي بقريةٍ من قُرى إشبيلية تُسمّى الحُجيرةَ، خرج أبوايَ لها في غَلّةِ الزيتون لِضَمِّ فائدِ[1] أملاكِهم - وكانا مُتحابّيْنِ لا يَصْبِرُ أحدُهما عن الآخَر، فخرجا جميعاً إليها - فكانتْ وِلادتي بها لِعَشْرِ لَيالٍ بَقِيَتْ من شَهْرِ أُكتوبرَ[2] العَجَمّي، ولا أدري ما وافَقَ من الأشهُرِ العربيّة لِتَلَفِ تَقْييداتي وتقييداتِ سَلَفي في ضَيْعة[3] كُتُبي. إلّا أنّ والدتي كانتْ تقولُ: كنت ليلة موسم ينير من أربعين ليلة[4]، وإلّا ما تحقّقته بآخرة[5] من وجوهٍ (من) أنّ ذلك كان في صدر سَنَةِ سبعٍ وتسعينَ، قبلَ السَّيلِ الكبير بأشهُرٍ.

٤ - ★★ الذيل والتكملة ٥: ٦٥٣ - ٦٦٢ (رقم ١٢٤٥)؛ عنوان الدراية ٢٤٦ - ٢٤٩؛ نيل الابتهاج ٢٢٩ - ٢٣٠؛ شذرات الذهب ٥: ٢٩٨ - ٢٩٩.

ابن عبدون المكناسي

١ - هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ عَبدونِ بنِ قاسمٍ الخَزْرَجِيُّ المِكْناسيّ، من أهلِ مِكناسَ، كانت وفاتُه في العَشْرِ الأُولِ من ذي القَعْدةِ من سَنَةِ ٦٥٩ (خريفِ ١٢٦١ م) في الأغلب.

٢ - ابنُ عبدونٍ المِكناسيُّ شاعرٌ متينُ السَّبْكِ جَزْلُ المَعاني على شِعره نفحةٌ مَشرقيةٌ بارِزةٌ. وفنونُه الغَزَلُ والعِتابُ ووَصْفُ الطبيعةِ ينحو فيها المَنْحى الوُجْدانيَّ. ويبدو أنّه كانتْ له مشاركةٌ في القِراءات والفِقْه.

(١) غلّة الزيتون = موسم الزيتون (في الخريف). الفائد = الفائدة (؟): محصول أراضيهم.
(٢) أكتوبر (راجع مطلع ترجمة أبي بكر بن سيّد الناس).
(٣) ضيعة = ضياع (بالفتح: فقدان).
(٤) ..... (؟).
(٥) الفيضان العظيم.

٣- مختارات من شعره

- قال ابنُ عبدونِ المِكناسي في الشَّيْب:

لمّـــا تراءتْ لِلْمَشيــبِ بِمَفرِقي	شُهْبٌ أغَرْنَ على شَبابي الأدْهَمِ[١]،
أبْـدى التَّجَهُّمَ مَنْ أُحِبُّ. أما دَرَى	أنّ الدَياجِيَ حُسْنُها بالأنْجُمِ[٢]؟

- وقال في فاس ومكناس:

إنْ تَفْتَخِرْ فـاسٌ بمـا في طَيِّهـا	وبأنّهـــا في زِيّهــا حَسْنــاءُ[٣]،
يَكْفيــكَ من مِكناسةٍ أرجاؤهــا	والأطْيبــانِ: هواؤهــا والمــاءُ[٤]!

- وقال في العتاب:

يــا جِـيرتي ومَنِ اَسْتَجَرْتُ بِهِمْ	مِنْ جَوْرِ عِزِّهِمُ عـــلى ذُلّي[٥]،
عَلّقـــتُ حبـلَ مَحبّــتي بِكُمُ.	بِحَياتِكُمْ، لا تَقْطَعوا حَبْــــلي.
مــا كــان أنْـدى ظِـلَّ عِيشَتِنـا	إذ كـــان مُنْتَظِماً بِكُمْ شَمْــلي؛
إذْ نَجْتَـــني ثَمَرَ المُنـــى ذُلُـلاً	في رَوْضِ أُنس وافرِ الظِّلّ[٦].
عودوا إلى عـــاداتِ وَصْلِكُمُ:	لا تَحْرِموني لَـــذّةَ الوَصْـــل.
حاشاكُمُ، والفضـــلُ شِيمَتُـــكم،	أَنْ تُعْقِبوا الإخصابَ بالمَحْل[٧].
وإذا أبَيْتُمْ غيرَ جَوْرِكُمُ،	فالجَوْرُ مِنْـــكم غايـــةُ العَــدْل.
إن شِئْتُمُ قتــلي، فهـا أنَـا ذا.	لا تَحـذَروا من طالبِ ذَحْلي[٨]!

---

(١) المفرق المكـان الـذي يفصـل فيـه الإنسان بـين شعره. شهـب: نجوم (شعرات بيـض). أغرن = هجمن - الأدهم: الأسود. - كثر الشعر الأبيض في شعري الذي كان شديد السواد.

(٢) تجهّم فلان فلانا: استقبله بوجه عابس كريه.

(٣) بما في طيّها: داخلها (ماضيها من الآثار الجليلة والمكانة الرفيعة).

(٤) الأرجاء جمع رجا: الناحية.

(٥) الجور: الظلم (الاستبداد).

(٦) ذلل جمع ذلول: سهل. يسهل الوصول إليه.

(٧) الشيمة: العادة (الجميلة). المحل (بالفتح): القحط. - (أُعيذكم من أن تقطعوني بعد أن كنتم تحسنون إليّ.

(٨) الذحل: الثأر.

٤- ★★ نفح الطيب ٦: ٢١٢؛ النبوغ المغربي ١٧٠ - ١٧١، ٧٢٤ - ٧٢٥، ٧٦٣ - ٧٦٤؛ الأعلام للزركلي ٧: ١٣٦ (٦: ٥٦).

ابن سُراقة الشاطبيّ

١ - هو أبو عبدِ الله (ويُكْنى أيضا: أبا بكرٍ وأبا القاسم) محمّدُ بنُ أحمدَ[1] بنِ محمّدِ آبنِ إبراهيمَ بنِ الحسين الأنصاريُّ الشاطبيُّ المعروفُ بآبنِ سُراقةَ. وُلِدَ في شاطبةَ في رَجَبَ من سَنَةِ ٥٩٢ (حزيران - يونيو ١١٩٦ م). وقد سَمِعَ من قاضي الجماعة بقُرطُبةَ أبي القاسم (أحمدَ بنِ يزيدَ بنِ بَقِيٍّ (ت ٦٢٥ هـ).

ورحَلَ آبنُ سُراقةَ في طلَبِ الحديث إلى العِراق، ويَجِبُ أنْ تكونَ رِحْلتُه في زمنٍ باكرٍ جدًّا حتّى يستطيعَ أن يسمَعَ من أبي المحاسن بنِ شدّادٍ (ت ٦٣٢ هـ)، في بغدادَ أو في أثناء رِحلةِ آبن شدّادٍ إلى حلَبَ. وكذلك سَمِعَ في العراق من أبي حفصٍ عُمَرَ السُّهرَوَرْديّ (ت ٦٤٣ هـ) وأبي عليٍّ بنِ الجواليقي وأبي حَفْصٍ الدينوريّ وآخَرينَ.

وتولّى آبنُ سُراقةَ دارَ الحديث البهائيةَ في حَلَبَ (مُدّةً يسيرةً، فيما يبدو)، إذ أنّه آنتقلَ إلى القاهرة وتولّى بها دارَ الحديثِ الكامليةَ، من سَنَةِ ٦٤٢ للهجرة إلى حينِ وفاتِه سَنَةَ ٦٦٢ (١١٦٣ - ١١٦٤ م).

٢ - كان آبنُ سُراقةَ الشاطبيُّ أحدَ الأئمّةِ المشهورين بالعِلم وأحدَ الشيوخ المعروفين بالتصوُّف؛ وهُوَ في الأصل من بيتِ عِلمٍ، وقد تولّى نفرٌ من أهلِه القضاءَ. ثمّ هو شاعرٌ على مذهبِ القوم (المتصوّفين). وشِعرُه سهلٌ واضحٌ، ولكنّه يغمُضُ على القارىءِ العاديِّ أحياناً بِمَعانيهِ الصوفية أحياناً. وقد ذكَروا أنّه ألّفَ كُتُباً في التصوّف.

٣ - مختارات من شعره

- قال آبنُ سُراقةَ الشاطبيُّ أبياتاً فيها معانٍ صوفيّةٌ، فمِمّا وَصَلَ إلينا منها:

---

(١) في نسق نسبه خلاف. راجع حاشية في الأعلام للزركلي.

نَصِبْتُ، ومِثلي للمكارمِ ينصَبُ، ورُمتُ شروقَ الشمس وهي تُغرّبُ(١).
وحاولتُ إحياءَ النُّفوسِ بأسرِها وقد غرْغَرَتْ. يا بُعْدَ ما أنا أطلُب(٢).
وأتعبُ إنْ لم تَمنحِ الخلقَ راحةً، وغيريَ إنْ لم يتعبِ الخلقُ يتعبُ(٣).
مُرادِيَ شيءٌ، والمقاديرُ غـيرُه. ومن عاندَ الأقدارَ لا شكَّ يُغلَبُ(٤).
★ إلى كم أُمَنّي النفسَ ما لا تنالُه فيذهَبَ عُمْري والأمانيُّ لا تُقْضى.
وقد مرّ لي خمسٌ وعِشرون حِجّةً ولم أرضَ فيها عِيشتي، فمتى أرْضى؟
وأعلَمُ أنّي - والثلاثونَ مُدّتي - حَرٍ بمَغاني اللهوِ أُوسِعُها رَفْضا(٥).
فماذا عسى في هذه الخَمْسِ أرتجي ووَجْدي إلى أوْبٍ من العَشْرِ قدأفضى؟(٦)

- وقال في الصديق المُخلص:

وصاحبٍ كالزُّلالِ يمحو صَفـاؤه الشكَّ باليقـين.
لم يُحْـصِ إلّا الجميـلَ منّي، كأنّـه كاتـبُ اليمـين(٧).

(١) نَصِب ينصَب (بكسر الصاد في الماضي وفتحها في المضارع): جدّ وسعى وصمَد (اتّجه إلى الشيء). ومثلي للمكارم ينصب (يَقصِد أن يرقى إلى المكارم). رام: أراد. غرّب (بتشديد الراء): اتجه نحو الغرب، أمعن في سفره (بالغ في عمله). ورمت شروق الشمس وهي تغرّب: أردْتُ أن تظلّ الشمس مشرقة، بينما هي من عادتها أن تشرق وتغرب (أردت خلاف ما تعوّده البشر).

(٢) وحاولت إحياء النفوس (بالعلم) بأسرها (كلّها)، وقد غرغرت (تردّدتِ الروح عند الموت في الحلق= وقد أوشكت نفوس البشر أن تموت من الجهل لمعرفة الحقيقة).

(٣) .... إن لم تمنح (يا ربّ العالمين؟)..... وغيري إنْ لم يتعب الخلق يتعب (؟).

(٤) المراد: البغية (بالضمّ)، المطلوب. المقادير (ما قضاه الله على عباده وأرادهم أن يفعلوه أو ما كتب عليهم من الحوادث).

(٥) كان الشاعر يظنّ أنّه سيعيش ثلاثين سنة فقط. وكان لمّا قال هذه المقطوعة في الخامسة والعشرين من العمر (راجع البيت السابق) - في هذه السنّ (بين الخامسة والعشرين والثلاثين) يكون الإنسان ميّالاً إلى الذهاب إلى مغاني (أماكن) اللهو، ومع ذلك فأنا أرفض اللهو (في هذه السنّ) رفضاً باتًّا. حر (بفتح الحاء وبلا شدّة على الراء): خليق، أهل، يستحق.

(٦) في هذه الخمس (في السنوات الخمس الباقية من عمري). وجدي: حبّي، شوقي (ميل نفسي إلى اللهو) إلى أوب (رجوع) من العشر (عشر سنوات). أفضى: أدّى، وصل. - أنا الآن أشعر بالميل إلى اللهو كأنّي لا أزال ابن عشر سنين (؟).

(٧) ... لا يذكر إلّا أفعالي الجميلة الحسنة الصالحة. - على كَتِفَيْ كلّ فرد من الناس ملَكان (بفتح ففتح:

٤ - ** فوات الوفيات ٢: ١٨٥ - ١٨٦؛ الوافي بالوفيات ١: ٢٠٨ - ٢٠٩، شذرات الذهب ٥: ٣١٠ - ٣١١؛ نفح الطيب ٢: ٦٣ - ٦٥؛ الأعلام للزركلي ٦: ٢١٧ (٥: ٣٢٢).

أبو الحسن بن محمّد الجيّاني

١ - هو أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمّدِ بنِ حسنٍ الأنصاريُّ الإشبيليّ الجَيّانيّ، أخَذَ النَحْوَ عن أبي الحسنِ بنِ الدبّاجِ وأبي عليٍّ بنِ الشَّلوبينِ. ثمّ إنّه تصدّرَ للتدريسِ وتولّى القضاءَ مُدّةً بحُصْن القصر (قُرْب إشبيلية). بعدئذ نَزَلَ في مَرّاكُشَ، وقدِ آستَكْتَبَه الرشيدُ المُوّحديّ (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ) حيناً. وكانتْ وفاتُه سَنَةَ ٦٦٣ هـ (١١٦٤ هـ = ١١٦٥ م).

٢ - يبدو أنّ أبا الحسنِ بنَ محمّدٍ الجيّانيَّ قد وَقَفَ جميعَ آثارِه على مَدْحِ الرسولِ. ومَعَ أنّ آثارَه هذه عاديّةٌ في مَعانيها وفي المُعجزات التي سردَها من تلك الخارقةِ للعادة والخارقة للطبيعة، فإنّا نَلَمحُ فيها عاطفةً دينيةً مَشْبوبةً ورَغبةً مُلِحّةً في زِيارة قبرِ الرسولِ خاصّةً. ويبدو أن هذه الفُرْصَةَ لم تُتَـحْ له قطُّ. من أجلِ ذلك كَتَبَ رسالةً طويلةً بهذا المعنى وأرسَلَها لتُوضَع على قبرِ الرسولِ. وبعضُ شعرِه أكثرُ عُذوبةٍ من نَثْرِه.

٣ - مختارات من آثاره:

- من بديعيّاته (في مديح الرسول)[١]:

كيفَ لا أندُبُ عهداً بالحِمى عن جفوني طارقَ النومِ حَمى[٢]؟
نَزَعَتْ شوقاً إلَيْهِ مُهْجَةٌ لم يَدَعْ منها الهوى غيرَ ذَما[٣].

اثنان من الملائكة) يُحصي الذي على الكتف اليمنى منهما الأعمال الصالحة التي يأتي بها ذلك الفرد، ويحصي الآخر أعمال الفرد السيئة.

(١) أسماء الأماكن في هذه القصيدة ليست أعلاماً جغرافية معيّنة. بل رموز للمكان الذي يتشوّق إليه المتصوّف أو المتغزّل.

(٢) الطارق: الآتي ليلاً. طارق النوم: النوم الطبيعي.

(٣) نزعت: مالت، تشوّقت. مهجة: دم القلب (القلب). الذماء (بالفتح): بقيّة الروح في الجسم.

يـا ليالينـا بـذي الغَوْر، أمـا يتسلّـى القلـبُ عنكنّ أما؛
وعهوداً باللِّوى قـد سَلَفَـتْ لم أزلْ أبكي عليهنّ دمـا.
يـا حُداةَ العِيس، رِفْقاً! إنّها شَكَـتِ الجَهْدَ وبُعْدَ المُرْتَمى[1].
أوْهَنَ الوَخْـدُ قُواهنّ، فـإنْ لاح نَجْدٌ خِلْتَ فيها لَمَما[2].
مَـدّتِ الأعنـاقَ لمّـا رمَلت بنَقا الرملِ وأكْنافِ الحِمى[3]،
هاديـات بالهوادي، كُلّما ضـلّ حـادٍ جاذَبَتْـه الخُطُما[4].
جَنِّبوهـا مَوْرِدَ المـاء، فقـد حَرّمَتْـه أو تزورَ الحَرَما[5].
وعِداهـا بعِداهـا ظَفَراً وسروراً يوم تـأتي المَوْسِما[6].
إنّهـا قـد حَمَلَـتْ شُعْثاً، إذا مـا بَكَوْا قُلتَ غَمامٌ سَجَما[7].
شَرِبوا الدمْـعَ حَمِيماً وآرْتَوَوْا، ولـذا عافوا الزُّلالَ الشَّبِما[8].
مَنْ عَذيري من زمانٍ قد مضى أقْرَعُ السِّنَّ عليـه نَدَمـا.
حَسْرتـا إن لم أُبَلَّـغْ أمـلي قبلَ أنْ يأتي الرَّدى مُخْتَرِما[9].
إنّ حَسْبي في غـدٍ أنْ أغْتـدي لائِـذاً بالمُصطفى مُحْتَرِما[10]:
النـبيِّ الأبْطَحيِّ المُجْتَبى سيّدِ الخلقِ الكريمِ المُنْتَمى[11]،

---

(١) يا حداة (سائقي) العيس (النياق). الجهد: التعب. المرتمى: الطليعة (الذي يسير في مقدّمة القوم)- والشاعر يقصد المراد (المكان الذي يودّ الذهاب إليه).

(٢) أوهن: أضعف. الوخد: السير (السريع المتوالي)، ومع ذلك فلمّا اقتربنا من نجد (من المكان الذي نشتاق إليه) ظن أن بها لَمَماً (جنوناً) لكثرة ما أسرعت من جديد.

(٣) «رمل» يقصد بها هنا: غرقت قوائمُها في الرمل وعجزت عن السير (وهذا معنًى ليس في القاموس)، مدّت أعناقها لتصبح أقرب إلى المكان المقصود ببضعة أصابع، هرول.

(٤) الهادية: الناقة التي تسير في مطلع القافلة (لأنها تعرف الطريق). الخطام (بالكسر): اللجام.- شوقها يجعلها تعرف الطريق الصحيح أكثر من الحادي (السائق).

(٥) لا تحاولوا أن تسقوها ماء في أثناء الطريق، لأنّها عزمت على ألّا تشرب ماء قبل وصولها إلى مكة.

(٦) عداها (فعل أمر للمثنّى من «وعد») العدا: الأعداء. الموسم: اجتماع الناس في الحجّ.

(٧) الأشعث: الذي اَغبرّ وجهه وتشتّت شعره من طول السفر وغبار الطريق. سجم: سال بكثرة.

(٨) الحميم: الحار. الزلال: الماء الصافي. الشبم: البارد.

(٩) اخترم الموت الرجل: أخذه (قبل أوانه).

(١٠) حسبي: كفاية لي. لائذ: ملتجىء. المصطفى: رسول الله. محترما = متحرّما: لا ينالني أحد بسوء.

(١١) الأبطحي: من بطحاء مكّة (أشرف بقاعها وأعزها). المجتبي (المختار المقرّب). المنتمي: الأصل.

الرسولِ الساطـعِ النورِ الـذي قـد جـلا نورُ هُداه الظُّلَما.

– وله من رسالةٍ طويلة كَتَبَ بها لتُؤْخَذَ إلى قبرِ رسولِ الله:

إلى سيّدِ المُرسلينَ ورسولِ ربِّ العالمين، الذي جُعِلَتِ له الأرضُ مَسْجِداً وطَهُوراً(١)، وكان ولم يَزَلْ مُتَنَقِّلاً من صُلْبِ آدَمَ نوراً(٢). من يَلْجأُ إليه يومَ الفَزَعِ الأكبرِ النَبيّون(٣)، ويرجو مَذْخُورَ شَفاعَتِه في غدٍ المُسيئونَ. ذُؤابةُ بني هاشمٍ المُتَجشّمُ في ذاتِ اللهِ سُبْحانَه أصعبَ المجاشم(٤).... الميمونُ النقيبة والطليعةِ(٥)، المُشيرُ إلى الأصنامِ فخَرّتْ صريعةً(٦). حبيبُ اللهِ وخليلُه ومن أُنْزِلَ عليه تحريمُه وتحليلُه، وقام على صِدْقهِ بُرهانُ الحقِّ الواضحُ ودليلُه. الذي أعْجزَ البُلغاءَ وهُمْ أوفَرُ الناسِ في وقتهِ عَدَداً(٧)، ولوِ اتّخذوا البحرَ مِداداً والأشجار مَدَداً(٨) فَضَحَهُمْ بباهِرِ آياتِهِ ومحا فَجْرَهُمُ الكاذبَ سُطوعُ آياتهِ(٩)، الذي جُمِعَتْ له شتّى الفضائلِ وضُروبُها....

٤- ★★ الذيل والتكملة ٥: ٢٨٧ – ٣٠١ (رقم ٥٧٩)؛ الأعلام للزركلي (٤: ٣٣٣).

---

(١) في الحديث «جعلت لي الأرض مسجداً وطَهوراً» (في الإسلام تجوز الصلاة في كلّ مكان من غير ضرورة إلى بناء مخصوص أو لباس معيّن).

(٢) انتقل النور من آدم إلى أبنائه واحداً بعد واحد، في نسب متّصل مستقيم، حتّى وصل إلى محمّد رسول الله.

(٣) يوم الفزع الأكبر: يوم القيامة. مذخور الشفاعة: الشفاعة المدخرة لتكون يوم القيامة من حقّ محمّد رسول الله.

(٤) الذؤابة: أعلى القوم. المتجشّم....: الذي لاقى في سبيل الدعوة إلى الله أشد المصاعب.

(٥) الميمون: المبارك. النقيبة: الطبيعة. الطليعة (طلائع الجيوش التي قامت بالجهاد!).

(٦) لمّا كان فتح مكّة، سنة ٨ (٦٣٠ م) صعد الرسول إلى ظهر الكعبة وبيده قضيب كان يدفع به الأصنام ويلقيها أرضاً وهو يتلو: ﴿قل: جاء الحقّ وزهق (بفتح الهاء: زال) الباطل، إنّ الباطل كان زهوقاً﴾ (١٧: ٨١، سورة الإسراء). خرّت: سقطت. صريعة: ملقاة أرضاً (لا فرق بينها وبين سائر الحجارة في الأرض).

(٧) بلاغة الرسول (وكان أميًّا لا يخطّ ولا يقرأ الخطّ) كانت معجزة ظاهرة في زمن اشتهر أهله بالبلاغة.

(٨) المداد: الحبر. المدد: النجدة (لو جعلت جميع الأشجار تصلح لتكون أقلاماً).

(٩) أول نور الفجر يكون ضعيفاً فيسمّى الفجر الكاذب (لا تحين به صلاة الصبح) ثمّ ينتشر النور من وراء الأفق واضحاً فيسمّى الفجر الصادق. السطوع: الضياء القويّ. الآيات: العلامات، الدلائل. الضروب: الأنواع.

ابن الفَخَّار الرعيني

١ - هو أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمدِ بن عليٍّ بنِ محمدِ بن عبد الرحمن بن هَيْصم الرُّعينيُّ المعروفُ بآبنِ الفَخّار، وُلد في إشبيليةَ في شَعبانَ من سَنَةِ ٥٩٢ (صيف ١١٩٦ م) وفيها نشأ وأخذَ عن شيوخِ عصره - وقد عَدَّ منهم في « بَرْنامَجِه » مِائَةً وآثْنَيْ عَشَرَ - منهم: أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمدِ بنِ خَروفٍ النحويُّ (ت ٦٠٩ هـ) ومحمدُ بنُ عبدِ النورِ السبتيّ المُقرىء (ت ٦١٤ هـ) وأبو الحسين محمد بنُ محمدِ بنِ زرقونٍ الفقيهُ المحدّث (٥٣٩ - ٦٢١ هـ) وأبو القاسم عامرُ بنُ هشامٍ الأزديُّ القُرطبي الشاعرُ (٥٥٣ - ٦٢٣ هـ) وأبو الحسنِ عليُّ بنُ محمّد البَلَويُّ الفقيهُ (٥٥٤ - ٦٢٣ هـ) وأبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ إدريسَ بنِ مرجٍ الكُحْل (ت ٦٣٤ هـ).

جلس آبن الفَخّار الرُّعينيُّ للتدريس والإفادة مُنذُ سَنَةِ ٦١٤ للهجرة. وكان كثيرَ التنقُّلِ في الأندلس والمغرب: في سنة ٦١٥ للهجرة كان قاضياً في مَوْرور (من جَنوب الأندلس بين شريشَ وقَرَمونة وإشبيلية). ثم رأيناه في مالقة (٦١٥ هـ) وإشبيلية وفي قرطبة (٦٢٥ هـ). وفي سبته بالمغرب (٦٢٩ هـ)، ثم في غرناطة (٦٣٦ هـ)، وتِلمْسانَ بالمغرب (٦٤٦ هـ). في هذه الأثناء كتبَ (في ديوان الإنشاء) لنفرٍ من ملوك الأندلس وملوك العُدْوة الإفريقية. وفي آخرِ عُمُرِه استقرّ في مَرّاكُشَ حيثُ تُوُفِّيَ في الرابعِ والعشرينَ من رمضان سَنَةِ ٦٦٦ (٧/ ٦/ ١٢٦٨ م).

٢ - ابنُ الفَخَّارِ الرُّعيني فقيهٌ ومُحدّثٌ وأديبٌ ناثرٌ مُتَرَسِّلٌ وناظمٌ، وكِتابته تَتّصف بخصائص عصرِه من المَيلِ الشديدِ إلى السجْع وإلى أنواع البديع، فقد يُنشئُ رِسالةً أو يَنْظِمُ قصيدةً في كلِّ كلمةٍ من كَلِماتِها حرفُ العينِ أو حرفُ السينِ، مثلاً (راجع «مختارات من آثاره»). وله شيءٌ من الشعرِ الوُجداني ذي النَفْحةِ الدينية. ثمّ هو مُصنّف له: كتاب الإيراد لِنُبذةِ المستفاد من الرّواية والإسناد بلقاء حَمَلَة العلم في البلاد على طريق الاقتصار والاقتصاد (وهو بَرْنامج شيوخه: برنامج شيوخ الرعيني) - اقتفاء السَّنَن في انتقاء أربعين من السُّنَن (في الحديث) - شرح الكافي لابن شُريح[1] - جَنَى

---

(١) كتاب الكافي (في القراءات....) لمحمّد بن شريح بن أحمد الرعيني الإشبيلي المقرّي (٣٩٢ - ٤٧٦ هـ). =

الأزاهرِ النضيرةِ وسنا الزواهرِ المُنيرة في صِلة المَطْمع والذَخيرة ممّا وَلّدتهُ الخَواطر مِنَ المحاسن في هذه المدّة الأخيرة (فيه المُخاطبات التي جرت بينَه وبينَ الكتّاب والشعراء).

٣- مختارت من آثاره

- قال ابن الفخّار الرُّعينيّ (مَعَ شرط التزام العينِ في كلّ كلمة)[١]

عُلَاكَ عَلَــــتْ عُلُوَّ الشِّعْرِيَيْنِ مُصاعِـــدةً لأعـــلى المَطْلَعَيْنِ[٢]
أعـادَ عـلى العُلا عَصْرَيْ سُعودٍ بِرَيْعـــانِ المعـــارف مُمْرِعَيْنِ[٣].
عُنِيــتَ بِمَنْزِعَيْ عَمَــلٍ وعِلْمٍ عِنايــةَ مُولَــعٍ بالمَنْزِعَــين.
وتعتمـــــدُ العقولَ بمُعْجِزاتٍ أشِعَّتُهـــا تَروع الساطِعَــين[٤]

علاؤك مَشْعَرُ إعظامي ومَفْزَعُ اعتصامي[٥] وعُمْدَةُ اعتمالي وعِزوة اعتمادي وعُروة اعتدادي[٦] ومهيَعُ إشراعي ومربَعُ نِزاعي[٧]..... بِعنايتك أُعالي الرِّعانَ وأتعاطى الإمعان[٨] وادّعي الإفراع وأُعنّي اليراع[٩] وأدفع العِيَّ وأُضارع الألْمَعيّ[١٠]....

= طِبع كتاب الكافي بهامش كتاب «المكرّر فيما تواتر من القراءات وتحرّر» لأبي حفص عمر بن القاسم بن محمّد النشار الأنصاري، مكّة ١٣٠٦هـ؛ القاهرة (مطبعة دار الكتب) ١٣٢٦ هـ (راجع بروكلمن، الملحق ١: ٧٢٢؛ الأعلام للزركلي ٧: ٢٨؛ معجم المطبوعات العربية ١٧٧٦، ١٨٥٦).

(١) سيكون الشرح للقطعة التالية موجزاً يكاد يقتصر على الألفاظ. إنّ المقصود من القطعة إبراز الجهد اللفظي، والمعاني كانت تبعاً لذلك.

(٢) الشعرى اليمانية (الشعرى الغميضاء من النجوم المشهورة المهمّة).

(٣) ريعان كلّ شيء: أوّله وأفضله. الممرع: الخصيب.

(٤) تروع: تعجب الناظر (مع الشعور بشيء من الخوف). الساطعان: الشمس والقمر.

(٥) المشعر: المنسك (مكان العبادة). المفزع: الملجأ.

(٦) العزوة: الانتساب، القرابة. العروة: كلّ ما يستمسك به ويعتمد عليه أو يربط شيئاً بشيء.

(٧) المهيع: الطريق الواضح. المربع: المسكن. النزاع: النزوع (الميل والاشتياق).

(٨) عالى: بارى في العلّو. الرعن (بفتح فسكون): أنف الجبل وطرفه الشاخص (العالي). أتعاطى الإمعان: أحاول التوغّل في الأمور.

(٩) الإفراع: علو الشرف في القوم. أعنّي: أتعب. اليراع: القلم (!).

(١٠) أدافع العي: أبعد عن نفسي العجز عن الكلام. أضارع: أشابه. الألمعيّ: الخفيف الظريف. اليلمعيّ: الذكيّ.

– وقال (من غير اشتراط معيّن) يُجيب أبا المطرِّف بن عَميرةَ:

وافى الكتـابُ وقد تقلّدَ جِيدُهُ ... ما أنتَ مُحْسِنُ نَظْمِهِ ومُجيدُهُ[1].

أأبا المُطرِّفِ، دعوةً من خالصٍ ... لعُـلاكَ غائـبُ وُدِّه وشَهيـدُهُ[2].

أنـتَ الوحيـدُ بلاغـةً وبراعـةً ... ولـك البيـانُ طَرِيفُهُ[3] وتليـده:

فالنثْرُ أنــتَ بديعُـه وعِمادُه، ... والنظمُ أنتَ حبيبُه وَوَليده[4].

إيهٍ، أيُّها السيّدُ الذي جَلّتْ سِيادَتُه وحَلّتْ صَميمَ الفُؤادِ وَدادته[5]، دامتْ سعادته وهامت بما ينفَعُ الناسَ عادَتُه. أُلْقِيَ إليَّ كتابٌ كريمٌ خَطّتْه تلك اليُمني التي اليُمْنُ[6] فيها تَخُطّه ونُسِقَتْ جواهرُ بَيانِهِ التي راقَ بها سِمْطُه[7]. فلا تسألوا عنِ ابتهاجي لأعاجيبه وانتهاجي لأساليبِه وشِدّة كَلَفي بٱلْتِماح وَسيمه وجِدَّةِ شَغَفي باسْتِرواح نسيمه[8].

أما أَنَّ القلبَ لو فَهِمَ حقيقةَ البَيْنِ قبلَ وُقوعهِ وعَلِمَ قدرَ ما نُفِثَ من الرَّوْع في رُوعهِ[9]، لبالَغَ في اجتنابهِ واعتَقَدَ المَعْفِيَّ عنه من قَبيلِ المعتني به[10]. ولَحا[11] اللهُ الأطماعَ فإنّها تستدرجُ المَرْءَ وتَسْتَجرُّه وتستخرجُ حينَ تُعَرّيهِ، ما يَسرّه[12]، ما زالتْ تَفتِلُ

(١) الجيد: العنق.

(٢) أبو المطرّف (راجع، فوق، ص... ٢١٧.....). الشهيد: الشاهد (الحاضر).

(٣) الطريف والتليد: الجديد والقديم.

(٤) بديعه وعماده وحبيبه ووليده: بديع الزمان الهمذاني وعماد الدين الأصفهاني وأبو تمّام والبحتري.

(٥) الودادة (بالفتح): المودّة.

(٦) أُلقي إليّ: وصل إليّ من شخص عالي المرتبة. في القرآن الكريم (٢٧: ٣٠، النمل): ﴿إنّي أُلقي إليّ كتاب كريم: إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم﴾. اليمنى: اليد اليمنى. اليمن: البركة.

(٧) السمط: الخيط الذي تنظم فيه اللآلىء ليكون منها عقد.

(٨) الكلف: شدّة الحبّ. الوسيم: (الوجه) الجميل. الشغف: الحبّ الذي يصل إلى الشغاف (بفتح الشين: غلاف القلب).

(٩) البين: البعاد والفراق. نفث: نفخ. الروع (بالفتح): الخوف. الروع (بالضمّ): النفس.

(١٠) المعفيّ عنه (في الفقه والعبادة): الذنب اليسير (النّجس القليل الذي لا يبطل وضوءاً). من قبيل المعتني به: الواجب معالجته (لأنّه وإن كان يسيراً فإنّه يؤدّي إلى نتائج خطيرة).

(١١) لحا: لعن.

(١٢) تستخرج (تنزع منه) حين تعرّيه (من النعم) ما (كان) يسرّه. – أي تسلبه النعم.

في الذِّروة والذروة وتَختِلُ[١] بالترغيب في الجاه والثرْوة حتّى أنأتْ عنِ الأحبابِ الحبائبَ ورَمَتْ بالغريبِ أقصى المغاربِ[٢].....

– وقال يَحِنُّ إلى الذهاب إلى الحِجاز للحجّ:

حَنيني إلى البيتِ العَتيقِ شديدُ، وشَوْقي إلى وادي العقيق يَزيدُ[٣]

فيا لَيْتَ شِعري، هل يُباح إلَيْهِما وُصولٌ فيَحْظى بالوِصالِ عَميد[٤]؟

ومَنْ لِيَ أن أُدْعى إلى حَرَمَيْ هُدًى؟ وهل لي على تلك البِقاع وفودُ؟

وهل نَاقعٌ لي ماءُ زَمْزَمَ غُلَّةً لها بين أحناءِ الضُّلوع وُقود[٥]؟

وهل أنْثَني نحو الرسولِ لِطَيْبَةٍ فَيَدْنو لقلبي مِنْ مُناه بعيد[٦]

وأُلْصِقَ خدّي – مِنْ ضَريحِ محمدٍ – بحيثُ تلاقَتْ في ثَراهُ خُدود؟

فما لِيَ لا أسعى إلَيْها مُبادِراً بَقيّةَ عُمْرٍ تنقضي وتَبيد[٧]؟

تَحُثُّ رِكابي نحوَها عَزْمَةُ امْرِئٍ بِمَحْياهُ في ذاتِ الإلَهِ يَجود[٨]!

يَهُمُّ فيُلقي بينَ عَيْنَيْهِ عزمةً ويمضي مَضاءَ السهم حيث يُريد[٩].

فأقضي ذَماءَ النفس في عَرَصاتِها غريباً لَدَيْها، والغريبُ شهيد[١٠]؟

---

(١) في القاموس (٤ : ٢٨): ما زال (فلان) يفتل من فلان في الذروة والغارب: يدور من وراء خديعته (أي يحاول أن يمكر به ويغشّه وهو يتظاهر بمحاولة نفعه). ختل زيد عمراً: خدعه (بعد أن وجد منه غفلة) فالختّال هو الذي يخدع من يثق به.

(٢) أنأى: أبعد. الأحباب جمع حبّ (بكسر الحاء): المحبّ أو المحبوب. الحبائب جمع حبيبة. رمت به أقصى المغترب: نبذته، طرحته أبعدته إلى آخر المعمور من الأرض.

(٣) البيت العتيق: الكعبة. وادي العقيق في المدينة.

(٤) العميد أو المعمود هو الذي ضرب على رأسه بالعمود (المحبّ الذي كاد يهلكه الحبّ).

(٥) زمزم: بئر في مكّة (في الحرم). الغلّة: العطش. نقع الظمآن (العطشان) من الماء أو بالماء: روي وزال عطشه.

(٦) وهل أنثني: أرجع (بعد الحجّ إلى مكّة) لطيبة (للمدينة)....

(٧) إليها (إلى المدينة) مبادراً (مسرعاً). بقيّة عُمر (في آخر عمري) بينما هذه البقية تنقضي (أوشكت أن تنتهي) وتبيد (تتلاشى، تهلك).

(٨) الركاب: الإبل المعدّة للركوب. المحيا: الحياة. في ذات الآله: في سبيل الله.

(٩) يهمّ: يعزم (على أمر). بين عينيه (أمامه!).

(١٠) الذماء: بقيّة الروح في الجسد. فأقضي ذماء النفس: أموت. العرصة (بفتح فسكون): فسحة أمام الدار لا بناء فيها.

وإنّ ٱمرَأً يَقْضي فريضــةَ حَجّـهِ   وزَوْرةَ قـبرِ المُصطفى لَسعيـد[1]!

- من مقدّمة برنامج شيوخ الرعيني لأبي الحسن الرعيني:

أمّا بعدُ: فإنّ بعضَ الأصحابِ العِلْية الجِلّةِ المَعْدودين[2] - لاَعتنائهم بروايةِ العلمِ ونقلهِ في عُدولِ المِلّةِ[3] - سألني أنْ أُقيِّدَ له ما عَلِقَ بالخاطر من أسماءِ مَنْ لَقيتهُ ورَوَيْتُ عنه. فتوقّفتُ في إسْعافهِ وٱستَهْدَفْتُ لِسهامِ المَلامة في خِلافه[4] سَتْراً (لهذا) النَّزْرِ الذي أُوتيتُه من ذلك وٱتّقاءً من مِثْلي أن يَطورَ تلك المسالك[5]، إلى أنْ غيَّبَ أُفْقُ الثَّرى شَبابَهُ ونَهَبَتْ يدُ البِلى إهابه. وٱدّكَرْتُ بعد أُمّةٍ[6] وحَذِرْتُ أن أُرْهَقَ[7] فيه بِمَذمّةٍ، فآثَرْتُ أن أَسْتَدْرِكَ[8] ما فاتَ منه لِمَنْ طَلَبُهُ مِثْلُ طَلَبِهِ، وأنْ أُوردَ مَنْ هو مِنَ المَشْيَخة وما عندي من السّماعِ بحَسبه[9]. فأثْبَتُّ ما لم يُفلِتْه ذِكري، وأوْرَدْتُ ما لم يَرْتَبْ فيه[10] فِكري من أسماءِ الأشياخِ الذين لَقِيتُهم وأخذتُ عنهم والإفصاح ببعضِ ما ٱستَفَدْتُهُ منهم، وإنْ كان قد أتى على كثيرٍ من ذلك ما مُنِيَ به الإنسانُ مِنَ النِسيانِ وذَهَبَ

---

(١) المصطفى من أسماء الرسول.

(٢) العلية (بالكسر) جمع «عليّ» (ذو المكانة الرفيعة في قومه). الجلّة (بالكسر) جمع جليل (العظيم، ذو المكانة السامية). المعدود (المذكور بين كبار القوم).

(٣) العدول (بالضمّ) جمع عدل (بالفتح): العادل الأمين الذي يرضي الناس بحكمه. الملّة: الدين (الأمّة الإسلامية).

(٤) توقّف: أحجم، تردّد. في إسعافه (في إجابته إلى ما طلب). استهدف: تعرّض (أصبح ظاهراً مكشوفاً للذي يريد مهاجمته).

(٥) النزر: القليل. اتّقاء: شفقة، خوف. يطور: يحوم حول الشيء (يسير في) تلك المسالك: الطرق (الصعبة، المتعبة).

(٦) الثرى: التراب. البلى الهلاك. الإهاب: الجلد. إلى أن غيّب إلخ: إلى أن مات. ادّكرت (تذكّرت) بعد أمّة (زمن طويل). - راجع القرآن الكريم (١٢ : ٤٥، سورة يوسف): ﴿وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمّة.....﴾.

(٧) حذر: خاف، تجنّب. أرهق (بالبناء للمجهول) بمذمّة: اتّهم (بالبناء للمجهول) بأمر لا استحقّ التهمة به (لأنّي تركت عملاً أستطيع عمله).

(٨) آثر: فضّل. استدرك الرجل ما فاته: قام بعمل كان يجب عليه أن يعمله من قبل.

(٩) المشيخة: كبار الأساتذة. السماع: تلقّي العلم من أفواه الرجال. بحسبه (بنسبة كلّ شيء تعلّمته إلى الشيخ الذي تعلّمت ذلك الشيء منه).

(١٠) ٱرتاب: شكّ.

مُعْظَمُ المُقَيَّدِ والمْستفادِ بالتَرَدُّدِ (١) في الأسفار والتحوُّلِ عن الأوطان....

– وله، في حديثٍ طويلٍ، رسالةٌ من (شعر ونثر) آلتزمَ فيها حرفَ العين في كلِّ كَلِمةٍ من كَلِماتِها: وفيما يلي شيءٌ منها:

أعِــدِ التَعهُّــدَ للعميــدِ بعَطْفــةٍ تُعنى برَجْعة عهدِكَ المتباعدِ (٢).
أعَهِدْتَ عقدَ العزمِ عندِيَ عارياً عن رَعْيِ عهدِ مُعاهدٍ ومُواعدِ (٣)؟

يا عَلَمِيَ المُتَّبَعَ وعارضِي المُنْتَجَعَ (٤) ومُعْتَمَدِيَ المُطاعَ المُمْتَنِعَ (٥)، تَعهَّدَتْكَ لِلنِّعَمِ هُمَّعُ عِهادِها (٦)، ورَعَتْكَ للعصم شُرَّعُ صِعادها (٧)، وآعْتلى السعْدُ بإعلائك وآعتنى العلم بآعتنائك، ورُفِعَتِ الأعينُ لِزَعامة إبداعِك.....

٤– برنامج شيوخ الرعيني (حقّقه إبراهيم شبّوح)– دمشق (وزارة الثقافة والإرشاد القومي: مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، رقم ٤)، دمشق (المطبعة الهاشمية ١٣٨١ هـ = ١٩٦٢ م.

★★ الذيل والتكملة ٥: ٣٢٣–٣٦٩ (رقم ٦٣٦)– وفيها نصوص لغيره؛ صلة الصلة ١٤٠–١٤١ (رقم ٢٨٣)؛ القدح المعلّى ١٧٣؛ نفح الطيب ٥: ٥٢–٥٣، راجع ١: ٣١١؛ الأعلام للزركلي (٤: ٣٣٣).

---

(١) المقيّد (في دفاتري من مفردات المعلومات) والمستفاد (الذي تثقّف به عقلي من الاختبار ممّا يصعب تدوينه في وقته، بل يتذكّره الإنسان بعد مدّة). مني: أصيب. التردّد: كثرة الذهاب والمجيء.

(٢) التعهّد: الاعتناء، حسن المعاملة. العميد (المضروب بالعمود): المحبّ. تعني (تتعلّق) برجعة (عودة) عهدك (زمن إخائك، صداقتك، حبّك) المتباعد (الذي مرّ عليه زمن طويل).

(٣) هل تذكر أنّي عزمت مرّة على عمل لم يكن فيه وفاء لك (.... عن الوفاء بكلّ ما آنتظره منّي صديقي أو ما وعدتُ به أحداً).

(٤) العلم: المكان العالي (الجبل)، الشارة الظاهرة. المتّبع (الذي أقتدي به). العارض: السحاب المطر. المنتجع: المكان الذي يذهب إليه الناس بعد أن يسقط عليه المطر (للشرب منه ولرعي أنعامهم).

(٥) المعتمد المطاع الممتنع (الذي اعتمد عليه وأطيعه ثمّ هو لا يجيبني إلى ما أطلبه منه).

(٦) تعهّدتك (فعل طلب للدعاء) للنعم (حتّى تنال النعم) همّع (فاعل تعهّدتك؛ والهمّع جمع هامعة: سحابة ممطرة). العهاد: المطر المتتابع (والضمير «ها» في «عهادها» راجع إلى «النعم»).

(٧) رعتك (حمتك، دافعت عنك) للعصم (؟): لحمايتك. الصعدة (وجمعها: صعاد– بالكسر–): القصبة المستوية المستقيمة، الرمح. الشرّع جمع شارعة (قناة– أي رمح– شارعة: مسدّدة، موجّهة نحو العدو).

أبو الحسن الشُشْتريّ

١ – هو أبو الحسنِ عليُّ بنُ عبدِ الله النُمَيْريُّ الفاسيُّ الوادي آشيّ، أصْلُه من شُشْتَرَ من عَمَل (مِنطقةِ) وادي آشَ (قُربَ غَرْناطة).

وُلِدَ الشُّشْتَريّ نحوَ سَنَةِ ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ – ١٢٠٦ م) وتَتَلْمَذَ للقاضي مُحْيي الدين محمّدِ بنِ إبراهيمَ بنِ الحسنِ بنِ سُراقةَ الأنصاريّ الشاطبيّ (ت ٦٦٢ هـ)؛ ثمّ ذهب إلى المَغْرِبِ ولَقِيَ المُتَصَوِّفَ المشهورَ عبدَ الحقِّ بنَ سبعين (٦١٤ – ٦٦٨ هـ) فأخذ عنه واقْتدى بهِ (مَعَ أنّ ابنَ سَبْعين أصغرُ سِنًّا). ثمّ إنّه رَحَلَ إلى المَشْرِقِ وتَطوّف بهِ كثيراً وحجّ مراراً.

وكانتْ وفاةُ الشُشْتري في دمياطَ (مِصْرَ)، في ١٧ من صَفَرَ سَنَةَ ٦٦٨ (١٦/١٠/١٢٦٩ م).

٢ – كان أبو الحسنِ الشُشْتَرِيُّ مُجْوِّداً للقُرآنِ عارِفاً بمعانيه، وكان له عِلْمٌ بالحِكمة وبِطَريقِ الصوفية. وقد آثرَ التجرّد (الزُّهد) والعِبادَة. ولَه شِعرٌ منه قَصيدٌ ومنه مُوَشَّحاتٌ. وشِعْرُه على طريقةِ أهل الحقيقة (المتصوفة). ولكنْ يَظْهَرُ على شِعرِهِ شيءٌ من الضَعْف.

وللشُشتريّ كتبٌ كثيرة منها: العُرْوة الوُثْقى (في بيان السُّنَنِ وإحصاء العلوم وما يجب على المسلم أن يعمَلَه ويعتقدَه إلى حين وفاته) – المقاليد الوجوديّة في أسرار الصوفية – الرسالة القدسية في توحيد العامّة والخاصة والمراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية – ديوان شعر.

٣ – المختار من شعره

– لأبي الحسن الششتري مقاطعُ على طريقةِ أهلِ الحقيقة (المتصوّفين) منها[١]:

---

(١) معاني هذه القطعة صوفية لا تفهم فهماً دقيقاً إلّا بالتأويل الذي ينفرد به المتصوّفون. إن الألفاظ: التجرّد، الفقر، الخلق، الأمر، الطيّ، النشر، إلخ ألفاظ صوفية معانيها عند المتصوّفة غير معانيها المألوفة في القواميس.

لقدْ تِهتُ عُجْباً بالتجرُّدِ والفقْرِ فلم أَندرِجْ تحتَ الزمانِ ولا الدهرِ.
وجاءَت لِقلبي نفحةٌ قُدُسيَّةٌ فغِبتُ بها عن عالَمِ الخَلْقِ والأمرِ.
طوَيْتُ بِساطَ الكَوْنِ، والطّيُّ نَشْرُهُ، وما القصدُ إلّا التَّرْكُ للطيِّ والنشرِ.
وغمَّضْتُ عينَ القلبِ غيرَ مطلّقٍ فألفيتني ذاك المُلَقَّبَ بالغَيْرِ.
وَصَلْتُ لِمَن لم تنفصلْ* عنه لحظةً ونزَّهْتُ مَن أَغنى عن الوصلِ والهجرِ.
وما الوصفُ إلَّا دونَه، غيرَ أَنني أُريدُ به التشبيبَ عن بعضِ ما أَدري.
وذلك مثلُ الصوتِ أيقظَ نائماً فأَبْصرَ أمراً جلَّ عن ضابطِ الحصرِ.
فقلْتُ له: الأَسماءُ تبغي بيانَه؛ وكانت له الألفاظُ سِتراً على سترِ.

- أرى طالباً منَّا الزيادةَ لا الحسنى بفكرٍ رمى سهماً تَعَدَّى به عَدْنا[1].
وطالِبنا مطلوبُنا من وجودِنا نَغيبُ به عنّا لدى الصَّعْقِ إن عَنَّا[2].

- مَن لامني، لو أنه قد أبصرا ما ذُقْتُه أَضحى به متحَيِّرا؛
وغدا يقول لصَحْبِه: إن أَنتُم أَنكرتُمُ ما بي أَتيتم مُنْكَرا.
شَذَّتْ أُمورُ القومِ[3] عن عاداتِهم، فَلِأَجْلِ ذاك يُقال: سِحرٌ مُفترى!

٤- ديوان أبي الحسن الششتري (تحقيق علي سامي النشّار)، الاسكندرية، ١٩٦٠ م.

** عنوان الدراية ٢١٠-٢١٣؛ نيل الابتهاج ٢٠٢-٢٠٣؛ نفح الطيب ٢: ١٨٥-١٨٧، ٢٠٥-٢٠٧؛ دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى) ٤: ٣٩٣؛ بروكلمن ١: ٣٢٣ الملحق ١: ٤٨٣-٤٨٤؛ نيكل ٣٥٢-٣٥٣؛ مختارات نيكل ١٩٤-١٩٦؛ الأعلام للزركلي ٥: ١٢٠-١٢١ (٤: ٣٠٥).

(*) لم تنفصل عينُ القلب.

(١) عدن: الجنة.

(٢) الصعق: الغياب عن الحس. عنَّ: ظهر - أن مطلوبنا من حياتنا أن نصل إلى الله، فإن تجلى لنا غبنا عن الحس.

(٣) القوم = المتصوفون.

ابن عصفور الإشبيليّ

١ - هو الأستاذ (وفيات ابن قنفذ ٣٣١) العلّامة (فوات الوفيات ٢ : ١١٦) أبو الحسنِ عليُّ بنُ مؤمنِ بنِ محمد بنِ علي بنِ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ عمرَ بنِ عبدِ الله بن عُصفورٍ الحَضْرميُّ الإشبيليّ، وُلِدَ في إشبيلِيَةَ سَنَةَ ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ - ١٢٠١ م).

تلقّى ابنُ عُصفورٍ العلمَ على نفرٍ منهم أبو الحسن الدبّاج (٥٦٦ - ٦٤٦ هـ) وأبو علي الشَّلَوْبين (٥٦٢ - ٦٤٥ هـ)، وقد لازَمَ الشَّلَوْبينَ عَشْرَ سِنينَ وقرأ عليه كتاب سِيبويهِ. ثمّ جلس للإقراءِ في إشبيليةَ نفسِها إلى أن حَدَثَتْ بينَه وبينَ الشلوبينِ مُنافرةٌ أدّتْ إلى وَحْشَةٍ فمُقاطعةٍ (صلة الصلة ١٤٢) لِتَنافُسٍ في إعراب كَلِمَةٍ (راجع نفح الطيب ٢ : ٢٠٩ - ٢١١). وكان الشلوبينُ أوسعَ وجاهةً فاضْطُرَّ ابنُ عُصفورٍ إلى مُغادرة إشبيليةِ فتَنَقَّلَ بينَ شَريشَ وشَذونةَ ومالَقَة ولُورقَة ومُرْسِيَة يَدْرُسُ على نفرٍ من علمائها. ثمّ إنّه جلس للتدريس أشهراً في كلِّ بلدةٍ يُمْلي فيها تقاييدَه (تعليقاتِه) على كتابِ الجُمَلِ للزّجّاجي وكتابِ الإيضاح لأبي عليٍّ الفارسي وعلى الكرّاسةِ المنسوبة للجَزولي وعلى كتاب سيبويهِ. وكان يُملي هذه الكتبَ كلَّها من حِفظه.

ثمّ إنّ ابنَ عُصفورٍ غادَرَ الأندلس إلى تُونسَ وتصدّرَ فيها للتدريس مدّة يسيرة ثمّ انتقلَ إلى بِجايَةَ (في الجزائر اليوم) بانتقالِ مخدومه (المُحْسنِ إليه) الأميرِ أبي عبدِ الله محمدِ المستنصرِ الحَفْصيّ (قبلَ سَنَةِ ٦٤٧ هـ، في الأغلب، قبل أن يَلِيَ المستنصرُ الملك). بعدئذٍ عاد ابنُ عصفورٍ إلى لورقةَ (جَنوبَ شرقِيّ الأندلس). ثمّ انتقل إلى غربيّ الأندلس.

ولم تَطُلْ إقامةُ ابنِ عصفورٍ في الأندلس فَرجَعَ إلى المَغْرب ونَزَلَ في بلدة سَلا (قرب الرِّباط). في هذه الأثناء، فيما يبدو، كان المستنصرُ الحفصي قد جاء إلى العرش، سَنَةَ ٦٤٧ هـ فاستدعى ابنَ عصفورٍ فعاد ابنُ عصفورٍ إلى تُونسَ الحاضرةِ واستقرّ فيها. وكانت وفاتُه في تونس غريقاً في ذي الحِجّة من سنة ٦٦٩ في الأغلب (مطلع الصيف من عام ١٢٧١ م)،

٢ - كان ابنُ عصفورٍ الإشبيليُّ بارعاً في العربية (النحو) كثُرَ طُلّابُه وأقبلوا عليه من المغرب والمشرق، إذ «كان بقيَّةَ الحاملين للواءِ العربية في المغرب»، ثمّ أصبحتْ

عليه الإحالة (الرجوعُ إلى رأيه) من المشرق والمغرب (نفح الطيب ٣ : ١٨٤).

وابنُ عُصفورٍ يَتْبَعُ مذهبَ البصريّين (في النحو) عُموماً ويُقَدِّمُ سيبويهِ (أشهرَ البصريّين) خاصّةً على كلِّ نَحْويّ. ثمّ هو يتخيّرُ أحياناً أشياءَ من آراءِ الكُوفيّين والبَغْداديّين.

ولابنِ عُصفورٍ أشياءُ في تفسيرِ القرآنِ، ولكنّ ذلك لم يكنْ مِنَ اختصاصه (راجع نفح الطيب ٥ : ٣٨٤).

وابنُ عُصفورٍ مُصَنِّفٌ مُكْثِرٌ له: المُقَرِّبُ (في النحو)، ويقال إنّ حدودَه (تعريفاتِه) كلَّها مأخوذة من الجَزولية (فوات الوفيات ٢ : ١١٦) تأليف عيسى بن عبدِ العزيز الجَزولي المَغْربي (ت ٦٠٧ هـ). وقد انتقدَ كثيرون مِنَ الأندلسيّين وغيرِهم ابنَ عصفورٍ على هذا الكتاب (راجع نفح الطيب ٤ : ١٤٨). ولكنّ لهذا الكتاب قيمةً يَدُلُّ عليها كَثرةُ الذين شَرَحوه واختصروه[1].

وله أيضاً: المُمْتِعُ في التصريف (وأبوابه: الحروف الزوائدُ، أبْنِيَةُ الأسماء، أبنية الأفعال، أي الصِّيَغُ التي تأتي عليها الأسماء والأفعال، نحو فَعْل، فُعال، فَعّل، استفعل إلخ ؛ الإبدال، القلب والحذف والنقل، الإدغام، مسائل التمرين). والمقرّب كتابٌ يدلُّ على سَعَة مطالعاتِ ابنِ عصفورٍ في كتب علماء النحو. ثم إنه عاد فألف «شرح المقرّب».

وكذلك له شُروح على عدد من كتب النحو: شَرْح كتابِ سيبويه (ت ١٨٠ هـ)- شرح كتاب الجُمَل للزّجاجّي (ت ٣٣٧ هـ) شرَحه ثلاثةَ شُروحٍ كبيراً ووَسَطاً وصغيراً- إنارة الدياجي[2]- الأزهارُ- الهلال أو الهلالية (البلغة ١٧٠)- السلك والعنوان ومرام اللؤلؤ والمَرجان (بروكلمن، الملحق ١ : ٥٤٧)- المفتاح- شرح الإيضاح[3]-

---

(١) راجع أسماء هؤلاء الشرّاح والمختصرين في «ابن عصفور والتصريف» (ص ٥٣ - ٥٥).

(٢) يقول فخر الدين قباوي (ابن عصفور والتصريف ٨٩، الحاشية ٤)، لعلّ (إنارة الدياجي) أحد شروح جمل الزّجاجيّ.

(٣) يرى بروكلمن (١ : ٣٥٢، السطر ٢٨) أن «الإيضاح» هو «إيضاح المشكل» للمطرّزي (ت ٦١٠ هـ)؛ وفي دائرة المعارف الإسلامية (٣ : ٩٦٢) أنّ الإيضاح هو لأبي عليّ الفارسي (ت ٣٧٧ هـ)؛ وفي بروكلمن =

مختصر المحتسب (في النحو لابن بابشاذ المِصري المتوفّى ٤٦٩ هـ)- البديع (شرح لمقدّمة « الجزولية » في النحو للجزولي المتوفّى ٦٠٧ هـ)- المقنع- مختصر الغرّة- منظومة في النحو. ثمّ له كتب ألصقُ باللغة والأدب: شرحُ الأشعار السِتّة (دواوين امرِىءِ القيس، النابغة، زهير، علقمةَ الفحلِ، طَرَفَةَ، عنترَة) ولكنْ لم يتمَّه- شرح الحماسة (ديوان الحماسة لأبي تمّام) ولكن لم يتمّه- شرح ديوان المتنبّي- مفاخرة السالف والعِذار[1]- الضرائر (الضرورات التي تحمل الشاعر على مخالفة قواعدَ في اللغة أو في النظم)- سَرِقات الشعراء.

وكانَ لابنِ عصفورٍ شيءٌ من الشِعر وشيءٌ من الكتابة الأنيقة.

٣- مختارات من آثاره

- قال ابن عصفورٍ في وصف التَجَمُّلِ بعدَ الجَهْلِ:

لمّا تَدَنّسْتُ بالتفريطِ في كِبَري ... وصِرتُ مُغْرًى بشُربِ الراحِ واللَّعَس[2]

رأيتُ أن خِضابَ الشيْب أسترُ لي؛ ... إنّ البياضَ قليلُ الحَمْلِ للدَّنَس[3]!

- من مقدّمة كتاب المقرّب:

.... فلمّا كان علمُ العربيّةِ (النحو) من أجَلِّ العلوم قَدراً وأعظمِها خَطَراً، إذ بِهِ تقومُ للإنسانِ ديانتُه فتَتِمُّ صلاتُه وتَصِحّ قِراءتُه؛ وكانتْ أكثرُ المَوْضوعاتِ فيه لا تُبْرِدُ غليلاً[4] ولا تُحَصِّلُ لطالبِهِ مأمولاً، وأنّها بين مُطَوَّلَةٍ قد أُسْرِفَ فيها غايةَ الإسراف

= أيضاً (١ : ٣٥٤، السطر الثاني) أن الإيضاح للسكّاكي (ت ٦٢٦ هـ) وأنّ « شرح الإيضاح » للسكّاكي نفسه. وفي « ابن عصفور والتصريف » أن « الايضاح » (ص ٤٩) غير « شرح الإيضاح » (ص ٥١) وأنّ الإيضاح لأبي عليّ الفارسيّ.

(١) السالف للمرأة، والعذار للرجل.

(٢) الراح: الخمر. اللعس: سواد مستحسن في باطن الشفة (المقصود: التقبيل)، الغزل- في « فوات الوفيات » (٢ : ١١٦ س): التخليط في كبرى.... برشف الراح واللعس.

(٣) - أنّ أقل قدر من الوسخ يمكن أن يبدو على نسيج أبيض. إنّه صبغ شعره حتّى إذا ظهرت منه هفوة لم يلمه الناس بحجّة أنّه متقدّم في السن لا يجوز منه مثل ذلك العمل!

(٤) الخطر: (أهميّة قيمة). الغليل: شدّة العطش وحرارته.-لا تبرد غليلاً (لا تمنح الإنسان ما يطلبه).

ومُختصرةٍ أُحْجِفَ فيها غايةَ الإحجاف أشارَ مَنِ النُّجْحِ معقودٌ بنواصي آرائِهِ واليُمْنُ مُعتادٌ في مذاهبِهِ وأنحائه - مالكُ عِنانِ العلوم وفارسُ مَيْدانها ومُحْرِزُ قَصَبِ السَّبْقِ في حَلْبة رِهانِها وتاريخُ الفضائلِ وعُنوانُها وحَدَقَتُها وإنْسانها - الأميرُ الأجَلُّ الأوحَدُ المُؤيَّدُ الأسعَدُ أبو زكريّا ابنُ الشيخِ المُقَدِّسِ [1] المُجاهدِ أبي محمّد بنِ الشيخ المجاهدِ المقدّس أبي حَفْصٍ [2] أدامَ اللهُ علاءَهم وأنار بنُجومِ السعْد سَماءهم - إلى وَضْعِ تأليفٍ مُنَزَّهٍ عن الإطناب المُمِلِّ والاختصارِ المُخِلِّ، مُحْتوٍ على كُلِّياته مُشْتَمِلٍ على فُصوله وغاياته، عارٍ عن إيراد الخِلاف [3] والدليل، مُجرّدٍ أكثرُهُ عن ذِكْرِ التَّوْجيهِ والتَّعْليل، لِيُشْرِفَ الناظرُ فيه على جُملةِ العِلْمِ في أقربِ زمانٍ ويُحيط بمسائلِهِ في أقْصَرِ أوانٍ. فَوَضَعْتُ في ذلك كتاباً صغيرَ الحَجْمِ مُقَرِّباً للفَهْمِ، وَرَفَعْتُ فيه من عِلْم النحوِ شرائِعَهُ [4] ومَلّكتُهُ عَصِيَّهُ وطائِعَهُ وذَلَّلْتُه للفهم بحَسْبِ الترتيب وكَثْرةِ التهذيبِ لألفاظِهِ والتقريبِ، حتّى صار مَعناه إلى القلب أسرعَ من لفظِهِ إلى السمْعِ. فلمّا أتَيْتُ بهِ على القَدْحِ تَمَنُّعاً على القَدِحِ [5] مُشبِهاً للعِقْدِ في الْتِئام وُصُوله وانتظامِ فُصوله، سَمَّيْتُه «بالمُقَرِّبِ» ليكونَ ٱسْمُهُ وُفْقَ مَعناه ومُتَرْجِماً عن فَحْواه...

٤ - الممتع (نشره فخر الدين قباوي)، حلب ١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠ م.

- المقرّب (نشره أحمد عبد الستّار الجواري وعبد الله الجبوري)، بغداد (رئاسة ديوان الأوقاف في الجمهوريّة العراقية - في سلسلة «إحياء التراث الإسلامي»)، الجزء الأوّل، بغداد (مطبعة العاني) ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م.

★★ ابن عصفور والتصريف، تأليف فخر الدين قباوي، حلب (دار الأصمعي) ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م.

صلة الصلة ١٤٢ - ١٤٣ (رقم ٢٨٥)؛ فوات الوفيات ٢: ١١٦؛ الذيل والتكملة ٥: ٤١٣ - ٤١٤؛ وفيات ابن قنفذ ٣٣١؛ البلغة ١٦٩؛ عنوان الدراية ٢٦٦ - ٢٦٨؛ بغية الوعاة ٣٥٧؛ نفح الطيب ٢: ٢٠٩ - ٢١١، ٣: ١٨٤، راجع ٢: ٢٧١ - ٢٧٢، ٧٠١،

---

(١) المقدّس (بكسر الدال: الذي يكثير من تقديس الله وتسبيحه).

(٢) هو أبو زكريّا يحيى بن عبد الواحد الهنتاتي (٥٩٩ - ٦٤٧ هـ) جدّ الخلفاء الحفصيّين.

(٣) الخلاف: اختلاف النحاة في تخريج الإعراب، إلخ.

(٤) الشرائع، المفروض أنّها جمع شريعة (طريقة!)؛ أو: شِراعه: قِلع (بالكسر) السفينة.

(٥) القدح (بفتح القاف): العيب. (وكسر القاف) الحقّ (قلت فيه الحقّ كيلا يستطيع أحد أن يعيبه!).

٤ : ١٤٨ ، ٥ : ٣٨٢ ؛ شذرات الذهب ٥ : ٣٣٠ ؛ بروكلمن ١ : ٣٨١ ، الملحق ١ : ٥٤٦ - ٥٤٧ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٩٦٢ الأعلام للزركلي ٥ : ١٧٩ - ١٨٠ (٢٧) ؛ معجم المؤلّفين ٧ : ٢٥١ .

الدَّرْجيني

١ - هو أبو العباسِ أحمدُ بنُ سعيدِ بنِ سليمانَ بنِ عليٍّ بنِ إنجلافَ من تميجارَ في جبل نفّوسةَ ومن أُسرة كان لها نشاطٌ إباضيّ وعلم وفِقه.

يبدو أن مولد الدَّرْجينيّ كان في السَّنوات الأخيرة من القرن السادس. ودرس في مطلع شبابه في وَرْجَلَةَ (٦١٦ - ٦١٨ هـ) ثم رأيناه يتابع تلقّي العلم (سنة ٦٣٣) في تَوْزَرَ بجَنوبيّ تُونِسَ. وبعدَ ذلك عاشَ مُدَّة في جزيرة جَرْبَةَ. ولعلَّ وفاتَه كانت نحوَ ٦٧٠ (١٢٧٠ م).

٢ - كان الدرجينيّ فقيهاً إباضياً ومؤرخاً وشاعراً. ويبدو أن نشاطه الأدبي بدأ سَنَةَ ٦٢٦ (١٢٢٨ م). آشتهر بكتابه « طبقات المشايخ ». وهذا الكتابُ قِسمانِ واضحانِ أوّلُهما (يبدو وكأنه منسوخٌ من « كتاب السيرة وأخبار الأئمّة لأبي زكريا يحيى بن أبي بكرٍ الوَرْجَلانيّ) ، آستعرض فيه آنتشارَ المذهب الإباضيّ في شَماليّ إفريقيةَ وتأسيس الدولة الرُّسْتَمِيّة ثم ألحق به تراجم لنفر من فقهاء الإباضية المتقدمين من المغاربة. وأمّا ثاني القسمين فهو مجموعُ تراجمَ لمشاهير الإباضية من فُقهاءَ وغيرِ فقهاء. ويتألف هذا القسم الثاني من آثْنَتَيْ عَشْرَةَ طبقة تتناول كلُّ طبقة خمسين سَنَةً. وقد خُصتِ الطبقاتُ الأربع الأولى (في القرنين الأولين من الهجرة) بالفُقهاءِ الإباضية من المشارقة ، والطبقات الثماني الباقية بالفقهاء الإباضية من المغاربة.

- طبقات المشايخ ، القاهرة ١٣٠٢ هـ.

★★ دائرة المعارف الإسلامية ٢ : ١٤٠ - ١٤١ ؛ بروكلمن ١ ؛ ٤١٠ ، الملحق ١ : ٥٧٥ .

ابن أبي الحسين

١ - هو أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ الحسينِ بنُ أبي الحسينِ[١] سعيدِ بنِ الحسينِ بنِ سعيدِ بنِ خَلَفٍ العَنْسيُّ، من أهلِ القَيْروانِ، كان هو وأهلُه من أبناء الدولة (المُقرَّبين من السُّلطان). ويبدو من شِعرِه أنّ أهلَه كانوا من البَدْوِ الذين قدّمَهُمُ الحفصيّون على قوم عِنانِ بنِ جابرٍ (راجع، فوق، ص). وقد تولّى محمّدُ بنُ أبي الحسينِ الحِجابةَ (الوِزارة) في أيام أبي زكريّا يحيى (٦٢٥ - ٦٤٧ هـ) ثمّ في أيام ٱبنهِ محمّدٍ المستنصرِ (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ)، فزادَ ذلك في نُفورِ عِنانِ بنِ جابرٍ وقَومِهِ فرَحلوا عن تونس[٢].

وكانت وفاةُ محمّدِ بن أبي الحسينِ، سَنَةَ ٦٧١ للهجرة (١٢٧٢ - ١٢٧٣ م)، في تُونِسَ.

٢ - كان محمد بن أبي الحسينِ رجلًا بعيدَ الهِمّة ذا عَزْمٍ وحَزْمٍ في الأمور. وقد وَصَفَهُ حَسَنُ حُسْني عبدُ الوهّاب بإتقانِ العلوم وبالمَعرفة باللُّغة وبِرِقّة الشِّعر والبراعة في الترسُّل. وفي شِعرِه مَتانةٌ، وفيه وصفٌ وفخرٌ وشيءٌ من الحِكمة. ثمّ هو مُصَنِّفٌ عُنِيَ بكتاب «المُحْكَم» لابن سِيدَهْ (ت ٤٥٨ هـ) رَتّبه على أواخرِ الكَلِمات وسمّاه «ترتيبَ المُحكَم» ثمّ ٱختصره وجعل ٱسْم مُخْتَصَرِه «خُلاصَة المُحكَم».

٣ - مختارات من شعره

- قال أبو عبدِ اللهِ بنُ أبي الحسينِ بنِ سعدٍ قصيدةً يَحُثُّ فيها عِنانَ بنَ جابرٍ على العَوْدَةِ إلى تونس:

---

(١) هذا النسب الطويل من الأعلام (للزركلي). وقد اقتصر حسن حسني عبد الوهّاب على «محمّد بن أبي الحسين بن سعد (مكان: سعيد)، أبو عبد الله».

(٢) راجع البيت الرابع عشر من المختارات من شعر عنان بن جابر. يذكر حسن حسني عبد الوهّاب أنّ محمّد ابن أبي الحسين قد تولّى الحجابة للمستنصر الحفصي. وفي بني حفص سلاطين تونس بضعة نفر تلقّبوا بالمستنصر، ولكنّهم كلّهم جاءوا بعد وفاة محمّد بن أبي الحسين. والصواب أن يقال إنّ ٱبن أبي الحسين تولّى الحجابة للمنتصر الحفصي (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) وهو أبو عبد الله محمّد بن عبد الواحد وأخو أبي زكريا يحيى مؤسّس الدولة الحفصية (راجع زامباوّر، ص ١١٥ و١١٧).

سَلوا دِمْنةً بين الغَضا والسواجرِ — هلِ ٱسْتنّ فيها واكفاتُ المواطرِ[1]؟
ودونكُمُ، يا لَلْرجالِ، تحيّةً — يُخَصُّ بها عنّي عِنانُ بن جابر[2].
فتًى ما دعَتْهُ زَلّةٌ فأجابها، — فكيف طوى كَشْحاً على نفسٍ غادر[3]؟
وقد كان بَيْني، يا عِنانُ، وبينكم — بَواطِنُ صُنّاها بحِفْظِ الظواهر[4].
وفي كلِّ عامٍ كان للجيش وقعةٌ — نَجُرُّ بها أذيالَنا جَرَّ سادر[5]
فتختالُ أعطافٌ وتصِلُ سُمْرُنا، — ونهتزّ كالسُّمر ٱبتغاءَ المفاخر[6]
نَشاوَى على خَيْلٍ نَشاوى كأنّنا — وأسْيافَنا لم نستَفِقْ من تساكر[7].
عزيزٌ علينا، يا عِنانُ، ضَلالةٌ — حَدَتْ بكَ لا تلوي على زجْرِ زاجر[8].
تَبصَّرْ ولا تَحمِلْ على النفس غيَّها؛ — أُعِيذُكَ من كرّاتِ دهرٍ جواسر[9]
فَدَيْتُكَ، لا تَشْرِ الضلالةَ بالهُدى؛ — فَدَيْتُكَ، لا تَشْرِ العَمى بالبصائر[10].

---

(١) الدمنة: آثار الدار (المكان الذي كان فيه دار مسكونة). الغضا: نوع من الشجر. السواجر لعلّها جمع سوجر - بالفتح -: نوع من الشجر (تاج العروس - الكويت ١١: ٥٠٧). استّن: هطل (فيها المطر دفعة - بالضمّ - واحدة وتتابع). الواكف: (المطر) السائل، الهاطل. المواطر جمع ماطرة (؟): غيمة ممطرة.

(٢) دونكم: خذوا (اعلموا). يا للرجال (ما أحسنه من رجل).

(٣) الكشح: الجانب (من جسم الإنسان). طوى كشحاً: أسرّ (حقداً).

(٤) صنّاها من صان: حفظ، حمى.

(٥) جرّ فلان ذيله: مشى متبختراً (معجباً بنفسه). السادر (الذي لا يبالي بالعواقب، المنطلق في هواه لا يفكّر في شيء آخر).

(٦) العطف (بالكسر) الجانب الأعلى من الجسم. تصل: تهتزّ. السمر جمع أسمر: الرمح. اهتزاز الرمح (في الذهاب إلى الحرب) كناية عن الثقة بالظفر.

(٧) النشوان: السكران (المسرور بما يملك). تساكر (تظاهر المرء بالسكر وهو ليس سكران).

(٨) عزيز علينا (أمر صعب علينا، ثقيل على نفوسنا، مسيء لنا). حدت بك: ساقتك، دفعتك. لا تلوي: لا تلتفت (لا تسمع زجر زاجر: من يريد أن يردّك عن الضلال).

(٩) الغيّ: الضلال. كرّة الدهر (هجمته بالأذى على الإنسان). جواسر (يريد بها جمع جاسرة: جريئة، شجاعة).

(١٠) شرى: اشترى. البصائر جمع بصيرة: الفطنة وحسن الإدراك للأمور (ولعلّه يقصد العين الباصرة، من مقارنة البصائر بالعمى).

وما العرَبُ العَرْباءُ إلَّا بِعدِّها، فمَنْ كان أوْفى كان أوَّلَ فاخِرِ[1].
فكَمْ حَفِظت من ذِمةٍ قَوْسُ حاجبٍ، وكم مثَلٍ أبقى السَّمَوْألُ سائرِ[2].
كذلك كان الناسُ يُوفونَ، فاْتبعوا سبيلَ الوفاءِ كابِراً إثْرَ كابرِ[3].
ومَنْ تنفَعُ الذِّكرى تلافَى تَلافَه وكشّف عن وجْهٍ من الرُّشْد سافرِ[4].
هَدَتْك الهوادي، يا عِنانُ، وأمطرتْ ذُراك الغوادي بينَ بادٍ وحاضرِ[5].

٤ - ★★ مجمل تاريخ الأدب التونسي ١٩٩ - ٢٠١؛ الاعلام للزركلي ٦: ٣٣٤ (١٠١ - ١٠٢).

القرطبي صاحب التفسير

١ - هو الشيخ الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمدُ بن أحمدَ بنِ أبي بكر بن فَرْحٍ الخزرجي الأنصاري من أهل قرطبة، ولد سنة ٥٧٨ للهجرة (١١٧٣ م). سمع من أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي (٥٧٨ - ٦٥٦ هـ) وأخذ عن أبي عليٍّ الحسنِ بنِ محمدِ بنِ محمدٍ البكريّ وعن أبي الحسنِ عليٍّ بنِ محمدِ بن علي بن حفصٍ اليَحْصُبيّ.

---

(١) العرباء: الصريحة النسب. بعدّها: بعددها (بكثرة عددها). أوفى: أكثر عدداً. أكثر وفاء بالعهد.

(٢) حاجب بن زرارة (بالضمّ) سيّد بني تميم في الجاهلية (ت سنة ٣ هـ) كان قومه قدِ اعتدَوا على بقعة من المراعي على ضفاف نهر الفرات لم تكن لهم. فغضب كسرى وأراد أن يمنع بني تميم من الرعي في جميع مناطق الفرات. فجاء حاجب إلى كسرى ووعده بألّا يعود بنو تميم إلى الرعي في مناطق ليست لهم وجعل قوسه رهناً للوفاء بوعده. ووفى بنو تميم بالوعد. والسموأل بن عاديا، يقال فيه إنّه كان وفياً بوعده. فكم حفظت من ذمّة قوس حاجب (هذه القوس القليلة الثمن كانت ثمينة جدًّا لأنّها حملت بني تميم على الوفاء بوعدهم ثمّ علّمتهم الوفاء بالوعد في غير موقفهم مع كسرى).

(٣) كابرا إثر (بعد) كابر: إرثا من سلف عظيم إلى خلف عظيم بعده.

(٤) - والذي ينفعه تذكر ماضيه يتلافى (يتجنّب) تلافه (هلاكه) ثمّ يكشف (يعرف، يختبر) وجهاً من أوجه الرشد (الصواب). سافر: واضح، ظاهر. ليس في «من» (هنا) معنى الشرط.

(٥) الهادية: الدليل المتقدم في السير، الهادي الناصح. الذروة (بالكسر أو بالضمّ): المكان العالي (بيتك الرفيع، الشريف). الغادية: الغيمة الممطرة القادمة في الصباح. بين باد وحاضر: إذا كنت في البادية أو في الحضر (المدينة).

رَحَلَ القُرطبيُّ إلى المشرقِ واستقرّ في مُنْيةِ بني خَصيبٍ، شمالَ أسيوطَ بصعيدِ مِصْرَ. وكانتْ وفاته هناك في تاسع شوّالِ من سَنَة ٦٧١ (١٢٧٣/٣/٣١ م).

٢ - كان القرطبي صاحبُ التفسير رجلاً صالحاً متعبّداً زاهداً ومن العلماءِ العارفين متبحراً في عددٍ من العلوم، وفي التفسير والحديث خاصةً، كما كان مليحَ النظمِ.

وهو مصنِّفٌ له: الجامعُ لأحكام القرآنِ المُبين لما تضمنه (القرآن) من السُّنّة وآيِ الفُرقان (أسقط منه القِصَصَ والتواريخ وأثبت عوضاً عنها أحكام القرآن واستنباط الأدِلّة وذكرَ القِراءاتِ والإعراب والناسخ والمنسوخ) - الأسنى في شرح أسماء الله الحُسنى - التذكار في أفضل الأذكار - التذكرة بأحوال الموتى وأحوال (أمور) الآخرة (= التذكرة الفاخرة بأحوال الآخرة؟) - قمع الحِرص بالزهد والقناعة ورذل (ذل) السؤال بالكف (بالكتب) والشفاعة - شرح التقصي - أرجوزة (جمع فيها أسماءَ النبيّ صلى الله عليه وسلّم) - الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسنِ دينِ الإسلام وإثبات نبوّة نَبِيِّنا محمّدٍ عليه الصلاة والسلام (ردٌّ على كتاب في الجَدَلِ لأحدِ نصارى طُليطلةَ) - كتاب العقيدة - المِصباح في الجمع بين الأفعال (لابن القطّاع) والصِّحاح (للجوهري) (مجرّداً من الشواهد).

والمقصودُ بكتابه «الجامع لأحكام القرآن» أن يكون تفسيراً لآيات القرآن. ولكن هذا الكتاب ليس تفسيراً بمعنى «توضيح معنى الآية بعد، الآية»، بل هو «عَرْضٌ لكل ما يتعلق بكل آية من وجوه المعرفة من تفسير الألفاظ وبيان إعرابها وذكر ما يتّصل بها من أوجه البلاغة ومن الشواهد الدالة على المقصود منها سواءً أكانت هذه الشواهد من أقوال الرجال أو منَ الأشعار أو من الأحاديث أو من الآيات حينما توافق الآيةُ الآيةَ المقصودة بالتفسير. ولا شك في أنّ «الجامع لأحكام القرآن» ينكشف عن سَعة المعرفة التي كان القرطبي يتمتّع بها وعن إصابة الرأي فيما يتناول من الموضوعات.

ثم إن هذا الكتابَ مفيدٌ جدًّا للباحث، إذ هو يجمع للقارىء معظمَ ما يتعلق بكلِّ آيةٍ في مكانٍ واحدٍ. ولكنّه يشوِّشُ الأمور على القارىء العادي حينما يحاول أنْ «يفسِّر القرآن بالقرآن» (أي يَدُلَّ على المقصود من آية ما بايراد ما يشبه تلك الآية مِمّا ورد

من آيات القرآن، فيختلط الأمر حينئذ على القارىء العاديّ بين الآية المقصودة بالتفسير في موضعها والآيات المستشهد بها. وهذه خُطّة تدعو إلى التطويل. لقد جاء تفسير الآية: ﴿أتأمُرون الناسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أنفُسكم، وأنتم تتلون الكتاب؟ أفلا تعقلون؟﴾ (٢: ٤٤، سورة البقرة) في سبع صفحاتٍ (١: ٣١١ - ٣١٦) في نحوِ مائةِ وعشرة أسطر (نحو ألف وثلاثمائة كلمة) منها ستّةَ عَشَرَ بيتاً من الشعر.

وهنالك مأخذٌ آخر على أسلوب القرطبي في التفسير حينما يَفْصلُ بينَ كلمات الآية الواحدة ثم يُورد في أثناء تفسير تلك الآية أقساماً من آيات توافق الآية المقصودة بالتفسير في المعنى وفي اللفظ. ففي تفسير الآية: ﴿وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنّا. وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا: إنّا معكم. إنّما نحن مستهزئون﴾ (٢:١٤)[1]. في أثناء شرح هذه الآية (١: ١٧٩ - ١٨١) يوردُ القرطبي أقساماً من آيات هي:

- وجزاءُ سيّئةٍ سيّئةٌ مثلها (٤٢: ٤٠، الشورى).
- فَمَنِ اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم به (٢: ١٩٤، البقرة).
- ومكَروا ومكَرَ اللهُ (٣: ٥٤، آل عمران).
- إنّهم يكيدون كيداً وأكيدُ كيداً (٨٦: ١٦، الطارق).
- يخادعون الله، وهو خادِعُهُم (٤: ١٤٢، النساء).
- فيسخرون منهم، سخر الله منهم (٩: ٧٩، التوبة).

إنّ القارىء العاديّ لا يستطيع أنْ يَعْرِفَ (بالتأكيد) أن هذه الآيات الستَّ مختلفةُ المواقعِ في المُصْحَفِ وأنّها ليست (في القراءة) من الآية المقصودةِ بالتفسير، والتي هي من سورة البَقَرة. ولكنّ هذه هَناتٌ (مآخذُ يسيرةٌ) في «أسلوب» التفسير، وليستْ تَمْنَعُ مِنْ أنْ نرى القُرطبي في تفسيرِهِ هذا جيِّدَ الفَهْمِ للمَقصود حَسَنَ التخريج للأدِلّة.

٣- مختارات من آثاره

١- من مقدمة «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي المفسِّر (١: ٢ - ٣): وبعدُ، فلمّا

---

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن ١: ٣١١ وما بعد.

كان كتابُ الله هو الكفيلَ بجميع عُلومِ الشَّرْعِ الذي استقلّ بالسُّنّة والفَرْض، ونزل به أمينُ السماءِ إلى أمينِ الأرض[١]، رأيت أنْ اشتغل به مدى عُمري وأستفرغ به مُنّتي[٢] بأنْ أكتبُ فيه تعليقاً وجيزاً يتضمّنُ نُكتاً[٣] من التفسير واللُّغات والإعراب والقِراءات و(مِنَ) الرَّدّ على أهلِ الزَّيغ والضَّلالات[٤] و(من) أحاديثَ كثيرةٍ شاهدةٍ لِمَا نذكُرُه من الأحكام ونزولِ الآيات[٥] جامعاً بين معانيها ومُبيِّناً ما أشكل[٦] منها (وذلك) بأقاويلِ السَّلفِ ومن تَبِعَهُمْ مِنَ الخَلَفِ.

وعَمِلْتُه تَذْكِرةً لنفسي وذخيرةً لِيوم رَمسي وعَمَلاً صالحاً بعدَ موتي. قال اللهُ تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قدّمَ وأخّرَ﴾؛ وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قدَّمتْ وأخرتْ﴾؛ وقال رسول الله صلى اللهُ عليهِ وسلم: «إذا ماتَ الإنسانُ ٱنْقطَعَ عَمَلُه إلاّ من ثلاثٍ: صَدَقةٍ جارِيَةٍ أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أو وَلَدٍ صالحٍ يدعو له».

وشرطي في هذا الكتابِ إضافةُ الأقوالِ إلى قائليها والأحاديثِ إلى مُصنِّفيها[٧]، فإنّه يُقال: مِنْ بركةِ العِلمِ أن يُضاف القولُ إلى قائله.

وكثيراً ما يجيء الحديثُ في كُتُبِ الفِقْهِ مُبْهَماً لا يَعْرِف مَنْ أخْرَجَه[٨] إلاّ مَنِ ٱطّلَعَ على كُتُبِ الحديثِ فيبقى مَنْ لا خِبرَةَ له حائراً لا يَعرِفُ الصحيحَ من السقيم[٩] - ومَعرِفةُ ذلك عِلْمٌ جسيم[١٠] - فلا يُقْبَلُ منه الاحتِجاجُ به ولا الٱستِدْلالُ حتى

---

(١) أمين السماء: جبريل. أمين الأرض: محمّد رسول الله.

(٢) المنّة (بالضمّ): القوّة.

(٣) النكتة: النقطة البارزة، المسألة الدقيقة أو النادرة.

(٤) الزيغ: الحيد أو الميل عن الطريق الصحيح. الضلالة: الباطل، مخالفة الطريق المستقيم.

(٥) نزول الآيات (أسباب نزولها، تاريخها).

(٦) أشكل الأمر: اشتبه، التبس (لم يمكن الجزم فيه برأي واضح).

(٧) مصنّف الأحاديث: مرتّب أحاديث رسول الله في أبوابها بحسب معانيها.

(٨) أخرج الحديث (بيّن طريق روايته).

(٩) الحديث الصحيح: الثابت في روايته عن رسول الله. السقيم من الحديث: ما كان في روايته عن رسول الله شك أو جَرْح في أمانة رجاله (فهو ضعيف) أو ما لم يكن من أحاديث رسول الله (فهو موضوع، مكذوب).

(١٠) جسيم: عظيم، (صعب).

يُضيفه إلى من خرّجه من الأئمّة الأعلام والثّقاتِ المشاهيرِ من عُلَماءِ الإسلامِ. ونحنُ نُشيرُ إلى جُمَلٍ من ذلك في هذا الكتابِ. والله الموفّق للصواب.

(ثم إنّني) أُضرِبُ [١] عن كثير من قِصَص المُفسِّرين وأخبار المُؤرّخين، إلاّ ما لا بُدَّ منه ولا غَناءَ [٢] عنه للتَّبْيين. وٱعْتَضْتُ من ذلك تبيينَ آيِ الأحكام بِمسائلَ تُسفِرُ عن معناها وتُرشِدُ الطالبَ إلى مُقتضاها [٣]. فضمّنْتُ كُلّ آيةٍ تتضمّنُ حُكْماً أو حكمَيْنِ فما زادَ مسائلَ نُبيِّنُ فيها ما تحتوي عليه من أسبابِ النُّزولِ والتفسيرِ والغريب والحُكْم [٤]؛ فإنْ لم تتضمّنْ حُكْماً ذكَرْتُ ما فيها من التفسيرِ والتأويلِ [٥]، هكذا إلى آخرِ الكتاب.

وسمّيْتُه «الجامع لأحكام القُرآنِ والمُبيِّنَ لما تضمّنَهُ من السُّنّة وآيِ الفُرقان» [٦]، جَعَلَهُ اللهُ خالصاً لوجههِ، و(أرجو) أنْ ينفعَني بهِ ووالِدَيّ بمَنّهِ [٧]. إنه سميعُ الدُّعاء قريبٌ مُجيبٌ [٨]. آمين.

٤- الجامع لأحكام القرآن، القاهرة (دار الكتب المصريّة) ١٩٣٣ - ١٩٥٠ م، الطبعة الثانية ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ م، الطبعة الثالثة ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٣ م؛ القاهرة (دار الكاتب العربي) ١٩٦٧ م (نسخة مصوّرة).
- أقضية الرسول صلّى الله عليه وسلم، القاهرة (البابي) ١٣٤٦ هـ.
- التذكرة بأحوال الموتى وأحوال (أمور) الآخرة [٩] (في مجموع، رقم ٤)، القاهرة (مكتبة الجمهوريّة العربية) بلا تاريخ؛ (صحّحه أحمد محمّد مرسي)، القاهرة (مطابع مدكور وأولاده) بلا تاريخ.

---

(١) أضرب عن الشيء: رفض الأخذ به، ترك العمل به.
(٢) الغناء (بالفتح): (هنا) الاستغناء. لا غناء عنه: ضروري.
(٣) مقتضاها: وجوبها، الحاجة إليها، وجه العمل بها.
(٤) الغريب (من الألفاظ): ما كان قليل الاستعمال. الحكم: الوجه الشرعي الذي يجب العمل به.
(٥) تأويل الكلام: العدول به عن الحقيقة إلى المجاز، ترك المعنى الظاهر وطلب المقصود الباطن.
(٦) الفرقان: القرآن الكريم (الذي يفرق بين الحق والباطل).
(٧) المنّ (بالفتح): النعمة، الفضل.
(٨) في القرآن الكريم (٢: ١٨٦، البقرة): ﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾ (دعاني).
(٩) في بروكلمن (الملحق ١: ٧٣٧): بولاق ١٣٠٠؛ القاهرة ١٣٠٤، ١٣٠٨، ١٣١٠ (لم يأتِ قبلها كلمة مطبوع).

- التّذكار في أفضل الأذكار: القرآن الكريم (خرّج أحاديثه... أحمد بن محمّد الغماري)، القاهرة (الخانجي) ١٣٥٥ هـ.
★★- شرح التذكرة القرطبية (لأحمد بن أحمد بن محمد، المتوفّى ٨٩٦ هـ)، بولاق ١٣٠٠ هـ؛ القاهرة ١٣٠٤، ١٣٠٨، ١٣١٠ هـ.
- مختصر التذكرة بأحوال الموتى الخ، لعبد الوهاب الشعراني (ت ٩٧٣ هـ)، بولاق ١٣٠٠ هـ؛ مصر (مطبعة شرف) ١٣٠١ هـ، ١٣٠٤ هـ؛ مصر (مطبعة عبد الرزّاق) ١٣٠٣ هـ؛ مصر (المطبعة الخيرية) ١٣١٠ هـ؛ مصر ١٣٢٠ هـ.
- مختار تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تصنيف توفيق الحكيم (؟)، القاهرة (الهيئة المصريّة العامّة للكتاب) ١٩٧٧ م.

الوافي بالوفيات ٢: ١٢٢ - ١٢٣؛ الديباج المذهب ٣١٧ - ٣١٨؛ شذرات الذهب ٥: ٣٣٥؛ نفح الطيب ٢: ٤٨ - ٤٩، ٣: ٢٣٥ - ٢٣٧؛ دائرة المعارف الإسلامية ٥: ٥١٢ وما بعد؛ بروكلمن ١: ٥٢٩، الملحق ١: ٧٣٧؛ الأعلام للزركلي ٦: ٢١٧ - ٢١٨ (٥: ٣٢٢)؛ سركيس ١٥٠٤، راجع ١١٣٣ (رقم ١٧).

ابن مالك النحوي

١ - هو جمالُ الدين أبو عبد الله محمّدُ بنُ عبدِ الله بن مالكٍ الطائيُّ الجيّانيُ. وُلِدَ آبنُ مالكٍ في جيّانَ، سَنَةَ ٥٩٨ هـ (١٢٠٢ م) في الأغلب، ودرس فيها على ثابتِ بن خيارٍ المُتوفّى سَنَةَ ٦٢٨ هـ (نفح الطيب ٧: ٢٨٧) وعلى أحمدَ بنِ نوارٍ وعلى أبي عبد الله محمّد آبن مالكٍ المَرْشانيّ وعلى أبي علي الشلوبيني الصغير (ت ٦٦٥ هـ).

ورَحَل آبنُ مالكٍ في مطلعِ حياته فدرس في مِصْرَ على أبي عمروٍ عُثمانَ بنِ الحاجب (٥٧٠ - ٦٤٦ هـ) وأبي صادقٍ بن الصباح (ت ٦٣٢ هـ). ثمّ جاء إلى دمشق فدرس على أبي الحسن بنِ السخاويِّ (ت ٦٤٣ هـ) وأبي الفضل مكرم بنِ محمّدٍ (ت ٦٣٥ هـ). وانتقلَ إلى حَلَبَ فأخذ من ابنِ يَعيشَ (ت ٦٤٣ هـ) ومن تلميذِه آبنِ عَمْرونٍ (ت ٦٤٣ هـ).

وتصدّر آبنُ مالكٍ للتدريس في دِمَشْقَ، وفي حماةَ مُدّةً، وفي حَلَبَ أيضاً.

وكانت وَفاةُ ابنِ مالكٍ في دِمَشْقَ في الثاني عَشَرَ من شَعْبانَ من سَنَةَ ٦٧٢ (١٢٧٤/٢/٢٢ م).

٢ - كان ابنُ مالكٍ إماماً في القراءات وفي اللُّغةِ والنحو واسعَ الاطّلاعِ على أشعار العرب التي يُسْتَشْهَدُ بها في اللغة والنَّحْو: كانَ يأتي بالشاهدِ من القُرآن الكريم، فإذا لم يَجِدْه في القُرآنِ أخذه من الحديث، فإذا لم يَجِدْهُ فيهما أخذه من أشعار العرب.

ولابنِ مالكٍ النَّحْوِيِّ نظمٌ كثير يدورُ كُلُّه على جمع قواعدِ اللغة والنحو وعلى شواردِها. وهذا النوع من النظم يكون في العادة كثير التكلُّفِ قليل الرَّونقِ.

ولابن مالكٍ تصانيفُ كثيرةٌ منها: الفوائدُ (في النحو، وقد ضاع) - تسهيل الفوائد، (مختصر من الفوائد) - تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد (قيل: كتاب ضمّنه ابنُ مالكٍ كِتابَه «تسهيل الفوائد») - شرحُ التسهيل - الموصَّل في نَظْم المُفصّل (في النحو. والمفصّل للزمخشري) - سبك المنظوم وفكّ المختوم (نَثْرُ الكتاب السابق) - الكافِيةُ الشافيةُ (وهي أُرجوزة في ثلاثة آلافِ بيتٍ مطلَعُها: قال آبنُ مالكٍ محمّدٌ وقد...) - الخُلاصة (مختصر الكافية، وتُعرفُ عادةً بآسم الألفيّة لأنّها تتألّفُ من نحوِ ألفِ بيتٍ، ومطلَعُها: قال محمّدٌ هو آبنِ مالكِ) - شرح الكافِيَة - إكمالُ الاعلام بمُثلّثات الكلام - لاميّةُ الأفعال - شرحُ لاميةِ الأفعال - فعل وأفعل - المقدّمة الأسدية (في النحو وضعها بآسْمِ وَلَدِهِ تقيٍّ الدين الأسد - عُدّة اللافظِ وعُمْدة الحافظ - النظم الأوْجزُ في ما يُهْمَزُ - الاعتضاد في الظاء والضاد - تُحفة المودود في المقصور والممدود. وله أيضاً الداليّةُ المرموزة (وهي تحتوي على ما تَحْويه ألفية الشاطبي(*) في القِراءات السَّبع، وهي المعروفةُ باسْم «حِرزِ الأماني ووجه التّهاني» أو بآسمِ الشاطبية اختصاراً. وفي الداليةِ أكثرُ مِمّا في الشاطبية - اعراب مُشكِل البُخاري.

٣ - مختارات من آثاره

- قال ابن مالك النحويّ في مطلع «الألفيّة»:

قـال محمَّـدٌ هُوَ آبن مالـكِ: أحمَدُ ربي اللهَ[١] خيرَ مالـكِ،

(*) راجع ترجمة الشاطبي (ت ٥٩١ هـ) - في الجزء الخامس.

(١) لفظ الجلالة «الله»، هنا، مرقّق (بجعل الألف التي بعد اللام الثانية وقبل الهاء بين الفتح والكسر) لأنه جاء بعدكسرة (في «ربي»). وفي غير هذا الموضع (أي بعد الفتح أو الضم) يلفظ اسم الجلالة «الله» مفخماً، نحو: قالَ الله... أو هذا خَلْقُ الله.

مُصلّياً علـى الرسول المُصطفـى وآلـهِ المُستكمِليـنَ الشَّرَفـا[1].
وأستعـينُ اللهَ[2] في أَلفيَّـهْ مقاصـدُ النحو بهـا مَحْوِيَّـهْ،
تُقرِّبُ الأقصى بلفـظٍ مُوجَزِ وتبسُطُ البـذْلَ بوعـدٍ مُنجزِ[3]؛
وتقتضي رِضاً بغـير سُخـطِ فائقـةً ألفيَّـةَ ابنِ مُعطي[4].
وهو بسَبْـقٍ حائزٌ تفضيـلاً مستوجِـبٌ ثنائيَ الجَميـلا[5].
والله يقضي بهبـاتٍ وافره لي ولـه في دَرجـاتِ الآخِرهْ[6]

– ومن مَتْنِ الألفيّة (هَمْزةُ «أنّ» – متى تُكْسَر ومتى تُفْتَحُ):

لِـ «إنّ، أنّ، لَيتَ، لكِنَّ، لَعَلْ، كأنَّ» عكسُ مالـ «كانَ» مِن عَمَلْ[7]؛
«كـإنّ زيـداً عـالمٌ بأنّي كُفْءٌ»، و«لكنّ ابْنَهُ ذو» ضِغْنِ[8].
وراعِ ذا الترتيبَ إلاّ في الذي كلَيْتَ فيها «أو... هُنا غيرَ البذي»[9]
وهَمْزَ إنّ افْتَحْ لِسَدِّ مَصْدَرِ مَسَدَّها، وفي سوى ذاكَ اكْسِرِ[10]:

---

(1) الشَّرَفا: مفعول به منصوب بالفتحة (لاسم الفاعل المحلى باللام – بلام التعريف).

(2) لفظ الجلالة «الله» مفعول به.

(3) تحاول (هذه الألفية) أن تجمع كل شيء من وجوه النحو. الأقصى: الأبعد (الشواذ) أي فيها أمثلة على القواعد وعلى ما يشذّ أيضاً عن تلك القواعد. ثمّ تبسط (تفصل) البذل (العطاء): كثرة وجوه الاعراب، ولكن بإيجاز.

(4) تقتضي (تستحق، تطالب القارىء المتعلم) رضاً (سروراً بها منه). السخط: الكره والغضب. فائقة: فاضلة (تزيد في قيمتها وفي نفعها على ألفية ابن معط – ت ٦٢٨ هـ – راجع ترجمته في الجزء الخامس).

(5) وهو (ابن معط) مستحقّ تفضيلاً عليّ لأنه سبق في نظم ألفية في هذا الموضوع.

(6) الآخرة: يوم القيامة. درجات الآخرة (يكون المؤمنون المحسنون في الجنّة في مراتب يعلو بعضها على بعض بحسب أعمال كل واحد منهم في هذه الدنيا).

(7) عمل الأحرف المشبّهة بالفعل: (إنّ، أنّ، لكنّ، ليت، لعلّ) تنصب الاسم وترفع الخبر: إن زيداً قائم. وعمل الفعل الناقص (كان وأخواتها: ظلّ، ما زال، الخ) ترفع الاسم وتنصب الخبر: كان زيد قائماً.

(8) الضغن: الحقد. – في الأمثلة (راجع الحاشية السابقة).

(9) «راع» (فعل أمر من راعى – يراعي) حافظ على ترتيب الألفاظ في الجملة: الحرف المشبّه بالفعل (أو الفعل الناقص) ثمّ اسمه ثم خبره: ليت زيداً قائم. – أمّا إذا اتّصل بالخبر (أو بما يقوم مقامه) حرف جرّ (أو ظرف)، فحينئذ يتقدّم الخبر على الاسم: ليت على هذه الشجرة ثمراً («ثمراً» اسم «ليت» مؤخّر). كان في الدار رجل. ليت هنا غير البذيء. البذيء: الذي يتكلم كلاماً قبيحاً.

(10) تفتح همزة «أنّ» إذا كانت هي واسمها وخبرها يمكن تأولها كلّها بمصدر يكون معمولاً له محلّ من =

وٱكْسِرْ في الآبْتِـدا، وفي بَدْءِ صِلَهْ، وحيـثُ «إنّ» لِيَمينٍ مُكْمِلَهْ[1]،
أو حُكِيَـتْ بالقولِ، أو حَلّتْ مَحَلْ حالٍ «كزُرْتُه وإنّي ذو أَمَلْ»[2]؛
وكَسَروا من بَعْـدِ فعـلٍ عُلِّقـا باللامِ «كأَعْلَمْ إنَّهُ لَذو تُقى»[3]؛
بعـد إذا فُجـاءةٍ، أو قَسَمِ، لا لامَ بَعْدَها بِوَجْهَيْنِ نُمي[4]؛
مَعْ تِلْوِ «فا الجزا»– وذا يَطَّرِدُ في نحوِ: «خيرُ القولُ إنّي أحْمَدُ»[5]؛
وبَعدَ ذاتِ الكَسْرِ تَصْحَبُ الخَبَرْ لامُ ابتـدا، نحو «إنّي لَوَزَرْ»[6].
ولا يَلي ذي اللامَ مـا قد نُفِيا ولا مِنَ الأفْعالِ ماكـ«ـرَضِيا»[7]،

= الإعراب: علمت أن زيداً قادم (علمت قدوم زيد – قدوم مفعول به)– العدل أن تنصف الناس من نفسك: العدل إنصافك الناس من نفسك (إنصاف خبر) الخ. وفي سوى ذلك من الأماكن تكسر همزة «أن».

(١) الهمزة في «أن» (من الأحرف المشبهة بالفعل) تأتي أحياناً مكسورة وأحياناً مفتوحة. تكون مكسورة: إذا جاءت في أوّل الكلام (إنّ الله يحب المحسنين)– وفي بدء الجملة التي تكون صلة لاسم الموصول (جاء الذي إنّ حديثه يعجبني)– وبعد القسم (والله، إنّ العلم نافع).

(٢) حُكيت بالقول (جاءت بعد فعل القول): قال سعيد: إنّ الجوّ بارد («إن» الجوّ بارد» جملة مقولة القول، وهي تصلح لأن تكون بدء الكلام). «زرته وإنّي ذو أمل» «إنّي ذو أمل» جملة في محلّ نصب حال (بعد واو الحالية).

(٣) لو قلنا: اعلم أن العلم نافع (فهمزة «أن» تكون مفتوحة– لأنّ «أنّ وما بعدها» يتأول بمصدر يقع مفعولاً به للفعل «علم». فإذا قلنا: اعلم إنّ العلم لنافع، كسرنا همزة «أن»).

(٤) إذا جاءت «أن» بعد «إذا» الفجاءة (وليس بعدها لام التوكيد): «سمعت صوتاً مقلقاً، فالتفت فإذا أنه ذئب يعوي (هنا يجوز فتح همزة أن وكسرها). فإذا تلتها لام التوكيد «..... فإذا إنّه لذئب....» (تعين كسر همزة «أن»). وكذلك في القسم: «اقسم بالله أنه بريء (يجوز الوجهان في «أن»). فإذا قلنا: «أقسم بالله إنه لبريء» (كانت همزة «ان» مكسورة). نمى ينمي: رفع، نسب (صحّ عن المتقدّمين).

(٥) إذا جاءت «أن» مسبوقة بفاء الجزاء (في جملة شرطية أو شبيهة بالشرطية)، فهمزة «أن» تكون مكسورة: ومن يتبْ من ذنوبه، فإنّ الله غفور رحيم. يطرّد: يأتي بلا شواذّ.

(٦) إنّ لام التوكيد تدخل على الخبر جوازاً: إنيّ واثق– إني لواثق (ولكن همزة «أن» تكون في الحالين مكسورة).

(٧) ولام التوكيد هذه تدخل على الفعل المضارع إذا كان مثبتاً. إنّ الإنسان ليرضى عن المحسن في كل حين، أو إذا كان اسم فعل (بمعنى الفعل المضارع): إنّ زيداً لنعم الرجل– ولنعم الرجل زيد. ولكنها لا تدخل على الفعل الماضي ولا على الفعل المضارع إذا جاء منفياً، فلا يقال: إن زيداً لرضي أو أن زيداً للا يرضى.

وقـد يَليهـا مَـعَ قَـدْ، «كـإنّ ذا   لقد سما» على العِدا مُسْتَحْوِذا [1].

٤- كنت أودّ أن أنسُقَ تآليفَ آبنِ مالكٍ وشروحَها وحواشِيها نسْقاً منطقيًّا - كما كنت قد فعلت بتآليفِ آبن هشامٍ الأنصاريّ (٣: ٧٨٣ - ٧٨٧) - ولكنْ يبدو أن الشروحَ والحواشيَ على تآليفِ ابن مالكٍ أكثرُ تعقيداً منها على شروح ابنِ هشامٍ. ثمّ أدركني زمنُ الطِّباعة - وأنا في إعداد هذا الجزء للطبع (وإن كان وضعه بالتأليف والترتيب والنسخ قد تمّ منذ زمن بعيد). من أجل ذلك آثرتُ الطريقةَ التالية، وهي أهون عليّ. فعسى أن تُتاح فرصةٌ في الطَّبَعات المقبلة فأستدركَ هنالك ما فاتني هنا.

ويرى القارئُ أنّ الطَّبَعاتِ الحديثة هنا قليلةٌ (ولا أعتقدُ أنها في الأصل قليلةٌ). غير أنّي قدِ اعتمدتُّ في جمع هذه الكتب مكتبةَ جامعةِ بيروتَ العربيةِ (وكتبُ آبنِ مالكٍ فيها قليلةٌ جدًّا لا تتجاوز أربعةً) ومكتبةِ يافثَ في الجامعة الاميركية في بيروتَ (وكانتْ كتب آبنِ مالكٍ فيها قليلة أيضاً) ثمّ معجمَ المطبوعات العربية ليوسفَ إليان سركيس (مصر ١٣٤٦ - ١٣٤٧ هـ = ١٩٢٨ م) و«تاريخَ الأدب العربيّ» لكارل بروكلمن (خمسة أجزاء، ليدن ١٩٣٧ - ١٩٤٩ م).

كتب ابن مالك:

- ★ ألفيّة آبنِ مالكٍ، وتُعرف أيضاً بآسم «الخُلاصة»: - (شرح دى ساسي)، باريس ١٨٣٣ م (١٢٤٩ هـ).
- بولاق ١٢٥١، ١٢٥٣، ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٢٩، ١٣٣٢ هـ. القاهرة (المكتبة التجارية) الطبعة الثالثة ١٩٣٢ م.
- (مع شرح لعبد الواحد)، كاونبور (الهند) ١٢٦٠ هـ.
- في مجموع «أمهات الفنون» (مصر؟) ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٩٥ هـ (١٨٦٣ - ١٨٧٨ م).

---

(١) وتدخل هذه اللام على «قد» التي تسبق الفعل الماضي لتوكده أو على الفعل المضارع لتكسبه تأكيداً: لقد جاء سعيد مسروراً - ولقد يكون المحسن محبوباً.

- القاهرة (طبع حجر - مطبعة المدارس)[1] ١٢٩٠ هـ.
- قسنطينة (الجزائر) ١٨٨٧ م (١٣٠٥ هـ).
- (نشرها غوغييه)[2]، بيروت (المطبعة الأدبية) ١٨٨٨ م (١٣٠٦ هـ).
- ؟ (مطبعة محمّد أبي زيد) ١٣٠٦، ١٣٠٧ هـ.
- مصر (المطبعة البارونية) ١٣٠٨ هـ.
- طهران (طبع حجر) ١٢٨٨ (نيروزية: فارسية)= ١٣١٠ هـ.
- ؟ (في مجموع) ١٣١٠، ١٣١٣ هـ.
- (حرّرها محمّد حسن علي)، لكنهو (طبع حجر) ١٨٩٨ م (١٣١٦ هـ).
- نشرها أنريكو فيتو[3]- مع ترجمة وشرح) بيروت ١٨٩٨ م (١٣١٦ هـ).
- لاهور (الهند) ١٩٠٢ م (١٣٢٠ هـ).
- فاس ١٣٢٣ هـ.
- مصر (المطبعة الحسينية) ١٣٢٥ هـ).
- مصر (المطبعة الميمنيّة)، مراراً ثمّ ١٣٣٠ هـ.

★ شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح (للبخاري)، الهند ١٣١٩؛ (تحقيق محمّد فؤاد عبدالباقي)، القاهرة (دار العروبة) ١٩٥٧ م.

★ أرجوزة في المثلّثات[4] (نشرها محمّد الأمين الشنقيطي)، القاهرة ١٣٢٩ هـ.

★ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد (تحقيق محمّد كامل بركات)، القاهرة (دار الكاتب العربي) ١٩٦٧ م.

★ لاميّة الأفعال (المِفتاح في أبْنية الأفعال)، بطرسبورج ١٨٦٤ م (١٢٨١ هـ)؛ (مع الألفية)، بيروت ١٨٨٨ م (١٣٠٦ هـ).

★ تحفة المودود في المقصور والممدود (تحرير إبراهيم اليازجي)، القاهرة (مطبعة البيان) ١٨٩٧ م (١٣١٥ هـ)؛ (نشرها محمّد بن الأمين الشنقطيّ - مع أرجوزة المثلثات لابن مالك)؛ (مطبوع مع الاعلام)، مصر ١٣٢٩ هـ.

★ منظومة فيا ورد بالواو والياء (في مجموعة)، القاهرة (المطبعة الخيرية) ١٣٠٦ هـ.

★★ شروح وحواش على كتب ابن مالك مباشرة:

---

(١) طبعة واحدة أو طبعتان (؟).

(٢) Goguyer.

(٣) E. Vitto.

(٤) يرد هذا الكتاب بعناوين مختلفة: الاعلام أو اكمال الاعلام بمثلث الكلام (سركيس ٢٣٣) وأرجوزة في المثلثات - بيان ما فيه لغات ثلاث فأكثر - المثلّث ذو المعنى الواحد (بروكلمن ١: ٣٦٣، الملحق ٥٢٦).

(أ) على ألفيّة ابن مالك:

- شرح على ألفية ابن مالك لأبي زيد عبد الرحمن بن عليّ المكودي (ت ٨٠١ هـ)، مصر (طبع حجر) ١٢٧٩ هـ؛ القاهرة (مطبعة محمد مصطفى) ١٣٠١ هـ؛ القاهرة (المطبعة الشرفية) ١٣٠٣ هـ؛ القاهرة (المطبعة الميمنية) ١٣٠٥ هـ؛ القاهرة (المطبعة الخيرية) ١٣٠٥ هـ؛ ثم ١٣١٥، ١٣٢٠؛ فاس ١٢٩٤، ١٣١٨ هـ، ثم بلا تاريخ؛ القاهرة (المكتبة التجارية) ١٣٥٤ هـ.
- الدرة المضية.......... لبدر الدين محمد بن محمد بن عبد الله (ت ٦٨٦ هـ)، بيروت ١٣٠٢؛ القاهرة ١٣٤٢ هـ؛
- منهج السالك في الكلام على ألفيّة ابن مالك، لأثير الدين أبي حيّان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ)، (حرّره وقدّم له سدني غليزر)، نيوهافن (جمعيّة الاستشراق الاميركية) ١٩٤٧ م.
- شرح ألفية ابن مالك، لعبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل (ت ٧٦٩ هـ)، بولاق ١٢٥١، ١٢٥٣ هـ، ١٢٨١ هـ؛ القاهرة (دار الطباعة) ١٢٦٥ هـ؛ (نشرها ديتريشي)، ليبسك ١٨٥١ م (١٢٦٨ هـ)؛ برلين ١٨٥٢ م بيروت (المكتبة العمومية) بلا تاريخ ثم ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ)؛ القاهرة ١٣٠٦ هـ؛ القاهرة (المكتبة التجارية)، الطبعة الثالثة ١٩٣٢، ١٩٥٨ م.
- شرح خطبة (مقدّمة) ألفية ابن مالك، تأليف محمد الكردودي، فاس (بلا تاريخ).
- أوضح المسالك أو التوضيح لابن هشام الأنصاري (ت ٧٦٢ هـ) (تحرير عبد الرحيم الصفيبوري)، كلكتا ١٢٤٨ هـ = ١٨٣٢ م، ١٢٣٧ هـ (١٢٥٣ هـ)؛ القاهرة ١٣٠٤، ١٣١٢، ١٣١٦ هـ؛ بولاق ١٣١٠ هـ؛ (في مجموعة) ١٣٢٦ هـ؛ القاهرة (مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده)، الطبعة الثالثة ١٩٦٤؛ القاهرة (المكتبة التجارية)، الطبعة الرابعة ١٩٥٦ م؛ بيروت (دار إحياء العلوم) ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م.
- المقاصد النحويّة في شرح شواهد الألفية (ويعرف بعنوان: الشواهد الكبرى)، لبدر الدين محمود بن أحمد العيني (ت ٨٥٥ هـ)، القاهرة ١٢٩٧ هـ؛ (على هامش «خزانة الأدب» للبغدادي)، القاهرة ١٢٩٩ هـ.
- منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، لعلي بن محمد الأشمونيّ (ت نحو ٩٠٠ هـ)، (بهامش حاشية على شرح الأشموني)، بولاق ١٢٨٠ هـ؛ القاهرة (المطبعة الخيرية) ١٣٠٥ هـ؛ القاهرة (المطبعة الأزهرية) ١٣١٥ هـ؛ (حقّقه محمد محيي الدين عبد الحميد)، القاهرة (مكتبة النهضة المصرية) ١٩٥٥ م.
- البهجة[1] المَرْضيّة (شرح الألفية) لجلال الدين السيوطيّ (ت ٩١١ هـ)، لكنهو ١٨٣١ م

---

(١) ربّما قرئت «النهجة» بالنون راجع سركيس، ص ١٠٧٦؛ بروكلمن ١: ٣٦٢، الملحق ٢: ٥٢٤ (الكتاب رقم ١٥ فيهما).

(١٢٤٧ هـ)، طهران (طبع حجر) ١٢٤٨، ١٢٦٨، ١٢٨٤ هـ؛ القاهرة ١٢٨٢ هـ؛ تبريز (طبع حجر) ١٢٨٦ هـ؛ القاهرة (مطبعة المدارس) ١٢٩١ هـ؛ القاهرة (المطبعة الخيرية) ١٣١٠ هـ؛ (بهامش الأزهار الزينية) بولاق ١٢٩٤ هـ (؟)؛ القاهرة ١٣١٩ هـ.

- تمرين الطلّاب في صناعة الاعراب (على القسم النحوي من الألفية) لخالد بن عبد الله الأزهري (ت ٩٠٥ هـ)، بولاق ١٢٥٢، ١٢٩٢ هـ؛ القاهرة (طبع حجر) ١٢٧٤، ١٢٨٩، ١٢٩٣؛ القاهرة (مطبعة شرف) ١٢٩٩ هـ؛ القاهرة (المطبعة الأزهرية) ١٣٠١ هـ؛ القاهرة (مطبعة محمّد مصطفى) ١٣٠٢؛ القاهرة (المطبعة الخيرية) ١٣٠٥؛ القاهرة ١٣٠٨، ١٣١٠ هـ؛ القاهرة (المطبعة الميمنيّة) ١٣١٢؛ القاهرة ١٣٣٥ هـ.
- موصل الطلاب إلى قواعد الاعراب لخالد بن عبد الله الأزهري (ت ٩٠٥ هـ)، (بهامش «تمرين الطلاب)، سنة؟.
- الأزهار الزينية في شرح متن الألفية، تأليف أحمد بن زيني دحلان (ت ١٣٠٤ هـ)، بولاق ١٢٩٤ هـ؛ القاهرة (المطبعة الميمنية) ١٣١٩ هـ.

(ب) شروح على لامية الأفعال:

- شرح بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦ هـ)، هلسنغفورس - فنلندة ١٨٥١ م (١٢٦٨ هـ)؛ (نشرها كلغرن)، هلسنغفورس ١٨٥٤ م (١٢٧١ هـ)؛ (نشرها كلغرن وفولك)، بطرسبورج ١٨٦٤ م (١٢٨١ هـ)؛ (نشرها فولك)، ليبسيغ ١٨٦٦ م (١٢٨٣ هـ)، بيروت ١٣١٢ هـ (سركيس ٢٣٥).
- الهند ١٢٦١ هـ؛ (في «مجموع من مهمّات الفنون»): القاهرة ١٢٧٣، ١٢٧٦، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٩٥، ١٢٩٧، ١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٦، ١٣٢٣ هـ؛ فاس ١٣١٧ هـ؛ تونس ١٣٢٩ هـ.(؟).
- الشرح الكبير والشرح الصغير، لمحمد بن عمر بن بحَرَق اليمنيّ الحضرمي (ت ٩٣٠ هـ)، القاهرة ١٣٠٥ هـ؛ تونس ١٣٢٩ هـ.
- حاشية على «لامية الأفعال»: لأحمد الرفاعي المالكي الأزهري، القاهرة ١٢٩٧، ١٣٠٤، ١٣٠٦ هـ.
- حاشية على الشرح الكبير والشرح الصغير (لابن بحرق)، تأليف محمّد الطالب بن حمدون بن عبد الرحمن بن الحاج السلمي الفاسي، فاس ١٢١٥ هـ؛ القاهرة ١٣١٨ هـ.

(جـ) خلاصة ومعارضة:

- خلاصة الخلاصة (الألفية) لمؤلّف مجهول، لكنهو (بلا تاريخ).
- المعارضة على ألفية ابن مالك أو الاحرار (؟ بروكلمن ١ : ٣٦٢، السطر ٢٢، الملحق ١ : ٥٢٣، رقم ٢٥، ٣ : ١٢١٥، السطر الخامس)، لعبد الودود بن عليّ بن أحمد بن المختار

الشنقيطي (ت بعد ١٣٠٠)، القاهرة ١٣٢٧ هـ.

** شروح وحواش على شروح وحواش (منسوقة بحسب وفيات مؤلفيها - والذين لم أعثر الآن على تواريخ وفياتهم ألحقوا بآخر هذه القائمة):

- حاشية على شرح ابن عقيل لعبد الرحمن بن صالح المكّودي (ت ٨٠١ هـ)، القاهرة ١٢٧٩، ١٣٠٥ هـ.
- التصريح بمضمون التوضيح على أوضح المسالك على ألفية ابن مالك، لخالد الأزهري (ت ٩٠٥ هـ)، بولاق ١٢٨٦، ١٢٩٤ هـ؛ القاهرة (مطبعة محمد مصطفى) ١٣٠٥ هـ؛ القاهرة (المطبعة الأزهرية) ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٤٤ هـ؛ طهران ١٢٨٦ ثم ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ م) و١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م).
- حاشية لابن زين الدين الحمصي (ت ١٠٦١ هـ) على شرح التوضيح لخالد الأزهري (بهامش «التصريح بمضمون التوضيح»)، مصر ١٣٠٥ هـ.
- حاشية (على البهجة المَرْضية للسيوطي)، تأليف ياسين بن زين الدين عليم الحمصي العليميّ (توفي في عاشر شعبان من سنة ١٠٦١ = ١٦٥٩/٧/٢٩ م)، فاس ١٣٢٧ هـ؛ القاهرة ١٣٠٥، ١٣١٣ ثمّ (بهامش التصريح على التوضيح، تأليف خالد بن عبد الله الأزهري)، طهران ١٨٨١ م (١٢٩٩ هـ) و١٨٨٨ م (١٣٠٦ هـ).
- حاشية على شواهد شرح ابن عقيل، لعبد المنعم الجرجاوي (ت ١١٩٥ هـ)، بولاق ١٢٦٤ هـ؛ القاهرة ١٢٨٠، ١٢٩٥، ١٣٠١، ١٣٠٨، ١٣١١، ١٣٢٥ هـ.
- حاشية الشيخ أبي العبّاس شهاب الدين أحمد بن عبد الفتاح الجيري الملوي (ت ١١٨١ هـ) على شرح المكودي على ألفية ابن مالك، مصر (طبع حجر) ١٢٧٩ هـ؛ القاهرة (مطبعة محمد مصطفى) ١٣٠١ هـ؛ القاهرة (المطبعة الشرفية) ١٣٠٣ هـ؛ القاهرة (المطبعة الخيريّة) ١٣٠٥ هـ؛ القاهرة (المطبعة الميمنيّة) ١٣٠٥ هـ. ثم (بهامش شرح المكودي)، القاهرة (؟) ١٣٠٥ هـ.
- شرح شواهد ابن عقيل، تأليف عبد المنعم الجرجاوي (ت ١١٩٥)، القاهرة (المطبعة الميمنية) ١٣٠٨ هـ؛ القاهرة (مطبعة عبد الرزاق) ١٣١١ هـ.
- زواهر الكواكب لبواهر المواكب، تأليف أبي عبد الله محمد بن علي بن سعيد التونسي (ت ١١٩٩ هـ)، وهي حاشية على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تونس ١٢٩٣، ١٢٩٨ هـ.
- فتح الجليل على شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك أو حاشية السجاعي، تأليف أحمد بن محمد السجاعي (ت ١١٩٧ هـ)، بولاق ١٢٧٠، ١٢٨٦، ١٢٩٠ هـ؛ القاهرة (مطبعة شرف) ١٣٠٢ هـ؛ القاهرة (المطبعة الميمنيّة) ١٣٠٦ هـ؛ (مع تقرير الشيخ محمّد بن محمد الأنبابي المتوفّى سنة ١٣١٣ هـ)، بولاق ١٣٠٣ هـ.

- حاشية على أوضح المسالك، للطيّب بن عبد المجيد الكراني (؟) (المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ)، فاس ١٣١٥ هـ.
- حاشية لمحمد علي الصبان (ت ١٢٠٦ هـ) على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، بولاق ١٢٨٠، ١٢٨٥، ١٢٨٨؛ القاهرة ١٣٠٥، ١٣١٩، ١٣٢٣ هـ.
- نظم أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تأليف أبي عبد الله محمّد بن حمدون بن الحاجّ السُّلمي (ت ١٢٤٧ هـ)، فاس ١٣١٨ هـ.
- شرح نظم أوضح المسالك.... تأليف ابن حمدون السلمي (مطبوع مع «نظم أوضح المسالك»).
- حاشية على شرح الأزهرية لخالد الأزهري، تأليف حسن بن محمّد العطار (ت ١٢٥٠ هـ)، القاهرة (المطبعة الميمنية) ١٣٠٧ هـ؛ القاهرة (المطبعة الخيرية) ١٣٠٧ هـ؛ القاهرة (المطبعة العلمية) ١٣١٥ هـ.
- حاشية حمدون بن الحاج السلمي (ت ١٢٧٣ هـ) على شرح بحرق على لامية الأفعال لابن مالك، فاس ١٣١٥ هـ.
- كشف الخفاء والغطاء: حاشية على أوضح المسالك، للطالب بن حمدون بن الحاج السلمي (ت ١٢٧٤ هـ)، فاس (؟) ١٣١٨ هـ.
- فتح الجليل بشرح شواهد ابن عقيل، تأليف محمد بن عبد الرحمن الشهير بلقب قطّة العدوي (ت ١٢٨١ هـ)، بهامش حاشية الجُرجاوي، بولاق ١٢٦٤ هـ؛ ثم (مستقلة) بيروت ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ) راجع بروكلمن ١: ٣٦١ (السطر العاشر)، الملحق ١: ٥٢٤ (السطر الثالث)؛ القاهرة ١٣٠٥ هـ؛ بهامش شرح شواهد ابن عقيل، القاهرة (المطبعة الميمنية) ١٣٠٨ هـ؛ القاهرة (مطبعة عبد الرزاق) ١٣١١ هـ.
- حاشية على شرح ابن عقيل، تأليف محمد الخِضريّ الدمياطي (ت ١٢٨٨ هـ)، القاهرة ١٢٧٢، ١٢٨٢، ١٢٨٧، ١٢٩١، ١٣٠٣، ١٣٠٥، ١٣١٧، ١٣٢٢، ١٣٤٥ هـ.
- حاشية نصر الهوريني (ت ١٢٩١ هـ) على «منهاج السالك» للاشموني، بولاق ١٢٩٤ هـ.
- حاشية الشيخ أحمد الرفاعي الأزهري (ت بعد ١٣١٢ هـ) على شرح بحرق على لاميّة الأفعال لابن مالك، القاهرة (المطبعة الوهبية) ١٢٩٧ هـ؛ القاهرة (المطبعة الخيرية) ١٣٠٤ هـ.
- تقرير العالم (حاشية على حاشية الصبان) لمحمد الأنبابي (ت ١٣١٣ هـ)، بولاق ١٢٨٨ هـ.
- حاشية محمد علي بن سعيد على منهاج السالك، فارس (طبع حجر) ١٢٦٨ هـ (؟). تونس ١٢٠٠ - ١٢٠٨، ١٢٩٢ - ١٢٩٣ هـ.
- تقريرات على حاشية السجاعي لمحمد بن محمد الأنبابي (ت ١٣١٣)، بولاق (؟) ١٢٩٦، ١٣٠٣ هـ.

- تقرير على حاشية الصبان (على شرح الأشموني لألفية ابن مالك)، تأليف اسماعيل الحامدي (ت ١٣١٦ هـ)، مصر ١٣٠٥ هـ.
- شرح محمد المَهديّ بن محمد الوزاني (ت ١٣٤٢ هـ) على شرح المكودي على ألفية ابن مالك، فاس ١٣١٨ هـ.
- إرشاد السالك إلى ألفية ابن مالك، تأليف عبد المجيد الشرنوبي (ت ١٣٤٨ هـ)، بولاق ١٣١٩ هـ.
- منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة (الطبعة العاشرة).... الطبعة الحادية عشرة ١٩٦١ م.
- بغية السالك إلى أوضح المسالك، تأليف عبد المتعال الصعيدي (نحو ١٩٧٥ هـ ؟)....

شروحٌ وحواشٍ لم أستطع تحقيق مؤلّفيها فسردتها بحسب تواريخ طبعها:

- حاشية ميرزا أحمد طالب (على البهجة للسيوطي)، طهران ١٢٧٥ هـ.
- إرشاد السالك إلى فهم ألفية ابن مالك، تأليف محمد بن مسعود الشرمباطي العثماني، فاس ١٣٠٥، ١٣١٥ هـ.
- حاشية المهدي بن مصطفى القرشي (النقرشي؟) على ألفية ابن مالك، فارس- إيران ١٣٠٩ هـ.
- حاشية على شرح المكّوديّ لأحمد بن محمّد بن حمدون بن الحاجّ، فاس (بلا تاريخ)؛ القاهرة (بهامش شرح المكودي)، ١٣١٥ هـ.
- حاشية....... على شرح بحرق على لامية الأفعال لابن مالك، فاس ١٣١٥ هـ، القاهرة (مطبعة محمد مصطفى) ١٣١٨ هـ.
- حاشية على شرح المكّودي، تأليف المَهْدي بن سليمان الصدري، فاس (؟) ١٣١٨ هـ.
- التوضيح أو تهذيب أوضح المسالك: حاشية ألّفها محمّد سالم علي وأحمد مصطفى المراغي، القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م).
- الكواكب الدرية (شرح الألفية)، تأليف صالح بن عبد الصنوع الآبيّ الأزهري، القاهرة ١٣٤٤ هـ.

القواعد الأساسية للغة الغربية حسب منهاج شرح الألفية، تأليف.... القاهرة ( ) ١٣٥٤ هـ.

فوات الوفيات ٢: ٢٨٤ - ٢٨٥؛ الوافي بالوفيات ٣: ٣٥٩ - ٣٦٤؛ ابن قنفذ ٣٣٢؛ بغية الوعاة ٥٣- ٥٧؛ شذرات الذهب ٥: ٣٣٩؛ نفح الطيب ٢: ٢٢٢ - ٢٣٣، ٦: ٢٤٦، ٧: ٣٧٦؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٨٦١- ٨٦٢؛ نيكل ٣٥٧- ٣٥٨؛ مختارات نيكل ٢٠٤؛ بروكلمن ١: ٣٥٩ - ٣٦٣، الملحق ١: ٥٢١- ٥٢٧؛ سركيس ٢٣٢ - ٢٣٤، راجع ١٧٨٧؛ الأعلام للزركلي ٧: ١١١ (٦: ٢٣٣)؛ معجم المؤلّفين ١٠: ٢٣٤؛ العربي ٩/ ١٩٧٢.

محمّد بن الحسن القلعيّ

١ - هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ الحسنِ بن عليٍّ بنِ مَيمونِ التميميُّ القَلْعيّ، نسبةً إلى قَلْعةِ بني حمّادٍ (فقد كانَ جدُّ أبيهِ ميمونٌ قاضياً فيها). نشأ في مدينةِ الجزائرِ وأخذَ فيها عن محمّدِ بنِ منداس. ثمّ إنّه انتقلَ إلى بِجايةَ واستَوطَنَها، وفيها بَرَعَ واشتهرَ. وقد تصدّرَ للتدريس في فنونِ العربيةِ - اللغةِ والنحوِ والأدب - . وتُوُفِّيَ في بِجاية، سَنَةَ ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ - ١٢٧٥ م).

٢ - كان محمّدُ بنُ الحسنِ القَلْعي مُشارِكاً في عددٍ من فنونِ العِلم، في الفِقه والتاريخ واللغة والنحو والأدب، بارعاً في علمِ التصريف مُحبًّا للتعليلِ على طريقةِ ابنِ جِنّيّ[١]. كما كان شاعراً على شعرهِ نفحةٌ دينيّةٌ ونفحةٌ صوفيّة. وكانَ مُصنِّفاً له: المُوضح في علم النحو - حَدَقُ العيون في تنقيح القانون (نحو) - نَشْر الخفيِّ في مُشكلاتِ أبي عليٍّ (الفارسي في كِتابه: الإيضاح في النحو).

٣ - مختارات من آثاره

- قال محمّدُ بن الحَسَنِ القَلْعيُّ في مدحِ الرسول:

أمِنْ أجْلِ أنْ بانوا فؤادُك مُغْرَمُ ... وقلبُكَ خفّاق ودمعُك يَسجِمِ[٢]؟
وما ذاك إلّا أنّ جِسْمَكَ مُنْجِدٌ ... وقلبُكَ مَعْ مَنْ سار في الرّكْبِ مُتْهِمُ[٣].
ومِنْ قائلٍ في نَظْمِهِ مُتعجّباً: ... أجِسْمٌ بلا قلبٍ، فكيفَ رأيتُمُ؟
ولا عجَبٌ أنْ فارَقَ الجسمَ قلبُهُ، ... فحَيْثَ ثوى المحبوبُ يَثْوِي المُتَيَّمُ[٤]!
عساهُمْ، كما أبْدَوْا صُدوداً وجفْوَةً، ... يَعودون للوَصْلِ الذي كنتُ أعلم.

---

(١) ابن جنّي: أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢ هـ) من أئمّة النحو والأدب.
(٢) بانوا: ذهبوا، ابتعدوا. سجم الدمع: سال.
(٣) أنجد الرجل: جاء نجداً (المكان العالي). الركب: الجماعة المسافرون معاً. أتهم (بفتح فسكون) الرجل: نزل إلى تهامة (بالكسر): ساحل الحجاز (المكان المنخفض). - يريد أن يقول: حاجات جسمي مختلفة من حاجات قلبي (نفسي، عقلي).
(٤) ثوى: مكث. المتيّم: الذي تيّمه (ذلّله) الحب.

إليـك، رسولَ الله، أرفَعُ حاجتي؛ فأنتَ شفيعُ الخلقِ، والخَلْقُ هُيَّم[1].
فقد سارتِ الرُّكبانُ واغْتَنموا المُنــى، وإنِّيَ من دونِ الخلائـق مُحْرَمُ[2].
وهَبْـني عَصَيْتُ اللهَ جهلاً وَصَبْوةً، فمَنْ يقبَلُ الشَّكوى ومن يَتَرّحم[3]؟
وقـد أثقلَتْ ظَهْري ذُنوبٌ عظيمةٌ، ولكنّ عفوَ الله أعــلى وأعظم.

– وله من قصيدةٍ يبدو عليها أثرُ ابنِ عبدونٍ: «الدهر يفجَعُ بعدَ العينِ بالأثَرِ»[4]:

الخُبْرُ أصدقُ في المَرأى من الخَبَرِ. فمَهّدِ العُذْرَ، ليسَ العينُ كالأثرِ[5].
وخَـلِّ عن زَمنٍ تخشى عواقِبَـه، إنّ الزمانَ إذا فكّرتَ ذو غِيَرِ[6].
أين الأُلـى جَنّبوا خَيْـلاً مُسَوّمَةً وشَيّـدوا إرَماً خوفاً من القَدَرِ[7]؟
تنافَس الناسُ في الدنيا، وقد عَلِموا أنّ المُقـام بهـا كاللَّمْـحِ بالبَصَرِ.
أوْدى بـدارا وأوْدى بابنِ ذي يَزَنٍ وفَـلّ غَرْبَ هِرَقْلٍ؛ إنّه لَحَرِي[8]!

---

(١) الهيّم جمع هائم: الذي اشتدّ عطشه، الذي اشتدّ حبّه، الذي سار على وجهه لا يدري إلى أين يذهب.
(٢) المنية: ما يتمنّاه (يرغب فيه) الإنسان. اغتنموا (ربحوا) المنى: وصلوا إلى مكّة والمدينة. محرم = محروم (من الذهاب إلى الحجّ).
(٣) الصبوة: الميل إلى النساء.
(٤) راجع الجزء الخامس، ص١٩٢.
(٥) مهّد العذر (اجعل طريق اعتذاري إليك ممهّداً: سهلاً في المسير): اقبل عذري. العين: الشخص الماثل (القائم أمام الرائي من كلّ شيء.
(٦) خلّ عن زمن: اترك التذكّر لزمن. غير (بكسر ففتح) الدهر: أحداثه وأحواله المتغيّرة. ويجوز أن تكون جمعاً لكلمة «غيرة» (بكسر ففتح ففتح) راجع تاريخ العروس (الكويت ٣: ٢٨٧).
(٧) جنّب القوم خيلهم (جعلوها تسير مسرجة ملجمة إلى جنب إبلهم، استعداداً للقتال). المسوّمة: المعدّة (بضمّ ففتح فدال مشدّدة مفتوحة): المهيأة. شيّد: بنى بالحجارة الضخمة. إرم (بكسر ففتح) مدينة قديمة، قيل كانت سقوفها من النحاس (وقد سفّه ابن خلدون، في مقدمته، هذا القول. وقال: هي ارم ذات العماد أو الأعمدة، أي البلدة التي يسكن أهلها في الخيام).
(٨) أودى الدهر بالرجل (أهلكه). دارا ملك فارسي. ابن ذي يزن (ملك من ملوك اليمن العرب). فلّ: ثلّم (قطّع). الغرب: حدّ السيف. هرقل: ملك من ملوك الروم. إنّه لحري: إنّه حريّ بذلك (جدير به، ينتظر منه ذلك: حريّ بالدهر أن يهلك كلّ الناس، وحريّ بهرقل أن يُهلِك كما يهلك جميع الناس).

وَلْتَفْتَكِرْ في ملوكِ العُرْبِ من يَمَنٍ، وَلْتَعْتَبِرْ بملوكِ الصينِ من مُضَرِ[1]:
أفناهُمُ الدهرُ أولاهُمْ وآخِرَهُمْ لم يبقَ منهم سوى الأسماءِ والسِّيَرِ.

٤- ★★ تعريف الخلف ٢: ٣٥٩ - ٣٦٣؛ عنوان الدراية ٩٤ - ٩٩؛ تاريخ الجزائر العامّ ٢: ٦٠ - ٦٢؛ تاريخ أعلام الجزائر ١٤٨ - ١٤٩؛ الأعلام للزركلي ٦: ٣١٧ (٨٦)؛ الطمّار ٩٥ - ٩٨؛ الأصالة ٤: ١٩ (ص ٢٨٢).

ابن الجنّان الشاطبي

١- هو فخرُ الدين أبو الوليدِ محمّدُ بنُ (الشريف، المشرَّف) سعيدِ بنِ هشامِ بن الجنّان الشاطبيُّ الحنفيَّ، وُلِدَ في شاطبةَ سَنَةَ ٦١٥ للهجرة (١٢١٨ - ١٢١٩ م).

قَدِمَ ابنُ الجنّانِ الشاطبيُّ إلى الشامِ وسَكَنَ دِمَشْقَ وصَحِبَ فيه كمالَ الدين عُمَرَ بنَ أحمدَ بنِ العديمِ (٥٨٨ - ٦٦٠ هـ) وابنَه مَجْدَ الدين فانتقلَ في صُحْبَتِهما من المذهبِ المالكيّ إلى المذهبِ الحَنَفي. وفي دِمَشْقَ درّسَ في المدرسةِ الإقباليّة. وكانتْ وفاتُه سَنَةَ ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ - ١٢٧٧ م).

٢- كانَ ابنُ الجَنّانِ الشاطبيُّ أديباً فاضلاً وشاعرا مُحسناً على الطريقة الصوفية.

٣- مختارات من شعره

- قال ابن الجَنّانِ الشاطبي في الأغراض الصوفية:

أفنانِيَ القَبْضُ عنّي حتّى تلاشى وُجودي[2].
وجاءني البَسْطُ يُحيي روحي بِفَضْلِ وُجودي[3]

(١) ولتفتكر (فكّر أنت في ما صار إليه أمر ملوك العرب). مضر: عرب الشمال. وملوك الصين، في التاريخ، لا صلة لهم بمضر.
(٢) القبض: حال يكون الصوفيّ فيها مجذوباً إلى الله (لا وجودَ شخصيًّا له).
(٣) البسط ضدّ القبض. يظلّ الصوفيّ في هذه الحال قريباً من لطف الله، ولكنّ الله يُبقي له وجوده الشخصي رحمة بالناس كيلا يفزعهم أن الإنسان يمكن أن يصل إلى تلك المرتبة.

فقُلْـــتُ للنفسِ : شُكراً ،   لـذاك بالنفسِ جودي[١] .
وقُمــتَ أشطَـح سُكْراً ،   فغِبْتُ عن ذا الوجود[٢]!

– وقال ٱبنُ الجنّان ، على الطريقة الصوفية (القدح المعلّى ٢٠٧):

خبَرٌ بأنفـــاسِ الريـــاحِ مُعَطَّرُ   وافَـى شَذاهُ فظِلْتُ منه أسْكَرُ[٣].
للهِ مـــا أحْـــلى شمائلَـــه الـــتي   جـاء النسيمُ بعَرْفِهـا يتَبَخْـتر[٤].
وافَـى وما في القوم من يَدْري به   إلّا فتًـــى في حُبّـــه مُتَنكِّرٌ[٥].
تُتْـــلى أحاديـثُ الغرام بقلبـهِ ،   ولِسانـــــهُ عمّـا به يَسْتَخبِر[٦] ،
حتّـى إذا غنّـى له الحادي بِهِم ،   وسَرَى لـه مِنْ نَشْرِ ليلى العَنْبر[٧] ،
هزّ المعاطـــفَ ثمّ راحَ مُوَلَّهـــاً   نَشوانَ في تلـك الصَّبابةِ يعثُر[٨]
– مُتَهتِّكـاً في العاشقين ، كما ترى –   يُبـدي الذي يُخفيه منه ويُضمِر .

– ولابن الجنّان أيضاً مقطّعات في مثل ذلك[٩]:

★ ذَكَرَ العُذيبَ فمالَ مِنْ سُكْرِ الهوى   صبٌّ على صُحُفِ الغرامِ قدِانْطَوى[١٠].

---

(١) إذا وصلت إلى مثل تلك الحال هان عليّ بذل نفسي (الاستغناء عن الحياة في هذه الدنيا).

(٢) الشطح: كلام على ظاهره رُعونة (خفّة وحمق وتصريح بما لا يجوز للعاقل أن يصرّح به). السكر: غيبة تحصل للصوفي إذا جاءه لطف من الله أخرجه من شعوره بما حوله.

(٣) الشذا: طيب الرائحة.

(٤) الشمائل جمع شمال (بالكسر): الخلق، السجيّة، الصفة.

(٥) وافى: جاء، وصل. فتى (يقصد الشاعر نفسه): الرجل الذي يعتمد عليه. في حبّه متنكّر: (يظنّ الناس أن حبّه مثل حبّهم – حبّهم ذلّ للمحبوب، وحبّه اعتزاز بالله).

(٦) مع أنّ حبّه في قلبه (قريب منه جدًّا)، فإنّه يتساءل عن هذا الحبّ (لأنّه مستغرب عند البشر).

(٧) الحادي: سائق القافلة يغنّي للمسافرين كيلا يَملّوا من طول الطريق. سرى: سافر ليلاً. النشر: الرائحة المنتشرة (الطيّبة). العنبر: مادّة طيّبة الرائحة. ليلى (كناية عن العزّة الإلّهيّة).

(٨) المعطف (بالكسر): رداء واسع يلبس اتّقاء للبرد. والشاعر يقصد العطف (بالكسر: الجانب الأعلى من الجسم). هزّ عطفه: افتخر وأُعجب بنفسه (لأنّ الله أنعم عليه بتقريبه – راجع البيت السابق). المولّه: الذي يكاد يُجَنّ من شَدّة الحبّ. نشوان: سكران. الصبابة: المحبّة. يعثر من الصبابة: إنّ المحبّة (محبّة الله) قد شَغَلته عن كلّ شيء حتّى أصبح يعثر (يقع) إذا مشى (أي غافلاً عن كلّ شيء آخر).

(٩) المعاني في القطع التالية صوفية تحتمل تأويلات مختلفة (راجع القطعة السابقة).

(١٠) العذيب: نبع ماء قرب ينبُع (بضمّ الباء). وينبع مرفأ المدينة المنوّرة.

يبكي عـلى وادي العَقيقِ بِمِثْلِهِ ... ويميلُ من طَرَبٍ بمُنعَطِفِ اللِّوى[(١)].
وبِمُهْجـتي معبودُ حُسْنٍ مِنهُمُ، ... فلذا على عَرْشِ القلوبِ قدِ آستوى[(٢)].
أوحى إلى قلبي الذي أوحى له. ... فعَجِبْتُ كيفَ نَطَقْتُ فيه عن الهوى[(٣)]!

★ يا رَعى اللهُ عَيْشَنا بينَ رَوْضٍ ... حيثُ مالَ السرورُ فيه نميلُ.
تحسَبُ النهرَ عنـدَه يَتَثنّى ... وتخالُ الغُصونَ فيه تميلُ.

★ لي حبيبٌ عن حُبّهِ لا أحولُ. ... إنّ شرحَ الغرامِ فيه يَطولُ.
قالَ لي عاذِلي: تَناسَ هواهُ. ... قُلْتُ: أنسى، يا عاذِلي، ما تَقولُ؟
لو ضَلِلْنا في فَتْرةٍ من هواه ... لَهَدانا مِنْ مُقْلتَيْهِ رَسولُ[(٤)]!

٤- ★★ الوافي بالوفيات ١ : ١٧٥ - ١٧٧ ؛ فوات الوفيات ٢ : ١٩٥ - ١٩٨ ؛ القدح المعلّى ٢٠٦ - ٢٠٩ ؛ المغرب ٢ : ٣٨٣ - ٣٨٤ ؛ بغية الوعاة ٤٥ - ٤٦ ؛ نفح الطيب ٢ : ١٢٠ - ١٢٣ ، ٣ : ٣٥٣ .

ابنُ الناظرِ القُرَشيُّ

١- هو أبو عليٍّ الحُسينُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ محمّدِ بنِ عبدِ العزيزِ بن أبي الأحوصِ القرشيُّ الفِهْريّ، أصلُه من بَلَنْسِيَةَ ومولدُه في جيّانَ سَنَةَ ٦٠٣ (١٢٠٦ - ١٢٠٧ م)، طَلَبَ العِلْمَ في عددٍ من بُلدانِ الأندلس: أخَذَ في غَرناطةَ عن أبي محمّدٍ الكوّابِ وفي إشبيلية عن عليِّ بنِ جابرٍ الدبّاج (ت ٦٤٦ هـ) ولازَمَ الشَلوبينَ (ت ٦٤٥ هـ) في الأدبِ

(١) وادي العقيق ومنعطف اللوى: مكانان (الأوّل منها قرب المدنية)، والثاني اسم عامّ.

(٢) معبود حسن (يقصد الله). وفي البيت إشارة إلى آياتٍ كثيرة في القرآن الكريم، منها (٢٠ : ٥ سورة طه): ﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

(٣) أوحى (الله) إلى قلبي.... هنا أيضاً إشارة إلى قوله تعالى في سورة النجم (٥٣ : ٣ - ٤): في حقّ محمّد رسول الله: ﴿وما يَنطِق عن الهوى، إنْ هو إلّا وحيٌ يوحي﴾.

(٤) الفترة: المدّة الفاصلة بين رسالتين. كان بين عيسى بن مريم ومحمّد رسول الله فترة (هدوء، مدّة لم يعرف البشر فيها ديناً منزلاً).

والنحو وأخذَ عنه أكثرَ كتابِ سِيبَوَيْهِ. وفي بَلَنْسِيَةَ أخذ عن أبي الربيعِ بنِ سالمٍ وفي مُرْسِيَةَ عن أبي العبّاسِ بن عيّاشٍ وفي جزيرةِ شُقُرَ عن الخطيب أبي بكرِ بنِ وَضّاحٍ وفي مالَقَةَ عن الحاجِّ أبي محمّدِ بنِ عَطِيّةَ وأبي القاسمِ بن الطَيْلَسانِ.

أقرأ ابنُ الناظرِ القُرَشيُّ القرآنَ والعَرَبيّةَ (النحو) والأدب في غَرناطةَ مُدّةً ثمّ انتقلَ إلى مالَقَةَ وتصدّرَ فيها للإقراء والتحديث وخَطَبَ في جامِعها بِضعاً وعشرينَ سَنَةً. ثمّ إنّه غادر مالقةَ إلى غَرناطةَ فوُلِّيَ القضاءَ في المَرِيّةِ وبَسْطةَ ومالَقَةَ (وهي تابعةٌ لِغَرْناطةَ).

وكانت وفاةُ ابنِ الناظرِ القُرَشيُّ في الرابعَ عَشَرَ من جُمادى الأولى من سَنَةِ ٦٧٩[1] (١٣/٨/١٢٨٠ م).

٢- كان ابنُ الناظرِ القُرَشيُّ من أهلِ المَعْرفة والدِّراية (العِلمِ بالحديث) والرواية الواسعة (للحديث) ومن القُرّاء والفُقهاء، كما كان نَحْويًّا أديباً وشاعراً. والقِطعةُ الواردة له هنا من لُزومِ ما لا يلزَمُ، وفيها شيءٌ من الإحسان. ثمّ هو مُصنِّفٌ له شرحُ المُسْتصفى (للإمام الغزّالي؟) وشرحُ الجُمَلِ (في النحو للزجّاجي؟)، إلى جانبِ مُصنّفاتٍ في القِراءات والحديث.

٣- مختارات من شعره

- قال ابن الناظر القرشيّ في الدنيا والآخرة:

رَغِبْـتُ عن الدنيـا لِعِلْمِيَ أنّها	مَحـلُّ حياةِ المرءِ فيه بَلاغُ[2].
وقد لاح في فَوْدَيَّ شَيْبٌ على الرّدى	دليلٌ، وفيه- ما أردْتُ- بلاغ[3].
وأمّلْـتُ من مَوْلايَ نِظْرَةَ رحمةٍ	يكون بهـا منّي إليـه بـلاغ[4]؛

---

(١) من بغية الوعاة (ص ٢٣٤) وهي مثبتة بالأحرف. وفي المرقبة العليا (ص ١٢٧): ٦٩٩ (ولكنّها مدوّنة بالأرقام).

(٢) رغبت عن الشيء: زهدت فيه وتركته. بلاغ كفاية (ما يتبلّغ به الإنسان كي يبقى حيًّا).

(٣) الفود: الشعر في جانب الرأس. الردى: الموت. بلاغ: بيان، انذار.

(٤) مولاي: ربّي (الله). بلاغ: وصول (إلى الجنّة).

فأحْظى إذا الأبرارُ قيل لهم غداً: هَلُمّوا إلى دارِ النعيمِ فراغوا[1].
رأيتُ بَنيها ما رَمَتْهُمْ سِهامُها فطاشَتْ، ولا حُمّ الحِمامُ فراغوا[2].
فعُجْتُ إلى دارِ البقاء بهِمّتي، فعِندِيَ عنها راحةٌ وفَراغُ[3].

٤ - ★★ المرقبة العليا ١٢٧ ؛ بغية الوعاة ٢٣٤ ؛ نفح الطيب ٢ : ٥٣٦ ، ٥٤٠ ، ٥٥٠ ، ٥٧٥ ؛ الأعلام للزركلي ٢ : ٢٦٠ (٢٤١).

سعيد بن حكم القرشيّ

١ - هو الأميرُ الرئيسُ أبو عُثمانَ سعيدُ بنُ حَكَمِ بنِ عُمَرَ بن أحمدَ بنِ حكمِ بنِ عبد العزيز بنِ حكمٍ المُعافريُّ القُرَشيّ الطَّبيريُّ، أصلُه من طَبيرةَ[4]- من غربيِّ الأندلس- وبها مولدُه في سادسِ جُمادى الآخِرةِ من سَنَة ٦٠١ (٢٩/١٩/١٢٠٥ م).

تطوّف سعيدُ بنُ حكمٍ في الأندلس مُدّةً ثمّ آستقرّ في مدينةِ إشبيليةَ وقرأ فيها الموطّأ على أبي الحُسين (أبي الحسن؟) بن زَرْقونٍ وعلى أبي عليٍّ الشلوبين (ت ٦٤٥ هـ). ولكن يبدو أنّه لم يكن على وِفاقٍ معَ والي إشبيلية من قِبَلِ الموحدين فآنتقل إلى العُدْوَةِ المَغْربية فجاء إلى سَبْتَةَ ثم جال في إفريقية (تُونس) والمَغْرب. بعدئذٍ آستقرّ مُدّةً في تونسَ الحاضرةِ ثمّ جاء إلى جزيرة مَيورقةَ[5]، وذلك قبلَ أن يتغلّبَ عليها الإسبانُ في مُنْتَصَف صَفَرَ من سَنَةِ ٦٢٧ (٢/١/١٢٣٤ م). وقد كان له شيءٌ من الإشراف في

---

(١) هلمّوا: تعالوا (بفتح اللام)، أسرعوا. دار النعيم: الجنّة. راغ يروغ: مال، جاء إلى.
(٢) بنوها (بنو الدنيا): الناس. طاش: حاد عن الهدف، أخطأ الهدف. سهامها (سهام الدنيا، سهام المنية أو الموت).- كانت سهامها دائماً مصيبة (لم ينج أحد من الموت). حمّ: قرب. الحمام: الموت. راغ: حاد (نجا).
(٣) عاج مال، قصد. دار البقاء: الآخرة (في مقابل دار الفناء: الدنيا). فراغ: خلاء البال.
(٤) يذكر حسين مؤنس (الحلّة السيراء ٢ : ٣١٨، الحاشية) مدينتين باسم طبيرة، إحداهما على بعد كيلومترين من مصبّ نهر منديق في منتصف الساحل الغربي من البرتغال اليوم. والثانية قرب الساحل الجنوبيّ عند منتصفه. والذي يغلب على الظنّ أن هذه البلدة الثانية هي التي ولد فيها سعيد بن حكم.
(٥) إلى الجنوب الشرقي من الأندلس أرخبيل فيه ثلاث جزر ذوات أحجام ظاهرة: ميورقة (الكبيرة) ومنورقة (الصغيرة) ويابسة.

جزيرة مَيورقةَ. ثمّ إنّه جاء إلى جزيرة مَنورقةَ عاملاً (أميراً على جمع الضرائب). وفي أيام دولته في منورقةَ آشتغلَ بالحديث على المُحدِّثِ أبي الحُسين يوسفَ بنِ مُفَوِّزٍ.

ولمّا آختلّ أمرُ الموحدين وآستولى الإسبان على ميورقةَ آستطاع سعيدُ بنُ حكمٍ أن يَحولَ بينَهم وبين الآسْتيلاءِ على مَنورقةَ بشيءٍ من المُداراة وبدَفْعِ جزيةٍ سنويّةٍ. وكان النافذَ في مَنورقةَ محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ هشامٍ، وكان أمرُ المُوحِّدين قد ضَعُفَ وآفترقتِ الكَلِمة- فآستبدَّ سعيدُ بنُ حكَمٍ بأمرِ الجزيرة في ثاني شوّالٍ من سَنَة ٦٣١ (١٢٣٤/٧/١ م) ثمّ آستمرّ في حُكْمِها حُكْماً عاقلاً صالحاً حتّى كانتْ وفاتُه[١] في السابعِ والعِشرينَ من رَمَضانَ من سَنَةِ ٦٨٠ (١٢٧٢/١/٩ م).

٢- كان سعيدُ بنُ حكمٍ القُرَشيُّ حازماً في الإدارة شديدَ القَسوة في العُقوبة يقتُلُ على شُرب الخمرِ، عاتبَه في ذلك أستاذُه آبنُ مُفوّز، فردَّ عليه بقوله (أعمال الأعلام ٢٧٦): «يا فقيهُ! هذه الجزيرةُ كثيرةُ العِنَب. والناسُ يشربون الخمرَ بها ويسكرون فيُضيعون الاحتراسَ فيظهَرُ (يتغلّب) علينا العدوُّ». وكان مَعَ ذلك مُحْسناً إلى الأفراد وإلى الجماعات: يفُكُّ الأسرى ويتصدّقُ على المُحتاجين وينصُرُ المظلومين.

وَهُوَ من العُلماء والأُدباء وذو حظٍّ وافرٍ من رِواية الحديث. ثمّ هو أيضاً ناثرٌ شاعرٌ شديدُ الأخذِ بالصِّناعة في نثرِه خاصّةً كثيرُ المَيْل إلى الإلغاز في الأشياء المُختلفة نظْماً ونثراً. وفنونُ شِعرِه النسيبُ والحِكمة والمدحُ والوصف. وأبرز فنونِ نثرِه الترسُّلُ.

٣- مختارات من آثاره

- من رسالةٍ كتب بها سعيدُ بن حكم القرشي[٢]:

أمْتَعَ اللهُ بكَ، أيُّها الوَلِيُّ الكريمُ الوفيُّ الصميمُ الشريفُ أباً المنيفُ حَسَباً وصَنَعَ لك وبلّغكَ أَمَلَكَ. يَخُصُّكَ بالثناءِ- الطيّبِ كثَنائكَ، الصيِّبِ كوفائك- مُجِلُّكَ

---

(١) من زامباوّر (ص ٩٢)، وفي أعمال الأعلام (ص ٢٧٦): في حدود ٦٨٠.

(٢) يبدو أن سعيد بن حكم كتب بهذه الرسالة إلى أحد أمراء الحفصيّين في تونس: أبي زكريّا يحيى (٦٢٦ - ٦٤٧ هـ) أو ابنه أبي عبد الله محمّد (المستنصر) الأوّل (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ).

بالحقّ الواجب ومُحِلُّك مِنَ الوُدِّ بينَ الترائبِ[1] سعيدُ بنُ حَكَمٍ. ولا جديدُ إلاّ عِنايةُ الله تعالى وكِفايتُه ووِقايتُه- سُبْحانَه- (والتي) هي خيرٌ من دِفاعِنا- وحمايتُه[2].

وقد وَرَدَتِ الحَديقتانِ الأنيقتان والرَّوْضتان الغضّتان تعْبَقانِ إذ تُنَشّقانِ وتَروقان لما[3] تَرْمُقان. والحُسْنُ من مَرْآهما يَسْفِرُ والدَّجْنُ ينجلي من سناهما إذا يُسْفِر[4]. سبقتْ أُولاهما كالبُشْرى، ونُسِقَتْ بعدُ على أثَرِها الأُخرى.... وجاءتا خفيفتَي المحمَلِ لطيفتَيِ المُجْمَل... فللهِ مُهدِيهما ومُطْلِعُهما نَيِّرَتَيْنِ[5]. لقد أوجبَ بِبِرّهما حقًّا كبيرا، وحمّلَ من شُكرِهما ما يثْقُلُ ثَبيرا[6]. واللهُ يتولّاه ويحفَظُ عليه من الحَلْيِ ما أَوْلاه[7].......

- وقال مُلْغِزاً في شمعة:

ما جميلةُ المَرآةِ صقيلةٌ كالمِرآة مُنتصبةٌ كالقَناة[8] مرتَقَبَةٌ من الأذان بالعِشاء للأداة[9]. مَعَ الاستعمال قريبةُ الحياةِ، وعلى العُطْلة والإغفال بعيدةُ الوفاة[10]. مُنهلّةٌ وليستْ بغمامة، مُستقلّةٌ ولكن بدِعامة[11]. ومَعَ كَوْنِها تَهْمي بدُرَرٍ (فإنّها) ترمي

---

(١) مجلّك: محترمك. محلّك: منزلك (بالضمّ). الترائب: عظام أعلى الصدر (بين الترائب: في القلب).

(٢) حمايته معطوفة على وقايته.

(٣) هذه الرسالة شكر على هدية: حديقتان وروضتان (؟). أنيق: جميل. غضّ: طريّ. عبق (بفتح فكسر) الطيب:.... انتشرت رائحته. راق يروق: حسن في العين. رمق: نظر. لما (؟): حينما (؟).

(٤) يسفر: يظهر حسنه وجماله. الدجن: الغيم (النهار الذي يقل فيه النور لكثرة الغيم). السنا: الضوء الساطع. يسفر: يشرق. لعلّ الهديّة كانت شمعتين.

(٥) المجمل (بالجيم): الجسم أو الحجم. نيّرتين: مضيئتين.

(٦) برّهما: طاعتهما (الشكر عليهما). يثقل: يزيد في الثقل على ثبير (اسم جبل).

(٧) الحلى: النعم. ما أولاه: أسبغ عليه (أعطاه) من النعمة.

(٨) المرآة (بفتح الميم): المرأى، المنظر. (وبكسر الميم): صفحة مصقولة من معدن أو صفحة من زجاج مغشّى أحد وجهيها يرى الناظر فيها نفسه. القناة: القصبة، الرمح.

(٩) مرتقبة: منتظرة. من الأذان بالعشاء (قبل أذان العشاء!) للأداة (؟).

(١٠) إذا أضاءها الإنسان كثيراً ذابت بسرعة، وإن لم يضئها كثيراً طالت حياتها.

(١١) منهلّة: يتساقط منها نقاط كالدموع (من الشمع الذائب بحرارة نورها). مستقلّة: ناهضة، منتصبة. بدعامة (على دعامة: شمعدان).

بشَرَر [١].... وليستْ من بيتِ النُبُوَّةِ وإن كان قد أُوحِيَ إلى آبائها [٢].... تُرْضِعُ آبناً لم تَلِدْهُ ذا عُقوق، يُسْرِع إلى أذاتها غيرَ فَروق [٣]... تقومُ لَيْلَها تهجُّداً، وتُريك ابتساماً دائماً وتجلُّدا [٤].....

- وقال سعيدُ بنُ حَكَمٍ يَصِفُ عادتَه في الإحسان إلى الناس:

لا تَـمْـنَـعِ المعروفَ يو ... ماً مُعْرِضاً ومُعَرِّضا [٥].

فكِلاهُما من حَقِّـــــه ... فيـه لـه أن يُفْرَضا [٦]:

هـــــذا تَنَزَّهَ فاسْتحقْ ... قَ عـلى نَزاهتهِ الرِّضا [٧]؛

والآخرُ اسْتَحْيا مِنَ التْ ... تَصْريحِ فيـه فَعَرَّضا.

هـذا الـذي ما زِلْتُ أفْ ... عَـلُ أو أقولُ مُحَرِّضا.

- وله في الحقد:

الحقـــدُ داءٌ في القلوبْ، ... والصَفْح منه هو الطبيبْ.

فاحلُمْ عنِ الجـــاني فقــد ... يدعوه حِلْمُك أنْ يتوبْ.

وآنْسَ الذنوبَ، فإنّما ... ذِكْرُ الذُنوبِ من الذنوبْ.

- وقال في النسيب:

إنّي لأَكْلَـفُ باسْمِها كَلَفي بها. ... فانظُرْ، فهـذا للعَفاف شِعارُ [٨].

---

(١) تهمي بدرر (يسيل من أعلاها نقاط كاللؤلؤ، كأنها نقاط ماء من المطر). ترمي بشرر: يصدر منها نور (يراه ضعيف البصر خيوطاً متّجهة إلى كلّ جهة).

(٢) يصنع الشمع الفاخر من المادّة «الشمعية» التي تهيّئه النحل أقراصاً ذوات مسدّسات لتخزن فيها العسل. وفي القرآن الكريم: ﴿وأوحى ربّك إلى النحل﴾ (١٦ : ٦٨ سورة النحل).

(٣) ترضع ابناً (تمدّ أو تزوّد الفتيل الذي في وسطها بالمادّة التي تمكّنه من الإضاءة. ذو عقوق (عصيان) لأنّ إضاءته يذيب جسمها (من الشمع) فكأنّه يقتلها. فروق: خائف.

(٤) تقوم (تسهر) الليل تهجّداً (في العبادة). ابتساماً (من إشراق نورها) وتجلّدا على احتمال حرّ الاحتراق.

(٥) المعرض: الذي يبدي إباء لأخذ الصدقة. المعرّض (بتشديد الراء): الذي يشير من طرف خفيّ إلى طلب الصدقة.

(٦) أن يفرض له (نصيب من الزكاة).

(٧) تنزّه: ترفّع (عن طلب الصدقة).

(٨) كلف (بفتح فكسر) بالشيء (تعلّقت نفسه به).

وإذا أمُرُّ بدارِهــا فكأنّهــا قـد دَرَّ فيها الوابِلُ المِدرار[1].

غابتْ فأبْكي بعدَها شَوْقاً لها، والشمسُ تهمُل بعدَها الأمطار[2].

تـاللهِ، ما لَمَحَتْ جفوني – مُذ نأتْ – نُوراً. وهـل بعـدَ المَهاةِ نَهار[3]؟

بيضـاءُ تحسَبُ أنّهـا من فِضّـة، في الخَـدّ منها للحياءِ نُضار[4].

مالـتْ معاطِفُهـا ولاَنَ حَديثُهـا؛ أيكونُ عن خمرِ الجُفونِ خُمار[5]؟

لو لم تُحَلَّ، لَكان حَلْياً ثَغْرُها. إنّ الغصونَ حُلِيُّهــا النَّوّار[6].

تَخْشى البريّـةُ مُقْلَتَيْها غيْرَهـا. أيهـابُ سَوْرَةَ نَبلـهِ الأُسْوار[7]؟

– وقال يصف شمعة:

وصَفْراءَ من غـيرِ مـا عِلّـةٍ لهـا أدْمُـعٌ أبـداً سائلـهْ.

تُطيــلُ الوقوفَ عــلى واحـدٍ مَــدى لَيْلهـا فترى ناحِلـه.

تَزيـدُ عـلى الشمسِ في نورِهـا إذا ما غَدَتْ للدُّجى واصله[8].

تُحـارِبُ دأبـاً جيوشَ الظَـلامِ فتُبْصَرُ مقتولــةً قاتلـــه.

---

(١) درّ: جرى. الوابل: المطر الشديد. المدرار: الكثير الماء.

(٢) تهمل (بفتح التاء ثمّ كسر الميم أو ضمّها) تسقط بكثرة. إذا احتجبت الشمس بالغيوم كان ذلك بشارة بسقوط المطر.

(٣) المهاة: البقرة الوحشية، الشمس (المعجم الوسيط ٨٩٧). وهل بعد المهاة (بعد غياب الشمس) يمكن أن يبقى النهار طالعاً (أو النور موجوداً).

(٤) خدّها أبيض كالفضّة ولكّن حياءها (الذي أصبح عادة لها) يكسب وجهها حمرة كلون النضار (الذهب)، مع أن الذهب الخالص أصفر لا أحمر (ويجيء احمرار الذهب المألوف في العملة وفي الحليّ من مزجه بالنحاس).

(٥) العطف (بالكسر) والمعطف (بكسر الميم وفتح الطاء): الطرف الأعلى من الجسم. الخمار: السكر. – هل يمكن الإنسان أن يسكر من نظرات المرأة الجميلة؟

(٦) تحلّى: تتزيّن بالحلى. لكان ثغرها (أسنانها التي تشبه اللؤلؤ)... النوّار: الزهر الأبيض. في الغصون تورية (فروع الشجرة، والقوام المعتدل).

(٧) البرية: مجموع البشر. غيرها: غير هذه المرأة (على الاستثناء). أيهاب (أيخاف) سورة (شدّة) نبله وسهامه الأسوار (الفارس).

(٨) يقصد: أن نور الشمعة يكون أقوى من نور الشمس إذا اقتربت الشمس من مغيبها.

- قال سعيدُ بنُ حكمٍ في الملوك الذين لا يحكُمون حُكْماً صحيحاً عادلاً:

إنّي لأعْجَبُ من ملوكٍ أصبحوا وهُمُ موالٍ أعبـدَ الشَّهَواتِ[1].
الأطْيَبـانِ مَرادُهم ومُرادُهم: أرَبُ الفُروجِ وإرْبَـةُ اللَّهوات[2].
لو وُفِّقوا وَقَفوا اجتماعُهُمُ عـلى نَفْيِ الهوى فَضْلاً عن الخَلَوات[3]
مرّتْ سِنونَ وهُمْ مِـلاكٌ للوَرى. يـا لَيْتَهم مَرّوا مَـعَ السنوات[4]!

- ومرّت به في أيامِ صِباهُ امرأةٌ جميلةٌ، كان زَوْجُها شُرْطيًّا، فقال:

وجَنّـةٍ خازِنُهـا مالـكٌ، يـا لَيْتَـني كُنتُ لها مالِكا[5]،
أسْجُـدُ في مِحرابِهـا سَجْـدةً نُسْكاً؛ ومِثْلي لم يَزَلْ ناسكا[6].
وكيـف أرجو القُرْبَ منها وقـد أضحـى حُساماً لَحْظُها فاتكا[7]!
إنّ أمـانيَّ الفَـتي ضِلّـةٌ يُمْنـى بهـا حتّـى يُرى هالكا.
من لي بهـا شمسَ الضُحى أطْلَعَتْ جُنْـحَ دُجًى من شَعَرِها حالكا[8].
سَلَكْـتُ سُبْـلَ الغَيِّ في حُبِّهـا، ولم أكن قبـلُ لهـا سالكـا.

٤- ★★ المغرب ٢: ٤٦٩؛ القدح المعلّى ٢٨-٤١؛ الوافي بالوفيات ١٥: ٢١٢-٢١٣؛

---

(١) موال (جمع مولى): تابعون. أعبد جمع قلّة من «عبد».

(٢) الأطيبان: الطعام والنكاح. الأرب: الحاجة. الإربة: البُغية، المطلب. اللهوات جمع «لهاة» (بفتح اللام): الهنة التي في أول الحلق. المقصود: الفم.

(٣) لو كانوا ناجحين في الحكم لجعلوا همّهم ترك هوى نفسهم (أهواءهم الشخصية) وخصوصاً خلواتهم الصحيحة (كثرة الاهتام بالنساء).

(٤) مرّ زمن طويل وهم ملاك (قوام، وهم كلّ شيء في حياة الورى: الناس). يا ليتهم مرّوا كما مرّت السنوات (ماتوا).

(٥) الجنّة خازنها (بوّابها) رضوان (بكسر الراء). ومالك خازن جهنّم. ولكّن هذه المرأة الجميلة، وهي جنّة، لها خازن (زوج) هو مالك (لأنّه شرطيّ موكّل بعقاب الناس. يا ليتني كنت لها مالكاً (زوجاً شرعيًّا).

(٦) أسجد في محرابها.... (الكناية الملموحة واضحة، ولكن يمكن أن تكون قبيحة).

(٧) ولكنّ الذي يمنعني من قربها ليس زوجها الشرطيّ، ولكن عيونها.......

(٨) شمس يجوز فيها النصب (تمييزاً) والجرّ (بدلاً من« ها »)، والرفع (خبر لمبتدأ محذوف). الجنح: قسم، مدّة من الليل. الدجى: الظلام. الحالك: الشديد السواد. - هي شمس (بلونها الأبيض) تضيء النهار، ولكّن شعرها الأسود يجعل من النهار جانباً مظلماً.

الحلّة السيراء ٢ : ٣١٨ - ٣٢٠ ؛ الذيل والتكملة ٤ : ٢٨ - ٣٣ ؛ أعمال الأعلام ٢٧٥ - ٢٧٦ ؛ بغية الوعاة ٢٥٥ ؛ نفح الطيب ٤ : ٤٧١ - ٤٧٢ ؛ راجع أزهار الرياض ٣ : ٢١٥ - ٢١٨ ؛ الأعلام للزركلي (٣ : ٩٣).

ابن معمّر الهوّاري

١ - هو أبو عليٍّ الحسنُ بنُ موسى بنِ مُعَمَّرٍ الهَوّاريُّ الطرابُلُسيُّ وُلِدَ في طرابُلُسَ، سَنَةَ ٦٠٩ هـ (١٢١٢ - ١٢١٣ م). قرأ ابنُ مُعمَّرٍ مدّةً يسيرةً في طرابُلُسَ ثمّ رَحَلَ إلى المهديّةِ وقرأ على الفقيه أبي زكريّا يحيى البَرْقيّ (ت ٦٤٧ هـ). ثمّ إنّه انتقل إلى مدينةِ تُونِسَ في أيامِ المُستنصر بالله (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ). وقد تولّى القضاءَ في باجةَ وبِجايةَ وغيرِهما، كما تولّى خُطّةَ العَلامة الكُبرى والنَّظَرَ في خِزانة الكُتُبِ. ثمّ وقعت بَينَه وبينَ المُستنصر وحشةٌ فنفاه المستنصرُ إلى المهدِيّة (من أواخر ٦٦٧ إلى أخر ٦٦٨ هـ). عادَ بعدَ ذلك إلى تُونِسَ وإلى رِئاسَةِ خزانةِ الكتب. وكانت وفاتُه في تُونِسَ، في جمادى الآخرة (*) من سَنَةَ ٦٨٢ هـ (أيلول - سبتمبر ١٢٨٣ م).

٢ - كان ابنُ مُعمَّرٍ الهوّاريُّ فقيهاً وخطيباً ومُناظراً، كما كان شاعراً رقيقاً يتوفّرُ على الأغراضِ الوُجدانية. وشِعْرُه سهلٌ واضحٌ صحيحُ التركيب.

٣ - مختارات من شعره

- قال ابنُ مُعمَّرٍ الهوّاريُّ من قصيدةٍ له في النسيب:

لولا احورارُ جُفونٍ أُودِعَتْ سَقَما ... ما أمْطَرَتْ سُحْبُ أجفاني الدموعَ دَما[١]

ولا وَقَفْتُ أُصَيْلاناً برَبْعِكمُ ... ولا سَقَيْتُ رُباه مِنْ دَمي دِيَما[٢].

شَمْلُ السرورِ شَتيتٌ بعدَ بَيْنِكمُ، ... وطالما كان قبلَ اليوم مُلْتَئِما[٣].

---

* في نفحات النسرين والريحان (ص ٩٣): في التاسع من جمادى الأولى.

(١) الاحورار: شدّة سواد العين مع شدّة بياضها.

(٢) أصيلاناً = أصيلاً: قريباً من غروب الشمس. الديمة: الغمامة الممطرة.

(٣) البين: البعد، البعاد.

البَيْنُ يقطَعُ منه كلَّ مُتّصل، والشَّوْقُ يَنْثِرُ منه كلَّ ما انتظما.
يا مَنَ يلومُ على ما جَلَّ من أسَفي، هذا اليسيرُ من الأمرِ الذي كُتِما!
أُنْبِيكُمُ أنّني من يوم بَيْنِكُمُ ما زِلْتُ لِلسُّهْدِ والتَّذكار مُلْتزما.
أرتاحُ إنْ هَبَّ ريحٌ من جَنابِكُمُ أو لاح برقٌ بذاك الأُفْقِ وابتسما.
أمَا ومَنْ قَدّرَ الأشياءَ مُقْتَدِراً وحُبِّكُمْ - وكفى بالحُبِّ لي قَسَما - [1]
ما رامَ قلبي اصطباراً بعدَ بُعْدِكُمُ ولا تأخّرَ بي مِنْ وَجْدِه قَدَما[2]!

- وكان ابنُ مُعمَّرٍ محبوساً مَعَ صديقه مُحمّدِ بنِ يحيى الفضيلي ثمّ أُطْلِقَ سراحُه قبلَ الفُضيلي، فكتب إلى الفضيلي ببيْتَيْنِ:

لَئِنْ سرّني فَكُّ الإسارِ مِنَ الحبسِ، لقد ساءني فَقْدي لِما فيه من أُنسي.
ولو أنّني خُيِّرْتُ فيما أُريده، لآثَرْتُ تقديمي سَراحَكَ عن نفسي.

٤ - ** عنوان الأريب ٧٠ - ٧٢؛ نفحات النسرين والريحان ٩٢ - ٩٦؛ رحلة التجاني ٢٧٤ - ٢٨٠؛ أعلام من طرابلس ٧٥ - ٨٤.

محمّد بن موسى المزاليّ

١ - هو الشيخُ شمسُ الدين أبو عبدِ الله مُحمّدُ بنُ أبي عِمرانَ موسى بنِ النُّعمانِ المُزاليُّ التِّلمِساني الفاسيّ المَرّاكُشي الهِنْتاتي الإشْبيليّ، وُلِدَ في تِلِمْسانَ، سَنَةَ ٦٠٦ هـ (١٢٠٤ - ١٢٠٥ م) أو سنة ٦٠٧.

رَحَلَ المُزاليُّ إلى مِصْرَ فَسَمِعَ في الإسكندريةِ من أبي عبدِ الله الحَرّانيّ وأبي القاسمِ عبدِ الرحمنِ بنِ عبدِ المجيدِ الصُّفراويّ (٥٤٤ - ٦٣٦ هـ) وسَمِعَ بِمِصْرَ (القديمة) من أبي

---

(١) ومن قدّر الأشياء (الواو: للقسم. من قدّر الأشياء: أي الله تعالى). حبّكم (مجرورة على أنّها قسم، أو على أنها معطوفة على قسم).
(٢) رام: طلب. من وجده (من كثرة حبّه لكم). قدما: مقدار قدم.

حسنٍ الصابونيّ وابن الطُفيل وابن المُقيِّر. وكانتْ وفاتُه في مِصْرَ، سَنَةَ ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ - ١٢٨٥ م).

٢ - كان محمّدُ بنُ موسى المُزاليُّ فقيهاً مالكيًّا وزاهداً عابداً عارفاً (صوفيًّا). وله شِعْرٌ على الطريقةِ الصوفيةِ سَهْلٌ حَسَنٌ. وكان مُصنِّفاً له كتاب «مِصباحُ الظلام في المُستغيثين بخير الأنام في اليَقَظة والمنام». (يبدو أنه ألّفه سَنَةَ ٦٣٩ هـ).

٣- مختارات من شعره:

- قال محمّد بن موسى المُزاليُّ في ليلى (العزّة الالّهية):

أتَطْمَعُ أن تَرى ليلى بعينٍ ... وقد نَظَرَتْ إلى حَسَنٍ سِواها[1].
سِواها لا يَروقُ الطَّرْفَ حُسْناً. ... وأوْصاف الجمال لها حِماها[2].
حِماها مَنْزِلُ الأحبابِ قِدْماً، ... وإن كان الجمالُ لها حَماها[3].
أتَنْظُرُها بعينٍ بعدِ عينٍ، ... فتلك العينُ تَمْنَعُها قَذاها[4].
قذاهَا إنْ أردْتَ يَزولُ عنها، ... بعينِ الدَّهْرِ غيرَكَ لا تراها[5].

٤ - ★★ الوافي بالوفيات ٥: ٨٩؛ بروكلمن، الملحق ١: ٦٦٥.

---

(١) - لقد أعجبك في هذه الدنيا أشياء حسنة، ولذلك لن تستطيع أن ترى ليلى (العزّة الالّهية).

(٢) - كل ما رأيته ليس جميلاً في الطرف (العين). وجمال ليلى العظيم (غير المألوف) حمى لها (مانع من رؤيتها).

(٣) حماها: منزلها هو منزل المحبوبين القدامى (الذين لا يجوز لأحد أن يحبّ أحداً بعدهم). وجمالها العظيم يحميها (يمنع أعين البشر) من رؤيتها.

(٤) أتنظرها (أي ليلى: العزّة الإلّهية) بعين (مادّية، بعين جسمك) بعد عين (عين قلبك؟) فهذه العين الجسمية يجتمع فيها عادة قذى (وسخ) يمنعها أن ترى الألوهيّة).

(٥) - إذا أردتّ أن يزول القذى (الوسخ، العمش) من عينيك لتستطيع أن ترى ليلى، فحينئذ لا ترى أحداً غيرك (لا ترى إلّا نفسك).

أبو البقاء صالح بن شريف الرُّنديّ

١ - هو أبو البقاء (أو أبو الطيّب)[١] صالحُ بنُ يزيدَ بنِ صالحِ بنِ موسى بنِ أبي القاسمِ بنِ عليٍّ بن شريفٍ[٢] الرُّنديّ الأندلسيّ من أهل رُنْدَةَ (في الجزيرةِ الخضراء، بين مالَقَةَ وشَريشَ).

تلقّى أبو البقاءِ الرنديُّ العلمَ على أبيه وعلى نَفَرٍ منهم أبو الحسن الدبّاجِ وابنُ الفَخّارِ الشريشيُّ وابنُ قطرالَ وأبو الحسن بنُ زَرْقونٍ وأبو القاسم بنُ الجَدِّ التونسيّ. ويبدو أنّه كان مُنقطعاً إلى بني الأحمرِ كثيرَ التردّدِ على غرناطةَ، كما أنّه قد أقامَ حيناً في مالَقَةَ. ولعلّ وفاته كانتْ في سَنَةِ ٦٨٤ (١٢٨٥-١٢٨٦م).

٢ - كان أبو البقاءِ الرنديُّ حافظاً للحديثِ وفقيهاً وفَرَضِيًّا ومُشاركاً في الحسابِ ثمّ كان بارعاً في منظومِ الكلامِ ومنثوره مجيداً في المدح والغَزَلِ خاصّة والزُّهْدِ والوصفِ. ولكنّ شهرتَه تَرْجعُ إلى قصيدته «لكلِّ شيءٍ إذا ما تمّ نُقصانُ» وقد نَظَمَها بعد ضَياعِ عددٍ من المُدنِ الأندلسية مِنها: بَلَنْسِيَة (٦٣٠ هـ) وقُرطبةُ (٦٣٦ هـ) وجَيّان (٦٤٤ هـ) وشاطِبَةَ (٦٤٥ هـ) وإشبيلية (٦٤٦ هـ) ومُرسِيَةَ (٦٦٨ هـ). هذه القصيدةُ تجمعُ بينَ العاطفةِ المكلومةِ والسُهولة المتناهية والسَّرْدِ المَنْطِقي.

وكان أبو البقاء الرندي مُصَنِّفاً ألّفَ في الفرائضِ (تقسيم الإرث) نظماً ونثراً. وله أيضاً مقاماتٌ بديعة. ومن كُتُبِهِ: روحةُ الأُنس ونُزهة النفس - مختصر في الفرائض - الوافي في نظم القوافي (في البلاغة والنقد وطبقات الشعراء وعَمَلِ الشعر وفي فنون الشعر وخصائصها المُستحَبّة. ولكنْ يبدو أن الكتابَ قليلُ الابتكارِ وأنّ غايةَ الرُّنديّ فيه كانت جمعَ الخصائص المشهورة من كتب النقد المختلفة. وكان اتّكاؤه على

---

(١) في الإحاطة (مطبعة الموسوعات بمصر ١٣١٩ هـ، ١ : ٣٠٣، وفي طبعة محمد عبد الله عنان، مصر - دار المعارف، ١ : ٤٨٤): الطيبب (بباءين).

(٢) في سياقة نسبه شيء من الخلاف. وقد جعله محمّد رضوان الداية (تاريخ النقد الأدبي في الأندلس»، ص ٤٣٢): النفّري (بنون مكسورة وفاء مشدّدة مفتوحة) نسبة إلى مدينة نفّر في جنوبيّ العراق. والصواب النفزي (بنون مفتوحة وفاء ساكنة وزاي منقوطة: اسم قبيلة مغربيّة)، هذا إذا كان، الرندي منسوباً إلى تلك القبيلة.

ابنِ رشيقٍ واضحاً).

وكتاب « الوافي في نظم القوافي » يجمع بين[1] النقد والبلاغة وشيءٍ من الأخبار الأدبيّة الأندلسيّة وطائفةٍ من شِعرِ المؤلّف، وهو أربعةُ أجزاءٍ. الجزءُ الأوّل في فضل الشعر ومن تكلّم به وأثابَ عليه. ثمّ في الشعراء وطَبَقاتهم، ثمّ في عَمَل الشعرِ وآدابهِ ثمّ في أغراض الشعر من المديح والتهْنئة والرِّثاء والاعتذار والعِتاب والهجاء والوصف. والجزء الثاني في محاسنِ الشعر وبديعه ومعانيه مِنَ الابتداء والانتهاء والاستطراد والمُطابقة وما يُناسِبها من المُقابلة ثمّ التشبيهِ والاستعارةِ والتجنيس والتضمين والمُبالغة والتَسْهيم (التقسيم والترتيب) والتسجيع والتسميط (الشبيهِ بالتوشيح). والجزء الثالث في عيوب الشعر من الإخلال أو سوء اللفظ وسوء التركيب والترتيب - عُيوبِ السَّرِقة - أكان الأخذُ من شاعرٍ آخَرَ قصداً أو عفواً - ثمَّ الضَّرورةِ (أو الرُّخَصِ في الشعر مّما يَدُلُّ على ضَعْف الشاعر في صِناعة الشعر). والجزء الرابع في حدّ الشعر وفي العَروض والقوافي وفي بحور الشعر الأصلية (الخَمْسَةَ عشَرَ) والبحور المُهملة.

٣- مختارات من آثاره

- رثاء الأندلس. قال أبو البقاءِ الرُّنديُّ هذه القصيدةَ يستَنْصِرُ أهلَ العُدوة الإفريقيّة من بني مَرينٍ، لمّا جعل ابنُ الأحمر (محمّدٌ الغالبُ بنُ يوسفَ أوّلُ سلاطين غَرناطة) يتنازلُ للإسبانِ عن عددٍ من القِلاع والمُدن استرضاءً لهم وأملاً في أن يبقى له حكمُه المُقَلْقَلُ على غَرْناطة:

لِكُلِّ شَيْءٍ إذا ما تَمّ نُقْصانُ ... فلا يُغَرَّ بِطِيبِ العيشِ إنسانُ.
هِيَ الأمورُ كما شاهدْتَها دُوَلٌ[2]، ... مَنْ سَرّه زَمَنٌ ساءَتْهُ أزمانُ.
وهذهِ الدارُ[3] لا تُبْقي على أحَدٍ، ... ولا يدومُ على حالٍ لها شان:

---

(١) من « تاريخ النقد الأدبي في الأندلس » لمحمّد رضوان الداية (ص ٤٣٥ وما بعد).

(٢) الدولة (بفتح الدال أو بضمّها): انقلاب الأمر مرّة بعد مرّة (مرّة لهؤلاء ومرة لأولئك).

(٣) هذه الدار: هذه الدنيا.

يُمَزِّقُ الدهرُ حَتْماً كُلَّ سابِغَةٍ إذا نَبَتْ مَشْرِفِيّاتٌ وخرصان[١]؛
ويُنْتضَى كلُّ سَيْفٍ للفناءِ، ولو كان ابنَ ذي يَزَنٍ والغِمْدُ غُمْدان[٢].
أينَ الملوكُ ذوو التيجانِ من يَمنٍ، وأينَ منهم أكاليلٌ وتِيجان[٣]؟
وأينَ ما شادَهُ شَدّادُ في إرَمٍ؟ وأينَ ما ساسَهُ في الفُرْس ساسان[٤]؟
وأين ما حازه قارونُ من ذهبٍ؟ وأين عادٌ وشَدّادٌ وقَحْطان[٥]؟
أتي على الكلِّ أمرٌ لا مَرَدَّ له حتّى قَضَوْا فكأنّ القومَ ما كانوا[٦].
وصار ما كان من مُلْكٍ ومن مَلَكٍ كما حَكى عن خَيالِ الطَّيْف وَسْنان[٧]:
دارَ الزمانُ على دارا وقاتَله وأمّ كِسْرى فما آواهُ إيوان[٨]؛

---

(١) السابغة: الدرع. المشرفيّ: السيف (من صنع مشارف الشام، كناية عن جودة حديده وصنعه). الخرص (بالضمّ أو الكسر أو الفتح): الرمح. والجمع خرصان (بالضمّ أو الكسر)- إذا لم تتمزّق الدرع بالسيوف والرماح فإنّها تتهرّأ بمرور الزمن (من لم يقتل في الحرب مات بالدهر، بانقضاء أجله).

(٢) انتضى الفارس السيف: سحبه من غمده. كلّ مدّخر، مهما تحافظ عليه، يدركه البلى (بكسر الباء). سيف بن ذي يزن: ملك من عظماء ملوك اليمن. غمدان قصر في اليمن.

(٣) أين الملوك....؟- ذهبوا (ماتوا). الإكليل: التاج الصغير. وأين منهم أكاليل وتيجان: (هذه لم تدفع عنهم الموت).

(٤) شاد: بنى. شدّاد بن عاد: ملك يمني قديم فتح فتوحاً كثيرة بعيدة. إرم ذات العماد (الأعمدة): مدينة عظمة تقول الخرافة إن جدرانها وسقوفها من الذهب والنحاس وأعمدتها من الزبرجد والياقوت. ساسان: مؤسّس الدولة الساسانية (الفارسية المتأخّرة).

(٥) حازه: امتلكه. قارون: كان أغنى أغنياء العالم (كانت مفاتيح قصوره كثيرة إلى حدّ أنّ الرجل القوي لا يستطيع حملها كلها). عاد وشدّاد وقحطان من جدود العرب القدماء والأقوياء.

(٦) أمر لا مردّ له (الموت).

(٧) خيال الطيف: الحلم (بضمّ الحاء): المنام. الوسنان: الذيأخذه النعاس (أفاق من النوم ولم يزل نعسان).

(٨) دار الزمان: انقلب. دارا (داريوس) الأول فتح الهند وأخضع مقدونية (اليونان) ثمّ هُزم في ماراثون (باليونان). أمّ: قصد. كسرى: لقب ملوك الدولة الساسانية. والمقصود هنا كسرى أنوشروان العادل الواسع السلطان والغنى والوجاهة بين الأمم. الإيوان: قصر عظيم لكسرى في المدائن (على عشرين كيلومتراً شرق بغداد). آواه (حماه من الموت).

- اقرأ: وقاتله (فعل ماض) فذلك أحسن من حيث البيان. هذا مع العلم بأنّ دارا الثالث قد اغتاله بعض أتباعه، سنة ٣٣٠ ق.م. (بعد أن انهزم أمام الاسكندر المقدوني في معركة أربل، جنوب العراق). والملموح أنّ الرندي قد قصد المجانسة بين «دار» و«دارا»، ولم يلمح الفرق بين دارا الأول (ت ٤٩٠ ق.م.) ودارا الثالث!

كأنّما الصَّعْبُ لم يَسْهُلْ له سَبَبٌ، يوماً، ولم يَمْلِكِ الدُّنْيا سُلَيْمان[1].
فَجائِعُ الدهرِ أنواعٌ مُنَوَّعَةٌ، ولِلزّمانِ مَسَرَّاتٌ وأحْزان؛
وللحَوادِثِ سُلْوانٌ يُهَوِّنُها؛ وما لِما حَلّ بالإسلام سُلْوان[2]!
دَهَى الجزيرةَ أمرٌ لا عَزاءَ له هَوَى له أُحُدٌ وانْهَدّ ثَهْلان[3].
أصابَها العينُ في الإسلامِ فارْتَزَأتْ حتّى خَلَتْ منه أقطارٌ وبُلْدان[4]:
فاسْألْ بَلَنْسِيَةً: ما شأنُ مُرْسِيَةٍ؟ وأين شاطبةٌ أم أين جَيّان؟
وأين قُرْطُبَةٌ دارُ العلومِ فكم من عالِمٍ قد سما فيها له شان؟
وأينَ حِمْصٌ وما تَحْويهِ من نُزَهٍ ونَهْرُها العذبُ فيّاضٌ ومَلْآن؟
قواعِدٌ كُنَّ أركانَ البلادِ، فما عسى البقاءُ إذا لم تَبْقَ أركان[5]؟
تَبْكي الحَنيفِيَّةُ البيضاءُ من أسَفٍ، كما بكى لِفراقِ الإلْفِ هَيْمان[6]،
على دِيارٍ من الإسلامِ خالِيَةٍ؛ قد أقْفَرَتْ ولها بالكُفْرِ عُمْران:
حيثُ المساجدُ قد صارَت كنائسَ ما فيهِنَّ إلّا نواقيسٌ وصُلْبان؛
حيثُ المحاريبُ تبكي وَهْيَ جامدةٌ حيثُ المنابرُ تَرْثي وَهْيَ عِيدان[7].
يا غافلاً، وله في الدهرِ مَوْعِظَةٌ، إن كُنْتَ في سِنَةٍ فالدهرُ يَقْظان[8]؛
وماشِياً مرحاً يُلْهيهِ مَوْطِنُه، أبعدَ حِمْصٍ تَغُرُّ المرءَ أوْطان؟
تلكَ المُصيبةُ أنْسَتْ ما تَقَدَّمَها، وما لها مَعْ طَوالِ الدهرِ نِسْيان.

---

(١) .....
(٢) سلوان: شراب يجعل الناس ينسون (بفتح السين) مصائبهم.
(٣) دهى: أصاب بداهية (مصيبة). الجزيرة (الأندلس). أحد (جبل قرب المدينة) ثهلان: جبل في بلاد العرب.
(٤) أصابها (أصابتها) العين (من الحسد). ارتزأ (أصيب برزء: مصيبة كبيرة).
(٥) القاعدة: العاصمة (مركز الدولة).
(٦) الحنيفية: الإسلام. الهيمان: المحبّ الشديد الحبّ.
(٧) المحراب: تجويف في قبلة المسجد يقف فيه الإمام عند الصلاة (كناية عن المساجد). جامدة (من جماد، ومع ذلك فهي تحسّ بالمصيبة). العود: غصن الشجرة (الخشب).
(٨) سِنة (بكسر ففتح): النعاس.

يا أيّها المَلِكُ البيضاءُ رايَتُه، أدركْ بِسَيْفِكَ أهلَ الكُفْرِ ،لا كانوا[1].

يا راكبِينَ عِتاقَ الخيلِ ضامرةً كأنّها في مَجالِ السَّبْق عُقْبان[2]،

وحامِلِينَ سيوفَ الهِنْدِ مُرْهَفَةً كأنّها في ظَلامٍ النَّقْعِ نيران[3]،

وراتعِينَ وراءَ البحرِ في دَعَةٍ لَهُمْ بأوطانهم عِزّ وسُلْطان[4]،

أعِنْدَكم نَبأٌ من أهلِ أنْدَلُسٍ؟ فقدْ سَرى بحديثِ القومِ رُكْبان.

كم يستغيثُ بنو المُسْتَطْعَفين، وهُمْ أسْرى وقَتْلى، فما يَهْتَزّ إنسان!

ما ذا التقاطعُ في الإسلام بَيْنَكُمُ، وأنتُمُ -يا عبادَ الله- إخوان!

ألا نُفوسٌ أبِيّاتٌ لها هِمَمٌ! أما على الخيرِ أنْصارٌ وأعوان!

يا مَنْ لِذِلّةِ قَوْمٍ، بعد عِزَّتِهِمْ، أحالَ حالَهُمُ كُفْرٌ وطُغْيان.

بالأمسِ كانوا مُلوكاً في منازِلِهِمْ، واليَوم هُمْ في بِلادِ الكُفر عُبدان.

فَلَوْ تراهُمْ حَيارى لا دليلَ لهم عَلَيْهِمُ مِنْ ثِيابِ الذُّلِّ ألوان؛

ولو رأيتَ بُكاهم عند بَيْعِهِمُ لهالَكَ الأمرُ واسْتَهْوَتْكَ أحزان.

يا رُبَّ أمٍّ وطِفلٍ حِيلَ بَيْنَهما كما تُفَرّقُ أرواحٌ وأبْدان؛

وطِفْلَةٍ مثلَ حُسْنِ الشمسِ إذ بَرَزَتْ، كأنّما هِيَ ياقوتٌ ومَرْجان،

يَقُودُها العِلْجُ لِلمَكروهِ مُكْرَهَةً والعَيْنُ باكِيَةٌ والقَلْبُ حَيْران[5].

لِمِثْلِ هذا يَذُوب القلبُ من كَمَدٍ، إنْ كان في القلب إسلامٌ وإيمان!

- عمل الشعر

قال الرُّنْدي[6]: ينبغي لِمَنْ يَرومُ عملَ الشعر أن يَتَحرّى أوقاتَ الفَراغ وأمكنَة

---

(١) البيضاء رايته (كناية عن الجد والقوّة والظفر!).

(٢) الفرس العتيق: الأصيل. الضامر (النحيل الخصر) ويكون عادة سريعاً. العقاب (بضمّ العين): طير من الكواسر (كالنسر) تشبّه به الخيل لقوّة بدنه وسرعة انقضاضه.

(٣) مرهف: رقيق الحدّ. النقع: غبار الحرب.- تلمع سيوفهم لشدّة جلائها وصفائها.

(٤) رتع: عاش في الخصب والنعيم كما يشاء. وراء البحر (في القارّة الإفريقية). الدعة: السعة في العيش مع الاطمئنان.

(٥) العلج: الكافر من غير العرب. المكروه: (الفعل القبيح).

(٦) من «تاريخ النقد الأدبي في الأندلس لمحمّد رضوان الداية» (ص ٤٤٠-٤٤١).

الخَلْوة و(ألاّ) يعملَ شيئاً من الشعر حتى يَشْتَهِيَهُ، فإنّ الشهوةَ نِعْمَ المُعينُ. وإذا سَئِمَ فَلْيُرِحْ نفسَه ولا يُكْرِهْ طبعَه. و(يحسُنُ أن) يُطالعَ من أشعارِ الناس ما يَستجيدُه في المعنى الذي يُريده، فإنّ من أمثالِهم: الكلامُ من الكلامِ. وينبغي ألا يقبَلَ كلَّ ما يَبْعَثُه هاجِسُه وتنفُثُ به وساوِسُه[1]، بل ينقّحَ ويختارَ ولا يذهَبَ إلى الآستكثار. وإذا فَرَغَ من شِعرِه تثبَّتَ في أمرِهِ فتأمّلَه مرّتينِ ورَجَعَ البَصَرَ فيه كرّتين. فكثيراً ما سودت وجوه المبيضات (؟) بالتغيير، وأدّى العَجَل إلى الندم والتحيير. و(كذلك) ينبغي أن يَعْرِضَ كلامَه على مَنْ يَثِق بمعرفتِهِ ونَصيحته، فإنّ الإنسانَ لا يَرَى عَيْبَ نفسِه، والمرءُ - كما قيل - يُفْتَنُ[2] بآبْنِه وشِعرِه. وقد يَعْرِضُ للشاعر أن يُرْتَجَ عليه فيَكْهَمَ حَدُّه ويصلُدَ زَنْدُه[3] ولا يستطيع أن يَنْظِمَ شيئاً. وقد يتأتّى له (من) حُسْنِ البَديهة وجَوْدة القريحة ما يُعْجَبُ منه.

٤ - ★★ الذيل والتكملة ٤: ١٣٦ - ١٣٩ (رقم ٢٦٣)؛ نفح الطيب ٣: ٣٤٧، ٤: ٤٧، ٤٨٦ - ٤٩٠، أزهار الرياض ١: ٤٧ - ٤٩؛ بروكلمن، الملحق ١: ٨٦٠، ٢: ٩٢٥؛ نيكل ٣٣٧ - ٣٣٩؛ مختارات نيكل ٢٠٠ - ٢٠٢؛ الأعلام للزركلي (٣: ١٩٨)؛ تاريخ النقد الأدبي لمحمّد رضوان الداية ٤٣٢ - ٤٤٠؛ تاريخ النقد العباسي لإحسان عبّاس ٥٣٨ - ٥٣٩؛ مجلّة العربي (الكويت) ١٩٧٣/٧، ص ١٠٢؛ ١٩٧٤/٤ (لأكرم زعيتر) ص ٧.

حازم القرطاجنّي

١ - هو أبو الحسنِ حازمُ بنُ محمّدِ (سَرَقُسْطة ٥٥٤ - قَرْطاجنّة ٦٣٢ هـ) بنِ حسنِ بنِ

---

(١) الهاجس: الخاطر (ما يبدو في فكرك من غير أن تقصده). نفث: نفخ. الوسواس: ما يحدّث الإنسان به نفسه في أوقات فراغه (ممّا لا فائدة منه أو ممّا فيه خوف). والمقصود هنا حديث النفس عامّة.

(٢) يفتن (في الأصل بشدّة على النون): أي يتفنّن أو يكثر من الفنون (ولا معنى له هنا). والمقصود يُفْتَنُ (بالبناء للمجهول): أي يدخل عليه شيء من الزهو أو مجانبة الحقّ. وفي القرآن الكريم: ﴿إنّما أموالكم وأولادكم فِتنة﴾ (٦٤: ١٥، سورة التغابن).

(٣) أُرْتِجَ (بالبناء للمجهول) على الشاعر: استغلق (استعصى) عليه الكلام. كهم السيف يكهم (بفتح الهاء فيهما): كلّ، ضعف (لم يقطع). صلد يصلد (بضمّ اللام فيهما): صلب (بضمّ اللام). الزند: حديدة تُقدح بها النار من الحجارة.

محمّد بن خلفِ بن حازمٍ الأَوْسي الأنصاري القَرْطاجنّي، نِسبةً إلى قَرطاجنّةَ التي بشرقيّ الأندلُس، وفيها وُلِدَ سَنَةَ ٦٠٨ (١٢١١ - ١٢١٢ م).

بدأ حازمٌ القرطاجنيُّ تلقّيَ العلمِ في بلده على والده ثم لَقِيَ نفراً من شُيوخ عصره. وتنقّل في طلب العلم بين مُرسيةَ وإشبيلية وغَرْناطة، ولَقِيَ في إشبيليةَ أبا عليٍّ الشلوبين فنَصَحَ له أبو عليٍّ بدرسِ الفلسفة القديمة (اليونانية)، فاطّلع على أشياءَ منها.

ولمّا بدأ الإسبانُ بالآستيلاءِ على شرقيّ الأندلس - على بيّاسة (٦٣٢ هـ) وبَلَنْسية (٦٣٦ هـ) وشاطِبة ودانية (٦٣٨ هـ) - آثرَ حازمٌ أن يرحلَ، فآنتقلَ إلى المغرب وقضى في مرّاكُشَ العاصمةِ حيناً من الزمن مدح في أثنائه السلطانَ المُوحّديَّ أبا محمّدٍ عبدَ الواحدِ الرشيدَ (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ). ثمّ إنّه آنتقلَ إلى تُونسَ الحاضرةِ وآتّخذها دارَ إقامةٍ ومدح مُلوكَها الحَفصيّين: أبا زكريّا الأولَ (٦٢٦ - ٦٤٧ هـ) والمُستنصِرَ (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) والواثقَ (٦٧٥ - ٦٧٨ هـ).

وكانتْ وفاة حازمٍ القرطاجنيّ في تُونسَ في ٢٤ رَمَضَانَ من سَنَة ٦٨٤ (١٢٨٥/١١/٢٤ م).

٢ - كان حازمٌ القرطاجنّي رجلًا واسعَ الدِّراية بأوجهٍ كثيرةٍ من فُنونِ المعرفةِ النظريّة: في اللغةِ والنحو والبلاغة والشِّعر والفلسفة، ولكنّه لم يتعرّضْ لإفادةِ الناسِ بما كان يَعْلَمُ. وكان أديباً ناثراً قديراً وشاعراً مُجيداً طويلَ النفس ينطوي شِعرُه على أغراضٍ كثيرةٍ. ويَغْلِبُ على شِعره آستجماعُ المعاني والتأنُّق البلاغي أيضاً. وكان ناقداً بارعاً. ثمّ هو مُصنِّفٌ له: سِراجُ البلغاء أو مِنْهاج البلغاء وسِراج الأدباء (في البلاغة وفي المناهج الأدبية في النقد ونظم الشعر). ويبدو أنّه قد تأثّر - في جانبٍ من هذا الكتاب - بالآراء اليونانية كما عَرَضها أرسطو (ت ٣٢٢ ق. م.) وممّا عَرَفَهُ من كتاب الشفاء لابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) من الجُملة الأولى[١]: الفن الثامن (الخطابة) والفنّ التاسع (الشعر). ولحازمٍ القرطاجنّي ديوانُ شعر - المقصورةُ (عارض فيها آبن

---

(١) الجملة الأولى (المجموعة الأولى: المجلد الأول).

دريد)- العروض- القوافي- التجنيس- شدّ الزيار على جحفلة الحمار[١].

٣- مختارات من آثاره

- قال حازمٌ القرطاجنّي يمدح المستنصر الحفصي[٢]

أحُبيتَ وحدَك بالجمالِ المُطْلَقِ؟ ... أم قيل إذ قُسِمَ الجمالُ- لكَ: انْتَقِ[٣]!

فلقد جَرَيْتَ من الجَمال لغايةٍ ... أصبحتَ فيها سابقاً لم تُلْحَق.

ما عُذْرُ من لم يَسْلُ ممّا قد جَنَتْ ... عَيْناكَ؟ بل ما عذرُ مَنْ لم يَعشَقِ؟[٤]؟

أخذَ الهوى عَهداً عليَّ، فلم أُطِقْ ... نَقْضاً لِما أخذَ الهوى من مَوْثِقِ.

وبِمُهْجَتي منها التي- مُذْ مُلِّكَتْ ... رِقَّ القلوبِ لحاظُها- لم تُعْتِق.

عَقَدَ الجَمال وِشاحَه منها على ... خَصْرٍ بألحاظِ العيون مُنَطّق[٥].

وأجَلْتُ في إثرِ الشَّباب وإثرِها ... - لَمّا نأتْ ونأى- لواحظَ مُشْفِق[٦].

وبَكَيْتُ أيامَ الشبابِ كما بكى ... حسّانُ أياماً حَسُنَّ بجِلِّق[٧].

ورأيتُ أيامَ النعيمِ قدِ انقضتْ ... لمّا انقضى شَرْخُ الشَبابِ المُونِق[٨].

---

(١) الزيار: شناق (بالكسر: حبل أو سير من جلد) يشدّ به البيطار جحفلة (شفة) الدابّة لتنقاد به وتذلّ إذا استعصت على راكبها أو قائدها (راجع تاج العروس- الكويت ١١: ٤٨٣ ثمّ راجع ٤٦٤)

(٢) هو المستنصر بالله أبو عبد الله محمّد بن يحيى الحفصي سلطان تونس (٦٤٧- ٦٧٥ هـ) كان عمرانيًّا مشهوراً أرسل إليه أهل الحجاز بَيعتهم بالخلافة فسرّ بذلك وتلقّب «أمير المؤمنين». وفي أيامه غزا لويس التاسع ملك فرنسة (القديس لويس) تونس، ولكنّه هزم وقتل (٦٦٩ هـ ١٢٧٠ م).

(٣) حبا: أعطى. انتق (من الانتقاء): فعل أمر (اختر، تخيّر).

(٤) سلا يسلو: نسي، تسلّى (عن مصيبة أو أذى سابق). جنى: أجرم، أذنب.

(٥) بألحاظ العيون منطّق (عليه نطاق: زنّار): العشّاق ينظرونَ إليه بكثرة حتّى كأنّ عيونهم قد أصبحت كالزنّار حول خصره.

(٦) نظرت إلى شبابي الماضي وجمالها الحاضر لمّا نأت (ابتعدت هي عنّي) ونأى (شبابي: مضت أيام شبابي). لواحظ مشفق (نظرات رجل حزين).

(٧) حسان بن ثابت الأنصاري (ت ٥٤ هـ). حسنّ (كنّ حسانا). جلّق (عاصمة الغساسنة في حوران). ولعلّ الإشارة هنا إلى قول حسّان:

لله درّ عِصابة نادمتهم ... يوم بجلّق في الزمان الأوّل!

(٨) شرخ الشباب: عنفوانه وقوّته وفورته. المونق: الذي يحسن مرآه في العين.

ثم ينتقل الشاعر إلى المديح:

بِنَـدى أمـيرِ المؤمنـين تَبجَّسَتْ ... سُحُبُ المكارمِ والسَّماحِ المُغْدِقِ[1]:
كم فرّقتْ من شَمْلِ مالٍ في الندى ... منـه مكارمُ كالسحاب الغَيْدَق[2].
ولَكَمْ أثارتْ خيلُه من عارضٍ ... صَخْبِ الرواعدِ للأعادي مُصْعِق[3]؛
سَبَتِ العِدا حتّى غدَوْا أيْدي سَبا، ... وتَمزّقوا في الأرض كلّ مُمزَّق[4].
قاد الكُماةَ إلى العُداةِ، لَبُوسُهم ... بَيْضٌ تَرَجْرَجُ فوقَهم كالزِّئْبَق[5].
أخليفَةَ اللهِ الذي مُذْ حَقّقَتْ ... أموالُه آمالَنا لم تُخْفِق[6]،
جَلَّيْتَ عنّا ليلَ كلّ ضَلالةٍ ... بِهدايةٍ مثلِ الصباحِ المُشْرِق[7].
أَجْرى أمورَ الخَلْقِ عَدْلُكُمُ على ... شَرْعِ الصَّلاحِ الشاملِ المُسْتَوْسِق[8]
أَذْكَيْتَ من طَرَفِ السِّنانِ لِرَعْيِهم ... طَرْفاً به سِنَةُ الكَرى لم تَعْلَق[9]
ما زالَ في حِفْظِ الرعيَّةِ ساهراً ... وَمُؤَرَّقاً لِيُنيمَ كلَّ مُؤَرَّق[10]

– ومن غزلة في مطلع قصيدة في المديح:

---

(١) الندى: الكرم. تبجّس: تفجّر (جرى بكثرة). المغدق: الكثير (السحاب المغدق: ذو الماء الكثير).

(٢) الغيدق: الواسع من العيش (المفروض أن يقول في هذا البيت: كالسحاب المغدق، وأن يقول في البيت الذي سبق: والسماح الغيدق!).

(٣) العارض: الغيم الكثير الذي يعترض (يسدّ) الأفق. صخب: شديد الصوت. مصعق: قاتل.

(٤) سبى: أسر. أيدي سبا: متفرّقين متباعدين في الأرض.

(٥) الكميّ: الشجاع، البطل. لبوسهم (لباسهم، على أبدانهم) بيض (دروع من حديد. بيض: جديدة) ترجرج (تترجرج، تتحرّك أجزاؤها بسهولة للينها، دلالة على جودتها).

(٦) حققت أمواله آمالنا (كانت عطاياه لنا كثيرة كثرة بلغنا بها كلّ ما نريد). أخفق: خاب.

(٧) جليّت عنا: كشفت عنّا.

(٨) المستوسق: المجتمع والمنتظم.

(٩) أذكى: أوقد. السنان: حديدة في رأس الرمح. السنة (بكسر السين): النعاس، النوم. الطرف: العين. الكرى: النوم. – أنت ترعاهم بطرف (بسكون الراء: بعين) شديدة اليقظة (بفتح القاف) مثل طرف (بفتح الراء) السنان. به سنة الكرى لم تعلق: لم ينم.

(١٠) المؤرّق (الذي هرب النوم عنه)– مؤرّقاً (بإرادته) ليجعل المؤرّق بحوادث الدهر) ينام (يزيل أسباب أرقه: يسدّ له حاجاته).

يا ظَبْيَةَ العَفرِ الحالي مُؤالفةً، من قلّدَ الحَلْيَ آراماً وغِزلانا[١]؟
ويا شقيقةَ بدرِ التّمِّ، لو أمِنَتْ - كما أمِنْتِ- بدورُ التّمِّ نُقْصانا[٢]!
حاشا لِلَحْظِكِ أن يُعْزى إلى رَشأٍ إذا تَلَفَّتَ نحوَ السِّرْبِ وَسْنانا[٣]،
ولِابْتِسامِك أن يُعْزى إلى زَهَرٍ إذا غدا بسَقيطِ الطَّلِّ ريّاناً[٤].
ما خِلْتُ قبلَكِ أن أرنو إلى قَمَرٍ مُقلَّداً أنْجُماً زُهْراً وشُهباناً[٥]
سُلطانُ حُسْنِكِ مذ دانتْ بطاعتِه قلوبُ أهلِ الهوى لم تَنْوِ عِصْيانا!
يا عاذِلي في الهوى، أقْصِرْ فلستُ أُرى مُقصِّراً في الهوى عن شأوِ غَيْلانا[٦].
إنّا، بني الحُبِّ، لا نُصْغي إلى عَذَلٍ ولا نُميلُ إلى العُذّال آذانا[٧].
وأعْلَمَتْني بأنّ الليلَ مَوْعِدُنا، فظِلْتُ مُرْتَقِباً ميقاتَ لُقْيانا؛
حتّى إذا الليلُ أخفى الشخصَ غَيْهَبُه فلم يكن يُبْصِرُ الإنسانُ إنسانا[٨]،
وافَيْتُ مَنْزِلَها والنجمُ يَرْمُقُني حتّى لَكِدْتُ أظنُّ النجمَ غَيْرانا[٩].
فبِتُّ مُجْتَلِياً للبدرِ مُجْتَنِياً من روضةِ الحُسْنِ تُفّاحاً ورُمّانا[١٠].
حتّى إذا الصُّبحُ أنْبانا بطَلْعَتِه بَرْدُ السِّوارِ فأذْكى القلبَ نِيرانا[١١].

---

(١) العفر: وجه الأرض، التراب. الحالي: المزيّن بالحلى (الجمال الطبيعي). الرئم: الغزال الأبيض.
(٢) بدر التّم: القمر ليلة أربع عشرة. هو ينقص بعد تمامه، وأنت أمنت النقصان (تظلّين جميلة كما أنت الآن).
(٣) يعزى: ينسب. رشأ: غزال صغير. السرب: قطيع الغزلان. أنت أجمل من جميع الغزلان.
(٤) الطّل الندى. سقيط الطّل (الندى الذي يسقط (في الليل). ريّان: نديّ، طريّ.
(٥) أرنو (أنظر) إلى قمر (فتاة جميلة). الزهر: اللامعات. الشهبان جمع شهاب: حجر يخرج من مداره حول القمر، فإذا مرّ في جوّ الأرض اشتعل وأضاء....
(٦) العاذل: اللائم. أقصر: انته، توقّف. مقصّر: متأخّر. شأو: الشوط، الغاية. غيلان ميّة ذو الرُّمّة (ت ١١٧ هـ) شاعر أمويّ محبّ، قيل إنّه طاف بالمكان الذي تسكن فيه حبيبته ميّة عاماً كاملاً ثمّ رأى جاريتها فعاد مسروراً لأنه رأى من رآها!
(٧) العذل: اللوم.
(٨) الغيهب: الظلمة.
(٩) وافى: جاء، وصل. رمق: نظر إلى.
(١٠) مجتلياً: ناظراً. مجتنياً = جانياً، قاطفاً. التفّاح كناية عن الخدود. الرمّان كناية عن الثديين.
(١١) - نشعر بأنّ الصبح طلع من شعورنا ببرد أجسامنا! أذكى: أشعل.

مالـتْ تُودِّعُـني والدمعُ يَغْلبُهـا ... عـلى الكلامِ فلا تَسْطيع تِبْيانا.
أدْنـى التعانـقُ شَخْصَيْنـا وضمَّهُما ... لَفَّ النواعمِ بالأغصانِ أغصانا[١].
فيـا لهـا ليلـةً مـا كان أقْصَرَها ... وقتاً، وأفْسَحَها في الحُسْنِ مَيْدانا.

- وقال حازم القرطجنّي يردُّ على أرسطو[٢] في زَعْمِه أنّ الأقاويلَ الشِعرية لا تكون إلّا كاذبةً:

وإنّما غَلِطَ في هذا - فظنّ أنّ الأقاويلَ الشِّعرية لا تكونُ إلّا كاذبةً - قومٌ من المُتَكلِّمينَ[٣] لم يكُنْ لهم علمٌ بالشِّعر، لا من جِهةِ مزاولتهِ ولا من جهة الطُّرُقِ المُوصلة إلى معرفته.

ولا مُعرَّجَ على ما يقولُه في الشيء من لا يَعْرِفُه ولا التفاتٌ إلى رأيِهِ فيه فإنّما يُطْلَبُ الشيءُ من أهلِه، وإنّما يُقبلُ رأيُ المرء في ما يَعْرِفه. وليس هذا جُرحةً للْمتكلّمين ولا قَدْحاً في صِناعتهم، فإنّ تَكلُّفَهُمْ أن يتعلّموا في طريقتهم ما ليسَ منها شَطَطٌ. والذي يُوَرِّطُهم[٤] في هذا أنّهم يحتاجون إلى الكلام في إعجاز القُرآن[٥] فيحتاجون إلى ماهيّةِ الفَصاحة والبلاغة من غيرِ أن يَتقدّم لهم علمٌ بذلك، فيَفْزَعون[٦] إلى مُطالعة ما تَيسَّرَ لهم من كُتُبِ هذه الصِّناعة. فإذا فَرَّقَ أحدُهم بين التَجْنيس والترديد، ومازَ الاستعارةَ من الأوصاف[٧]، ظنّ أنّه قد حَصَلَ على شيءٍ من هذا العلم فأخذ يتكلّمُ في الفَصاحة بما هو مَحْضُ الجهلِ......

---

(١) لفّ النواعم....: كما يلتفّ بعض الأغصان الناعمة ببعضها الآخر (بسهولة وانطباق تامّ).

(٢) أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م.) فيلسوف اليونان غير منازع وأكبر فلاسفة العالم بإطلاق، كان مثل أستاذه أفلاطون (٤٢٩ - ٣٤٧ ق.م.) يرى أنّ الشعر من حيّز الخيال والتقليد بعيداً عن الواقع.

(٣) المتكلمون: الذين يدافعون عن العقائد الإيمانية بالأدلّة العقلية (باستخدام الفلسفة).

(٤) الشطط: الجور (الظلم) في الحكم. يورّطهم: يحملهم على الدخول فيما لا يريدونه.

(٥) إعجاز القرآن: مجيء المادّة في القرآن الكريم والتعبير عنها بما يعجز البشر عن الإتيان بمثله.

(٦) فزع إلى: لجأ.

(٧) التجنيس: الإتيان بكلمتين متّفقتين (أو متقاربتين) في اللفظ مختلفتين في المعنى، كقول أبي تمّام: بيض الصفائح (السيوف) لا سود الصحائف (الصفحات المكتوبة).... أمّا الترديد فهو المجيء بكلمة واحدة مستعملة في الجملة مرّتين في علاقتين مختلفتين، كقول زهير بن أبي سلمى:

ومن هـاب أسبـاب المنايـا ينلنـه، ... وإن يرق أسبـاب السماء بسلّم. =

- المناسبة بين فنون الشعر وأوزان الشعر (من منهاج البلغاء، ص ٢٦٦):

..... ولمّا كانتْ أغراضُ الشعرِ شتّى، وكان منها ما يُقْصَدُ به الجِدُّ والرصانة وما يُقصَدُ به الهَزْلُ والرشاقة[١]، ومنها ما يقصد به البهاءُ والتفخيم وما يقصد به الصَّغار والتحقير، وَجَبَ أنْ تُحاكى تلك المقاصدُ بما يُناسِبُها من الأوزان ويُخيِّلُها للنفوس. فإذا قَصَدَ الشاعرُ الفخرَ حاكى غرضَهُ بالأوزانِ الفَخْمة الباهِيَة الرصينة، وإذا قصد في موضعٍ قَصْداً هزليًّا أو استخفافيًّا وقَصَدَ تحقيرَ شيءٍ أو العَبْثَ[٢] به حاكى ذلك بما يُناسِبُه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء، وكذلك في كلّ مَقْصِدٍ. وكانتْ شعراءُ اليونانيّين تلتزِمُ لكلِّ غرضٍ وزناً يليقُ به ولا تَتَعدّاهُ فيه إلى غيرِه[٣].

وهذا الذي ذَكَرْتُهُ في تَخْييل الأغراض بالأوزان قد نَبّه عليه ابنُ سينا في غيرِ موضعٍ من كُتُبِهِ، ومن ذلك قولُه في الشِّفاء[٤] في تعديدِ الأمور التي تجعلُ القولَ مُخَيِّلاً: منها أمورٌ تَتَعَلَّقُ بزمانِ القولِ وعَدَدِ زمانِهِ - وهُوَ الوَزْنُ - ومنها أمورٌ تتعلّق بالمَسْموع من القول، ومنها أمورٌ تتعلّق بالمفهوم من القول، ومنها أمورٌ تتردّد بين المسموع والمفهوم.

- مكانة الفكر في الشعر (منهاج البلغاء، ص ٣٤١، ٣٤٢):

اعْلَمْ أنَّ خيرَ الشعرِ ما صَدَرَ عن فِكْرٍ وَلِعَ بالفنّ والغَرَضِ الذي القولُ فيه مرتاحٌ

= الأسباب الأولى متعلّقة بالمنايا ومعناها (علل)، والأسباب الثانية متعلّقه بالسماء ومعناها (الحبال، السلالم). والفرق هنا بين الجناس والترديد أنّ الشاعر هو الذي أتى بالكلمة ثمّ استخدمها في وجهين (مع العلم بأن استعمال السبب في علاقته بالسماء قد جاء في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿فليمدد بسبب إلى السماء ثمّ ليقطع فلينظر﴾ (٢٢: ١٥، الحج). والاستعارة نسبة الفعل إلى غير صاحبه، نحو: وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ « فإنّ امرأ القيس استعار لليل سدولاً وجعل له أيدياً يرخي بها السدول ويرفعها كما يفعل البشر). والوصف (هنا) ما كان قريباً من التشبيه (لأنّ الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه) كقول ابن الرومي مثلاً « ورازقيّ مخطف (بضمّ فسكون ففتح) الخصور »، فهو يصف نوعاً من العنب مخصوراً من أوسطه. هذا الوصف قريب من التشبيه ومن الاستعارة ولكن أركان التشبيه والاستعارة فيه غير واضحة .

(١) يقصد بالرشاقة: التظرّف والتملّح (ذكر أشياء تسرّ النفس ولكن لا جِدّ فيها).

(٢) العبث: التلهي واللعب.

(٣) كان الشعراء اليونانيّون (أو شعراء اليونانيّين) يناسبون بين الغرض الذي يعالجونه والبحر الذي ينظمون أبيات ذلك الغرض عليه. وكذلك كان العرب أيضاً يفعلون.

(٤) الشفاء كتاب جامع لفلسفة ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م).

للجهة والمَنْحى الذي وَجَّهَ إليه كلامَه لإقبالِه بكلّيّته على ما يقولُه وتَوْفيرِ نَشاطِ الخاطِرِ وحدّتِه بالانصباب مَعَهُ حيثُ مالَ به هواه[1]. ولهذا كان أفضلَ النَسيبِ ما صَدَرَ عَنْ نفسٍ شَجيّة وقَريحةً قَريحةٍ[2]. وكذلك الإخوانيات[3] والمراثي وما جرى هذا المَجْرى.

.... واعلَمْ أنّ المنحى الشِعريَّ، نَسِيباً كانَ أو مَدْحاً أو غيرَ ذلك، فإنّ نِسبةَ الكلامِ المَقُول فيه إليه نِسبةُ القِلادةِ إلى الجِيد[4]. (ذلك) لأنّ الألفاظَ والمعانِيَ كاللآلي، والوزنُ كالسِّبْكِ، والمَنْحى الذي هو مَناطُ الكلامِ وبهِ اعتلاقُه كالجيدِ له. فكما أنّ الحُلِيّ[5] يزدادُ حُسْنُه في الجِيد الحَسَنِ، فكذلك النظمُ إنّما يظهَرُ حُسنُه في المَنْحى الحسن. فلذلك وَجَبَ أن يكونَ مَنْ له قُوّةُ التَّشبّهِ[6] المذكورةِ أكملَ في هذه الصِّناعة مِمّن ليستْ له تلك القوّة.

- من مقصورة حازم القرطاجني[7]

هذه المقصورةُ ألفٌ وستّةُ أبياتٍ، أُورِدُ منها، بعد قليلٍ، مائةً وخمسةً وثلاثين بيتاً. والأصلُ في المقصورة أن تكون قوافيها صِيَغاً مُشتقّةً من أفعال ناقصةٍ (مُعتَلّةِ الآخِرِ بالواو أو بالياء). وكان ابنُ دريدٍ (ت ٣٢١ هـ)- صاحب المقصورة التي عارضَها حازمٌ القَرطاجنيُّ- قد لَزِمَ هذه القاعدة. وإذا كان ابنُ دريدٍ قد جاء[8] في مقصورته بكلمة

---

(١) إلى حيث تميل به عاطفته.

(٢) ... ما صدر (خرج) عن نفس شجيّة (حزينة) وقريحة (فكر) قريحة (مقروحة، مجروحة، معذّبة).

(٣) الإخوانيّات: رسائل يتبادلها الأصدقاء خاصّة (نثراً أو شعراً).

(٤) القلادة: العقد. الجيد: العنق.

(٥) كذا منقوطة ومشكولة في الأصل. والمقصود الحلي (بفتح الحاء وسكون اللام وبالياء المنقوطة بنقطتين من تحتها): ما يزيّن به من مصوغات المعدنيّات والحجارة (القاموس ٤ : ٣١٩) وهي مفردة تناسب الضمائر المذكورة في النص. أمّا الحليّ (بضمّ فكسر فتشديد ،(كما في الأصل) فهي جمع وتقتضي أن تكون الضمائر بعدها مؤنّثة.

(٦) التشبّه (كما في الأصل). المقصود التخيّل أو التشبيه.

(٧) حوليات كلية الآداب- جامعة ابراهيم (عين شمس) المجلد الثاني (١٩٥٣ م): مقصورة أبي الحسن حازم القرطاجني- تحقيق النصّ للدكتور مهدي علام، ص ١ - ١١٠.

(٨) شرح مقصورة ابن دريد، مصر (محمد علي صبيح) بلا تاريخ (راجع ص ١٠).

« سوى » (مكان « سواء »)، فإن له عذراً من جواز ذلك في اللغة (راجع القاموس ٤ : ٣٤٥ ، السطر ١١)، وإن كانتْ كَلمةُ « سواءٍ » أفصحَ وأشهرَ. أمّا حازمٌ القَرطاجنيُّ فقد تساهل أحياناً فأهمل الهمزةَ في عددٍ من الألفاظ فقال، مثلاً، الظما، يُبتدا، السما، الدوا، ابن ذُكا، طيبُ الثنا، منشور اللوا، رقا (ص ٢٣ ، ٢٦ ، ٥٩ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ١٠٤)، مكان الظمأ، يُبتدأ، السماء، الدواء، ابن ذكاء، طيب الثناء، منشور اللواء، رقأ. وأبعد من ذلك كلّه في القافية المقصورة قوله « الهنا » (ص ٤٦) مكان « الهناءة ».- وليست هذه الألفاظُ التي نُشير إليها هنا من باب القوافي المقصورة.

نظم حازمٌ القَرْطاجني هذه المقصورةَ في مديح المُستنصرِ بالله (أبي عبدِ الله محمدِ بنِ أبي زكريا يحيى) خامس سلاطينِ الحَفْصيين في تونس (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ). وذكر حازمٌ نفسُه أنـه طوى مقصورته هذه على عددٍ من الفنون والأغراض (ص ١٦) من مدحٍ وغزلٍ وحكمة ومَثَلٍ ومن وصفِ البُلدان والرِّياض والأزهار والأزمان والبِحار والصَّيْد والقَنص والوعظ والقَصَص. ثمّ قال إنّها قصيدةٌ من الرَّجَز غيرُ مشطورةٍ (أي تفاعيلها تامّةٌ: مستفعلن مستفعلن مستفعلن)، عارضتُ بها قصيدةَ أبي بكرِ بنِ دُريدٍ المقصورةَ ».

ومدحَ حازمٌ القرطاجنيُّ بمقصورته هذه المستنصرَ بالله الحَفْصيَّ مدحاً كثيراً (ص ١٥ - ١٧ ، الخ). ولكنّ هذه المقصورةَ متفاوتةٌ في الجَوْدة: فيها أبياتٌ سائرةٌ وأبياتٌ كثيرةُ الغريبِ كثيرةُ التكلُّف. ثم إن فنونَها الكثيرةَ (مدحاً وغزلاً وخمراً ومجوناً وحكمةً وفخراً وشكوَى وتاريخاً ووصفاً) جعلتْ تنظيمَها مُضطرباً، فهو في كثيرٍ من الأحيان يأتي إلى التاريخ ثمّ يُغادِرُه إلى فنٍ آخرَ ثمّ يعودُ إلى التاريخ. ومثلُ ذلك (في الفنون الأخرى) كثيرٌ أيضاً.

ولا شكّ في أنّ لحازمٍ معرفةً بالغريب (الألفاظ القليلة الدوَران على الألسنة) ومعرفة باستعالها. ثمّ إنّ إشارتهِ إلى الأحداث التاريخية كثيرةٌ. أما أبياتُه في الوصفِ والغزَل والحِكمة ففيها سلاسةٌ وطَلاوة.

وفيما يلي نُخبةٌ من هذه المقصورة:

لله ما قد هِجْتَ، يا يومَ النَّوى، على فُؤادي من تباريحِ الجَوى[1]:
لقد جمعتَ الظُّلَمَ والإظلامَ، إذْ واريْتَ شمسَ الحُسنِ في وقتِ الضُّحى[2].
فإن يطُلْ ليلي، فكم قصّرتُه بقاصراتِ الطَّرفِ بيضٍ كالدُّمى[3]؛
وكم تنعَّمتُ بوصلِ ناعمٍ وباقتناصِ باغمٍ مثلِ الطَّلا[4].
شفى فُؤادي رشفُهُ، من بعدِ ما أشفى بقلبي طَرْفُه على شَفا[5].
وعزّني وَجْدي بجَوْدٍ غرّني عِطْفٌ لها لانَ بقلبٍ قد قسا[6].
فلو تجود قَدْرَ ما ضنّتْ حَكَتْ جُودَ أميرِ المؤمنين المُرتجى[7]
خليفةِ اللهِ المُسمّى المُكتَنى خيرَ الأسامي الساميات والكُنى[8]،
المُرتقي من نِسبةِ المجد التي تسمو إلى الفاروقِ أعلى مُرتقى[9].
من نَبعةٍ أصولُها ثابتةٌ وفَرْعُها إلى السماء قد سما[10].
ذاك أبو حفصٍ الذي إلى علا سَمِيِّهِ الهادي أبي حفصٍ نما[11].

---

(١) النوى: البعد، البعاد. يوم النوى: يوم الفراق. التباريح: الشدائد، المصائب. الجوى: ألم الحب.

(٢) واريت: أخفيت. - لعل في الشطر الثاني إشارة إلى أن محبوبة للشاعر أو قريبة له ماتت وهي في أول شبابها (؟).

(٣) قاصرات الطرف (البصر) عين (جمع عيناء - بالفتح - الواسعة العينين): النساء العفيفات اللواتي يقصرن (يحبسن) أبصارهن على أزواجهن ولا يمددن بصرهن إلى رجال آخرين. راجع القرآن الكريم (٣٧: ٤٨، الصافات): ﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾. الدمية: التمثال الصغير (المرأة الجميلة).

(٤) ناعم (فتاة ناعمة: فتية، صغيرة السن) الباغم: ذو الصوت الجميل (مثل صوت الغزال). الطلى (بالفتح والألف المقصورة): ولد الظبية.

(٥) رشفه (شرب الريق من فمه). أشفى بقلبي طرفه (نظره، عينه) على شفا: (كاد لحظه أن يتلف قلبي، أن يقتلني).

(٦) عزني (غلبني) وجدي (شدة حبي، ألم الحب) بجود (امرأة جميلة) غرني (خدعني). العطف: الجانب الأعلى من الجسم. - يتمايل عطفها للينه (فتائها، جمالها).

(٧) ضن: بخل. أمير المؤمنين (المستنصر الحفصي الممدوح بهذه المقصورة).

(٨) خير الأسامي = محمد. خير الكني = أبو القاسم (كنية الرسول).

(٩) يصل نسبه إلى الفاروق أبي حفص عمر بن الخطاب.

(١٠) راجع القرآن الكريم (١٤: ٢٤، ابراهيم): ﴿كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾. النبعة: مجتمع جذور النبات (سَبَلة القمح تكون واحدة من مجموع كبير مجتمع).

(١١) أبو حفص (الأولى): الجدّ الأعلى للأسرة الحفصية الحاكمة في تونس. أبو حفص (الثانية): عمر بن الخطاب. نما: ارتفع، انتسب.

وزادَ عبدُ الواحدِ الهادي ابنُه معالمَ التوحيدِ والهَدْيِ عُلا [1].
ثمّ أتمّ اللهُ نورَ هَدْيِهِ بنَجْلِه يحيى الإمامِ المُرتضى.
ثمّ تجلّتْ آيةُ اللهِ التي بدا بها الحقُّ اليقينُ وجلا.
بنَجْلِهم، بل نَجْمِهم، بل بَدْرِهم، بل شَمْسِهم ذاتِ السَّناء والسَّنا [2]:
محمّدِ سليلِ يحيى بنِ أبي مُحمّدٍ نجلِ أبي حفصِ الرضا.
مُستَنْصِرٌ باللهِ منصورٌ بهِ، مُؤيَّدٌ بعَوْنهِ على العِدا.
فرعٌ كريمٌ من أصولٍ كَرُمَتْ قدِ اصطفاه مِنْهُمُ مَنِ اصطفى.
إنْ أمَرَ الدهرَ بنَفْعٍ يأتمِرْ، وإن نَهى الدهرَ عنِ الضُّرِّ انتهى.
حَضْرَتُه أمُّ البِلاد كُلِّها وقُطبُ ما منها دنا وما قصا [3].
كجنّةِ الخُلْدِ تَسُرُّ مَنْ رأى فيَزْدري الخُلْدَ وسرَّ مَنْ رأى [4].
حُسْنُ البلادِ كُلِّها مُجتمعٌ لها، وكلُّ الصيدِ في جَوْفِ الفَرا [5].
أرْوَتْ، أميرَ المؤمنين، سُحُبٌ من جُودِكم رَوْضَ الأماني فارتوى.
طابتْ به الأيامُ لي حتى لقد ذَكَرْتُ - فيما قد خلا - عَيْشاً خلا.
فيا خليليَّ، اسْقِياني أكْؤُساً تُسْكِرُ من خمر الصِّبا مَنْ قد صحا.
بُلِّغْتَ آرابَ المُنى في دولةٍ أوْلَتْ يدي أسنى الأيادي واللُّها [6].
في بُقعةٍ كجنّةِ الخُلد التي يرى بها كُلُّ فؤادٍ ما اشتهى.
أُقسِّمُ الأيامَ بينَ منظرٍ ومَسْمَعٍ يَسْبي العقولَ والنُّهى،

---

(١) زاد (عبد الواحد) هذه المعالم علا (ارتفاعاً) فوق علاها.

(٢) السناء: الرفعة والمكانة العالية. السنا: الضوء، النور. اللمعان.

(٣) الحضرة: العاصمة. أم البلاد (أصل كلّ البلاد، أكبرها). قصا: ابتعد.

(٤) يزدري: يحتقر. الخلد: قصر الخلد في بغداد منذ أيام أبي جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين. سرّ من رأي: مدينة على أربعين كيلومتراً شمال بغداد كانت عاصمة للخليفة المعتصم ثامن الخلفاء العباسيين.

(٥) الفرا: حمار الوحش. «كل الصيد في جوف الفَرا» مثل معناه أن صيد الفرا أفضل من جميع أنواع الصيد.

(٦) الأرب: الحاجة، الغاية. أسنى: أعلى، أثمن. اليد (وجمعها أيدي): العضو المعروف. اليد (وجمعها أيادي): النعمة، العطيّة. اللها جمع لهوة (بالضم فيها): العطيّة.

ومَنْعَمٍ بمطعمٍ ومشربٍ ... يُرضي العُيونَ والأُنوفَ واللَّها [1]،
ومركــــبٍ لِأَنَسٍ ومجلِسٍ ... في مَدْرسٍ ومحضَرٍ في مُنتدى،
ومَلْثَمٍ لِمَرْشَفٍ ومَهْصَرٍ ... لِمِعْطَفٍ من أهيفٍ طاوي الحَشا [2].
فالدهرُ عبــدٌ والليــالي عُرُسٌ، ... والدهر أحلامٌ كأحلامِ الكَرى [3].
منــازلٌ للحُسن تُنسي جِلِّقــاً، ... ونهرُهــا السَّلسال يُنسي بَرَدى [4].
ثمّ تَنادَيْنــا بقصْــدِ مَنزلٍ ... جمعنــا فيــه السرور ونَــدَى [5]،
وأُترِعَــتْ للشاربــين أكؤُسٌ ... مِمّا حَلا مطعمُه وما حَذى [6].
فاجتمــع الأُنس بجمــعِ فِتيــةٍ ... على عجوزٍ وَسْمُها وَسْمُ الفتى [7].
حاربــتِ الأشجانَ عنهم وعَتَتْ ... - من طارقِ الهمّ - على مَنْ قد عتا [8].
فلم تَدَعْ همًّا عتا، حتى لقد ... كادتْ تُشِبُّ كلَّ همٍّ قد عتا [9].
غَنِيــتُ عنهــا بكُؤوسِ أدبٍ ... تُسقى فيُستشفى بها ويُشتفى [10].
وآثرتْ نفسي عليهــا شَرْبــةً ... من ضَرَبٍ يُجنى ورِسْلٍ يُمترى [11]

---

(١) اللها جمع لهوة (بالفتح فيهما): الحلق (أقصى الفم).

(٢) المرشف: الفم. ومهصر لمعطف (أي: ضم الرجل امرأة إلى صدره). الأهيف: النحيف الجسم. طاوي (ضامر، نحيل) الحشا (البطن).

(٣) ترد كلمة «الدهر» مرتين في هذا البيت. وأفضّل أنا أن أجعل «الدهر» الثانية «العمر».

(٤) منازل (في تونس) تنسى جلقاً (بلداً في حوران - بين سورية وفلسطين اليوم - ويطلقها الشعراء عادة على دمشق). ونهر تونس (نهر مجردة) السلسال: الماء العذب الصافي. بردى: نهر دمشق.

(٥) ندى المطر الأرض «(بللها)». ندا يندو (جاد، سخا): كثر فيه السرور. «ندى» معطوفة على «جمعنا».

(٦) أترعت: ملئت. حذا الشراب يحذو: قرص اللسان (بشدته أو مرارته).

(٧) عجوز: خمر. وسمها: صفتها.

(٨) الشجن (بفتح ففتح): الحزن (بالضم). عتا: ظلم، اشتد. الطارق: الآتي فجأة. يتوهم الشاعر أن شرب الخمر يذهب هموم شاربها.

(٩) ترد كلمة «عتا» في بيتين متواليين (ص ٥٢، السطران الأولان). عتا (في البيت الثاني): كبر، عظم. «كادت تشب كلّ همٍّ قد عتا» (كادت تجعل كل همٍّ عتي أو كبير همًّا شابًّا أو صغيراً جديداً - ؟).

(١٠) تركتُ شرب الخمر واستعضت بأحاديث الرجال. هذه الأحاديث يراد بها أيضاً نسيان الهموم، وهي تنسي الهموم أيضاً.

(١١) آثر: فضل. الضرب (بفتح ففتح): العسل. الرسل (بالكسر): اللبن الحليب. يمتري: يحلب (حديثا).

كم زُرتُ في تلك المغاني الغُرِّ مِن غانيـــةٍ تنظُرُ من عَيْنَيْ رَشا[١].
لّما غلا ما أرخصتْ من وَصْلِها، أرخَصْتُ من دُرِّ الدموعِ ما غلا[٢].
مـا حكَمتْ عيـني على قلبي لها حتّـى أنالَتْهـا بعَيْنَيْها الرُّشى[٣]
في ذِمّـةِ الله فؤادٌ مـا رعـى ذِمّتَـه ظَبْيٌ بقلـبي قـد رَعـا[٤].
إنْ تنحـدرْ في وصفــهِ فإنّــه بدرٌ على غُصنٍ على دِعْصِ نَقا[٥]،
وناظرٌ يمنَـــعُ كُـــلَّ ناظرٍ من وَرْدِ خـدٍّ ناضرٍ أنْ يُجْتَنى[٦].
ومَبْسِمٌ يَزْدَحِمُ البَرقُ بـــــه إذا انْـبرى ما بينَ ظَلْمٍ ولَمى[٧].
وصحنُ صــدرٍ مُنْبِـتٌ رُمّانَتَيْ حُسنٍ، وبطنٌ مُنْطَوٍ طيَّ المُلا[٨].
وفَخِـــذانِ آخِــذانِ فوقَ مــا تمَّا بــهِ مِنَ النعـيمِ المُغتــذى[٩]
يكــادُ يبـدو خصرُه مُنْخَـذِلاً من رِدفـهِ إذا تمشّى الخَيْزلى[١٠].
نَشوانُ من خمرِ الصِّبـا يَحْسَبُـه نشوانَ من خمرِ الدِّنانِ مَنْ نَجا[١١].
ظَبْيٌ أذالَ الليـثَ إذْ أدّى لـه؛ يا مَنْ رأى ظَبْياً لِلَيْثٍ قد أدى[١٢]

---

(١) المغنى: المكان المسكون. الغرّ جمع أغرّ وغراء (أبيض، بيضاء): عظيمة، وجيهة. الغانية: المرأة الجميلة (المستغنية بجمالها عن الحلي). الرشأ: ولد الظبية.

(٢) الدر: اللؤلؤ. لمّا بخلتْ عليّ بما جادت به على غيري بكيت كثيراً.

(٣) الرشى جمع رشوة.

(٤) أحببتها بكل قلبي فلم تحفظ لقلبي تضحيته، فمات قلبي.

(٥) وجهها كالبدر، وقامتها كالغصن، وأردافها كالدعص (القطعة المستديرة من الرمل، الجانب من التلة) من نقا: رمل (أبيض).

(٦) ألحاظها (القاسية) تمنع كل ناظر إليها (محبّ لها) أن يقطف ورد خدها (أن يقبلها).

(٧) المَبسم: الفم. البرق (كناية على الاسنان البيض). انبرى (بدا، ظهر). الظلم (بالفتح): بريق الأسنان وماؤها (نضارتها وحسن لونها). اللمى (بالفتح): السمرة في الشفتين.

(٨) الملاءة (بالضم): ثوب يلف به الجسم (وجمعها ملاء - بالضم).

(٩) النعيم المغتذى (من التغذي بالأطعمة الطيبة المفيدة).

(١٠) منخذل (ليست في القاموس)= مخذول: مقطوع، منقطع (نحافة خصره وعظم ردفه يخيلان إلى الرائي أن أحدهما سينفصل عن الآخر). الخيزلى: مشية (بالكسر) فيها تثاقل (بطء).

(١١) الدنّ (بالفتح) وعاء الخمر الكبير. - أن الذي يبصره يظنه سكران من الخمر (بينما هو سكران من نشاط الشباب).

(١٢) أذال (؟) لعلّها أدال (بالدال غير المنقوطة): نصر (شخصاً على آخر) غلب. أدى: ختل (خدع =

يـا ظبيـةً حـازتْ فُؤادي فغَـدا — قلبيَ من جسمي بعيدَ المُنتوى [1]،
يـا ليتَ شِعري، مَنْ سلبتِ قلبَه — هل يَرْجِعُ السابي إليه ما سبى [2]؟
لا تَظْلمي إنسانَ عيـني في الهوى، — فليس للإنسان إلّا ما سَعى [3].
ظنّـتْ بأن اللَّوْمَ يُنسي* خاطري — عن صَبْوةٍ لسَلْوةٍ، فما آنثنى.
وآستَطْرَفَـتْ جَرْيي بمَيْدانِ الصِّبا، — لمّا رأتْ طِرْفَ الشباب قد كَبا [4].
وبـين جَنْبَيَّ فُؤادٌ لم يَرُعْ — جَنابَـه شيـبٌ بفَوْدَيَّ بـدا. [5].
وآعتـاض مِمّا قـد أفاتَ دهرُه — بما أفاد من يـدٍ وما حَبا [6].
ظـلُّ أمـيرِ المؤمنـين عنـدَه — أنعمُ من ظِـلِّ الشباب والصِّبا.
فإنْ ذَوى رَوضُ الصِّبا، فجُودُه — يُعيـدُ غَضًّا ناعماً مـا قد ذَوى.
فـلا تَظُنّي أنـني آسَى لِما — قـد بزّني صَرْفُ الزمانِ وبَزا [7].
قـد مارستْ نفسِيَ حالَيْ دهرِها، — فلم يـدُمْ سُرورُها ولا الأسى [8].
وقلّبـتْ قلـبي الليـالي بينَ ما — قـد لانَ من خُطوبِها وما قسا.
فـلم يَطِرْ لِمُؤنسٍ مَسرّةً، — ولم يَطِشْ لمُوحِشٍ ولا نَزا [9].
ولي فُؤادٌ مُنصِـفٌ في حُكمـه — مُتَّصِفٌ بالعدل فيما قـد قضى.

= الطريدة ليصطادها). - ظبي غلب أسداً (امرأة جميلة أسرت بحبها رجلاً قوياً). والعادة أن الأسد يتغلب على الظبي وأن القوي يخدع الضعيف.

(١) المنتوى: الشيء المقصود. حاز: استولى. - لا أستطيع أن أصل إلى قلبي (لا أستطيع أن أحكم عليه).

(٢) رجع (بفتح ففتح) يرجع (بفتح فسكون فكسر) فعل لازم ومتعدّ: يرجع (هنا) يردّ الشيء إلى صاحبه.

(٣) معنى الشطر الأول (؟). ﴿وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى﴾ (٥٣: ٣٧، سورة النجم).

(*) لعلها: «يثني» (يرد، ينهي) مكان «يُنسي».

(٤) الفود: الشعر النابت في جانب الرأس. - الشيب الذي بدا (ظهر) في شعري لم يرعني (لم يخفني)، فما زلت أحبّ.

(٥) الدهر فوّت عليه أشياء كثيرة (شبابه) فتعوض منها صحبة أمير المؤمنين (راجع البيت التالي)، بما ناله من

(٦) العطايا (من السلطان المستنصر). حبا: أعطى.

(٧) آسى: أحزن. بزّ: غلب، سلب. صرف الزمان: شدائده ومصائبه. بزا يبزو: قهر، بطش.

(٨) الأسى: الحزن.

(٩) طار (فرح). طاش السهم: انحرف. خفّ عقله واضطرب. نزا: وثب (اضطرب؟).

كم دَمّثَ الخُلْقَ لِمَنْ في خُلْقِه ... دَماثةٌ، وكم جسا لِمَنْ جسا(1).
قد وافقَتْني أزْمُني وخالفتْ، ... ولانَ لي عِطفُ الليالي وعَسا(2).
ولم تُقصِّرْ مُهْجتي في الجِدّ، بل ... قصّرَ بي جَدٌّ إذا شِئتُ أبى(3).
لم يَعْرِفِ الأيامَ عِرفاني بها ... مَنْ زَجَرَ الطيرَ وعافَ وحَزى(4)
ما يَقَظاتُ العيش إلاّ حُلُمٌ، ... ولا مَرائي الدهر إلّا كالرُّؤى(5).
وكيف تصفو لامرئٍ معيشةٌ، ... ومورِدُ الدنيا مَشوبٌ بالقَذى(6)؟
وإنّما الآمالُ فيها صُوَرٌ ... تُخلَعُ أحياناً وحيناً تُكْتسى
والعيشُ محبوبٌ إلى كُلِّ امْرِئٍ: ... لا فرقَ بينَ الشيخ فيه والفتى.
وليس للإنسانِ في عيشتِهِ ... نفعٌ إذا صِبْغُ الصِّبا عنه نَضا(7).
وخيرُ عيشِ المرءِ ما سُرَّ به. ... ومن يقُلْ قولاً سوى هذا هَذى(8).
من أقنعَ الحظُّ القليلُ نفسَه، ... أضحى عنِ الحظِّ الكثيرِ ذا غِنى.
وإنّ أغنى الناسِ عندي عاقلٌ ... أبدى اقتناعاً بالقليلِ واكتفى.
مَنِ ابتغى من لم يُقدَّر كَوْنُه ... له، فإنّ مُستحيلاً ما ابتغى.
قد يُدْرِكُ الحاجةَ مَنْ لم يَسْعَ في ... طِلابِها، وقد تَفوتُ مَنْ سعى.
من كان سعدُ الجَدِّ من أعوانِه، ... أظفَرَهُ الله بأقصى ما رَجا(9).
ومن يخُنْهُ الجَدُّ لم ينهَضْ به ... جِدٌّ ولم يظفرْ بأدنى ما نوى.

---

(1) دمّث: ليّن. جسا: قسا، يبس.
(2) عطف الزمان: جانب الزمان (الزمان). عسا: غلظ، يبس.
(3) الجدّ (بالكسر): السعي، الكد. الجد (بالفتح): الحظّ.
(4) ... من استطلع الغيب: بزجر الطير (إذا رأى طيراً يطير من اليسار إلى اليمين تفاءل، وإذا رآه يطير من اليمين إلى اليسار تشاءم) وبالعيافة (التفاؤل أو التشاؤم بأسماء الطيور التي تمرّ بالإنسان أو بالأماكن التي تقع (تحط) عليها تلك الطيور). حرى: (تكهن (حاول معرفة الغيب).
(5) المرأى: المظهر البادي للعين. الرؤى جمع رؤيا: المنام، الحلم.
(6) مشوب: مخلوط، ممزوج.
(7) صبغ (لون) الصبا (الشباب): سواد الشعر. نضا (فعل لازم ومتعد): نصل (ذهب لونه)، ابيضّ؛ خلع.
(8) هذي يهذي: تكلّم بكلام غير مفهوم ولا معقول (من مرض أو جنون).
(9) الجدّ (بالفتح): الحظ.

وخيرُ ما يدَّخِرُ المرءُ، وما يُبقيه في أعقابهِ، طيبُ الثنا.
والبُعد مِمّا لا يُفيدُ قُربُه فائدةٌ حقيقةٌ أنْ تُقتنى.
وأُلفةُ الناسِ يراها وَحشةً مَنْ ألِفَ الوِحْدَةَ عنهم وآنزوى.
من لم يكُنْ مُنْتَمِياً للخيرِ لم يُكْرَمْ، وإن كان كريمَ المُنتمى[1].
من صاحبَ الإنسانَ في العُسْر كما صاحبَهُ في يُسْرِه فقد وَفى.
من يُرْضِ مخلوقاً بما لا يَرْتضي خالقُه، فإنه شَرُّ الوَرى.
إنّ ثَواءَ المرءِ في أوطانهِ عِزٌّ، وما الغُربةُ إلاّ كالتَّوى[2].
لا تعتقدْ أنّ لخَلْقٍ قوّةً، إلاّ إذا ما اللهُ أعطاه القُوى.
فأصغَرُ الأشياءِ قد أثر في أعظمِها بالعَوْن من ربّ العُلا.
قد أهلكَ الأُحبوشَ طيرٌ قد رمى جيوشَهم بمَكّةٍ بما رمى[3].
وهدّ قِدْماً هُدْهُدٌ بنبأ ما كان هَدْهادٌ لِبلقيسَ آبتنى[4].
وقد أعادَ الفأرُ سدَّ مأربٍ دكّاً كأنْ لم يَبْنه مَنْ قد بنى[5].
وألْقَتِ النُّمرودَ من كُرسِيِّهِ بعوضةٌ عَدَتْ عليه إذ عدا[6].
وقلّما مُدّ المَدى لِمَنْ غدا في الظُّلْم والعُدوانِ ممدودَ المَدى.
وكيف لا يخافُ عُقبى البَغْيِ من رأى عِقابَ اللهِ فيمن قد بَغى؟
قد حَفِظَ اللهُ نظامَ الخَلْق في دُنياهُمُ ولم يَدَعْ شيئاً سُدى.

---

(١) منتم: تابع، منتسب. كريم المنتمى: شريف الأصل، معروف الأجداد.
(٢) الثواء: المكث، السكني. التوى: الهلاك.
(٣) الأحبوش: الأحباش. الطير المذكورة في سورة الفيل (رقم ١٠٥ في المصحف). جاءت على جيش أبرهة الحبشي أبابيل (جماعات) من الطير وألقت حجارةً من سجيل (بالكسر: طين مطبوخ) فأبادت الجيش وما كان معه من الفيلة.
(٤) «بنبأ» لعلها: بسبأ (في اليمن). هدهاد بن شُرَحْبيل (أبو بلقيس). هد عرشها أو ملكها (؟). راجع القرآن الكريم (٢٧ : ٢٠ وما بعد، سورة النمل).
(٥) دكّ الرجل البناء: هده. في الأساطير أن فأراً نقر حجارة سد مأرب.
(٦) نمرود من الجبابرة (تاج العروس- الكويت ٩ : ٣٤٠)، كان ملكاً ظالماً. وفي الأساطير أن بعوضة دخلت في أنفه فوصلت إلى دماغه فكانت سبب موته. كرسيه (عرشه).

فليس يُخلي خَلْقَه من رافعٍ لِما هَوى أو راقعٍ لما وَهى[1]:

إمّا نبيٌّ مُرْسَلٍ بوحيهِ هادٍ وإمّا مَلِكٍ عَدْلٍ رِضا.

قد بدأ اللهُ الهُدى بآدمٍ وأظهر الخيرَ به حتّى بدا[2].

وأرشدَ الخَلْقَ برُسْلٍ بعدَه هَدَوْا إلى سبيلهِ كما هَدى[3].

وجمّع اللهُ جميعَ هَدْيِهم وفَضْلِهم في الهاشميّ المُصطفى[4].

وخَلَفَتْهُ في الهُدى خلائفٌ بهَدْيِهم بعدَ هُداه يُقْتَدى[5].

ثمّ انتهى كُلُّ رشادٍ بعدَهُمْ إلى أميرِ المؤمنين المُجتبى[6]:

خليفةٍ أحسنَ للناس فقد جزاه بالإحسان عنهم مَنْ جَزى.

نادى إلى طاعتهِ داعي هُدًى لصوتهِ في الشرق والغرب نَدى[7]

عادَ به الدهرُ ربيعاً كلُّه، وقامَ ميزانُ الزمان واستوى

ساق الملوكَ بعصا سُلطانهِ، فكلُّهم صَيَّرَهم عبدَ العَصا.

فلو أرادَ سَوْقَ خاقانَ بها لانقاد في طاعته وما عصى[8].

ولو أراد سَوْقَ كِسرى فارسٍ، بها ثَناه وهو مكسورُ المَطا[9].

ولو سما بها لِضَرْب قيصرٍ، لسَامَه قَسْراً بها ضربَ الجزى[10].

ولو بها أرادَ سَوْقَ تُبَّعٍ، لَجاءه مُتَّبِعاً وما أبى[11]

---

(١) هوى: سقط. وهى: ضعف، استرخى، تشقّق.

(٢) حتّى (لعلّها: حين).

(٣) كما هدى الله رسله (؟).

(٤) إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم (بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم) المصطفى (المختار).

(٥) الخلائف: الخلفاء الراشدون: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ.

(٦) المجتبى: المقرب من الله، المختار. المقصود هنا: المستنصر الحفصي.

(٧) نديّ الصوت (القاموس ٤ : ٣٩٤، السطر الأخير): الصوت القويّ الذي يكون له صدى (أثر) بعيد.

(٨) خاقان: لقب ملوك الترك.

(٩) المطا: الظهر. ثناه: ردّه (عمّا يريد) مكسور المطا: مرغم. بها (بعصاه).

(١٠) سامه قسراً: أذله، قهره (وأرغمه على الانقياد لأمره). ضرب الجزى (رتّب عليه جزية): أخضعه لحكمه.

(١١) تبّع: لقب ملوك اليمن.

قـد فاض في الآفاق نورُ سَعْدِه، وألبسَ الأيـــامَ حُسنـــا وكَسا.
وجعلَــتْ جُــدودُه تُربي عــلى ما شيَّدتْ جُدودُه من البِنى [1]
من كـــلّ منصورِ الجُنودِ ناشرٍ للعَــدْلِ في الآفـاق منشورِ اللِّوا
قــــادوا إلى أندلُسٍ كتائِبـــاً أمامَها النصرُ العزيزُ قد قَدى [2].
وصبّحوا الأرْكَ بجيشٍ غطّ في آذيِّـهِ أذفُنشَ لمّـا أن غطا [3].
مـــا زال يُمْـلي الملَوانِ نصرَه، وسيفُه يختَطُّ ما يُملي الملا [4].
طاعتُـــه من طاعــةِ الله، فمَنْ دعـا إلى هذي، إلى تلك دعا [5].
ليس السعيــدُ غـيرَ مَنْ أسعـدَهُ إلٰهُــهُ بالعفوِ عنـــه والرِّضـا.
ولا السَّخِيُّ غـــيرَ مَنْ بذاتـــه قـد جاد في ذات الإلٰهِ وسَخا [6].
يــا أيُّهـا الإنسانُ، إني ناصـحٌ فٱستمِعِ النُّصحَ وكن ممّن وَعى.
لا تغتـرِر بالعُمر وأعـلَمْ أنّ ما لم يَمْـضِ من أيامـهِ كما مضى.
وكُــلُّ مــا لا بُــدَّ من إتيانـهِ وكَوْنـــهِ فإنـــه كما أتـــى.
لا بُـــدَّ أن يَنتهِيَ المرءُ إلى مـــا قـدَّرَ اللهُ عليــهِ وقضى.
فالعُمرُ مــا بـين وُجودينِ، ومَنْ ظنّ الوُجودَ واحـداً فقد سها [7].

---

(١) جدود جمع جدّ. الجدّ (بالكسر): الجهد والكدّ والعمل. والجد (بالفتح): الحظّ أو أبو الأب. البني جمع بنيّة (البناء القائم). لقد بنى بعمله هو وحده أكثر ممّا كان جميع جدوده قد بنوا (بفتح النون).

(٢) قدى: أسرع.

(٣) الارك: بلدة في الأندلس بنواحي بَطَلْيوس (عند منتصف الحدود بين اسبانية والبرتغال اليوم. حدثت عندها معركة (سنة ٥٩١ هـ) فهزم الموحدون الاسبان وردّوا عن المسلمين في الاندلس شيئاً من الأذى. ووجه المدح للحفصيين بالانتصار في هذه المعركة أن الموحدين أسلاف الحفصيين. الآذيّ: الموج. الاذفنش: لقب ملوك الاسبان. غطا يغطو: (الماء): ارتفع. غطّ: غمس.

(٤) الملوان: الليل والنهار. يملي (يتلو على الناس). يملي (الثانية): يفرض، يوجب. الملا: رؤساء القوم (إشارة إلى عمله بالشورى، فهو لا يستبد في الحكم).

(٥) من دعا إلى طاعة المستنصر فإنه يدعو إلى طاعة الله.

(٦) في ذات الإلٰه: في سبيل الله. سخا: جاد، بذل المال أو النفس، الخ.

(٧) الوجودان الدنيا والآخرة.

ولا تَحِــدْ عن سَنَنِ السُّنّــة في حــالٍ، وكُنْ مّمن بأهلِها اقتدى[١]

وخُـذْ من الآراءِ بالرأيِ الـذي وافـقَ قولَ اللهِ واترك ما عدا[٢].

نظمتُهـــا فريـــدةً في حُسنِهـــا منظومـةً نظمَ الفريـدِ المُنتقى[٣].

تخَيَّرَ اللفــظَ الفصيــحَ خاطري لهـا، ولم يَحْفِل بحوشِيٍّ اللُّغى[٤].

قلّدهـــا من المعـــاني حِليـــةً وزفّهـــا إلى المعـالي وهَـدى[٥].

نظمَهـا آبن حــازمٍ، وقـد نمى نِسبتَها إلى آبن حِزامٍ من نمى[٦].

وقـــد عزا الإحسانَ في أمثالهـا لآبن الحسينِ أحمدٍ مَنْ قد عزا[٧].

بدأتُهـا باسمِ الـذي خَتَمتُهـا بحمـدِه، جـلّ الإلَـهُ وعـلا.

فالبـدءُ باسمِ اللهِ أولى مـا بـه عِنـدَ افتتاح كُلِّ أمرٍ يُعتنى.

والحمـــدُ للهِ أجَـــلُّ غايـــةٍ يُبلَـــغُ بالقولِ لهـــا ويُنتهـــى.

- قال حازمٌ القَرْطاجنيُّ يمدح رسول الله ببديعيّةٍ يُنَصِّفُ فيها مُعلّقَة آمرِىءِ القيس (صُدورُ القصيدة من نظمِ حازمٍ وأعجازُها تضمينُ أعجازِ مُعلقة آمرِىءِ القيس). فمن أبياتِ هذه البديعيّة:

لِعينَيْـكَ قُلْ، إنْ زُرْتَ أفضلَ مُرسَلِ: (قفا نَبْكِ من ذِكْرى حبيب ومنزلِ)[٨].

وفي طَيْبـــةٍ فَآنزِلْ، ولا تَغْشَ منزلاً (بِسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخول فحَوْمل)[٩].

---

(١) حاد: مال، انصرف، ابتعد عن الطريق السوي. السنن: الطريق. السنة: أعمال رسول الله.

(٢) .... ما عدا (ما عداه): غيره.

(٣) منظومة: مرتبه كأنها في سلك (خيط أو عقد). الفريد: اللؤلؤ الكبار.

(٤) الحوشي من الألفاظ: الوحشي (ما كان غريباً في المعنى وقبيحاً في اللفظ). اللغى جمع لغة.

(٥) زفّ الناس العروس (نقلوها إلى بيت زوجها).

(٦) ابن حزام شاعر جاهلي قديم، قبل امرىء القيس، قيل هو أول من وقف على الأطلال وبكى الديار. والناس رفعوا هذه الأرجوزة فقالوا هي من الشعر القديم (الجيد). نمى الحديث: رفعه، نسبه.

(٧) أمثالها: الحكم التي فيها. أحمد بن الحسين هو المتنبي. عزا: نسب.

(٨) أفضل مرسل: محمد رسول الله. المنزل: المكان الذي «تنزل» فيه قافلة مدة ثم تتابع سيرها. ويكون المنزل عادة عند الماء.

(٩) طيبة: المدينة المنوّرة. غشي الرجل المكان: أتاه، جاء إليه. سقط اللوى والدخول وحومل أسماء أمكنة.

وزُرْ روضةً قد طالما طاب نَشْرُها (لِما نَسَجَتْهـا من جَنوبٍ وشَمْألِ)[١].
فيا حادِيَ الآبالِ، سِرْ بي ولا تقُلْ: (عَقَرْتَ بعيري، ياآمْرَأَ القيسِ فَآنْزِلِ)[٢]
نَبِيٌّ هُدًى قد قال للكُفر نورُهُ: (ألا أيُّها الليلُ الطويلُ، ألاَ آنْجَلِ)[٣].
لأمداحِ خيرِ الخَلْقِ قَلْبِيَ قد صَبا، (وليس فؤادي عن هَواها بِمُنْسَلِ)[٤].
يُنادي: إلَهي، إنّ ذَنْبِيَ قد غدا (علَيّ بأنواعِ الهُمومِ لِيَبْتَلي)[٥].
فكُنْ لي مُجيراً من شياطينِ شَهوةٍ (علَيّ حِراصٍ، لو يُسِرّونَ مقتلي)[٦].
أيا سامعي مدحِ الرسولِ، تَنَشّقوا (نسيمَ الصَّبا جاءتْ بِرَيّا القَرَنْفُلِ)[٧].
ويا من أبى الإصغاء، ما أنتَ مُهتدٍ، (وما إن، أرى عَنْكَ الغَوايةَ تَنْجَلي)[٨].

- وله أيضاً بديعيّة على مِثالِ البديعيّة السابقة (يُنَصِّفُ فيها قصيدةً لامْرِىءِ القيسِ أيضاً):

أقولُ لعزمي أو لصالح أعمالي: (ألا عِمْ صَباحاً، أيُّها الطَّلَلُ البالي)[٩].
أما واعظي شَيْبٌ سما فوقَ لِمّتي (سُمُوَّ حَبابِ الماءِ حالاً على حالِ)[١٠]؟

---

(١) الروضة: قبر رسول الله في المدينة المنوّرة. النشر: الرائحة (الطيبة). الجنوب (ريح الجنوب) والشمأل (ريح الشمال). نسجتها (هنا): جعلت فيها آثاراً (وهذا غير المعنى المقصود في المعلقة). المعنى هنا: إن الجنوب والشمال قد جاءتا إلى هذه الروضة برائحة طيبة.

(٢) الآبال جمع إبل (بكسر فكسر): الجمال (بالكسر). الحادي: سائق الابل يغني ليخفف عن المسافرين في القافلة الملل من طول الطريق. عقر السرج البعير: أحدث فيه جرحاً.

(٣) انجلى الليل أو الظلام: انجاب، انكشف.

(٤) صبا: مال، اتجه. انسلى (في شرح الزوزني): زال الحب من قلبه (رجع عن حبه).

(٥) غدا: جاء باكراً. ليبتلي: (ليختبرني).

(٦) مجير: منقذ. حراص جمع حريص: شديد الرغبة. لويسرون مقتلي (لو يستطيعون أن يكتموا خبر قتلي).

(٧) الصبا: ريح الشرق (وتكون في نجد رطبة باردة منعشة). الريّا: الرائحة (الطيبة).

(٨) إنْ (هنا) زائدة. الغواية = الغيّ: الضلال.

(٩) «عم صباحاً» (تحية الصباح): الطلل: المكان الذي كان فيه خيمة ثمّ أزيلت وبقي أثرها في الأرض.

(١٠) اللمة: الشعر الذي في جانب الرأس. حباب الماء: فقاقيع (أكر مملوءة هواء) تطفو (تعوم) على وجه الماء. حالاً على حال (مرة بعد مرة).

أنـارَ بـه ليـلُ الشبـابِ كأنّـه (مصابيـحُ رُهبـانٍ تُشَبُّ لقُفّـال)[1].
نَهانِيَ عن غَيٍّ وقـال مُنَبِّهـاً: (ألستَ ترى السُّمّارَ والناسَ أحْوالي)[2]؟
أُغالِـطُ دَهْري، وَهْوَ يعلَـمُ أنّنـي (كَبِرْتُ وأنْ لا يُحْسِنُ اللَّهْوَ أمثالي)[3].
ومُؤنِسُ نـارِ الشَّيـبِ يقبُـحُ لَهْوُهُ (بآنِسةٍ كأنّهـا خـطُّ تِمْثـالِ)[4].
أشيخـاً وتأتي فِعْلَ مَنْ كان عُمْرُهُ (ثلاثيـنَ شهراً في ثلاثةِ أحْوالِ)[5].
إلا إنّها الدُّنيا، إذا ما ٱعْتَبَرْتَها (ديارٌ لِسَلْمى عافِياتٌ بذي خال)[6].
ألا ليتَ شِعري، هل تقولُ عزائمي (لِخَيْلِيَ: كُرّي كَرّةً بعدَ إجفال)[7]؟
فأنْزِلَ داراً للرسولِ، نَزيلُهـا (قليلُ الهُمومِ ما يَبيتُ بأوْجال)[8].
جِوارُ رسولِ اللهِ مجـدٌ مُؤَثَّـلٌ، (وقد يُدْرِكُ المجدَ المُؤَثَّلَ أمثالي)[9].
لأحمدَ خيـرِ المُرسلين ٱنْتَقَيْتُهـا (وُرِضْتُ، فذلّتْ صعبةً أيّ إذلال)[10].
وإنّ رجـائي أنْ أُلاقِيَـهُ غـداً (ولستُ بمَقْلِيٍّ الخِلالِ ولا قال)[11]؛
فـأُدْرِكَ آمـالي، ومـا كُـلُّ آمِـلٍ (بِمُدْرِكِ أطرافِ الخُطوب ولا آلِ)[12].

---

(١) تشب: توقد، تشعل. القفال (جمع قافل: راجع)، وهم المسافرون في القافلة سواء أكانوا ذاهبين إلى مكان أو راجعين إلى الوطن.

(٢) السمار جمع سامر: الساهر.

(٣) «أن» مصدرية «(وليست ناصبة)... كبرت ولا يحسن اللهو أمثالي.

(٤) مؤنس نار الشيب: الذي شاب شعره. آنس الرجل الشيب في رأسه: رآه. الآنسة (في العصر الجاهلي): المرأة التي يأنس الرجال بها. كأنها خط تمثال (جميلة فتية).

(٥) ثلاثون شهراً في ثلاثة أحوال (أعوام: ستّة وثلاثون شهراً؟). لم يمتّع بما أراد طويلاً (؟).

(٦) إذا ما اعتبرتها: نظرت في أحوالها، تأملتها. ديار عافية (ممحوة الأثر). ذو خال: مكان. الخال: المكان لا أنيس فيه (راجع القاموس ٣: ٣٧٢).

(٧) كرّ يكر: هجم. اجفال (المملوح هنا: الجبن، الخوف التباطؤ)- يريد أن يذهب إلى الحج وزيارة قبر الرسول بعد أن طال عليه الزمن ولم يفعل.

(٨) الوجل: الخوف.

(٩) مؤثّل: أصيل، قديم، شريف.

(١٠) أحمد من أسماء رسول الله. انتقيت هذه القصيدة. ورضتها: مارستها طويلاً فذل (سهل عليّ) نظمها.

(١١) القلى: البغض. القالي: المبغض. المقلي: المكروه. الخلال: الصفات.

(١٢) بمدرك (بالغ، واصل إلى)أطراف الخطوب (أحداث الدهر ومصائبه) ولا آلِ (بمدّة على الألف. وكسرتين على اللام: مقصّر، منته): لا يستطيع أن ينال ما يطلبه ولا هو يترك طلب الأمور البعيدة المنال.

٤- ديوان حازم القرطاجني (تحقيق عثمان الكعّاك)، بيروت (دار الثقافة) ١٩٦٤ م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء (تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة) تونس (دار الكتب الشرقية) ١٩٦٦ م.

★★ رفع الحجب المستورة عن المقصورة، تأليف محمّد بن أحمد الشريف السبتي، القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٤٤ هـ.

القدح المعلّى ٢٠ - ٢١؛ الإحاطة ١: ٢٠٨؛ بغية الوعاة ٢١٤؛ شذرات الذهب ٥: ٣٨٧ - ٣٨٨؛ أزهار الرياض ٣: ١٧١ - ١٨٤؛ نفح الطيب ٢: ٢٠٨ - ٢٠٩، ٥٨٤ - ٥٨٩، ٣: ٦٠٤، ٤: ١٤٨، ٥: ١٨٩ - ١٩٠، راجع ١٩٨، ٤٨١، ٥١٩ - ٥٢٥؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٣٣٧ - ٣٣٨؛ بروكلمن ١: ٣١٧، الملحق ١: ٤٧٤؛ حوليات كليّة الآداب (القاهرة - عين شمس، جامعة ابراهيم): بحث وتحقيق للدكتور مهدي علام: «تاريخ أبي الحسن حازم القرطاجني الشاعر المنسيّ ونشأة فن المقصورة في الأدب العربي» (المجلّد الأول، مايو - أيار - نوّار ١٩٥١ م، ثمّ «مقصورة أبي الحسن حازم القرطاجني: تحقيق النص»، المجلّد الثاني، ص ١ - ١١٠)؛ الأعلام للزركلي ٢: ١٦٣ (١٥٩)؛ معجم المؤلفين ٣: ١٧٧؛ الداية (تاريخ النقد الأدبي في الأندلس) ٤٧١ - ٥٣٦.

عليّ بن موسى بن سعيد

١ - هو نورُ الدين[١] أبو الحسن عليُّ بنُ موسى بنِ محمّدِ بنِ عبد الملك بن سعيد[٢] العَنْسي الغَرْناطي الاندلُسي المَغْربي، وُلِـدَ في ٢٢ رَمَضـانَ من سَنَـةِ ٦١٠ (١٢١٤/٢/٦ م) في الأغلب، في قلعة يَحْصُبَ.

انتقل عليُّ بن موسى إلى اشبيلية فدرس فيها على أبي عليّ الشَلوبيني وأبي الحسن الدبّاج وابن عصفورٍ وغيرهم. وفي سنةِ ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) رَحَلَ مَعَ أبيه فوصلا إلى الاسكندرية في العامِ التالي. وفي الثامن من شوّالٍ من سَنَةِ ٦٤٠ (٦٤٣ م) توفّي والده.

وبقي عليّ بن موسى بن سعيد في الاسكندرية والقاهرة مدّة. ثمّ اتّفق أن زار مصرَ كمالُ الدين بنُ العديمِ الحلبيُّ فتابعَ عليُّ بنُ موسى سفره مَعَ ابن العديم، سَنَةَ ٦٤٨ هـ،

---

(١) فوات الوفيات ٢: ١١٢؛ بروكلمن ١: ٤١٠.
(٢) راجع تتمة النسب وجهود بني سعيد، في تأليف كتاب «المغرب»، فوق، ص.

إلى حَلَبَ. ثمّ إنّه سافر إلى دِمَشْقَ فبغدادَ فالبصرةِ فإلى أرّجانَ يَدْرُسُ على شيوخِ الأدب والفِقه.

وعادَ عليُّ بنُ موسى إلى المَغرب، سَنَة ٦٥٢، وطال مُكثه في تُونسَ، إذْ دخل في خِدمة المُسْتَنْصِرِ الحفصيّ (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ). ولكنّ المستنصرَ غَضِبَ عليه. ثمّ إنّه سافر مرّةً ثانيةً إلى المشرق، سنة ٦٦٦ (١٢٦٧ - ١٢٦٨ م)، وزارَ هولاكو[1] في أرمينيةَ ونَزَل ضيفاً عليه مُدّةً من الزمن. بعدَئذٍ آستعدّ للعودة إلى المَغرب، ولكنْ تُوُفّيَ في دِمَشْقَ في الأغلب، سَنَةَ ٦٨٥ للهجرة (١٢٨٦ م).

٢ - عليُّ بن موسى بن سعيد جُغرافيٌّ ومؤرّخٌ وأديبٌ ناقدٌ ناثرٌ شاعِر. وشعرهُ وَسَط مَعَ أنّه يَتَّسِمُ بالخصائصِ الاندلسية من التفنُّنِ في الوصف والتأنّق في التعبير. غيرَ أن شهرته راجعة إلى المصنّفات التي نَعرِف منها: الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد - الغرّة الطالعة في شعراء المائة السابعة[2] - القِدْح المُعلّى في التاريخ المُحلّى - المرزمة - المُرقص المُطْرب - المُقْتَطَفُ من أزاهر الطُرَف - عُدّة المستنجز وعُقلة المستوفز - رايات المُبرزين وغايات المميّزين - ملوك الشعر - المُشْرق في أخبار المشرق - المُغْرب في أخبار المَغْرب؛ ولعلّه المغرب في حُلى المغرب.

أتمّ عليُّ بنُ موسى بنِ سعيد تأليفَ كتاب المُغْرِب في حُلى المغرب. ولكتاب المُغْرب منهاجٌ هو الإتيان بنَفَرٍ من الشعراء البارزين من بُلْدانِ المَغْرب (الأندلس ومِصْر والمغرب) من طبقات المجتمع المختلفة (الرؤساء والوزراء والعلماء: علماء الفلسفة والتنجيم والموسيقى والطِّب) والشعراء، إلاّ أن له في تصنيف الشعراء وترتيبهم طريقةً معقّدة جدًّا. ولكن الذي لا ريب فيه أن هذا الكتاب جمع تراجمَ نادرةً ونماذجَ من الشعر والموشّحات رائعةً طريفة.

٣ - المختار من آثاره

- قال عليُّ بنُ موسى بن سعيدٍ في ترجمة «أبي جعفرٍ أحمدَ بنِ عبدِ الملك بن سعيدِ

---

(١) هولاكو سلطان التتار، وهو الذي دمّر بغداد وقضى على الخلافة العباسية، سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م).

(٢) هو كتاب «الغصون اليانعة» (راجع القدح المعلى، ص ١٨٧).

(المغرب ٢ : ١٦٤):

هُوَ عَمُّ والِدي وأحدُ مُصَنِّفي هذا الكتاب. كان والدي كثيرَ الإعجابِ بشعرِه مُقَدِّماً له على سائرِ أقاربهِ. وآستوزَرَهُ عُثمانُ بنُ عبدِ المؤمنِ مَلِكُ (والي) غرناطةَ.... وآنضاف إلى ذلك آشْتِراكُهُما في هَوى حَفْصَةَ الشاعرةِ، وكان عُثمانُ أسودَ اللونِ، فبلغه أنّه[1] قال لَها: ما تُحبّين في هذا الأسودِ وأنا أقدِرُ أن أشتريَ لكِ من السوق بعشرينَ ديناراً خيراً منه! ثمّ إن أخاه عبدَ الرحمن فرّ إلى ملكِ شرق الأندلس ابن مَرْدَنيشَ فوجدَ عثمانُ سَبباً إلى الإيقاع بأبي جعفرٍ فضَرَب عُنقَهُ.

– وقال في ترجمة موسى بنِ محمّدِ بنِ عبد الملك بن سعيدٍ (المغرب ٢ : ١٧٠): لولا أنّه والِدي لأَطْنَبْتُ في ذِكْرِهِ ووَفَّيْتُهُ حقّ قدرِه. وله في هذا الكتابِ الحَظُّ الأوفرُ؛ وكان أشْغَفَهُمْ بالتاريخ وأعلَمَهم به. وجالَ كثيراً إلى أنِ انْتَهَى به العُمُرُ في الإسكندريةِ، وقد عاشَ سَبْعاً وسِتّينَ سَنَةً لم أرَهُ يوماً يُخَلّي من مُطالعة كتابٍ أو كَتْبِ ما يَحْلو، حتّى في أيام الأعياد.

– ومن شعر عليِّ بن موسى قولُه في النهر الذي يمرّ عليه النسيمُ وتَميل عليه الغُصون:

كأنّما النهرُ صَفحـــــةٌ كُتِبَـــتَ أسْطُرُهـــا والنسيمُ مُنْشِئُهـــا.
لمّـــا أبانـــت عن حُسْنِ مَنْظَرِهِ مالـتْ عليهـا الغصونُ تَقْرأهـا.

– وله قصيدةٌ يتشوّق فيها إلى المَغْرب، في مَطْلَعِها:

هـــــذهِ مصرُ، فأيْنَ المَغرِبُ؟ مـذْ نـأى عنّي دُموعي تَسْكُبُ.
فارَقَتْـــهُ النفسُ جَهْـــلاً؛ إنّما يُعْرَفُ الشيءُ إذا مـا يذهـب.
أين حِمْـصٌ: أين أيّامي بهـا؟ بعدَهـا لم ألْقَ شيئاً يُعْجِـبُ[2].

– وقال آبنُ سعيدٍ في التَّخلي (ترك الزَّواج):

أنـا شاعرٌ أهوى التخلّي دون ما زوجٍ لكــيما تخلُصُ الأفكـارُ.

---

(١) فبلغ إلى سمع عثمان أن علي بن موسى قال.

(٢) حمص = اشبيلية.

لو كنتُ ذا زوج لَكنتُ منغَّصاً | في كـلّ حينٍ رِزْقَها أمتـار[١].
دعني أُرِحْ، طولَ التغرّب، خاطري | حتّــى أعودَ ويستقرّ قَرار[٢].
كم قائل لي: «ضاع شَرْخُ شبابه!» | مـا ضيَّعتْـهُ بَطالـةٌ وعُقـار[٣].
إذ لم أزَلْ في العلم أجْهَدُ دائماً | حـتى تأتَّـتْ هـذه الأبكـار.
مهما أرُمْ من دون زوج لم أكُنْ | كَلًّا، ورزقي دائماً مِـدرار[٤].
وإذا خرجْـتُ لِفَرْجـة هُنِّئْتُهـا؛ | لا صَنْعـة ضاعتْ ولا تَذْكار[٥].

- وقال في طلب اللهو بالطرب في الحدائق والجنائن:

باكرِ اللهوَ؛ ومن شاءَ عَتَــبْ. | لا يلَـــذُّ العيشُ إلّا بالطربْ.
مـا توانى من رأى الزهر زهـا | والصَّبا تمرَحُ في الروض خبَبَ[٦].

- وقال في مثل ذلك:

وعشيَّـةٍ بَلَغَتْ بنا أيدي النَّوى | منها محاسِنَ جامعاتٍ للنُّخَب[٧]؛
فحدائــقٌ ما بينها من جدولٍ | وبلابـلٌ فوق الغصون لها طرب..
والنخـل أمثـالُ العرائس لُبْسُها | خَزٌّ وحِلْيَتُها قلائدُ من ذهب[٨].

---

(١) امتار الرجل لأهله: جلب لهم القوت من مكان بعيد.
(٢) ما دمت مغترباً عن وطني فلا أريد أن أشغل (بفتح الغين) بالي بالاهتمام بامرأة وأولاد. فإذا أنا رجعت إلى الوطن واستقررت فيه، فلكل حادث حديث.
(٣) شرخ الشباب: عنفوانه وقوّته. العقار: الخمر.
(٤) رام يروم: أراد، طلب. الكَل: العاجز.
(٥) الفرجة: التخلص من الهمّ. والفرجة (في الاستعمال الحاضر): الذهاب «للنزهة» وترويح البال في الأماكن التي فيها جمال للطبيعة أو اجتماع للناس.
(٦) توانى: تكاسل، تأخّر. الصبا (بالفتح): ريح بليلة تهبّ على نجد (في بلاد العرب) من الشرق. خبب = خبباً: تسير بشيء من السرعة (كما تسير الخيل في أوّل ركضها). يقصد أن الهواء كان منعشاً.
(٧) النوى: البعاد، الفراق (المقصود: أن الشاعر زار أرضاً بعيدة؟). النخبة: الشيء، المختار أو المنتقى (أجود ما في الأشياء).
(٨) الخزّ: الحرير أو الثياب المنسوجة من حرير. القِلادة (بالكسر): حلية (بالكسر) تلبس في العنق.

٤- عنوان المطربات المرقصات، القاهرة (مطبعة جمعية المعارف) ١٢٨٦ هـ؛ (نشره عبد القادر محداد)، الجزائر (كاربونل) ١٩٤٩ م.
- العيون الدعج في حلى بني طغج (القسم الخاصّ بالأخشيديين- في مصر- من كتاب « المغرب ») (نشره تالوكيت)، ليدن ١٨٩٩ م.
- المغرب (قسم صقلّية)، ليدن ١٨٩٨ م، بالرمو ١٩١٠ م.
- النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة (القسم الخاصّ بالقاهرة من كتاب « المغرب »..... (تحقيق حسين نصّار)، القاهرة (دار الكتب) ١٩٧٠ م.
- رايات المبرزين وغايات المميزين (نشره أميليو غارثيا غومز)، مدريد ١٩٤٢ م.
- المغرب في حلى المغرب (حققه شوقي ضيف)، مصر (دار المعارف) ١٩٥٣ - ١٩٥٥ م.
- المغرب:قسم مصر (نشره زكي محمّد حسن وشوقي ضيف وسيّدة كاشف)، القاهرة (مطبعة فؤاد الأول) ١٩٥٣ م.
- اختصار القدح المُعلى (تحقيق ابراهيم الابياري) ١٩٥٩ م.
- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة (بتحقيق ابراهيم الابياري)، مصر (دار المعارف) ١٩٦٧ م.
- كتاب الجغرافية (حقّقه اسماعيل العربي)، بيروت (منشورات المكتب التجاري) ١٩٧٠ م.
- مختصر جغرافية ابن سعيد (نشره ج. فيرنيه)، تطوان ١٩٥٨ م.

★★ -ابن سعيد المغربي، تأليف محمّد عبد الغني حسن .... عام ١٩٧٠ م.
فوات الوفيات ٢: ١١٢ - ١١٤؛ الذيل والتكملة ٥: ٤١١ وما بعد؛ القدح المعلّى ١ - ١٢؛ الديباج المذهب ٢٠٨ - ٢٠٩؛ بغية الوعاة ٣٥٧؛ نفح الطيب ٢: ٢٦٢ - ٣٧٤ (يكثر المقرّي من الكلام على ابن سعيد هذا وعلى نفر من أهله وينقل من « المغرب » كثيراً - راجع فهرس نفح الطيب ٨: ٦٧)؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٩٢٦؛ نيكل ٣٦١؛ مختارات نيكل ٢٠٥ - ٢٠٧؛ الأعلام للزركلي ٥: ١٧٩ (٢٦ - ٢٧)؛ سركيس ١١٨ - ١١٩؛ بالنثيا ١٣٥ - ١٣٧؛ تاريخ النقد الأدبي في الأندلس لمحمّد رضوان الداية ٣٩١ - ٣٩٨؛ تاريخ النقد العبّاسي لاحسان عبّاس ٥٣٢ - ٥٣٥؛ المكتبة العربية الصقلّية ١٣٤ - ١٣٧؛ مجلّة المجمع العربي بدمشق ٣٣: ٣٠٢ (عام ......)، راجع ٥٢٥.

ابن أبي الربيع القرشيّ

١ - هو الإمامُ أبو الحسينِ عُبيدُ اللهِ بنُ أحمدَ بنِ محمّدِ بنِ عبيدِ الله بن أبي الربيعِ القرشيُّ

الأُمويّ العثماني الإشبيليّ، وُلِدَ (في إشبيليةَ) في رَمَضانَ من سَنَةِ ٥٩٩ (ربيع ١٢٠٣ م)، أخَذَ القِراءاتِ عن محمّدِ بنِ هارونَ التَيْمِيّ وسَمِعَ (الحديثَ) من القاسم بن بَقيٍّ وقرأ النحوَ على الشَّلوبينِ (ت ٦٤٥ هـ) والدبّاج (٦٤٦ هـ)، وأذِنَ له الشلوبينُ بالتصدّرِ لإقراء النحو.

ولمّا استولى الإسبانُ على إشبيلية، في أوّل شَعبان من سَنَةَ ٦٤٦ (١٩/١١/١٢٤٨ م) انتقل ابنُ أبي الربيعِ إلى سَبْتَةَ وأقرأ بها النحوَ مُدّةً. ثمّ إنّه عاد إلى إشبيلية. وكانتْ وفاتُه فيها سَنَةَ ٦٨٨ (١٢٨٩ م).

٢ - كان ابنُ أبي الربيعِ إمامَ النحوِ في عصرِه ومن المؤلفين فيه، له: المُلخّصُ في النحو - القوانين النحوية - الإفصاح في شرح الإيضاح (للفارسي المتوفّى سَنَةَ ٣٧٧) - شرح الجُمل (؟ للزجّاجي المتوفّى نحوَ سَنَةِ ٣٣٩، في عَشْرِ مُجلّداتٍ) - شَرْح (كتاب؟) سِيبَوَيْهِ - بَرْنامجَ (شيوخه).

- ★ ★بغية الوعاة ٣١٩؛ بروكلمن ١: ٣٨٢، الملحق ١: ٥٤٧؛ الأعلام للزركلي ٤: ٣٤٤ (١٩١).

ابراهيم بن أبي بكر التلمساني

١ - هو أبو اسحاقَ ابراهيمُ بنُ أبي بكرِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ موسى الأنصاريُّ التلمسانيّ، أصلُه من وَقَّشَ★ ومَوْلِدُه في تِلْمِسان، سَنَةَ ٦٠٩ (١٢١٢ - ١٢١٣ م). انتقل بهِ أهلُه إلى الأندلس فسكَنوا غَرناطةَ ثلاثَ سَنَواتٍ ثمّ تحوّلوا إلى مالَقَةَ وطال سَكَنُهم بها؛ وفيها تلقّى ابراهيمُ مُعْظَمَ معارفهِ. ثمّ إنّه انتقل إلى سَبْتَةَ واستقرّ فيها بقيّةَ عُمُرِهِ.

وقد تلقّى ابراهيمُ ابنُ أبي بكرٍ العِلمَ على كثيرين منهم (الديباج ٩٠): أبو بكرِ بنِ مُحْرِزٍ وأبو الحسنِ بن طاهرٍ الدبّاج (الإحاطة ١: ٣٣٥ الربّاج) وأبو عليٍ الشَّلوبينِ (ت ٦٤٥ هـ) وأبو العبّاس عليُّ بنُ عصفورٍ الهوّاري وأبو المُطَرِّفِ بنُ عُمِيرةَ (ت ٦٨٥ هـ) وأبو يعقوبَ يوسفُ بنُ موسى المحاسني القاري (الإحاطة: الحسّاني الغُماري).

(★) وقش (بتشديد القاف المفتوحة): مدينة بالاندلس (تاج العروس - الكويت ١٧ : ٤٥٥).

وكانت وفاة إبراهيمَ بنِ أبي بكرٍ في سَبْتَةَ سَنَةَ ٦٩٠ (١٢٩١ م).

٢ - كان إبراهيمُ الأنصاريُّ التلمسانيُّ مُبَرِّزاً في عِلم العَدَد (الحِساب) والفَرائض (تقسيم الإرث) وماهراً في كثيرٍ من العُلوم والأعمالِ التي يُحاوِلُها حاضِرَ الذِّهْنِ ذَكِيًّا. وكذلك كان لُغويًّا وأديباً وشاعراً مُكثِراً ومُطيلاً. وشعره في المدح (وفي البديعيّات: مدح الرسول) والأدب (الحِكمة)، كما كان له نظمٌ في عددٍ من فروع العلم. وقد كان مُصنِّفاً له: نتيجة الخِيَر ومُزيلة الضّرر في نظم المغازي والسِّيَر[١] - الأُرجوزة: المنظومة التِّلِمْسانية في الفرائض (تقسيم الإرث)، نَظَمها نحوَ سَنَةِ ٦٣٥ للهِجرة، وقد شَرَحَها كثيرون[٢] - المُعَشَّرات على أوزان العرب - مقالات في علم عَروض الدوبيت.

٣ - مختارات من شعره

- بين يدينا من شِعرِ ابراهيمَ بنِ أبي بكرٍ التلمسانيَ:

★★ الغـدْر في الناس شِيمةٌ سَلَفَتْ ... قـد طال بين الورى تَصَرُّفُها[٣].

مـا كلُّ من قـد سَرَتْ لـه نِعَمٌ ... منــك يرى قَدْرَهــا ويَعْرِفُهـا.

بــل ربّما أعْقَــبَ الجزاءَ بهــا ... مَضرّةٌ عَزّ عنــك مَصْرِفُهــا[٤].

امــا ترى الشمسَ تَعْطِــفُ بالـ ... ـنور عـلى البدرِ وهْو يَكْسِفها[٥]!

★★ أرأيتَ من رَحَلوا وزمّوا العِيسا ... ألا يزول عـلى الطلول حَبيسا[٦]؟

---

(١) المغازي جمع مغزاة (بفتح الميم): الغزوة (حرب يسير إليها المسلمون في أيام الرسول). السيرة: حياة الرسول والصحابة.

(٢) راجع بروكلمن.

(٣) شيمة: خصلة، عادة. سلفت: مضت (هنا: قديمة في الناس). الورى: الناس. تصرّفها: تقلّبها بين الناس وأفعالها فيهم.

(٤) عزّ (صعب) مصرفها (دفعها عنك).

(٥) القمر يستمدّ نوره من الشمس. وفي بعض الأحيان يعترض القمر بين الشمس والأرض فتنكشف الشمس (يحتجب نورها عن الأرض).

(٦) زمّ العيس (النياق): جعل لها زماماً (لجاما)، أي أعدّها للرحيل. - يبدو أن الشطر الثاني تتمّة لبيت آخر. الملموح ان الذي يعدّ الرحلة للسفر، لا يبقى محبوساً (واقفاً على بقايا المنازل).

أحَسِبْتَ سوفَ يعودُ نَسْفُ تُرابِها .... بمـا يَشْفي لَدَيْـكَ نَسيسا[١].
هـل مؤنسٌ نـاراً بجانـبِ طُورِها لأنيسِهـا أم هل تُحِسُّ حَسيسا[٢]؟

٤- ★★ الديباج المذهب ٩٠ - ٩١؛ الإحاطة ١ : ٣٣٤ - ٣٣٧؛ بروكلمن ١ : ٤٨٢، الملحق ١ : ٦٦٦؛ معجم أعلام الجزائر ٩ - ١٠؛ الطمّار ٨٣ - ٨٤ (نقلاً عن الإحاطة).

ابن السمّاط المهدويّ

١- هو أبو يعقوبَ يوسفُ بنُ عليٍّ بنِ عبدِ الملكِ بنِ السمّاطِ البَكريّ المَهْدَوِيُّ، وُلِدَ في المَهْديّةِ (وهي مرفأ في منتصف الشاطىء الشرقي من القطر التونسي) سَنَةَ ٦١٣ هـ (١٢١٦ - ١٢١٧ م). ويبدو أنّه لَمّا تقدّمتْ به السِنُّ انتقلَ إلى الاستغراق في التقوى والعبادة واشتدّ الحنينُ به إلى الحَجِّ إلى مَكّةَ وإلى الزيارةِ إلى المدينة، ولكنْ لم يَتَيَسّرْ لـه ذلك. وكانت وفاتُه في العَشْرِ الأواسط من شَعبانَ من سَنَةِ ٦٩٠ (أوائل آب - أغسطس ١٢٩١ م).

٢- كان ابنُ السمّاطِ المَهدويُّ فقيهاً وأديباً عارفاً باللغة، وكان شاعراً قَصرَ شِعرَه (لّما تقدّمتْ به السنّ) على البديعيّات. وشِعْرُه فصيحُ الألفاظ صحيحُ التركيب فيه شيءٌ يسيرٌ من الصِّناعة ولكنّه أحياناً قليلُ الرونق. والأفكارُ فيه كثيرةٌ والمعاني تَغْلِبُ فيه على الصِّياغة.

---

(١) النقط تمثّل نقصاً في الأصل. النسيس: بقيّة الروح (النفس). الملموح: هل تظنّ أن شمّ تراب المنازل ينعش الإنسان.

(٢) هل مؤنس ناراً: أهنالك من يؤنس (يرى) ناراً: الطور: الجبل. الأنيس: الساكن في المكان. - أتظنّ أنّك تنال مراداً من الوقوف في دار خالية أو هل تظنّ أن الدار الخالية تحسّ بأنّك واقف فيها؟ - في الأبيات معنى يقرب من أن يكون صوفيا. راجع في رؤية النار عند الطور سورة القصص (٢٨ : ٢٩): ﴿فلمّا قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً. قال لأهله: امكثوا، إنّي آنست ناراً، لعلّي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلّكم تصطلون﴾.

٣- مختارات من شعره

- قال ابنُ السمّاطِ المَهدويُّ من بديعيّة (في مدح الرسول):

لعلّ نُسيماتِ الضُّحى والأصائلِ ... تُؤدّي إلى مَغْنى الحبيبِ رسائلي[١]،

وتُهدي، إذا مرّتْ سُحيراً بِرَبْعهِ، ... سلامي إلى بَدْرٍ بطَيْبَةَ آفلِ[٢].

وكلُّ الأماني في غُدُوٍّ رواسمٍ ... إلى رَسْمه أو في رَواحٍ رواحل[٣].

وما سَوْقُها بل شَوْقُها يَستَحِثُّها ... حثيثَ أخي الإملاق يُدعى لنائل[٤].

وكم آيةٍ دلّتْ على صِدقهِ، فما ... ألَبَّ لها الإنكار في لُبّ عاقل[٥].

رسولٌ أتى والغَيُّ وارَتْ غيومُه ... نجومَ الهُدى والرشدِ عن كلِّ غافل[٦].

ووافى ودِينُ الكُفرِ قامتْ دُعاتُه ... بإبطال تحقيقٍ وتحقيقِ باطل.

فلمّا بدتْ آياتُه وهِباتُه ... بدا النَّقْضُ فيما أبْرموا في المحافل[٧].

وفي كلّ ما يَتْلو الرسولُ دَلالةٌ ... على صدقهِ من واضحات الدلائل.

هو المُصْطفى من قبلِ تكوينِ آدَمٍ ... على الخَلْق من آبائِهم والحلائل[٨].

لَه غابةٌ من صَحْبه هو لَيْثُها؛ ... لَدَيْهِمْ مريرُ الموت عَذْبُ المناهل[٩].

---

(١) الأصيل: الساعات الثلاث التي تسبق غروب الشمس. مغنى: مسكن. الحبيب (محمّد رسول الله).

(٢) بدر (كناية عن رسول الله). طيبة: المدينة المنورة. الآفل: الذي غرب وراء الأفق (غاب في قبره).

(٣) الرواسم (رسم بضمّتين جمع رسوم بالفتح: الناقة الشديدة الوطء على الأرض). الرسم (مكان السكنى الذي خلا من ساكنه). الراحلة: ما يرحل (يسافر عليه الإنسان). الغدوّ: السير في الصباح. الرواح: الرجوع في المساء.

(٤) الإملاق: الفقر. النائل: العطاء.

(٥) ألبّ: عرض، تعرّض. ألبّ له الإنكار في لبّ عاقل (لم يستطع إنسان عاقل أن يعرض لها بإنكار: أن ينكرها).

(٦) الغيّ: الضلال.

(٧) النقض: الهدم. أبرموا: اتفقوا عليه.

(٨) الحليلة: (الزوجة). يرى الصوفية أن محمداً (صلّى الله عليه وسلّم) هو المخلوق الأول (أي الذي خلق الله العالم من أجله).

(٩) غابة (عدد وفير). الليث: الأسد (في هذا إشارة إلى «أُسْد الغابة في معرفة الصحابة») وهو كتاب في تراجم أصحاب رسول الله لعز الدين بن الأثير (ت ٦٣٠ هـ).

صدورٌ إذا حَلّوا بنادٍ؛ وفي الوغى صدورُهُمُ تَلْقى صدورَ العوامل[1].
أشِدّاءُ والهَيجاءُ حامٍ وطيسُها، ذَوُو رحمةٍ بالبائسات الأرامـــلِ.
فـكم من عديمٍ صار فيهم كمُتْرَفٍ؛ وكم من غريـبٍ صار فيهم كآهل!
كـذا فَلْيَكُنْ حُسْنُ الثنـاء لِسادةٍ متى أُمِّلوا لم يُخْلِفوا ظنّ آمـل.
عـلى من بهِ سادوا الورى وعلَيْهِمُ سلامٌ كنَوْر الروضِ بَيْنَ الخمائل[2].
فحتّـــى مـــتى أشْتاقُهم وتَغُرُّني أمـانٍ وإمهالٌ كتَسْويفِ باطل[3].
ومـــا المرءُ إلّا ظاعِنٌ مُتَرَحِّـــلٌ مُعَـــارٌ لأوقـــاتٍ تَمُرُّ قلائِـــلِ.
وإسفارُ صُبْحِ الشيب عن لَيْلِ لِمّتي دليلٌ على ظِلّ من العُمْر زائل[4].
ولمّـــا تقضّتْ في التواني شبيبتي وأصبحتُ من جرّائها في حبائل[5]،
ولم يَبْقَ لي إلّا التفاني بأدمُعٍ، على طول تفريطي، هوامٍ هوامل[6].
وكـلٌّ يرى أن المديـحَ وسيلةٌ، لكـلّ كريمٍ، من أجـلِّ الوسائل.
مدحـتُ الشفيعَ المُصْطفى غيرَ قائمٍ بِمِعْشار مـا يُحصى له من فضائل.
ومـا المدحُ فيمن يَحْسُنُ المدحُ باسمِه وأوصافِهِ إلّا كتَحْصيـل حاصل؛
ولكنّــــه جُهْـــدُ المُقِـــلِّ لقاصرٍ عن الفرضِ في تعظيمه والنوافل[7].
ألم (يأتِ) قولُ اللهِ في رَفْعِ ذكرِهِ؟ وهـل بعدَ قولِ الله قولٌ لقائل[8]!

---

(١) صدور (الأولى): وجهاء القوم. الوغى: الحرب. صدور (الثالثة): أعالي الرماح. العالية: النصل يكون في رأس الرمح (في الحرب يردّون بصدورهم رماح أعدائهم، دفاعاً عن الدين).

(٢) النور (بالفتح): الزهر الأبيض. الخميلة: الشجر الكثير الكثيف الملتف (المتشابك).

(٣) أمان جمع أمنية: ما يتمنّى الإنسان أن يحصل عليه. الإمهال: ترك الأمر مهلة (بالضمّ): مدّة، فترة. تسويف: تأخير. تسويف باطل (؟).

(٤) اللمّة: شعر الرأس المجاور لشحمة الأذن (وهو أوّل ما يشيب عادة من شعر الإنسان).

(٥) التواني: التكاسل (عن عمل الصالحات). في حبائل (من الذنوب).

(٦) التفاني بأدمع (ذهاب عمري شيئاً بعد شيء بالبكاء). الهامي والهامل (المنسكب بكثرة).

(٧) جهد المقلّ: الشيء القليل الذي يبذله الفقير أو العاجز. الفرض: ما يجب على الإنسان فعله. النافلة: ما يتطوّع الإنسان في فعله.

(٨) جاء في سورة الضحى (الثالثة والتسعين في المصحف): ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾.

- وقال من بديعيّة ثانية:

سَرَيْتُم وطَرْفي من كَرى العَزْم مـا هَبّـا،
وطِرْفُ انتهاضي في مَـدى الحَزْم مـا خَبّـا[1]

ومنها:

فحسبي رجائي أن يَمُنّوا بعَطْفِهِمْ. وأن يُعْقِبوا للبُعْدِ من وَصْلِهِمْ قُرْبَا.
ولا غَرْوَ أن يَلْقى الطُّفَيْليَّ ماجدٌ بوجهٍ بِهِ يَلْقى المعارفَ والصَّحْبا[2].
وإن هم جَفَوْني سوف أُهْدِي إِلَيْهِمُ سلامي لَعلّي بالرضا منهُمُ أُحبى[3].
ومَنْ صدّعنه الحِبُّ فَلْيُفْشِ مدحَـه، فإنّ امتداح الحِبِّ يستنزلُ الحُبّا[4].
وما القصدُ والمَعْنِيُّ بالرَّمْزِ والكُنى سوى مَنْ على كلّ النبيّينَ قد أَرْبى[5]،
ومن شاهدتْ عيناهُ من مُلْكِ ربّه وآياتِه ما يُعجِزُ الكُتبَ والكَتْبا[6].

أُحاشِيَـك، يـا كـلَّ المُنـى، أن تَـذودَني
عن الحَوْضِ يوم العَرْضِ أو أُمْنَـعَ الشُّربـا[7]

وربَّ كريمٍ غـضّ عن وِرْدِ واغـلٍ
حيـاءً إذا وافـاه إذْ يتبَـعُ السِّربـا[8]

---

(1) سرى: سار في الليل. الطرف (بالفتح): العين، البصر. الكرى: النوم. الطرف (بالكسر) الحصان. خبّ أسرع.

(2) الطفيلي: الذي يذهب إلى الولائم من غير دعوة خاصّة به. - لا بدّ من أن يكون هنالك ماجد: شريف خيّر (بتشديد الياء) يستقبل الطفيلي كما يستقبل أصدقاءه الذين دعاهم إلى وليمته (كناية عن الرسول).

(3) جفوني: ابتعدوا عنّي، كرهوا مجيئي). حبا: أعطى، منح.

(4) الحِبّ (بالكسر): المحبوب، فليفش: فلينشر. - إذا مدحت الذي لا يحبّك فيمكن أن تجعله محبًّا لك.

(5) المعنيّ: المقصود. الكنى: الإشارة إلى الشيء بالتلميح لا بالتصريح. أربى: زاد.

(6) الكتب (بالضمّ) جمع كتاب. الكتب (بالفتح): الكتابة. - ما تضيق عن استيعابه الكتب وما تقصّر الكتابة عن أن تحيط به.

(7) أحاشيك (أقول: حاشاك): أجلّك عن فعل شيء..... ذاد: دفع، طرد. الحوض: مجمع ماء يشرب منه المؤمنون يوم تقوم القيامة. يوم العرض: يوم الحشر، يوم القيامة.

(8) قد يتفق أن يدعو رجل كريم قوماً ثمّ يرى واغلاً (طفيليًّا) يتبع سربهم (جمعهم) فيغضّ الطرف عنه (يسمح بحضوره الوليمة).

لئن قَصّرتْ خَطْوي إليـك خَطيئتي وذَبَّتْنِيَ الأوزارُ عن بابكم ذَبّا [1]،
فمن شِيمـةِ العبـدِ الفِرارُ لربِّه؛ ومن شِيَمِ السادات أن يَغْفِروا الذنبا!

٤- ★★ رحلة التجاني (تونس ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٨)، ص ٣٨٠ - ٣٩٣؛ عنوان الأريب ٧٧ - ٧٩؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ٣٠٨ - ٣١٠؛ الأعلام للزركلي ٩: ٣١٩ (٨: ٢٤٢).

ابن عتيق المرسيّ

١- هو أبو عليٍّ الحسينُ بنُ عَتيقِ بنِ الحسينِ بنِ رشيقٍ التَغْلَبيُّ الأجدادِ المُرْسِيُّ الأصلِ السَبْتيّ الاستيطان. يبدو أنه انتقل باكراً من مُرْسِيَةَ إلى المغرب ونزل بسبتةَ فعَمِلَ فيها عَدْلاً من العُدول (عند أبواب المحاكم) ثمّ دخل في خِدمة أمير سبتةَ وأصبح كاتباً له.

وفي الإحاطة (١: ٤٨٠) أن ابنَ عتيقٍ السبتيَّ مُنْتَمٍ إلى صاحب الثوْرة على المعتمد (؟). ولعلّ المقصودَ «المعتضدُ» المُوحّدي (٦٤٠ - ٦٤٦ هـ)، وكان أنصارٌ للمرينيّين قد ثاروا عليه ثمّ قُتِلَ هو غَيْلةً في أثناء محاربتهم.

وبدا لابن عتيقٍ السَّبتيّ أن يعودَ إلى الأندلس فانتقل إلى المَرِيّةِ فوقع عِيالُه في أسْرِ القَراصِنَةِ (الإسبان أو البُرتغاليّين؟) فنظم قصيدةً في مديح والي المَرِيَّةِ من قِبَلِ سُلطان غَرْناطة الغالبِ بالله (٦٢٩ - ٦٧١ هـ) يتوسّلُ إليه أن يُساعده في اسْتنقاذِ عِياله. ولا شكّ في أنه أقام في غَرْناطة مُدّةً (ذَكَرَهُ ابنُ الخطيبِ في «الاحاطة»). وفي آخرِ عُمُرِهِ استدعاهُ السلطان المَرينيّ يوسفُ الناصرُ لدينِ الله (٦٨٥ - ٧٠٦ هـ) واستكْتَبَهُ. ولعلّ وفاتَه كانتْ سَنَةَ ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) أو بعدَ ذلك بقليل.

٢- كان ابنُ عتيقٍ السبتيُّ مُشاركاً في عددٍ من الفنون: كاللغةِ والنحوِ والتاريخ والأدب والتعاليم (الحساب والهندسة والفلك الخ). وكان بارعاً في لَعِبِ الشِّطْرنج

---

(١) ذبّ: دفع، طرد. الوزر (بالكسر): الذنب.

اخترعَ سُفرةً (رُقْعة) مستديرةً بَدَلَ الرقعة المربّعة. وله تصانيفُ منها الكتاب الكبير (في التاريخ) وله التلخيصُ المسمّى « ميزانَ العمل ». وكذلك كان شاعراً مقتدراً وصل إلينا من شِعره شيء من النسيب والمديح ثمّ قصيدةٌ طويلةٌ في الهجاءِ المُقْذع الفاحش في مالك بن المرحَّل – وكان بينهما عداوةٌ ومهاجاة.

٣ – مختارات من شعره

– قال ابنُ عتيقٍ السبتيُّ يهجو مالكَ بنَ المُرَحَّلِ (ت ٦٩٩ هـ):

لِكِلابِ سَبْتَةَ في النُّباح مداركُ	وأشدُّها دَرَكاً لذلك مالكُ[١].
شيخٌ تَفانى في البَطالة عُمْرُه،	وأحال فَكَّيْهِ الكلامُ الآفك[٢].
كلبٌ له في كلّ عِرْضٍ عَضّةٌ	وبكلّ مُحْصَنَةٍ لِسانٌ فاتك[٣].
أحلى شَمائِلِهِ السُّبابُ المُفْترى،	وأعَفُّ سِيرتِه الهِجاء الماعك[٤].
يَغْشى مَخاطِرَه اللئيمُ تَفكُّهاً،	ويَعافُ رُؤيْتَه الحليمُ الناسك[٥].
في شِعرِه من جاهليّةِ طبعهِ	أثقالُ أرضٍ لم يَنَلْها فاتك[٦].
إنّ سام مَكْرُمَةً جَثا مُتثاقلاً	يرغو كما يرغو البعيرُ البارك[٧]؛
ويَدِبُّ في جُنْحِ الظلام إلى الخَنا	عَدْواً كما يعدو الظليم الراتك[٨].
والدهرُ باكٍ لآنقلابِ صُروفهِ	ظهراً لِبَطْنٍ، وَهْوَ لاهٍ ضاحك.
واللُسْنُ تنصَحُه بأفصَحِ مَنْطِقٍ،	لو كان ينجو بالنصيحةِ هالك.

---

(١) المدرك والدرك: الوصول (اعتداء على الناس). مالك (بن المرحّل).

(٢) البطالة: الهزل. وأحال (غيّر شكل) فكّيه الكلام الآفك (الكذب).

(٣) المحصنة: المرأة العفيفة (ذات الزوج).

(٤) الماعك! يقصد الشاعر « المعك » (بفتح فكسر): الأحمق، الشديد الخصومة.

(٥) الرجل اللئيم يدرك أن مجالسة ابن المرحّل خطر عليه ومع ذلك فهو يحضر مجالسه لأنّ فيها أسباباً للضحك (عليه: على ابن المرحّل).

(٦) فاتك (؟). الفاتك هو الكثير الجرأة على الأمور.

(٧) إن سام (لعلّها: إن سيم: إذا طُلب منه). جثا: ركع.

(٨) دبّ: مشى ببطء واستخفاء. الجنح: الجانب من الليل. الخنا: العمل القبيح. العدْو: الركض. الظليم: ذكر النعام. الراتك: الذي يركض بخطى متقاربة.

تُـبْ ، يا ٱبنَ تِسعين ، فقد جُزْتَ المَدى وٱرتـاحَ لِلُقْيـا بِسِنِّكَ مالـك[١].
يا ابنَ المُرَحَّل لو شَهِدت مُرَحَّلاً وقدِ ٱنحنى بالرَّحْلِ منه الحارك[٢]،
لرأيـتَ للعـينِ اللئيمـةِ لَمْحـةً وعلا بصفع عَرْكَ أُذْنك عارك[٣]،
وشُغِلْتَ عن ذمِّ الأنـامِ بشاغلٍ، وثَنـاك خصمٌ من أبيك مُماحك.

– وله قصيدةٌ يمدح بها والي المَريّةِ وكان قريباً للسلطان الغالب بالله:

مُلقى النوى ملق لبعض نوالكا ، فاشْفِ المُحِبّ ولو بَطيْف خَيالكا[٤].
لا تَحْسَبَنّي من فُـلانٍ أو فُلا ، أنـا من رجالِ اللهِ ثمّ رِجالكا[٥].
نَصَـبَ العَـدُوُّ حبائلاً لِحَبائـبي ، وعَلِقْتُ في اسْتخلاصِها بحِبالكا[٦].
وكفـاكَ شرَّ العـينِ عيبٌ واحدٌ ، لا عيبَ فيه سوى فُلولِ نِصالكا[٧].

الإحاطة ١ : ٤٨٠ - ٤٨٤ ؛ بغية الوعاة ٣٥٤ ؛ الأعلام للزركلي ٢ : ٢٦٣ (٢٤٣).

ابن الغمّاز البلنسي

١ – هو أبو العبّاس أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ الحسنِ بنِ محمّدِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ سعدِ بنِ سعيدِ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ مُكْنفٍ المعروفُ بابن الغمّاز الأنصاريِّ البَلَنْسِيِّ ، من أهلِ

---

(١) سيسّر مالك (خازن النار) بلقياك (في وقت قريب) لأنك الآن طاعن في السّنّ. تسعين (!).

(٢) المرحّل: الجدّ الذي ينتسب إليه مالك هذا. يقول له: المرحّل ليس اسم الجمل الذي كان يرحل عليه جدّك ، بل هو اسم جدّك الذي كان يحمل عليه الناس أشياءهم فانحنى حاركة (أعلى كتفه) من أجل ذلك.

(٣) لكنت رأيت في جدّك لؤماً يبدو من عينيه ثم (جاء) من يعرك أذنك (يشدّها: احتقاراً لك) ويصفعك أيضاً (كرهاً لك).

(٤) ملقى النوى (الآتي من مكان بعيد!) ملق..... النوال: العطاء...

(٥) من فلان أو (فلان) في « فُلا » اكتفاء (ذكر أحرف تدلّ على الحرف المحذوف).

(٦) حبالة (بالضمّ): الشرك (بفتح ففتح). الحبائب جمع حبيبة. علقت بحبالك: أحببتك (المقصود: أصبحت أنا أسيراً لك).

(٧) النصل: حدّ السيف وغيره. الفلول: الشقوق التقطيع. عيبك الوحيد أن سيوفك مفلّلة من قتالك الأعداء (من قول النابغة: بهنّ فلول من قراع الكتائب).

بَلَنْسِيَةَ، وُلدَ يومَ عاشوراءَ من سَنَةِ ٦٠٩[١] وتلقّى العلمَ على كثيرين يبلُغون مائَةً عدًّا. وقدْ تنقَّلَ في عَدَدٍ من مُدُنِ الأندلسِ ومُدُنِ العُدْوةِ الإفريقيَة، وكان يعمَلُ في هذهِ البُلدان في العَدالةِ والتَوْثيق أو يتولّى فيها القضاءَ: تولّى القضاءَ في بِجاية مَعَ الصلاة في جامِعِها الأعظم؛ وتولّى القضاءَ مِراراً في تونس وأصبحَ فيها قاضيَ القُضَاة. ويبدو أنّه تخلّى في أواخرِ عُمُرِه عن العملِ للتكسّبِ وعَنِ المناصبِ ثم تَفَرَّغَ للروايةِ والإفادةِ (التدريس). وكانت وفاتُه في تُونِسَ في يومِ عاشوراءَ أيضاً من سَنَةِ ٦٩٣ (١١/١٢/١٢٩٣ م).

٢- ابنُ الغَمّازِ البلنسيُّ في الأصلِ من عُلماءِ الحديثِ ومن الفُقهاءِ. وكانَ شاعراً مُحْسِناً سهلَ القولِ واضحَ المعاني، وعلى شِعرِه نفحةٌ دينيةٌ ودلائلُ من الإخلاص.

٣- مختارات من شعره

- قال ابنُ الغمّاز البَلَنْسِيُّ في رجاءِ عَفْوِ الله:

وقالوا: أما تَخْشى ذُنوباً أتَيْتَها، ولم تَكُ ذا جهلٍ فتُعْذَرَ بالجهلِ؟
فقلتُ لهم: هَبْني[٢] كما قد ذَكَرْتُمُ: تجاوَزْتُ في قَوْلي وأسْرَفْتُ في فِعلي؛
أما في رِضا مَوْلى الموالي وصَفْحِه رجاءٌ ومَسْلاةٌ لِمُقْتَرِفٍ مِثْلي[٣]!

- وقال في محاسبة نفسه:

أما آنَ للنفسِ أن تخشَعا؟ أما آن للقلبِ أن يُقْلِعا[٤]؟
أليسَ الثمانونَ قدْ أقبَلَتْ فلم تُبْقِ في لَذّةٍ مطمَعا؟
تَقَضّى الزمانُ ولا مطمَعٌ لِما قد مضى منه أن يَرْجِعا.
تقضى الزمانُ، فواحَسْرتا لِما فات منه وما ضُيِّعا.

---

(١) عاشوراء: اليوم العاشر من المحرّم (الشهر القمري الأوّل). هذا اليوم يقع (من سنة ٦٠٩ هـ) في ١٢/٦/١٢١٢ م.
(٢) هبني (على التجريد: مخاطبة النفس): لأفرض أنا أني...
(٣) مولى الموالي: الله. المسلاة: المسلى والسلّو (النسيان والتعزّي). المقترف: المرتكب (للذنوب الكبيرة).
(٤) آن: حان، اقترب (ألم يأت الوقت بعد). أقلع: رجع (عن العمل القبيح).

ويــا وَيْلتــاهُ لِــذي شَيْبَــةٍ يُطيــع هوى النَّفْسِ فــيما دعــا؛
وبُعْــداً وسُحْقــاً لــه إذ غــدا يُسَمَّــعُ وَعْظــا ولن يَسْمَعــا[1]!

– وقال في التسليم لله في كلّ شيء:

يا صاحبَ الهَمّ، إنّ الهمَّ مُنْفَرِجٌ؛ كم من أمورٍ شِدادٍ فرّجَ اللّهُ!
اليــأسُ يقطَعُ أحياناً بصاحِبِه. لا تيأسَنَّ فــإنّ الفاتــحَ الله.
اللّهُ حسْبُكَ فيما عُـذْتَ منه به، وأين يأمَنُهَمَ مَن حَسْبُــه الله[2].
إذا قضى اللّهُ فاسْتَسْلِمْ لقُدرتِــه، مــا لأمرىء حيلةٌ فيما قضى الله.
سَلِّمْ إلى اللهِ فيما شاء وأرْضَ به، فالخَيْرُ أجمَعُ فــيما يصنَــعُ الله.

٤– ★★ عنوان الدراية ١٢٩ – ١٣٠؛ الديباج ٧٦ – ٧٩؛ نفح الطيب ٤: ٣٠٦ – ٣١٧، ٣٢١ – ٣٢٢، ٣٣٩ – ٣٤٠؛ وفيات ابن قنفذ ٣٣٤؛ درّة الحجال ١: ٧٩ – ٨٠؛ الأعلام للزركلي ١: ٢١٢ – ٢١٣ (٢٢١).

حافي رأسه

١– هو الشيخ مُحيي الدينِ أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ العزيزِ بنِ أبي محمّدٍ الزناتيّ الكملانيّ[3] (نِسبةً إلى قبيلةٍ من البربرِ) الإسكندرانيّ (نِسبةً إلى إسكندريةِ مِصرَ) المُلقّب «حافي رأسه»[4].

---

(١) السحق: البعد الشديد. بعداً وسحقاً جلة تقال في الدعاء على المذنب.
(٢) حسبك: يكفيك، كافيك. عذت (التجأت) منه (من الذنب) به (بالله). يأمنهم (كذا في الأصل!).
(٣) الكملاني (من بغية الوعاة ٥٧).
(٤) في الوافي بالوفيات (٣: ٣٦٥): «لُقّب بحافي رأسه لحفرة كانت في دماغه (انخفاض في صدغه). وقيل: كان في رأسه شيء يشبه (حرف)ح. وقيل: لأنّه كان في أوّل أمره مكشوف الرأس، فرآه رئيس في الثغر (الإسكندرية) فأعطاه ثياباً جُدُداً. فقال له: هذا لبدني، ورأسي حاف. فأمر له بعمامة. فلزمه ذلك اللقب». من أجل ذلك يحسن أن يلفظ لقبه: حافِ (بكسرتين) رأسه (بالرفع: ضمّ السين) على أنّ «رأسه» «فاعل» «حاف».

وُلِدَ محمّدُ بنُ عبدِ الله حافي رأسه في تاهرتَ[1]، سَنَةَ ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ - ١٢١٠ م). ويبدو أنّه رَحَلَ مُنْذُ مَطلعِ شَبابِهِ حتّى يكونَ قد أخَذَ فِعلًا عن عبدِ المنعمِ بن صالحٍ التميميّ (٥٤٧ - ٦٣٣ هـ) وعبدِ الرحمنِ بنِ عبدِ المجيدِ الصُفراويّ (٥٤٤ - ٦٣٦ هـ)، وكِلاهُما حِجازيُّ الأصلِ إسكندرانيّ الدارِ. وقد أخَذَ أيضاً عن عبدِ العزيزِ بن مَخلوفٍ الإسكندريّ وغيرِه.

واستقرّ حافي رأسه في الإسكندريةِ (فعُرِفَ من أجلِ ذلك بالإسكندراني) وتصدّرَ للتدريس فيها. وكانتْ وفاتُه في رَمَضانَ من سَنَةِ ٦٩٣ هـ[2] (صيف ١٢٩٤ م).

٢ - كان حافي رأسه من أئمّةِ العربيةِ (النحو)، قال الصفديّ[3]:

«هو أحدُ الثلاثةِ المُحمّدين - من كِبارِ النُّحاة - في عصرٍ واحدٍ: حافي رأسه في الإسكندرية، وبهاءُ الدين محمّدُ بنُ إبراهيمَ النّحاسُ (٦٢٧ - ٦٩٨ هـ) في مِصرَ (القديمة: مدينة عمرو بالفسطاط) وابنُ مالكٍ (ت ٦٧٢ هـ) في دِمَشْقَ. وكان لحافي رأسه شعرٌ.

٣ - مختارات من شعره

- قال حافي رأسه يشكُرُ المحبوبَ الذي علّمه الصبرَ على الهَجْرِ:

أمُعلِّمي الصبرَ الجميلَ بهجرِه ... فثَنى فؤاداً عنه لم يَكُ يَنْثني.
لا بُدّ من أجرٍ لِكُلِّ مُعَلِّمٍ. ... وإلى السلوّ ثوابُ ما علّمْتَني[4].

- وقال يهجو مُتَكَبِّراً (ويُجري هذا الهجاءَ في تَوْرِيَةٍ نَحْوِيةٍ بينَ رُفعةِ القَدْرِ والرفعِ في النحو ثمّ بين جرِّ طَرَفِ الثوب على وجهِ الأرض للتكبّر والخُيَلاء وبين الجرِّ

(١) في الوافي بالوفيات (٣: ٣٦٥، السطر الثاني): ولد بتلمسان... بظاهر. وفي بغية الوعاة (ص ٥٧، السطر الثالث من أسفل): ولد بتاهرت بظاهر تلمسان.

(٢) من بغية الوعاة: سنة ٦٩٣ أو ٣٩١ (عن أثير الدين أبي حيّان). وفي فوات الوفيات: سنة ٦٨٠.

(٣) الوافي بالوفيات ٣: ٣٦٥.

(٤) في الأصول: وإلى السلوّ (والمعنى غير مستقيم). اقرأ: ولي السلّو أو ولك السلّو (لك منّي السلّو: نسيان الحب) أجرا على تعليمك إيّاي الصبر.

في النحو. ثمّ هنالك طِباقٌ بينَ « الرفع » و « الجرّ »):

ومُعْتَقِــدٍ أنّ الرئاسةَ في الكِبْرِ، فأصبـحَ ممقوتاً بها وهو لا يَدْري:
يجُرُّ ذُيولَ الكِبْرِ طالــبَ رُفعـةٍ. ألا فاعْجبوا من طالبِ الرفعِ بالجرِّ!

- ويبدو أنّه افتقرَ فباع كُتُبَه فكَتَب إلى الأميرِ نورِ الدين عليٍّ بنِ مسعودٍ الصوابي يطلُبُ منه عَوْناً. في البيتين توريتانِ: الصواب (الحقّ، الإصابة) والصوابي (لقب الأمير نور الدين) ثمّ « بلا كتاب » (بلا كتاب في مكتبتي - بلا كِتاب مُنْزَل):

شَكَوْتُ إليـك، نورَ الدين، حالي، وحَسْبي أن أَرى وجـهَ الصوابِ.
وكُتْـبي بِعْتُهـا ورهنــتُ، حتّـى بَقِيـتُ من المجوسِ بـلا كتـابِ!

٤- ★★ فوات الوفيات ٢: ٢٨٤ - ٢٨٥؛ الوافي بالوفيات ٣: ٣٦٤-٣٦٦؛ بغية الوعاة ٥٧ - ٥٨؛ معجم أعلام الجزائر ١٥٨ - ١٥٩.

عبد العزيز الملزوزي

١- هو عبدُ العزيز بن عبدِ الوّهاب بنِ محمدٍ الملزوزيُّ النّجارُ المِكناسيُّ، كان شاعرَ البَلاط المَرينيّ أيامَ المنصورِ يعقوبَ بنِ عبدِ الحقِّ (٦٦٧ - ٦٨٤ هـ) وابنهِ يوسفَ (٦٨٥ - ٧٠٦ هـ). وقد رافقَ يعقوبَ المنصورَ في مُعظم حَمَلاتهِ في العُدْوة الإفريقية وفي الأندلس. وكـان المنصورُ يُكْرِمُه، أجازه على قصيدته « بحمدِ الله أفْتَتِـحُ الخِطابا » بعَشْرة آلافِ دينارٍ! وأجازَ مُنْشِدَها بينَ يَدَيْه أبا زيدٍ الغَرابلي بألفِ دينارٍ!

وكانتْ وفاةُ عبدِ العزيزِ الملزوزي سَنَةَ ٦٩٧ (١٢٩٧ - ١٢٩٨ م).

٢- عبدُ العزيزِ الملزوزيُّ شاعرٌ مُكثِرٌ له قصائدُ طوالٌ ومُقطّعاتٌ قِصارٌ في المدح والوصفِ والنسيب. وقد حاولَ نظمَ ملاحمَ تَوَفّرَ له فيها عُنْصُرا الإطالةِ والسَّرْدِ التاريخيِّ لسِيَرِ الملوكِ، ولكن لم يتـوفّر له فيها عُنْصُرا الخَيال والقَصَصِ المُحْكَم. ثمّ هُوَ مُؤَلّفٌ له كتابٌ في تاريخ المَغْرِبِ (لم يجعَلْ له عُنواناً). وله أُرجوزةٌ « نظمُ السلوكِ في مَنْ نَزَلَ المَغْرِبَ من الملوك ».

٣- مختارات من شعره

- قال عبدُ العزيزِ الملزوزيّ:

لِمَرّاكُشٍ فضلٌ على كلِّ بلدةٍ، وما أبصرتْ عينٌ لها من مُشابهِ.
وما هِيَ إلّا جَنّةٌ قد تزخْرَفَتْ، ولكنّها حُفّتْ لنا بالمَكارهِ[١].

- وقال في النسيب:

أعَلِمْتَ بعدَكَ زَفرتي وأنيني وصَبابتي يومَ النَّوى وشُجوني[٢]؟
مِنْ بَعْدِ بُعْدِكَ ما ركَنْتُ لراحةٍ يوماً، ولا غاضتْ عليك شُؤوني[٣].
قد كنتُ أبكي الدمعَ أبيضَ ناصعاً، فاليومَ تبكي بالدِّماءِ جُفوني.
قُلْ للذين قدِ ادّعَوْا فَرْطَ الهَوى: إن شِئْتُمو عِلْمَ الهوى فَسَلوني.
إنّي أخَذْتُ كثيرَه عن عُرْوةٍ ورَوَيْتُ سائِرَه عنِ المَجْنونِ[٤].

- وقال يرفَعُ نَسَبَ بني مَرينٍ - وهم فَخِذٌ من زَناتَةَ - إلى قيسِ عَيْلانَ من عَرَبِ الشَّمال:

قد جاورتْ زنَاتةُ البرابرا فصيّروا كلامَهُمْ كما ترى[٥].
ما بَدَّلَ الدَهْرُ سِوى أقوالِهم ولم يُبَدِّلْ مُنتهى أحوالِهم[٦].
بل فِعْلُهُمْ أربى على فِعْلِ العَرَبْ في الحالِ والإيثارِ ثُمّ في الأدب[٧].

---

(١) تزخرفت: تزيّنت. في الحديث الشريف: «حفّت الجنّة بالمكارة» (أي أن استحقاق الدخول إلى الجنّة يقتضي القيام بعدد من الأعمال - الواجبات وأوجه الإحسان - . وهذه ثقيلة في العادة على النفس الإنسانية).

(٢) الصبابة: الحب. النوى: البعاد (الفراق). الشجن (بفتح ففتح): الحزن.

(٣) الشأن: مجرى الدمع من العين.

(٤) عروة بن حزام (بكسر الحاء) ومجنون بني عامر (قيس بن الملّوح: بفتح الواو المشدّدة) من الشعراء المحبّين العُذريين في العصر الأموي.

(٥) - أصبح كلام بني زناتة الآن قريباً من البربريّة لا لأنهم بربر، بل لأنّهم جاوروا البربر!

(٦) - لغتهم أصبحت بربرية، ولكنّ أفعالهم لا تزال عربية!

(٧) أربى: زاد. الإيثار: تفضيل الآخرين على النفس. .... حتّى أنّ النتاج الأدبي في زناتة (في النثر والشعر) أحسن منه عند العرب الأقحاح.

فانظُرْ كلامَ العُرْبِ قد تَبدَّلا وحالُهم عن حالِهِ تحوّلا[1]؛
لا يَعْرِفون اليومَ ما الكلامُ، وما لهم نُطْقٌ ولا إفهام[2].
كذاك كانتْ قَبْلَهم مَرينُ كلامُهُمْ كالدُّرّ إذ يَبين[3].
فاتّخذوا سِواهُمُ خليلا فبَدّلوا كلامَهم تَبْديلا

٤ - ** الاستقصاء ٢: ٣١؛ الأدب المغربي ٢٢٦ - ٢٣٠؛ النبوغ المغربي ٢٢٦ (ترجمته)، ٩١٢ إلخ.

بدر الدين بن هود

١ - هو بدرُ الدينِ أبو عليٍّ الحسنُ بنُ عليِّ بنِ يوسفَ بنِ هودٍ الجُذاميُّ المُرسيّ، قيل هُوَ أخو المُتوكِّلِ على اللهِ محمّدِ بنِ يوسفَ بنِ هودٍ المستبدِّ ببَقيَّةِ الأندلُسِ في أيامهِ (٦٢١ - ٦٣٥ هـ)[4].

وُلِدَ بدرُ الدين بنُ هودٍ في مُرْسِيَةَ، سَنَة ٦٣٣ للهجرة (١٢٣٥ - ١٢٣٦ م). وٱشْتغلَ حيناً بالطِّب والحِكمة ثمّ صَحِبَ المتصوّفَ ٱبنَ سبعينَ (ت ٦٦٩ هـ). ثمّ إنّه حَجّ ودخلَ اليَمَنَ وقَدِمَ إلى الشام وٱستقرَّ في دِمَشْقَ حيثُ تُوُفِّيَ في ٢٦ شَعْبانَ من سَنَةِ ٦٩٩ (١٦/٦/١٣٠٠ م).

٢ - يبدو أن بدرَ الدينِ بنَ هودٍ كان ذا ٱضطرابٍ عَصَبِيٍّ فٱتّجهَ مُنْذُ مطلع حياتِه إلى سُلوكِ الأحوالِ الصوفيةِ عادةً أو دعوى ونشأ عندَه قِلّةُ مُبالاةٍ بالعُرْفِ الاجتماعيِّ

(١) - حتّى العرب الطارئون على المغرب تبدّلت لهجتهم لأنّهم هم أيضاً جاوروا البربر.

(٢-٣) المعنى المقصود في هذه الأبيات ملموح من ٱستقراء الأبيات السابقة.

(٤) يسوق الصفدي (الوافي بالوفيات ١٢: ١٥٦) نسب بدر الدين بن هود على الصورة التالية: الحسن بن عليّ أبو عليّ بن عضد الدولة أبي الحسن أخي المتوكّل على الله ملك الأندلس (٦٢١ - ٦٣٥) أبي عبد الله ٱبني يوسف بن هود. ويسوقه الصلاح الكتبي (فوات الوفيات ١: ١٦٣): الحسن بن عضد الدولة أبي الحسن أخي المتوكّل على الله ملك الأندلس بن يوسف بن هود الجذامي. والنسبان غير واضحين. غير أن مراجعة تاريخ الوفاة لبدر الدين هذا وللملك الأندلس يمكن أن يدلّ على أنّ ابن هود ملك الأندلس عمّ بدر الدين صاحب هذه الترجمة (راجع - مثلاً - زامباوّر ٩٣).

والدينيّ. حَدَثَ له زُهْدٌ مُفْرِطٌ في أحوالِ الدُّنيا وصَحِبَ ذلك غَفْلَةٌ شديدةٌ فكان يُرى كأنّه غارقٌ في التفكير مُتّصلُ الحُزنِ كثيرُ الآنقباضِ عنِ الناس، وشَرِبَ مرّةً الخمرَ عَلَناً ولم يُبالِ بلَوْمِ الناسِ فكان يَرُدُّ عَلَيْهِم بقولِهِ: « وما جرى؟ آبنُ هودٍ شَرِبَ خمراً ». وكَثُرَ الشَّطْحُ[1] في كلامه وفي أفعاله، فكان، مَثَلاً، إذا طَلَعتِ الشمسُ آستَقْبَلَها وصَلّبَ على وجهِهِ. فعدّ نفرٌ كثيرون ذلك منه خُروجاً عن الإسلام. فلم يُصَلِّ عليه القاضي بدرُ الدين محمّدُ بنُ إبراهيمَ بنِ جَماعةَ (٦٣٩ - ٧٣٣ هـ).

وبدرُ الدين بن هودٍ شاعرٌ مُكْثِرٌ على طريقة أهل التصوّف، في بعض شعره تلميحٌ وفي بعضه تصريح. وبعضُ شعرِهِ متينٌ السبْك من الطبقة العالية. وكان يميلُ في تصوّفه إلى وَحدة الوجود أوِ الآتحاد[2]، وهو - في ذلك - كثير الشَّبَهِ بعمرَ بن الفارض.

٣- مختارات من شعره

- قال بدرُ الدين بن هودٍ المرسيّ على طريقة أهل التصوّف:

فؤادِيَ مِنْ محبوب قلبـيَ لا يَخْلو، وسِرّي على فِكري مَحاسِنَه يَجْلو[3].
ألا يا حبيبَ القلبِ: يا مَنْ بِذِكْرِه على ظاهري من باطني شاهدٌ عَدْلُ[4]،
تَجلّيـتَ لي منّي عَلَيَّ فأصبحـتْ صِفاتي تُنادي: ما لِمَحْبوبنا مِثْل[5]!
أُورّي بذِكْرِ الجزْعِ عنّي وبانِـه؛ ولا البانُ مطلوبي ولا قَصْدِيَ الرملُ[6].
وأذكُرُ سُعـدى في الحَديثِ مُغالطاً وليلى؛ ولا ليلى مُرادي ولا جُمل.

---

(١) الشطح: كلام عليه رعونة (خفّة وحمق وخروج عن المألوف).
(٢) مذهب الوحدة (وحدة الوجود) أو الاتّحاد (في التصوّف): أن يفقد المتصوّف شخصيّته ثمّ تتحقّق ذاته في الله فيفقد الإنسان ويبقى الله.
(٣) .... سرّي يجلو (يظهر) محاسن محبوبي لفكري.
(٤) على ظاهري من باطني (راجع الحاشية السابقة): سلوكي الظاهر المخالف لاعتقاد الناس تسوّغه (تجيزه) معرفتي الباطنة.
(٥) تجلّيت (ظهرت حقيقتك لي). لي منّي عليّ (راجع الحاشيتين السابقتين): المتصوّف لا يستدلّ بالمنطق وبالبراهين الخارجية، بل بما يقع في قلبه (في نفسه) من الاقتناع الذاتي (أو الوهم).
(٦) ورّى: ذكر شيئاً وهو يريد غيره. الجزع: منعطف الرمل. البان: شجر أغصانه طوال مستقيمة سمراء.

ولم أرَ في العُشّاق مثـلي، لأنّني تَلَذُّ لِيَ البَلْوى ويحلو لِيَ العَذْل[1]،
سِوَى معشرٍ حَلّوا النِّظامَ ومزّقوا الثـ ـيابَ؛ فلا فَرْضٌ عليهم ولا نَفْلُ[2]:
مَجانـــينُ، إلّا أنّ ذُلّ جُنونهم عزيزٌ؛ على أعتابِهم يسجُدُ العقل[3]!

– وله في مثل ذلك (في العزة الالَهية):

خُضْتُ الدُجُنَّةَ حتى لاحَ لي قَبَسٌ وبانَ بانُ الحِمى من ذلك القَبَسِ[4].
فقلتُ للقومِ: هذا الرَّبْعُ رَبْعُهُمُ؛ وقلت للسمع: لا تَخْلو من الحَدَسِ[5].
وقلتُ للعين: غُضّي عن محاسِنه؛ وقلت للنُطْق: هذا موضعُ الخَرَسِ!

– وقال بدر الدين بن هود أيضاً:

عِلْمُ قومي بيَ جَهْـــــلُ إنّ شأني لأَجَـــــلّ[6].
أَنَـــا عبـــدٌ، أنـــا ربٌّ؛ أَنَـــا عِزٌّ، أَنَـــا ذُلٌّ(★)
أنـــا دُنْيـــا، أنـــا أُخْرَى، أنـــا بعـــضٌ، أنـــا كُـــلٌّ.
أنـــا معشوقٌ لـــذاتي، لستُ عنّي الدهرَ أسْلو.
فوقَ عَشْرٍ دونَ تِسْعٍ بـــينَ خَمْسٍ لي مَحَـــلٌّ[7].

٤ – ★★ الوافي بالوفيات ١٢: ١٥٦ – ١٥٩؛ فوات الوفيات ١: ١٦٢ – ١٦٣؛ العبر للذهبي ٥: ٣٩٧؛ شذرات الذهب ٥: ٤٤٦؛ الأعلام للزركلي ٢: ٢٢١ (٢٠٣).

---

(١) البلوى: المحنة (المصيبة الكبيرة). العذل: اللوم (بلا مسوّغ).

(٢) حلّوا النظام: تركوا التقيّد بالعرف السائد. مزّقوا الثياب: تركوا مظاهر الأمور وعملوا بحقائقها (في ظنّهم أو وهمهم). الفرض (الواجب في الدين). النفل (ما يقوم به الإنسان متطوّعاً): صوم رمضان فرض على المسلم البالغ العاقل الصحيح (غير المريض). أمّا صوم غيره من الأيام فهو نفل.

(٣) عزيز: قوي (نفيس، نادر، مرغوب فيه).

(٤) الدجنّة: الظلام. قبس: (شيء يؤخذ من النار) العزّة الإلّهية. بان: ظهر. البان: نبات أغصانه مستقيمة. الحمى: المكان الحصين. بان الحمى (مدرك الالوهية).

(٥) الربع: المسكن.. الحدس (بسكون الدال): الظنّ، التوهّم.

(٦) أجلّ: أرفع، أعلى قدراً. ★ كلمة «أنا» تُرسم «أنا» ولكن تُلفظ «أنَ» (بإسقاط «الألف»).

(٧) البيت غير واضح (لعلّ المقصود: لي وجود في كلّ مكان).

ابن فَرْحٍ[1] الإشبيليُّ

١ - هو شِهابُ الدين أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ فَرْحِ بنِ أحمدَ بنِ محمّدِ بن فَرْحٍ اللَّخْميّ الإشبيليّ، وُلِدَ في إشبيليةَ سَنَةَ ٦٢٥ (١٢٢٨ م). وفي سَنَةِ ٦٤٦ (١٢٤٨ م) استولى فرديناندُ الثالثُ مَلِكُ قَشْطالة على إشبيليةَ فكان ابن فرحٍ في الذين وقعوا في الأسْرِ (وَهُوَ في مطلع شبابه) فاستطاع الهرب. ثمّ إنّه رَحَلَ إلى مِصْرَ في أوائلِ عَشْرِ الخمسين (بُعيد ٦٥٠ هـ) وتَفَقَّهَ فيها على العِزّ (عِزّ الدين عبدِ العزيز) بنِ عبدِ السلام (٥٧٧ - ٦٦٠ هـ) وسَمِعَ من شرف الدين الأنصاري الحَمَويِّ وأحمدَ بنِ زينِ الدين وإسماعيلَ بن عزّوزٍ والنجيبِ بن الصيقلِ وابن علّاق. ثمّ إنّه انتقل (بعدَ مُدّةٍ) إلى دِمَشْقَ فَسَمِعَ من ابنِ عبدِ الدائم (٥٧٥ - ٦٦٨ هـ). ثمّ كانتْ له في الجامع الأمويّ حَلْقَةٌ مشهودة.

وكانت وفاةُ ابنِ فَرْحٍ الإشبيليُّ في دِمَشْقَ في تاسعِ جُمادى الثانية مِن سَنَةِ ٦٩٩ (١٣٠٠/٣/٢ م).

٢ - كان ابنُ فَرْحٍ الإشبيليّ من علماءِ الحديث ورُواتِهِ ومن الفقهاء. وهو ناظمٌ مقتدر، اشتهرَ بقصيدتِه (القصيدةِ الغرامية) وهي منظومةٌ غزلية (ظاهِرُها غزلٌ) في ألقاب الحديث. هذه القصيدة عِشْرون بيتاً جَمَعَ فيها ابنُ فَرْحٍ عدداً من أسْماء الحديث. وقد كان لها شهرةٌ، رواها عنه كثيرون وشَرَحها كثيرونَ آخَرون[2]. وله أيضاً: شرح الأربعين (حديثاً) للنّوَوِي.

٣ - مختارات من شعره

من قصيدةِ ابنِ فَرْحٍ الإشبيليّ في ألقابِ الحديث[3].

---

(١) فرح بسكون الراء، وقد نصّ المقري على ذلك (نفح الطيب ٢ : ٥٣١).

(٢) في نفح الطيب (٢ : ٥٣١): وقد شرح هذه القصيدة جماعة من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم. راجع ما طبع من هذه الشروح (بروكلمن، الملحق ١ : ٦٣٥).

(٣) جعلت كلّ لقب من ألقاب الحديث مطبوعاً بحرف غليظ. ولم أفسّر هذه الألقاب لأنّها ترد هنا في =

غرامي صحيحٌ والرجا فيك مُعْضِلُ[1]، وحُزْني ودمعي مُطْلَقٌ ومُسَلْسَلُ.
وصَبْرِيَ عنكم يشهَدُ العقلُ أنّه ضعيفٌ ومتروكٌ، وذُلّيَ أجْمَلُ.
ولا حَسَنٌ إلاّ سَماعُ حديثِكم مُشافَهَةً يُملى عليَّ فأنقُلُ.
وأمْرِيَ موقوفٌ عليك، وليس لي على أحدٍ إلّا عليك المُعوَّلُ.
ولو كان مرفوعاً إليكَ لَكُنْتَ لي - على رُغْمِ عُذّالي - تَرِقُّ وتَعْدِلُ.
وعَذْلُ عَذولي مُنْكَرٌ لا أُسيغُه وزُورٌ وتدليسٌ!! يُرَدُّ ويُهْمَلُ.
أُقَضّي زماني فيك مُتَّصِلَ الأسى ومنقطعاً عمّا به أتوصّلُ.
خُذ الوَجْدَ عنّي مُسْنَداً ومُعَنْعَناً فَغَيْرِيَ موضوعُ الهوى يَتَحيَّلُ.
غريبٌ يُقاسي البُعْدَ عنك، وما له وحقِّ الهوى عن دارِه مُتَحَوَّلُ.
فَرِفْقاً بمَقْطوعِ الوسائلِ ما له إليك سبيلٌ لا ولا عنك مَعْدِلُ.
أُوَرّي بسُعْدى والرَّبابِ وزَيْنَبٍ،[2] وأنتَ الذي تُعْنى وأنتَ المُؤَمَّلُ.

٤ - ★★ الوافي بالوفيات ٢: ١٤٢؛ درّة الحجال ١: ٣٦-٣٧؛ نفح الطيب ٢: ٥٢٨-٥٣١؛ شذرات الذهب ٥: ٤٤٣-٤٤٤؛ بروكلمان ١: ٤٥٩، الملحق ١: ٦٣٥؛ الأعلام للزركلي ١: ١٨٦ (١٩٤-١٩٥)؛ نيكل ٣٦٠.

مالك بن المرحّل

١ - هو أبو الحَكَم مالكُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ الفَرَجِ المعروفُ بابنِ المُرَحِّلِ، وُلِدَ في مالَقَةَ سَنَةَ ٦٠٤ هـ (١٢٠٧-١٢٠٨ م). أخَذَ عن أبي عليٍّ الشَّلوبينيّ (ت ٦٤٥ هـ) وابنِ الدَّبّاج وقد تولّى القضاءَ في عددٍ من الأماكن بعضُها في نواحي غَرْناطَة. ثمّ إنّه انتقلَ إلى المَغْرِبِ وَسَكَنَ سَبْتَةَ وتعاطى فيها صِناعة التوثيق،

= «توريات» (المعنى اللفظي اللغوي في مقابل المعنى الفنّي). يطول شرحها، مع أن المقصود ليس غامضاً. أمّا ألقاب الحديث: صحيح مسلسل موقوف مرفوع ضعيف إلخ فهي موجودة في معظم القواميس.

(١) المعضل: المرض الذي عجز الأطباء عن مداواته.

(٢) أورّي (أوهم) بسعدي إلخ (إن تغزلي بهؤلاء النسوة....).

وقد أجازه في ذلك أبو القاسم بنُ بقيٍّ.

تقرّبَ مالكُ بنُ المُرحَّلِ من المنصورِ المَرِينيّ (٦٥٦ - ٦٨٥ هـ) وخصّه بمدائِحِهِ. وكانتْ وفاةُ مالكِ بنِ المرحّلِ سَنَةَ ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ - ١٣٠٠ م) في سَبْتَةَ.

٢ - كان مالكُ بنُ المرحَّلِ السبتيُّ مُشاركاً في عددٍ من العلوم كالفِقْه واللُّغة والنَحْو، كما كان من مشاهير الأدباء (نفح الطيب ٢ : ٥٥١) كاتباً ومُترسِّلاً وشاعراً. وفنونُ شعرِهِ مديحٌ وبَديعيّاتٌ[١] ووصفٌ وتحليلٌ معَ شيءٍ من المَرَح أحياناً ومن التهكُّم في نثرِهِ وشِعره. وكانله عددٌ من الآثار: ديوان شِعْره - كتاب دوبيت[٢] - أُرجوزة نَظَمَ بها « فصيح ثعلب »[٣] - الواضحةُ (نظم في الفرائض: تقسيم الإرث) - أُرجوزة في النحو - المُوطَّأة - التَبْيِين والتبصير في نظم كتاب التيسير (عارض به الشاطبية)[٤] - العَروض - الرَمْي بالحصا والضرب بالعصا - الوسيلةُ الكبرى المَرْجُوُّ نفعُها في الدنيا والأخرى (رتّبها على حروف المعجم والْتزَمَ افتتاحَ أبياتِها بحروف الرَوِيِّ)[٥] - المُعَشّرات النبويّة (على نسق « الوسيلة الكبرى »، ولكنّ عددَ الأبياتِ في كلّ مقطوعة أقلُّ) - العشريات الزهدية (لآثار الثلاثة الأخيرة في مدح الرسول).

٣ - مختارات من آثاره

- وَقَعَ في كلام ابنِ المُرَحَّلِ تعبيرٌ هو « كان ماذا » فخطّأه ابن أبي الربيع النحويُّ وقال: الصوابُ « ماذا كان ». فجرَتْ بين الاثنينِ مُناظراتٌ لم يَصِلْ إلينا ممّا قاله فيها ابنُ أبي الربيعِ شيءٌ، ولكنْ وَصَلَ إلينا بعضُ ما قاله ابنُ المرحّل. من ذلك:

عابَ قومٌ « كانَ ماذا »   ليتَ شِعْري لِمَ هذا.

---

(١) البديعيّة: قصيدة في مدح الرسول.

(٢) مثاني (مزدوجات: بيتان بيتان من الشعر) من الوزن الفارسي وعلى تقفية معينة.

(٣) هو أحمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ) من أئمّة اللغة والنحو ومن رواة الشعر.

(٤) أرجوزة في القراءات للقاسم بن فيرُّه الشاطبي (ت ٥٩٠ هـ).

(٥) راجع موشّحته في « مختارات من آثاره ». على حروف المعجم (على جميع أحرف الهجاء، من الألف إلى الياء. وكلّ بيت في الموشّحة - مجموع أشطر - يبدأ في مطلعه بحرف ثمّ يكون هذا الحرف قافية ذلك البيت في الموشّحة).

وإذا عابوه جَهْلًا دونَ عِلْمٍ ، كان ماذا!

(ثمّ قال مالكُ بنُ المُرحَّل يُخاطب ٱبنَ أبي الرّبيع):

لا بُدَّ لك أن تُصْبِحَ مِنْ تَحْتِ طَبَقٍ على طَبَقِ نيرانٍ[١]: كان ماذا؟ « ونادَوْا: يا مالِكُ، لِيَقْضِ علينا ربُّك! قال: إنّكُمْ ماكِثون. لقد جِئْناكم بالحقِّ، ولكنّ أكثرَكُمْ للحقِّ كارهون »[٢].

إلى كَمْ تُقَيِّدُ في « كان ماذا » تَقْييداً بعدَ تقييدٍ؟ لقد حَصَلْتَ منها في أمرٍ شديد. إلى كم تُعيدُ فيها وتُبْدِىءُ وتَنْظِمُ وتُنْشِىء؟ غرّكَ احتمالي لِقَدْحِكَ ومَزْحِك وصَبْري على ألَم جَرْحِك، حَتّى قُلْتَ: « ما جُرحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ »[٣].

انْتَهزْتَ الفُرصَةَ في إذايَةِ صَبورٍ، ودَلّاكَ حِلْمُهُ في غُرورٍ[٤] حتّى قُلْتَ:

كُلُّ حِلمٍ أتى بِغَيْرِ احتمالٍ حُجّةٌ لاجِىءٌ إليها اللِئامُ[٥]!

تاللهِ، لو نُهِيتِ الأولى لانْتَهَتِ الآخرة[٦] ولم تَكُنِ الفاقِرةُ تَتْبَعُها الفاقرة[٧]. ولكن أغْضَيْتُ على القَذى وصَبَرْتُ على الأذى حتّى قيل: لو قَدَرَ لانْتَصرَ! واتّصلَ الأمرُ فصار دَيْدناً[٨]، فلا جَرَمَ أنّ أتعقّبَ كَلامَك وأُلْفِتَ عليك لامَكَ[٩] فأقولَ؛ وإنّما أُخاطِبُ من سَمِعَ خطابي ونظر في كتابي.

---

(١) الطبق (هنا): الحال. طبقاً عن طبق: حالاً بعد حال، أي إذا أنت مِتّ (بكسر الميم) فستدخل النار (راجع القرآن الكريم ٨٤: ١٩، سورة الإنشقاق).

(٢) مالك: خازن جهنّم (راجع القرآن الكريم ٤٣: ٧٧ - ٧٨ سورة الزخرف). ليقض علينا ربّك: يطلبون من الله أن يميتهم (حتّى يتخلّصوا من العذاب في جهنّم). ماكثون: باقون (إلى الأبد).

(٣) شطر للمتنبيّ.

(٤) دلّى الرجل شيئاً في مكان عميق (أنزله، أغرقه).

(٥) البيت للمتنبي.والرواية: .... بغير اقتدار.

(٦) لو أنك وجدت من نَهاك (نصح لك) حينما أخطأت في المرّة الأولى لآنتهيت في الآخرة (لما أخطأت مرّة ثانية ولما عوقبت مرة بعد مرة).

(٧) الفاقرة (القرآن الكريم ٧٥: ٢٥ سورة القيامة): المصيبة الكبيرة التي تكسر فقار (جمع فقارة، بالفتح فيهما): عظام سلسلة الظهر.

(٨) الديدن: العادة.

(٩) اللام: الهول، الأمر الشديد (لا بُد من أن أتابع أقوالك وأردّ عليك الأذى [الذي تريد] أن تلحقه بي).

- لابنِ المَرحّلِ السَبْتيّ مُوَشَّحَةٌ بديعية (في مدح الرسول) «من غُرَرِ القصائدِ، وفيها لزومُ ما لا يلزمُ من تَرتيبها على حروف المعجم يجعَلُها (أي يجعل حروف المعجم) بَدْأً ورَوِيًّا على اصطلاحِ المغرب» (نفح الطيب ٧: ٤٥٣ وما بعد): من هذه البديعية:

ألِفٌ: أَجَلُّ الأنبياءِ نَبِيءُ
بِضيائه شمسُ النهار تُضيءُ
وبهِ يُؤَمِّلُ مُحْسِنٌ ومُسيءُ
فضلًا من الله العظيمِ عظيماً. صلّوا عليه وسَلّموا تَسْليما

باءٌ: بَدا في أُفْقِ مَكّةَ كَوْكَبَا،
ثمّ اعتلى فَجَلَا سَناه الغَيْهَبا
حتّى أنارَ الدهرَ منه وأخْصبا،
إذ كان فَيْضُ الخيرِ منه عَميمًا. صلّوا عليه وسلّموا تسليما.

ثاءٌ: ثَوَى في الأرض منه حديثُ
في كلّ أُفْقِ طِيبُه مَبْثوث.
داعٍ بأنواعِ الهُدى مَبْعوث
يَتْلو نُجوماً أو يَهُزُّ نجوماً. صلّوا عليه وسلّموا تسليماً.

نونٌ: نَبِيٌّ جاءنا بِبَيانِ
وبِمُعْجِزاتٍ أُبْرِزَتْ لعِيانِ.
وبِحَسْبِهِ أن جاء بالقُرآن
يَشْفي قُلوباً تَشْتَكي وجُسوما. صلّوا عليه وسلّموا تسليما.

- وقال يَصِفُ قِصَرَ الليل:

وعَشِيّةٍ سَبَقَ الصَّباحُ عِشاءها قِصَراً، فما أَمْسَيْتُ حتّى أسْفرا[1].
مِسكيّةٌ لَبِسَتْ حُلًى ذهبيّةً، وجَلا تَبَسُّمُها نِقاباً أحْمرا[2]؛

(١) أسفر (الصبح): بدا، ظهر.
(٢) مسكيّة: كلون المسك (في السواد). لبست حلى ذهبية (تلمع من كثرة النجوم) وجلا تبسّمها (أول ظهور =

وكأنّ شُهْبَ الرَّجْمَ بعضُ حُلِيِّها عَثَرتْ بهِ من سُرْعةٍ فتَكسّرا[1].

- وقال في الشُّعراءِ الذين يَفْتَتحون قصائِدَهم بالغزل (مُسْتَحْسِناً طَريقَتَهُمْ):

ضلّ المُحبّون إلّا شاعراً غَزِلاً يُطارِحُ المَدْحَ بالتَشْبيب أوطارا[2]،
لا يَشْتكي الحُبَّ إلّا في مدائحِه -دَعوَى- لِيُصْغيَ أسماعاً وأبصارا[3].
كضاربِ العودِ وشّى فيه تَوْشِيَةً، وبعدَ ذلك غنّى فيه أشعارا[4]!

- وقال في النسيب (وقد جانَس بين عَيْنِ حُرٍّ وساقِ حرٍّ - وساقُ حرٍّ ذكَرُ القَماري: الحَمام، وهو يُحْدِثُ صوتاً عَذْباً لا يُدرَى أبكاءٌ هو أمْ غناء):

رُبَّ رَبْعٍ وَقَفْتُ فيه وعهدِ لم أُجاوِزْهُ والركائبُ تَسْري
أسْألُ الدارَ - وهي قَفْرٌ خلاءٌ - عن حبيبٍ قد حَلَّها مُنذُ دهر،
حيثُ لا مُسْعِدٌ على الوَجْدِ إلّا عينُ حرٍّ تجودُ أو ساقُ حرّ[5]!

٤- ★★ بغية الوعاة ٣٨٤؛ نفح الطيب ٤: ١٤٥ (مسألة «كان ماذا») ثمّ ٧: ٤٥٣-٤٥٩؛ أزهار الرياض، راجع ١: ٣٢؛ الأدب المغربي لتاويت ٢٢١-٢٢٥؛ النبوغ المغربي لكنّون ٢٢٥-٢٢٦، ٣٩٩-٤١٥، ٧٢٥-٧٢٧، ٩١٢-٩١٧؛ بروكلمن ١: ٣٢٣-٣٢٤، الملحق ١: ٤٨٤؛ الأعلام للزركلي ١: ٦: ١٣٨ (٥: ٢٦٣، ٧: ٢٠١-٢٠٢).

= الفجر) نقابا أحمر (اللون الأحمر على الأفق الشرقي قبل طلوع الشمس).

(١) شهب (نجوم الرجم): النيازك: (قطع من الحجارة تنفلت من مدارات الكواكب فتنجذب نحو الأرض، فإذا مرّت في جوّ الأرض اشتعلت من احتكاكها بالهواء).

(٢) التشبيب: الغزل. أوطار جمع وطر: غاية، مقصد (بكسر الصاد).- يطارح المدح (يجعل قبل المدح): يبدأ قصائده بالغزل.

(٣) - هو غير محبّ، ولكنّه يشكو الحبّ في شعره ليستميل الأسماع لسماع مديحه التالى.

(٤) من عادة العوّاد (ضارب العود) أن يبدأ بتقسيم (عزف يسير، قليل) قبل ان يبدأ هو بالغناء.الركائب جمع ركوبة (بالفتح): دابّة معدّة للركوب. تسري: تسير في الليل.

(٥) المسعد (المعين، المشارك). الوجد (ألم الحبّ). عين حرّ (رجل حرّ يبكي معك فيخفّف شيئاً من مصيبتك) أو ساق حرّ (طير يغنّي فينسيك غناؤه العذب بعض ألمك).

يحيى بن عليّ اليَفَرْنيّ

١ - هو أبو زكريّا يحيى بنُ عليٍّ بنِ سُلطانِ اليَفَرْنيُّ، يبدو أنّ أصلَهُ من المَغْرب الأقصى[١]. وُلِدَ يحيى بنُ عليّ سَنَةَ ٦٤١ للهجرة (١٢٤٣ - ١٢٤٤ م). وكان يُقْرِئُ العربيةَ (النحو) في تُونِسَ فتَخَرَّجَ به نُخْبَةٌ من نُجَباءِ تونس حتّى أصْبح له فيها صِيتٌ عظيم. وكانتْ وفاتُه سَنَةَ ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ - ١٣٠١ م).

٢ - كان يحيى بنُ عليٍّ اليَفَرْنيُّ عالماً بالقراءة والتفسير والفِقْه والنحو والأدب، ولكنّ براعتَهُ كانتْ في النحو وحدَهُ فكان يُلَقَّبُ في المشرق «جَبَلَ النحْوِ». واليفرنيُّ هذا يَعُدُّ نفسَه من المجتهدين في الفِقه فلا يُجيزُ مثلاً نِكاحَ الكتابيّاتِ[٢]. وَهُوَ أيضاً شاعر رقيقٌ مُحْسِنٌ.

٣ - مختارات من شعره

- قال يحيى بن عليّ اليفرنيُّ في الغَزَل:

ماذا على الغُصُنِ الميّاسِ لو عَطَفَا ... على صُبابةِ صَبٍّ حالفَ الدَّنَفا[٣]؟
يا رَحْمةً لفُؤادي مِنْ مُعَذِّبِه، ... كم ذا يُحمِّلُه أن يَحْمِلَ الكَلَفا[٤]!
ويا رعى الله داراً ظلّ يَجْمَعُنا ... في ظِلّ عيشٍ صفا مِنْ صَيْبه وضَفا[٥].
مودّةٌ بيْنَنــا في الحُــبّ كاملــةٌ ... ونحن لا نَعْرِفُ الإعراضَ والصَّلَفا[٦].

٤ - ** بغية الوعاة ٤١٢؛ نفح الطيب ٤: ١٤٦ - ١٤٧.

---

(١) يفرن، يفران، ايفران في المغرب الأقصى.
(٢) الكتابية: المرأة من أهل الكتاب كاليهود والنصارى: وهذا رأى الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، ولكّن معظم فقهاء المسلمين يجيزون ذلك.
(٣) الصبابة (بضمّ الصاد): بقية الحياة. الصبّ: المحبّ. الدنف: اشتداد المرض والإشراف منه على الموت.
(٤) الكلف: الولوع بالشيء، احتمال الأمر بمشقّة.
(٥) دار مؤنّثة، وقد تذكّر (القاموس ٢: ٣١). الصيب: ما يصيب الإنسان من سهم أو نحوه. صفا من صيبه (لم يكن فيه ما يسيء!) ضفا: فاض.
(٦) الصلف: التكبّر. وفي رواية: ضفا من طيبه وصفا (وهو أقرب إلى المعنى المراد).

ابن عبد النور المالقيّ

١ - هو أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ عبدِ النور بنِ أحمدَ بنِ راشدٍ المالَقِيُّ، وُلِدَ في مالَقَةَ في رَمَضانَ من سَنَةِ ٦٣٠ (مطلعِ الصيفِ عامِ ١٢٣٣ م).

يبدو أن ابنَ عبدِ النور قدِ ٱستفادَ أكثرَ علومهِ من المُطالعة، إذْ لم يكنْ له ٱعتناءٌ بِلقاءِ الشيوخ، ولكنْ أخَذَ في بلدهِ القراءةَ عن الخطيبِ أبي الحسنِ الحجّاجِ بنِ أبي رَيْحانةَ المربلّيّ (ت ٦٧٢ هـ) وقرأ أشياءَ من الجُزولية في النحو[1] على محمّدِ بنِ يحيى بنِ مُفَرِّجٍ المالَقِيّ (ت ٦٥٧ هـ).

ورَحَلَ ٱبنُ عبدِ النور المالَقِيُّ إلى المَغْرب ونَزَلَ في سَبْتَةَ حيناً. ثمّ إنّه عاد إلى الأندلُس وجَلَس لإقراءِ القُرآنِ الكريم في وادي آشَ والمَرِيَّةِ وبَرْجَةَ وغَرناطةَ. وقد تولّى القضاءَ حيناً آخرَ نِيابةً لا أصالةً.

وكانتْ وفاةُ ابنِ عبدِ النور المالَقِيُّ في ٢٧ من ربيعٍ الثاني من سَنَةِ ٧٠٢ (١٦/١٢/١٣٠٣ م) في المَرِيَّةِ.

٢ - كان ٱبنُ عبدِ النور المالَقِيُّ قَيِّماً على العربيةِ (النحو) - إذْ كانتِ العربيةُ جُلَّ بِضاعتهِ - كما كانتْ له مُشاركةٌ في المَنْطِق والعَروض وقَرْض الشعر وفي فُروع الفِقْه. وشِعْرُه وَسَطٌ، ولم يكُنْ يَقْصِدُ قولَ الشعر، بل كان يقولُ ما يخطُرُ في بالِهِ حيناً بعدَ حينٍ.

وكان له تصانيفُ منها كتابُ رَصْف المعاني ثمّ كتاب البَسْمَلة (بسم الله الرحمن الرحيم) والتَّصْلية (الصلاة على الرسول). وله كتاب في شَرْحِ «الكوامل» لأبي موسى الجُزوليّ[2]، وله كتاب شَرَحَ فيه «مُغْرِبَ» أبي عبد الله بن هشامٍ الفِهريِّ الشوّاشِ (لم يُتِمَّه). ثمّ له جزءٌ (كتاب صغير) في العَروض وجزء في شواذِّ العَروض. ثمّ شرحٌ على كتاب الجُمَل الكُبرى لأبي القاسمِ الزجّاجي (ت ٣٢٧ هـ) وإملاءٌ على كتاب المُقَرِّب

---

(١) راجع الحاشية التالية.

(٢) هو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز بن يلّلبخت الجزولي (ت ٦٠٧ هـ) من علماء العربية (راجع ٥: ٥٩٣ - ٥٩٤).

لِأَبنِ عُصْفورٍ، وسوى ذلك قليل.

وكتابُ «رصف المباني في حروف المعاني»، وهي (في هذا الكتاب) خمسةٌ وتسعونَ حرفاً منها ثلاثةَ عَشَرَ مُفْردَةٌ (حرفٌ واحدٌ، نحو: الهمزة، الباء والتاء والكاف واللام والميم والسين والواو، الخ) ثمّ آثنانِ وثمانونَ مركبةٌ (أكثرُ من حرفٍ واحد، نحو: كي، لا، لم، لمّا، ليس، كأنّ، لوما، منذ، مَعَ، نَعَمْ، على، في، هل، الخ). ثمّ إنّ هذه الأحرفَ- سواءٌ منها ما كان مُفْرَداً أو كان مركّباً- تنقسمُ قِسمينِ: عاملةً (تؤثّرُ في الكَلِماتِ التي تدخُلُ عليها فتجرُّها أو تَنْصِبها إلخ) أو غيرَ عاملةٍ (لا تؤثّرُ فيما يَلِيها: لا تُبَدِّل إعرابَه).

٣- مختارات من آثاره

- من شعر ابنِ عبد النور أبياتٌ في الغزَل (لعلّ فيها اتّجاهاً صوفِيًّا):

محاسنُ مَنْ أهوى يَضيقُ لها الشرحُ، ... لـه الهِمّةُ العَلْياءُ والخُلُقُ السَّمْحُ.

لـه بهجةٌ يَغْشى البصائرَ نورُها، ... وتَعْشى بها الأبصارُ إنْ غلس الصُّبح[١].

إذا ما رَنا فاللَّحظُ سَهْمٌ مُفَوَّقٌ، ... وفي كلّ عُضْوٍ من إصابتهِ جُرْح[٢].

إذا ما آنثنى زَهْواً وولّى تَبَخْتُراً ... يَغارُ لذاك القَدِّ من لِينه الرُّمح[٣].

وإن نَفَحَتْ أزهارُه عند رَوْضةٍ ... فَيُخْجِلُ ريَّا زَهْرِها ذلك النَّفح[٤].

هو الزمنُ المأمولُ عند آبتهاجِهِ: ... فَلِمّتُه ليلٌ وغُرّتُه صُبح[٥].

---

(١) بهجة: حسن ونضارة. يغشى: يغطّي. البصائر جمع بصيرة: قوّة الادراك والفطنة. تعشى: تضعف، تعجز (بكسر الجيم) عن النظر. غلس (ليست في القاموس)، المقصود «غبس» (بفتح فكسر): أظلم.

(٢) رنا: أدام النظر. مفوّق: له فوق (بالضمّ): شبه زاوية حادّة في أسفله ليثبت في وتر القوس عند الرمي. والشاعر يقصد «سهماً مسدّداً» (يصيب الهدف).

(٣) الزهو: العجب (بالضمّ) بالنفس. التبختر: المشي بحال حسنة فيها هدوء واختيال (إعجاب بالنفس).- الرمح الجيّد يكون فيه لين (ينحني ولا ينكسر).

(٤) نفح الزهر: انتشرت رائحته.

(٥) عند ابتهاجه (عند ابتهاج الزمن): آزدهاره وأمنه وصفائه. اللمّة (بالكسر): شعر الرأس المجاور للأذن. لمّته ليل (شديدة السواد): كناية عن الشباب. وغرته (جبهته، أعلى وجهه) صبح (بيضاء): كناية عن الوجاهة في الناس.

لقد خامرَتْ نفسي مُدامةُ حُبِّهِ، فقَلْبِيَ من سُكْرِ المُدامةِ لا يصْحو[1].
وقد هام قلبي في هواهُ، فبَرّحتْ بأسرارِه عينٌ لِمَدْمَعِها سحٌّ[2].

- من مقدّمة كتاب «رصف المباني في حروف المعاني»:

الحمدُ للهِ مُدَبِّرِ الأشياءِ ومُحْكِمِها ومقدّرِ المِنَح ومُقَسِّمِها....[3]، ومُعَلِّمِها، ومُخصّصِ عَرَبِيّتها بأفضلِ الأممِ وأكرمِها؛ الذي جعَلَ الكلامَ خَصيصةَ البشرِ، وأظهرَ بها نظرَ الناظرِ وعِبرةَ المُعْتَبِرِ (ثمّ) ضمّنَه من المعاني الجمّة وفضائلِ الحِكمة ما لا يَصِلُ إليه فَهْمُ أُمّةٍ ولا يُهْتَدَى إلى بعضه إلّا بعدَ أُمّة[4].....

وبعدُ، فإنّ لسانَ العربِ لمّا كان أشرفَ الألْسنةِ وشَنْشَنَةُ[5] اتباع (؟) فَهْمه أحسنَ شنشنةٍ، إذ منه يُتوصَّلُ إلى مقاصدِ الشرع في أحكامه وأغراضِ قواعدِ العلم وأعلامِه، وكان مُقَسَّماً إلى تقسيمهِ المعروف - من الأسماء والأفعال والحروف - وكانت الحروفُ أكثرَ دَوْراً، ومعاني مُعْظَمِها أشدَّ غَوْراً[6]، وتركيبُ أكثرِ الكلام عليها ورُجوعه في قواعدِه إليها، ٱقْتَضَى ما خطَرَ من النظرِ أنْ أبحَثَ عن معانيها وأُطالعَ غَرَضَ الواضعين فيها. فوجدْتُ منهم مَنْ أغفَلَ بعضَها وأهمل، ومَنْ تسامح في الشرح وتسهَّلَ، ومَنِ ٱختصرَ منها (أو) أسهب، ومَنْ ركّب البسيطَ وبسّط المُركَّبَ، ومن شتّتَ ألفاظَها وعدّد، وأطال الكلام لغير فائدةٍ وردّد.

فدعاني الغَرَضُ الخاطرُ والرفيقُ العابرُ[7] (إلى) أن أُؤلّف فيها كِتاباً يشتملُ على

---

(١) خامر: خالط. المدامة: الخمر المطبوخة بالنار (وتكون شديدة الإسكار).
(٢) هام: سار على غير هدى. برح به الحب: آذاه وأضر به، وجعله عاجزاً (عن كتمان سره). السحّ: الكثير السيلان.
(٣) المحكم: المتقن. المنحة (بالكسر): العطية.
(٤) يصل إليه فهم أمّة (عدد كبير من الناس). بعد أمّة (بعد مدّة طويلة من الزمن).
(٥) الشنشنة: العادة الغالبة على الإنسان. اللهجة النازلة عن اللغة الفصحى (؟).
(٦) أكثر دوراً (دَوَراناً على الألسنة): أكثر ٱستعمالاً في الكلام. أشدّ (أبعد) غوراً (عمقاً): غير واضحة المعاني (في استعمال الناس).
(٧) الخاطر: الذي يبدو فجأة. العابر: المارّ اتّفاقاً (هو يقصد أن تأليف كتابه لم يكن عن قصد).

شرحها وإيضاح ما خَفِيَ من بَرْحِها[١] لِيَشْتَفِيَ صدرُ الناظر فيه على المأمول ويُفيدَه - إن شاءَ اللهُ - إنْ أخذَهُ بالقَبول.

وسَمَّيْتُه «رَصْفَ المباني في شرح حروف المعاني» لِيكونَ آسمُه وُفْقَ معناه ولفظُه مُتَرْجِماً عن فَحْواه. ونَظَمْتُه على ترتيبِ حروف المُعْجَم لِيَكونَ في التأليف أنبلَ وعلى تَفَهُّمِه أسهلَ. وذكرت..... منها على ما هو عليه في النُّطْق من حرفٍ واحدٍ وأزيدَ حتّى آنْتَهَيْتُ إلى آخرِ حرف فيه. وعلى الترتيبِ المذكور اتبَعْتُ أوّلَ حرف منه - إذا كان مُركَّباً - ما يَليهِ من ذلك الترتيب. وما كان ناقصاً (من حروف المعجم وما كان) مركباً.....[٢]

وبيّنتُ ذلك كلَّه مُجملاً ومُفصّلاً على ما.......[٣] الجُهْدُ وحمل على بسطِهِ وتقصّي موارده الجِدّ. وأنهيت في ذلك.....[٤] لتكون للكتاب المزيّةُ على ما سواه. وإنّما الأعمال بالنيّات، ولكلّ آمرىء ما نواه[٥]. واللهَ عزّ وجلّ أَسترشدُ إلى ما يُرْشِدُ، وأَسْتَعْضِدُ فيما أَقْصِد. فما المَفْزَعُ[٦] إلّا إليه، وما التوكّل إلّا عليه: إليه أفزَعُ وعليه أتوكّل، هو حَسْبي ونِعْم الوكيلُ.

- من مَتْن كتاب «رصف المباني في شرح حروف المعاني (ص ٣١٠ - ٣١١):

آعلَمْ أن «ما»، في كلام العرب، لفظٌ مُشْتَرِكٌ يقَعُ تارةً آسماً وتارة حرفاً، وذلك بحَسْبِ عَوْدِ الضمير عليه وعدم عَوْده (بحَسْب) قرينة الكلام. وحظّنا من القسمين الحرفيةُ[٧] وهي التي يكون معناها في غيرها. ولها في الكلام ثلاثةُ مواضعَ:

الموضع الأول أن تكون حرفَ نَفْيٍ. وتنقسمُ لهذا المعنى قِسمين: قِسم[٨] يدخل

---

(١) البرح: التعب والأذى.

(٢ و ٣ و ٤) بياض في الأصل (اقرأ: وسعني - السعي، العمل (أي حاولت الوصول إلى نهايته وتمامه).

(٥) تضمين من حديث لرسول الله «إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكل امرىء ما نوى. فمن كانت هجرته لله ورسوله (في سبيل الله وطاعة لرسول الله)، فهجرته لله ورسوله...».

(٦) المفزع: الملجأ.

(٧) وقصدنا من البحث في «ما» على أنه حرف (حرف نفي، حرف استفهام) لا على أنّها اسم موصول بمعنى الذي.

(٨) الأصح أن يقال «قسماً» (بدل من قسم).

على المبتدأ والخبر، وقسم لا يدخُلُ عليهما.

فالقسم الذي يدخل على المبتدأ والخبر للعربِ فيه مذهبانِ: مذهبُ أهل الحجاز ونجدٍ (وذلك) أن يُجْروها مجرى «ليس» فيرفعوا بها المبتدأ آسماً لها ويَنصِبوا خَبَرَهُ خبراً لها، فيقولوا: «ما زيدٌ قائماً، وما عبدُ الله راكباً». وذلك تشبيهاً لها بليس»، إذ «ليس» هي للنَّفْي مثلُها، وداخلةٌ على المبتدأ والخبر مثلَها ونَفْيِ الحال[1]. وزادَ بعضُهم: وتدخُلُ الباءُ في الخبر كما تدخل في خبر «ليس»، فتقولُ: «ما زيدٌ بقائمٍ» كما تقول: «ليس زيدٌ بقائم».

إلّا أنّهم لا يُعْمِلونها عمَلَها إلّا بثلاثة شُروطٍ: الأوّل ألّا يدخُلَ على الخبر «إلّا» فيصيرَ مُوجِباً فيُنْقَضَ النفيُ من جهةِ النفيِ[2] إذا دخلتْ، فيرتفعَ ما بعدَها على المبتدأ والخبر. والثاني ألّا يتقدّمَ الخبرُ على الآسم، فإنّ تقدّمَ ارتفعَ ما بعدَها بالآبتداء والخبر لأنّها حرفٌ ضعيف لا يقوى قُوّة «ليس»، إذ هي فعلٌ على ما ذُكِرَ في بابها. وعَمَلُ «ما» بحقّ الشَّبَهِ، كما ذُكِرَ[3]. والثالث ألّا تدخُلَ عليها «إنْ» الزائدة لِشِبْهِها بالنافية[4]، فكأنّه دخل نفيٌ على نفيٍ فصارَ إيجاباً، فتقول: «ما زيدٌ إلّا قائمٌ، وما قائمٌ إلّا أنت، وما إنْ زيدٌ قائمٌ». قال الله تعالى: ﴿ما هذا بشراً﴾[5]، فهذا آجتمعتْ فيه الشروط. وقال تعالى: ﴿ما أنتم إلّا بشرٌ مثلُنا﴾[6]. وقال الشاعر:

فما إنْ طِبُّنا جُبْنٌ، ولكنْ مناياناا ودَوْلةُ آخَرينا[7].

---

(١) نفي الحال (إذا قلنا: ليس زيد مريضاً، فمعنى ذلك أنّه الآن ليس مريضاً).

(٢) ينتقض (يبطل) النفي من جهة النفي (إنّ النفي الثاني يبطل النفي الأوّل، فتصبح الجملة مثبتة).

(٣) يقال «ما» المشبهة بليس.

(٤) إنّ «إنْ» (بكسر فسكون): حرف نفي يشبه «ما» (إن أنت إلّا تلميذ = ما أنت إلّا تلميذ = أنت تلميذ).

(٥) القرآن الكريم (١٢: ٣١، سورة يوسف).

(٦) القرآن الكريم (٣٦: ١٥، سورة يس).

(٧) الشعر لفروة بن مسيك، وهو شاعر من الصحابة، توفّي ٣٠ هـ. والطبّ (بالكسر): الشأن، العادة المعروفة عنّا. يقول فروة هذا البيت من مقطوعة يعتذر فيها عن انهزام قومه في احدى المعارك (راجع تاج العروس- الكويت ٣: ٢٥٩؛ ابن الأثير ٢: ٢٩٥ - ٢٩٧).

٤ - رصف المباني في شرح حروف المعاني (تحقيق أحمد محمّد الخرّاط)، دمشق (منشورات مجمع اللغة العربي بدمشق) ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م.

★★ الإحاطة ١ : ٢٠٣ - ٢٠٩ ؛ بغية الوعاة ١٤٣ - ١٤٤.

ابن عبد الملك المرّاكشي

١ - هو الشيخُ (نفح الطيب ٥ : ٦٠٤) أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ سعيدِ (المرقبة العليا ١٣٠) بنِ عبدِ الملكِ الأوْسيُّ الأنصاريُّ المَرّاكُشيُّ، من أهلِ مَرّاكُش، وُلِدَ في رابعَ عَشَرَ ذي الحِجّة من سَنَةَ ٦٣٤ (٩/٧/١٢٣٧ م) في الأغلب.

روى عن أبي الحسنِ عليِ بنِ محمّدِ الرُّعينيِّ وأبي عبدِ الله محمّدِ بنِ عليٍّ بنِ هشامٍ وأبي الوليدِ بن عفير. وأجازَ له ابنُ الزُّبير (ت ٧٠٨ هـ) صاحبُ صِلة الصلة.

وكان في أيامِ شَبابِهِ قد أرادَ أن يرحَلَ إلى الأندلس فلمّا وَصَلَ إلى جَنوبيِّها تجوّلَ فيه ثلاثةَ أيامٍ ثمّ عادَ إلى المغرب. وقد تولّى قضاءَ مَرّاكُشَ مُدّةً ثمّ أُخِّرَ عنه بوشايةٍ من رجلٍ كان ابنُ عبد الملك عنيفاً في مُعاملته. أمّا وفاتُه فكانتْ في أواخرِ المُحَرَّمِ من سَنَةِ ٧٠٣ (أواسطِ تمّوزَ - يوليو ١٣٠٣ م) في تِلِمْسانَ.

٢ - كان ابنُ عبدِ الملكِ المَرّاكُشيّ عارفاً بعددٍ من فنونِ المعرفة: في الحديثِ والفِقْه والتاريخ واللغة والنحو والشعر، كما كان ناثراً وناظماً. وشِعرُه عاديٌّ جدًّا. ثمّ إنّه كان مُصَنِّفاً له: كتاب (في الأحكام)[١] جَمَعَ فيه بينَ كتابِ أبي الحسنِ عليٍّ بنِ محمّدِ بنِ القطّانِ الفاسيّ (ت ٦٢٨ هـ) وكتاب ابنِ المَوّاق المَرّاكُشي. أمّا شُهْرَتُه فتَرْجِعُ إلى كتابه « الذيلِ والتَّكْمِلة لكتابَيِ المَوْصول والصلة »[٢]، وهو (أي الذيل والتكملة) قاموس عامّ لرجالات الأندلس منذ الفتح إلى آخر القرن السابع للهجرة (ولم يُتِمَّه لاتّساع نطاقه).

(١) لعبد الحقّ بن عبد الرحمن الإشبيليّ المعروف بابن الخرّاط (٥١٠ - ٥٨١ هـ) كتاب في « الأحكام » (الأحكام الشرعية المستقاة من الحديث) صنع منه ثلاث نسخ: كبرى ووسطى وصغرى. وقد ألف ابن القطّان في الرد على عبد الحقّ كتاباً عنوانه: كتاب الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام (لعبد الحقّ الإشبيلي).

(٢) الموصول في تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (ت ٤٠٣ هـ). والصلة لابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ).

٣- مختارات من آثاره

- من مقدّمة « الذيل والتكملة »:

.... قال عبدُ الله[1] المُؤَمِّلُ رُحماه محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ عبدِ الملك بنِ محمّدِ ابن سعيدٍ أمدّه اللهُ بتوفيقه وجعله من طائفة الحقّ وفريقهِ: الحمدُ للهِ الذي أعلى مَعالمَ العِلمِ بأعلامه، وأحلى مواردَ الفَهْمِ لِأُولي أحلامهِ[2]، ويسّرَ كُلًّا منهم بهِ لِما يسّرَ له من أقسامه، وألهَمَهُ إلى التمسّكِ بأسباب سعادته فسَعِدَ بإلهامهِ، وٱتّسَمَ بما به ارتسَمَ مِنَ الآنتظام في سِلْكِ حِزبه فأفلَحَ بٱتّسامهِ وٱرتسامه وٱنتظامه[3]، وصَرَفَ إليه دواعيَ شَغَفِه به وغَرامه، ووَقَفَ عليه مُتَوالِيَ ٱهتباله وٱهتمامه[4]، فمنهم مَنِ ٱلْتَمَسَه بُمستقَرّهِ مُعْمِلاً صِدقَ جِدّه وتصميمَ ٱعتزامه[5]......

أمّا بعدُ، فإنّي قصَدْتُ في هذا الكتابِ إلى تذييلِ صِلَةٍ لراوية أبي القاسم بنِ بَشْكُوالَ تاريخَ الحافظ أبي الوليدِ بن الفَرَضيّ[6]، رَحِمَهما الله، في علماءِ أهلِ الأندَلُس والطارئين[7] عليها من غيرِهم، بذِكْرِ من أتى بعدَه منهم، وتكميلِها بمَنْ كان من حقّه أنْ يَذْكُراه فأغْفلاه. وقبلَ الشُّروع في إيرادِ ما قصدْتُ إليه من ذلك فلا بُدّ من ذكرِ مُقدِّمَة تُطْلِعُ على وجه العمل الذي ٱعتمَدْتُه، وتُرْشِدُ إلى المسلَكِ الذي فيه سلكْتُه سائلاً من الله سُبحانَه (وتعالى التوفيق) والصوابَ في القول والعمل، وإنجاداً على ما يَعْصِمُ من مُواقعةِ الخطأ والخَطَل[8] (فإنّه لا) مأمولَ إلّا خيرُه، فأقولَ:

---

(١) عبد الله، هنا، صفة وليس اسماً، إذ نقول: قال عبد الله محمّد بن مالك، أو هذا كتاب من عبد الله عبد الملك بن مروان...

(٢) المراكشي مولع هنا بالجناس: أعلى معالم العلم بأعلامه - أحلى موارد.... بأحلامه. المورد: المكان يشرب منه الناس. الأحلام جمع حلم (بالكسر): العقل والتروّي في الأمور.

(٣) الآتّسام (الاتّصاف) والآرتسام (العمل بمقتضى منهج معيّن) والآنتظام (الآنتساب إلى فريق معلوم يعمل بعملهم).

(٤) الشغف: شدّة الحبّ. متوالٍ: متتابع، مستمرّ. الآهتبال: ٱنتهاز الفرصة.

(٥) صمّم: عزم على الأمر ومضى فيه بثبات.

(٧) في ٱبن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ) وٱبن الفرضي (ت ٤٠٣ هـ) راجع ٥: ٤٥٦ و ٤: ٣٣٧.

(٧) الطارىء: الآتي إلى المكان من خارجه للزيارة أو الاستقرار.

(٨) أنجد فلان فلاناً: ساعده، أعانه. عصم: حمى (أبعد عنه الأخطاء). الخطل: فساد العقل وسوء الحكم على الأمور.

إنّ الحافظَ أبا الوليد، رَحِمَه الله رتّب أبوابَ كتابه على تَوالي حروفِ المُعْجَم المعروفِ ببلادِ المشرقِ، فِعْلَ أبي عبد الله البُخاري[(١)] .... (هنا أسماءُ مؤلّفين) وتَبِعه على ذلك الترتيب أبو القاسم بن بَشْكُوالَ في صِلَتهِ تاريخَه، وقد فَرَغَ من كتابَيْهما حرفُ الظاء[(٢)]. وخالَفَهم في ترتيب الحروف أبو عبد الله بنُ الأبّار[(٣)]- وهو أنبَلُ تابعيهِ[(٤)]- وأبو العبّاس بن فرتونَ[(٥)] (الوافي ٧ : ١٣٥ - وكتابه الذيل على الصلة لابن بشكوال مفقود) ومُصلِحُ كتابه ومُكمِّلُه أبو جعفرِ بن الزُّبير[(٦)] فرتّبوا أبوابَ كُتُبِهم على نَسَقِ الحروف المعروفِ ببلادِ المغرب، وهُوَ مُتّفِقٌ (مع) الترتيب المشرقيّ إلى الزايِ، وبعدَه عند أهل المغرب والأندلس ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و ي.

وجعل ابنُ الفَرَضيّ وآبنُ بشكُوالَ الأسماء في الأبواب على طبقاتِ المذكورين فيها فقدّما الأسبق في الوجود فالأسبق، وعقّبا كلَّ آسمٍ من أسماء الأندلسيّين بمن وجدوه من مُوافِقهِ من الغرباء - وهم في مُصْطَلَحِها الطارئون على الأندلس من غيرها، سواءٌ أكان أصلُهم منها أو من غيرها - إن وَجَدا له في الغرباءِ سَمِيًّا، وجعلا الأسماءَ في كلّ بابٍ على حَسْبِ الأكثرِ والأشهرِ فالأشهر[(٧)]، وختَما كلّ حرفٍ بِذِكْرِ مفاريدِ (آخر ص ٩)

---

(١) البخاري (ت ٢٥٦ هـ) له «الجامع الصحيح» في أحاديث رسول الله، وله «التاريخ الصغير» في رجال الحديث ثمّ «الضعفاء الصغير» في رواة الحديث. ... فعل... البخاري (أي كما فعل البخاري في ترتيب أسماء الرجال في كتابيه الأخيرين).

(٢) فَرَغ من كتابيهما حرف الظاء (لم يرد في كتابيهما ذكر رجل يبدأ اسمه بالظاء المعجمة).

(٣) أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) له كتاب «التكملة لكتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ومشاهيرهم» لابن بشكوال.

(٤) أنبل: أبرز، أشهر (أفضل) تابعيه (الذين فعلوا في التأليف كما فعل ابن بشكوال في سرد تراجم الرجال).

(٥) أحمد بن يوسف بن فرتون (ت ٦٦٠ هـ) من المؤرّخين، له كتاب الذيل على الصلة (على كتاب الصلة لابن بشكوال).

(٦) أحمد بن إبراهيم بن الزبير (ت ٧٠٨ هـ)، له صلة الصلة (... كتاب الصلة لابن بشكوال).

(٧) الأسبق فالأسبق والأشهر فالأشهر (... لا يجعلون ورود الأسماء في كتبهم على ترتيب حروف الهجاء، بل على مقدار الشهرة عند الناس. مثال ذلك: يأتي اسم «حسن ثمّ حسين» قبل اسم حاتم (بفتح التاء) أو حباب (بالضمّ)، وإن كانت الألف والباء تأتيان في حروف الهجاء قبل السين. ثمّ يأتي عندهم مَنْ اسمه =

الأسماء الموجودةِ فيه[1] بتقديمِ الأندلسيّين وتأخير الغرباءِ إنْ وَجَداهم. وكذلك فَعَلَ أبو عبد الله بن الأبّار وأبو جعفرِ بنِ الزُّبير- فيما وقفتُ عليه من تاريخِها.

فآثرتُ ترتيبَ كتابي هذا بأنْ وَضَعْتُ أبوابَه على ترتيب حروف المعجم المَشْرقيّ لصِحّة آعتباره[2].....

وبدأت في حرفِ الهمزة بِمَنِ آسمُهُ أحمدُ، وفي حرف الميم بِمَنِ آسْمُه محمّدٌ، تَبَرُّكاً بموافَقَةِ آسْمَيِ النبيّ صلى الله عليه وسلّم. وقد تقدّم البُخاريُّ إلى تصدير تاريخه بذِكرِ مَنِ آسمُه محمّدٌ، لمّا ذكَرَ أوّلَه سيّدَ البشرِ نَبيَّنا المُصطفى صلَواتُ الله وسلامُه عليه إذ كان أشهرَ أسمائه. وجعل- بعدَ الفَراغِ من ذِكرِ مَنِ آسْمُه محمّدٌ- حرفَ الهمزة مُبْتَدِئاً فيه بِمَنِ آسمُه أحمدُ، فسَعِدَ بتوالي الاسْمَيْن المباركين في صدر كتابه من غيرِ فصلٍ بينهما، وجعلَ سائِرَ المُسَمَّيْنَ باسمٍ أوّلُه ميمٌ في حرف الميم.... وقدّمتُ في باب العين من آسْمُه عبد الله وعبدُ الرحمن لأنّهما أحبُّ الأسماء إلى الله. ووَسّطْتُ بينَهما مَنِ آسمُه عُبيدُ الله لشرف الإضافة[3] (آخر ص ١٨) وأتْلَيْتُ[4] مَنِ آسمُه عبدُ الرحمن مَنْ آسمُه عبدُ الرحيم لآشتراكِهما في الآشتقاق من الرحمة ولتَلازُمِها في تَسْمِية التبرّك وآيٍ من كتاب الله العزيز[5]... وأتْبَعْتُ ذلك سائرُ المُعَبَّدين مُعْتَبِراً[6] في ترتيبهم حروفَ

= علي من الأندلسيين قبل الذي اسمه علي من الطارئين على الأندلس. يجب أن يقال: الأشهر فالأقلّ شهرة... (كلّما كان الاسم أشهر عند الناس قدّم في السرد على غيره).

(١) المفاريد: الأسماء المفردة النادرة (التي يكون منها في الرجال المذكورين في كتب هؤلاء الواحد أو الاثنان، فتأتي كلّها مجموعة بعد استيفاء أسماء المشهورين. فبعد الحسن والحسين... (في باب الحاء المهملة) يأتي حاطب وحجّاج وحبيش وحجر (بالكسر) مجموعة على غير ترتيب مخصوص.

(٢) لصحّة اعتباره.... لأنّ ترتيب اللفظ عند المشارقة: (زاي، سين، شين، صاد) أقرب إلى المنطق من ترتيب هذه الحروف عند المغاربة (زاي، ط، ظ، ك، ل، م، ن، ع.... س، ش، هـ).

(٣) لشرف الإضافة إلى اسم الجلالة: عبد الله، عبد الرزّاق، عبد السميع، عبد الظاهر.....

(٤) أتليت: جعلته تالياً (بعد غيره).

(٥) لورود آسمَيِ الجلالة (الرحمن والرحيم) مقرونين في عدد من آيات القرآن الكريم، نحو: «بسم الله الرحمن الرحيم- الحمد لله....الرحمن الرحيم (١ : ١ - ٢، سورة الفاتحة)- وإلهكُم إلَه واحد لا إلَه إلا هو الرحمن الرحيم (٢ : ١٦٣، سورة البقرة)، الخ.

(٦) معتبراً: ناظراً، مقدّراً.

أوائلِ أسماء الله على حَسْبِ ما أُلْفِيه منها(١). وما لم أُلْفِه منها تخطّيتُه إلى أوّل ما أُلْفِيه بعدَه منها. وذكرتُ سائرَ الأسماء في سائر الأبواب والتراجم على ترتيب الحروف المذكورة....... ولكنّني لاحظتُ صورةَ الحرفِ في الهجاء لا أصله، كَمُؤَمِّلٍ أذكره فيمن بعدَ الميم مَنِ ٱسمُه واوٌ، وإنْ كانتِ (ٱلواو) صورةً للهمزة(٢)..... ولا عِبرةَ بأداةِ التعريف(٣). وهنا ذَكَرْتُ الكُنى التي هي أسماءٌ لها كُنى، وأضفتُ إليها الكُنى التي لعلّها أسماءٌ جُهِلَتْ كُناها(٤)، أو كُنًى جُهلت أسماؤها.... (ص ٢٣).

وجمعتُ هذا الكتابَ ممّا ٱفترق- فيما لا أُحصيه عدداً- من برامجِ رَواياتِ الشُّيوخ الجِلّة(٥) أئِمّة هذا الشأن كلِّها وافيةً بالشروط المُعتبرة في توثيق النقْل منها، إذ مُعْظَمُها بخطِّ جامعيها، وسائرُها(٦) بخطوط المُعتَمَدِ عليهم من رجال هذا الفنّ ومُقابَلَتِهم وتصحيحِهم، إلى ما نقلْتُه من مُقيَّداتِ ذوي العِناية بهذه الطريقة من موالدَ ووَفَياتٍ ورَفْعِ أنساب(٧) وتَبيينِ أحوالِ الرُّواة وشِبهِ ذلك من الفوائدِ، مع ما تلقَّيْتُه مِن مشايخي الذين أخذتُ عنهم شِفاهاً، وما ٱلْتَقطْتُه من طَبَقات القِراءات والأَسْمِعة(٨) على الشيوخ أو منهم والتواريخِ على تفاريق مقاصدها، وكل ذلك ممّا ٱنسحبتْ عليه رِوايَتيَّ بين سَماع

---

(١) ألفي: وجد.

(٢) يجعل، عند الترتيب، مَنْ ٱسمه شأس قبل مؤمّل (وإن كان لفظ الهمزتين بالفتح) لأنّ صورة الكتابة في الأولى ألف وفي الثانية واو.

(٣) ولا عبرة بأداة التعريف (لا تحسب أداة التعريف عند سرد الأسماء وترتيبها). من أجل ذلك يأتي اسم ثابت قبل اسم الحسن، لأنّ الثاء (المثلّثة) تأتي قبل الحاء (ولا قيمة في الترتيب للألف في أول اسم الحسن).

(٤) «أبو بكر» (في الأصل) كنية الخليفة الأوّل في الإسلام، وكان اسمه عبد الله. ثمّ إنّ نفراً من المسلمين جعلوا يسمّون أبناءهم «أبا بكر» (فأصبحت الكنية اسماً). ثمّ اتّخذ هؤلاء كُنًى فصاروا يقال فيهم: أبو عبد الله (كنيته) أبو بكر (اسمه) بن سعيد بن عليّ.....

(٥) الجِلّة (بالكسر): العظماء والسادة.

(٦) سائرها: باقيها (في البستان عشر شجرات، ثلاث منها شجرات تفّاح، وسائرها- أي السبع الباقية- من البرتقال).

(٧) رفع النسب: سرده إلى أقدم ما يمكن.

(٨) الأسمعة (يقصد بها هنا جمع سماع- بالفتح)، وهي المقالات التي يسمعها الطالب من شيوخه (أساتذته).

وقِراءةٍ ومُناولة وإجازة [١] وغيرِ ذلك من ضُروب التحمُّل [٢]. وقد جرى عمل الأشياخ على تقديم إسنادهم إلى من تقدّمَهم من المؤرّخين لِيَنْسِبوا إليهم ما ينقُلونه عنهم إلى كُتُبهم هذه، ثمّ يُعقّبون ذِكْرَ من يذكُرون من الرواة أو بَعْضِهم بِتَعْيِين مَنْ ذَكَره. وذلك رأيٌ رشيد وعمل صالح سديد أجَلُّ مُثْمَراتِه تبرُّؤُ الناقل من عُهدة ما نَقَل والإحالةُ [٣] به على ذاكرِه الأوّل تَقْويةً [٤] للاْحتجاج به وتصحيحاً للاْستنادِ إليه. لكنّني وجدْتُهم لا يقومون بمُقتضى ذلك العملِ على التّمام، فإنّهم يأتون بِمَنْ يُريدون ذِكْرَه فيرفَعون في نسبه ويذكُرون كُتُبَه وشُهرتَه إن كانتا له، ويعزونَه [٥] إلى قبيلته وبلَدِه أو إليهما ويُعَرّفون من أمره ما يستحسنون إيرادَه، ثم يُعَقّبون ذلك بقولهم: كان من أمرِه كَيْتَ وكَيْتَ. فكُلُّ ما بدأوا به ذِكْرَه إنّما هو مِنْ قِبَلِهم غيرُ مَعْزُوٍّ إلى أحد مِمَنْ قدّموا ذِكْره في صُدور كُتُبِهم [٦]. وهذا العمل منهم ليس في القليل ممّا يذكُرونه، ولا في النُّدرة، بل يكاد يكون مُعظَمُ من يذكُرون على هذا الأُسلوب [٧]. فصارتِ العُهدة فيه عليهم فيما لم يَنْسِبوه إلى غيرهم [٨]. وأيضاً فإنّ الذي ينقُلونه عن غيرهم إنّما ينقُلونه عنِ الاْختيار والاْنتخاب لا على التَّوالي والاْستِيعاب [٩]. فعزَوْتُ تلك الأقوالَ،

(١) من طرق تلقّي العلم في الإسلام: السماع (سماع المحاضرات من الأساتذة) والقراءة (تلاوة النصوص بين يدي الأستاذ) والمناولة (نقل الرواية من الأستاذ إلى التلميذ؟) والإجازة (الشهادة: كتابة الأستاذ للطالب ورقة فيها أن الطالب أصبح قادراً ومأذوناً له بأن يعلّم الناس ما تعلّمه).

(٢) وغير ذلك من ضروب التحمّل: ما يحمله التلميذ من أستاذه (ما يأخذه التلميذ عن أستاذه).

(٣) الإحالة: أن يشير المؤلّف للقارىء إلى المكان الذي استقى المؤلّف منه أخباره. العهدة (بالضمّ): التبعة (بفتح فكسر).

(٤) تقوية للاحتجاج: تثبيتاً لصحّة النقل عن الآخرين.

(٥) عزوت هذا العمل إلى فلان: نسبته إليه.

(٦) يقول نفر من المؤلّفين إنّهم سيأخذون عن فلان وفلان أو من الكتاب الفلاني والكتاب الفلاني. ولكنّهم كثيراً ما يذكرون أشياءَ من عند أنفسهم.

(٧) وأكثر ما يذكره أولئك المؤلّفين يقولونه هم (ويتوهّم القارىء أحياناً أنّه مرويّ عن العلماء السابقين).

(٨) .... فكلّ قول لا يذكرون أنه مأخوذ عن عالم ما، فإنّ تبعة ما فيه (من الصواب أو الخطأ) ملقى على عاتقهم هم.

(٩) هم يتخيّرون (يذكرون ما يريدون ذكره فقط)... لا على التوالي (لا يذكرون تسلسل الرواية) ولا على الاستيعاب (لا يذكرون كلّ شيء).

بعدَ ٱقتضائها، إلى قائلِها مُستوفاةً مُسامَحةً[1]. ولو فَرَضْنا ٱستيفاء تلك الأقوالِ كما وَقَعَ في بعضها مِمّا ٱخْتُصِرَ - أو لا يمكنُ ٱختصارُه - لكانتْ عُهدةُ نَقْلِها عليهم. إذ لو رامَ أحدٌ من......[2].

- قال ابنُ عبدِ الملك المرّاكشي في مدينة مَرّاكُشَ:

لله مَرّاكُشُ الغَرّاءُ مِنْ بَلَـــدٍ، وحبّـذا أهلُها الساداتُ من سَكَن.
إنْ حَلّها نـازحُ الأوطان مُغتربٌ أسْلَوْهُ بالأُنس عن أهلٍ وعن وطن[3].

- ومن كتاب التكملة والصِّلة (بقيّة السفر الرابع، رقم ١٢٢، ص ٤٩ وما بعد):

وقد تعاطى جماعةٌ من الشُعراء تَذْيِيلَ بَيْتَيِ الحريريّ[4] المذكورينِ بما كان سُكوتُهم عنه أصْوَنَ ولافتضاحهم أسْتَر؛ وإخلادُهم إلى حَضيضِ العَجْزِ عن مُساماتِهِ في أوْجِ[5] إجادتِهِ أولى بهم وأجدرَ. فَمِنْ مُطيلٍ غيرِ مُطيبٍ ومُجيلٍ فِكْرَهُ في استدعاءِ ما ليس له بمُجيب، ومن مُقَصِّرٍ لو أبصرَ لأقصرَ، ولو أنصفَ لَما تكلّفَ. وقد أثْبَتُّ هنا من ذلك بعضَ ما وَقَعَ إليّ منه، وإن كان من حَقّهِ الإضرابُ عنه. واسْتَوْدَعْتُهُ هذا المَوْضِعَ تَقيّةً عليه من الضَّياع ورجاءَ إفادةِ مُسْتَشْرِفٍ[6] للاستفادةِ به والانتفاع... وهذه

---

(١) مستوفاة: كاملة قدر الإمكان. مسامحة (مع شيء قليل من التجاوز؟).

(٢) هنا ينقطع الكلام في الأصل المطبوع (والمخطوط).

(٣) أسلوه: سلوه (بفتح السين وتشديد الدال) أنسوه.

(٤) تذييل: تكميل، زيادة (أبيات على بيتي الحريري). للحريري صاحب المقامات (ت ٥١٦ هـ) بيتان:

سم سمـــــة تحسن آثارهـــــا، واشكر لمن أعطـى ولو سمسمه.
والمكر مهما ٱسطعـــت لا تأتـــه لتقتـــني السؤدد والمكرمـــه.

لاحظ أنّ أول كلّ بيت مثل آخره: سم سمة، سمسمة. وقد اعتقد الحريري أن الإتيان بأبيات على مثالها غير ممكن. وقد حاول نفر ذلك فجاءوا بعدد من الأبيات. وابن عبد الملك المراكشيّ يرى أبيات هؤلاء النفر نازلة عن بيتي الحريري.

(٥) الإخلاد: السكون والاطمئنان. الحضيض أدنى (أقرب) ما يصل إليه كوكب من الأرض، والأوج أبعد ما يصل إليه كوكب عن الأرض (وهما كناية على أسفل الأشياء وأعلاها). المساماة: محاولة السموّ (الارتفاع) إلى مستوى شيء آخر أو مكانة شخص آخر.

(٦) تقيّة: خوفاً. المستشرف: الذي يحاول رؤية الأشياء من بعيد.

القِطْعةُ - كما ترى[1] - أسْبَكُ من غيرِها وأسلَسُ نَظْماً، وأبْيَنُ مَعانِيَ وأمْتَنُ مبانِيَ. غيرَ أنّها مُنْحَطّةٌ عن بَيْتَيِ الحريريّ.... فقد وَضَحَ بهذا كلّهِ أنّ الحريريَّ هو الذي دان له الاختراعُ للبدائع والإنشاءُ، وأن بَراعةَ مَعْلَمِهِ مُعْلِمَةٌ أنّ الفضلَ بيدِ اللهِ يُؤتيهِ من يشاءُ[2]. وللهِ هُوَ! فلقد نَصَحَتْ إشارتُه وزَجَرَتْ مُناهضِيه، ونَصَعَتْ عِبارتُه فنَهَرَتْ - إذْ بَهَرَتْ - مُعارِضيه[3]....

٤ - كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (حقّقه إحسان عبّاس)، بيروت (دار الثقافة) ١٩٦٥ م (عدد من أجزائه).

★★ المرقبة العليا ١٣٠ - ١٣٢؛ النبوغ المغربي ٢٠٦؛ الأدب المغربي ٢٦٢ - ٢٦٣؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٦٧٥؛ الأعلام للزركلي ٧: ٢٦١ (٣٢)؛ دعوة الحق ٥٩/٣ ص ٢٤.

الغُبرينيّ صاحب الدراية

١ - هو أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ أحمدَ (وقيل محمّد) بنِ عبدِ الله بنِ محمّدِ الغُبرينيُّ، أصله من قبيلة بني غبرين في بلاد القبائل (المنطقة الجبلية)، وولد في الأغلب في مدينة بجاية (القطر الجزائري) سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ - ١٢٤٧ م).

درسَ أبو العبّاسِ الغُبرينيُّ قِسطاً صالحاً من علوم الدِراية (أصولِ الدينِ وأصولِ الفِقه والمنطق والتصوّف) وشيئاً كثيراً من علوم الرِّواية (التفسيرِ والحديث والفقه والنحو) وسمع من نفرٍ كثيرين منهم: أحمدُ بنُ خالدِ المالَقي (ت نحو ٦٦٠ هـ) وعبدُ الله ابنُ محمّدِ بن عمر القلعيّ (ت ٦٦٩ هـ) وأحمد بن عُثمانَ بن عَجْلانَ القَيْسي (ت ٦٧٠ هـ)

---

(١) إشارة إلى أبيات على مثال بيتي الحريري.

(٢) المعلم: العلامة الظاهرة تنصب على الطرق السلطانية (الدولية) ليستدلّ بها الناس على البلدان والمسافات بين البلدان (كناية عن أن بيتي الحريري شيء بارز في بابه).
معلمة اسم فاعل من «أعلم»، والجملة بعدها في محلّ مفعول به. «إنّ الفضل الخ» تضمين (٣: ٧٣، سورة آل عمران).

(٣) المناهض: المقاوم. المعارض: المباري، الذي يحاول أن يجري معك أو أن يجاريك في عمل شيء. نهر: زجر. بهر: أدهش.

ومحمّد بن الحسني بن ميمونٍ التيميّ القلعي (ت ٦٧٣) ومحمّد بن أحمد بن محمّد بن مرسي الطبيب (ت ٦٧٤ هـ) وأبو العبّاس أحمد بن محمّدٍ الصَدَفي الشاطبي (ت ٦٧٤ هـ) وعبد الحقّ بن ربيعٍ الأنصاري البجائي (ت ٦٧٥ هـ) وعبد المجيد بن أبي البركات بن أبي الدنيا الصَدَفيّ الطرابلسيّ (ت ٦٨٠ هـ) وعبد المنعم بن محمّدٍ الغسّاني الجزائري (ت بعيد ٦٨٠ هـ) وأحمد بن عيسى الغُماريُّ (ت ٦٨٢ هـ) وعبد العزيز بنُ عمرَ بنِ مخلوفٍ (ت ٦٨٦ هـ) وأبو القاسمِ ابنُ أبي بكرٍ اليمنيّ بن زيتونٍ (ت ٦٩١ هـ) وعبيدُ اللهِ بنِ أحمدَ بنِ عبد المجيد الأزْديّ (ت ٦٩١) وأحمدُ بنُ محمّد بن الغمّاز البلنسيّ (ت ٦٩٣ هـ) وغيرهم.

واشتغل أبو العبّاس الغُبرينيّ بالتدريس زمناً، درّس في جامعِ الزيتونة في تُونِسَ ثمّ تولىّ القضاء في بُلدانٍ عديدةٍ كان آخرَها بجايةُ، من غيرِ أن ينقطعَ عن التدريس في تونس وبِجايةَ وغيرهما. ثمّ ترقّى إلى مَنْصِبِ قاضي القضاة في بجايةَ وبَقِيَ في مَنْصِبه حتّى وقعتْ وَحْشَةٌ بينه وبين أمير بجاية أبي البقاء خالدٍ الذي جاء إلى حُكم بجاية سَنَةَ ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ - ١٣٠١ م).

لمّا سار أبو البقاءِ لتأديبِ واليهِ على قُسَنْطينةَ (الجزائر) محمّدِ بنِ يوسفَ الهَمْدانيّ الأندلسي، سَنَةَ ٧٠٤ هـ اصطحَب أبا العبّاس الغُبريني. ثمّ إنّ أبا البقاء أرسل الغُبرينيَّ في سِفارة إلى صاحبِ تونسَ محمّدٍ الواثق أبي عصيدةَ. ووشى جماعةٌ إلى أبي البقاء بأنّ الغُبرينيَّ قد حرّض أبا عصيدةَ على الثورة فغَضِبَ أبو البقاء ثمّ ألْقى الغُبريني في السِّجن ثمّ أمر بقتله، سَنَةَ ٧٠٤ هـ (١٣٠٥ م).

٢ - كان أبو العبّاس الغُبرينيُّ رجلاً، قبل أن يلِيَ القضاء، يُحِبُّ الاختلاطَ بالناس فيُكثِرُ من حضورِ الولائم ويدخُلُ إلى الحمامّات العامّة. فلمّا وَلِيَ القضاء ترك ذلك كلَّه ومال إلى الجِدّ فأصبح مَهيباً وَقوراً شديداً في أحكامه. وكان للمُتصوّفينَ المُعتدلينَ أثرٌ كبيرٌ في نفسه يؤمن بكراماتهم.

والغُبرينيُّ مؤلّفٌ له: «عُنوانُ الدِّراية فيمن عُرِفَ من العلماء في المِائَةِ السابعة ببِجايةَ» وقد ذكر له بروكلمن (الملحق ٢ : ٣٣٧) مصنّفاً هو «البرنامج» (فهرست بأسماءِ شيوخه).

وكتاب «عنوان الدراية» مجموعُ تراجمَ لعلماءَ وأدباءَ من القرنِ الهِجْري السابع، سواءٌ أكانوا من أهلِ بجاية أو من الوافدين عليها والزائرين لها (من أنحاء القُطْر الجزائريّ ومن الأندلس ومن المشرق). وترى شيئاً من غاية الكتاب ومَنْهَج تأليفه في النصّ المختار.

٣- مختارات من آثاره

- من مقدّمة عنوان «الدراية»:

.... إنّه لمّا كان طلبُ العِلمِ اللَدُنّي[١] فرضاً على الكِفاية حيناً ومُتَعَيِّناً في الحال[٢]، ولم يكُنْ بُدٌّ - في تحصيله - مِنْ تَلَقّيه عنِ الرجال... فلذلك اهْتَمّ العلماءُ بذِكْر الرجال واستعملوا في تَمْييز أحوالِهم الفِكْرَ والبالَ..... وقدِ اختلفَتْ في ذلك مَصادِرُهم ومواردِهُم[٣]، وإنِ اتّفقتْ في بعضِ الوجوه مَقاصِدُهم. فمنهم من ذَكَرَ التجريحَ والتعديلَ في المُحَدِّثين[٤]، ومنهم من ذكر من يُعْرَفُ بالحِفظ والإتْقان من المُتَقَدّمين، ومنهم مَنِ اقتصرَ على ذِكْرِ العلماءِ والمُجْتهدين.... (و) كلّ ذلك يُحَصِّلُ الإفادةَ ويُسَهِّلُ للطالبِ مُرادَه. وإنّما يَنْبغي أن يُعْرَضَ في هذا على[٥] سبيل المُكاثرةِ وطريقِ المُباهاة والمفاخرة، كما قَصَدَهُ بعضُ من قصّرتْ مَعْرِفتُه ولم تَرْقَ إلى درجةِ أُولي النُهى درجتَهُ، (بل) يكونُ القصدَ في هذا إنّما هو ما يتعلّقُ بالأمورِ الدينية ويُوصِلُ إلى

---

(١) العلم اللدنّيّ: العلم الذي هو من لدن (بفتح فضمّ فسكون: عند) الله، من قوله تعالى (١٨ : ٦٥، سورة الكهف): ﴿وعلّمناه من لدّنا علماً﴾.

(٢) فرض الكفاية هو العمل الذي إذا قام به بعض المسلمين سقط عن بعضهم الآخر (كتشييع الجنازة وتولّي القضاء). متعيّن (فرض عين: واجب على كلّ مسلم يجد في نفسه القدرة على شيء، كالجهاد إذا خيف على الإيمان). في الحال: الآن (في زمن المؤلّف).

(٣) تلقّيه عن الرجال: بالرواية (بأن ينقل المتأخّر الخبر عن متقدّم عليه بالزمن). مصادرهم: الأمور التي اعتمدوها واستندوا إليها. مواردهم: غاياتهم والنتائج التي وصلوا إليها.

(٤) المحدّثين (رواة الحديث عن رسول الله). الجرح والتعديل: نقد رجال السند (الذين يروون الحديث مسلسلاً واحداً عن واحد) بالحرج (الكشف عن ضعفهم أو جهلهم أو كذبهم أو انقطاعهم بأن يكون بين أحدهم والذي سبقه في سلسلة السند زمن طويل، الخ) والتعديل (معرفة ما في الراوي من العدل أو العدالة: كالعلم والتقوى والأمانة والخلق الكريم، الخ).

(٥) كذا في الأصل (ولعلّ الصواب: ينبغي أن لا يعرض هذا على...».

السبيل المَرْضيّة، وذلك بحيثُ يَعْلَمُ طالبُ العِلْمِ (أولئك) الأيمَّةَ الذين بِهِمْ يُقتدى وبسلوك سَنَنِهِمُ السويّ يُهتدى.

وإنّي قد رأيتُ أن أذكُرَ في هذا التَقْييد مَنْ عُرِفَ من العلماء بِبجاية في هذه المائة السابعة[1].... أذكرُ منهم مَنِ اشتهرَ ذِكْرُهُ ونَبُلَ قدرُه وظهرتْ جلالتُه وعُرِفَتْ مرتبَتُه في العِلم ومكانتُه. وقد رأيتُ أن أصِلَ بذِكْر علماء هذه المائَةِ ذِكْرَ الشيخِ أبي مَدْينٍ والشيخ أبي عليٍ المَسيليّ والفقيهِ أبي محمّدٍ عبدِ الحقّ الإشبيليّ، رَحِمَهُمُ اللهُ وَرضيَ عنهم، لِقُرْبِ عَهْدِهم بهذه المائَةِ - لأنّهم كانوا في أعقاب المائَةِ السادسة - للتبرُّكِ بذِكْرِهم ولانتشارِ فخرهم. و (أنا) أبْدأُ بهم، رَضِيَ الله عنهم، ثمّ أتْلُوهُمْ بذِكْر مَشْيَختي وأعلامِ إفادتي، ثمّ أتْلو[2] (هؤلاء) بِمَنْ سواهمُ إلى أن يَقَعَ الإتيانُ على جَميعِهم، رحمهم الله. وسَمّيْتُ هذا المجموع: عُنْوانَ الدِرايةِ فيمن عُرِفَ مِنَ العُلماءِ في المائَةِ السابعة بِبِجايةَ.....

- وقال أبو العبّاس أحمد بن أحمد الغبريني (المرتبةالعليا ١٣٢):

لا تُنْكِحَنْ سِرَّكَ المكنونَ خاطِبَهُ ... وَآجعلْ لِمَيِّتِه بينَ الحشا جَدَثا.
ولا تَقُلْ: نَفثةُ المصدورِ راحتُه. ... كم نافثٍ روحَه من صَدْرِه نفثا.

٤- عنوان الدراية.... (عني بنشره محمد بن شنب، الجزائر ( ) ١٣٢٨ - ١٣٢٩ هـ (١٩١٠ م)؛ (نشره عادل نويهض)، بيروت ( ) ١٩٦٩ م؛ (تحقيق رابح بونار)، الجزائر (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) ١٩٧٠ م.

** الديباج المذهب ٧٩ - ٨٠؛ نيل الابتهاج ٧٣ س؛ تعريف الخلف ١: ٢١ - ٢٧؛ وفيات ابن قنفذ ٣٣٨ - ٣٣٩؛ درّة الحجال ١: ١٠ - ١١؛ المرقبة العليا للنباهي ١٣٢؛ شجرة النور الزكيّة ٢١٥؛ بروكلمن ٢: ٣١٠ - ٣١١، الملحق ٢: ٣٣٧؛ الأعلام للزركلي ١: ٨٧ (٩٠)؛ سركيس ١٤٠٧؛ أعلام الجزائر لنويهض ١٥.

---

(١) المائة السابعة: من ٦٠١ إلى ٧٠٠ للهجرة (يوافقها: ١٢٠٤ - ١٣٠٠ للميلاد).
(٢) أتلو: اتبع.

; أبو العبّاس العزفيّ

١ - هو أبو العبّاس أحمدُ بن أبي طالبٍ اللّخْميّ العَزْفيّ، كان أهلُه ذَوي رئاسةٍ في سَبْتَة، في أواخرِ أيامِ المُوَحدينِ (نحو ٦٢٥ - ٦٦٥ هـ)، فَنَقَلَهُمُ ابنُ الأحمرِ إلى غَرْناطَة.

سَمِعَ أبو العبّاسِ العَزْفيُّ من أبي عليٍّ بنِ خميسٍ. ثمّ كانتْ وفاتُه في ٢٨ من ذي الحِجّة ٧٠٧ (١٣٠٨/٦/١٨ م). وفي الأدب المغربي (ص ٢٣١) سنة ٧١٧ هـ.

٢ - أبو العبّاسِ العزفيُّ شاعرٌ حَسَنُ السَّبْكِ على شِعرِهِ شيءٌ من الرِّقة والطَّلاوة، وَهُوَ يُقلّدُ المشارقة. وفُنونُه وُجدانيّةٌ مِنَ الشَّكْوى والخمر والنسيب في الأكثرِ.

٣ - مختارات من شعره

- قال أبو العبّاسِ العَزْفيُّ في الخمر والنسيب:

هذا الصباحُ، فغادِني بصَبوحٍ؛ ... وانْهَضْ براحِكَ فَهْيَ راحةُ روحي[١].
لا تَكْتَرِثْ بخطوبِ دَهْرِكَ واسْقِني ... كأساً تُحَسِّنُ منه كُلَّ قبيح.
ما لي وللأطلالِ أسألُ صامتاً ... منها وأُعْوِلُ في مَهامِهَ فيحِ[٢]!
في الراحِ والرَّيْحانِ شُغْلٌ شاغلٌ ... لي عن عِيافةِ بارحٍ وسَنيحِ[٣].
وأَهيمُ في وَرْدِ الخدودِ وآسِها، ... لا في عَرارٍ بالفَلاة وشِيحِ[٤].
كَمْ عرّضوا لي بالمَلامِ وصرّحوا، ... فعَصَيْتُ في التعريض والتصريح.

---

(١) غادني (قدّمْ لي باكراً) بصبوح (بخمر في الصباح). الراح: الخمر.

(٢) الطلل: مكان بناء الخيمة (وهنا): الديار الخربة. أعول: رفع صوته بالبكاء. المهمه: الصحراء الواسعة. الأفيح: الواسع.

(٣) البارح: الطير إذا مرّ من يمين الرائي إلى يساره (وكان عند العرب دليل شؤم). والسانح أو السنيح ضدّ البارح. العيافة: الاستدلال بطيران الطيور على المستقبل.

(٤) الآس: نبات أوراقه خضر. آس الخدود (أوائل الشعر النابتة في الوجه). العرار والشيح من نبات البادية.

عَجَبــــاً لهم يَلْقونَــــني بملامِهِمْ | في حُبِّ مَنْ يَلْقَوْنَ بالتسبيح[1].
إنْ صوّحَ الرَوْضُ النَضيرُ، فخَدُّه | أزْهارُه أمِنَتْ من التَصْويح[2].
قلــبي بِعَذْلِهِمْ يزيــدُ تَوَقُّــداً؛ | لا غَرْوَ في نــارٍ تُشَبُّ بريــح.

- وله في النسيب والعتاب:

مُلِّكْتَ رِقّي بالجمالِ فأجْمِلِ، | وحَكَمْتَ قلبي باعتدالكَ فاعْـدِلِ[3].
أنتَ المليكُ على المِلاحِ ، (ومن يَجُرْ | في حُكْمِهِ، إلّا جُفونَكَ، يُعزَلِ)[4].
إن قِيلَ: أنتَ البــدرُ، فالفَضْلُ الـذي | لـك بالكمالِ؛ ونَقْصُه لم يُجْهَـل.
لولا الحظوظُ لكُنــتَ أنتَ مكانَه، | ولكانَ دونَك في الحضيض الأسفل!
مـا زِلْتُ أُعْذَلُ في هَواكَ، ولم يَزَلْ | سَمْعي عن العُـذّالِ فيكَ بِمَعْزِل.
أصْبَحْـتُ في شُغْـلٍ بحُبِّـكَ شاغلٍ | عن أنْ أُصيخَ إلى كلامِ العُذّل[5].
لَمْ أُهْمِـلِ الكِـتمانَ، لكن أدمُعي | هَمَلـتْ. ولو لم تَعْصِني لم تَهْمُلِ[6].
إن كُنْـتَ بعدي حُلْتَ عمّا لم أحُلْ | عنـه، وقد أهْمَلْتَ ما لم أُهْمِلِ،
أو حالـتِ الأحوالُ فاسْتَبْدَلْتَ بي؛ | فأنــا بحُبّي فيــك لم أسْتَبْـدِل.

٤ - ★★ نفح الطيب ٢ : ٣٦؛ النبوغ المغربي ٢٢٦ - ٢٢٧، ٧٣٢ - ٧٣٥، ٧٦٤ - ٧٦٥؛
الأدب المغربي ٢٣١ - ٢٣٥.

أبو جعفر بن الزبير

١ - هو أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ إبراهيمَ بنِ الزُّبيرِ بنِ محمّدِ بنِ إبراهيمَ بنِ الحسنِ بنِ

---

(١) .... إذا رأوه قالوا: «سبحان الله» (لجماله الخارق).
(٢) صوّح: يبس.
(٣) أجمل: عاملني بإحسان ولطف.
(٤) «ومن يجر.... يعزل» راجع موشحة عبادة بن ماء السماء (٤: ٤٤٩-٤٥٠ من هذه السلسلة،....
(٥) أصاخ: استمع.
(٦) - أنا كتمت حبّي، ولكنّ دموعي التي انهمرت بكثرة دلّت الناس على حبّي لك.

عاصمِ بنِ مسلمِ بنِ كَعْبِ الثقفيُّ الجَيّاني، وُلِدَ في ذي القَعدةِ من سَنَةِ ٦٢٧ (خريفَ عامِ ١٢٣٠ م) في أُسرةٍ غنيّةٍ معروفة في جيّانَ.

تلا أبو جعفرِ بن الزبيرِ القرآنَ بالقِراءاتِ السَّبْعِ على أبي الحسنِ الشاري وغيره. وخرج به أبوه من جيّان، سَنَةَ ٦٤٣ هـ، لمّا استولى عليها العدُوّ. وفي سَنَةِ ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) كان في فاسَ فَلَقِيَ أبا العبّاسِ أحمدَ بنَ يوسفَ بنِ فَرْتونٍ (ت ٦٦٠ هـ) مؤرّخَ أهلِ فاسَ وتَتَلْمَذَ عليه.

وتصدّرَ أبو جعفرِ بنِ الزُّبير لإقراءِ كتابِ اللهِ وإسماعِ الحديث وتدريس الفِقْه وتعليم العربية (النحو) في جَيّانَ ثمّ في مالَقَةَ، فيما يبدو. وظَهَرَ في مالقةَ مُشَعْوِذٌ يُدعى إبراهيمَ الفَزاريَّ فقاومه ابنُ الزبير. ولكنّ ذلك المشعوذَ استعان عليه بالمُتَغَلِّبِ على تلك المدينة- أحدِ بني أشْقيلولة التُجيبيّين- فأُوذِيَ ثمّ اضطُرّ إلى مُبارحةِ مالقة فجاء إلى غَرْناطَة. واتّفق أن جاء إبراهيمُ الفَزاريُّ رسولاً من أميرِ مالقَة إلى غَرْنَاطَةَ فانتهز ابنُ الزبيرِ الفرصةَ وشَرَحَ للسُّلطانِ أمرَ هذا المشعوذ. وثَبَتَ على المُشعوذ شعوذَتُه وأنّه ادّعى النبوّةَ أيضاً فقُتِلَ.

وكانتْ وفاةُ أبي جعفرِ بنِ الزبيرِ في غَرناطَة، من ثامنِ ربيعٍ الأوّلِ من سَنَةِ ٧٠٨ (١٣٠٨/٨/٢٦ م).

٢- كان أبو جعفرِ بنِ الزبيرِ مُصنّفاً له من الكُتُب: مِلاكُ التأويل في المتشابهِ اللفظِ في التنزيلِ (القرآن)- الإعلام بمن خُتِم به القُطر الأندلسيّ من الأعلام- صِلة الصِلة (وصَل به صِلة ابن بشكوال)- معجم شيوخه- برنامج رواياته (؟).

وأسلوبه في الكتابة موجز واضح وربّما تأنّق في الكتابة حيناً (كما نرى في النّص- في «مختارات من آثاره»).

٣- مختارات من آثاره

- قال أبو جعفر بنُ الزبير في الآنصراف عن أمورِ الدنيا (بغية الوعاة ١٢٧):

مـــــا لي وللتسْآلِ؟ لا أُمَّ لي، إنْ سلْتُ: مَنْ يُعزَلُ أو مَنْ يَلِي[١]؟
حَسْبي ذُنوبي أثْقَلَـــتْ كاهِـــلي؛ ما إنْ أرى غَمَّاءَها تَنْجَلي[٢].

– وقال (صلة الصلة، ص ٢٨ – ٣٠، رقم ٤١):

عبدُ الوهّاب بنُ عليٍّ بنِ محمّدٍ القَيْسِيُّ من أهل المَنْشاةِ من حُصونِ مالَقَةَ بغَرْبِيّها[٣]، يُكنى أبا محمّدٍ..... كان وَرِعاً زاهداً أديباً حافلاً[٤] بالغَ الأدبِ، لا يُشَقُّ غُبارُه إذا نَظَمَ أو كَتَبَ: رشاقةً جُبِلَ عليها، وحَلاوةَ أغْراضٍ جَرَتْ طِباعُه على عِنانه[٥] إليها. وأمّا الوَرَعُ والزُّهْد فهما لِباسُه وشِعاره[٦]، وإن أتْهَمت أو أنْجدَت فبِحُكم مأذونيّة الأدب ولوذعيّته مَقاماتُه وأشعارُه[٧]. كان، رحمه الله، يرى تفضيلَ سُكنى البوادي على الأمصار[٨]، وإن أساءَ لنَفسِه – كما قال بعضُهُمُ – الاختيارَ. (ولكنّه فعل ذلك) إيثاراً للخُمول ورجاءً لإعدادِ ذلك في عَمَلِه المَقْبول[٩].... وقد قَيَّدْتُ من نظمهِ وشِعرِهِ.... ما يَشهدُ بسَبْقِه في الآداب وإحرازه الغايةَ في ذلك الباب... وكان بينَه وبين الشيخِ الأديب الفاضِلِ الوَرِعِ الجليل أبي الحجّاجِ بنِ الشيخ خُلَّةٌ[١٠] متأكِّدةٌ، وكانا يتراسلانِ نظماً ونثراً بما يملأُ الأرجاءَ طيباً ونَشْراً[١١]، إلى انبساطٍ ودُعابةٍ ما شانَ مثلَه

---

(١) لا أمّ لي، لا أمّ لك تعبير يستعمل للذمّ والسبّ، وقد يستعمل في المدح على سبيل التعجّب. والأم، في الأصل، الوالدة، وهي أيضاً الشأن والأمر والقصد. لا أمّ لي (هنا): ثكلتني أمّي (يدعو على نفسه بالموت) أو لا شأن لي بمثل هذا الأمر (؟). سلت = سألت. من يعزل (عن الحكم) ومن يلي (يتولّى الحكم).

(٢) الكاهل: ما بين الكتفين. الغمّاء: الشدّة (المصيبة) التي تغمّ (تغطّي على ما سواها). تنجلي: تنكشف.

(٣) المنشأة: موضع النشأة (مكان فيه أشجار وأزهار)؟

(٤) حافل: كثير لبنه (القاموس ٣: ٣٥٨) – أديب حافل: أديب بارع في عدد من فنون الأدب (؟).

(٥) جرى على عنانه (رسنه، لجامه): سهل عليه الجري (البراعة في الأعمال).

(٦) الشعار: ثوب يلبس ممّا يلي البدن. هذا الأمر لباسي وشعاري (يستغرق كلّ اهتمامي وجميع أعمالي).

(٧) اللوذعي: الذكّي الفصيح. فبحكم مأذونيّة الأدب ولوذعيّته (؟). المقامة: فن من فنون الأدب.

(٨) البادية: المكان البادي (البعيد عن العمران). المصر (بالكسر): المدينة الكبيرة.

(٩) إيثاراً (تفضيلًا) للخمول (قلّة الشهرة). العمل المقبول: المسلك الديني الذي يؤدّي إلى رضا الله واستحقاق الجنّة.

(١٠) الخلّة (بالضّم): الصداقة.

(١١) النشر: الريح (أو الرائحة) الطيّبة.

أمثالُها، ولا عابَه. وكانا في الفضل والدين والأدب المتين كفَرَسَيْ رِهانٍ[1]. وقد قلَّدَ بعضُ الجِلّة أخبارَها لِيقْتَفِيَ من وفق آثارها[2]. وقد تُوُفِيَّ الشيخُ الفاضل أبو محمّدٍ عبد الوهّاب سَنَةَ ٥٩٨....

٤- صلة الصلة (تحقيق إتيان ليفي بروفنسال) الرباط ١٩٣٧ م؛ بيروت (مكتبة خياط - بالتصوير) بلا تاريخ (؟ ١٩٦ م).
الوافي بالوفيات ٦: ٢٢٢؛ الديباج المذهب ٤٢ (فاس ٥٧)؛ الدرر الكامنة (حيدر أباد) ١: ٨٤-٨٦؛ الإحاطة ١: ١٩٥-٢٠٠؛ البدر الطالع ١: ٣٣-٣٥؛ بغية الوعاة ١٢٦-١٢٧؛ شذرات الذهب ٦: ١٦؛ نفح الطيب ٢: ٢٩-٣٠، ٦١٦؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٩٧٦؛ نيكل ٣٦٢؛ الاعلام للزركلي ١: ٨٣-٨٤ (٨٦).

ابن خَميسٍ التِّلْمسانِيُّ

١ - هُوَ أبو عبدِ اللهِ محمّد بن عُمَرَ بن محمّدِ بنِ عُمَرَ بنِ محمّدِ بن عمرَ بنِ محمّدِ بن خميسٍ الحِمْيَريُّ الحِجْرِيُّ الرُّعَيْني التِلْمْساني، نِسْبَةً إلى حِجْرٍ ذي رُعينٍ من حِمْيَرَ من مُلوكِ عَرَبِ اليمن.

وُلِدَ ابنُ خَميسٍ التلمسانيُّ سَنَةَ ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) أو قُبَيْلَ ذلك، ولا نكادَ نَعْرِفُ شيئاً عن حياتِهِ الأولى سِوى أنّه آثَرَ الحياةَ في عُزْلةٍ عن الناس. وقد عاصر ابنُ خميسٍ جِلَّةً من العلماء في تِلِمْسانَ منهم إبراهيمُ بنُ يَخْلُفَ بنِ عبد السلام التَنَسِيّ (الجزائري) المَطْماطي التلمسانيُّ (ت ٦٧٠ هـ) وأبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ محمّدِ بن مرزوقٍ العُجَيْسِيّ التلمسانيّ (٦٢٠ - ٦٧١ هـ) والأديبُ الكاتبُ الشاعرُ محمّدُ بنُ عبدِ الله بن داوودَ بنِ خطّابٍ الغافقي (ت ٦٧٠ هـ)؛ ولكنّنا لا نَعْلَمُ إذا كان قد أخَذَ عن أحدٍ منهم شيئاً من فنونِ العلم والأدب.

---

(١) ما شان (عاب) مثله (رجلاً مثله) أمثالها (أمثال هذه الدعابة وذلك الانبساط). الانبساط: ترك النفس (أحياناً) على سجيّتها: ترك الجدّ (بالكسر) والتقيّد بالعرف القاسي. فرسا رهان (قادران على الجري، ولا يكاد أحدهما يسبق الآخر).

(٢) يقتفي (يتّبع) من وفق (؟). آثاره: خطواته (طريقته في الحياة).

في سَنَةِ ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) الْتقى الرّحالةُ المَغربي أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ عليٍّ بنِ أحمدَ ابنِ مَسْعودٍ العَبْدَرِيُّ بابنِ خميسٍ في تلمسانَ، وكان ابن خميسٍ لا يزال يُحبّ العزلَة. ثمّ إنّه خرج من عُزْلته الطويلةِ وتولّى منصباً في ديوان الإنشاء للسلطانِ أبي سعيدٍ عُثمانَ بنِ يَغمْراسَنَ بنِ زَيَّانٍ (٦٨١ - ٧٠٣ هـ) في النصف الثاني من مدّته. وفي سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤ م) لَقِيَ جَفْوة في بَلاطِ تلمسانَ فخرج غاضباً وجاء إلى سَبْتَةَ ومَدَحَ أبا طالبٍ العَزْفِيّ المُسْتَبدَ بِمُلْكِ سَبتةَ يومذاك؛ ثمّ استقرّ في سبتة للإقراء. غير أن نفراً من الطلّاب أساءوا إليه فانتقلَ وَشيكاً إلى مَالَقَة ثمّ إلى غَرْناطة، قيل قبل أن تَنْتَهِيَ سنة ٧٠٣ هـ.

ولّما قُتِلَ الوزيرُ أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ عبدِ الرحمن بنِ الحكيمِ، في أوّلِ شوّالٍ من سنة ٧٠٨ (١٣٠٩/٣/١٣ م)، قُتِلَ ابنُ خميسٍ معه ظُلْماً.

٢ - كان لابنِ خميسٍ التِّلمسانيّ عنايةٌ بفنونٍ من العلم والأدب: بالْفقهِ والمذاهب، وباللغة والعربية (النحو)، وبالتاريخ وأيامِ العرب وأحوالهم، مُلمًّا بشيءٍ من علوم الحِكمة كالمَنْطِقِ والطِّبّ؛ كما كان أديباً كاتباً مُتَرَسِّلاً وشاعراً فَحْلاً على المَنْهج المَشْرقيّ. وكانت على شعرِه نفحةٌ قويّة من نَفَسِ المَعرّي. وابنُ خميسٍ شاعرٌ مُحْسِنٌ سريعُ الخاطرِ طويلُ النفس رائقُ المعاني واضحُ المقاصد يَغْلِبُ على شِعْره شيءٌ من القَصَص المَلْحميّ من جاهليةِ العرب. وفي بعضِ شعرِه فُكاهة ودُعابة؛ وفي بعضِ شعره نفحةٌ دينية قريبة من التصوّف.

ومع أن ابن خميس التلمساني ميّالٌ إلى اسْتجماع الغريبِ في شِعْره وإلى تَصيُّدِ وجوهِ البلاغةِ، والبديع منها خاصّةً، في التركيب المتينِ، فإنّ لشعرِهِ دِيباجةً رائقةً بالغةً في الوضوح والسَّلاسة والعُذوبة.

ومن فنونِ شعرِ ابنِ خميسٍ في القصائدِ الباقية لنا المدحُ والفخر والشكوى والحَنين والغَزَلُ والنَسيبُ والخمريات (وهو يفضّل الحَشيشة على الخمر).

ولابن خميسٍ شيء من التَرَسُّلِ لا يَلْحَقُ بشعرِهِ.

٣- المختار من شعره

- قال ابنُ خميسٍ التِّلِمْسانيّ يفتخرُ ويشكو الشَيْخوخَة بعدَ انقضاءِ الشَباب:

إنّ كنتَ تَجهَلُ أنّني لا أرقُدُ، فاسألْ يُخبِّرْكَ السُّها والفَرْقَدُ[١].
وإنِ اتَّهَمْتَهُما لِبَعْضِ تَشابُهِ بَيْني وبَيْنَهُما - فطَيْفُكَ يَشْهَدُ[٢].
ولقد أبيتُ الليلَ لا أدري به سَهَراً، كما باتَ السليمُ الأرْمَدُ[٣]،
أرعى كواكِبَهُ وأرْقُدُ صُبْحَه؛ والصُّبْحُ أنْأى مِنْ هَوايَ وأبعد[٤].
بانَ الخليطُ، وبانَ قَلْبي إثْرَهُ سَحَراً، كما زَعَمَ الغُرابُ الأسْود؛
وتبايَنَتْ أغْراضُنا وجُسومُنا: فالجِسْمُ يُتْهِمُ والعَزيمَةُ تُنْجِدُ[٥].
ونَهَضْتُ لو وافَى نُهوضِيَ قُوّةٌ مِنّي وساعَدَني الشبابُ المُسْعِدُ[٦].
لا تَعْجَبَنَّ لعَزْمَتي وتَثَبُّطي: فالشَّوْقُ يَنْهَضُ والزَّمانة تُقْعِدُ[٧].
أوْدي صِبايَ وغاضَ ماء مَعينِهِ، وذَوَى قضيبُ قَوامِيَ المُتأوّد[٨]؛

(١) السها: نجم خفيّ في بنات نعش الصغرى. الفرقد أو الفرقدان: نجم القطب الشماليّ (لأنّه في الحقيقة نجم مزدوج). - السها والفرقد يشهدان أنّني لا أرقد (لا أنام) لأنّني أراقبهما طول الليل (في تذكّرك). ثمّ إنّ السُّها والفرقد في كوكبة (أو عنقود نجوم) لا تغيب (فهل كان الشاعر يعرف ذلك ؟). راجع البيت التالي.

(٢) - وإذا لم تقبل شهادتهما لأنّني شبههما (في السناء: الرفعة) فاسأل طيفك (خيالك) فهو يزورني طَوال الليل (لأنّني أحلم بك طوال الليل).

(٣) الأرمد: الذي به مرض في جفونه. السليم: العليل (سمّي سليماً تفاؤلاً بسلامته: شفائه).

(٤) - أساهر الكواكب ثمّ أقول سأنام اذا جاء الصبح. ولكنّ الصبح لا يأتي (فأظل يقظان ليلَ نهارَ).

(٥) تباينت اختلفت. أغراضنا: أهدافنا، غاياتنا، أمانينا. يُتْهم: يأتي تهامة (وهي منخفضة). يُنجد: يأتي نجداً (الأرض المرتفعة). - أهدافنا سامية، ولكنّ أجسامنا لا تستطيع تحقيق تلك الأهداف.

(٦) - كنت أنهض (أسمو لتحقيق أهدافي) لو أن جسمي وهبني قوّة على ذلك ولو كان لا يزال فيّ بقيّة من شباب تساعد على ذلك.

(٧) - لا تعجب من رغبتي (في السموّ) وتثبّطي وتباطئي (عجزي عن السير إلى رغبتي). الزمانة: المرض الدائم. يقعد: يجعل الإنسان مقعداً (عاجزاً، لا يستطيع الحركة).

(٨) أودى: هلك، ذهب. غاض ماء مَعينه: جفّ نبع الماء، انقطع عن النبع. ذوى القضيب: يبس الغصن، جفّ ماؤه وذهبت نضارته. المتأوّد: المتعطّف، المتمايل (لأنّه ليّن، نضير أخضر).

وأتـى المشيـبُ يزورُني مُتَفَقِّداً؛ والشيبُ أبْغَضُ زائرٍ يَتَفَقَّدُ[١].
ولّى الشبابُ وشَرْخُه: لم يَبْقَ لي بَعْدَ الشبابِ وشَرْخِهِ ما أَفْقِدُ[٢]!

– وقال في النسيب والشكوى والفخر بنفسه وبشعره:

عَجَباً لها! أيذوقُ طَعْمَ وِصالِها من ليس يأمَلُ أن يَمُرَّ بِبالِها؟
وأنـا الفقيرُ إلى تَعِلّـةِ ساعـةٍ منها؛ وتَمْنَعُني زكاةَ جَمالِها[٣].
يَعْتادُني في اللَّيْلِ طَيْفُ خَيالِها فتُصيبُني ألْحاظُها بِنِبالِها[٤].
ومن العجائبِ أنْ أُقيمَ ببلدَةٍ يوماً، وأسْلَمَ مِنْ أذى جُهّالها.
شُغِلوا بدُنْياهُمْ! أمـا شَغَلَتْهُمُ عنّي؟ فكم ضَيَّعْتُ من أشْغالها[٥]!
حُجبوا بِجَهْلِهِمُ، فإنْ لاحتْ لهم شَمْسُ الهُدى عَبَثوا بضَوءِ ذُبالها[٦].
وإنِ انْتَسَبْتُ فإنّني من دَوْحةٍ تَتَقَيّلُ الأنسابُ بَرْدَ ظِلالِها[٧]:
من حِمْيَرٍ من ذي رُعَيْنٍ من ذُرا حِجْرٍ من العُظماءِ من أقْيالها[٨].
خُذْها، أبا الفضلِ بنَ يَحْيَى، تُحْفَةً جاءَتْكَ لم يُنْسَجْ على مِنْوالها:
ما جالَ في مِضْمارِها شِعْرٌ، ولا سَمَحَتْ قَريحةُ شاعرٍ بِمِثالها!

---

(١) تفقدّ الرجل الأمر: بحث عنه أو عن حاله.

(٢) الشرخ = شرخ الصبا: عنفوانه، ذروته.

(٣) تعلّة: ما يتعلّل (يلهو) به الإنسان. زكاة جمالها: ما تتصدّق به المرأة من المتعة بجمالها.

(٤) اعتاد المكان: جاء إليه مرّة بعد مرّة– حتّى في المنام تفتك بي لحظاتها.

(٥) شغلوا بدنياهم (دعوة عليهم بأن تشغلهم الدنيا عن مصالح أنفسهم).- فكم ضيّعت (مصالح كثيرة لي) من أشغالها (بسبب الأمور التي شغلتني بها).

(٦) حجبوا بجهلهم: حجبهم جهلهم عن معرفة حقائق الأمور. فإن لاحت لهم شمس الهدى (الحقّ، المعرفة الربّانية) عبثوا (لعبوا، التهوا) بضوء ذبالها (الذبال جمع ذُبالة: الفتيلة التي تضيء في السراج)= هم يلتهون بمظاهر الأشياء وبصغار الأشياء عن حقائقها (المعنى صوفيّ).

(٧) انتسبت: ذكرت نسبي. من دوحة (شجرة كبيرة): من أسرة عظيمة. تتقيّل: تنام بعد الظهر (تتنعّم). برد ظلالها: في ظلالها (في ظلّها العليل البارد)= تتمنّى الأنساب أن تكون مثل نسبي.

(٨) حمير (ابن سبأ بن يشجب– بضمّ الجيم): أبو قبيلة من عرب الجنوب. رعين: حصن في اليمن. ذو حجر رعين: أبو قبيلة في اليمن.- يقصد الشاعر أنّه من نسل ملوك اليمن.

٤- المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس (عمل عبد الوهّاب بن منصور)، فاس (مطبعة ابن خلدون) ١٣٦٥ هـ.

★★ تعريف الخلف ٢: ٣٦٦؛ ابن قنفذ ٣٤١؛ أعمال الأعلام ٢٥٤-٢٥٥؛ نفاضة الجراب ٢١؛ الكتيبة الكامنة ٣١؛ بغية الوعاة ٨٦؛ المرقبة العليا للنباهي ١١٤؛ نفح الطيب ٥: ٣٥٦-٣٧٨، ٧: ١٣١-١٣٣؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٨٣٣-٨٣٤؛ الاعلام للزركلي ٧: ٢٠٤ (٦: ٣١٤)؛ معجم أعلام الجزائر لنويهض ١٧٠-١٧١؛ الطمّار ١٢٤-١٤٢؛ مجلّة الأصالة ١٩٧٥/٧، ص ١٢٨ وما بعد، راجع ١٤٩-١٥٠.

ابن الحكيم الرنديّ

١- هو ذو الوزارتَيْنِ أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ إبراهيمَ بنِ يحيى الحكيمِ. وقد عُرِفَ يَحْيى بلقبِ «الحكيمِ» لطِبّة (لأنّه كان يعمل في الطبّ). كان أسلافُ ابنِ الحكيمِ من إشْبيلِيَةَ ثمّ انتقلوا إلى رُنْدَةَ في دولةِ بني عَبّادٍ (القرن الخامس الهجري)، وفي رُندَة كانوا يُعْرفون ببني فتّوح.

وُلِدَ ابنُ الحكيمِ الرُنْديّ في رُندَة في ربيعٍ الأول ٦٦٠ وفيها نشأ وأخذَ قِراءَةَ القُرآن بالقراءاتِ السَّبْعَ وأخذَ العَرَبية عن أبي الحسنِ عليٍّ بنِ يوسفَ العَبْدريّ السفّاحِ النَّحْويّ وأبي القاسم بنِ الأيسرِ وغيرِهما. ثمّ إنّه رَحَلَ، سَنَةَ ٦٨٣ هـ (١٢٨٤-١٢٨٥ م)- وكان لا يَزالُ ذا فَتاءٍ - إلى المشرِق فزارَ مِصْرَ ثمّ حَجّ، سَنَةَ ٦٨٤ هـ (١٢٨٦ م). وبعدَ انتهاء موسمِ الحجِّ جاء إلى الشام، وزار العراق (نفح الطيب ٢: ٦١٩).

وعادَ أبو عبدِ اللهِ بنُ الحكيمِ إلى رُنْدَةَ سَنَةَ ٦٨٦ هـ. وفي آخرِ السَّنَةِ التاليةِ انتقلَ إلى غَرْناطةَ واتّصل بثاني مُلوكِها أبي عبدِ الله محمّدٍ (الثاني) الفقيه (٦٧١-٧٠١ هـ) فأثْبَتَهُ في خَواصّ دولتهِ ثمّ رقّاه إلى كِتابة الإنشاء. ولمّا جاء ثالثُ ملوكِ بني نصرٍ أبو عبدِ الله محمّدٍ (الثالث) المعروفُ بالمخلوع ارتقَتْ منزلةُ ابنِ الحكيمِ الرنديّ فجُمِعَتْ له الكِتابةُ والوزارة ولُقِّبَ ذا الوزارتين. وقد كان ابنُ الحكيمِ مُمَدَّحاً مَدَحَهُ أبو محمّدٍ عبدُ المُهَيْمِنِ الحَضْرَميّ (٧٤٩ هـ) وأبو الحسن عليُّ بنُ محمّدِ بنِ الجيّاب (ت ٧٤٩ هـ).

ولم يَصْفُ الدهرُ لابنِ الحكيم الرُّنْديُّ فقُتِلَ يَوْمَ خُلِعَ محمّدٌ الثالثُ النَصْريُّ، في أوّلِ شَوّالٍ من سَنَةِ ٧٠٨ (١٣٠٩/٣/١٣م) ومُثّلَ به.

٢ - كان ابنُ الحكيمِ الرُّنديُّ رجلاً عاليَ الهِمّةِ كريمَ النفس جميلَ الأخلاق وكان عالماً ذا عنايةٍ بالروايةِ (للحديث) وأديباً خطيباً وكاتباً بليغاً وعالماً بنَقْدِ الشِّعرِ، وكان له نَظْمٌ كثير. ونثْره أعلى رُتبةً من شِعره (نفح الطيب ٢ : ٦٢٤). وفنونه المدح، وله شيء من الغزل الذي يميل إلى المُجون. وكان يكتب أنواعاً من الخطّ الجميل.

٣- مختارات من آثاره

- لابنِ الحكيمِ الرُّنديّ مُقَطّعاتٌ قِصارٌ منها:

إنّي لأُعْسِرُ أحيانـاً فيَلْحَقُـني ... يُسْرٌ من اللهِ؛ إنّ العُسْرَ قد زالا[١].
يقولُ خيرُ الورى في سُنّةٍ ثَبَتَتْ: ... «أنْفِقْ ولا تَخْشَ من العَرْشِ إقلالا»[٢]

★ مـا أحْسَنَ العَقْـلَ وآثـارَه، ... لو لازمَ الإنسانُ إيثـارَه[٣]:
يَصونُ بالعقـلِ الفـتى نفسَه ... كما يصونُ الحُرُّ أسرارَه،
لا سيّما إنْ كـان في غُرْبـةٍ ... يحتـاجُ أن يَعْرِفَ مِقْـدارَه!

★ ما زِلْتُ أسْمَعُ عن عَلْياك كُلَّ سَناً ... أبْهى من الشمسِ أو أجْلى من القمرِ[٤]،
حتّى رأى بَصَري فوقَ الذي سَمِعَتْ ... أُذْني، فُوفِّقَ بينَ السمْعِ والبصر!

- وقال في صِباه قصيدةً مَدَحَ بها السُلطانَ أبا عبدِ الله محمّداً (الثانيَ) الفقيهَ لمّا جاء السلطانُ إلى رُندةَ:

هـلْ إلى ردِّ عَشيّـاتِ الوِصـالِ ... سَبَبٌ، أم ذاك من ضَرْبِ المُحالِ؟
ولَيـالٍ مـا تَبَقّـى بَعْدَهـا ... غـيرُ أشواقي إلى تلك الليالي.

---

(١) أعسر الرجل: افتقر. اليسر: الغنى.
(٢) خير الورى: محمّد رسول الله. في سنّة (في حديث عن رسول الله أو في عمل من أعماله).
(٣) إيثاره (تفضيل العقل في أعماله على العاطفة).
(٤) السنا (بالقصر، بلا مدّ): الضوء الصيت الحسن. أبهى: أجمل.

وغزالٍ قد بدا لي وَجْهُه فرأيتُ البدرَ في حالِ الكمال.
مَنْ تسلّى عن هواهُ فأنا بسِواهُ عن هواهُ غيرُ سالِ.
فَلَئِنْ أتْعَبَني حُبّي له، فلَكَمْ نِلْتُ به أنعَمَ حال.
إذ لآلي جِيدِه من قِبَلي ووِشاحاهُ يَميني وشِمالي[1].
فتداوى بِلَماه ظَمَأي مَزْجَكَ الصهباءَ بالماءِ الزُّلال[2].
أيُّها المولى الذي نَعْماؤه ....

– وله من رسالةٍ طويلةٍ كَتَبَها عن السُلطان:

..... وقد تقرّرَ عند الخاصّ والعامّ من أهلِ الإسلامِ، واشتهرَ في آفاقِ الأقطار اشتهارَ الصُبحِ في سوادِ الظلام، أنّا لم نَزَلْ نَبْذُلُ جُهْدَنا في أن تكون كَلِمَةُ الله هي العُليا ونسمَحُ في ذلك بالنفوس والأموال رَجاءَ ثوابِ الله لا لِعَرَضِ الدُّنيا[3].

وإنّا ما قصّرنا في الاسْتِنْفار والاسْتِنْصار[4]، ولا أقْصَرنا عنِ الاعتِضادِ بكلٍّ من أمَّلنا مُعامَلَتَهُ والاستظهارَ[5]، ولا اكْتَفَيْنا بمُطَوَّلاتِ الرسائلِ وبَناتِ الأفكارِ حتّى اقْتَحَمْنا بأنفُسِنا لُجَجَ البحارِ فسَمَحْنا بالطارفِ مِنْ أموالنا والتِّلادِ[6] وأعطَيْنا رجاءَ نُصْرَةِ الإسلامِ موفورَ الأموالِ والبِلاد، واشْتَرَيْنا بما أنْعَمَ اللهُ به علينا ما فَرَضَ الله على كافَّةِ أهلِ الإسلامِ من الجهاد.......

٤- ★★ الإحاطة ٢: ٢٧٨-٣٠٣؛ أزهار الرياض ٢: ٣٤٠-٣٤٧؛ نفح الطيب ٢:

---

(١) اللآلي (جمع لؤلؤة). الجيد (بالكسر): أعلى الصدر. من قبلي (بكسر ففتح): في اتجاهي. الوشاح: نسيج عريض تلف المرأة به أعلى جسمها. يميني وشمالي (يدي اليمنى ويدي اليسرى). يصف الشاعر هنا اعتناق الرجل والمرأة....

(٢) اللمى: السمرة في الشفتين (كناية عن التقبيل). الصهباء: الخمر. الزلال: الماء الصافي البارد.

(٣) العرض (بفتح ففتح): السلعة (بالكسر): البضائع المعروضة في السوق.

(٤) الاستنفار: أن يطلب الحاكم أو القائد من الناس أن ينفروا (بكسر الفاء) معه لمساعدته ونصرته. الاستنصار: طلب المعونة.

(٥) أقصر الرجل عن أمر: تأخر عنه وهو قادر عليه. الاعتضاد: الاستعانة (بآخرين) ليزداد هو قوّة. الاستظهار: الاستعانة.

(٦) الطارف والطريف: المال الذي يكتسبه المرء نفسه. التلاد (التالد والتليد): المال الذي يرثه الشخص عمّن كان قبله.

٦١٦ - ٦٢٦ ، ٥ : ٤٩٧ - ٥٠٧ ؛ درّة الحجال ٢ : ٩٣ - ٩٦ ؛ الأعلام للزركلي ٧ : ٦٥ (٦ : ١٩٢).

أبو عبد الله محمّد الغالب بالله

(ثالث ملوك بني نصر)

١ - هو أميرُ المسلمينَ أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ محمّدِ بنِ يوسفَ بنِ محمّدِ بنِ أحمدَ ابنِ محمّدِ بنِ نصرِ بنِ قيسٍ الخَزْرجيّ، وُلِدَ في الثالث من شَعبانَ من سَنَةِ ٦٥٥ (١٩/٨/١٢٥٧ م) وجاء إلى الحكم سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ - ١٣٠٢ م).

استولى أبو عبد الله، في السَّنَةِ الأولى من حُكْمه، على مدينة المَنْظر (وكانت قربَ وادي آشَ أو قُرْبَ جيّانَ) وغَنِمَ منها غنائمَ كثيرةً وأسَرَ صاحِبَتَها الإسبانية. وفي سنة ٧٠٣ هـ نَقِمَ على قريبِهِ الرئيسِ أبي الحجّاجِ بنِ نصرٍ الوالي بمدينة آشَ فعزَلَه؛ وكادَ هذا العزلُ يؤدّي إلى فِتنة وثورةٍ. ولكن أبا عبدِ اللهِ استطاعَ أنْ يَقْضِيَ على الفتنة في مَهْدِها وأن يدبّر اغتيالَ الوالي أبي الحجّاج. وفي شوّالٍ من سنة ٧٠٥ هـ غزا سبتةَ واستطاع أن يستولِيَ عليها في المُحَرّم من سنة ٧٠٦ (صيف ١٣٠٦ م). ولقد أُثِرَ عنه في أحوالٍ كثيرةٍ كثيرٌ من القَسْوة والفَظاظةِ.

وفي عيدِ الفِطْر من سنة ٧٠٨ (١٣/٣/١٣٠٩ م) خُلِعَ أبو عبد الله، ولكن لم يَعِشْ بعد ذلك طويلاً فقد أُصيب بالسُّكْتة في أواخرِ جُمادى الثانية من سنة ٧١٠ (تشرين الثاني - نوفمبر ١٣١٠ م) ثمّ توفّي في أوائل شوّالٍ من تلك السنة (أواخر شباط - فبراير ١٣١١ م). وقيل بل قُتِلَ غِيلَةً.

٢ - كان أبو عبدِ اللهِ صاحبَ نادرةٍ ظريفةٍ وشاعراً رقيقاً فوقَ أنداده من الملوك. وكان له مجموعٌ من الشعر فيه قصائدُ مطوّلاتٌ ومقطّعاتٌ قِصارٌ. ويبدو أنه كان مُكْثِراً من الغَزَلِ والفَخْر.

٣ - المختار من شعره

- قال أبو عبد الله بن نصر ثالثُ ملوك بني الأحمر:

واعَـدَني وعْـداً وقـد أخْلَفـا؛ أقَـلُّ شيءٍ في المَليحِ الوَفـا.
وحـالَ عن عَهْـدي ولم يَرْعَـه، مـا ضَرّهُ لو أنّـه أنْصفـا[1].
مـا بالُهـا لم تَتَعطّـفْ عـلى صَبٍّ بهـا ما زال مُسْتَعْطِفا.
يستطلـعُ الأنبـاءَ من نَحْوِهـا ويَرْقُبُ البرقَ إذا ما هَفا[2].
مَلّكْتُكِ القلـبَ، وإنّي امْرُؤٌ علـيّ مُلْكُ الأرضِ قد وُقِّفا[3].
يُرْهَفُ سيفي في الوَغى مُصْلَتاً، ويُتّقـى عَزمي إذا أُرْهِفـا[4]؛
وتَرْتَجـى يُمنـايَ يومَ النَّـدَى: تخالُهـا السُّحْبَ غَـدَتْ وُكَّفا[5].
يا ليتَ شِعْري، والمُنـى جَمّـة، والدهرُ يوماً هل يُرى مُنْصِفا:
هـل يَرْتَجي العبـدُ تَدانِيكُمُ أو يُصْبِحُ الدهرُ لـه مُسْعفا[6]؟

٤- روضة النسرين (نشرها بوالي ومارسيه)، باريس ١٩١٧ م.
- نثر (نثير) الجمان في شعر من نظمني وايّاهم الزمان.
★★ الإحاطة ١: ٥٥٢-٥٦٤؛ اللمحة البدريّة ٤٧-٥٦؛ بروكلمن ٢: ٣١٣، الملحق ٢: ٣٤٠، راجع ٣٧٠؛ الأعلام للزركلي ١: ٣٢٩ (٣٢٩-٣٣٠).

ابن منظور

١- هو جمالُ الدينِ أبو الفضلِ محمّدُ بنُ مُكرَّم بنِ عليٍّ (وقيل: رِضوانَ) بنِ أحمدَ بنِ أبي القاسم.... الأنصاريّ الرُوَيْفِعيّ[7] الخَزْرجيّ الإفريقيّ المِصْريّ- المعروفُ بابنِ

---

(١) حال: تغيّر. لم يرعه: لم يحفظ (عهدي).
(٢) هفا: أسرع. هفا الطائر بجناحيه: حرّكها. هفا البرق (لمع).
(٣) قد وُقّف: جعل وقفاً عليّ (لا يجوز لأحد غيري ولا يليق به).
(٤) رهف وأرهف (السيف): شحذه ورقّقه. مصلت: مشهور (مسحوب من غمده).
(٥) الندى: الكرم. تخالها: تظنّها، تحسبها. وكّف: كثيرة الوكف (الهطول، غزيرة المياه).
(٦) مسعف: مساعد (على نيل الأماني).
(٧) الرويفعي: نسبة إلى رويفع بن ثابت الأنصاري، أمّره معاوية على طرابلس الغرب، سنة ٤٦ هـ (٦٦٦-٦٦٧ م)، فغزا إفريقية وتوفّي في برقة وهو أمير عليها. وقبره مشهور في الجبل الأخضر في برقة.

مكرّمٍ - وُلِدَ[1] في ٢٢ من المُحرَّمِ من سَنَةِ ٦٣٠ (١٢٣٢/١١/٨ م).

قيلِ إنّ ابنَ منظورٍ سَمِعَ من ابنِ المقيَّرِ (عليٍّ بنِ الحسينِ البغداديِّ) المُحدِّث بالديارِ المِصرية (ت ٦٤٣ هـ) وروى عن جماعةٍ منهم: مُرتضى بن حاتَمٍ وعبدُ الرحمنِ بنُ الطفيلِ ويوسفُ المخيليّ ثمّ حدّثَ هو في مِصْرَ ودِمَشْقَ.

وخَدَمَ ابنُ مَنظورٍ في ديوان الإنشاء - قيل مُعْظَمَ حياتهِ[2] - . ثمّ إنّه تولّى القضاء مُدّةً في طرابُلُسَ (ليبيا) ثمّ عادَ إلى مِصرْ وبَقِيَ فيها إلى أن تُوُفِّيَ، في شَعبانَ من سَنَةِ ٧١١ (كانون الأوّل - ديسمبر ١٣١١ م) بعدَ أن عَمِيَ.

٢ - كان ابنُ منظورٍ مُحدِّثاً تفرّد بالعوالي[3] ومترسلاً مليحَ الإنشاءِ وعارفاً باللغة والنحو والتاريخ، كما كان شاعراً مُقِلًّا مُحْسِناً (يَنْظِمُ المقطّعاتِ). ثمّ كان مُغْرَماً باختصار الكُتُب له اختصاراتٌ للكتب التالية[4]: الحيوان للجاحظ - دُرّة الغَوّاص للحريريّ - تاريخ بَغدادَ للخطيب البَغْدادي - ذَيْل ابنِ النّجارِ على تاريخ بغدادَ - تاريخ بغدادَ للسَّمْعانيّ - تاريخ مدينةِ دِمَشْقَ لابن عساكرٍ - الأغاني (ورتّبه على الحروف) - نِشوار المحاضرة لأبي عبد الله محمّد بن محمّد التنوخي - فصل الخطاب في مدارك الحواسّ الخمس لأولي الألباب لأحمد بن يوسف التيفاشي - صفوة الصَفْوة لابن الجَوْزي

---

(١) ليس في المصادر التي بين يدي ذكر للبلد الذي ولد فيه ابن منظور. ولكن إذا كان ابن منظور قد ولد سنة ٦٣٠ هـ ثمّ سمع من ابن المقيّر الذي توفّي في ٦٤٣ هـ، فالمفروض أن يكون قد ولد في مصر. ولكن طاهر الزواوي يستنتج من نسبة «الطرابلسي» وهي ترد في المصادر أنّه وليد في طرابلس (أعلام ليبيا ٣٠١). ويرى علي الفقيه حسن (مجلّة مجمع اللغة الغربية بدمشق - راجع رقم ٤) أن ابن منظور ليبي بثلاثة أسباب: إنّ جدّه رويفعاً (راجع الحاشية ص ٣٦٩) مدفون في طرابلس، وأن ابن منظور نفسه كان قاضياً في طرابلس، وأنّ أسلافه وأعقابه (ويعرفون بآل ابن مكرّم) كانوا بطرابلس وبتاجوراء التابعة لها (ص ٣٦١).

(٢) لعلّ المقصود بمحمّد بن مكرّم الذي قضى حياته في ديوان الإنشاء في مصر شخص آخر كان من كتاب الإنشاء في أيام قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) في القاهرة (راجع دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٤٦٤ - في ترجمة ابن منظور صاحب لسان العرب). وهنالك عالم بالحساب هو أيضاً أبو منصور محمّد بن مكرّم بن شعبان الكرمانيّ (بروكلمن، الملحق ٢ : ١٠٢٣).

(٣) الأحاديث العوالي هي الأحاديث التي دوّنت في زمن متقدّم.

(٤) ذكرت فيما يلي الأسماء الأصلية للكتب المختصرة لا العناوين التي جعلها ابن منظور لها.

(ت ٥٩٧ هـ) - العِقْد لابن عبد ربّه - يتيمة الدهر للثعالبي - زهر الآداب للحُصْريّ - الذخيرة في محاسنِ أهل الجزيرة لابن بسّامٍ - جامع المفردات (الأدوية) لابن البَيْطار، الخ.

ومن تآليفهِ «لسانُ العربِ» (انتهى من وَضعه سنة ٨٦٩ هـ)، وهو قاموسٌ شاملٌ للألفاظِ اللغوية والأعلام الجغرافية والشخصية ولعددٍ من الحقائق التاريخية، بناه ابن منظور على خمسةِ كتب هي: «الجَمْهرة» لابن دُريد (ت ٣٢١ هـ) و «تهذيب اللغة» للأزهريّ (ت ٣٧٠ هـ) و «الصِّحاح»[1] للجوهري (ت ٣٩٣ هـ) و «حواشي» عبد الله بن بَرّيّ (ت ٥٨٢ هـ) و «المُحْكَم» لابن سِيدَه (ت ٤٥٨ هـ) و «النهاية في غريب الحديث والاثر» لمجد الدين بن الأثير (ت ٦٠٦ هـ). وله أيضاً: نِثار الأزهار في الليل والنهار وأطايب أوقات الأصائل والأسحار وسائر ما يشتمل عليه من كواكب الفلك الدّوار - أخبار أبي نُواس.

٣- مختارات من آثاره

- من مقطّعات ابن منظور:

★ ضَعْ كتابي، إذا أتاكَ، إلى الأر ... ض ثمّ قلّبْه في يديك لِماما[2]؛
فعلى خَتْمه وفي جانِبَيْهِ ... قُبَلٌ قد وَضَعْتُهنّ تُؤاما[3].
كان قَصْدي بها مُباشرةَ الأر ... ض وكَفَّيْكَ بالْتِثامي، إذا ما[4]...

★ الناسُ قد أثِموا فينا بظَنِّهِمُ ... وصدّقوا بالذي أدْري وتَدْرينا[5].
ماذا يَضُرُّكِ في تصديقِ قَوْلهِمُ ... بأن نُحَقِّقَ ما فينا يَظُنّونا[6]؟

(١) العنوان الكامل هو: تاج اللغة وصحاح العربية. والحواشي عليه كثيرة (راجع بروكلمن ١: ١٣٣ - ١٣٤، الملحق ١: ١٩٦ - ١٩٧).
(٢) لماماً: قليلاً، ولكن مرّة بعد مرّة.
(٣) تؤاما: ثنتين ثنتين (قبلتين قبلتين).
(٤) إذا ما.... (في البلاغة: اكتفاء، بمعنى أن الكلمات التي لم تذكر مفهومة: إذا ما وصل إليك كتابي).
(٥) أذنبوا لأنّهم اتّهمونا بما ليس فينا.
(٦) ماذا يضرّنا أن نرتكب الذنب الذي يتّهموننا به الآن ظلماً؟

حَمْلي وحَمْلُكِ ذنباً واحداً، ثِقَةً بالعَفْوِ، أجملُ من إثْمِ الورى فينا[١].
★ بـاللهِ، إن جُزْتَ بِوادي الأراكْ وقَبَّلْتَ أغصانَـه الخُضْرُ فاكْ[٢]،
ابْعَثْ إلى المَمْلوكِ من بَعْضِـه؛ فإنّـني، واللهِ، مـا لي سواكْ[٣]!

- من مقدّمة «لسان العرب»:

.... أما بعدُ، فإن اللهَ سُبحانَه قد كرّمَ الإنسانَ وفضّله بالنُّطق على سائر الحَيَوان، وشرّف هذا اللسانَ العربيَّ بالبَيان على كلِّ إنسان، وكفاه شَرَفاً أنه به نَزَلَ القُرآنُ وأنه لُغةُ أهلِ الجِنان[٤].... وإني لم أزَلْ مشغوفاً بمطالعاتِ كتبِ اللُّغاتِ والاطّلاع على تصانيفها وعِلَلِ تصاريفها. ورأيتُ عُلماءَها بين رَجُلَيْنِ: أمّا من أحْسَنَ جَمْعَه فإنّه لم يُحْسِنْ وَضعَهْ، وأما من أجادَ وضعَه فإنه لم يُجِدْ جَمْعَه، فلم يُفِدْ حُسْنُ الجمعِ مَعَ إساءةِ الوَضْع، ولا نَفَعَتْ إجادةُ الوضع مَعَ رَداءةِ الجَمْع. ولم أجِدْ في كتب اللغة أجملَ من تهذيبِ اللغة لأبي مَنْصورٍ محمدِ بنِ أحمدَ الأزهريِّ ولا أكملَ من المُحْكَمِ لأبي الحسن عَليِّ ٱبنِ إسماعيلَ بن سِيدَه الأندلسيّ رَحِمَهما اللهُ، وهما من أُمهاتِ كتب اللغة على التحقيق وما عداهما بالنسبة إليهما ثَنيّاتٌ للطريق[٥]. غير أن كلاًّ منهما مطلبٌ عَسِرُ المَهْلِكِ ومنهَلٌ وعِرُ المَسْلَكِ.... ووجدْتُ أبا نَصرٍ إسماعيلَ بنِ حَمّادٍ الجوهريَّ قد احْسَنَ ترتيبَ مُخْتَصَرِهِ وشَهَرَهُ بسهولة وَضْعه.... غير أنه في جَوِّ اللغة كالذّرة وفي بحرها كالقَطْرة وإن كان في نَحْرِها كالدُّرّة. وهو مَعَ ذلك قد صَحَّفَ وحرّف وجزّف فيما صرف[٦]. فأُتيح له

---

(١) لأن يكون لنا معاً ذنب واحد (فيكونوا هم صادقين بتهمتنا) خير (في النظرة الإنسانية) من أن نكون نحن (ونحن اثنان فقط) بريئين ويكون الناس كلّهم مذنبين.

(٢) إن جزت (قطعت، مررت به) وادي الأراك (مكان في الحجاز ينبت فيه شجر الأراك الذي تجعل منه المساويك (أداة لتنظيف الإنسان). قبّلت أغصانه فاك (فمك): مررت بالمسواك على أسنانك.

(٣) فأرسل إلى المملوك (العبد الرقيق، يكنّي الشاعر بذلك عن نفسه) شيئاً منها. فإنّني ما لي سواك (تورية: ليس عندي مساويك- ليس لي من أطلب منه هذا الطلب سواك (غيرك).

(٤) المرويّ أن اللغة العربية هي لغة أهل الجنّة.

(٥) ثنيات الطريق: الطرق الفرعية الضيّقة. الثنيّة (بفتح فكسر ثمّ ياء مشدّدة): الطريق في الجبل.

(٦) صحّف: أبدل في الكلمة حرفاً بحرف (فرح تصبح: فرج، فرخ، قزح، قرح الخ). حرّف: صرف الكلام عن المعنى المقصود. قرأ الأب لويس شيخو جملة هي: وكانت الكعبة لا «سقف» عليها، فأثبتها في بعض كتبه: وكانت الكعبة «لأسقف»، عليها. وقرأ أحد تلاميذه جملة البلاذري: وفتح العرب =

الشيخ أبو محمدٍ بن بَرِّيٍّ فتَتَبَّع ما فيه وأملى عليه أماليه مُخرجاً لسَقَطاته مؤرخاً لغَلَطاته. فاستخرتُ الله سبحانَه وتعالى في جمعِ هذا الكتابِ المُبارك[١] الذي لا يُساهَمُ في سَعَةِ فضله ولا يُشارَكُ،ولم أخْرُجْ فيه عما في هذه الأصول. ورتبته ترتيبَ الصِّحاح في الأبواب والفصول[٢]. وقصدت توشيحه[٣] بجليلِ الأخبارِ وجميل الآثار مُضافاً إلى ما فيه من آياتِ القُرآنِ الكريمِ والكلام على مُعْجزاتِ الذِكْرِ الحكيم[٤] ليَتَحلّى بترصيعِ دُرَرِها عِقْدُه ويكونَ على مَدارِ الآياتِ والأخبار والآثار والأمثال والأشعار حَلُّه وعَقْده. فرأيتُ أبا السعاداتِ المباركَ بنَ محمدِ بن الأثيرِ الجزَريّ قد جاءَ في ذلك بالنِهاية[٥] وجاوَزَ في الجودة حدَّ الغاية. غيرَ أنه لم يَضَعِ الكَلِماتِ في مَحلِّها ولا راعى زائد حروفها من أصلِها. فوضعتُ كُلًّا منها بمكانه... فجاء هذا الكتاب بحمد الله واضحَ المنهج سهلَ السُلوك.... وليس لي في هذا الكتاب فضيلةٌ أَمُتُّ بها[٦] ولا وسيلةٌ أتَمسّك بسببها سوى أني جمعتُ ما تفرق في تلك الكتب من العُلوم وبسطت القَوْلَ فيها.... فَلْيَعْتَدَّ[٧] من ينقُلُ عن كتابي هذا أنه ينقُلُ عن هذه الأصولِ الخمسة... فإنني لم أقْصِدْ سوى حفظِ أُصول هذه اللغة النبوية وضَبْطِ فَضْلها إذ عليها مَدارُ أحكامِ الكتاب العزيز والسُنة النبوية.... وذلك لِما رأيتُه قد غلَبَ في هذا الأوانِ مِنَ اختلافِ الألْسِنة والألوان. حتى لقد أصبحَ اللحْن في الكلام يُعدُّ لَحْناً مردوداً[٨] وصار النُطق بالعربية من المعايبِ معدوداً. وتنافسَ الناسُ في تصانيفِ التَرْجُماتِ في اللغة الأعجمية وتفاصحوا في غير اللغة العربية. فجمعتُ هذا الكتاب في زمنٍ أهلُه بغيرِ

= الشام فتحاً يسيراً (أي سهلاً هيّناً) فجعلها «قليلاً». جزّف (أكثر بلا قاعدة) فيما صرّف (ذكر للجذر صيغاً أكثر مّما يحتمل!)

(١) أي كتابه: لسان العرب.

(٢) مثال ذلك: «علم» تبحث عنها في باب الميم فصل العين كأنّها «معل».

(٣) تزيينه.

(٤) الذكر الحكيم: كلام الله تعالى، القرآن الكريم.

(٥) بالنهاية: بأقصى (بأوسع) ما يمكن. و«النهاية في غريب الحديث والأثر» كتاب لمجد الدين بن الأثير.

(٦) متّ: انتسب.

(٧) اعتدّ: حسب (أيقن).

(٨) اللحن (الأولى): الخطأ في القول. اللحن (الثانية): النغم. مردود (مكرّر، مألوف).

لُغته يَفْخرون.. وسَمَّيْتُهُ «لِسانَ العربِ»....

٤- نثار الأزهار.....، الآستانة (مطبعة الجوائب) ١٢٩٨ هـ.
- لسان العرب......، بولاق ١٢٩٩، ١٣٠٠-١٣٠٨، ١٣٤٨ هـ؛ القاهرة (المطبعة الحسينية) ١٣٣٢ هـ = ١٩١٣ م.
- أخبار أبي نواس.....، القاهرة ١٩٢٤ م (١٣٤٣ هـ)؛ (نشره محمّد عبد الرسول وشكري محمود أحمد)، بغداد (المعارف).......
- مختار الأغاني في الأخبار والتهاني (تحقيق حسين نصّار)، القاهرة (الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر) ١٣٤٥ هـ.

★★ تصحيح لسان العرب، تأليف أحمد تيمور، القاهرة ١٣٣٤، ١٣٤٣ هـ.

- فهارس لسان العرب (فهرست الشعراء، صنعه عبد القيّوم محمّد)، لاهور ١٩٣٨ م (١٣٥٧ هـ).
- فوات الوفيات: ٢: ٣٣١-٣٣٢؛ الوافي بالوفيات ٥: ٥٤-٥٧؛ درّة الحجال ٢: ٣١٥-٣١٦؛ نكت الهميان ٢٧٥-٢٧٦؛ بغية الوعاة ١٠٦-١٠٧؛ شذرات الذهب ٦: ٢٦-٢٧؛ بروكلمن ٢: ٢٥، الملحق ٢: ١٤-١٥؛ مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق ٣٢: ٣ (١٩٥٧/٧/١ م) ص ٤٦٦-٦٦٩ (تحقيق تاريخه، بقلم علي الفقيه حسن)؛ سركيس (معجم المطبوعات العربية) ٢٥٥-٢٥٦؛ الأعلام للزركلي ٧: ٣٢٩-٣٣٠ (١٠٨)؛ أعلام ليبيا ٢٩٩-٣٠٢؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٤٦٤؛ الدرر الكامنة: ٢٦٢-٢٦٤ (رقم ٧٢٥)؛ المنهل العذب ١: ١٥٧؛ نفحات النسرين والريحان ١٤٦-١٤٨.

أبو العبّاس المليانيّ

- هو أبو العبّاس أحمدُ بنُ عليٍّ المِلْيانيُّ، ومن أهلِ مِليانةَ (جَنوبَ مدينةِ الجزائر). كان عَمّهُ أبو عليٍ أحمدُ قد ثارَ على الحَفْصيّين فلم ينجحْ ففرّ إلى المَغرِبِ ولجأ إلى السُلطانِ يعقوبَ المَرينيِّ (٦٦٧-٦٨٤ هـ) فأقطعَهُ السُلطانُ يعقوبُ بلدةَ أغماتَ (قُربَ مدينةِ مَرّاكُش). وكان أبو العبّاسِ أحمدُ في صُحبةِ عَمِّهِ.

أكملُ أبو العبّاسِ المِليانيُّ دِراسته في أغماتَ ومَرّاكُشَ. ولمّا جاء يوسفُ بنُ يعقوبَ إلى عرش المَرينيّين، سَنَةَ ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) جعَلَ أبا عليٍّ أحمدَ على جِباية الأموالِ،

ثمّ بدا من أبي عليٍّ ما حمَلَ السُّلطانَ يوسفَ على قتلهِ. ثمّ علَتْ منزلة أبي العبّاس فجعَلَه السُلطانُ يوسفُ «كاتبَ العلامة» (صاحب التوقيع على المراسلات والمراسيم السلطانية). ثمّ استطاعَ أبو العبّاس أن يدبّرَ مَقْتَلَ الذين كانوا سببَ مقتلِ عمّهِ وأن يَفِرّ إلى تِلِمْسانَ (الجزائر اليوم). وفي سَنَةِ ٧٠٣ هـ غادرَ تلمسانَ إلى غَرناطةَ واستقرّ فيها إلى حينِ وفاتهِ، في تاسعِ ربيعٍ الثاني من سَنَةِ ٧١٥ (١٣١٥/٧/١٣ م).

٢- كان أبو العبّاسِ المِليانيُّ كاتباً وشاعراً، وكانتْ له مُشاركةٌ في الطِبّ. وفي المصادرِ والمراجع مقطوعةٌ واحدةٌ من شِعرهِ تُنْبِىء عن نَفَسٍ ومقدرةٍ في مُعارضةِ الشعرِ المَشْرقيّ، في الحماسة خاصّةً.

٣- مختارات من شعره

- قال أبو العبّاسِ المِليانيُّ يفتخرُ بفِعْلته إلى أدّتْ إلى مقتلِ خُصوم عمّهِ وبغيرها:

العِزّ ما ضُرِبَتْ عليه قِبابي، والفضلُ ما اشْتَمَلت عليه ثِيابي[١].
والزَّهْرُ ما أهْداه غُصْنُ بَراعتي، والمِسْكُ ما أبْداه نَقْشُ كِتابي[٢].
والمجدُ يمنَعُ أن يُزاحَمَ مَوْردي، والعزُ يأبى أن يُسامَ جَنابي[٣].
فإذا بَلَوْتُ صَنيعةً جازَيْتُها بجميلِ شُكري أو جَزيلِ ثَوابي[٤].
وإذا عَقَدْتُ مودّةً أجْرَيْتُها مجرى طعامي في دَمي وشَرابي.
وإذا طلبتُ من الفراقدِ والسُهى ثأراً، فأُوشِكُ أن أنالَ طِلابي[٥]!

٤- ** الإحاطة ١: ٢٩٢ - ٢٩٤؛ نفح الطيب ٦: ٢٦٦ - ٢٦٨؛ الاستقصا ٢: ٣٧ - ٣٨؛ تاريخ الجزائر العامّ ٢: ١٩٤ - ١٩٥؛ معجم أعلام الجزائر ٣١؛ الطمّار ١٩٦ - ١٩٧؛ النبوغ المغربي ٦٩٧.

---

(١) القبّة: خيمة من جلد (تكون للملوك). - العزّ موجود في بيتي فقط، والفضل من صفاتي وحدي.
(٢) نقش: تلوين (النقش هنا: الحبر الذي أكتب به رسائلي) أنا وحدي أحسن الكتابة.
(٣) الناس يرهبون (لسموّ مكانتي) أن يقتربوا من حوض الماء الذي هو لي (وإذا لم يكن عليه أحد). - وعزمي (شجاعتي، قوتّي) تأبى (ترفض) أن يسام (ينزل ظلم) جانبي (في بيتي، بي).
(٤) إذا صنع أحد بي معروفاً أثبته بشكري الجميل أو بعطائي الكثير.
(٥) الفراقد والسهى: نجوم معروفة (ولكنّ الشعر يأتي بها هنا كناية عن البعد). أوشك: اقترب.

التجانيّ صاحب الرحلة

١ - ينتسبُ آلُ التِّجانيّ في تونسَ إلى قبيلةِ تِجانَ من قبائل المغرب (الأقصى)، ولعلّ أحدَهم أبا القاسم (ت نحو ٥٥٥ هـ) كان قد جاء في جيشِ السُّلطانِ المُوحّدي عبدِ المؤمنِ بنِ عليٍّ[١]، في أواسطِ القرنِ السادسِ للهجرة. ويبدو أن أبا القاسم هذا دَخَلَ في خِدمةِ الدولة ثمّ خَلَفَهُ فيها ابنُه محمّدٌ.

ولمّا استقلّ بنو أبي حفصٍ الهِنتاتيّ[٢] - وأبو حفص في الأصل من رجالِ عبدِ المؤمنِ المُوحّدي - دَخَلَ إبراهيمُ وأحمدُ[٣] ابنا محمّدِ بنِ أبي القاسم التِّجاني في خِدمة الدولة الحَفْصية الجديدة.

وقد نَبَغَ من أُسرة التِّجاني نَفَرٌ من العُلماء والأُدباء نَعُدُّ منهم عليَّ بنَ إبراهيمَ[٤] وأختَه زَيْنَبَ[٥] وأخاه عُمَرَ ثمّ مُحمّدَ بنَ عليٍّ[٦]. وكان منهم أيضاً محمّدُ بنُ أحمَد والدِ صاحب الرحلة.

وُلدَ التِّجانيُّ صاحبُ الرِّحلةِ - واسمُه في الأغلب أبو محمّدٍ عبدُ الله بنُ محمّدٍ في تونسَ بينَ سَنَةِ ٦٧٠ و ٦٧٥ هـ (١٢٧٢ - ١٢٧٦ م) فبدأ تَلَقِّيَ القراءةِ والكِتابة على أبيه ثمّ أقبلَ على حُضور دروسِ الشيوخِ في التفسيرِ والحديثِ والفِقه والأدب والتاريخ وغيرِها. وقد كان من شيوخِهِ أبو بكرٍ عبدُ الكريم العوفي (ت ٦٩٨ هـ) قرأ عليه الفِقهَ

---

(١) عبد المؤمن بن عليّ (راجع، فوق، ص).

(٢) أبو حفص الهنتاتي (راجع، فوق، ص).

(٣) كان إبراهيم وأحمد هذان في بلاط أبي زكريّا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص مؤسّس الدولة الحفصية باستقلاله عن الموحّدين (٦٢٦ - ٦٤٧ هـ). وكانا من أهل الأدب والبلاغة.

(٤) أبو الحسن عليّ بن إبراهيم التجاني (ت ٧٠٨ هـ) أخذ عن ابن الآبّار (ت ٦٥٨ هـ) والشاعر حازم القرطاجنّي (ت ٦٨٤ هـ) وابن عصفور (ت ٦٦٩ هـ) والكلاعي (ت) وخاصّة عن قاضي تونس ومحدّثها الكبير أبي العبّاس أحمد بن محمّد بن الغمّاز البلنسي الأندلسيّ (٦٠٩ - ٦٩٣ هـ)، وكان فقهياً شاعراً.

(٥) زينب بنت إبراهيم التجاني (التجانية) من شهيرات الأديبات التونسيّات في العصر الحفصي.

(٦) عمر بن إبراهيم التجاني كان من العلماء والكتاب والنحاة ممّن يقولون الشعر. أمّا أبو الفضل محمّد بن عليّ ابن إبراهيم التجاني (٧١٨ هـ) فهو من أعلام العلم والأدب في العصر الحفصي، خدم مدّة طويلة في ديوان الرسائل. وكان شاعراً ناثراً محسناً (راجع مجمل تاريخ الأدب التونسي، ص ٢١٠).

(سَنَةَ ٦٩٣ أو ٦٩٤ هـ) وأبو القاسمِ بنُ عبدِ الوهّاب بنِ قائدٍ الكِلاعي (ت) وأبو عليٍّ عُمَرُ بنُ محمّدِ بنِ علوانَ التونسيّ (ت ٧١٠ هـ) أخذَ عنه سَنَةَ ٧٠٢ هـ. ثم إنه كان ينتهزُ الفُرَصَ في أثناء رحلتهِ لِلقاء الشيوخِ والأخذِ عنهم.

سَلَكَ التِّجانيُّ سبيلَ أسلافهِ في الدخول في خِدمة الدولة في ديوانِ الإنشاء، ويبدو أنّه دخل هذا الديوانَ في أيام أبي عَصيدةَ (٦٩٤ - ٧٠٩ هـ) محمّدِ بنِ يحيى الواثق.

في هذه الأثناءِ كان الاضطرابُ شديداً في السَلْطنةِ الحَفْصيةِ الشَرْقية (المملكة التونسية) والنزاعُ بينهَا وبينَ السلطنةِ الحفصية الغَرْبية (مملكة الجزائر) عنيفاً. وكان من شيوخ المُوحّدين وكبارِ رجالِ الدولة الحفصية في تُونسَ الأميرُ أبو يحيى زكَريّا بنُ محمّدٍ اللِّحْيانيّ طامعاً في الملك، فعَزَم على مُغادرةِ تُونسَ لترتيبِ الأمور في خارِجها[1]، وكان قدِ اتّخذَ التجانيَّ كاتباً خاصًّا به. فلمّا غادرَ تونسَ (منتصفَ ٧٠٦ هـ = أواخرَ ١٣٠٦ م) اصطحَبَ التجانيَّ. ثمّ إنّ التجانيَّ عاد إلى تونسَ في صَفَرَ من سَنَةِ ٧٠٨ (صيفَ ١٣٠٨ م)، لأسبابٍ صِحّيّة.

واستطاعَ أبو يحيى زكريّا اللِّحيانيّ أن يزحَفَ على العاصمةِ (حاضرة تونس) وأن يأخُذَ البَيْعةَ[2] لنفسِه، سَنَةَ ٧١١ هـ، في حديثٍ طويل. ولم يَنْسَ أبو يحيى كاتِبَهُ القديمَ فجعلَه رئيساً لدواوينِ رسائله - صاحبَ خُطّةِ العَلامةِ الكُبرى -. ولكّن أبا يحيى أدرَكَ وَشيكاً - وقد تقدّمتْ به السِّنُّ - أنّه عاجزٌ عن الكفاح في سبيلِ استقرارِ الأمرِ له فتخلّى عن المُلك ثمّ انسحبَ، سَنَةَ ٧١٧ هـ إلى طرابُلُسَ. واجتمع أنصارُ أبي يحيى وَوَلَّوْا ابنَهُ محمّداً أبا ضَرْبَةَ مكانَهُ.

عندَ هذا التاريخ انقطعتْ أخبارُ التجانيِّ صاحب الرِّحلةِ، ولَعلّه قُتِلَ بُعيدَ ذلك في مَنْ قُتِلَ من أنصار أبيهِ، في النزاع بينَ أبي ضَرْبَةَ وأبي بكرٍ الحفصي صاحب قُسَنْطِينَةَ (الجزائر اليومَ)، سَنَةَ ٧١٨ هـ (١٣١٨ م).

٢ - اشتهر أبو محمّدٍ عبدُ الله التِّجانيُّ برحلةٍ قام بها بصحبة الأميرِ أبي يحيى زكريا

---

(١) ليعدّ العدّة للاستيلاء على الملك.

(٢) أن يحمل الناس على اختياره حاكماً.

آبنِ محمّدٍ اللّحيانيّ. ولكنّ هذه الرِحلَة كانت قصيرةً (٧٠٦-٧٠٨ هـ) ولم يتجاوَزْ بها صاحبُها القُطْرَ التونسيَّ وجانباً من غَربيّ ليبيا اليومَ. وإذا نحنُ نَظَرْنا إلى هذه الرحلة من حيثُ وصفُ المناطق التي مرّ بها التِّجانيّ حكَمْنا بأنّها رِحلةٌ قاصرةٌ جِدًّا لم تَصِفْ من معالمِ تلك البلاد إلّا شيئاً قليلاً. غيرَ أنّ هذه الرِحلةَ غَنِيّةٌ بأوجهِ الاستطراد إلى التاريخ والأدب والعِلمِ وإلى إيراد المُراسلاتِ بين صاحبها ونفرٍ من رجالِ عصرِهِ، فَهُوَ يُورِدُ تلك المُراسلاتِ بشيءٍ كثيرٍ من التفصيل كما يُورِدُ نماذجَ كثيرةً من آثارِ الأدباء المُعاصرين له. ولكَنْ مِنْ غيرِ المألوفِ في «الرِّحْلات» أن يُكْثِرَ صاحبُ الرحلةِ مِنَ الاستشهادِ بكُتُبِ الجُغرافيةِ والتاريخ كما فَعَلَ التجانيّ. ولا شكّ في أن هذه الرِحلةَ تَصِفُ جانباً كبيراً من حياة تونسَ في مطلَعِ القرنِ الثامنِ للهجرة (وهُوَ جانبٌ غامضٌ في تاريخ تونس).

وأسلوبُ التجانيّ في رِحلته أسلوبٌ سليمٌ فيه شيءٌ من الصِّناعة. والرحلةُ تَدُلّ على ثقافةٍ لُغويةٍ وعِلْمية واسعةٍ. أمّا شِعْرُ التِّجانيّ فَهُوَ عادِيٌّ جِدًّا.

٣- مختارات من آثاره

- من مطلع الرحلة:

.... هذا تَقْييدٌ يشتملُ على وصفِ ما شاهدْتُه في هذه السَّفْرةِ المباركةِ من البلاد مُضَمَّنٌ ذِكْرَ[١] أحوالِها وصِفاتِها وبيانِ طُرُقِها ومَسافاتِها، والإشارةِ إلى مُفْتَتِحيها وبُناتِها[٢]، وأحوالِ مَنِ اشتملتْ عليه من أصنافِ العوالمِ وما يَتميّزُ به كُلُّ بلدٍ من الآثارِ والمَعالم، وما يُتَشَوَّفُ إليه ويتشوّقُ[٣] إلى الاطّلاعِ عليه. وقد أُلْبِسَ ذلك مِنْ حُلّةِ النظْمِ والنثْرِ ممّا ورَدَ في هذه السَّفرة إليّ أو صَدَرَ عنّي استفتاحَ خِطابٍ أو رَدَّ جَوابٍ ممّا تحسُنُ المُحاضرةُ[٤] بهِ وتحصُلُ الإفادة...

---

(١) مضمّن نعت «تقييد» (تدوين). ذكر مفعول به من «مضمّن».

(٢) مفتتحها: الذي استولى عليها بالقوّة. بناة جمع بان (الذي بنى البلدة).

(٣) تشوّف: تطلّع ليرى شيئاً عن بعد. تشوّق: مال برغبته إلى شيء ما.

(٤) صدر عنّي: أرسلته (أرسلت رسالة). استفتاح (مطلع، مقدّمة) خطاب (كتاب، رسالة). المحاضرة: (في =

فكان خُروجي من تونسَ المحروسةِ صُحبةَ الركاب العالي المَخْدومي الليمومي[١] أعلى الله مَقامَه وأطالَ في العزّ دوامَه، في آخرِ جُمادى الأُولى من عام ستّةٍ وسَبْعِمائَةٍ. وكان مُرادُه منها إنّما هو التوجّهُ لأداءِ فريضةِ الحجّ التي لا يَسَعُ تركُها بعدَ الاستطاعةِ عليها أحداً من الأنام. بهذا تعلّقتْ آمالُه وعليه كان عن (دار) الخِلافة انفصالُه. إلّا أنّ أمرَ الحجّ طُوِيَ عن الناسِ في هذه الحركةِ ذِكْرُهُ وأُخْفِيَ عنهم أمرُه. وسَبَبُ ذلك أنّه لِما عُلِمَ في تدبيرِ الرَّعيّةِ من حُسْنِ غَنائه[٢] وما اجتمعتْ عليه قلوبُ الجُمهورِ واستتمّ من مَحبّته وثنائه، لو بَيّنَ لهمُ انطلاقَه لأبْدى كلٌّ منهم بهِ اعتلاقَه فصَدّوه عن حَجّهِ وردّوه عمّا يَمَّمَ من نَهْجه[٣]. فرأى أنّ كَتْمَ الحجِّ أصلحُ، وأنّه الآكَدُ في طريقِ السياسةِ والأَرْجَحُ[٤]. فجعَلَ أمرَ جَرْبَةَ سَبَباً إلى نَيْلِ ذلك المَرام ورجا مَعَ ذلك أن يكونَ على يدِه استرجاعُها إلى الإسلام.....

- جزيرة جربة (ص ١٢١):

وجَزيرةُ جَرْبَةَ من أعظمِ الجزائرِ خطَراً وأشهرُها في سالف الزمن عِمارةً وذكراً[٥].... وَهِيَ أرضٌ كريمةُ المزارعِ عَذْبةُ المشارعِ[٦]. وأكثرُ شَجَرِها النخيلُ والزيتونُ والعِنَبُ والتين. وبها أصنافٌ كثيرةٌ من سائر الفواكه، إلّا أن هذه أكثرُ ثَمرِها وعليها مَدارُ غلّاتِها، وغيرُها من كرائمِ الأرضِينَ لا يُقارِبُها على الجُملة في ثِمارِها أو يُساوِيها. وتُفّاحُها لا يُوجَدَ في جميعِ بقاعِ الأرضِ له نَظيرٌ لِما يوجَدُ بها منه صفاءً وجفافاً وطيبَ مَذاقٍ وعطارةَ استنشاقٍ[٧]، ورائحتُه توجَدُ من المسافةِ المديدة والأميال

= الأصل) المجالدة (القتال) والركض (السباق) ثمّ استعملت في تبادل الآراء في موضوع أو إلقاء فصول من العلم على جماعة.

(١) في رحلة التجاني (ص ٤) يقول حسن حسني عبد الوهّاب: «هكذا (وردت) في جميع النسخ التي بأيدينا.

(٢) الغناء (بفتح الغين): النفع والكفاية (حسن تصريف الأمور وحمل التبعة).

(٣) الاعتلاق: التعلّق، التمسّك. يمّم: قصد. النهج: الطريق، الخطّة.

(٤) آكد: أكثر تأكيداً وتثبيتاً. الأرجح: الأثقل (أقرب إلى العقل وأحسن حجّة).

(٥) الخطر (بفتح ففتح): الرفعة والشرف. سالف: ماضي. العمارة: العمران، اتّساع البناء. الذكر (بكسر فسكون): الصيت والشهرة (إنّ التجنيس لم يتمّ بين خطراً وذكراً).

(٦) كريمة المزارع (خصبة تنبت غلالاً كثيرة). عذبة: حلوة. المشارع جمع مشرع: مكان اَستقاء الماء.

(٧) جفافا (؟). عطارة ليست في القاموس (يقصد: طيب رائحة).

العديدة. وكان من شَجَرِه بهذه الجزيرةِ قبلَ ذلك كثيرٌ ثمّ قلّ الآنَ بِسَبَبِ أن النصارى يُتْحِفون به ملوكَهم وكِبارَهم دون تَعويضٍ لأَرْبابِه[١] عنه. فرأى أهلُ الجزيرة أنّ غيرَه من الشجرِ أعودُ[٢] بالفائدة عليهم فقَطَعوا أكثَرَه.... وأكثرُ مساكنِ أهلها أخصاصٌ[٣] من النخيلِ يَجْعَلُ كلٌّ واحدٍ منهم في أرضِهِ واحداً أو اثْنَيْنِ أو أكثرَ من ذلكَ ثمّ يَسْكُنُه بِعِياله. وليس بها بناءٌ قائمٌ إلّا دُورٌ قليلةٌ. وهم ينقسمونَ إلى فِرْقَتَيْن: فِرقةٍ تُعْرَفُ بالوَهْبية ورِئاستُهم في بني سمومن، وأرضُ هذه الفِرقةِ من الجزيرةِ الجِهَةُ الغَرْبية وما والاها من جهة الشَّمال؛ وفِرقةٍ تُعرفُ بالنكارة ورئاستُهم في بني عزون وأرضُهم الجهةُ الشَرْقية فما والاها من جهة الجَنوب. وكانت مدينةُ جَرْبَةَ فاصلةً بينَ أرَضِيهم. وكِلا[٤] الطائفتين خوارجُ غُلاةٌ في مَذْهَبِهم مُكَفِّرون العُصاةَ على ما هو معروفٌ من مذهب الخوارجِ..... والمُتَصلّحون[٥] منهم لا يُماسحون بِثِيابهم ثيابَ أحدٍ ممّن ليس على مَذْهَبِهِم ولا يُؤاكلونه في آنِيَتِهِ. وإن اسْتَسْقى عابرُ سبيلٍ ماءً من بعضِ أبْيارِهم استخرجوا ماءَ البِئرِ كلَّه فماحوه[٦].

– توزر:

وتَوْزَرُ هي قاعدةُ بلادِ الجَريدِ[٧]، وليس في بلادِ الجريدِ غابةٌ أكبرُ منها ولا أكثرُ مِياهاً. وأصلُ مِياهِها من عُيونٍ تنبُعُ من الرملِ وتجتمعُ خارجَ البلد في وادٍ مُتّسِعٍ وتتشعّبُ منه جَداولُ كثيرةٌ. وتتفرّعُ عن كلّ جدولٍ مَذانبُ[٨] يَقْسِمونها بينَهم على أملاكٍ لهم مُقَرَّرَةٍ مقاسمَ من المياه معروفة. ولهم على قِسْمَتِها أُمناءُ من ذَوي الصَّلاح

---

(١) النصارى (الإسبان أو البرتغاليّون) الذين كانوا يحتلون جربة، كانوا يهدون من هذا التفّاح إلى ملوكهم ورؤسائهم. ولكنّهم كانوا يأخذون هذا التفاح من أصحابه بلا ثمن.

(٢) أعْود: أنفع. أعود فائدة: أكثر جلباً للفائدة (للربح).

(٣) بيت (كوخ) من غصون الشجر أو من القصب.

(٤) يجب أن يقال: وكلتا الطائفتين.

(٥) المتصلّحون (غير موجودة في القاموس): الصالحون (الذين يسيرون في الحياة على النهج القويم ويتشدّدون في السلوك).

(٦) الأبيار (يقصد الآبار جمع بئر). ماح البئر يميحها: نزح ماءها (أفرغها).

(٧) بلاد الجريد: جنوبيّ تونس حيث يكثر النخيل.

(٨) المذنب (بكسر الميم): مسيل الماء.

فيهم يَقْسِمونها على الساعات من النهار والليل بحسابٍ لهم في ذلك معروفٍ وأمرٍ مُقَرَّرٍ مألوفٍ. وعلى ذلك الماء أرحاءٌ[١] كثيرةٌ منصوبةٌ. ومن العَجَب أن هذا الواديَ يحتملُ ما يحتملُ من غُثاءٍ[٢] أو غيره، فإذا انتهى إلى المَقْسَمِ افترقَ هنالك أجزاءً بالسَوِيَّةِ على عدد المسارب[٣] فمضى كلُّ قِسْمٍ منها إلى مَسْربٍ منها. وهذا مِمّا شاهدْتُه فيها عِياناً. وكثيرٌ من أهلها إنّما يسكُنون بغابَتِها، ولا مُناسبةَ بينَ مباني الغابةِ ومباني داخلِ البلد، فإنّ مبانِيَ الغابةِ أضخمُ وأحسنُ. وبداخلِ البلدِ جامعانِ للخُطْبة[٤] وحمّامٌ واحدٌ. ومُتَفَرّجُهم[٥] بموضعٍ يَعْرِفونه بباب المنشر، وَهُوَ من أحسنِ المُتَفَرَّجاتِ لأنّ مجتمعَ الماءِ هنالك... ويجتمعُ به القصّارون فيَنْشُرون هنالك من الثِياب المُلّونة والأمْتِعة المَوْشِيّةِ[٦] ما يَعُمُّه على كِبَرِهِ فيُخَيَّلُ للناظرِ أنّه رَوْضٌ تفتّحتْ أزهارُه واطّرَدَتْ أنهارُه[٧]......

٤ - ★★ رحلة التجانيّ (قدّم لها حسن حسني عبد الوهّاب - نشرتها كتابة الدولة للتربية القوميّة والرياضة)، تونس (المطبعة الرسميّة) ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٨ م؛ ونشر منها قطع مختلفة (راجع بروكلمن).

- تحفة العروس ونزهة النفوس، القاهرة (المطبعة الشرفية) ١٣٠١ هـ؛ فاس (طبع حجر) ١٣١٧ هـ؛ الفصول الأول والسابع والثامن نشرها دوزي في باريس والجزائر ١٨٤٨ م (١٢٦٦ هـ).

نفح الطيب ٤: ١٢٠ - ١٢١، ٥: ١٨٢ - ١٨٣؛ دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى) ٤: ٧٤٥، بروكلمن ٢: ٣٣٤، الملحق ٢: ٣٦٨؛ المكتبة العربية الصقلّية ٣٧٥ - ٤٠٣؛ عنوان الأريب ٨٢ - ٨٤ (راجع ص ٨٠، السطر الأوّل)؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ٢١٢ - ٢١٤؛ سركيس ٦٥٠.

---

(١) الرحا والرحى: الطاحون (حجران يدور أحدهما على الآخر).
(٢) الوادي: النهر. الغثاء: ما يحمله السيل من الوسخ وفتات (بضمّ الفاء) الأشياء.
(٣) المسرب: (مخرج الماء).
(٤) جامع الخطبة: مسجد الجمعة (الجامع الذي يصلّي فيه الإمام أو الحاكم).
(٥) المتفرّج: المتنزّه.
(٦) القصّار: الذي يبيّض الثياب. يكون الخام أسمر اللون فيقصرونه (بضمّ الصاد؟ بتشديدها أيضاً): يعالجونه بموادّ كيماوية حتّى يبيضّ. الموشيّ: الملوّن أو ذو النقوش.
(٧) اطرّد النهر: تتابع جريان مائه.

ابن رُشيد السبتيّ

١ – هو محبّ الدين أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ عُمَرَ بن محمّدِ بن عمرَ بن محمدِ بن ادريسَ بنِ عبدِ الله بن سعيدِ بنِ مسعودِ بنِ حسن بن محمدِ الفِهْريُّ، من أهل سَبتَةَ، ويُعْرَفُ بآبن رُشَيدٍ (تصغيرَ «رُشْدٍ»).

وُلدَ آبنُ رُشيدٍ في سَبتةَ، وفي سَنَةِ ٦٥٧ للهجرة، في الأغلب. وجَعَلَ المقّريُّ (أزهار الرياض ٢ : ٣٥٦) مولدَه في رَمَضانَ من سَنَة ٦٥٧ أو ٦٥٩. وفي سبتة بدأَ آبنُ رُشيدٍ دِراسَةَ الحديثِ والنحو، ثمّ آنتقل إلى فاسَ فتابعَ فيها الدِّراسةَ. ففي سَبْتَةَ قرأَ آبنُ رُشيدٍ القرآنَ العزيزَ بالقراءاتِ السَّبْع على أبي الحسنِ بن أبي الربيع وعلى أبي الحسن عليِّ بنِ محمّدٍ الكتاميّ المعروفِ بآبن الخضّار، كما دَرَسَ على آبنِ أبي الربيع أيضاً أشياءَ من النحو ومن غيرِ النحو.

وفي سَنَةِ ٦٨٣ للهجرة (١٢٨٤ م) عزمَ آبنُ رُشيدٍ على الحجّ. وآتفق أنّ مركَبَهُ مرّ في طريقه إلى المشرق بثَغْر المَريَّةِ (في جَنوبيِّ الأندلُس)، فَلَقيَ هنالك الوزيرَ أبا عبدِ الله آبنَ الحكيمِ الرُّنديَّ مُتوجّهاً إلى الحجّ أيضاً، فآصْطَحبا. وآنتهزَ الرفيقانِ فُرصةَ الرِّحلةِ إلى المشرق فلَقيا نفراً من الشيوخ وأخذا عنهم عدداً من فنونِ المعرفة. وفي أثناء الطريق أخذَ آبنُ رُشيدٍ عن نَفَرٍ كثيرين من الشيوخ في المَريّةِ وفي بِجايةَ (في الجزائر اليومَ) وفي تُونسَ ثمّ في الإسكندريّة والقاهرة ودِمَشْقَ وفي مكّة والمدينة (راجع أزهار الرياض ٢ : ٤٣٩). وكان آبنُ رُشيدٍ وآبنُ الحكيم الرُّنديُّ يَتَدبَّجان (يأخُذُ كُلُّ واحدٍ منهما عنِ الآخَرِ ما عنده من الأحاديث: أحاديث رسول الله).

وبعدَ ثلاثِ سَنواتٍ من التَّطْواف في المشرق عاد آبنُ رُشيدٍ إلى سَبْتَةَ. ولكنّه عاش فيها بِضْعَ سَنَواتٍ في عُزلة أو في إهمال من الدولة ومن الناس. ولكنْ في سَنَةِ ٦٩٢ للهجرة (١٢٩٣م) دَعاه صديقُه ورَفيقُه في الرِّحلة ذو الوزارتينِ آبنُ الحكيم الرُّنديُّ إلى الأندلُس، في أيامِ أبي عبدِ الله محمّدٍ الثاني، ثاني سَلاطينِ بني الأحمر في غَرناطةَ (٦٧١ – ٧٠١ هـ). وفي غَرناطَة تولّى آبنُ رُشيدٍ الخُطبةَ والإمامة (يومَ الجُمُعة) في الجامع الأعظم. ولقد أقامَ ابنُ رُشيدٍ في غَرناطةَ مُدّةً (٦٩٢ – ٧٠٨ هـ) يُقرِئُ فنوناً من

العلم، كما كان في أثناء هذه المُدّة كُلِّها يُدرِّسُ كلَّ يومٍ صحيحَ البُخاري. ثمّ لَمّا تُوُفِّيَ أبو جعفرِ بنُ الزُّبير (في ربيعٍ الأوّل من سَنَة ٧٠٨ = مطلع الخريفِ من عام ١٣٠٨ م) - وكان على قضاء المَناكحِ (عُقود الزَّواج) - خَلَفَهُ آبنُ رشيد في هذا المَنْصِب.

وفي شوّالٍ من سَنَة ٧٠٨ (آذار - مارس ١٣٠٩ م) خُلِعَ السُّلطانُ أبو عبدِ الله محمّدٌ الثالثُ بنُ محمّدٍ الثاني، ثالثُ سلاطينِ غَرناطةَ، وقُتِلَ الوزيرُ آبنُ الحكيم الرُّنْديُّ، فعادَ آبنُ رُشيدٍ إلى المغرب ونَزَلَ في فاس. وجعَلَ له السلطانُ المَرينيّ أبو الربيعِ سُليمانُ بنُ عامرٍ الخِيارَ في السُّكنى حيثُ شاء في المَغْرب، فآختارَ أنْ يَنتَقِلَ إلى مَرّاكُش - لأنّه كان قد سَكَنَها مرّةً واسْتَحْسَنها - فولاه السلطانُ الصلاةَ والخُطْبة فيها في الجامع العتيق. وقد أقامَ في مَرّاكُشَ سنتين لا يَشْغَلُه سوى التدريسِ والتحقيقِ (الآنصرافِ إلى التوسُّع في فنون المعرفة).

ثمّ إنّ السلطانَ أبا سعيدٍ عثمانَ بنَ يعقوبَ المَرينيَّ (٧١٠ - ٧٣٢ هـ) آستدعاه، فيما يبدو، إلى فاس (وكانتْ فاسُ في ذلك الحينِ عاصمةَ المغرب) فجاء آبنُ رشيدٍ إليها وآستقرّ فيها يُدَرِّسُ الحديثَ (نفح الطيب ٥ : ٣٨٩) في حَلْقةٍ له في جامع القَرَوِيِّينَ (نفح الطيب ٥ : ٢٧٠).

وبَقِيَ آبنُ رُشيدٍ في فاسَ إلى أن أدرَكَتْه المَنونُ، في الثالث والعشرين من المُحرّم (في الأغلب) من سَنَةِ ٧٢١ (١٣٢١/٢/٢٢ م).

٢ - كان آبن رُشيدٍ السبتيُّ كريمَ النفسِ حَسَنَ العِشرة بَرًّا بأصدقائه. وكانت له معرفةٌ بالقِراءات، ولكنّ مُعْظَمَ عِنايته كان مُنصرفاً إلى علم الحديث، فلقد كان واسع المعرفة بالحديث: بصِحّة مَتْنِه وضبطِ أسانيده وعَدالة رِجاله (أي مراتب رُواته في الثقة بما يَرْوُونَ). وكان هو في كُلِّ ذلك ثِقَةً عَدْلاً. وكذلك كانت له معرفة باللغة والنحو (نفح الطيب ٥ : ٢٧٤) وبالأدب وتاريخ الأدب. ثم كان له علم بالنقد أيضاً (نفح الطيب ٤ : ١٢٤ و ٤٧٥ س). وكذلك كان هو أديباً وخطيباً بليغاً (نفح الطيب ٥ : ٣٣٧ و ٥١٤). وكان في شعره تكلُّف ومَيْل إلى التجنيس (أزهار الرياض ٢ : ٣٥٣ - ٣٥٤) مَعَ المعرفة بالعَروض والقوافي، ولكنّ نثره كان جيِّداً.

وكان ٱبنُ رُشيدِ السبتيُّ مُصَنِّفاً. وأشهرُ ما له في هذا الباب «رِحلته»: مَلْءُ العَيبة[١] بطول الغيبة في الوِجْهتَيْنِ الكريمتين مكة وطَيْبة[٢] (ذكر فيها نفراً كثيرين من العلماء والأدباء الذين لَقِيَهُمْ، كما ذكر فيها أشياءَ من آرائهم ونماذِجَ من أشعارهم، بالإضافة إلى عدد من الملاحظات الجغرافية والتاريخية). وله أيضاً من الكتب[٣]: إفادة النصيح بالتعريف بإسناد الجامع الصحيح[٤]- السَّنَن الأبين والمورد الأمعن في السند المُعَنْعن[٥]- ترجمان التراجم (في أشياءَ تتعلق بتراجِمَ الرواةِ الواردةِ أسماؤهم في صحيح البخاري)- المقدِّمة المُعرِّفة لعلوّ المسافة والصفة[٦]- تقييد على كتاب سيبويه- إحكام التأسيس في أحكام التجنيس- الإضاءات والإنارات في البديع (وهو المسمى: المرتع المَريع لرائد التسجيع والترصيع)[٧]- وصل القوادم بالخوافي[٨] (شرح لكتاب القوافي لشيخه حازم القرطاجنّي)- جزء مختصر في العَروض.

مختارات من آثاره

- قال ابن رُشيد السبتي في الرِّحلة والآغتراب (النبوغ المغربي ٨٠٩):

---

(١) العيبة: زبيل (حقيبة أو كيس) من جلد توضع فيه الثياب.

(٢) في الوجهتين (ورد مكانها أيضاً: في الرحلة إلى). طيبة (بالفتح): المدينة المنوّرة.

(٣) راجع أزهار الرياض ٢ : ٣٥٠.

(٤) الجامع الصحيح للبخارى.

(٥) السنن: الطريق. الأبين اسم تفضيل من بيّن (بتشديد الياء): واضح. المورد: مكان شرب الماء. الأمعن صيغة تفضيل من «المعن» (وهي صفة معناها: الكثير والقليل، والطويل والقصير. المورد الأمعن: المشرب الكثير الماء (؟). المعنعن: السند الطويل (روى فلان عن فلان عن فلان.... الخ).

(٦) علو المسافة والصلة.... (؟).

(٧) المرتع: المرعى. المريع: الخصيب (الكثير العشب والماء). الرائد: الطالب. التسجيع (السجع): تقفية الفواصل (أواخر الجمل) في النثر. الترصيع (من أنواع البديع): أن تكون الألفاظ في الجملة الواحدة متّفقه في الوزن وفي الأعجاز (بفتح الهمزة: الأواخر)، كقوله تعالى: ﴿إنّ إلينا إيابهم﴾ ﴿إنّ علينا حسابهم﴾ (المعجم الوسيط ٣٤٩)- لاحظ: إلينا وعلينا، إيابهم وحسابهم.

(٨) القادمة: الريشة الطويلة في مقدّمة جناح الطائر، والخافية: الريشة الصغيرة الناعمة في باطن جناح الطائر.

تَغَرَّبْ ولا تَحفِلْ لفُرقةِ موطنٍ تفُزْ بالمُنى من كُلِّ ما شِئتَ من حاجِ[1].
فلولا آغترابُ المِسكِ ما حلَّ مَفرِقاً، ولولا آغترابُ الدُّرِّ لم يَحظَ بالتاج[2].

– قام ابن رُشيد للخُطبة يوم الجُمُعةِ بعدَ فراغ المؤذن الثاني وكان (ابن رشيد) قد ظنّه (الأذان) الثالث. فكَثُرَ[3] لغَطُ الناس[4]. فقال آبنُ رُشيدٍ بديهة:

إنّ الواجبَ لا يُبطله المندوبُ[5]، وإنّ الأذانَ الذي بعدَ الأولِ غيرُ مشروع الوجوب. فتأهّبوا لطَلَب العِلمِ وآنتبهوا. وتذكّروا قولَ الله تعالى: ﴿وما آتاكُمُ الرسولُ فخُذوه. وما نَهاكم عنه فآنتهوا﴾[6]. وقد رَوَيْنا عنه، صلّى اللهُ عليه وسلّم، أنّه من قال لأخيه – والإمامُ يخطُبُ –: «أنصِتْ»، فقد لَغا[7]. جعَلَني اللهُ وإيّاكُمْ مِمّنَ عَلِمَ فعَمِلَ، وعَمِلَ فقُبِلَ، وأخلَص فتَخَلَّص[8].

– وقال ابن رُشيدٍ يصف سطح البحر وقدِ آنبسطت عليه أشِعة البدر (أزهار الرياض ٢: ٣٥٣):

انظُرْ إلى البدرِ قدْ مُدَّتْ أشِعَّتُهُ على خُضارةَ حتى آبيضَّ أزرقُهُ[9].
والريح قد صنعت دِرْعاً مسامِرُها حَبابَ ماءٍ يروق العينَ رونقُهُ[10].

---

(١) لا تحفل: لا تهتّم، لا تبال: الحاج (جمع حاجة).

(٢) المفرق: مكان فرق الشعر في الرأس (الرأس). الدرّة. اللؤلؤة. حظي بالأمر: ظفر (بفتح فكسر) به. – لم يحظ بالتاج (لم ترصّع به تيجان الملوك).

(٣) من عادة المؤذنين أن يؤذّنوا لصلاة الجمعة (صلاة الظهر يوم الجمعة) مرّتين أو ثلاثاً (واحدة منها، أو منها، بين يدي الخطيب، حينما يصعد المنبر). والمشروع في الدين أذان واحد.

(٤) لغط الناس: آختلاط أصواتهم فتصبح مبهمة (لا تفهم). – استغرب الناس أن يبدأ ابن رشيد بالخطبة يوم الجمعة قبل الأذان الثالث المألوف عندهم.

(٥) الواجب: الفرض. المندوب: ما يستحسن فعله في العبادة (ولكنّه ليس فرضاً).

(٦) القرآن الكريم (٥٩: ٧، سورة الحشر).

(٧) لغا، يلغو: تكلّم (فعل فعلاً يبطل صلاته). – إذا صعد الخطيب المنبر يوم الجمعة، وجب على جميع المصلّين أن يستمعوا إلى أقوال الخطيب، ولا يجوز لأحد أن يتكلّم ولا أن يصلّي.

(٨) وعمل فقُبل (منه عمله). أخلص الرجل في عمله: ترك فيه الرياء (فَعَله من أجل الله أو من أجل المبدأ، لا ليراه الناس). تخلص: صفا (قلب الرجل: أصبحت جميع أعماله موضوعة مواضعها).

(٩) خضارة: اسم للبحر.

(١٠) مسامر: مسامير (جمع مسمار). الحباب: فقاقيع من الماء تكون مملوءة هواء. الرونق (الجمال، الحسن الذي =

- وقال آبنُ رُشيدٍ يرثي آبناً له (الأدب المغربي ٢٣٦ - ٢٣٧):

فإنْ ألتفِتْ فالشخصُ للعين ماثلٌ، وإنْ أستَمِعْ فالصوتُ للأُذْنِ طارقُ[١].
وإنْ أدْعُ شخصاً بآسمهِ لضَرورةٍ، فإنَّ آسمَه المحبوبَ للنُّطق سابق[٢].
وإنْ تَقْرَعِ الأبوابَ راحةُ قارعٍ، يَطِرْ عندها قلبٌ لذِكراه خافق[٣].
رأتْكَ المنايا سابقاً فأغرْتَها، فجُدَّ طِلاباً إنّهنّ لواحق[٤].
لئن سَلَبَتْ مِنّي نفيسَ ذَخائري، فإنّي بمذخورِ الأُجورِ لَواثق[٥].
وقد كان ظنّي أنّني لك سابقٌ، فقد صار عِلمي أنّني بك لاحِق[٦].
غَرِيبَيْنِ كُنّا، فرّقَ الدهرُ بيننا بأبرحِ ما يَلْقَى الغريبُ المُفارق[٧].

- من رحلة ابن رشيد: في رابغ (النبوغ المغربي ٦١٧ - ٦١٨):

.... ذكر غريبةٍ عنّت لنا في رابغٍ وما عنّتْ[٧]، بل أغنتْ في معنى الآية الكريمة وأقنت[٩]. وهي قوله تعالى[١٠]: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بشيءٍ من الصَّيْد تنالُه أيديكم ورِماحُكم لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يخافه ورُسُلَه بالغَيْبِ﴾.

صَحِبَني في الطريق من المدينة - على ساكِنِها أفضلُ الصلاةِ والسلام - إلى البيت

= يسرّ العين). راق المنظر العين: وجدته العين حسناً. الصورة البلاغية هنا خطأ، فالريح لا تجعل على ماء البحر (أو ما النهر) حباباً بل تعاريج.

(١) كيفما التفتّ أتخيّل أنّه واقف أمام عينيّ. وكلّ صوت أسمعه يخيّل إليّ أنّه صوته.

(٢) وإذا أنا آحتجت إلى أن أنادي أحداً بآسمه، يسبق إلى لساني آسم ابني الميت. اقرأ: في النطق.

(٣) طار القلب يطير (من الفرح أو من الخوف).

(٤) رآك الموت سابقاً (للناس في معالي الأمور). فآركضْ ما شئتْ فإنّ الموت يلحق بك.

(٥) بمذخور الأجر (بالأجر المذخور - المخبّأ لي ليوم القيامة).

(٦) كنت أظنّ أنني سابق لك (سأموت قبلك، لأنّني أكبر منك سنّاً).

(٧) أبرح: أشد، أكثر شدّة، أكثر ألماً. - كل فراق بأمر من أمور الدنيا أهون على النفس من الفراق بالموت.

(٨) عنّت (من «عنّ»: ظهر). رابغ (هنا): وادٍ بين مكّة والمدينة قريب من البحر. عنّت (من «عنّى»: أتعب، أهمّ).

(٩) أقنى فلان فلاناً: أعطاه (مالاً أو شيئاً ثميناً).

(١٠) القرآن الكريم (٥ : ٩٤، سورة المائدة). يخافه بالغيب: يتقيّد بأمر الله، ولو لم يكن أحد من أولي الأمر (رجال الدولة) يراقبه. يبلو: يختبر. تناله أيديكم ورماحكم: يسهل صيده.

الحرام[١] أحدُ الشيوخ من شُرفاءِ المدينة. فلمّا وافَيْنا[٢] رابغَ رأيتُ أمراً عَجَباً من تَخلُّلِ الوحشِ (من) الغزال والأرنب، بينَ الجِمال والرِّحال[٣]، بحيث يناله الناس بأيديهم، والناسُ يُنادون: حَرامٌ، حَرام! والجوارحُ قد سُلسِلَتْ خِيفةَ تَعَدّي جاهلٍ يتعسّف المجاهل[٤]. فقال لي ذلك الشيخ الشريف: «تأمَّلْ تَرَ عَجَباً. هكذا جرتْ عادتنا في هذه الطريق؛ إذا مَرَرْنا به ونحن محرمون[٥] نَجدُ به من الوحش ما ترى. فإذا عُدْنا مُحِلّين[٦]، لم نَجِدْ به شيئاً». فلما عُدْنا كان (الأمر) كما قال. فبان لي من معنى الآية ما لم يكن عِندي بالمُشاهدة[٧].

٤- رحلة ابن رشيد إلى الحرمين الشريفين (تحقيق محمد الحبيب بن الخوجه)*.

** الوافي بالوفيات ٤: ٢٨٤ - ٢٨٦ (رقم ١٨٠٥)؛ أوصاف الناس ١٠٠ - ١٠٢؛ الديباج المذهب ٣١٠ - ٣١١؛ الدرر الكامنة حيدر آباد ٤: ١١١ - ١١٣ (رقم ٣٠٨)، مصر ٤: ٢٢٩ - ٢٣١ (رقم ٤١٧٢)؛ بغية الوعاة ٨٥ - ٨٦؛ درّة الحجال ٢: ٩٦ - ١٠٠؛ شذرات الذهب ٦: ٥٦؛ أزهار الرياض ٢: ٣٤٧ - ٣٥٦؛ نفح الطيب ١: ٦٠٦ - ٦١٥، ٢: ١٩٥ - ١٩٦، ٥٨٢ - ٥٨٣، ٥٨٩، ٦٢٣ - ٦٢٤، ٣: ٥٢٣، ٤: ١٢١، ١٢٢، ٣١١ - ٣١٣، ٤٩٦، ٥: ٢٧٤، ٤٨٠ - ٤٨١؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٩٠٩؛ بروكلمن ٢: ٣١٧، الملحق ٢: ٣٤٤؛ الأعلام للزركلي ٧: ٢٠٥ (٦: ٣١٤)؛ معجم المؤلّفين ١١: ٩٣ - ٩٤؛ الأدب المغربي ٢٣٦ - ٢٣٨؛ النبوغ المغربي ٢٠٦، ٣٨١ (في الترقيم الأوّل)، ٦١٧ - ٦١٨، ٨٠٩.

---

(١) البيت الحرام: الكعبة (مكّة).

(٢) وافينا: وصلنا إلى...

(٣) تخلّل الوحش بين الجمال والرحال: مرور الوحش (الحيوانات غير الأليفة) بين الجمال والرحال (الأحمال) - سواء أكان المسافرون سائرين (يتابعون سفرهم) أو كانوا نازلين (مستريحين، وقت التوقف عن متابعة السفر).

(٤) الجوارح: الطيور الكاسرة كالنسر وغيره. سلسلت: رُبطت بالسلاسل - كأن الجوارح قد ربطت فلا تنقضّ على أحد أو على شاة مع أحد لئلا يضطر محرم (حاجّ) إلى قتلها (إلى سفك دم لا يجوز سفكه في أثناء الإحرام بالحجّ). تعسّف: سلك الطريق على غير علم بها (هجم على أمر لا يعرف عواقبه). المجهل: الأرض لا علامات فيها (جبال أو أشجار الخ).

(٥) المحرم: الذي نوى الحجّ وجعل يقوم بالمناسك (بأعمال الحجّ).

(٦) المحلّ (بتشديد اللام): الذي انتهى من القيام بمناسك الحجّ ثمّ نوى الخروج من الإحرام.

(٧) بان: ظهر. بالمشاهدة (بالملاحظة الشخصية).

(*) راجع مجلة «قافلة الزيت» (جمادى الأولى من سنة ١٣٩٢).

ابن البنّاء العدديّ

١ - هو أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ عُثمانَ الأزديُّ المعروفُ بابنِ البنّاء (لأنّ والِدَه كان بنّاءً) العَدَدِيُّ (لبراعتهِ في علم العدد: العلم الرياضيّ) المَرّاكُشيّ.

وُلِدَ ٱبنُ البنّاءِ العَدَدِيُّ في مَرّاكُشَ، سَنَةَ ٦٤٧ للهجرة على الأصح (نيل الابتهاج ٦٧)، وتلقّى علومَه في مَرّاكُشَ وفي فاس. وقد كان له شيوخٌ (أساتذة) كثيرون (نيل الابتهاج ٦٦) مِنْهُمُ القاضي الشريفُ محمّدُ بنُ عليِّ بنِ يحيى قرأ عليه كثيراً من الكتب وذاكَرَهُ في كتاب «الأُصول» أوِ «الأركان» لأُقليدسَ (في الهندسة المستوية). ومنهمُ ٱبنُ حجلةَ الرياضيُّ قرأ عليه أشياءَ من الطِّبِ والفَلَكِ، كما قرأَ الفَلَكَ على أبي عبدِ اللهِ ٱبنِ مخلوفٍ السِّلجماسِّي. ومن شيوخه أيضاً أبو عبد الله بن يسر قرأ عليه القرآن في مَراكُشَ. ومنهم قاضي الجماعة أبو الحجّاجِ يوسفُ التُّجيبيُّ المِكناسيّ ثم أبو الوليدِ بنُ الحجّاجِ قرأ عليه كتاب المِعيار وكتاب المُستصفى (وكلاهما لأبي حامدٍ الغزّاليّ). ومن شيوخهِ أبو عِمرانَ موسى الزَّناتيُّ قرأ عليه شرحَه على كتابِ المُوطَّأ (لمالكِ بنِ أنسٍ) وتَفَقَّه عليه. وكذلك قرأ كتابَ سِيبَوَيْهِ (في النحو) على أبي إسحاقَ الصِّنهاجيِّ العطّار.

وتصدّرَ ٱبنُ البنّاء المَرّاكُشيّ في مرّاكشَ للتدريس، ويبدو أنّه كان يُدَرِّسُ مَوْضوعاتٍ مختلفةٍ كاختلاف الموضوعاتِ التي تَلَقّاها عنْ شُيوخه.

وكانتْ وفاةُ أبي العبّاسِ بنِ البنّاءِ في سادسِ رَجَبَ من سَنَةِ ٧٢١ (١٣٢٢/٨/٢ م) في مرّاكش.

٢ - كان أبو العبّاسِ بنُ البنّاءِ رجُلًا وقوراً فاضلًا حَسَنَ السيرةِ وافرَ العقلِ مُهَذَّباً حَسَنَ التحديث، ولكنْ قليلَ الكلام، لا يكادُ يتكلّم إلّا في العِلم الذي يُريدُ أن يُفيدَ به الطُّلابَ. وكذلك كان إماماً مُعظَّماً عند الملوك، وبَلَغَ عندَهم مكانةً ٱجتماعيةً سامية. وكان له ميْل إلى التصوّف.

ومعَ أنّ ٱبنَ البنّاء كان مشهوراً بالرياضّيات، فإنّه بَرَعَ أيضاً في فنونٍ كثيرة. فبالإضافة إلى الحساب والهندسة والفَلَك، وإلى جانبِ معرفتهِ بِأشياءَ من التنجيم والسِّحر وما يتعلّقُ بها، فإنّه قد بَرَعَ في قِراءةِ القُرآنِ وبمعرفةِ الحديث والفِقه والنحو

والمنطق والأدب والبلاغة والشعر.

ولأبي العبّاسِ بنِ البنّاء تصانيفُ كثيرةُ العددِ مُتنوّعةُ الموضوعات، منها: تلخيصُ أعمال الحساب. هذا الكتاب موجزٌ جدًّا. من أجل ذلك شرحه علماءُ كثيرون. وفي كتاب «التلخيص» هذا أشياءُ من علم العَدد (خواصُّ الأعداد، من تقسيمها أفراداً وأزواجاً وجَعْلها متواليات حسابيةً وهندسيّة) ومن الحساب (الأرقام ثمّ تدوينِ الأعدادِ في مراتبَ) ثمّ أشياءُ من الجبر ومن الأعمال الأربعة فيما يتعلّق بالأعدادِ الصحيحة والكُسور (راجع الحواشي على النّص المختار لابن البنّاء). ويقول قَدْري طُوقانُ (تراث العرب العلمي ٧٤ - ٧٥، ٤٣٠): بحثَ ابنُ البنّاء في «قاعدةِ الخَطَأَيْنِ لحلّ المُعادلاتِ ذاتِ الدَّرَجة الأولى... وأدخَلَ بعضَ التعديل على الطريقة المعروفة بطريق الخطأ الواحد، ووضع ذلك بشكل قانون....»

ولابنِ البَنّاء أيضاً كتابٌ اسمه «رَفْعُ الحِجاب عن وجوه أعمال الحساب» شَرَح فيه ابنُ البنّاء نفسُه كتابَه «تلخيصَ أعمال الحساب». يقول ابنُ خَلْدونٍ (المقدّمة - دار الكتاب اللبناني، بيروت، ٨٩٧): وهو مُسْتَغْلَقٌ على المُبتدىء بما فيه من البراهين الوَثيقةِ المَباني. (ثمّ) هو كتابٌ جليلٌ أدركْنا المَشْيَخَةَ (كِبارَ الأساتذة) تُعَظِّمه».

وله أيضاً: مقالاتٌ في الحساب (فيه كلامٌ على الأعداد الصحيحة والكسور والجُذور والتناسُب) - كتاب الأصول والمُقدِّمات (في الجبر والمُقابلة) - تنبيهُ الألبابِ على مسائل الحساب - مسائلُ في العدد التامّ والناقص - جزء في العمل بالرومي (بتدوين مسائل الحساب بالأحرف لا بالأرقام) - التمهيدُ والتيسير في قواعدِ التكسير - رسالة في علم المِساحة (الهندسة المستوية) - مقدّمة في أُقليدِس والمقالات الأربع - مِنهاج الطالب في تعديل الكواكب - اليَسارة في تعديل الكواكب السيّارة - تسهيلُ العِبارة في تكميل ما نَقَصَ من اليَسارة (وهو مُلْحَقٌ مُتَمِّم للكتاب السابق) قانونٌ لترحيلِ الشمس والقمر في المنازل ومعرفة أوقاتِ الليل والنهار - كتابُ تحديدِ القِبلة[1] - رسالة في الأنواء

---

(١) يتّجه المسلمون في صلاتهم - حيث كانوا من الأرض - نحو الكعبة المشرّفة في مكّة المكرّمة. ومعرفة القبلة (الاتّجاه نحو الكعبة) يحتاج إلى دقّة في حسبان الجهات.

(أحوال الجوّ) - (رسالته) في المُناخ - كتاب في التنجيم والأنواء.

ولابن البنّاء كُتُبٌ في تفسير القرآن وفي الفقه منها: عُنوان الدليل مرسوم خطّ التأويل - مَنْحى مَلاكِ التأويل - حاشيةٌ على الكشّاف (للزّمَخْشري؟) - جُزء صغير على سورة «إنّا أعطيناك»، و«العَصْر»[1] - تفسير الباء في البَسْملة[2] - بداية التعريف (في الاعتقاد) - الاقتضابُ والتقريب للطالب اللبيب في أصول الدين - مُنْتهى السُّول في علم الأُصول - رسالة الفَرْق بين الخوارق الثلاث: المُعجزة والكرَامة والسِّحر - مراسم الطريقة في علم (فنّ) الحقيقة (في التصوّف).

ثمّ له في الأدب: الرَّوْضُ المَريعُ في صِناعة البديع[3] - قانون في معرفة الشعر - مقالة في عُيوب الشعر - قانون في الفَرْق بين الحِكمة والشعر. - شرح الأرجوزة (؟) - مُوَشَّح كافل للمطّلب (؟).

٣- مختارات من آثاره:

- مختارات من «تلخيص أعمال الحساب» لابن البنّاء:

الغَرَضُ من هذا الكتابِ تلخيصُ أعمالِ الحساب وتقريبُ أبوابِهِ ومَبانيه. وهُوَ يشتَمِلُ على جُزءين: الأول (منهما) في أعمالِ العَدَدِ المعلوم[4] والثاني في القوانين التي يُمْكِنُ بها الوصولُ إلى معرفة «المجهولِ المطلوب» من «المعلومِ المفروضِ»، إذا كان بَيْنَهما صلةٌ تقتضي ذلك[5]. ومِنَ اللهِ أسألُ العَوْنَ والتوفيقَ والإرشادَ إلى سَواءِ السبيل.

..... العَدَدُ ما تألَّفَ مِنَ الآحادِ[6]. وهو ينقَسِمُ بحَسْبِ مأخذِه قسمين: صحيحاً

---

(١) سورة الكوثر وسورة العصر (السورتان ١٠٨ ثمّ ١٠٣ في المصحف).

(٢) البسملة: بسم الله الرحمن الرحيم.

(٣) المريع: المخصب. البديع (الجناس والطباق) من المحسّنات اللفظية في البلاغة.

(٤) العدد المعلوم: المقدار المعروف (٥، ١٧، ٢٣، ١٠٨، إلخ) - إن كلّ عدد من هذه يدلّ على مقدار معيّن.

(٥) هذا تعريف علم الجبر، فإذا نحن قلنا في المتطابقة: س+ ٤ = ١١، قلنا: س (المجهول المطلوب) إذا جمع إلى ٤، يكون المجموع ١١. إذن ١١ - ٤ = ٧ (وهو المجهول المطلوب).

(٦) كلّ عدد يتألّف من آحاد، ٥ = ١ + ١ + ١ + ١ + ١، الخ.

وكَسْراً. والصحيحُ على ضربَيْنِ (نوعين): زوجٌ وفَرْدٌ[١]. والزوجُ على ثلاثةِ أنواع: زوجُ الزوجِ، وزوجُ الفَرْدِ، وزوجُ الزوجِ والفردِ[٢]. والفردُ على نوعين: أولٌ وفردُ الفردِ[٣]. ولمّا كان العَدَدُ يَتَزايَدُ إلى غيرِ نهايةٍ[٤]، جُعِلَ له ثلاثُ مَراتِبَ[٥]، وتُسَمَّى أيضاً مَنازلَ - وتَدُور عليها منازلُ العددِ - في كلِّ مرتبةٍ منها تِسعةُ أعدادٍ.

فالمرتبةُ الأُولى من واحدٍ إلى تِسعةٍ، وتُسمّى مرتبةَ الآحاد. والثانيةُ من عَشْرةٍ إلى تِسعينَ، وتُسمّى مرتبةَ العَشَرات. والثالثة من مائَةٍ إلى تِسْعِمائَةٍ، وتُسمّى مرتبةَ المِئين.

وللعددِ اثنا عَشَر اَسماً بسيطاً يتركَّبْ منها جميع أسمائه. فالتِسعةَ الأولى منها هي الآحاد، والعاشرُ للعشَراتِ، والحادي عَشَر للمئيـن، والثاني عَشَر للآلافِ - وهي بمنزلة الآحاد[٥] - ومن هنا يعودُ الدور[٦].

الجبرُ هو الإصلاح[٧]. والمقابلة طَرْحُ كُلِّ نوعٍ من نظيرِهِ حتى لا يكونَ في الجِهتَيْنِ

---

(١) شفع ووتر، أو مجوز (٢، ٤، ٦، ٨، إلخ) ومُفْرَد (٣، ٥، ٧، ٩ إلخ).

(٢) زوج الزوج، زوج الفرد، زوج الزوج والفرد: اصطلاحات تطلق على المتوالية الهندسية (حينما يكون كلّ حد في المتوالية يساوي نصف الحد الذي يليه. فزوج الزوج هو المتوالية التي تبدأ بعدد شفع: ٢، ٤، ٨، ١٦، إلخ. وزوج الفرد هو المتوالية التي تبدأ بعدد فرد: ٣، ٦، ١٢، ٢٤، إلخ. وزوج الزوج والفرد يجب أن يكون «زوج زوج الفرد» أو هو تجريد الحدود المفردة، نحو ٣، ٥، ٧، ٩، ١١ (وهذه سلسلة حسابية: يزيد كلّ حد فيها على الحد الذي قبله بفرق معلوم، بعد أن تبدأ السلسلة بعدد مفرد). وإذا قبلنا التسمية «زوج الزوج والفرد»، فيكون معنى ذلك ٢ + ٣ = ٥، ثمّ نستمرّ في التضعيف: ٥، ١٠، ٢٠، ٤٠ إلخ.

(٣) فرد أوّل هو العدد الذي لا يقسم إلّا على نفسه (وعلى واحد): ١٣، ١٧، ٥٩ إلخ. وفرد الفرد......

(٤) الواضح هنا أن الأعداد لا تتناهى: لا تقف عند عدد معين.

(٥) الأعداد التسعة الأولى هي آحاد: العشرة تمثّل مرتبة العشرات (لأنّها في الترتيب تمثّل مرتبة زائدة إلى اليسار: «١٠»، والأحد عشر «١١٠» تمثل (في الترتيب) مرتبة ثالثة. والاثنا عشر (في الترتيب) تمثّل مرتبة ثالثة إلى اليسار «١١١٠» (يحسن إذا نحن أردنا أن ندرك هذا التنظيم أن نعلم أن الفيثاغوريّين لمّا تكلموا في علم العدد - أو خواصّ الأعداد - لم يكن عندهم أرقام، بل كانوا يعدّون بمجموعات من الحصى يرتّبون بعضها خلف بعض).

(٦) ومن هنا يعود الدور: بعد أن ننتهي من المراتب: آحاد، عشرات، مئون (مئات) نصل إلى الألوف (آحاد الألوف) ثمّ نستمرّ على النمط السابق فنقول: عشرات الألوف، مئات الألوف، ألوف الألوف. ثمّ نقول: آحاد ألوف الألوف، عشرات ألوف الألوف، مئات ألوف الألوف، ألوف ألوف الألوف، إلخ.

(٧) الجبر (بالمعنى اللغوي): الإصلاح (إذا كسر عظم في إنسان، فإنّه يُجبر). (والجبر هنا) جعل الكسور =

نوعانِ من جِنْسٍ واحدٍ. والمُعادلة هي آن يُجْبَرَ الناقصُ إلى الزائدِ ويُطْرَحَ الزائدُ من الزائد و(يطرح) الناقصُ من الناقصِ من الأشياءِ المتجانسة[١].

ومَدارُ (علم) الجبرِ على ثلاثةِ أنواعٍ: العددِ والأشياءِ والأموالِ. فالأشياءُ هي الجُذور، والمالُ ما يجتَمِعُ من ضَرْبِ الجِذْرِ في نفسهِ. والعَدَدُ ما لم يُنْسَبْ إلى جِذرٍ ولا مال[١]...

واعلَمْ أنَّ أُسَّ الأشيـاءِ واحـدٌ[٢]، وأُسَّ الأموالِ آثنـانِ، وأُسَّ الكُعوبِ ثلاثةٌ[٣].... فإذا ضَرَبْتَ هذه الأنواعَ فأَجْمَعَ (أُسَّ المضروب إلى) أُسِّ المضروبِ فيه فيكونَ مجموعُ الأُسَّيْن أُسًّا للخارج[٤]. وإذا ضربَت عدداً في أحدِ هذه الأنواعِ، فالخارجُ ذلك النوعُ بعينه[٥].

- وقال ابن البنّاء العدديّ في الحكمة (النبوغ المغربي ٨٠٧):

قَصَدتُّ إلى الوَجازةِ في كلامي ... لِعلمي بالصواب في الآختصار[٦]
ولم أحْـذَرْ فُهومـاً دونَ فَهمي ... ولكن خِفْـتُ إزراءَ الكِبـار[٧].
فشأنُ فُحولـةِ العُلماءِ شأني، ... وشأن البسط تعليمُ الصِّغـار[٨].

= أعداداً صحيحة: $\frac{1}{4}$ ب + ٣ ح - س = ١٠٠، تجعل بالجبر: ب + ١٢ ح - ٤ س = ٤٠٠ (بأن نضرب المعادلة كلّها بأربعة لنتخلّص من الربع، فيصبح حلّ المسألة أهون). المقابلة أن تجمع الحدود المتجانسة وأن تفرّق الحدود المختلفة في طرفي المعادلة: ٣ س + ١٢ = س + ٢٢ فتصبح ٣ س - س = ٢٢ - ١٢، تساوي ٢ س = ١٠، أو س = ٥.

(١) الشيء أو الجذر: س، ص، ب إلخ (عدد مجهول). المال: الشيء المضروب بنفسه: س × س = س^{٢}. العدد (الملفوظ، المعلوم) ١٨، ٥٢، ٢١٨ إلخ (ليس معه جذر ولا مال).

(٢) هنالك أساس وأُس. في ب^{٢} (ب = أساس، والعدد ٢ فوقها هو الأُس). ومعنى ذلك أن «ب» مضروبة بنفسها (ب × ب). وب^{٣} تَعْني أنّ «ب» مضروبة بنفسها مرّتين (ب × ب × ب) إلخ. وحينما يكون الأُس واحداً فنحن لا نُثبته: نحن لا نكتب ب^{١}، بل «ب» فقط.

(٣) س^{٢} تدعى مالاً (أو س تربيعاً)، س^{٣} تدعى كعباً (أو س مكعّبة).

(٤) حينما نضرب س^{٢} في س^{٣} يصبح لدينا س^{٥} (نجمع الإساس - بالكسر جمع أُس بالضم - فقط).

(٥) إذا ضربنا س في س في س^{٢}، يبقى الأساس كما هو (س، ثم نجمع الإساس (بالكسر: جمع أس).

(٦) الوجازة: الإيجاز، الاختصار. - الكلام الكثير المفصّل يكون أكثر مدعاة إلى الخطأ.

(٧) أزرى الجهل بالإنسان: عابه، جعله محتقراً.

(٨) الإيجاز شأن العلماء في مخاطبة بعضهم بعضاً. أمّا البسط (الشرح والتفصيل) فيكون في تعليم الصغار (الجهّال).

٤- منهاج الطلب في تعديل الكواكب (........)، .... (الطباعة المغربية) ١٩٥٢ م.
- تلخيص أعمال الحساب (حقّقه محمود سويسي)، تونس (منشورات الجامعة التونسية) ١٩٦٩ م.

★★ نيل الابتهاج ٦٥ - ٦٨؛ البدر الطالع ١ : ١٠٨؛ الإعلام بمن حلّ مرّاكش من الأعلام ١ : ٣٧٥ - ٣٨٤؛ ابن قنفذ ٣٤٣؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧٣١؛ بروكلمن ٢ : ٣٣٠ - ٣٣١، الملحق ٢: ٣٦٣ - ٣٦٤؛ تراث العرب العلمي لطوقان ٤٢٩ - ٤٣٢؛ الأعلام للزركلي ١: ٢١٣ - ٢١٤ (٢٢٢)؛ النبوغ المغربي ٢١٣، ٨٠٧.

ابن آجرّوم

١- هو أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ داوودَ الصنهاجيُّ المعرُوف بٱبنِ آجرّومَ (ومعنى آجرّوم أو أكروم - بالكاف المعقودة، بلغة البربر - « الفقير الصوفي »). وُلِدَ في فاسَ، في سَنَةَ ٦٧٢ للهجرة (١٢٧٣ - ١٢٧٤).

تلقّى أبو عبدِ الله بنُ آجرّومَ علومَه في فاسَ ثمّ ذهب إلى الحجّ - وقدِ ٱستَوْفى عِلمَه، فيما يبدو - فقد ألّف « مُقدّمتَه » الجَروميّة (أو « الأُجرومية ») تِجاهَ الكعبة. و « المقدّمة » هذه هي أشهرُ كُتُبِ ٱبنِ آجرّومَ وأبعدُها أثراً. وجَلَسَ ٱبنُ آجرّومَ للتدريس في فاس يعلّم النحوَ والقراءات.

وكانت وفاةُ ٱبنِ آجرّومَ في فاسَ في صَفَرَ من سَنَةَ ٧٢٣ (شباط - فبراير ١٣٢٣ م).

٢- كان أبو عبدِ الله بنُ آجرّومَ بارعاً في النحو وفي القراءات وعارفاً بفنونٍ أُخرى من العلم كالفرائض والحساب والأدب. وكانت له أراجيزُ ومصنّفاتٌ، له: فرائدُ المَعاني في شَرْحِ حِرْزِ الأَماني[١] - المقدّمة الأجرومية.

ومَعَ أن السُّيوطيُّ قد قال (بغية الوعاة ١٠٢، السطر ٤ من أسفل): وله معلوماتٌ

---

(١) للإمام الشاطبي (ت ٥٩٠ هـ) - راجع الجزء الخامس.

من فرائضَ (تقسيم الإرث) وحسابٍ وأدبٍ بارع »، فليس من الواضحِ أن البيتينِ اللذين نَسَبَهُا المقَّرَيُّ (نفح الطيب ٥: ٩٥-٩٦) إلى ابنِ آجرّومَ، وهما:

يا غائباً كان أُنسي رَهْنَ طلعتهِ، كيف آصطباري، وقد كابدْتُ بَيْنَهما

دعوايَ أنّك في قلبي يُعارضُها شَوْقي إليك، فكيف الجمعُ بينَهما؟

أنها لأبي عبدِ الله بنِ آجرومَ، كما تُوهِمُ الحاشية التي عَلّقها إحسانُ عبّاس (ص ٩٥)وقال فيها: « المشهورُ بهذا الآسم هو محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ داوودَ الصنهاجيُّ (ت ٧٢٣)، وهو نَحْوِيٌّ، وله في النحو مؤلَّف سُمِّيَ الأَجرومية ». ولعلَّ هذين البيتينِ لِمنديلِ بن آجرّوم ابنِ صاحبِ الأجرومية، فهُوَ شَاعِرٌ غَيْرُ مُقِلٍّ. ولقد رَوَى له المقّريُّ بيتينِ آخرينِ أكثرَ طلاوةً (نفح الطيب ٥: ٤١٨) ثمّ أوردَ له أيضاً قصيدةً (نفح الطيب ٧: ١٢٣ - ١٢٥). ولمنديل هذا (ت ٧٧٣ هـ) ترجمة في هذا الجزء.

أمّا في النحو خاصّةً، فإنّ أبا عبدِ اللهِ محمّدَ بنَ آجرّومَ من أتباعِ المذهب الكُوفيّ، فقد قال السُّيوطيُّ (بغية الوعاة ١٠٢): « ...... إنّا آستفَدْنا من مُقَدِّمَتهِ أنه كان على مذهبِ الكُوفِيّينَ في النحو، لأنّه عبّـرَ بالخَفْضِ[٢]- وهو عِبارتُهم. وقال الأَمرُ مجزومٌ[٣]، وهو ظاهر في أنّه مُعْرَبٌ[٤]، وهو رأيُهم. وذَكَر في الجوازمِ « كيفما »، والجَزْمُ بها رأيُهم: وأنكره البصريّون ».

وقد كان للأُجروميّة على إيجازها، شهرةٌ كبيرةٌ في المَشْرق والمَغْرِب، فقد صَنَعَ النحاةُ عليها نحوَ ستّينَ شَرْحاً، كما أنَّها قد عُرِفَتَ في الغَرْبِ (في أُوروبا) منذ القرن العاشر للهِجرة (السادسَ عَشَرَ للميلاد) ونُقِلَتْ إلى مُعْظم اللُّغات الأَوروبيّة، ولها في اللاتينية وحدَها ثلاثة نقول[٥].

---

(١) بينهما = مثنّى « بين » (فراق، بعاد). هما (في « بينهما ») ضمير يرجع إلى « طلعته » وإلى « اصطباري ».

(٢) عبّر بالخفض (كما يقول الكوفيّون) بدل الجرّ.

(٣) وقال في فعل الأمر إنّه مجزوم (وهو قول الكوفيّين)، بينما هو عند غيرهم « مبني على السكون ».

(٤) ... ولأنّ ابن آجرّوم قال في فعل الأمر إنّه « مجزوم »، فقد دلّ ذلك على أن ابن اجرّوم يقول في فعل الأمر إنّه معرب (كما يقول الكوفيّون).

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٦٩٧، أعلى العمود الأيمن.

٣- مختارات من آثاره

- من متن الأجرومية:

★ الكلامُ ★ الكلامُ هو اللفظُ المُركّبُ المُفيد بالوَضْعِ [١]، وأقسامُه ثلاثةٌ: آسْمٌ وفِعلٌ وحرفٌ جاء لمعنًى[٢]. فالآسْمُ يُعْرَفُ بالخَفْضِ والتنوينِ ودُخولِ الألف واللام وحروفِ الخفض، وهي: مِنْ والى وعن وعلى وفي ورُبّ والباء والكاف واللام؛ وحروفِ القَسَمِ، وهي: الواو والباء والتاء. والفِعْلُ يُعْرَفُ بقَدْ والسين وسوف وتاء التأنيث الساكنة. والحرفُ ما لا يصلُحُ مَعَهُ دليل الآسمِ ولا دليلُ الفعل[٣].

★ الأعراب★ هو تغييرُ أواخرِ الكَلِمِ لآختلافِ العواملِ الداخلة عليه لفظاً أو تَقْديراً[٤]. وأقسامُه أربعة: رفعٌ ونصبٌ وخَفْض وجَزْم. فللأسماءِ من ذلك الرفعُ والنَّصْبُ والخفض، ولا جَزْمَ فيها. وللأفعالِ من ذلك الرفعُ والنَّصْب والجزم، ولا خَفْضَ فيها.....

---

(١) اللفظ هو الصوت المشتمل على عدد من الحروف. المركّب (المؤلّف، المجموع إلى غيره) فلا يكون اللفظ كلاماً (جملة تامّة) إلّا إذا كان مؤلّفاً من كلمتين فأكثر (إلا إذا كان في الفعل ضمير مستتر وجوباً، نحو « قم »). ويجب أن يكون الكلام مفيداً (يؤدّي معنًى مألوفاً) بالوضع (بحسب ما تواضع - أي اتّفق - عليه العرب: يجب أن تكون الجملة التامّة مركّبة من ألفاظ معروفة في اللغة العربية).

(٢) ... وحرف جاء لمعنى. الاسم والفعل يدلّان على معانٍ في نفسيهما (بيت، شجرة، اجتماع)، والحرف يدلّ على معنى في غيره (لا يثبت معناه إلا إذا قُرِنَ بغيره: هذان سعيد وسليم - جاء سعيد والسماء تمطر - ما شأنك والآخرين: فالواو في الجملة الأولى للعطف، وفي الجملة الثانية للحال، وفي الجملة الثالثة للمعيّة).

(٣) قوله: « الاسم يعرف بالخفض والتنوين ودخول اللام... والفعل يعرف بقد... والحرف ما لا يصلح معه دليل الاسم ولا دليل الفعل » إشارات ظاهرة يدركها العربي. أمّا غير العربي فلا ينتفع بها. إنّ كلمة « أحمد » مثلاً هي - في الأصل فعل مضارع للمتكلّم المفرد -. من أجل ذلك تدخل عليها قد والسين وسوف. ثمّ نقلت كلمة « أحمد » إلى اسم العلم فأصبح يدخل عليها الخفض، وتقبل التنوين (في ضرورة الشعر)، إلخ.

(٤) - إذا قلنا: لن يذهب سعيد إلى المدرسة، فإنّ « يذهب » و« سعيد » و« المدرسة » معربة لفظاً بالفتحة والضمة والكسرة على التوالي. أمّا إذا قلنا: يرجى من القاضي أن ينهى عن الظلم، فإنّ الفعل « يرجى » والاسم « القاضي » والفعل « ينهى » معربة تقديراً بالضمّة المقدّرة على الألف في « يرجى » (منع من ظهورها التعذّر: لفظ فتحتين في وقت واحد). والاسم « القاضي » معرب بالضمّة تقديراً (منع من ظهورها الثِّقَل: لاستثقال لفظ الضمّة الطارئة على الياء المسبوقة بكسرة أصلية).

المُعْرَباتُ قسمان: قِسمٌ يُعْرَبُ بالحَرَكات، وقسم يُعْرَبُ بالحُروف. فالذي يُعْرَبُ بالحَرَكات أربعة أنواعٍ: الآسْمُ المُفْرَدُ وجمعُ التكسير وجمعُ المؤنّثِ السالمُ والفعلُ المُضارعُ الذي لم يتّصل بآخرهِ شيءٌ؛ وكلُّها تُرْفَعُ بالضمّة وتُنْصَبُ بالفتحة وتُخْفَضُ بالكسرة وتُجْزَمُ بالسكون. وخَرَجَ عن ذلك ثلاثةُ أشياءَ: جمعُ المؤنّثِ السالمُ يُنْصَبُ بالكسرة والآسْمُ الذي لا يَنْصَرِفُ يُخفَضُ بالفتحة، والفعل المُضارع المعتلُّ الآخِرِ يُجْزَمُ بحَذْفِ آخرهِ. والذي يُعْرَبُ بالحروف أربعةُ أنواعٍ: التَّثْنِيَةُ وجمعُ المذكّرِ السالمُ والأسماءُ الخَمْسة والأفعالُ الخَمْسة وَهِيَ يَفْعلانِ وتفعلانِ ويفعلونَ وتفعلونَ وتفعلينَ. فأمّا التَّثْنِيَةُ فتُرْفَعُ بالألف وتُنْصَبُ وتُخْفَضُ بالياء. وأمّا جمعُ المذكّرِ السالمُ فيُرْفَعُ بالواو ويُنْصَبُ ويُخْفَضُ بالياء. وأمّا الأسماءُ الخمسةُ فتُرفَعُ بالواو وتُنصَبُ بالألفِ وتُخفَضُ بالياء. وأمّا الأفعالُ الخمسةُ فتُرفَعُ بالنّونِ وتُنصَبُ وتُجْزَمُ بحَذْفِها.

★ باب لا ★ اعلم أنَّ «لا» تَنْصِبُ النَّكِراتِ بغيرِ تنوينٍ، إذا باشرتِ النَّكِرةَ ولم تَتَكَرَّرْ «لا»، نحوَ: «لا رَجُلَ في الدار»[1]. فإنْ لم تُباشِرْها، وَجَبَ الرَّفْعُ وَوَجَبَ تكرارُ «لا»، نحو: «لا في الدار رجلٌ ولا امرأةٌ». فإذا تكرّرتْ جاز إعمالُها وإلغاؤها. فإنْ شِئْتَ قُلتَ: «لا رجلَ في الدارِ ولا آمرأةَ»، وإنْ شِئْتَ قُلتْ: «لا رجلَ في الدار ولا امرأةٌ»[2].

٤- المقدّمة (الأجروميّة):

إنّ قِصرَ هذه الرسالة (المقدّمة الأجرومية) قد سهّل شرحَها وطبعها. فالطَّبَعات التالية هي أمثلة من الطَّبَعات الكثيرة المختلفةِ الأماكن والسنينَ:

---

(١) لا: نافية للجنس. رجلَ: اسم «لا النافية للجنس» مبني على ما يُنصب به(هنا، على الفتحة). ومعنى الجملة: لا يوجد في الدار رجلٌ ولا أكثر من رجلٍ (لكن يمكن أن يوجد فيها نساء أو أطفال أو حجارة). أمّا إذا قلنا: لا رجلٌ (بضمّتين) في الدار، تكون لا هنا نافية للوحدة، فيكون المعنى هنا، إذن: ليس في الدار رجلٌ واحدٌ، بل فيها رجلانِ أو ثلاثة رجال أو أكثر (و«لا»، هنا، تعمل عمل «ليس»: لا كاذبٌ محموداً عند الله ولا عند الناس).

(٢) في الجملة: «لا رجلَ في الدار ولا امرأةَ» (الواو: حرف عطف، امرأة: معطوفة على رجل، فهي أيضاً اسم للحرف «لا» النافية للجنس). أمّا إذا قلنا: «لا رجلَ في الدار ولا امرأةٌ (بضمتين على «امرأة»)، كانت الواو حرف عطف، وكانت «لا» حرف نفي عاديّ، وكانت «امرأةٌ» مبتدأ، وكان خبر امرأة مقدّراً يفسّره ما قبله: لا رجل في الدار، ولا امرأةٌ في الدار).

- ليدن ١٦١٧ م (١٠٢٦ هـ)؛ روما ١٥٩٢ م (١١٠٢ هـ)، ١٦٣١ م؛ بولاق ١٢٣٩ ، ١٢٥٢ ، ١٢٩٣ هـ؛ كامبردج (بريطانية) ١٨٣٢ م (١٢٤٨ هـ)، ١٨٥٢ م؛ بيروت ١٨٤١ م (١٢٥٧ هـ)، ١٨٥٧ ، ١٨٧٤ ، ١٨٨٦ م؛ باريس ١٨٤٤ م (١٢٦٠ هـ)؛ الجزائر ١٨٤٦ م (١٢٦٤ هـ)، ١٨٦٠ ؛ الجزائر ١٢٨٣ هـ؛ القاهرة (حجر) مراراً؛ القاهرة ١٢٧٣ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٨ هـ؛ القاهرة (في مجموع) ١٢٧٦ ، ١٢٩٧ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٦ هـ؛ جونية (لبنان) ١٨٦٦ م (١٢٨٣ هـ)؛ الهند ١٨٥٣ م (١٢٧٠ هـ)؛ منشن (ألمانية) ١٨٧٦ م (١٢٩٣ هـ)؛ القدس ١٨٧٦ م (١٢٩٣ هـ)؛ دمشق ١٣٠١ هـ؛ في مجموع: الرسائل العلمية التسع، دمشق (مطابع الفكر الإسلامي) ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ م؛ مكة المكرّمة ١٣١٤ هـ؛ مصر (المطبعة الميمنية) ١٣٣٣ هـ؛ فاس (طبع حجر) ١٣٤٥ هـ؛ مختارات برونو وفيشر (بألمانية) (ص ١٧١ - ١٨٣)؛ متن الأجروميّة في علم العربية، القاهرة (المكتبة التجارية) بلا تاريخ.

★★ شروح وحواش على متن الأجرومية:

- شرح الأجرومية، لشارح مجهول، بولاق ١٢٤٢ هـ.
- شرح المكّوديّ، أبو زيد عبد الرحمن بن صالح (ت ٨٠١ هـ)، تونس ١٢٩٢ ؛ القاهرة ١٣٠٤ ، ١٣٤٥ هـ؛ القاهرة (مطبعة عبد الرازق) ١٣٠٩ هـ.
- شرح الأزهري، خالد بن عبد الله (ت ٩٠٥ هـ)، بولاق ١٢٥١ ، ١٢٥٩ ، ١٢٧٤ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨٤ ، ١٢٩٠ هـ؛ القاهرة ١٢٦٢ ، ١٢٦٥ ، ١٢٨١ هـ؛ بهامش حاشية أبي النجا، ١٣٠٤ هـ؛ ثم ١٣١٢ ، ١٣١٩ هـ. فاس ١٣١٥ هـ.
- شرح الخطّاب الرعيني، جمال الدين محمّد بن محمّد بن عبد الرحمن (ت ٩٥٤ هـ)، بولاق ١٢٩٥ هـ؛ القاهرة ١٢٩٨ ، ١٣٠٢ هـ.
- شرح ابن جبريل، زين الدين (ت نحو ١٠٥٤ هـ)، (تحرير دلفين)، باريس ١٨٨٥ م (١٣٠٢ هـ)، الطبعة الثانية ١٨٨٦ م.
- شرح الكفراوي، حسن بن عليّ (ت ١٢٠٢ هـ)، بولاق ١٢٤٢ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ (؟)، ١٢٥٢ ، ١٢٥٧ ، ١٢٦٢ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٩ هـ؛ القاهرة (المطبعة الكاستيلية) ١٢٨٠ ، ١٢٩٨ هـ؛ القاهرة (مطبعة المعارف المصرية) ١٢٨٦ هـ؛ القاهرة (المطبعة الحسينية) ١٢٩٦ هـ؛ القاهرة (مطبعة عثمان عبد الرازق) ١٣٠١ هـ؛ القاهرة (المطبعة الشرفية) ١٣٠١ هـ؛ القاهرة (المطبعة الأزهرية) ١٣٠٢ هـ؛ القاهرة (المطبعة الخيريّة) ١٣٠٣ هـ؛ القاهرة (المطبعة الميمنية) ١٣٠٥ ، ١٣١١ هـ؛ القاهرة ١٢٩٢ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٣٠٦ ، ١٣١٤ هـ.

- حاشية أبي النجا الطنتداعي، محمّد مجاهد (أُلِّفَتْ نحو ١٢٣٣ هـ)، القاهرة ١٢٨١ ، ١٢٨٤ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٤٢ ، ١٢٤٤ هـ؛ تونس ١٢٨٤ هـ.
- شرح الباجي (البيجي) المسعودي، أبو عبد الله محمّد (ت ١٢٩٧ هـ)، راجع سركيس (معجم =

= المطبوعات العربية) ص ١٧٤٤.
- شرح أحمد بن زيني دحلان (ت ١٣٠٤ هـ)، القاهرة (المطبعة الشرفية) ١٢٩٧، ١٣١١؛ القاهرة (مطبعة محمّد مصطفى) ١٢٩٩ هـ؛ القاهرة (مطبعة شرف) ١٣٠١ هـ؛ القاهرة (المطبعة الميمنيّة) ١٣٠٥، ١٣٠٦ هـ؛ القاهرة ١٣٠٤، ١٣٤٤ هـ، مكة ١٣١٤ هـ.
- شرح العجيمي، عبد الله بن عثمان (أتمّها سنة ١٣٠٧ هـ)، مكّة ١٣١٣ هـ؛ القاهرة ١٣٤٦ هـ.
- عوائد الصلة الربّانيّة لعبد الرحيم السيوطيّ (ت ١٣٤٢ هـ)، القاهرة ١٣٣٥ هـ.
- شرح (متن) الأجرومية لهاشم بن الشحّات الشرقاوي، القاهرة (المطبعة الميمنية) ١٣٢٦ هـ.
- شرح العشماوي، عبد الله بن فاضل، بولاق ١٢٨٧ هـ؛ القاهرة ١٢٩١، ١٢٩٨، ١٣٠٢، ١٣٠٤؛ القاهرة (المطبعة العلمية) ١٣١٠؛ ١٣٤٤ هـ؛ راجع أيضاً سركيس (معجم المطبوعات العربية)، ص ١٣٢٩.
- شرح النووي: «كشف المروطيّة عن ستار الأجروميّة»، لمحمّد عمر النوويّ، القاهرة (مطبعة شرف) ١٢٩٨ هـ؛ القاهرة ١٣٢٦، ١٣٤٢ هـ.
- شرح القادر (؟) الفاسي علي مقدّمة الأجروميّة....

★★ شروحٌ وحواشٍ على شروحٍ وحواشٍ:

(أ) على شرح الشيخ خالد بن عبد الله الأزهري (ت ٩٠٥ هـ):
- حاشية أبي النجا محمّد الطنتداعي (فَرَغَ من تأليفها سنة ١٢٢٣ هـ)، بولاق ١٢٨٤ هـ؛ (تحرير كارلتي)، تونس ١٢٩٠ هـ؛ القاهرة ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣١٢ هـ؛ القاهرة (المطبعة العلمية) ١٣١٧ هـ؛ القاهرة ١٣٢٠هـ، ثمّ طبعات أخرى.
- حاشية حسن العطّار (ت ١٢٥٠ هـ)، القاهرة (المطبعة الميمنية) ١٣٠٧ هـ؛ القاهرة (المطبعة الخيرية) ١٣٠٧ هـ أيضاً؛ القاهرة (المطبعة العلمية) ١٣١٥ هـ.

(ب) على شرح حسن بن عليّ الكفراوي (ت ١٢٠٢ هـ):
- حاشية إسماعيل بن موسى الحامدي (ت ١٣١٦ هـ)، بولاق ١٢٩٠ هـ؛ القاهرة (المطبعة الكاستيلية) ١٢٨٠، ١٢٨٣ (؟)، ١٢٩٨ هـ؛ مصر ١٣٠٤ هـ؛ القاهرة (المطبعة الميمنية) ١٣١١ هـ؛ القاهرة ١٣١٤ هـ.
- فوائد الطريف والتالد، لعبد الرحيم بن عبد الرحمن الجرجاوي (ت ١٣٤٢ هـ)، القاهرة ١٣١٨ هـ.
- حاشية أحمد بن محمّد الحاجّ، فاس ١٣١٥ هـ (؟).
- منحة الكريم الوّهاب وفتح باب النحو للطلّاب = حاشية لأحمد بن أحمد النجاري الدمياطي (ت بعد ١٣٠٩ هـ)، بولاق (بهامش شرح الكفراوي) ١٢٤٨ هـ؛ ١٢٨٢، ١٢٩١، ١٢٩٢ هـ (؟).

(جـ) متفرّقات:

- الكواكب الدّريّة في شرح منمنمة الأجروميّة للخطّاب (؟)، تأليف محمّد بن أحمد بن عبد الباري الأهدل (ت ١٢٩٨ هـ)، بولاق ١٣١٢ هـ؛ القاهرة (مطبعة محمّد مصطفى) ١٣١٢.
- حاشية على شرح النووي (؟) للأجروميّة، لمحمّد معصوم بن سليم السمراني، القاهرة ١٣٢٦، ١٣٤٢ هـ.
- شرح (متن) الأجروميّة، لهاشم بن الشّحات الشرقاوي، وعليه تقييدات وجيزة وشروح لما يجب التنبيه عليه عزيزة، القاهرة (المطبعة الميمنية) ١٣٢٦ هـ.
- حاشية على شرح أبي العبّاس أحمد بن محمّد السوداني على مقدّمة ابن آجرّوم، تأليف محمّد المَهْدي بن محمّد الوزّاني، فاس ١٢٩٨ هـ.
- تقريرات على حاشية أبي النجا على شرح الأزهري على الأجرومية، تأليف محمّد بن محمّد الأنبابي (ت ١٣١٣ هـ)، القاهرة ١٢٨١، ١٣٠٢، ١٣١٩ هـ.
- الدّرّة البهيّة في نظم الأجروميّة ليحيى بن نور الدين العمريطي (ت بعد ٩٨٩ هـ)، لكنهو (الهند) ١٢٦٠ هـ؛ كاونبور (الهند، «في مجموع» طبع حجر) ١٢٩٠ هـ؛ القاهرة ١٢٨٧ هـ، ١٣٠٢، ١٣٠٩، ١٣٤٤ هـ؛ مع حاشية الباجوري ١٢٩٧ هـ.
- المنظومة السّنّية لِمَا يُسمّى متن الأجرومية، لعلي بن عبد الله المسرّاتي الطرابلسي (الليبي)، مصر (مطبعة شرف - طبع حجر) ١٣٠٧ هـ.

بغية الوعاة ١٠٢ - ١٠٣؛ شذرات الذهب ٦ : ٢٦؛ نفح الطيب ٧ : ١٢٧؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٦٩٧؛ بروكلمن ٢ : ٣٠٨ - ٣١٠، الملحق ٢ : ٣٣٢ - ٣٣٥؛ الأعلام للزركلي ٧ : ٢٦٣ (٣٢)؛ سركيس ٢٥ - ٢٦؛ النبوغ المغربي ٢١٠.

ابن الفخّار الجذامي النحوي

١ - هو أبو بكرٍ (أو أبو عبدِ الله) محمّدُ بنُ عليٍّ بنِ محمّدٍ البيريّ (الإلبيريّ) النَّحْويّ الجُذاميّ المالَقيّ الشرَيشيّ، وُلِدَ في أَرْكُش (بُليدةٍ قُربَ شَريشَ على وادي لَكُّه)، نحو سَنَةِ ٦٣٠ (١٢٣٢ - ١٢٣٣ م) وفيها نشأ. وقد تَطَوّف في بُلدانٍ كثيرةٍ وتلقّى العلمَ عن رجالها[1]: استولى الإسبانُ على أركُشَ سَنَةَ ٦٤٨ (١٢٥٠ م) فانتقل إلى شَريشَ.

(١) لم أذكر الأشخاص الذين أخذ عنهم ابن الفخّار لأنّ السيوطي (ت ٩١١) ذكر في بغية الوعاة أن من شيوخ ابن الفخّار (ت ٧٢٣) عليّ بن إبراهيم السكوني وأبا عبد الله بن خميس (٦٢٥ - ٧٠٨ هـ) وأبا الحسين بن أبي الربيع (ت ٦٨٨) والأبّذي وابن الصائغ (٧١٠ - ٧٦٦ هـ) وأبا عمر بن حوط الله أو حوطلّه (٥٤٣ - ٦١٢ هـ). وعدد من هؤلاء، كما يتّضح من تاريخ وفياتهم لا يمكن أن تتّسق حياتهم مع حياة ابن الفخّار.

واستولى الإسبان على شريشَ، سنة ٦٦٣ (١٢٦٤ م) فانتقل إلى الجزيرة الخضراء. وحُوصِرَتِ الجزيرةُ الخضراء، سَنَةَ ٦٧٧ (١٢٧٨م)، ولكنّ الأندلسيين وأحلافَهم المَرينيّين استطاعوا إبادَةَ الأسطول الإسباني. وزارَ سَبْتَةَ في العُدْوةِ الإفريقية، ثُمّ استوطن مالَقَةَ وتصدّرَ فيها للإقراء، وظلّ يُقرىء فيها إلى وفاتِهِ، سَنَةَ ٧٢٣ (١٣٢٣ م).

٢- كان ابنُ الفَخّارِ الجُذاميُّ عالماً بالقراءاتِ والتفسير وبالفِقهِ والحديث والأدب، وكان الآيةَ الكُبرى والإمامَ المُجْمَعَ على إمامته في فنّ العربية (النحو) المفتوحَ عليه من الله حِفْظاً واطّلاعاً ونَقْلاً وتَوْجيهاً بما لا مطمعَ فيه لِسواه (نفح الطيب ٥: ٦٠٤، ٧: ١٦٥)، وكان شيخَ النَّحْويّين لعهدِه وسِيبويهِ زمانهِ (نفح الطيب ٥: ٧٥، ٣٨٣). وله شِعْرٌ عليه جفافُ شِعرِ العُلماء. وله من التآليف: تفسير (سورة) الفاتحة - شرح الرسالة (في الفقه المالكي) - شرح مشكلات سيبويه - الردّ على مَنْ نسب رفع الخبر بـ «لا» إلى سيبويه - تحريم الشِّطرنج، وغيرها.

٣- مختارات من آثاره

- قال ابن الفخّار الجذامي النحوي في الوصف:

انظُرْ إلى وَرْدِ الرِّياضِ كأنّه ... ديباجُ خدٍّ في بَنانِ زَبَرْجَدِ[1].
قد فَتّحتْه نَضارةٌ فبدا له ... في القلب رَوْنَقُ صُفْرةٍ كالعَسْجد.
حَكَتِ الجوانبُ خدَّ حِبٍّ ناعم، ... والقلبُ يَحْكي قلبَ صَبٍّ مُكْمَد[2].

- ولابن الفخّار نص نحوي (نفح الطيب ٥: ٣٥٥-٣٥٦):

وَزْنُ «إجازة» في الأصل إجوازة فأُعِلّتْ بِنَقْلِ حركةِ الواو إلى الجيم حَمْلاً على الفعل الماضي آستثقالاً[3]. فتحرّكتِ الواوُ في الأصل وانفتحَ ما في اللفظ فصارت

---

(١) البنان جمع بنانة: إصبع (او عقدة الإصبع). زبرجد: حجر كريم أخضر. بنان زبرجد: أطراف الكأس (في الزهرة) الغلاف الأخضر الذي يغلّف الزهرة قبل تفتّحها.

(٢) الحِبّ (بالكسر): المحبوب. الصبّ: المحبّ.

(٣) جذر هذا الفعل «جوز»، استثقل العرب لفظه فقالوا: جاز. وكذلك صيغة إفعالة يجب أن تكون: =

«إجازة- بألفين- فحُذِفَتِ الألفُ الثانية عندَ سِيبوَيْهِ لأنّها زائدةٌ، والزائدُ أولى بالحذف من الأصلي[1]. وحُذِفَتِ (الألف) الأولى عند الأخفش لأنّها تدُلُّ على معنًى، وهو المَدّ. وقولُ سِيبَوَيْهِ أوْلى لأنه قد ثَبَتَ عِوَضُ التاء من المحذوف في نحوِ «زنادقة»[2]، وتَعْويضُ الزائدِ من الزائدِ أوْلى من تعويضِ الزائدِ من الأصليّ للتناسب. ووَزْنُها في اللفظِ عند سيبويهِ إفْعِلَة، وعند الأخفش إفالة، لأنّ العين محذوفة[3].

٤- ★★ الكتيبة الكامنة ٧٠-٧١؛ بغية الوعاة ٨٠؛ درّة الحجال ٢: ٨٣-٨٦؛ نفح الطيب ٥: ٧٥، ٣٥٥-٣٥٦، ٣٧٨-٣٨١، ٦٠٤؛ الأعلام للزركلي ٧: ١٧٥ (٦: ٢٨٤).

العَبْدري صاحب الرحلة

١- هو أبو محمّدٍ محمدُ بنُ محمدِ بنِ عليٍّ بنِ أحمدَ بن مسعود (أو سعود) البلنسيُّ الشهيرُ بابنِ المعلم؛ لا نَعْرِفُ من أحداثِ حياته إلا ما أشار إليه هو في ثنايا «رحلته» التي كان قد بدأها من بلاد قبيلةِ حاحةَ (في المغرب) في الخامسِ والعشرينَ من ذي القَعْدةِ من سنة ٦٦٨ (١١/١٢/١٢٨٩ م). وقد سَمِعَ في أثناءِ رِحلته من نَفَرٍ من العلماء منهم في تُونِسَ الحاضِرةِ عبدُ الله بن هرون الطائيُّ، كما تسلّم فيها الخِرقة من الشيخ أبي محمدٍ عبدِ

= «إجوازة»، وقد وجدها العرب ثقيلة على اللفظ أيضاً فعاملوها معاملة الفعل الماضي وقالوا «إجازة».

(١) في فقه اللغة (فلسفة النحو): إجوازة تصبح بقلب الواو ألفاً (لمناسبة حركة الجيم في الفعل جوز): «إجازة (الألف الأولى مقلوبة عن واو إجوازة، والألف الثانية من أصل الصيغة أفعالة). وكان سيبويه (ت ١٨٠ هـ) يرى أنّنا حذفنا الألف الأولى المقلوبة عن الواو (لأنّ هذه الألف زائدة: ليست من أصل الصيغة). أمّا الأخفش (الأصغر؟: أبو الحسن المتوفّى ٣١٥ هـ) فيرى أن الحذف يجب أن يتناول الألف الثانية (وإن كانت أصلية في بناء صيغة إفعالة) لا الألف الأولى (وإن كانت غير أصلية) ذلك لأنّ هذه الألف الأولى الزائدة ضرورية لأنّها تقرّر حركة الجيم.

(٢) زنديق تجمع على زناديق (مثل: تلميذ: تلاميذ، وأستاذ: أساتيذ) وقد تحذف الياء الزائدة في المفرد «زنديق»، ويُجعل مكانها تاء زائدة (في الجمع) فتصبح زنادقة مثل تلامذة وأساتذة ومقاتلة إلخ.

(٣) عين الفعل هي الحرف الثاني في جذر الفعل الثلاثي: فعل. ففي جاز (وأصلها جوز) تكون عين الفعل هي الواو.

اللهِ بن يوسُفَ الأندلسي. وسمع في القيروانِ من أبي زيدٍ عبدِ الرحمن بن .... الأشدي. ثم سمع (في مِصْرَ) من شرف الدين الدُمياطي وابن دقيق العيدِ وزين الدين بن المُنيِّر. ولا يَبْعُدُ أن تكون وفاته نحو سنة ٧٢٥ (١٣٢٥ م). ويبدو أنه قد قضى جانباً كبيراً من حياته في المغرب حتى عُرِفَ أيضاً باسم « الحيحى » (نسبة إلى حاحة) وحتى كان ميله إلى المرينيّين أصحاب المغرب الأقصى أكثر منه إلى بني عبد الواد أصحاب المغرب الأوسط.

٢ - للعبدريّ « رِحلةٌ » عُنوانُها « مَلْءُ العَيْبة فيما آجتمع بطول الغَيْبة في الرِّحلة الى مكّةَ وطَيْبة « أو » ما سما إليه الناظر المُطْرِق إلى بلاد المَشْرِق. وتُعرَف عادةً بآسم « الرِّحلة المَغربيّة ».

هذه « الرحلة » قليلة الابتكار قليلة الفوائد الجغرافية فقد أخذ العبدري كثيراً من أوصاف البلدان عن الجغرافيين المتقدمين، إلَّا أنه يصف البلدان التي مرّ بها من النواحي العمرانية والاقتصادية والعلمية ثم يعرّف عدداً من علماء القرن السابع ومن أدبائه ويورد أشياءَ من نتاجهم مَعَ شيء من النقد. وكان جُلُّ اهتمامه بحال الثقافة والتدريس وخصوصاً في المغرب.

٣ - مختارات من آثاره

- من مطلع الرحلة:

..... وبعدُ: فإنّي قاصدٌ، بعدَ استخارَةِ اللهِ سُبحانَه، تَقْييدَ ما أمْكَنَ تَقْييدُه ورَسْمَ ما تَيَسَّرَ رسمُه وتسويدُه مِمَّا سَما إليه الناظرُ المُطْرِقُ في خبر (؟) الرِّحلةِ إلى بِلادِ المَشْرِق مِنْ ذِكْرِ بعضِ أوصافِ البُلدانِ وأحوالِ مَنْ بها مِنَ القُطَّانِ حَسْبَما أدركَه الحِسُّ والعِيانُ وقام عليه بالمُشاهدةِ شاهدُ البرهانِ مِنْ غيرِ تَوْرِيَةٍ ولا تَلْويحٍ، ولا تَقْبيحِ حَسَنٍ ولا تحسينِ قبيحٍ، بلَفْظٍ قاصدٍ لا يُحْجِمُ مُفرداً ولا يَجْمَحُ فيتعدَّى المَدى، مُسَطِّراً لِما رأيتُه بالعِيان ومُقرّراً له بأوضحِ بَيانٍ حتّى يكونَ السامعُ لذلك كالمُبصرِ وتلحَقَ فيه السَّبّابةُ بالخِنْصَرِ فتَشْفى به نفسُ المُتطلّعِ المُتشوِّفِ ويَقِفَ منه على بُغْيَتِهِ السائلُ المُتعرِّفُ. وأذْكُرُ مَعَ ذلك ما اسْتَفَدْتُه من خَبَرٍ وأُنْشِدْتُه من دُرَرٍ...... وأُثْبِتُ في خِلالِ ذلك من نَظْمي

ما يُغَلْغِلُ إليه الكلامُ..... وأُضيف إلى ذلك ما يَضْطَرُّ إليه التبيانُ فيما قصّرَ فيه العِيانُ مِنْ نُبَذٍ مذكورةٍ ونُتَفٍ مشهورةٍ ونُكَتٍ مرسومةٍ في الكُتُبِ مسطورةٍ تَتْميماً لِغَرَضِ التَقْييدِ وتعميماً لأَرَبِ المُستفيدِ حتّى يكونَ التأليفُ في بابِهِ مُغْنِياً وعنِ الافتقار إلى غيرِهِ مُستغنياً، مُثْبِتاً في كلّ رَسْمٍ بعضَ الأحاديثِ التي رَوَيْتُها والآثارِ التي وَعَيْتُها....

كانَ سَفَرُنا - تَقَبَّلَهُ اللهُ - في الخامسِ والعشرينَ من ذي القَعْدةِ عامَ ثمانيةٍ وثمانينَ وسِتِّمِائَةٍ، ومَبْدأُه من حاحةَ صانَها اللهُ....

- من طرابلس إلى تونس (ص ٦٩):

ثمّ وَصَلْنا إلى مدينة إطرابُلُسَ، وهي للجهل مأتَمٌ وما فيها للعلم عُرْس: أَقْفَرَتْ ظاهراً وباطناً وذَمّها الخبيرُ بها سائراً وقاطناً[١]. تلمعُ لقاصِدِها لَمَعانَ البرقِ الخُلَّبِ وتُريه ظاهراً مُشرقاً والباطنُ قد قَطَّبَ، اكْتَنَفَها البحرُ والقَفْر، واستَوْلى عليها - من عُرْبانِ[٢] البّرِ ونصارى البحر - النِّفاقُ والكُفْر..... لا ترى فيها شجراً ولا ثمراً، ولا تخوضُ في أرجائها حَوْضاً ولا نَهراً. ليس على ناشئٍ منهم فضلٌ لذي شَيْبَةٍ ولا لذي الفَضْل بَيْنَهم هيبة: ترى أجساماً حاضرةً والعقلُ في عَقْلٍ[٣].. غَيابات الغَيْبة..... وأهلُ تُونِسَ في طَرَفَيْ نقيضٍ: أُولئك في الأَوْجِ وأُولاءِ في الحضيض. ولم أَرَ بها ما يروقُ العيونَ وسَما عن أن يُقَوَّمَ بالدون، سوى جامِعها ومدرستِها، فإنّ لهما من حُسْنِ الصورةِ نصيباً ومن إتقانِ الصَّنْعة سهماً مُصيباً. وما رأيت في الغَرْبِ مثلَ مدرستِها المذكورةِ لولا أنّ محاسِنَها مقصورةٌ على الصورة، فما يَشِبُّ بها للعلم طِفْلٌ ولا يَحِجُّ صَرورةٌ[٤]..... وقد حَضَرْتُ بها تدريسَ الشيخِ المُسِنِّ القاضي الخطيبِ أبي محّمدِ بنِ عبدِ السيّد[٥] - وهو بيتُ قصيدِهم وكَبْشُ كَتيبتِهم[٦] وواسِطةُ قِلادَتِهِمْ

(١) سائراً (مارّاً، مسافراً) وقاطناً (ساكناً في البلد).

(٢) العُربان: العُربون (ما يدفعه المشتري مقدّماً لحفظ حقّه في السلعة المطلوبة) - راجع تاج العروس (الكويت) ٣: ٣٢٧، العمود الثاني، السطر الثامن ثمّ ٣٥٠ في أسفل العمود الأوّل، ثمّ ٣٥١، العمود الأوّل، السطر ١٣. والناس يقولون: عُربان (بمعنى الأعراب، البدو).

(٣) العقل: القيد، الرباط. الغيابة (بالفتح): القعر.

(٤) الصرورة: الذي لم يتزوّج ولم يحجّ.

(٥) ابن عبد السيّد........

(٦) كبش الكتيبة الخ: أكبر الرجال في قومه وأشهرهم وأقواهم الخ.

وأنفُ سِيادتِهِمْ، ذو سَمْتٍ ووَقارٍ، وقد أثَّرَ الكِبَرُ في جِسمِه، كثيرُ المواظبةِ للمسجد والذِّكْر، خيِّرٌ في دينه - وما كُنْتُ آتِيهِ بعدَ ما رأيتُه إلّا بقصدِ الدُعاءِ لأنّه ضيّقُ الخُلُقِ لَيِّنُ النظرِ وفي لِسانه حَبْسةٌ لا يكادُ يُفْهَمُ معَها. وقدِ استَفْرَغتُ جُهدي وقتَ إقرائهِ وفي تَفَهُّمِ ما يقول فما فَهِمْتُه إلّا بعدَ مُدّةٍ. وأظُنُّه لا رِوايةَ له. فإنّي سألْتُه عن ذلك فأبْهَمَ جوابَه وتَنَمّر. وحاولتُ مُداخلتَه فصدّني عن ذلك بشَكاسَتِه وجَهامةِ لِقائه....

٤- الرحلة المغربية (حققها محمد الفاسي)؛ الناشر: جامعة محمد الخامس (الرباط) ..... ١٩٦٤ م؛ (حققها ..... ابن جدّو .....)....

★★ جذوة الاقتباس (فاس) ١٩٩؛ درة الحجال ١: ١٢٤؛ تاج العروس (الكويت) ٣: ٣٧٩؛ نفح الطيب ٢: ٤٨٣، ٥٨٩؛ العربي (أكتوبر ٦٩) ص ١٤٢؛ نيل الابتهاج ٦٨؛ بروكلمن ١: ٦٣٤، الملحق ١: ٨٨٣؛ دائرة المعارف الإسلامية ١: ٩٦.

ابن عذاري المرّاكشيّ

١- هو أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ عِذاري، أصلُه من الأندلسِ وسَكَن مَرّاكُشَ وكان قائدَ فاسَ (حاكَمها)، تُوُفِّيَ نَحْوَ ٧٢٠ هـ (١٣٢٥ م).

٢- ابنُ عِذاري المَرّاكُشيّ مؤرِّخٌ حكيمٌ دَقيقٌ مُحِبٌّ للإيجازِ والتنسيقِ المَنْطِقي مَعَ تَقْييدٍ كاملٍ للحوادثِ في كتابهِ بتواريخها. له البيانُ المُغْرِبُ في اختصارِ أخبارِ ملوكِ الأندلُس والمَغرب[١]، كان لا يزال يعمَلُ فيه في سَنَةِ ٧١٢ هـ (١٣١٢ م). وله تاريخُ المَشْرق، ولكن لم يصل إلينا.

٣- مختارات من آثاره

- من مقدّمة «البيان المُغرب»:

..... وبعدُ - جعَلَنا اللهُ مِمّن نَظَرَ فاعتبر ووُعِظَ فازْدَجَرَ[٢] - فإنّ خَيْرَ ما شُغِلَتْ

(١) هذا هو العنوان المذكور في مقدّمة الكتاب.

(٢) ازدجر: رجع عن اقتراف الذنب.

به الأذكارُ والأفكارُ وتحدّثتْ مَعَهَ بالليلِ والنهار[1] حِفْظُ ما أفادَ من العلوم والأخبار. وإنّ خيرَ ما رَيّضْنا[2] به النفوسَ البشريةَ مُجالسةُ العلماء والأخيارِ ومذاكرةُ الأدباء ذَوِي الهِمَمِ وعُلُوِّ المِقدار، ففي مُجالستهم ومُذاكرتهم ما يَسْحَرُ الذِّهْنَ ويُنوّر الأفكار. فإن فُقِدَتْ مُجالستُهم فلا عِوَضَ منها غيرُ كتابٍ يتّخذه (الإنسان) جليسَه ويَجِدُه في كلِّ وقتٍ أنيسَه.... وطلب بعضُهم إليّ - ممّن يَجِبُ إكرامُه عليّ - أن أجمعَ له كتاباً مُفرَداً في أخبار البلاد الغَرْبيّة[3] على سبيل الإيجاز والاختصار... فلم يُمْكِنّي التوقّفُ في ذلك ولا الاعتذارُ... فجمعتُ له في هذا الكتاب نُبَذاً ولُمَعاً من عيونِ التواريخ والأخبار ممّا أجْرى اللهُ به تصاريفَ الأقدار فيما مرّ من الأزمنة والأعْصار، في بِلادِ المَغْرِبِ وما والاها من الأقطار: جمعتُ ذلك من الكتب الجليلة مُقْتَضَباً من غير إسهاب ولا إكثار[4]. فاقتطفتُ عيونَها واقْتَضَبْتُ فنونها. ووصلتُ الحديثَ بالقديمِ، والقديمَ بالحديثِ، لأنّه إذا اتّصلَ يُسْتَظْرَفُ ويُسْتَحلى، كما قال بعضُهم:

وسَئِمْتُ كلَّ مآربي ... فكأنّ أطْيَبَها خبيثُ،

إلّا الحديثَ فإنّه ... عندَ اسمِه أبداً حديثُ[5]

.... ولمّا كَمُلَ ما قَيّدْتُه وجرّدته جَزّيْتُه على ثلاثةِ أجزاءٍ، كلُّ جزءٍ منها قائمٌ بنفسه ليكونَ لِمطالعهِ أوْضَحَ بيانٍ وأسهلَ مَرامٍ لدى العِيان. وسمّيته بالبيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب. أمّا الجزءُ الأوّلُ فاختصرتُ فيه أخبارَ إفْريقيَةَ من حينِ الفتحِ الأوّلِ إلى خِلافة أميرِ المؤمنينِ عُثمانَ بنِ عَفّانَ ثمّ أخبارَ أمرائها من وُلاةِ الخلفاء الأُمويّين ومَن دَخَلَ الغَرْبَ منهم ومن قام بإفْريقيَةَ.... إلى حينِ ابتداء الدولة اللَّمْتونية المُرابطية[6]. والجزءُ الثاني اختصرتُ فيه أخبارَ جزيرةِ

---

(١) «تحدّثت معه» قلقة هنا.

(٢) كذا في الأصل، والصواب: روّضنا (بالواو)، أي ذلّلناها، عوّدناها، مرّنّاها على...

(٣) البلاد الغربية: المغربية (بالإضافة إلى المشرقية).

(٤) اقتضب الكلام: قطعه. والمقصود هنا: اختصره. الإسهاب: الزيادة في الألفاظ من غير زيادة في المعاني.

(٥)

(٦) الغرب (إفريقية والأندلس). قام بأفريقية (حكمها). الدولة المرابطية (من بني لمتونة) قامت نحو سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م).

الأندلس وأمْلاكَها الغابرين الدُّرْسَ من حينِ الفتحِ الأوّلِ ثمّ مَن وَلِيَها مِنَ الأمراءِ للخُلفاء الأمويّين بالمشرق ثمّ مَنْ قام بها من العرب الفِهْريّين إلى حينِ دخولِ الخلفاء الأُمويّين[1] ومن قام عليهم من الثوّار الأندلسيّين... وذكرتُ فيه أخبارَ ملوكِ الطوائفِ بعدَ انقضاءِ دول الخلائف... وغيرَهم من الرؤساء الأندلسيّين، وكلٌّ ذلك إلى حينِ دُخول لَمْتونةَ إلى الأندلس سَنَةَ ٤٧٨. والجزء الثالثُ اختصرتُ فيه أخبارَ (ملوك) الدولةِ المُوحّدية... واستيلاءهم على (ممالك) أُمراءِ المَغْرب والأندلس... وذلك إلى حينِ انقراضِ الدولة المُرابطية وابتداء الدولة المُوحّدية ثمّ ما تَخَلّلَ بعدَ ذلك للمُوحّدين... وذكرتُ الدولةَ الحَفصيةَ... في البلاد الإفريقية والدولةَ الهُودية (والدولة) النَصْرية في البلاد الأندلسية، والدولةَ السعيدة المَرينية في البلاد الغَرْبية، اختصرتُ من ذلك كلّه ما اشْتَهَرَ أمرُه وأمْكَنَني ذِكْرُه... وذلك إلى انقضاءِ الدولة المُوحّدية واستيلاء الإمارة اليوسفية المَرينية على حَضرتِهِم المَرّاكُشية، وذلك على مُرورِ السنينَ إلى عامِ ٦٦٧....

٤- البيان المغرب: الجزء الأوّل والجزء الثاني (دوزي)، ليدن (بريل) ١٨٤٨-١٨٥١م؛ (كولان وليفي بروفنسال)، ليدن (بريل) ١٩٤٨-١٩٥١م؛ بيروت .... الجزء الثالث[2] (أ. ليفي بروفنسال)، باريز (بولس كتنر الكتبي) ١٩٣٠م؛ القسم الخاصّ بتاريخ الموحّدين (تحقيق أمبروسي هويسي ميراندا ومساهمة محمّد بن تاويت ومحمّد إبراهيم الكتّاني)، تطوان ١٩٦٠م؛ قطعة من تاريخ المرابطين ١٩٦٧م.

** دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٨٠٥-٨٠٦؛ بروكلمن ١: ٤١١-٤١٢، الملحق ١: ٥٧٧؛ الأعلام للزركلي ٧: ٣١٤ (٩٥)؛ سركيس ١٧٢.

ابن أبي زرع

١- هو، في الأغلبِ، أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمّدِ بنِ أحمدَ بنِ عُمَرَ بنِ أبي زَرْعٍ، كان من أهلِ فاسَ يحترفُ التوثيقَ فيها، وفيها تُوُفّيَ بعدَ ٧٢٦ (١٣٢٦م).

---

(١) الفهريّون: القرشيّون. يشير إلى النزاع في أيام يوسف الفهري (راجع فوق ٤: ٤٤-٤٥، ٤٨-٤٩) دخول الخلفاء الأمويّين، ابتداء من عبد الرحمن الداخل، سنة ١٣٨هـ (٧٥٦م).

(٢) حوادث هذا الجزء المطبوع تمتدّ من سنة ٣٩٢ إلى سنة ٤٥٧هـ (١٠٠٢-١٠٦٥م).

٢ - كان ابنُ أبي زَرَعٍ عَدْلاً في التوثيق كما كان مؤرخاً نزيهاً وَصَلَ إلينا منه « الأنيسُ المُطرِب بروضِ القُرطاس في أخبارِ ملوكِ المَغرب وتاريخِ مدينةِ فاس »، وهُوَ يتناولُ تاريخَ المغرب من قيام الدولة الإدريسيةِ (سَنَةَ ١٧٢ هـ) إلى سَنَةِ ٧٢٦؛ وقد أَلّفَهُ للسلطانِ أبي سعيدٍ عُثمانَ المَرينيِّ (٧١٠ - ٧٣١ هـ)، وكانَ أبو سعيدٍ هذا من أهلِ العلمِ والمعرفة. ويبدو أنّ ابنَ أبي زرعٍ قد غَرَفَ كثيراً من « البيان المُغرب » لابنِ عِذاري[١]. وكذلك وَصَل إلينا اسمَ كتابٍ آخرَ لابنِ أبي زرعٍ هو « زهرةُ البستان في أخبار الزمان ».

٣ - مختارات من آثاره

الحمدُ لله مُصرِّفِ الأمور بمشيئتهِ وتدبيره ومُسهِّلِ العسيرِ بتَوْفيقه وتَيْسِيره، ومُبْدِعِ الأشياء بحكمته وتصويره[٢]، خالقِ الخَلْقِ بقَدرته وباسِطِ الرِزْق بتقديره[٣]...

أما بعدُ - أطالَ اللهُ بقاءَ مولانا الخليفةِ الإمامِ مُعْلي الإسلامِ ورافعهِ ومُذَلِّلِ الكُفْر وقامعه[٤]... أبي سعيدٍ عثمانَ بنِ مولانا... أميرِ المسلمين أبي يوسفَ يعقوبَ بنِ عبدِ الحق[٥]... إني لمّا رأيتُ مكارمَ دَوْلتِه السعيدةِ مَقامَ سعادةٍ[٦] أطالَها الله وخلّدَها وأعْلى كَلِمَتَها وأيّدها[٧] تُنْظَمُ نَظمَ الجُمانْ وصُوَرَ إحسانِها تُتلى بكُلِّ لسان... أردتُّ خِدمةَ جَمالِها والتقرُّبَ إلى كمالها والتَّفيُّؤَ بظلالها والوُرودَ مِنْ عَذْبِ زُلالها[٨] بتأليفِ كتابٍ

---

(١) راجع بروكلمن، الملحق ٢: ٣٣٩، السطر السادس من أسفل. - ليس بين يديّ « روض القرطاس » لأقارن مادّته بمادّة « البيان المغرب ».

(٢) مبدع الأشياء: خالقها (من العدم). تصويره: اعطائه لها شكلاً مخصوصاً.

(٣) بسط الرزق (وسّعه) بتقديره (على ما أراد ممّا يجب).

(٤) قمع: ضرب بالمقمعة (بكسر أوّله): عصا من خشب أو حديدة رأسها معوجّ يضرب بها الحيوان ليسرع أو ليهدأ.

(٥) أبو عثمان سعيد بن يغمراسن بن زيّان سلطان من سلاطين بني عبد الواد في تلمسان (٦٨١ - ٧٠٣ هـ) وأبو يوسف يعقوب المنصور سلطان الموحّدين (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ).

(٦) مقام سعادة (مكان يسعد من يكون فيه أو يأتي إليه).

(٧) أيّدها: ساعدها وجعلها قويّة. الجمانة (بالضمّ) اللؤلؤة الكبيرة.

(٨) الورود (المجيء إلى الماء): الشرب. العذب: الحلو. الزلال: الصافي العذب. =

جامعٍ لطيفَ الأخبار[١] ومُلَحَ الآدابِ يحتوي على غُرَرٍ من التاريخ وعجائبه ونوادر الآثارِ وغرائبه يُخبِرُ بِنُبَذٍ من أخبار ملوك المغرب المتقدّمين وأُمرائه الماضين وأُمَمِهِ السالفين وتاريخِ أيامهم وذِكْرِ أنسابهم وأعمارهم وسِيَرِهِمْ وغَزَواتهم وأحوالِهم في دَوْلتهم وما رَسَموه بالمغرب من المراسم وصَنعوه من المصانع والمعالم وفتحوه من البلاد والأقالم[٢] وبَنَوْهُ من الحصون والمُدُن والمكارم... مِنْ أوّلِ دولةِ الأميرِ إدريسَ بنِ عبدِ الله الحَسَنيّ إلى هذا الأوان[٣]....

فألّفتُ هذا المجموعَ المُقْتَضَبَ انْتقَيْتُ جواهِرَه من كُتُبِ التاريخ المُعْتَمَدِ عليها وجَمَعتُ شوارِدَها عن مهاد المُعَوّل على مُحّتها[٤] والمرجوع إليها سوى ما رَوَيْتُه عن أشياخِ الحُفّاظ والكُتّاب وقَيّدته عن الرواة الثقات الأنجاب. وحَذَفتُ فيه الأسانيدَ خِيفةَ الإكثارِ والامتداد[٥]. وتركتُ التَسْهيبَ[٦] والتطويل، وتَجنّبتُ الاختصارَ والتقليل.

٤ - الأنيس المطرب بروض القرطاس.... (تورنبرغ)، أبسالا ١٨٤٣ - ١٨٤٦ م؛ فاس (طبع حجر) مراراً؛ فاس ١٣٠٣، ١٣٠٥، ١٣٠٧، ١٣١٣ هـ؛ (نشره محمّد الهاشمي الفيلالي)، الرباط ١٣٥٥ هـ=١٩٣٦ م.

★★ ابن أبي زرع، تأليف عبد الله كنّون، بيروت (دار الكتاب اللبناني)....
المكتبة العربية الصقلّية ٤٠٣ - ٤٠٤؛ النبوغ المغربي ٢١٢؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٦٩٤ - ٦٩٥؛ بروكلمن ٢: ٣١٢، الملحق ٢: ٣٣٩؛ الأعلام للزركلي ٥: ١٢١(٤: ٣٠٥)؛ سركيس ٣٢.

---

(١) لطيف مفعول به من «جامع».

(٢) المراسم: المراسيم (جمع مرسوم: طريقة الإدارة أو الحياة، الخطّة). المصنع: المكان يبنى لجمع الماء. المعلم: العلامة الواضحة (إشارة على الطريق والأبنية المشهورة). الأقالم: الأقاليم (مناطق الأرض).

(٣) ادريس بن عبد الله (الأوّل) أوّل ملوك الدولة الإدريسية في وليلي في المغرب الأقصى (١٧٢ - ١٧٧ هـ). الأوان: الزمان، الوقت.

(٤) مهاد المعوّل على محّتها (كذا في الأصل). المحّ: خاص كلّ شيء (النفيس منه): المادّة الصفراء في البيضة.

(٥) الأسانيد..... الامتداد (كذا في الأصل). اقرأ: الإسناد... الامتداد أو: الأسانيد والتمديد.

(٦) التسهيب: التطويل فيما لا حاجة إليه.

ابن الزّيات الكلاعي

١ - هو أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ الحسنِ بنِ عليٍّ الكَلاعيُّ المعروف بٱبن الزيّات، وُلِدَ في بَلِّش مالَقَةَ، في حدود سَنَة ٦٤٩ للهِجرة (١٢٥١ م).

تلقّى ٱبنُ الزّيّات الكَلاعيُّ العلمَ على نفرٍ كثيرين منهم خالُه الفقيهُ الحكيم أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ عليٍّ المِذحِجيّ، ومنهم عِياضُ بنُ محمّدِ بنِ عياضِ بنِ موسى، قرأ عليه بِبَلِّشَ وأجازَ عياضٌ له. وكذلك كان منهم أبو جعفرِ بنِ الزُّبير وأبو الحسنِ الصائغُ النحْويُّ وأبو الحسن بنُ أبي الربيع. وأخذَ ابنُ الزيّات طريقةَ التصوّف عن أبي الحسن فضلِ بن فضيلةَ وتأدَّبَ به.

ودخل ابنُ الزيّات الكَلاعيُّ غَرناطةَ مراراً لطلب العلم في أوّل أمره ثمّ للقيام بأمورٍ مختلفة عامّةٍ وخاصّةٍ، فقدِ ٱستدعاه السلطانُ مرّة[1].

وكانت وفاةُ ٱبنِ الزّيّات الكَلاعيِّ في بَلَدِه بَلِّشَ سَحَرَ يومِ الأربعاء في السابعَ عشَرَ من شَوّالٍ من سَنَة ٧٢٨ (١٣٢٨/٨/٢٥ م).

٢ - كان ابنُ الزيّات الكَلاعيُّ كريمَ الأخلاق مَعَ مُروءةٍ وتواضعٍ، كما كان كثيرَ العِبادة مُتَصوِّفاً. وقد كان أيضاً خطيباً وبارعاً في عددٍ من فنون المعرفة كالتفسير والحديث واللغة والنحو والشعر. وكان له كتبٌ كثيرة منها: لذّةُ (لذّات) السَّمَع من (في) القراءات السَّبْع - قُرّة عين السائل وبُغية نفس الآمل (أُرجوزة في اختصار السيرة النبويّة) - رَصْف نفائِس اللآلي في وصفِ عرائسِ المعالي (في النحو) - قاعدةُ البيان وضابطة اللِّسان (في النحو) - شرف المهارق في ٱختصار المشارق[2] - المقام المخزون في الكلام الموزون.

---

(١) كان في وفد حمل رسالة من سلطان غرناطة إلى ملك الإسبان (راجع نفح الطيب ٤: ٥١١، السطر الأوّل).

(٢) المهارق جمع مهرق (بضمّ فسكون ففتح) صحيفة بيضاء. المشارق: كتاب المشارق أو مشارق الأنوار للقاضي عياض بن موسى المتوفّى سنة ٥٤٤ هـ (راجع نفح الطيب ٢: ٢٣٢، ٦٦٥ على الأخصّ)، ٥: ٥٣٥، ٥٣٧. ثم ارجع إلى بروكلمن ١: ٤٥٧، الملحق ١: ٦٣٢)، وفيه: المشارق أو مطالع الأنوار على صحيح =

٣- مختارات من آثاره

- لأبي جعفرِ آبنِ الزيّات الكَلاعيّ في مذهبِ أهلِ التصوّف (الإحاطة ١ : ٣٠٢، الكتيبة الكامنة ٣٦):

دَعْني على حُكمِ الهوى أتضرّعُ، فعسى يَلينُ لِيَ الحبيبُ ويخشَعُ[١].
إنّي وجدْتُ أخا التضرُّعِ فائزاً بُمرادِه، ومِنَ الدُّعا ما يُسمَع.
فآمْحُ آسْمَ نفسِك طالباً إثباتَه، وآقْنَعْ بتفريقٍ لَعَلَّك تُجْمَع[٢].
وآخْضَعْ، فَمِنْ أدبِ المُحِبّ خُضوعُه. ولَرُبّما نالَ المُنى مَنْ يخضَع.

- وقال في توحيدِ الله، يجمَعُ بينَ أشياءَ من علمِ الكلام وأشياءَ من التصوّف، ثمّ جَعَلَ ذلك في خُطبة ألْغى منها حَرْفَ الألِفِ، على كَثْرة دَوَرانِ حرفِ الألف في الكلام (الإحاطة ١ : ٢٩٨ - ٢٩٢):

حَمِدتُ ربّي جلَّ من كريمٍ محمود، وشكرتُه عَزَّ من عظيمٍ موجود... كريم لو تَقَوَّمَ في فَهْمٍ لَحُدَّ[٣]،... لو فُهِمَتْ له كَيْفيّةٌ لَبَطَلَ قدَمُه[٤]، ولو عُلِمَتْ له كيفيّةٌ لَحَصَلَ عَدَمُه[٥]. ولو حَصَرَهُ طَرْفٌ لَقُطِعَ بتَجَسُّمِه[٦]... عظيمٌ من غيرِ تركُّبِ قُطْرٍ[٧]، عليمٌ من غيرِ ترتُّبِ فِكرٍ[٨]. موجودٌ من غيرِ شيءٍ يُمْسِكُه، معبودٌ من غيرِ وَهْمٍ يُدْرِكُه....

= (صحائح) الآثار (وهو كتاب للقاضي عياض في الألفاظ الغريبة في الحديث ممّا جاء في الموطّأ لمالك بن أنس وفي صحيح البخاري وصحيح مسلم).

(١) الحبيب (هنا) هو الله تعالى (في المدرك الصوفي)، ويمكن أن تعني عندهم «الرسول».

(٢) في التصوّف: امح آسمَك (شخصيّتك في العالم البشري) طالباً إثباته (تحقيق نفسك في ذات الله). ثمّ اقنع بأن تدرك أنّك مفترق (لست إياه) لعلّك تُجمع معه (تصبح أنت وإياه واحداً: بزوال شخصيّتك الإنسانية وبقاء الله وحده في الوجود).

(٣) لو استطاع الإنسان أن يفهم الله لكان الله محدوداً (يحيط به فهم الإنسان).

(٤) لو عرفنا كيف وُجِدَ الله لَما كان قديماً (بل لكان حادثاً مثل جميع الأشياء في الدنيا المادّية).

(٥) ولو علم الناس لله كيفية (شكلاً) لآنعدم (كما تنعدم جميع الأشياء التي لها أشكال- لأنّ العدم في الفلسفة هو تبدّل الصور المختلفة على المادّة الواحدة).

(٦) طرف: بصر، عين. (لو كان الله يرى لكان جسماً، بلا شكّ).

(٧) أنّ الله عظيم، كبير ولكن ليس له قُطر (حدود: طول وعرض وعمق).

(٨) الله عليم بكلّ شيء (ولكن من غير منهج فكري، كما يعرف الناس الأشياء).

٤ - ★★ الإحاطة ١ : ٢٩٥ - ٣٠٥ ؛ الكتيبة الكامنة ٣٤ - ٣٧ ؛ بغية الوعاة ١٣١ ؛ الأعلام للزركلي ١ : ١٠٦ - ١٠٧ (١١١).

القَيْجاطيّ

١ - هو أبو الحسنِ عليُّ بنُ عُمَرَ بنُ إبراهيمَ بنِ عبدِ الله الكِنانيُّ القيجاطي، نِسبةً إلى بلدةِ قَيْجاطة (أو قيشاطة) من أعمالِ جيّانَ (إلى الشرق من قُرطُبَةَ).

وُلِدَ القيجاطي سَنَةَ ٦٥٠ للهِجرة (١٢٥٢ م) وتلقّى العلمَ على أبيه وعلى نَفَرٍ منهم: عبدُ الله بنُ مُساعدٍ الغسّانيّ وأبو جعفرِ بنِ الصبّاغِ وابن الصائغ[١] والأُبّذيّ وأبو عليٍّ ابن الأحوص.

وفي سَنَةِ ٧١٢ للهِجرة (١٣١٢ م) دُعِيَ القيجاطي إلى غَرناطةَ فأقْرَأَ بالجامعِ الأعظمِ فيها القِراءاتِ والنحوَ والأدبَ، ووَلِيَ فيها الخَطابةَ أيضاً. وقد نابَ عن بعضِ القُضاةِ مُدّةً وأدْرَكَتْه الوَفاةَ، في ٢٧ من ذي الحِجّة من سَنَةِ ٧٣٠ (١٣٣٠/١٠/١١ م)، وهو على القضاء.

٢ - كان أبو الحسن القَيْجاطي مُتواضعاً حَسَنَ الخُلُقِ فَكِهاً حُلْوَ الحديث. وكذلك كان ذَكِيًّا بارعاً في عددٍ من العلوم كالقِراءات والنحوِ والأدبِ، وكان خَطيباً وشاعراً وناثراً وأُستاذاً تكثُرُ الاستفادةُ منه. وقد كانتْ له تصانيفُ، كما كان له شعرٌ ونثرٌ.

مختارات من شعره

- قال أبو الحسن القَيْجاطيُّ في تذكُّرِ الشباب:

والعُمْرُ مثلَ البدرِ يبدو حُسْنُه حيناً، ويعقُب بعدَ ذاك سرارُه[٢].

---

(١) لم اهتد إلى شيء من تراجم الأشخاص المذكورين في هذه الجملة. ولعلّ «ابن الصائغ» هو الذي ستأتي ترجمته (ص ٤٥٢).

(٢) السرار (بالفتح أو بالكسر): آخر ليلة من الشهر القمري (فيها يستسرّ القمر: لا يظهر في سماء البلد ليلاً). يعقب: يتبع.

مـا للإخـاء تقلّصـتْ أفيـاؤه! ... مـا للصفـاء تكـدّرتْ آثـاره!
ولأنـتَ تعلَمُ أنّي - زَمَنَ الصِّبا - ... ما زِلتُ مِمّنْ عَفّ فيه إزاره[1].

- وله من قصيدة في الرثاء:

أرى أرجُلَ الأرزاء تشتـدُّ نحوَنا ... وأيْدِيَها تسعى إلَيْنا فتمْتَـدُّ[2].
ونحنُ أُولو سَهْوٍ عن الأمر، ما لَنا ... سوى أملٍ إيجابُنا عنده جَحْدُ[3].
فإنْ خَطَرَتْ للمرءِ ذِكرَى بِخاطرٍ، ... فتَسْبيحُه الساهي إذا سُمِعَ الرعد[4].
مُصابٌ به قُدّتْ قلوبٌ وأنفُسٌ ... لَدَيْنا، إذا في غيرِه قُطِعَتْ بُرْدُ[5].
تلينُ له الصُّمُّ الصِّلابُ، وتَنْهَمي ... عيونٌ، ويبكي عندَه الحَجَرُ الصَّلْد[6].
وقد كان يبدو الصبرُ منّا تجلُّداً، ... وهذا مُصابٌ صبرُنا فيه ما يبدو[7].

٤ - ★★ أعمال الأعلام ٢٩٩ س؛ الديباج المذهب ٢٠٧؛ بغية الوعاة ٣٤٤؛ نفح الطيب ٥: ٧٥، ٣٨٤، ٥٠٧ - ٥٠٩، ٦٠٣ - ٦٠٤؛ الأعلام للزركلي ٥: ١٣٢ (٤: ٣١٦).

ابن هاني السبتي

١ - هو أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ عليٍّ بنِ هاني اللَّخْميّ السَّبْتي[8]، أصلُه من إشْبيلية.

---

(١) الإزار: ثوب يلف على القسم الأدنى من الجسم. عَفّ ازارُه (لم يقرُبْ آمرأةً ليست زوجاً له).

(٢) اشتدّ: ركض، أسرع. الرزء: المصيبة.

(٣) الجحد: النكران. - نحن لا نلقي بالاً إلى الأحداث التي تمرّ بنا إلّا بعد أن تقع (راجع البيت التالي).

(٤) يسهو (يغفُل - بضمّ الفاء -) الإنسان عن تسبيح الله، فإذا سمع رعداً خاف من انقضاض الصواعق عليه، فسبّح الله.

(٥) المصاب (هنا) موت الرجل الذي يرثيه القيجاطي. قُدّت (شقّت) قلوب وأنفس (حزنت حزناً شديداً) لدينا (لأنّ الميت منّا). إذا في غيره (اقرأ: في غيرنا) قطّعت برد (البرد: ثوب من حرير) كناية على الفرح. - يتّفق أحياناً، إذا مات رجل أن يحزن لموته قوم ويفرح بموته قوم آخرون.

(٦) هذا المصاب تلين له الصمّ الصلاب (الحجارة القاسية). آنهمى ينهمي (ليست في القاموس). همى المطر يهمي: سال بكثرة. الصلد: القاسي، اليابس.

(٧) في أحوال سابقة من المصائب، كنّا نتجلّد: نتظاهر بأنّنا لسنا محزونين أو حزناء (جمع حزين). أما في هذا المصاب فلا يبدو منّا صبر، بل يظهر حزننا واضحاً شديداً.

(٨) في بروكلمن محمّد بن عبد الله (!) بن خاتمة السبتي.

قرأ على أبي إسحاقَ الغافقيّ وأبي بكرِ بنِ عُبيدٍ النحويّ وأبي عبدِ الله بن حُريث. وقدِ اسْتُشْهِدَ في حِصارِ جبلِ طارقٍ، أصابه حجرُ مِنجنيقٍ، في أواخرِ ذي القَعْدة من سَنَةِ ٧٣٣ (١٣٣٣/٨/١١ م).

٢- كان ابنُ هاني السَّبْتيُّ من كِبارِ عُلماءِ العربية (النحو)، أديباً ناظماً وناثراً مترسّلاً، وله مشاركةٌ في التاريخ. شِعرُه عادِيٌّ قليلُ الطّلاوة. ونثرُه أكثرُ براعةً. وكان مُصَنِّفاً له: شرح التسهيل (لابن مالكٍ النحويّ)- الغُرّة الطالعة في شعراء المائة السابعة- انشاد[1] الضوالّ وإرشاد السؤال (في لحن العامّة)- قوت المقيم. وقدّ دوّن ترسّل أبي المطرّف بن عميرة (ت ٦٥٨ هـ).

٣- مختارات من آثاره

- قال ابنُ هاني السبتيُّ:

لولا مشيبٌ بفَوْدي للفؤادِ عَصى	أَنْضَيْتُ في مَهْمَهِ التشبيبِ لي قُلُصا[2].
وكنتُ جارَيتُ فيه مَنْ جَرَى طَلَقاً	مِنَ الإجادةِ لم يَجْمَحْ ولا نَكَصا[3].
ومَنَ أعدّ مكان النبْلِ نَبْلَ حِجىً	لم يَرْضَ إلّا بأبْكار النُّهى قَنَصا[4].

- وله في الجوابِ على رسالةٍ وردَتْ إليه من أبي القاسمِ الشريف (وكان شابًّا أديباً):

(١) أنشد الضالّة (البهيمة التائهة من صاحبها): عرّفها ودلّ عليها. - يبدو أن هذا الكتاب قد عرف بعناوين مختلفة: لحن العامّة- تثقيف اللسان وتلقيح (الأذهان)- المدخل إلى تقويم اللسان (وبهذا العنوان نشره كولان في مجلّة «هسبيريس»، المجلّد ١٢، ص١ - ٣٢). راجع بروكلمن، الملحق ٢: ٣٧١.

(٢) الفود: شعر الرأس السائل على جانب الأذن. عصى الفؤاد (لم يستطع أن يلهو كما يلهو الشبّان). أنضى: أتعب وأتلف. المهمه: الفلاة الواسعة. القلوص (بالفتح): الناقة. لولا أنّني كبرت في السنّ جدًّا لملأت الدنيا بالغزل!

(٣) جرى الفرس طلقاً: خارجاً من قيده (سريعاً). لم يجمع (يشرد) ولا نكص (جبن، رجع)- أي لقلت غزلاً عفيفاً جيّداً!

(٤) النبل جمع نبلة (بالفتح): السهم. الحجى: العقل. القنص: الصيد.

هذا، بُنَي، ما سَنَحَ بهِ الذِّهْن الكليلُ واللسان الفليلُ[1] في مُراجعةِ قصيدتِكَ الغَرّاءِ الجالبةِ السرّاءِ، الآخذةِ بمجامعِ القلوبِ المُوفِيَةِ بجوامعِ المطلوبِ الحسنةِ المَهْيَعِ والأُسلوب[2].... أينْزِعُ غيري هذا المَنْزِعَ أوِ المرءُ بنفسِه وابنه مُولَعٌ؟ حيّا الله الأدبَ وبَنيهِ وأعاد علينا أيامَه وسِنيه.... غيرَ أنّ الإحسانَ فيه قليلٌ، ولِطريقِ الإصابةِ فيه عَلَمٌ ودليلٌ... فَلْيُهْنِكَ، أيُّها الابنُ الذكيُّ، البَرُّ الزّكِيُّ، الحبيبُ الحَفِيّ[3]. الصفيّ الوفيّ، أنك حاملٌ رايتَهُ وواصلٌ غايتَه[4]، ليس أوّلوه وآخِرُوهُ لك بمُنْكرين و(لكن) لا تَجِدُ أكثَرَهم شاكرين[5]. ولولا أنْ يَطولَ الكتاب وينحرفَ الشعراءُ والكُتّاب[6] لفاضتْ يَنابيعُ هذا الفَصْلِ فَيْضاً، وخرجتْ إلى نوعٍ آخرَ من البلاغة أيضاً. قَرّتْ عيونُ أوِدّاءِكَ، ومُلِئَتْ غَيْظاً صدورُ أعدائك، ورَقِيتَ دَرَجَ الآمالِ ووُقِيتَ عينَ الكمالِ[7]....

٤ - ★★ أوصاف الناس ١٠٣ - ١٠٤؛ بغية الوعاة ٨٢؛ نفح الطيب ٦: ٢٤٥ - ٢٥٣؛ النبوغ المغربي ٢١٠ - ٢١١، ٣٨٧ - ٣٩١ (الترقيم الثاني)، ٧٣٥ - ٧٣٦، ٨٧١ - ٨٧٢؛ بروكلمن، الملحق ٢: ٣٧١؛ الأعلام للزركلي ٧: ١٧٦ (٦: ٢٨٤).

ابن القوبع[8] التونسي

١ - هو ركنُ الدينِ أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ محمّدِ بن عبدِ الرحمنِ بن يوسفَ[9] الجَعْفريّ المالكيّ التُونِسيّ، ويُعْرَفُ بابنِ القَوْبع. وُلِدَ في تُونسَ في رَمَضانَ سَنَةَ ٦٦٤ (١٢٦٦ م).

(١) الكليل: الضعيف، الكالّ (السيف الذي لا يقطع). الفليل (يقصد: الأفلّ) السيف الذي تثلّم (تقطع) حدّه.

(٢) المهيع: الطريق الواضح.

(٣) الذكيّ: ذو الفهم والحذق (بكسر الحاء). البرّ: المطيع لقومه. الزكي: الطاهر. الحفيّ: العارف (الرفيق في معاملة الآخرين).

(٤) الذي تمّ الكمال فيه.

(٥) ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ تضمين من القرآن الكريم (٧: ١٧ سورة الأعراف).

(٦) وينحرف.... يستطردون إلى موضوعات متشعّبة.

(٧) الأودّاء: الأصدقاء المحبّون. وقيت عين الكمال: حفظك الله من الحسد (لأن الكامل في صفاته محسود).

(٨) القوبع (بفتح القاف كجوهر): طائر صغير أحمر الرجلين... (راجع القاموس ٣: ٦٤).

(٩) في بغية الوعاة (ص ٩٧):.... يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الجليل.

وقرأ النَحْوَ على يحيى بنِ الفرج بن زيتونٍ[1]، وقرأ الأصولَ على محمّدِ بنِ عبدِ الرحمن قاضي تُونِسَ. ثمّ إنّه رَحَلَ فجاء إلى مِصْرَ سَنَةَ ٦٩٠. ويبدو أنّه تَنَقّل بينَ القاهرةِ ودِمَشْقَ مِراراً. وقد سَمِعَ في دِمَشَق مِنْ تقيِّ الدينِ بنِ الواسطيِّ وابنِ القَوّاسِ وأبي الفضل بنِ عساكرَ، كما سَمِعَ في حَماةَ مِنِ ابنِ المُزَنَّرِ المُحدِّث.

وكان ابنُ القَوْبَعِ يتصدّرُ للتدريس في فنونٍ مختلفةٍ ويقومُ بتدريس الطِّبّ في المارستان المنصوريّ في القاهرة والإعادةِ[2] في المدرسة الناصرية. وتولّى نِيابةَ الحُكم (القضاء) للقاضي المالكيّ في القاهرة مُدّةً ثم تَرَكَها تَديُّناً لأنّه لم يَضْمَنْ أن يَتَجَنّبَ فيها مُجاراةَ الحُكّام. وكانتْ وفاتُه في تاسعِ[3] ذي الحِجّة من سَنَةِ ٧٣٨ (١٣٣٨/٦/٢٨م)، في القاهرة.

٢ - كان ابنُ القَوْبعِ التُونِسيّ رَجُلاً ذَكِيًّا واسعَ المعرفةِ كثيرَ الحِفظ لعددٍ من فنونِ العلم. وقد كان ضَيّقَ الصدْرِ كثيرَ المَلَلِ من كلِّ شيءٍ إلى جانبِ أنّه كان حَسَنَ الصُحْبَةِ حَسَنَ المعاملةِ للناس، وعلى شيءٍ من اليَسارِ أغناه عَنِ التملّق. وله نثرٌ سائغ وشِعرٌ جيّد في الغزل والأدب خاصة. ومن فنونه الحديثُ والأصول والفِقْه والتاريخ والبراعة في معرفة الخطوط (والخطوط بالقَلَم المَغْربي خاصّة)، مَعَ أنّه لم يكن حَسَنَ الخطّ. وكانت له معرفةٌ بالأدب والنَّقدِ[4] وباللُّغة والنَّحْو وبالطِّب يُكْثِرُ من مُطالعة كتاب القانون لابنِ سينا، كما كان كثيرَ الاهتمام بالحِكمة (الفلسفة) مُكِبًّا على مطالعة كتاب الشِفاء لابن سينا

---

(١) هنالك في عنوان الدراية (ص ١١٤): الفقيه القاضي أبو القاسم بن أبي بكر اليمني الشهير بابن زيتون من أهل تونس (ت ٦٩١ هـ).

(٢) المارستان: المستشفى (وكان فيه في العادة مدرسة لتعليم الطبّ). المعيد (من الإعادة) مدرّس «يعيد» شرح ما غمض من دروس الأستاذ (نائب أستاذ).. المدرسة الصلاحية (نسبة إلى الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي) كانت في القدس (راجع وفيات الأعيان ٣: ٢٤٤).

(٣) في بغية الوعاة (ص٩٨): في سابع عشري الحجّة (٢٧).

(٤) كان ابن القوبع يقرأ مطلع قصيدة ابن هاني الأندلسي (ت ٣٦٢ هـ):

فتكـــات لحظـــك أم سيوف أبيـــك

بالنصب (في فتكات، سيوف الخ) على أنّها مفعول به لفعل تقديره أعاني. وكان ذلك عنده أبلغ من القراءة المشهورة بالرفع.

وكتاب المباحث المشرقية لفخر الدين الرازيّ (ت ٦٠٦ هـ). ثمّ هو مُصنّفٌ له تفسيرُ سورةِ ق (السورة الخمسين في المُصْحَف) وتعليق (أو شرح، راجع بغية الوعاة ٩٨) على ديوان المتنبّي.

٣- مختارات من آثاره

- قال ابنُ القوبعِ التُونسِيُّ في النسيب:

جَوًى يَتلظّى في الفُؤادِ آسْتعارُهُ، ودَمْعٌ هَتونٌ لا يَكِفُّ انهارُهُ[١]،

وُلوعاً بِمَنْ حازَ الجمالَ بأسْرِه فحازَ الفُؤادَ المُستهامَ إسارُهُ[٢].

غزالٌ له صدري كِناسٌ ومرتَعٌ، ومِنْ حَبِّ قَلْبي شِيحُه وعَرارُهُ[٣].

جَرى سابحاً ماءُ الشبابِ برَوْضهِ فأزْهَرَ فيه وَرْدُه وبَهارُهُ[٤].

يَعِلُّ بِعَذْبٍ من بَرودِ رُضابهِ تَفاوَحَ فيه مِسْكه وعُقاره[٥].

تَجمّعَ فيه كلُّ حُسْنٍ مُفَرَّقٍ فصار له قُطْباً عليه مَداره.

زُلالٌ ولكن أينَ مِنّي وُرودُهُ، ولَدْنٌ ولكن أين منّي اهْتِصاره[٦]..

وسَلْسالُ راحٍ صُدَّ عنّيَ كأسُه، وغُودِرَ عندي سُكْره وخُمارُه[٧].

---

(١) الجوى اشتداد المرض والحزن من أثر العشق. تلظّت النار: تلهّبت (ارتفع لهيبها واشتد). الاستعار: توقّد النار (اشتداد حرارتها). الهتون: الكثير القطر (سيلان الماء والدمع الخ).

(٢) جماله استولى على فؤاد المحبّ جملة.

(٣) الكناس: البيت (المكان) الذي يأوي إليه الغزال. المرتع: المكان الذي ترتع (ترعى فيه) الماشية. حبّ القلب (بفتح الحاء) جمع حبّة القلب: مهجته وسويداؤه (داخله ودمه). الشيح نبت طيّب الرائحة ترعاه الماشية. العرار: نبات له زهر طيّب الرائحة. - هذا الغزال (المحبوب) يسكن في قلبي ويتغذّى من دم قلبي (ولذلك نزل بي السقام والهزال).

(٤) ورده كناية عن خدّيه الأحمرين. وبهاره (كناية عن وجهه الأبيض).

(٥) علّ الرجل يعلّ (بكسر العين): شرب شيئاً فشيئاً ومرّة بعد مرّة. العذب: الحلو. البرود: البارد. الرضاب: الريق ما دام في الفم. تفاوح = فاح (انتشرت منه رائحة طيّبة). العقار: الخمر.

(٦) ريقه حلو سائغ في الحلق ولكن لا أستطيع وروده (الشرب منه). وقوامه لدن (طريّ، ناعم) ولكن لا أستطيع هصره (ضمّه إليّ).

(٧) السلسال: العذب الصافي الذي يجري بسهولة في الحلق. الراح: الخمر. صدّ عنّي كأسه (منعت من شربه اللذيذ). غودر: ترك (بالبناء للمجهول)، بقي. السكر والخمار: الصداع والألم من أثر شرب الخمر.

دنا ونأى فالدارُ غيرُ بعيدة، ولكنّ بُعْداً صَدُّه ونفاره[1].
كتمتُ الهوى لكنْ بدَمْعي وزَفْرتي؛ وسُقْمي تَساوى سِرّه وجِهاره[2].
أراحةَ نفسي، كيف صِرْتَ عذابَها؟ وجَنّةَ قلبي، كيف منك استِعارُهُ[3]؟

– وكتبَ إجازةً لِصلاحِ الدين خليلِ بنِ أيْبَكَ الصَفَديِّ[4] جاء فيها:

يقولُ العبدُ الفقيرِ إلى رحمةِ ربّهِ وعفوِه عمّا تعاظَمَ من ذنبهِ محمّدُ بنُ محمدِ بنِ عبدِ الرحمنِ القُرَشيّ الجَعْفري المعروف بابن القَوْبَع: بعدَ حمدِ الله ذي المجدِ والثناء، والعَظَمة والكِبرياء، الأوّلِ بلا ابتداءٍ والآخِرِ بلا انتهاءٍ، خالقِ الأرضِ والسماء وجاعلِ الإصباح والإمساء؛ والشُكر[5] له على ما مَنّ به من تعاظُمِ الآلاءِ وترادُفِ النَّعْماء[6]. نَحْمَدُهُ ونذكُره ونعبُده ونشكُره لِتَفَرُّدِهِ باستحقاقِ ذلك وتوفُّرِ ما خَصّنا به مِنَ العِلْمِ هنالـك وأضاء به بضِيائها من نور الفَهم. ونُصلّي على نبيّهِ محمّدٍ سيّدِ العُرْب والعُجْم[7] وعلى آلهِ وأصحابهِ الذين فازوا من كلّ فَضْلٍ بِعِظَمِ الحَظّ ووُفورِ القَسْم. أجزتُ لفلانٍ[8].... جميعَ ما يجوزُ لي أن أرْوِيَهُ ممّا رَوَيْتُه من أصنافِ المَرْوِيّاتِ أو قُلتُه نظماً أو نَثْراً أوِ اختَرَعْتُه مِنْ مسألةٍ عِلميّة مُفْتَتِحاً، أوِ اختَرْتُه من أقوالِ العلماء واسْتَنْبَطْتُ الدليلَ عليه مُرَجّحاً ممّا لم أصْنَعْهُ في تصنيفٍ ولا أجْمَعْهُ في تأليفٍ، على شَرْطِ ذلك عندَ أهلِ الأثَرِ[9].

وفّقَـــه اللهُ لِمـــا يَرْتضي في القولِ والفعـل ومـا يدريّ*.

---

(1) ... نفرته منّي تجعله بعيداً عنّي (وإن كان ساكناً بقربي).
(2) أنا لا أبكي ولا أتنهّد (من أثر تعذيبه لي بحبّه)، ولكّن سقمي (نحولي) يدلّ على ذلك.
(3) أراحة نفسي (الهمزة للنداء).
(4) خليل بن أيبك الصفدي (696 – 764 هـ) اشتهر بكتب التراجم، له الوافي بالوفيات كبير جداً، قد طبع منه إلى الآن خمسة عشر جزءاً (عام 1979 م) فاستوفى أسماء المحمدين ووصل إلى حرف السين.
(5) والشكر (وبعد الشكر). * أدْرى فلانٌ فلاناً (داراه؟).
(6) ترادف: تتابع، توالي. النعماء: الخفض والدعة (العيش في رفاهية وأمن).
(7) كذا في الأصل. (بضيائها).
العرب والعجم (غير العرب) كلتا الكلمتين بضمّ فسكون. القسم (بفتح فسكون): النصيب، الحصّة.
(8) لصلاح الدين خليل بن أيبك (راجع الحاشية 4).
(9) بحسب القواعد التي أقرّها علماء الحديث للتثبت من أمانة الراوي ومن صحّة الحديث المرويّ.

وزادَه فضــلاً إلى فضلــهِ بمـا بـه يأمَنُ في الحَشْر[1].
فهـذه الـدارُ بمـا تَحْتوي دارُ أذًى مَــلأى مِنَ الشرّ.
دَلّـتْ بَنيهـا في غرورٍ، فهم في عَمَـهٍ عنـه وفي سُكْر[2].
تُريهِمُ بِشْراً. ويـا وَيْحَهُمْ! كم تحتَ ذاك البِشْر من مَكْر![3]
بَيْنَـا تُرى مُبْتَهجـاً ناعِماً ذا فَرَحٍ بالنَّهْيِ والأمر-
آمَنَ ما كـان وأقْصى مُنَى- فأجـأه قاصمـةُ الظَّهْر[4].
فَعـدِّ عنهـا واشْتَغِـلْ بالـذي يُوليـكَ خـيراً آخِرَ الدهر[5].
فإنّما الخـيرُ خصيـصٌ بمـا تَلْقـاهُ بعـدَ الموت والنَّشْر[6].

- وله (بغية الوعاة ٩٨):

تأمّـلْ صَحِيفـاتِ الوجودِ فإنّهـا من الجانبِ السامي إليك رسائلُ[7].
وقـد خُطَّ فيها - إن تأمّلتَ خطَّها: «ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطل[8]».

٤- ★★ الوافي بالوفيات ١: ٢٣٨ - ٢٤٧؛ الديباج المذهب ٣٢٩، بغية الوعاة ٩٧ - ٩٨؛ درّة الحجال ٢: ٣٠٠ وما بعد؛ نفح الطيب ٢: ٢٢٥ - ٢٢٦؛ الأعلام للزركلي ٧: ٢٦٤ (٣٥).

---

(١) الحشر: يوم القيامة.
(٢) دلّى الرجل الحبل في البئر: مدّه نزولاً. بني الدنيا: الناس. العمه: العمى منذ الولادة.
(٣) البشر: طلاقة الوجه، إظهار السرور.
(٤) في اطمئنان تامّ محقّقاً جميع أمانيه. فاجأه: أتاه بغتة. قاصمة الظهر: المصيبة العظيمة التي تشلّ المصاب بها عن التفكير والتصرّف.
(٥) آخر الدهر (منذ ساعتك هذه إلى آخر حياتك).
(٦) النشر والنشور: القيامة في الآخرة.
(٧) من الجانب السامي (الإلهي).
(٨) هذا من قول لبيد بن ربيعة الجاهليّ:

ألا كـلّ شيء مـا خـلا الله باطـل، وكـلّ نعـيم - لا محالة - زائـل!

ابن عمر الملكيشيّ

١ - هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ عُمَرَ بنِ عليٍّ بنِ محمّدِ بنِ إبراهيمَ الملكيشيُّ البجائي (نِسبةً إلى بِجايةَ في الجزائر) الجزائريّ التونسيّ. نشأ في بلادِ الجزائر وبدأ تَلَقّيَ علومِهِ فيها. وقد رَحَلَ إلى المشرقِ وحَجَّ وتلقّى أشياءَ من العلم في الحِجاز والقاهرة والإسكندرية.

ويبدو أنّ شيئاً من الاضطراب وَقَعَ في الجزائر - مقتل أبي حمّو الأوّلِ موسى بنِ عثمان (٧١٨ هـ) - فآثر المليكشيُّ الانتقالَ إلى الأندلس، في السَّنة نفسِها، ومَدَحَ نفراً من الكُبراءِ، وقد أقامَ حيناً في مالَقَةَ. ثمّ إنّه عاد إلى العُدوةِ الإفريقية وتقلّد في تونسَ خُطةَ الكتابة. وفي تونسَ كانتْ وفاتُه في غُرّةِ المُحَرَّمِ من سَنَةِ ٧٤٠ (٩/٧/١٣٣٩ م).

٢ - كان ابنُ عُمَرَ الملكيشيُّ فقيهاً وذا مَيَلٍ إلى التصوف، كما كان أديباً كاتباً مترسّلاً وشاعراً يَنْظِمُ رَوِيَّةً وارتجالاً. وفي شِعره سُهولةٌ وشيءٌ من الرِقّة. وفنُّه الغزَلُ والنَسيب.

٣ - مختارات من شعره

قال ابنُ عُمَرَ الملكيشيُّ في النسيب:

★★ رِضاً! نلتِ ما تَرْضَيْنَ من كلِّ ما يُهوى ... فلا تُوقِفيني مَوْقفَ الذُّلِّ والشَّكْوى.

وصَفْحاً عن الجاني المُسيءِ لنفسِهِ؛ ... كَفاهُ الذي يَلقاهُ من شِدّة البَلوى.

بمـا بَيْنَنـا من خَلْوةٍ مَعْنويّـةٍ ... أرقَّ منَ النَّجوى وأحلى من السَّلوى[1].

قِفي أتَشَكّى لَوْعَةَ البَيْنِ ساعةً، ... ولا يَكُ هذا آخرَ العَهْد بالنجوى.

قِفي ساعةً في عَرْصةِ الدارِ وانْظُري ... إلى عاشقٍ ما يَستفيق من البلوى[2].

---

(١) بما بيننا: استحلفك بالذي بيننا. خلوة معنوية: عفيفة (بالفكر لا بالاجتماع). السلوى (في القاموس) طائر لذيذ اللحم. و (في العرف) المنّ والسلوى: نوع من الصمغ الحلو يتكوّن على نوع من الأشجار في فارس والعراق.

(٢) العرصة: أرض خلاء أمام البيت. البلوى (مكررة).

وكم قـد سألتُ الريحَ شوقاً إليكُمُ فما حنّ مَسْراها عليّ ولا ألْوى[1].
فيـا ريحُ، حتّى أنتِ مِمّنَ يَغارُ بي؟ ويا نَجْدُ، حتّى أنتَ تَهْوى كما أهوى.
خُلِقْتُ وَلِي قلبٌ جَليدٌ على النَّوى، ولكنْ على فَقْدِ الأحِبّةِ لا يَقْوى[2].

★★ أرى لـكَ، يا قَلْبي، بقلبي مَحبّةً بَعَثْـتُ بهـا سِرّي إليـكَ رَسولا.
فقابِلْـهُ بالبُشْرى وأقْبِـلْ عَشِيّـةً، فقـد هَـبّ مِسكيُّ النسيمِ عَليلا.
ولا تَعْتَـذِرْ بالقَطْرِ أو بَلَلِ النَّدى، فأحْسَنُ مـا يـأتي النسيمُ بَليـلا!

٤-★★ نيل الابتهاج ٢٣٩-٢٤٠؛ تعريف الخلف ١: ١٧٣-١٧٦؛ نفح الطيب ٦: ٢٤٠-٢٤٢؛ تاريخ الجزائر العامّ ٢: ١١١-١١٢؛ معجم أعلام الجزائر ١٧١-١٧٢؛ الطمّار ١٩١-١٩٣؛ الأعلام للزركلي ٧: ٢٠٥ (٦: ٣١٤).

محمد بن أحمد بن جُزَيّ

١- هو أبو القاسمِ محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ عبد الله بن يحيى بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ يوسفَ بنِ جُزيٍّ الكلبيُّ الأندلُسيُّ، وُلِدَ في تاسعِ ربيعٍ الثاني من سَنَةِ ٦٩٣ (١٠/٣/١٢٦٤ م) في غَرناطة.

قرأ أبو القاسم بنُ جُزَيٍّ القرآنَ والحديث والفِقه والنحو على أبي جعفرِ بنَ الزُّبير الغَرناطيّ (٦٢٧-٧٠٨ هـ)؛ ثم كان من شيوخه أبو عبد الله محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ داوودَ آبنِ الكمّاد اللَّخمي (ت ٧١٢ هـ) وأبو علي بن برطال وأبو عامرِ بنُ ربيعٍ الأشعري والشيخ البركةُ الوليُّ الخطيبُ أبو عبد الله الطنجاليّ الهاشميّ وقاسم بن عبد الله بن الشاط.

تصدّر ابن جُزيّ للتدريس ثمّ أصبح منذ مطلع حياته خطيباً في الجامع الأعظم في غرناطةَ. وكانت وفاته يوم الاثنينِ شهيداً في وقعة طَريفَ (معركةِ نهر سالادو)- وهو

(١) ألوى (مال وعطف).
(٢) النوى: البعاد.

يحرّض الناس على جِهاد المُعتدين الإسبان، في سابعِ جُمادى الأولى من سَنَة ٧٤١ (٣٠/١٠/٧٤١ م).

٢ - كان أبو القاسمِ بنُ جُزَيٍّ مُشارِكاً في عددٍ من فُنونِ المعرفة: في القِراءات والتفسيرِ والحديث، وفي الفِقه وأُصول الفِقه، وفي اللُّغة والنَّحْو والأدب. وله شعرٌ يدورُ على المعاني الدينيّة مِنَ التّقوى ومدحِ الرسولِ والتَّصوُّف. وشعرُه هذا قريبُ المعاني سهلُ التركيب وفيه شيءٌ من الصِّناعة ومن التكلُّف أيضاً. وكان له في فنِّ البديعِ نوعٌ آسْمُهُ «التَّخيُّرُ» (وذلك أن يكونَ للبيتِ قافيتان بمعنًى واحدٍ ولكنْ على رَوِيَّيْنِ مُختلفين). راجعْ مثلاً نَفْحَ الطيب (٥ : ٥١٧):

أيا من كَفَفْتُ النفسَ عنه تعفُّفاً، وفي النفس من شوقٍ إليه لهيبُ (غرامُ)،
ألا إنّما صـــبري كصـــبرٍ، وإنّما
على النفس من تقوى الإلّه رقيبُ (لِجامُ)[1].

وكان أبو القاسم بنُ جُزيٍّ مؤلّفاً، له: التسهيلُ في علوم التنزيل (في تفسير القرآن، وفيه شيء من النقد) - المختصر البارع في قِراءة نافع - وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم - الدَّعَوات والأذكار المُخْرَجة من صحيح الأخبار (آستعرض فيه ما ورد عن رسول الله من الذِّكْر والدَّعَوات في الكتب الخمسة)[2] - تقريب الوصول في علم الأصول (أصول الفقه) - النور المبين في شرح عقائد الدين - الأنوار السَّنية في الألفاظ السُّنّيّة (ويقال: الأقوال السَّنيّة) في المذاهب السُّنّيّة (ألّفه لابنه أحمدَ) - القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية - قوانين الأحكام الشرعية في مسائل الفروع الفِقهيّة (انتهى من تأليفه في العاشر من المُحَرَّم، سَنة ٧٣٥ ١٠/٩/١٣٣٤ م) - الفوائد العامة في لحن العامّة - فهرس آشتمل على عددٍ كبير (من شيوخه؟) من أهل المشرق والمغرب.

---

(١) الصبر (بفتح فكسر، ولا يسكّن إلّا في ضرورة الشعر): عصارة (بالضمّ) شجر مرّ (القاموس ٢ : ٦٧).

(٢) المشهور أنّه يقال كتب الحديث السّتّة، وهي صحيح البخاري وصحيح مسلم ثمّ كتب السنن الأربعة لأبي داوود والنسائي (بالفتح) والترمذي (بالكسر) وابن ماجة.

٣ - مختارات من آثاره:

- من مقدمة «قوانين الأحكام الشرعية»:

الحمد لله ذي الجلال الذي عَجزَتْ عن إدراك كُنهِهِ عقولُ العارفين[١]، و(ذي) الكمال الذي قصّرت عن إحصاء ثنائه ألْسِنة الواصفين.... و(ذي) العظمة الذي عَنَتْ لِعزّتها وجوه الطائفين والعاكفين[٢]..... سُبحانَه من مليكٍ لم يَخْلُقْ عبادَه عبثاً ولم يتركْهم سُدًى، بل أرسَلَ الرُّسل مُبشِّرينَ ومُنذِرين وَدَاعِين إلى الحقّ والهُدى. ثمّ خَتَم الرِّسالة بِنَبِيِّنا مُحمّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلّم صاحبِ الدعوةِ التامّةِ والرسالة العامّة إلى الإنس والجانِّ، و(صاحب) المِلَّة الناسخة لجميع الأديان[٣] والشريعةِ الباقية إلى آخرِ الأزمان والآياتِ البَيِّنة والأدِلَّة القاطعةِ الساطعةِ البُرهانِ[٤]. وأنزل عليه القُرآنَ ﴿هُدًى للناس وبَيِّناتٍ من الهُدى والفُرقان﴾[٥]، وجعَلَهُ مُعجِزَةً ظاهرةً لِلْعِيان مُتَجَدِّدة ما آختلفَ المَلَوانِ[٦] وتعاقبتِ الأزمانُ.....

أمّا بعْدُ، فهذا كتابٌ في الأحكام الشرعية ومسائل الفروع الفِقهيّة على مذهب إمام المدينة أبي عبدِ اللهِ مالكِ بن أنسٍ الأصبحيّ رَضِيَ اللهُ عنه، إذْ هو الذي اختارَهُ أهلُ بَلَدِنا بالأندلسِ وسائِرِ المَغْرب آقتداءً بِدارِ الهِجرة[٧] وتَوْفيقاً من الله تعالى وتصديقاً لقول

(١) الكنه: جوهر الشيء وحقيقته. العارف (في التصوّف): الذي يعرف الأمور بما منحه الله من الكشف عن بعض أمور الغيب.

(٢) عنى: خضع، ذلّ. العزّة: القوّة. الطائف (في الأصل): الذي يقوم بالطواف (الدوران) حول الكعبة (ويكون ذلك في وقت معلوم). العاكف: المنقطع للعبادة في مسجد لمدّة هو يعيِّنها ثمّ لا يخرج عن اعتكافه في أثناء تلك المدة (وليس للاعتكاف وقت معيّن). للطائفين والعاكفين (في كلّ وقت وزمن).

(٣) الملّة (بالكسر): الدين. نسخ: أبطل. الأديان (المقصود: الشرائع). الأديان السماوية لا تُنسَخ لأنّها كلّها من عند الله. ولكن الشرائع (القواعد التي يسير عليها الناس في شكل عباداتهم وفي سلوكهم الاجتماعي تتبدّل بتبدّل الأزمان).

(٤) الآية: الحقيقة الغالبة، المعجزة. البيّنة: الظاهرة، الواضحة. القاطعة: الباتّة، الجازمة (التي تقطع الخصم عن مواصلة الجدال). الساطع: المنير (الظاهر لكل إنسان). البرهان: الدليل الحاسم (من «برهانا»- في الحبشيّة-: النور).

(٥) ﴿هدًى للناس....﴾ (٢: ١٨٥، سورة البقرة).

(٦) الملوان (مثنّى): الليل والنهار.

(٧) دار الهجرة: المدينة المنوّرة.

الصادق المصدوق صلّى اللهُ عليه وسلّم: «لا يزالُ أهلُ المَغرب ظاهرين على الحقّ حتى تقومَ الساعةُ». ثم زِدْنا إلى ذلك التنبيهَ على كثير من (وجوه) الاتّفاق والاختلاف الذي[1] بين الإمام المُسَمّى[2] وبين الإمام أبي عبد الله مُحمّدِ بنِ إدريسَ الشافعيّ والإمام أبي حنيفةَ النُّعمانِ بنِ ثابتٍ والإمام أبي عبدِ اللهِ أحمدَ بنِ حنْبَلٍ[3] لتَكمُلَ الفائدة ويعظُمَ الانتفاع، فإنّ هؤلاء هم قُدوَة المسلمين في أقطار الأرض وأولو الأتباع والأشياع[4].

ورُبّما نبّهتُ على مذهب غيرِهم من أئِمّةِ المسلمينَ كسُفيانَ الثَّوْريِّ والحسنِ البَصْريّ وعبد الله بن المبارك وإسحاق بنِ راهوَيْهِ وأبي ثَوْرٍ والنَّخَعيِّ وداوودَ بن عليٍّ إمام الظاهرية[5]- وقد أكثرنا من نقل مذهبه[6]- واللَّيْث بن سعدٍ وسعيد بن المُسيّب والأوزاعيّ[7] وغيرهم، رَضِيَ اللهُ عنهم أجمعين، فإنّ كُلَّ واحدٍ منهم مُجتهدٌ في دين الله، ومذاهبُهم طُرُقٌ مُوصِلة إلى الله.

---

(١) كذا في الأصل. يجب أن تكون «مما».

(٢) المسمّى (أي مالك بن أنس).

(٣) مالك والشافعي وأبو حنيفة (وكان في فقهه واجتهاده يأخذ بالرأي) وأحمد بن حنبل (كان يعتمد النصوص في الأكثر- حتّى عدّه نفر من المؤرّخين في المحدّثين لا في الفقهاء) هم أصحاب المذاهب الأربعة المغمول بها إلى الآن عند أهل السنّة والجماعة.

(٤) الأتباع (الذين يتبعون المذهب الذي ولدوا عليه) والأشياع (الذين يتبعون مذهباً ثمّ يخالفون من ليس على مذهبهم).

(٥) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوريّ (ت ١٦١ هـ) من كبار زمانه في روايه الحديث وعلوم الدين والتقوى. الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) زعيم علم الكلام والاعتزال وتحكيم العقل في الأمور. وكان صالحاً تقيًّا. عبد الله بن المبارك (ت ١٨١ هـ) من حفّاظ الحديث. إسحاق بن راهويه (ت ٢٣٨ هـ) من كبار حفّاظ الحديث. أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي (ت ٢٤٠ هـ) من الفقهاء الكبار الذين كانوا يتكلّمون بالرأي. النخَعي: إبراهيم بن يزيد (ت ٩٦ هـ) من أكابر التابعين ومن كبار الحفّاظ ورواة الحديث- ثمّ حفص بن غياث (ت ١٩٤ هـ) من حفّاظ الحديث. وداوود بن عليّ الأصفهاني (ت ٢٧٠ هـ) صاحب المذهب الظاهري (وهو مذهب بائد: بطل العمل به) يعتمد النصّ الوارد في القرآن وفي الحديث ولا يأخذ بشيء آخر إلا عند الضرورة القصوى (إذا سمحت قواعد اللغة والبلاغة بذلك).

(٦) اقرأ: من النقل من مذهبه.

(٧) الليث بن سعد (ت ١٧٥ هـ) إمام أهل مصر- في زمانه- في الحديث والفقه. سعيد بن المسيّب =

واعلم أن هذا الكتاب يُنيف[١] على سائر الكتب بثلاثِ فوائدَ.

★ الفائدة الأولى: أنه جمعَ بين تمهيد المذهب وذكر الخِلافِ العالي[٢]، بخِلاف غيره من الكتب فإنّها في المذهب خاصة أو في الخِلاف العالي خاصة.

★ الفائدة الثانية: أني جمَعْته بحسن التقسيم والترتيب وسهّلته بالتهذيب والتقريب. فكم فيه من تقسيم قسيمٍ[٣] وتفصيل أصيل يُقرّبُ البعيدَ ويُليّن الشريد[٤].

★ الفائدة الثالثة: أنّا قَصَدْنا الجمعَ فيه بين الإيجاز والبيان، على أنّهما قلّما يجتمعان.

فجاء - بحمدِ الله - سَهْلَ العِبارة لطيفَ الإشارة تامَّ المعاني مُختَصَرَ الألفاظ. وإلى الله نرغَبُ (في) أن يجعله مُوجِباً لغُفرانه ومُوصلاً لرِضوانه وفاتحاً لخزائن إحسانه وآمْتِنانِه، إنه ذو فضل عظيم.....

- قال محمّدُ بنُ أحمدَ بن جُزيٍّ من بَديعِيّة (في مَدحِ الرسولِ):

أرومُ امتــداحَ المُصطفى فيَرُدّني قُصوريَ عن إدراك تلك المَناقبِ[٥].

ومَنْ لي بحَصْرِ البحر، والبحرُ زاخرٌ؛ ومن لي بإحصاء الحَصى والكواكب![٦]

= (ت ٩٤ هـ) أحد الفقهاء السبعة في المدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع. والمسيّب اسم (بضمّ الميم وفتح السين ثمّ ياء مشدّدة مكسورة: اسم فاعل). ويجوز أن يكون بفتح الياء (ولكنّ الكسر أفصح). أما المسيّب بن حَزْن بن أبي وهب المخزومي (والدُ سعيد بن المسيّب) فهو بالكسر. جاء في تاج العروس (الكويت ٣: ٩٠) أن سعيد بن المسيّب هذا كان يقول (وقد سمع أناساً يلفظون اسم المسيَّب بالفتح): «لعن الله من سيَّب أبي» (أي لفظ اسمه بالياء المشدّدة المفتوحة). أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت ١٥٧ هـ) فقيه أهل الشام، كان له مذهب في الفقه قائم على الحديث، انتشر مدّة في الأندلس - في الغالب - ثمّ باد.

(١) أناف العدد على كذا: ارتفع، زاد.

(٢) العالي: المتقدّم في الزمن (القريب من زمن الرسول).

(٣) قسيم: جميل.

(٤) أصيل: جيّد (واضح). ليّن الماءُ النسيجَ (جعله مطاوعاً للعمل به). الشريد: النافر، الذي يصعب إمساكه.

(٥) المصطفى = محمّد رسول الله. قصوري = تقصيري. المناقب جمع منقبة: الفعل الكريم.

(٦) الحصر: الإحاطة بالشيء. زاخر: ممتلىء (كثير المياه).

ولو أنّ كلَّ العالمين تألّفوا على مَدْحه لم يبلُغوا بعضَ واجب.[1]
فأمْسَكْتُ عنه هَيْبةً وتأهُّباً وخوفاً وإعظاماً لأرفعِ جانب[2].
ورُبَّ سُكوتٍ كانَ فيه بلاغةٌ، ورُبَّ كلامٍ فيه عتبٌ لعاتب.

- وقال في الابتهال إلى الله:

يا رَبّ، إنّ ذُنوبي اليومَ قد كثُرَت فما أُطيقُ لها حَصْراً ولا عَدَدا[3].
وليس لي بعذابِ النارِ مِنْ قِبَلٍ، ولا أُطيق لها صبراً ولا جَلَدا[4].
فانظُر، آلهي، إلى ضَعفي ومسكنتي، ولا تذيقنّني حرّ الجحيم غدا.

- وقال في مُراده من الحياة الدنيا (وهُوَ من لُزوم ما لا يلزَمُ):

لكُلِّ بَني الدُّنْيا مُرادٌ ومَقْصِدٌ؛ وإنّ مُرادي صِحّةٌ وبَلاغُ[5]
لأبلُغَ من علم الشريعة مبلغاً يكون به لي في الجِنان بلاغ[6].
وفي مثل هذا فَلْيُنافِسْ أولو النُّهى. وحَسْبِيَ من دار الفناء بلاغ[7].

- وقال يفتخرُ بالعِفّة والتقوى:

وكم من صفحة كالشمس تبدو فيُسْلِيَ حُسنُها قلبَ الحزين[8]!
غضضتُ الطَّرْفَ عن نظري إليها مُحافظةً على عِرضي وديني[9].

---

(١) تألفوا: استمال بعضهم بعضاً (اجتمعوا وتعاونوا).
(٢) أمسك عن الأمر: كفّ وتوقّف. الهيبة: الخوف (من ألّا ينجحَ الإنسان في محاولة أمر). التأهّب (في القاموس) الاستعداد.
(٣) أطاق: استطاع.
(٤) قبل (بكسر ففتح) الطاقة، الاستطاعة (الاحتمال). الجلد: تكلّف الأمر ومحاولة (القيام) به.
(٥) بلاغ: ما يرجو الإنسان أن يصل إليه في الحياة، الغاية من الحياة.
(٦) بلاغ: وصول، نيل (الدخول إلى الجنّة).
(٧) أولي (أصحاب) النهى (العقل). بلاغ: الضروري من أسباب المعاش (ما يتبلّغ الإنسان به: ما يكتفي به)
(٨) صفحة: خدّ، وجه. كالشمس: مشرقة (جميلة). يسلي من أسلى (أدخل السلوّ أو التسلّي أو النسيان على النفوس).
(٩) غضّ الرجل طرفه (بصره): كفّه، خفضه (منعه من أن يرى ما لا تجوز رؤيته).

٤ - القوانين الفقهيّة في تلخيص مذهب المالكيّة، تونس ١٣٤١ - ١٣٤٤ هـ = قوانين الأحكام الشرعية ومسائل الفروع الفقهية، بيروت (دار العلم للملايين) بلا تاريخ[١].
- التسهيل لعلوم التنزيل، مصر (مصطفى محمّد) ١٣٥٥ هـ؛ بيروت (دار الكتاب العربي) ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م.

★★ الديباج المذهب ٢٩٥ - ٢٩٦ (٢٦٤)؛ نيل الابتهاج ٢٣٨ - ٢٣٩؛ الدرر الكامنة ٣: ٣٠٣؛ درّة الحجال ٢: ١١٧ - ١١٨؛ الكتيبة الكامنة ٤٦؛ نفح الطيب ٥: ٥١٤ - ٥١٧؛ أزهار الرياض ٣: ١٨٤ وما بعد؛ الداية ٥٢٩ - ٥٣٣ (أوجز محمّد رضوان الداية رؤوس موضوعات البلاغة في كتاب «التسهيل»)؛ بروكلمن ٢: ٣٤٢، الملحق ٢: ٣٧٧؛ الأعلام للزركلي ٥: ٣٢٥ (٦: ٢٢١).

أبو حيّانَ الغَرْناطي

١ - هو أثيرُ الدينِ أبو حيّانَ محمّدُ بنُ يوسفَ بنِ عليٍّ بنِ يوسفَ بن حيّانَ النَّفْزيُّ الجَيّانيّ الغَرْناطي، أصلُ أهلِهِ من قبيلة نَفْزَة البربرية من المغرب الأقصى جاءوا إلى الأندلس وسكنوا جَيّانَ.

وُلِدَ أبو حيّانَ في قريةٍ قُرْبَ غَرناطَة في أواخر شوّال من سَنَة ٦٥٤ (أواسط تشرين الثاني - نوفمبر ١٢٥٧ م). وقد تلقّى في غرناطة شيئاً من علوم القرآن والحديث واللغة على عدد من الأئمة القليلين الذين كانوا آنذاك في غرناطة. كان من هؤلاء ابن الطبّاع فلم يُسَرَّ منه أبو حيّان فكشف عن عيوبه في كتاب له سمّاه «الإلماع في فساد إجازة ابن الطبّاع»[٢]. ويبدو أن سلطان غرناطة - أبا عبدِ اللهِ محمّدَ بنَ محمّدٍ المعروفَ بالفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ) - غضب من أجل ذلك على أبي حيّان فانتقل أبو حيّان إلى مالَقَةَ (وكانت مالقة آنذاك تحت حكم المرينيّين) وسمع شيئاً من علوم القرآن واللغة من أبي جعفرِ بن الزبير[٣]. ثم إنّه غادر الأندلس إلى سبتة (المغربِ الأقصى) سنة ٦٧٩ هـ

---

(١) كتب عبد العزيز سيّد الأهل (توفيّ نحو ١٩٨٠ م) تعريفاً قصيراً لهذا الكتاب (ص ٥ - ١١).

(٢) الإجازة: شهادة من عالم في فنّ من الفنون بأنّ الذي يحمل منه هذه الإجازة قد سمع منه الفنّ الذي يلقيه.

(٣) يذكر بروكلمن (٢: ١٣٣) أن أبا حيّان الغرناطي كان يدرس في مالقة منذ سنة ٦٧٠ هـ. وهذا يعني أنه غادر غرناطة قبل أن يجيء محمّد بن محمّد الفقيه إلى عرش غرناطة.

وسمع من أبي الحكم مالك بن المُرحَّل (ت ٦٩٩ هـ) ومن أبي القاسم العَزْفيّ (٧١٧ هـ). وتطوّف مدة في المغرب.

ولا نعلم متى بارح أبو حيّانَ سبتةَ إلى المشرق، ولكننّا نعلم أنه تطوّف كثيراً في مصر والسودان والحَبَشة والحجاز والعراق والشام. وقد أخذ أبو حيّان في أثناء ذلك كُلّهِ أوجهاً من فنون العلم عن أئمّة البلدان التي زارها. وقد سمع في القاهرة من بهاء الدين أبي عبد الله محمّد بن إبراهيم الحلبي المعروف بابن النحّاس (ت ٦٩٨ هـ = ١٢٩٩ م).

ودرّس أبو حيّان الغرناطي التفسيرَ والحديث والنحو في الجامع الأقمر في القاهرة وخَلَفَ أستاذَه ابنَ النّحاس في تدريس هذه الفنون في المدرسة المنصورية في القاهرة. وكذلك درّس في المدرسة الصالحية في دمشق (٧٣٥ هـ = ١٣٣٥ م).

في أول الأمر كان أبو حيّان على المذهب الظاهريّ، وكان في الوقت نفسه مائلاً إلى التشيّع. في هذه الأثناء كان مُعْجَباً بابن تيميّة (ت ٧٢٨ هـ). ثمّ إن أبا حيّان انتقل إلى مذهب الشافعي فجعل يحمل على ابن تيمية ويتّهمه بالقول بالتجسيم.

وكُفَّ بَصَرُ أبي حيّان في أواخر أيامه. وكانت وفاته في ٢٨ صَفَرَ ٧٤٥ (١٣٤٤/٧/١١ م).

٢- كان أبو حيّان الغرناطي عارفاً باللغة وإماماً في الصرف والنحو وبارعاً في التفسير والحديث والفِقه. وكان شاعراً مكثِراً وفي ديوانه قصائدُ ومُقطّعاتٌ ومُوشّحات، وفنونُ شعرِه كثيرةٌ منها المدحُ والوصف والخمر والغزلُ والمُجون. وكان يقول الشعرَ رَوِيَّةً وآرتجالاً. وعلى شعره شيء من الضعف وفيه كثير من الصّناعة وشيء من الفكاهة. وله أيضاً رسائل أدبيةٌ.

وعَرَفَ من اللغاتِ الأجنبيةِ الفارسيةَ والتركيةَ والحبشيةَ. وكانت مؤلفاته نحو خمسين منها: البحر المحيط في تفسير القرآن العظيم- إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب- التذييل والتكميل في شرح التسهيل (في اللغة)- منهج السالك في الكلام على ألفيّة ابن مالك- نهاية الاعراب في علم التصريف والاعراب- رجز مجاني القصر في

شعراء العصر - نوافث السِّحر في دماثة الشعر - تحفة النُّدُس في نحاة الأندلس - الإدراك للسان الأتراك - الأفعال في لسان الترك - منطق الخرس في لسان الفرس - نور الغَبَش في لسان الحبش - المخبور في لسان اليحمور.

٣- المختار من آثاره

- لأبي حيّانَ الغَرناطيّ أبياتٌ مشهورة من الحِكمة البارعة في الأصدقاء والأعداء:

عِـداتي لهم فضـلٌ عليّ ومِنَّـة، فلا أَذْهَبَ الرحمنُ عنّي الأعاديا.
هُمُ بحثوا عن زَلّـتي فٱجتنبْتُهـا، وهم نافسوني فٱكتسبْـتُ المعاليـا.

- وله في التهكّم بالمتصوّفين:

أيا كاسياً من جيِّد الصوف نفسَهُ ويا عارياً من كُلّ فضل ومن كَيْس[1].
أتُزْهى بصوفٍ، وهو بالأمس مُصْبِحٌ على نعجةٍ واليومَ أَمسى على تَيْس !

- وله في الوَداع، وفيه توريةٌ بين ٱبنِ مُقلةَ (خطّاط عبّاسي بارع مجيد) وبين ٱبن مقلةٍ (ابن العين: الدمع):

سَبَـقَ الدمـعُ بالمسيـلِ المطايـا إذْ نوى مَنْ أُحِـبُّ عَنِّيَ نُقْلَهْ؛
وأجـادَ السُّطورَ في صفحـة الـ ـخدّ؛ ولِمْ لا يُجيدُ وهو ابن مُقْلَهْ؟

- وقال في الدفاع عن البخل:

رجاؤك فَلْساً قد غدا في حبائلي قَنيصاً، رجاءٌ للنِّتاج مِنَ العُقْمِ.
أأَتعَـبُ في تحصيلـه وأُضيعـه؟ إذاً كنتُ معتاضاً عن البُرْءِ بالسُّقْم!

- وقال في فضل المال:

أتـى بشفيـعٍ ليس يُمْكن ردُّه؛ دراهمُ بيـضٌ للجروح مراهمُ؛
تُصيِّرُ صعبَ الأمرِ أهونَ ما يُرى، وتَقْضي لُباناتِ الفتى وهو نائمُ.

---

(١) الكيس (بالفتح): العقل، الفطانة (بالفتح: حسن الادراك للأمور)، الذكاء.

- وقال في إباء النفس وعزّتها:

وقَصَّرَ آمــالي مــآلي إلى الرَّدى وأنّي،وإنْ طالَ المَدَى، سوف أهلكُ
فضَنَّتْ بماءِ الوجه نفسٌ أبيَّةٌ، وجادَتْ يميني بالذي كنتُ أملِكُ.

- من موشّحه لأبي حيّان الغرناطيّ في الخمر):

إنْ كان ليلٌ داجْ وخاننا الإصباحْ فنُورها الوهّـاجْ يُغني عن المِصباحْ[1]

* * *

سُلافةٌ تبدو كالكوكب الأزهرْ؛
مِزاجُها شُهْدُ وريحُـهـا عَنْبرْ،
يا حبّذا الوِرْدُ منه وإنْ أسْكرْ[2].
قلبي بها قد هاجْ، فما يراني صاحْ عن ذلك المِنْهـاجْ وعن هوًى،يا صاحْ[3].

* * *

وبي رشًا أهيفْ قد لجّ في بُعدي[4]؛
بدرٌ فلا يُخْسَفْ منه سَنا الخـدِّ؛
بلحظهِ المُرْهَفْ يسطو على الأُسْد .
كسطوةِ الحجّاجْ في الناس والسّفاح. فما ترى من نـاجْ من لحظة السفّاحْ[5].

٤- البحر المحيط في تفسير القرآن العظيم، القاهرة ١٣٢٨ هـ.
- هداية النحو (بلا تاريخ).

---

(١) داج: مظلم. خاننا الإصباح: لم يطلع الصباح في ميعاده.
(٢) السلافة: الخمر. الشهد (بفتح الشين وكسرها وضمّها): العسل. فما يراني صاح: فما يراني قلبي صاحياً مفيقاً (من الحب والسكر). الورد (بكسر الواو): الشرب.
(٣) يا صاح: يا صاحبي.
(٤) وبي (أحبّ) رشا (غزال) أهيف (نحيل القدّ). قد لجّ في بعدي (أصر على الابتعاد عنّي). المرهف: القاطع.
(٥) الحجّاج بن يوسف والي العراق في أيام عبد الملك بن مروان كان مشهوراً بالقسوة والبطش. السفّاح (الأولى): أبو العبّاس السفّاح الخليفة العبّاسي الأول (قتل خلقاً كثيراً من أهل البيت الأموي بقسوة وغدر. السفّاح (الثانية): الذي يسفح (يسفك) الدم. ما ترى من ناج: لا ينجو منه أحد.

- الإدراك للسان الأتراك، استانبول ١٣٠٩ هـ؛ (جعفر أوغلو)، استانبول ١٩٣١ هـ.
- تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، حماة (مطبعة الإخلاص) ١٣٤٥ هـ = ١٩٢٦ م؛ دمشق ١٩٣٢ م.
- الارتضاء في الفرق بين الضاد والظاء (بتحقيق محمّد حسن آل ياسين)، - مطبوع مع «الفرق بين الضاد والظاء» لمحمّد بن نشوان الحميري، بغداد (مطبعة المعارف) ١٣٨٠ هـ = ١٩٦١ م.
- ديوان أبي حيّان الأندلسيّ (تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي)، بغداد (مطبعة العاني) ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٩ م.

★★ أبو حيّان النحوى، تأليف خديجة الحديثي، بغداد (مطبعة النهضة)، ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦ م.

فوات الوفيات ٢ : ٣٥٢ - ٣٥٦؛ الوافي بالوفيات ٥ : ٢٦٧ - ٢٨٣؛ ابن قنفذ ٣٤٩؛ نكت الهميان ٢٨٠ - ٢٨٦؛ بغية الوعاة ١٢١ - ١٢٣؛ البدر الطالع ٢ : ٢٨٨ - ٢٩١؛ شذرات الذهب ٦ : ١٤٥ - ١٤٧؛ نفح الطيب ٢ : ٢١٢، ٢٢٨، ٢٢٩ - ٢٣٠، ٥٣٥ - ٥٨٤، ٦٥٥ - ٦٥٦، ٥ : ١٩٢، ٢٦٢، ٢٦٦، ٣٥٢، ٤٧٠؛ دائرة المعارف الإسلامية ١ : ١٢٦؛ بروكلمن ٢ : ١٣٣ - ١٣٤، الملحق ٢ : ١٣٥ - ١٣٦؛ الأعلام للزركلي ٨ : ٢٦ (٧ : ١٥٢)؛ البحث العلمي - ، ستّنبر - دجنبر (أيلول - كانون الأوّل) ١٩٦٤، ص ٢٤١ - ٢٤٧ (بقلم سعيد غراب)؛ سركيس ٣٠٦ - ٣٠٧.

الطويجن الساحلي

١ - هو إبراهيمُ بنُ محمّدِ بنِ إبراهيمَ الأنصاريُّ الساحليّ (نِسبةً إلى جَدّهِ لأُمّه) المشهورُ بطُوَيْجِنٍ من أهل غَرناطةَ. كان أبوه أمينَ العطّارين في غَرْناطةَ وعالماً فقيهاً قديراً في حساب الفرائض (تقسيم الإرث)، وكان رَبَّ أُسرةٍ معروفة بالصلاح والتقوى وعلى قَدْرٍ من الثروة.

نشأ إبراهيمُ في غَرناطةَ وتلقّى العِلمَ فيها ثمّ أصبح مُوَثِّقاً (كاتباً عدلاً) بسِماط شُهود غَرناطة.

وكان إبراهيمُ كثيرَ الرِّحلة جاء إلى الشرق فزارَ مِصْرَ والشامَ والعِراق واليمن والحجاز فحَجّ وزارَ المدينة. ويبدو أنّه، بعدَ ذلك، في سَنَةِ ٧٢٤ هـ، دخلَ بلادَ السودان (الغَرْبيّ) ثمّ عاد وَشِيكاً في العام نفسِه. ولكنْ يبدو أنه تردّدَ إلى السودان مِراراً

واتّصلَ بملكه ثمّ عاد مَرّةً وأهدى إلى مَلِكِ المَغْرِب هديةً طريفة فأثابه ملكُ المغرب عليها مالاً كثيراً.

وعاد في اواخرِ أيامهِ إلى السودانِ ونَزَلَ في تَنْبُكْتو (مالي اليوم) فأدركَتْهُ فيها الوَفـاةُ، يومَ الإثنـينِ في السابـعِ والعِشرينَ من جُمادَى الآخِرَة من سَنَةِ ٧٤٧ (١٦/١٠/١٣٤٦ م).

٢ - كان الطويجنُ الساحليّ ناظما وناثراً قديرا يجمَعُ الجَزالة والمتانة وربّما رأيتَ على شعره شيئاً من الرِّقّة. ثمّ هو كثيرُ الغريبِ يتكلّفُ الصِّناعةَ ويُكثِرُ في نثرِه خاصّةً من الإشارات التاريخية والأدبية حتّى ليَقْرُبُ أن يُصبحَ شِعرُه ونثرُه ألغازاً. ولا شكّ في أنّه كان مُلمًّا بعددٍ من العلوم. والمادّة في أدبه تَغلِبُ على الأسلوب. وشِعرُه مقسّم بين المدحِ والرثاء والنسيب والخمر، وله أشياءُ على طريقة القوم (الصوفية).

٣ - مختارات من آثاره

- لمّا وصل الطويجنُ الساحليُّ في بعضِ أسفاره إلى مدينةَ مَرّاكُشَ خاطَبَ أهل غَرناطةَ برسالةٍ طويلة منها:

سلامٌ ليس دارينُ شعارَه وحلق الروض والنضير به صِداره[١]، وأنسى نجْداً شمَّه الزكيّ وعَرارَه[٢]. جرّ ذيلَه على الشجر فتعطّر وناجى غُصُنَ البانِ فاهتّز لحديثه وتأطّرَ[٣]. وارتشفَ النَّدى من ثُغور الشقائق وحيّا خُدود الوردِ تحتَ أرْدِيَةِ الحدائق. طَرِبَتْ له النجديةُ المُسْتهامة فهَجَرت صباها ببطن تِهامة[٤]. وحنّ ابنُ دَهمانَ لِصباه

---

(١) دارين: مكان مشهور (في الشام وفي البحرين) بنباتاته ذات الرائحة الطيّبة. الشعار: الطراز، العلامة. الصدار ثوب نصفي يغطّي الصدر. والجملة: «سلام.... صداره» غير مفهومة. اقرأ: «سلام لبست دارين شعاره، وحلّى الروض النضير به صداره» (سلام أخذت دارين منه عطرها، واتّخذ الروض النضير- الزاهر- منه صداره، أي ثوبه الجميل الألوان).

(٢) شمّه (اقرأ: شميمه). العرار نبات زكيّ الرائحة (إشارة إلى قول الشاعر: تمتّع من شميم عرار نجد).

(٣) سلّام جرّ ذيله (مع).... تأطّر: تثنّى، تمايل (من السرور والطرب).

(٤) النجديّة (؟) المستهامة ،الهائمة: المشغوفة، العاشقة (الحمامة ؟). هجرت صباها (بالفتح: ؟ بالفتح: الريح الباردة). تهامة: ساحل الحجاز (المنخفض عند شاطىء البحر).

وسَلا بـه التميميّ عن رَيّاه[١] وأُنْسِيَ النُّميريّ[٢] ما تَضوّع بزَيْنَبَ من بطن نعمانه[٣]... حتّى إذا راقتْ أنْفاسُ تَحِيّاته ورقّتْ وملَكَتْ نفائسَ النفوسِ واستشرقت[٣]. ولَبست دارينَ في مِلائها ونظمتِ الجَوْزاء في عِقدِ ثِنائها[٤] واشتغل بها الأعشى عن رَوْضهِ ولَهى، وشَهِدَ ٱبنُ بُرْدٍ شَهادةَ أطرافِ المَساويك لَها[٥] خيّمتْ في رَبْعِ الجود بغَرناطةَ ورقّتْ وملأتْ دَلْوها إلى عَقْدِ ركبه[٦]، وأقبلتْ منابِتُ شرقِها عن غَرْبه لا عن عَرْفه[٧]. هنالك تَتْري لها صدور المجالس تَحْمِلُ صُدوراً[٨] وترايبُ المعالي تُحَلّي عقوداً نفيسةً وجذورا[٩]، ومحاسنُ الشرف تُحاسِنُ البُروجَ في زُهْرها[١٠] والأفْنيَةَ في إيوانِها والأنْدِيَةَ في شِعْبِ بوّانِها[١١]. لو رآها النُعمان لَهَجَرَ سَديرَهُ[١٢] أو كِسْرى لَنَبَذَ

---

(١) «وحنّ ابن دهمان لصباه (؟). سلا: نسي. التميميّ (؟) رياه (اقرأ: ريّانه، لموازنة نعمانه الآتية).

(٢) النميري هو محمّد بن عبد الله بن نمير (ت نحو ٩٠ هـ) شاعر أمويّ له قصيدة مطلعها:

تضوّع مسكـا بطن نَعمان إذ مشت ... بـه زينب في نسوة عَطِرات.

نعمان: وادٍ في الحجاز (نَعمان الإراك).

(٣) اقرأ: واسترقّت.

(٤) الجوزاء مجموع من النجوم.

(٥) اقرأ: ولها (من لها يلهو) يشير إلى الأعشى ميمون بن قيس الذي يقول في معلّقته اللامية: ما روضة من الحزن (بفتح الحاء) معشبة....

(٦) يقول بن بشّار بن برد:

يـا أطيب النـاس ريقاً غـير مختبر ... إلّا بقيّــة أطراف المساويـك!

(٧) اقرأ: إلى عقد كربه. الكرب (بفتح ففتح): الحبل يشدّ فوق خشبة الدلو.... خيّمت في ربع الجود (يقصد وصلت رسالتي إلى قومي الكرام). رقّت (؟). ملأت دلوها إلى عقد كربه (ملأته تماماً). (المقصود غير واضح لي).

(٨) الغرب: ماء يسيل أو ينقط من الدلو عند نقله الماء به. العرف: الرائحة الطيّبة. (المعنى العامّ غير واضح).

(٩) اقرأ: الترائب (عظام في أعالي الصدر).... واقرأ: شذوراً (قطع صغيرة من ذهب توضع بين حبّات اللؤلؤ في العقد.

(١٠) تحاسن: تباهي غيرها بحسنها هي. الزهر: الكواكب. البروج: مناطق في السماء تنتقل الكواكب فيها (بحسب المدرك القديم في الفلك).

(١١) الأفنية جمع فناء (بكسر الفاء): باحة فسيحة أمام الدار. الإيوان: القاعة العظيمة الواسعة تحاسن الأفنية في إيوانها (؟).

الأندية جمع ندى: نقاط الماء التي تتجمّع في أثناء الليل على الأغصان والعشب إلخ. شعب بوّان: ممّر =

إيوانَه وسَريره[١] أو سَيفٌ[٢] لَقصَر عن غُمْدانِه أو حَسّانٌ لَترَكَ جِلِّقَ لِغَسّانه[٣]....

لك إبليس! أفلا أشفقت من عذابي وسمحت ولو بسلام من أحبابي[٤]: أسلمتني إلى ذَرع البيد ومحالفة الذميل والوخيد[٥]، والتنقّل في المشارق والمغارب، والتمطّي في الصهوات والغوارب[٦].....

- وقال في النسيب والخمر:

زارتْ وفي كلِّ لحظٍ طرفُ مُحْتَرِسِ — وحولَ كلّ كِناسٍ كفّ مُفترسِ[٧].

يشكو لها الجِيدُ ما بالحَلْيِ من هَدَرِ — ويشتكي الزَّند ما بالقُلْبِ من خرس[٨].

في لحظها سِحْرُ فِرْعَوْنٍ، ورِقّتُها — آياتُ موسى، وقلبي موضعُ القبس[٩].

= مشهور في غربيّ بلاد فارس فيه خصب كثير وفواكه متنوعة.
هذا من قول المتنبيّ

يقول بشعب بوّان حصاني: — أعن هذا يُسار إلى الطعان؟
أبوكم آدم سنّ المعاصي — وعلّمكم مفارقة الجنان.

(١٢) النعمان بن المنذر ملك الحيرة. السدير: قصر للنعمان.

(١) إيوان كسرى: بناء فخم عظيم على نحو عشرين ميلاً شرق بغداد كان العاصمة الصيفية للفرس.

(٢) سيف بن ذي يزن: ملك في اليمن. غمدان قصر.

(٣) حسّان بن ثابت. غسّان: بنو غسّان ملوك الشام في جلّق قرب بُصرى في سهل حوران (وربما أطلقها بعضهم على دمشق). إشارة إلى قول حسّان:

لله درّ عصابة نادمتهم — يوماً بجلّق في الزمان الأوّل.

(٤) لك إبليس: لا بارك الله فيك. أشفق: خاف، هاب.

(٥) ذرع: قياس. البيد جمع بيداء: الأرض الواسعة (السفر الكثير). الذميل: سير سريع ليّن: الوخيد: سير سريع بخطى واسعة. محالفة الذميل والوخيد: الاستمرار في الأسفار.

(٦) الصهوة: ظهر الحصان. الغارب: كتف البعير. التمطّي: طول السفر.

(٧) الطرف: العين. الكناس: مأوى الظبي. زارت وهي خائفة من الذين وجدتهم حولها، وكلّ من كان حولها كان يريد الوصول إليها (!).

(٨) الجيد: العنق. الحلي ما تتزيّن به المرأة. الهدر: صوت البعير والغلام (عليها حلي كثير يسمع له صوت عند تحركّها ومشيها). القلب (بضمّ القاف): سوار من قطعة واحدة. والشاعر يقصد بالقلب (الجمع: عدد من الأسورة أو الاساور) وهذه الأساور خرساء لأنّ زند الفتاة ممتلىء (كثير اللحم)، فالأساور لا تتحرّك في زندها.

(٩) القبس: النار (قلبي مشتعل بحبّها).

أشكو إليهــــا فؤاداً واجـــــلاً ، أبـــــداً

في « النـازعـات » ، ومـا تنفـكُّ في « عَبَس » .[1]

يا شقّة النفسِ ، إنّ النفسَ قد تَلِفَتْ إلّا بَقِيَّةَ رَجْعِ الصوتِ والنفس[2] .

هـذا فؤادي وجَفْني فيك قد جَمَعا ضِدّينِ فاعْتَبري إنْ شِئْتِ واقْتَبِسي[3] !

وليلـةٍ جِئْتُها سَحْراً أجوسُ بها شَبا العَوالي وخَيْفَ الأَخْنَف الشَّرِس[4] ،

بِتْنا نُعاطى بها ممزوجـةً مَزَجَتْ حُلْوَ الفُكاهة بينَ اللّين والشَّرَس[5] .

أنْكَحْتُهـا من أبيهـا وَهْيَ آيِسَةٌ فثار أبناؤها في ساعة العُرُس[6] .

نورٌ ونـارٌ أضاءا في زُجاجتِها : فذاك خَدُّكِ ، يا ليلى ، وذا نَفَسي !

حتّى إذا آبَ نورُ الفَجْرِ في وضَحٍ من معرك جال بين الفَجْر والغَلَس[7] ،

قامـتْ تَجُرُّ فُضولَ الرَّيْطِ آنِسَةً كريمةَ الذيلِ لم تجنَحْ إلى دَنَس[8] .

تلوثُ فوق كَثيـبِ الرمل مِطْرَفَها وتمسَحُ النومَ عن أجفانِها النُّعُس[9] .

فظـلّ قلـبي يَقْفوهـا بمُلتهِـبٍ طوراً ، ودمعيَ يَتْلوها بمُنْبجِس[10] :

---

(١) واجلا : خائفاً (من أن تهجره). النازعات وعبس : السورتان ٧٩ و ٨٠ في المصحف. من معاني النزوع : الحنين والاشتياق. العبس (بفتح فسكون والعبوس) : تجمّع جلدة الوجه دلالة على النفور والزجر.

(٢) الشقّة : (بفتح الشين) : الجزء من الشيء و (بضمّ الشين) : نصفه.

(٣) الضدّان : الماء (البكاء) في عيني ، والنار في قلبي : اعتبري : تعجّبي . وإن لم تصدّقي فاقتبسي (قرّبي شيئاً من قلبي فإنّه يحترق).

(٤) السحر (بفتح ففتح أو بفتح فسكون) : الزمن عند الفجر . أجوس : أدور ، أتجوّل . الشبا : حدّ السيف أو السكّين . العوالي جمع عالية : أعلى الرمح . الخيف جمع خيفة (بفتح الخاء) : عرين الأسد . الأخنف (؟).

(٥) بتنا (قضينا الليل) نعاطى : نسقى مرّة بعد مرّة . بها (في تلك الليلة). ممزوجة (خمراً ممزوجة بماء) لعلّها يقصد : مشمولة (خمراً مرّت عليها ريح الشمال - بفتح الشين - فأصبحت باردة).

(٦) أنكحتها : زوّجتها من أبيها (الماء) : مزجتها بماء . وهي آيسة (امرأة فارقها الحيض) كناية عن قدمها . فثار (تطاير . أبناؤها : فقاقيع الماء التي تجول على وجه الخمر عند مزجها بالماء . في ساعة العرس (عند امتزاج الخمر بالماء).

(٧) آب : رجع . الوضح : الوضوح ، البياض . الغلس الظلام . « من معرك جال » (؟).

(٨) الريطة : قطعة واحدة من نسيج نفيس تُلبس فوق الرداء ، فضول الريط : أطراف الريطة القريبة من الأرض (قامت تجرّ إلخ : انصرفت بأمان). آنسة : فتاة صغيرة السنّ . كريمة الذيل طاهرة ، نقيّة (محفوظة كرامتها). جنح : مال.

(٩) تلوث : تلفّ . كثيب : الرمل : تلّة (كناية عن امتلاء جسمها في وسطه). المطرف : ثوب ثمين.

(١٠) قفا : تبع . يتلوها : يرافقها ، يتبعها . منبجس : سائل فائض (من الدمع).

دهرٌ يُلَوِّنُ لَوْنَيْـــهِ كعادتـــهِ: فالصبحُ في مأتمٍ والليلُ في عُرُس !

– وقال وفي قوله لَمَحاتٌ من التصوّف:

دعِ العينَ تُذري الدمعَ في طَلَلِ الرَّبْعِ فليس حراماً أن أُريقَ بها دمعي[١].
وحَـدِّثْ عنِ القوم الذين عَهِدْتُهم: أحلّوا بنجدٍ أمْ أقاموا على سَلْع[٢]؟
وإن لم يكنْ قـد فاز طَرْفي بنظرةٍ إليهم، فحَسْبي أن يفوزَ بهم سمعي.
ذكرتُـكَ، يا نَجْـدُ، ففاضتْ مدامعي. وأيُّ نصيرٍ للمُحبّ سوى الدمع!
وإن تَقْنِ، يا نفسُ، العَزاءَ تجمُّلاً، فإنّكَ مكلومُ الحَشا دائمُ الصَدْع[٣].
أَحِنُّ، كما حَنّتْ رِكابي، إلى مِنَى؛ وما دَارُها داري ولا رَبْعُها ربعي[٤].
وقالوا: غـداً تُقْضى بجَمْعٍ دُيونُنا. وحَسْبي بجَمْعٍ أن أرى ليلةَ الجَمْع[٥].
لِعَيْنـكِ قلبي، يا ابنةَ القوم، طائعٌ صبورٌ على الشَكْوى (شَكور) على المنع!
تَجلَّى لطَرْفي في مُحيّـاكِ رَوْضـةٌ ووَرْدَتُه المُحْمَرَّةُ اللونِ من زَرْعي[٦].
وثَغرُكِ من دَمْعي وخَـــــدُّك من دَمي،
وخصرُكِ من فِكْري وحَلْيُـــــك من سَجْعي[٧].
قَصَرْتُ فُؤادي في رِضاك على الجَوى وحرّمْتُ عَذْلي في هَواك على سمعي[٨].

(١) أذرى: فرّق، أسال. الربع: المسكن. أراق: سكب على الأرض.
(٢) الذين عهدتهم: الذين أعرفهم. أحلّوا.... إلخ: أين هم اليوم؟
(٣) أن تقن العزاء: (أن تحفظيه): تصبري. التجمّل: التشدّد واحتمال المصيبة (خوفاً من شماتة العدوّ). مكلوم: مجروح. الحشا: داخل الجسم (القلب). الصدع: الانكسار. كان يخاطب النفس، ثمّ التفت إلى مخاطبة نفسه: فإنّك (بفتح الكاف).
(٤) الركاب: ما يركبه المسافر (الناقة). مِنى: مكان قرب مكّة فيه منسك للحجّاج (كناية عن الشوق إلى الله).
(٥) جمع: مزدلفة، قرب مِنى حيث يبيت الحجّاج بعد نزولهم من عرفات. تقضي جميع ديوننا: تتحقّق جميع آمالي. أن أرى ليلة الجمع: أن أكون وإياها في مكان واحد (كناية عن العزّة الإلهية).
(٦) – احمرّ خدّاها لمّا نظرت أنا إليها فاستحيت.
(٧) – ريقك الصافي من دموعي، ولون خدّيك من دمي، وخصرك ناحل كنحول فكري من كثرة التفكير فيك (؟) ونغم ما تتزيّنين به من الحلى جميل كشعري فيك (!).
(٨) قصرت فؤادي: جعلته يكتفي. الجوي: ألم الحبّ. العذل: اللوم. رضيت أن أتألّم لصدودك عنّي ولم أرض أن ألومك أو أن أسمع لوماً فيك.

٤ - ★★ الإحاطة ١: ٣٣٧ - ٣٤٩؛ الكتيبة الكامنة ٢٣٥ - ٢٣٨؛ نفح الطيب ٢: ١٩٤ - ١٩٥، ٦٥٧ - ٦٥٨.

أبو بكر بن شَبْرين

١ - هو الشيخُ الكاتب القاضي أبو بكرٍ محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ محمّدِ بنِ أحمدَ بنِ محمّدِ بنِ أحمدَ بنِ شَبْرينٍ الجُذاميُّ، أصلُه من إشبيليةَ، من حِصْنِ شِلْبَ[1]، انتقلَ أبوه - سَنَةَ ٦٤٦ هـ - من إشبيلية إلى رُنْدةَ ثمّ سَكَنَ غَرناطةَ ثمّ انتقل إلى سَبْتَةَ (في المغرب).

وُلِدَ أبو بكرٍ بنُ شَبرينٍ في سَبتةَ، في أواخر سَنَة ٦٧٤ هـ (١٢٧٦ م). بدأ تعلُّمَه بالقراءةِ على جَدّه لأُمّهِ أبي بكرِ بنِ عُبيدةَ الإشبيليِّ وعلى الأُستاذ أبي إسحاقَ الغافقيّ. ثمّ إنّه رَحَل إلى تُونسَ ولَقِيَ نفراً من علمائها.

وفي أواخرِ سَنةِ ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ - ١٣٠٦ م) جاء إلى غَرناطةَ وتولّى الكتابةَ للسُّلطان أبي عبدِ الله محمّدِ بنِ محمّدِ المخلوع (٧٠١ - ٧٠٨ هـ). وتولّى القضاءَ أيضاً. وقد رَثَى الوزيرَ ابنَ الحكيمِ الرُّنديَّ (قُتل ٧٠٨ هـ) ثُمّ رثى السُلطان مُحمّدَ بنَ إسماعيلَ (٧٢٥ - ٧٣٣ هـ) المقتول.

وكانت وفاةُ أبي بكرِ بنِ شَبْرين في ثالثِ شَعبانَ من سَنةِ ٧٤٧ (١٩/١١/١٣٤٦ م).

٢ - كان أبو بكرِ بنُ شَبرينٍ من أهلِ الدين والفضل والعَدالة ومن شُيوخ الكُتّاب حَسَنَ الخطّ. وكان فصيحاً مُقتدراً في نظم الشعر بارعاً في النثر. وفنونُ شعرِه الرثاءُ والفخر. وقصائدُه طِوالٌ وعليها شيء من الرَّوْنق والنَّفَسِ الصوفي. غير أنّه أحياناً كثيرُ التكلّف.

---

(١) حصن شلب (؟). هنالك بلدة معروفة باسم «شلب» تبعد مائتي كيلومتر إلى الغرب من إشبيلية، وتقع قرب الساحل الجنوبيّ في البرتقال اليوم.

٣- مختارات من آثاره

- قال ابنُ شَبرينِ الجُذاميُّ في القائدِ بكرونِ بنِ الأشقر الحَضْرمي (ت ٧١٤ هـ): «كان له في الخِدمة مكانٌ كبيرٌ وجاهٌ عريض. ثمّ صرَفَه الأمرُ عنِ اسمهِ★ وأنزله الدهرُ على حُكمه. تغمّدَه اللهُ برحمته (الإحاطة ١: ٤٥١-٤٥٢).

- وقال في التذكّر والاعتبار والابتهال:

ظَعَنَ الصِّبا، ومِنَ المُحال قُفولُهُ. إنْ كُنتَ باكِيَهُ فتلك طُلولُهُ[١].

رَعياً لجيراني وللطِّلِّ الذي قد كان يجمَعُنا هناك ظَليلُه.

هذي دِيارُهُمُ فمَثِّلْهُمْ بها، إنّ المُتَيَّم شأنُه تمثيلُه[٢].

عهدٌ أُحيلتْ حالُه، فاليومَ لا معقولُه مِنّا ولا منقولُه[٣].

أشَجاكَ مجتمَعٌ عفَتْ آياتُه وتعاوَرَتْه شَمالُه وقَبولُه[٤]؟

قد كُنتَ تصْغُرُ عن سِني فِتْيانه، فاليومَ تصغُرُ عن سِنيكَ كُهوله[٥].

ما كان ماضي العيشِ إلّا خطرةٌ خَطَرَتْ، ووقتٌ قد تتابع جيله[٦].

ضيّعتَ في طلبِ الفُضول بُكورَه، لكنْ نَدِمْتَ وقد أتاكَ أصيله[٧].

دعْ عنك تَذْكارَ الصِّبا، إنّ الصبا رسمٌ يَهيج لك الغرامَ مَحيله[٨].

---

(١) ظعن الصبا (رحل الشباب). القفول: الرجوع. الطلل: مكان البيت بعد أن يتهدّم. (يشبّه الجسم بعد أن يفارقه الشباب بالطلل). ★ رسمه (؟).

(٢) المتيّم: الذي أمرضه الحبّ (لأنّه لا يستطيع أن يصل إلى محبوبه) يتخيّل محبوبه تخيّلاً.

(٣) أحيلت: تبدّلت. في ألفاظ الفلاسفة: المعقول (المعروف بالبرهان) والمنقول (المروي، الواصل إلينا عن أسلافنا). لم يبق من شبابي حقيقة ولا مظهر.

(٤) شجا، يشجو: حزن (فعل متعدٍ) وأحزن. عفا يعفو: امّحى. الآية: العلامة (مظاهر العمران)؟. تعاورته (الرياح) تداورته: تهبّ عليه من جهة مرّة ثمّ من جهة ثانية مرّة أخرى. الشمال: الريح الشمالية. والقبول: ريح الصبا (القاموس ٤: ٣٤) وتهبّ من المغرب.

(٥) الكهل من جاوز الأربعين. كنت أصغر أصحابي (في أيامهم) فصرت أكبرهم سنًّا (في أيامي).

(٦) خطرة: مدّة يسيره. تتابع جيله: ماتوا واحداً بعد واحد.

(٧) بكوره: أوّله (زمن الشباب). أصيله (الأصيل: ما بين الظهر والعصر): آخره (عصر الشيخوخة).

(٨) المحيل: التغيّر الممحوّ.

يا مَفْرِقاً نَزَلَ المشيبُ به، اتَّئِدْ؛ فالحُرّ لا يُؤذَى لَدَيْهِ نَزيلُه[1].

لم يعتمدْ شَيْبٌ مَحلّةَ لِمّةٍ سوداءَ إلّا والحِمام زميلُه[2].

قد كان أُنسي في الشباب فصَدّني وأبى عليّ وِصالُه ووُصولُه[3].

حسبي إذا رُمتُ الأنيسَ مُؤنِّسٌ - من ربِّنا سُبحانَه- تنزيلُه[4].

يَبْلى الزمانُ ولا يزال مُجدَّداً، لا نَصّه يَبْلى ولا تأويلُه[5].

يا حاضراً عِندي، وليس بجائزٍ إدراكُه؛ إنّ العُقول تُحيلُه[6].

يا غائباً عَن ناظريَّ ولم يَغِبْ إحسانُه عنّي ولا تَنْويلُه[7]،

يا واحداً حقًّا، وليس بمُمْكِنٍ تَشبيهُه- كَلّا- ولا تَخْييلُه،

أنا ذلك العبدُ الظَّلومُ لنفسِهِ زلّتْ به قدمٌ وأنت مُقيلُه.

٤- ** الإحاطة ١: ١٠٤، ٤٥١-٤٥٢، ٥٥١-٥٥٢، ٥٥٧، ٢: ١٧٤-١٨٢؛ الكتيبة الكامنة ١٦٦-١٧٢؛ اللمحة البدرية ٩٨-١٠٢؛ أوصاف الناس ٣٧-٣٩؛ أعمال الأعلام ٢٩٨، ٣٠١-٣٠٤؛ المرقبة العليا ١٥٣؛ نفح الطيب ١: ١٧٧-١٧٨؛ ٥: ٥٤١-٥٤٣، ٦: ٢٥١-٢٥٣؛ النبوغ المغربي ٤١٣-٤١٥، ٧٣٧-٧٣٨، ٩٣٣-٩٣٦.

ابن الجيّاب الغرناطيّ

١- هو أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمّد بن سُليمانَ بن عليِّ بنِ سُليمانَ بن حسنٍ الأنصاريُّ المعروفُ بآبنِ الجيّاب، وُلدَ في غَرناطةَ في جُمادى الأولى من سَنَة ٦٧٣ (خريف ١٢٧٤ م).

---

(١) المفرق: نصف الرأس أو جانبه (مكان فرق الشعر) اتئد: سر على مهل. النزيل: الضيف (كناية عن الشيب).

(٢) اللمّة: شعر مقدّم الرأس. الحِمام: الموت.

(٣) قد كان (الصبا: لهو الشباب) أنسي... وأبى عليّ وصاله ووصوله (لا أنا الآن أصلح له ولا هو يصلح لي).

(٤) الآن تبدّلت باللهو قراءة القرآن (تنزيله).

(٥) النصّ (ظاهر اللفظ) وتأويله (النظر في باطن المعنى).

(٦) يا حاضراً (خطاب لله تعالى).. العقل يمنع أن يدرك الإنسان حقيقة الله.

(٧) ياغائباً (لأنّ الله لا يُرى). التنويل: العطاء.

أخذ أبو الحسن بنُ الجيّاب أشياءَ من العلم عنِ آبنِ الزُّبير الثَّقفيّ (ت ٧٠٨ هـ) صاحبِ «صِلةِ الصلة» وعنِ آبنِ رُشيدِ السَّبْتيّ (ت ٧٢١ هـ) صاحب الرِّحلة.

دَخَلَ ابنُ الجيّاب إلى الديوانِ السُّلطاني كاتباً سَنَةَ ٧٠٨. ثم إنّه وَزَرَ لأبي الحجّاجِ يوسفَ النيّارِ سابعِ سَلاطينِ بني نصرٍ في غَرناطة (٧٣٧ - ٧٥٥ هـ). ويبدو أنّه آستمرّ في خِدمة الدولة النَّصْرية مُنذُ تولّى الكتابةَ إلى حينِ وفاتهِ بالطاعون، في ٢٣ شوّال ٧٤٩ (١٣٤٩/١/١٥ م).

٢- كان أبو الحسنِ بنُ الجيّاب مُتَفنّناً في العلومِ مُقدَّماً فيها: في القراءات والحديث والفِقه والفرائض وفي اللُّغة والنحو والبلاغة والأدب وفي الحساب والتاريخ، كما كان مشاركاً في علمِ التصوّف. ثمّ إنّه كان ناثراً وشاعراً مُكثِراً في عددٍ من فنونِ الشعر: في الغَزَلِ (الصوفي على الأرجح) والمدح والرِثاء والادب (الحكمة) وفي الألغاز. ومَعَ أن شعره سهلٌ واضحٌ صحيحُ المباني، فإنّ رَوْنَقَه قليلٌ. وله مُعَشَّرات في الشعر.

٣- مختارات من آثاره

- من رسالةٍ لابنِ الجيّابِ الغَرْناطي على لسانِ سُلطان غَرناطة[١] إلى السلطان أبي سعيدِ المرينيّ صاحبِ فاسَ (٧١٠ - ٧٣٢ هـ):

المَقامُ- لدى المَلِكِ المنصورِ الأعلامِ والفضل الثابتِ الأحكامِ، والمجدِ الذي أشرْقت به وجوهُ الأيام والفخرُ الذي تُتَدارَسُ أخبارُه بينَ الرُكن والمَقام[٢] والعِزّ الذي تعلو به كَلِمة الإسلام- مَقامُ[٣] مَحَلّ الأبِ الواجبِ الإكبار والإعظام...... أمّا بعدَ حَمْدِ الله الذي أَوْلاكُمْ مُلْكاً منصوراً وفخراً مشهوراً، وأحيا بدَوْلتكم العَلِيّةِ لمكارمِ الأخلاقِ ذِكْراً منشوراً، والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدنا محمّدٍ رسولِ اللهِ الذي اختاره (اللهُ)

---

(١) في هذه المدّة (٧١٠-٧٣٢ هـ) كان في غرناطة ثلاثة سلاطين: أبو الجيوش نصر بن محمد (٧٠٨-٧١٣ هـ) وأبو الوليد إسماعيل بن فرج ومحمّد بن إسماعيل (٧٢٥-٧٣٣ هـ).

(٢) الركن اليماني ومقام إبراهيم عند الكعبة المشرّفة.

(٣) مقام: خبر «المقام» (في أوّل الرسالة).

بشيراً ونذيراً[١]، وشَرَحَ بهدايته صُدوراً،..... وأمّا الذي عند مُعَظِّمِ أمرِكم من الإعظام لِمَقامكم والإكبار[٢]، والثناء المُردَّدِ المُجدَّدِ على توالي الأعصار[٣].... والعِلْمِ بما لكم من المكارم التي سار ذِكْرُها في الأقطار أشهرَ من المَثَل السيّار، والاعتدادِ[٤] بسُلطانكم العَليّ في الإعلان والإسرار، والاستنادِ إلى جَنابِكم الكريم في الأقوال والأفعال والأخبار... وإلى هذا - أيّدَ اللهُ تعالى سُلطانكم ومهّدَ[٥] أوطانكم - فَقَدْ تقدّمتْ مُطالعةُ مَقامِكم، أسْماهُ اللهُ، أنّ مَلِكَ قشتالةَ دَسّ مَنْ يَتحدّثُ في عقدِ صلحٍ يعودُ بالهُدنة على البلاد ويرتفع به عنها مُكابدته من جهةِ الأعادِ[٦]. وقدّرْنا أوّلاً أن ذلك ليس على ظاهرِ الحالِ فيه وأنّه يُبدي فيه غيرَ ما يخفيه. ولكن جرَيْنا مَعَه في ذلك المِضْمار قَصْداً للتشوُّفِ على الأخبار[٧]. فلمّا دار الحديثُ في هذا الحُكْمِ ظَهَرَ منه أنّه قد جَنَحَ للسِّلْم. وكان خديمُنا نَقْروزُ[٨]، بحُكْمِ الاتّفاق، قد وَرَدَ إشبيليَةَ لبعضِ أشغاله، فاستحضره وأخذَ مَعَه في أمرِ الصلحِ وشَرْحِ أحوالهِ.... فأُعيدَ إليه بأنّه إن أرادَ المُصالحة على صُلْحِ والدِه مَعَ هذه الديارِ النّصْرية من غير زيادةٍ على شروطِ تلك القضيّة، ولا يَعْرِضُ لاسترجاعِ مَعْقِلٍ من المعاقلِ التي أُخْلِصَتْ من يدِ النَّصْرانية، وأن يكونَ عَقْده على الجزيرةِ الخضراء ورَنْدَةَ وغيرِهما من البلاد الأندلسية، فلا بدَّ من مُطالعة مَحَلِّ والدِنا السلطانِ أميرِ المؤمنين أبي سعيدٍ - أيّده اللهُ - واستطلاعِ ما يراه......

---

(١) البشير: الآتي بالخبر المفرح (للطائعين) والنذير: الآتي بالخبر المسيء (للعاصين).

(٢) وأمّا الذي عند معظم (بضمّ ففتح فظاء مشدّدة مكسورة) أمركم...: أي سلطان غرناطة.

(٣) الأعصار جمع عصر (بالفتح): الدهر، المدّة من الدهر.

(٤) لم أهتد إلى «اعتداد» في القاموس. المقصود: الاعتماد والاتكال وانتظار المساعدة عند الحاجة إلى المساعدة.

(٥) مهّد الأوطان: سكّنها، جعلتها مطمئنّة آمنة هادئة.

(٦) كابد الرجل الأمر مكابدة: عاناه، قاسي في عمله. الأعاد = الأعادي، الأعداء.

(٧) المضمار (الشوط الذي تركضه الخيل): السبيل. التشوّف: محاولة الإنسان أن يرى الأشياء البعيدة.

(٨) الخديم: الخادم، الذي نعهد إليه بتصريف الأمور، الذي نجعله وسيطاً بيننا وبين غيرنا. نقروز (؟): اسم الخديم.

- وقال ابنُ الجيّاب في الدَّهْرِ:

أرى الدَّهْرَ في أطوارِه مُتقلّباً، فلا تأمَنَنَّ الدهرَ يوماً فتُخْدعا.
فما هُوَ إلّا مثل ما قالَ قائلٌ: (مِكَرٌّ مِفرٌّ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعاً)[١]

- وقال في الهمّ والهَرَم:

وقائلةٍ: لِمْ عَراكَ المشَيبُ؟ وما إنْ بعهدِ الصِّبا من قِدَمْ[٢]!
فقلتُ لها: لم أشِبْ كَبرةً، ولكنّه الهمُّ نِصْفُ الهَرَم.

- وقال في مطلعِ قصيدةٍ (وهو غزَلٌ صوفيّ في الأكثر):

زارتْ تجرِّرُ نَخْوةً أذيالَها هيفاءُ تَخْلِطُ بالنِّفارِ دَلالَها[٣].
وافَتْكَ تَمْزُجُ لِينَها بقَساوةٍ قد أدْرَجَتْ طَيَّ العِتابِ نَوالَها[٤].
كم رُمْتَ كَتْمَ مَزارِها، لكنّه صحّت دَلائلُ لم تُطِقْ إعلالَها[٥]:
تركتْ على الأرجاء عِندَ مسيرِها أرَجاً كأنّ المِسْكَ فُتَّ خِلالَها[٦].
يا حُسْنَ ليلةِ وَصْلِها، ما ضرّها لو أتْبَعَتْ من بعدِها أمْثالَها؟
هذا الربيعُ أتاكَ يَنْشُرُ حُسنه فافْسَحْ لنفسِكِ في مَداه مجالَها.
واخلَعْ عِذارَكَ في البِطالةِ جامِحاً واَقْرُنْ بأسحارِ الهَنا آصالَها[٧].

٤- ★★ الديباج المذهب ٢٠٧ - ٢٠٨؛ الكتيبة الكامنة ١٨٣ - ١٩٢؛ اللمحة البدرية

---

(١) هذا الشطر من معلّقة امرىء القيس. المكّر: الهاجم. المفرّ: الهارب (الراجع). - هذا الحصان يُرى لسرعته وكأنّه يروح ويجيء في وقت واحد: لا تكاد تراه ذاهباً حتّى تراه عائداً. و (هنا) هو كناية عن خداع الدهر لنا.

(٢) عرا الدهر الناس: أصابهم بأحداثه. «إنْ» زائدة.

(٣) النخوة: الحماسة، التكبّر.

(٤) وافى: جاء، وصل. أدرج فلان شيئاً في شيء: أدخله. النوال: العطاء (الوصال).

(٥) رام يروم: طلب. إعلالها (كذا في الأصل). ولعلّ المقصود «كتمانها».

(٦) أرجاء جمع رجا: ناحية. الأرج: الرائحة الطيّبة. فتّ الرجل المسك: طحنه (وإذا طُحن المسك زادت رائحته، إذ تكثر سطوحه التي تلامس الهواء، ثمّ يخفّ حمل دقائقه على الهواء).

(٧) العذار (بالكسر): الشعر النابت على جانبي الوجه. والعذار: القسم من رسن الدابة والذي يوضع في رأسها. خلع الرجل عذاره: انغمس في الشهوات وترك الحياء ولم يبال بما يقول الناس فيه.

٥٨ - ٦٠؛ الإحاطـــــة ١: ١٢٤، ١٩٩، ٣٩٧، ٤٠٣ - ٤٠٤، ٥٤٥، ٥٥٠ - ٥٥١، ٥٧٠، ٢ (القاهرة ١٣١٩ هـ) راجع ٢٨٥ - ٢٨٧؛ درّة الحجال ٢: ٤٣٥؛ بغية الوعاة ٣٤٨؛ نثير فرائد الجمان ٢٣٩ - ٢٤٢؛ نفح الطيب ٤: ٣٢٦، ٥: ٢٢، ٤٣٤ - ٤٦٤، ٤٩٩ - ٥٠١، ٦٠٤، ٦: ٦٠، ١٢٤ - ١٢٨، ٢٦٠ - ٢٦١، ٧: ١٠١؛ أزهار الرياض ١: ١١٥، ٢: ٣٤٢ - ٣٤٤، ٣: ١٩٦؛ بروكلمن، الملحق ٢: ٣٦٩؛ الأعلام للزركلي (٥: ٦).

ابن جابر الوادي آشي

١ - هو شمسُ الدين أبو عبدِ الله محمدُ بنُ جابرِ بن محمّد بنِ قاسمِ بنِ أحمدَ بنِ إبراهيمَ بنِ حسانٍ القيسيُّ الوادي آشيُّ[1]، وُلِدَ في تُونِسَ سَنَةَ ٦٧٣ (١٢٧٤ م) ونشأ فيها أيضاً.

قرأ ابنُ جابر الوادي آشيُّ هذا على شيوخٍ كثيرين في الأندلس وإفريقية ومِصْرَ والشام والحجاز، رجالاً ونساءً، ثم خصّهم ببَرْنامجٍ ذكَرَهُمْ فيه فكانوا نحوَ ثلاثِمائَةٍ. وكان ابنُ جابرٍ قد رَحَلَ إلى المَشْرق مرتينِ (نحوَ سَنَةِ ٧٢٠ ونحو سنة ٧٣٤) - وقد كان في أثناء ذلك كلِهِ يسمَعُ من الشيوخ ويُقْرِىءُ الذين يجتمعون إليه.

وكانت وفاةُ ابنِ جابرٍ في تُونِسَ، في الطاعون العامّ، سَنَةَ ٧٤٩ (١٣٣٨ م).

٢ - كان ابنُ جابرٍ الوادي آشيُّ قارئاً ضابطاً للقِراءة[2] ومُحَدِّثاً واسعَ الرِواية ثِقَةً مقصوداً يرحَلُ إليه الطُلّابُ. ثم كان أيضاً لُغَوِيًّا ونَحْوِيًّا وأديباً يَرْوي الشعرَ، ورُبّما نظَم شيئاً منه بينَ الحين والحين، كما كان مُشاركاً في الفِقه. وكان وَقوراً دَيِّناً حسَنَ الخُلُق عفيفاً لطيفَ المعشر ظريفاً. ثم إنه كان يُقْرِىءُ الطُلّابَ ويُسْمِعُهم احتساباً (بلا أجرٍ)، أما عَيْشُه فكان يَكْسِبُه من العمل في التجارة.

ولابن جابر الوادي آشيِّ تصانيفُ: الأربعون البلدانيّة (في الحديث) - أسانيدُ

(١) هو غير شمس الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن جابر الأندلسي (ت ٧٨٠) - راجع ترجمته، تحت.
(٢) لقراءة القرآن الكريم.

كُتُبِ المالكية - الإنشادات البلدانية - ترجمةُ القاضي عِياضٍ (لعله أول تآليفه) - تقييد القصيدة العَروضيّة المُسمّاة المَقْصِد الجليل إلى علم الخليل (للإمام أبي عَمْرو بن الحاجب) - زادُ المسافر وأُنس المُسامر (رِحْلة تكلّم فيها على بُلدان زارها وعلى شيوخٍ أخَذ عنهم) - مُسَلْسَلات (من مَرْويات شيخهِ قاضي مِصْرَ عبدِ الغفار بن عبد الكافي السعدي، قرأها عليه) مَعَ أناشيد - بَرْنامجه.

٣ - مختارات من آثاره:

- من مقدمة برنامج الوادي آشي (ص ٣٧ - ٣٨):

.... أما بعدُ فإنّ بعض أرباب الرِّواية[١] ذا الشَّغَف بها والعِناية أحبّ أن أُقيّد له أسماءَ مَنْ لَقيتُه من شيوخي الجِلّة[٢]، زَمَنَ مُقامي بتُونس وفي زَمَنَي الرحلة، وأنْ أُسَمِّيَ له ما أخذتْه عنهم كائناً ما كان على حَسْب الوُسْعِ والإمكان، ومن أجازَني مِمّنْ لَقيتُه وأخذتُ عنه أو مِمّنْ لم آخُذْ عنه سواه[٣] أو كَتَبَ لي بها من المشرق والمغرب، وأُفْصِحَ له عن جُملة ذلك وأُعْرِب[٤]. فأجَبْتُه لِما سأل وجعلته في جُزءين كما أمّل: في أحدِهما أسماءُ الشيوخ وأنسابُهم وكُناهم وما أمكَنَ من ذِكْر مواليدِهم ووَفَياتِهم وأناشيدِهم[٥]؛ وفي الآخَرِ ذِكْرُ المأخوذ عنهم مُضافاً لهم ما فيه من عُلُوِّ سَنَدٍ[٦] لكن بالإجازة، مُعْتَمِداً في ذلك طريقَ ذوي الاستجازة إذ ★ فاتَ الحصولُ المأمولُ منهم في ذلك اللائق[٧]، لِتَعَرُّضِ الشواغل عن «السنَن» المطابق، راجياً في ذلك عُلُوَّ السندِ. واللهُ سُبحانَه الهادي للرَّشَد، وأنْ يجعلَه ذُخْراً تَقْدِمَةً ★★ بين يدَيْنا ولا يجعلَه وَبالاً[٨]

(١) الراوية: رواية (نقل) العلم عن شيوخ متقدمين.

(٢) رجل جليل من جلة (بكسر الجيم): عظيم (القاموس ٣: ٣٤٩).

(٣) سواه (كذا في الأصل): لعلها «سواء» (بالهمزة: سواء أكنتُ قد أخذتُ عنهم أو لم آخذ عنهم).

(٤) ... افصح (أكشف) له عن جلة (مجموع) ذلك وأعرب (ابين).

(٥) وأناشيدهم (؟). لعلها «وأسانيدهم» (ما يروونه عن شيوخهم).

(٦) السند العالي (في الحديث) ما كان رواته قريبين من عصر رسول الله.

★ لعلّها «إنْ».

(٧) أطلبُ الإجازة منهم عن بُعد إذا لم أستطعِ الأخذ عنهم شخصياً. اللائق (؟).

★★ لعلّها «تقدّمه».

(٨) الوبال: الهلاك.

وحَسْرةً علينا. إنه تعالى مَوْلى التوفيق الهادي لأحسنِ طريقٍ بِمَنِّه وكَرَمه.

- ترجمة لأحد شيوخه (رقم ١٣، ص ٥١ - ٥٢):

أبو محمدٍ عبدُ الله بنُ محمدِ بن هارونَ بنِ عبد العزيز بنِ اسماعيلَ الطائيُّ القُرْطُبِيُّ، رَحِمَهُ اللهُ تعالى. مَوْلِدُه بها[١] عامَ ثلاثةٍ وسِتّمِائَةٍ. أخَذَ عن جَدّه للأم المُقرىء القَيِّم[٢] بجامعِ قُرطبةَ أبي عبدِ اللهِ محمدِ بنِ قادمٍ المُعافريِّ و (عن) والدِه[٢]. ومن جِلّة أشياخه: القاضي بحَضْرة مَرّاكُش[٣] أبو القاسمِ أحمدُ بنُ يزيدَ بنِ عبد الرحمن بنِ بَقِيٍّ، وأبو محمدَ عبدُ اللهِ بنُ سُليمانَ بنِ حَوْطِ الله الأنصاريُّ الحارثيّ، وأخوه أبو سُليمانَ داوود، وأبو الحسنِ سَهْلُ بنُ مالكٍ، وجماعةٌ ذَكَرَهُمْ في بَرْنامجِ شيوخه. قَرَأْتُ عليه وسَمِعْتُ (منه) وأجازني إجازةً عامةً وكَتَبَ خَطَّه بها. وعُمِّرَ حتى أَلْحَقَ الأصاغِرَ بالأكابر[٤]. واختلط عليه في آخرِ عُمُرِه[٥]. وكان مشكورَ القلمِ نَظْماً ونثراً. ومِمّا وَجّهه لي - بخط الشيخ أبي عبدِ الله محمدِ بنِ حَيّانَ - مَرْثِيَةٌ في والدي، رَحِمَهُمُ الله تعالى، يعتذرُ فيها عن عَدَمِ حُضورِه الجنازة، لأنه لم يَعْرِفْ (بها) حتى سَمِعَ. وهي:

عزاؤك في أبٍ لكَ أوْ أخٍ لي   عزاءُ مُحَبٍّ محبوبٍ وخِلِّ.

.......[٦]

وتُوُفِّيَ - عفا الله تعالى عنه - ليلةَ الخميس الحادي عَشَرَ لِذي قَعْدَةَ عامَ اثنينِ وسَبْعِمِائَةٍ. ودُفِنَ بالزلّاج[٧].

٤- برنامج الوادي آشي (تحقيق محمد محفوظ)، أثينا - بيروت (دار الغرب الإسلامي) ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م.

---

(١) بها (في قرطبة).

(٢) القيّم: المشرف (على الجامع)؟.

(٣) حضرة مراكش (العاصمة).

(٤) عمر (بالبناء للمجهول مع تشديد الميم): طال عمره. ألحق الأصاغر بالأكابر (روى عنه الأبناء بعد أن كان قد روى عنه آباؤهم).

(٥) أقرأ: واختلط عقله....

(٦) بعد البيت السابق ثلاثة أبيات عادية ومضطربة.

(٧) الزلّاج: مقبرة كبيرة مشهورة في مدينة تونس العاصمة.

** الوافي بالوفيات ٢ : ١٨٣ ؛ الديباج المذهب ٣١١ - ٣١٣ ؛ نفح الطيب (يبدو أن هنالك شيئاً من الخلط بين ابن جابر هذا المتوفى سنة ٧٤٩ وابن جابر الضرير المتوفى سنة ٧٠٨ - راجع فهرس « نفح الطيب »)؛ الأعلام للزركلي ٦ : ٢٩٣ (٦٨)؛ ثم راجع المصادر والمراجع في ترجمته التي صنعها محمد محفوظ في التوطئة لبرنامج الوادي آشي.

عبد المهيمن الحضرمي السبتي

١ - هو أبو محمّدٍ عبدُ المُهيمنِ بنُ محمّدِ بنِ عبدِ المهيمن بن محمّدِ بن عليٍّ بنِ محمّدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ محمّدٍ الحضرميُّ، وُلدَ سَنَةَ ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ - ١٢٧٨ م) في سَبْتَةَ ونشأ فيها. قالوا إنّ من أشياخه عبيدَ اللهِ بنَ أحمدَ بن أبي الربيع الاشبيليَّ (٥٩٩ - ٦٨٨ هـ) وأحمدَ بنَ محمّدِ بنِ الغمّازِ (ت ٦٩٣ هـ) وأبا القاسمِ بنَ الشاطّ الأشبيليَّ (ت ٧٢٥ هـ) وغيرَهم. ولكنْ من الصعب أن نَعُدَّ ابنَ أبي الربيعِ وابنَ الغمّاز من شُيوخه للفَرْق في الزمن.

كان عبدُ المُهيمنِ الحضرميُّ صاحبَ القلمِ الأعلى في المغربِ كَتَبَ للسُّلطان أبي سعيدٍ عثمانَ المرينيِّ (٧١٠ - ٧٣١) ولابنهِ وخَلَفِهِ عليٍّ (٧٣١ - ٧٥٢ هـ). وكانتْ وفاتُه في تُونسَ بالطاعونِ في ١٢ شوّالٍ من سَنَةِ ٧٤٩ (١٣٤٩/٢/٣ م).

٢ - كان عبدُ المهيمنِ الحَضرميُّ إمامَ الحديثِ والنحوِ في المَغْرب في عصرِهِ، وكان كاتباً مترسِّلًا وصاحبَ مقاماتٍ وشاعراً من فنونه المدحُ والغزل والوصف والحماسة. وعلى لُغَتِه عُموماً، في النثر خاصّةً وفي الشعر، شيءٌ كثيرٌ أو قليلٌ من الضَّعْف. وقد يَحْتذي في شعرِه أغْراضَ نَفَرٍ من شعراءِ المَشْرِق المشهورين ومن أُسلوبهم فيأتي بالشعر المَتين الجيد.

٣ - مختارات من آثاره

- من مقامة الافتخار لعبد المُهيمن الحضرمي:

بَرَزْتُ يوماً لخارجِ بلدِ فاسَ الأشهرِ[1] وآنتهَيْتُ إلى وادِيها المعروفِ بوادي

---

(١) الأشهر (نعت « بلد »).

الجوهر. فلم يكنْ غيرُ بعيد وإذا أنا بمَحْفِلٍ بالغِيد[1]، وقد دار بينهما عِتابٌ بألفاظٍ تَعْجزُ عنها أَلْسِنَةُ الكُتّاب: بيضاءُ وسمراءُ في مُفاتنةٍ كبرى، وكاملةٌ وقصيرةٌ في مُعاطاةٍ كثيرة، وسَمينةٌ ورقيقة في مُعاتبة حقيقة، وعربيَّةٌ وحَضَرية[2] في مُجادلة قويّة، وعجوزٌ وصَبيةٌ في مُخاصمة بَذِيّة[3]. فبَيْنَما أنا أنظُرُ في تلك الوجوهِ المُرَوْنَقَة[4]، إذا بجاريةٍ يَغْلِبُ ضِياءُ وجهِها على ضياء الشمس؛ فوَقَفَتْ بينَ الصفوف وسَلّمت بِبَنانِها الخَمْس. ثمّ تقدّمتْ وقالت: الحمدُ لله الذي جَعَلَ البياضَ طِرازَ كلِّ جَمالٍ، وشرّفَ أَهْلَهُ بالحَياء والكمال، وأعطاهُمْ عِزّةً لا تبيدُ وصيّرَ السُّمْرَ لهم عبيد[5]. ألَا وإنّ على قلبي جمرةً من مُعاتبَتِك، يا ذاتَ السُّمْرة. أعِنْدَك، يا سمراءُ، ما عندي؛ وليس قَدُّك كقَدّي ولا خدُّك كخدّي: جَبيني ذو ابْتِهاج، وذَوائبي كقِطَعِ الزاج[6]..... وثغري أقْحُوان، ودِيباجُ وجهي أُرْجُوان[7]. وإنْ أرْسَلْتُ شَعْرِيَ المَضفور فظلامُ لَيلٍ على بَياضِ كافور....

قال الكاتبُ: وكانتِ العجوزُ مخضوبةَ البَنانِ، مَسَوّكَة[8] الفَمِ وليس لها أسنان، مصبوغةَ الحاجبِ والسالفِ تندبُ ما فاتَها في الزمن السالف[9]. ثمّ أنشدَتْ وأجادَتَ فيما قَصَدَتْ:

إذا جَفّ لِينُ التينِ يحلو مَذاقُه؛ وأحلى مَذاقاً في الثِّمارِ العجائزُ.

---

(1) اقرأ: فلم يكن غير قليل فإذا. محفل: اجتماع (محلّ الاجتماع)، جماعة. يرتجّ: يضطرب، يموج (يكثر فيه). الغيداء: الجميلة.

(2) عربية (بدويّة).

(3) بذية = بذيئة: فاحشة الكلام.

(4) الرونق (جمال الوجه ونضارته).

(5) اختار عبد المهيمن الحضرمي أن يقف على «عبيد» بالسكون. وهذا خطأ. يجب أن تلحق بكلمة «عبيد» ألف الإطلاق «عبيدا» فإنّ الكلمة منصوبة (مفعول به ثان من «صير»).

(6) الذؤابة: الشعر المضفور (المجدول كالحبال). الزاج: من الأملاح (في تصنيف المواد في الكيمياء). وفي «المعجم الوسيط» (ص ٤٠٧): الزاج الأبيض، والأزرق والأخضر. والمقصود هنا «السواد».

(7) الأقحوان: زهر برّي قلبه أصفر، وبتلاته بيضاء منتظمة تُشبَّه الأسنان بها. الديباج: نسيج كلّه من الحرير، ويكون ملوّناً ألواناً (يظهر له إذا تحرّك في الشمس ألوان مختلفة؟). الأرجوان: لون أحمر فيه شيء من الزرقة (يسمّى «لون الملوك»).

(8) سوّك الرجل أسنانه: دلكها، مسحها بالمسواك. والمقصود هنا أن تلك العجوز كانت بلا أسنان.

(9) السالف الأولى (الشعر في جانب الرأس متدلّياً أمام الأذن)، والسالف الثانية: الماضي.

فطَعْمي ذَكِيٌّ طَيِّبُ النَّشْرِ عاطرٌ وإنسان عَيْـــني للمُحِبّـــين غامزُ!

ثمّ قالت: وإنْ أردْتَ - يا هذه - المُجونَ والرَّقاعة [١] ، فأنا - واللهِ - ربّةُ الصِّناعة وأُستاذة الجماعة.

وإذا بالصَّبيَّةِ قد أتَتْ تدْرُجُ دَرْجَ القَطا [٢] على الأقدامِ ، وتبدّتْ فأقبلتْ إقبال العام وَوَرَدَتْ وُرودَ الغِنى على أهلِ الإعدام [٣].... ترمُقُ بلحظٍ نائمٍ وتفعل بأشفارِها في قلوب العاشقين ما تفعلُ الصوارم [٤]. ثمّ نادتْ: أيَّتُها العجوزُ الشمطاءُ يا من كَشَفَتْ بعَيْبها عن نفسها الغِطاء. هيهاتِ ، يا عجوزُ،.... أنْ يكون لك بَعْدَ الهَرَمِ طَلَق، أو يكونَ الجديـدُ مِثْلَ الخَلَق [٥]! أما رأيتِ شَعْرِيَ الفاحِمَ وثَغْرِيَ الباسِمَ وغُصني الناعِمَ؟.....

- ولعبد المهيمن الحضرمي في الفقر والغنى:

يُجْفى الفقيرُ، ويَغْشَى الناسُ قاطبةً بيتَ الغَنِيّ. كذا حُكْمُ المقادير [٦].

وإنّما النـاسُ أمثالُ الفَراش، فهُم يُلْفَوْنَ حيـثُ مصابيـحُ الدنانيرِ.

- وقال يمدح ذا الوِزارتين ابنَ الحكيم الرُّندي (٦٦٠ - ٧٠٨ هـ):

وعاذلـةٍ باتـتْ تلومُ عـلى السُّرى وتُكْثِرُ من تَعْذالِهـا وتُطيـل [٧].

ذَريني أسْعَى للـتي تُكْسِبُ العُلا سناءً ، وتُبقي الذِكْرَ وهو جميـلُ [٨].

---

(١) الرقاعة: الحماقة، والوقاحة أيضاً.

(٢) درج (مشى وهو ينقل رجلاً بعد رجل على مهل). القطاة: طائر (يمشي بخطوات قصيرة متقاربة).

(٣) إقبال العام (؟). الإعدام: الفقر.

(٤) الأشفار جمع شفر «(بالفتح): طرف الجفن الذي ينبت عليه الشعر. الصارم: السيف.

(٥) الطلق: الشوط (بالفتح): المسافة التي يركضها الإنسان (سريعاً) في مدّة محدودة. الخلق (بفتح ففتح): المتهرّىء من الثياب.

(٦) جفا فلان فلاناً: جانبه، ابتعد عنه. غشي (بفتح فكسر ففتح) الرجل مكاناً يغشاه: جاء إليه. المقادير جمع مقدار (ما حكم به على الإنسان أن يفعله).

(٧) العاذلة: التي تلوم الناس بلا سبب (أو بلا معرفة للسبب الصحيح في أعمال الناس). السرى: السير في الليل (للذهاب إلى الممدوح).

(٨) السناء: بالعلوّ، الرفعة.

فإمّا تَرَيْني مِنْ مُمارسَةِ الهوى نحيلًا، فحَدُّ المَشْرَفِيِّ نحيلُ[1].
ولولا اغترابُ المرءِ في طَلَبِ العُلا لَما كان نحو المجدِ منه وُصول
ولولا نوالُ ابنِ الحكيمِ محمّدٍ لأصْبحَ رَبْعُ المجدِ وهو مَحيل[2].
وزيرٌ سما فوقَ السِّماكِ جَلالةً، وليسَ له إلّا النجومُ قَبيل[3]؛
من القومِ: أمّا في النَّدِيّ فإنّهم هِضابٌ، وأمّا في النَّدَى فسُيول[4].
وأبلجُ وقّادُ الجَبين كأنّما على وَجْنَتَيْهِ للنُّضار مَسيل[5].
تَهيمُ به العَلياءُ حتّى كأنّها بُثَيْنَتُه في الحُبّ وَهُو جَميلُ[6].
سرى ذِكْرُهُ في الخافقَيْنِ فأصبحتْ إليه قلوبُ العالمين تَميل[7].
فَلَيْتُ إلى لُقْياكَ ناصيةَ الفَلا بأيْدي رِكابٍ سَيْرُهنّ ذميل[8].
وقد كُنتُ ذا نفسٍ عَزوفٍ وهِمّةٍ عليها لأحداثِ الزمان ذُحول[9].
وتأبى لي الأيّامُ إلّا إدالةً. فصَوْنَك لي! إنّ الزمانَ مُديل[10].

٤- ★★ أوصاف الناس ٩٩؛ بغية الوعاة ٣١٥؛ نفح الطيب ٥: ٢٤٠، ٤٦٤-٤٧١، ٥٣٧؛ النبوغ المغربي ٤١٩ (التسلسل الثاني)- ٤٣١، ٧٢٨ - ٧٢٩، ٧٦٧؛ الأدب المغربي ٤٣٥ - ٤٣٧؛ الأعلام للزركلي ٤: ٣١٨ (١٦٩).

---

(١) المشرفيّ السيف المصنوع في «شرف» (بفتح ففتح)، وهو مكان في الشام: سورية.
(٢) النوال: العطاء. الربع: المكان المسكون. محيل (بالفتح): ما تحوّل وتبدّل. الربع المحيل: الذي تركه سكّانه (فخرب).
(٣) السماك: أحد نجمين أحدهما السماك الرامح وثانيهما السماك الأعزل. القبيل: القوم، الأهل.
(٤) النديّ (بتشديد الياء): مجلس القوم. الندى (بفتح ففتح): الكرم.
(٥) الأبلج: الواضح، الأبيض (البشوش الوجه). النضار: الذهب.
(٦) هام (تعشّق، أحبّ). جميل بن معمر وبثينة بنت حبأ عاشقان من العصر الأمويّ.
(٧) الخافق: الأفق. الخافقان: المشرق والمغرب (في جميع البلاد).
(٨) فلا الرجل شيئاً عن شيء: عزله ومنعه. والمقصود هنا: أفلى الرجل. الفلاة (الأرض الواسعة، البيداء): دخلها، سار فيها. ناصية الفلا (جمع فلاة): رأس الفلاة: المكان الصعب منها. الذميل: السير السريع. ركاب جمع ركوبة (الدابّة) التي يركبها الإنسان للسفر..
(٩) عزوف: مائلة (عن أعراض الدنيا وكارهة لها). ذحول جمع ذحل (بالضمّ): ثأر.
(١٠) أدال فلان فلاناً (من خصمه): أنصفه، أخذ له بحقّه. - التركيب في الشطر الثاني غير واضح.

الجزنائي الفاسي الكرياني

١ - هو أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ (محمّد بن)[١] شعيبٍ الجزنّائي الكرياني[٢] التازيُّ الدار ونزيلُ فاس.

قرأ الجزنّائي في بلَدِه فاسَ على شُيوخٍ منهم أبو عبدِ الله بن آجُرّومَ (ت ٧٢٣ هـ) وأبو عبدِ الله بنُ رُشَيْدٍ (ت ٧٢١ هـ)، وقرأ في تُونِسَ على يعقوبَ بنِ الدارس، أخذَ عنه علم الطِّبّ والهيئة (الفلك).

ورأَسَ الجزنّائيُّ ديوانَ الكتابة في فاس في عهدِ عثمان المَرينيّ (٧١٠ - ٧٣١ هـ) ثمّ بِضعَ سَنَواتٍ من عهد ٱبنه عليٍّ (٧٣١ - ٧٥٢ هـ). وقد دخَل غَرناطةَ على عهدِ السابعِ من مُلوكها الأمير محمّدٍ[٣] لِقُرْبٍ من وِلايتهِ، وٱشتغل هنالك في الكيمياء وفي أمرِ الأدوية المُفردة (راجع الإحاطة، ص ٢٨٥). ولا نَعْرِفُ شيئاً من أحداثِ حياتهِ التاليةِ إلّا أنّ وفاتَه كانتْ في تُونِسَ بالطاعونِ يومَ عيدِ الأضحى من سَنَةِ ٧٤٩ (١٣٤٩/٤/١ م).

٢ - كان الجزنّائيُّ الفاسيّ فقيهاً وحاسباً وطبيباً وأديباً ناثراً مُتَرَسِّلًا وشاعراً. وهو يُجيد تقليدَ المشارقةِ في الشِّعر والنثر، وفي نثرِه تكلُّفٌ أكثرَ ممّا في شعره. وشعره الآخرُ

(١) « ابن محمّد » زيادة من الإحاطة (١ : ٢٨٠).

(٢) في النبوغ المغربي (الجزنّائي) « بشدة على النون (ص ٢٢٧) ولا حركة أخرى على الكلمة. ومثل ذلك فعل محمّد بن تاويت الطنجي (التعريف بابن خلدون، ص ٤٨، الحاشية ١). أما محمّد رضوان الداية فلم يحرّكها (نثير فرائد الجمان، ص ٣٣٥). وأمّا بروكلمن (الملحق ٢ : ٣٣٩) فاختار أن يجعلها « الجزنائي » (بفتح فسكون). - والكرياني (الإحاطة ١ : ٢٨٠)، نسبة إلى قبيلة من قبائل الريف العربي (كذا). وفي الإحاطة (القاهرة ١٣١٩ هـ، الجزء الأول، ص ١٣٩): الغربي (بالغين المعجمة).

(٣) في الإحاطة (١ : ٢٨٥): « دخل غرناطة على عهد السابع من ملوكها الأمير محمّد ». ولكن السابع من ملوك غرناطة، عند لسان الدين بن الخطيب نفسه (اللمحة البدريّة ١٠٢) هو يوسف بن إسماعيل بن فرج (مولده سنة ٧١٨ للهجرة، وجاء إلى العرش ٧٣٣ هـ، وتوفّيَ ٧٥٥ هـ). أمّا السلطان محمّد ملك غرناطة فيجب أن يكون السادس من ملوكها: محمّد بن إسماعيل بن فرج، (٧٢٥ - ٧٣٣ هـ). كما في اللمحة البدرية (ص ٩٠) للسان الدين بن الخطيب نفسه. وقد ذكر عبد الله كنّون (النبوغ المغربي ٢٢٧) أن الجزنّائي « كان كاتباً في ديوان الإنشاء عند أبي الحسن المريني »، وأبو الحسن هذا هو علي بن عثمان سلطان فاس (٧٣٢ - ٧٤٩ هـ). فليوفّق القارىء بين هذه التواريخ.

عاديٌّ. غير أن أسلوبَه متينٌ ومعانيه جَزْلة.

وكان للجزنائيّ الفاسيّ عِناية بالعلوم الفلسفية والرياضية والطبيعية وبالصَّنعة (الكيمياء القديمة: الخُرافية)، له في الصنعة: كتاب الأصداف المُنْفضّة عن أحكام علم صِناعة دينار الذهب من الفضّة.

٣ - مختارات من آثاره

- قال أحمدُ بن شعيبٍ الجزنّائيّ يرثي جاريةً له روميّة آسمها صُبْحُ (الإحاطة ١ : ٢٨٥):

يا مُوحشي، والبُعد دونَ لِقائه،	أدعوك عن شَحَطٍ وإنْ لم تسمعِ[1].
يُدنِيكَ مِنّي الشوقُ حتّى إنّني	لأراكَ رَأْيَ العين لولا أدمعي[2].
وأحِنُّ شوقاً للنسيم إذا سرى	بحديثِكم وأصِيحُ كالمستطلع:
كان اللقاءُ فكانَ حظّي ناظري،	وَسَطا الفِراقُ فصار حظّي مَسْمَعي[3].
فآبعَثْ خيالَك تُهْدِهِ نارَ الحشا	إن كان يجهلُ من مُقامي مَوْضِعي[4].

- قال الجزنّائي الفاسي في الحماسة وحال الدنيا والناس:

عَجِبْتُ من الأيامِ أنّى ألِفْتُها!	مُسالَمةُ الأيامِ إحدى العجائبِ[5].
ولابَسْتُ حاليها من الكُرْهِ والرِّضا،	وقد شابَ رأسي وَهْيَ سُودُ الذوائبِ.
ومارَسْتُ أبناءَ الزمانِ فلم أجِدْ	أخا ثِقَةٍ، يا حارِ، غيرَ التجارب[6].

---

(١) الشحط: البعد.

(٢) كَثرة أدمعي تحول بيني وبين رؤيتك (لو كنتَ حاضراً أمامي).

(٣) كان لقاؤنا حينما كنتَ أنت حيًّا. سطا يسطو: بطش آعتدى، ظلم. صار حظّي ما أسمعه عنك.

(٤) أرسِلْ خيالك (في المنام) لتهدأ لوعتي قليلاً. وإذا كان خيالك لا يعرف مقامي (بضمّ الميم: مكان وجودي) فيكفي أن تشعر نفسي به.

(٥) - عجبت (من نفسي) أنّى (كيف) آستطعت أن آلَفَ الأيامَ، فإنّ مسالمة الأيام (العيش معها بأمان) أمر عجيب في ذاته.

(٦) يا حار= يا حارث (أيّها الإنسان). لا أثق إلّا بما عرفته عن تجربة.

مَلِيّونَ بالبغضــاءِ إلّا تَمَلُّقــاً ، وما هو إلّا مثلُ إبساسِ حالبِ[١].
وَسِعْـتُ الليــالي عِفّــةً وقناعـة ، وقد ضِقْنَ ذَرعاً عن تَسنّي مآربي[٢].
وقَضّيْتُهــا خمساً وعِشرينَ حِجّــةً أُصَدِّقُ ظنّي بالأمـاني الكواذب.
فما لِيَ للأوطـانِ! هل يُطْلَبُ الجَدا من القَطْرِ إلّا كائناً في السحائب[٣]؟
ومـا كُنتُ أرضى أن أُقيمَ بذِلّةٍ، فكيـفَ وما سُدّتْ عليّ مذاهبي؟
ستألـفُ منّي البِيـدُ طَلّاعَ أنْجُـدٍ قليلَ هُمومِ النفسِ جَمَّ المطالب[٤]،
حليفَ سُرًى لا يسأمُ البِيدَ والسُّرى ، طِوالَ الليالي في عِراضِ السباسب[٥]؛
أُزَجّي بهــا من عَزْمَــتي مُتَوَقِّـداً فأحْسَبُني بعضَ النجوم الثواقب[٦].

– وله من رسالة:

قد كان حَنيني إلى سيّدي – أطالَ اللهُ بقاءه وسَنَّى لِقاءه – مَوْصولاً مَعَ الاتّصال، ودائماً مَعَ البُكَرِ والآصال[٧]. لا تلحَقُهُ فَتْرَةٌ فأَضِلَّ فيها عن هَدْيِهِ الواضِحِ الأَمَمِ[٨]، وأظَلَّ فيها من سواهُ عاكفاً بأعلى صنم[٩]؛ ومَنظَرُ العيشِ أنيقٌ، وغُصن الشَّبيبة وريقٌ[١٠]، والدهرُ جَمَعَ ولم يُحْسِنِ التفريقَ.... والدارُ حَرِيّةٌ بما تَهْوى الأَنْفُسُ، واليد

---

(١) مليّ = مملوء. الإبساس: التلطّف والمداراة. ولعلّها هنا: المَرْي (بفتح فسكون): دَلْكُ ضرع البقرة بشيء قليل من حليبها لتدرّ.
(٢) تسنّي: ساني (أحسن المعاشرة). والشاعر يقصد: حصول، تحقيق.
(٣) الجدا: العطاء. القطر: المطر.
(٤) أنجُد جمع نجد (أرض عالية، صعبة المرتقى).
(٥) البيد جمع بيداء (الأرض الواسعة). السُّرى: السير ليلاً. السبسب: المفازة (الصحراء الواسعة التي يتيه فيها السائر).
(٦) أزجّي: أُرسلُ، أبعث. متوقّداً: مشتعلاً (رجلاً نشيطاً). ثاقب: شديد اللمعان (كأنّه يثقب الليل).
(٧) سنّى لقاءه: أحسن معاملته (؟) (يقصد: قرّب). البكرة (بالضم): وقت الصباح. الآصال جمع أصيل: الوقت عند العصر (منتصف الزمن بين الظهر والمغرب).
(٨) فترة: هدوء، كسل. أمم: قريب.
(٩) بأعلى (يجب أن تكون «على»). عاكف على صنم: جامد لا يتصرّف في أمر.
(١٠) أنيق: جميل، يحسن في العين. الغضّ: الجديد، الطريّ. وريق: عليه ورقه (الأخضر)، في مطلع الشباب.

مليئةٌ بنُضار العُقار تَصْرِفه في لجين الأكؤس[١]، وشَمْلُنا المُنْتَظِمُ عِقدٌ على لبّةِ[٢] الزمان، ولياليناً في مُقلته كُحْل وفي وَجْنَتِه خَيلانٌ[٣]. فكيف وقد عادَ الدهر بِجَوْره وسَطاه،فشتَّ عِقْدَ شملنا وأذهبَ وَسَطا[٤]، وأرانا من حَدَثانهِ عَجَباً؟....

٤- ★★ نثير فرائد الجمان ٣٣٥-٣٤٣؛ الإحاطة ١: ٢٨٠-٢٨٥؛ أوصاف الناس ١٠٦-١٠٧؛ نيل الابتهاج ٦٨؛ النبوغ المغربي ٢٢٧، ٧٣٠-٧٣٢، ٩٣٣؛ الأدب المغربي ٢٤٣-٢٤٩.

ابن الصائغ المغربيّ

١- هو مُحِبُّ الدين أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ عبدِ الله بنِ محمّدِ بنِ لُبٍّ بن الصائغ الأمويُّ القُرَشِيُّ المَغْربيّ، قرأ على أبي الحسنِ بن أبي العيش وعلي الخطيبِ بنِ عليّ الغنجاطي (بغية الوعاة ٦٠).

جاء ابنُ الصائغِ المَغْرِبيُّ إلى مِصْرَ فَلَقِيَ فيها، سَنَةَ ٧٢٨ هـ (١٣٢٧ - ١٣٢٨ م) ابنَ أَيْبَكَ الصَّفَدِيَّ صاحبَ كتاب الوافي بالوَفَياتِ وقرأ مَعَه صحيحَ البُخاري على شِهابِ الدين أحمدَ بنِ المُرحِّلِ النَّحْويّ وعلى فتحِ الله بن سيّدِ الناسِ وعلى أبي القاسمِ أخي أبي الفتح. وكان في مِصْرَ مُلازماً لأثير الدين أبي حَيّانَ الغَرْناطي (ت ٧٤٥ هـ).

وحجّ ابنُ الصائغِ المغربيُّ ومَدَحَ قاضِيَ مكّة نجمَ الدين محمّدَ بنَ محمّدِ الطبريَّ (ت ٧٣١ هـ).

عاش ابنُ الصائغِ المغربيُّ في فَقْرٍ شديدٍ، ثمّ كانت وفاتُه في مِصْرَ بالطاعونِ، سَنَةَ ٧٤٩ هـ، (١٣٤٨ م).

---

(١) الدار: المسكن، البلد، الوطن. حَرِيّة: مستحقّة. النضار: الذهب. العقار: الخمر. الأكؤس جمع كأس. في لجين (فضّة) الأكؤس: في كؤوس من الزجاج الأبيض كالفضّة.

(٢) اللَّبّة: الصدر.

(٣) خيلان: تكبّر.

(٤) الجور: الظلم. سطاه (يقصد سطوته وبطشه). سطاه (؟)- يستقيم المعنى إذا حذفنا الهاء من الكلمتين. سطا (فعل ماض): بطش. وسط (بفتح ففتح): الاعتدال.

٢ - كان ابنُ الصائغِ المغْربيُّ عارفاً بالنَحْوِ والعَروض واسعَ المعرفةِ باللُّغـةِ. وكان يَنْظِمُ الشعرَ ويأتي أحياناً بالقوافي النادرةِ مَعَ لزومِ ما لا يلزم. وكان بارعاً في الضَّرْبِ على العود.

٣ - مختارات من شعره

- لما كان ابنُ الصائغ المغربيُّ في مكّةَ أنشدَهُ قاضيها نجمُ الدين الطبريُّ قصيدةً كافيّةً من لُزوم ما لا يلزَمُ مَطْلَعُها (راجع الوافي بالوفيات ١ : ٢٢٩):

أشَبيهـةَ البـدرِ التَّمامِ إذا بـدا ... حُسْنـاً، وليس البَدْرُ من أشْباهِكِ!

فاَسْتَهْوَتْ هذه القصيدةُ ابنَ الصائغِ فعارَضَها بقصيدةٍ مَدَحَ بها نجمَ الدين. من هذه القصيدةِ:

رِقِّي لِجِسْمٍ رَقّ من دَنَـفِ الهوى؛ ... وشِفـاه مـا تَحْويه حُوُّ شِفاهِكِ[١].
وَسَنٌ نَفَى وَسَني فنمْتُ ولم أنَمْ، ... مـا ليلةُ الساهي كلَيْلِ الساهِك[٢]!
إنّي شمِمْـتُ الزَّهْرَ بـلَّ عيونَـه ... طـلٌّ فأنبَهَـهُ لـدى إنْباهِك[٣]،
زَمَنـاً أُرَدِّدُ آهـةَ المَشْغوفِ من ... حُرَقي، فتَحْكيني تَرجُّع آهِك[٤].
أنَضـارتي، اَشْتَعَلَ المَشيبُ فأنْضَبَتْ ... شُعَلَ الحَشا ما راق من أمْواهِك[٥].
حَلَـكُ المفارقِ قد تنفّسَ صُبْحُه؛ ... يا نفسُ، هُبّي من كَرى اسْتِعْماهِك[٦]،

---

(١) رقّي (من الرّقة: الحنوّ، العطف). رق: أصبح رقيقاً (نحيل الجسم). الدنف: الهلاك (الموت). شفاه = شفاؤه. الحوّة (بالضمّ): السمرة (في الشفاه).

(٢) الوسن: النوم. وسن (وسنك = نومك مطمئنّة غافلة عنّي) نفى (منع) وسني (نومي أنا، لأنّني معذّب بحبّك) الساهي (الغافل) كليل (مثل ليل) الساهك: الرمد (بفتح فكسر)، الذي أصابه مرض في عينيه.

(٣) الطلّ: المطر الخفيف، قطرات من الماء تتجمّع في الليل على ورق الشجر. - لمّا انتبهت أنت من النوم، تفتّحت الأزهار.

(٤) المشغوف: المحبّ الذي وصل الحبّ إلى شغاف (غلاف) قلبه فأمرضه. أردد التأوه من هجرك منذ زمن طويل. تحكيني (تشبهني، تقلّدني) ترجّع (ترديد، تكرار) آهك (قولك: آه). - ؟.

(٥) أنضارتي = يا نضارتي (زهو شبابي) التي كانت لي قديماً. أنضب: جفّف. اشتعل المشيب: عمّ المشيب رأسي. - راق: صفا. أمواه جمع ماء. - ؟

(٦) حلك (ظلام). المفارق جمع مفرق: مكان فرق الشعر في الرأس. قد تنفّس صبحه (ظهر فيه الشيب). الكرى: النوم. استعماه = العمه (بفتح ففتح): العمى: الغفلة.

يستبدهونـــك للنسيـــب، فشرّفي بشريف مكّةَ مُنْتَجَ استِبداهِك[١]،
قاضي الشريعـةِ والُمقيـمُ مَنارَهـا حيثُ المَقامُ وحيثُ بَيْتُ إلاهِك[٢].
يا نفسُ، إنّي قد نَقَهْتُ من الغِنى، ولقـد غَنِيتُ اليومَ باسْتِنْقاهِك[٣].
هـذا الجَوادُ بما حوى أُمناهُ في إفقارِ كيسِ المالِ أو إرْهافِك[٤].
يَسْخو بما يُوعي، ويظني ما يَعي، كم بيـنَ كَنْزِ نفيسة ونِفاهِك[٥].
دارتْ رَحى الأَزمات تَبْغي جارَهُ فأجارَهُ مِنْ كلِّ داءٍ داهِك[٦].
أُمَّ القُرى، قـد جارَ مَنْ أَمَّ القِرى بفِنـاءِ بُدْنِـك كُلِّها وبشاهِك[٧].
ناسَبْـتُ غُـرّتَه وبيـتَ نَسيبِـهِ فأعَدْتُ «ليس البَدْرُ من أشباهِك»[٨].
يا فِكرةً بَدَهَتْ بأبدعِ مُلْحةٍ، ما أقربَ الإبداعَ من إبداهِك[٩]!

---

(١) يستبدهونك للنسيب (يطلبون منك أن تقولي بديهة - بغير استعداد - نسيباً)، فلا تضيعي وقتك وجهودك بقول النسيب، بل امدحي بهذه البديهة شريف مكّة.... شريف مكّة: حاكمها، الوالي عليها. المنتج (مبنياً للمفعول: المنتوج، المولود).

(٢) منارها: مفعول به من «المقيم». المقام: مقام إبراهيم (قرب الكعبة). بيت الله: الكعبة.

(٣) نقه الرجل من المرض (شفي منه). نقه من الغنى (افتقر). استنقاهك، يا نفسي أنا.... (.... الذي يريد أن يشفيني من الفقر).

(٤) أمناه (يقصد: أمنيته، مراده) أرفاهك (أن يجعل لك، يا نفسي، رفاهية: سعة من العيش الناعم).

(٥) يسخو: يجود. أوعى الشيء يوعيه (وضعه في وعاء، حفظه) - يجود بكلّ ما يملك. يظني (؟). يعي: يحفظ، يجمع (من المال). - يرى أن جمع المال من غير انفاقه على المستحقّين ظلم (؟). كم بين كنز نفيسة ونقاهك: كلّ مال (مهما يقلّ) يجعلك، يا نفسي، ناقهة من فقرك (غنية).

(٦) الأزمة: الشدّة، الضيقة (الفقر). الرحى (بالألف الطويلة أو بالألف المقصورة): الطاحون. دارت الرحا (اشتدّت الحال على الإنسان).
الداهك: الطاحن (العنيف، الشديد).

(٧) أمّ القرى (منادى): يا أمّ القرى (مكّة). جار: استجار. من «أمّ» (قصد) القرى (بالكسر): الضيافة. الفناء (بالكسر): الباحة. البدن (بالضمّ) جمع بدنة (بفتح ففتح): الحيوان الذي يساق ليذبح في موسم الحجّ في مكّة. الشاه = الشاء جمع شاة. - من استجار بك (يا مكّة) استحقّ كل عطيّة (؟).

(٨) أردت أن أمدح وضاءة وجهه في شعر. فأعدت: رجعت، عجزت (؟) فردّدتّ الكلام الذي قلته أنت في مطلع قصيدتك: «ليس البدر من أشباهك». - لم أقبل أن أشبّهه بالبدر، لأنّ البدر لا يشبهه (؟).

(٩) فاجأتني فكرة معارضة قصيدة نجم الدين الطبري، بأبدع ملحة (تطرّفاً). في الأصل: الإبداع بعد «ما» التعجبيّة. لعلّ جعل «ما» حرف نفي والإبداع فاعلاً أصح. لم يصل إبداعي (مقدرتي في الشعر) إلى مستوى الفكرة التي خطرت لي (وهذا ملموح في البيت التالي).

عَرَّضتِهـا لمعـارِضٍ لم يَحْكِهـا.   أنَّى، وقد لَزِمَتْ قوافِيهَا «هك»[1].

٤ - ** الوافي بالوفيات ٣: ٣٧٥ - ٣٧٨، راجع ١: ٢٢٩؛ الكتيبة الكامنة ٨٨ - ٩٠؛ بغية الوعاة ٦٠، شذرات ٦: ٢٦٥؛ درة الحجال ٢: ٣٠٣ - ٣٠٥؛ نفح الطيب ٤: ٣٣٦ - ٣٣٧.

أبو العَلاء بن سماك[2]

١ - هو أبو العَلاء محمّدُ بنُ محمّد بنِ سماكِ بنِ عبد الحقّ بنِ سماكٍ العامليُّ الغَرناطيُّ، سَمِعَ من أبي الحسنِ بن أبي العيش وأبي عبد الله بن الفَخّار وأبي عبد الله بن بكرٍ وأبي القاسم بن جُزيٍّ، وكتب في الدار السُّلطانية (في غَرناطةَ). ثمّ كانتْ وفاتُه في المُحَرَّم من سَنَة ٧٥٠ (مطلع الربيعِ من عام ١٣٤٩ م).

٢ - كان أبو العَلاء بنُ سماكٍ بارعاً في الأدب شاعراً مُكثراً، فيما يبدو، يَغْلِبُ على شِعرِه المَدْح ووصفُ الحرب وأشياءُ من التأمُّل والحِكمة مَعَ نفحةٍ صوفية. وبَرَع في علم العَروض. ثمّ كانتْ له مشاركةٌ في علم السياسة. وكذلك كان مُصنِّفاً له: الزَّهَرات المنثورة في نُكَتِ الأخبارِ المأثورة - الدُّرُّ الثمين في مناهجِ الملوك والسلاطين - رَوْنَق التحبير في حُكْمِ السياسة والتدبير.

٣ - مختارات من شعره

- قال أبو العَلاء بنُ سماكٍ في الوِحْدة والآنصرافِ إلى العِلم والإفادة بالعلم:

مُنـايَ من الدُّنيـا كِتـابٌ وخَلوةٌ   أكونُ بهـا بـالله ثمّ مَـعَ الله[3]؛

---

(١) لم يحكها: لم يستطع أن يأتي بما يحاكيها (يشبهها). أنّى؟: كيف؟ إنّ القافية «هك» أمر صعب.

(٢) سماك (غير محلّاة باللام وغير مضبوطة بالشكل فيما لديّ من الكتب). وأبو العلاء بن سماك هذا هو غير أبي عبد الله محمّد بن إبراهيم الجيّاني المعروف بابن السماك (ت ٦٤٠ هـ) وكان أيضاً شاعراً (القدح المعلّى ١٣٤؛ نفح الطيب ٣: ٣١٤ - ٣١٥).

(٣) الخلوة (بالنفس): الوِحدة (بالكسر). بالله ومع الله (هنا) من تعابير الصوفية: في حال أسبغها الله عليّ ثمّ متّصلاً بالله (شيئاً واحداً مع الله).

وأنشُرُ من ذاك الكتابِ معارفاً   لِكُــلِّ مُنيــبٍ للمُهَيْمِنِ أوّاهِ[1].

– وقال أبو العَلاء بن سماك يمدحُ السلطان ويذكُرُ آستردادَ حِصْنٍ كان الإسبانُ قدِ آسْتولَوْا عليه (الكتيبة الكامنة ١٩٩):

فتــحٌ تلقّــى النَّصْرُ منــه تحيّــةً   من لَفْظِها ماءُ البشاشة يقطُرُ
فتحَــتْ سُيوفُك كَرْيَكولَ، وإنّــه   في الفتح عُنوانٌ لما هُوَ أكبر
ثغرٌ علـى الأرض الفضاء طليعةٌ،   فلَـهُ علـى كلّ البسيطة مَظْهَرُ[2].
يرنو إلى أرضِ العــدُوِّ كأنّــه   لحظٌ يُضَمُّ عليه مِنْها مَحْجِرُ[3].
مــا أن يشُنُّ الكُفْرُ يومــاً غـارةً   إلّا وبالمغوار منــه منــذر[4].
صَعِـدَ العُـداةُ عليـه أمْنَـعَ مَعْقِلٍ   مُتَمَثّلــينَ بأنّــه لا يُحْصَرُ[5].
فَسَمَـتْ جُيوشُك منه أعلى شاهقٍ   يرتَـدُّ عنه الطَّرفُ وَهْوَ مُحَيَّرُ[6].
في رأسِ سنٍّ لا تُغــامُ سماؤه،   مِنْ دُونـهِ قَطْرُ الغَمامِ المُمْطِر[7].
فكـأنّ هِرْمِسَ بَـثّ حِكمتَـه به،   وأدَقَّ فيـه فِكْرَهُ الإسكنـدرُ[8].

---

(١) أوّاه: كثير التضرّع والدعاء. المنيب (الراجع إلى الله: التائب). المهيمن من أسماء الله الحسنى.

(٢) الثغر: المكان يخشى منه مجيء العدو. الأرض الفضاء: الواسعة. طليعة: مقدّمة من الجيش تراقب تحرّك العدوّ. البسيطة: الأرض (الكرة الأرضية). مظهر: إشراف أو نظر من مكان مرتفع (ظهر فلانٌ البيتَ: صَعِدَ إلى ظهره أو سطحه).

(٣) يرنو: ينظر. المحجر: التجويف الذي تستقرّ فيه العين.

(٤) المغوار: المقاتل الكثير الغارات على أعدائه. منذر (بالبناء للمجهول؟): يأتي العدوّ بالنبأ السّيّىء. كلّما شنّ الإسبان غارة وقعت عليهم (من هذا المغوار) هزيمة.

(٥) المَعْقِل (الحِصن) المنيع (الذي يَعْجِز المهاجم عن الوصول إليه). متمثلين (أو متخيّلين). يحصر (يمكن إقامة طوق من الحصار حوله).

(٦) الطرف: البصر.

(٧) السن: المكان المرتفع (؟) كسنّ الرمح (؟). في الحاشية (شقّ). لا تغام سماؤه: لا يصل الغيم إلى أعلاه. الممطر (بالبناء للمعلوم؟)– الغيوم التي تمطر تكون تحته.

(٨) هرمس اسم لعدد من الأشخاص الخرافيّين. هرمس هنا هو هرمس الأول الذي استخرج بفكره جميع علوم الأقدمين. بثّ: نشر. به (؟). الإسكندر (الافروديسي) فيلسوف قديم كان بارعاً في العلوم الحكميّة، وقد فسّر (شرح) أكثر كتب أرسطوطاليس

فَضَفَا من النَّقع المُثار عَلَيْهِمُ بُرْدٌ بأطرافِ الرِّماحِ مُحَبَّر[1].
فٱستُنْزِلوا مُسْتَسْلِمينَ، ورُبّما أعيا الحُماةَ حلولُ ما لا يُقدَر[2].
أَلْقَوْا يَدَ الإذْعانِ خِيفةَ هُلْكِهِمْ، وضُلوعُهم تَنْدَقُّ أو تَتَفَطَّرُ[3].

٤-★★ الكتيبة الكامنة ١٩٨-٢٠٠؛ الدرر الكامنة (حيدر آباد) ٤: ١٧٨ (رقم ٤٨٢)-(القاهرة) ٤: ٤٩٥-٢٩٦ (رقم ٤٣٤)؛ الأعلام للزركلي (٧: ٣٦).

ابن ليون التجيبيّ

١- هو أبو عثمانَ سعدُ بنُ أحمدَ بنِ إبراهيمَ بنِ ليونَ التُّجيبيُّ[4] أصلُه من لُورقَة ومَوْلدُه سَنَةَ ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) في المَرِيّة، وفيها قضى حياتَه كلَّها لم يُغادِرْها قطُّ. وتصدَّر فيها للتدريس. وكانت وفاتُه بالطاعون، في رابعَ عَشَرَ جُمادى الآخِرةِ من سَنَةِ ٧٥٠ (١٣٤٦/٨/٤١ م).

٢- كان ابنُ لِيونَ التُّجيبيُّ مشاركاً في عددٍ من فنون المعرفة: في الطِبّ (وكان طبيباً ماهراً) وفي الحِكمة (الفلسفة) والفِقه والفرائض (تقسيم الإرث) والمِساحة (الهندسة المستوية) والعَروض. وقد كانتْ له قُدرةٌ على النظم يتناولُ الآراء المختلفة فيَنْظِمُها في مقطّعات (من البيتين والثلاثة): يقتبسُ من القُرآنِ الكريم والحديثِ الشريف ومن شِعر الشعراء ومِنَ الأقوال الشائعة. وشِعرُه واضحُ المعاني سهلُ التركيب ينوءُ أحياناً كثيرةً

---

(١) ضفا: امتدّ (فوق رؤوس الأعداء). النقع (بالفتح): غُبار الحرب. بُرد: ثوب من حرير. محبّر: مزيّن، منمّق.

(٢) استنزل الخصمُ خصمَه من الحصن (أجبره على النزول). أعيا الحماة (مفعول به مقدّم) ما لا يقدر (بالبناء اللمجهول) المعنى الملموح: إن حماة الحصن (من الإسبان) قد أعياهم (أتعبهم، أعجزهم) حلول البقاء في الحصن) لأنّ الله لم يقدر (لم يشأ) لهم ذلك.

(٣) الإذعان: الخضوع. ألقَوا (بفتح القاف) يد الإذعان: استسلموا وخضعوا. الهلك (بالضمّ): الهلاك. اندقّ (أصبح دقيقاً أو طحيناً). تفطّر: تشقّق، تقطّع (من الخوف؟).

(٤) هو غير سعد بن أحمد التجيبي الجونديّ الجيّاني (نحو ٦٦٢-رابع شعبان ٧٢٢) أحد شيوخ الشورى والفُتيا (نيل الابتهاج ١٢٤-١٢٥).

بأشياءَ من الضَّعْف (في النَحْو وفي الوزن)، ولا تكادُ تلمَحُ له ابتكاراً، وكثيرٌ من معانيه مُكرّرٌ في مقطّعاتٍ عديدةٍ. ثمّ هو مُكْثِرٌ اختارَ له المقريُّ ما ملأ به أكثرَ من خمسينَ صفحةً من «نفح الطيب».

وابنُ لِيونَ التُّجيبيُّ مُصَنِّفٌ مُكْثِرٌ له ثلاثون كتاباً (وقيل: مِائَةُ كِتابٍ)، منها: أَنَداء الدِّيَمِ في الوصايا والمَواعظ والحِكَم (انتهى من تأليفه في منتصف شَعبانَ من سَنَةِ ٧٣١) - الأبياتُ المهذبة في المعاني المقرّبة - نُصح (نصائح؟) الأحباب وصَحائح الآداب - العُمدة في علوم الإسناد (الحديثِ الشريف) - إبداء المَلاحة وإنهاء الرَّجاحة في أصولِ صِناعة الفِلاحة (رجز) - كتابُ في الهندسة - كتاب في الفلاحة - كمالُ الحافظ وجَمال اللافظ في الحكم والوصايا والمواعظ.

واختصرَ ابنُ لِيونَ التُجيبيُّ عدداً من الكتب منها: لَمْحُ السِّحر في رُوح الشِّعر (لمحمّدِ بنِ أحمدَ بنِ الجلّابِ الفِهريّ - أتمّ اختصارَه سَنَةَ ٧٣٩ هـ) - بُغيةُ المؤانِس من «بهجة المَجالس وأُنس المُجالس» (لابنِ عبد البرِّ) - المرتبةُ العُليا (لابنِ رشادٍ القَفصي) - النُّخْبة العُليا من «أدب الدين والدنيا» (لأبي الحسن الماوَرْدي) - الإنالة العِلْمية «من رسالة في أحوال فقراء الصوفية المتجرّدين» (لعليّ بن عبد الله الشُشتري).

٣ - مختارات من شعره

- من مقطّعاته في الأدب (الحكمة):

★ شرُّ إخوانِك من لا ... تهتدي فيه سبيلا:
يُظْهِرُ الوُدَّ ويُخفي ... مَكْرُهُ داءً دَخيلا؛
يَتّقي منك اتّقاءً ... وهو يُولِيكَ الجميلا!

★ لُنْ لِمَنْ تَخْشى أذاهُ ... والْقَهُ في بابِ دارِهْ.
إنّما الدنيا مُدارا ... ةٌ؛ فَمَنْ تَخْشاهُ دارِهْ!

★ إذا كانتْ عُيوبُك عند نَقْدٍ ... تُعَدُّ، فأنتَ أجدَرُ بالكمالِ.
مَتى سَلِمَتْ من النَّقْدِ البَرايا؟ ... وحَسْبُكَ ما تُشاهِدُ في الهِلالِ!

★ سُكْرُ الوِلايةِ ما له صَحْوُ، وكلامُهـــا وحِراكُهـــا زَهْوُ.
يَهْـذي الفَـتى أيـامَ عِزّتِهـا، فـإذا تَقَضّـتْ نابَـهُ شَجْوُ[1].
فحَذارِ، لا تَغْرُرْكَ صَوْلَتُها وزَمانُهـا، فثُبوتُهـا مَحْوُ[2]!
★ خَلِّ رَأيَ الجُهّال ما ٱسْطَعْتَ وٱتْبَـعْ رأيَ أهـلِ الحُلوم والتجريـبِ.
رأيُ أهلِ الصَّلاحِ نورٌ يُجلّي ظُلمـةَ الكَرْبِ في ليالي الخُطوب.
★ زَمَنُ الفضائـلِ قـد مضى لِسبيلِهِ، ولَوَى بطِيبِ العيشِ وَشْكُ رَحيلِهِ[3].
رَكَـدَتْ رِيـاحُ الجِدِّ بعدَ هُبوبِها، وعـلا فَريقُ الهَزْلِ بعدَ خُمولِهِ[4].
هَيْهـاتِ، مـا زَمَنُ الكِرامِ وما هُمُ؟ ذَهَبوا؛ وجَـدَّ الدهرُ في تحويلِـه.
★ لا تَقْبَلِ الحُكْمَ على بلدةٍ نشأتَ فيهـا؛ إنّــه يُحْقِـدُ!
رِياسةُ المرءِ على الأهلِ والـ ـجـيرانِ والخِلّانِ لا تُحْمَـدُ.
★ تغافَلْ في الأمورِ ولا تُناقِشْ فَيَقْطَعَـكَ القريـبُ وذو المَوَدّهْ.
مُناقشةُ الفتى تَجْني عليه وتُبْدِلُـه من الراحـاتِ شِدّهْ.
★ جرّبِ الناسَ ما ٱسْتَطَعْتَ تَجِدْهُمْ لا يَرى الشخصُ مِنْهُمُ غيرَ نَفْسِهْ.
فالسعيدُ السعيدُ من أخَذَ العَفْـ ـوَ ودارَى جميـعَ أبناءِ جِنْسِهْ[5].
★ أرِحِ النفسَ تَنْتَفِعْ بحياتِكْ وٱغْنَمِ العيشَ قبلَ يومِ وَفاتِكْ.
وٱطّرِحْ عَيْبَ مَنْ سِواكَ، وسالِمْ جُمْلَةَ الناسِ يَغْفُلوا عن أذاتِكْ[6].
واعتَبِرْ بالـذينَ بـادوا، وبـادِرْ مـا يُدانيك من سبيلِ نجاتِكْ.

---

(١) نابه: أصابه. شجو: حزن.

(٢) ... لا يغرّك (بفتح الراء) ما تعطيه الدنيا من صولة (سلطة). الثبوت والمحو (من اصطلاحات الصوفية). الثبوت (هنا - في المعنى اللغوي): وجود السلطة في يدك (في الدنيا). محو: ذهاب لشخصيّتك (المحو - عند الصوفية - أن يتلاشى وجود الإنسان ويبقى وجود الله).

(٣) وشك: قرب.

(٤) ركد: هدأ، سكن.

(٥) العفو (هنا): ما يفضُل عن الناس (لا تزاحم أحداً على مغنم من مغانم الدنيا، واقنع بما يتركونه ممّا لا يحتاجون إليه).

(٦) «من» (زائدة، زادها الشاعر لإقامة الوزن). ٱطّرَح: ترك، أزاح عن عاتقه.

٤ - ★★ الكتيبة الكامنة ٨٦ - ٨٧؛ نيل الابتهاج ١٢٣ - ١٢٤؛ درة الحجال ٢: ٤٦٧ - ٤٧٠؛ نفح الطيب ٥: ٥٤٣ - ٦٠٣؛ دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى) ٤: ٨٥٥؛ بروكلمن، الملحق ٢: ٣٨٠، الأعلام للزركلي ٣: ١٣٢ (٨٣ - ٨٤).

محمّد البدريّ

١ - هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ محمّدٍ البدريُّ الأندلسيُّ، قرأ على أبي جعفرِ بن الزّيّات وعلى ابن الكمّاد، وأخذ أصول الدين وأصول الفِقه (؟) والنحوَ عن أبي عُمَرَ بنِ منظورٍ ولازَمَهُ. وقد حَجّ، ويبدو أنّه - وهُوَ في طريق ذَهابه أو إيابه - قد أخذ الفِقه عن أبي عبدِ الله بنِ عبدِ السلام في تُونِسَ. ثمّ إنّه عاد إلى الأندلُس وأقرأ في بلدِه بَلِّشَ. وكانت وفاتُه سَنَةَ ٧٥٠ للهجرة (١٣٤٩ م).

٢ - كان أبو عبد الله محمّدُ البدريُّ حَسَنَ التِّلاوةِ للقرآنِ الكريم، جيِّد المعرفةِ بالفِقه وبأصولِ الدين وخطيباً بليغاً حَسَنَ الوعظِ. وكذلك كان شاعراً مُجيداً رقيقاً غَزِلاً.

٣ - مختارات من شعره

- قال أبو عبد الله محمّدُ البدريُّ في النسيب (نيل الابتهاج ٢٤٩):

خالٌ على خدِّكَ أمْ عَنْبَرُ ... ولؤلؤٌ ثغرُك أم جوهرُ[١]؟
أوريتَ نار الحُبّ (بي) في الحشا، ... فصارتِ النارُ به تُسْعَرُ[٢].
لو جُدتَّ لي منك برَشْفِ اللّمى، ... لقُلْتُ: خمرٌ عسَلٌ سُكّرُ[٣].
دَعْنِيَ في الحُبِّ أذُبْ لَوعةً، ... سفْكُ دمِ العاشقِ لا يُنْكَرُ.

٤ - ★★ نيل الابتهاج ٢٤٨ - ٢٤٩؛ عنوان الأريب ١: ١٠٢ - ١٠٣.

---

(١) العنبر: طيب أسود اللون. الجوهر (هنا): اللؤلؤ أيضاً.
(٢) البيت في الأصل: نار الحبّ في الحشا فصارت الناس.... تُسعر (بالبناء للمجهول): تُوقد، تُشعَل.
(٣) اللّمى: سُمرة الشفاه (كناية عن الريق).

ابن المرابع

١ - هو أبو محمدٍ عبدُ الله بنُ إبراهيمَ بنِ عبدِ الله الأزْديّ الغَرْناطيُّ، وُلد في بَلِّشَ قربَ مالَقة، قضى حياته يتطوّف في الأندلس وفي المغرب يتقرّب من الحكام بُغية التكسّب منهم. ولكنه لم ينل حُظوة ولا شهرة - لا في المغرب ولا في الأندلس نفسها. وكانت وفاته في بلّش بالطاعون، سنة ٧٥٠ (١٣٥٠ م).

٢ - كان ابن المرابع من طبقة متوسطة في الناثرين والشعراء كثيرَ الهجاء، وهو ممثل الطريقة الساسانية في الأندلس (الاستجداء بالأدب). وليس في شعره براعة خاصة إلا في رثائه للديك. وقد رثى والدَ ابن الخطيب وأخاه بعد استشهادهما في وقعة طريف (سنة ٧٤١) ثم مدح ابن الخطيب نفسه (سنة ٧٤٩). وأبرز آثاره «مقامة العيد» (عبد الأضحى).

٣ - مختارات من آثاره

- من مقامة العيد لأبي محمدٍ الأزديّ بن المرابع:

يقولُ شاكرُ الأيادي وذاكرُ فخرِ كل ناد وناثر غُرَرِ الغُرَر للعاكفِ والبادي والرائحِ والغادي[١]: اسمعوا مِنّي حديثاً تَلَذُّه الأسماعُ ويستطرفه الاستماع ويشهَد بحُسنهِ الإجماع، وهو من الأحاديث التي لم تتّفق إلّا لمثلي ولا ذُكِرت عن أحدٍ قبلي. وذلك - يا معشرَ الأُلفَاء والخُلصاء والأحِبّاء - أني دخلت في هذه الأيام داري في بعض أدواري لأقضِيَ من أخذ الغذاء أوْطاري على حسب أطواري. فقالت لي رَبّة البيت: لِمَ جِئتَ ولِمَ أتَيْتَ؟ قُلتُ: جئت لكذا وكذا، فما الغذا؟ قالت: لا غذا عندي اليومَ ولو أوْدى بِكَ[٢] الصومُ، حتى تسل الاستخارة وتفعَلُ كما فعلَ زوجُ الجارة طيّب الله نجاره

(١) شاكر الأيادي (المُثني على الذين أنعموا عليه)، والمقصود به هنا «الراوي» الذي يروي المقامة عن المجلس الذي يرد ذكرها فيه. الغرة: البياض في الجبهة، العمل الجميل. ناثر غرر الغرر: ناشر ذكر الأعمال الجميلة. العاكف: القائم في بلده (المدينة). البادي (الساكن في البادية). الرائح: الراجع في المساء. الغادي: الذاهب (المبكّر) في الصباح.

(٢) أودى بك: أهلكك. الصوم: (هنا) الجوع. الاستخارة: طلب خير ما في الأشياء. تسل الاستخاره (؟).

وملأ بالأرزاق وِجاره[١]. قلت: وما فعل؟... قالت: إنه قد فكّر في العيد ونظر في أسباب التعييد وفعل في ذلك ما يَسْتحسِنُه القريب والبعيد. وأنت قد نَسِيتَ ذِكرَه ومحَوْته من بالك ولم تنظُرْ إليه نظرةً بعينِ اهتبالك. وعيد الأضحى في اليد[٢] والنظر في شراء الأُضْحِيَةِ (اليومَ) أوفق من الغد......

فلم يَسَعْني إلّا أن عَدَوْتُ أطوفُ السُّكَكَ والشوارع وأُبادر لِمَا غَدَوْت بسبيله وأسارع، وأجوب الآفاق وأسأل الرفاق، واخترق الأسواق واقتحم زريبةً بعد زريبةٍ واختبر منها البعيدةَ والقريبة. فما استرخصتُه استنقصتُه، وما استغليته استعليتُه[٣]..... حتى انقضى ثلثا يومي وقد عَيِيتُ بدَوَراني وصومي.... فأومأت[٤] للإياب وأنا أجدُ من خوفها[٥] ما يجد صغار الغنم من الذئاب، إلى أن مَرَرْتُ بقصّاب في مَجْزرةٍ وقد شدّ في وسَطه مِئزره..... وبين يديه عنْزٌ قد شَدّ يَدَيْهِ في رَوْقَيْه[٦]، وهو يَجْذِبه فيبرُك، ويجرّه فلا يتحرّك، ويَرومُ سَيْرَه فيَرْجعُ القَهْقرى ويعود إلى ورا، وهو يقول: آهِ له من جانٍ باغٍ وشيطان طاغٍ[٧].....

فقلت للقصاب: كم طلبُك فيه على أنْ تُمْهِلَ الثمن حتى أُوَفِّيه. قال: ابْغِني أجيراً وكُنْ له الآنَ من الذبح مُجيراً[٨]. وخُذْه بما يُرضي لأولي التقضّي.... ابْتَعْهُ مني نَسِيَّةً وخذه هديةً[٩].... وقال: تضمنُ لي فيه عشرين كباراً أَقبِضُها منك لانقضاء الحَوْل

---

(١) النِّجَار: الأصل. الوجار: بيت الثعلب، (هنا) البيت عموماً.

(٢) الاهتبال: انتهاز الفرصة، التمسّك بالشيء. في اليد: قريب.

(٣) ما وجدته رخيص الثمن كان ناقصاً في عيني (لا يليق، لا يكفي) وما كان غاليَ الثمن كان عالياً (جيداً أو فوق طاقتي).

(٤) عيّ: تعب. أومأ: أشار.

(٥) الإياب: الرجوع (إلى البيت). من خوفها (من الخوف من ربة الدار: من امرأتي).

(٦) المجزرة: مكان الجَزْر (ذبح الغنم الخ). المئزر - والمئزرة: ثوب قصير يشدّ على وسط البدن. العنز: الأُنثى من المعز (المقصود هنا: تيس) ذكر المعز، أو الماعز (وتقال للذكر وللأنثى). الروق: القرن. شد يديه إلى روقه: قيده ليمنعه من الهرب.

(٧) الجاني: المذنب. الباغي: الظالم. الطاغي: الذي جاوز الحدّ في كل شيء.

(٨) (الملموح): استأجر رجلاً يذبحه الآن.

(٩) التقضّي: الفناء والانقطاع - المقصود: أُولي التقاضي: أصحاب الديون، الدائنون. خذ بما يرضى أُولي =

ديناراً ديناراً[1] .....

فجلبني للابتياع منه الإنساءُ في الأمد[2].... فقال: قد بعْتُه لك فاقبِضْ مَتاعك وها هو في قَبْضِك فاشْدُدْ وَثاقه وهَلُمَّ لنَعْقدَ عليه الوِثاقة[3]. فانحدرتُ معَه إلى دُكّان التوثيق وابتدرت من السَّعَةِ إلى الضيق[4]. وأوثقني بالشهادة تحت عقدٍ وثيق وحملني من ركوب الدَّين ولِحاق الشين في أوعر طريق. ثم قال لي: هذا تَيْسُك فشأنَك وإيّاه وما أظنّك إلا تتهيّاه[5]. وآتِ بحمّالين أربعة فإنّك لا تَقدِرُ أن ترفعَه، ولا يتأتّى لك أن يتبعك ولا أن تتبعَه.....

[وأفلت التيس من الحمال وغاب عن النظر فجعل شاكر الأيادي يطلُبه فلقيه رجل غاضب يقول]:

إن عَنْزَك حين شرد خرج مثل الأسد وأوقع الرَّهج[6] في البلد، وأضرَّ بكل أحد. ودخل دهليزَ الفخّارة فقام فيه وقعد. وكان العمل فيه مطبوخاً ونيئاً[7] فلم يترُكْ منه شيئاً. ومنه كانت معيشتي، وبه استقامتْ عيشتي، فأنت ضامنٌ مالي، فارتفع معي للوالي.... ورجلٌ (آخرُ) يقولُ (هَلُمَّ إلى) المُحتسب[8]،و (أنا) أعرِف ما نكتَسِبُ

= التقاضي (بثمن أعلى من الثمن المدفوع نقداً). نسيّة (بثمن مؤجل). خذه هدية (خذه الآن من غير أن تدفع مالاً فكأنه هدية)- هذا التعبير موجود بشقيه في المقامة المضيرية لبديع الزمان الهمذاني.

(1) كباراً: (دنانير) كبيرة، وافية، راجحة. الحول: العام. لانقضاء الحول (بعد عام واحد).

(2) الإنساء: التأجيل. الأمد: مدة الدفع.

(3) الوثاق: الرباط. الوثاقة: التسجيل عند الكاتب العدل.

(4) ابتدرت من السعة إلى الضيق: أسرعت من السعة (أخذ عنز بلا مال) إلى الضيق (كثرة التضييق علي بالمشروط).

(5) الشين: العيب = اللجوء إلى الدين (بفتح الدال). الوعر: المكان الصلب المخيف (الطريق التي يصعب سلوكها). تتهيّاه = تتهيأ له: تستطيع السيطرة عليه.

(6) الرهج (بفتح الهاء أو بسكونها): الشغب.

(7) العمل: (يقصد) المصنوعات (من الفخار)- ما طبخ طينه فأصبح فَخّاراً قاسياً، وما زال نيئاً لم يطبخ بعد.

(8) ارتفع معي للوالي: اذهب معي إلى الحاكم. المحتسب: مفتش متبرع أو موظف ينظر في أحوال السوق وما يقع فيها من الضرر أو الاساءة الخ.

وإلى مَنْ تنتسبُ وقد كَثُرَ عندَه [١] بكَ التشكي، وصاحب الدِّهليز قبالته يبكي. وقد أمر بإحضارك، وهو بانتظارك.... ثم أمسكني باليمين حتى أوصلني إلى الأمين. وقال لي: أرسلتَ التَّيْسَ للفساد كأنك في نعم الله من الحُسّاد [٢]. قُلتُ: إنه شرد، ولم أدْرِ حيث ورد [٣]. قال: قد أمِنْتَ إنِ ضَمِنتَ، وعليك الثِّقاف.... حتى يقع الإنصاف أو ضامن كافٍ [٤]. فابتدر أحدُ إخواني وبعضِ جيراني فأدّى عني ما ظهر بالتقدير، وآلت الحال للتكدير [٥].....

وتوجّهتُ لداري وقد تقدَمتْ أخباري. وقَدِمتُ بغُباري وتعير [٦] صغاري وكباري. والتيسُ على كاهل الحمّال يرغو كالبعير ويزأر كأسد إذا فصَلتِ العِير [٧]. فقلتُ للحمّال: أنْزِلْه على مهل فالتعييد قدِ استهلّ. فحينَ طرحه في الأُسطوان [٨] كرّ إلى العدوان وصرخ كالشيطان. وهمّ أن يَقْفِزَ الحِيطان. وعلا فوق الجدار وأقام الرهجة [٩] في الدار. ولم تَبْقَ في الزقاق عجوز إلّا وصلتْ لتراه وتسأل عمّا اعتراه وتقولَ بكمِ اشتراه. والأولاد قد أرهقهم لَهْفُه [١٠] ودخل قلوبَهم خوفُه.

فابتدرتْ ربّةُ الدار وقالت: كَيْتَ وكيت، لا خَلَّ ولا زيتَ، ولا حيّ ولا مَيْت. ولا مَوْسَمَ ولا عيدَ، ولا قريبَ ولا بعيدَ. سُقْتَ العِفريتَ إلى المنزل.... ومتى تفرح

---

(١) اعرف ما تكتسب (اعرف مقدار دخلك) وإلى من تنتسب (ومكانتك في البلد)- أي أنت قادر على الدفع وتخاف أن يشيع عنك التمنع عن الدفع. عنده (عند الوالي).

(٢) كانت في نعم الله من الحساد: كأنك تحسد أصحاب الأموال فتريد إتلاف ما يملكون.

(٣) ورد: (هنا) ذهب.

(٤) عليك الثقاف إلى أن يقع الإنصاف: ستُقيَّد يداك بالحديد حتى تدفع ما يرضي الخصم. أو ضامن كاف: أو تأتي بضامن قادر على الدفع الآن.

(٥) آل: رجع. التكدير: الكدر والحزن.

(٦) تعير (كذا بالأصل).

(٧) العير: القافلة فيها الجمال والخيل والحمير الخ. فصلت: خرجت من البلد (داخل السور) وأصبحت في الطريق (في البادية- قريبة من الوحوش الضارية المفترسة).

(٨) العيد قد استهل: ثبتت رؤية هلاله (هنا: أعلن وقته). الأسطوان: دهليز قائم سقفه على أعمدة (؟).

(٩) الرهجة (؟): الصياح والفتنة.

(١٠) أرهقهم: (حملهم فوق ما يطيقون) لهفه: الخوف منه- كثر خوفهم منه.

زوجتك والعنزُ أُضحِيَتُك. ومتى تطبخ القدور ووَلَدُك مغدور[1]؟... واللهِ، لو كان العَنْزُ يُخرِجُ الكنزَ، ما عَمَرَ لي داراً ولا قَرَّبَ لي جِواراً. آخْرُجْ عني، يا لُكَعُ: فعل الله بك وصنع! وما حَبَسَك عن الكِباش السِّمان والضأن[2] الرفيعة الأثمان؟ يا قليلَ التحصيلِ، يا مَنْ لا يعرف الخِياطةَ ولا التفصيل.....

٤ - ★★ ..... (ذهبت منّي المصادر التي أخذت منها هذه الترجمة). دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٨٩١.

ابن هذيل الغرناطيّ

١ - هو أبو زكريّا يحيى بنُ أحمدَ بنِ إبراهيمَ بنِ هُذيلِ التُّجيبيّ الغَرْناطيّ، كان كثيرَ الابتعاد عن الناس لاشتغاله بعلومِ الأوائل[3] ولمَيلهِ إلى الاعتزال[4]، ممّا كان مكروهاً جدًّا في المَغْرِب والأندلس. ولعلّه آعْتُقِلَ مُدّةً من أجلِ ذلك (راجع نفح الطيب ٥: ٤٩٣). وفي أواخرِ أيامِه خَدَمَ السلطان[5] بطِبّه وقام بإقراء الأُصول والفرائض والطِّب. وفي آخر عُمرهِ فُلِجَ ثمّ تُوُفِيَّ في ٢٥ من ذي القَعْدةِ من سَنَةِ ٧٥٣ (٢/١/١٣٥٣ م).

٢ - كان ابنُ هُذيلٍ الغرناطيّ عارفاً بعلومِ التعاليم[6] وبعلومِ القَدماء كما كان

---

(١) العنز أضحيتك!: تضحي عنزاً والأفضل أن تضحي ضأناً (خروفاً). ولدك مغدور: مصاب بأذى من التيس (!).

(٢) اللكع: اللئيم، الأحمق. الكبش: الذكر من الضأن.

(٣) علوم الأوائل أو علوم القدماء هي العلوم الفلسفية كالمنطق وعلم ما وراء الطبيعة (البحث في الأسباب والوجود والنفس والآخرة).

(٤) الاعتزال، في تاريخ الفكر الإسلامي، حركة ترمي إلى تفسير مظاهر الوجود الماديّة والمدارك الروحية تفسيراً عقليًّا وإلى تحكيم العقل حتّى في ما لم يجر تحكيم العقل فيه (كالعقائد الدينية مثلا).

(٥) المفروض أنّه سلطان غرناطة أبو الحجّاج يوسف الأول بن إسماعيل (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ).

(٦) علوم التعاليم هي العلوم التي تجري في الأعداد: الحساب والجبر والهندسة والفلك والموسيقى ثمّ الطبيعيّات (الفيزيقا) والكيمياء.

مُعتزليًّا يقول بأنّ اللهَ تعالى لا يَقْدِرُ على غَيْرِ المُمْكنات ولا يعلَمُ الجُزئيّات[1]. وكان فقيهاً كبيراً وطبيباً مشهوراً وأديباً شاعراً له مَدْحٌ وغزلٌ وشكوًى وعِتاب، وقد جَمَعَ جانباً من شِعره في ديوانٍ وسَمّاه «السُليمانيّات والعزفيّات»[2].

٣- مختارات من آثاره

- قال ابن هذيل الغرناطيّ في النسيب:

نامَ طِفْلُ النَّبْتِ في حِجْرِ النُّعامي ... لاهتزازِ الظِّلّ في مَهْدِ الخُزامى[3].

وسَقى الوَسْمِيُّ أغصانَ النَّقا ... فهَوَتْ تَلْثِمُ أفواهَ النَّدامى[4].

كَحَلَ الفجرُ لها جَفْنَ الدُّجى ... وغدا في وَجْنَةِ الصُّبْحِ لِثاما[5].

تَحْسَبُ البدرَ مُحَيّا ثَمِلٍ ... قد سَقَتْهُ راحةُ الصُّبحِ مُداما[6].

يا عليلَ الروحِ، رِفْقاً: عِلّني ... أَشْفِ، بالسُّقْمِ الذي حُزْتَ، سَقاما[7].

أبْلِغَنْ عنّي عُرَيْباً بالحِمى ... هِمْتُ في أرضٍ بها حَلّوا غَراما[8].

كنتُ أشْفي غُلّةً من طَيْفِكُمْ ... لو أذِنْتُمْ لجُفوني أنْ تناما[9].

- وقال يَمدحُ السُّلطانَ أبا الوليدِ إسماعيلَ بنَ فَرَجٍ لمّا هاجم حُصْنَ أشْكر، سنة

(١) في المعتزلة نفر يقولون إنّ الله لا يقدر على المستحيلات (على مخالفة القوانين التي وضعها هو في الوجود: لا يستطيع عمل الشرّ، ولا جعل الصخر يطفو على وجه الماء، أي أنّهم ينكرون المعجزات). وكذلك هنالك نفر منهم (ومن الفلاسفة) يقولون إنّ الله يعلم الكلّيّات (أي قوانين الوجود وما يحدث من جريان تلك القوانين)، ولكنّه لا يعرف الحوادث الجزئية التي تجري في العالم.

(٢) السليمانيّات: نسبة إلى سليمان (غلام كان الشاعر يشبّب به). والعزفيّات (نفح الطيب ٥: ٤٨٨) أو العربيات (الكتيبة الكامنة ٧٤) والعرفيات (الاعلام للزركلي ٩: ١٦٣)- لم أعثر على تفسير لها.

(٣) الحجر (بالكسر): القرابة، الكنف، الوقاية. النعامى: ريح الجنوب. الخزامى: نبت طيّب الرائحة.

(٤) الوسميّ: مطر الربيع. النقا: الرمل الأبيض.

(٥) ....

(٦) محيّا: وجه. ثمل: نشوان سكران. المدام: الخمر. تحسب البدر إلخ (تشيع فيه حمرة من فعل الخمر!).

(٧) علّني: اسقني (من ريقك) قليلاً بعد قليل. السقم الطبيعي (في المحبوب): الرقّة والنحول من علامات الجمال).- سقامك يشفي مرضي من حبّك (؟).

(٨) العريب: تصغير للتحبّب. الحمى: مسكن العرب (الأصلي).

(٩) الغلّة: العطش. الطيف: المنام.

٧٢٤ هـ، ورماه بالنَفْطِ فَنَزَلَ أهلُ ذلك الحِصنِ على حُكمه (أطاعوه):

بِحَيْثُ البُنودُ الحُمْرُ والأسَدُ الوَرْدُ ... كتائبُ سُكّانُ السماءِ لها جُنْدُ[١].
عساكرُ مَلْكٍ شرّفَ اللهُ قدرَه، ... فسِيّانِ في إقدامِها السَّهْلُ والنَّجْد[٢].
وتحسَبُ نورَ الصِّدق والعَزْمِ دائماً ... سِراجاً من التقوى بأُزْرِهِمْ يبدو[٣].
هم القومُ رُهبانٌ إذا لَبِسوا الدُّجى؛ ... وإن لَبِسوا حَرَّ الهِياجِ فهُمْ أُسْدُ[٤].
حَذَوْا حَذْوَ سُلطانٍ على الشرعِ عاطفٍ ... رفيقٍ بهم حانٍ، إذا عَظُمَ الجَهْد[٥].
وتحتَ لِواءِ الشَّرعِ مَلْكٌ هو الهُدى ... تضيقُ به الدُّنيا إذا راح أو يغدو.
فلو رامَ إدراكَ النُّجوم لَنالَهــا ... لو هَمَّ لاَنْقادَتْ له السِّنْدُ والهِند.

ومنها يصف فِعْلَ آلةِ النَّفْطِ ويتكلّم على أهلِ الحِصْن:

وظَنّوا بأن الرَّعْدَ والصَّعْقَ في السما ... فحاق بهم من دُونها الصعْقُ والرعد[٦].
عجائبُ أشكالٍ سما هِرْمِسٌ بها ... مُهَنْدَسَةٌ تأتي الجبالَ فتَنْهدّ[٧].
ألا إنّها الدنيا تُريكَ عجائباً؛ ... وما في القُوى منها فلا بُدّ أن يبدو[٨].

– حدّثَ الشيخُ أبو زكريّا بن هُذيلٍ فقال (الإحاطة ١ : ٢٨٦):

---

(١) سكّان السماء: الملائكة. جند (هنا): مساعدون.
(٢) النجد: المرتفع من الأرض (يقصد: الصعبة المرتقى).
(٣) الأزر جمع إزار: ثوب للقسم الأسفل من الجسم (هم أتقياء بطبيعتهم).
(٤) في الليل يصلّون ويذكرون الله وفي حرّ الهياج (الحرب) يحاربون بشجاعة.
(٥) حذا حذوه: صنع مثل صنيعه. حانٍ: ذو حنوّ. الجهد: التعب، المشقّة، شدّة الزمان.
(٦) الصعق: نزول الصواعق. حاق: أحاط. من دونها (من تحت السماء: من الأرض).
(٧) هرمس (في الخرافات اليونانية): رسول الآلهة و(في الفلك): عطارد (أقرب الكواكب إلى الشمس) وهرمس المثلّث العظمة أو المثلّث بالحكمة ابن زفس (زوس أو جوبيتر أو المشتري) كبير آلهة اليونان. وكان هرمس هذا حكيماً في بابل ثمّ انتقل إلى مصر وعرف صنعة الكيمياء وغيرها.
(٨) «وما في القوى إلخ» مدرك فلسفي: كلّ نشاط يكون أوّلاً بالقوّة (كامناً) ثمّ يصير بالفعل (ظاهراً): النار في الحطب والفحم وعود الثقاب (الكبريت) موجودة في هذه الأشياء بالقوّة، فإذا نحن أوقدنا هذه الأشياء صارت النار التي كانت كامنة من قبل في هذه الأشياء ظاهرة فعلاً.

حَضَرْتُ بمجلس ذي الوزارتين أبي عبد الله بنِ الحكيم[1] - وأبو العبّاسِ بَدْرُ هالتِهِ[2] وقُطْبُ جلالته[3] - فلم يُجْرَ بشيءٍ إلا ركَضَ فيه وتكلّم بملءِ فيه[4]. ثمّ قُمنا إلى زَبّارينَ[5] يُصْلحون شَجَرَةَ عِنَبٍ، فقال لعريفِهم: حقَّ هذا أن يُقْصَر (ثمّ) يُطالَ هذا، ويُعْمَلَ كذا. فقال الوزيرُ: يا أبا العبّاسِ، ما تَركْتَ لهؤلاءِ أيضاً حظّاً من صِناعتِهم يستحقّون به أجراً. فعَجِبْنا مِنْ ٱستِخصارِه ووَساعةِ ذَرْعِهِ وامتدادِ حظِّ كِفايَتِه.

٤-★★ الدرر الكامنة ٤: ٤١٢؛ الكتيبة الكامنة ٧٣-٨٠؛ نثير فرائد الجمان ٣٢٠-٣٢٣؛ الإحاطة، راجع ١: ٣٥، ٥٣، ٢١٢-٢١٣، ٢٨٦، ٣٩٩؛ نفح الطيب ٣: ٣٥٧؛ ٥: ٩٧، ١٢٧، ٤٨٧-٤٩٧، ٦٠٥؛ الأعلام للزركلي ٩: ١٦٣ (٨: ١٣٦): معجم المؤلفين للكحالة ١٣: ١٨٢-١٨٣.

أبو عبد الله بن جُزَيٍّ الكلبي

١ - آلُ جُزَيٍّ بيتٌ مشهورٌ في المَغْربِ والأندلُسِ برزَ فيه نَفَرٌ من رِجالِ الدولةِ والعلمِ والأدب. من هؤلاء أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ أحمدَ بن محمّدِ بنِ عبدِ اللهِ بن يحيى الكَلْبيّ الغَرْناطي، وُلِدَ في شوّالٍ من سَنَةِ ٧٢١ (خريف ١٣٢١ م) في غَرناطَة.

نَبَغَ أبو عبدِ اللهِ بنُ جُزي باكراً وبرَعَ في العِلمِ والأدب فاتّخذَهُ سُلطانُ غَرناطةَ أبو الحجّاجِ يوسفُ بنُ الأحمرِ (٧٣٣-٧٥٥ هـ) كاتباً ثمّ غَضِبَ عليه فرَحَلَ، نحوَ سَنَةِ

---

(١) أبو عبد الله بن الحكيم الرندي (ت ٧٠٨ هـ)، راجع ترجمته في هذا الجزء.

(٢) هو أبو العبّاس أحمد بن عرفة اللخميّ (ت ٧٠٧ هـ). الهالة دائرة منيرة تحيط بالقمر (وبغيره). بدر هالته: أعظم أهل دولته المحيطين به. القطب: محور تدور عليه الأشياء (كالأرض والرحا: الطاحون، الخ).

(٣) لم يجر (يبحث) في شيء إلا ركض فيه (بحث فيه أحسن من جميع الحاضرين) وتكلّم بملء فيه (بملء فمه، وبالتفصيل وبثقة بالنفس).

(٤) الزّبارون: جماعة من المعتنين بأمر البساتين يأتون إليها في أواخر الشتاء فيزبرون (بضمّ الباء) أطراف الأغصان (أي يقطعون أشياءَ من رؤوس الأغصان) ممّا يكون قد يبس في أثناء الشتاء.

(٥) الذرع (هنا): القدرة (في المعرفة بالأمور المختلفة).

٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م)، إلى المَغْرِبِ وسكن فاس[١] ونالَ حُظْوةً عند السلطانِ أبي عنانٍ فارسٍ. وكانتْ وفاتُه في الأغلب في ٢٩ من شوّالٍ سَنَةَ ٧٥٧ (١٣٥٦/١٠/٢٥ م) شاباً بعد مَرَضٍ، في فاس.

٢ - كان أبو عبدِ الله بنُ جُزَيٍّ مُلمّاً بفنونٍ كثيرةٍ من الحديث والفِقْه واللُّغة والنحْو والتاريخ والحِساب، كما كان كاتباً مُجيداً وشاعراً بارعاً مُولَعاً بالصِّناعة وخصوصاً التوريةَ. وأكثرُ شِعرِه المديحُ والغزلُ على الأسلوبِ القديم في المعاني العُذْريةِ خاصّةً. ثمّ هو مُصَنِّفٌ كَتَبَ تَرْجَمَةً لنفسهِ، وله كتابُ «الأنوار في نَسَبِ النبيّ المختار». وعليه أَمْلى ابنُ بَطّوطةَ رِحْلَتَهُ (تُحْفة النُّظار). ومن المعقولِ أن يكونَ قد أسْبَغَ على هذا «الإملاء» شيئاً من أسلوبِهِ وبَراعته. وله باعٌ طويلة في الصناعة، كتب رسالة سينيّة (في كلّ كلمة من كلماتها سين).

٣ - مختارات من آثاره

- قال أبو عبد اللهِ بنُ جُزَيٍّ في النسيب:

مــتى يَتَلاقــى شائــقٌ ومَشُوقُ ... ويُصْبِحُ عاني الحُبّ وهو طَليقُ[٢]؟

أمّـــا إنّهـــا أُمْنِيّـــةٌ عزَّ نَيْلُهـــا
ومَرْمًى - لَعَمْري - في الرجـــال سَحيـــق[٣]!

وقـد يُرزَقُ الإنسانُ من بَعْدِ يأسِه؛ ... ورَوْضُ الرُّبى بعد الذُّبول يَروق[٤].

تباعـدتُ لمّا زادني القُرْبُ لَوْعَةً، ... لعـلّ فُؤادي من جَواهُ يُفيـق[٥].

ورُمْـتُ شِفاءَ الداءِ بالداءِ مثلَه؛ ... فإنّي بـألّا أشْتَفي لَحَقيـق!

---

(١) في الإحاطة (القاهرة ١٣١٩ هـ، ص ١٩٤ - ١٩٥): «اتّصل بنا خبر وفاته بفاس مبطوناً في أوائل (سنة) ثمانٍ وخمسين وسبعمائة، ثمّ تحقّقت أن ذلك في أوائل ربيعٍ الأوّل من ذلك العام».

(٢) الشائق: الذي يدعو الآخرين إلى حبّه. المشوق: المحبّ. العاني: الأسير.

(٣) عزّ نيلها: صعب الحصول عليها. مرمى: هدف. سحيق: بعيد.

(٤) يروق: يصبح منظره جميلاً.

(٥) اللوعة: حرقة في القلب من حبّ أو مرض. الجوى: شدّة الحبّ وحرقته.

– وقال في التورية:

يقولون لي: أصبحتَ بالآسِ مُولَعاً! فقُلْتُ: وهل في حُبِّي الآسَ مِنْ باس [1]
ألم تعلموا أنّ الهوى قد أعَلّني؛ وكيف ترى شَوْقَ العَليلِ إلى الآسي [2]؟

★ وغزالٍ لــــه جُفونٌ مِراضٌ تَبْعَثُ الوَجْدَ في قلوبِ الصِّحاحِ [3].
غرّني لَحْظُه، وقد قيل: شاكٍ! فإذا هُمْ يَعْنون شاكي السِّلاح

– وكتب أبو عبدِ الله بن جُزيّ إلى أمير المؤمنين المتوكّل على الله أبي عِنانٍ فارسٍ يُهَنِّئُه بشفاء ولده أبي زَيّانَ محمّدٍ وضَمّنَ هذه التهنئةَ عدداً كبيراً من أسماء الكتب (أسماء الكتب محصورة بين أهِلّة):

مــــاذا عسى (أدبُ الكتّــاب) يُوضِــح من [4]
خِصــــالِ مَجْــــدك وهي (الزاهر) (الزاهي).
وما الفصيح بـ(كليّات)(مُوعِبـ)ـها (كـافٍ) فيأتي بـ(أنباءٍ) و(إنباه).

أبقى اللهُ تعالى مولانا الخليفةَ ولِسعادته (القِدْح المُعلّى)، و(لزاهِرِ) (كمالـ)ـه (التاج

---

(١) المولع: المغرم. الآس نبات مستقيم العروق قاسي الورق طيّب الرائحة.
(٢) أعلّني: أمرضني. الآسي: الطبيب.
(٣) الوجد: الحبّ. شاكٍ: مريض. شاكي السلاح: متقلّد جميع سلاحه (آستعداداً للقتال).
(٤) هنالك عدد من هذه الكتب لم أهتد إليها (الزاهي، الموعب، الميقات)؛ ثمّ هنالك كتب في أسمائها «آشتراك» والإشارة إليها في هذا النصّ تدلّ على عدد من الكتب (الزاهر، الأنباء، الكمال، نزهة الناظر، القصد والأمم، الايضاح، الإرشاد، شفاء الصدور، الملخّص). أمّا سائر هذه الكتب فمعروف: ادب الكتّاب (لأبي بكر محمّد بن يحيى الصولي المتوفّى نحو ٣٣٦ هـ)، فصيح اللغة (لثعلب المتوفّى سنة ٢٩١ هـ)، إنباه الرواة على أنباه النحاة (لعليّ بن يوسف القفطي المتوفّى ٦٤٦ هـ)، التاج المُحلّى في مساجلة القدح المُعلّى (للسان الدين بن الخطيب المتوفّى ٧٧٦ هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لأبي الفتح بن الأثير المتوفّى ٦٣٧ هـ)، العقد المنظّم للحكّام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام (لأبي محمّد عبد الله بن عبد الله بن سلمون الكنّاني المتوفّى ٧٦٧ هـ)، إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزّاليّ المتوفّى ٥٠٥ هـ)، منهاج العابدين (للغزّالي أيضاً)، تنبيه الغافلين (لأبي الليث السمرقندي المتوفّى ٣٧٥ هـ)، مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في ملح أهل الأندلس (للفتح بن خاقان الأندلسي المتوفّى ٥٢٩ هـ)، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس (لابن عميرة الضبّي المتوفّى ٥٩٩ هـ)، أدب الدنيا والدين (لأبي الحسن الماردي المتوفّى ٤٥٠ هـ)، سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي المتوفّى ٥٢٠ هـ). والكتب التي لم تذكر هنا معروفة لمؤلّفين متأخّرين في الزمن.

المحلّى). تجلّى من حلاه (نزهة الناظر) ويسير بعلاه (المثل السائر)، ويتّسق من سناه (العِقد المنظّم) ويتّضح بها (القصد الأَمَم)[1] . ولا زالت (هدايتـ) ـه مُتكفِّلةً بـ (إحياء علوم الدين) و (إيضاح) (منهاج العابدين) و (إرشادُ) ه يتولّى (تنبيه الغافلين) ويأتي من (شفاء الصدور) بـ(النور المبين) و (ميقات) الخدمة ببابه (مطمح الأنفس) و(ملخص الجود من كفّه (بغية الملتمس). قد حكم (أدب الدنيا والدين) بأنّك (سراج الملوك).....

٤-★★ الدرر الكامنة (حيدر أباد) ٤: ١٦٥؛ الكتيبة الكامنة ٢٢٣-٢٢٨؛ الإحاطة ٢: ١٨٦-١٩٥؛ أزهار الرياض ٣: ١٨٩-٢٠٤؛ نفح الطيب ٢: ١٧٠-١٧١، ٥: ٥٢٦-٥٣٦، ٥٣٨-٥٣٩، ٧: ١٠٧-١٠٨؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧٥٦؛ بروكلمن (في ترجمة ابن بطّوطة) ٢: ٣٣٣، الملحق ٢: ٣٦٦؛ الأعلام للزركلي ٧: ٢٦٦ (٣٧).

المَقَّريّ الجَدّ★

١- هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ أحمدَ بنِ أبي بكرٍ القُرَشيُّ الأصلِ التِّلمسانيّ المولد، ثم آشتهر فيما بعد بالمَقَّريّ، نِسبةً إلى مَقَّرة، بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة (نفح الطيب ٥: ٢٠٥، السطر الثالث)، إحدى قُرى زاب بإفريقيةَ أو الزاب (وفيات الأعيان ١: ٣٦٠)- مزاب أو ميزاب، في جَنوبيّ القُطر الجزائري.

وُلِدَ المَقَّريُّ الجَدُّ في أيام أبي حمّو موسى بنِ عُثمانَ بنِ يَغَمْراسَنَ بنِ زَيّانَ (٧٠٧-٧١٨ هـ)، ولم يشأْ أنْ يُعيِّنَ السَّنَةَ التي وُلِدَ فيها (نفح الطيب ٥: ٢٠٦-٢٠٧).

عدّ المَقّريُّ الحفيدُ لِجدّهِ خَلْقاً كثيراً من الشيوخِ منهم أبو زيدٍ عبدُ الرحمنِ

---

(١) ليس في بروكلمن (راجع فهرست الكتب) كتاب باسم «القصد الأمم» (بفتح الهمزة والميم)، بل فيه: القصد والأمم- القصد الجليل...- القصد إلى الله إلخ- الأمم في آتيات الظلم- الأمم لإيقاظ الهمم.

(★) جدّ المقّري أحمد بن محمّد (ت ١٠٤١ هـ) صاحب «نفح الطيب».

(ت ٧٤١ هـ) بن محمدِ بن عبد الله بن الإمام وأخوه أبو موسى عيسى (ت نحو ٧٥٠ هـ) وأبو موسى عِمرانُ بنُ يوسفَ المشدّالي ثمّ أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ حَكَمٍ السَّلَويُّ (قتل ٧٣٧ هـ) وأبو محمّدٍ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الواحدِ المجاصي (ت ٧٤١ هـ).

عَمِلَ المَقّريُّ في التجارة بين المَغرب والصَّحراء والسودان الغربي (جَنوبَ المغرب) يُتاجر بالبضائع الثمينة، وقد وَرِثَ ذلك عن أهلِه. ثمّ إنّه حجّ في سَنَةِ ٧٤٤ هـ (١٣٤٤ م) وزارَ القُدْسَ.

ولمّا عادَ المقّريّ إلى المَغْرب ٱتّصل بأبي عِنانٍ فارسِ بنِ عليٍّ في أولِ سَنَةٍ من حُكمِه، سَنَةِ ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) فولّاه أبو عنانٍ قضاءَ فاسَ ثمّ أصبحَ قاضيَ الجماعة (قاضي القُضاة) فيها وخطيبَ جامِعها (جامع القَرَوِيِّينَ). ولكنْ يبدو أنّ شيئاً من الفُتورِ نشأ بينَ أبي عِنانٍ والمَقّريّ فعُزِلَ المَقّريُّ عنِ القضاء وَبَقِيَ مدّةً بعيداً عن مناصب الدولة.

وفي أوائلِ شَهْرِ جُمادى الآخرةِ من سَنَةِ ٧٥٧ (حزيران- يونيه ١٣٥٦ م) كان أبو عِنانٍ قد رَضِيَ عن المَقّريّ فأرسَله في سِفارة إلى الأنْدَلُس (لإزالةِ شيءٍ من الخِلاف بين بني مَرينٍ في المَغْرب وبنى الأحمرِ في غرْناطةَ). ولكنّ المَقّريَّ- ويبدو أنّه كانّ قد بَدَأَ يهرمُ في نفسِه وفي جِسمه- أهمل السِّفارة ومكث في مالَقَة منقطعاً إلى التأمُّلِ والعِبادة. وبلغ الخبرُ إلى أبي عِنانٍ فغضب وأرسل إلى الأندلس جماعة لِيَتَثَبّتوا من حال المقريّ. وٱنتقل المقّري إلى غرْناطةَ وعاذَ بجامِعها. ثم صَلَحَ ما بينَ أبي عنانٍ والمقّريّ قليلاً. وفي السَّنَةِ التاليةِ عاد المقّريُّ إلى فاس، ولكنْ لم يُعَمَّرْ بعدَ ذلك طويلاً، فقد تُوُفِّيَ سَنَة ٧٥٩ للهجرة (١٣٥٨ م)، كما جاء في نفح الطيب (٥ : ٢٨٠)، في فاس، ونُقِلَتْ جُثّتُه إلى تِلمْسانَ.

٢- المَقريُّ الجَدُّ فقيهٌ عالِمٌ وأديبٌ ومُتَصَوِّفٌ. وأسلوبُه مُرْسَلٌ لا تكلُّفَ فيه قائمٌ على التفكيرِ والمَنْطقِ. وللمَقّرِيّ الجَدِّ نثرٌ صوفيّ وشعر صوفي كثيرانِ. غيرَ أنّ الغالبَ على شعرِه جَفافُ شعرِ العلماء وقِلّةُ الرّوْنق. وله قصيدةٌ تائيّةٌ جعَلَها تَتِمّةً، في زعمه

لتائيةِ ابنِ الفارض[1]. والواقعُ أنّها مُحاكاةٌ قاصرةٌ لتائية ابنِ الفارض وترديدٌ لعددٍ من المدارِكِ البسيطة في ألفاظٍ مختلفة. وليس فيها من عُمْقِ مقاصدِ ابنِ الفارض شيءٌ.

والمقريّ الجَدُّ مُصَنِّفٌ له من الكتب:

الحقائق والرقائق (أقوالٌ جامعة في التصوّف؛ راجع المختارات)- القواعد (وهو كتاب يشتمل على ألْفٍ ومِائَتَيْ قاعدةٍ فِقهية)- كتاب يشتمل على أكثرَ من مِائَةِ مسألةٍ فِقْهية (وهو غيرُ الكتاب السابق)- عَمَلُ من طَبّ لِمَنْ حَبّ[2] (وهو كتاب مختلف الموضوعات فيه أحاديث حِكْمِيَة ثمّ كُلّيّاتٌ، أي قواعدُ عامّةٌ، من الفِقه) ثمّ قواعدُ وأصولٌ (في الاعتقاد) ثمّ اصطلاحاتٌ وألفاظ- الطُّرَفُ والتُّحَف (أو التحف والطرف)- المحاضراتُ (وفيه فوائدُ وحكاياتٌ وإشاراتٌ تتعلّق بالتصوّف وبالمتصوّفين)- اختصارُ المُحصَّل[3]- شرح الجُمَل للخونجي[4].

٣- مختارات من آثاره

- في نفح الطيب (٥ : ٣٢٨) عن المقريِّ الجَدِّ أنّه قال في وَصْفِ تائيةٍ له: «هذه لَمْحةُ العارضِ لِتَكْمِلَةِ أَلْفيّةِ ابنِ الفارض[5]، سَلَبَ الدهرُ من فرائدِها مِائَةً وسَبْعَةً وسَبعين، فاسْتَعَنْتُ على رَدِّها بحَوْلِ اللهِ المُعين». من هذه الأبيات:

وشأنُ الهَوى ما قد علمتُ، ولا تَسَلْ؛ وحَسْبُك- إنْ لم يُخْبِرِ الحُبُّ- رُؤيتي:
سَقامٌ بلا بُرْءٍ، ضلالٌ بلا هُدى، أُوامٌ بلا رِيٍّ، دَمٌ لا بِقيمة[6].
ألا أيُّهــا اللُّوّامُ عَنِّيَ قَوِّضوا رِكابَ مَلامي فهو أوّلُ مِحْنتي[7]،

---

(١) راجع ٣ : ٥٢٠ من هذه السلسلة.

(٢) طبّ: داوى، وتأتي أيضاً بمعنى الرفق (بالكسر) والسحر.

(٣) «المحصّل» لفخر الدين الرازي (؟).

(٤) محمّد بن أناماور الخونجي (ت٦٤٦ هـ)، له كتاب «الجمل» (في).

(٥) العارض: المقبل على الشيء، المتصدّي له. التائية الكبرى لابن الفارض (راجع ٣ : ٥٢٠).

(٦) أوام: عطش. دم لا بقيمة (إذا قتل، فليس لدمه قيمة: لا يطالب أحد بديته- بكسر الدال وفتح الياء بلا تشديد).

(٧) قوّض الركاب (؟)- يقصد ارتحل (اتركوا لومي).

ولا تَعْذِلوني في البُكاء ولا البُكى، وخلّوا سَبيلي ما اسْتَطَعْتم ولَوْعتي[١].
وكم موقفٍ لي في الهوى خُضْتُ دونه عُبابَ الردى بين الظُّبى والأسِنّة[٢].
سَلِ السَّلْسبيلَ العَذْبَ عن طَعْمِ ريقهِ ونَكْهَتِه يُخْبِرْكَ عن عِلْمِ خِبرة[٣].
لقد عزَّ عنك الصبرُ حتّى كأنّه سُراقةُ لحظٍ منك للمُتَلَفِّتِ[٤].
وأنت – وإنْ لم تُبْقِ منّي صُبابةً – مُنى النفس لم تَقْصِدْ سِواك بوِجْهة[٥].
وكلُّ فصيحٍ منك يَسْري لِمَسْمعي، وكلُّ مليحٍ منك يبدو لُمقلتي.
تَهونُ عليَّ النفسُ فيك، وإنّها لَتُكْرَمُ أن تَغْشى سِواكَ بنظرة[٦].
وتُخْبِرُ أصواتُ البلابِل أنّها تَغَنّتْ بترْجيعي على كُلِّ أيْكة.
وفي كلِّ خَلْقٍ منه كلُّ عجيبةٍ، وفي كلّ خُلْقٍ منه كُلُّ لَطيفة.

– وللمقريّ الجَدِّ أبياتٌ في الفخر رشيقةُ الألفاظ (ولكنّ في معانيها شيئاً من الغُموض – لغَلَبَة الخَيال الصوفي عنده):

نحنُ – إن تسألْ بناسٍ – مَعْشَرٌ أهْلُ ماءٍ فَجّرتْهُ الهِمَمُ.
عَرَبٌ مِنْ بيضِهِمْ أرْزاقُهم، ومن السُّمْرِ الطِوالِ الخِيَمُ[٧].
عَرّضتْ أحسابُهم أرواحَهم دونَ نَيْلِ العِرْض، وهو الكرم[٨].
أوْرثونا المَجْدَ حتّى إنّنا نرتضي الموتَ ولا نَزْدَحِمُ[٩].

---

(١) العذل: اللوم. البكاء معروف. والبكى: البكاء والغناء (من الأضداد).
(٢) الظبى جمع ظبة (بضمّ ففتح بلا تشديد): حدّ السيف. السنان (بالكسر): نصل الرمح.
(٣) – الماء العذب السائغ في الحلق أخذ عذوبته وحلاوته من ريق المحبوب.
(٤) السراقة (؟). مسارقة النظر: النظرة الخاطفة، السريعة.
(٥) الصبابة: بقية الشيء (بقية الروح).
(٦) أنا أكرم نفسي (أرفع مقامها) عن أن تنظر إلى غيرك. سواك (سوى الله).
(٧) البيض: السيوف. السمر: الرماح. الخيم: الصفات، الأخلاق. – يحصّلون عيشهم بجدّهم (بالكسر) وكدّهم وأخلاقهم مستقيمة كالرماح.
(٨) الحسب: العمل الكريم. نيل العرض: اعتداء أحد على أعراضهم. – نسبهم الشريف يحملهم على أن يدافعوا عنه (عن عرضهم)، ولو أن ذلك أدّى إلى موتهم (وهذا هو الكرم الصحيح).
(٩) – نفضّل أن نموت على أن نزاحم الناس على أعراض الدنيا (راجع البيت التالي).

ما لنا في الناس من ذَنْبٍ سِوى   أنّنـا نَلْوي إذا مـا اقتحموا[١]!

- للمقريّ الجدِّ أقوالٌ صوفية في كتابه « الحقائق والرقائق » منها:

حقيقة: عَمِلَ قَوْمٌ على السوابق، وعمل قومٌ على اللواحق[٢]. والصوفيُّ من لا ماضِيَ له ولا مُسْتَقْبَل؛ فإنْ كان زُجاجيًّا فَبَخٍ بَخٍ - رقيقة: من لم يَجِدْ أَلَمَ البُعْدِ لم يَجِدْ لَذّةَ القُرْبِ. فإنّ اللذّة هي التخلُّصُ مِنَ الألم - حقيقة: العمل دواءُ القلب. وإذا كان الدواءُ لا يصْلُح إلّا إذا كان على حِمْيةِ البَدَنِ، فكذلك العملُ لا ينجَحُ إلّا بعد صَوْم النفْس: فارِقْ نَفْسَكَ وتَعالَ - رقيقة: الزادُ لك، وهو مكتوبٌ. والزائدُ عليك، وهو مسلوب[٣]. فأجْمِلْ في طلب المَضْمون، ولا تُلْزِمُ نفسَك صَفْقَةَ المَغْبون[٤] - رقيقة: قُمْتُ ببعضِ الأسحار على قدمٍ للاستغفار، وقدِ اسْتشعَرْتُ الصَّبابةَ واستَدْثَرْتُ بالكآبة[٥]. فأملى الجَنان على اللِّسانِ بما نَفَثَ في رُوعِه روحَ الإحسان:

مُنكسرُ القلـــبِ بالجَنايـــا   يدعوك، يـا مانِـحَ العَطايـا[٦].

أقعَـــدَهُ الذنـــبُ عن (رِفـاقٍ)   حَثّوا لِرِضْوانـــك المَطايـــا[٧].

ومنه، أثَرُ حقيقةٍ في شأن الحَلّاج، ثمّ قلتُ:

وَلَربَّ داعٍ للجمالِ أطَعْتُـــــهُ   وأبى الجَلالُ عليّ أنْ أتَقَدّما[٨].

فأطَعْـتُ بالعِصيـانِ أمرَهُما مَعـاً   وجَنَحْتُ للتسليمِ (حتى) أسلما[٩].

---

(١) - إذا اقتحم الناس: هجموا (على غرض من أغراض الدنيا) فنحن نلوي (نلتفت، ننصرف) عنه. وهذا ذنبنا عند الناس (أنّنا جبناء).

(٢) - نصف الناس يفتخرون بأعمالهم الماضية، ونصفهم الآخر يعدون بأن يعملوا في المستقبل أعمالاً عظيمة.

(٣) الزائد عمّا تحتاج إليه من الطعام أو من غير الطعام « مسلوب » (مأخوذ منك)، ما دمت لا تستخدمه (تستهلكه)، فهو لغيرك.

(٤) حينما يتمّ البيع بين اثنين يقومان بصفقة (يضرب أحدهما بكفّه كفّ الآخر). المغبون: الذي يدفع في سلعة أكثر من ثمنها (أو يأخذ أقلّ من ثمنها).

(٥) استشعر: لبس الشعار (ثوباً يلبس ملاصقاً للبـدن). استدثر: لبس الدثار (ثوباً يلبس فوق سائر الثياب).

(٦) الجنايا جمع جناية. مانح العطايا هو الله.

(٧) رفاقي الطائعون يطلبون رضاك. وأنا مذنب أخجل من أن أطلب رضاك.

(٨) - جماله يغريني بحبّه، وجلاله (عظمته وهيبته) يمنعني من أن أصرّح بحبّي إياه.

(٩) فأطعت بالعصيان أمرهما (لم أطع داعي الجمال): لم أحبّه، ولم أطع هيبته: لم أدّع (بفتح ودال مشدّدة =

- إنّ عمَلَ أهلِ قُرطُبَةَ ليس حُجّةً في القضاء والفُتْيا[١]:

جاء في نفح الطيب (١ : ٥٥٦ - ٥٥٧): واعْلَمْ أنّه، لِعِظَمِ أمرِ قُرطُبَةَ، كان عمَلُها حُجّةً بالمَغْرب، حتّى إنّهم يقولون في الأحكام: «هذا مِمّا جَرى به عمَلُ قُرطُبَةَ». وكان المَقّريُّ الجَدُّ لا يرى صِحّةَ ذلك، فقال في كتابِهِ «القواعدِ»:

وعلى هذا الشرطِ تَرَتّبَ إيجابُ عَمَلِ القُضاة بالأندلس، ثمّ آنتقلَ إلى المَغْرب. فَبَيْنا نحنُ نُنازِعُ الناسَ في عمل أهلِ المدينة ونَصيح بأهلِ الكوفة[٢]، مَعَ كثرةِ ما نَزَلَ بها من عُلماءِ الأُمّةِ كعليٍّ وابنِ مَسعودٍ[٣] ومن كان مَعَهُما: «ليسَ التكحُّلُ في العَيْنين كالكَحَل[٤]»، سَنَحَ لنا (بغضُ المجهودِ ومودّة التقليد):

اللهُ أخّرَ مُدّتي فتأخّرتْ ... حتّى رأيتُ من الزمان عَجائبا!

يا للهِ ولِلْمسلمين. ذهبتْ قُرطُبَةُ وأهلُها، ولم يبرَحْ من الناسِ جَهْلُها. ما ذاك إلّا لأنّ الشيطانَ يسعى في مَحْوِ الحقِّ فَيُنْسِيهِ، والباطلُ لا زال يُلَقِّنُه ويُلْقِيه[٥]. ألا نرى

= مفتوحة) أنّني أحبّه، وسلّمت أمري إليه (يفعل بي ما يشاء) حتّى أسلم أنا: حتّى أنجو (فربّما ادّعيت حبّه فلم أستطع الوصول فأندم أنا أو أكون عنده عاجزاً أو ملوماً).

(١) كان الفقهاءُ يَعُدّون أعمالَ أهلِ المَدينةِ قواعدَ فِقهيّةً، لأنّ الرسولَ صلّى الله عليه وسلّم عاش في المدينةِ، ولأنّ كِبارَ الصحابةِ كانوا من أهلِ المدينة، ولأنّ المدينةَ كانتْ عاصمةَ الخِلافةِ الإسلامية. وبما أن قُرطُبَةَ كانت عظيمةَ الشأنِ في السياسةِ والحَضارة، فقد كان جماعةٌ من فُقهاءِ المَغْرب يَعُدّون ما جرَتِ العادةُ به في قُرطبةَ قاعدةً صحيحةً في فِقهِ (المعاملات: البيع والشراء إلخ). وكان المَقّريّ الجدّ لا يرى هذا الرأيَ.

(٢) على هذا الشرط: صحّة آتخاذ عمل أهل قرطبة حجّة في الفقه (في المعاملات).

(٣) نحن ننازع أهل المدينة في ذلك (المقرّي الجدّ لا يريد أن يقبل عمل أهل المدينة مصدراً من مصادر التشريع). نصيح بأهل الكوفة (نعنّف أهل الكوفة لأنّهم أرادوا أن يكون عمل أهل بلدهم مصدراً للتشريع) مع كثرة الفقهاء والعلماء فيها، من أمثال علي بن أبي طالب ثم عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ): من السابقين إلى الإسلام، ومن أكابر صحابة رسول الله، كان خادماً للرسول ورفيقاً له في الحضر والسفر.

(٤) الشطر من بيت للمتنبّي من القصيدة التي مطلعها: أجاب دمعي، وما الداعي سوى طلل. التكحّل: وضع الكحل في جفون العينين. الكحَل: الجمال الطبيعي في العينين.

(٥) يلقّن: يعلّم. يُلقي: يُملي، يحمل الناس على قبول الآراء.

خِصالَ الجاهليّة كالنِّياحة والتفاخُرِ والتكاثُرِ[١] والطعنِ والتفضيل والكِهانة والنجوم والخَطّ والتشاؤم[٢] وما أشْبَهَ ذلك، وأسماءَها كالعَتْمة ويَثْرِبَ[٣]. وكذلك التنابُزُ بالألقاب[٤] وغيرُه مِمّا نُهِيَ عنه وحُذِّرَ منه؛ كيف لم تَزُلْ من أهلِها وآنتقلتْ إلى غيرِهم[٥] مَعَ أيْسَرِ أمرِها، حتّى إنّهم لا يرفعون بالدِّين رأساً بل يجعلون العاداتِ القديمة أُسًّا[٦]. وكذلك محبّةُ الشعر والتلحين والنَسَب* وما آنخرطَ في هذا السِّلْكِ ثابتةُ المَوْقعِ في القلوب[٧]. والشَّرْع فينا مُنْذُ سَبْعِمِائَةِ سَنَةٍ وسبع وستين سَنَةً لا نحفَظُه إلّا قَوْلًا ولا نَحْمِلُه إلّا كَلّا[٨]!

٤ - ** الإحاطة ٢ : ١٣٦ - ١٦٥ ؛ المرقبة العليا ١٦٩ - ١٧٠ ؛ نيل الابتهاج ٢٤٩ - ٢٥٤ ؛ شذرات الذهب ٦ : ١٩٦ (في وفيات سنة ٧٦١ هـ)؛ نفح الطيب ١ : ٥٥٦ - ٥٥٨ ، ٥ : ٢٠٣ - ٢٣٤ ، ٢٥٤ - ٣٥٠ ؛ م م ع ع د ٤١ : ٣١٣ (١٩٦٦ م) ثمّ (كانون الثاني - يناير ١٩٧١ م)، ص ٩٩ - ١٠٤ (مقالان بقلم عبد القادر زمّامة)؛ الأعلام للزركلي ٧ : ٢٦٦ ، ٢٧٠ (٣٧)؛ مجلّة الأصالة (الجزائر) ٤ : ٢٦ ، ص ١٤١ ، ١٨٧ .

أبو القاسم السبتي الغرناطي

١ - هو أبو القاسمِ محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ محمّدِ بنِ أحمدَ بنِ عبد الله بنِ محمّدٍ المعروفُ بالشريفِ الحَسَنيّ السَّبْتي مولداً ونشأةً الغَرْناطي داراً (لطول سُكناه في غَرناطةَ).

وُلِدَ أبو القاسمِ السبتيُّ في سَبْتَةَ في سادِسِ ربيعٍ الأولِ من سَنَةِ ٦٩٧

(١) التكاثر: الفخر بكثرة الأولاد أو بكثرة الأموال.
(٢) الخطّ (في الرمل ؟): التنجيم (؟).
(٣) العتمة (؟) ويثرب من أسماء المدينة المنوّرة في الجاهلية.
(٤) التنابز بالألقاب: دعوة الإنسان خصومه بألقاب قبيحة.
(٥) تلك العادات السيئة لم تزل (بضمّ الزاي: تذهب) عن العرب، بلِ آنتقلت منهم إلى غيرِهم (البربر).
(٦) الأس: الأساس. * لعلها «النسيب».
(٧) ثابتة الموقع في القلوب (محبوبة).
(٨) منذ سبعمائة سنة وسبع وستّين سنة .... (يبدو أن المقّري الجد قد قال هذه الجملة في أواخر حياته) سنة ٧٥٤ للهجرة: ٧٦٧ - ١٣ قضاها الرسول في مكة قبل الهجرة= ٧٥٤ (تاريخ وفاة المقري الجد) الكلّ (بالفتح) الثقل (هو يلوم المسلمين في الأندلس في زمانه).

(١٢٩٨/١/٢٢ م). بدأ أخذَ العِلْم عن أبيه وعن نَفَرٍ منهم: أبو إسحاقَ إبراهيمَ الغافقيِّ (ت ٧١٦ هـ) وأبو عبدِ الله محمّدُ بنُ رُشيدٍ السبتي (ت ٧٢١ هـ) وأبو عبد الله محمّدُ بنِ هاني السبتي (ت ٧٣٣ هـ) وغيرُهم.

رحل أبو القاسم السبتي إلى الأندلس في مَطْلعِ حياتهِ وتصدّر للإقراء في مالَقَةَ واتّصل، في أثناءِ ذلك، برئيس الكُتّاب أبي الحسنِ الجيّاب(١) فكانت بينَهما مُراسلاتٌ ومخاطبات فصداقةٌ. ويبدو أنّ ابن الجياب أشارَ بانتقاله من مالَقَةَ إلى غَرناطةَ وأنه أدخَلَهُ في ديوان الإنشاء. ثمّ إنّ أبا العبّاس السبتي تولّي الخطابة والقضاء في غَرْناطة. غير أنّه صُرِفَ عن قضاءِ غَرناطةَ، في شعبانَ من سَنَةِ ٧٤٧ لغيرِ زلّةٍ. وقد تولّى القضاء في وادي آشَ(٢) ثم أُعيدَ وشيكاً إلى قضاء غَرناطَة وظلّ في هذا المَنْصِبِ إلى حينِ وفاتهِ، في ٢١ شَعبانَ من سَنَةِ ٧٦٠(٣) (١٣٥٩/٦/١٨ م).

٢- كان أبو القاسم السبتي مُقدَّماً في عددٍ من فنون العلم والأدب: في التفسير والحديث والفِقه والأحكام واللغة والنحو والبلاغة والعَروض والتاريخ. وهو مُصَنِّفٌ له: رفع الحُجُب المستورة عن محاسن المقصورة (شرح مقصورة ابن حازم القرطاجنّي)- رياضة الأبي في شرح قصيدة الخزرجيّ (أرجوزة: الرامزة الشافية في علم العَروض والقافية أو القصيدة الخزرجية لأبي عبد الله محمّد بن عثمان الخزرجي من أحياء النصف الأوّل من القرن السابع للهجرة)- شرح تسهيل الفوائد (لابن مالك الطائي الجيّاني المتوفّى سنة ٦٧٢ هـ)- جُهْدُ المُقِلّ (ديوان شعره)- وغير ذلك من الشروح. ثمّ هو ناثر مترسلٌ شاعرٌ من فنونه الوصف والغزل خاصّة والمدح.

٣- مختارات من آثاره

- قال أبو القاسم السبتي الغَرناطيُّ يَصِفُ ساقيةً (ناعورة):

---

(١) انظر فوق، ص ٤٣٨.

(٢) وادي آش قرب غرناطة.

(٣) في نفح الطيب (٥: ١٩٧): وفاته سنة ٧٦١ هـ.

وذاتِ حَنينٍ تَسْتَهِلُّ دُموعُها   سِجاماً إذا يحدو رِكائِبَها الحادي[١].
تَعجّبْتُ أنْ ليست تَريمُ مكانَها،   ولم تَخلُ من تأويبِ سَيْرٍ وإسْآد[٢].
وأرصَدْتُها في الرَّوْضِ أيّةَ عُدّةٍ،   فكانتْ لدَفْعِ المَحْلِ عنه بمِرْصاد[٣].
تخالَفَ ماءُ المُزْنِ حُكماً وماؤها؛   وكلٌّ على رَوْضِ الرُّبى رائحٌ غادي[٤]:
فيُنْجِدُ هذا بعدَ أن كان مُتْهِماً،   وذاك تراه مُتْهِماً بعد إنجاد[٥].
لئن قَذَفَتْ ذَوْبَ اللُّجينِ على الثَّرى   لقد خلّصْتُه القُضْبُ حَلْياً لأجْياد[٦]!

- وأهدى نُسخةً من ديوان شعرِه لتلميذه لِسانِ الدين بنِ الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) وكتب عليه: هذهِ أوراقٌ ضَمَّنْتُها جُملةً من بناتِ فِكْري وقِطَعاً مِمّا يَجيش به في بعضِ الأحيانِ صدري. ولو حَزَمْتُ لأضْرَبْتُ عن كَتْبِها كلّ الإضراب ولَزِمْتُ في دَفْنِها وإخفائها دينَ الأعْراب[٧]. ولكنّي آثرتُ على المَحْوِ الإثباتَ[٨] وتمثّلتُ بقولِهِمْ: إنّ أحسنَ ما أُوتِيهِ العربُ الأبياتُ[٩]. وإذا هي عُرِضَتْ على ذلك المَجْدِ وسألها كيف نَجَتْ من الوأدِ[١٠]، فقد آوَيْتُها من حَرَمِكُمْ إلى ظِلّ ظَليلٍ وأحْلَلْتُها من فِنائكم في

---

(١) دولاب الناعورة يحدث صوتاً وهو يدور. تستهلّ: تنسكب. سجاما: بكثرة ودوام. يحدو: يسوق. الركائب: الحيوانات المعدّة للركوب (يشبّه القواديس الصناديق المركبة على محيط دولاب الناعورة بالركائب).
(٢) تريم: تبرح، تترك. التأويب: سير النهار كلّه. الإسآد: المشي في الليل.
(٣) أرصدتّها: أعددتها. أيّة عدة: عدّة عظيمة (وسيلة). المحْل؛ القحط، قِلّة نتاج الأرض.
(٤) المزن: المطر. رائح وغاد (يأتي في المساء وفي الصباح).
(٥) أنجد (ارتفع). أتْهم (انخفض). ذوب اللجين (الفضّة): الماء الناصع البياض الصافي.
(٦) لقد خلّصته... إلخ: أخرجت منه قضبان النبات أزهاراً تضعها النساء الجميلات في أجيادهن (أعناقهن، أعلى صدورهن).
(٧) الكَتْب (بفتح فسكون): الكتابة، التدوين. أضرب: امتنع. الأعراب (البدو). دينهم (عادتهم) دفن النبات.
(٨) المحو والإثبات من ألفاظ الصوفية. المحو ضياع شخصية المتصوّف في الله (بقاء شعره في صدره). الإثبات ثبوت شخصيّة المتصوّف في الله (درجة فوق المحو)، ظهور شعره الذي يمثّله.
(٩) الأبيات: أبيات الشعر، الشعر.
(١٠) ذلك المجد، كناية عن مكانه لسان الدين بن الخطيب الذي أهدى الشاعر إليه ديوانه. الوأد: دفن الإنسان حيّا.

مُعَرَّسٍ ومَقيل[1]. وأهْدَيْتها عِلْماً بأن كَرَمكم بالإغضاء عن عُيوبها كَفيل. فاغْتَنِم قليلَ الهَديّةِ منّي: إنّ جُهْدَ المُقلّ غيرُ قليلٍ[2].....

- ومن قوله في الغزل:

ظَفِرْتُ بلَثْمِهـا فبـدا احْمرارٌ بوَجْنَتِها يَزيدُ القلبَ وَجْداً[3].
فأغْراهـا بِيَ الواشي، فظَلّتْ تلومُ. ولم أكُنْ مِمّنْ تَعَـدّى.
ومـا كانـت سِوَى قُبَلٍ، ففيها جَنَيْنَ أقاحِياً وغَرَسْنَ ورداً[4]!

٤- رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة (راجع، فوق، ص ٤٧٨): فيها ترجمة لحازم القرطاجنّي (ت ٦٨٤ هـ).

★★ قضاة الأندلس ١٧١ - ١٧٧؛ الديباج المذهب ٢٩٠ - ٢٩١؛ بغية الوعاة ١٦؛ نفح الطيب ٥: ١٨٩ - ١٩٩، ٦: ٢٤٨ - ٢٥١؛ النبوغ المغربي ٢١١ - ٢١٢، ٧٣٦، ٧٦٥ - ٧٦٨؛ الأدب المغربي ٢٣٩ - ٢٤٢؛ الأعلام للزركلي ٦: ٢٢٤ (٥: ٣٢٧): معجم المؤلفين لكحالة ٨: ٢٥٢ و٣١٧ (مكررة).

أبو جعفر بن صَفوانَ

١ - هو أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ إبراهيمَ بنِ أحمدَ بنِ صَفوانَ القيسيُّ، وُلِدَ في مالَقَةَ، سَنَةَ ٦٧٥ هـ[5]. أخذَ عن أبي محمّدٍ الباهليّ، و(في مرّاكش) عن أبي عبدِ الله بن عبدِ الملك المؤرّخِ وعن أبي العبّاس بن البنّاء[6]. وتولى أبو جعفرِ بنُ صَفوانَ الكتابةَ في غَرناطةَ

(١) آويتها (أسكنتها) من حرمكم (في جنبكم الذي لا يجرؤ أحد على ارتكاب ظلم فيه). الفناء (بكسر الفاء): باحة الدار. المعرّس: مكان النوم ليلاً. المقيل: مكان النوم نهاراً.

(٢) جهد المقل: ما يبذله الفقير أو الضعيف من مالها أو طاقتها. و «جهد المقلّ» عنوان ديوان أبي القاسم السبتي.

(٣) الوجد: الشوق والحبّ.

(٤) الأقاحي جمع أقحوان (بضمّ الهمزة والحاء): أزهار بيض ذات أوساط صفر. - قبّلتُ خدّها الأبيض فاحمر خجلاً (كأنّه نبت فيه ورد=زاد جماله).

(٥) من الديباج المذهب ص ٤٣؛ ٧٦٣ هـ=١٢٧٦ - ١٢٧٧ م.

(٦) كذا في الديباج المذهب. والملموح أن ابن البنّاء هذا هو ابن البناء المَراكشي (ت ٧٢١ هـ) العالم بالحساب.

في زمن السلطانِ أبي عبد الله محمّدِ بنِ يوسفَ المعروفِ بالفقيه (٦٧١-٧٠١ هـ) ثمّ آستعفى من مَنْصِبِهِ وعاد إلى مالَقَة وفيها تُوُفِّيَ في آخرِ جُمادى الآخِرة من سَنَةِ ٧٦٣ (٢٥/ ٤/ ١٣٦٢ م).

٢- كان أبو جعفرِ بنِ صفوانَ صدراًمن صُدورِ الكُتّابِ وشاعراً أكثرُ شِعرِه في الشكوى، وبعضُه في التصوّف. وكان أيضاً بارعاً في عددٍ من فنون المعرفة كاللغة والأدب والتاريخ والحساب والفرائض والتوثيق والفلسفة والتصوّف. وكان مصنِّفاً له: مطلَعُ هِلال الأنوار الإلٰهية - بُغية المستفيد - شرح كتاب القُرشي في الفرائض، وغيرُها.

٣- مختارات من آثاره

- قال أبو جعفرِ بنُ صَفوانَ في عددٍ من المعاني الصوفية[١]:

بانَ الحميمُ، فما الحِمى والبانُ	بشفاءِ مَنْ عنه الأحبّةُ بانوا[٢]؟
لم ينقُضوا عَهْـداً بِبَيْنِهِمُ، ولا	أنْساهُمُ ميثاقَـكَ الحَدَثـانُ[٣].
لكنْ جنحـتَ لِغَيْرِهم، فأزالَهُمْ	عن أُنْسِهم بكَ مُوحِشٌ غَيْران[٤].
لو صحّ حُبُّكَ ما فَقَدْتَهُمُ، ولا	سارتْ بهم عن حَيِّك الأظعانُ[٥].
لا يشتكي أَلَمَ البُعـادِ مُتَيَّمٌ	أحبابُـهُ في قلبـه سُكّـان.
شَغَلَتْـكَ بالأغيـارِ عنهم مُقْلَـةٌ	إنسانُهـا عن لَمْحِهِمْ وَسْنـان[٦].
غمّضْ جُفونَك عن سواهُم مُعْرِضاً؛	إنّ الصوارمَ حُجْبُها الأجفان[٧].

(١) سأشرح هذه الأبيات شرحاً لغويًّا أدبيًّا وسأترك الصور الصوفية بلا شرح.

(٢) بان: ابتعد، سافر. الحميم: الصديق المخلص - فما أثر الحمى (المسكن) والبان (نوع من الشجر) في شفاء (تعزية) من آبتعد عنه أحبّته ؟

(٣) البين: البعد. الميثاق: العهد. الحدثان: أحداث الزمان (المصائب).

(٤) جنَح: مال، انصرف.

(٥) الظعن (بالفتح): الراحلة عليها هودج للنساء.

(٦) الأغيار (في التصوّف): الموجوات في عالم المشاهدة، الأشياء الموجودة في عالمنا: البحر، الشجرة، البيت، الإنسان (كلّ ما هو غير الله في الأمور المشاهدة). وسنان: نعسان.

(٧) الصارم: السيف. الجفن (الأولى): جفن العين، (والثانية): جفن السيف، قرابه، بيته.- ما دام السيف في قرابه فليس سيفاً (لأنّه في هذه الحال لا يفعل فعل السيوف).

واصْرِفْ إِلَيْهِمْ لَحْظَ فِكْرِكَ شاخصاً ... تَرَهُمْ بقلبِكَ حيثُ كنتَ وكانوا.
يا لامحاً سِرَّ الوجود بعَيْنِهِ، ... السرُّ فيك بأَسْرِه والشان.
أنتَ الحِجابُ لِما تُؤمِّلُ منهمُ؛ ... ففَناؤك الأقصى لهم وُجْدان[1].

– وقال في الموت وهلاك الأعداء:

وقالوا: قضاءُ الموتِ حَتْمٌ على الورى ... يُدير صغيرٌ كأسَه وكبيرُ[2]،
فلا تَنْتَسِمْ ريحَ ارتياحٍ لفقْدِه، ... فإنّكَ عن قَصْدِ السبيل تحور[3].
فقلتُ: بلى، حُكْمُ المَنيّةِ شاملٌ؛ ... وكلٌّ إلى ربِّ العباد يَصير.
ولكنْ لِتقديمِ الأعادي إلى الرَّدى ... نَشاطٌ يعود القلبَ منه سرورُ[4]
وأمنٌ ينام المرء في بَرْدِ ظِلّهِ، ... ولا حيّةٌ للحِقْدِ ثَمّ تَثور.
وحَسْبِيَ بيتٌ قاله شاعرٌ مَضى ... غدا مثلاً في العالمين يَسير:
وإنّ بقاءَ المرءِ بعدَ عَدُوِّه ... – ولو ساعةً من عُمْره – لَكثير!

– كان سُلطانُ غرناطةَ أبو الحجّاجِ يوسفُ الرابعُ متوجّهاً إلى الجزيرةِ الخضراء لنَجْدتها على الإسبان، سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٣ م). وكان في صُحبتِه لِسانُ الدين بنُ الخطيب. فتمهّلَ السلطانُ قليلاً في مالَقَةَ، فانتهزَ لسانُ الدين الفرصةَ وجمع شعرَ ابنِ صَفوانَ وسمّاه «الدُرَرُ الفاخرةَ واللُّجَجَ الزاخرة» وطلبَ من ابنِ صفوان أن يُجيزَ له ولابنهِ عبدِ الله رِوايةَ هذا الديوان، فكتب ابنُ صفوانَ في الإجازةِ ما يلي:

الحمدُ للهِ مُسْتَحِقِّ الحمدِ. أجَبْتُ سُؤالَ الفقيهِ الأجلِّ الأفضل السَّرِيِّ الماجدِ الأوحدِ.... الحائزِ في فنّي النظْم والنثْر وأُسلوبَيِ المكاتبةِ والشعر رُتبةَ الرِئاسة... أبي عبدِ الله بنِ الخطيب – وصَلَ اللهُ سعادتَه ومَجادتَه، وأسْنى[5] من الخَيْر الأوفرِ والصُّنع الجميلِ الأبهر مَقْصِدَه وإرادتَه، وبَلّغه في نَجْلِهِ الأسعدِ وابنهِ الراقي بمَحْتِدِه

---

(١) – ما دمت تدرك نفسك مستقلّاً متحيّزاً في مكانك فإدراك العزّة الآلهية محجوب بك (مستحيل عليك).
(٢) يدير كأسه: يشرب منه (يموت).
(٣) آنتسم صيغة غير قاموسية. المقصود تنسّم: تنفّس. الآرتياح: السرور. تحور: تميل، تضلّ.
(٤) – لموت أحد الخصمين سرور يدخل على قلب الخصم الآخر مرّة بعد مرّة.
(٥) أسنى: رفع (زاد).

الفاضل ومَنْشأه الأطهرِ مَحَلَّ الفَرْقَدِ، أفضلَ ما يُؤَمِّلُ نِحْلَتَهُ إياه[1] في المكرُماتِ وإفادتَه؛ وأجَزْتُ له ولابنهِ عبدِ الله المذكورِ - أبقاهما اللهُ تعالى في عِزّة سَنيّةِ الخِلالِ وعاقبةٍ مُمتدّة الأفياء وارفةِ الظِّلال[2] - رِوايةَ جميعِ ما تَقَيَّدَ في الأوراق المُكْتَتَبِ على ظَهْرِ أوّلِ ورَقَةٍ منها من نَظْمي ونَثْري وما تَوَلَّيْتُ إنشاءه واعتمدْتُ بالارتجالِ والرِّواية اختيارَه وانتقاءه، أيامَ عُمُري، وجميعَ ما لي من تصنيفٍ وتقييدٍ ومقطوعةٍ وقصيدٍ، وجميعَ ما أحْمِلُه عن أشْياخي - رضي الله عنهم - من العلومِ وفنون المنثور والمنظوم، بأيّ وجهٍ تأتَّى ذلك وصَحّ حَمْلي له وثَبَتَ إسنادُه لي، إجازةً تامّةً في ذلك كلِّه عامّةً على سُنَنِ الإجازاتِ الشرعيةِ وشَرْطِها المأثورِ عندَ أهلِ الحديثِ المَرْعيّ[3]. واللهُ يَنْفَعُني وإيّاهُما بالعلمِ وحَمْلهِ ويَنْظِمُنا في سِلْكِ حِزْبهِ المُفلحين وأهلهِ ويُفيضُ علينا من أنوارِ بركتهِ وفضله. قالَ ذلك وكَتَبَهُ بخَطِّ يدِه الفانيةِ العبدُ الفقيرُ إلى الغنّي به أحمدُ بنُ إبراهيمَ بنِ أحمدَ بنِ صَفوانَ - ختم الله له بخيرٍ - حامداً اللهَ تعالى ومُصَلِّياً ومُسَلِّماً على مُحمّدٍ نبيِّهِ المُصطفى الكريم وعلى آله الطاهرين ذوي المَنْصِبِ العظيم وصَحْبهِ البَرَرَةِ أُولى المَنْصِبِ والأَثَرَةِ[4] والتقديم، في سادسِ ربيعِ الآخرِ عامَ أربعةٍ وأربعينَ وسَبْعِمائَةٍ[5]. وحَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ.

٤ - ★★ الديباج المذهب ٤٣؛ نيل الابتهاج ٧٢؛ الإحاطة ١: ٢٢٩ - ٢٤٠؛ الكتيبة الكامنة ٢١٦ - ٢٢٣؛ درّة الحجال ١: ٧٨ - ٧٩؛ معجم المؤلفين لكحالة ١: ١٣٣ - ١٣٤.

ابن الحاجّ النميري الغرناطيّ

١ - هو الشيخُ برهانُ الدينِ أبو اسحاقَ إبراهيمُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمّدِ بنِ ابراهيمَ بنِ

---

(١) المحتد: كرم الأصل والشرف. الفرقد (النجم القطبي، وغيره)، المقصود: المكان العالي. النحلة (بالكسر): ما ينتحله (يمتهنه) الإنسان أو يعتقده.

(٢) الوارف: المتدّ.

(٣) المرعيّ: المعمول به (نعت لكلمة «شرطها»).

(٤) الأثرة: المنزلة، وتقدم الإنسان في المنزلة على غيره.

(٥) ١٣٤٣/٨/٢٨ م.

موسى النُمَيْريُّ الغَرناطيُّ، وُلِدَ في غَرناطةَ سَنَةَ ٧١٣ هـ (١٣١٣ - ١٣١٤ م).

دَخَلَ ابنُ الحاجِّ ديوانَ الإنشاء سَنَةَ ٧٣٤ هـ. وفي مطلعِ سَنَةِ ٧٣٧ هـ (آخرِ صيف ١٣٣٦ م) تطوّفَ قليلاً بشَرْقِ الأندلُسِ ثمّ رَحَلَ إلى المشرق وحَجّ. وكَثُرَ ذَهابُه إلى المشرقِ وحَجُّه، وكان في كلِّ مرّةٍ يعودُ إلى إفريقيَة ويعودُ أحياناً إلى الأندلُس. وفي نفح الطيب (٧: ١٠٧) أنّ رِحْلَتَهُ وصلتْ إلى ما وراءَ الشامِ والعِراق. وقد لَقِيَ في الشام نَفَراً من كِبارِ عُلماءِ الحديثِ وأخذ عنهم. من هؤلاء: عَلَمُ الدين البِرزاليّ (ت ٧٣٩ هـ) والحافظ المِزّيّ (ت ٧٤٢ هـ) والحافظ الذَهَبيّ (ت ٧٤٨ هـ).

وملّ ابنُ الحاجّ الخِدمةَ في دواوينِ الدُّوَلِ (في الأندلس وفي المغرب) فآثَرَ الانسحابَ من الحياةِ العامّة واعتزلَ (رَمَضَانَ ٧٥٧ = مطلعَ الخريف من عام ١٣٥٦ م). ولكنّ السُّلطانَ أبا عِنانٍ المَرينيَّ أجْبَرَهُ على الرجوعِ إلى الخِدمة. فلمّا تُوُفِّيَ أبو عنانٍ (٧٥٩ هـ) عاد ابنُ الحاجِّ إلى الأندلس. ولعلّه في هذه الحِقبة تَوّلى القضاءَ حيناً في غَرناطة.

ثمّ إنّ ابن الحاجِّ توجّهَ رسولاً من قِبَلِ السلطانِ محمّدٍ الخامس صاحبِ غَرناطةَ إلى السلطانِ أحمدَ بنِ موسى الزيّانيّ صاحبِ تِلِمْسانَ. فلمّا وَصَلَتْ سفينتُهُ إلى مَقْرُبَةٍ من وَهْرانَ (شاطىء الجزائر) تعرّض لها أسطولٌ للعدوّ[1]، وذلك في سادسِ ربيعٍ الآخِرِ من سَنَةِ ٧٦٨ (١٣٣٧/١١/١ م). ولكنّ السلطانَ محمّداً الخامسَ أنقذَه[2] بعدَ أن لَبِثَ في الأَسْرِ سِتّةَ عَشَرَ يوماً. وعاد ابنُ الحاجّ إلى الأندلس[3].

٢ - كانَ ابنُ الحاجِّ النُّميريُّ الغَرناطيُّ مُحدِّثاً وفقيهاً، كما كان ناثراً وشاعراً. قال فيه المقّري «الشاعرُ المُفْلقُ له النظمُ الرائقُ العَذْبُ الجامعُ بينَ جَزالةِ المغاربة ورِقّة

(١) كان ذلك في عصر القرصنة حينما كان الأوروبيّون من إسبان وبرتغاليّين وهولنديّين وانكليز وفرنسيّين يقطعون البحر على مراكب المسلمين.

(٢) قيل افتداه بمبلغ جسيم، وقيل أرسل أسطولاً كبيراً حارب القراصنة.

(٣) لم يرد ذكر وفاة ابن الحاجّ النميري في نفح الطيب ولا في نيل الابتهاج. ولكنّه كان بلا ريب حيًّا في ٧٦٤ هـ (لمّا كتب رسالته إلى لسان الدين بن الخطيب). ولكنّ خير الدين الزركلي (الأعلام ١: ٤٢) ذكر أنّ وفاته كانت سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٧ م). وفي المنهل الصافي (١: ٦٦ - ٦٨) ودائرة المعارف الإسلامية: نحو ٧٨٥ هـ.

المشارقة[1]. ويبدو أن مُعْظَمَ شِعرِه مُقَطّعاتٌ قِصارٌ تَغْلِبُ فيها التَوْريات. وأبرزُ فُنونه المَدْح والغزَل. ولابنِ الحاجّ تآليفُ كثيرةٌ منها: رِحلة- فيض العُباب وإجالة قِداح الآداب في الحَرَكة إلى قُسَنْطينة والزاب[2]- المساهلة والمسامحة في تبيين طرق المداعبة والمازحة- إيقاظ الكِرام بأخبار المنام- تنعيم الأشباح بمحادثة الأرواح- كتاب الوسائل ونُزهة النواظر والخمائل- الزَّهَرات وإجالة النَظَرات- كتاب في التَوْرِيَة (على حروف المُعجم)- مثاليث القوانين في التورية والاستخدام والتضمين[3] (وهو كلّه من نظمه)- بيان الاسم الأعظم[4]- اللباس والصُّحبة (جمع فيه طرق المتصوّفة)- نُزهة الحَدَق في ذِكر الفِرَق- الفُصول المُقْتضبه في الأحكام المُنْتَخبة (رَجَزٌ في الأحكام الشرعية)- رجز في الجَدَل.

٣- مختارات من آثاره

- قال ابنُ الحاجِّ النُميريُّ لمّا نَوَى (قصد) عَلَمُ الدين البِرزاليُّ مغادرةَ دِمَشْقَ:

نَوَى النَّوَى عَلَمُ الدينِ الرِّضا فأنا   من بعدِ فُرقتهِ بالشام ذو ألَمِ[5].

فلا تَلُمْني على حُبّي دِمَشْقَ فقد   أصْبحت فيها زماناً صاحبَ العَلَمِ[6].

- وقال يذكر الآثارَ (آثار البلاد- الأحاديث) وكيف تُروى (تُسقى- ينقلها واحدٌ عن واحدٍ) بسلسلة (حلَقات مجموع بعضُها إلى بعضٍ تُدارُ بها الناعورة- نَسَقٌ من

---

(١) نفح الطيب ٧: ١٠٧. لو قال: جزالة المشارقة ورقّة المغاربة لكان أولى!

(٢) ارتفاع الموج، وكثرة الماء في السيل. الإجالة: المزج والخلط. القِداح جمع قدح (بالكسر): سهام تستخدم في الميسر أو لعب القمار. (يبدو أنّه قام برحلة للتكسّب: يرى فيها حظّه في النجاح، كأنّما كان يقامر). الحركة: السفر. قسنطينة (كذا تلفظ اليوم) هي قسطنطينة، نسبة إلى ملك الروم (الأمبرطور البيزنطي) قسطنطين الكبير الذي بناها في مشهد مدينة سابقة كانت قد خربت في أثناء ثورة عام ٣١١ م. بلاد الزاب تقع في جنوب الجزائر قريبة من الصحراء الكبرى (مزاب، ميزاب).

(٣) التورية والاستخدام والتضمين من أبواب البلاغة.

(٤) الاسم الأعظم: الاسم المتمّم للمائة من أسماء الله الحسنى (والمعروف منها تسعة وتسعون آسماً)، ويرى المتصوّفة أن من عرف هذا الاسم ثمّ دعا به آستجاب الله له كلّ دعوة.

(٥) النوى: البعاد، الغربة.

(٦) صاحب العلم: الرجل المشهور ذو النفوذ- وصاحب العلم: صديق علم الدين البرزالي.

الرجال الذين يَرْوُونَ الحديث) من الذهب (المَعْدِنِ المعروف - الحافظُ شمسُ الدين الذَهبيَ):

رَحَلْتُ نحوَ دِمَشْقِ الشامِ مُبْتَغِياً ... روايةً عن ذوي الأحلامِ والأدب[1].

ففُزْتُ في كُتُبِ الآثارِ حينَ غَدَتْ ... تُرْوَى بسِلسلةٍ عُظمى من الذَهبي!

- وقال لَمّا ماتَ أبو يحيى أبو بكرٍ سُلطانُ تُونِسَ فخَلَفَه ابنه أبو حفصٍ عُمَرُ (٧٤٨ هـ) بعدَ أن قَتَلَ إخوتَه (أبو بكر سلطان تونس - أبو بكر الصديق ثمّ عمر سلطان تونس بعد أبيه أبي بكر - عمر الفاروق الخليفة الثاني):

وقالوا: أبو حَفَصٍ حوى المُلكَ غاصباً، ... وإخوتـه أَوْلى، وقد جاء بالنُّكْرِ.

فقلتُ لهم: كُفّوا، فما رَضِيَ الوَرى ... سِوى عُمَرٍ من بعدِ موتِ أبي بكرِ[2]!

- وقال في النسيب (خفيف: مُحتَمل، مرغوبٌ فيه):

أتَوْني فعابوا من أُحِبّ جمالَـه. ... وذاك على سَمْعِ المُحبّ خفيفُ[3].

فما فيـه عيـبٌ، غير أن جُفونَه ... مِراضٌ وأن الخَصْرَ منه ضعيف[4]!

- وقال أيضاً (الهجاء: ضِدّ المدح، تهجئة الكلمات):

لِيَ المـدحُ يُرْوَى مُنْذُ كنتُ كأنّما ... تصوّرتُ مدحاً للورى وثَنـاءَ[5].

ومـا لي هِجـاءٌ. فاعْجَبَنَّ لشاعرٍ ... وكاتـبِ سرٍّ لا يُقيـم هِجـاءَ.

وقال في الغزل الصريح وفيه تَوْرياتٌ بكنايات قبيحةٍ ولكن بارعةٌ:

ومَهـاةٍ تقولُ، إن هي كَلّـتْ ... ودعـا للمُزاحِ خِـلٌّ مُمازِحٌ[6]:

وازِرِ الرِّدفَ، إنّ في الأُزْرِ منّي ... رَمْلَ يَبْرينَ، يا طبيبُ، وعالجْ[7]!

---

(١) الأحلام جمع حلم (بالكسر) العقل. (٢) الورى: الناس.

(٣) الأشياء التي ظنّوها عيوباً في محبوبي هي حسنات في المحبوب.

(٤) مراض: ناعسات (وهم يعنون أنها مريضة، سقيمة). ضعيف: نحيف (وهم يعنون أنّه ناقص التكوين).

(٥) تصوّرت (كأنّي كلّي - كلّ عملي - مدح جميع الناس والثناء عليهم).

(٦) المهاة: الغزالة (المرأة الجميلة). كلّت: تعبت (من الغزَل....).

(٧) المزاح: المداعبة (دعب: جامع). خلّ: صديق. ممازح: مفاخر (بقدرته على المداعبة). الردف: مؤخّر =

- وقال :

هـــذهِ الشمسُ بالحِجــاب توارتْ بعــدَ نُورٍ لها ورَحْبٍ وبِشْرِ[١].

وأتـــى الليـــلُ بالنسيم عليـــلاً فهو يَمْشي من أُفْقِــه لابنِ زُهْرِ!

(عليلاً: لطيفاً، بارداً - عليلاً: مريضاً ثمّ ابن زُهْر: النجوم؟ - ابن زُهْر: طبيبٌ أندلسيٌّ مشهورٌ كان قبلَ عصر ابن الحاجّ).

- وردت رسالةٌ من لسان الدين بنِ الخطيب إلى الحاجّ النُّميري (جواب رسالة سابقة لابن الحاجّ) فردّ ابن الحاجّ برسالة جاء فيها:

•.... قَسَماً بَبراعتِك التي هي الواسي المُطاعُ وطِرْسِك[٢] الذي أُبْهجَتْ به الأبصارُ والأسماعُ، لقد عادَ لي بكتابِك عيدُ الشوقِ وجادَ لي بخِطابِك جِدُّ التَّوْق[٣]. ولَعَهْدي بنفسي - رهنُ أشجاني غيرَ محلولةٍ عُقْدةُ لساني - أشدُّ من الصخرةِ جَلَداً وأغلَظُ من الإبِلِ كَبداً[٤]. حتّى إذا بَدَتْ حريقةُ القلبِ وهبّ نسيمُه الرَّطْب وأفْيَحَ مَوْرِدُه العَذْبُ[٥] وأضاء بنوره الشرقُ والغربُ ولم يَبْقَ لي بَثٌّ ولا شَجَنٌ[٦] ولا شاقني أهلٌ

= البدن. وازر الردف (ساعدني على حمله). الأُزْر جمع إزار (ثوب للنصف الأسفل من الجسم). يبرين وعالج مكانان في بادية العرب كثيرا الرمال. في الأزرمنّي رمل يبرين وعالج (أشياء كثيرة، طاقة كبيرة). عالج (فعل أمر من عالجه يعالجه: داواه). عالج الشيء: مارسه. وفي حديث: «عالجت امرأة فأصبت منها» (تاج العروس - الكويت ٦: ١٠٩).

(١) توارت الشمس بالحجاب: غابت. رحب: مكان واسع (في السماء الظاهرة لأعيننا). البِشر: طلاقة الوجه والبشاشة. الفرح.

(٢) الواسي (كذا في الأصل) لعلّها الواشي. الطرس: الورقة. (سأكتفي هنا بشرح الألفاظ المفردة لأنّ القطعة المذكورة قائمة على التلاعب بالألفاظ ممّا يطول أمر الكشف عن مقاصد ذلك التلاعب).

(٣) عيد: عودة (في موشّحة للسان الدين بن الخطيب: عاده عيد من الشوق جديد). جدّ التوق (النزوع، الميل، الشوق) الجِدّي، الحقيقي.

(٤) الجلد: الاحتمال (في موشّحة لسان الدين أيضاً: ليس لي صبر ولا لي جلَد). أغلظ من الإبل كبداً: أقدر على الاحتمال، وأشد بعداً في السفر وأكثر صبراً على البعد عن الوطن.

(٥) أفيح؟ (يقصد فاح من «فيح» اتّسع، كثر) مورده (مكان الاستقاء منه). العذب: الحلو.

(٦) البث والشجن: الحزن.

ولا وطنٌ ومضَى سيفُ اللسان بعد النُّبوِّ ونَهضَ طِرْفُ الفِكْر بعد الكُبُوّ [١] وهَزّني الطربُ المُثيرُ للأفراحِ ومشى الجَذَلُ في أطرافي وأعطافي [٢] مَشْيَ الراح [٣].... قُلت: من لي[٤] بشَربةٍ من كأسِ بَيانهِ وقَطْرةٍ من بُحور إحسانه حتّى أُؤَدِّيَ ولو بعضَ حقّهِ.... فأمّا وقد نَفَقَتْ عندك بِضاعتي المُزجاةُ[٥] وشَمِلني من لَدُنْكَ الحِلْمُ والأناةُ وشرّفْتَني بالخِطاب الكريمِ والرسالة التي عَرَفْتُ في وَجْهها نُضرةَ النعيم[٦]، فما أبْغي إلّا إيرادَها عليك وكلّها خُراجُ ولِبُرْدِها في الإجادة إنهاج[٧]. ولعلّك ترضى التخريج من مُدوّنةِ الأخبارِ والمبسوطة والواضحة، لكن من الأعذار[٨].....

وإذا كان المرءُ على دينِ خليلهِ، ومن شأنه سلوكُ نهجهِ وسبيله، فالألْيَقُ أن أزْهَدَ في الصفراءِ والبيضاءِ وأُقابلَ زُخْرُفَ الدُّنيا[٩] بالبغضاء، وأرْجُوَ على يَدِكَ حُسْنَ التَخلّي والاطّلاعَ على أسرارِ التجلّي[١٠] حتّى أسْعَدَ بِكَ في آخِرتي ودُنيايَ وأجِدَ بركةَ خاطرِكَ في مَماتي ومَحيايَ. أبقاكَ الله بقاءَ يُسْرٍ وأمْتَعَ بمناقِبِكَ التي يَحْسُدُها الياقوتُ

(١) مضى السيف: قطع، مرّ في الشيء الذي ضُرِبَ به. النبوّ: رجوع السيف عن الضريبة. - في الأصل: ونهض طرف (بفتح فسكون) الفكر بعد البكر (بضمّ الباء) - والصواب ما أثبتّه في المتن. الطرف (بكسر الطاء) الحصان. والكبوّ: العثرة. (في أصل هذا النص قراءات خاطئة).

(٢) الجذل: الفرح.

(٣) الراح: الخمر.

(٤) في الأصل: مالي. الصواب من لي: من يعطيني.

(٥) المزجاة (من «أزجى»): المغشوشة، الرديئة.

(٦) نضرة النعيم: وضاءة ولمعان في الوجه من الرفاهية والنعمة. في القرآن الكريم (٨٣: ٢٤، سورة المطفّفين): ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾.

(٧) ايرادها (؟). الخراج بضمّ الخاء أو بفتحها دمّل يخرج في البدن (شيء رديء). البرد: الثوب (من الحرير). نهج الثوب وأنهج: بلي وتهرّأ.

(٨) التخريج (هنا): التعليل. المدوّنة كتاب في الفقه، والواضحة كتاب في التجويد (تجويد القرآن - مقصور على الفاتحة). ولم أعرف المبسوطة (وناشر الكتاب لم يذكرها في فهرست الكتب التي ورد ذكرها في الكتاب). من المعروف أنّ المبسوط كتاب في الفقه. - يقصد يريد أن يدوّن عذره مبسوطاً (بتفصيل وواضحاً.

(٩) الصفراء (العملة من الذهب) والبيضاء (العملة من الفضّة). الزخرف: الزينة.

(١٠) التخلّي: ترك الاختلاط بالناس. وترك الزواج أيضاً. التجلّي: وضوح الأشياء للإنسان، عطف الله عليه بإفادته علوماً من عنده (من عند الله).

والدُرّ. ولا زِلتَ في سِيادةٍ تَروقُ نَعْتاً وسعادةٍ لا تَرى فيها عِوَجاً ولا أمْتاً[1]. وأقرأُ عليك سلاماً عاطر العَرْفِ[2] كريمَ التأكيدِ والعطف..... كَتَبَهُ أخوك ومَمْلوكُك وشِيعةُ مَجْدِك في الرابعِ والعشرين من جُمادى الأولى عامَ أربعةٍ وستّين وسَبْعِمِائَةٍ.

٤ - ★★ نيل الابتهاج ٤٤-٤٦؛ الوافي بالوفيات ٦: ٤٠؛ الإحاطة ١: ٣٥٠، ٣٧١؛ الكتيبة الكامنة ٢٦٠ - ٢٦٩؛ نثير فرائد الجمان ٣٠٣ - ٣١٨؛ نفح الطيب ٢: ٥٣٤ - ٥٣٥، ٥: ٥٣١، ٧: ١٠٨ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧٨٠؛ بروكلمن، الملحق ٢: ٣٦٩؛ الأعلام للزركلي ١: ٤٢-٤٣ (٤٩)؛ مجلّة «البحث العلميّ١/ ١٩٦٥م، ص ٧١؛ معجم المؤلفين لكحالة ١: ٥١.

ابن خاتمة الأنصاريّ

١ - هو أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ عليٍّ بنِ محمّدِ بنِ عليٍّ بنِ محمّدِ بنِ خاتمةَ الأنصاريُّ[3]، وُلِدَ في ٱلْمَرِيّةِ، في مطلعِ القرن الثامنِ للهجرة فيما يبدو[4]. وتلقّى ابنُ خاتمةَ العلمَ على نفرٍ[5] منهم أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمّدِ بن أبي العيشِ المُرّيّ قرأ عليه ٱبنُ خاتمةَ ولازمه، وأبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ العاصي التَّنوخيُّ ومُحمّدُ بنُ جابرِ بنِ محمّد بن حسّان الوادي آشيُّ، وهو راويةٌ مُحَدِّثٌ (بأحاديثِ رسولِ الله) رَحّالٌ (صاحب رِحْلاتٍ)، وأبو البركاتِ ٱبنُ الحاجّ وأبو القاسمِ عبدُ الرحمنِ بنُ شُعيبٍ القيسيُّ من أهل المْريّة، وأبو جعفرٍ القرشيُّ المعروفُ بابن فركونٍ وأبو القاسم محمّدِ بنِ سهلِ بنِ مالكٍ وأبو جعفرِ بن الأغرِّ

---

(١) الأمت: الاختلاف في الأرض ٱرتفاعاً وٱنخفاضاً. «لا ترى فيها الخ» تضمين من القرآن الكريم (٢٠: ١٠٧، سورة طه).

(٢) العرف: الرائحة الطيّبة.

(٣) الأنصاري: نسبة إلى «الأنصار» الذين نصروا رسول الله لمّا هاجر إلى المدينة (أهل المدينة). ويزيد محمّد رضوان الداية (محقّق ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص ٩ م، السطر الأخير) «المرينيّ» (نسبة إلى بني مرين حكّام المغرب)!

(٤) في مقدّمة الديوان (ص ١٧ م) ترجيح أنّه عاش نحو سبعين سنة.

(٥) راجع في ذيل وفيات الأعيان (ص٨٦) أسماء نفر آخرين من شيوخه. وفي مجلّة «دعوة الحقّ» (الرباط، صفر ١٣٩٢ هـ= ابريل - نيسان ١٩٧٢ م، ص١٤٦) أن مولده كان سنة ٧٣٤ هـ.

(الإحاطة ٢٤٩، وقد صَعُب عليَّ تَتَبُّعُ أنسابِهم وأحوالِهم).

وقَعَدَ ابنُ خاتمةَ للإقراءِ في الجامعِ الأعظمِ في المَرِيّةِ فأقرأَ اللغةَ والنحوَ والبلاغة والأدب، وكان في الوقتِ نفسِهِ يقومُ بعقدِ الشروطِ. ثمّ درّسَ في المدرسةِ اليوسفيةِ التي أنشأها في غَرناطةَ أبو الحجّاجِ يوسفُ الأوّلُ بنُ الأحمرِ (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ)[١].

وكانتْ صِلَةُ ابنِ خاتمةَ ببني الأحمرِ حَسَنَةً، زارَ غَرناطةَ مِراراً إحداها في شَعبانَ مِنَ سَنَةِ ٧٥١ (خريفَ ١٣٥٠ م). وكان لا يزالُ حَيًّا في ثاني عَشَرَ شَعبانَ من سَنَةِ ٧٧٠[٢] (٢١/ ٣/ ١٣٦٩ م)، كما في الإحاطة (١: ٢٦٧). ولَعَلّ وفاتَه كانت بُعيدَ ذلك بقليلٍ.

٢ - ابنُ خاتمةَ الأنصاريُّ ناثرٌ له رسائلُ إخوانيّةٌ وديوانيّةٌ، وَهُوَ ناظمٌ مُكْثِرٌ مُتَعدِّدُ الفنونِ والأغراض له مديحٌ دينيٌّ في اللهِ ونِعَمِهِ ونَسيبٌ وغزلٌ مؤنّثٌ ومذكّرٌ ومُجونٌ ثمّ له أوصافٌ في الطبيعة والخمرِ وله حِكَمٌ ومُلَحٌ وفُكاهاتٌ. وشِعْرُه عاديٌّ في الأكثرِ تَغْلِبُ عليه الصِّناعة اللَّفْظية والصناعة المعنويّة. وله مُوَشَّحاتٌ كثيرة. ويَغْلِبُ على شعرِ ابنِ خاتمةَ التقليدُ، فترى فيه آثارَ الشعراءِ ظاهرةً مِنْ مِثْلِ أبي نُواسٍ وأبي تمّامٍ والبُحتريّ والمُتنبّي وابنِ هانئ الأندلسيّ وابنِ الفارِض وسِواهُم. غيرَ أنّه سليمُ العِبارةِ متينُ السَّبك.

وابنُ خاتمةَ الأنصاريُّ مؤلّفٌ له: تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد (في وصف الطاعون الجارف الذي اجتاح العالم في آسية وأوربّة وإفريقية، سنة ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ م)- مَزِيّةُ الْمَرِيّةِ على غيرِها من البلاد الأندلسية (فيه شيء من جُغرافيةِ تلك المدينة وتاريخِها وتراجمِ رجالِها وزُوّارها)- إلْحاقُ العقل بالحِسّ في الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس (؟)- إيرادُ اللآلِ من إنشاد الضَوالِّ (وهو استدراك على «إنشاد الضوالّ وإرشاد السُؤال» لمحمّدِ بنِ هاني اللخمي السَّبْتي المتوفّى سنة ٧٣٣ في لَحْنِ العامّة)- رائق التحلية في فائق التورية (مجموع شعر).

---

(١) يقوم بعقد الشروط (بتنظيم عقود البيع والزواج وغيرها، ولعلّه يشبه الكاتب العدل في أيامنا)!

(٢) راجع التعليق على دقّة هذا التاريخ (الديوان، ص١٦ م - ١٧ م).

٣- مختارات من آثاره

- من مقدّمة ديوانه:

وبعـدُ، فإنّ بعضَ خُلَصائي[١]- وهُوَ مَنْ لا يَسَعُ، لجميلِ وُدّهِ، غيرُ تكميلِ قصدِه- قد خَطَبَ إليّ بُنيّاتِ فِكري وأبياتَ شِعري جُملةً يسهُلُ استظهارُها ويجمُلُ في مَنَصّةِ المُحاضرةِ استحضارُها[٢]، تأخذُ مِنَ الآدابِ بأطوارِها وفُنونِها وتشتملُ مِنَ المعاني على أبكارِها وعُونِها[٣]...... وعِنْدَما كمُلَ إبدارُها وتمّ اعْتِيامُها واختيارُها زَفَفْتُها إليه سادِلَةً[٤] ثوبَ الحَياءِ تُقَدِّمُ رِجْلاً وتؤخّرُ أُخرى مِنَ الاستحياء، رَيْحانةً مِنْ أدواحٍ ونَسَمَةً من أرواحٍ[٥]. وقد قَسَمْتُها أربعةَ أقسامٍ قَصْدَ التنشيطِ والإجمام[٦]: القسمَ الأوّلَ في المدح والثناء- القسمَ الثاني في النسيبِ والغَزَل- القسمَ الثالثَ في المُلَحِ والفُكاهات- القسمَ الرابعَ في الوصايا والحِكَمْ. وخَتَمْتُها بنُبْذَةٍ من التَوْشيحِ الذي له في مِضمارِ[٧] الأدبِ المجالُ الفسيح.....

- قال ابن خاتمة في ذكر لُطْف الله ونِعَمِهِ:

أمـا أبصَرَتْ عَيْناكَ للحقّ مُرشِدا؟ أمـا سَمِعَتْ أُذْناك للهِ داعِيـا؟
أبعـدَ مَشيـبٍ تستجـدّ شَبيبـةً؟ وبعد هوًى تَبْغي عمًى أو تَعاميا[٨]؟

---

(١) الخلصاء جمع خلص (بكسر الخاء): الخدن (بكسر الخاء): الصديق المخلص.

(٢) بنيّات جمع بنيّة (مؤنّث بنيّ بضمّ الباء تصغير «ابن»). بنات الأفكار: الآراء، الأقوال. جملة: مقداراً يسيراً. استظهارها: حفظها غيباً. منصّة: منبر. المحاضرة: المسابقة، المناظرة. استحضارها: تذكّرها عند الحاجة.

(٣) البكر: (الأشياء) التي لم يعرفها أحد من قبل. العُون جمع عوان: المرأة التي كان لها زوج، والحرب التي قوتل فيها مرّة بعد مرّة، الشيء الذي عرف من قبل.

(٤) الابدار: الاكتال (أصبحت كالبدر تامّة). الاعتيام: أخذ الشيء. زفّها: أهداها، أرسلها. سادلة: مرخية.

(٥) ريحانة (نبتة لها رائحة طيّبة) من أدواح: أشجار كبيرة (يقصد: شيئاً مختصراً من شيء مفصّل، واسع). نسمة من أرواح: هواء قليل من رياح كثيرة.

(٦) الاجمام: ردّ الجسم المتعب إلى الراحة.

(٧) المضمار: الشوط، المجال الذي يركض فيه المتسابقون.

(٨) تستجدّ شبيبة: تطلب العودة إلى أفعال الشبّان.

وما بالُ صُدغِ الآسِ أخضرَ ناصعاً؟ وما بالُ خدِّ الوردِ أحمرَ قانيا[1]؟
فما خُطَباءُ العُرْبِ أفصحُ واعظاً مِنْ الطيرِ يشدو لو فَهِمْتَ المعانيا،
ولا صَفَحاتُ الهِنْدِ أرْدَعُ زاجراً مِنَ البرقِ يبدو لو علِمْتَ النَّواهيا[2].
وسائلةٍ: ما بالُ جَفْنِكَ والبُكا؟ وما عرَفَتْني عن هَوىً قطُّ ساليا[3].
إليكِ، فما في خاطري فَضْلُ وُسْعةٍ لِسَمْعِكِ فَضْلاً عن حديث غراميا[4].

– وله من موشّحه:

يا مصباحْ قد أخْجلَ الإصباحْ؛
هل تلتاحْ، يا بدرُ، أو ترتاحْ لِذي وُدِّ[5]؟

★ ★ ★

مَرْآكا البدرُ بالسَّعْدِ.
لَماكا الخمرُ بالشهْدِ.
ريّاكا القَطْرُ بالنَدّ.
لا تُفّاحْ كريقِكِ النفّاحْ
الفوّاحْ يروّحُ الأرواحْ مِنَ الوَجْدِ[6].

★ ★ ★

---

(١) الصدغ: جانب الرأس. الآس: نبات له أوراق تشبّه بآذان الخيل شديدة الخضرة. ما الذي جعل لون الآس أخضر وجعل لون الورد أحمر. قان أو خان (من الفارسية: دم): شديد الحمرة.
(٢) صفحات الهند: السيوف من صنع الهند: أردع زاجراً: أقوى أثراً في المنع (عن عمل الشرّ والأذى). من البرق (لأنّ البرق يدلّ على الزاجر الآلهي).
(٣) لماذا يكون البكاء ملازماً لجفنك (لعينك، لك)؟ ساليا: ناسياً، متسلّياً عن، غافلاً عن.
(٤) اليكِ: اتركيني، آذهبي عنّي. - أنا مشغول (بحبّي) عن أن أذكر لك خاطراً (فكرة في خاطري) فكيف يكون عندي وسعة من وقت لأسرد على سمعك حديث حبّي (الطويل).
(٥) الإصباح: طلوع الصبح. - هل تلتاح (تتغيّر) يا (شبيه) البدر (عن عهدك في المحبّة) أو ترتاح (تسكن تطمئن، تستقرّ على حبّ) ذي ودّ (ذي محبّة لك).
(٦) في السعد: في أعلى مكان من فلك البروج (في أتمّ أحواله). اللّمى: سُمرة الشفتين (كناية عن التقبيل). الشهد (بفتح الشين وكسرها وضمّها) العسل قبل أن يؤخذ من أقراص شمعه. الريّا: طيب الرائحة. =

يا جَنّةْ قد ذلّ جانيها ،
وفِتنةْ قد ضلَّ رائيها
بوَجْنَةْ قد جَلّ باريها
كَمْ أمداحْ يَحوكُها المَدّاحْ
في إيضاحْ جَمالِكَ الوضّاحْ ولا تُجْدي[1]!

– وقال في الغزل العفيف:

زارتْ على حَذَرٍ مِنَ الرُقباءِ والليلُ مُلْتَفٌّ بفَضْلِ رِداءِ[2].
تَصِلُ الدُّجا بسَوادِ فَرْعٍ فاحمٍ لِتزيدَ ظَلْماءً إلى ظلماءِ[3].
فَوَشَى بها من وَجْهِها وَحُلِيِّها بَدْرُ الدُّجى وكواكبُ الجوزاءِ[4].
أهْلاً بزائرةٍ على خَطَرِ السُّرى ما كنتُ أرْجوها لِيومِ لِقاءِ[5].
أقْسَمْتُ لولا عِفّةٌ عُذْرِيّةٌ وتُقَى عليَّ له رقيبٌ رائي[6]،
لَنَقَعْتُ غُلّةَ لَوْعَتي برُضابها ونَضَحْتُ وَرْدَ خُدودِها بِبُكائي[7]!

= القطر: ماء المطر (النقيّ، الصافي، الطاهر) الندّ: نبات له رائحة زكيّة. النفّاح: الذي ينفح (يبعث، يرسل، يفوح منه) رائحة طيّبة. يروّح (يسكّن، يهدّىء، يدخل الاطمئنان على الإنسان). الوجد: الحبّ وألم الحبّ.

(١) الجاني (هنا): المذنب: ذلّ جانيها: خسر من لم يتمتّع بما فيها بالحقّ. الوجنة: صفحة الخدّ. باريها: خالقها. حاك: نسج. إيضاح: تبيان، توضيح. الوضّاح: المشرق، اللامع. تُجدي: تنفع (مهما يكثر الكلام لا يفِ بوصف جمالك).

(٢) الرقيب: الجاسوس على المحبّين. ملتفّ بفضل (ببقيّة) رداء: لم يبق منه إلّا قليل.

(٣) الفرع: الشعر. الفاحم: الشديد السواد (كالفحم). – إنّ شعرها جعل سواد الليل (الذي كان قد بدأ يخفّ باقتراب الصبح) أشدّ سواداً.

(٤) الذي أعلمني أنّها قادمة لزيارتي (في ذلك الليل) أن ضاء الليل (بنور وجهها) وسمعت صوت الحلى التي كانت تتزيّن بها. (بدر: فاعل وشى). وجهها كالبدر (بظهور نوره) وحليّها تشبه كواكب الجوزاء (عنقود نجوم) لضعف نورها في رأي العين بالإضافة إلى البدر في رأي العين.

(٥) السرى: السير في الليل. اقتحمت سواد الليل (على ما في ذلك من الخوف والخطر) في وقت ما كنت أظنّ أنّها تجيء إلى زيارتي.

(٦) عذريّة: نسبة إلى بني عذرة (كان عشّاقها مشهورين بعفّتهم في الحبّ). الرقيب: الجاسوس على المحبّين. رائي = راء (ناظر)!

(٧) الرضاب: الريق ما دام في الفمّ. نقعتُ: بللتُ، رويت وأرويت. الغلّة: العطش. نضح: رشّ.

- وقال يَصِفُ الربيعَ ويَدُلّ في أثناء ذلك على نِعَمِ الله:

أهْـلاً بأيّـامِ الربيـعِ وطِيبِها: أُنْس الخَليـعِ ونُزْهـةِ المُتَبَتِّلِ[1].
زَمَنٌ أرَقُّ مِنَ الوِدادِ شَمائِلاً وألَـذُّ من عَصْرِ الشباب الأوّل[2].
أعْجِـبْ بـه من مِهْرجانٍ قـائمٍ بَيْنَ البسيطـةِ والحَيا المُتَهَلِّلِ[3]؛
فالطَّـيرُ تَشْدو والغديرُ مُصَفِّـقٌ والقُضْبُ ترقُصُ والأزاهرُ تَنْجلي[4].
فَاعْطِفْ على وَجهِ الزمانِ وَحَيِّهِ وانظُرْ إلى حُسنِ الربيعِ المُقْبل[5].
وأجِلْ لِحاظَكَ في صِفاحِ كِتابهِ حتّـى تَبَيَّنَ واضحاً مِنَ مُشْكِلِ[6].
مـا فَتّـحَ الزهرُ الجَنيُّ ثُغورَه إلّا لِيَرْشُفَ طيبَ ذاك السَّلْسَلِ[7]!

- وقال في الوصف والخمر:

إلى كم يُناديـك داعي الوَتَرْ؟ فَلَـبِّ النِـداءَ ودِنْ بالسهَرْ[8]!
ونَبِّـهْ جُفونَـك من غَمْضِهـا، فقـد نَبَّـهَ الرَّوْضَ قَطْرُ المَطَرْ[9].
أمـا تُبْصِرُ الشُّهْبَ مِثْـلَ العُقو دِ قـد نَهَبَ الصبحُ منها دُرَرْ[10]؛

---

(١) يسرّ بها الخليع (الذي لا يبالي بقانون الأخلاق) والمتبتّل (الزاهد).
(٢) الشمائل جمع شمال (بكسر الشين): الخلق (بضمّ فضمّ)، الخصلة.
(٣) المهرجان: العيد العظيم (يكون للملوك). البسيطة: وجه الأرض. الحيا: المطر. تهلّل المطر: انسكب وسال. - أزهار الربيع بألوانها ورُوائها ثم الزكية الرائحة تملأ ما بين الأرض والسحاب.
(٤) القضب جمع قضيب: غصن. الأزاهر (الأزهار) تنجلي: تظهر وتتفتّح!
(٥) وجه الزمان (؟). حَيِّهِ: ألقِ عليه التحيّة.
(٦) صفاح تقال لوجوه نصال السيوف، وهي هنا: صفحات أو صِحاف. - إذا جلت بنظرك في وجه الأرض المملوء بالنبات والأزهار آستطعتَ أن تعرف كثيراً من أسرار الوجود (!).
(٧) الجنيّ: الطريّ. السلسل: الماء العذب الصافي (الذي يسهل مروره في الحلق).
(٨) داعي الوتَر: صوت الموسيقى. لَبِّ: أجب. دن (فعل أمر من دان) خضع، جعل الأمر له عادة.
(٩) قطرات المطر جعلت الأزهار تتفتّح (فكأنّ الروض كلّه يستفيق من نومه بعد ليل الشتاء).
(١٠) الشهب جمع شهاب: الحجر الصغير المُنْفلت من مداره حول الأرض والساقط إلى الأرض يشتعل فيضيء حينما يدخل جوّ الأرض. والشاعر يقصد بالشهب النجوم. مثل العقول: تبدو للعين كأنّها مجاميع يرتبط بعض نجوم كلّ مجموع منها ببعضها الآخر. قد نهب الصبح منها درر: لمّا اقترب الصباح خفي عدد من النجوم الضئيلة النور (فكأنّ الصبح قد نهبها أو سرقها).

وضَمّ الدُّجـــا ذَيْلَـــه خِيفَـــةً عليــه من البَحْرِ لّمـا انْفَجَرْ[1].
ورَوْضَتُنـــا تُجْتَـــلى كالعَروسِ كَساها سَنا الصُّبْحِ مِثْلَ الخَفَرْ[2].
وقــد نَظَمَـتْ مائـلاتُ الغُصونِ لآلــيءَ طَــلٍّ عليهــا انْتَثَرْ[3]!
وقامــتْ سماءٌ لنـــا دَوْحَـــةٌ تَطَلَّــعُ كالزُّهْرِ فيهــا الزَّهَرْ[4].
فحُــثَّ المُــدامَ وسَقِّ النَّدامى وسَلِّ الغَرامَ وخَـــلِّ الفِكَرَ[5].
وخالِسْ زمانَـــك غَفَلاتِـــه، فقـد فاز بالعيش مَنْ قد جَسَرْ[6].

٤- ديوان ابن خاتمة الأنصاري.... (حقّقه الدكتور محمّد رضوان الداية) دمشق (منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية السورية) ١٣٩٢ هـ=١٩٧٢ م.
- ايراد (؟) اللآل من انشاد الضوالّ[1] (طبع في أوروبّة ثمّ صوّر في بغداد).

★★ نثـير فرائـد الجمان ٣٣١-٣٣٢؛ الإحاطة ١: ٢٤٧-٢٦٧؛ الكتيبة الكامنة ٢٣٩-٢٤٥؛ نيل الابتهاج ٧٢؛ نفح الطيب ١: ٢٤، ١٧٥ (نصّ من مزيّة المريّة)، ٤: ٣٤٦-٣٤٨، ٥: ٣٦٠-٣٦١ (نصّ من مزيّة المريّة)، ٦: ٢٨-٣٨ (رسائل منه وإليه)، راجع ٢٣٠-٢٣١؛ أزهار الرياض ١: ٢٦٥-٢٦٧، ٣: ٥٤-٥٥، ٢٠٢؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٨٣٧؛ بروكلمن ٢: ٣٣٥-٣٣٦، الملحق ٢: ٣٦٩؛ م م ع د ١٧: ٣٥٨ الأعلام للزركلي ١: ١: ١٧١-١٧٢ (١٧٦)؛ معجم المؤلفين لكحالة ٢: ١٩.

---

(١) ضمّ الدجا ذيله: تقلّص من جوانب السماء. - خاف الليل من هياج البحر فأراد أن يهرب!!
(٢) يجتلي الناس الشيء: لينظروا إليه (لجماله). الخفَر: الحياء. - الروضة لم تبرز بكلّ ما فيها من جمال (لاستمرار الليل) فكأنّها خجلة لا تبدي كلّ ما فيها من جمال.
(٣) المائل ضدّ المستقيم (لعلّها: مائسات: المتحركة يميناً وشمالاً). الطلّ: المطر الخفيف. إنّ حبّات ماء المطر الجامدة على الأغصان (من أثر الليل البارد) تشبه اللؤلؤ.
(٤) كان فوقنا دوحة (شجرة كبيرة) وكانت الزهر (بضمّ الزاي: النجوم) تبدو من خلال أغصانها وأوراقها كالأزهار.
(٥) حثّ المدام (الخمر) أسرع في شرب الخمر. سقّ (أكثر من إسقاء) الندامى (الذين يشتركون في شرب الخمر). سَلِّ: فعل أمر من «سلّى» (طلب الترويح عن النفس). خلّ الفكر: دع التفكير في هموم الحياة.
(٦) خالس: خذ خُلسة (على غفلة من غيرك). خالس زمانك غَفَلاتِهِ (إنّك لن تستطيع أن تنال سروراً من دهرك إلّا إذا كان غافلاً عنك). قد فاز بالعيش (الطيب) من جسر (من كان جريئاً).

منديل بن آجرّوم

١ - هو أبو المكارم مِنديلٌ، وآسمُه محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ داوودَ الصّنهاجيُّ، وهو آبنُ النحويّ المشهور أبي عبد الله محمّدِ بن محمد بن آجرّوم (ت ٧٢٣ هـ).

تلقّى مِنديلُ بنُ آجرومَ العلم على نَفَرٍ كثيرين منهم أثيرُ الدين أبو حيّان (ت ٧٤٥ هـ) والشيخ الخطيبُ أبو عبدالله القطان المُسفّر (ت ٧٤٣ هـ) وقاضي الجماعة في تونس أبو عبدالله محمّدُ بن عبد السلام المُنَسْتيري (ت ٧٥٠ هـ)، كما كان قد أخذ قِراءة القرآن عن المُكَتِّب ابنِ برال التونسيّ.

وحجّ مِنديل بنُ اجروم سَنَةَ ٧٤١ للهجرة ثمّ كانتْ وفاتُه في رابعِ جُمادى الأولى من سَنَة ٧٧٣ (١٣٧١/١١/١٤ م).

٢ - كان منديل بن آجروم مُقْرِئاً للقُرآن الكريم ولُغَويًّا ونحويًّا وفقيهاً، كما كان أديباً وشاعراً مُجيداً مُكثراً، وكانتْ له براعةٌ خاصةٌ في اللُّغة والأدب، فكان يُقرىءُ مقاماتِ الحريري كأحسنِ ما يكون إقراؤها.

٣ - مختارات من آثاره:

- قال أبو المكارم منديلُ بن آجروم في مدينة فاسَ (نفح الطيب ٧: ١٢٣ - ١٢٥):

أيُّها العارفون قَدْرَ الصَّبوحِ، جَدِّدوا أُنسَنا بباب الفُتوحِ[1].
حيثُ شابتْ مفارقُ اللَّوْزِ نَوْراً وتساقَطْنَ كاللُّجَينِ الصريحِ[2].
وكأنّ الذي تساقطَ منه شَفَقاً مَزّقَتْه أيدي الريحِ.
ثمّ حُطّوا رِحالَكم فوقَ نهرٍ كَلَّ في وَصْفه لِسانُ الفصيحِ[3]؛

---

(١) الصبوح: شرب الخمر صباحاً. باب الفتوح أحد أبواب مدينة فاس، ويبدو أنّه قد كان عنده جنائن يقصدها الناس للنزهة واللهو.

(٢) النور: الزهر الأبيض. اللجين: الفضّة.

(٣) كل: تعب، عجز.

فوق حافاتــــه حدائـــقُ خُضْرٌ ليس عنهـــا لعاشقٍ مِنْ نُزوح.
وكـــأنّ الطيورَ فيهـــا قِيـــانٌ هتفـتْ بين أعجمٍ وفصيح[(١)]،
وهْيَ تدعوكُمُ إلى قُبّـــــةِ الجَوْ زِ: هَلمّوا إلى مكـان مليـح[(٢)].
فيــه مــا تشتهون من كـلّ نَوْر مُغْلَــقٍ في الكِمام أو مفتوح[(٣)]،
وغصونٍ تهيــج رقصـاً إذا مـا سَمِعت صوتَ كلّ طيرٍ صَدوح[(٤)].
فأجيبوا دُعـاءَهـا، أيُّهـــا السِّ ربُ، وخلّوا مَقالَ كلّ نَصيح[(٥)].
واجنحوا للمُجونِ فهْوَ جديرٌ وخليـــقٌ مِنْ مِثْلِكُم بالجُنوح[(٦)].
واخلعوا ثُمّ للتصـــابي عِــذاراً، إنّ خلعَ العِذار غير قبيح[(٧)].
تَنْـــثِر الشمسُ ثَمَّ كُـلَّ غُـدُوٍّ زَعْفرانـــاً مُبَلَّـــلاً بنُضوح[(٨)].
فانهضوا، أيُّهـا المُحِبّون، مِثْـلي لِـــنرى ذاتَ حُسْنِهـا المَلموح.
هكـــذا يُرْبَـــحُ الزمــانُ، وإلاّ كُلُّ عيشٍ سواه غيرُ رَبيح[(٩)].

- قال أبو المكارمِ مِنديلُ بنُ آجروم (نفح الطيب (٢: ١٩٤ - ١٩٥)):

حدّثني مَنْ يُوثَقُ بقوله أنّ أبا اسحاقَ الطُّويجِنَ كانت وفاتُه يومَ الاثنين ٢٧ جُمادى الأخيرة سَنَةَ ٧٤٧ بتَنْبُكْتو موضعٍ بالصحراء من عُمالةِ مالي، رَحِمَه الله. ثمّ ضَبَط الطُّويجِن بكسر الجيم. قال: وبذلك ضَبطَهُ بخَطّ يدهِ، رَحِمَه الله. قال: ومَنْ نَسَبَهُ للساحليِّ، فإنّه نَسَبَهُ لِجَدِّهِ لِلأُمّ. انتهى.

٤ - ★★ نيل الابتهاج ٣٤٧؛ نفح الطيب ٢: ١٩٤ - ١٩٥، ٥: ٤١٨، ٧: ١٢٣ - ١٢٥.

---

(١) القينة (بالفتح): المرأة الجميلة المغنية. هتف: رفع صوته. الأعجم الذي لا يفهم العرب كلامه.
(٢) قبة الجوز...
(٣) الكمام: الكأس (الأوراق الخضر) التي تحيط بالزهرة قبل أن تتفتح الزهرة.
(٤) الصدوح: ذو الصوت المطرب.
(٥) السرب: الجماعة السائرون معاً.
(٦) المجون: قلة المبالاة بالعرف الاجتماعي مع الانغماس في اللهو أحياناً. جنح: مال.
(٧) الغُدو: التبكير في السعي (في الصباح). النضوح: رشّ الماء على الأشياء.
(٨) العذار: الرسن، اللجام. خلع العذار كناية عن ترك الحياء في اتيان المحارم.
(٩) يربح الزمان: تحصل منه استفادة للإنسان. الربيح: ما فيه ربح (يقال: تجارة ربيحة).

أبو البركات بن الحاجّ البلفيقيّ*

١ - هو أبو البركاتِ محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ إبراهيمَ بنِ الشيخِ الولّي أبي إسحاق[١] بنِ الحاجّ السُّلَميّ[٢] البلفيقي[٣]، وُلِدَ في المَرِيّة سَنَةَ ٦٨٠ هـ (١٢٨١ - ١٢٨٢ م)، وَبدأ تعلُّمَه فيها وفي إشبيلية. ثمّ إنّه انتقلَ إلى المَغْرب وقرأ في بِجايَةَ على قاضي الجماعة أبي منصورٍ أحمدَ بنِ عبدِ الحقِّ المشذّاليّ (ت ٧٣١ هـ) ثمّ ذهب إلى مَرّاكُش وبعدَئِذٍ استقرّ في سَبْتَةَ. ثمّ إنّه عادَ إلى الأندلس ونَزَلَ في مالَقَةَ وأخذ عن القاضي أبي عبدِ الله محمّدِ بنِ أحمدَ الطنجاليّ.

وفي سَنَةَ ٧٣٥ هـ تولّى أبو البركاتِ البلفيقيُّ القضاءَ في مالقةَ، ثمّ تولّى القضاءَ والخُطبة في المَرِيّة ثمّ قضاءَ الجماعةِ في غَرناطةَ ثمّ في المَرِيّة ثانيةً. ثمّ أُعيدَ إلى قضاء غَرناطةَ. وفي هذه الأثناءِ كان يقومُ بالسِّفارة بينَ الملوك (في الأندلس والمغرب).

وفي أواخرِ أيامه استَعْفى من جميعِ المناصب. وكانتْ وفاتُه في المَرِيّة، في رَمَضانَ[٤] من سَنَةِ ٧٧٣ (صيف ١٣٧٢ م).

٢ - كان أبو البركاتِ بنُ الحاجِّ البلفيقيُّ رجلاً صالحاً يُراعي الخُلُقَ الكريم في أقوالِهِ وأفعالِهِ (كما سنرى في قصيدته الحائية). وقد عَمِلَ في بِناء الآبارِ وبنى فيها بنفسِهِ وبمالِهِ، وكان يقول (في شعره) إنّ الناسَ لا يَعْرِفون ما في ذلك من اللَّذّة الصحيحة ومن الشعور بالخير في النفس. وكان له شعرٌ ونثرٌ، وأغراضُه وُجدانية أبرزُها العُنصُر الصوفي. غير أنّه كان لا يقبَلُ الخُرافاتِ التي تُروى عن نَفَرٍ من رِجال التصوّف (خَرْقَ القوانينِ الطبيعية والتوسّطَ بينَ الله وعباده). وكان مُصَنِّفاً له من الكتب: أسماءُ

(*) هو غير أبي عبد الله محمد بن محمد بن الحاجّ العبدري الفاسي الفقيه المتصوّف المتوفى سنة ٧٣٧ للهجرة (الديباج المذهب ٣٢٧ - ٣٢٨).

(١) كان أبو اسحاق هذا من كبار المتصوّفة، وكان قبره في مرّاكش مشهوراً يزار (نفح الطيب ٥ : ٤٧٤).

(٢) نسبة إلى بني سليم (بضمّ السين). وقيل إنّه من نسل العبّاس بن مرداس الصحابي الشاعر (ت ١٨ هـ).

(٣) بلفيق حصن قرب المريّة. وهي بفتح الباء وسكون اللام (المرقبة العليا ٢٣٦).

(٤) في المرقبة العليا، رمضان سنة ٧٧٣ (ص ١٦٦). وفي نفح الطيب (٥ : ٤٨٧) أنّ وفاته كانت في شوّال، سنة ٧٧١.

الكتبِ والتعريفُ بمؤلّفيها (على حروف المُعْجم)- الإفصاح فيمن عُرِفَ بالأندلس بالصِّلاح (في عدد من رجال التصوّف)- مُشْتَبِهاتُ مُصْطلَحات العلوم- المؤْتَمَنُ في أنباءِ من لَقِيتُه من أبناء الزمن- العَذْبُ والأُجاج من كلام أبي البركاتِ بنِ الحاجّ (ديوان شعره)- وقد يَكبو الجوادُ في غلطة أربعين من النقّاد[٥]- تاريخ المَريّة- العَلَن في أنباء أبناء الزمن- سلوة الخاطر- شِعْرُ مَنْ لا شِعْرَ له (أي من لم يشتهر بالشعر) الخ.

٣- مختارات من آثاره

- قال أبو البركاتِ بن الحاجِّ البلفيقيّ:

يأبَى شُجونَ حديثِيَ الإفصاحُ ... إذ لا تقومُ بشرحِهِ الألواحُ[١].

قالت صَفِيّةُ، عندَما مرّتْ بها ... إبِلي: أتَنْزِلُ ساعةً ترتاح[١ب]؟

فأجَبْتُها: لولا الرقيبُ لكان لي ... ما تبتغي بعد الغدوّ رواح[٢]!

قالت: وهلْ في الحيِّ حيٌّ غيرُنا؟ ... فاسمَحْ- فَدَيْتُكَ- فالسماحُ رَباح.

فأجَبْتُها: إنّ الرقيبَ هَوالِكٌ ... بِيَدَيْهِ- مِنّا- هذه الأرواح[٣]؛

وهو الشهيدُ على مواردِ عبدِهِ، ... سِيّانِ ما الإخفاء والإفصاح[٤].

قالتْ: وأينَ يكونُ جودُ اللهِ إذْ ... يُخشى؟ ومنهُ هذه الأفراح.

فافرَحْ على اسمِ اللهِ جلَّ جلالُه، ... واشطَحْ فَنشوانُ الهوى شَطّاح[٥].

وارهجْ على ذِمَمِ الرِجالِ ولا تخَفْ، ... فالحِلْمُ رحبٌ والنَّوال مُباح[٦].

---

(١) الشجن (بفتح ففتح): الغصن. الحديث شجون (متشعّب، وله أصول غامضة).

(١ ب) صفيّة اسمٌ فتاة، كناية عن محبوبة مثالية (في هذه الأبيات قرائن صوفية).

(٢) تبتغي (خطأ) صوابه: تبتغين. بعد الغدوّ (المجيء في الصباح) رواح (رجوع في المساء).

(٣) الرقيب (راجع البيت الثالث أيضاً هو (هنا) الله!

(٤) الشهيد: الشاهد، الحاضر. المورد: مكان الشرب (كناية عمّا يفعله الإنسان).

(٥) الشطح كلمة عليها رعونة (لفظ قبيح ومعنى سليم). قتل محي الدين بن عربي لأنّه شطح أمام الناس فقال: أنتم وما تعبدون تحت قدمي (يقصد أنكم تعبدون «المال»).

(٦) في القاموس: أرهج (مزيد بالهمزة): أثار غبار الحرب، طرب للحرب، أثار الفتنة. الذمّة: العهد.... (؟). النوال: العطاء.

وانْزِلْ على حُكْمِ السُّرورِ ولا تُبَلْ، فالوقتُ صافٍ ما عليك جُناح[١].
واخلَعْ عِذارَكَ في الخَلاعــة، يا أخي، باسمِ الذي دارتْ به الأقداح[٢].
وانظُرْ إلى هـذا النهارِ، فسِنُّهُ ضَحِكَـتْ ونورُ جَبينـهِ وضّاح.
لا تَعْذُلِ الدنيـا على تَلْوينها، فَلِلَيْلِهـا بعـدَ المساءِ صبـاح.
فأجَبْتُهـا: لو كنتِ عالمةَ الـذي يبـدو لتارِكِهـا ومـا يَلْتـاح[٣]
مِنْ كـلِّ معنًى غامضٍ من أجلهِ قد ساحَ قومٌ في الجبال وناحوا[٤]،
حتّـى لقد سَكِروا من الأمرِ الذي هاموا بـه عنـدَ العِيان فباحـوا
لَعَذَرْتِـني وعَلِمْـتِ أنّي طالـبٌ ما الزهدُ في الدنيا له مِفتاح[٥].
فاتركْ صَفِيَّـكَ قارعاً بابَ الرضا، واللهُ جَـلّ جلالُـه الفتّاح ★.
يـا أختُ، حيٍّ على الفلاحِ وخلّني، فجماعـتي حَثّوا المَطِيَّ وراحوا★!

– وللبلفيقي مقطعاتٌ في الشكوى من كلِّ شيءٍ. من هذه المقطّعات:

★ ★ قالوا: تغرّبتَ عن أهلٍ وعن وطنٍ. فقُلْتُ: لم يبقَ لي أهلٌ ولا وطنُ؛
مضى الأحِبّــةُ والأهلونَ كلُّهُمُ، وليس بعدَهُمُ سُكنى ولا سَكَنُ[٦].
أفرغْتُ حُزني ودَمْعي بعدَهُمْ، فأنا من بعدِ ذلك لا دمعٌ ولا حزن!
★ ★ قـد كنتُ مغروراً بوَعْظي وما أبُـثُّ من عِلْمِيَ بـينَ البَشَرْ،
من حيـثُ قـد أمّلْتُ إصْلاحَهُمْ بالوعـظِ والعِـلم، فخانَ النظر.
فـلم أَجِـدْ للنـاسِ أوعظَ من أصواتِ وعّـاظ جلود البقر[٧]!

(١) لا تبل (غلطة مشهورة في «لا تبال»): لا تهتّم. الجناح: الذنب.
(٢) باسم الذي.....: باسم الله (؟).
(٣) يلتاح: يعطش، يتغيّر (؟).
(٤) ناح: بكى (؟).
(٥) ما: ذلك الذي (مفعول به من «طالب»).
(★) «فاترك» (في البيت الأوّل) ثمّ «حيّ» و«خلّني» (في البيت الثاني) أفعال أمر للمفرد المذكّر على التجريد (مخاطبة الشاعر نفسه)، برغم وجود «يا أخت» (في البيت الثاني).
(٦) السكنى: المسكن (المنزل). السكن: الزوجة.
(٧) وعّاظ جلود البقر (؟).

★★ يا مَنْ إذا ما رُمْتُ تَوْديعَه، ودّعتُ قلبي قبلَ ذاك الوَداعْ.
فأتْرُكُ التوديـعَ عمْـداً لِكَيْ أُعَلِّلَ النفسَ ببعض الخداعْ[1].
يـا مِحنـةَ النفسِ بمألوفِهـا، من أجلِها قد جاء هذا الصِّراعْ[2].

★★ رعى اللهُ إخوانَ الخِيانـةِ إنّهم كَفَوْنا مؤوناتِ البقاءِ على العَهْدِ.
ولو قـد وَفَوْا كُنّا أُسارى حُقوقِهِمْ نُراوِحُ ما بينَ النسيئة والحِقْد[3].

– وفي سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) اتّفقَ أنّ أبا البركاتِ بنَ الحاجِّ البَلفيقيَّ رأى تطليقَ امرأتِهِ – لِسَبَبٍ من الأسباب[4] – فأوْقَع عَلَيْها طَلْقَةً واحدةً[5] وكتب ذلك في نُسخةٍ[6] نصُّها:

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، وصلّى اللهُ على محمّدٍ وعلى آلِ محمّدٍ. يقولُ عبدُ اللهِ[7] الراجي رحمتَهُ مُحمّدٌ المَدْعوُّ بأبي البركاتِ ابنِ الحاجِ خارَ اللهُ له[8] ولَطَفَ به:

إنّ اللهَ جلّتْ قُدرتُه لَمّا أنشأ خَلْقَه على طبائعَ مختلفةٍ وغرائزَ شَتّى – ففيهِمُ السخيُّ والبخيل، والشُّجاع والجبان، والغَبِيّ والفَطِن، والكيِّسُ والعاجز، والمُسامِح والمُناقش، والمتكبّر والمتواضع، إلى غيرِ ذلك من الصِّفات المعروفةِ من الخَلْقِ – كانتِ العُشْرةُ لا

---

(١) .... ببعض الخداع: بأنّهم لم يسافروا، لم يرحلوا.

(٢) الصراع في نفس الإنسان قائم لأنّه لا يستطيع تغيير شيء قد ألفه. النسيئة: الدين لأجل (تستدين مبلغاً وتعد وفائه بعد مدّة).

(٣) لو وفوا (بفتح الفاء) لوجب علينا لهم حقّ بأن نجازيهم على وفائهم في المستقبل. فإذا لم نفعل حقدوا (بفتح القاف) علينا.

(٤) لا بدّ في الطلاق في الإسلام من سبب شرعي. وقد ذكر أبو البركات هذا السبب في الصكّ الذي سجّله على نفسه ونسب العيب في ذلك إلى نفسه لا إلى امرأته.

(٥) في الإسلام يحقّ للمسلم أن يطلّق امرأته ثلاث مرّات وأن يستردّها مرّتين، ولا يجوز استردادها بعد الطلقة الثالثة (بعد المرّة الثالثة). قال الله تعالى (٢: ٢٢٩ سورة البقرة): ﴿الطلاق مرّتان، فإمساك (بعدهما) بمعروف أو تسريح بإحسان﴾.

(٦) الطلاق يجب أن يكون بصكّ مكتوب (أو بمشهد من القاضي). ويحسن الإشهاد على هذا الصكّ عند أهل السنة، ويجب الإشهاد عليه عند الشيعة والدروز.

(٧) كلّ مسلم هو عبد الله. قال عبد الله الحجّاج بن يوسف... قال عبد الله عبد الملك بن مروان... قال عبد الله عبد الله بن الزبير.....الخ.

(٨) أراد له الخير.

ـهم إلّا بأحدِ أمرَيْنِ: إمّا بالاشتراكِ بالصِّفات أو في بعضِها وإمّا بصبرِ أحدِهما ـهِ إذا عُدِمَ الاشتراكُ. ولمّا عَلِمَ الشارعُ[1] أنّ بني آدمَ على هذا الوَضْعِ شَرَعَ ـهم الطلاقَ لِيستريحَ إليه من عِيلَ صبرُه[2] على صاحبِهِ تَوْسِعَةً وإحساناً منه إليهم[3]. فلأجْلِ العَمَلِ على هذا طَلّقَ كاتبُ هذا عبدُ اللهِ محمّدٌ المذكورُ زَوْجَهُ الحرّةَ العربيةَ المَصُونَةَ عائشةَ ابنةَ الشيخِ الوزيرِ الحسيب النزيه الأصيل الصالح الفاضل الطاهر المُقدَّس المرحومِ أبي عبدِ اللهِ محمّدِ المغيليِّ طَلْقَةً واحدةً- مَلَكَتْ بها أمرَها دُونَه[4]- عارفاً قَدْرَهُ. قَصَدَ بذلك إراحَتَها مِنْ عُشْرَتِه[5]، طالباً مِنَ اللهِ أن يُغْنِيَ كُلًّا من سَعَتِه[6]، مُشْهِداً بذلك على نفسِه[7] في صحّته وجَوازِ أمرِه[8]، يومَ الثُلاثاءِ أولَ يومٍ من شَهْرِ ربيعٍ الثاني عامَ أحدٍ وخمسينَ وسَبْعِمِائَةٍ[9].

- وقال يُنْكِرُ أنْ يكونَ الرجالُ الصالحون مِمّن يأوي إلى الجِبال هَرَباً من الناس (زعماً بأنّهم متصوّفون):

زَعَموا أن في الجِبالِ رِجالاً صالحينَ- قالوا- من الأبْدالِ[10].
وادَّعَوْا أنْ كُلَّ من ساحَ فيها فَسَيَلْقاهُمُ على كلّ حالِ.

---

(١) الشارع هو الله تعالى.

(٢) يباح الطلاق في الإسلام إذا استحال على الزوجين أن يستمرّا في بناء أسرة سليمة سعيدة ثم خيف استمرار شقاقها ونزاعها. قال الله تعالى (٤: ٣٤ سورة النساء): ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها، إن يريدا إصلاحاً يوفّقِ الله بينهما﴾ (وإلّا فيكون الطلاق مباحاً).

(٣) توسعة من الله على الناس (حتّى لا يعيش الزوجان والأسرة معهما في نكد مستمر).

(٤) أي أنّه لا يستطيع زواجها بعد ذلك إلّا برضاها.

(٥) نسب هنا سوء العشرة إلى نفسه هو (وهذا غاية في الإحسان والخلق الكريم).

(٦) هذا من قوله تعالى (٤: ١٢٩ سورة النساء): ﴿وإنْ يتفرّقا يُغْنِ الله كُلًّا من فضله﴾.

(٧) الإشهاد على صكّ الطلاق (الحاشية ٦، ص ٥٠١).

(٨) لا يجوز للمسلم تطليق امرأته في مرض الموت أو في مرض يضيق منه الخلق أو في ثورة من الغضب أو في حال السكر (وإن فعل ذلك لا يقع طلاقه: لا يصحّ).

(٩) ٨/٦/١٣٥٠ م.

(١٠) الأبدال جمع بدل (بفتح ففتح أو بكسر فسكون) وبديل. والأبدال (في الصوفية) طبقة تلي طبقة الأقطاب الأربعة، ولا يخلو العالم عند الصوفية في زمن من الأزمان من واحد منهم (لأنّهم الصلة بين الله وخلقه).

فاخْتَرَقْنـا تلـك الجبـالَ مِراراً بنِعـالٍ طَوْراً ودونَ نِعـالِ،
مـا رأيْنـا بها خِلافَ الأفاعي وشَبـا عَقْربٍ كمِثْـلِ النِّبالِ [(١)]،
وسبـاعٍ يَجْرونَ بالليـل عَـدْواً؛ لا تَسَلْني عَنْهُمْ بتلك الليالي [(٢)].
ولَوَ انّا كُنّا لَدى العُدْوَةِ الأُخـ ـرى رأيْنـا نَواجِـذَ الرِّئبالِ [(٣)].
وإذا أظلَمَ الدُّجـى جاءَ إبليـ ـسُ إلينا يَزورُ طَيفَ خَيالِ [(٤)].
هو كـان الأنيسَ فيهـا، ولولا هُ أُصيبَتْ عُقولُنـا بالخَبـالِ [(٥)].
خلِّ عَنْكَ المُحالَ، يا مَنْ تَعَنّى. ليسَ يلقى الرجالُ غيرَ الرجالِ [(٦)]!

٤ - ★★ المرقبة العليا ١٦٤ - ١٦٧؛ الإحاطة ٢: ١٠١ - ١٢١؛ الكتيبة الكامنة ١٢٧ - ١٣٤؛ الديباج المذهب ٢٩١ - ٢٩٥ (٣٢٣ - ٣٢٨)؛ نفح الطيب ٤: ١٥٣، ٥: ٤٧١ - ٤٨٧، ٦: ٣٨، ٨٨، ٢٦٦، ٤٨٢؛ الأعلام للزركلي ٧: ٢٦٩ (٣٩).

لِسانُ الدينِ بنُ الخَطيب

١ - هُوَ لِسانُ الدينِ أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمّد بن محمّد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن أحمدَ السَّلْمانيُّ، نِسْبَةً إلى سَلْمانَ وَهُوَ مَوْضِعٌ في اليمن؛ وقد جاء أهلُه عَقِبَ الفتحِ واستقروا في قُرطبةَ ثمّ انتقلوا، بعدَ وقعةِ الرَّبَض (راجع فوق، ص ٤: ٨٩) إلى طُلَيْطُلَةَ. ولَمّا اشتدّ خَطَرُ النصارى على طليطلةَ، في مُنْتَصَفِ القرنِ

(١) الشبا جمع شباة: إبرة العقرب التي تلسع العقرب بها.
(٢) السبع (بفتح فضمّ): كلّ حيوان يأكل اللحم.
(٣) العدوة: أرض إفريقية. النواجذ جمع ناجذ: الضرس. الرئبال: الأسد.
(٤) .... كأنّه طيف خيال (منام).
(٥) الخبال: الجنون.
(٦) المحال: المستحيل (الذي لا يتّفق في الواقع). تعنّى: أتعب نفسه (بطلب المستحيلات). ليس يلقى الرجال...: إنّ الرجال من الناس لا يرون إلّا رجالاً آخرين من الناس (ولا يبصرون الملائكة والشياطين).

الهِجْرِيِّ الخامسِ ، انتقلوا (في أيام جَدّةِ سعيدٍ) إلى لُوشَةَ ، وكانتْ مدينةً كبيرة على نحوِ تسعينَ كيلومتراً غربَ غَرْناطة. وكان سعيدٌ هذا عالماً وَرِعاً فجعل يُلْقي دُروسَه ومَواعظَه في لوشةَ عند بُرْجٍ لهم على مَقْرُبَةٍ من أمْلاكِهِم فعُرِفَتِ الأُسْرةُ باسمِ آلِ الخطيب بعدَ أن كانتْ تُعْرَفُ بآلِ الوزيرِ. وكان والدُ ابنِ الخطيبِ في خِدمةِ بني نَصْرٍ في ديوان الإنشاء.

وُلِدَ لِسانُ الدين بنُ الخطيبِ في ٢٥ من رَجَبَ من سَنَةِ ٧١٣ (١٣١٣/١١/١٦ م) في مدينة لُوشةَ ونشأ فيها وفي غَرْناطة. ولقد تَلَقّى علومَه في غَرْناطةَ على نَفَرٍ منهم: الوزيرُ أبو الحسن عليُّ بن الجَيّاب (ت ٧٤٩ هـ)، وأبو عبد الله محمّدُ بنُ الفخّار الإلبيريُّ النحوي (ت ٧٥٤ هـ)، والمحدّثُ أبو القاسم محمّدُ بنُ أحمد الحسنيُّ السبتي التلمساني (ت ٧٦٠ هـ)، والقاضي أبو البركاتِ محمّدُ بن محمّد بن الحاجّ البَلْفيقي (ت ٧٧١ هـ)، والمحدّث الفقيه أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ محمّدِ بن مرزوقٍ التلمساني (ت ٧٨١ هـ) وكان قد وَفَدَ على غَرْناطة، سنة ٧٥٣ هـ، وعُيِّن خَطيباً لمسجدِ الحَمراء فتصدّر فيه للتدريس. وكان من شيوخهِ أيضاً شمسُ الدين بنُ جابرٍ الوادي آشي والطبيبُ الفيلسوفُ أبو زكريّا يحيى بن هذيل.

وفي سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ - ١٣٤١ م) تُوُفِّيَ والدُ ابنِ الخطيب فحلّ هُوَ مكانَه في ديوان الإنشاء كاتباً لأستاذه أبي الحسن بن الجَيّاب وزيرِ السلطانِ أبي الحَجّاج يوسفَ الأولِ النَيّارِ (٧٣٣- ٧٥٥ هـ). وفي سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) توفّي ابن الجَيّابِ في الطاعون الجارفِ فَخَلَفَهُ لِسانُ الدين في الوِزارة ورِئاسة ديوانِ الإنشاء (وكان رئيسُ الوزارةِ أو الحاجبُ أبو نعيم رِضْوانُ). ولما قُتِلَ أبو الحجّاج وخَلَفَهُ ابنُه محمّدٌ (الخامس) الغنيُّ بالله، سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) استمرَّ رِضوانُ في الحِجابة ولِسان الدين في الوِزارة.

وسَفَرَ لِسانُ الدين للغنيّ بالله إلى السلطان المَريني أبي عِنانٍ فارسٍ المتوكّل على الله (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ) تأكيداً للمودّة واسْتنجاداً على الطاغية مَلِكِ قَشتالةَ. وعَظُمَتْ ثقةُ الغنيّ بالله في لِسانِ الدين فَلَقّبه «ذا الوزارتين».

وفي ٢٨ من رَمَضانَ من سنة ٧٦٠ خُلِعَ الغنيّ باللهِ وقُتِلَ الحاجبُ رِضوانُ ففرّ

الغنيّ بالله إلى فاس ونَزَلَ على السلطان أبي سالمٍ إبراهيمَ بنِ عليٍّ. ومَعَ أن لسانَ الدين جَعَلَ يُصانعُ السلطانَ الجديدَ إسماعيلَ (الثاني) بنَ يوسفَ (٧٦٠ - ٧٦١ هـ) فإنَّ السلطان الجديدَ لم يَطْمَئِنَّ إليه فما عَتَّمَ، بتحريضٍ مِمّنْ حولَه، أن نَكَبَهُ وصادرَ أموالَه وأملاكه. غير أنّ لِسانَ الدينِ استطاعَ الهَرَبَ فلجأ إلى فاس أيضاً والْتَقى في بَلاطِ فاس المَرينيِّ بابنِ خَلْدونٍ.

وفي مُنْتَصَفِ سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١ م) استطاع الغنّي باللهِ أن يعودَ إلى غرناطة ويستردَّ مُلْكَه فاسْتَدْعى لِسانَ الدين من فاس وردّه إلى الوِزارة فَعَلَتْ مكانَتُه من جديدٍ وعَظُمَ نُفوذه.

وغاظ ذلك الخصومَ والحُسّادَ كالوزيرِ الشاعرِ ابن زمرك تلميذِ لِسانِ الدين وكقاضي الجماعةِ في غَرْناطة أبي الحسنِ عليٍّ بنِ عبدِ الله الجُذامي المالَقي النُّباهيّ (٧١٣ - نحو ٧٩٨ هـ) فجعلوا يُحَرِّضون الغنيَّ بالله عليه يتّهمونَه بالانحراف في وَلائه وبالإلْحاد. وأدْرَكَ لسانُ الدين أن من الأسْلَم مبارحةَ الأندلسِ قبلَ فَواتِ الأوانِ فاستأذَنَ بالذَّهابِ إلى الحجّ ثمّ ذَهَبَ إلى فاس.

وزادَ الخصومُ والحُسّاد في تحريضِ الغنيّ باللهِ على لِسان الدين فأُحْرِقَتْ كُتُبُ لِسانِ الدين في غَرْناطة، في منتصف سنة ٧٧٣ هـ (١٣٧٢ م) ثمّ كَتَبَ الغنيُّ بالله إلى السلطانِ المَريني أبي فارسٍ عبدِ العزيز المستنصرِ بنِ عليّ بأن يَقْبِضَ على لِسانِ الدين ويُعْدِمَه. فلم يَلْتَفِتْ عبدُ العزيز لهذا الطلب.

وفي رَبيعٍ الثاني من سنة ٧٧٤ (١٣٧٣ م) تُوُفِّيَ عبدُ العزيز وخَلَفَه ابنُهُ أبو زَيّانٍ محمّدٌ السعيدُ، وكان طِفْلاً صغيراً. فساءتِ الأحوالُ بينَ بني الأحمر وبينَ بني مَرينٍ فقام بنو الأحمر بفِتْنةٍ في المَغْرِب ذهبتْ بمحمدٍّ السعيدِ وجاءتْ بأبي العبّاس أحمدَ المستنصرِ بنِ إبراهيمَ، في السادس من المُحَرَّمِ من ٧٧٦ (١٣٧٤/٦/١٧ م). وعلى الأثَر جاء ابن زمرك * إلى فاس يُطالِبَ أبا العبّاسِ أحمدَ بثمنِ الوصول إلى العرش على ما كان قد جَرى الاتّفاق بشأنِ لِسانِ الدينِ. فحُوكِمَ لِسانُ الدين مُحاكمةً صُورِيّة وأُلْقِيَ في السجن. ودَخَلَ عليهِ قومٌ من الرُّعاع فَقَتَلوه في سِجْنه، (أوائلِ ٧٧٦ هـ = أواسط ١٣٧٤ م).

* زمرك (بفتح الزاي والميم أو بضمها).

٢ - كان لسانُ الدين ابنُ الخطيب رجلاً مُتَعدِّدَ نواحي الشخصيّةِ واسعَ الثقافة مُحيطاً بوجوه كثيرةٍ من فنونِ عصرهِ بارعَ التعبيرِ عن كلّ موضوعٍ يتناولُه حتّى إنّه كَسَفَ أنوارَ كثيرين من الذين عاصروه. وبَرَعَ في الفلسفةِ والسِّياسة والطِّب، وأمّا في التاريخ فكان مؤرّخَ عصرِه بلا مُنازعٍ.

ثمّ هو أديبٌ ناثرٌ ومُتَرسِّلٌ وشاعرٌ مقتدرٌ، وهو مُكْثِرٌ مِنَ النتاج في النثر وفي الشعر. غيرَ أنّه كثيرُ التكلّفِ في النثرِ والشعرِ معاً ممّا يَدُلّ على مقدرةٍ في الفنّين تجعل أسلوبَه فيهما قويًّا مُرصّعاً فَخماً، ولكن تَسْلُبُهُ كثيراً من الطَّلاوة. وعلى كلٍّ فإنّ أدبَه أعظمُ قيمةٍ في مادّتهِ وفي خَصائصه المعنوية. ونَسْتَطيع أن نرفَعَ شأنَ النِّتاج الأدبيّ للسانِ الدين إذا نحنُ نظرنا إليه على أنّه صورةٌ صحيحة أمينةٌ للعصرِ الذي عاش فيه. فَمِنْ شعرِه الجَميلِ ذي العاطفةِ والأثرِ في النفوس قولُه لما جاء سفيراً إلى أبي عِنانٍ يستنجدُه على الطاغية ملك قِشطالَة (نفح الطيب ٥: ٩٨ - ٩٩):

خليفـــةَ اللهِ، ساعَـــدَ القَـــدَرُ	عُـلاك ما لاح في الدُّجى قَمَرُ؛
ودافَعَـــتْ عنـــك كـفُّ قُدرَتـهِ	مـا ليس يَسْطِيعُ دَفْعَهُ البشر.
وَجْهُـك في النائبـاتِ بـدرُ دُجَى	لنـا، وفي المَحْـلِ كَفُّـك المَطَر[1].
والنـــاسُ طُرًّا بـأرضِ أنْدَلُسٍ	لولاك مـا أوْطَنوا ولا عَمَروا[2].
وجُملـــةُ الأمرِ أنـــه وَطَنٌ	في غـيرِ عَلْيـاك مـا لـه وَطَر.
ومَنْ بهِ - مُــذ وَصَلْـتَ حَبْلَهُمُ -	مـا جَحَـدوا نِعمـةً ولا كفروا.
وقـــــــــد أهَمَّتْهُمُ بأنْفُسِهِمْ	فوَجّهوني إليـــــك وانتظروا!

ولِسانُ الدين بن الخَطيب مُصَنِّفٌ خِصْبٌ له كُتُبٌ قيّمة منها: الحُلَل المرقومة (= رقم الحلل في نظم الدول): تاريخٌ منظومٌ شعراً لملوك المشرق والمغرب والأندلس يَتَخلّله

---

(١) المحل: القحط، الجفاف (حين لا تنبت الأرض شيئاً).

(٢) طرّا: جميعاً. أوطن الرجل المكان: اتّخذه وطناً. عمر الرجل الأرض: سكنها، وعمر الرجل الدار: بناها.

شروحٌ نثراً - اللمحة البدرية في الدولة النصرية (مختصر لتاريخ بني نَصْرٍ في غرناطة حتّى سنة ٧٦٥ هـ)- الإحاطة في أخبار غرناطة- أعمال الأعلام في من بُويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام- التاج المحلّى في مساجلة القِدْح المُعَلَّى (تاريخ مملكة بني نصر)- نُفاضة الجِراب في عُلالة الاغتراب (أخباره ووصف أحواله في أثناء منفاه بالمغرب)- خَطْرة الطيف في رِحلة الشتاء والصيف (رحلة في مدن الأندلس)- مُقْنِعة السائل عن المرض الهائل (وصف الطاعون الجارف الذي كان سنة ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ م)- رَيْحانة الكُتّاب ونُجْعة المنتاب (ملخّصات من عدد من كتبه ثمّ من عدد من الرسائل)- مِعْيارُ الاختيار في ذكر المشاهد والديار (.... المعاهد والآثار)- السِّحْر والشِّعْر (مختارات من شعر شعراء المشرق وشعراء الأندلس)- الكَتيبة الكامنة في من لقيته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة- كُناسة الدُّكّان بعد انتقال السكّان (رسائل متبادلة بين السلطان أبي الحجّاج يوسف ملك غرناطة والسلطان أبي عنان المريني)- مفاضلة (مفاخرة) بين مالَقَةَ وسَلا- طُرفة العصر في تاريخ دولة بني نصر (مختصر اللمحة البدرية)- الإكليل الزاهر في من فصل (؟) عند نظم التاج والجواهر (وهو تكملة لكتاب المحلّى)- كتاب عمل من طبّ لمن حبّ (في الطب)- الوصول لحفظ الصحّة في الفصول (في الطّب والحِمْية، إلخ)- بستان الدول (كتاب في السياسة والحرب والقضاء وطبقات المجتمع، لم يتمّ)- درّة التنزيل وغرّة التأويل- المباخر الطِّيبية في المفاخر الخطيبية (ترجمة حياته)- الدُّرَر الفاخرة واللُّجَج الزاخرة (مجموع شعر أستاذه أبي جَعْفر بن صَفوانَ)- مجموع من شعر ابن الجيّاب- مجموعة من مُوشّحات أئمّة التوشيح بالأندلس- عائد الصِّلة (تتمّة لكتاب الصلة لابن الزبير)- ديوان شعره.

٣- مختارات من آثاره:

- موشّحةُ لسانِ الدين بن الخطيب المشهورة، وهي معارضةٌ لِمُوشّحةِ ابنِ سهلٍ الأندلسيّ راجع ص ١٧٤؛ ثمّ راجعْ آخِرَ هذه الموشّحة):

جادكَ الغَيْثُ، إذا الغيثُ هَمى، يا زمانَ الوصلِ بالأَنْدَلُس .

لم يكنْ وصلُـــــكُ إلا حُلُما | في الكَرى أو خُلْسةَ المُخْتلس !

إذ يقودُ الدهرُ أشتــاتَ المُنـــى | - يَنْقُلُ الخَطْوَ على ما نَرْسِمُ -[1]
زُمَراً بـــين فُرادَى وثُنـــا، | مثلما يدعو الوفودَ المَوْسِمُ[2].
والحَيا قد جلّل الروض سَنَا؛ | فثغورُ الروضِ عنـــه تَبْسِمُ[3].
ورَوَى النُّعْمانُ عن مـــاءِ السما. | كيـفَ يَرْوي مالكٌ عن أنَس[4]!
فكساه الحُسْنُ ثوبــــاً مُعْلَما | يَزدهي منـــه بأبهـى مَلْبَس[5].

في ليـــالٍ كتمــتْ سرّ الهوى | في الدُّجى لولا شموسُ الغُرَرِ[6].
مــال نجمُ الكـأس فيهــا وهَوى | مُستقــيمَ السيرِ سَعْــدَ الأثْرِ[7].
وَطَرٌ مــا فيــه من عيب سوى | أنـــــه مرّ كلمـــح البَصَرِ.
حــين لَـذّ الأنسُ فيـه، أو كما | هجم الصبـــحُ هجومَ الحَرَس.
غــارتِ الشُّهْبُ بنــا، أو رُبَّما | أثّرتْ فينــا عيونُ النَّرْجِسِ[8].

أيُّ شيءٍ لامرئٍ قـــد خَلَصا | فيكونَ الروضُ قـد مُكِّنَ فيهْ[9]؟
تَنْهَـبُ الأزهـارُ فيــه الفُرَصا | أمِنَــتْ من مكرِهِ ما تَتّقيهْ[10].

---

(١) يفعل ما نشتهي نحن.
(٢) الموسم: العيد، المناسبة التي يجتمع فيها الناس.
(٣) الحيا: المطر. سنا: ضياء، بهاء، جمال.
(٤) النعمان: شقائق النعمان (زهر بري أحمر). النعمان: أحد ملوك الحيرة. ماء السماء: المطر. ماء السماء: ماوية أم المنذر الثالث ملك الحيرة أحد أسلاف النعمان المذكور. مالك فقيه عظيم مشهور هو صاحب المذهب المالكي. أنس: والد مالك، وكان خادماً لرسول الله ولم يكن له شيء من علم ابنه مالك.
(٥) مزين، مزخرف.
(٦) الغرر جمع غرة بضم الغين: القصة (بضم القاف): الشعر في مقدمة الجبهة.
(٧) نجم الكأس: الحبب الذي يطفو على كأس الخمر. مال نجم الكأس: انحدرت الخمر في حلوقنا، شربناها.
(٨) غارت الشهب بنا: انحدر حباب الخمر (أو الخمر) في حلوقنا. عيون النرجس (زهر أبيض وفي وسطه شيء أصفر): عيون النساء الحسان.- سكرنا من الخمر ومن عيون الحسان
(٩) أي الناس صَفَتَ له الحياة وعاش مطمئنّاً حتى يكون الروض دائماً أخضرَ مزدهراً؟.
(١٠) - من أجل ذلك تتفتّح الأزهار ثمّ تذبُل من تلقاء نفسها حتّى تأمن أن يغدُرَ بها الزمن ويقضيَ عليها وهي =

وإذا الماءُ تَناجى والحصى، وخَلا كلُّ خليلٍ بأخيهْ [1].
تُبْصِرُ الوردَ غَيوراً بَرِما يَكْتسي من غَيظِهِ ما يكتسي [2].
وتَرى الآسَ لَبيباً فَهِما يَسْرِقُ السمْعَ بأُذْنَيْ فَرَسِ [3].

يا أُهَيْلَ الحَيِّ من وادي الغَضا، وبقلبي مَسْكَنٌ أنتم بهِ [4]،
ضاقَ عن وَجْدي بكم رَحْبُ الفضا؛ لستُ أدري شرقَه من غربِهِ.
فأعيدوا عهدَ أُنسٍ قد مضى تُنقِذوا عانيَكُمْ من كربِهِ [5].
واتّقوا اللهَ وأحْيُوا مُغْرَما يَتلاشى نَفَساً في نفسِ؛
حبس القلبَ عليكم كَرَما، أفَتَرْضَوْنَ خَرابَ الحَبسِ؟

وبقلبي منكُمُ مُقْتَرِبُ بأحاديثِ المُنى وَهْوَ بعيدْ:
قَمَرٌ أطلعَ منه المَغرِبُ شَقْوةَ المُضْنى وهو سعيدْ.
قد تَساوى مُحْسِنٌ أو مُذْنِبُ في هواه بين وَعدٍ ووَعيدْ.
أحورُ المُقلةِ مَعْسولُ اللَمى جالَ في النَّفَسِ مَجالَ النَّفَسِ [6]؛
سَدّد السهمَ فأصْمى إذْ رمى بفؤادي نَبْلَةَ المُفْترسِ.

إن يكنْ جارَ، وخابَ الأملُ - وفؤاد الصَّبِّ بالشوقِ يَذوبْ -
فَهْوَ للنفس حبيبٌ أوّلُ؛ ليس في الحبِّ لمحبوبٍ ذُنوبْ.

= غافلةٌ (للأزهار مُدَدٌ معيّنة قصيرة تستوفيها الأزهار كلّ عام، بخلاف الإنسان الذي لا يعلم متى يدركه الموت، وقد يدركه الموت قبل أن يحقّق شيئاً من الغاية من الوجود).

(١) الماء يناجي الحصى (؟): يكلمه سراً، يوسوس له (كناية عن الصوت الذي يحدثه ماء النهر عند مروره على الحجارة).

(٢) ورقة الآس تشبه أذن الحصان الفتيّ. - كأن الآس بانتصاب أوراقه يحاول أن يختلس السمع ويعرف ما نتحدث به.

(٣) وادي الغضا قرب مكة.

(٤) العاني: الأسير، أسير حبكم.

(٥) الحبس (في المشرق): المحبوس، (في المغرب): الوقف (الأوقاف)، الموقوف (قلبي الموقوف على حبكم).

(٦) الحور: شدة بياض بياض العين وشدة سواد سوادها. اللمى: السمرة في الشفة.

أمره مُعْتَمــــلٌ مُمْتَثَــــل في ضلوعٍ قد بَراها وقلوبْ[1].
حكّم اللحــظَ بهـــا فاحتكما، لم يراقــبْ في ضِعافِ الأنفُس.
يُنْصِـــفُ المظلومَ مِمّنْ ظَلَما، ويُجـــازي البرّ منهـــا والمُسي.

مــا لِقلــبي كلما هبّــتْ صَبــا عـادَهُ عِيـدٌ من الشوقِ جَديدْ[2]!
كــانَ في اللوحِ لــه مُكتَتبـاً قولُــه: إنّ عَــذابي لَشديــدْ[3]؟
جَلَـــبَ الهَمّ لــــه والوصَبــا فهو للأشْجـانِ في جُهْد جَهيدْ[4]
لاعــجٌ في أضلعي قــد أُضْرِمـا، فَهْوَ نـــــارٌ في هَشيمِ اليَبَس[5]
لم يَــدَعْ من مُهْجــتي إلّا ذَمـا كبقــاءِ الصُّبــح بعد الغَلَسِ[6].

سلمي، يــا نفسُ، في حُــكمِ القضـا واعْمُري الوقتَ برُجعَى ومَتابْ[7].
دعكِ من ذِكْرِ زمانٍ قد مضى بـينَ عُتْـبي قد تقضّتْ وعِتابْ[8]
واصْرِفي القولَ إلى المَوْلى الرِّضـا مُلْهِمِ التوفيـقِ في أُمِّ الكتاب[9].
الكريمِ المُنتهـــى والمُنتمـــى أسَدِ السَّرْجِ وبـــدرِ المَجْلسِ[10]

---

(١) أمره (أمر المحبوب): حكمه، إرادته. معتمل (معناها في هذا النّص): يجب العمل به. ممتثل: تجب طاعته. ولكنّ أمر المحبوب صعب التنفيذ يبري المحبّ: يجعله نحيلاً، هزيلاً، مريضاً.

(٢) الصبا، ريح الشرق. عيد، الأمر الذي يعود مرة بعد أخرى.

(٣) اللوح المحفوظ: المقضي به في علم الله على البشر، المكتوب عليهم منذ الأزل. ﴿إن عذابي لشديد﴾ تضمين من سورة إبراهيم (١٤ : ٧).

(٤) الوصب: التعب. الأشجان (جمع شجن بفتح ففتح): الأحزان. للأشجان: من الأشجان. جهد جهيد: تعب شديد جداً.

(٥) اللاعج: العاطفة المتقدة، الهوى الشديد المحرق.

(٦) الذماء: بقية الروح في الجسد. الغلس: الظلام في آخر الليل. كبقاء الصبح بعد الغلس (المملوح أن الشاعر يقصد أن يقول: «شيئاً قليلاً»، ولكن التشبيه لا يؤدي هذا المعنى).

(٧) - اقبلي بقضاء الله. اعمري (اقضي) الوقت برجعى (بالرجوع إلى الله).

(٨) العتاب: اللوم على ما فات. العتبى: الرضا (بعد العتاب).

(٩) أم الكتاب: سورة الفاتحة (الأولى في المصحف).

(١٠) المنتهى: النهاية (أي ذاته، ذات الممدوح وشخصه). المنتمى (أسلافه). أسد السرج (البطل إذا ركب الخيل، في الحرب). بدر المجلس (السيّد الذي تتّجه إليه الأنظار في كلّ اجتماع).

يَنْزِلُ النصرُ عليــــــــه مِثْلَما   يَنْزِلُ الوحيُ بروحِ القُــدُسِ (١)

مُصطفــى اللهِ سَمِيُّ المُصطفــى   الغَنِي بــاللهِ عن كُــلِّ أحَــدْ (٢).
مَنْ إذا مــا عَقَــدَ العهدَ وَفَــى   وإذا ما قُبِحَ الخَطْبُ عَقَدْ (٣)
مِن بَـني قيسِ بنِ سعدٍ، وكفى،   حيث بيتُ النصرِ مرفوعُ العَمَدْ (٤):
حيثُ بيتُ النصرِ مَحْمِيُّ الحِمى   وجَنَـى الفضـلِ زكِيُّ المَغْرَسِ.
والهوى ظِــلٌّ ظليــلٌ خيَّمَا،   والنَّــدى هــبّ إلى المغــترس (٥)

هــا كَهـا يا سِبْطَ أنصارِ العُلا   والـذي إنْ عَثَرَ الدهرُ أقالْ (٦):
غــادةً ألْبَسَهــا الحُسْنَ مُــلا   تَبْهَرُ العــين جِــلاءً وصِقــالْ (٧)
عارَضَــتْ لَفظـاً ومَعْنــى وحُلى   قولَ مَنْ أنطقَه الحبُّ فقالْ:
(هَلْ دَرى ظَبْيُ الحِمى أنْ قد حَمى   قلبَ صَبٍ حَلّه عن مَكْنَس (٨).
فَهْوَ في حَرٍّ وخَفْــــــقٍ مِثْلَما   لَعِبَــتْ ريــحُ الصَّبــا بالقَبَسِ).

– وقال لما زار قبر المعتمد بن عبّاد في أغمات بإفريقية:

قــد زُرْتُ قَبْرَكَ عن طَوْعٍ بأَغماتِ:   رأيتُ ذلـك مَنْ أَوْلى المُهمَّاتِ.

---

(١) روح القدس: جبريل.

(٢) مصطفى الله (الذي اختاره الله) سمّي (المشابه بالاسم) المصطفى (محمّد رسول الله). الغنّي بالله (محمّد الخامس الغنّي بالله من ملوك بني نصر في غرناطة).

(٣) إذا قبح الخطب (إذا اشتدّت الأمور) عقد (العزم وكان حازماً في معالجتها) في نفح الطيب (٧: ١٤): فتح (بالبناء للمجهول).

(٤) قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري من دهاة العرب (راجع المحبّر لابن حبيب، ص ١٥٥، و ١٨٤). وبنو نصر أصحاب غرناطة كانوا يردّون نسبهم إلى قيس بن سعد.

(٥) الندى: بخار الماء المعلّق في الهواء (في الليل). – من يزرعْ جنينةً يتمتّعْ بالجوّ الجميل الذي ينشأ منها!

(٦) السبط (حفيد الرجل من ابنته).... إن عثر الدهر بأحد أقاله (أنهضه من عثرته) أو إذا عثر الدهر نفسه، فإنّ محمداً الخامسَ الغنيّ بالله يمكن أن يساعد الدهر على النهوض!

(٧) الغادة: المرأة الجميلة (القصيدة). الملاءة: ثوب ينشر على الفراش (وثوب سابغ تلبسه المرأة) جمعها ملاء (بضمّ الميم أيضاً).

(٨) الصبّ: المحبّ. حلّه: نزل فيه، سكنه. المكنس والكناس (بالكسر): بيت الغزال.

لِمْ لا أَزورُك، يا أَنْدى الملوكِ يَداً ... ويا سِراجَ الليالي المُدْلَهِمّاتِ[1].
وأَنتَ مَنْ لو تخطّى الدهرُ مَصْرَعه ... إلى حياتي، لَجادَتْ فيه أبياتي.
أَناف قبرُك في هَضْبٍ يُميِّزُهُ ... فتَنْتَحِيهِ حَفِيّاتُ التَحيّاتِ[2].
كُرِّمْتَ حَيًّا ومَيْتاً واشتهرت عُلًا، ... فأنتَ سُلطانُ أَحياءٍ وأَمْوات.
ماريىء مثلُك في ماضٍ ؛ ومُعتَقَدي ... أَلّا يُرى - الدهرَ - في حالٍ ولا آتي[3].

- التاريخ (من مقدّمة «الإحاطة»)

.... ولمّا كان الفنُّ التاريخيُّ مأربَ البشر ووسيلةً إلى ضمّ النشر[4] يَعْرِفون به أنسابَهم في ذلك شرعاً وطبعاً ومافيه، ويكتسبون به عقلَ التجربةِ في حال السكون والرفيه[5]، ويستدلّون ببعضِ ما يُبدي به الدهرُ ويَشفيه، ويرى العاقلُ من تصريفِ قُدرةِ اللهِ تعالى ما يَشْرَحُ صدرَه بالإسلامِ ويُخفيه، ويَمُرُّ على مصارعِ الجبابرةِ فيَحْسَبُه بذلك واعظاً ويَكْفيه. وكتابُ الله يتخلَّلُه من القَصَصِ ما يُتَمِّمُ هذا الشاهدَ لهذا الفنّ ويُوَفّيه. قال تعالى[6]: ﴿وكُلًّا نَقُصُّ عليك من أنباء الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ به فؤادَك﴾. وقال عزَّ من قائلٍ[7]: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عليك أحسنَ القَصَص بِما أَوْحَيْنا إليك هذا القُرآنَ، وإنْ كُنْتَ من قبلهِ لَمِنَ الغافلين﴾.

فَوَضَحَ سبيلٌ مُبينٌ، وظَهَرَ أن القولَ بفضلهِ يقتضيه عقلٌ ودِين[8]. وإنَّ بعضَ المُصنّفين مِمّنْ تَرَكَ نومَه لِمَن دُونَه، وأَنْزَفَ ماءَ شَبابه مُودِعاً إيّاه بَطْنَ كتابهِ يَقْصِدُهُ

---

(١) الليل المدلهمّ: الشديد الظلام (المصائب الكبيرة).
(٢) أناف: علا، ارتفع. انتحى: مال إلى ناحية. الحفيّ: الذي يهتمّ بالأمر (تأتيه التحيّات المخلصة من كلّ جانب).
(٣) ريىء (رؤي). الدهر (بالنصب): طول الدهر.
(٤) كذا في الأصل.
(٥) لعلّها: السكون الرفيه (بلا واو العطف): السكون في سَعة من العيش.
(٦) القرآن الكريم ١١ : ١٢٠، هود.
(٧) القرآن الكريم ١٢ : ٣، يوسف.
(٨) بفضله = بفضل التاريخ.

الناسُ وَيَرِدونَه [١] اخْتَلَفَتْ في مثلِ هذا البابِ أغْراضُهم. فمِنْهُمْ مَنِ اعتنى بإثبات حوادِثِ الزمانِ، ومنهم منِ اعتنى بِرجالِه بعدَ اختيار الأعيان عَجْزاً عنِ الإحاطةِ بهذا الشانِ، عموماً في أكثرِ الأقطارِ وخُصوصاً في بعضِ البلدان (ثمّ يعدّد لسان الدين أسماء نفر كثيرين ألّفوا كتباً في تاريخ مدنهم).

فداخَلَتْني عَصَبِيَّةٌ لا تَقْدَحُ في دينٍ ولا مَنْصِبٍ [٢]، وحَمِيّةٌ لا يُذَمُّ في مِثْلِها مُتَعَصِّب،.... ورأيتُ أنّ هذه الحضرةَ [٣] التي لا خَفاءَ بما وفّرَ اللهُ من أسبابِ إيثارِها وأراده من جَلالِ مِقْدارِها، جعَلَها ثَغْرَ [٤] الإسلامِ ومُتَبوّأ العَرَبِ الأعلام قَبيلِ [٥] رسولِه عليه أفضلُ الصلاة وأزكى السلامِ وما خَصّها مِنَ اعتدالِ الأقطار وجَرَيانِ الأنهار وانفساحِ الاعتمار والتفاف الأشجار.. نَزَلَها العربُ الكِرامُ عند دُخولهم مُخْتَطّينَ فعَمروا وأوْلدوا [٦] وأثْبتوا المفاخرَ وخلّدوا......

وقد كانَ أبو القاسمِ الغافقيُّ [٧]، مِنْ أهلِ غَرناطةَ، قد قامَ مِنْ هذا الغَرَضِ بِفَرْضٍ وأتي من كلٍّ بِبَعْضٍ. فلم يَشْفِ من غُلّةٍ، ولا سَدّ خَلّة، ولا كَثّرَ قلّة [٨]. فقُمْتُ بهذا الوظيفِ وانتدبت للتأليف . ورَجَوْتُ على نَزارةِ حَظّ الصِّحة وازدحامِ الشواغـل المُلحَّة أنْ أضْطَلِعَ من هذا القَصْدِ بالعِبْءِ الذي طالما طأطأتْ له الأكتادُ [٩]....

---

(١) لمن هو دونه (أقل منه، لمن لا تسمو نفسه إلى جليل الأمور) ومن قضى أيام شبابه (نشاطه) يدوّن التاريخ (بإخلاص) يَقْصِده الناس ليَرِدوا من مورده (يشربوا من نبعه: ليستفيدوا منه).

(٢) العصبيّة: شدة الاهتمام بأهل الرجل (ولو أساء ذلك إلى قوم آخرين). لا يقدح: لا يعيب. المنصب: المكانة.

(٣) الحضرة: العاصمة (غرناطة).

(٤) الثغر: المكان الذي يخشى منه مجيء العدو (حدود البلاد الإسلامية على بلاد الأعداء المحاربين).

(٥) المتبوّأ: المسكن والمستقرّ. القبيل: القوم، الأهل.

(٦) اختط: أنشأ خطّة (بكسر الخاء): مكان السكنى (البلد، المدينة). عمر الأرض: سكنها وأنشأ فيها حياة عمرانية (اقتصادية واجتماعية). أولدوا: جاءهم أولاد (نسل)، أي عاشوا فيها مدّة طويلة.

(٧) لعلّه أبو يحيى اليسع بن عيسى بن اليسع الغافقي الجيّاني (ت ٥٧٥ هـ)، كان له اشتغال بمثل ذلك (راجع نفح الطيب ١ : ١٢٧، ١٦٤، ٢٠٨ وسائر المظانّ الوارد ذكرها في فهرسته).

(٨) الغُلّة: العطش. الخَلّة: الفُرجة، الثقب الصغير، الحاجة والفقر. الوظيف: عظم دقيق في الساق (وهو يقصد الوظيفة: العمل الذي يقدر الإنسان عليه). وانتدبت (نفسي) للتأليف.

(٩) الشواغل ليست في القاموس. المقصود الأشاغيل جمع أشغولة (بالضمّ): ما يشغل (بفتح الغين) الإنسان ويلهيه. الكتد (بفتح ففتح): الكاهل (مجتمع الكتفين).

والترتيبُ الذي انتهتْ إليه حِيلتي وصَرَفْتُ في اختيارِه مُخيَّلتي هو أنني ذَكَرْتُ البلدة[١]، حاطَها اللهُ، مُنبِّهاً منها على قديمها وطيبِ هوائها وأديمها، وإشراق عُلاها ومَحاسن حُلاها، ومن سَكَنها وتولّاها، وأحْوالِ أُناسِها ومن دال[٢] بها من ضُروبِ القبائل وأجناسها، وأعطيتُ صورتَها وأرّختُ في الفخر ضَرورتَها. وذكرتُ الأسماءَ على الحروف المُبوّبة[٣] وفَصّلتُ أجناسَهم بالتراجم المُرتّبة: فذكرتُ الملوكَ والأُمراءَ ثمّ الأعيانَ والكُبراء ثمّ الفُضلاء ثمّ القُضاةَ ثم المُقرئين والعلماء ثم المُحدّثين والفُقهاءَ وسائرَ الطَّلَبَةِ النُّجباء ثمّ الكُتّاب والشعراء ثمّ العُمّال والأُثَراء[٤] ثمّ الزُهّادَ والصُّلحاء والصُّوفيّة والفقراء لِيكونَ الابتداء بالمُلْكِ والاختتام بالمِسْك وَليُنْظَمَ الجميعُ انتظامَ السِّلْك[٥]. وكلُّ طبَقَةٍ تنقسمُ إلى من سَكَنَ المدينةَ بحُكْم الأصالةِ والاستقرارِ أو طَرَأَ عليها مِمّا يُجاورها مِنَ الأقطار أو خاضَ إليها - وَهُوَ الغريبُ - أثْباجَ[٦] البحار أوْ أَلَمَّ بها ولو ساعةً من نَهار. فإنْ كَثُرَتِ الأسماءُ نَوَّعْتُ وتَوسّعتُ، وإن قلّتِ اختصرتُ وجمعتُ. وآثرتُ ترتيبَ الحُروف في الأسماءِ ثمّ في الأجداد والآباءِ لِشُرودِ الوَفَياتِ والمواليدِ التي رَتّبَها الزمانُ عنِ الاستقصاء[٧]. وذَهبتُ إلى أن أذكُرَ الرجلَ ونَسَبَه وأصالته وحَسَبَه ومولدَه وبلده ومذاهبه وأنْحالَه[٨] والفنَّ الذي دعا إلى ذِكرِه، وحِلْيَتَهُ ومَشْيَخَتَهُ[٩] - إن كان مّمن قيّدَ عِلماً أو كتبه - ومآثره إن كان مّمن وَصَلَ الفضل

---

(١) البلدة (غرناطة).

(٢) دال فلان دالة ودولة: صارت له دالة (نصيب ودور في الحكم).

(٣) على الحروف (كما ترتّب في القاموس).

(٤) العمّال: الولاة على المدن. الأثراء ليست في القاموس (لعلّه يقصد الفضلاء، ذوي الفضل والمكانة الاجتماعية في بلدانهم).

(٥) بالملك (أهل القوّة). الاختتام بالمسك (بأهل الصلاح). انتظام السلك (ليكون الكتاب ممثّلاً لجميع طبقات المجتمع على الترتيب المخصوص).

(٦) الثبج: وسط الشيء (ووسط البحر أيضاً).

(٧) - يقصد أن الحصول على تاريخ مولد الأشخاص ووفاتهم ليس سهلاً في كلّ حين.

(٨) الأنحال ليست في القاموس (لعلّه يقصد جمع نِحلة - بكسر النون - الطريقة التي يحصّل الإنسان بها معاشه).

(٩) حليته (صفاته وأحواله). مشيخته (أساتذته).

بِسَبَبِه [١] وشِعرَه إن كان شاعراً، وأدبه وتصانيفَه إن كان مِمّنْ ألّفَ في فنٍّ وهَذّبَه، ومِحْنَتَهُ إن كان مِمّنْ بزّه الدهرُ وسَلَبَهُ [٢]، ثمّ وَفاتَه ومُنْقَلَبَهُ إذا استرجع اللهُ من منحه حياته ما وَهَبَهُ [٣].

وجعلتُ هذا الكتاب قِسْمَيْنِ ومُشْتَمِلاً على فَنّينِ: القسمَ الأوّلَ في حُلى المَعاهِدِ والأماكن والمنازل والمساكن، والقسمَ الثانيَ في حُلى الزائرِ والقاطِنِ والمتحرّك والساكن.

٤- الإحاطة في أخبار غَرناطة، مصر (مطبعة الموسوعات) ١٣١٩ هـ؛ الجزء الأوّل (حققه عبد الله عِنان)، مصر (دار المعارف) ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٥ م.
- الإشارة في أدب الوزارة في السياسة (تحقيق عبد القادر زمّامة)، دمشق (مجمع اللغة العربية) ١٩٧٢ م.
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلّق بذلك من الكلام: قسم المغرب (أو إفريقية: تونس) (نشره حسن حسني عبد الوهّاب)، بلرم في جزيرة صقلّية ١٩١٠ م؛ الكتاب كلّه (تحقيق ليفي بروفنصال)، الرباط ١٩٣٤ م، بيروت (دار المكشوف) ١٩٥٦ م؛ الجزء الثالث (بعنوان: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط) (تحقيق أحمد مختار العبّادي ومحمّد إبراهيم الكتّاني)، الدار البيضاء (دار الكتاب) ١٩٦٤ م؛ موجز تاريخ إسبانية (ملشور أنطونيا)، مدريد ١٩٣٣ م؛
- أوصاف الناس (؟)
- جيش التوشيح (حقّقه هلال ناجي)، تونس (مطبعة المنار) ١٩٦٧ م.
- الحُلَل المَرْقُومة أو رقم الحُلَل في نَظْم الدُّوَل، تونس (المطبعة العمومية) ١٣١٦ هـ؛ (قسم صقلّية) ١٧٩٠ م.

- الحُلَل المَوْشِيّة في (ذكر) الأخبار المراكشية (*) (تحقيق بشير الفورتي)، تونس ١٩١١ م = ١٣٢٩؛ (تحقيق علّوش)، الرباط ١٩٣٦ م.
- ديوان الصيّب والجَهام والماضي والكَهام (دراسة وتحقيق محمّد الشريف قاهر) الجزائر (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م.

---

(١) ... وصل إلى مكانته في قومه بسبب علمه (!).
(٢) المحنة: المصيبة والشقاء يصيب الإنسان. بزّ: غلب وسلب.
(٣) .... أذكر وفاته، إذا كان قد توفّي في أيامي.
(*) في نسبة هذا الكتاب «الحلل الموشيّة» إلى لسان الدين بن الخطيب شكّ. ذكر علّوش أن الكتاب لمؤلّف مجهول. راجع أيضاً الأعلام للزركلي ٧: ١١٣ (٦: ٢٣٥).

- روضة التعريف بالحُبّ الشريف (تحقيق عبد القادر أحمد عطار عبد الستّار)، القاهرة (دار الفكر العربي) ١٩٦٨ م.
- ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب (قطع منه) ١٩١٦ م.
- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، فاس (تحقيق إحسان عبّاس)، بيروت (دار الثقافة) ١٩٦٣ م.
- كناسة الدكّان بعد رحيل السكّان (تحقيق محمّد كمال شبانة)، القاهرة (دار الكاتب العربي للطباعة والنشر) ١٩٦٦ م.
- اللمحة البدريّة في الدولة النصريّة (صحّحه محبّ الدين الخطيب)، القاهرة (المطبعة السلفية) ١٣٤٧ هـ؛ بيروت (دار الآفاق) ١٩٧٨ م.
- مجموع رسائل (★).
- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (نشره أحمد مختار العبادي)، الاسكندريّة (مطبعة جامعة الاسكندريّة) ١٩٥٨ م.
- معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار (مولّلر)، منشن: ميونيخ ١٨٦٦ م؛ فاس ١٣٢٥ هـ.
- مفاخرة مالقة وسَلا (مولّلر)، منشن: ميونيخ ١٨٦٦ م.
- مُقْنعة السائل في المرض الهائل (مولّلر) منشن ١٨٦٣ م.
- نفاضة الجراب في عَلالة الاغتراب (تقديم أحمد مختار العبّادي)، القاهرة (دار الكاتب العربي للتوزيع والنشر) ١٩٦٣ م.

★★- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب (نشره دوزي- دوغات- كرايل- رايت)، ليدن (بريل) ١٨٥٥- ١٨٦١ م؛ مصر (بولاق) ١٢٧٩ هـ؛ مصر (المطبعة الأزهرية (١٣٠٤ هـ)؛ (حقّقه محمّد محيي الدين عبد الحميد)، بر بيروت (دار الكتاب العربي ١٣٦٩ هـ؛ (حقّقه إحسان عبّاس)، بيروت (دار صادر) ١٣٨٨ هـ= ١٩٦٨ م.

- ابن الخطيب: حياته وكتبه، تأليف محمّد بن أبي بكر التطواني وعبد العزيز بن عبد الله (معهد مولاي الحسن)، تطوان (دار الطباعة المغربية) ١٩٥٤ م.
- ابن الخطيب وزير غرناطة، تأليف عبد الهادي أبي طالب، القاهرة (المكتبة التجاريّة) ١٩٥٠ م؛ الدار البيضاء ١٩٦٠ م.
- الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب، بقلم عبد العزيز بن عبد الله، تطوان (دار الطباعة المغرية) ١٩٥٣ م.

نيل الابتهاج ٢٦٤- ٢٦٥؛ الدرر الكامنة ٣: ٢٤٤- ٢٤٧ (رقم ١٢٦١)، ٣: ٤٦٩- ٤٧٤؛ نثير فرائد الجمان ٢٩٢- ٢٩٣؛ وفيات ابن قنفذ ٣٧٠- ٣٧٢؛ درّة

(★) مجموع رسائل، لعلّه «مشاهدات لسان الدين....».

الحجال ٢ : ٢٧١ - ٢٧٤ ؛ شذرات الذهب ٦ : ٢٤٤ - ٢٤٧ ؛ نفح الطيب ١ : ٧٠ - ١٠٥ - ١١٢ ، ١١٥ - ١١٧ ، ١٢٥ - ١٢٦ ، ١٨٦ - ١٩٠ ، ٣٢١ - ٣٢٦ ، ٤٥٣ - ٥٤٥ - ٥٠٥ - ٥١٩ ، ٤ : ٤٠٤ - ٤٤٦ (رسائل من إنشائه)، ٥ : ٧ إلى آخر الجزء ، ٦ : ٥ - ٧ ، ١٣ - ٤٥ ، ٦٠ - ١٣٨ ، ١٦٢ - ٢١٣ ، ٢١٩ - ٢٢٧ ، ٢٣٠ وما بعد ، ٢٦٨ - ٣٨٠ ، ٣٨٥ - ٤٤٦ ، ٤٤٧ - ٥١٥ (في الصفحات السابقة ثغرات قصيرة)، ٧ : ٦٥ - ٦٨ ، ٩٧ - ١٠٨ ، ١٤٥ وما بعد (تلاميذه)؛ أزهار الرياض ١ : ٣٠ - ٣٤ ، ٦٢ - ٦٣ ، ٦٤ - ٦٥ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ - ٢٣١ ، ٢٤٩ - ٢٩١ ، ٢٩٤ - ٣٣٦ ، ٢ : ٥ - ٦ ، ٧ - ١١ ، ١٦٤ - ١٦٦ ، ٢١٣ - ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٣٠١ - ٣٠٢ ، ٣٧٦ ؛ الاستقصا ٢ : ١٠٥ - ١١٩ ، ١٢٥ - ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٤ - ١٣٥ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٣٨٥ - ٣٨٧ ؛ بروكلمن ٢ : ٣٣٧ - ٣٤٠ ، الملحق ٢ : ٣٧٢ - ٣٧٣ ؛ نيكل ٣٦٣ - ٣٦٦ ؛ مختارات نيكل ٢٠٧ ، ٢١٢ - ٢١٥ ؛ سركيس ١٥٨٨ - ١٥٩١ ؛ الأعلام للزركلي ٧ : ١١٢ - ١١٤ (٦ : ٢٣٥)؛ بالنثيا ١٣٨ - ١٣٩ ، ٢٥١ - ٢٥٩ ، ٣٠٢ وما بعد ؛ مجلّة المجمع العلمي العربي ٢٣ : ٤ (١٠/١٩٤٨)، ص ٥٢٤ ،ثمّ المجلّد ٤٧ ، ص ٧٠ ؛ البحث العلمي ٥/١٩٦٨ ، ص ١٢٣ ؛ العربي ٦/١٩٦٧ ، ص ٤٧ ، ١٢/١٩٦٥ ، ص ٢٠ - ٢٥ ؛ الأصالة ٤ : ٢٦ ، ص ٣٣١ ؛ معجم المؤلفين لكحالة ١٠ : ٢١٦ - ٢١٧ .

ابن أبي حجلة

١ - هو شِهابُ الدينِ أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ يَحْيى بنِ أبي بكرِ بنِ عبدِ الواحدِ التِلِمْسانيُّ المعروفُ بابنِ أبي حَجَلَةَ[1] ، وُلِدَ في تِلِمسانَ ، سَنَةَ ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م). رَحَلَ وحَجّ ثمّ ذهب إلى دِمَشْقَ فدَرَسَ الأدبَ ثمّ انتقلَ إلى القاهرة وتولّى مَشيخة الصوفيةِ بصِهْريج مَنْجَكَ خارجَ القاهرةِ . وكانت وفاتُه في القاهرةِ بالطاعون في سَلْخِ ذي القَعْدةِ من سَنَةِ ٧٧٦ (٢/٥/١٣٧٥ م) أو في مُستَهَلِّ ذي الحِجّة .

٢ - كان ابنُ أبي حَجَلَةَ ذا اتّجاهٍ ديني وميلٍ إلى التصوّف المُعْتدلِ حَمَلَ على

(١) الحجلة طائر مكوّر الحجم أصغر من الدجاجة أحمر المنقار والساقين ، برّي يصاد للحمه الطيّب . قيل إنّ عبد الواحد الجدّ الأعلى لصاحب هذه الترجمة كان من المتصوّفة ذوي الكرامات ، وقد باضت حجلة على كمّه!

القائلين بوَحْدةِ الوجودِ وعلى عُمَرِ بن الفارضِ خاصّة[1]. وكان أديباً ناثراً شاعراً له قصائدُ ومُقطّعاتٌ وبديعيّاتٌ ومَقامات. وقد عارَضَ جَميعَ قصائدِ عمرَ بنِ الفارض ببديعيّاتٍ (بمدائحَ في رسولِ اللهِ) وهُوَ مؤلّفٌ مُكْثِرٌ ذكروا أن له أكثَرَ من ثمانينَ كتاباً منها: ديوان الصَّبابة (تراجمُ لنفرٍ من الشعراء المحبّين ومختارات لهم)- سكردان[2] السلطان (الملك الناصر حسن بن محمّد بن قَلاوُون؛ وهو مجموع في معنى العدد «سبعة» في أرض مصر وتاريخها وسكّانها وحكّامها)- الطارىء على السكردان (نقل الكرام في مدح الكرام: الملك الناصر حسن)- سلوة الحزين في موت البنين- جِوار الأخيار في دار القَرار- الطبّ المسنون في دفع الطاعُون- التذكير بالموت وسُكنى القبور والخروج منها والنُشور- دفع النِّقْمة في الصلاة على نبيّ الرحمة- أنموذج القتال في نقل العَوال[3] (في الشطرنج)- مغناطيس الدرّ النفيس (مختصر في أنواع من الأدب)- منطق الطير- الأدب الغضّ- حاطب ليل- عنوان السعادة- نحر أعداء البحر- أطيب الطيب- النعمة الشاملة في العشرة الكاملة- السجع الجليل فيما جرى من النيل، الخ.

٣- مختارات من آثاره

الحمدُ لله الذي جَعَلَ «للعاشقين بأحكامِ الغرام رِضا»[4]، وحَبّبَ إِلَيْهِمُ الموتَ في حُبّ مَنْ يَهْوَوْنَهُ «فلا تَكُنْ، يا فتًى، بالحُبّ مُعْتَرِضاً»[5]. فكم فيهم من عاشقٍ ومُحبٍّ صادق:

رأى فحَبّ فرامَ الوصلَ فَامْتَنعوا فسامَ صبراً فأعْيَى نَيْلَه فقَضى!

---

(١) وحدة الوجود أو الاتّحاد مذهب متطرّف في الصوفية يرى أن مجموع الوجود هو الله، وأنّ كلّ جزء منه يمثّل قوّة من قوى الله (وقال بعضهم: كلّ جزء من العالم يمثّل الله!). عمر بن الفارض (ت ٦٣٢ هـ) متصوّف متطرّف، ولكنّه أشعر شعراء الصوفية من العرب، وثاني شعراء الصوفية في العالم بعد جلال الدين الرومي (ت ٥٧٢ هـ).

(٢) السكردان....

(٣) «الحديث العالي» ما أستوفتْ روايتُه شروط الصّحّة وكان الذين رَوَوْهُ قريبين من زمن رسول الله- وفي هذا التعريف شيء من الغموض- (راجع «قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث» لمحمّد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمّد بهجة البيطار، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ص ١٢٧).

(٤ إلى ٥) من أبيات للشابّ الظريف (ت ٦٨٨ هـ).

أحْمَدُه حَمْدَ «من خافَ مقامَ ربّهِ ونَهى النفسَ عنِ الهوى[1] »، وشَبّبَ بذِكْرِ محبوبه إنْ كان تِهامِيًّا في حجازٍ أو شامِيًّا في نَوى[2]:

طَوْراً يَمانٍ إذا لاقَيْتُ ذا يَمَنٍ، وإنْ لَقِيتُ مَعَدِّيًّا فعَدْناني[3]!

وأشهدُ أنْ لا إلَه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له الحميدُ المجيد: شَهادةَ مَنْ أصبحَ موتُه لِبُعْدهِ أقربَ مِنْ حبلِ الوريد[4]، وقال لعاذِله: «لقد علِمْتَ ما لنا في بَناتِكَ من حقٍّ، وإنّك لَتعْلَمُ ما نُريد »[5].

ولو أنّ ما بي مِنْ حَبيبٍ مُقَنَّعٍ عَذَرْتُ، ولكنْ من حبيبٍ مُعَمَّمِ[6].

وأشهدُ أنّ محمّداً عبدُه ورسولُه شَهادةَ من أخْلَصَ في مُوالاتهِ وتَبرّأ من الإثم حين تولّى عنه محبوبه بخاتَمِ رَبّه وبراتِه[7]. صلّى اللهُ عليه وعلى آلهِ وأصحابهِ ما ذَرّ شارقٌ وهام عاشقٌ[8]. أمّا بعدُ، فإنّ كِتابَنا هذا كما قِيل:........

على أنّ جماعةً من العَصْرِيّينَ غَلَبوا على مَنْ تقدّمَ بالتأليفِ في هذا الباب، ولم يُفرِّقْ بعضُهُمْ في التَشبيب بين زينبَ والرَّباب[9]:

وكُلٌّ يَدّعي وَصْلاً بلَيْلى، وليلى لا تُقرُّ له بذاكا[10].

---

(١) القرآن الكريم ٧٩: ٤٠، النازعات.

(٢) تهامة: ساحل الحجاز. (الأرض المنخفضة بالإضافة إلى نجد). شاميّا (شماليّا) من بلاد الشام (سورية). نوى قرية بالشام.

(٣) – حيناً انتسب إلى اليمن (عرب الجنوب).... معدّ وعدنان (جدّان لعرب الشمال). البيت لعِمران ابن حطّان.

(٤) حبل الوريد: ممّر للدم في جانب العنق (في العنق وريدان).

(٥) القرآن الكريم ١١: ٧٩ هود. العاذل: اللائم.

(٦) – لو كنت أشكو من حبيب مقنّع (امرأة محبوبة) لهان عليّ الأمر. معمّم: يلبس عمامة (رجل). والبيت للمتنبّي.

(٧) الإثم: الذنب. براته (براءته!).

(٨) ذرّ (ظهر من وراء الأفق) شارق (طالع من شمس أو قمر أو نجم ما). هام: حار من شدّة الحبّ.

(٩) زينب والرباب: اسمان للنساء (لم يفرّق بين محبوب ومحبوب).

(١٠) البيت....

فرَبْعُ كِتابِنا هذا بذِكرِ العامريّةِ معمورٌ [١]، وهُوَ بالنسبةِ إلى ما ألّفه الشهابُ محمودٌ مشكورٌ [٢]. ومن وَقَفَ عليه عَلِمَ صِحّةَ هذا الكلامِ وأنْشَدَ في تصديقِ هذه الدَّعْوى « إذا قالتْ حَذامِ » [٣]. مُؤلّفُ طَوْقِ الحَمامة » بالنِسبةِ إلى حَجَلَتِه يَحْجِل [٤]، وصاحبُ « منازلِ الأحباب » مِمّنْ عَرَفَ المَحَلَّ فبات دون المَنْزِل [٥]:

★ وعَـذَرْتُ طَيْفَكَ في الجَفاء لأنّه ... يَسري فيُصْبِحُ دونَنا بمَراحِلِ [٦].

★ فيـا دارَها بالخَيْفِ إنّ مَزارَها ... قريبٌ، ولكنْ دون ذلك أهوالُ [٧]!

فإنْ قُلْتَ « الفَضْلُ للمتقدّمِ » [٨]، و « هَلْ غادَرَ الشُعراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ » [٩]! قلتُ: نَعَمْ، في الخَمْرِ مَعْنًى ليس في العِنَبِ [١٠].....

ولم يَزَلْ كِتابُنا هذا في مُسَوِّداتهِ مُنْذُ حِجَجٍ، وبُيوتُه من بُحْورِها في لُجَجٍ [١١]: لا أُبيحُ ما في منازلِ الأحبابِ لِساكنٍ ولا أُمكِّنُ عاشقاً من المُرورِ بتلك الأماكن...... حتّى بَرَزَ لِطَلَبِهِ المرسومُ الشريفُ المَلَكِيُّ الناصريُّ [١٢] ... فبادَرْتُ إلى تَجْهيزه وسَبْكِ

---

(١) الربع: المسكن. العامرية: ليلى (محبوبة قيس بن الملوّح). معمور: مسكون، عامر (يكثر في كتابنا ذكر ليلى، وذكر الحبّ).

(٢) الشهاب: محمود بن فهد الحلبي (انظر بعد بضعة أسطر).

(٣) إذا قالـت حـذام فصدّقوهـا ... فـإن القول مـا قالـت حـذام

(٤) طوق الحمامة كتاب لابن حزم (ت ٤٥٦). الحجلة: ستر للمرأة. حجل: مشى على رجل واحدة، أو مشى يتعثّر كأنّه مقيّد.

(٥) منازل الأحباب ومنازه الألباب (حكايات في الحبّ وأشعار في الغزل)، تأليف شهاب الدين محمود بن فهد الحلبي (ت ٧٢٥). بات دون المنزل (المكان الأمين لنزول القوافل، إذا جاء الليل ولم تكن قد وصلت إلى بلد له سور)، قصّر فيما أراد.

(٦) يبدو أن البيت قديم، وقد ضمّنه ابن عُنين (ت ٦٣٠ هـ) في بعض قصائده (راجع وفيات الأعيان، بيروت ٥ : ١٥).

(٧) البيت لأبي العلاء المعرّيّ.

(٨) ....

(٩) مطلع معلّقة عنترة.

(١٠) من بيت المتنبي في رثاء أخت سيف الدولة:

فـإن تكن تغلـب الغلبـاء نسبتهـا، ... فـإن في الخمر معنـى ليس في العنـب.

(١١) الحجّة (بكسر الحاء) السنة، العام. بيوته.... في لجج (اللّجة: معظم الماء، الموجة الكبيرة): غير منظّم!

(١٢) الأشرف ناصر الدين شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ)!!

إبريزه [1] حَسْبَ المرسومِ الشريف، بلا تَسْويف ولا تكليف.....

وسَلَكْتُ في تأليفهِ الاختصارَ والاقتصارَ على النوادرِ القصارِ.... وسمّيته «ديوانَ الصَّبابة» لِيُصْبحَ الواقفُ عليه مُولَّهاً ويَعْلَم إنْ لم أكُنْ أنا لِلصَّبابةِ، فمَنْ لها [2]؟.... ورَتَّبْتُه على مُقدمةٍ وثلاثينَ باباً وخاتمةٍ. أمّا المقدّمةُ ففي ذكرِ حَدّ العِشق واشتقاقه وما قِيل فيه... وأمّا الأبواب (فهي): ذِكْرُ الحُسْن والجمال - ذكر المُحبّين والظُرفاء من الملوك والخلفاء - ذكر من عَشِقَ على السَّماع -..... ذكر الغَيْرةِ وما فيها من الحَيْرة - ذكر إفشاءِ السِّر والكتمان - ذكر الاحتيال على طَيْف الخَيال - ذكر العِتاب عند اجتماع الأحباب..... إلخ. وأما الخاتمة ففي ذكر مَنْ مات مِنْ حبّه.....

٤- ديوان الصبابة، القاهرة (طبع حجر) ١٢٧٩ هـ؛ ١٢٩١ هـ؛ ١٣٠٥ هـ؛ (بهامش «تزيين الأسواق»، لداوود الأنطاكي المتوفّى ١٠٠٨ هـ)، مصر ١٢٩١ هـ؛ القاهرة (المطبعة الأزهريّة) ١٣٠٢، ١٣٠٨ هـ.
- سكردان السلطان، بولاق ١٢٨٨ هـ؛ (بهامش «المخلاة» لبهاء الدين العامليّ المتوفّى ٩٥٣ هـ)، القاهرة (البابي) ١٣١٤، ١٣١٧ هـ.
- مجتبى الأدباء، مصر.
- مغناطيس الدرّ النفيس، مصر ١٣٠٥ هـ.

★★ الدرر الكامنة (القاهرة) ١ : ٣٥٠ - ٣٥٢، (حيدر آباد) ١ : ٣٢٩ - ٣١١ (رقم ٨٢٦)؛ تعريف الخلف ٢ : ٤٢ - ٥٣؛ نثير الجمان ٢٢٨ - ٢٢٩؛ شذرات الذهب ٦ : ٢٤٠ - ٢٤١؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٦٨٦؛ بروكلمن ٢ : ١٣ - ١٤، الملحق ٢ : ٥ - ٦، راجع ٢ : ٣٠٩، الملحق ٢ : ٤٦٧؛ الأعلام للزركلي ١ : ٢٥٥ (٢٦٨ - ٢٦٩)؛ معجم المؤلّفين لكحّالة ٢ : ٢٠١؛ معجم أعلام الجزائر ٤٧ - ٤٨؛ سركيس ٢٨ - ٢٩.

ابن بطّوطة

١- هو شمسُ الدينِ أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمّدِ بنِ ابراهيمَ اللواتي الطَّنْجيّ المعروفُ بابنِ بطّوطةَ، وُلِدَ في ١٧ رَجَبَ ٧٠٣ (١٣٠٤/٢/٢٤ م) في طَنْجَةَ.

---

(١) الإبريز: الذهب الخالص.
(٢) مولّه: شديد الحبّ للشيء. فمن لها؟: من يستطيع ذلك غيري؟

في سَنَةِ ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) خرَجَ ابنُ بطّوطةَ من طنجةَ بنيّةِ الحجِّ، ولم يكُنْ قادراً على توفيرِ وسائلِ السفر بنفسِه فاضطُرَّ إلى أن يرافقَ القوافلَ التي قَبلَتْ أن تَحْمِلَه مجّاناً؛ فطالتْ رِحلتُه وتعرّجَتْ طريقُه: جازَ البحرَ من مِصْرَ إلى الحِجازِ فلم يَتَيَسّر له الوصولُ إلى مكّةَ فعادَ إلى مِصرَ ثمّ سار إلى القُدْسِ فبيروتَ فحَلَبَ فاللاذقيةِ فحَلَبَ فدِمَشْقَ. وبعدَ الحجِّ تطوّفَ في الشام والعراقِ وفارسَ وبلادِ الروم (آسيةَ الصغرى) والقسطنطينيةِ وشِبْهِ جزيرةِ القِرْم، ثمّ قطع نهرَ الفولغا إلى الأفْغان والتُرْكستان والهِندَ فتولّى القضاء في دَهْلي (عاصمة الهند) عامَيْنِ. وبعدَ أن تولّى القضاءَ عاماً ونِصفَ عامٍ في ذِيبة المهل[1] زارَ الصينَ وسيلانَ وسومطرةَ. ثمّ عاد إلى فاسَ (المغرب) في شَعْبان من سَنَةِ ٧٥٠ هـ (أواخر ١٣٤٩ م). وفي العام التالي زار غَرناطةَ (الأندلس) ومَلّيّ[2] وتمبكتو في السودانِ الغربي (غربيّ إفريقية).

وكانت وفاةُ ابنِ بطّوطةَ في مدينة مَرّاكُشَ سَنَةَ ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م).

٢ - رِحلَةُ ابنِ بطّوطةَ من أعجبِ الرِّحْلاتِ امتدّتْ أكثرَ من خَمْسٍ وعِشرين سَنَةً. وكان ابن بطّوطة يَستَقِرُّ في عددٍ من المُدُنِ ويتزوّجُ ويتولّى عدداً من المناصبِ والأعمال. من أجلِ ذلك كان في رِحلته أخبارٌ كثيرةٌ موثوقةٌ برُغْمِ غرابتها. وكان ابنُ بطوطةَ يكتُبُ مذكّراتٍ في أثناء رِحلته. ولكنّ مذكراتِهِ هذه ضاعتْ في بَحْرِ الزَّنج. فلَمّا استقرَّ في مدينة مَرّاكُشَ أملى ما كان يتذكّرُ منها على ابنِ جُزَي[3] وسمّاها «تُحْفة النُّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، وهي تُعْرَفُ عادةً بعنوان رِحْلة ابنِ بطّوطة.

---

(١) ذيبة المهل جزائر جنوب شرق الهند تعرف في الكتب الأوروبيّة المعاصرة لنا باسم مالديف، وتسمّى اليوم رسميًّا محلديب.

(٢) ملّي = مالي في السودان الغربي. ومالي تطلق اليوم على جمهورية في غربي إفريقية عاصمتها باماكو.

(٣) ابن جزيّ هذا: محمّد بن محمّد بن جزيّ الكلبي المتوفّى سنة ٧٥٧ للهجرة (راجع ترجمته). وقد أملى ابن بطّوطـة رحلته على ابن جزيّ هذا تلبية لرغبة أبي عنان فارس بن عليّ سلطان بني مرين (٧٢٩ - ٧٥٩ هـ).

٣- مختارات من آثاره

- من «رحلة ابن بطّوطة»:

(أ) ذِكْرُ إحراقِ أهلِ الهندِ أنفسَهم:

ثمّ اتّفق بعدَ مُدّةٍ أن كنتُ بمدينة أكثرُ أهلِها من الكفّار تُعْرَفُ بأبْحرى، وأميرُها مسلمٌ من سامرةِ السِّنْد[١]، وعلى مقرُبَةٍ منه الكفّار العُصاة، فقطعوا الطريق يوماً. فخرج الأميرُ لقتالِهم ومَعَه رعيّتُه مِنَ المسلمين والكفّار، ووقع قتالٌ شديدٌ مات فيه من رعيّتهِ الكفّارِ سبعةُ نَفَرٍ. وكان لثلاثةٍ منهم ثلاثُ زَوْجاتٍ فاتّفَقْنَ على إحراقِ أنفُسِهنّ.

وإحراقُ المرأةِ بعدَ زوجِها عندَهم أمرٌ مندوبٌ إليه غيرُ واجبٍ. لكنْ مَنْ أحرقتْ نفسَها بعدَ زوجِها أحرزَ أهلُ بيتِها شرفاً بذلك ونُسِبوا إلى الوفاء. ومن لم تُحْرِقْ نفسها لَبِسَتْ خَشِنَ الثيابِ وأقامتْ عند أهلها بائسةً مُمْتَهَنَةً لعدَمِ وفائها. ولكنّها لا تُكْرَهُ على إحراقِ نفسِها.

ولمّا تعاهدتِ النِّسْوةُ الثلاثُ اللاتي ذَكَرْناهُنّ على إحراقِ أنفسِهنّ أقَمْنَ قبلَ ذلك ثلاثةَ أيّامٍ في غِناءٍ وطَرَبٍ وأكلٍ وشُربٍ كأنّهنّ يُوَدِّعْنَ الدنيا، و (كانت) تأتي إليهنّ النساء من كلِّ جهة. وفي صبيحةِ اليومِ الرابعِ أُتِيَتْ كلٌّ واحدةٍ منهن بفَرَسٍ فركِبَتْه وَهِيَ متزيّنةٌ متعطّرةٌ، وفي يُمْناها جوْزَةُ نارجيلٍ تلعَبُ بها وفي يُسْراها مِرآةٌ تنظُرُ فيها وَجْهَها، والبراهمةُ يَحُفّونَ بها وأقاربُها معَها، وبينَ يَدَيْها الأطبالُ والأبواق والأنفار[٢]، وكلٌّ إنسانٍ من الكفّار يقول لها: «أبْلِغي السلامَ إلى أبي أو أخي أو أمّي أو صاحبي». وهي تقول: «نَعَمْ!» وتبتسمُ لهم.

وركبتُ معَهنّ لِأرى كَيْفِيّةَ صُنْعِهنّ في الاحتراق. فسِرنا معَهنّ نحوَ ثلاثةِ أميالٍ. وانْتَهَيْنا إلى موضعٍ مُظْلِمٍ كثيرِ المياهِ والأشجارِ مُتكاثفِ الظِّلال، وبينَ أشجارِه أربعُ قِبابٍ في

---

(١) من سامرة السند: من مجوس الهند الذين دخلوا في الإسلام (؟). السند: المناطق الغربية الشمالية من الهند (باكستان الغربية اليوم).

(٢) الأطبال والطبول جمع طبل: آلة موسيقية من ذوات القرع (الضرب) كبيرة وبوجهين. البوق: آلة موسيقية من ذوات النفخ وجمعها بوق (بضمّ ففتح). الأنفار جمع نفر (بفتح فسكون) ونفير: الجماعة من الناس (وابن بطّوطة يقصد بكلمة أنفار: مزامير).

كلِّ قُبّةٍ صَنَمٌ من الحِجارة. وبينَ القِباب صِهْريجُ ماءٍ قد تكاثفتْ عليه الظِّلالُ وتزاحمت الأشجارُ فلا تَتخَلَّلُها الشمسُ. فكأنّ ذلك الموضعَ مِنْ جَهَنَّمَ، أعاذنَا اللهُ منها! ولّما وَصَلْنَ إلى تلك القِبابِ نَزَلْنَ إلى الصِّهريجِ وانْغَمَسْنَ فيه وجَرّدْنَ ما عَلَيْهِنّ من ثِيابٍ وحُلى فتَصدَّقْنَ به. وأُتِيَتْ كُلُّ واحدةٍ منهنّ بثَوبِ قُطْنٍ خَشِنٍ غير مَخيطٍ، فرُبِطَ بعضُه على وَسَطِها وبعضُه على رأسِها وكَتِفَيْها، والنيرانُ قد أُضْرِمَتْ على قُرْبٍ من ذلك الصِّهريجِ في موضِعٍ مَنخَفِضٍ وصُبَّ عليها روغن كنجت- وهو زيتُ الجلجلان[1]- فزادَ في اشتِعالها. و (كان) هنالك نحوُ خَمْسَةَ عَشَرَ رجلاً بأيديِهِمْ خُشُبٌ كِبارٌ، وأهلُ الأطبالِ والأبواقِ وُقوفٌ ينتظرون مَجيءَ المرأة- وقد حُجِبَتِ النار بمُلحِفَةٍ لئلّا يُدْهِشَها النظرُ إليها. فرأيتُ إحداهنّ لّما وَصَلَتْ إلى تلك الملحفةِ نَزَعْتها من أيدي الرِجال بعُنْفٍ وقالت لهم: «مارا ميترساني أز أطش؟ من ميدانم أو أطش است. رها كني مارا!» وهي تضحَكُ. ومعنى هذه الجملة: أبالنار تُخوّفونَني؟ أنا أعلَمْ أنّها نارٌ مُحْرِقةٌ[3]. خلّوا عنّي[4]. ثمّ جمعَتْ يدَيْها فوقَ رأسِها خِدمةً للنار ورَمَتْ بنفسِها فيها. عندئذٍ ضُرِبَتِ الأطبالُ والأنفارُ والأبواقُ، ورَمَى الرجالُ ما بأيديِهِمْ من الحَطَبِ عليها، وجعَلَ الآخرون تلك الخُشُبَ من فوقِها لئلّا تتحرّكَ. وارتفعتِ الأصواتُ وكَثُرَ الضجيجُ.

ولّما رأيتُ ذلك كِدتُّ أسْقُطُ عن فرسي لولا أنّ أصحابي تداركوني بالماء فغَسَلوا وجهي. وانصرفتُ.

(ب) مدن الشام:

ومدينةُ صُور هي التي يُضْرَبُ بها المثلُ في الحَصانة والمِنْعة لأنّ البحرَ محيطٌ بها من

---

(١) الجلجلان: السمسم.

(٢) «محرقة» غير موجودة في الأصل الفارسي.

(٣) هذه العبارة «خلّوا عنّي». هي معنى «رها كني مارا» (حرفياً: اعملوا لي طريقاً)، وهي غير موجودة في الأصل فأضفتها. (هذه جملة مهمّة تدلّ على أنّ مجوس الهند منذ أيام ابن بطّوطة كانوا يتكلّمون اللغة الفارسية- لغة المسلمين- ثمّ تدلّ على أنّ- ابن بطوطة تعلّم عدداً من لغات البلاد التي زارها وطال مكثه فيها. وكذلك تدلّ- إذا كان هذا النقص موجوداً في جميع النسخ- أن ابن جزيّ لم يستوعب كلام ابن بطوطة كلّه فكان يتصرف بما أملاه عليه ابن بطّوطة كثيراً أو قليلاً).

ثلاثِ جِهاتِها. ولها بابان أحدُهما للبرِّ والآخرُ للبحر..... وبناؤها ليسَ في بلادِ الدُّنيا أعجبُ منه ولا أغربُ شأناً..... ثمّ سافرتُ إلى مدينةِ صَيْداءَ وَهِيَ على ساحل البحر حَسَنَةٌ كثيرةُ الفواكهِ يُحْمَلُ منها التينُ والزَّبيب والزيت إلى بلادِ مِصْرَ..... ثمّ سافرتُ إلى مدينة طَبَرِيَّةَ، وكانتْ فيما مضى مدينةً ضَخْمة ولم يَبْقَ منها إلّا رسومٌ تُنْبِىءُ عن ضَخامَتِها وعِظَمِ شأنِها. وبها الحمّاماتُ العجيبة... وماؤها شديدُ الحرارةِ.....

ثمّ سِرْنا إلى مدينةِ بيروتَ وهي صغيرةٌ حَسَنَةُ الأسواقِ وجامعُها بديعُ الحُسْنِ، وتُجْلَبُ منها إلى مِصْرَ الفواكهُ والحديدُ... ثمّ، وَصَلْتُ إلى مدينةِ طرابُلُسَ وهي إحدى قواعدِ[1] الشام وبُلدانها الضِّخام، تَخْتَرِقُها الأنهارُ وتَحُفُّها البساتينُ والأشجارُ و(قد) تَكَنَّفَها البحر بمرافِقِهِ العميقةِ والبرُّ بخَيْراتِه المقيمة[2]، ولها الأسواقُ العجيبة والمسارح[3] الخصيبة. والبحرُ منها على ميلين، وهي حديثةُ البِناء. وأمّا طرابُلُسُ القديمةُ فكانتْ على ضِفةِ البحرِ وتَملّكها الرومُ زماناً. فلمّا استرجعها الملك الظاهرُ خَرِبَتْ واتُّخِذَتْ هذه الحديثةُ[4].

(جـ) النارجيل:

وهُوَ جَوْزُ الهِندِ. وهذا الشَّجَرُ مِنْ أغرَبِ الأشْجارِ شأناً وأعجَبِها أمراً. وشجَرُهُ شِبْهُ شجرِ النَّخلِ، لا فَرْقَ بيْنَهُما إلّا أنّ هذه تُثْمِرُ جَوْزاً وتلك تثمرُ تَمْراً. وجَوْزُها يُشْبِهُ رأسَ ٱبنِ آدَمَ لأنّ فيه شِبْهَ العَيْنَيْنِ والفَمِ. وداخِلُها شِبْهُ الدِّماغِ - إذا كانتْ (لا تزالُ) خضْراءَ - وعليها لِيفٌ شِبهُ الشَّعْرِ، وهُمْ يصنَعونَ مِنْهَ حِبالاً يَخيطونَ بِها المَراكِبَ عِوَضاً عن مَسامِيرِ الحَديدِ. ويَصنَعون منه الحِبالَ للمَراكبِ.

والجَوْزَةُ منها - وخُصوصاً التي بجزائرِ ذِيبَةِ المُهْلِ[5] - تكونُ بِمِقْدارِ رأسِ

---

(١) القواعد: المدن الكبيرة المهمّة.

(٢) المقيمة: الدائمة.

(٣) المسرح: المرعى، المكان الذي تسرح فيه الماشية.

(٤) طرابلس القديمة كانت الجزء المعروف اليوم باسم «الميناء» (طرابلس البحرية). طرابلس الحديثة (الجديدة): طرابلس البلد.

(٥) راجع، فوق ص ٥٢٢، الحاشية الأولى.

الآدمي. ويزعمونَ أنّ حكيماً من حُكَماءِ الهِندِ في غابرِ الزَّمانِ كان مُتَّصِلاً بِمَلِكٍ من الملوكِ ومُعَظَّماً لَدَيْهِ، وكان لِلْمَلِكِ وَزيرٌ بيْنَه وبَيْنَ هذا الحكيمِ مُعاداةٌ. فقال الحكيمُ للملكِ: «إنّ رأسَ هذا الوزيرِ إذا قُطِعَ ودُفِنَ تخرُجُ مِنه نَخْلَةٌ تُثْمِرُ بِثَمَرٍ عظيمٍ يعودُ نفْعُه على أهْلِ الهِندِ وسِواهُمْ من أهلِ الدُّنيا». فقال له الملكُ: «فإنْ لم يظهَرْ من رأسِ الوزيرِ ما ذَكَرْتَهُ؟» قال (الحكيم): «فإنْ لم يظهَرْ فٱصْنَعْ برأسي كما صَنَعْتَ بِرأسِهِ».

فأمَرَ الملكُ برأسِ الوَزيرِ فَقُطِعَ. وأخَذَهُ الحكيمُ وغَرَسَ نَواةَ تمرٍ في دِماغِهِ وعالَجَها حتّى صارتْ شَجَرَةً وأثْمَرَتْ بهذا الجَوْزِ.

وهذهِ الحِكايةُ مِنَ الأكاذيبِ، ولكنْ ذَكَرْناها لِشُهْرتِها عِنْدَهُمْ.

- مشعوذ في الصين:

..... وفي تلك الليلةِ حَضَرَ أحدُ المُشَعْوِذينَ[1]، فقال له الأميرُ: أرِنا من عجائِبِكَ . فأخَذَ (المشعوذُ) كُرَةَ خشَبٍ لها ثُقْبٌ وفيها سُيورٌ[2] طِوالٌ فَرَمَى بها إلى الهواء فٱرْتفعتْ حتّى غابتْ عنِ الأبصارِ، ونحنُ في وسَطِ المَشورِ[3] أيّامَ الحرِّ الشديد. فلمّا لم يَبْقَ في يَدِهِ من السَّيْرِ إلّا (شيءٌ) يسيرٌ[4]، أمرَ مُتَعَلِّماً[5] له فتَعَلّق بهِ وصَعِدَ في الهواء إلى أن غابَ عن أبصارِنا. فدعاه فلم يُجِبْهُ ثلاثاً[6]. فأخَذَ (المشعوذُ) سِكْيناً بِيَدِهِ كالمُغتاظِ وتعلّقَ بالسَّيْرِ (وصَعِدَ) إلى أنْ غابَ أيضاً. ثمّ (إنّه) رَمَى بِيَدِ الصبِيِّ إلى الأرضِ، ثمّ رمى بِيَدِه الأُخرى ثمّ بِرِجْلِه الأخرى ثمّ بِجَسَدِه ثمّ بِرأسِه.

ثمّ هَبَطَ (المُشعوذُ) وهو ينفُخُ، - وثِيابُه مُلَطَّخَةٌ بالدَّمِ - فقَبّلَ الأرضَ بينَ يَدَيِ الأميرِ، وكلّمه بالصّينيّ، (فـ) ـأمَرَ له الأميرُ بِشَيْءٍ.

---

(١) شعبذ الرجل وشعوذ: برع في الآحتيال وفي إظهار الأشياء على غير حقيقتها.

(٢) السيور جمع سير (بالفتح): قطعة من جلد مقدودة بعرض الإصبع أو نحو ذلك، ولكن طويلة كالحبل.

(٣) المشور ليست في القاموس بمعنى يوافق موقعها في هذا النّص. والمقصود مجلس ضاحٍ (في الخلاء) يجلس فيه الأمير.

(٤) يسير: قليل.

(٥) المتعلّم: صبيّ يقوم بين يَدَيْ أحد أرباب الصنائع ليتعلّم منه صنعته. وكأنّ الكلمة الفرنسية apprenti مأخوذة من معنى هذه الكلمة العربية. والإنكليز قالوا: apprenticed من نظرهم إلى الكلمة الفرنسية.

(٦) اقرأ: فدعاه ثلاثاً فلم يجبه.

ثمّ إنّه أخَذَ أعضاءَ الصَّبِيِّ فألْصَقَ بعضَها بِبَعْضٍ ، وركَضَهُ[١] برِجْلِه فقامَ سَوِيًّا. فعَجِبْتُ منه وأصابني خَفَقانٌ[٢] ، فسَقَوْني ما أذْهَبَ عنّي ما وَجَدْتُ.

وكان القاضي فَخْرُ الدين إلى جانِبي ، فقالَ لي: واللهِ ، ما كانَ من صُعودٍ ولا نُزولٍ ولا قَطْعُ عُضْوٍ ، وإنّما ذلك شَعْوَذَةٌ.

٤- تحفة النظّار.... (رحلة ابن بطّوطة) (تحرير ديمفريمري وسانغوينيتّي)، باريس (المطبعة الأهلية) ١٨٥٣ - ١٨٥٨ م (١٢٧٠ هـ وما بعد)، الطبعة الثانية ١٨٦٩ - ١٨٧٩ م، الطبعة الثالثة ١٨٩٣ - ١٨٩٥ م؛ القاهرة (مطبعة وادي النيل) ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ؛ القاهرة (مصطفى فهمي) ١٣٢٢ هـ؛ القاهرة (المطبعة الخيرية) ١٣٢٢ هـ؛ القاهرة (مطبعة التقدّم) ١٣٢٢ هـ؛ القاهرة ١٣٤٦ هـ؛ بيروت (دار بيروت) ١٩٦٠ م.

** تحفة النظّار (اختصار محمّد فتح الله بن محمود البيلوني العمري الأنصاري)، القاهرة (طبع حجر) ١٢٧٨ هـ، (طبع حروف) ١٢٧٩ هـ.

- مهذب رحلة ابن بطّوطة المسمّاة «تحفة النظّار» (وقف على تهذيبها أحمد العوامري ومحمّد جاد المولى)، (بلا تاريخ)، القاهرة (المطبعة الأميريّة) ١٩٣٣ - ١٩٣٤ م.

- ذيل على فصل الأخيّة (؟) الفتيان التركية لابن بطوطة، بقلم جودت محمّد، استانبول ١٣٥١ هـ (راجع بروكلمن، الملحق ٢ : ٣٦٦).

- رحلة ابن بطّوطة، تأليف محمّد مصطفى زيادة، القاهرة (   ) ١٩٣٩ م.

- ابن بطّوطة، تأليف فؤاد بدوي، القاهرة (دار الكتاب العربي) ١٩٦٧ م.

- أدب الرحلة: تاريخه وأعلامه: المسعودي - ابن بطّوطة - الريحاني، تأليف جورج غريّب، بيروت (دار الثقافة) ١٩٦٦ م.

- ابن بطّوطة، تأليف فؤاد أفرام البستاني، بيروت (المطبعة الكاثوليكية) ١٩٢٧ م.

الدرر الكامنة (حيدر آباد) ٣ : ٤٨٠ - ٤٨١؛ نفح الطيب ١ : ١٥٢، ١٧٥ - ١٧٦، ٧ : ٣٣٧ - ٣٣٨؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٧٣٥ - ٧٣٦؛ بروكلمن ٢ : ٣٣٢ - ٣٣٣، الملحق ٢ : ٣٦٥ - ٣٦٦؛ الأعلام للزركلي ٧ : ١١٤ (٦ : ٢٣٥ - ٢٣٦)؛ معجم المؤلّفين لكحّالة ١٠ : ٢٣٥ - ٢٣٦؛ سركيس ٤٨ - ٤٩؛ النبوغ المغربي ٢١٢ - ٢١٣؛ الأدب المغربي ٤١٢ - ٤١٧.

---

(١) ركض الرجل الحجر برجله: ركله، صدمه، دفعه.

(٢) الخفقان: شدّة النَّبْض (بفتح فسكون): شدّة ضَرَبات القلب وسرعتها.

أبو جعفر الغرناطيّ الرعينيّ[1]

١ - هو أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ يوسفَ بنِ مالكِ بنِ اسماعيلَ الغَرناطيُّ الإلبيريّ الرُّعينيّ، وُلِدَ سَنَةَ ٧٠٨ أو ٧٠٩ هـ (١٣٠٨ - ١٣١٠ م). قرأ القُرآنَ بالسَّبْعِ على أبي الحسنِ عليِّ بنِ إبراهيمَ القيجاطي، والحديثَ على أبي عبد اللهِ محمّدِ بنِ عليٍّ الخولانيّ الإلْبيري، والفِقهَ على أبي عبدِ الله البيّاني. وكانتْ وفاتُه في مُنْتَصَفِ رَمَضانَ من سَنَةِ ٧٧٩ (١٣٧٨/١/١٦ م).

٢ - أبو جعفرٍ الغَرْناطيُّ الرُعَيْنيُّ عانى الأدب مُدّةً حتّى بَرَعَ فيه. ولكنّ أدبَه ظلّ أدبَ شروحٍ ومُعارضاتٍ واقتباسٍ من القرآنِ ومن الحديثِ ومن أقوالِ الشعراءِ ومن موضوعاتِ النحوِ والبلاغة في مقطّعاتٍ من بَيْتَيْنِ وثلاثةٍ وأربعة. وفي شذرات الذهب أنّه كان كثيرَ التأليف في العربية (النحو) وغيرِها. وكان قد شَرَحَ بديعيّة رفيقهِ ابن جابرٍ الأندلسِيِّ وسَمّاها «طِرازَ الحُلّة وشِفاء الغُلّة» (نفح الطيب ٢ : ٦٧٦).

٣ - مختارات من آثاره

- لأبي جعفر الغَرْناطيُّ الرُعيني مُقطّعاتٌ منها:

★★ أبدتْ لِيَ الصُدْغَ على خَدّها، فأطْلَعَ الليلُ لنا صُبْحَهُ[2].
فخَدُّها مَعْ قَدِّها قائلٌ (هذا شُقيقٌ عارضٌ رُمْحَهُ)[3].

★★ حِمْصٌ لمن أضْحى بها جنّةٌ يدنو لَدَيْها الأملُ القاصي[4].
حَلّ بها العاصي. ألا فاعْجَبوا من جَنّةٍ حلّ بها العاصي[5]!

---

(١) راجع عدداً من تفاصيل حياته في ترجمة رفيقه ابن جابر الأندلسي (ت ٧٨٠).

(٢) الصدغ، في الأصل، ما فوق الخدّ. و (هنا) الشعر الذي يتدلّى إلى جانب الجبهة. - فظهر بياض خدّها من خلال شعرها.

(٣) قدّها: قوامها الذي يشبه قوام الرمح. والعجز اقتباس، (تضمين ناقص) من قول الشاعر:
جاء شقيق عارضاً رمحه إنّ بني عمّك فيهم رماح.

(٤) حمص المدينة الشاميّة على نهر العاصي. جنة: روضة ذات أنهار وأشجار.

(٥) العاصي (الأولى) نهر العاصي. العاصي (الثانية): المذنب. الجنّة (الثانية): جنّة الخلد في الآخرة.

★★ ومُورّدِ الوجَناتِ دبّ عِذارُهُ، فكأنّـه خَـطٌّ عـلى قُرْطـاسِ[1].
لّما رأيتُ عِذارَه مُسْتَعْجِلاً قد رامَ يُخْفي الوردَ منه بآس[2]،
ناديتُـه: قِـفْ كي أُودِّعَ وَرْدَهُ؛ (ما في وقوفِك ساعةً من باس)[3].

★★ يا راحلاً يَبْغي زِيارةَ طَيْبةٍ، نِلْتَ المُنى بزِيارة الأخيار[4]،
حَيِّ العقيقَ إذا وَصَلْتَ وصِفْ لنا وادي مِنَى، يا طَيِّبَ الأخبار[5].
وإذا وَقَفْتَ لَدى المُعَرَّفِ داعياً زال العَنا وظَفِرْتَ بالأوطار[6].

★★ هذه رَوضَةُ الرسولِ، فدَعْني أبذُلِ الدمعَ في الصَّعيدِ السعيدِ[7].
لا تَلُمْني على انْسكابِ دُموعي؛ إنّما صُنْتُها لهذا الصعيد.

★★ حَسِّنِ النِّيّـةَ مـا اسْطَعْتَ ولا تَتَّبعْ في الناسِ أسبابَ الهوى.
إنّما الأعمالُ بالنيّـــات، مَنْ يَنْوِ شيئاً فله ما قد نوى[8].

★★ قالتْ، وقد حاولتُ نَيْلَ وِصالِها: من غيرِ شيءٍ لا تَجوزُ المسألهْ؛
بـالله، قُلْ لي: أين نَحْوُك، يا فَتَى؟ أرأيتَ مَوْصولا يَجيءُ بلا صِلهْ[9]!

★★ لا تُعـادِ النـاسَ في أوطانهم؛ قلّما يُرْعى غريبُ الوَطَنِ.
وإذا مـا شِئْـتَ عَيْشاً بَيْنَهُمْ (خالقِ الناسَ بخُلْقٍ حَسَنِ)[10].

---

(١) العِذار: الشعر النابت في الوجه: كأنّه خطّ (أسود) على قرطاس (ورق أبيض).
(٢) الورد: احمرار الخدّين. الآس نبت أوراقه شديدة الخضرة. والعرب تسمّي الأسود أخضر.
(٣) العجز تضمين من مطلع قصيدة لأبي تمّام:
ما في وقوفك ساعة من باس نقضي ذمام الأربع الأدراس.
(٤) طيبة: المدينة (مدينة الرسول).
(٥) العقيق وادٍ قرب المدينة يتنزّه فيه الناس. منى: مكان قرب مكّة يبيت فيه الحجّاج بعد النفر (بفتح فسكون: النزول من جبل عرفة).
(٦) المعرّف: عرفة: جبل يقف عليه الحجّاج يوم التاسع من ذي الحجّة.
(٧) الروضة: مكان قبر الرسول. الصعيد: الأرض، التراب. السعيد (لأنّه ضمّ جسد الرسول).
(٨) في الحديث: إنّما الأعمال بالنيّات. وإنّما لكلّ امرىء ما نوى....
(٩) أين علمك بالنحو! هل يمكن أن يأتي اسم موصول بغير صلة (جملة تتمّ معناه: رجع القائد الذي ربح المعركة– «ربح المعركة» صلة لاسم الموصول «الذي») وفي «الموصول» تورية: المحب الذي استجاب له حبيبه ثم الكلمة النحوية (الذي، التي، الخ).
(١٠) العجز تضمين.......

- وله في مقدّمة شَرحِه لبَديعيّة رفيقِه ابنِ جابرٍ الأندلسيّ:

.... نادرةٌ في فَنّها فريدةٌ في حُسْنها، يُجْنى ثَمَرُ البلاغةِ من غُصْنها وتَنْهَلُّ سواكبُ الإجادةِ من مُزْنها. لم يُنْسَجْ على مِنْوالِها[1] ولا سَمَحَتْ قريحةٌ بِمثالها. رأيتُ أن أضعَ لها شرْحاً يَجْلو عرائسَ مَعانيها لمُعانيها[2]، ويُبدي غرائبَ ما فيها لمُوافيها[3]. لا أُمِلُّ الناظرَ فيه بالتطويلِ ولا أُعَوِّقُه بكَثْرة الاختصار عن مدارِك التحصيل. فخيرُ الأمورِ أوْسَطُها، والغَرَضُ ما يُقرّبُ الأمورَ ويَضْبِطُها. فأُعِرْبُ من ألفاظها كلَّ خَفِي وأسكُتُ من لُغاتِها عنْ كلّ جَلِيّ[4]..

٤-★★ المنهل الصافي ١: ٢٩٩؛ الدرر الكامنة ١: ٣٦١-٣٦٢ (١: ٣٤٠)؛ الوافي بالوفيات ٨: ٣٠٥-٣٠٧، راجع ٦: ٣٠٥-٣٠٧؛ بغية الوعاة ١٧٦ (راجع ١٤)؛ شذرات الذهب ٦: ٢٦٠-٢٦١؛ نفح الطيب ١: ٤٤، ٤٧، ٩٠، ٢: ٥٦٥، ٦٧٥-٦٧٧، ٦٨٠، ٦٨٤ وما بعد، ٦٨٧ وما بعد، ٤: ٢٨٨-٢٨٩، ٧:٣٤٧-٣٤٨، ٣٧٦-٣٧٧؛ الأعلام للزركلي ١: ٢٦٠ (٢٧٤).

ابن جابر الأندلسيّ

١- هو شمسُ الدينِ أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ عليٍّ بنِ جابرٍ الهوّاريُّ الأندلسيُّ المَرِيِّـيُّ الضريرُ، وُلِدَ في المَرِيَّةِ سَنَةَ ٦٩٨ (١٢٩٨-١٢٩٩ م).

قرأ ابنُ جابرٍ القرآنَ على محمّدِ بنِ أبي العيش[5] والحديثَ على محمّدِ الزَواوي والفقْهَ على محمّدِ بنِ سعيدٍ الرُّنْديّ، ثمّ رَحلَ- وهو في مَطْلَعِ حياتِه- إلى مِصرَ، ومَعَهُ أبو جَعْفرٍ الغَرناطيّ (كان ابنُ جابرٍ يَنْظِمُ وأبو جعفرٍ يُدوّنُ له نَظْمه)، وقد عُرِفا بالأعمى والبصير. وفي مِصْرَ سَمِعَ الرفيقانِ من أبي حَيّانَ الغَرْناطي (ت ٧٤٥).

---

(١) المزن: المطر. المنوال: آلة لحياكة النسيج. لم ينسج أحد على منوالها: لم يصنع أحد مثلها.

(٢) المُعاني: الذي يجهد نفسه في فهم الشيء أو عمله.

(٣) الموافي: الواصل (الذي يصل إلى هذه البديعية ويقرأها ليفهم ما فيها).

(٤) لغاتها: ألفاظها المختلفة (والدالّة على معنى واحد، أو على معان متقاربة). الجليّ: الواضح.

(٥) كذا في الوافي بالوفيات وفي نكت العميان. وفي بغية الوعاة: ابن يعيش.

ثمّ حجّ الرفيقانِ واستأنفا الرِّحلةَ إلى الشام، سنة ٧٤١، ونزَلا دِمَشْقَ فَسَمِعا فيها جانباً من صحيح البُخاري مِنَ الحافِظ يوسفَ بنِ عبدِ الرحمن المِزّيّ (ت ٧٤٢). وانتهز الرفيقانِ فرصةَ موتِ المِزّي فانتقلا إلى حَلَبَ، سَنَةَ ٧٤٣، وجَعَلا يُحَدّثانِ بصحيحِ البخارى. ثم انتقلا إلى البِيرَةِ (على الفُرات، قرب سُمَيْساط).

ثمّ اتّفق أن تَزوّجَ ابنُ جابرٍ فاختَلّتْ صُحْبَتُهُما وافترقا. وتُوُفّي أبو جعفرٍ سَنَةَ ٧٧٩ فرثاه ابنُ جابرٍ. أمّا ابنُ جابرٍ فكانتْ وفاتُه سَنَةَ ٧٨٠ (١٣٧٨ - ١٣٧٩ م) في البِيرة.

٢ - ابنُ جابرٍ الأندلسيُّ أديبٌ ناثرٌ وشاعرٌ، وله إلمامٌ بالحديث وبَراعةٌ في اللغة والنحو والعَروض والبلاغة. وهو شاعرٌ مُكْثِرٌ له مُقطّعاتٌ حِسانٌ. وقدِ اشتهر بقصيدتهِ «بديعيّة العُميانِ» أو الحُلّة السِيَرا في مدح خيرِ الورى[١]، وهي مِائَةٌ وسَبعةٌ وسبعونَ بيتاً جَمَعَ فيها خمسينَ وَجْهاً من البديع (الصِّناعة اللفظية). هذه القصيدةُ نازلةٌ عن مُستوى الشعرِ الجيّدِ لأنّ ناظمَها تكلّف فيها ما مِنْ شأنه أن يجعَلَ الشعرَ مُتَخَلْخِلاً ضعيفاً. ثمّ هو مُصنّفٌ شَرَحَ بديعيّتَهُ وشَرَحَ ألفيةَ ابنِ مالكٍ وألفيةَ ابنِ مُعْطٍ. وله من الكتب: كتابُ الغَيْن في مدحِ سيّد الكَوْنين (مجموعُ مدائحَ في الرسولِ مرتّبةٌ على الحروف) - رسالةٌ في السِيرة ومَوْلِدِ النبيّ - المِنْحَة في اختصارِ المُلْحة[٢]. ثمّ له قصائدُ وأراجيزُ منها: وَسيلةُ الآبِقِ) في أسماءِ الصَحابة والتابعين على ما ذَكَرَ أبو نُعيم [٣] - غايةُ المَرام في تَثْليث الكلام - في العَروض - في النحو - في المقصور والممدود - مدح المدينة.

---

(١) قال ابن حجّة الحموي (٧٦٧ - ٨٣٧ هـ) في «بديعيّة العميان» ما يلي (خزانة الأدب، مصر ١٣٠٤هـ، ص ١٢): «.... وجدتّه صرّح في براعتها (في مطلعها الذي تكون فيه براعة الاستهلال، أي الابتداء الجيّد الموافق) بمدح النبي صلّى الله عليه وسلّم.... فهذه البراعة ليس فيها إشارة تشعر بغرض الناظم وقصده، بل أطلق التصريح ونثر المدح ونشر طيب الكَلِم. فإن. قال قائل: إنّها براعة استهلال. قلت: إنّ البديعيّة لا بدّ لها من براعة (استهلال) وحسن مخلص (حسن انتقال من موضوع إلى موضوع) وحسن ختام. فإذا كان مطلع القصيدة مبنيّاً على تصريح المدح لم يبق لحسن التخلّص محلّ ولا موضع. ونظم هذه القصيدة سافل بالنسبة إلى طريق الجماعة (أصحاب البديعيّات). غير أنّ الشيخ الإمام العلّامة شهاب الدين أبا جعفر الأندلسيّ شرحها شرحاً مفيداً».

(٢) ملحة الاعراب (منظومة في النحو للمبتدئين) للحريري (ت ٥١٦).

(٣) هو أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (٣٣٦ - ٤٣٠ هـ) من حفّاظ الحديث ومن المؤرّخين لرجاله. له كتب منها: كتاب معرفة الصحاب.

٣- مختارات من آثاره

- من بديعيّة العُميان:

كافي الأرامِلِ والأيتامِ كافِلُهُمْ، وافي النَّدى لِمُوافي ذلك الحَرَمِ [١].

دَعْ عنك سَلْمى وسَلْ ما بالعقيق جَرى وأُمَّ سَلْعاً وسَلْ عن أهلِهِ القُدُمِ [٢].

من لي بدارِ كِرامٍ في البِدارِ لها عِزٌّ، فَمَنْ قَدْ لَهَا عن ذاك يُهْتَضَمِ [٣].

بانوا فهانَ دمي وَجْداً فها نَدَمي، فقد أراقَ دَمي فيما أرى قَدَمي [٤].

وحَقِّهِمْ، ما نَسِينا عهدَ حُبِّهِمُ ولا طَلَبْنا سِواهُم. لا، وحَقِّهِمِ [٥].

مَنْ لي بِمُسْتَسْلِمٍ للبِيدِ مُعْتَصِمٍ بالعِيسِ لا مُسْئِمٍ يوماً ولا سَئِمِ [٦].

ذو مِرَّةٍ فاسْتوى حتّى دَنا فرأى وقيل: سَلْ قَدَ خُيِّرتَ فاحْتَكِمِ [٧].

واسْهَرْ إذا نامَ سارٍ وامْضِ حيثُ وَنى واسمَحْ إذا شَحَّ نَفْساً واسْرِ إنْ يُقِمِ [٨].

---

(١) الوافي: الراجح، الكثير. الموافي: القادم، الواصل إلى. الحرم: المكان المحرّم، المقدّس (مكّة أو المدينة). - جناس ناقص بين: كافي وكافل ثمّ وافي وموافي.

(٢) العقيق: مرج في المدينة. بالعقيق: بالأحمر: (الدمع) الممزوج بدم. أمّ: قصد.
سلع: اسم مكان في الحجاز. - جناس تامّ مركّب (من كلمتين) بين سلمى وسل ما ثمّ بين سل عن وسلعا.

(٣) البدار: الإسراع. لها يلهو: غفل، اشتغل عن الأمر، نسي. اهتُضم: وقع عليه ظلم. - جناس تامّ: بدار (في دار) وبدار (إسراع). لها (فعل ماض)، لها (جار ومجرور).

(٤) بانوا: بعدوا، سافروا. هان: رخص، ذلّ. وجداً: اشتياقاً. ها: أداة التنبيه من هذا (اسم إشارة). - جناس تامّ مركّب أيضاً: فهان دمي، فها ندمي. ثمّ أراق دمي، أرى قدمي (أرى قدمي أراق دمي جملة قديمة معروفة، فيما أعتقد).

(٥) وحقّهم (الواو: للقسم. حقّهم: مجرور بالباء) - ردّ الإعجاز على الصدور بين «وحقّهم ما» و «لا وحقّهم».

(٦) مستسلم للبيد (جمع بيداء، أرض واسعة مقفرة): ملقٍ بنفسه غير مهتمّ بالخطر. معتصم بالعيس (النياق): معتمد على الناقة التي يركبها لتقطع به تلك المسافات الطوال. المسئم: الذي يجعل غيره يَمَلّ. السئم: الذي ملّ من طول المسير. - سجع (قافية في وسط البيت: مستسلم ومعتصم ثمّ مسئم وسئم).

(٧) مِرّة: (قوّة، أو منظر حسن). ذو قوّة: جبريل. استوى: استقرّ. دنا: اقترب. - اقتباس من القرآن ﴿ذو مِرّة فاستوى، فهو بالأفق الأعلى، ثمّ دنا فتدلّى﴾ (٥٣: ٦ - ٨، سورة النجم). - في حديث الإسراء والمعراج: وصل محمّد رسول الله مع جبريل إلى قرب عرش الرحمن.

(٨) سارٍ: سائر في الليل. ونى: كلّ وتعب. أسْرِ: (فعل أمر من أسرى (سار ليلاً). أقام: لبث، بقي في مكانه. - طباق (معان متضادّة) بين سهر ونام ثمّ آمض وونى، ثمّ اسمح وشحّ (بخل)، ثم أسر ويقم.

إلى نَبِيٍّ رأى ما لا رأى مَلَكٌ ... وقام حيثُ أمينُ الوَحْيِ لم يَقُم [١].

فابْيَضَّ بعدَ سوادٍ قلبُ مُنْتَصِرٍ، ... واسْوَدَّ بعدَ بياضٍ وَجْهُ مُنْهزمِ [٢].

يَمِّمْ نَبِيًّا تُبارى الريحَ أَنْمُلُهُ ... والمُزْنَ من كلّ هامي الوَدْقِ مُرْتَكِمِ [٣].

تَكـادُ تشهَـدُ أن اللهَ أرسلَـهُ ... إلى الورى نُطَفُ الأبناءِ في الرَّحِمِ [٤].

تُحيطُ كفّاهُ بالبحر المُحيط، فلُذْ ... بِهِ ودَعْ كلَّ طامِ الموجِ مُلْتَطِمِ [٥].

مِن أعْرَبِ العُرب، إلّا أنّ نِسبَتَه ... إلى قُرَيشٍ حُماةِ البيتِ والحَرَمِ [٦]،

لا عيبَ فيهم سوى أن لا ترى لَهُمُ ... ضيفاً يجوعُ ولا جاراً بمُهْتَضَمِ [٧].

عِيبَتْ عِداهُمْ فزانوهُمْ بأنْ تَركوا ... سَيوفَهُمْ وَهْيَ تِيجانٌ لِهامِهِمِ [٨].

تجري دِماءُ الأعادي من سُيوفِهِمُ ... مِثْلَ المواهبِ تجري من أكُفِّهِمِ [٩].

إذا بدا البدرُ تحتَ الليلِ قُلْتُ له: ... أأنتَ يا بدرُ أم مَرأى وُجُوهِهِمِ [١٠]!

---

(١) الملك (بفتح ففتح): واحد الملائكة. أمين الوحي جبريل. – طباق بالنفي: رأى ولا رأى ثمّ قام ولم يقم.

(٢) طباق: أبيض واسودّ، سواد وبياض، منتصر ومنهزم. وعكس (تعبيران أحدهما ضدّ الآخر).

(٣) يمّم: اقصد. تباري: تنافس، تسابق. أنمله: أصابعه (يده، كناية عن الكرم). المزن: المطر. هامي الودق (البرق): الماء الساقط من السحاب بعد البرق (ويكون عادة غزيراً). مرتكم: السحاب المتراكم (فيه ماء كثير). – مبالغة (لأنّ الإنسان لا يمكن أن يكون أكرم من المطر الذي هو من كرم الله!).

(٤) الورى: البشر، مجموع الناس. النطفة: ماء الرجل قبل أن ينعقد في رحم المرأة ليصبح جنيناً. – مبالغة وغلوّ.....

(٥) البحر المحيط: الأقيانوس، البحر العظيم. لاذ يلوذ: لجأ. دع: اترك (الاستقاء) من كل طامي الموج (البحر المملوء بالأمواج). ملتطم: يضرب بعض موجه بعضا. – مبالغة.

(٦) من أعرب العرب: من أنقى العرب نسباً. – تأكيد المدح بما يشبه الذمّ (انتقل هنا من مجموع العرب إلى قبيلة منهم).

(٧) مهتضم: مظلوم. – تأكيد المدح بما يشبه الذمّ (لا عيب فيهم: مدح. ضيفهم يجوع: ذمّ. ضيفهم لا يجوع: يشبه الذمّ).

(٨) الهامة: الرأس. المقصود هامهم تيجان لسيوفهم. – تأكيد الذمّ بما يشبه المدح. تزيين السيوف برؤوس الأعداء ذمّ للأعداء، ولكنّ ظاهره (زانوا، زيّنوا، تيجان) مديح.

(٩) المواهب: العطايا. – استتباع: جعل الشاعر جري المواهب من الأكفّ (وهو مجاز، استعارة) مثل جري الدماء من السيوف (وهو حقيقة).

(١٠) تجاهل العارف: هو يعرف أن الذي يراه هو بدر السماء، ولكنّه يتجاهل ذلك (وهو عارف بالحقيقة) لأنّ وجوههم أجمل من البدر.

- وقال في الذين يتّخذون الخُضْرة لِباساً للدلالة على أنّهم من نَسْلِ رسولِ الله:

جَعَلوا لأبنــاءِ الرسولِ عَلامــةً. إنّ العلامــةَ شأنُ مَنْ لَمْ يُشْهَرِ.
نورُ النُبوّةِ في كريمِ وُجوهِهِمْ يُغني الشريفَ عن الطِّرازِ الأخْضرِ.

- وله مقاطعُ منها:

★★ يا أهلَ طَيْبَةَ، في مَغْناكُمُ قَمَرٌ يَهْدي إلى كلِّ محمودٍ من الطُّرُقِ[١]:
كالغَيْث في كَرمٍ، واللَيْثِ في حَرَمٍ، والبدرِ في أُفُقٍ، والزَّهْرِ في خُلُقِ[٢]!

★★ ولمّا وَقَفْنا كي نُوَدِّعَ مَنْ نأى ولم يَبْقَ إلّا أنْ تُحَثَّ الركائبُ،
بَكَيْنـا. وحَقٌّ للمُحِبِّ إذا بكى عَشيّةَ سارتْ عن حِماه الحبائبُ.

★★ مَنَعَتْنــا قِرى الجَمال وقالــتْ: ليسَ في غيرِ زادِنا من مَجالِ[٣].
فأقَمْنــا عــلى الرِّحــالِ وقُلنــا: ما لنا حاجةٌ بِحَطِّ الرحالِ[٤]!

- وكتب تعليقاً على كتاب نسيم الصَّبا[٥] منه:

لمّا وَقَفْتُ على الفُصولِ المَوْسومةِ بنَسيم الصَّبا المرسومةِ في صَفَحات الحُسْنِ فإذا أبْصرَها اللبيبُ صَبا[٦]، انْتَعَشَ بها الخاطرُ انتعاشَ النَّبْتِ بالغَمامِ وهَمَتْ[٧] سَحائبُ بيانِها فأثْمَرَتْ حدائقَ الكلام. وأخْرَجَتْ أرضُ القَرائحِ ما فيها من النبات..... فصولٌ هي للحُسْنِ أصولٌ، وشَمولٌ لها على كلّ قلبٍ شُمول[٨]. ليس لقُدامةَ على التقدّم بها حُصولٌ[٩]، ولا لسَحْبانَ لأنْ يَسْحَبَ ذَيْلَها وُصولٌ[١٠]. ولا انتهى قَسٌّ الأياديّ لهذه

---

(١) طيبة: مدينة الرسول. قمر (كناية عن الرسول).
(٢) الليث: الأسد. حرم: المكان الذي يأوي إليه الأسد (لا يجسر أن يقترب أحد منه).
(٣) رفضتْ أن تمتّعنا بجمالها وسمحتْ بأن تقدّم لنا الطعام إذا نحن نزلنا بها ضيوفاً.
(٤) .... عندئذ بقينا على سروج خيلنا وقلنا لها: لا حاجة بنا إلى النزول ضيوفاً عليها.
(٥) «نسيم الصبا» كتاب في وصف الطبيعة والحياة الإنسانية في أسلوب أنيق مسجّع لبدر الدين أبي محمّد الحسن بن عمر بن حبيب الدمشقي الحلبي (٧١٠ - ٧٧٩ هـ).
(٦) اللبيب: العاقل. صبا: مال، اشتاق.
(٧) همى المطر يهمي: انهمر، سقط غزيراً.
(٨) الشَّمول: الخمر الباردة. الشُّمول (مصدر): عموم، إحاطة.
(٩) قدامة بن جعفر البغدادي (ت ٣٢٧) كاتب بليغ له كتاب «نقد الشعر».
(١٠) سحبان وائل (ت ٥٤) خطيب مخضرم (عاش في الجاهلية وفي الإسلام) مشهور بالفصاحة.

الأيادي [1]، ولا ظَفِرَ بديعُ الزمانِ [2] بهذهِ البدائعِ الحِسان........

- لاَبنِ جابرِ الوادي آشيٍّ الضريرِ مقصورةٌ نلمَحُ في نَفَسِها شيئاً من مقصورة آبنِ دُريدٍ (ت ٣٢١ هـ)، ولكنّها في بنائها مُعَشّراتٌ (كلٌّ مقطعٍ منها عَشْرَةُ أبياتٍ). وفي قوافيها خاصّةٌ هي: جميعُ أبياتها مختومةٌ بألفٍ مقصورةٍ ثمّ كلّ مَقْطَعٍ من عَشْرةِ أبياتٍ مبنيٌّ على رَوِيٍّ (قبلَ الألفِ المقصورة) هو أحدُ أحرُفِ الهجاء على التوالي: الهمزةُ، الباءُ، التاءُ، الثاءُ الخ، كما سنرى. ولكنّ المقطعَ الذي على رَوِيٍّ الغينِ المنقوطة سبعةُ أبياتٍ فقط. ثمّ تأتي ثلاثةُ مقاطعَ، بعدَ المقطع الذي على روَيٍّ الياءِ، والذي يجب أن يكونَ المقطعَ الأخيرَ، أوّلُها أربعةُ أبياتٍ على رويٍّ اللامِ وثانيها تسعةُ أبياتٍ على رويٍّ الراءِ ثم مقطعٌ من سبعةِ أبياتٍ على رويّ الدالِ. ومجموعُ أبياتِ هذه المقصورة مِائَتانِ وسبعةٌ وسبعونَ.

والموضوع الغالبْ على هذهِ المقصورةِ «مدحُ الرسول»، وإنْ كان فيها أشياءُ من الغَزَل والأدَب (الحِكمة) والتاريخ. راجعْ بناء القوافي في المُختارات اليسيرة التالية (نفح الطيب ٧ : ٣٠٦ - ٣٢٣):

بادَرَ قلبي للهوى وما آرتأى ... لمّا رأى من حُسْنِها ما قد رأى.
فقرّبَ الوَجْدُ لقلبي حُبَّها، ... وكان قلبي قبلَ هذا قد نأى....
يا رُبَّ ليلٍ قد تعاطَيْنا به ... حديثَ أُنْسٍ مثلَ أزهارِ الرُّبى
في روضةٍ تعانقتْ أغصانُها، ... إذ واصلتْ ما بَيْنَها ريحُ الصَّبا؛
أيامَ كان العيشُ غضًّا حُسْنُه ... عَذْبَ الجَنى رَيّانَ من ماء الصِّبا....
تاللهِ، لا أعيا بعيشٍ قد مضى، ... ولا زمانٍ قد تعدّى وعَتا [4]،
مُذْ عَلِقَتْ كَفِّيَ بالهادي الذي ... سادَ الورى طِفْلاً وكَهْلاً وفتى.
إنّ رسولَ الله مِصباحُ هُدًى ... يُهْدى به مَنْ في دُجى الليل مَتا [3]....

---

(١) قسّ بن ساعدة الأيادي (ت٢٢ قبل الهجرة) خطيب جاهلي مشهور. الأيادي: النعم والعطايا.

(٢) بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ) مؤسّس فنّ المقامات.

(٣) عتا: ظلم وتجبّر.

(٤) متا: مشى وأسرع.

إنْ تحسبِ الرُّسْلَ سماءً قد بدَتْ، فإنّـه في أُفقِها نجمُ هُدَى.
واسطةُ القومِ إذا ما نُظِموا، وملْجأ القومِ إذا الخَطْب عَدا.....
يا مُجْتبىً من خير قومٍ حَسَباً فيما أتى من زَمَنٍ وما مضى،
آختارَك اللهُ رسولاً هادياً. أكرمْ بما آختارَ لنا وما آرتضى.
عَجِبْتُ للأيامِ: مَن عَزَّ بها ذلّ، ومَنْ يضحَكْ بها يوماً بكى.
وكم صريعٍ غادرتْ ليسَ له مِنْ ملجأٍ يوماً ولا من مُشْتَكى.
عَدَتْ على نفس عَدِيّ، وسقتْ منها آبْنَ حُجْرٍ كأسَ سُمٍّ كالذَّكا[1]....
لم يأمنِ المأمونُ من صَوْلَتِها، ولا آبْنُ هندٍ من عواديها خَلا[2].
وغالتِ الزبّاءَ في مِنعتها فأظفرتْ عمْراً بها فما ألا[3].
وأهلكتْ عاداً وأفنَتْ جُرْهُماً وزوّدتْ منها تميماً بالصَّلى[4].....
والآنَ قد أكمَلْتُها في مدحِهِ مقصورةً يقصُرُ عنها مَنْ خلا[5].
ضمّنتُها من كلِّ فنٍّ دُرَراً نظْماً، فأضحتْ من نَفِيساتِ الحُلى.
حَلَّيْتُها جيدَ مَعاليهِ، وما أملحَ حَلْيَ المَدْحِ في جيدِ العُلا!

٤- بديعيّة العميان أو الحلّة السيرا في مدح خير الورى (عني بنشرها عبد الله مخلص) القاهرة (المطبعة السلفية ومكتبتها) ١٣٤٧ هـ؛ (طبعت مع: سبيل الرشاد إلى نفع العباد لأحمد عبد المنعم الدمنهوري) مصر ١٣٠٥ هـ.

★★ خزانة الأدب لابن حجّة الحموي (مصر ١٣٠٤ هـ، ص ١٢)؛ نكت الهميان ٢٤٤-٢٤٦؛ الوافي بالوفيات ٢: ١٥٧-١٥٨؛ فوات الوفيات ٢: ٦٨-٧٣؛

---

(١) عديّ بن زيد قتله النعمان بن المنذر في الجاهلية. ابن حجر: امرؤ القيس. الذكا: اتّقاد النار واشتداد لهيبها.

(٢) المأمون العباسي (؟). ابن هند: معاوية بن أبي سفيان.

(٣) الزبّاء ملكة عربية (في الجاهلية) حاصرها عمرو بن عديّ ليقتلها (في حديث طويل) فانتحرت بالسمّ مختارة.

(٤) عاد وجرهم من القبائل الجاهلية البائدة (التي انقرضت). كان النعمان قد أحرق جماعة من بني تميم بالنار.

(٥) في هذا البيت ما يدلّ على أن ابن جابر قد أراد مدح أحد معاصريه بهذه المقصورة.

؛ بغية الوعاة ١٤ ، راجع ١٧٦ ؛ نفح الطيب ١ : ٣٨ ، ٢ : ٣٨٧ ، ٦٦٤ - ٦٧٥ (مع شيء من الاستطراد)، ٦٨٠ - ٦٩٠ ، ٤ : ٣٢٠ - ٣٢١ ، ٥ : ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٤٧١ ، ٦٠٤ ، ٦ ، ٦ : ١٧٢ ، ٢١٣ ، ٧ : ٣٠٢ - ٣٢٦ ، ثمّ معارضات له ٣٣٧ - ٣٣٩ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ - ٣٧١ ؛ شذرات الذهب ٦ : ٣٦٨ ؛ دائرة المعارف الإسلامية بروكلمن ٢ : ١٤ - ١٥ ، الملحق ٢ : ٦ ؛ سركيس ٦٠ - ٦١ ؛ الداية ٥٣٧ - ٥٣٩ ؛ الأعلام للزركلي ٦ : ٢٢٥ - (٥ : ٣٢٨).

محمّد بن يوسف الثغري التلمسانيّ

١ - هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ يوسفَ القيسيُّ الثَّغْريُّ، وُلِدَ في تِلِمْسانَ ونشأ فيها . وقد أدرك دولةَ بني زيّانَ في دَوْرِها الأولِ ودورها الثاني، وكان وثيقَ الصِّلة بِبَلاطَيْها: ألقى قصيدةً في المَوْلِدِ النَّبَوِيِّ الشريفِ (٧١٧ هـ = ٩/١٠/١٣٦٩ م)[1]، في عهدِ أبي حمّو موسى الأولِ بنِ عُثمانَ (من سلاطين الدور الأوّل) ثمّ كان من شُعراءِ أبي حمّو موسى الثاني بن يوسفَ (٧٦٠-٧٩١ م) من سلاطين الدورِ الثاني. فإذا نحن قَبِلنا هاتَيْنِ الروايتَيْنِ، وَجَبَ أن يكونْ محمّدٌ الثَّغْري هذا قد عاش مُدّةً طويلةً جِدًّا، وأنْ يكونَ قَدْ وُلِدَ سَنَةَ ٦٩٠ هـ (إذا نحن فَرَضْنا أن يكونَ قد ألقى قصيدَتَهُ تلك وعُمْرُهُ خمسٌ وعِشرون سَنَةً فقط). ثمّ لا يجوزُ أن يكونَ قد أدْرَكَ أحداً بعدَ أبي حمّو الثاني.

وتقَعُ وَفاةَ محمّدِ بنِ يوسفَ الثّغريَّ في أواخرِ القرنِ الثامن، نحوَ سَنَةَ ٧٨٠ للهِجرة (١٣٧٨ م) في الأغلب.

٢ - كان محمّدُ بنُ يوسفَ الثغريُّ أديباً عارفاً بفنون الأدبِ ناثراً شاعراً. وفنونُه المدحُ والرثاءُ والوصف والشِّعْرُ الدينيّ. وكانتْ بينَه وبينَ لِسانِ الدين بنِ الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) مُراسلاتٌ.

---

(١) تاريخ الجزائر العام ٢ : ١٩٩ ؛ الطمّار ١٧٧ . ومن غير المألوف أن يكون قد أدرك أبا زيّان (٧٩٦ - ٨٠١ هـ) ثمّ عاش بعده، كما يقول عبد الحميد حاجيّات (الأصالة ٤ : ٢٦ ص ١٥٠).

٣- مختارات من شعره

- قال محمّدُ بنُ يوسفَ الثغريُّ في الشيب وحالِ الدنيا:

أقْصِرْ فإنّ نذيرَ الشيبِ وافاني، وأنكرَتْني الغواني بعد عِرفانِ[١].
وقد تمادَيْتَ في غيٍّ بلا رشَدٍ؛ والنفس تأمُرُني والشيبُ ينهاني.
كم من خُطًى، في الخطايا، قد خطَوْتَ ولم تراقبِ اللهَ في سِرٍّ وإعلان[٢].
فلا تَغُرَّنّكَ الدُنيا بزُخْرُفِها، فيا ندامةَ مَنْ يغترُّ بالفاني!

- حَفِظَ أبو زيّانَ محمّدُ (وَلَدُ أبي حمّو موسى الثاني) سُورة البَقَرةِ[٣] فأقامَ أبو حمّو حَفْلاً لهذهِ المناسبةِ فأنشد الثَّغْريُّ قصيدةً في مَدْحِ آلِ زَيّانَ، منها:

تهلّلَ وجهُ الرَّوْضِ وابتسمَ الزَّهْرُ وغارتْ به في أُفقِها الأنجُمُ الزُّهْرُ[٤].
وضاحكتِ الأرضُ السماءَ مَسرّةً وقابَلَها من كلّ رَيْحانةٍ ثغرُ[٥].
ومالتْ قُدودُ القُضْبِ زَهْواً كأنّها نَشاوى تَمَشَّتْ في معاطِفِها الخمر[٦].
وغنّتْ قِيانُ الوُرْقِ خَلْفَ سُتورها، وللوُرْقِ أن غنّتْ بأوْراقِها سِتر[٧].
لِمَوْلايَ موسى أبدتِ الأرضُ زِينَةً فَتَوَّجَها زهرٌ ووَشّحها نهرُ[٨].
وقد رَفَلَتْ في حُلّةٍ سُنْدُسِيّة وَشاها الصَّبا وشْياً ودَبّجَها القَطْرُ[٩].

---

(١) في البيت تجريد (يجردّ الشاعر من نفسه شخصاً يخاطبه). بعد عرفان (بعد معرفة منها بمكانتي أيام شبابي).
(٢) لم تراقب الله: لم تخف الله (لم تشعر، وأنت ترتكب الذنوب، أن الله يراك).
(٣) السورة الثانية في المصحف وأطول سور القرآن الكريم (مائتان وستّ وثمانون آية).
(٤) المقصود: غارت منه (من الغيرة والغبطة والحسد). الزهر: اللامعة الشديدة اللمعان.
(٥) كل زهرة متفتّحة كانت كأنّها ثغر يبتسم لتلك المناسبة.
(٦) القضب جمع قضيب: الغصن. زهواً: عجباً بالنفس. النشوان: شارب الخمر.
(٧) القينة (بفتح القاف): المرأة الحسناء المغنّية. الورق جمع ورقاء: الحمامة. (بأوراق الأشجار التي تغنّي فيها).- نسمع الحمائم تغنّي على الأغصان ولا نراها (لأنّ أوراق الأغصان تحجبها).
(٨) ....- في أعلاها (على الأشجار) أزهار، وفي أسفلها (على الأرض) نهر جار.
(٩) رفل: لبس ثوباً ضافياً (واسعاً) جيلاً وتبختر به في المشي. سندس: حرير أخضر. وشاها: طرّزها، زيّنها. الصبا (بالكسر: الشباب) الربيع الجديد. الصبا (بالفتح: الريح الشرقية): تموج فيها فتحدث في نباتها تموّجات مختلفة. دبّجها جعل نباتها كالديباج (النبات الأخضر). القطر: المطر.

وإنّ أبـا زيّـانَ زَيْنٌ لِذاتـهِ، زكا منه نَجْلٌ حين طاب له نَجْرُ[1].
وقـد حَذِقَ القرآن حِذْقَ مَجَوِّدٍ، فأشرقَ منه القلبُ وانشرح الصدر[2].
فيـا مَلِكـاً فاضـتْ أشِعـةُ نوره فأشرَقَ منهـا للعُـلى أنجُمٌ زُهْرُ.
هنيئاً، لكَ البُشرى، بَنَيْتَ بِهَدْيِهِمْ من الدينِ أركاناً يُهَدَّ بها الكُفْرُ[3].
بهم تزدهي الأعلامُ والبِيض والقَنا كما ازدهتِ الأقلامُ واللَّوْحُ والحِبْرُ[4].
جَمَعتُمْ لـدى القَصْرينِ كلَّ فضيلةٍ سما لَكُمُ في الخافقَيْنِ بهـا ذِكْر:
مآثرَ شتىّ من قِرًى وقِراءةٍ تضمّن منها كلَّ مأثُرَةٍ قَصْرُ[5].
فمن صَدَقـاتٍ غـارَ من جُودِهـا الحَيـا،
وفيـضِ هِبـاتٍ غـاضَ من جودِهـا البحر[6].
دَعَوْتُمْ إليهـا كـلَّ بـادٍ وحاضرٍ فلبَّوْا كأنّ الناس ضَمَّهُمُ الحَشْر[7].
كـأن الثُريّـا نَحْوَكُمْ مُـدَّ كَفُّهـا، فَمِنْ نَيْلِكُم في كَفِّها وَرِقٌ وَفْرُ[8].
مكـارِمُ لا تَنفـكُّ تزدادُ جِـدّةً على الدهرِ لا تَبْلى وإن بَلِيَ الدهر.
فدامـتْ بـكَ الأيّامُ تُظهِرُ حُسْنَها فيَحْسُنُ في أوصافِها النَظْمُ والنثر!

٤-★★ نفح الطيب ٧: ١٢١ وما بعد، راجع ٦: ٤٢٧ وما بعد؛ تاريخ الجزائر العامّ ٢: ١٩٩-٢٠٠؛ الطمّار ١٧٧-١٨٥؛ معجم أعلام الجزائر ١٨٨-١٨٩؛ الأصالة ٤: ٢٦، ص ١٥٠.

---

(١) زكا: طاب، طهر. نجل: ابن. نجر: أصل.

(٢) حذق: مهر، برع. التجويد: إعطاء الحروف حقّها في المخارج ومن المدود.

(٣) الهدي (بفتح فسكون) والهدى (بالضم) بمعنى.

(٤) الأعلام والبيض (السيوف) والقنا (الرماح) كناية عن الحرب والشجاعة. والأقلام إلخ كناية عن العلم.

(٥) المأثرة: العمل النبيل الكريم. القرى: الضيافة والكرم.

(٦) الحيا: المطر. غار من جودها الحيا (نفد المطر). غاض الماء: ذهب في باطن الأرض.- لو كانت عطاياكم من ماء المطر ومياه البحار لنفدت (بفتح النون وكسر الفاء) تلك المياه.

(٧) البادي: الساكن في البادية. الحاضر: الساكن في المدينة (جميع الناس). الحشر: يوم القيامة.

(٨) النيل: العطاء. الورق (بفتح فكسر): الفضة. وفر: كثير. الثريّا مجموع نجوم يشبه الكفّ في رأي العين.- كأن الثريّا كفّ تمتدّ طلباً لعطائكم، فكأنّ جميع نجومها (البيض الشبيهة بالفضّة) من عطاياكم.

يحيى بن خلدون

١ - هو أبو زكريّا يحيى بنُ محمدِ بنِ محمدِ بنِ الحسنِ بنِ خلدونٍ الحَضْرميُّ، وُلِدَ في تونسَ سَنَةَ ٧٣٣ (١١٣٢ - ١١٣٣ م) أو ٧٣٤. وفيها نشأ وتلقّى العِلْم على نَفَرٍ منهم عبدُ المهيمن الحضرميّ (ت ٧٤٩ هـ) وأبو عبد اللهِ محمدُ بنُ إبراهيمَ الآبليُّ (ت ٧٥٧ هـ) والحافظُ أبو عبد الله السطّيّ (ت ٧٥٠ هـ) وسواهم مِنَ الذين دَرَسَ عليهم أخوه عبدُ الرحمن بنُ خلدونٍ (ت ٨٠٨ هـ).

تقلّبتِ الأحوالُ بيحيى بنِ خَلْدونٍ كثيراً لأنّه كان مُتَقَلِّبَ الهوى في السِّياسة تنقلُهُ مصلحتُه الشخصيةُ بين الحَفصيّين في تُونسَ والمَرينيّينَ في فاسَ وبني عبدِ الواد في تِلمْسانَ. وكان قد تولّى للحَفْصيّين في بِجايَة (وهي اليومَ من الجزائر) مناصِبَ عاديّة. وحاول أبو حمّو الثاني (من بني عبدِ الوادِ أصحابِ تلمسانَ) أن يستوليَ على بِجايَة - في حديثٍ طويلٍ - فلم يستطع. فلمّا عاد الحفصيّون إلى بَسْطِ سُلطانهم على بِجاية اعتقلوا يحيى بنَ خَلْدونٍ (لِشكِّهم في وَلائه). ولكنه هَرَبَ ووَصَلَ إلى تلمسانَ سَنَةَ ٧٦٩ (١٣٦٧ - ١٣٦٨ م) فعَيّنه أبو حمّو (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) كاتباً للإنشاء بعدَ توصيةٍ من أخيهِ عبدِ الرحمنِ بنِ خَلْدونٍ (ت ٨٠٨ هـ).

ثمّ إنّ يحيى انحاز إلى المَرينيّين وَشيكاً (سَنَةَ ٧٧٢)، ومالأهم مُمالَئَةً استطاعوا أن يُهَدِّدوا بها تلمسانَ. وبِرُغْمِ ذلك رَضِيَ أبو حمّو على يحيى وأعاده إلى مَنْصِبه. ولكنّ ذلك أثارَ غَيْظَ أبي تاشفينَ (ابن أبي حمّو الثاني) فدبّر مقتل يحيى في رَمَضَانَ من سَنَةِ ٧٨٠ (يبدأ رمضانُ هذا في ١٣٧٨/١٢/٢٢ م).

٢ - كان يحيى بنُ خَلْدونٍ رجلَ سياسةٍ ومؤرّخاً كما كان ميّالاً إلى الأدبِ والشِّعر يَنْظِمُ في المديح والوصف، ولم يكنْ نظمُه عالياً. وله ميلاديّات (في مدح الرسول) يَسْتَطْرِدُ فيها أحياناً إلى المدح. وشُهرتُه قائمةٌ على كتابه الذي وَصَلَ إلينا وعُنوانُه في لفظ يحيى بنِ خلدون « ... وسمّيتُه بغيةَ الرُّوّاد في ذِكْرِ الملوك من بني عبدِ الوادِ وما حازَه مولانا أبو حَمّو من الشرف الشاهقِ الأطوادِ.... »، وقد ألّفه بطلبٍ من أبي حمّو نفسِه وانتهى في تأليفه إلى سَنَةِ ٧٧٧ (١٣٧٥ م). وقيمةُ الكتاب تقومُ على توَفُّرِه على

عهدِ أبي حمّو الثاني ثمّ فيه صورةٌ لِبلاطِ تِلِمْسانَ في ذلك العهد وقصائدُ كثيرةٌ تامّةٌ لشعراءِ ذلك العصر. فقيمة الكتاب تاريخيّةٌ واجتماعيةٌ وأدبية معاً.

٣- مختارات من آثاره

- نَظَمَ يحيى بنُ خَلْدونٍ في مَوْلِدِ سَنَةِ ٧٧٨[١] قصيدةً حذا فيها حَذْوَ لِسانِ الدين آبن الخطيب في مَوْلِديّةٍ له[٢] ثمّ اسْتَطْرَدَ فيها إلى مدحِ السُلطان أبي حمّو. قالَ يحيى بنُ خَلدونٍ (نفح الطيب ٦: ٥١٠-٥١٣):

ما على الصَّبِّ في الهوى من جُناحِ … أن يُرى حِلْفَ عَبرةٍ وافتضاحِ[٣].

يا رعى الله بالُمحَصّبِ رَبْعاً … آذَنَتْ عِنْدَه النَّوى بانْتزاحِ[٤].

نسألُ الدارَ بالخَليطِ وَنسْقي … ذلك الرَّبْعَ بالدُموع السفاحِ[٥].

يا أُهَيْلَ الحِمى، نداءَ مَشُوقٍ … ما له عن هوى الدُّمى من بَراحِ[٦].

طالَما استعذَبَ المدامِعَ وِرْداً … في هواكم عن كلّ عذب قَراحِ[٧]

واخَساري يومَ القيامة إنْ لم … يَغفِرِ اللهُ ذَلّتي واجتراحي[٨].

---

(١) يقع مولد محمّد رسول الله في الثاني عشر من شهر ربيع الأول (الشهر الثالث في التقويم القمري الهجري). وذكرى مولده سنة ٧٧٨ يوافق ١٣٧٦/٧/٣٠ م.

(٢) للسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦ هـ) مولدية مطلعها (نفح الطيب ٦: ٥٠٩):

ما على القلب بعدكم من جُناح … أن يرى طائراً بغير جَناح

الجناح الأولى، (بضمّ الجيم: الذنب والإثم) والجناح الثانية (بفتح الجيم: أحد جناحي الطائر).

(٣) الصب: المحبّ. حلف (حليف) عبرة (دمعة: دائم البكاء).

(٤) المحصّب: مكان رمي الجمرات في الحجّ (منسك من مناسك الحجّ) الربع: المنزل المعمور المسكون. آذن: نادى وأعلن عن عزمه، قارب. النوى: البعاد، الفراق. انتزاح: ابتعاد (حينما وصلنا إلى مكّة شعرنا بأننا أصبحنا قريبين من غايتنا).

(٥) الخليط: الساكن مع آخرين. نسأل به: نسأل عنه. السفاح ليست في القاموس في المعنى المقصود (المقصود: المسفوحة، الهاطلة بكثرة). وفي القاموس: بينهم سفاح (بكسر السين): سفك دماء.

(٦) أهيل الحمى (كناية عن أهل مكّة). الدمى (النساء الجميلات) البراح: المبارحة، الترك، التخلّي عن الأشياء.

(٧) الورد (بكسر الواو): الشرب. القراح: الخالص، الصافي.

(٨) الاجتراح: ارتكاب الذنوب (العظيمة).

لم أُقَــدِّمْ وسيـنـلـةً فيــه إلّا حُبَّ خيرِ الورى الشفيعِ الماحي[1]

سيّــدِ العالمــينَ دُنْيــا وأُخرى أشرفِ الخَلْـق في العُلا والسَّماح

سيّــدِ الكَوْنِ من سماءٍ وأرضٍ سِرُّهُ بــينَ غايــةٍ وافْتِتــاح[2].

زهرةُ الغيْــبِ مظهرُ الوحي مَعْنــى الـ ـنورِ كُنْـهُ المِشكـاةِ والمِصباح[3].

آيــةُ المَكْرُمــات قُطــبُ المعـالي مُصطفى اللهِ من قُريشِ البِطاح[4].

أوّلُ الأنْبيــاء تخصيــصَ زُلْفى، آخرُ المُرْسَلـين بَعْثَ نَجاح[5].

مَنْ لِميــلادِهِ بِمَـكّـةَ ضــاءتْ من قُرى قَيْصرٍ جميعُ الضواحي[6].

وخَبَــتْ نــارُ فــارسٍ وتداعتْ من مَشيدِ الإيوانِ كُلُّ النواحي[7].

من رَقي في السماءِ سَبْعاً طِباقاً ورآى آيَ رَبّــهِ في اتّضــاح[8].

ودنــا منــه قــابَ قوسَيْنِ قُرْبــاً ظافراً في العُلا بكل اقتراح[9].

---

(١) فيه (في يوم القيامة). خير الورى (محمّد رسول الله) ومن أسمائه الشفيع والماحي.

(٢) .... كان موجوداً في الافتتاح (عند خلق العالم) وسيظل موجوداً عند فناء العالم. راجع البيت الذي سيأتي: أول الأنبياء...

(٣) الكنه: جوهر الشيء وحقيقته والغاية منه. المشكاة: تجويف في الجدار يوضع فيه المصباح. يبدو أن الشاعر يشير هنا إلى الآية الكريمة (٢٤: ٣٥، النور): ﴿الله نور السموات والأرض: مثل نوره كمشكاة فيها مصباح...﴾ (.... إنّ الله اختار محمّداً رسولاً ليدلّ الناس على آيات الله وحكمته وعظمته).

(٤) المصطفى (المختار) من أسماء الرسول. قريش البطاح (بطحاء مكّة: وسطها) كانوا أقوى وأشرف من قريش الظواهر (الذين كانوا يسكنون خارج مكّة). وقريش كانوا أشرف العرب.

(٥) .... أوّل الأنبياء الذين أراد الله أن يرسلهم إلى خلقه ولكن آخر من بعثه منهم بالرسالة الأخيرة التامّة.

(٦) في الخبر أنّه في ليلة ميلاد الرسول أضاءت الأرض ما بين المشرق والمغرب، ورؤي هذا النور في مكّة. قيصر: لقب ملك الروم (اليونان).

(٧) خبا: خمد، انطفأ. أهل فارس كانوا يعبدون النار، وكانوا يحرصون على أن تظلّ تلك النار المعبودة في الهيكل تامة الاتّقاد. وقد خبت هذه النار في ليلة مولد الرسول. تداعى: تساقط وتهدّم. المشيد: المبني. الإيوان: قصر كسرى. في الخبر وفي التاريخ أن زلزالاً حدث في بلاد فارس، وفي نحو مولد الرسول، وأن عدداً من القصور تهدّم.

(٨) سبعاً (السموات السبع- مفعول به) طباقاً: بعضها فوق بعض- طباقاً- نعت «سبعاً» أو بَدَلٌ منها: أعماق السماء.- رأى عجائب خلق الله بوضوح.

(٩) قاب قوسين: قابَيْ قوس (مسافة ما بين طرفي القوس: إلى مقربة شديدة).

مَنْ هَدَى الخلقَ بينَ حُمْرٍ وسودٍ … وجَـلا ليـلَ غَيِّهم بالصبـاح[1].

مَنْ إلى حَوْضِــهِ وظِـلِّ لِواهُ … يلجأ الناسُ بين ظامٍ وضاحي[2]:

أحمدُ المُجْتَـبي حَبيباً، وإنّي … فوقَ عِزِّ الحَبيبِ مَرْمى طِماحي[3].

في أناجيلـهِ المسيـحُ تَـلاه … باسْمِـه، والكلـيمُ في الألواح[4].

يا رُواةَ القصيدِ والشِّعرِ عَجْزاً، … مـا عَسى تُدْرِكونَ بالأمْداح[5]؟

إنّما حَسْبُنـا الصـلاةُ عليـه، … وَهْيَ للفَوْزِ آيـةُ استِفْتـاح.

يـا إلّهي، بِحَـقّ أحمدَ، عَفْواً … عن ذنوبٍ جَنَيْتُهُنَّ قِبـاح.

وأدِمْ دولـةَ الخليفـةِ موسى … ذي المعـالي المُبِيـنَـةِ الأوْضـاح،

ناصرِ الحقِّ خاذلِ الظُّلم عَدْلاً … ملجـأُ الخائفـين بَحْرُ السَّماح.

يَتَلَقّـى النَّـدى بوجـهِ حَيِيٍّ … ويُلاقي العِدا ببأسٍ صِفاح[6].

يـا إمامـاً بَـذّ الملوكَ جـلالاً … وجمالاً، فُديـتَ بـالأرواح[7].

أنـتَ شمسُ الكمالِ دُمْت عليها … باغتبـاقٍ من المُنـى واصطِباح[8].

وأبو تاشِفـينَ بـدرٌ منـيرٌ … زانَـه اللهُ بالخِـلالِ الصِّبـاح[9].

وبكُمْ زُيِّنَـتْ سماءُ المعـالي … واهتدى الناسُ في الدُّجى والصَّباح.

---

(١) الحمر (جمع أحمر): العجم. السود: العرب. جلا: كشف. الغيّ: الضلال.

(٢) الحوض (للسقيا) واللواء (للظل) يوم القيامة. الظامىء: العطشان. الضاحي: الذي أصابه حرّ الشمس.

(٣) أحمد (من أسماء الرسول) المجتبى: المقرّب. حبيباً (أي حبيباً لله). طماحي (أملي) كبير جدًّا لأنّني مذنب كثيراً (فأملي في شفاعة الرسول لي على مقدار ذنبي وفوق ما أستحقّ).

(٤) الهاء في «أناجيله» راجعة إلى ما بعدها (الى المسيح). تلاه: قرأه، ذكره. الكليم: موسى. الألواح العشرة (الوصايا العشر) التي أوحى الله بها إلى موسى على جبل الطور. (لقد ذكر في التوراة وفي الإنجيل أن محّداً صلّى الله عليه وسلم سيبعث نبياً).

(٥) أيّها الشعراء الذين تحاولون مدح الرسول بالقصائد فتعجزون.

(٦) – أبو حمّو الثاني يعطي كثيراً، ومع ذلك يستحي من الذين يعطيهم لأنّه يودّ دائماً أن يعطيهم أكثر. البأس: القوة. الصفاح جمع صفيحة: الحجر العريض، السيوف (؟).

(٧) بذّ: غلب، سبق، فاق.

(٨) الاغتباق والاصطباح (في الأصل): شرب الخمر مساءً وصباحاً. (هنا): صباحاً ومساءً (دائماً).

(٩) أبو تاشفين: ابن أبي حمّو الثاني. الخلال: الصفات. الصباح: البيضاء (الجميلة).

- وصف تلمسان من كتاب « بغية الروّاد » (نفح الطيب ٧: ١٣٣ - ١٣٥):

ودارُ مُلكِهم وَسَطٌ بينَ الصحراء والتَّلِّ[١]، تُسمّى بلغةِ البربر تلمسن - كلمةً مركّبةً من « تلم » ومعناه تَجمُّع، و« سن » ومعناه اثنان: أيِ الصحراءِ والتلِّ، فيما ذَكَرَه شيخُنا العلّامةُ أبو عبد الله الآبليّ، رَحِمَهُ اللهُ تعالى، وكان حافظاً بلسانِ القوم[٢] - ويُقالُ « تلمشان »، وَهُوَ أيضاً مركّبٌ من « تلم » ومعناه لها، و« شان »: أي لها شأنٌ. وهِيَ مدينةٌ عريقةٌ[٣] في التمدُّنِ لذيذةُ الهواءِ عَذْبةُ الماء كريمةُ المَنْبِتِ اقْتَعَدَتْ بِسَفْحِ جَبَلٍ، ودُوَينَ رأسِهِ بسيطٌ أطولُ من شرقٍ إلى غرب[٤]، عروساً فوق مَنَصّةٍ، والشماريخُ مُشرفةٌ[٥] عليها إشرافَ التاج على الجبين. ويُطِلُّ منها على فَحْصٍ أفْيح[٦] مُعَدٌّ للفِلاحة تَشُقُّ ظُهورَه الأسْلِحَة على مِثْلِ أسنِمَةِ المَهاري[٧].... وبها للملك قصورٌ زاهراتٌ اشتملتْ على المصانع الفائقةِ والصُّروح الشاهقة والبساتينِ الرائقة مِمّا زُخْرِفَتْ عُروشُه ونُمِّقَتْ غُروسه ونُوسبت أطوالُه وعُروضه. فأزْرى بالخَوَرْنَقِ وأخْجَلَ الرُّصافة وعَبَثَ بالسَّدير[٩]. وتنصبّ إليها من عَلٍ أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ تتجاذَبُه

---

(١) دار ملكهم: عاصمتهم (تلمسان): التل: الجبل.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الآبلي التلمساني أندلسيّ الأصل من آبلة (أبيلة: أفيله، إلى الشمال الغربي من مدريد). كان شيخاً (أستاذاً) كبيراً تلقّى العلم عليه يحيى بن خلدون وأخوه عبد الرحمن المشهور وغيرهما كثير. القوم: البربر.

(٣) عريقة: قديمة.

(٤) دوين (تحت ولكن بمسافة قصيرة) بسيط (أرض منبسطة مستوية) أطول من شرق إلى غرب: طولها من الشرق إلى الغرب أكثر من طولها من الشمال إلى الجنوب.

(٥) المنصّة: المنضدة (المكان المرتفع). الشمراخ: رأس الجبل.

(٦) الفحص: كلّ موضع يسكن (سهل). أفيح: واسع.

(٧) الأسلحة جمع سلاح (هنا): مكان مسلّح، حصن! السنام: كتلة شحم على ظهر الجمل (قبة). المهاري (جمع) الإبل المهرية (من مهرة - بفتح ففتح - في اليمن).

(٨) المصنع: حوض للماء، والمصنع أيضاً القصر والحصن. الصرح: البناء العالي. الرائق: الذي يعجب العين.

(٩) زخرف: زيّن. العرش (هنا): المظلّة (السقف من أغصان الشجر). نمّق: نقش (بالألوان)، زيّن. الغرس: الشجر (!).

(١٠) أزرى: عاب، أظهر نقص الأشياء التي تقارن به. عبث (هزىء، استخفّ). الخورنق والسدير والرصافة قصور. والرصافة خاصّة أسماء لمدن ثمّ قلعة للاسماعيليّين.

أيْدي المذانبِ والأسرابُ المكفورةُ خلالها[1]. ثم تُرْسِله بالمساجدِ والمدارس والسقايات بالقصور[2]، وعليه الدورُ والحَمّامات فيُفْعِمُ الصهاريجَ ويُفْهِقُ الحِياضَ ويَسْقي رَيْعُه[3] خارجَها مغارسَ الشجر ومنابتَ الحبّ. فهِيَ التي سَحَرتِ الألبابَ رُواءً وأصْبَتِ النُّهى[4] جَمالاً ووَجَدَ المادحون فيها المَقالَ فأطالوا وأطابوا... فأنا أُنْشِدُ ساكنَها قولَ ابن خَفاجةَ[5] لاستحقاقها إياه عِندي:

ما جَنّةُ الخُلد إلّا في منازِلكُمْ؛ وهذه كُنْتُ، لو خُيِّرْتُ، أختارُ.
لا تَتّقوا بعدَها أن تدخُلوا سَقَراً، فليس تُدْخَلُ بعدَ الجنةِ النارُ[6]!

وتوسّطت قُطْراً ذا كُوَرٍ عديدةٍ تعمُرُها أمْشاجُ[7] البربرِ والعرب، مَرِيعةِ الجَنَباتِ مُنْجِبَةٍ للحَيَوانِ والنبات[8]، كريمةِ الفِلاحة زاكيةِ الإصابة. فربّما انتهت في الزوج الواحد إلى أربعمائة مدّ كبير[9].....

٤- بغية الروّاد (نشرة ألفرد بل)، الجزائر (مطبعة بيير فونتانه) ١٣٢١ هـ وما بعد=١٩٠٣-١٩١٣ م.

★★ نفح الطيب، راجع ٦: ٣٨٩-٣٩٩، ٥١٠-٥١٣، ٥١٥-٥١٧، ٧: ١٣٣-١٣٥؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٨٣١-٨٣٢ (تحليل جيد للكتاب: بغية الرواد)؛ بروكلمن ٢: ٣١٢-٣١٣، الملحق ٢: ٣٤٠؛ الأعلام للزركلي ٩: ٢١١ (٨: ١٦٦)؛ الفكر ١٢/٦٠

---

(١) عَلُ (بفتح العين) تكون معرفة ومبنيّة على الضمّ بمعنى: «من المكان العالي». وتكون نكرة ومعربه بمعنى «من مكانٍ عالٍ»، أيّ مكان كان. آسن: متغيّر الطعم، فاسد.
المذنب (بكسر فسكون ففتح): مسيل الماء من جانب النهر. المسرب (بفتح فسكون ففتح): ممّر الماء أو الحية، إلخ. المكفورة (المستورة، المغطّاة). خلالها: بينها (المسارب قائمة بين المذانب).

(٢) بالمساجد: إلى المساجد (!). السقاية: موضع السقيا. بالقصور (في القصور!).

(٣) أفعم وأفهق: ملأ. الصهريج: حوض كبير للماء. الريع (ما يفيض من الشيء أو يبقى بعد أخذ الحاجة منه).

(٤) اللب: العقل. الرواء: الجمال. النهى: العقل.

(٥) راجع، فوق ص ٥: ٢١٨:

(٦) لا تتّقوا: لا تخافوا. سقر: جهنّم.

(٧) الكور جمع كورة: البقعة من الأرض فيها عدد من القرى. تعمرها: تسكنها وتبني فيها. أمشاج: أخلاط.

(٨) المريع: الخصيب (الكثير العشب). المنجب: الذي ينتج (بالبناء للمجهول)، نتاج جيّد.

(٩) زاكية الإصابة.... فربّما انتهت في الزوج... (؟).

ص ٣٢ - ٣٧ ؛ الأصالة ٣ : ١٣ ص ٢١٣ - ٢٢٢ (لمحمود بو عيّاد - وفيه تحليل واف للكتاب وتلخيص لقيمته)، ٤ : ٢٦ ص ١٥١ - ١٥٢ ؛ معجم المطبوعات العربية ٩٧ - ٩٨ ؛ معجم المؤلفين ١٣ : ٢٢٨ .

ابن مرزوق الخطيب

١ - آلُ الخطيبِ في المَغْربِ أُسرةٌ مشهورةٌ: كان مرزوقٌ من عجيسةَ[1] ومن أحياءِ النصفِ الثاني من القرنِ الخامس للهجرة. ثمّ بَرَزَتْ هذه الأُسرةُ في التاريخ لمّا أخذَ أبو بـكرِ بنِ مرزوقٍ نفسَه بخِدمة المتصوّفِ المشهور أبي مَـدْيَنٍ (ت ٥٩٤ هـ). وبعدَ أبي بكرٍ توالى آلُ مرزوقٍ على خِدمةِ مَقام أبي مدينٍ في جبلِ العباد المُطِلِّ على مدينة تِلمْسانَ.

وصاحبُ هذه الترجمةِ هو شمسُ الدينِ أبو عبدِ اللهِ (أبو بكرٍ) محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ محمدِ ابنِ محمّدِ بن أبي بكرِ بن مرزوقٍ العجيسيّ ويُعْرَفُ بابنِ مرزوقٍ الجَدِّ، تمييزاً له من حفيدِه محمّدٍ[2]. وُلِدَ ابنُ مرزوقٍ الخطيبُ الجَدُّ سَنَةَ ٧١٠ (١٣١٠ - ١٣١١ م) في تِلمْسانَ، وفيها نشأ وتَلقّى مبادىء علمِه. وفي سَنَة ٧٢٨ رَحَلَ بصُحبةِ والدِه أحمدَ (٦٦٨ - ٧٤١ هـ) وحَجّ وطافَ في مِصْرَ والحجازِ والشام ولَقِيَ في أثناءِ هذا التَّطوافِ عدداً كبيراً من العلماء - زعموهم أَلْفَيْنِ - وأخذَ عنهم. وفي سَنَةِ ٧٣٣ (١٣٣٣ م) عاد وحدَه إلى المغرب فجعلَه السلطانُ أبو الحسنِ عليٌّ المَرينيُّ (٧٣١ - ٧٥٢ هـ) صاحبَ سِرِّهِ وخطيبَ مِنْبره وأمينَ رِسالته. وفي سنة ٧٤٨ (١٣٤٧ م) سَفَرَ له إلى صاحبِ قشتالةَ ألفونشَ الحادي عَشَرَ لعقدِ الصُّلح وفكّ الأسرى.

وفي سَنَةَ ٧٥٢ حَدَث نِزاعٌ في البيتِ المالك في المَغْرِب فغادَرَ ابنُ مرزوقٍ المَغْرِبَ - في حديثٍ طويل - وجازَ إلى الأندلُسِ واستقرّ في غرناطةَ فجعَلَه السلطانُ أبو الحجّاجِ يوسفُ خطيـباً في جامعِهِ ومُقرئاً في مدرسته. ثمّ إنّ اضطرابَ الأحوالِ في

---

[1] عجيسة: اسم مكان في الزاب في جنوبيّ المغرب (راجع تاريخ الجزائر العامّ ٢ : ١٠٤)، قبيلة من البربر (شذرات الذهب ٦ : ٢٧١).

[2] كان ابن مرزوق الحفيد من علماء الحديث (نفح الطيب ٥ : ٥٢٠) ثمّ كان هنالك محمّد الكفيف (٨٢٤ - ٩٠١ هـ) من الخطباء والمحدثين، وهو ابن محمد الحفيد (راجع نفح الطيب ٥ : ٤١٩).

المَغْرِب وفي الأندلُسِ حَمَلَ ابنَ مرزوقٍ على التردّد بَيْنَهما مِراراً وعرّضَه للنَّكَباتِ وللسَّجْنِ في المغرب ثلاثَ مرّاتٍ. ومَلّ هذا القلقَ في الحياةِ فانتقلَ إلى تُونِسَ، سَنَةَ ٧٦٤، وتولّى بها الخُطبة في جامعِ المُوحّدينَ. ثمّ إنّ الأحوالَ ساءتْ بين الحَفصِيّين سلاطينِ تُونسَ والمَرينيّين سلاطينِ المَغْرِبِ، فاختارَ ابنُ مرزوقٍ أن يرحَلَ إلى مِصْرَ (في ربيعِ الأوّلِ سَنَةِ ٧٧٣) فنال فيها حُظوةً عند الملك الأشْرفِ شَعبانَ وتولّى الخَطابة والتدريس في أماكنَ كثيرةٍ. وكانت وفاتُه في القاهرة في ربيعِ الأولِ من سَنَةِ ٧٨١ (مطلَعِ الصيفِ من عامِ ١٣٧٩ م).

٢- كان ابنُ مرزوقٍ الخطيبُ الجَدُّ رجُلاً وقوراً مَعَ كثيرٍ من الظَّرْفِ وقليلٍ من الدُّعابة. وكان «عالِمَ الدنيا» في أيّامه (كما ذَكَرَ المقّري في أماكنَ كثيرةٍ من نفحِ الطِيب) مُشتغلاً بِقراءةِ القُرآنِ وبالحديثِ والتفسير وأُصولِ الفِقه وفُروعه؛ ولكنّ شُهرتَه كانتْ في الحديث. وله ترسُّلٌ ونَظْمٌ ليسا من الطبقة العُليا، ولكنّهما يُمثّلانِ عصرَهُ ويَنْطِقانِ بفضلِه، إذا نحن قِسْناهُما بشِعر أمثالِهِ من العلماء وبنثرهم. وكان أيضاً مُصَنِّفاً، إلّا أنّ كُتُبَهُ ضاعتْ سوى فَهْرَسَةِ شُيوخهِ. فمن كُتُبه: شرح الشفا في التعريف بحقوق المُصطفى[1] (لِعياض ت ٥٤٤ هـ)- شرح عمدة الأحكام عن سيّد الأنام[2]- شرح الأحكام الصُغرى (لعبد الحقّ بن الخرّاط الإشبيلي المتوفّى سنة ٥٨١)- الإمامة[3]- عقيدة أهل التوحيد المُخرجة من ظُلُمات التقليد- إزالة الحاجب لفروع ابن الحاجب[4]- إيضاح المراشد فيما تشتمل عليه الخلافةُ من الفوائد- المفاتيح

---

(١) المصطفى: محمّد رسول الله.

(٢) فيه الأحاديث المنطوية على الأحكام الشرعية، ولذلك يُلفى أيضاً باسم: عمدة الأحكام عن سيّد الأنام من أحاديث النبيّ عليه السلام (أو: في معالم الحلال والحرام عن خير الأنام) وهو من تأليف عبد الغنيّ ابن عبد الواحد الجمّاعيلي (ت ٦٠٠) وقد جمع ابن مرزوق في شرحه لهذا الكتاب بين شرح تقيّ الدين ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢) وشرح عمر بن عليّ الفاكهاني (ت ٧٣٤) بالإضافة إلى زيادات كثيرة من عنده.

(٣) ضلّ عنّي العنوان الكامل لهذا الكتاب، وأظنّه في الكلام على البخاري ومسلم.

(٤) هو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب (ت ٦٤٦) وهو من النحاة ومن الفقهاء (كتابه المذكور هنا في الفقه).

المرزوقيّة لحلّ الأقفال واستخراج خبايا الخزرجيّة أو[1] شرح القصيدة الخزرجية المسمّاة: الرامزة الشافية في علمِ العَروض والقافية (لأبي محمّدٍ عبد الله بن محمّدٍ الأنصاريّ الخزرجيّ الأندلسيّ المُتوفّى نحو سَنَةِ ٦٢٦)- تمهيد السالك إلى شرح أَلْفيّةِ ابنِ مالك- المُسْنَدُ الصحيحُ الحَسَنُ من أحاديثِ السلطان أبي الحسن[2]- النور البَدْريّ في التعريف بالفقيه المَقْري[3]، إلخ.

٣- مختارات من آثاره

- قال ابنُ مرزوقٍ الخطيبُ في المَقريّ الجَدِّ[4]:

كان صاحِبُنا المَقريُّ مَعلومَ القَدْرِ مشهورَ الذِّكْرِ تَبِعَهُ بعدَ موتِهِ، من حُسْنِ الثناءِ وصالحِ الدعاء، ما يُرجى له النفعُ بهِ يومَ اللقاء[5]. وعوارِفُهُ معلومةٌ عند الفقهاء مشهورةٌ عند الدَهْماء[6].

- عرف ابنُ مرزوقٍ الخطيبُ أن لسانَ الدينِ بنَ الخطيب قادمٌ إلى فاسَ برسالةٍ إلى السلطانِ أبي عِنانٍ. فأرسَلَ إليه مَرْكوباً (حِصاناً لِرُكوبهِ) ومَعَه رسالةٌ فيها إشارةٌ إلى فَضْلِ أبي عِنانٍ. من هذه الرسالةِ:

مَنْ قاسَ جودَ أبي عِنانٍ في النَّدى ... بِسِواهُ، قاسَ البحرَ بالضَحْضاح[7]:
مَلِكٌ يُفيض على العُفاة نَوالَه ... قبلَ السؤالِ وقبلَ بسطةِ راح[8].
فلجودِ كعبٍ وابنِ سُعدى في النَّدى ... ذِكْرٌ مَحاهُ عن نَداهُ ماحي[9].

---

(١) لعلّ العنوانين لكتاب واحد.
(٢) هو السلطان المريني أبو الحسن علي بن سعيد (ت ٧٥٢).
(٣) راجع الحاشية التالية.
(٤) محمد بن محمد المقري (ت ٧٥٩ هـ) وهو جد أحمد بن محمد المقري (ت ١٠٤١) مؤلف «نفح الطيب».
(٥) يوم اللقاء: يوم القيامة.
(٦) الدهماء: عامّة الناس: سوادهم (الجانب الأعظم منهم).
(٧) الضحضاح: الماء القليل العمق، القليل.
(٨) أفاض: سكب. العافي: الذي يطلب العطاء. النوال: العطاء.
(٩) كعب بن مامة من أجواد الجاهلية. وأمّا ابن سُعدى فعرّفه إحسان عبّاس (نفح الطيب ٦: ٦٤ ح) أنّه أوس بن حارثة الطائي (راجع أيضاً ابن الأثير ١: ٦٢٧). الندى: الكرم.

ما إنْ سَمِعْتُ– ولا رأيتُ– بمثلِهِ: من أرْيَحِيٍّ للنَّــدى مُرْتــاحِ[١].
بَسَطَ الأمـانَ على الأنامِ ، فأصْبَحوا قـد أُلْحِفوا مِنْه بظِلٍّ جَناحِ[٢].
وَهَمى عـلى العافِينَ سَيْـبُ نَوالِهِ حتّى حَكَى سَحَّ الغَمامِ الساحي[٣].

فالحمدُ للهِ ، يا سَيّدي وأخي ، على نِعَمِهِ التي لا تُحْصى حَمْداً يَؤُمُّ بنا جميعاً المَقْصِدَ الأسْنى[٤] فيبلُغُ الأمَدَ الأقصى. فطالَما كان مُعَظّم سيّدي للأسى في خَبالٍ ، وللأسف بينَ اشتغالِ بالٍ واشتعالِ بَلبالٍ[٥]. ولِقُدومِكُمْ على هذا المقامِ المَوْلَوِيّ[٦] في ارتقابٍ ، ولَمواعيدِكُمْ بذلك في تَحَقُّقِ وقوعِهِ من غيرِ شكٍّ ولا ارتياب... وَلِسَيِّدي الفضلُ في قَبولِ مَرْكوبِهِ الواصلِ إليه بسَرْجِهِ ولِجامِهِ. فَهُوَ مِن بعضِ ما لَدَى المُعظِّم من إحسانِ مولاهُ وإنعامه[٧]. ولَعَمْري ، لقد كان وافداً على سَيِّدي من مُسْتَقَرّهِ مَعَ غيرِهِ. فالحَمْدُ لله ، يَسّرَ في إيصالِه على أفضلِ أحوالِه[٨].

– كَتَبَ لِسانُ الدينِ بن الخطيب فصلاً في « الإحاطة » عن ابنِ مرزوقٍ ، وقال في هذا الفصل: « أحْسَنْتُ منه... صاغيةً إلى الدُنيا وحنيناً لما بَلاه اللهُ من غُرورها[٩] ». واطّلَعَ ابنُ مرزوقٍ على هذا الفصلِ (بعدَ النكبةِ التي حَلّتْ بلسانِ الدين) ، فعلّقَ على

---

(١) الأرْيَحيّ: الواسع الخلق المرتاح (الذي يرتاح: يسرّ) بأعمال الكرم.
(٢) ألحف فلان فلاناً: اشترى له لحافاً ، ألبسه ثوباً (غطّاه ، ستره).– ولو قال: قد أُلحفوا من ظلّه بجناح لكان هو أشعر ولكان التركيب أمتن ولظلّ الوزن صحيحاً.
(٣) همى: سال بكثرة. السيب: الفيض. سحّ: سال. الساحي (المطر) الهاطل بكثرة حتّى أنّه يجرف ما فوق سطح الأرض.
(٤) يؤمّ: يقصد ، يتّجه إلى. المقصد: الغاية. الأسنى: الأعلى.
(٥) الأسى: الحزن. الخبال: ضعف العقل. البلبال: شدّة الهمّ ، الوسواس. « كان معظّم سيّدي للأسى »: أكثر أيام أحزان (؟).
(٦) المقام المولوي (نسبة إلى مولى): بلاط أبي عنان في فاس.
(٧) المعظّم (بكسر الظاء المشدّدة): ابن مرزوق نفسه! من إحسان مولاه (لسان الدين بن الخطيب!) على سيّدي (لسان الدين بن الخطيب).
(٨) كان ابن مرزوق قد تسلّم هدية من الخيل هذا الحصان أحدها(!)
(٩) صاغية الرجل: خاصّته الميّالون إلى اتّباعه (المعجم الوسيط ٥١٨)– يقصد: ميلاً إلى الدنيا. « حنيناً لما بلاه الله (امتحنه ، أصابه) من غرور (الدنيا): باطلها ». إشارة إلى أن لسان الدين بن الخطيب كان (قبل نكبته) قد أحبّ الدنيا مع ما كان يعلم من باطلها.

هذا الفصلِ بما يَلِي:

تَوهَّمَ ما لا يَقعُ[١]، بلْ لمّا تَجلَّتْ عنّي سُحُبُ النكبةِ والامتحانِ جزَمْتُ بالرِّحلةِ وعزَمْتُ على النُّقلة[٢]. ونفَرْتُ من خِدمةِ السلطان وملازمةِ الأوطان. والعَجَبُ كُلُّ العجبِ أن جميعَ ما خاطبَني بهِ - أبقاهُ الله تعالى - تَحلّى به أجْمَعَ، وابْتُلِيَ بما مِنْهُ حَذّر[٣]. فكأنّه خاطبَ نفسَه بما وَقعَ له. فاللهُ تعالى يُحْسِنُ له الخاتمةَ والخَلاصَ[٤].

- في نفح الطيب (٥: ٣٩٧-٤٠٢) مَوْلِديّة (قصيدةٌ في مَوْلِدِ الرسول) طويلةٌ (١١٧ بيتاً) بارعةٌ نَقلَها المقريّ عن «الإحاطة» للسانِ الدين بنِ الخطيب، وذَكَرَ أنّ لسانَ الدين قدّمَها بقوله: «ومِنَ الشعرِ المنسوبِ إلى مَحاسنهِ ما أُنشِدَ عنه وبينَ يَدَيْهِ ليلة الميلاد المُعظَّم من عام ٧٦٣[٥]. ثمّ قال المقريُّ إنّ لِسانَ الدين أرادَ أن يقولَ إن القصيدةَ ليستْ لابن مرزوق[٦] بل هي مَقولةٌ على لسانهِ ومنسوبة إليه. ورَأْيُ المقريِّ أنّها لابن مرزوقٍ نفسِه. والواقعُ أن نَفَسَ القصيدةِ مختلفٌ من النفس السائد في الشعرِ الذي قاله ابنُ مرزوقٍ. وسأقِفُ بجانبِ المقريِّ وأُورِدُ فيما يَلِي جانباً وافياً من هذه القصيدة:

وصِفْ لجيرانِ الحِمى وَجْدي بِهِمْ وسَهَري.

وحَقِّهِمْ، ما غيّرتْ وُدّي صُروفُ الغِيَر[٧].

للهِ عهدٌ فيه، قَضْـ ضَيْتُ، حميدُ الأثر.

---

(١) ظنّ لسان الدين بن الخطيب ما ليس صحيحاً في سلوك ابن مرزوق.

(٢) النقلة (بالفتح): صوت السيل، (وبالكسر): المرأة التي لا تُخْطَب لكبر سنّها، (وبالضمّ): النميمة. المقصود: الانتقال، هجر المكان.

(٣) حذّرني من شيء (لم يكن فيّ) ثمّ وقع هو فيه.

(٤) فالله تعالى يحسن له الخاتمة (ختام حياته) والخلاص فيها. وفي هذا دلالة على أن ابن مرزوق كتب هذه الملاحظة حينما كان لسان الدين منكوباً ومسجوناً.

(٥) مولد الرسول في الثاني عشر من ربيع الأول. وذكرى مولده سنة ٧٦٣ يقع في ٩/ ١/ ١٣٦٢ م.

(٦) يقول إحسان عبّاس (نفح الطيب ٥: ٣٩٧ ح): لم ترد هذه القصيدة في «الإحاطة». ولا ريب في أنّه يقصد في «مخطوطات الإحاطة» لا في النسخة المطبوعة فقط.

(٧) صروف الغير: تقلّب أحداث الدهر.

أيامُــــه هي الـــتي أحسِبُهــــا من عُمُري.
ويــا لِلَيْــلٍ فيــه، مــا عِيـــبَ بغــيرِ القِصَر.
العُمْرُ فَيْنـــانٌ ووجـ ـهُ الدهر طَلْـــقُ الغُرَر[1].
والشمْـــلُ بالأحبـــابِ منـ ـظومٌ كنَظْمِ الــــدُّرَر:
صَفْوٌ من العَيشِ بـــلا شائبـــةٍ من كَــدَرِ.
عَهْــدي بِحــادي الرَّكْــبِ كالـ ـوَرْقــاء عنــدَ السَّحَرِ[2].
لَبَّيْـــكَ، لبّيـــك، إلَـ ـهَ الخلــقِ بــاري الصُّوَر[3].
ولاحَــــتِ الكعبـــةُ بَيـ ـتُ اللهِ ذاتُ الأثر[4].
ثمّ ثَنَوْا نحوَ رسو لِ اللهِ سَيْرَ الضُمَّرِ[5]،
فعايَنوا في طَيْبـــــةٍ لألاءَ نـــورٍ نَـيِّـــر[6]
رأوْا رســـولَ اللهِ واسْـــ ـتَشفَوْا بلَثْمِ الجُـــــدُر[7].
زيـــارةُ الهـــادي الشفيـ ـعِ جُنَّةٌ في المَحْشر[8].
رَبْـــعٌ بـــه مُسْتَنْزَلَ الـ ـآيِ بهِ والسُّوَرَ[9]،

---

(١) فينان: طويل الشعر (المقصود: لا يزال في العمر متّسع). الغرّة: شعر مقدّم الرأس. طلق: واضح، مشرق، ضاحك. طلق الغرر: مسرور.

(٢) حادي (سائق) الركب (الجماعة المسافرون معاً). إنّ صوت الحادي (مع أنّه في العادة يكون غليظاً) هو هنا محبّب كصوت الورقاء (الحمامة) في السحر (الصباح) لأنّه يسير نحو مكّة للحجّ.

(٣) لبّيك اللّهمّ لبيك: دعاء يَجْهَر به الحجّاج في اتّجاههم نحو مكّة. لبّيك (اسم فعل): أنا مقيم على طاعتك ومستجيب لندائك!

(٤) الأثر: الرونق والجمال.

(٥) ثنى: ردّ، عطف (تابع السير في اتّجاه آخر) نحو قبر رسول الله (في المدينة). «سير» مفعول به من «ثنوا». الضُمّر (الخيل والنياق الضامرة، النحيلة، وتكون سريعة).

(٦) طَيْبة: مدينة الرسول.

(٧) رأوا قبر رسول الله.

(٨) الهادي الشفيع (رسول الله) هدى الناس في الدنيا وسيشفع لهم في الآخرة لإنقاذ المذنبين غير المشركين من عذاب النار. الجُنّة: الوقاية. المحشر: يوم الحشر، يوم القيامة.

(٩) المكان الذي نزل فيه الوحي على رسول الله.

ومُلْتَقى جِبريلَ بالـ ـهادي الزَّكِيِّ العُنْصُر[1]؛
مُنْتَخَبُ الله ومُخْـ ـتارُ الورى من مُضَر[2]
ذو المُعْجزاتِ الغُرِّ أمـ ـثالَ النجومِ الزُّهُر.

★ ★ ★

يا أكرمَ الرُّسْلِ على الـ ـلهِ وخيرَ البشر،
يا مَنْ لَدى مَوْلِدِهِ الـ ـمُقَدَّس المُطَهَّر
إيوانُ كِسرى ارْتَجّ إذ ضاءتْ قُصورُ قَيْصَر[3].

★ ★ ★

يا ويحَ نفسي، كم أُرى في غفلةٍ من عُمُري!
واحسرتي من قِلّة الزْ زادِ وبُعْدِ السفر.
ضيّعتُ في الكَبْرَةِ ما أعْدَدْتُهُ في صِغَري.
وليس ما مرّ من الـ أيّام بالمُنْتَظِر.
يا ليتَ شِعري والمُنى تَسْرِقُ طِيبَ العُمُر،
هل أرْتجي من عَودةٍ أو رَجْعةٍ أو صَدَر[4]
فأُبْرِدَ الغُلّةَ من ذاك الزُّلالِ الخَصِر[5].

★ ★ ★

يا ابنَ الإمامِ الطاهرِ الـ ـبَرِّ الزكيِّ السِّيَر[6]،
مَدْحُكَ قد عَلّمَ نَظْـ ـمَ الشعرِ مَنْ لم يَشْعُرِ.

---

(١) الهادي (الرسول) الزكيّ (الطاهر) العنصر (الأصل).
(٢) مضر: عرب الشمال (المقصود: من العرب).
(٣) آرتجّ: آهتزّ، تزلزل. في التاريخ أنّ إيوان كسرى تهدّم قسم منه بزلزال في نحو الوقت الذي ولد فيه الرسول.
(٤) عودة إلى الحجّ وزيارة المدينة. الصدر (بفتح ففتح): الرجوع (من الحجّ وقد تقبّل الله حجّي).
(٥) الغُلّة: العطش (الشوق الشديد إلى زيارة مكّة والمدينة). الزلال: الماء الصافي. الخصر: البارد.
(٦) لمّا قيلت هذه القصيدة، سنة ٧٦٣، كان ابن مرزوق لا يزال في المغرب، وكان السلطان يومذاك محمّد بن يعقوب (٧٦٢ - ٧٦٧ هـ). والأبيات طبعاً مديح. الزكيّ السيرة (نمط الحياة): الطاهر السلوك.

جُهْـــــدُ المُقِـــــلِّ اليومَ من مِثْـــــلي كوُسْعِ المُكْثِرِ [١].
فَـــــإنْ يُقَصِّرْ ظاهري، فَـــــلم يُقَصِّرْ مُضْمَري!

- من المُسنَد الصحيح الحَسَن من أحاديثِ السلطان أبي الحسن[٢]:

لم يَزَلْ[٣] (هذا)[٤] دأبَه[٥]، رَضِيَ الله عنه- في حال إمارته وخِلافته[٦]- فله بمدينة فاس حَرَسَها اللهُ الآثارُ الجميلةُ والبناءاتُ الحفيلةُ كمسجد الصفّارين ومسجدِ حَلْقِ النَّعام[٧]، وكلّ واحد منها غايةٌ في الكِبَر والضخامة. وصَوْمعةُ[٨] كلّ واحدٍ منها غايةٌ في الارتفاع والحُسن. و (له) مساجدُ عِدّةٌ وصوامعُ. وبالمدينة البيضاء كذلك. وبالمنصورة من مدينة سَبْتَةَ الجامعُ المتّصل بالقصر السَّعيد، وهو جامعٌ حافلٌ وصومعتُه حافلة[٩] ....

وأمّا الجامعُ الكبير فقدِ اتفقَ الرّحالون وأجمعَ المتجوّلون على أنّهم لم يَرَوْا له ثانياً- (وإن كان) جامعُ بني أُميَّة (قد) تَمّ حُسْنُه لَمّا كَمَلَ ترتيبُ وَضْعِه . و (لو) كَمَلَتْ تَتِمّاتُ هذا الجامع لَمَا قَصّر عنه.

---

(١) الجهد: أقصى ما يستطيع الإنسان بذله. جهد المقلّ (الفقير): الشيء الذي يستطيعه المقلّ. الوسع: ما يقدر عليه الإنسان- المقدار القليل من الفقير كالمقدار الكبير من الغنّي.

(٢) أبو الحسن عليّ بن عثمان عاشر سلاطين بني مرين (٧٣٢- ٧٤٩ هـ) في المغرب. وقد جانس ابن مرزوق هنا بين «الحسن» اسم السلطان و «الحسن» من مراتب الأحاديث المرويّة عن رسول الله. المسند هو الحديث الواصل برواته إلى الرسول. والصحيح: الحديث المرفوع المتّصل بنقل عدل ضابط في التحرّي والأداء سالماً من شذوذ وعلّة (المعجم الوسيط ٥١٠) أي هو الحديث الذي رواه ثقات معروفون متّصلو الرواية إلى رسول الله. الحسن: هو الحديث الذي عُرِف مخرجه واشتهر رجاله (المعجم الوجيز ١٥١). أحاديث (هنا): أخبار.

(٣) لم يزل السلطان أبو الحسن.

(٤) إضافة يقتضيها المعنى.

(٥) الدأب: العادة والشأن.

(٦) في خلافته (أيام ملكه) وإمارته (قبل أن يتولّى الملك).

(٧) الحفيلة: الكثيرة (أو الكثير السكّان). الصفّارين: سوق الذين يعملون الأدوات النحاسيّة. حلق النعام: (اسم موضع).

(٨) الصومعة: المئذنة.

(٩) حافل (كثير المصلّى). حافلة:.....

وجامع المنصورِ بمرّاكُشَ (وهو) الذي تُضرَبُ به الأمثال.... أكبرُ مِساحةً، إلّا أنّ ما كان في هذا (الجامع) من الرُّخام والإحكام[١] أغربُ وأعظمُ. ولا شكَّ (في) أن صَوْمَعَتَهُ لا تَلْحَقُ بها صومَعَةٌ في مَشارِقِ الأرض ومغاربها. صَعِدتُّها غيرَ مرّةٍ مَعَ الأميرِ أبي عليٍّ الناصر، وهُوَ رَحِمَه الله على فَرَسِهِ وأنا على بَغْلتي[٢]، من أسْفلِها إلى أعلاها، وكأنّا في وِطاءٍ[٣] من الأرض. وكانتْ على البابِ الجَوْفي[٤] منه، ولَها مَجْرَيانِ يُطْلَعُ فيهما إلى أعلاها. وكانتْ مُحكمةَ البناء والنِّجارة في الأحجار بصِناعةٍ مُختلفة[٥] من الإحكام في كلّ جانبٍ.

...... وهذه الزوايا التي يُطلَقُ عليها في المشرق الرُّبُطُ. والخوانقُ والخانقاتُ عَلَم على الرُّبُطِ، وهو لَفْظ أعجميّ[٦]. والرِّباط في اَصطلاح الفُقراء عِبارةٌ عنِ اَحتباس النَّفْس في الجِهاد والحِراسة[٧]، وعند المُتَصوّفة عبارةٌ عن المواضع التي يُلْتَزَمُ فيها للعِبادة..... قلتُ: والظاهرُ أن الزوايا عِندَنا في المَغْرب هي المواضعُ المُعَدَّةُ لإرْفاقِ الواردين وإطعام المُحتاج من القاصدين[٨]. وأمّا الرُّبُطُ على ما هو المُصْطَلَحُ عليه في المشرق فلم أرَ في المَغْرب على سبيلها ونَمَطِها[٩] إلّا رِباطَ سيّدي أبي محمّدٍ صالحٍ[١٠] والزّاوية المنسوبةَ لسيّدنا أبي زكريّا يحيى بنِ عُمَرَ، نَفَع اللهُ به، بِسَلى، غربيَّ الجامعِ

---

(١) الإحكام (بالكسر): الدقّة والإتقان.

(٢) الصعود في هذه المئذنة لا يكون على درج بل على سطح مائل (وقد صعدتّ أنا إلى أعلى صومعة الكتبيّة في مدينة مرّاكش، فكان الصعود إليها أسهل وأقلّ إرهاقاً من الصعود على درج).

(٣) وطاء: الأرض الواطئة المستوية.

(٤) الجوفي: القبلي (المتّجه إلى جهة مكّة. ويمكن أن تقال على جهة الجنوب).

(٥) النجارة: (العمل في الخشب). بصناعة مختلفة (ذات أشكال مختلفة من التزيين).

(٦) الخوانق والخانقات جمع خانكاه (بكاف معقودة) من اللغة الفارسية: بيت الملك (مسكن يأوي إليه الدراويش والصوفية مجاناً، ويقومون فيه بعبادتهم).

(٧) الفقراء (الصوفية). وليست هنا في مكانها. الرباط يكون فيه محاربون للدفاع عن حدود البلاد الإسلامية.

(٨) لمنفعة المسافرين الواصلين إلى ذلك المكان (شبه الفندق؟).

(٩) النمط: الشكل، المثال.

(١٠) سلى = سلا: بلدة إلى شمال مدينة الرباط. غربي (اقرأ: غرب). الغربي هو الجانب الغربي من المكان (ويكون داخلاً فيه). و «غرب» (ظرف): إلى الجهة الغربية من المكان (ولا تكون داخلة فيه: رأس بيروت هو غربيّ مدينة بيروت. وبيروت غرب دمشق: تقع في الغرب من دمشق).

الأعظم منها. ولم أرَ لهما ثالثاً على نَحْوِهما في مُلازمةِ السّكّان وصِفاتِهم وشِبْهِهِم بِمَنْ ذُكِرَ، نفع الله بهم.

٤- المسند الصحيح في أحاديث أبي الحسن (قطعة بتحقيق ليفي بروفنسال)، مع ترجمة لابن مرزوق (بالإفرنسية) والنصّ (بالعربية والفرنسية)، من مجلّة (المجلّد الخامس، ١٩٢٥ م)، باريس (لاروز).

★★ الدرر الكامنة ٣: ٣٦٠-٣٦١؛ الإحاطة (القاهرة ١٣١٩ هـ) ٢: ٢٢٣ وما بعد؛ الديباج المذهب ٣٠٥-٣٠٩؛ نيل الابتهاج ٢٦٧-٢٧٠؛ بغية الوعاة ١٨-١٩؛ شذرات الذهب ٦: ٢٧١-٢٧٢؛ نفح الطيب ٥: ١٥٢-١٥٣، ٢٠٠-٢٠١، ٢٢٤، ٢٧٩، ٣٩٠ وما بعد ٦: ١١-١٢، ٦٤-٦٥؛ شجرة النور الزكيّة ٤٣٦؛ الاستقصا ٢: ٩٤-٩٥؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٨٦٦ (راجع عن أسرته ٣: ٨٦٥-٣٦٨)؛ تاريخ الجزائر العامّ ٢: ١٠٢-١٠٥؛ معجم أعلام الجزائر ١٤٠-١٤١؛ بروكلمن ٢: ٣١٠، الملحق ٢: ٢٣٥-٢٣٦؛ الأعلام للزركلي ٦: ٢٢٦ (٥: ٣٢٨)؛ الأصالة (مجلّة) ٤: ٢٦، ص ١٤٣ و١٠٦؛ دودو (كتب وشخصيّات) ٢٩-٤٦؛ معجم المؤلفين لكحالة ٩: ١٦.

أبو سعيد بن لبّ

١- هو أبو سعيدٍ فَرَجُ بنُ قاسمِ بنِ أحمدَ بنِ لُبٍّ التَغْلَبيّ الشاطبيُّ الغَرْناطيّ، وُلِدَ سَنَةَ ٧٠١ هـ (١٣٠١-١٣٠٢ م). قرأ القرآنَ الكريمَ بالسَّبْعِ على أبي الحسنِ القيجاطي[١] وروَى الحديثَ عن ابنِ جابرٍ الوادي آشي وأخذ العربيةَ (النحو) عنِ ابنِ الفخّارِ وأبي حيّانٍ الغَرْناطي. ثمّ إنّه أقرأ في المدرسةِ النَّصْرية، ابتداءً من ثامنَ عشَرَ رَجَبَ من سَنَةِ ٧٥٤ (١٣٥٣/٨/١٨ م). وكانت وفاته في ذي الحِجّة من سنة ٧٨٢ (آذار- مارس ١٣٨١ م).

٢- كان أبو سعيدِ بنِ لُبٍّ فقيهاً ماهراً في القِراءاتِ، عارفاً بالتفسير مُشاركاً في أصولِ الدينِ وأصول الفِقْه وفي الفرائض، بارعاً في علومِ الأدب جيّدَ النظمِ والنثر، تَغلبُ على نَظمهِ الصِّبغةُ الدينية. وكانت له تآليفُ منها: شَرْحُ الزجّاجي[٢]- شرحُ

(١) أبو الحسن علي بن عمر القيجاتي (٦٥٠-٧٣٠ هـ) من علماء النحو تولّي الخطابة (في صلاة الجمعة) في غرناطة ومات فيها.

(٢) لعلّه شرح كتاب «الجمل الكبير» (في النحو) لأبي القاسم الزجّاجي (ت ٣٤٠ هـ).

تصريفَ التسهيل (نيل الابتهاج ٢٢٠) ورسائلُ أخرى قِصارٌ.

٣ - مختارات من شعره

- قال أبو سعيدِ بنُ لُبٍّ قصيدةً في مدحِ رسولِ الله، منها:

ترومُ جفوني لنـــــارِ الهوى ... خُموداً فتَهْمي دُموعـاً غزاراً[١]:

فماءُ جفوني يَسحّ انهمالاً ... ونـار فُؤادي تَهيـج اسْتعارا[٢]

أحِنُّ اشتياقــاً لريـــحٍ سَرَتْ ... وأُبـدي هُيامـا لـبرقٍ أنـار[٣]

فيـا فوزَ مَنْ فـازَ في طَيْبَـةٍ ... بلَثْمِ المَغـاني جِداراً جـدار[٤]؛

وألْصَــقَ خَـدًّا عـلى تُرْبِهـا ... وآكمل حَجًّا بها واعْتِمارا[٥]!

فيـا هـاديَ الخلـقِ دارَ نعيمٍ ... تناهَتْ جمالاً وطابت قَرارا[٦]،

لأنـــتَ الوسيلـــةُ والمُرْتَجـى ... لِيَوْمٍ يُرى الناسُ فيه سُكارى

ومــا هُمْ سُكـــارى، ولكنّهم ... دَهَتْهُمْ دَواهٍ فهاموا حَيارى[٧]:

تَرى المَرْءَ - لِلْهَوْلِ - مِنْ أُمّـــهِ ... ومن أقْرَبيهِ يُطيل الفِرارا[٨].

- وقال في وَداعِ شَهْرِ رَمَضانَ:

أأزْمَعْتَ، يا شهرَ الصِيام، رَحيلا؟ ... وقارَبْتَ، يا بَدْرَ الزمان، أُفولا[٩]؟

---

(١) رام: طلب. الخمود: الانطفاء. همى المطر: انسكب وسال.

(٢) سحّ: سال من أعلى إلى أسفل. انهملت السماء = هملت: دام مطرها. استعَرَتِ النارُ: اشتدّ اشتعالها.

(٣) الهيام: الجنون من العشق.

(٤) طَيبة: المدينة (على ساكنها أفضل السلام). المغنى: المكان المسكون.

(٥) الحجّ: القيام بالمناسك في مكّة في موسم الحجّ (٨ - ١٠ من ذي الحجّة، آخر أشهر السنة الهجرية).

(٦) «دار» مفعول به من «هادي». تناهت: بلغت الحدّ الأقصى. القرار: المستقرّ: البقاء الدائم.

(٧) ليوم يرى الناس فيه سكارى وما هم بسكارى - اقتباس من القرآن الكريم في وصف هول يوم القيامة ﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكنّ عذاب الله شديد﴾ (٢٢: ٢، سورة الحجّ).

(٨) في هذا البيت أيضاً اقتباس: ﴿يوم يفرّ المرء من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾ (٨٠: ٣٤ - ٣٦، سورة عبس).

(٩) أزمع: عزم، أراد. الأفول: الغياب.

أجدَّكَ! قد جدّتْ بك الآنَ رحلــةٌ؟ رُوَيْدَكَ! أمسِكْ لِلْوَداعِ قليلا[1].
نَزَلْـتَ فأزْمَعْـتَ الرَّحيـلَ كأنّما نَوَيتَ رَحيلاً إذ نَوَيْتَ نُزولا.
وما ذاك إلّا أنْ أهلَكَ قد مَضَوْا: تَفانَوْا فأبصَرْتَ الدِّيار طُلولا[2].

– وقال في النسيب:

خُـذوا لِلْهوى مِنْ قَلْبِيَ اليومَ مـا أبْقـى،
فما زال قَلْـبي كلُّـه للهوى رِقّـا.
دَعُوا القلبَ يَصْلى في لَظَى الوَجْدِ نارَهُ فكُلُّ الذي يَلْقَوْنَ بعضُ الذي ألْقى[3].
فإن كان عبدٌ يسألُ العَتْقَ سَيِّداً، فلا أبْتَغي من مالكي في الهوى عِتْقا.
بدَعْوى الهوى يَدْعو أُناسٌ، وكلُّهم إذا سُئِلوا طُرْقَ الهوى جَهِلوا الطُّرقا.[4]
فطُرْقُ الهوى شَتّى، ولكنّ أهلَه يَحوزونَ في يَوْمِ السِباق به السَّبْقا[5].
وكم جَمَعَـتْ طُرْقُ الهوى بـينَ أهلِـه،
فحيـثُ ترى سِيما الهوى فاعْرِفِ الصِّدْقا[6]:
فمِنْ زَفرةٍ تُزْجي سَحائِبَ عَبْرةٍ، إذا زَفَرَتْ تَرْقى فلا عَبْرةٌ تَرْقا[7].
إذا سَكتوا عن وَجْدِهم أعْرَبَتْ بهِ بواطِنُ أحوالٍ وما عَرَفَتْ نُطْقا[8].

---

(١) أجدّك: أستحلفك بحقيقتك! جدّت: حدثت بعد أن لم تكن، و(هنا): أسرعت (لأنّ شهر رمضان أصبح في أواخره فبدا انقضاؤه أسرع ممّا كان يبدو في أوائله). رويدك: تمهّل!

(٢) أهلك قد مضوا: (سكّان الأندلس الآن قلّوا، وأصبحوا أقلّ قوّة وفخامة مظهر ممّا كانوا).

(٣) صَلِيَ: شعر بحرّ (النار). لَظَى: جهنّم (شدة حرّ النار). الوجد: الحبّ الشديد.

(٤) – صحّة الحبّ لا تكون بالدعوى، بل بالسلوك (بحال المرء تجاه محبوبة).

(٥) «عند السرى» (راجع الكتيبة الكامنة ٦٩، السطر الأوّل) – وفي نفح الطيب (٥: ٥١٢، السطر السادس): «عند السوى» (بضمّ السين أو كسرها): العدل، الاعتدال، الوسط، الناس الآخرين، المثل، النظير، الشبيه). السرى: السير في الليل (وقت الجدّ في السير – لأنّ العرب القدماء كانوا يسافرون في الليل لقلّة الحرّ فيه ويستريحون في النهار عند اشتداد الحرّ).

(٦) السيماء: العلامة.

(٧) الزفرة: إخراج نفس حارّ (لشدّة الحزن). أزجي: أرسل، سبّب. العبرة: الدمعة. ترقى: تصعد (من الصدر). ترقأ: تجفّ، (ينقطع صاحبها عن البكاء).

(٨) الوجد: الحبّ الشديد. – في هذا البيت ما يدلّ على شيء من الاتّجاه الصوفي.

٤-★★ الكتيبة الكامنة ٦٧-٧٠؛ الديباج المذهب ٢٢٠-٢٢١؛ نيل الابتهاج ٢١٩-٢٢١؛ بغية الوعاة ٣٧٢؛ شذرات الذهب ٦: ٢٨٠-٢٨١؛ نفح الطيب ٥: ١٠٨-١٠٩، ٢٦٥، ٥٠٩-٥١٤، ٥٢٥؛ بروكلمن ٢: ٣٣٦، الملحق ٢: ٣٧١؛ مختارات نيكل ١٩٦-١٩٧؛ الأعلام للزركلي ٥: ٣٤١ (١٤٠)؛ معجم المؤلفين لكحالة ٨: ٥٨.

أبو جعفر أحمد بن محمّد بن جزيّ

١- هو أبو جعفرٍ[(١)] أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ أحمدَ بنِ محمّدِ بنِ عبدِ الله بنِ يحيى بنُ جُزَيٍّ، من أهل غَرناطةَ، وُلِدَ سَنَةَ ٧١٥ هـ (١٣١٥-١٣١٦ م). تَلقّى العلمَ على والِده وعلى نَفَرٍ آخرينَ ثمّ دَخَلَ في خِدمةِ الدولة، في خُطّةِ الكِتابة، في أوّائلِ أيامِ أبي الحجّاجِ يوسفَ الأوّلِ سابعِ ملوكِ بني نَصْرٍ (٧٣٣-٧٥٥ هـ). ثمّ إنّه تولّى القضاء في بَرْجَةَ ثمّ في أنْدَرَش ثمّ في وادي آشَ[(٢)]. ثمّ إنّه أصبح قاضياً بمدينةِ غَرناطةَ وخطيباً فيها في مسجدِ السلطان (الجامع الأكبر) في ثامنِ شوّالٍ من سَنَةِ ٧٦٠ (١٣٥٩/٩/٢ م). ثمّ صُرِفَ عن الخُطبة ثمّ أُعيد إليها، سَنَةَ ٧٦٣ هـ. ويبدو أنّ وفاتَه كانتْ في سَنَةِ ٧٨٥ هـ (١٣٨٣ م).

٢- كان أبو جَعْفرٍ أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ جُزَيٍّ فقهياً وأديباً شاعراً. وقد كان بِرُغْمِ اتّجاهِهِ الدينيّ - قليلَ الثقةِ بِالناس. وفي شِعْره لَفَتات بارعةٌ.

٣- مختارات من شعره

- كتب لسانُ الدين بنُ الخطيب إلى أبي جعفرٍ بن جُزَيٍّ يطلبُ شيئاً من شِعره،

---

(١) كنّاه لسان الدين بن الخطيب في الكتيبة الكامنة (ص ١٣٨): أبا جعفر، ولم يكنّه في الإحاطة (راجع ١: ١٦٣-١٦٨). والمقّري كنّاه «أبا بكر» (نفح الطيب ٥: ٥١٧، راجع ٢: ٥١٤، ٧: ٢٨٢).

(٢) برجة، ضبطها محمّد عبد الله عنان بضمّ الباء (الإحاطة ١: ١٦٤، ١٧٣، ١٧٤، ٢٠٤، ٥٠٨). وهي مضبوطة بالضمّ أيضاً في القاموس وفي تاج العروس (مع ملاحظة التاج أنّ الإطلاق يقتضي الفتح). وفي معجم البلدان مضبوطة بالفتح، وهي في معظم المراجع الحديثة مضبوطة بالفتح أيضاً. تقع برجة غرب المَرية (في الجنوب الشرقي من الأندلس) على مقربة من ساحل البحر. وأندرش من أعمال المريّة أيضاً، على نهر باسمها، غرب غرناطة. ووادي آش إلى الشمال الشرقي من غرناطة.

فأرسلَ أبو جعفرٍ إلى لِسانِ الدينِ ما طلبَ وكتبَ إليه بهذه الأبيات (الكتيبة الكامنة ١٤٢):

فَدَيْتُكَ، يا سيِّدي، مِثْلَما فداكَ الزمانُ الذي زِنْتَهُ[١].
جمالُ فَعالِكَ أظهرتَه، وسِرُّ كمالِك أخفَيْتَه[٢]
تَشَوَّفْتَ مِنّي إلى بِنْتِ فِكري فشرَّفتَ شِعري وزَيَّنْتَهُ[٣]
وقد وَرَدَتْكَ، وأنتَ الذي أخذتَ فُؤادي، فَخُذْ بِنْتَهُ[٤].

- وقال في التوريّة في «مُعينٍ» (بين أن تكونَ آسماً أو تكونَ علماً):

كم بكائي لِبُعْدِكم! كم أنيني! مَنْ ظَهيري على الأسى؟ من مُعيني[٥]؟
جَرّحَ الخَدَّ دمعُ عيني، ولكنْ لا عجيبٌ إنْ جرّحَ آبنُ مُعينِ[٦].

- قال أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ جُزَيٍّ في سُلوكِ الناسِ حِيالَ الغَنّي والفقير:

أرى الناسَ يُولونَ الغَنِيَّ كَرامةً، وإنْ لم يكُنْ أهلاً لرُفْعَةِ مِقدارِ.
ويَلْوُون عن وجهِ الفقيرِ وُجوهَهُمْ، وإن كان أهلاً أن يُلاقى بإكبار.
بنو الدهرِ جاءَتْهم أحاديثُ جَمّةٌ،
فما صحّحوا منها إلّا حديثَ آبنِ دينارِ[٧]!

---

(١) زان وزيّن (بالتشديد) بمعنى واحد.

(٢) الفعال (بالفتح): الفعل الحميد.

(٣) تشوّف: تطلّع، نظر من بعيد. بنت الفكر: نتاج الفكر من شعر ونثر وحكم إلخ.

(٤) وقد وردتك: أرسلتها أنا إليك فوصلت إليك.

(٥) الظهير: المعين، المساعد لك في ما تسعى إليه. الأسى: الحزن.

(٦) جرّح (في الشطر الثاني): جرَحَه (عابه وأسقط عدالته: صدقه في الشهادة). والتعديل والتجريح (في علم الحديث): تبيان مراتب رواة الحديث في الصدق وصحّة النقل. ابن معين هو يحيى بن معين بن عون بن زيادِ البغدادي (ت ٢٣٣ هـ = ٨٤٨ م) من أئمّة الحديث ومؤرّخي رجال الحديث، وكان إماماً عارفاً بأصول التعديل والتجريح.

(٧) ابن دينار: الرجل الغنّي (هم يصدقون الرجل الغنّي فقط). وعيسى بن دينار (ت ٢١٢ هـ) من فقهاء الأندلس ومن رجال الحديث أيضاً.

– وله قصيدةٌ جَعَلَ كلَّ عَجُزٍ فيها عَجزاً من قصيدةٍ لامرِئِ القيسِ (ما عدا مَطلَعَها، فإنّ عَجُزَه صَدْرُ المطلعِ في قصيدةِ امرئِ القيسِ نفسِها)*. من هذه القصيدةِ:

أقولُ لعَزْمي أو لصالحِ أعمالي: (ألا عِمْ صَباحاً، أيُّها الطَّلَلُ البالي)(١)

أما واعِظي شَيْبٌ علا فوقَ لِمّتي (سُمُوَّ حَبابِ الماءِ حالاً على حالِ)(٢)؟

أُخالِطُ دَهْري، وهو يعلَمُ أنّني (كَبِرْتُ، وأنْ لا يُحْسِنُ اللهوَ أمثالي).

وقد علِمَتْ مِنّي مواعدُ تَوْبَتي (بأنّ الفتى يَهْذي وليس بفعّالِ)(٣)

ألا لَيْتَ شِعْري، هل تقولُ عزائمي (لِخَيْلِيَ: كُرّي كَرّةً بعد إقبالِ)(٤)،

فأنْزِلَ داراً للنَّبِيّ نزيلُهــــا (قليلُ همومٍ ما يَبيت بأوْجالِ).

فطُوبى لِنَفْسٍ جاوَرَتْ خيرَ مُرْسَلٍ (بِيَثْرِبَ أدنى دارِها نَظَرٌ عالِ)(٥).

جوارُ رسولِ اللهِ مَجْدٌ مُؤَثَّلٌ (وقد يُدْرِكُ المَجْدَ المؤَثّلَ أمْثالي)(٦).

وما ذا الذي يَثْني عِنانَ السُّرى، وقد (كَفاني– ولم أطلبْ– قليلٌ من المالِ).(٧)

٤–★★ الدرر الكامنة ( ) ١: ٢٩٣ ( )، الكتيبة الكامنة ١٣٨–١٤٣ الاحاطة ١: ١٦٣–١٦٨، بغية الوعاة ١٦٢–١٦٣، شذرات الذهب ٦: ٢٨٦، نفح الطيب ٥: ٥١٧–٥١٩، راجع ٧: ٢٨٢، أزهار الرياض ٣: ١٨٧–١٨٨، معجم المؤلفين لكحّالة ٢: ٧٢.

(★) لحازم القرطاجنّيّ (ت ٦٨٤ هـ) تنصيف مثل هذا لهذه القصيدة (لامرىء القيس) نفسها.

(١) عمّ بالكسر فعل أمر (أو طلب) من «وعم» (بفتح ففتح أو بفتح فكسر) يعم (بفتح فكسر). عم صباحاً أو مساءً (من تحية الجاهلية). أقول لعزمي.... (ليس لي عزيمة ولا أعمال صالحة).

(٢) اللمّة: الشعر المجاور للأذن. الحباب: فقاقيع الماء. حالاً على حال: مرّة بعد مرّة (؟).

(٣) هذى يهذي: خلّط في الكلام من أثر مرض أو حزن.– وعدت مراراً أن أتوب ولم أفعل.

(٤) كرّ: هجم. إقبال (كذا في الكتيبة الكامنة ١٤٠)، وفي «شرح ديوان امرىء القيس للسندوبي (الطبعة الخامسة: القاهرة، المكتبة التجاريّة الكبرى، ص ١٦٤): إجفال (مضى وأسرع– من الخوف: هرب) (؟)–.

(٥) يثرب: المدينة (مدينة الرسول). أدنى دارها نظر عال:

(٦) مؤثّل وأثيل: ثابت على الزمن.

(٧) يثني: يردّ. عناني: لجامي (فرسي) أي يمنعني عن السفر (إلى الحجّ).– وهذه رحلة تقتضي قليلاً من المال فقط، وأنا لم أطلب شيئاً كثيراً فوق ذلك.

محمّد الظريف التونسيّ

١- هو أبو عبدِ اللهِ محمّدٌ الظريفُ التونسيُّ، نشأ في تونسَ وطلب العلمَ والأدب فيها. وكانت وفاتُه في الجبل المُبارك (جبل المَنار) ويُعرَف في تونس بآسْم «سِيدي بو سْعِيد» أو مَرْسى قَرْطَاجةَ(١)، وذلك يومَ الخميس في حادي عَشَرَ جُمادى الآخِرة من سَنَة ٧٨٧ (١٣٨٥/٧/١٨ م).

٢- كان محمّدٌ الظريفُ التونسيُّ من علماءِ تونِس وصُلحائها المشهورين مُتَصوِّفاً منفرداً بنفسه، تُروى له كَراماتُ. وكان بارعاً في فنونٍ عِدّةٍ منها الموسيقى. وشعرُه سهْلٌ رائقٌ يدور على مَدْح الرسولِ وعلى الوعظ وتهذيبِ الأخلاق.

٣- مختارات من شعره

- قال محمّدٌ الظريفُ يَصِفُ رَوْضةً:

ورُبَّ رَوْضـةِ أُنْسٍ قد مَرَرْتُ بها	مُخضرّةٍ ذاتِ أشجارٍ وأغصان(٢).
قُطوفُهـا تُنْعِشُ الأرواحَ دانيـةٌ	بجنّةٍ ذاتِ رَوْحٍ ذاتِ رَيْحان(٣).
تخلَّـل المـاءُ في أنهارها فغَـدتْ	تزهو بوَرْدٍ ونِسرينٍ ونُعمانَ(٤).
وقـام فيهـا خطيـب فوقَ مِنْبَرهِ	يشكو البُعـاد بتغريـد وألحـان(٥)،
مُـزوّقُ الصّـدْرِ مخضوبُ البَنان له	من الزبَرْجَـد والياقوت لَوْنـانِ(٦).

---

(١) «سيدي بو سعيد» (جبل أبي سعيد) مِنطقة جبلية مشرفة على البحر في الضاحية الشمالية من تونس الحاضرة. والمنطقة هي قرطاجة (أو قرطاج، كما يلفظها التونسيون في الصيغة الفرنسية). وقرطاجة (قرطا حدشيت: القرية - المدينة - الحديثة)، وهي من بناء الكنعانيّين (الفينيقيّين).

(٢) الأُنس: السرور، الألفة بين الأصحاب.

(٣) قطوف جمع قطف (بكسرّ القاف): ثمر. دانية: قريبة (من الذي يريد قطفها) روح (راحة) ريحان (رزق حسن) راجع القرآن الكريم (٥٦: ٨٩، سورة الواقعة).

(٤) تزهو: تلمع، تفتخر. نسرين: ورد أبيض اللون. نعمان = شقائق النعمان (زهر برّيّ أحمر اللون).

(٥) خطيب = طائر مغرّد (هنا: حمامة).

(٦) مزوّق الصدر (في صدره ريش مختلف الألوان). مخضوب (مصبوغ) البنان (الأصابع). المقصود هنا «القوائم»، وقوائم الحمامة تكون عادة حمراء. الزبرجد: حجر كريم أخضر اللون. الياقوت: حجر كريم أحمر اللون. يبرز في هذه الحمامة لونان: اللون الأسود (والعرب يقولون للأسود أخضر) واللون الأحمر في قوائمها.

بيضٌ جوانحُه سودٌ مناكبهُ ... لـه من المِسْك والكافور ثوبَانِ[1].
مُطوَّق الجِيد، في أطراف مُقلتِه ... أشِعـةٌ من بهـاءِ ريشِهِ القـاني[2].
وأطرَبَ الطـيرَ في أوكارِهـا فَغدَتْ ... شَوْقاً تُجاوِبُه من كُلّ بُستان.
ناشدتُّـكَ اللهَ، ياطيرَ الأراكِ، إذا ... جادَ الزمانُ بوَصلٍ بعدَ هِجران[3]،
وساعدَتْـكَ الليـالي في تصرُّفِهـا ... وباتَ شَمْلُكَ مجموعاً بخُلّان،
وجِئـتَ طَيْبَةَ والوادي وجُزْتَ على ... وادي العَقيق فَبلِّغْ حاجَةَ العاني[4]:
سَلِّمْ عـلى المُصطفى المُختارِ من مُضَرٍ ... خيرِ النَبيِّينَ، من ساداتِ عَدْنان[5]،
الهاشمِّي الـذي فاضَـتْ فضائلُـه ... عـلى البريّـة من قاصٍ ومن دان،
وقُلْ لـه: يا رسولَ الله، يا أمَلي، ... يا عُمْدَتي، يا رجائي عند مِيزاني[6]،
جِسْمي بِتُونِسَ مَوْثوقٌ بزَلَّتِـــه، ... والقلبُ في الشرق بينَ الرَّنْدِ والبان[7].
وكـلَّ عـامٍ أُرَجّي أنْ أزورَكُمُ، ... والذنبُ عن قُرْبِ تلك الدارِ أقصاني.
أموتُ والقلـبُ مشتـاقٌ لزَوْرَتِـكم؛ ... مـا لي شفيـعٌ سوى حُبّي وإيماني.
فكُنْ شَفيعِيَ في يومِ الجزاءِ إذا ... عزّ الصديقُ وقلّتْ حيلة الجاني[8].

- وقال أيضاً يُورّي في بٱسْمِه:

---

(١) المنكب (بالكسر): الكتف. المسك أسود اللون، والكافور أبيض اللون.
(٢) مطوق الجيد (العنق). لعدد من أنواع الحمام طوق (شبه العِقد) من ريش لونه مخالف للون الريش في سائر جسمها. البهاء: الجمال. القاني (الشديد الحمرة، من «قان» في الفارسية: دم) هنا: اللون الزاهي البرّاق.
(٣) ناشدتك الله: سألتك (طلبت منك) وأنا أقسم بالله. الآراك: شجر يتّخذ الناس من أغصانه المساويك (جمع مسواك: لجلاء الأسنان)، إشارة إلى الحجاز.
(٤) طيبة: المدينة المنوّرة. الوادي (وادي مكة، أو مدينة مكة؟). وادي العقيق (قرب المدينة). العاني: الأسير (الموجود في بلده غير قادر على الذهاب إلى الحج).
(٥) المصطفى المختار (محمد رسول الله). مضر (مجموع عرب الشمال). عدنان (جدّ عرب الشمال).
(٦) عند ميزاني (يوم القيامة حين توزن حسنات المرء وسيئاته للفصل في أمره إلى الجنة أو إلى النار).
(٧) موثوق، يقصد موثق (مربوط). الزلّة: الخطأ، العثرة، الذنب. والقلب في الشرق (المشرق): يحنّ إلى مكّة. الرند (شجر طيّب الرائحة) والبان (شجر جميل الأغصان) كناية عن المقام المحمود (المقدس).
(٨) يوم الجزاء: يوم القيامة.

ليس الظريفُ بكاملٍ في ظَرْفِهِ حتى يكونَ عنِ الحرام عفيفا.
فإذا تعَفّفَ عنْ مَحارمِ رَبِّهِ، فهُناك يدعوه الأنامُ ظريفا.

٤-★★ عنوان الأريب ١: ١٠٣-١٠٥؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ٢١٦-٢١٧.

أبو جعفر بن زرقاله

١- كان آل زَرقالُهْ أسرةً قديمةَ السُّكنى في مدينة المَرِيَّةِ، وكان جدّ صاحب الترجمة (واسمه أيضاً: أحمدُ وكُنيته أبو جعفر) من العُدول[1] أديباً ناثراً ناظماً وعالماً فاضلاً ذا مكانة عند أهل الدولة وذا صلةٍ بهم.

أمّا أبو جعفر (الحفيد) صاحبُ هذه الترجمة فالذي نَعْرِفه عنه أنّه تلقّى شيئاً من العلم على أبي البركات بن الحاجّ البلفيقي[2]، كما قرأ رِحلة أبي البقاء البَلَويّ[3] «تاج المَفْرِق في تَحْلِيَةِ علماءِ المشرق» على مؤلّفها مِراراً وقرّظها شعراً ونثراً.

ولعلّ وفاةَ ابن زرقاله هذا كانت في أعقاب القرنِ الثامن للهجرة (الرابعَ عَشَرَ للميلاد).

٢- أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ زَرْقالُهْ (الحفيد) هو الفقيهُ الوزير الكاتب الماهر والناظم الناثر شُغِفَ بِرِحلَةِ أبي البقاء البَلَويِّ واعتنى بها عِنايةً فائقة ونَظَمَ في مدحها قصائدَ ومقطّعاتٍ ثمّ جَمَعَ ما قيل فيها نظماً ونثراً وعَرَّفَ القائلينَ فيها تعريفاً حسناً. ثمّ هو مؤلّف له «رائقُ التَحْلِيَة في فائِق التَّوْرية» جمعه من أبياتٍ في التورية لابنِ خاتمةَ الأنصاريِّ (ت ٧٧٠ هـ، راجع فوق ص ٣٨٩) أَنشَدَه إياها ابنُ خاتمةَ نفسُه.

---

(١) العدل، والجمع عدول: أشخاص تعيّنهم الدولة فيجلسون مع القاضي في مجلس الحكم ليشهدوا على أحكامه ويصحّحوها إذا وقع فيها خطأ. وكان نفر من هؤلاء يعملون مستقلّين ويرتزقون من الشهادة في المحاكم لمن يطلب منهم ذلك ويدفع لهم مبالغ يتّفق عليها.

(٢) أنظر، فوق، ص ٤٩٨.

(٣) أنظر، فوق، أبو البقاء خالد بن عيسى البلوى الأندلسي قاض، وله شعر ونثر، توفّي في أواخر القرن الهجري الثامن (راجع نفح الطيب ٢: ٥٣٢-٥٣٤؛ نيل الابتهاج ١١٥؛ الأعلام للزركلي، الطبعة الرابعة ٢: ٢٩٧).

٣- مختارات من آثاره

- من مقدّمة كتاب «رائق التحلية» لابن زرقاله:

...... الحمد لله الذي خصّ هذه الأمّةَ باللِسان العربي المُبين و(بـ)البيان المُتَبلّج الغُرّةِ الوضّاح الجَبين فهَصَروا من ثَمَراتِهِ الدانيةِ القطوفِ بِفَنَنٍ مائل[١]، وتفيّأوا ظِلالَها عن الأَيْمان (والشَّمائل)[٢].... وبعدُ، فلمّا كان الأدبُ حِليةَ العربِ الذي إليه انتهت فَصاحَتُها وبه ظهرت رَجاحتها[٣]، وكانِ الشعرُ منه بمنزلةِ الروح من الجسد.... فهو طِرازُ بُرْدِهِ ووُسْطى عِقده[٤]. ولم يزلِ الناسُ- خلَفاً عن سَلَفٍ- يتوارثونه ويتّبعون (فيه) منهجَ العرب ويَقْتَفونه، هذا وإن كانوا لا يَنْتَجِعون إلّا من وادِيهم ولا يستَمْطِرون إلّا من غَواديهم[٥]. فلم يَخْلُ كلُّ عصرٍ من شاعرٍ يكون شُعراءُ زمانِه عِيالاً[٦] عليه ويَرْجِعُ كلٌّ (واحد) منهم إليه.... وكان شاعرَ عَصْرِنا ببلدنا هذا- عَصَمَه اللهُ- (و) الذي رَفَعَ سماء الأدب وبَناها، ومهّدَ أرضَ الشِّعر ودحاها[٧]..... شيخُنا الأستاذُ أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ خاتمةَ.....

و(قد) كان لي بمحاسنِ الأدبِ شَغَفٌ وباقتناء جواهره كَلَفٌ، أَتَشَبّثُ به تشبُّثَ الولدِ بالوالد، والمَوْصول بالصِّلة والعائد[٨]، وأَقصِد غُرَرَ عيونه وأَعْتَمِدُ أبكارَه دُون

---

(١) هصر الرجل الغصن: جذبه إليه. الدانية (القريبة) القطوف (الثمرات التي تجنى من الأغصان). الفنن: الغصن.

(٢) الأيمان (جمع يمين، الجانب الأيمن) والشمائل (جمع شمال بكسر الشين).

(٣) الحلية: الزينة. انتهت (بلغت النهاية: الكمال). الرجاحة (بفتح الراء): الحلم (المعجم الوسيط ١ : ٣٣٠) بكسر الحاء: سَعة الصدر.

(٤) الطراز: العلامة في الثوب دلالة على صاحبه (إذا كان من الملوك أو من هو في صفهم). والوسطى في العقد: الجوهرة الكبرى تكون في العقد، وتكون في وسَطه.

(٥) انتجع: ذهب (إلى المرعى). الغادية: السحابة الممطرة صباحاً.

(٦) عيالاً عليه: يعتمدون عليه في نظم الشعر (يأخذون من معانيه).

(٧) مهّد: سوّى، جعل الشيء مستوياً. دحا الشيء يدحوه: مدّه وبسطه.

(٨) الاسم الموصول: الذي، التي، الخ. ويكون له في الجملة صلة وعائد (مثال ذلك: الرجل الذي جاء من بعيد- الضمير في «جاء» عائد، يعود إلى الرجل. وجملة «جاء من بعيد» صلة الموصول لا محل لها من الإعراب). ولا معنًى لاسم الموصول إذا لم يأت بعده صلة وعائد.

عُونه[١]. وأتشوّفُ للاستطلاع منه من ما لم[٢] تمزّقَ الأيامُ بُرْدَتَه وتُخْلِقِ الأقلامُ جِدّتَهُ[٣]..... وكانتِ التَّوْريةُ[٤] من محاسنِ الشعر تشهَدُ لصاحبها بجلالة القَدْر وتَحِلّ من النُّفوس مَحِلَّ النَّور من الرياض، والسِّحر من الحَدَقِ المِراض[٥]، وتمتزج بالأرواح امتزاجَ الماء بالراح لِلُطْفِ معناها ودِقّة إشارتها ورِقّة عِبارتها، استَنْشَدْتُه - أبقاه الله - ما وَقَعَ له من المنظومات فيها، ورَغِبْتُ منه أن يُسْعِفني جميعها ويَسْتَوْفِيَها[٦]. فأجابني إلى ذلك عملاً على شاكلةِ فَضْلِهِ[٧] وما يَليقُ من التخلُّقِ بكريمِ مَحلِّه.

٤- رائق التحلية في فائق التورية (حقّقه محمّد رضوان الداية)، دمشق (منشورات دار الحكمة).

ابن عبّاد الرنديّ

١ - هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ إبراهيمَ بنِ عبد الله بنِ مالكٍ النَّفْزيّ الحِمْيَري المعروفُ بابن عبّادٍ الرُّنْدي، أصلُ أهلِهِ من قَبيلة نَفْزةَ (في المغرب الأقصى) ومولده في رُنْدَةَ (الأندلس)، سَنةَ ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) ومنشأه فيها.

حَفِظَ ابنُ عبّادٍ الرُّنْديُّ القرآنَ الكريمَ في السابعةِ من عُمُرِهِ ثمّ تلقّى النحوَ والأدب والفِقه أصولاً وفُروعاً عن جماعةٍ منهم أبوه، وكان أبوه واعظاً معروفاً.

---

(١) عيون الشيء: خياره (أحسن ما فيه). البكر: الفتاة التي لم تتزوج بعد. العوان: المرأة المتوسطة في العمر (يقصد المعاني المبتكرة والمعاني المألوفة).

(٢) من ما لم (ترسم: ممّا لم).

(٣) البردة: الثوب الواسع. تُخلِق: تمزّق، تُتلف (تجعل الشيء قديماً متهرئاً).

(٤) التورية (في البلاغة): المجيء بلفظ أو تركيب له معنيان قريبٌ وبعيد يفهم السامعُ عادة معناه القريب بينما يكون القائل قد قصد المعنى البعيد. فإذا قلت لرجل ملأ الله فمك ذهباً، يظنّك تدعو له (بأن يعطيه الله ذهباً بمقدار ما يسع فمه) بينما يمكن أن تكون أنت تدعو عليه (بأن تسقط أسنانه ثمّ يستعيض عنها بأسنان من ذهب).

(٥) النور (بفتح النون): الزهر الأبيض. الحدق: العيون. المِراض: المريضة (الناعسة).

(٦) اقرأ: يسعفني بها جميعها (يساعدني في الحصول عليها).

(٧) الشاكلة: السجيّة، الطبع. على شاكلة فضله: على ما تعوّد من التفضّل على الناس.

رَحَلَ ابنُ عبّادٍ الرُّنْديّ عن الأندلس باكراً فتنقّل بين فاسَ وتِلمْسانَ ومَرّاكُشَ وسَلا وطَنْجــة. ففي تِلِمْسانَ درس عـلى مُحمّدِ بنِ أحمدَ الشريـفِ التِلِمْسانيّ (٧١٠ - ٧٧١ هـ) كبيرِ عُلماءِ المذهبِ المالكيّ في أيامه. أمّا في طريقِ القَوْم (التصوّف) فقد لازمَ أحمدَ بن عَمرَ بنِ عاشرٍ (ت ٧٦٥ هـ) وتأثّر به كثيراً.

وفي سَنَةِ ٧٧٧ عُيّن ابنُ عبّادٍ الرُّنْديُّ إماماً وواعظاً في جامع القَرَوِيّينَ في فاس وظلّ في هذا المَنْصِبِ إلى وفاته في ثالثِ رَجَبَ من سَنَةِ ٧٩٢ (١٣٩٠/٦/١٧ م).

٢- ابن عبّادٍ الرُّندي خطيبٌ وواعظٌ وصوفيّ مصنّفٌ له من الكتب: الرسائل الكبرى (وهي مكاتبات في التوحيد والتصوّف وفي تفسير متشابه[١] الآيات كتب بها إلى أمثالِه المتصوّفين)- الرسائل الصغرى[٢] وجهّها من سلا، قبلَ سَنَةِ ٧٧٠ للهجرة في الأغلب: ستٌّ منها إلى محمّدِ بنِ أديبَةَ (؟) وتِسعٌ إلى تلميذِه الرحّالة المحدّث يحيى السرّاج (ت نحو ٨٠٣ هـ) ثمّ واحدةٌ إلى الإمام أبي اسحاقَ إبراهيمَ الشاطبيّ (ت ٧٩٠ هـ)- غيث المواهب العليّة في شرح الحكم العطائية[٣] (في الزهد والتصوّف)- كفاية المحتاج- فتح الطرفة وإيضاح الشرفة- شرح الأسماء الحسنى- رسائل (في عدد من الموضوعات الواردة في كتاب « قوت القلوب »)[٤].

٣- مختارات من آثاره

- لابنِ عبّادٍ (من الرسائل الصغرى): الرسالةُ الثالثة: كتابٌ يتضمّنُ بيانَ التقليدِ

---

(١) الآيات المتشابهات التي تحتمل التأويل (وقيل هي: الحروف التي في أوائل السور، ولا نعرف نحن دلالالتها).

(٢) الرسائل الصغرى أو الكبرى لا تختلف في مادّتها واتّجاهها وأسلوبها، بل في حجمها: الرسائل الكبرى ٢٦٢ صفحة والرسائل الصغرى ١٣٨ صفحة.

(٣) هو أحمد بن محمّد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندري (ت ٧٠٩ هـ) المالكي الشاذلي، صحب أبا الحسن الشاذلي. وكان ابن عطاء في زمانه هو المتكلّمَ على لسان الصوفية. وقد كان شديد المقاومة للإمام ابن تيميّة (ت ٧٢٨ هـ) لأنّ ابن تيميّة كان شديد الحملة على الصوفية وغيرهم من أصحاب المذاهب والآراء المخالفة لرأي أهل السنّة والجماعة. ولابن عطاء مصنّفات أشهرها الحكم العطائية.

(٤) قوت القلوب كتاب في التصوّف لأبي طالبٍ المكّي (ت ٣٨٦ هـ).

والبِدعة وما اشتملا عليه من القبائح والمفاسد:

أُسلّمُ عليكم وأُعرّفكم بوصول كتابكم إلينا تُعْلِمون فيه بوصول جوابنا إليكم، وأنّه وقع منكم موقعاً اقتضاه حُسْنُ ظنّكم وسلامةُ اعتقادكم. وطلبتم منا بيانَ التقليد والبِدعة اللذَيْنِ أشَرْتَ إليهما في الجواب المذكور وأن أكتُبَ اليكم نُبَذاً في ذلك.

فاعلم أن هذين المَعْنَيَيْنِ قد ورد الشرعُ بذمّهما وعيبَ المتّصف بهما.

أمّا التقليدُ فهو نوعٌ من أنواع البِدَعِ التي يأتي ذِكْرُها، وَهِيَ عبارةٌ عنِ اتّباع الغيرِ بلا دليلٍ ولا حُجّةٍ، كَمَنْ يقلّدُ شخصاً لِعِظَمِ محلّهِ عنده أو (كمن يقلّد) أُمّةً من الناس لكَثْرَتِهم وقِدَمِ زمانهم. وقد عاب الحقّ تعالى ذلك على طوائفَ مِنَ الكَفَرة في آيٍ كثيرة من القرآن.......

واعلَمْ أن هذه الصِّفَةَ الذميمة قدِ استطارَ[١] في هذا الزمانِ شَرَرُها وعمّ ضَرَرُها، فترى المتفقّهَ الغبيّ إذا قَرَعَ سَمْعَهُ شيءٌ من علوم التحقيق[٢] أو علم[٣] من أعلامِ أهلِ التصديق يَلْوي خدَّه ويُقَطّبُ وجهَه ويقول لِفَرْطِ غباوته: لو كان هذا حقًّا لَنَصّ عليه فلانٌ وَلَتَداوَلَتْهُ القُرونُ والأزمان. وترى المُتصوّفَ الجاهلَ إذا ذُكِرَ عندَه مسألةٌ من مسائلِ الأحكام ومعالمِ الحلال والحرام يتنكّرُ لجليسه ويغترّ بتزويره وتَلْبيسه[٤] ويقول لشدّة جَهالته: هذه ظواهرُ ورسومٌ ومُخاطباتٌ للعموم. وقد كان سَيّدي[٥] فلانٌ لا يقرأ ولا يكتب ولا يَنْتَسِبُ إلى مذهب. وترى الفاجرَ العيّار[٦] من ذوي الكبائر والإصرار يَقْتدي بهَفَوات القُدماء وزلّاتِ العُلماء ويَعْتَدُّ[٧] ذلك دِيناً مَتيناً وحقًّا مُبيناً.

---

(١) استطار: انتشر.

(٢) علوم التحقيق (علوم التصوّف).

(٣) أو علم (كذا!).

(٤) التزوير: التحسين والتزيين (وهنا: إيراد الشيء على خلاف حقيقته). التلبيس: (خلط الشيء بغيره).

(٥) ظواهر (أمور ظاهرة غير حقيقية، غير مقصودة لذاتها) ورسوم (أمور وضعها الناس لأنفسهم يمكن أن يضعوا في وقت آخر غيرها). ومخاطبات للعموم (للعامّة ليس على الخاصّة من العلماء اتّباعها). سيّدي: شيخي (الذي أتبعه وأقتدي به).

(٦) الفاجر: الفاسق الذي يكثر من إتيان المحارم من غير أن يباليَ. العيّار: الكثير التجوال في الأرض، الذي يتّبع هواه في كلّ شيء ولا يبالي.

(٧) اعتدّ الأمرَ ديناً: عدّه وأحضره (اتّخذه).

وقد ينتهي الجهلُ بأقوامٍ إلى ألّا يَرَوْا لأحدٍ فضلاً على مَنْ قلّدوه من أئِمّتِهم ويستحقرون بَذْلَ مُهَجِهم في مُحاماتهم ونُصْرتِهم.......

واعلَمْ أن كلّ مسألةٍ مطلوبٌ فيها إصابةُ ما في نفسِ الأمرِ[١] وله (للإنسان) مَنْدوحةٌ عن التقليد فيها بأن ينظُرَ إلى وجهِ الدليل المنصوبِ عليها: إمّا على جهة الوجُوب كمسائل الاعتقادات، أو على غيرِ جهةِ الوجوب كغيرِها من المسائل. فالتقليدُ في ذلك مذمومٌ سواء اتفقتْ[٢] إصابته أم لم تتّفق. (لكن) لا يدخُلُ في ذلك تقليدُ العامّة للمجتهدين في المسائل الفِقهيّة الفرعية، لأنّ المطلوبَ فيها إصابةُ ما غَلَبَ على ظنّ المجتهد، ولا سبيلَ للعاميّ إلى هذا إلّا بالتقليد. ولا يدخُلُ فيه أيضاً تقليدُ مَنْ يحتاج إلى فَنٍّ من فنون العلم لأربابه[٣]، وإن كان المطلوبُ فيه إصابةَ ما في نفسِ الأمر[١] إذ لا مندوحةَ له عن التقليدِ فيه، كعلمِ التفسير والحديث والتاريخ والنحو واللغة والطبّ. فالتقليد في نفسِه مذمومٌ لا ينبغي الاعتماد عليه إلّا عند الضرورة.......

وأمّا البِدعةُ فقد وَرَدَ في ذَمّها آياتٌ كثيرةٌ وأخبارٌ[★]........

إنّ اللهَ تعالى بعَثَ مُحمّداً صلّى اللهُ عليه وسلّم رسولاً إلى جميع الأنامِ وهادياً لهم إلى دارِ السلام[٤]، وكانوا إذ ذاك في جاهليةٍ جَهْلاء وضلالة ظلْماء[٥]، مُشَتَّتَةً آراؤهم مُفْتَرِقَةً أهواؤهم لم تأمُرْ أحلامُهم الفاخرة[٦] إلّا بإهمال النظر في مسالك العِبَر[٧]، ولم تَهْدِهم ألْبابُهم إلّا إلى عِبادةِ حَجَرٍ وشمسٍ وقمر. فَمَنَّ اللهُ عليهم بأنْ بعثَ فيهم رسولاً من أنْفُسِهِمْ - و (من) أزكاهم وأنْفَسِهِم[٨] - حلّاهُ بأكملِ الصفات وأحسنِ الأخلاق ووفّاه من مواهِبِهِ ومَنَحه نفائسَ الأعلاق[٩]....... (ثمّ يذكر أحاديثَ وأخباراً من نشأة

---

(١) إصابة نفس الأمر (المقصود: ما في الأمر نفسه).

(٢) اتفقت = أتفقت؟

(٣) من فنون العلم لأربابه (علم موجود عند أناس غير موجود عند آخرين).

(★) الأخبار (جمع خبر): الأحاديث المرويّة عن رسول الله.

(٤) دار السلام: الجنّة.

(٥) ضلالة ظلْماء (عمياء): ضلال (ضياع، تيه) لا يهتدي فيه الضائع إلى سبيله.

(٦) الحلم (بالضمّ): العقل. الفاخرة (؟).

(٧) العبرة (بالكسر): الدرس، نتيجة الاختبار.

(٨) أنفس الأشياء: أثمنها، أحسنها.

(٩) وفّاه: كمّل له، أتمّ عليه. العلق (بالكسر): الشيء النفيس الذي يضنّ (يبخَل) الإنسان به.

البدع واتّساعها).

وقد بَعُدْنا عن المَقْصِدِ فَلْنَرْجِعْ إليه. فجميعُ ما ذَكَرْناه في هذه النُّبْذَةِ إشارةٌ إلى نوعٍ واحدٍ من أنواع البِدَعِ وهو ما يُؤدّي إلى اختلافٍ وتنازُعٍ وتهاجُرٍ وتقاطُعٍ من أيٍّ وَجْهٍ أدّى إلى ذلك. ويَقَعُ ذلك بين مُبْطِلَيْنِ بسببِ شِدّةِ التعصُّبِ من الجانبين، وبين مُبْطِلٍ ومُحِقٍّ فيَنْقَسِمُ الأمرُ فيكونُ سببُه من جِهةِ المُبْطِلِ هوًى مُرْدِياً وشيْطاناً مُغْوِياً [1]، ومن جهة المُحِقِّ قِياماً بواجبِ الدين ونصيحةً للمسلمين. ويستحيلُ وُقوعُه بين مُحِقّيْنِ......

٤- غيث المواهب العليّة بشرح الحكم العطائية (شرح النفزي على متن السكندري) بولاق ١٢٨٥ هـ؛ مصر (مطبعة محمّد مصطفى) ١٢٩٩ هـ؛ (المطبعة الخيرية) ١٣٠٣ هـ؛ (المطبعة الميمنية) ١٣٠٤ هـ؛ ١٣٢٠.
- الرسائل الكبرى، فاس (حجر) ١٣٢٠ هـ.
- الرسائل الصغرى (نشرها بولس نويّا)، بيروت (المطبعة الكاثوليكية) ١٩٥٧ م.

★ شرح الشيخ عبد الله الشرقاوي على غيث المواهب (بهامش طبعة بولاق).

الكتيبة الكامنة ٤٠ - ٤٤؛ نيل الابتهاج ٢٧٩ - ٢٨١ (٢٨٧ وما بعد)؛ نفح الطيب ٥: ٣٤١ - ٣٥٠؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٢٢٠؛ بروكلمن، الملحق ٢: ٣٥٨؛ سركيس ١٥٧ - ١٥٨؛ الأعلام للزركلي ٦: ١٩٠ (٥: ٢٩٩)؛ بالنثيا ٣٩٠؛ معجم المؤلفين لكحالة ٨: ٢٠٧ - ٢٠٨.

ابْنُ زَمْرَكَ

١- هُوَ أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ يوسفَ بنِ محمّدِ بنِ أحمدَ بنِ محمّدِ بنِ يوسفَ الصُرَيْحيُّ المعروف باسم ابن زمْرك (بفتح الزاي والراء أو بضمّها)، أصلُ أهلِهِ من شَرقّيِ الأندلس وقد سَكَنَ سَلَفُه غَرْناطةَ.

وُلِدَ ابنُ زمركَ في ١٤ من شوّالٍ من سنة ٧٣٣ (٢٩/٦/١٣٣٣ م) في غَرْناطةَ ونشأ فيها. وقد تلقّى العلمَ على نَفَرٍ منهم: أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنِ محمّدِ اللّوشيّ (ت ٧٥٢ هـ)،

---

(١) المُردي: المهلك. المغوي: المضلّل، الداعي إلى الحَيْد عن الصواب.

وأبو عبدِ اللهِ محمّدُ بن بِيبَشَ العَبْدَرِيُّ (ت ٧٥٣ هـ)، وابنُ الفَخّارِ الإلبيريُّ وأبو القاسم الحَسَنيّ التلمساني وأبو البركات البَلْفيقي وأبو فَرَجٍ بنِ لُبٍّ. غيرَ أن أكثرَ أخْذِه كان عن ابن مَرْزوقٍ التِلمْسانيّ.

أما الذي تولّى العِنايةَ بابنِ زمركَ فهو لِسانُ الدينِ بنُ الخَطيبِ: إنّه أُستاذُه على الحَصْرِ في فنونِ الأدبِ ووليُّ نِعْمتهِ في الترقّي في مراتبِ الدولة. لمّا تولى ابن الخطيب الوزارةَ، سنة ٧٤٩ هـ، لأبي الحجّاجِ يوسفَ الأول النيّارِ، أدْخل ابنَ زُمْرُكَ في خِدمةِ الدولة كاتباً.

في سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) جاء محمّدُ الخامسُ الغنيُّ بالله إلى عرش غرناطة فأخذت مكانةُ ابنِ زمرك ترتفع في دولة بني الأحمر، إذ أصبح ابنُ الخطيب حاجباً للدولة فجعل تلميذَه ابنَ زمرك في حاشية السلطان. وفي سنة ٧٦٠ هـ خُلعَ محمّدُ الخامس الغنيّ بالله فلَجأَ إلى أبي سالمٍ إبراهيمَ بنِ عليٍّ سُلطانِ بني مَرينٍ في فاسَ ولَحِقَ به ابنُ زمرك (بينما بَقِيَ ابن الخطيب في غرناطة). وبعد عامين (في ٢٠ جُمادى الآخرة ٧٦٣ = ١٧/٤/١٣٦٢ م) عاد محمّد الخامس الغنيّ بالله إلى غرناطة - وابنُ زمرك معه - واستعاد عرشَهُ وردّ ابنَ الخطيب إلى الوزارة وجعل ابن زمرك كاتباً خاصًّا به ولَقّبه بالرئيس. ولَعلّ ابن زمرك قد وَجَدَ في هذه الأثناء فُسْحَة من الوقت فتصدّرَ لتدريسِ الفِقهِ واشْتَهَرَ بذلك في مالَقَةَ وفي غَرْناطة.

كانتِ الأُسرةُ المَرينية في فاس قد ضَعُفَتْ، وكان بنو الأحمر يتلاعبون بها ويَضْرِبون بَعْضَ أعضائِها ببعضٍ ثمّ ينصُرون بعضَهم على بعضٍ. ويبدو أن ابنَ الخطيب مالَ مَعَ بعضِ بني مرين على محمّدٍ الغنيِّ بالله، أو أنّ ابنَ زمرك اتّهمه بذلك (٧٧٠ هـ) ففرّ ابنُ الخطيبِ إلى فاس خوفاً من سوء العاقبة في غَرْناطة. بذلك أصْبح ابنُ زمرك وزيراً مكانَ ابنِ الخطيب.

وداخَلَ ابنَ زُمْرُكَ العُجْبُ بما وَصَلَ إليه من الرِّفعةِ والنُّفوذ فاستبدَّ برأيِهِ في الأمور واستعذَبَ التآمُرَ والإيقاع بالناس، ولكن لم يَسْتَطع أحدٌ أن يَصِلَ إليه، فقد كان محمّد الغنيّ بالله - وقد كان ابن زمرك شاركه سرّاءه وضرّاءه - يَحْميهِ ولا يَسْمَعُ فيه قولَ سوءٍ.

وفي صَفَر من سنة ٧٩٣ (كانون الثاني - يناير ١٣٩١ م) توفّي محمّد الغنيّ بالله فخَلَفَه ابنُه أبو الحجّاج يوسفُ الثاني، ولم يَكُنْ هو ولا حاشيتُه يَعْطِفون على ابنِ زمرك فسُجِنَ ابنُ زمرك في سِجْن ٱلْمَرِيَّةِ، في أوّل ربيعٍ الأولِ من سَنة ٧٩٤ (١٣٩٢/٧/٢٢ م). ومع أن ابنَ زمرك خرج من السِّجْن بعد ذلك وعاد إلى الوزارة مُدّةً يسيرةً ثمّ صُرِفَ منها وَشيكاً فإنّ النِّقْمةَ ظلت عليه شديدةً - ذلك لأنه، فيما يبدو، استأنف شيئاً من الكَيْد والتآمر. فاقتحمَ السلطانُ بنفسه على ابنِ زمرك منزلَه وقتَلَه هُوَ ووَلَدَيْهِ وعدداً من خَدَمِه وأنصارِه في أواخرِ سَنَةِ ٧٩٥ أو أوائل سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م).

٢ - كان ابنُ زُمْرُكَ شُعْلَةً من شُعَلِ الذَّكاءِ جيِّدَ الفَهْمِ حُلوَ المُجالسة عَذْب الفُكاهة، ولكنّه كان أيْضاً ميّالاً إلى الكَيْد والدَّسّ. ولقد شاركَ في فنونٍ كثيرةٍ منها التفسيرُ والفِقْهُ (في الأُصول والفُروع) واللُّغَة. وكان أيضاً شاعراً وُجْدانيًّا مُجيداً، قيل فيه إنّه آخرُ الشعراءِ الفُحولِ في الأندلس، كما كانَ وشّاحاً وخطيباً ومُتَرَسِّلًا وناقداً. وشعرُهُ قصائدُ طوالٌ ومقطّعاتٌ بعضُها مُرْتَجَلٌ. ثمّ إنّه كان كَلِفاً بالمعاني البديعة والألفاظ الصَقيلة.

أما فنونُ شعرِه فأكبرُها المديحُ. ومدائحُه كثارٌ طوالٌ تبدأ بغزلٍ، وهي عادةً سُلْطانيّات (لأنّها تقال في سُلطان غَرناطة) وعِيديّات (لأنّ القسم الأوفر منها كان يقال في الأعياد تهنئةً) واعتذاريّات. وله ميلاديّات كِثارٌ أيضاً (بَديعيّات، في مَدْح الرسول). ومن قصائدِه ميلاديّات عيديّات. ورثاؤه قليلٌ جدًّا. وله وَصْف خَفاجيّ النزعةِ أكثره في وَصْفِ قصورِ الحَمْراء وبساتينِها. وله خمرياتٌ أيضاً يَدْعونَها صَبوحيّات (والصَّبوح شرب الخمر في الصباح). وغَلَبَ على شعرِه، في بعضِ أدوارِ حياتِه، شيءٌ من التَصوُّفِ.

٣ - مختارات من آثاره

- مُوَشّحةٌ مَشهورةٌ لابنِ زمرك قالَها في أثناء إقامته في فاس (٧٧٦ هـ)، لَمّا ذهب إليْها لِيُطالِبَ سُلْطانَ فاس بقتلِ لِسانِ الدين بنِ الخطيب (راجع ترجمة ابن الخطيب):

أبْلِــــغْ لِغَـرْناطــةٍ السلامْ وصِــفْ لهــا عَهْـدِيَ السَّلــيمْ

فلَوْ رَعى طَرْفُها ذِمام ما بِتُّ في لَيْلةِ السليمْ[١].

★ ★ ★

كم بِتُّ فيها على اقْتراحْ أُعَلُّ مِنْ خَمْرةِ الرُّضابْ؛
أُديرُ فيها كُؤوسَ راحْ قد زانَها الثَّغْر بالحُبابْ؛
أخْتالُ كالمُهْرِ في الجِماح نَشْوانَ في رَوْضةِ الشبابْ؛
أُضاحِكُ الزَّهرَ في الكِمامْ مُباهِياً رَوْضَهُ الوَسيمْ؛
وأفْضَحُ الغُصْنَ في القَوامْ إنْ هَبّ من جَوِّها النَسيمْ[٢].

★ ★ ★

بَيْنَا أنَا والشبابُ ضافْ وظِلُّه فوقَنا مَديدْ،
ومَوْرِدُ الأُنْسِ فيه صافْ وبُرْدُهُ رائِقٌ جَديدْ،
إذ لاحَ في الفَوْدِ، غيرَ خافْ، صُبْحٌ به نُبِّهَ الولْيدْ:
أيْقَظَ مَنْ كان ذا مَنامْ لَمَا انجلى لَيْلُه البَهيمْ،
وأرْسَلَ الدَّمْعَ كالغَمامْ في كلِ وادٍ به أَهيمْ[٣].

★ ★ ★

يا جِيرةً عهدُهُمْ كَريمْ وفِعْلهم كُلُّه جَميلْ،

---

(١) عهدي السليم: عهدي الذي كان سلاماً في ربوعها. لو رعى طرفها ذمامي: لو دام لي صفاؤها. ما بتّ في ليلة السليم: ما قضيت زماناً (بعد ذلك) أتألم كأنّني سليم (ملدوغ).

(٢) على اقتراح: حسب مقترحي، على ما أشتهي. أُعلّ: أسقى مرّة بعد مرّة. الرضاب: الريق. الراح: الخمر. والحباب الذي يطفو على سطح تلك الخمر من ثغر الحبيب. الجماح: النشاط. الكمام: الورق الأخضر الذي يغلّف الزهر قبل أن يتفتّح. الوسيم: ذو الملامح الجميلة. - وقوامي المتمايل من الشباب أجمل من الغصن المتمايل في النسيم.

(٣) ضاف: سابغ، يعمّ كل ما أُلقي عليه. المورد: (الشريعة) المكان الذي يستقي الناس منه. البرد: الثوب. برد الشباب جديد (في أول الشباب). الفود: الشعر في طرف الرأس عند الأذن. صبح (شيب). قد نبّه الوليد: قد دعا الذي يظنّ نفسه أنه لا يزال صغيراً إلى التفكير بانقضاء القسم الجميل من عمره. لّما انجلى (انجاب، زال، انقضى) ليله البهيم (الأسود، كناية عن الشباب الذي يكون الشعر فيه أسود). أهيم: أسير على وجهي من غير تفكير (أصبحت نادماً على كلّ ما كنت قد عملته في إبّان جنون الشباب).

لا تَعْذِلوا الصَّبَّ إذ يَهيمْ فقَبْلَه قد صَبا جَميلْ.
القُرْبُ مِنْ رَبْعِكُمْ نَعيمْ، وبُعْدُكم خَطْبُه جَليلْ.
كَمْ مِنْ رِياضٍ بِهِ وِسامْ يُزْهَى بها الرائضُ المُسيمْ:
غَديرُها أزْرَقُ الجِمامْ، ونَبْتُها كُلُّه جَميمْ[1].

★ ★ ★

أعِنْدَكم أنّني بفاس أُكابِدُ الشَّوْقَ والحنينْ[2]؟
أذْكُرُ أهْلي بها وناسي، واليومُ في الطولِ كالسِّنينْ.
الله حَسْبي، فكَمْ أُقاسي من وَحْشَةِ الصَّبّ والبَنينْ،
مُطارِحاً ساجِعَ الحَمامْ شوقاً إلى ٱلإلْفِ والحَميمْ؛
والدمعُ قد لَجَّ في انسجامْ وقد وَهَى عِقْدُه النَظيمْ.

★ ★ ★

يا ساكِني جَنةِ العَريفْ، أُسْكِنْتُم جَنّةَ الخُلودْ.
كم ثَمّ مِنْ مَنْظَرٍ شَريفْ قد حُفَّ باليُمْن والسُعودْ!
ورُبَّ طَوْدٍ بهِ مُنيفْ أدْواحُه الخُضْرُ كالبُنودْ؛
والنَّهْرُ قد سُل كالحُسامْ لِراحَةِ الشَّرْبِ مُسْتَديمْ،
والزَّهْرُ قُد راق بابْتسامْ مُقَبِّلاً راحَةَ النَّديمْ[3].

---

(١) لا تعذلوا: لا تلوموا. الصبّ: المحبّ المشتاق. صبا: مال (إلى النساء)، أحبّ. جميل = جميل بن معمر الشاعر الأموي العذري. الربع: المسكن، المكان المعمور. الخطب: الشأن، الأمر (المُصاب). جليل: عظيم، خطير. وسام جمع وسيم: جميل. يزهى: يفتخر، يعتدّ بنفسه. الرائض: المتنزّه في الرياض. المسيم الذي يرسل أنعامه للرعي (كناية عن الشابّ الذي يندفع في شبابه بغير رادع ولا قيد). أزرق الجمام (الأطراف): ماؤه صاف. الجميم: النبت الكثير المنتشر (كلّ هذا كناية عن الشباب).

(٢) أكابد: أقاسي. الصبّ: المحبّ (إشارة إلى زوجته). مطارحاً ساجع الحمام: مشاركاً الحمام في نواحه. لجّ في انسجام: تدافع في الهطول والسقوط. وَهَى (ضعُف) عقده النظيم: الخيط الذي كان يمسك الدمع من قبل (يشبّه دموعه باللؤلؤ المسلوك في خيط، فإذا انقطع الخيط تناثر اللؤلؤ وتفرّق) وكذلك حينما فقد هو صبره (الذي كان كالخيط لدموعه) أخذت هذه الدموع تسيل بلا توقّف.

(٣) جنّة العريف: جنينة جميلة جدًّا في قصر غرناطة. ثَمّ: هنالك (في جنّة العريف). حفّ: أحيط. اليمن: =

- ولابن زمرك من موشّحة أخرى:

لَوْ تَرْجِـعُ الأيـامُ بعدَ الذَّهابْ لم تَقْدَحِ الأيامُ ذِكْرى حَبيبْ[1]

وكـلُّ مَنْ نـامَ بِلَيْـلِ الشبابْ يُوقِظُه الدهرُ بصُبْحِ المَشيبْ[2]

★ ★ ★

يا راكِبَ العَجْزِ، ألا نهضـــةٌ. قـد ضَيَّقَ الدهرُ عليكَ المَجالْ.

لا تَحْسَبَنْ أنّ الصِّبا رَوْضَـــةٌ تَنـامُ فيهـا تحتَ فَيْءِ الظِّـلالْ.

فالعَيْشَ نَوْمٌ والرَّدى يقـظـــة[★]، والمَرْءُ مــا بَيْنَهما كالخَيــالْ.

والعُمْرُ قــد مَرّ كَمَرِّ السَحــابْ والمُلْتقـى بـاللهِ عَمّـا قَريـبْ.

وأنــتَ مَخْـدوعٌ بلَمْعِ السَّرابْ تَحْسَبُــه مـاءً ولا تَسْتريـبْ[3]!

★ ★ ★

- وقال ابنُ زمرَك من كلامٍ له يمتزجُ فيه الشعرُ بالنثر (الإحاطة ٢: ٢٣٧ وما بعد):

يا جانحةَ الأصيلِ، أينَ يذهَبُ قُرْصُك المُذْهَبُ وقد ضاقَ بالمَشوق المذهَبُ[4]؟

= البَرَكَة. طود: جبل. منيف: عال. الدوح: الشجر الكبير. البنود: الأعلام (يقول: تسمو أشجارٌ في هذه الجنينة كأنّها أعلام مرتفعة). قد سلّ كالحسام (السيف) كناية عن أنّه أبيض جار صاف يسرّ به الشَّرْب (الذين يشربون الخمر معاً). مستديم: دائم، لا ينقطع جريانه في جميع فصول السنة. راقَ: حسُنَ منظرُه. بابتسام: ضحك (كناية عن تفتّحه). مقبّلاً راحة (باطن الكفّ) النديم (كلّ رجل يشرب الخمر مع آخر): يحمل منه النديم في كفّه.

(١) - أنّ مرور الزمن ينسي الإنسان أحبّاءه.

(٢) وكل من نام (غفل عن الأعمال الصالحة) يوقظه الدهر (يجعله الدهر يندم). ليل الشباب (كناية عن سواد الشعر). صبح المشيب (كناية عن بياض الشعر).

(★) يقظة (بفتح ففتح)، ثمّ هي خطأ في التقفية مع «روضة...».

(٣) لمع السراب (انعكاس للضوء يرى من بعيد كأنّه ماء): كناية عن الشباب. استراب فلان بفلان: رأى منه ما يريب (ما يدعو إلى الشكّ والتهمة).

(٤) هذه قطعة من الإنشاء المنمق. من أجل ذلك سأكتفي بالتفسير اللغوي. الجانحة (المائلة). الأصيل: من منتصف الوقت بين الظهر وغروب الشمس حتّى غروب الشمس. جانحة الأصيل: الشمس. القرص (قرص الشمس: جرمها - بالكسر). المُذهب (بالضمّ): الملوّن بلون الذهب. المَشوق: المحبّ. المَذهب (بالفتح): الطريق.

أمستْ شموسُ الأُنس محجوبةً عن عَيْني، وقد ضرب البُعْدُ الحِجَاب بينَها وبيني. وعلى كل حالٍ - من إقامةٍ وتَرحالٍ - فما محلك في قلبي محلاً فيها[1]، وما كُنتِ لِأَقْنَعَ من وَجْهِكِ تَخْييلاً وتشبيهاً. ومن أينَ ٱنْتَظَمَتْ لك عقودُ التشبيه، وأنتِ مُتَجمِّلةٌ بثَوْبَيْ زورٍ، وجيبُ الظلام على جِسْمِكِ حتّى الصباحِ مزرورٌ[2]. ووراءك من الصُّبْحِ غريمٌ مُطالبٌ تَتَقلّبُ في كَفَّيْهِ المطالب.

ويا برقَ الغَمام، مِنْ أيِّ حِجابٍ تَبْتَسِمُ! وبأيِّ صُبحٍ ترتسم! وأيَّ وجهٍ مِنَ السحاب تَسِمُ[3]؟ أليستْ مباسمُ الثغور لا تُنْجِدُ بأُفُقي ولا تَغور[4]؟ هذا، وإنْ كانت مباسِمُكَ مُفتَرّةً، فلَطالَما ضَحِكَتْ فأبكتِ الغواديَ وعطّلَتِ الرائحَ والغاديَ[5].......

- ومن مقطّعات ابن زمرك:

فؤادي قد تملّكهُ الغَرامُ، ووَجْدي لا يُطاق ولا يُرامُ[6].
ودَمْعي دونَه صَوْبُ الغوادي، وشَجْوي فوْقَ ما يشدو الحَمام[7].
إذا ما الوَجْدُ لم يَبْرَحْ فُؤادي، على الدنيا وساكِنِها السلام[8].

---

(١) محلّك (مكانك). محلّا (كذا بالأصل. اقرأ: محلّى: حُلواً، محبوباً).

(٢) ثوباً زور (باطل): الأفق والشفق على الأفق (؟) - لون الأفق الغربي بعد غياب الشمس يرى أجمل من لونه قبل غياب الشمس (؟). الجيب: مدخل العنق من الثوب. حتّى الصباح (طول الليل). مزرور (معقود بالأزرار): مغلق.

(٣) ما أجمل الحجاب (الستار: صفحة الغيم) الذي تبتسم (تلمع) من خلاله. وما أجمل النور الذي تتمثّل به (عند البرق). وما أجمل صفحة الغيم التي تضيئها عند لمعانك (يا برق).

(٤) مباسم الثغور (جمع ثغر: فم المحبوب). لا تنجد: لا ترتفع (لا تشرق: لا تظهر بعد أن تكون مختفية) ولا تغور: تغيب (كالشمس العاديّة). ضحك الغيم: أبرق. أبكى الغوادي (جمع غادية: الغمام المقبلَ صباحاً) فأبكتها (جعلتها تمطر).

(٥) الرائح: الراجع (في المساء) إلى مكانه الأصلي (بيته). الغادي: المنطلق في الصباح إلى ما يقصد (إلى عمله).

(٦) الوجد: ألم الحبّ. لا يطاق (لا يطيقه أحد إذا فُرض عليه) ولا يرام (لا يطلبه أحد باختياره).

(٧) دونه: أقل منه. صوب: هطول، انسكاب، انصباب. الغوادي: الغيوم الممطرة في الصباح. الشجو. الحزن. - الحمام دائم التصويت.

(٨) الوجد: الحبّ. بَرِح: ترك.

★أيا لائمي في الجودِ، والجودُ شيمتي ، جُبِلتُ على إيثارها يومَ مَوْلدي [١].
ذَريني ، فلو أنّي أُخَلَّدُ بالغِنى لَكنتُ ضنيناً بالذي ملَكَتْ يدي [٢].
★ لقد علم الله أنّي آمرُؤٌ أُجَرِّرُ ثوبَ العَفافِ القشيبْ [٣].
فكم غمّضَ الدهرُ أجفانَه وفازتْ قِداحي بوَصْلِ الحبيبْ [٤]،
وقيل: رَقيبُكَ في غَفلةٍ؛ فقلتُ: أخافُ الإلَهَ الرقيبْ.

٤ - ★★ الكتيبة الكامنة ٢٨٢ - ٢٨٨ ؛ الإحاطة (القاهرة ١٣١٩ هـ) ٢ : ٢٢١ - ٢٢٠ ؛ نثير الجمان ٣٢٧ - ٣٢٩ ؛ الدرر الكامنة (حيدر آباد) ٤ : ٣١٢ - ٣١٣ ؛ نيل الابتهاج ٢٨٢ - ٢٨٣ ؛ نفح الطيب ٥ : ٤٦ - ٥٠ ، ٧٥ - ٨٠ ، ١٣٤ - ١٣٦ ، ١٦٩ - ١٨٠ ، ١٩٤ - ١٩٧ ، ٧ : ١٤٥ - ١٦٦ ، ٢٧٩ - ٢٨١ ؛ أزهار الرياض ٢ : ٧ - ٢٠٦ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٩٧٢ - ٩٧٣ ؛ بروكلمن ٢ : ٣٣٦ ، الملحق ٢ : ٣٧٠ ؛ نيكل ٣٦٦ - ٣٦٩ ؛ مختارات نيكل ٢١٦ - ٢١٨ ؛ الاستقصا ٢ : ١٢١ - ١٢٢ (وصف الزرافة)؛ الأعلام للزركلي ٨ : ٢٨ (٧ : ١٥٤)؛ مجلّة العربي (الكويت) أيلول - سبتمبر ١٩٦٢ (ص ١٠٨)؛ بالنثيا ١٣٩ - ١٤٢ .

ابن فَرْحون

١ - هو بُرهانُ الدين إبراهيمُ بنُ عليٍّ بنِ محمّدِ بن أبي القاسمِ بن محمّدِ بن فَرْحونٍ اليَعْمَريُّ الأندلسيّ المالكي الأُباني[٥] (بضمّ الهمزة) الجَيّانيُّ نِسبةً إلى بَلَدَيْنِ في الأندلس.

وُلِدَ ابنُ فرحون في المدينةِ وبَدَأ دِراسته على أبيهِ وعمّهِ وعلى جمالِ الدين أبي عبدِ

---

(١) الشيمة: الخصلة. الإيثار: التفضيل.
(٢) ذريني: اتركيني. اخلّد: أبقى في الحياة إلى الأبد. ضنين: حريص، بخيل. - لكنت ضنياً.... (لما أنفقت كلّ ما كنت أملكه).
(٣) ثوب العفاف (كناية عن العفّة: ترك إتيان ما هو حرام في الدين وفي الخلق). القشيب: الجديد. ما زال عفافي جديداً (لم أدنّسه بشيء حرام).
(٤) كثيراً ما سنحت لي فرصة للاتّصال بالمحبوب، ولم يكن أحد يرانا.
(٥) في تطريز الديباج (ص ٣٠): الإياني (بالياء).

اللهِ محمّدِ بن أحمدَ بن خَلَفٍ المَطَرِيّ الخَزْرجي (ت ٧٤١ هـ) وكان خطيبَ المدينة وكبير المؤذّنين فيها. وكانَ الحديثُ أكثرَ دراسته.

ورَحَلَ ابنُ فرحون مراراً إلى مِصْر. وفي سنة ٧٩٢ زارَ القُدْسَ والشامَ وحجّ ولَقِيَ (في الحجّ) أبا عبدِ اللهِ محمّدَ بنَ محمّدِ بنِ عَرَفَةَ الوَرْغاميَّ التونسيّ (٧١٦-٨٠٣ هـ) فأُعْجِبَ بهِ ابنُ عَرَفَةَ وأجاز له رِوايةَ جميعِ ما سَمِعَه منه ورواية جميع كتبه. وفي رَبيعٍ الآخِرِ من سنة ٧٩٣ (١٣٩١ م). عُيِّن قاضياً في المدينة.

وكانت وفاةُ ابنِ فرحون في العاشرِ من ذي الحِجّة من سنة ٧٩٩ (١٣٩٧/٩/٤ م)، بعد أن فُلِجَ شِقُّه الأيسرُ.

٢ - كان ابنُ فرحونٍ من أهلِ بيتِ علمٍ ومن صدورِ المدرّسين واسعَ المعرفةِ حَسَنَ التحقيق رأساً في أصولِ الفِقهِ وفروعهِ وبالفروضِ والوثائق[١] عارفاً بالتاريخ والنحو والطِّبّ أيضاً. وقد كان شديدَ النُّصرة لمذهبِ الإمامِ مالكٍ. ولابنِ فرحونٍ تآليفُ منها: تسهيلُ المُهمّات في شرح جامع الأمّهات (وهو شرح لمختصر ابن الحاجب[٢]، وقد جمَعَه من نَفَرٍ من الشُرّاح) في ثمانيةِ أسفارٍ - تَبْصِرَةُ الحُكّام في أصولِ الأقضية ومناهج الأحكام - درّة الغوّاص في مُحاضرة الخَواصّ (ألّفه ألغازاً على أبوابِ الفِقه) - كشف النّقاب الحاجبِ عن مُصطلح ابنِ الحاجب[٣] - ارشاد السالكِ إلى أفعالِ المناسك (في الحجّ) - المُنْتَخَبُ في مُفردات ابن البيطار[٤] (في الطبّ والأدوية) وغيرِ ذلك ممّا لم يُتِمَّ تأليفه. وقد شُهِرَ بكتابهِ: « الديباج المُذْهَبُ في أعيان علماءِ المَذْهب » انتهى من تأليفه في شَعبانَ من سَنَةِ ٧٦١ (١٣٦٠ م). يبدأ هذا الكتاب بمقدّمةٍ قصيرةٍ (راجع مختارات من آثاره) يأتي بعدَها فِهرسٌ موجَزٌ (غيرُ الفهرس المقيّد بالصَفَحات (والذي ألحقه الناشرُ بالكتاب). ثمّ تأتي تِسْعَ عَشْرَةَ صفحةً

---

(١) الفروض والفرائض: تقسيم الإرث الوثائق والتوثيق(كتابة العهود والصكوك بين المتخاصمين والمتراضين والمتبايعين).

(٢ و٣) راجع ٣ : ٥٥٩ .

(٤) ابن البَيْطار: عبد الله بن أحمدَ المالَقيّ الأندلسيّ (ت ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م). من علماء النبات والأعشاب التي تدخل في الأدوية. الأدوية المفردة: الموادّ التي تدخل في تركيب الدواء.

في حياة الإمامِ مالكٍ وأحوالهِ وتآليفهِ ثمّ تأتي بعدَ ذلك التراجمُ على الحروف الهجائية.

٣- مختارات من آثاره

- من مقدّمة الديباج المذهب:

..... وبعدُ، فإنّ أَوْلى ما أُتْحِفَ به الطالبُ اللبيب ودُوِّنَ للأديبِ الأريب[١] التعريفُ بحالِ مَنْ جعَلَ تَقْليدَه بينَه وبينَ الله حُجّةً واتّخذ اقتفاءه هَدْيِهِ في الحَلال والحَرام مَحجّةً[٢]، ثمّ حالِ الرُّواةِ عنه والناقلين عنهم والمجتهدين في مَذهبِهِ والقائمين على أُصولهِ والمُفْتِين على قواعدِه والمُدَوِّنين لمسائلهِ وتَمْييزِ دَرَجاتِهم في العِلمِ والفَهْم والدِّين والوَرَع والتعريفُ بثقاتِهِمْ وشهادةِ أهلِ العِلمِ فيهم وفي مؤلّفاتهم. فَشَرَفُ العِلمِ بهذا الفنّ معلومٌ والجهلُ به مذموم. وليس هو مِمّا قِيل فيه: علمٌ لا ينفَعُ وجهالةٌ لا تَضُرُّ، فإنّ هذا مَقُولٌ في عِلم الأنساب[٣]، وهو فنٌّ غيرُ هذا.

وقد ذَكَرْتُ في هذا المجموعِ الوجيزِ مشاهيرَ الرُّواةِ وأعيانَ الناقلين للمذهبِ والمؤلّفين فيه ومَنْ تَخرّجَ به أحدٌ(*)من المشاهيرِ وجماعةٍ من حُفّاظ الحديث. وأضربتُ عن ذِكْرِ غيرِ المشاهير إيثاراً للاختصار، لأنّ الإحاطةَ بهم مُتَعَذِّرَةٌ واستيفاءَ مَنْ يُمْكِنُ ذِكْرُهُ يخرُجُ عن المقصودِ. وذكرتُ جماعةً من المتأخّرين مِمّنَ لم يبلُغْ دَرَجَةَ الأئمّةِ المُقتدى بهم قصداً للتعريف بحالِهم لكونِهم قَصَدوا التأليفَ ولأنّ لكلِّ زمانٍ رجالاً. وكذلك ذكرتُ بعضَ الرُّواة الحُفّاظ المتأخّرين لكونِهم من مشاهيرِ أهلِ زمانِنا. ولم يَقَعْ ترتيبُ أسمائهم في هذا التأليفِ على الوجهِ المطلوب، بل وَقَعَ فيه تقديمٌ وتأخير من غيرِ قَصْدٍ. وذكرتُ العُذْرَ عن ذلك في آخرِ الأسماء.

---

(١) الاتحاف: إهداء الأشياء الثمينة. الأريب: ذو الذكاء والفطنة (بكسر الفاء).

(٢) تقليده = تقليد المتأخّر للمتقدّم (تقليد الذين جاءوا بعد الإمام مالك لمالك). اقتفاء: اتّباع. المحجّة: الطريق المستقيم (الواضح).

(٣) علم الأنساب (النسب): قرابة بعض الناس من بعض.

(*) ... ومن تخرّج به أحد من المشاهير (وذكرت أشخاصاً من غير المشاهير إذا كان قد تلقّى العلم عليه رجل مشهور).

وبدأتْ بمُقَدِّمةٍ تشتملُ على ترجيحِ مذهبِ مالكٍ والحجّةِ في وجوبِ تقليدِهِ مُلَخَّصاً من كلامِ الإمامِ أبي الفضلِ عِياضِ بنِ موسى رَحِمَه اللهُ في مقدّمةِ كتابه المسمّى بالمدارك** .وأتْبَعْتُ ذلك بذِكْرِ الإمامِ مالكِ بنِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه والتعريفِ بنُبذةٍ يسيرةٍ من أحوالهِ. (ثمّ يأتي) ذكرُ مَنِ اشتملَ عليهم هذا التأليفُ مرتّباً على حُروفِ المُعجَمِ ليسهُلَ الكشفُ عن المطلوب. وسَمّيته « الدِيباجَ المُذْهبَ في أعيانِ عُلماءِ المَذْهب »....

٤ - تبصرة الحكّام.... (على هامش « فتح العلّي » لمحمّد بن عليش)، فاس (طبع حجر) ١٣٠١ هـ (راجع سركيس ١٣٧٤)؛ القاهرة (مطبعة شرف) ١٣٠١ هـ؛ القاهرة (مطبعة مصطفى محمّد) ١٣٠٢ هـ؛ القاهرة ١٣١٩ هـ.

- الديباج المذهب، فاس (طبع حجر) ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٩ هـ؛ القاهرة ١٣١٩ هـ؛ القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٢٩ هـ؛ القاهرة ١٣٣٠؛ (طبعة عباس بن عبد السلام بن شقرون)، القاهرة (مطبعة المعاهد) ١٣٥١ هـ.

* نيل الابتهاج ٣٠ - ٣٢؛ شذرات الذهب ٦ : ٣٥٧؛ الدرر الكامنة ١ : ٤٨؛ بروكلمن ٢ : ٢٢٦، الملحق ٢ : ٢٢٦ (أيضاً)؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٧٦٣؛ الأعلام للزركلي ١ : ٤٧ (٥٢)؛ معجم المؤلّفين لكحّالة ؛ سركيس ٣٠٢ - ٣٠٣.

أبو زيد المكّوديّ

١ - هو أبو زيدٍ عبدُ الرحمنِ بنُ عليٍّ بنِ صالحٍ المكّوديُّ، نِسبةً إلى بني مكّودٍ من قبائل هَوّارةَ (مسكَنُهم بينَ فاس وتازة) المُطرّزيُّ، وُلِدَ سَنَةَ ٧٢٦ للهِجرة أو ١٣٢٦ م (راجع سركيس ١٧٨٦).

تصدّرَ أبو زيدٍ المكّوديُّ لتدريسِ النَّحْوِ في فاس (راجع نفح الطيب ٥ : ٤٢٨)، وكانَ يُدرِّسُ الكتاب (كتابَ سِيبوَيْهِ) في مدرسةِ العطّارين - وهو آخِرُ من درّسَ هذا الكتابَ في فاس - إذ أصبحَ الاعتمادُ فيما بعدُ على ألفيّةِ ابنِ مالكٍ والتي كان المَكّوديُّ قد وضع عليها شَرْحاً جيّداً.

(**) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (بروكلمن ١ : ٤٥٦).

وكانت وفاةُ المكّوديّ هذا في فاس في الحادي عَشَرَ من شَعْبانَ ٨٠٧ (١٤٠٥/٢/١٣) في الأغلب.

٢ - كان أبو زيدٍ المكّوديّ، في زمنهِ، عالمَ فاسَ وأديبَها، بارعاً في الفِقه وفي العلوم اللسانية من اللغة والنحو والعَروض والأدب، كما كان شاعراً راجزاً ومُقَصِّداً. ثمّ إنّه كان مُصنّفاً له: شرحُ ألفيّة ابن مالكٍ - شرح مقدّمة ابن آجرّوم - شرح المقصور والممدود لابن مالك - البَسْط والتعريف في نظم علم التصريف - نظم المُعْرَب من الألفاظ - المقصورةُ (نحو ثلاثمائة بيت، أراد بها مدحَ الرسول ومُعارضة مقصورةِ حازمٍ القرطاجنّي. ولكنّها مملوة بالشكوى أيضاً. وفيها كثير من تَردادِ المعاني إلى جانبِ اتّكائه فيها على معاني السابقين، من كعبِ بنِ زهيرٍ، إلى ابن دريدٍ إلى حازمٍ القرطاجنّي إلى البُوصيريّ. وفي هذه المقصورة براعةٌ وسهولة وإن كان المكّوديُّ يتكلّفُ فيها الغريبَ من اللفظ أحياناً كما فعل في الأبيات المتعلّقة بوصف الجمل).

٣ - مختارات من آثاره

- من مقصورة المكّوديّ الفاسي:

أرّقـني بـارقُ نجـدٍ إذْ سَرى ... يُومِضُ ما بين فُرادي وثُنى[١].
فيـا لـه من بـارقٍ ذكّرني ... من الهوى ما كُنتُ عنه في غِنى.

- وبعد أن يصف روضاً بعد ليل من المطر يقول:

وأشْتكي دهراً دهـاني صَرْفُـه ... لمّا قضى بالبَيْنِ فيما قد قضى[٢].
منـازلٌ كانـتْ بنـا أواهـلاً ... نِلْنـا بها حيناً أساليبَ المُنـى.
كم بِـتُّ في أفيائهـا أجْري إلى ... غاياتِها بطِرْفِ جِدٍّ ما كَبا[٣].

---

(١) فرادي وثنى (قد يأتي البرق مرّة مرّة أو مرّتين مرّتين).
(٢) صرف الدهر وتصاريفه (مصائبه). البين: البعاد.
(٣) الطرف (بكسر الطاء): الفرس السابق. كبا: عثر، وقع.

وكم سَحَبتُ، إذ صَحِبت غِيدَها — بِرَوْضِها، ذَيْلَ السرورِ والهنا★.
وكـم لثمـتُ زَهْرَ ثغرٍ أشْنـبٍ — من شادنٍ عَذْبِ الثنايا واللَّمى[١].
وكم رَشَفْـتُ من رُضـابٍ سَلْسَلٍ — يفعلُ بالألبابِ أفعالَ الطِّلا[٢].
أيـامَ أزهـارُ المُنـى مُونقـةٌ — والدهرُ ذو وجهٍ مُنيرٍ مُجْتلى[٣].
يا ليتَ شِعْري، والأماني خُدَعٌ، — هل يَرْجعُ الدهرُ لنا عهداً مضى[٤]؟
وهـل لنـا من عَوَدةٍ لمعهـدٍ — صَبَوْتُ فيه جُلَّ أيامِ الصِّبا[٥].
والدهرُ في صُروفـهِ ذو عَجَـب — يُدني بها كلَّ جديدٍ لِلْبِلى[٦].
يُبكي إذا أضْحَكَ يوماً أهلَه، — ويُعْقِبُ الكربَ إذا العيشُ صفا.
هذي هي الدُّنيا فلا يَغْرُرْكَ ما — تراه فيهـا من سُرور وهنـا★،
فانْفِضَ يَدَيْكَ من عُراها وارْمِها — وادْرأْ بهاإن كنتَ من أهل النُّهى[٧].
وسِرُّكَ اكْتُمْـهُ عنِ الخَلْـقِ ولا — تُطْلِعْ عليه أحداً من الوَرى[٨].
واقنَعْ - على عِزٍّ - بما يَكْفي، ولا — تَحْرِصْ؛ فإنّ الحِرْصَ ذُلٌّ للفتى.
كم من صديـقٍ مُظْهرٌ لِوُدِّهِ — لكنْ لـه قلبٌ على الحِقد انطوى:
يَبَشُّ في وجهكَ إن لاقَيْتَـه، — وإنْ تَغِبْ يَغْتَبْكَ في كلّ مَلا[٩]؛
يُذيعُ ما يراه من قُبْحٍ، وإنْ — رأى جميلاً مِنْكَ أخفى ما رأى.

---

(١) الشنب: البياض في الأسنان: الشادن: الغزال الصغير. اللمى: السمرة في الشفاه.

(٢) الرضاب: الريق ما دام في الفمّ. السلسل: الذي يجري في الحلق بسهولة. اللبّ (بالضم): العقل. الطلاء (بالكسر): الخمر. ★ الهناء: القَطِران (والشاعر يقصد الهناءة: الفَرح والسرور).

(٣) مونقة: جميلة تعجب العين. مجتلى: يحبّ الناس أن ينظروا إليه.

(٤) خدع (بضمّ ففتح) جمع خدعة (بالكسر). وخدّع (بضمّ وتشديد أو بضمّ فضمّ) جمع خادع. رجع يرجع (فعل لازم ومتعدّ).

(٥) صبا: مال (سلك فيه مسلك المحبّين). جلّ: معظم، أكثر.

(٦) صروف الدهر: تقلّبه (ومصائبه). البلى: التهرؤ.

(٧) العروة (بالضمّ) الحلقة (للزرّ وشبهه)، ما يمسك به المتقلقل. ادرأ: ادفع (عنك بها مصائب الدهر). النهى: العقل.

(٨) الورى: الناس، مجموع الخلق.

(٩) ملا = ملأ: النخبة من القوم، (وهنا): كلّ مجمع من الناس.

كم خُضْتُ في بحرِ المعاصي جامِحاً لا أرْعوي نُصْحاً لِلَحْيِ مَنْ لحا[1]؟
وكم تَعِبْتُ إذْ تَبِعْتُ أملاً قدِ انقضتْ لَذّاتُهُ وما انقضى.
واحَسْرتا، قد مرّ عُمْري ضائعاً بينَ خُزَعْبَلاتِ لَهْوٍ وهوى.
هَلَكْتُ في الْمُلّاكِ لولا أنّني ذَخَرْتُ ذُخْراً أرْتجي به الهُدى.
وليس ذُخْري غيرَ مدحِ أحمدٍ سيّدِ أهلِ الأرضِ طُرًّا والسما[2]:
مقصورةٌ، لكنّها مقصورةٌ على امتداحِ المُصطفى خيرِ الورى[3].

- من شرح المكّوديّ على ألفيةِ ٱبنِ مالكٍ:

أمّا بعدُ فهذا شَرْحٌ مُختصَرٌ على ألفيّةِ ٱبْنِ مالكٍ مُهَذَّبُ المقاصدِ[4] واضحُ المسالكِ تُفْهَمُ به ألفاظُها ويَحْظى بمعانِيها حُفّاظُها، مُعْرِبٌ عن إعرابِ أبياتِها[5] ومُقَرِّبٌ لِما شَرَدَ من عِباراتِها[6]، من غيرِ تعرُّضٍ للنَّقْلِ[7] عليها ولا إضافةِ غيرِها إليها، ولا إنشادِ شَواهِدَ إلّا ما لا بُدَّ منه، ولا إيرادِ مَذاهِبَ إلّا ما لا مندوحةَ عنه[8]، يَستفيدُ به البادي ويَسْتحسِنُه الشادي[9]. والباعثُ على ذلك أن بعضَ الطَّلَبةِ المُبتدئينَ والفِئَةِ المُجتهدينَ المُعْتَنينَ بِحفْظها القانعينَ بمَعْرفةِ لَفْظِها طَلَبَ منّي أنْ أضعَ شَرْحاً على نحوِ ما ذَكَرْتُه و(أن) أُبيِّنَ ألْفاظَها ومَعانِيَها على حَسْبِ ما وَصَفْتُه. فأجَبْتُهُ إلى ما ٱقترَحَ عَلَيَّ وأسْعَفْتُه بما أمَّلَ لَدَيَّ. واللهُ سُبْحانَه وتعالى ينفعُنا وإيّاهُ بالعِلْمِ

---

(١) الجامح: الحصان الشارد: اللحي: اللوم.

(٢) أحمد من أسماء محمّد رسول الله.

(٣) مقصورة (الأولى): قصيّدة مبنية في قافيتها على الألف المقصورة. مقصورة (الثانية): قاصرة على (شيء واحد)، مخصوصة بشيء واحد. المصطفى من أسماء محمّد رسول الله.

(٤) مهذّب المقاصد: مختصر الأهداف (لم أذكر فيه جميع الوجوه التي تجوز في كلّ موضوع من مواضيع الصرف والنحو).

(٥) معرب: مبيّن. - وكثيراً ما يعرب المكّوديّ أبيات هذه الألفية.

(٦) لِما شرد من عباراتها (لمَا كان غير واضح من عباراتها).

(٧) للنقل (؟) = للنقد، للنقض (التنبيه على ما فيها من الخطأ أو على خلاف ما «نقله» النحاة الآخرون عن العرب).

(٨) مندوحة: متّسع (ما لا مندوحة عنه: ما لا بدّ منه).

(٩) الشادي: الذي حصّل طرفا من العلم (لا يكفي لأن يجعله عالماً).

ويرزُقُنا وإيّاه سَلامةَ الإدراكِ والفَهْمِ بِمَنّهِ[1] وكَرَمِهِ. آمين.

- ما لا ينصرف[2]:

(الصَّرْفُ تَنْوِينٌ أتـــى مُبَيِّنـــا   مَعْنًـى بـهِ يكونُ الآسْمُ أمْكَنـا)

يَعْنِي أنّ الصَّرْفَ هُوَ التَنْوِينُ الذي يَتَبَيَّنُ به أنّ الآسْمَ الذي يَتَّصِلُ به[3] يُسمّى أمْكَنَ[4]. وما صَرّحَ به من أنّ الصّرْفَ هُوَ التنوينُ هُو مذهبُ المُحققِّينَ. ويُمْنَعُ الآسْمُ من الصّرفِ لوجودِ عِلّتَيْنِ أو علّةٍ (واحدةٍ) تقومُ مقامَ عِلّتَيْنِ. وقصدُه في هذا البابِ أنْ يُبيِّنَ الأسماءَ التي لا تَنْصَرِفُ، وإنّما ذَكَرَ الصّرْفَ وعَرّفَه لِأنّ بِمَعْرفتِه يُعْرَفُ الآسْمُ الذي لا ينصَرِفُ. فما وُجِدَ فيه التنوينُ المذكورُ فَهُوَ مُنصرِفٌ، وما لم يُوجَدْ فيه (فَهُوَ) غيرُ مُنصرِفٍ. ثمّ آعْلَمْ أنّ جميعَ ما لا ينصَرِفُ آثْنا عَشَرَ نَوْعاً: خمسةٌ في النَّكِرَةِ وسبعةٌ في المَعْرفةِ.... قال:

(فألِــفُ التأنيــثِ مُطْلَقـاً مَنَـعْ   صَرْفَ الــذي حَواهُ كَيْفَما وَقَـعْ)

يَعْنِي أنّ «ألِفَ التأنيثِ» تَمْنَعُ مِنَ الصَّرفِ مُطلَقاً - أي مقصورةً كانتْ أو ممدودةً - كَيفَما كانَ الآسْمُ الذي هِيَ فيه، مِنْ كَوْنه نَكِرَةً أو معرفةً، مُفْرَداً أو جَمعاً، نحو: ذِكْرَى وسَلْمَى وحُبْلَى وسُكارَى وحمراءَ وأسماءَ وزكَرِيّا. وإنّما مَنَعتْ أَلِفُ التأنيثِ وحْدَها (الآسْمَ الذي هِيَ فيه من الصَّرْفِ) لأنّها قامتْ مقامَ عِلّتَيْنِ، وهُما التأنيثُ ولُزومُ التأنيثِ[5].

فـ «ألِفُ التأنيثِ» مُبتدأٌ، خَبَرُه «مَنَعَ»، و «مُطلقاً» حالٌ من الضميرِ المُستَتِرِ في «مَنَعَ» العائدِ على المُبتـدإِ. و «حَواهُ» صِلَةُ «الّذي». والضَّميرُ العائدُ مِنَ الصِّلَةِ إلى المَوْصول (هو) في «حَواهُ». والهاء في «حَواهُ» عائدةٌ على أَلِفِ التأنيثِ. وكَيْفَما

(١) المنّ: النعمة، الكرم (بفتح ففتح).

(٢) فيما يلي نموذج من هذا الباب (ما لا يصرف: الممنوع من الصرف)، ولم أورد فيما يلي كلّ ما ذكره صاحب الألفية وشارح الألفية من أنواع الكلمات التي تمنع من الصرف.

(٣) يتّصل به (التنوين) يقبل التنوين (جرت عادة العرب على تنوينه).

(٤) أمكن: متمكّن، ثابت في جميع وجوه الإعراب على القواعد العامّة المألوفة.

(٥) التأنيث ولزوم التأنيث: التأنيث بمعناه (علّة معنويّة) ولحاق علامة التأنيث به (علّة لفظيّة).

وَقَعَ شَرْطٌ حُذِفَ جَوابُه، لِدَلالةِ ما تقدَّمَ عليه[1]. والتقديرُ: «كَيْفَما وَقَعَ مَنْعُ الصَّرْفِ».

ثمّ أشارَ إلى النَّوعِ الثاني مِمّا يَمْنَعُ (الصرفَ) في النَّكِرَةِ فقالَ:

(وزائــدَا فَعْلانَ في وَصْـفٍ سَلِمْ   مِنْ أن يُرى بتـاءِ تأنيـثٍ خُتِمْ)

يعني أنّ «زائدَيْ فَعْلانَ» - وهُما الألِفُ والنونُ الزائدتانِ - يَمْنَعانِ الصَّرْفَ، إذا كانت في وَصْفٍ سَلِمَ مِنْ أنْ يُخْتَمَ بتاءِ التأنيثِ. والمانعُ له من الصرفِ الألفُ والنونُ والصِّفَةُ. وفُهِمَ منه أنّ ذلك مخصوصٌ بهذا الوَزْنِ الذي هو فَعْلانُ. وفُهِمَ من قولِهِ: «في وَصْفٍ»، أنّ هاتَيْنِ الزِّيادتَيْنِ لو كانتا في غيرِ الوَصْفِ لم يَمْنَعا، نحو سَرحانٍ[2]. وفُهِمَ منه (أيضاً) أنّ الوصفَ المُحتوي على هاتَيْنِ الزِّيادتَيْنِ إذا أُنِّثَ بالهاءِ لم يَمْنَعْ، نحوَ نَدْمانٍ فإنّ مُؤَنّثَه نَدْمانةٌ. فمِثالُ ما تَوَفَّرَتْ فيه شُروطُ المانعِ غَضبانُ وسكرانُ، فإنّك تقولُ في مُؤَنَّثِهِا: غَضْبَى وسَكْرَى، ولا يجوزُ فيهما غَضبانةٌ وسكرانةٌ.

و «زائدَا» معطوفٌ على الضميرِ المُستَتِرِ في «مَنَعَ» العائدِ على ألِفِ التأنيثِ. وجازَ العَطْفُ عليه للفَصْلِ بالمَفْعول[3]. والتقديرُ: (أنّ الذي) مَنَعَ الصَّرْفَ أَلِفُ التأنيثِ و «زائدَا فَعْلانَ». ويجوزُ أن يكونَ («زائدَا فعـلانَ») مُبتدأً، والخبرُ محذوفٌ لِدَلالةِ ما تَقدّمَ عليه، أي: و «زائدَا فَعْلانَ» كذلك[4]. و «سَلِمَ... إلى آخرِ البيتِ» في موضعِ الصِّفة لـ «وَصْفٍ». و «خُتِم» في موضعِ المفعولِ الثاني لـ «يَرى»[5]، و «بتاءِ» (جارٌّ ومجرورٌ) مُتَعلّقٌ بـ «خُتِم»....

---

(١) كيفما وقع منع من الصرف (لم يذكر «منع من الصرف» لأنّ هذا المعنى تقدّم على اسم الشرط وفعله «كيفما وقع»).

(٢) السرحان: الذئب.

(٣) «وزائد فعلان» معطوف على «ألف التأنيث» (في البيت السابق). والفصل بالمفعول (مجيء «صرف» الذي حواه - وهي مفعول به - معترضة بين الفعل «منع» وفاعله «زائدا فعلان»).

(٤) «كذلك»: جار ومجرور (خبر «زائدا فعلان»، أو في محلّ خبر).

(٥) «سلم من أن يرى مختوماً بتاء التأنيث» جملة فعلية في محلّ نعت لكلمة «وصف». و «يرى بتاء تأنيث ختم»: يرى فعل مبني للمجهول. ونائب الفاعل ضمير مستتر فيه تقديره هو (يرجع إلى اسم). و «ختم» جملة فعلية من الفعل «ختم» ونائب الفاعل المستتر فيه في محل مفعول به ثان للفعل المجهول «يرى».

(فالأدْهَمُ القَيْـدُ لِكَوْنِـهِ وُضِعْ   في الأصلِ وَصْفاً ٱنصرافُه مُنِعْ)

من أسماءِ القَيْدِ «أدْهَمٌ»، وهُوَ في الأصلِ، وصفٌ؛ لكنّه ٱستُعْمِلَ ٱستعمالَ الأسماءِ فألْغِيَتْ فيه الاسميّةُ وبَقِيَ غيرَ مُنصرِفٍ على مُقْتضى الأصْل، فتقولُ: «مَرَرْتُ بأدْهَمَ»، أي بِقَيْدٍ. ومثلُ «أدْهَمَ» في ذلك «أرْقَمَ» لِنَوْعٍ من الحيّاتِ و «أسودَ» للحيّة أيضاً.

فـ«أدْهَمُ» مُبتدأٌ، و «القَيْدُ» بَدَلٌ منه – بدلُ الشَّيءِ مِنَ الشيءِ[1] –. و «لِكَوْنِهِ» مُتعلِّقٌ بـ«مُنِعَ». و «في الأصلِ» مُتعلِّق بـ«وُضِعَ».

ثمّ إنّ من الأسماءِ التي على وَزْنِ «أفْعَلَ» ما جاء فيه الصرفُ ومَنْعُ الصرفِ (معاً). وإلى ذلك أشارَ (ٱبنُ مالكٍ) بقولِهِ:

(وأجْـدَلٌ وأخْيَـلٌ وأفْعـى   مصروفـةٌ. وقـد يَنَلْنَ المَنْعـا)

«أجدلٌ» ٱسمٌ للصَّقْر. و «أخْيَلٌ» ٱسْمٌ لطائرٍ ذي خَيلانٍ[2]. و «أفعى» ٱسمٌ لضَرْب[3] من الحيّـات. وليستْ هذه الأسماءُ صِفاتٍ – لا في الأصلِ ولا في الاستعمالِ – فحقُّها الصرفُ، ولذلك صَرَفَها أكثرُ العربِ. وبعضُ العَرَبِ يمنَعُها من الصرفِ، ووَجْهُه[4] أنّه[5] لاحَظَ فيها معنَى الصِّفَة، وهُوَ ظاهرٌ في «أجْدَلِ» لأنّه مِنَ «الجَدْلِ» وهُوَ القوّةُ. و «أخْيَلٌ» (يُمْكِنُ أنْ تُمنَعَ من الصَّرْفِ) لأنّه من «الخيول» (؟)، وهُوَ الكثيرُ الخَيَلانِ. وفُهِمَ من قولِهِ: «مصروفةٌ، وقَدْ يَنَلْنَ (المَنْعا)» أنّ الصَّرفَ هو الكثيرُ[6]......

٤- شرح ألفيّة ابن مالك، فاس بلا تاريخ؛ فاس ١٢٩٤ هـ، فاس ١٣١٨ هـ؛ ثمّ في مصر، (بهامش حاشية أحمد الملوّي) طبع حجر ١٢٧٩ هـ؛ مصر (مطبعة محمّد مصطفى) ١٣٠١ هـ،

---

(١) أي بدل كلّ من كلّ: المُبدل منه (البدل) هو المُبدل نفسه.

(٢) الخيلان: التكبّر والإعجاب بالنفس.

(٣) ضرب: نوع.

(٤) وجهه (وجه منعه من الصرف أو سبب منعه من الصرف).

(٥) أنّه (أن بعض العرب).

(٦) الغالب أنّه مصروف أكثر منه ممنوعاً من الصرف.

١٣٤٥ هـ؛ مصر (المطبعة الشرفية) ١٣٠٣ هـ؛ مصر (المطبعة الخيريّة) ١٣٠٥ هـ؛ مصر (المطبعة الميمنيّة) ١٣٠٥ هـ؛ ثمّ مصر ١٣٢٠ هـ.

- شرح مقدّمة ابن آجرّوم، تونس ١٢٩٢ هـ؛ مصر ١٣٠٤ هـ؛ مصر (مطبعة عبد الرزّاق) ١٣٠٩ هـ؛ ١٣٤٥ هـ؛.
- شرح مقصورة ابن حازم القرطاجنّي (نشرها عبد الله كنوّن)، القاهرة ١٣٥٧ هـ.
- البسط والتعريف في نظم العلم الشريف (عليها شرح بعنوان: الفتح اللطيف لمحمّد بن أبي بكر الصغير المتوفّى سنة ١٠٨٩ هـ = ١٦٧٨ م)، فاس ١٣١٥ - ١٣١٦ هـ.

★★ الضوء اللامع ٤ : ٩٧؛ نيل الابتهاج (مصر) ١٦٨ - ١٦٩ (١٤٥)؛ بغية الوعاة ٣٠٠؛ شذرات الذهب ٨ : ٤؛ النبوغ المغربي ٢١٠، ٨١٠ - ٨١٧، ٩١٧؛ الأدب المغربي ٢٧٨ - ٢٨٠؛ بروكلمن ٢ : ٣١٠، ٣٦١، الملحق ٢ : ٣٣٦، ٥٢٤؛ الأعلام للزركلي ٤ : ٩١ (٣ : ٣١٨)؛ معجم المؤلفين لكحالة ٥ : ١٥٦؛ سركيس ١٧٨٦ - ١٧٨٧.

ابْنُ خَلدُون

١ - لما فتَحَ المسلمون الأندلسَ دخَلَ مَعَ جيوشِ الفتحِ رجلٌ يمنيٌّ من عرب حَضْرَمَوْتَ[١] آسمُه خالدُ بنُ الخطّاب. وسكن خالدٌ هذا في قَرَمونةَ ثم آنتقل إلى إشْبيليةَ حيث عُرِف بآسم خَلْدونٍ (تصغير خالد: خالد الصغير)[٢]. ولما آشتدّ خطَرُ الإسبانِ على إشبيليةَ سَنَةَ ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) هَجَرَها آلُ الخطّاب إلى ثغر سَبْتَةَ[٣]. ثم آنتقلَ محمدٌ جدُّ فيلسوفِنا إلى تُونِسَ ووَلِيَ الوزارةَ حيناً. وكذلك مالَ والدُ فيلسوفنا (وآسمه محمدٌ أيضاً) إلى الشؤون العسكرية والإدارية، ولكنه عادَ فشُغِفَ بالعِلم وأصبح

---

(١) حضرموت منطقة في جنوبي شبه جزيرة العرب.

(٢) يرى عبد الله كنّون (مجلّة «البحث العلمي»، الرباط، جمادى الآخرة - رمضان ١٣٨٤ هـ، ص ١٢٧ - ١٣٦) أن صيغة «خلدون» عربية تفيد التعظيم بدلالته الجَمْعية (أي بالواو والنون الملحقتين به) وهما في رأيه علامة جمع المذكّر السالم؛ وعندي أن الواو والنون لاحقة تفيد التصغير والتحبّب، ففي المشرق يقال عند التصغير والتحبّب كلبون وسعدون، صغيرون، الخ. وربّما استعملت صيغة فعّول لهذا الغرض في الأسماء المذكّرة والمؤنّثة نحو: قدّور (تصغير عبد القادر) فطّوم، عيّوش (تصغيراً لفاطمة وعائشة) الخ.

ثِقةً في الفِقه واللُّغة، وقد تُوُفِّيَ بالطاعون الجارف[1] الّذي ذهَبَ فيه كثيرون من العُلماءِ سَنَةَ ٧٤٩ هـ (١٣٤٩).

أما ٱبنُ خَلْدونٍ نفسُه (وهو وَلِيُّ الدين أبو زيدٍ عبدُ الرحمن بنُ محمدِ بنِ محمد... ابنِ خالدِ بنِ الخطاب) فقد وُلِدَ في تونس غُرَّةَ رَمَضانَ ٧٣٢ (٢٧/ ٥/ ١٣٣٢ م). وتلقّى، على أبيه وعلى بعض عُلماءِ تُونِسَ والواردين إليها، القُرآنَ العظيم حفظاً وتفسيراً ثم الحديثَ والفِقهَ واللغة والنَّحْوَ وكثيراً من الشعر.

وفي سَنَةِ ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) ٱلْتَحَقَ ٱبنُ خَلدونٍ بحاشية أبي الحسن المَرينيّ سُلطانِ مَرّاكُش[2]. غيرَ أنّ أوّل عهدِه بمراتبِ الدولة فعلاً كان سَنَةَ ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م)، فقد تولى «كتابة العلامة» (ديوان الرسائل) لأبي محمدِ بن تافراكين المُستبدِّ على الدولة يومئذ بتونِسَ. ثم إنه وُصف لأبي عنانٍ صاحب فاس[3]، وكان يجمع العلماءَ في بَلاطه، فٱستقدمه عامَ ٧٥٥ هـ ثم ٱستخدمه في آخرِ سَنَةِ ٧٥٦ هـ (آخر عام ١٣٥٥ م)، ثم غضب عليه فسجنه سنة ٧٥٨ هـ[4].

وتقلّب ٱبنُ خَلدونٍ في البلاد فكان عند بني مَرين في فاس (٧٦٠ هـ = ١٣٥٩ م)، وعند بني عبد الواد في تِلِمْسان (٧٦٣ هـ) ثم عند بني الأحمر في غَرْناطة (٧٦٤ هـ)؛ فأرسله بنو الأحمر في سِفارة إلى بَطْره ملكِ قشتالةَ (بطرسَ الرابعِ القاسي) لإتمام عَقْدِ الصُّلحِ بينَه وبين ملوك المغرب. ثم ٱنتقل هو إلى المغرب، ولكنّه سَئِمَ التَّطواف والمناصب وخاف عواقبَ السياسة فآثرَ الٱعتزال في قلعةِ ٱبنِ سلامةَ، شَرْقَ تِلِمْسانَ، فمكَث عند بني العريف أربعَ سَنَواتٍ وبدأ بتأليفِ كتابه في التاريخ. ولكنّه ٱحتاج إلى موادَّ لكتابه لم تكن متيسّرة في قلعة ٱبنِ سلامةَ فذهَبَ إلى تُونِسَ (٧٨٠ هـ = ١٣٧٨ م).

---

(١) هو الطاعون الذي عمّ أوروبّة وعرف عندهم باسم «الموت الأسود».

(٢) أبو الحسن علي بن عنان، تولى الملك من المحرم ٧٣٢ إلى جمادي الآخرة ٧٤٩.

(٣) المتوكل على الله أبو عثمان فارس بن علي، جاء بعد أبيه أبي الحسن علي وبقي في الملك إلى الخامس والعشرين من ذي الحجة من سنة ٧٥٩.

(٤) راجع القصيدة التي نظمها ابن خلدون في مديح أبي عنان (في المختارات من آثاره).

وفي سنة ٧٨٤ هـ (١٣٧٢ م) سار ٱبنُ خَلدون إلى الحجّ، ولكنّه لمّا وصَل إلى مِصْرَ عُرِضَ عليه القضاءُ على المذهب المالكيّ فقبِلَه، فتأخرّ ذَهابُه إلى الحجّ حتّى سَنَةِ ٧٨٩ هـ. وعاد من الحج إلى القاهرة وٱنقطع فيها للتدريس حيناً ثم عاد إلى تولّي القضاء (٨٠١ هـ = ١٣٩٩ م).

ولما غزا تَيْمورلَنْكُ سورية ذهَبَ الملكُ الناصرُ فَرَجُ[١] ٱبنُ الملكِ الظاهر برقوقَ إلى دِمَشْقَ لِيُفاوِضَ تيمورَ وٱصطحب معه العلماء وفيهم ابن خَلدونٍ. ثم سمع الناصر فرجٌ بمؤامرةٍ عليه في مِصْر فٱضْطُرّ إلى العودة. فحَمَلَ ٱبنُ خَلدونٍ التَّبِعَةَ كُلَّها وذهَب سِرًّا على رأس وفدٍ لمفاوضة تيمورَ في الصلح وألْقى بين يديه خُطبةً نفيسة؛ فأكرمه تيمورُ عليها وأعاده إلى مِصْرَ. وتولّى ٱبنُ خَلدونٍ القضاءَ بِمصرَ بعدَ ذلك مِراراً، ثم وافاه اليقينُ بالقاهرة في ٢٥ رَمَضانَ ٨٠٨ هـ (١٥ آذار - مارس ١٤٠٦ م).

٢ - ابنُ خَلدونٍ أديبٌ وشاعرٌ وناقدٌ، ثمّ هو عالمٌ وفيلسوفٌ. وهُوَ واضعُ عِلْمِ الآجتماع ومُدَوِّنُ فلسفةِ التاريخ. أمّا أعظمُ آثارِه فهُوَ كتابُه المشهورُ في التاريخ «كِتابُ العِبَرِ وديوانُ المُبتدإِ والخَبَرِ في أيّام العَرَب والعَجَمِ والبربرِ ومن عاصَرَهُمْ من ذوي السُّلطانِ الأكبر»[٢]. وأهمّ أقسامِ هذا الكتابِ عامّةً وخاصّةً الجزءُ الأوّلُ منه وهُوَ المعروفُ بٱسمِ مُقدّمة[٣] ٱبْنِ خَلْدونٍ أو بٱسم «المُقدّمة» فحَسْبُ.

ولابنِ خَلدونٍ في «مُقَدِّمَتهِ» أسلوبانِ أسلوبٌ أنيقٌ كثيرُ التكلُّفِ والتَّصْنيعِ

---

(١) السلطان ناصر الدين فرج بن برقوق من سلاطين المماليك البرجية (في مصر) جاء إلى العرش في شوال من سنة ٨٠١ ثم بقي على العرش (في المرة الأولى) إلى ربيعٍ الأول من سنة ٨٠٨ (قبل وفاة ابن خلدون بستة أشهر).

(٢) تيمورلنك (؟). - تيمورلنك (تيمور الأعرج)، ولد سنة ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ م)، تولّى الملك على بلاد ما وراء نهر جيحون (التركستان) من سنة ٧٧٢ إلى سنة ٨٠٨ (١٣٧٠ - ١٤٠٥ م) وكان فاتحاً ظالماً وسفّاكاً للدماء. ومنذ سنة ٧٨٢ هـ بدأ باجتياح إيران (فارس) وما يجاورها من البلاد. ثمّ اقتحم الشام (سورية) وخرّب حلب ودمشق وبغداد (٨٠٤ - ٨٠٥ هـ) وهزم بايزيد يلديرم (بايزيد الصاعقة) سلطان الدولة العثمانية، قرب أنقرة، سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م). ثمّ توفّي تيمورلنك عشية عزمه على اقتحام الصين، سنة ٨٠٨ للهجرة (في السنة التي توفّي فيها ابن خلدون). وتيمورلنك، كان برغم كلّ قسوته ومظالمه مسلماً مؤمناً وأديباً محبًّا للأدب.

(٣) مقدّمة (بكسر الدال المشدّدة أو بفتحها).

تَجدُه في ديباجةِ المقدّمةِ وفي عددٍ من المواضعِ من فُصولِ المُقدّمة ثمّ أُسلوبٌ سَهْلٌ مُرْسَلٌ نَجدُه في فُصول المقدّمة عامّةً (ذلك لأنّ فصولَ الكتابِ الأُخرى مِنَ الأجزاء السِّتّةِ الباقيةِ أكثرُها نُقولُ عن آخَرينَ).

وهنا موضع كلامٍ على زمنِ تأليف كتاب « العِبَر ». يقولُ ٱبنُ خَلدونٍ (في آخرِ الجزء الأوّل: المقدّمة):

« أتْمَمْتُ هذا الجزءَ الأوّلَ بالوَضْع والتأليف، قبلَ التنقيح والتهذيب، في مُدّة خمسةِ أشهُرٍ آخِرُها مُنْتَصَفُ عامِ تسعةٍ وسبعينَ وسَبْعِمِائةٍ[1]. ثمّ نَقّحْتُه بعدَ ذلك وهذّبْتُه وألْحَقْت به تواريخَ الأمم ».

تناولَ عبدُ الرحمن بَدويّ هذا الموضوعَ (مؤلّفاتِ ٱبنِ خلدون، ص ٣٤ - ٤٠) ومالَ إلى أنْ يكونَ ابنُ خَلدونٍ قد وَضَعَ كتابَه كُلَّه (سبعةَ أجزاء) في نسختِه الأولى على الأقلِّ، في مَدى خمسِ سَنَواتٍ (راجع ص ٣٦). والذي أميلُ إليه أنا أنّ ٱبنَ خَلدونٍ قد « دَوّنَ » في هذه المدّةِ ما كان قد جَمَعَهُ من قبلُ مِنْ موادِّ كتابه. وعندي أيضاً أنّ « المقدّمةَ » (أو الجزءَ الأوّلَ) قد كُتِبَتْ بعدَ جمع تلك الموادِّ. بهذا وحْدَهُ نستطيعُ فَهْمَ قولِ ابنِ خَلدونٍ (التعريف برحلةِ ابن خلدون، ص ٢٢٩): « وشَرَعْتُ في تأليفِ هذا الكتابِ وأنا مُقيمٌ (بقلعة ٱبن سلامة) وأكْمَلْتُ المقدّمةَ على ذلك النحو الغريبِ الذي ٱهْتَدَيْتُ إلَيْهِ (تعليل التاريخ: فلسفة التاريخ) في تلك الخَلْوةِ. فسالَتْ شآبيبُ[2] الكلامِ والمعاني على الفِكْر حتّى ٱمْتُخِضَتْ زُبْدتُها[3] وتألّفتْ نتائجُها ».

إنّ هذا يدُلُّ على أنّ ذلك الموضوعَ كلَّه كان في ذِهنِ ٱبنِ خَلدونٍ مدّةً طويلةً - يعمَلُ في عقلهِ الباطن - كما يقولُ عُلماءُ النفس - والاّ فليسَ من المألوفِ أن يكتُبَ إنسانٌ مثلَ هذا الموضوعِ الجديدِ المُتشعّبِ المُزْدَحِمِ بالأقوالِ وبالأحْداث على سبيلِ الاستشهاد والتمثيلِ، وفي نَحْوِ مِائَةٍ وسَبعينَ ألْفِ كَلِمَةٍ (في النسخة الأُولى من

(١) عام ١٣٧٧ للميلاد.

(٢) الشؤبوب (بالضمّ): الدفعة (بالضمّ) من المطر.

(٣) امتخض اللبن (الحليب) تحرّك في وعائه. والمقصود هنا « مُخضت » (بالبناء للمجهول) زبدتها: انفصل السمن من المخيض (ماء اللبن)، ظهرت وتكوّنت خلاصته.

المقدّمة)، في خمسةِ أشهرٍ. فلَعَلّ ابنَ خَلدونٍ كان قد جمَعَ موادَّ كتابهِ كُلّها ثمّ جلَسَ في تلك المُدّة يُؤلّفُ (يجمَعُ بعضَ موادِّه إلى بعضٍ) فبدأ، بطبيعةِ الحالِ، بالجزء الأوّلِ ثمّ آنتقَلَ إلى تهذيبِ الأجزاء الباقية. ومَعَ ذلك فالموضوعُ يحتاجُ إلى دراسةٍ داخليّة (مقارَنَةِ نصوصِ المقدّمةِ أوِ الجزءِ الأوّلِ بنُصوصِ الأجزاءِ الباقية).

★ ★ ★

وابنُ خَلدونٍ مُحيطٌ بكثيرٍ من علومِ الأقدمين قبلَ الإسلام ومن العلومِ الحادثةِ بعدَ ظُهورِ الإسلام، في الفلسفةِ النَّظريّة وفي العِلم العَمَليّ معاً. ومَعَ أنّ آبنَ خَلدونٍ أشعَرِيٌّ في حياتهِ العَمَليّة (يُفضّلُ الرِّوايةَ الدينيةَ على الأخذ بالعَقْل)، فإنّه عِنْدَ البحثِ في كُلِّ شيءٍ من وُجوهِ الثَّقافة الإنسانية (في الفَلْسفةِ وفي الدين أيضاً) مُعتزليُّ المَنْهج (يأخذُ بقواعدِ المَنْطق وبما يدُلّ عليه العَقْلُ ثمّ بما هو مُشاهَدٌ في الآجتماعِ الإنسانيّ).

وهُوَ أيضاً عالمٌ حَسَنُ الرِّوايةِ للعِلْم مُنْصِفٌ لخُصومِه واضحٌ في بَحْثه يَعْرِضُ رأيَ الخَصْمِ كما يقولُ الخَصْمُ - وإنْ كانَ ذلك الرأيُ مُخالفاً لرأي ابنِ خَلْدونٍ نفسِه أو لاعتقاده أيضاً، كما نرى عِنْدَ كلامِه على اليهود والنصارى، في الفصلِ الثالثِ والثلاثينَ مِنَ الفصلِ الثالثِ (في طبعة دار الكتاب اللبنانيّ: من «الباب» الثالث) من الكتاب الأوّل[1] مثلاً.

وإذا عرَض آبنُ خَلدونٍ للعلوم الطبيعيّة أوِ الرياضيّة - وَهِيَ ليستْ علوماً داخلةً في آختصاصه - فإنّه يُحْسِنُ عَرْضَها وتَفْهيمَها إلى حدٍّ كبيرٍ، كما نرى عِنْدَه في الكلامِ على الحِساب والهَندسة أو على الفَلَكِ والجغرافية أو على الكيمياء والطِّبّ[2].

وآبنُ خَلدونٍ مُؤلِّفٌ له[3] (غيرُ كتابِ العِبَر): لُباب المُحَصَّل[4] في أُصول

---

(١) راجع المقدّمة (بيروت ١٩٠٠ م)، ص ٢٣٠ - ٢٣٥؛ بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦١ م، ص ٤٠٨ - ٤١٦.

(٢) مثلها، ص ٤٨٢ وما بعدها ثمّ ص ٨٩٤ - ٩١٩.

(٣) مؤلّفات ابن خلدون، ص ٩ وما بعد.

(٤) «محصّل أفكار المتقدّمين والمتأخّرين» أو «المحصّل من نهاية العقول في علم الأصول»: كتاب في الفلسفة العقلية أو فلسفة ما بعد الطبيعة (بروكلمن ١ : ٦٦٨) للفخر الرازيّ، وهو أبو عبد الله محمد بن عمر، ولد =

الدين - تلخيصُ عددٍ من كتب ٱبْنِ رُشْدٍ[1] - تَقْييدٌ في المَنْطِق - كتابٌ في الحِساب - شَرْحُ رَجَزٍ في أُصولِ الدين لِلِسانِ الدين بنِ الخطيب[2] - شرحُ البُرْدَة[3] - شِفاءُ السائل لتهذيبِ المسائل[4].

ويَنْظِمُ ٱبنُ خَلدونٍ الشعرَ فيُطيلُ. ومُعْظَمُ شِعرِه في المديح وفيا يتّصلُ بالمديح. وفي شِعرِه مَعانٍ كثيرةٌ أكثرُها يَرِدُ عند كِبار شُعراءِ العربية من أمثالِ أبي تمّامٍ وٱبنِ الرومي والمُتنبّي. وفي قوافيهِ خاصّةً كثيرٌ من الألفاظ على صِيَغٍ غير مألوفةٍ، وكثيرٌ من قوافيهِ قَلِقٌ مَجْلوبٌ (لا يَنْزِلُ في خِتامِ الأبياتِ مَنزِلةً مألوفةً أوْ مُستقرّةً). وعلى شِعره عامّةً قَدْرٌ كبيرٌ من الجَفاف وقِلّةِ الطَّلاوة. وكان ابنُ خَلْدونٍ يشعُرَ بذلك كُلّه، ولذلك قال:

وما كان لي نَظْمُ القَريضِ بِضاعةً، ولكنْ دعاني نَحْوَ مَدْحِكَ جاذِبُ.

٣ - مختارات من آثاره

- من المقدّمة

(أ) من الديباجة:

الحمدُ للهِ الذي له العِزّةُ والجَبَروتُ، وبيده المُلْك والمَلَكوت[5]، وله الأسماءُ الحُسنى

= سنة ٥٤٣ أو ٥٤٤ للهجرة (١١٤٨ - ١١٥٠ م). وهو من المفسّرين (للقرآن الكريم) ومن الفقهاء والفلاسفة. كانت وفاته سنة ٦٠٦ هـ (١٢١٠ م).

(١) من كتب ابن رشد التي كان ابن رشد قد لخّصها من كتب أفلاطون وأرسطو، فيا يبدو، ككتاب السياسة (المعروف باسم «الجمهورية») لأفلاطون، وكتاب السياسة لأرسطو (راجع مؤلّفات ابن خلدون، ص ٩ - ١٠).

(٢) لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ).

(٣) البردة: بديعية (قصيدة في مدح محمّد رسول الله) لكعب بن زهير المتوفّى سنة ٢٦ للهجرة (٦٤٥ م) (راجع الجزء الأوّل، ص ٢٨٢ وما بعد).

(٤) في مسائل مختلفة، منها التصوّف.

(٥) العزّة: القوّة والغلبة (المتغلب على كل ما سواه). الجبروت: القهر (حمل الناس على الطاعة). الملك (الحكم في الأرض) والملكوت (الحكم في السماء). - الجبروت والملكوت (هما في الأغلب بصيغة الجمع - بالواو والتاء من اللغات الأعرابية (التي يقال لها خطأً سامية - للدلالة على جميع أنواع الملك إلخ).

والنعوت؛ العالمُ فلا يَعْزُبُ عنه ما تُظهِره النَّجوى[1] أو يُخفيه السكوت، القادرُ فلا يُعْجِزه شيءٌ في السموات والأرض ولا يفوت. أنشأنا من الأرض نَسَما[2]، وآستَعْمَرنا فيها أجيالاً وأُمماً، ويسّر لنا منها أرزاقاً وقِسَماً، تَكْنُفُنا الأرحام والبيوت، ويَكفُلنا الرِّزقُ والقوت، وتُبْلينا الأيّام والوقوت، وتَعْتَوِرُنا الآجال التي خُطّ علينا كِتابُها الموقوت[3]. وله البقاءُ والثبوت. وهو الحيُّ الذي لا يموت.....

أما بعد، فإنّ فنّ التاريخ من الفنون التي تتداولُها الأممُ والأجيال وتُشدّ إليه الركائبُ والرِّحال[4]، وتسمو إلى معرفته السُّوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهّال[5]؛ إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيامِ والدُّوَلِ والسوابقِ من القرون الأُوَل، تنمو فيها الأقوال[6]، وتُضْرَبُ فيها الأمثالُ، وتُطْرَفُ بها الأنديةُ إذا غَصّها الاحتفال[7]......

---

(١) عزب يعزب: غاب، خفي. النجوى: الكلام سرًّا بين شخصين.

(٢) أنشأنا (صنعنا، خلقنا) من الأرض (التراب) نسماً (حياة)- جعل الحياة من شيء لا حياة فيه.

(٣) تكنفنا: تحيط بنا. الرحم (بفتح فكسر): كيس في بطن الأنثى يتخلّق فيه المولود.- نحن (وكل شيء آخر) محدودون بالأمكنة، أما هو (الله) فلا يحويه مكان (لعظمته) ولا يحدّه. يكفلنا الرزق والقوت (الطعام يبقينا أحياءً). أما هو فلا يحتاج إلى من يرزقه ولا يحتاج إلى طعام. تبلينا: تهلكنا (تأخذ من قوتنا وحياتنا وعمرنا). تعتورنا الآجال (الأجل: مدى عمر الإنسان): تتداولنا (يموت بعضنا إثر بعض). الكتاب الموقوت: الموت.

(٤) الركوبة (بالفتح): دابّة يسافر الناس عليها. الرجل (بالكسر): ما يوضع على ظهر الدابة للركوب عليها. تشدّ إليه.... (يقصده الناس).

(٥) السوقة: الرعيّة، عامّة الناس أو العامّة من الناس. الأغفال جمع غُفل (بالضمّ): الإنسان العاديّ، من لا حسب (عمل مجيد) له، الذي لا يعرفه أحد. القيل (بالفتح): ملك اليمن (الملوك من عرب الشمال والأقيال من عرب الجنوب: جميع الملوك). يتساوى فيه العلماء (يعرفه العلماء) والجهّال (يدّعي معرفته الجهّال) أو: يُسَرّ بسماعه العلماء والجهال.

(٦) تنمو (تكثر، تزيد) فيه الأقوال: يضيف إليه الناس أشياءَ ليست منه.

(٧) تُطرف به الأندية (أماكن اجتماع الناس) إذا غصّها (ملأها) الآحتفال (آجتماع الناس): يكون التاريخ (القَصَص- بفتح ففتح- وأخبار الناس) طريفاً (جديداً- ولو أُعيد ذكر الحادثة الواحد، مرّة بعد مرّة، محبوباً).

(ب) في أنّ من طبيعة الملك الترف:

وذلك أنّ الأمّةَ إذا تغلّبتْ وملكت ما بأيدي أهلِ المُلْكِ قَبْلَها كثُرَ رِياشُها[١] ونِعْمَتُها فَتكْثُرُ عوائدُهم ويتجاوزون ضَروراتِ العيشِ وخُشونتَه إلى نوافلهِ[٢] ورِقّته وزينته ويذهبون إلى مَنْ قَبْلَهُمْ في عوائدهم وأحوالهم. وتصير لتلك النوافل عوائدُ ضروريّةٌ في تحصيلها، ويَنْزِعون مَعَ ذلك إلى[٣] رِقّة الأحوال في المطاعم والملابس والفَرْش والآنية، ويتفاخرون في ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم: في أكل الطيّب ولبس الأنيق وركوب الفارِهِ، ويُناغي[٤] خَلَفُهُمْ في ذلك سَلَفَهُمْ إلى آخر الدولة. وعلى قَدْرِ مُلْكِهِمْ يكون حظُّهم من ذلك وتَرَفُهُم فيه إلى أن يبلُغوا من ذلك الغايةَ التي للدولة أنْ تَبْلُغَها بِحَسْبِ قوّتها وعوائد مَنْ قَبْلَها. سُنّةُ اللهِ في خَلْقه، والله تَعالى أعلمُ.

(جـ) العبّاسة أخت الرشيد[٥] (المقدّمة ١٥/ ٢٢):

ومِنَ الحكاياتِ المدخولة[٦] للمؤرخينَ ما ينقُلونه كافّةً في سببِ نكْبة الرشيدِ للبرامكةِ من قِصّة العباسةِ أُختهِ مَعَ جعفرِ بنِ يحيى بنِ خالدٍ مولاه[٧]، وأنه لِكَلَفِهِ بمكانها من مُعاقرتهِ إيّاهما الخمرَ[٨] أذِنَ لَهُما في عَقْد النِّكاح دونَ الخَلْوة حِرْصاً على ٱجتماعهما في مجلسه، وأنّ العباسةَ تحيّلتْ عليه في ٱلتماس الخلوةِ به لِما شَغَفَها من

---

(١) الرياش (جمع ريش): المال والأثاث- الأدوات التي يضعها الناس في بيوتهم- (تاج العروس- الكويت ١٧ : ٢٣٠).

(٢) العوائد هنا: العادات (أو دخلهم من المال). النافلة: ما يزيد على المطلوب أو الضروريّ.

(٣) نزع إلى الشيء: مال إليه.

(٤) الأنيق: الجميل المنظر، ما يحسن شكله في العين. الفاره (بالهاء): الدابّة الجميلة المنظر والنشيطة في سيرها. يناغي: يداني، ينافس.

(٥) راجع كتاب «تجديد التاريخ» للمؤلّف، ص ١٥٢ وما بعد.

(٦) المدخولة: التي فيها خطأ (لا صحّة لها).

(٧) مولاه: المنتسب بالولاء إليه: كان غير العربي إذا دخل في الإسلام ٱنتسب إلى أحد رجال العرب (المسلمين) بالولاء أو إلى قبيلته. مثال ذلك أبو تمّام الطائي (فهو روميّ- يونانيّ- الأصل، ينتسب إلى بني طيّء بالولاء: بالمودّة والطاعة).

(٨) الكلف: الشغف، الميل (بالفتح) والمحبّة.

حُبّه - زَعَموا في حالة السُّكر - فحَمَلَتْ ووُشِيَ بذلك للرشيد فآستغضب[١].

وهيهاتِ ذلك[٢] من مَنصِبِ العباسة في دِينِها وأبوَيْها وجَلالها، وأنّها بنتُ عبدِ الله آبن عبّاسٍ ليس بينهَا وبينَه إلّا أربعةُ رِجالٍ هم أشرافُ الدين وعُظماءُ المِلّة[٣] من بعده. والعبَاسة بنت محمّدِ المَهْديّ آبنِ عبد الله بن أبي جعفرٍ المنصور بن محمدِ السجّاد بن عليٍّ أبي الخُلفاء[٤] بن عبد الله تَرْجُمان القُرآن[٥] آبنِ العباس عمِّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: آبنةُ خليفةٍ أُختُ خليفة[٦] محفوفةٌ[٧] بالمُلكِ العزيز والخِلافة النبويّة وصُحبة الرسول وعمومته وإقامة المِلَّة[٨] ونور الوَحْيِ ومَهبِط الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهدٍ ببداوةِ العُروبية وسَذاجةِ الدين[٩] البعيدةِ عن عوائدِ التَّرَف ومراتع الفُحْش.

فأينَ يُطلَبُ الصَّوْنُ والعَفافُ إذا ذهبا عنها؟ أو أين توجد الطهارة والذكاء[١٠] إذا فُقِدا من بيتها؟ أو كيف تُلحِمُ نسَبَها بجعفرِ بنِ يحيى وتُدَنِّسُ شرفَها العربيَّ بمَوْلًى من موالي العجم..... وكيف يَسُوغُ من الرشيدِ أن يُصْهِرَ إلى موالي الأعاجم على بُعد هِمّته وعِظَمِ آبائه. ولَو نظرَ المتأمّلُ في ذلك نَظَرَ المُنصِفِ وقاسَ العبّاسةَ بآبنةِ مَلِكٍ من عظماء مُلوكِ زمانهِ لآسْتَنْكَفَ[١١] لها عن مِثْلِهِ معَ مَوْلًى من موالي دولتها وفي سُلطان قومِها وآستنكره ولجّ[١٢] في تكذيبِهِ. وأينَ قدْرُ العباسةِ والرشيدِ من الناس[١٣]!

---

(١) استغضب، المقصود: «أغضب» بالبناء للمجهول: فُعل به ما يدعو إلى الغضب.

(٢) هيهات ذلك: ما أبعد ذلك!

(٣) الملّة (هنا): الدين، الإسلام.

(٤) محمّد المَهديّ (ابن أبي جعفر المنصور): الخليفة العبّاسي الثالث. أبو الخلفاء: الذي كان (جميع) الخلفاء (العبّاسيّين) من نسله.

(٥) عبد الله بن عبّاس ابن عمّ الرسول، كان موثوقاً في تفسير القرآن.

(٦) ابنة خليفة (آبنة محمّد المهدي) أخت خليفة (أخت هرون الرشيد).

(٧) محفوفة: محاطة (من قرب).

(٨) إقامة الملّة: المحافظة على عقائد الدين وتعاليمه.

(٩) سذاجة الدين: بساطة الدين وصفاؤه.

(١٠) الذكاء (كذا في الأصل). اقرأ: الزكاء (بالزاي أخت الراء): الطهارة.

(١١) آستنكف: كره، امتنع ،رفض.

(١٢) لجّ: آستمرّ (أصرّ).

(١٣) هرون الرشيد وأخته العبّاسة فوق مستوى الناس العاديّين.

وإنما نكَبَ البرامكةَ ما كان مِنَ ٱستِبْدادِهم على الدَّولةِ وٱحتجافِهِمْ أموالَ الجِباية[1].....

(د) تقليد المغلوب للغالب:

يقول ابن خلدون[2]:

في أنّ المغلوبَ مُولَعٌ أبداً بالاَقتداءِ بالغالب في شِعارِهِ وزِيّه ونِحْلته[3] وسائر أحواله وعوائدِه[4]- والسببُ في ذلك أن النَّفس أبداً تعتقدُ الكمالَ فيمن غَلَبها وانْقادَتْ إليه، إمّا لِنظْرةٍ[5] بالكمالِ بِها وَقَرَ[6] عِنْدها من تعظيمِهِ أو لِما تُغالِطُ به (ذاتَها)[7] مِنْ أنّ انقيادَها (ذلك) ليس لِغَلَبٍ طبيعيٍّ[8]، إنّما هو لِكمالِ الغالبِ، فإذا (هي) غالطَتْ (ذاتَها) بذلك (كان ذلك) لها ٱعتقاداً فٱنْتحَلَتْ[9] جميعَ مذاهبِ الغالب وتَشبّهَتْ به. وذلك هُوَ الاَقتداءُ. (ورُبّما كان ذلك) لما تراه- واللهُ أعلَمُ- مِنْ أنّ غَلَبَ الغالبِ لها ليس بِعَصَبِيّةٍ ولا قوّةِ بأسٍ[10]، وإنّما هو بما ٱنْتحَلَتْهُ من العوائدِ والمذاهبِ تُغالِطُ أيضاً بذلك عن الغَلَبِ، وهذا راجعٌ لِلأوّل. ولذلك ترى المغلوبَ يَتَشبّهُ أبَداً بالغالب في مَلْبَسِهِ ومَرْكَبه وسِلاحه في ٱتّخاذها وأشْكالها[11] بل وفي[12] سائرِ أحوالِهِ. وٱنْظُرْ ذلك

---

(١) احتجف الرجل الشيء: استخلصه (حازه، أخذه بغير حقّ). الجباية: الضرائب الواجبة للدولة على الناس.

(٢) المقدّمة ١٤٧/٢٥٨.

(٣) الشعار: العلامة، الشارة الدالّة على شرف أو منصب. النحلة (بالكسر): الدين.

(٤) العوائد (العادات).

(٥) النظرة: اللمحة، (رؤية، اعتقاد).

(٦) وقر: ثبت.

(٧) تُخيِّل لنفسها.

(٨) الغلب الطبيعي (القائم على القوّة أو الفضل أو السبق في ميادين الحياة).

(٩) انتحلت: اتّخذت، عملت.

(١٠) الشدّة في الحرب، القوّة.

(١١) لا يكتفي الضعيف بتقليد القويّ في نوع طعامه مثلاً، بل في الشكل (الصورة) الخاص الذي يسلكه القويّ في تناول طعامه.

(١٢) «بل وفي» تعبير خاطىء (بزيادة الواو) يرد عند ابن خلدون وعند غيره كابن تيمية (ت ٨٢٧ هـ) مثلاً.

في الأبناءِ مَعَ آبائِهم كيفَ تَجِدُهُمْ مُتَشَبِّهينَ بهم دائماً، وما ذلك إلّا لاَعْتِقادِهِمُ الكمالَ فيهم.

وآنظُرْ إلى كُلِّ قُطْرٍ من الأقطار كيفَ يَغْلِبُ على أهلِهِ زِيُّ الحامِيَةِ[١] وجُنْدِ السُّلطانِ في الأكثر لِأنّهُمُ الغالبون لهم، حتّى إنّه إذا كانتْ أُمَّةٌ تُجاوِرُ أُخرى - ولها الغَلَبُ عليها - فَيَسْري إلَيْهِمْ من هذا التَّشَبُّهِ والاْقتداءِ حظٌّ كبيرٌ، كما هو في الأندلس لهذا العَهْدِ مَعَ أُمَمِ الجَلالِقَةِ[٢] فإنّك تَجِدُهُمْ يَتَشبّهون بِهِم في ملابِسِهِمْ وشاراتهم و (في) الكثيرِ من عوائِدِهِم وأحوالهم حتّى في رَسْمِ التماثيلِ[٣] في الجُدرانِ والمصانعِ[٤] والبُيوت، حتّى لقد يَسْتَشْعِرُ[٥] مِنْ ذلك الناظرُ بِعَيْنِ الحِكمة أنّه من علاماتِ الاَستيلاءِ[٦]. والأمرُ لله. (ثمّ) تأمَّلْ في ذلك سِرَّ قَوْلِهِم: «العامّةُ على دينِ المَلِك»[٧]، فإنّه من بابِهِ[٨]، إذِ المَلِكُ غالبٌ لِمَنْ تحتَ يَدِهِ، والرَعِيَّةُ مُقْتَدون به لاَعتقادِ الكمالِ فيه آعتقادَ الأبناءِ بآبائِهِمْ والمُتَعَلِّمين بِمُعَلِّميهِم. واللهُ العليمُ الحكيمُ، وبهِ سُبْحانَه وتعالى التوفيقُ.

(هـ) العلوم العدديّة:

وأوّلُها الأرثماتيقيّ[٩]، وهو مَعْرِفةُ خواصِّ الأعدادِ من حيثُ التأليفُ[١٠]: إمّا على

---

(١) الحامية: الجنود المكلّفون بحفظ الحدود (ويكونون عادة من جنود القويّ الذي يحتلّ بلداً ضعيفاً).

(٢) الجلالقة: سكّان الجانب الشّمالي الغربي من شبه جزيرة الأندلس (هنا: نصارى الأندلس).

(٣) التماثيل هنا (صور الرجال النصارى ورموزهم).

(٤) المصنع (هنا) حوض الماء أو البناء العظيم (القصر).....

(٥) استشعر الشيء: أحس به.

(٦) ... استيلاء الإسبان على الأندلس. (قال ابن خلدون ذلك قبل خروج العرب من الأندلس بنحو مائة عام).

(٧) في المثل المشهور: الناس على دين ملوكهم.

(٨) من بابه: من نوعه.

(٩) الأرثماطيقي: الحسبان، الحساب.

(١٠) نسق الأعداد على نظام معيّن.

التوالي[١] أو بالتضعيف[٢]؛ مثلَ أنّ الأعدادَ إذا توالتْ مُتفضِّلة بعددٍ واحدٍ، فإنّ جَمْعَ الطَّرفَيْنِ منها مُساوٍ لِجَمْعِ كُلِّ عَدَدَيْنِ بُعْدُهُما مِنَ الطرفَيْنِ بُعْدٌ واحدٌ[٣]، ومثلُ ضِعْفِ الواسطة[٤].... ومثلَ أنّ الأعدادَ إذا توالَتْ على نِسبةٍ واحدةٍ بأنْ يكونَ أوّلُها نِصْفَ ثانيها، وثانيها نصفَ ثالثِها، الخ، أو يكونَ أوّلُها ثُلُثَ ثانيها، وثانيها ثُلُثَ ثالثِها الخ، فإنّ ضَرْبَ الطَّرَفَيْنِ أحدِهما في الآخَرِ (يكونُ حينئذٍ) كَضَرْبِ كُلِّ عَدَدَيْنِ بُعْدُهُما من الطَّرَفَيْنِ بعدٌ واحدٌ أحدِهِما في الآخَرِ[٥]، ومِثْلَ مُرَبَّعِ الواسطةِ[٦].......

(و) لغة القرآن الكريم:

اعْلَمْ أنّ لِسانَ العرب وكلامَهم على فنّين: فنِّ الشعر، وهو الكلامُ المنظوم المُقَفّى - ومعناه أن تكون أوزانه كلُّها على رَوِيٍّ واحد وهو القافية ؛ وفنّ النثر، وهو الكلام غير الموزونِ. وكلّ واحدٍ من الفنّين يشتمل على فنونٍ ومذاهبَ في الكلام.........

وأمّا القُرآنُ[٧] وإن كانَ من المنثور إلّا أنه خارجٌ عن الوصفين. وليس يُسَمّى مُرْسَلاً مُطْلَقاً ولا مُسَجَّعاً[٨]، بل تفصيلُ آياتٍ ينتهي إلى مقاطعَ يَشْهَدُ الذوقُ بانتهاء الكلام عندها[٩]، ثمّ يُعادُ الكلام في الآية الأُخرى بعدها ويُثنّى من غيرِ ٱلتزامِ حرفٍ

---

(١) على التوالي بفرق معيّن: ١، ٢، ٣، ٤، ٥ الخ أو ١، ٢، ٤، ٦ الخ أو ١، ٥، ١٠، ١٥، الخ.

(٢) التضعيف: ضرب الأعداد في السلسلة المتوالية الأعداد بعدد معيّن. ضرب الأعداد باثنين، مثلاً، ١، ٢، ٤، ٨، ١٦ الخ، أو بثلاثة: ١، ٣، ٩، ٢٧، ٨١ الخ، أو بخمسة: ١، ٥، ٢٥، ١٢٥، ٦٢٥ الخ.

(٣) في: ١، ٢، ٤، ٦، ٨ الخ، ٤ + ٦ = ١٠، ثمّ ٢ + ٨ = ١٠، الخ. أو ٦ مضعّفة (أي ١٢) = ٤ + ٨.

(٤) راجع الحاشية التي قبل السابقة. ١، ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢ الخ (كلّ عدد هنا هو نصف العدد الذي بعده. وفي الحاشية نفسها: ٣ هي ثلث ٩، و ٩ هي ثلث ٢٧ الخ.

(٥) في المتوالية بالتضعيف، ١، ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، الخ مثلاً، ٨ × ٨ = ٤ × ١٦؛ ثمّ ٤ × ٢ = ٢ × ٨، الخ. أو ٤ × ٤ = ٢ × ٨ الخ.

(٦) حينما يأتي في آخر أبيات الشعر ألفاظ مثل: مال، نالوا، أزالوا، حال، فاللام هي الرويّ، أمّا القافية فهي ـال، ـالوا الخ.

(٧) القرآن (القراءة): كلام الله القديم المدوّن في المصحف. لا تقل: عندي قرآن. قل: قرأت القرآن - عندي مصحفان - قرأت في المصحف.

(٨ و٩) لا يقال للألفاظ التي في أواخر آيات القرآن: (السورة ١١٣): ﴿قل: أعوذ بربِّ الفلق ★ من شرّ ما خلق =

يكونُ سَجْعاً ولا قافية.....

(ز) تعريف الشعر:

الشعر هو الكلام البليغ المَبْنِيُّ على الاستعارةِ والأوصاف، المُفصَّلُ بأجزاءٍ متّفقةٍ في الوزن والرَوِيِّ (مستقلاً) كلُّ جُزءٍ منها في غَرَضِه ومَقْصِدِهِ عمّا قَبْلَهُ وبعدَهُ والجاري على أساليبِ العربِ المخصوصةِ به...... وقولنا الجاري على الأساليب المخصوصة به فَصْلٌ له (أي يفصله، يجعله مفصولاً مختلفاً) عمّا لم يَجْرِ منه على أساليبِ الشعر المعروفة؛ فإنّه حينئذٍ لا يكونُ شِعْراً، إنّما هو كلامٌ منظوم، لأنّ الشعر له أساليبُ تخصّه لا تكون للمنثور. وكذا أساليبُ المنثور لا تكون للشعر. فما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب فلا يُسمّى شعراً. وبهذا الاَعتبار[1] كان الكثيرُ ممّن لَقِيناه من شُيوخنا[2] في هذه الصِّناعة الأدبية يَرَوْنَ أن نظم المتنبّي والمعريّ ليس هو من الشعر في شيء لأنّهما لم يَجْرِيا على أساليبِ العرب فيه......

اعلم أن لِعَمَلِ الشعر وإحكام صِناعته شروطاً أوّلُها الحِفْظُ من جِنْسه، أي من جنس شعر العرب، حتّى تنشأَ في النفس مَلَكةٌ يُنْسَجُ على مِنْوالها. ويُتَخَيَّرُ المحفوظُ من الحرّ النقيّ الكثير الأساليب. وهذا المحفوظ المختارُ أقلُّ ما يكفي فيه شعرُ شاعرٍ من الفُحول الإسلاميّين[3] مثل ابن أبي رَبيعةَ وكُثَيّرٍ وذي الرُّمّة وجَريرٍ وأبي نُواسٍ وحَبيبٍ والبحتريّ والرَضِيّ وأبي فِراسٍ ...... والمختارُ من شعر الجاهلية. ومن كان خالياً من المحفوظ فنَظْمه قاصرٌ رديءٌ. ولا يُعْطيهُ الرونقَ والحلاوةَ إلّا كَثْرَةُ المحفوظ.

= ★ ومن شرّ غاسق إذا وقَب ★ ومن شرّ النفّاثات في العُقد ★ ومن شرّ حاسد إذا حسد★﴾ أسجاع (كما في الخطب الجاهلية مثلاً)، بل فواصل بين الجمل جاءت فيها هذه الألفاظ في محلّها (بلا قصد للموافقة بين الأحرف).

(١) الاعتبار: العبرة (بالكسر)، أي الاتّعاظ بالحوادث التي تمرّ بالإنسان، الاستفادة من أخطاء الآخرين ومن مصائبهم. والمقصود هنا: إنعام النظر (تفهّم الأمور).

(٢) الشيوخ: الأساتذة الكبار.

(٣) الشعراء الإسلاميّون هم الذين كانوا في صدر الإسلام (أيام الخلفاء الراشدين) وفي الدولة الأمويّة: حسان ابن ثابت وعمر بن أبي ربيعة وجرير والأخطل النصراني كانوا شعراء إسلاميّين.

(ح) اللفظ والمعنى:

(ويجب على الشاعر أن) يَجْتَنَّبَ المُعَقَّدَ من التراكيبِ جُهْدَهُ، وإنّما يَقْصِدُ منها ما كانت معانيه تُسابق ألفاظَه إلى الفَهْم. وكذلك كَثْرَةُ المعاني في البيت الواحد، فإنّ فيه نَوْعَ تعقيدٍ على الفهم، وإنّما المُختارُ منه ما كانت ألفاظُه طَبْقاً على معانيه أو أَوْفَى[1] منها قليلاً. فإن كانت المعاني كثيرةً كانت حَشْواً، واشتغل الذِّهنُ بالغَوْصِ عليها فمَنَعَ الذوقَ مِنَ ٱسْتيفاءِ مَدْرَكِهِ من البلاغة. ولا يكونُ الشعر سَهْلاً إلّا إذا كانت معانيه تُسابق ألفاظَه إلى الذهن. ولهذا كان شُيوخُنا، رَحِمَهُمُ الله، يَعيبون شعرَ أبي بكرِ ٱبنِ خَفاجةَ شاعرِ شرقِ الأندلسِ لِكَثْرَةِ معانيه وازدحامِها في البيت الواحدِ كما كانوا يَعيبون شعرَ المتنبيّ والمعرّيِّ بِعَدَمِ[*] النسجِ على الأساليب العربية، كما مرّ، فكان شعرُهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طَبَقة الشعر؛ والحاكمُ بذلك هو الذوقُ.

(ط) نشأة الموشّح:

(راجع الجزء الرابع، ص ٤٢٢ و٤٣٥).

- مدح أبي عنان فارس:

كان أبو عِنانٍ فارسٌ المتوكّلُ على الله أحدَ سَلاطينِ بني مَرينٍ في فاس (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ) قد غَضِبَ على ٱبنِ خَلدونٍ وحَبَسَهُ. ولمّا طالَ الزمنُ على ٱبنِ خَلدونٍ في السِّجْن، نَظَمَ قصيدةً في مدحِ أبي عِنانٍ المتوكّلِ على الله - وكان قد مَضى عليهِ في السِّجْنِ ثمانيةَ عَشَرَ شَهْراً - وأرسلَها إليه في الثُّلُثِ الأوّلِ من شهر شَعبانَ من سَنَة ٧٥٩ هـ (في أواسِط تمّوزَ - يوليو من عام ١٣٥٨ م). من هذه القصيدة:

عـلى أيِّ حـالٍ لِلّيـالي أعاتـبُ؟ وأيَّ صُروفٍ للزّمـانِ أُغالـبُ[2]؟
كفـى حَزَناً أنّي على القُرب نازحٌ وأنّي على دَعْوَى شُهودِ يَ غائبُ[3]؛

---

(١) أوفى: أكثر.

(*) عدم النسج: ترك النسج (كلمة «عدم» هنا مستعملة على غير الوجه الصحيح).

(٢) صروف الدهر: أحداثه (مصائبه).

(٣) نازح: بعيد. وأني على دعوى شهوديّ غائب (مع أنّي موجود في بلدك، فأنا غائب عن رعايتك).

وأنّي علـى حُكْمِ الحوادثِ نازلٌ | تُسالِمُـني طَوْراً، وطوراً تُحـارب.
أَحِنُّ إلى إلْفي، وقـد حالَ دونَهم | مَهامِـهُ فِيـحٌ دونَهن سَباسبُ[1].
وما أنسَ لا أنسَ الوَداعَ، وقد جرَتْ | دُموعٌ وزُمَّتْ للفِراق ركائـب[2]،
عَشِيَّـــةَ بانوا والقلوبُ جوامــدٌ، | وكان عقيقٌ في النَّواظرِ ذائب[3].
وَقَفْنـا ولا نَجْوَى سوى بَيْنَ أَعْيُنٍ | وشَتْ بالهوى منها دُموعٌ سواكِب[4].
مَضَوْا يُزْمِعون السَّيْرَ إلّا تَلَفُّتــاً | كما ٱلْتَفَتَتْ بينَ الأراك الرَّبائب[5].
وأَتْبَعْتُهُمْ طَرْفي وقَلْـبي، وما دَرَوْا | بأنِّي علـى آثارِ هذَيْنِ ذاهب[6].
رَعـى اللهُ عَهْداً ضَمّه أُفْقُ تُونسٍ | ومعهـدَ أُنسٍ لم تَرُعْهُ النَّوائبُ[7].
وجـادَتْ عليه الغانياتُ بِما حَوَتْ | من الظَّلْمِ لا ما تَحْتَويهِ السحائب[8].
بــلادٌ بهــا فَـضّ الشَّـابُ تَمائِمي | ولامَسَ فيها التَّرْبَ منّي التَّرائب[9].
يُذَكِّرني عَهْـدَ الرِّضا في جَنابِها | أمــانٍ تَقَضّـتْ لي بها ومـآرِبُ.
فأصْبو، ولكنْ أينَ مِنّي مَزارُهـا، | وأبْكي وإنْ لم تُغْنِ عنّي السحائب[10].

---

(١) الإلف: الرفيق، الصاحب الذي تعوّدت صحبته. المهمه: المفازة (الصحراء) البعيدة. الفيح (جمع أفيح وفيحاء): الواسعة. السبسب: المفازة (الصحراء).
(٢) زمّت (بالبناء للمجهول) الركوبة (بالفتح): أسرجت الدابة للركوب عليها والسير بها.
(٣) بانوا: ابتعدوا، رحلوا. القلوب جوامد: صابرة، ساكنة. عقيق: أحمر. (دموع حمراء كأنّها من دم).
(٤) النجوى: الكلام سرًّا بين شخصين. – الدموع هي التي أعلنت أن بيننا حبّ.
(٥) أزمع السير: نوى السير، قصد. الأراك: شجر. الربائب جمع ربيبة: الصغير الذي يربّى عند غير أهله، ثمّ واحدة الغنم (من الضأن أو المعزى) التي تربط إلى جانب البيت ولا تسرّح في المراعي (وليس في هذه صدقة). والمقصود هنا: الغزلان (النساء الجميلات).
(٦) طرفي: نظري. ذاهب (ميت).
(٧) الأفق (هنا): المنطقة، البلد. راع فلان فلاناً: أخافه.
(٨) الغانية: المرآة الجميلة. الظّلْم: الريق.
(٩) التميمة: عوذة (بالضمّ) أو حرز يعلّق على أجسام الأطفال. فضّ الشباب تمائمي: نشأت فيها حتّى بلغت الشباب. التريبة: عظمة في الجانب الأعلى من الصدر. ولامس فيها الترب الخ: ولدت فيها. راجع قول الشاعر الأعرابي (نفح الطيب ١ : ١٧٣):

بـلاد بهـا عـقّ الشبـاب تمائمي | وأوّل أرض مسّ جلـدي ترابها.

(١٠) أصبو : أشتاق، وإن لم تغن عنّي السحائب (كان مطر السحاب أقل من دموعي).

وقد أمْتَطي فِكْري لَدى اللَّيْلِ مركَباً بذِكْرِ الذي تُحْدَى إليه الرَّكائب[١].
وأعْشو إلى مَدْحِ الخليفةِ فارسٍ فتَنْجابُ عنّي للخُطوب غَياهِب[٢].
إمامُ هُدًى ضاءتْ شُموسُ آهتدائِه فبانَتْ لنا من بَيْنِهنّ المذاهب[٣]:
فعَقْلٌ، إذا ما أظلَمَ الخَطْبُ، نَيِّرٌ؛ وفِكْرٌ، إذا ما أشْكَل العِلْمُ، ثاقِبُ[٤].
تَزاحَمُ تيجانُ المُلوكِ ببابِهِ كما آزْدَحَمَتْ بالدارعينَ المَواكب[٥].
لكَ اللهُ من مَلْكٍ أغرَّ مُهَذَّبٍ ثَقيلُ المَراقي عِنْده والمناصِبُ[٦].
جَبَرْتَ عِمادَ الدينِ بعدَ آنصداعِهِ على حينِ لم يَجْبُرْله الصَّدْعَ شاعِب[٧].
وشَيَّدْتَ فخراً في ذُؤابةِ مَعْشَرٍ نَمَتْكَ إلى العَلْياءِ منهم عَصائبُ[٨].
ومَهّدْتَّ رُكْنَ المُلْكِ منك بعَزْمَةٍ تَذُبُّ بها عنه الحُماةُ الضوارِبُ[٩].
ودوّخْتَ أرضَ الغَرْبِ حتّى تسابَقَتْ لأَمْرِكَ طَوْعاً عُجْمُه والأعارِبُ[١٠].
ولمّا طَغَى بالشَّرْقِ كُلُّ مُكَذِّبٍ عَصيٌّ تُناجيه الأماني الكواذب[١١]،

---

(١) تحدي إليه: تساق إليه (يزوره الناس ويقصدونه). الركوبه (بالفتح): الدابة التي يسافر الناس عليها.

(٢) عشا: قصد. فارس: أبو عنان المتوكل على الله (الممدوح بهذه القصيدة). انجاب: انجلي، زال. الخطب: المصيبة. الغيهب (بفتح فسكون): جانب من الليل شديد الظلمة (بالضم) أو شديد السواد.

(٣) بانَ: ظهر، وضَح. المذهب: الطريق، المنهج (في الحياة)- عرفنا به (بحسن رأيه) الصواب والخطأ.

(٤) أشكل الأمر: آلتبس، آختلط فيه الصواب الخطأ. الثاقب: الذي يثقب (ينفذ، يخرق الأشياء)، النور القوي.

(٥) الدارع: الذي يلبس درعاً. الجندي. -يقصده ذوو التيجان (الملوك) بعدد كبير كعدد الجنود الذين يسيرون في موكبه (في رفقته من الحرس).

(٦) الأغرّ: الأبيض (الجيد، العظيم). ثقيل (؟) المراقي (الدرجات، المقامات) عنده والمناصب: الوصول إليه صعب، والذين هم عنده هم في أعلى طَبقات الناس (؟).

(٧) جبر الطبيب العظم المكسور: ردّه إلى حاله الأصلية (الصحيحة)، أصلحه. عماد (عمود) الدين: الأساس الذي يقوم عليه الدين. الصَّدع: الشَّقّ. شعب الرجل الأمر يشعبه (بفتح العين فيهما): جمعة وفرّقه أو أصلحه وأفسده (من ألفاظ الأضداد). والشاعب (هنا): الجامع للأمور، المصلح.

(٨) الذؤابة: طرف الشعر (أعلى الأقسام في الشيء)، الذروة (أعلى الجبل). نمتك: رفعتك، بلغت بك إلى الملك. العصابة (بالكسر): الجماعة من الناس.

(٩) ذبّ: دفع، حمى.

(١٠) دوّخ الرجل البلاد: سار فيها حتى عرف جميع طرقها، استولى عليها. أرض الغرب: بلاد المغرب (الجانب الشمالي الغربيّ من قارّة إفريقية).

(١١) طغى: ظلم، عصى. تناجيه الأماني الكواذب: توهمه أنه إذا حاربك (أو ثار عليك) نجح وانتصر.

بدأتَهُمُ بالقَوْلِ؛ لو أنّ سَعْيَهم حميدٌ لَها ساءتْ لَدَيْهِمْ عواقِبُ [1].
ولكنْ أبَوْا إلّا جِماحاً وما دَرَوْا بأنّـك حَرْبُ اللهِ، واللهُ غالب [2].
ولَجّوا عـلى ظنٍّ بـأنَّ حُصونَهم مُمَنَّعَةٌ، لو أن غـيرَك طالبُ [3].
فسُمْتَهُمُ بالرُّعْـبِ قبـلَ نِزالِهم، ففُلَّـتْ جُموعٌ مِنْهُمُ ومَضارِبٌ [4].
وأرْسَلْتَهُمْ من آلِ أمْحُوجَ غُلَّبـاً عليها من الأبطالِ شُوسٌ أغالبُ [5]،
من القومِ مـا غيرُ القَنا في طريقِهِمْ أنيسٌ، ولا غيرُ المُهنّدِ صاحبُ [6].
إذا أظلمتْ - جُنْحَ النهارِ - دُروعُهُمْ، أضاءتْ وُجوهٌ مِنْهُمُ ومَناقب [7].
ففي الحَرْبِ آسادٌ وفي السِّلْمِ سادةٌ، ويومَ النَّـدى والمَكْرُمات سَحائبُ [8].
وسِرْتَ، فلولا أنّ أمرَكَ وازِعٌ لَسارَتْ جِبـالٌ عِنْدَها وأهاضِبُ [9]
بِجَيْشٍ يَغَـصُّ الأُفْقُ منه برُكَّبٍ، ويَعْجِزُ عن حَصْرِ الكتيبةِ حاسِب [10].

---

(١) - حاولت في أول الأمر أن تخاطب الثائرين عليك بالكلام (بالمعروف). ولو كانوا يريدون الخير لما قهرتهم وقتلتهم.

(٢) الجماح: العصيان، الركض على غير هدًى. بأنك حرب الله (تحارب في سبيل الله). حزب الله (؟).

(٣) لجّ: استمر، تابع (السير)، أصرّ.

(٤) حصونهم (قلاعهم) منيعة (لا يستطيع أحد أن يستولي عليها)، ولكنها لم تكن منيعة لما قصدتهم أنت.

(٥) نزل بهم الرعب (الخوف) قبل نزالهم (قبل أن تحاربهم). فُلّت (بالبناء للمجهول): انفضت، تفرقت، هربت. جموع (من الجنود المحاربين). المضارب: الخيام (السكان غير المحاربين). - استوليت أنت على جميع أهل البلاد.

(٦) أمحوج (الملموح هنا أن آل أمحوج إشارة إلى الخيل) وفي تاج العروس (الكويت ٦ : ٢٤٠) محاج (بفتح الميم وبضمها): اسم فرس معروفة من خيل العرب. غُلَّب (بضم فلام مشدودة) لم أجدها في القاموس والمقصود: الغالبون، الأشداء - وهي (أي غلباً) حال صاحبها آل أمحوج. والدليل على أنها إشارة إلى الخيل قوله: «عليها من الأبطال.....». الأشوس: الجريء الشجاع. الأغلب: الغليظ الرقبة من داء أو من غيره (تاج العروس - الكويت ٣ : ٤٩١)، وهي هنا كناية عن الرجل القوي.

(٧) القنا: الرماح. المهنّد: السيف (من صنع الهند) الجيد.

(٨) جنح النهار (ظرف زمان) في النهار. الدرع من حديد (وتكون عادة سوداء). المنقبة: الفعل الكريم.

(٩) الهضبة (بفتح ففتح): السهل المرتفع، الجبل إذا كان عليه بقعة مستوية. والجمع هضاب (بالكسر)، وجمع الجمع أهاضيب. وتُحذف الياء (فتصبح أهاضب) للضرورة في الشعر (تاج العروس - الكويت ٤ : ٣٩٥).

(١٠) يغصّ الأفق: تضيق الأرض. الركّب (يقصد «الركّاب»): الفرسان. الكتيبة: القطعة من الجيش.

أبى اللهُ إلّا أنْ يكونَ لكَ العُلا | تُنيلُ الوَرى عَفْواً فتُعْفى المَعايب[1].
وإنْ أثْبَتَ الأعداءُ أنّيَ مُذْنِبٌ، | فصَفْحُكَ، يا مولايَ، للذَّنْبِ سالب.
وهَبْهُمْ رَمَوْني بالّتي لستُ أهلَها، | أليْسَ انْتسابي واضحٌ مُتناسب[2]؟
أبعْدَ انْتزاحي عن بِلادي تَحُثُّني | إلى بابِكَ الأعلى مَطِيٌّ شوازِبُ[3]؟
وغرّاءَ من نَسْلِ الجَديلِ وشَدْقَمٍ | لها في الرِّياحِ العاصفاتِ مَناسِبٌ[4]،
يُجاذِبُ عِطْفَيْها المَراحُ فتَنْثَني | كما انْتَفَتَتْ في الرَّوضِ حَسْناءُ كاعِبُ[5]
وتُكْبِرُ قَدْراً أن يَميلَ بِمِثْلِها | لِغيرِكَ قَصْدٌ أو تَحِنَّ مَطالب.
رَقَمْتُ بها في صَفحةِ البِيدِ أسْطُراً | كما زانَ رَقْماً في الصحيفةِ كاتبُ[6].
وجُبْتُ بها غَوْرَ الفَلاةِ ونَجْدَها، | وليس سِوى مَنْ ذَنْبُها ما أُصاحِبُ[7].
كأنّيَ لفظٌ، والبِلادُ تُجيبُني | خواطرُ منها للمعاني حرائبُ[8]؛

---

(١) تنيل (تعطي) الورى (جميع الناس) عفواً (الزيادة من مالك، ما لا تحتاج إليه من المال). المعايب (جمع معاب ومعابة ومعيبة): العيوب، النقص، الخطأ (الفقر). تُعفى: تشفى، تُغطّي (تزول).

(٢) ... لستُ أهلَها (لم أفعلْها). انتسابي (صلتي بك). متناسب (متبادل بيني وبينك).

(٣) انتزاحي: ابتعادي. تحثّني، تدفعني. المطيّة: الدابة يركبها المسافر. الشازب: الحصان الضامر البطن (ويكون سريعاً).

(٤) غرّاء: (فرس) بيضاء (أو لها بياض في جبهتها)، كريمة الأصل. الجديل وشدقم حصانان للنعمان بن المنذر (القاموس المحيط ٣: ٣٤٧ و٤: ١٣٥).

(٥) العطف (بالكسر): الجانب الأعلى من الصدر. المَراح: النشاط: يجاذب عطفيها المراح (نشاطها يجعلها تميل يميناً ويساراً). تنثني: تميل (تلتفت، تتلفّت) بدَلال وكِبرياء. الكاعب: الفتاة إذا تكوّر ثدياها وتمّ نموّها.

(٦) رقمت بها......: سرت طويلاً في البوادي (كثرتْ أسفاري). زان: زيّن، زخرف. الرقم: الكتابة (يقصد سافرت كثيراً في البلاد وإلى كلّ مكان).

(٧) جاب يجوب: قطع (سافر): الفلاة: الأرض الواسعة. الغور (المنخفض من الأرض). النجد: ما ارتفع من الارض. سافرت في كلّ مكان وإلى كلّ مكان. مَنْ ذنبُها (من عذّب هذه الناقة بالأسفار الكثيرة؟) يقصد ابن خلدون بذلك نفسه. ما أصاحب (ليس معي رفيق سواي- وحيداً).

(٨) كأنّي لفظ (كلام، أسئلة). والبلاد (في البلاد؟). تجيبني خواطر (فاعل «تجيبني»؟) منها للمعاني حرائب (مسلوبة)- كنت، وأنا في كلّ بلد، تخطر في بالي خواطر لا أستطيع أن أجد معانيَ يمكن التعبير عنها (كنت أكره كلّ البلاد حتّى وصلت إليك- انظر البيت التالي).

تظُنُّ بأنّ الشَّرقَ عن حَمْلِ كَتْمِهِ — يَضيقُ فتَطوي سِرَّهُنّ المَغاربُ [1]

إلى أنْ حَطَطْتُ الرَّحل في ساحةِ العُلا — لَدى بابِكَ الأعلى كما حَطَّ آيبُ [2].

وأصْدَرْتَني عن وِرْدِ نُعماكَ ناهلاً — وقد أثْقلت ظَنّي إلَيْكَ المواهبُ [3].

فكيفَ أُوَلّي شَطْرَ غيرِكَ وِجْهَةً — أُؤَمِّلُ منه نَجعةً أوْ أُراقب [4]؟

وما خَلَصَتْ إلّا لِبابِكَ هِجْرَتي، — ولم تَصْفُ لي مِمَّنْ سِواك المَشاربُ [5].

وإنّي على عِلْمٍ بِأنْ لا مُمَلَّكٌ — سِواكَ على الدُّنْيا، ولا عنكَ ذاهبُ [6].

ولكنْ عَوادٍ إنْ عَدَتْني عنِ الزما — نِ زماناً، فإنّي الْيَوْمَ مِنْهُنّ تائبُ [7].

سأنْزِعُ عمّا أنتَ - واللهِ - ساخطٌ، — فأمْرُكَ محتومٌ على الخَلْقِ واجب [8].

وأسْطو على الأيّامِ مِنْكَ بنَوْبَةٍ — كما آفْتَرَسَتْني بَيْنَهُنَّ النَّوائب [9].

وتُوسِعُني نُعماكَ أفضلَ نِعْمةٍ — يَريشُ بِها عظمي وتَتْرى المكاسِبُ [10].

---

(١) لا في الشرق (تونس) ولا في المغارب (الجزائر والمغرب) وجدّت من يدرك معناي (يعرف مقداري ومكانتي)...

(٢) حططت الرحل: نزلت، آستقررت (سكنت). الآيب: الراجع من سفر إلى بلده (ليبقى فيه دائمًا).

(٣) أصدرتني: رددتني. الورد (بالكسر): المجيء إلى الماء للشرب. ناهل: ريّان (مكتف من الماء) - لمّا جئت إليك أعطيتني عطايا كثيرة. وقد أثقلت إلخ (وكنت أظنّ أن ما أريد أن أطلبه منك كثير): أعطيتني فوق ما كنت أريد.

(٤) النجعة: قصد أصحاب الأموال لنيل عطاياهم. أراقب. (أرجو أن يعطيني شيئاً - يقصد أن جميع الناس، غيرك، بخلاء).

(٥) - هاجرت (قصدت) إلى أبواب ملوك كثيرين. مجيئي إليك وحدَك كان آعتقاداً منّي بكرمك وإخلاصاً في محبّتك. لم تصف لي إلخ: لم أكن مسروراً عند أحد (غيرك).

(٦) - أنا واثق بأنّه لا يوجد في هذا العالم ملك (يستحق هذا الاسم) غيرك. وليس هنالك من يستحقّ أن يذهب الناس إليه (للعطاء) غيرك.

(٧) ولكن عوادٍ (جمع عادية): نوائب، مصائب. عدتني: جاوزتني، (أبعدتني). عن الزمان (عن السرور في الحياة؟ عنك). زماناً (مدّة).

(٨) نزع عن الشيء: تركه.

(٩) - سأعتدي أنا على حوادث الأيام (على المصائب) بنوبة (بمدّة أكون فيها حرًّا قويًّا غنيًّا)، كما كانت المصائب قد اعتدت عليّ كثيراً من قبل، وسيكون الفضل في ذلك لك.

(١٠) راش يريش: أصبح غنيًّا، ذا رياش (أثاث كثير في بيته). يريش عظمي: يكتسي عظمي لحماً، بعد أن آفتقرت وجُعت حتّى برزت عظامي للعيون. تَتْرى تتوالى، تتّصل.

فما في اللَّيـالي من ذميمٍ ولَوْ أتى ، إذا حُمِدَتْ بعدَ المبادي العَواقِبُ[1].

- مطلع في الغزل:

قال ابن خلدون في صدر قصيدة طويلة في المديح (سَنَة ٧٦٢ هـ):

أسْرَفْنَ في هَجْري وفي تعذيـــبي وأطَلْنَ موقـفَ عَبْرتي ونَحيبي[2]؛

وأبَيْنَ يومَ البَيْنِ وقْفَــةَ ساعــةٍ لِوَداعِ مَشْغوفِ الفؤادِ كئيـب[3].

ما هاجني طَرَبٌ ولا آعتادَ الجَوى لولا تذكُّرُ منزلٍ وحبيـــــب[4].

وإذا الديـــار تَعَرّضَــتْ لمُتَيَّمٍ هزّتْــه ذِكْراهـا إلى التشبيـب.

في كـلّ شِعْـبٍ مُنْيَـةٌ من دُونها هَجْرُ الأمـاني أو لِقاء شَعوب[5].

هَلّا عَطَفْتَ صُدورَهنّ إلى التي فيهــا لُبانَــةُ أعــينٍ وقُلوب[6].

فَتَؤُمَّ من أكْنـــافِ يَثْربَ مأمْنــاً يَكْفيـكَ ما تَخْشاه من تَثْريب[7].

٤- كتاب العبر[*][8] وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي

---

(١) العاقبة: النهاية، النتيجة. - فما في الليالي.....: إذا صلَحتْ حال الإنسان نسي كلّ شقاء كان قد لقيه من قبل. لشكسبير (ت ١٦١٦ م = ١٠٢٥ هـ، بعد ابن خلدون بمائتين وسبع عشرة سنة)، رواية تمثيلية عنوانها: All's Well That Ends Well: ما كانت نهايته حسنة فهو حسن.

(٢) هؤلاء النسوة جعلنني أطيل وقوفي على الأطلال أبكي وأنتحب.

(٣) أبى: رفض. البين: البعاد، الفراق. المشغوف: الذي بلغ الحب إلى شُغاف (بضمّ الشين) قلبه (شغاف القلب: غلافه أو حجابه أو داخله).

(٤) الطرب ما يثير الإنسان من فرح أو حزن. آعتاد: عاد مرّة بعد مرّة. الجوى: شدّة الوجد والحنين إلى المحبوب حتّى تشبه حاله حال المريض.

(٥) الشعب (بكسر الشين) الشعبة، الفرقة، القسم من الطريق أو من الأمّة. شعوب (بفتح الشين وبلا لام للتعريف): المنيّة، الموت.

(٦) صدورهن: صدور النياق (هلا مِلْتَ بالنياق نحو المدينة، مدينة الرسول). اللبانة: الحاجة.

(٧) أمّ: قصد. أكناف: أطراف. يثرب: المدينة، مدينة الرسول. التثريب: اللّوم.

(★) اعتمدتّ في جَمْع هذه القائمة مراجعَ مختلفةً: تاريخ الأدب العربي (النسخة الألمانية) لبروكلمن - بطاقات مكتبة يافث في الجامعة الأميركية في بيروت - مؤلّفات ابن خلدون، تأليف عبد الرحمن بدوي (دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م).

(٨) يُلفى هذا الكتاب باسم «عُنوان العبر.... » (بروكلمن ١: ٣١٦، السطر ٢١) وبآسم «ترجمان العبر..... » (مؤلّفات ابن خلدون، ص ٢٩، السطر الأوّل).

السلطان الأكبر[١]، بولاق[٢] ١٢٨٤ هـ؛ بيروت (مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة، والنشر، بيروت ١٩٥٦ - ١٩٦١ م (١٣٧٤ هـ)، الطبعة الثالثة ١٩٦٦ - ١٩٦٨ م).

- الجزء الأوّل من كتاب العبر (ويعرف بمقدّمة ابن خلدون):
  - ★ (نشرها كاترمير)، باريس ١٨٤٧ - ١٨٥٨ م.
  - ★ (بتصحيح نصر الهوريني)، بولاق ١٢٧٤ هـ.
  - ★ بيروت (المطبعة الأدبية) ١٨٧٩، ١٨٨٦، ١٩٠٠ م.
  - ★ مصر - القاهرة ١٣١١، ١٣٢٠، ١٣٢٢، ١٣٢٧، ١٣٣٦[٣]، ١٣٤٩ هـ (؟).
  - ★ القاهرة (المطبعة الأزهريّة) ١٣٤٩ هـ = ١٩٣٠ م.
  - ★ (تحرير عليّ عبد الواحد وافي)، القاهرة (لجنة البيان العربي) ١٣٧٧ هـ وما بعد = ١٩٥٧ - ١٩٦٢ م.
  - ★ (لجنة من العلماء)، القاهرة (المكتبة التجاريّة) بلا تاريخ.
  - ★ (اللجنة الدولية لترجمة الروائع)، بيروت ١٩٦٧ م.

أقسام من كتاب العبر:

أخبار الفرنج فيما ملكوه من سواحل الشام وثغورها وكيف تغلّبوا عليها وبداية أمرهم في ذلك ومصايره (نشرها تورنبرغ)، أوبسلا ١٨٤٠ م.

- أخبار دولة بني الأغلب في إفريقية وصقليّة إلى حين آستيلاء الفرنجة على صقليّة (نويل دي فيرجيه) باريس ١٨٤١ م.
- تاريخ الدول الإسلامية في المغرب (نشره دي سلان)، الجزائر (دار الطباعة السلطانية) ١٨٤٧ - ١٨٥٦ م.
- تاريخ الأسرة العُقيلية (تيزهاوزن)، بطرسبورج ١٨٥٩ م.
- مختارات من ابن خلدون، بيروت (مكتبة صادر) ١٩٤٩ - ١٩٥٠.
- التعريف[٤] بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً (تحقيق محمّد بن تاويت الطنجي)، القاهرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٧٠ هـ = ١٩٥٠ م.

كتب لابن خلدون:

- لُباب المحصَّل[٥] في أصول الدين، القاهرة (المطبعة الحسينية) ١٣٢٣ هـ.

---

(١) ويعرف آختصاراً باسم «تاريخ ابن خلدون».

(٢) بولاق حيّ من أحياء القاهرة كانت فيه المطبعة الأميرية. فإذا قيل بولاق يمكن أن يُعنى بها مكان الطبع (في مقابل القاهرة)، ويمكن أن يعنى بها المطبعة.

(٣) إنّ طبعتي ١٣١١ و١٣٤٩ كانتا في المطبعة الأزهريّة. ولم أستطع تحقيق أسماء المطابع للطبعات الباقية.

(٤) ترد هذه الترجمة الذاتية التي صنعها ابن خلدون لنفسه في آخر كتاب «العبر» (في آخر الجزء السابع).

(٥) قال عبد الرحمن بدويّ (مؤلّفات ابن خلدون، ١٥ - ١٦): «.... وقد نُشر الكتاب في إستانبول سنة ١٩٥٨ (للميلاد). ثمّ جاء الأب أغناطيوس عبده اليسوعيّ مدير مجلّة «المشرق» التي يصدرها الآباء =

- شفاء السائل لتهذيب المسائل (نشره لوثيانو روبيو)، تطوان (دار الطباعة المغربية) ١٩٥٢ م؛ (عارضه في أصوله محمّد بن تاويت الطنجي)، أنقرة (منشورات كلّيّة الآلهيّات)، إستانبول (مطبعة عثمان بلشن) ١٣٧٧ هـ=١٩٥٧ م؛ (نشره إغناطيوس عبده خليفة اليسوعيّ- في منشورات معهد الآداب الشرقيّة) بيروت (المطبعة الكاثوليكية) ١٩٥٩ م.

كتب ودراسات مستقلّة في ابن خلدون[١]:

- ★★- إبراز الوهم المكنون من كلام ٱبنِ خَلدونٍ أو المرشدُ المُبدي لفساد طعن ابن خلدون في أحاديث المَهْديّ[٢]، تأليف أحمد بن الصدّيق، دمشق ١٣٤٧ هـ= ١٩٣٤ م.
- ابن خلدون، تأليف تيسير شيخ الأرض .
- ابن خلدون، تأليف محمد جعفر وفوزي سليمان، القاهرة (الدار القومية للطباعة والنشر) بلا تاريخ.
- ابن خلدون: حياته وتُراثه الفكري، تأليف محمّد عبد الله عِنان، القاهرة (دار الكتاب العربي) ١٩٣٣ م، القاهرة (دار الكتب المصرية) ١٩٥٣ م، ثم ١٩٦٦ م).
- ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية تأليف جوستون بوتول (ترجمة غنيم عبدون)، القاهرة (المؤسّسة المصريّة العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر) ١٩٦٤ م.
- ابن خلدون (في سلسلة الروائع، رقم ١٣ - ١٥) تأليف فؤاد أفرام البستاني، بيروت المطبعة الكاثوليكية).
- ابن خلدون في المدرسة العادلية (مطبوع مع «محمّد والمرأة») تأليف عبد القادر المغربي، دمشق (مطابع قوزما) ١٩٢٨ م.
- ابن خلدون: قائمة بمؤلّفاته، انظر، تحت: قائمة بمؤلّفاته.
- ابن خلدون: مُنتخبات، تأليف جميل صليبا وكامل عيّاد، دمشق (مطبعة ابن زيدون) ١٩٣٣ م.
- ابن خلدون منشىء علم الاجتماع، تأليف علي عبد الواحد وافي، القاهرة (مكتبة نهضة مصر) بلا تاريخ.

= اليسوعيّون في بيروت بلبنان، فنشر كتاب ابن خلدون (شفاء السائل) في نشرة أخرى فَرَغَ من طبعها في ٣٠ أبريل (نيسان) سنة ١٩٥٩، أي بعد نشرة محمّد بن تاويت الطنجي بحوالى تسعة أشهر. ومن المؤكّد أنّ الأب أغناطيوس عبده خليفة- برُغْم ذلك- لم يطّلع على نشرة الأستاذ الطنجي، وإلّا لَتَلافى الأخطاء الفاحشة العديدة جدًّا والتي وقعت في طبعته. وهي على أنواع..... ».

(١) هنالك عدد من المقالات والبحوث على مستويات مختلفة من الطول (ومن القيمة أيضاً) نشرت في عدد من المجلّات المختلفة لم أرَ ضرورة لذكرها هنا. فمن شاء الإطّلاع على عناوينها ومَظانّ نشرها فَلْيَرْجعْ إلى كتاب «مؤلفات ابن خلدون» لعبد الرحمن بدويّ (ص ٣١٧ - ٣٢٣).

(٢) المَهْديّ هو الذي يرجع إلى الدنيا في آخر الزمان ليملأ الدنيا عدلاً كما ملئت ظلماً. راجع كلام ابن خلدون في ذلك في مقدّمة ابن خلدون: بيروت ١٩٠٠ م (ص ٣١١ - ٣٣٠)، بيروت- دار الكتاب اللبناني ١٩٦١ م، (ص ٥٥٥ - ٥٨٦).

- ابن خلدون مؤسّس علم الاجتماع، تأليف عبده الحلو، بيروت (بيت الحكمة) ١٩٦٩ م.
- ابن خلدون وعلوم المجتمع، تأليف محمود عبد المولى، ليبيا (الدار العربية للكتاب) ١٩٧٦ م.
- أعمال مِهرجان ابن خلدون المنعقد في القاهرة من ٢ إلى ٦ يناير (كانون الثاني) (منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائيّة)، القاهرة (الاتّحاد القومي - دار ومطابع الشعب) ١٩٦٢ م.
- التفكير العلمي عند ابن خلدون، تأليف ابن عمّار الصغير، الجزائر ١٩٦٩ م.
- حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية، تأليف محمّد الخضر حسين التونسي، القاهرة (المطبعة السلفيّة ومكتبتها)، دمشق ١٣٤٣ هـ = ١٩٢٤ م.
- دراسات عن ابن خلدون، تأليف ساطع الحُصري[1]، بيروت (مطبعة الكشّاف) ١٩٤٣ - ١٩٤٤ م؛ (نشر على نفقة محمّد ناجي الخُضَيري[2] بغداد)، مصر (دار المعارف) ١٩٥٣ م؛ طبعة ثالثة، بيروت (دار الكتاب العربي) ١٩٦٧ م.
- دقائق وحقائق في مقدّمة ابن خلدون، تأليف ، بغداد (مطبعة أسعد) ١٩٥٥ م.
- عبد الرحمن بن خلدون، تأليف محسن الزمرليّ، تونس ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٥ م.
- عبد الرحمن بن خلدون، بقلم علي عبد الواحد وافي (أعلام العرب، رقم ٤)، القاهرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإدارة العامّة للثقافة، قبل (؟) ١٩٦٢ م.
- عبد الرحمن بن خلدون: حياته وآثاره ومظاهر من عبقريّته، تأليف علي عبد الواحد وافي، القاهرة (وزارة الثقافة والإرشاد) بلا تاريخ.
- العرب وابن خلدون، تأليف أبي القاسم محمّد كرّو، تونس (مطبعة الترقّي) ١٩٥٦ م.

---

(١) هو ساطع بن محمّد هلال الحُصَري (بضمّ ففتح)، كنيته: أبو خلدون (لأنّه سمّى ابنه خلدوناً)، حلبي الأصل، ولد سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣ م) في صنعاء اليمن. تعلّم في استانبول فنشأ تركي الثقافة. أنشأ مجلّة «التربية» (بالتركية) وألّف عدداً من الكتب (بالتركية أيضاً). وعمل في التعليم والإدارة. وفي عام ١٩١٨ م (بعد الحرب العالمية الأولى)، جاء إلى سورية واتّصل بالملك فيصل وتولّى وزارة المعارف ثمّ (بعد سقوط الدولة العربية في سورية وانتقال الملك فيصل إلى العراق)، ذهب هو أيضاً إلى العراق وتولّى إدارة دار الآثار ورئاسة كلّيّة الحقوق. وفي عام ١٩٤١ (بعد خيبة ثورة رشيد عالي الكيلاني) أخرج من العراق فجاء إلى بيروت. ثمّ انتقل (بعد الحرب العالمية الثانية، عام ١٩٤٦) إلى مصر. ولساطع الحصري عدد كبير من الكتب بالعربية أهمّها «دراسات عن ابن خلدون». وقد كان ساطع الحصري قد جمع موادّ كثيرةً لكتابه هذا. فلما أخرج من العراق بقيت تلك الموادّ في العراق. ودوّن ساطع الحصري هذا الكتاب من ذاكرته، بعد الاستعانة بعدد يسير من الكتب. وكانت وفاته في مصر، سنة ١٣٨٨ هـ (١٩٦٣ م).

(٢) بالخاء والضاد المنقوطتين من فوقها (وبالتصغير).

- العصبيّة والدولة: معالم نظريّة خلدونية في التاريخ الإسلامي، تأليف محمّد عابد الجابريّ، الدار البيضاء (دار الثقافة) ١٩٧١ م.
- علم الاجتماع الخلدوني، تأليف حسن الساعاتي، طبعة ثالثة، القاهرة (دار المعارف) ١٩٧٥ م.
- فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تأليف طه حسين (نقله إلى العربية محمّد عبد الله عِنان)، القاهرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٤٣ هـ = ١٩٢٥ م.
- قائمة بمؤلّفاته وبعض المراجع التي كتبت عنه بمناسبة المهرجان العلميّ الذي ينظّمه المركز القومي للبحوث الاجتماعية، القاهرة (دار الكتب) ١٩٦٢ م (صفحاته: ٣٦ و ٢٢).
- كلمة في ابن خلدون، تأليف عمر فرّوخ، بيروت (منشورات مكتبة منيمنة) ١٣٦٢ هـ = ١٩٤٣ م، الطبعة الثانية ١٣٧٠ هـ = ١٩٥١ م.
- لقاء ابن خلدون وتيمورلنك، (تعليق محمّد توفيق)، بيروت (دار مكتبة الحياة) ١٩٦٥ م.
- مجلّة «الحديث» (حلب)، عدد خاصّ (أيلول - سبتمبر ١٩٣٢ م).
- مجلّة «الفكر» (تونس)، عدد خاصّ (آذار - مارس ١٩٦١ م).
- مختارات من ابن خلدون، بيروت (مكتبة صادر) ١٩٤٩، ١٩٥٠ م.
- مع ابن خلدون، تأليف أحمد محمّد الحوفي، مصر ١٩٥٢ م.
- مقدّمة ابن خلدون: دراسة - مختارات، تأليف يوحنّا قمير، بيروت (المطبعة الكاثوليكية) ١٩٤٧ م.
- منتخبات من مقدّمة ابن خلدون (مع ملاحظات بقلم دونكان ب. ماكدونالد)، ليدن (بريل) ١٩٦٢ م.
- منطق ابن خلدون في ضوء حياته وشخصيّته، تأليف علي حسين الوردي، القاهرة (معهد الدراسات العربية العالية) ١٩٦٢ م.
- مِهرجان ابن خلدون (مايو - أيار ١٩٦٢)، نظّمته كلّية الآداب (في جامعة محمّد الخامس) بمشاركة اتّحاد كتّاب المغرب العربي وجمعيّة قدماء مولاي إدريس، الدار البيضاء (دار الكتاب) بلا تاريخ.
- مؤلّفات ابن خلدون، تأليف عبد الرحمن بدوي (منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية)، مصر (دار المعارف) ١٩٦٢ م.

صفحات من كتب[١] (منسوقة على حروف الهجاء):

- أزهار الرياض ٢: ٢٠٦ وما بعد؛ الاستقصا ٢: ١٢٠ - ١٢١؛ الأعلام للزركلي ٤: ١٠٦ - ١٠٧ (٣: ٣٣٠)؛ بالنثيا (راجع: تاريخ الفكر الأندلسيّ)؛ البدر الطالع ١:

---

(١) فيما يلي صفحات من الكتب التي جرت العادة بإيراد بعضها دون بعض في آخر كلّ ترجمة (في هذا الكتاب) ما أمكن. ولكنّ هنالك عدداً أكبرَ من الكتب التي يرد فيها فصول تتعلّق بابن خلدون لم أرَ أن أستنفدها هنا. وبإمكان الباحث، إذا أراد، أن يَرْجعَ إليها في «مؤلّفات ابن خلدون» (لعبد الرحمن بدوي)، ص ٣١٧ - ٣٣٨ (بالعربية وبغير العربية).

٣٣٧ - ٣٣٩؛ بروكلمن ٢: ٣١٤ - ٣١٧، الملحق ٢: ٣٤٢ - ٣٤٤؛ تاريخ العلوم عند العرب (لعمر فرّوخ) ٤٤٢ - ٥١٦؛ تاريخ الفكر الأندلسيّ ١٥٤ - ١٥٥؛ ٢٥٩ - ٢٦٦، ٤١٥ - ٤١٧؛ تاريخ الفكر العربي (لعمر فرّوخ) ٦٩١ - ٧٠٩؛ تاريخ النقد الأدبي (لإحسان عبّاس) ٦١٥ - ٦٣٠؛ تعريف الخلف ٢: ٢١٣ - ٢١٥؛ دائرة المعارف الإسلامية (بالانكليزيّة) ٣: ٨٢٥ - ٨٣١؛ سارطون (راجع: مقدّمة إلى تاريخ العلم)؛ سركيس ٩٥ - ٩٧؛ شذرات الذهب ٧: ٧٦ - ٧٧؛ الضوء اللامع ٤: ١٤٥ - ١٤٩؛ عصر سلاطين المماليك ٦: ٢١١ - ٢٤٨؛ عنوان الأريب ١: ١٠٧ - ١١٤؛ مجمل تاريخ الأدب التونسيّ ٢١٨ - ٢٢٣؛ معجم المطبوعات العربية (راجع: سركيس)؛ معجم المؤلّفين ٥: ١٨٨ - ١٩٠؛ مقدّمة إلى تاريخ العلم (لجورج سارطون بالانكليزيّة) راجع فهارس الأجزاء الثلاثة (خمسة مجلّدات) والجزء الثالث (مجلّدين) منها خاصّة: عَصْر جفري شوسر وابن خلدون وحَسداي كرسكاس[1]، ص ١٠١٩ - ١٨٧١ (مجموع المجلّد الثاني من الجزء الثالث)؛ المكتبة العربية الصقليّة ٤٦٠ - ٥٠٨؛ نفح الطيب ١: ١٤٧، ٢٣٢ - ٢٣٨، ٢٨٢ - ٢٨٣، ٣٢٧ - ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٤١ - ٣٤٢، ٣٥٢ - ٣٥٤، ٣٥٦ - ٣٥٩، ٣٦٤ - ٣٦٦، ٣٩٨، ٤٢٤، (٤٤٦ - ٤٤٩)، ٤٥٢ - ٤٥٣، ٥٧٧ - ٥٧٨، (٢): ١٢٥، ٢٠١ - ٢٠٢، ٥٢١ - ٥٢٣، (٤): ٣٧٣، (٥): ٨، ٩٥ ١٠٨، ١١٠ - ١١٢، ٢٥٤ - ٢٥٦، ٤١٢، (٦): ١٧١ - ١٩١، ٣٨٩ - ٣٩٦، (٧): ٥، ١٧؛ نيل الابتهاج (مصر) ١٦٩ - ١٧٠.

ابن قنفذ القسنطيني

١ - هو أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ حَسَنٍ الخطيبِ (ت ٧٥٠ هـ) بنِ عليٍّ الخطيبِ (ت ٧٣٣ هـ) بن حسنٍ[2] بنِ عليِّ بنِ ميمونٍ القِسَنْطينيُّ، نِسبةً إلى قِسَنْطينة (قسطنطينة)

---

(١) جفري تشوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠ م) شاعر وكاتب انكليزيّ من أهل لندن، أشهر كتبه «أقاصيص كانتربري». وقد عملت كتبه على تثبيت عدد من قواعد اللغة الانكليزية. - حسداي (بفتح الحاء المهملة أو بكسرها) بن إبراهيم كراسكاس (أو قراقاس) من أهل برشلونة (إسبانية)، فيلسوف يهودي حاول أن يخلّص الفكر اليهودي من أثر الفلسفة الأرسطوطاليسية. ومَعَ أنّه لم يرفض مكانه العقل في الفلسفة، فإنّه حاول أن يلقي عليه عدداً من القيود. ويبدو أنّه كان لحجّة الإسلام الغزّالي (ت ٥٠٥ هـ = ١١١١ م) أثر بالغ في تفكيره، كما أنّه تأثر أيضاً بنفر آخرين من الفلاسفة المسلمين كابن رشد مثلاً (ت ٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م).

(٢) لابن قنفذ القسنطيني في كتاب «الفارسية» ترجمة ودراسة مفصّلتان (ص ٣٩ - ٩٥)، وهو هنالك ابن «القنفذ» (بالتعريف). وفي بروكلمن: ابن قنفوذ. أمّا سبب التسمية «ابن قنفذ» فلا يعرف الدارسون لها وجهاً. وفي سلسلة نسبه «الحسين» مكان «الحسن» (مرتين).

في القُطْر الجزائريّ، والشهيرُ بابنِ الخطيبِ وبابنِ قُنْفُذٍ[1]. ولعلّ مَوْلِدَهُ كان في سَنَةِ ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ - ١٣٤٠ م).

بدأ ابنُ قُنْفُذٍ طَلَبَ العلمِ على والدِهِ حسنٍ وعلى جَدّهِ لأمّهِ أبي يعقوبَ يوسفَ بنِ يعقوبَ المَلّاريّ الصوفيّ (ت ٧٦٤ هـ) ثمّ على الحسنِ بنِ خلفِ اللهِ بنِ باديسَ القِسنطينيّ (ت ٧٨٤ هـ) والحسنِ بن أبي القاسمِ بنِ باديسَ القسنطيني (ت ٧٨٧ هـ) وغيرِهما.

وفي سَنَةِ ٧٥٩ هـ (١٣٥٨ م) رَحَلَ ابنُ قُنْفُذٍ إلى فاسَ وتلقّى العلمَ على نفرٍ من عُلمائها ومن العُلماء الطارئينَ عليها. مِنْ هؤلاءِ جميعاً: الشريفُ الغَرْناطيُّ أبو القاسمِ محمّدُ ابنُ أحمدَ السَبْتيُّ (ت ٧٦٠ هـ)، وأبو محمّدٍ الهَرْغِيُّ الزُقُندُريُّ (ت ٧٦٨ هـ)، والشريفُ التِلِمْسانيُّ أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ عليٍّ (ت ٧٧١ هـ)، والشيخُ الفقيهُ أبو زيدٍ عبدُ الرحمنِ اللجائي (ت ٧٧٣ هـ)، وأبو عِمرانَ موسى بنُ محمّدِ بنِ مُعْطٍ العبدوسي (ت ٧٧٦ هـ) وأبو محمّدٍ عبدُ الله الوانغِيلي الفاسيُّ (ت ٧٧٩ هـ)، وابنُ مرزوقٍ التلمسانيُّ أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ أحمدَ (ت ٧٨١ هـ)، وأبو العبّاسِ أحمدُ بنُ قاسمٍ القبّاب الفاسي (ت ٧٧٩ هـ).

وقد تطوّفَ ابنُ قُنفذٍ في عددٍ من مدن القُطْر المَغرِبي (٧٥٩ - ٧٧٦ هـ) ثمّ عادَ إلى قسنطينةَ وتولّى الخُطْبَةَ والقضاء والإفتاء فيها وتصدّر حيناً للتدريس.

وكانتْ وفاةُ ابنِ قنفذِ القِسنطيني في ثاني عَشَرَ رَبيعٍ الأوّل من سَنَةِ ٨٠٩ (١٤٠٦/٨/٢٧ م).

٢ - نشأ ابنُ قنفذِ القسنطيني في أُسْرةِ علمٍ ووَجاهةٍ وثروة، فقد كان جَدّه ثمّ والدُه مِنْ بعدِ جَدِّه يتولّيانِ الخَطابةَ في قسنطينة مدّةً تزيدُ على سِتين سَنَةً. وكان مُؤَلّفاً مُكثِراً، ولكنّ أكثرَ مؤلّفاته قد ضاع. ومُعْظَم هذهِ المؤلّفاتِ كان في الفِقه وفي الفَلَكِ والطِّبّ والحِساب والفرائض (تقسيم المواريث) ثمّ في العربية (النحو). فمن هذه الكتب: معاونةُ الرائض في مبادىء الفرائض - هواية السالك في بيان أَلفِيّة ابن مالكٍ - سِراج

---

(١) توفيّ سنة ٦٦٤ هـ (وفيات ابن قنفذ ٣٣٠). وأرى أن المدى بين وفاة جدّه (٧٣٣ هـ) وبين وفاة والد جدّه (٦٦٤ هـ) واسع جدًّا (٦٩ سنة!).

الثقات في علم الأوقات - تيسير (تسهيل) المطالب في تعديل الكواكب - حَطّ النِّقاب عن وُجوه أعمال الحساب - الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية - تُحْفة الوارد في اختصاص الشرف من قِبَلِ الوالد - شرف الطالب في أسنى المطالب - تحصيلُ المناقب وتكميل المآرب - شرح المنظومة الحسابية في القضايا النجومية (لأبي الحسن علي بن أبي الرجال القيرواني) - طبقاتُ علماء قسنطينة - أُنس الفقير وعزّ الحقير (في ترجمة أبي مدينٍ شعيبٍ الصوفيّ) - كتاب الوَفيات. وهنالك كتب أخرى له ضاعتْ.

٣ - مختارات من آثاره

- من مقدّمة « الفارسية » وخاتمتها:

.... وبعدُ فهذا مُخْتَصَرٌ فيه ما تَتَشوّفُ النفوسُ إليه مِنَ الاطّلاعِ على مبادىء الدَوْلةِ الحَفْصِيَّة وما يتعلّقُ بها من مُهمّاتِ الوقائعِ الجَلِيَّة بكلامٍ كُلّيٍّ تحسُنُ المحاضرةُ به وتحصُلُ الإفادةُ بسببِهِ. ولِشَرَفِهِ بِرَفْعِهِ إلى الحَضْرة العَليّة وفَخْرِ زمانِ وضعهِ بأيامِ الإمارة العزيزية والمُجاهديّة سَمّيتُه « الفارسيةَ في مبادىء الدولة الحفصيّة ». واللهُ المسؤولُ في التوفيق والهِداية إلى سَواء السبيل.

... وههُنا انتهى الغرَض فيما تعلّقَ بالدولةِ الحفصية العُمَريّة من ذِكْرِ بعضِ وقائعها الجليّة، من مَبْدَئِها إلى هذا التاريخِ الذي هو من آخِرِ سَنَةِ خمسٍ وثمانِمائَةٍ - أدامها اللهُ رحمةً للإسلام بجاه النبيّ عليه السلام.

- من متن كتاب « الفارسية » في مبادىء الدولة الحفصيّة:

وفي السَّنةِ التي بُويعَ فيها الأميرُ أبو حفصٍ [١] أخذَ النَّصارى جزيرةَ جَرْبَةَ [٢] وأسروا من الشباب القويّ والشابّةِ الحَسَنةِ [٣] ثمانيةَ آلافٍ وقتلوا الصِّغارَ. ونَهَبوا الأمتِعةَ

---

(١) هو أبو حفص عمر، جاء إلى العرش سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) ولم تطل مدّته (راجع زامباوّر ١١٥)، ولم يُعدَّه حسن حسني عبد الوهاب في سلاطين بني حفص في تونس (راجع خلاصة تاريخ تونس، ص ١٠٧ - ١٠٨ و ١٢٥).

(٢) جربة جزيرة عند الشاطىء الجنوبيّ الشرقيّ من القطر التونسيّ.

(٣) يقصد: من الشبّان الأقوياء ومن الشابّات (الفتيات) الحسناوات.

والأموالَ والزيتَ والزَّبيبَ ما حَملوا (في) سُفُنِهِمُ التي هي نحوُ السبعينَ وفي سُفُنِ الجزيرةَ التي هي نحوُ الثلاثين. وفي مدّتِه أيضاً، في سَنَةِ ثلاثٍ وثمانينَ وستِّمِائَةٍ، نَزَلَ النصارى المَهْدِيَّةَ؛ وماتَ منهم نحوُ المِائَةِ، ومات من أهلِ المدينة ثلاثةٌ. وٱنصرفوا بعدَ إقامةِ خمسةِ أيّامٍ.

– وصف «كتاب الوفيات»

قال ٱبنُ قنفذ[١]:

.... ومّما حافظ عليه أهلُ الحديث كثيراً تاريخ وفيات الصحابة والمحدثين خوفاً من المُدلّسين[٢]، ولذلك قال بعضهم: إذا ٱتّهَمْتُمْ أحداً في أخْذٍ أو رِوايةٍ فٱحسُبوا سِنَّه وسَنَةَ وَفاةِ من أخذ عنه[٣]، فبذلك يتبيَّنُ هل أدركه أم لا..... وَلْنَذْكُرْ في هذا الكتابِ ما حَضَرني من وَفَيات الصحابة والمُحَدِّثين والمؤلفين. و(قد) رتّبتُه على المِئِينَ من السِّنينَ[٤] بوجهٍ لم أُسْبَقْ إليه.

– من متن «كتاب الوفيات»:

المِائة الثامنة[٥]: تُوُفِّيَ الفقيهُ المُحدِّثُ الجليل الشهير الفاضل قاضي الجماعة بِبِجايةَ أبو العباسِ أحمَدُ بن محمدٍ الغبريني[★] صاحب «عُنوان الدِّراية» وغيرِه شهيداً سَنَةَ أَرْبَعٍ وسَبْعِمِائَةٍ. وفي هذه السَّنَةِ تُوُفِّيَ أبو الحسَنِ الغرافي[٦]. وفي سَنَةِ سَبْعٍ وسَبْعِمائَةٍ تُوُفِّيَ فقيهُ شُيوخِ الأولياء أبو زيدٍ الهزميري[٧] بِمَدِينةِ فاسَ. وتُوُفِّيَ الفقيهُ الأديبُ أبو

---

(١) نص يرد في كتاب لابن قنفذ هو «شرف الطالب في أسنى المطالب» (راجع «كتاب الوفيات» - تحقيق عادل نويهض - ٢١).

(٢) التدليس أن يكتم البائع عيب السلعة عن المشتري. وفي الحديث خاصّة: أن يزعُم رجل أنّه سمع حديثاً من فلان وهو لم يسمعه منه، أو ينسبَ إلى شيخه أشياءَ ليست موجودة في شيخه.

(٣) .... فاحسبوا سنّ (الراوي) والسَّنة التي توفّي فيها الرجل الذي قال ذلك الراوي أنّه أخذ عنه.

(٤) رتّبه على تعاقب سنوات الوفاة (فذكر الذي مات في سنة قبل الذي مات في سنة بعدها).

(٥) المائة الثامنة (أو القرن الثامن) تبدأ سنة ٧٠١ وتنتهي سنة ٨٠٠.

(★) تجد ترجمته في هذا الجزء.

(٦) هو عليّ بن أحمد بن عبد المحسن بن أحمد الحسيني الإسكندراني (٦٢٨ - ٧٠٤ هـ) محدّث ثقة.

(٧) هو أبو زيد عبد الرحمن الهزميري من أهل مرّاكش، كان من الأولياء الصالحين. ويروي الناس عنه عدداً من الكرامات.

عبدِ اللهِ مُحمّدُ بنُ خميسٍ التونسيُّ سَنَةَ ثمانٍ وسَبْعِمِائَةٍ.

... العشرة[1] الثالثة من المِائَةِ الثامنة. تُوُفِّيَ الشيخُ المُحقِّقُ أبو العباسِ أحمدُ بن محمدِ بنِ عثمانَ بنِ البنّاءِ الأزديّ العَدَديّ بمدينة مَرّاكُش سَنَةَ إحْدى وعِشرينَ وسبعِمِائَةٍ....... العشرة[2] الرابعة من المائة الثامنة..... وفي سَنَةِ ثلاثٍ وثلاثينَ وسبعمائة.... وفي هذه السَّنَةِ تُوُفِّيَ الجَدُّ والدُ والدي عليُّ بن حسَنِ بنِ عليٍّ بن ميمونِ بن قُنفُذٍ، وكانت مُدَّةُ خُطبتِهِ بقُسَنْطينةَ نحواً من خَمسين سَنَةً. وتقلَّد خُطةَ القضاء بها مُدَّةً ثم آستعفى فعُوفِيَ[3]. وكانت به وسوسةٌ[4] في شأن عبادتِهِ بلغتْ بِهِ إلى أنّه إذا قَبَّل أحَدٌ طَرَفَ ثوبه حَبَسَهُ بِيَدِهِ[5] لِيَغْسِلَهُ. وأمَرَ مرّةً بإخراجِ مِنبرِ الجامعِ حتّى طُهِّرَ له من صُعودِ غيرِهِ عليه. ولَقِيَ أعلاماً من الناس.

٤- الفارسيّة في مبادىء الدولة الحفصيّة (تحرير هنري بيريس)، الجزائر (المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية) ١٩٣٩ م (طبع في مصر)؛ (تحقيق محمّد الشاذلي النَّيْفر وعبد المجيد التركيّ)، تونس (الدار التونسية للنشر) ١٩٦٨ م.
- كتاب الوفيات (نشره هنري بيريس)، الجزائر بلا تاريخ للطبع؛ (حقّقه عادل نويهض)، بيروت (المكتب التجاري للطبع والنشر والتوزيع) ١٩٧١ م.
- أُنس الفقير وعزّ الحقير (تحقيق محمّد الفاسي وأدولف فور)، الرباط (جامعة محمد الخامس: المركز الجامعي للبحث العلمي) ١٩٦٥ م.

★★ تعريف الخلف ١ : ٢٧ - ٣٢؛ الإعلام بمن حل مَرّاكش من الأعلام ٢ : ١٦؛ درّة الحجال ١ : ٦٠ (١ : ١٢١ - ١٢٣)؛ جذوة الاقتباس ٧٩؛ نيل الابتهاج ٧٥؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٨٤٣ - ٨٤٤؛ بروكلمن ٢ : ٣١٣، الملحق ٢ : ٣٤١؛ الأعلام للزركلي ١ : ١٤٤ (١١٧)؛ المكتبة العربية الصقلية ٥٠٩.

(١ و٢) الأصحّ أن يقال: العشر (أي العشر السنوات أو السنوات العشر) الثالثة (من المائة الثامنة).

(٣) استعفى فلان من منصبه (طلب التخلّي عنه) فأعفي (المجهول من «أعفى») وعوفي (المجهول من «عافى») بمعنى واحد. والصيغة الأولى «أعفى» أفصح وأكثر استعمالاً.

(٤) الوسوسة والوسواس (والعامّة تقول: سرساب): وَهْمٌ (بفتح فسكون فضمّتين) بأنّ كلّ شيء يمسّه (بفتح الميم) الآخَرون نَجِس (بفتح فكسر). وهذا مرض نفسي.

(٥) حبس طرف ثوبه بيده (أمسك بطرف ثوبه ليبعده عن باقي ثيابه).

ابن الأحمر
صاحب نثير الجمان[1]

١ - ليس في سلسلةِ نَسَبِ ابنِ الأحمرِ هذا مَنْ تولّى عَرْشَ غَرناطَةْ. إنّه أبو الوليدِ إسماعيلُ بنُ يوسفَ بنِ محمّدِ بنِ فرجٍ[2] بنِ اسماعيلَ بنِ يوسفَ المدعوِّ بالأحمرِ. وُلِدَ أبو الوليدِ اسماعيلُ بُعيدَ سَنَةِ ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م). ويبدو أنّ السُّلطانَ أبا الحجّاجِ يوسفَ الأوّلَ بنِ اسماعيلَ بنِ فَرَجٍ والمعروفَ بلقبِ « النيّار » (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) قد خافَ طمعَ ابناءِ عمّهِ بالمُلك فأخرجَهُمْ من الأندلس: خَرَجَ عمُّه محمّدُ بنُ فَرَجٍ ومَعَهُ ابنُه يوسفُ[3] وحَفيدُه اسماعيلُ (صاحبُ هذه الترجمة) إلى المَغْرِبِ، وذلك - فيما يبدو - في أيامِ أبي سعيدٍ عُثمانَ بنِ يَعقوبَ (٧١٠ - ٧٣٢ هـ) تاسعِ ملوكِ بني مَرينٍ في فاسَ.

اشتغلَ أبو الوليدِ بنُ الأحمرِ منذُ مَطْلَعِ حياتهِ بالعلم والأدب فتلقّى عِلمَ العربية (النحو) على محمّدِ بنِ محمّدِ بن داوودَ الصِّنْهاجيّ، والأدبَ والتاريخ على أحمدَ بنِ محمد الصبّاحِ وعبدِ الغفّار بن موسى البوظفي، وسمع المُوطّأ من الحسنِ بنِ عطيةَ بن موسى الوانشريسي. وهنالك نفرٌ من العلماء أجازوا أبا الوليدِ بنِ الأحمر إجازة عامّةً (في علوم مختلفة) منهم محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ عبد الملك بن شُعيبٍ الفشتالي وأبو عبدِ الله محمّدُ بنُ سعيدٍ الرُعيني السرّاج.

ثمّ تصدّرَ أبو الوليدِ بن الأحمرِ للتدريس في جامعِ القَرَوِيّين في فاسَ وأخذ بمخالطة رجالِ العلم والأدب والسياسة. وقد كان أوّلُ اتّصالٍ له بالبَلاط المَريني في أيامِ أبي

---

(١) هذه الترجمة مبنية على الدراسة المفصّلة القيّمة التي قدّم بها محمّد رضوان الداية دراسته في كتاب « نثير الجمان ». غير أن السلسلة المنطقية لتاريخ بني الأحمر كثيرة التعقيد.

(٢) في زامباور (ص ٩٥): إسماعيل بن محمد بن فرج ، وفي نثير فرائد الجمان (ص ٦٦): اسماعيل بن يوسف ابن محمّد بن فرج. وقد قبلت هنا السلسلة الثانية .

(٣) في نفح الطيب (٥:٨٤): كانت فتنة أندرش في الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستّين وسبعمائة (١٣٥٩/٨/٢٢ م) والتي جاء بها إلى عرش غرناطة إسماعيل بن محمّد بن فرج عم أبي الوليد اسماعيل بن يوسف بن محمّد بن فرج (صاحب هذه الترجمة)، بعد خمسة وثلاثين عاماً من مولد صاحب هذه الترجمة.والذي فرضنا أنّه جاء مع أبيه وجدّه إلى المغرب طفلاً.

عنانٍ فارسٍ المتوكّلِ بنِ عليٍّ (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ) فنال عنده حُظوةً كبيرة. ومَعَ أنّه أصبح مؤرّخَ دولةِ بني مَرينٍ وكاتباً عند ملوكهم ووزرائهم، فإنّ صلته بهم ضَعُفَتْ بعدَ أبي عنانٍ ثمّ اختلفت مكانتُه عندَهم صعوداً وهبوطاً.

وكانت وفاة أبي الوليدِ اسماعيلَ بنِ يوسفَ بنِ الأحمرِ في فاس، سَنَةَ ٨١٠ هـ (١٤٠٧ م) في الأغلب.

٢- تقومُ شُهرةُ أبي الوليد بنِ الأحمر على أنّه مؤلّفٌ خِصْبٌ تَرَكَ لنا في مؤلّفاتِهِ صورةً للعصر الذي عاش فيه مِنَ الناحية السياسية ومن الناحية الأدبية. فمن كُتُبِهِ: عرائسُ الأمراء ونفائس الوزراء- أعيان مدينة فاس- مستودع العلامة ومستبدع العلامة[1]- المنتخب من درر السلوك في شعر الخلفاء الأربعة والملوك- فريد العصر في شعر بني نصر- شرح البردة (للبوصيري)- نثير الجُمان في شعر من نَظَمني وإياه الزمانُ- نثير فرائد الجُمان في نظم فحول الزمان- حديقة النِّسرين في أخبار بني مَرين- روضة النسرين[2] في أخبار بني عبد الواد وبني مرين (ألّفها سنة ٨٠٧ هـ)،- تأنيس النفوس في اكمال نَقط العَروس (للسان الدين بن الخطيب)- نظَم وشرَح كتاب رقم الحلل (للسان الدين بن الخطيب)[3]- فهرست ابن الأحمر[4].

---

(١) الاسم غريب غامض الدلالة. ويقال إن كلمة العلامة الثانية بتشديد اللام (راجع نثير فرائد الجمان ١٣٢). العلامة (بتسهيل اللام، بلا تشديد)، في الأصل: الطراز (رسم اسم الملك على الأوراق والثياب والأسلحة الخ). وصاحب العلامة أصبح يطلق في الأندلس على رئيس ديوان الانشاء.

(٢) ألّف أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر هذا الكتاب أوّلاً برسم السلطان المَريني أبي العبّاس أحمد المستنصر بالله بن إبراهيم (٧٧٦ - ٧٨٦ هـ) وبعنوان «النفحة النسرينيه واللمحة المرينيّة» ووقف به في تاريخ بني مرين عند سنة ٧٨٩ للهجرة (١٣٨٧ م). ثمّ جعل له مقدّمة جديدة برسم السلطان المريني أبي سعيد عثمان بن أحمد (٨٠١ وما بعد) وجعل له أيضاً عنواناً جديداً هو «روضة النسرين...» (راجع بروكلمن، الملحق ٢: ٣٤٠).

(٣) كتاب «رقم الحلل الموشيّة» للسان الدين بن الخطيب تاريخ موجز لدول الإسلام نظمه ابن الخطيب شعراً ثمّ جعل عليه ابن الخطيب شرحاً قصيراً. ويبدو أن أبا الوليد بن الأحمر قد وصل هذا الكتاب (أي: زاده واستمرّ فيه، نظماً وشرحاً، على غرار ما كان لسان الدين قد فعل).

(٤) الفهرست: البرنامج = فهرست ابن الأحمر أو برنامج ابن الأحمر: كتاب تكلّم فيه ابن الأحمر على شيوخه (أساتذته).

وأبو الوليد بنُ الأحمرِ شاعرٌ وناثر. له في الشعر قصائدُ ومُقطّعاتٌ أكثرُها شِعْرُ مناسباتٍ يَغْلِبُ عليها المديحُ، وفيها شيءٌ من الرثاء والغزل وبعض الأغراض الإخوانية. أما أماديحه فأكثرُها في بني مرين الذين عاشَ في كَنَفِهم لاجئاً وفي نفرٍ من رجالِ دولتهم، وقد مَدَحَ أيضاً الغنيَّ بالله النَّصْريّ - وهُوَ محمّدُ (الخامسُ) بنُ يوسفَ بنِ الأحمر ثامنُ ملوكِ غَرناطةَ. غيرَ أنّنا لا ندري متى مدَحَ الغنيَّ بالله هذا: أحين كان الغنيّ بالله ملكاً على عرش غرناطة (٧٥٥ - ٧٦٠ هـ) أم حين كان في فاس لاجئًا (٧٦١ - ٧٦٣ هـ)؟

ولأبي الوليد بن الأحمر نسيب وغزل ليس فيهما براعة خاصّة. وله أيضاً بديعيّات أو مولديّات في مدح محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ثمّ له أيضاً عدد من الأخوانيّات لا تخرج عن نطاق المديح كثيراً.

وفي شعر أبي الوليد بن الأحمر صِناعةٌ وتكلّفٌ يُلْقِيانِ على شِعرِه شيئاً من جَفاف شعرِ العُلماء والفقهاء. ولأبي الوليد بنِ الأحمر نَثْرٌ ينقسم تَرَسُّلاً يَكْثُرُ فيه التأنُّق والتكلُّف وتدويناً في الكُتُبِ مُرْسَلاً فيه محاولةٌ للجَرْيِ على سَجِيّةِ النفس.

٣- المختار من آثاره

- قال أبو الوليد اسماعيلُ بنُ يوسفَ بنِ الأحمر في مَوْلِدِيّةٍ (بديعيّة يَمْدَحُ بها رسولَ الله):

ففي الماءِ لَمّا مِنْ أصابِعِهِ انْهَمى ... لَمُعْجِزَةٌ ما في البرايا ضَرِيبُها[١].
وفي الماء - لَمّا جازَه - ومِياهُه ... به الأرضُ يُرْوى حَزْنُها وسُهوبُها[٢]؛
فلم تَنْدَ أخفافُ المَطِيِّ بمائهِ، ... وأمواهُه ما خِيف منها رُسوبها[٣].

---

(١) من المعجزات التي تروى للرسول أن الماء سال من بين أصابعه حتّى ارتوى الجيش العطشان. الضريب: المثيل، الشبيه.

(٢) الحزن: الأرض السهلة. السهب (بالفتح): الأرض الواسعة.

(٣) الخفّ: باطن قائمة الجمل. تندى: تبتلّ المطيّ: الحيوانات المعدّة للركوب. رسب الماء: غار في الأرض (كان الماء كثيراً إلى درجة أنّ الأرض ما كانت قادرة على امتصاصه).

إليكَ، رسولَ الله، نيرانَ لَوْعتي؛ فها هُوَ شَوْقي الخارجيُّ شبيبُها[1].
هِيَ النفسُ في آمالِ زَوْرِك سُؤْلُها، ورَغْبَتُها في أن يُتاحَ رَغيبها[2].

- وقال يمدح الغني بالله:

ألا يا عُفاةَ الأرض، طُرًّا تَبادروا إلى جودِ مَلْكٍ جُودُه عَمَرَ الدنيا[3].
هو الفَذُّ في الأمْلاك طُرًّا لأنّه أجَلُّهم قَدْراً وأحسنُهم هَدْيا[4].
هُمامٌ إذا ما الرَّوْعُ عَبّ عُبابُه وأبْدى عليه النَّقْعُ من نَسْجه زِيّا[5].
ولاحتْ بروقُ الهِنْدِ وامتلأ الفضا بصَلْصالِ رَعْدِ الطبلِ أعْظِمْ به شَيّا[6]!
أراكَ مُحَيًّا تالياً سُورةَ الضُّحى وقلباً على الأعداء قد ركِبَ البَغْيا[7].
تعزّزَ منه الدينُ لّما أقامَه، ولم يَشْكُ منه المُلْكُ وهْناً ولا وَهْيا[8].
أفاضَ على العافِينَ طُرًّا مواهِباً بأفضالِه وَعْداً لهم كان مأتِيّا[9].
حَلَفْتُ يميناً بَرّةً، ليس في الدُّنا مَليكاً سواه للمعالي سَعى سَعْيا.

- وقال في النسيب والغزل:

سَهِرْتُ في مَنْ جَفْنُهُ نائِمُ. وذُبْتُ في مَنْ جِسْمُه ناعِمُ.
ظَبْيٌ ظُبى عَيْنَيْهِ فَعّالةٌ بالقلب ما لا يَفْعَلُ الصارم[10].

---

(١) في البيت تورية: الخارجيّ: الظاهر (وأحد الخوارج). الشبيب: رفْعُ الفَرسِ كِلتا يديه، والشاعر يقصد: الشبوب، اشتعال النار، وشَبيب بن يزيد الشيباني (ت ٧٧ هـ - من رؤساء الخوارج وأبطالهم). يقول: ظاهر شوقي إليك كاشتعال النار أو كبطولة شبيبِ الخارجيّ، فكيف بباطنه.

(٢) الزور: الزيارة. السؤل: المطلب. الرغيب: النهم (شدّة الشوق).

(٣) العافي: الذي يطلب المعروف.

(٤) الفذّ: الفرد، الأوحد. الأملاك: الملوك.

(٥) الروع: الخوف (الحرب). عبّ عبابه (اضطرب موجه). النقع: غبار الحرب.

(٦) بروق الهند: لمعان (السيوف) الهندية.

(٧) سورة الضحى هي السورة الثالثة والتسعون في المصحف. الضحى هو الوقت الذي يكون بعد شروق الشمس مباشرة (ويكون لامعاً جدًّا). أراك محيّا...: فرحاً، ضاحكاً. البغي: الظلم.

(٨) تعزّز: اشتدّ، اعتزّ، قوى. الوهن: الضعف. الوهي (في الجدار): التهدّم و(في الثوب): التشقّق، التهرّؤ.

(٩) مأتيّا: آتياً لا شكّ فيه. تضمين من القرآن الكريم: ﴿إنّه كان وعدُه مأتيًّا﴾ (١٩ : ٦١، سورة مريم).

(١٠) الظبة (بضمّ ففتح): حدّ السيف. الصارم: السيف.

يَنشأُ عن عَيْنَيْــــهِ سِكْرُ الهوى فكُلُّنــا مِنْ ثَمَــلٍ هــائم[1].
شَكَوْتُ مــا بي من جَوى حُبِّــهِ من وَلَــهٍ لعلّــه راحم[2].
يَضْحَكُ في الحبّ، وأبكي أنا. أللّـــه فــيا بيْنَنــا حــاكم!

– من مقدّمة نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان:

وبعدُ؛ فإنّ الأدبَ زَهْرٌ حَوَتْهُ من البدائعِ كِمامةٌ، ورَوْض مُدَبَّجٌ[3] حاكته من المحامد غَمامة. وهو أعْذب ما تَطمَحُ إليه الهِمَمُ.... لما يَشْتَمِلُ عليه من ضَبْط القوافي والأوزان، ويحتوي عليه مَسْرَحُهُ من بديع الحَلاوة والنَّغَمات المُذْهِبَةِ للأحزان. إذ بهِ تَتَفاوَتُ في الناس الأخْطارُ، وتَشْرُفُ النفوسُ وإنِ اخْتَلَفَتْ بِهِمُ الأقطارُ. ولمّا كان (الأدبُ) في الرُّتبةِ العَلِيَّةِ في نفوسِ أهل العَقْدِ والحَلّ.... وكانَ في هذا العَصْرِ الذي أنا فيه مَنْ يأتي في نَظْمِهِ بالبديعِ ويُوَفّيه، مِنْ كلِّ أسَدٍ فَحْلٍ يَسْتَنْزِلُ وكاف الإجادةِ في مَحلٍ، مِمَّنْ يُقالُ له في الشعرِ حَبيبُهُ، وهو للإدراك جَليبُه[4].... من مُحِبٍّ مُتَغزِّلٍ، ومادِحٍ للرِّفْدِ مُسْتَنْزِلٍ[5]، سَنَحَتْ لأهلهِ نَصيحتي وسَمَحَتْ بعملهِ قَريحتي. فَجمَعْتُ في هذا التأليفِ ما وَجَدْتُه لَهُمْ مُتَمَحِّقاً شُعاعه[6]، وما أَلْفَيْتُه من نفائسِ جواهِرِهِمْ مُتَفرِّقاً شَعاعُه؛ مُعَوِّلاً في ذلك على ما طابَ فَصْلُه وفَرْعُ ذُرى الإجادةِ فَرْعُه وأصْلُهُ. ولم أُعَوِّلْ إلّا على مَنْ في عصرنا نَبَغَ وأثوابَ التَخيُّلاتِ الشِّعريّةِ في الإحسان صَبَغَ.... ولم أُثْبِتْ إلاّ قادراً لا يُباريه أحدٌ من أهلِ وَقْتِه، إذ تَبَرَّأَ مِنَ العِيِّ وَمَقْتِه. وضَرَبْتُ عن غيرِهم صَفْحاً.

---

(١) الثمل: السكر. هائم: حائر (لا يدري ما يفعل).

(٢) الجوى: ألم الحب. الوله: ذهاب العقل من الحزن.

(٣) الكمامة: الكأس (الغلاف الأخضر) الذي تكون فيه الزهرة قبل أن تتفتّح. مدبّج: (ثوب من الحرير) مزيّن ومنقوش بالأشكال والألوان.

(٤) الوكاف (كذا في الأصل: ص ٢١٦، السطر الخامس عشر): بردعة الحمار. والمقصود: الوكف (بالفتح) أو الوكيف أو الوكفان (بفتح ففتح): هطول المطر. محل (لعلّها بفتح ففتح فتشديد) حبيبه: حبيب بن أوس (أبو تمّام)، كناية عن البراعة في الشعر.

(٥) الرفد: العطاء. مستنزِل: الذي ينجح في استنزال شيء (إقناع الآخرين بفعله).

(٦) المحاق (بالضمّ): ليلة آخر الشهر (لا ضوءَ قمرٍ فيها). – من شعر جيّد (له شعاع) ولكنّه مستور، محجوب (لم ينشر بعد). الشعاع (بالضمّ): الضوء المنتشر. الشعاع (بالفتح): (الأشياء) المتفرّقة.

والشُعراءُ كثيرونَ، هم لأرياحِ الكلام مُثِيرونَ... واقْتَصَرْتُ فيهِ على مَنْ لِنَفْسِهِ أنْشَدَني، ومَنْ بِنظامِهِ البارع اسْتَرْشَدَني مِمَّنْ رأيتُه بالعِيانِ من الشعراء الأعيان، ومن بِسِنّي لَحِقتُه وأُنْشِدْتُ له فألْحَقْتُه وأُلِمُّ بها أنْشَدَني رِوايةً عن قائلٍ أَعِينه مّما يَسْتَجيدُه قائِلُهُ ويَزِينُه. وغَرَضي أنْ أكْتُبَ ما أجِدُهُ من الرسائلِ لِمَنْ ثَبَتَ اسْمُه وأضمّنه أنواعاً شتّى من المكاتبات وأحسن رسمه؛ إذ هذا النوعُ الإنشائيُّ من الطَبَقَة العُلْيا بالموضعِ الذي لا يُجْهَلُ عُلُوُّه ولم يَتَقَلَّدْ حُلِيَّهُ من الجِنْسِ الإنسانيّ إلاّ الآحادُ، فلا يَنْبَغي أن يُهْمَلَ سُمُوُّه. وجَعَلْتُه على فصولٍ أربعةٍ: الفصلِ الأوّلِ في شُعراءِ المَشْرق- الفصلِ الثاني في شُعراءِ المَغْرِب؛ وهذا الفَصْلُ أجْعَلُهُ على نَوْعَيْنِ: النوعِ الأوّلِ في شعراءِ الأندلسِ، والنوعِ الثاني في شعراء برِّ العُدْوة.

وَسَمَّيْتُه نَثيرَ فَرائدِ الجُمانِ في نَظْمِ فُحولِ الزمانِ، من أهلِ المائةِ الثامنةِ من فُرسانِ الكَتيبةِ الكامِنَةِ من أربابِ القَوافي من كلّ مَديدِ الخَوافي[1]، مِمَّنْ تُثْني على مَفاخِرِه ألْسِنَةُ الأقلام والمَحابرِ وتقومُ بأمْداحِ شَرَفِه خُطباءُ المنابرِ، من فقيهٍ كاتبٍ مُجِّدٍ بالتَسْويد، وعالمٍ كان منه لإقراءِ العلومِ ما حُمِدَ بالتَجْويد؛ ومن أديبٍ ذي جاهٍ عريضٍ سَلَكَ من الإدراك برَوْضٍ أريض[2]. وعلى مَنْ أدْرَكْتُه جِئْتُ بالتَعْويل، وغيرُ ما يُؤَمِّلُ المَرْءُ فإثباتُه من أفْعالِ التَهْويل.

٤- روضة النسرين في دولة بني مرين، الرباط (المطبعة الملكيّة) ١٣٤٤ هـ، ثمّ ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٢ م.
- مستودع العلامة ومستبدع العلامة (بتحقيق محمّد بن تاويت الطنجي ومحمّد التركيّ التونسي)، (منشورات كليّة الآداب بجامعة محمّد الخامس في الرباط)، تطوان ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م.
- نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، (دراسة وتحقيق «بقلم» محمّد رضوان الداية)، بيروت (دار الثقافة) ١٩٦٧ م.

★★ جذوة الاقتباس ٩٩؛ درّة الحجال ١:١١٦؛ نيل الابتهاج (القاهرة) ٩٨-٩٩؛

---

(١) الكتيبة الكامنة في من لقيناه في الأندلس في المائة الثامنة (٧٠١-٨٠٠ هـ) كتاب للسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) الخافية: الريشة الطويلة في مقدّمة الجناح (كناية عن القوة على الطيران).
(٢) الأريض: (المكان) الكثير النبت الحسن المنظر.

نثير الجمان في نظم فحول الزمان، ص ٣٧٧ - ٤٠٤ (ترجمة له) ثمّ راجع مقدّمة المحقّق؛ أزهار الرياض ١ : ١٨٦ ، ٢٩١ - ٢٩٢ ، ٣ : ١٩٥ - ١٩٨ ؛ بروكلمن ٢ : ٣١٣ ، الملحق ٢ : ٣٤٠ ؛ الأعلام للزركلي ١ : ٣٢٩ (٣٢٩ - ٣٣٠)؛ مجلّة البحث العلمي (ماي - غشت = أيار - آب ١٩٦٤)، ص ٢٥٤ - ٢٦٧ ؛ معجم المؤلفين ٢ : ٣٠١ .

يوسف بن يوسف بن الأحمر

١ - هو الثالثَ عَشَرَ من ملوكِ غَرناطةَ: أبو الحجّاج يوسفُ الناصرُ (الثالثُ) بنُ يوسفَ (الثاني) بنِ محمّدِ (الخامس: الغنيّ بالله) بنِ أبي الحجّاجِ يوسفَ (الأول) بنِ إسماعيلَ (الأولِ) بنِ فرجِ بنِ اسماعيلَ بنِ يوسفَ بنِ نَصْرٍ.

تلقّى يوسفُ بنُ يوسفَ بنِ الأحمرِ أشياءَ من علمهِ على أبي محمّدٍ عبدِ اللهِ بنِ جُزَيٍّ وأبي عبدِ الله الشريشيّ والقاضي أبي عبدِ الله محمّدِ بنِ علاقٍ والصوفي أبي مهديٍّ بنِ الزيّات. ثمّ جاء إلى العرش بعدَ موْتِ أخيهِ مُحمّدٍ، سَنَةَ ٨١٠ هـ (١٤٠٧ م). وقد كانتْ أيامُه أيامَ ضَعْفٍ واضطرابٍ مِنَ استمرارِ تنازُعِ أمراءِ بني الأحمرِ على البُقْعة الصغيرة التي كانوا يَحْكُمونها ومن إلحاحِ الإسبانيّين على أطرافِ غَرناطَة بالإستيلاء قُدرة أوْ حيلةً. وكانت وفاةُ يوسفَ بنِ يوسفَ سَنَةَ ٨١٩[1] هـ (١٤١٧ م).

٢ - كان يوسفُ بنُ يوسفَ بنِ الأحمر أديباً ناثراً وناظماً ومُصنّفاً. وفنونُ شعرهِ المَوْلِديّات والرثاءُ والحماسة والغزَل والشكوى. وشِعره عاديٌّ ظاهرُ الضَعْفِ أحياناً تلمَحُ فيه تقليدَ شُعراءِ المشارقةِ بيُسْرٍ كقولهِ، مثلاً (ديوان ١٣٧):

يا آلَ يوسفَ، لي في قُطْرِكُمْ قَمَرٌ   قد ظلّ من فَلَكِ الأزرار[2] مَطْلَعُهُ

من قول ابن زريق البغدادي:

أستَوْدِعُ اللهَ في بغــدادَ لي قمراً   بالكَرْخ[3] من فَلَكِ الأنوارِ مطلعه.

وصَنّف يوسف بنُ يوسفَ ديوانَ ابنِ زَمْرَك (قُتل ٧٩٦ م).

---

(١) في زامباوّر (ص ٩٤) سنة ٨٢٠ هـ.
(٢) الأزرار: مدخل الثوب في العنق.
(٣) الكرخ: الجانب الغربيّ من بغداد.

٣- مختارات من آثاره

- قال يوسفُ بنُ يوسفَ بنِ الأحمر:

خَليلَيَّ، مَهْلاً! فالزمانُ كما تدري. ولا بُدّ من يُسْرٍ على أثَرِ العُسْرِ.
فمهما دَهـا صَحْوٌ فلا بُدَّ من قَطْرٍ، ومهما دجا خَطْبٌ فلا بدّ من فَجْرِ[١].
وألطافُ صُنْعِ الله رائعةُ البشْرِ[٢].

على العدلِ يجري حُكمُه وقضاؤه، ومِنّـا لـه التسليـمُ فيما يشاؤه.
ومَنْ كان بالحقِّ اليقينِ اهتداؤه رأى النصرَ خَفّاقاً عليه لِواؤه.
وسُحْقاً لباغٍ حادَ عن عَلَمِ النصر.

رَضِيتُ بما يرضاه ربّي وناصري: مُجاهـدةً بـينَ السيوفِ البواترِ؛
وبينَ افتكاري في العَدُوّ المُحاصر أنـادي إلاهـاً عالمـاً بالسرائر،
عسى عَطْفَةٌ من عالم النَّهْيِ والأمرِ[٣].

إليـه استنادي حَيْثُ حلّتْ ركائبي، عليـه اعتمادي في جَميعِ المطالبِ
وخيرِ شفيـعٍ من لُؤَيّ بنِ غالبِ وأتْباعـه ما بـينَ سِبْطٍ وصاحبِ
وما جاء في الفُرقانِ والشَفْعِ والوَتْرِ[٤].

- وقال في الشكوى من حال الأندلس والحرب:

ومِمّا أهاجَ الوَجْدَ مِنِّيَ والبُكا وميـضٌ بأعلى الرَقْمَتَيْنِ يلوحُ[٥].
تَعرّضَ من دونِ المُصلّى، ودونَه مَجالٌ لأيدي الناعجاتِ فسيحُ[٦]،

---

(١) صحو: انقطاع المطر (لعلّ المقصود: قحط). القطر: المطر.

(٢) البشر يمكن أن تكون بضمّ الباء وتسكين الشين (بدل فتحها، جوازاً في الشعر) جمع بشري.

(٣) عالم النَّهْيِ والأمر: الملأ الأعلى (من لدى الله).

(٤) لؤيّ بن غالب من أجداد رسول الله. السبط: ابن البنت (الحسن والحسين سبطا رسول الله). الصاحب واحد صحابة الرسول. الفُرقان: القرآن. الشفع والوتر إشارة إلى سورة الفجر (٨٩: ١ - ٣): ﴿والفجر وليال عشر والشفع والوتر﴾.

(٥ - ٦) الوجد: الشوق. الرقمتين اسم مكان لا يقصد هنا به علماً معيّناً، والمصلّى مثله. الناعجات: النوق السريعة.

بِلَيْـلٍ كـأنّ الشُّهْـبَ فيـه فوارسٌ يُسَلُّ عليهـا للـبروقِ صَفيـح[1].
فَمِنْ بـينِ هاوٍ قد تَكدّرَ واختفى، وآخرَ خفّـاقِ الفؤادِ جريـحُ[2].
فـإن يكُ ليلُ الهَجْرِ ليس بمُنْقَضٍ فللصـبرِ وجـهٌ بالصّبـاح صبيـحُ.
سيرضى بحُكْمِ السيفِ مِنّيَ مُسْرِفٌ، ويسمَـحُ بالمالِ العريض شحيحُ[3].
أنـا اليوسفيُّ الناصرُ المَلِكُ الذي أُبيـد ذراريَّ العِـدا وأُبيـح.
يُصَرِّحُ مَلْكُ الرومِ جُهْداً بصُلْحه، وبُرهانُ مقصودي لديْهِ صحيحُ[4].
وهـلْ لي إلى غيرِ الحروبِ تطلّعٌ، وهـل لي إلى غيرِ الجِهاد طُموح؟
وانّ مُقامي لا مُقـامَ يروقـه، فليس فتوراً أن تَقِـلَّ فُتوح[5]!

٤- ديوان ملك غرناطة: يوسف الثالث (حقّقه عبدالله كنّون)، تطوان ١٩٥٨ م؛ الطبعة الثانية، القاهرة (مكتبة الانجلو المصرية) ١٩٦٥ م.

★★ درة الحجال ٢ : ٢٨٣؛ نفح الطيب ٤ : ٣٠٣ (؟)؛ الأعلام للزركلي (٨:٢٥٩)؛ مجلّة «دعوة الحقّ» (المغرب)، مقال لأحمد العراقي الفاسي، في عدد (عددي؟) رمضان وذي الحجّة ١٣٩٢ هـ.

ابن جابر الغسّاني المكناسيّ

١- في «الأعلام» للزركلي (٦: ٢٩٤): محمّدُ بنُ جابرٍ الغسّانيُّ المِكناسي (ت ٨٢٧ هـ) من أهلِ مِكناسَ، له «نظمُ المرقَبَة العُليا في تعبير الرؤيا» ثمّ (٨: ١٠): محمّدُ ابنُ يحيى بن محمّدِ بنِ جابرٍ الغسّانيّ (ت ٨٢٧ هـ) من أهلِ مِكناسةَ، له نظمٌ في عِلْمِ الرؤيا.

وإذا نحن رَجَعْنا إلى نَيْلِ الابتهاج (ص ٢٨٦ - ٢٨٧) والنبوغ المَغْربيّ (ص ٢٢٩)

---

(١) الشهب: النجوم. الصفيح: الصفحة المستوية من الحديد (السيف).
(٢) هاو: غائب (يغرب وراء الأفق في رأي العين). خفّاق الفؤاد: يزهر (يومض تباعاً). جريح (لونه أحمر).
(٣) العريض (الكثير؟). شحيح: بخيل.
(٤) الروم: الإفرنج، نصارى أوروبّة. جهداً (؟) لعلّها: جهراً.
(٥) موقفي كملك في غرناطة لا يرضي أحداً (لضعفي ولضعف دولتي). فتور: هدوء، كسل. إنّ ترك الحرب ليس عن كسل فيّ ولكن عن عجز منّي.

والأدب المغربيّ (ص ٢٧٤) وَجَدْنا مُحمّدَ بنَ جابرٍ الغسّانيّ المِكناسيّ من أهلِ مِكناسةَ تلميذَ أبي العبّاسِ أحمدَ بنِ يحيى بن عبدِ المنّان المِكناسي (ت ٧٩٢ هـ) وعبدِ الله بنِ الحسنِ اللَّخْميّ من سُكّانِ مِكناسةَ. وكانت وفاةُ ابنِ جابرٍ الغسّاني المكناسيّ سَنَةَ ٨٢٧ (١٤٢٤ م).

٢- كان ابنُ جابرٍ المقصودُ بهذه الترجمة أديباً شهيراً (راجع نفح الطيب ٥ :١٦٧) وشاعراً مُجيداً كما كان مُصنّفاً بارعاً وعالماً بالقراءات له (راجع نيل الابتهاج ٢٨٦): نُزهة الناظر لابن جابر (رَجَز في التعريف ببلدِه مِكناسة)- كتابٌ في رسْم القُرآن- تسميط البُردة (للبُوصيريّ المُتوفّى سنة ٦٩٦)- نظم المرقبة العليا في تعبير الرؤيا (لابن راشد).

٣- مختارات من شعره

- قال أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ جابرٍ الغسّانيّ المِكناسيّ مُخمّساً بيتينِ لِلسانِ الدين بنِ الخطيبِ في رسولِ الله (نفح الطيب ٥: ١٦٧):

يـا سائلاً لِضَريحِ خيرِ العالَمِ ... يُنهي إليـه مقام صبٍّ هائمِ[١]،
بـالله، نـادِ وقُـلْ مقالـةَ عالِمِ: ... (يا مُصطفى من قبلِ نشأةِ آدمِ[٢]
والكَوْنُ لم تُفْتَحْ له أغلاقُ)[٣].
بِثَنـاكَ قد شَهِدَتْ مَلائكةُ السما، ... واللهُ قـد صلّـى عليـكَ وسلّما[٤].
يــا مُجْتَـبًى ومُعظّماً ومُكرّمـا، ... (أيرومُ مخلوقٌ ثنـاءكَ بعدَمـا[٥].

---

(١) يا سائلا (كذا في الأصل). اقرأ: يا سائراً! الضريح: القبر. خير العالم (محمّد رسول الله). يُنهي..... (يحمل إليه وصفاً لحال رجل محبّ له- هو لم يستطع الذهاب إلى المدينة فحمّل أحد الذاهبين إليها رغبته).

(٢) مصطفى: مختار، منتقى، مفضّل (اختار الله محمّداً رسولاً إلى الناس كافة من قبل أن يُخلق آدم أبو البشر).

(٣) الكون (مصدر «كان- يكون»). والناس يلحنون فيعنون بالكون «مجموع الوجود». اغلاق (ليست في القاموس) والملموح أن الوجود لم يظهر بعد.

(٤) ثناك = ثناؤك (الثناء عليك: بصفاتك الجميلة).

(٥) مجتبي: مقرّب، مختار. أيروم: أيطلب (أيطمع في مثل صفاتك)؟

أثنى علي أخْلاقِكَ الخَلاّقُ[1].

وقال مُورِّياً بالبُرْقُع والعَقْرب (وبالبراقع والعقارب) مُتَغَزِّلاً (النبوغ المغربي ٧٤١، الأدب المغربي ٢٧٤):

إنْ خِفْتَ من فَتْكِ المُهَنَّدِ والقَنا؛ فإذا رَنَتْ وإذا مَشَتْ لا تَقْرَبِ[2]:
في قَلْبِ بُرْقُعِها محاسنُ أَنْزَلَتْ قَمَرَ السماءِ لنا بقَلْبِ العَقْرَبِ[3].
★★حَلّتْ عقاربُ صِدغِهِ من خدِّه قَمَراً فجَلّ بها عن التَشْبيهِ[4].
ولقد عَهِدْناهُ يَحِلُّ بِبُرْجِها؛ فمن العجائبِ كيفَ حَلّتْ فيه[5]!

- وقال في جَمال مِكْناسةَ (النبوغ المغربي ٧٦٤، الأدب المغربي ٢٧٦):

لا تُنْكِرنَّ الحُسْنَ من مِكناسةٍ، فالحُسْنُ لم يَبْرح بها مَعروفا.
ولَئِنْ مَحَتْ أيْدي الزمانِ رُسومَها، فَلَرُبَّما أبقَتْ هُناك حُروفا.

٤- درّة الحجال ٢: ٢٧٨؛ نيل الابتهاج (القاهرة) ٢٨٦-٢٨٧ (٣٢١)؛ نفح الطيب ٥: ١٦٧؛ النبوغ المغربي ٢٢٩، ٧٤١، ٧٦٤، ٨٠٩؛ الأدب المغربي ٢٧٤-٢٧٦؛ بروكلمن ٢: ٣٣٤، الملحق ٢: ٣٦٧؛ الأعلام للزركلي ٦: ٢٩٤، راجع ٨: ١٠ (٦: ٦٨ و٧: ١٣٩)؛ معجم المؤلفين ٩: ١٤٦.

أبو بكر بن عاصم

١- هو الرئيسُ أبو بكرٍ مُحمّدُ بنِ محمّدِ بنِ عاصمٍ القَيْسيُّ الأندلُسيُّ الغَرْناطيّ،

(١) في القرآن الكريم (٦٨: ٤ القلم) في خطاب الرسول: ﴿وإنّك لَعَلى خُلُق عظيم﴾. الخلاّق: الله.
(٢) المهنّد: السيف (من صنع الهند). القناة: القصبة (الرمح). رنا يرنو (نظر، تطلّع). إن كنت تخاف الهلاك فلا تنظر (إلى هذه الفتاة الجميلة) إذا هي نظرت إليك أو إذا هي مرّت بك.
(٣) في قلب (وسَط) برقها محاسن (وجهها). هذه المحاسن جعلت من وجهها قمراً (شيئاً جميلا) بقلب (بعكس العقرب= ع ق ر ب: ب ر ق ع). هنا تورية: العقرب: برج (مجموع نجوم) يمرّ بها القمر (في رأي قدماء الفلكيّين).- والعقرب (الحشرة السامّة المعروفة).
(٤) عقارب صدغه (كناية عن خصل الشعر المتدلّية من جوانب رأسه). جلّ: فاق، ارتفع.
(٥) الكلام على القمر (المحبوب الجميل) وفيه تورية: القمر (الجرم- بكسر الجيم- السماوي يمر عادة ببرج العقرب- والعجيب أن العقارب (خصل الشعر) قد تدلّت من جوانب رأس المحبوب (ثم هي لا تضره).

وُلِدَ في غَرناطةَ في ثاني عَشَرَ جُمادى الأولى من سَنَةِ ٧٦٠ (١١/ ٤/ ١٣٥٩ م).

نشأ أبو بكرِ بنُ عاصمٍ في غَرناطةَ وتلقّى فيها علومَه على خالَيْهِ: قاضي الجماعةِ أبي بكرِ بنِ جُزَيٍّ ثم رئيسِ عُلماءِ اللِّسان أبي إسحاقَ بْنِ جُزَيٍّ[١]. وممّن أخَذَ عنهم أبو بكرِ آبنُ عاصمٍ: أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ عبدِ الله بنِ الحاجّ النُّميريّ (٧١٣ - ٧٦٨ هـ) وأبو سعيدِ آبنُ لُبٍّ (ت ٧٨٢ هـ) وأبو إسحاقَ الشاطبيّ (ت ٧٦٠ هـ) وأبو محمّدٍ عبدُ الله بنُ الشريف التِّلمسانيّ (ت ٧٩٢ هـ) وأبو عبدِ اللهِ القيجاتيّ (القيجاطيّ) وأبو عبدِ الله بنُ عَلّاقٍ وأبو الحسن عليُّ آبنُ منصورٍ الأَشْهبُ وأبو عبد الله البَلَنسِيُّ.

كان أبو بكرِ بنُ عاصمٍ قد بدأ حياتَه العمليّةَ بالوِراقة (تجليد الكُتُب وبيعِها) ثُمّ أصبح قاضِيَ الجماعة (قاضي القضاة) في غَرناطةَ[٢]، كما كان قد تولّى الكِتابةَ (الوِزارة)- في غَرناطةَ أيضاً- مدةً يسيرة[٣]. وكانتْ وفاتُه يومَ الخميس في الحادي

---

(١) لم أهتد إلى تفصيل أمرها.

(٢) في نفح الطيب (٥: ١٩) ترجمة لأبي بكر بن عاصم، علّق عليه المحقّق (في الحاشية) أن أبا بكر بن عاصم هذا «كان من أكابر فقهاء غرناطة، تولّى قضاءها سنة ٨٨٨ (للهجرة)؛ وله مؤلّفات منها شرحه على تحفة والده في الأحكام.... ». ومعَ أن رقم الحاشية موضوع على اسم «أبي بكر بن عاصم» لا على آسم ابنه أبي يحيى بن عاصم» (المذكور في السطر السابق)، فإنّ تاريخ الوفاة (أزهار الرياض ١: ١٤٥): «وليّ القضاء عام ثمان وثمانين وثمان مئة» (كذا بالأحرف) خطأ (لأنّ أبا بكر توفّي سنة ٨٢٩، وتوفّي ابنه أبو يحيى سنة ٨٦٠ هـ). والصواب ما جاء في «نيل الابتهاج» (ص٣١٣): «تولّي القضاء عام ثمان وثلاثين وثمانمائة» (بالأحرف أيضاً). وقد نبّه على ذلك أيضاً خير الدين الزركلي (الأعلام، طبعة عام ١٩٧٩ م، ٧: ٤٨).

(٣) في «نفح الطيب» (٧: ١٦٩، راجع «أزهار الرياض ٢: ١٩): وقُدّم للكتابة الفقيه ابن عاصم (أي أبو بكر) لمدّةٍ من عام (مدّة يسيرة من عام). وفي «تاريخ الفكر الأندلسيّ» (ص ٤٢٩): «واستوزره يوسف الثاني الغنّي بالله صاحب غرناطة».- ويبدو أن تقويم هذه الجملة أن يقال: يوسف الثاني بن محمّد الخامس الغني بالله. أمّا يوسف الثاني فقد جاء إلى عرش غرناطة، سنة ٧٩٣ ثمّ خلع (٧٩٤؟)، وكانت وفاته سنة ٧٩٦ هـ، فيما يبدو. وأمّا محمّد (الخامس) الغنيّ بالله فقد تولّى عرش غرناطة في حِقبتين (بكسر الحاء): من ٧٥٥ إلى ٧٦٠ (ولم يكن أبو بكر بن عاصم قد ولد بعد) ثمّ من ٧٩٣ إلى ٧٩٦ للهجرة. وعلى كلّ حال فإنّ أبا بكر بن عاصم لم يكن قديراً في الإدارة (الوزارة)، فقد جاء في «أزهار الرياض» (٢: ٢٦٤، السطرين ١١ و ١٢): « .... (وعندي) حيلة أقيم لك بها في عام واحد عدد ما كان يقوم على يدي...... ابن عاصم (من جمع أموال الجباية) في عشرين عاماً». أو لعلّ أبا بكر ابن عاصم لم يكن ظالماً في جمع المال من الرعيّة.

عَشَرَ من شوّالٍ، سَنَةَ ٨٢٩ (١٤٢٦/٨/١٥ م).

٢- كان أبو بكرِ بنُ عاصمٍ مُتَضلِّعاً من القِراءات وبارعاً في النحو يجمَعُ بين القِياس والسَّماع، وإنْ كان أميلَ إلى رأيِ البَصْريّين في السَّماع[1]. وكذلك كان أديباً عارفاً بالبلاغة والعَروض، كما كان مشاركاً في المنطق وعلم العَدَد (الحساب) والفرائض (تقسيم الإرث)، ثمّ كان أديباً ناثراً وشاعراً ومُصنّفاً في عدد من فنونِ المعرفة. فمن تصانيفِه: تُحفةُ الحكّام في نُكَتِ العُقود والأحكام (١٦١٨ بيتاً من الرَّجَز)- حدائقُ الأزهار (أو حديقةُ الأزهار) في مُستَحْسَنِ الأجوبةِ والمُضْحِكات والحِكَمِ والأمثال والحِكايات والنوادر (وهذانِ الكتابانِ وَصَلا إلينا وطُبعا). ثمّ كانتْ له كُتُبٌ (لا نعلم أنّها باقية)، منها (أراجيزُ): مَهْيَعُ (في نيل الابتهاج: منبع) الوُصولِ في علم الأُصول (أصول الفِقْه)- مُرْتَقى الوُصول للأصول[2] (الأُرجوزة الصُّغرى)- نَيْلُ المُنى في اختصار المُوافَقات (للشاطبيّ)- المُوجَزُ في النحو (حاذى به رَجَزَ ابنِ مالكٍ في عَرْضِ البَسْط له والمُحاذاة لقَصْده)- ثمّ قصائدُ: إيضاحُ المعاني في القِراءات الثمانِي (في نيْل الابتهاج: في قراءة أبي عمروٍ الداني، المُتوفّى سَنَةَ ٤٤٤ هـ)- الأمَلُ المَرْقوبُ في قِراءة يَعْقوبَ[3]- كَنْزُ المُفاوِض في علم الفرائض.

٣- مختارات من آثاره

- من العاصمية (تحفة الأحكام):

الحمـــدُ للهِ الّـــذي يَقْضي ولا ... يُقْضى عليـهِ، جـلَّ شأناً وعَلا[4].
ثمّ الصَّـلاةُ بِـــدَوامِ الأبَـــدِ ... عـلى الرسولِ المُصطفى مُحمّدِ[5]،
وآلِـــهِ والفِئَـــةِ المُتَّبِعَـــهْ ... في كُـلِّ مـا قـد سَنّهُ وشَرَعَهْ[6].

---

(١) راجع الجزء الثالث من هذا الكتاب، ص ٤٧.
(٢) بروكلمن، الملحق ٢: ٣٧٥.
(٣) هو أبو محمّد يعقوب بن اسحاق بن زيد الحضرميّ البصريّ (١١٧ - ٢٠٥ هـ) أحد القرّاء العشرة.
(٤) يقضي: يحكم (على الناس بما يصيبهم)، يفصل في خلافاتهم.
(٥) الأبد: الدهر.
(٦) الفئة (الجماعة) المتّبعة (لشريعته): المسلمون. سنّه: جعله سنّة (طريقة للحياة يستحسن العمل به). شرعه: أوجب العمل به (جعله شريعة).

وبعــدُ، فالقَصْــدُ بهـذا الرَّجَزِ تقريرُ ٱلأَحْكــامِ بِلَفْـظٍ مُوجَزِ.

آثَرْتُ فيـــه المَيْـــلَ للتبْيِـــينِ وصُنْتُــهُ جُهْـدي عنِ التَّضْمينِ[١].

وجِئْــتُ في بَعْـضٍ مِنَ المسائـلِ بالخُلْـفِ، رَعْياً لاَشْتهارِ القائلِ[٢].

فَضِمْنُــــــهُ المُفيــــدُ والمُقَرِّبُ والمَقْصِـــدُ المحمودُ والمُنْتَخَـــبُ.

نَظَمْتُــــهُ تَذْكِرةً، وحـــينَ تَمّ، بمـا بـِهِ البَلْوى تَعُمُّ قدْ أَلَمّ[٣]،

سَمّيْتُــــهُ بـ «تُحفَـــةِ الحُكّـــامِ في نُكَتِ العُقود والأحكامِ». [٤].

وذاك لَمّـا أنْ بُلِيـتُ بالقَضا، بعْـدَ شبـابٍ مرّ عنّي وٱنْقَضى.

وإنّــــني أسألُ، مِنْ ربٍّ قَضى بِهِ عليَّ، الرِّفْقَ منه في القضا [٥]

والحَمْـــلَ والتَّوْفيـــقَ أنْ أكونـا من أُمّـــةٍ بالحـــقِّ يَعْدِلونـــا[٦]،

حتّـــى أُرَى من مُفْرَدِ الثَّلاثــهْ وجَنّـــةِ الفِرْدَوْسِ لي وِراثــهْ[٧].

(باب القضاء وما يتعلّق به):

منفّـــــذٌ بالشرع للأحكـــــامِ لـــه نِيابـــةٌ عن الإمـــامِ[٨].

---

(١) آثرت: فضلت. التضمين: تداخل بعضه ببعض (جعلته مفصّلاً تفصيلاً واضحاً). والتضمين عند العروضيّين (بالفتح: علماء الشعر): أن يكون تمام معنى البيت من الشعر في البيت الذي يليه، كقول أبي نُواس:

الحمــــــــــد لله، أنّي -عـــــلى حداثـــة سنّي-
فقـــــت المحبّـــين طرًّا ببعض ما شاع عني.

(فإنّ خبر «إنّ»، في البيت الأول، «فقت» في البيت الثاني).

(٢) بالخلف (باختلاف الأقوال) لاشتهار القائل (إذا كان الذين جاءوا بهذه الأقوال المختلفة من المشهورين بالعلم والصدق).

(٣) تذكرة: تذكيراً (لي). ما تعمّ به البلوى (حاجة الناس إليه). ألمّ بالموضوع: تناوله باختصار.

(٤) النكت (هنا): الأمور التي تبدو غامضة، والأمور الجزئيّة التي يغفلها الناس أحياناً. العقود (جمع عقد بالفتح): ما يتّفق عليه الفريقان كتابة.

(٥) أطلب من الذي قضى عليّ (أي الله) بأن أكون قاضياً أن يرفق بي في القضاء (في حسابي يوم القيامة).

(٦) الحمل (القدرة على القيام بما يوجبه عليّ منصب القاضي).

(٧) في الحديث الشريف: القضاة ثلاثة: اثنان في النار وواحد في الجنّة:..... من مفرد الثلاثة (الواحد الذي هو في الجنّة).

(٨) القاضي هو المنفّذ للأحكام بمقتضى الشرع نيابة عن الإمام (الذي هو الخليفة).

وَٱسْتُحْسِنَتْ في حقِّهِ الجَزالهْ، وشرطُهُ التكليفُ والعَدالهْ[1].
وأنْ يكونَ ذَكَراً حُرًّا سَلِمْ من فَقْدِ رؤيةٍ وسَمْعٍ وكَلِمْ.
ويُسْتَحَبُّ العِلْمُ فيه والوَرَعْ، مَعْ كَوْنِهِ الحديثُ لِلْفِقْهِ جَمَعْ[2].
وحيثُ لاقَ للقضاءِ يقعُدُ، وفي البلادِ يُسْتَحَبُّ المسجدُ[3].

(فصل في مسائل من القضاء):

وليس بالجائزِ للقاضي - إذا لم يَبْدُ وجهُ الحُكْمِ - أنْ يُنَفِّذا[4].
والصُّلْحُ يَستدعي له إنْ أشكَلا حُكْمٌ، وإنْ تَعَيَّنَ الحَقُّ فلا[5]،
ما لم يَخَفْ بنافذِ الأحكامِ فِتْنةً أو شَحْنا أُولي الأرحامِ[6].
وفي الشهود يحكُمُ القاضي بما يعلَمُ مِنْهم بٱتّفاقِ العُلَما[7].

---

(١) لتولّي منصب القضاء نوعان من الشروط: العدالة (وهي شروط وجوب، وهي التكليف أو العقل والذكورة والحرّيّة وسلامة الحواس بألّا يكون أعمى أو أخرس، الخ) ثمّ شروط كمال ومنها الجزالة أو أصالة الرأي (القاموس المحيط ٣: ٣٤٨) وسعة العلم والورع أو التعفّف عن المغريات ثمّ المعرفة بالحديث والفقه معاً، الخ).

(٢) الورع: الخوف من الله، الترفّع عن الأمور الدنيّة. مع كونه الحديث الخ: مع أن حفظه للحديث يكفي (لأنّ الحديث قد جمع أبواب الفقه كلّها؟) أو اقرأ: مع كونه الحديث (بالنصب) والفقه (العلم بأمور الدين) جمع (فعل ماضٍ مؤخّر نصب ما قبله، أي الحديث والفقه): يجب أن يضيف (القاضي) إلى العلم (العامّ) والورع معرفة الحديث والفقه.

(٣) والقاضي يجلس للحكم في الأماكن الصغيرة والبعيدة حيث يليق الجلوس للقضاء. أمّا في البلاد (المدن) فيحسن أن يجلس للحكم في المسجد.

(٤) لا يجوز للقاضي أن يصدر حكمه قبل أن يبدو له وجه الحقّ في القضايا المعروضة عليه.

(٥) إذا تعذّر على القاضي أن يفصل في قضيّة معروضة عليه (لغموض تلك القضيّة) فيجب عليه أن يدعو المتخاصمين إلى الصلح (بأن يتنازل كلّ خصم عن شيء من حقّه). أمّا إذا ظهر للقاضي أنّ الحقّ في جانب أحد المتخاصمين فيجب عليه أن يحكم لذلك الخصم.

(٦) ولكن إذا أيقن القاضي أن حكمه لأحد المتخاصمين سيجرّ إلى فتنة (قتال) أو شحناء (حقد وبغضاء) بين قومي المتخاصمين (لأنّ الخصم الذي حكم عليه قويّ شرّير) فيجوز له حينئذ أن يدعوَ الفريقين إلى المصالحة. أولو الأرحام: الأقارب.

(٧) ويجوز للقاضي أن يقبل شهادة الشهود الذين يعرفهم (ويعرف أنّهم عدول) شخصيًّا. وأكثر العلماء يجيزون ذلك.

وفي سِواهُم مالِكٌ قد شَدّدا — في مَنْعِ حُكْمِهِ بغيرِ الشُّهدا [1].
وقولُ سَحْنونٍ به اليومَ العَمَلْ — فيما عليه مَجلِسُ الحُكْمِ آشتمَلْ.... [2]

(باب الشهود وأنواع الشهادات):

وشاهدٌ صِفَتُهُ المَرْعِيّهْ — عَدالةٌ، تَيَقُّظٌ، حُرِّيّهْ [3].
والعَدْلُ من يَجْتَنِبُ الكبائرا — ويَتّقي في الغالبِ الصغائرا [4].
وما أُبيحَ، وهْوَ في العِيانِ، — يقدَحُ في مُروءةِ الإنسانِ [5].
فالعَدْل في التَبريزِ ليس يَقْدَحُ — فيه سِوى عَداوةٌ تُسْتَوْضَحُ [6].
وغيرُ ذي التَبْريزِ قد يُجَرَّحُ — بغيرِها من كلّ ما يُستقْبَحُ [7].
ومَنْ عليهِ وَسْمُ خيرٍ قد ظَهَرْ — زُكِي، إلّا في ضَرورةِ السَّفَرْ [8].

---

(١) إنّ الإمام مالكاً (ت ١٧٩ هـ) فقيه أهل المدينة قد منع أن يحكم القاضي في القضايا بعلمه من غير استماع إلى الشهود وأوجب أن يستمع القاضي إلى الشهود ويحكم بما يتّضح له من أقوالهم.

(٢) سحنون هو عبد السلام بن سعيد من كبار فقهاء المالكيّة (ت ٢٤٠ هـ) قد قبل أن يحكم القاضي في عدالة الشهود بعلمه (يقبل شهادة من يعلم هو عدالته ويرفض شهادة من كان عنده مجروح العدالة).... وإذا حكم القاضي (في رأي فقهاء آخرين) بعلمه في عدالة الشهود وجرح عدالتهم انقلب شاهداً ولم يبق قاضياً.

(٣) والشاهد يجب أن يتّصف بصفات: العدالة (العدل، الإنصاف، النزاهة) وتيقظ (معرفة الأحوال المحيطة بالقضيّة، الوعي، العقل) والحرّية (أن يكون حرًّا لا عبداً رقيقاً).

(٤) الرجل العدل (المقبول الشهادة في القضاء) هو الذي لا يأتي الكبائر (شرب الخمر، ترك الصلاة.... الخ) ويتّقي (يخاف، يبتعد عن) الصغائر (الذنوب الصغيرة: النظر العارض إلى غير محرم، الميل إلى اللهو، سَبق اللسان إلى ما لا يقصد الإنسان، ذكر أخيه بما يكره أخوه، إلخ).

(٥) والأمور المباحة (الطعام، تربية الحيوانات الأليفة، التبوّل، الخ)، إذا فعلها الإنسان علناً (في الأسواق مثلاً) نسقط عدالته فلا تقبل شهادته . قدح: عاب، جرح، قلّل من. المروءة: الصفة الأساسية في الإنسان (والتي تجعل منه آمرأً لا بهيمة).

(٦) أمّا الرجال المشهورون بالتمييز (بين قومهم): بالعلم والصدق والمكانة، فلا تبطُل عدالتهم (قبولُ شهادتهم في المحاكم) إلّا إذا كان بينهم وبين أحد المتخاصمين عداوة ظاهرة.

(٧) أمّا غير ذوي التمييز (راجع الحاشية السابقة) فكلّ عمل قبيح (الشره في المأكول والمشروب والهزل، مثلاً) يسقط عدالتهم فلا تقبل شهادتهم.

(٨) وسم: علامة. وسم خير: مظهر يدلّ على النبل وحسن الحال. إن مثل هذا الشاهد يجب أن يزكّى، في العادة. أمّا إذا اختلف جماعة مسافرون واحتكموا إلى قاضي بلدة يمرّون بها، فإن القاضي يقبل شهادة بعضهم على بعض (لتعذّر تزكيتهم) إذا هو اقتنع بعدالتهم من مظهرهم الصالح في نظره.

ومَنْ بِعَكسِ حالـهِ فـلا غِنـى عنْ أن يُزكّى. والذي قد أعْلَنا[١]
بحالــةِ الجَرْح، فليس تُقْبَــلُ لـه شهـادةٌ ولا يُعَـدَّلُ[٢]......

(باب اليمين):

في رُبعِ دينـارٍ فأعْلى تُقْتَضَى، في مسجدِ الجَمْعِ، اليمينُ بالقضا[٣].
ومـا لـه بـالٌ ففيـهِ تَخْرُجُ إليـه لَيْـلاً غَـيرُ مَنْ تَبَرَّجُ[٤].
وقائماً مُسْتَقْبِــــلاً يكونُ مَنِ آسْتَحَقّـتْ عنـدَه اليمينُ[٥].
وهْيَ، وإنْ تَعـدّدَتْ في الأعرفِ، عـلى وِفـاقِ نِيّـةِ المُسْتَحْلِفِ[٦].
ومـا يَقِـلُّ حيـثُ كان يُحْلَفُ فيـه؛ وبـاللهِ يكونُ الحَلَـفُ[٧].
وبعضُهُمْ يزيـــدُ لليهودي مُنَزِّلُ التَّوْراةِ للتَّشْديـــدِ[٨].

---

(١) أما الذي لا يدل مظهره على الصلاح (وقد يكون صالحاً) فيجب أن يزكّى (أن يُثني عليه رجلان عدلان ويشهدا بصلاحه). وأمّا الذي يظهر عليه.....،

(٢) أنّه غير صالح، فلا تقبل شهادته، ولا يطلب القاضي من أحد أن يزكّيه (لأنه لا يعدّل: لا يمكن أن يصبح مقبول الشهادة).

(٣) إذا كان لزيد عند عمرو دين مقداره ربع دينار فما فوق يثبت له ذلك الدين إذا هو حلف يميناً في المسجد الجامع (المسجد الكبير الذي تقام فيه صلاة الجمعة).

(٤) أمّا في الأمور ذات البال (المهمّة: القتل، الزنا، الرضاع، الخ) فيمكن (بحسب هذا البيت) أن تدعى المرأة لحلف اليمين في المسجد. المألوف- إذا احتاج القاضي إلى أن تحلف أمرأة يميناً - أو أن يرسل القاضي إلى بيتها رجلاً موثوقاً يسمع يمينها من وراء حجاب.

(٥) وصورة حلف اليمين أن يقف الحالف مستقبلاً (متّجهاً إلى القبلة).

(٦) واليمين- وإن تعدّدت في الأعرف (في المألوف الشائع)........ تكون على نيّة المستحلف (الخصم) لا على نية الحالف (إذا أنكر زيد أن لعمرو ديناً عنده، فطلب عمرو من زيد حلف يمين، فتكون هذه اليمين على ما يقصده عمرو. فلا يجوز لزيد أن يقول: أقسم... أنّي غير مدين لك (ويضمر أنّه غير مدين له بأمر معنويّ من ضيافة أو معروف سابق).

(٧) وإذا كانت اليمين تتعلّق بمبلغ هو أقلّ من ربع دينار، فيجوز أن يكون حلف اليمين في مكان غير المسجد الجامع. والحلف لا يكون إلّا بالله. فلا يجوز أن يحلف المسلم بالنبيّ أو بالمصحف أو بأبيه أو بشرفه، الخ.

(٨) ولتأكيد اليمين يطلب من اليهوديّ أن يقسم بالله منزل التوراة، كما يطلب من النصراني (راجع البيت التالي) أن يقسم بالله منزل الإنجيل ذلك لأنّ مدرك الله في الإسلام يخالف مدرك «يهوه» عند اليهود ومدرك «الربّ» عند النصارى. فإذا كان الحلف بالله منزل التوراة ومنزل الإنجيل أصبح مدرك الله في الإسلام هو المعتمد فى حلف اليمين.

كما يزيــــدُ فيـــه للتَّثْقيـــلِ   علـى النَّصارى مُنْزِلُ الإنجيلِ .
وجُملـــةُ الكُفّـــارِ يَحْلِفونـــا   أيْمانَهم حَيْـــثُ يُعظِّمونـــا[1].

٤- تحفة الحكّام في نكت العقود والأحكام (هوداس ومارتل)، الأجزاء ١ - ٣، الجزائر ١٨٨٣ م، الجزءان ٤ و ٥، باريس ١٨٨٨ م، الأجزاء ٦ - ٨، الجزائر ١٨٩٢ - ١٨٩٣ م؛ فاس (طبع حجر) ١٢٨٩ هـ؛ ثمّ ١٣٠٠، ١٣١٧، ١٣٢٣ هـ؛ القاهرة ١٣٠٩، ١٣٢٢، ١٣٢٧؛ (في مجموع) مع شرح «البهيّة» للتسولي ١٣١٠ هـ؛ ثمّ ١٣١٧ هـ؛ (في مجموع) الجزائر ١٣٢٣ هـ؛ العاصميّة أو تحفة الحكّام في نكت العقود والأحكام (نشرها وعلّق عليها ليون برشيه)، الجزائر (معهد الدراسات الشرقية - كلّيّة الآداب بجامعة الجزائر) (١٩٥٨ م.

- شروح على تحفة الحكّام:

★ البهيّة لعليّ بن عبد السلام التسولي الشبراوي (بروكلمن، الملحق ٢: ٣٧٥)، بولاق ١٢٥٦ هـ؛؟ ١٢٨٩ - ١٢٩٠ هـ؛ فـــاس ١٢٩٣ - ١٢٩٤ هـ؛ القاهرة ١٣٠٤، ١٣٠٥ هـ؛ بيروت، الطبعة الثالثة (دار المعرفة) ١٣٩٧ هـ = ١٩٧٧ م .

★ الإتقان والأحكام في شرح تحفة الحكّام، لمحمد بن أحمد ميّارة الفاسي (ت ١٠٧٢ هـ)، فـاس ١٢٩٣ - ١٢٩٤، ١٢٩٨ - ١٢٩٩ هـ؛ القاهرة ١٣١٤ هـ؛ القاهرة (المطبعة الشرفية) ١٣١٦ هـ.

(•) حاشية على شرح الإتقان والأحكام، لمحمّد الطالب بن حمدون بن عبد الرحمن بن حمدون، فاس ١٢٩٣ هـ؛ حاشية لأبي عليّ الحسن بن الرّحّال المعداني (على هامش «الاتقان»)، القاهرة ١٣٠١، ١٣٠٥، ١٣٠٦ هـ؛ ثمّ مع حاشية للمدني ١٣١٥ هـ.

★ شرح لعبد الله بن إبراهيم الشنقيطي (ت ١٢٣٠ هـ)- (مع «نشر البنود على مراقي السعود»)، فاس بلا تاريخ.

★ حلى المعاصم لبنت فكر ابن عاصم، لمحمّد بن سودة التاوديّ (ت ١٢٠٧ هـ)، فاس ١٣٠٤ هـ؛ فاس ١٣٠٨ - ١٣١٠ هـ (بهامش «البهجة»).

(•) حاشية على «حلى المعاصم» للمهدي بن محمّد الوزّانيّ، فاس ١٣٠٨ - ١٣١٠ هـ.

★ توضيح الأحكام لعثمان بن محمّد التوزري، تونس ١٣٣٩ هـ (؟).

- حدائق الأزهار، فاس، بلا تاريخ.

- مرتقى الوصول إلى علم الأصول، فاس ١٣٢٧ هـ؛ (على هامش «فتح الودود على مراقي السعود» لعبد الله بن إبراهيم الشنقيطي المُتَوَفّى سنة ١٣٢٠ هـ)، فاس، بلا تاريخ.

★ شرح مرتقى الوصول = نيل السول أو بلوغ الوصول وحصول المأمول (لأبي؟) محمّد يحيى بن

---

(١) وغير المسلم يقسم يمينه في مكان عبادته أو في مكان يعظّمه هو (ولا يؤتى به إلى المسجد الجامع).

محمّد بن المختار بن الطالب عبد الله الساوَليّ الحَوْضيّ الوالاتي، فاس ١٣٢٧ هـ؛ (على هامش «فتح الودود...»)، فاس، بلا تاريخ.

★★ نيل الابتهاج (القاهرة) ٢٨٩ - ٢٩٠؛ نفح الطيب ٥: ١٩ - ٢٢، ٦: ١٥٥ - ١٦٢؛ ثمّ قال المقّري (٥: ٢٢): «ولولا خوف الإطالة لذكرت بعض إنشائه ونظمه، فإنّه في الذروة العليا. وقد ذكرت جملة من ذلك في «أزهار الرياض في أخبار عياض» (ولكن لم أهتد إلى ذلك). غير أن في «نفح الطيب» جملة صالحة من أخبار أبي يحيى بن عاصم أخي أبي بكر ابن عاصم)؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧٢٠ - ٧٢١؛ بروكلمن ٢: ٣٤١، الملحق ٢: ٣٧٥؛ الأعلام للزركلي ٧: ٢٧٤ (٤٥)؛ معجم المؤلّفين ١١: ٢٩٠؛ سركيس ٥٦؛ بالنثيا ٤٢٩ - ٤٣٠.

أبو يحيى بن عقيبة

١ - هو أبو يحيى أبو بكرِ بنِ عقيبةَ القَفْصيّ (نسبةً إلى قفصة في تونس) أخذ عن ابن عَرَفَةَ (٧١٦ - ٨٠٣ هـ) إمامِ تُونِسَ وعالِمِها وخطيبها في عصرِه وعن ابنِ مَهْدِيٍّ وغيرهما. وكان معاصراً لابنِ مرزوقٍ الحفيدِ (٧٦٦ - ٨٤٢ هـ) وللقاضي أحمدَ القلشانيّ. ولعلّ وفاتَه كانتْ نحوَ ٨٦٠ هـ (١٤٥٥ م).

٢ - كان أبو يحيى بنُ عقيبة رجلاً صالحاً وعلّامةً بارعاً وفقيهاً معروفاً. له أسئلةٌ كَتَبَ بها إلى الإمامِ ابنِ مرزوقٍ الحفيدِ فأجابه عليها ابنُ مرزوقٍ بجُزْءٍ سمّاه «اغتنامَ الفُرصة في محادثةِ عالمِ قفصة». وكان له نظمٌ حَسَنٌ.

٣ - مختارات من شعره

- كتب أبو يحيى بنُ عقيبة إلى القاضي أحمدَ القلشانيّ (وكان القلشاني في قُسَنْطينَةَ) بأبياتٍ منها (ولعلّ البيتين الأخيرين تضمينٌ!).

عليكَ، أُخَيَّ، بالتُّقى ولُزومِه ... ولا تكترِثْ ما فيه زيدٌ ولا عمرُو[1].
وكُنْ مُنشداً ما قال بعضُ أُولي النُّهى؛ ... فكم حِكمةٍ غرّاءَ قيّدَها الشعرُ:

(١) اكترث: اهتمّ، بالى (وحقّها أن تتعدّى بالباء). ما فيه زيد وعمرو (من الجدال والنزاع على أعراض الدنيا المادّية والمعنوية).

إذا المرء جازَ الأربعينَ ولم يكن   لـه دون ما يأتي حياءٌ ولا سِتْرُ،
فدَعْـهُ ولا تَنْفَسْ عليه الذي أتى،   وإن مَدّ أسبابَ الحياةِ له العُمْرُ[1].

٤- نيل الابتهاج ٣٥٧.

ابن مرزوق الحفيد

١- هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ محمّدِ (الخطيب) بنِ أحمدَ بنِ محمّدِ بنِ محمّدِ بن أبي بكرِ بنِ مرزوقٍ العُجَيْسيُّ التِّلمسانيُّ، وُلِدَ في الرابعَ عَشَرَ من ربيعٍ الأوّلِ من سَنَةِ ٧٦٦ (١٣٦٥/١٢/٩ م) في تِلِمْسانَ.

وتلقّى آبنُ مرزوقٍ الحفيدُ أشياءَ من العلم في تِلِمسانَ على والده أحمدَ وعمّهِ محمّدٍ وعلى نفرٍ آخَرينَ منهم سعيدُ بنُ محمّدٍ العَقَبانيُّ التِّلمسانيّ (ت ٨١١ هـ) وأبو اسحاقَ إبراهيمُ المصموديُّ وأبو الحسن الأشهبُ الغِماريّ وعبدُ الله بنُ الشريفِ التِّلمسانيُّ (ت ٧٧١ هـ). ثمّ إنّه ارْتَحَلَ إلى تونِسَ وأخذ عن إمام تونسَ محمّدِ بنِ عَرَفَةَ الوَرْغَمِيِّ (ت ٨٠٣ هـ) وأبي العبّاسِ القصّار.

بعدَئـذٍ آنتقـلَ ابنُ مرزوقٍ الحفيدُ إلى فاسَ وأخذ عن أبي زيدٍ المكّوديِّ (ت ٨٠٧ هـ) وعن محمّدِ بنِ مسعودٍ الفيلاليّ الصِّنهاجيّ. ولكنْ لا يَتَّسِقُ في التاريخ أن يكونَ آبنُ مرزوقٍ الحفيدُ المولودُ سَنَةَ ٧٦٦ للهجرة قد أخذ عن النَّحْوِيِّ أبي حيّانٍ المُتَوفّى سَنَةَ ٧٤٥ - كما جاء في نفح الطيب (٥ : ٤٢٨، السطر السابع).

ثمّ إنّ آبنَ مرزوقٍ الحفيدَ رَحَلَ إلى المشرق فأخذَ في مِصْرَ - في أثناءِ طريقه إلى الحجّ (وفي حِجّته الأُولى، سَنَة ٧٩٠)- عن عُمَرَ بنِ عليّ بنِ المُلَقِّن (٧٢٣ - ٨٠٤ هـ) وعن عبـدِ الرحمنِ بنِ خَلْـدونٍ (ت ٨٠٨ هـ) وعن مجـدِ الدين محمّدِ بن يَعْقوبَ الفَيْروزاباديّ (ت ٨١٧ هـ)، كما أخذ عن السِّراجِ البُلْقينيّ[2] وعن النور النويريّ (؟).

---

(١) لا تنفس عليه الذي أتى: لا تحسده على ما يفعل من الأمور المحبوبة في الدنيا. وإن مدّ أسباب الحياة له العمر: وإن مكنّه طول عمره من أن يكون له نشاط يتمتّع به بملاذ الحياة.

(٢) لعلّ السراج البلقيّني هذا هو عمر بن رسلان (٧٢٤ - ٨٠٥ هـ) من حفّاظ الحديث.

وأخذ ٱبنُ مرزوقٍ هذا، في مَكّةَ، في أثناءِ حِجّته الأولى (٧٩٠ هـ)، عن البهاءِ الدمامينيّ (ت ٨٢٧ هـ) وعنِ النّور العقيليّ (؟)، كما أخذ في حِجّته الثانية (٨١٩ هـ) عن ٱبْنِ حَجَرٍ العسقلانيّ (ت ٨٥٢ هـ).

وكانتْ وفاةُ ٱبنِ مرزوقٍ الحفيدِ في تِلِمْسانَ في رابعَ عَشَرَ شَعبانَ من سَنَةِ ٨٤٢ (١٤٣٩/١/٣٠ م).

٢ - إنّ الذين ذكروا ٱبنَ مرزوقٍ الحفيدَ قد أطنبوا في مدحهِ إطناباً عظيماً، ففي «نفح الطيب» (٥: ٤٢٠ وما بعد؛ راجع «نيل الابتهاج» ٢٩٣ وما بعد): «عالِمُ الدُّنيا... البحرُ الإمامُ المشهور الحُجّةُ الحافظُ[1] العلّامة المُحقّق الكبيرُ والنَّظّار[2] المطَّلعُ والمُصَنِّف المُنْصِفُ... الآخذُ من كلِّ فنٍّ بأوْفرِ نصيبٍ، الراعي في كلِّ عِلْمٍ مَرْعاه الخصيبَ، حُجّةُ اللهِ على خَلْقه[3]..... فارسُ الكراسي والمنابرِ[4]، سليلُ الأكابرِ، سيّدُ العُلماءِ الأخيارِ وإمامُ الأئمّةِ وآخِرُ الشيوخِ ذَوِي الرُّسوخِ، بدرُ التَّمام الجامعُ بينَ المعقولِ والمنقولِ[5] و (بين) الحقيقةِ والشريعةِ[6] بأجلِّ محصولٍ.....».

وقال فيه المقّري: «شيخ شيوخنا المحقّق النظّار أبو عبد الله بن مرزوق الحفيد» (نفح الطيب ٥: ٣٤٠)... «وعالم الدنيا البحر أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن مرزوق» (٥: ٤١٨).

كان ٱبنُ مرزوقٍ الحفيدُ مُلِمًّا بفنونٍ كثيرةٍ من قراءةِ القُرآنِ والتفسيرِ ومِنَ الحديثِ، وهُوَ حافظٌ ومُسْنَدٌ[7] وفقيهٌ مُجتهدٌ وعارفٌ باللُّغة والنَّحو والبلاغة

---

(١) الحافظ (الذي يحفظ أحاديث رسول الله).

(٢) النظّار (العالم الكبير من علماء الكلام: الدفاع عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية).

(٣) حجّة الله على خلقه (المسؤول عن هداية الناس، ويكون الناس مسؤولين عن اتّباع هديه).

(٤) فارس الكراسي (القدير في التدريس) والمنابر (وفي الخطابة).

(٥) المعقول (العلوم العقلية: الحساب، النطق، الفلسفة، الخ) والمنقول (العلوم التي تكون بالرواية: الحديث، التاريخ، الخ).

(٦) الحقيقة (التصوّف) والشريعة (أمور الدين: العبادات والمعاملات، الخ).

(٧) المسند: الحافظ الثقة في علوم الحديث وفي رواية الحديث.

والعَروض[١]. ويبدو أنّه كان حَسَنَ التّصْنيفِ للكُتُبِ حَسَنَ إلقاءِ الدُّروس، وقد قيل فيه (نيل الابتهاج ٢٩٨ س): «أمّا الفِقْهُ فَهُوَ فيه مالكٌ[٢]، ولأَزِمَّةِ فُروعهِ حائزٌ ومالكٌ[٣]». هذا بالإضافة إلى أنّه كان حاملَ لِواءِ السُّنّة وداحِضَ شُبَهِ البِدْعة»[٤]، ومن كِبارِ رِجال التصوُّف.

كان ٱبنُ مرزوقٍ الحفيدُ مُصنّفاً مُكثِراً في عددٍ من فنون المعرفة، ويبدو أنّه وَصَلَ إلينا بضعةُ كتب منها (راجع بروكلمن، الملحق ٢: ٣٤٥). فمن كُتُبِهِ: تفسيرُ سورة الإخلاص (السورة ١١٢ في المُصحَف؛ على طريقة الحكماء) - رَجَزٌ «حِرز الأماني» (للشاطبيّ) - أُرجوزةٌ ألفيةٌ في مُحاذاة الشاطبية - الروضة (رَجَزٌ في علم الحديث جمع فيه بينَ ألفيّةِ ابن لُيونَ وألفية العراقي)[٥] - الحديقةُ (ٱختصر فيها ألفيّة العراقي) - أنوارُ الدراري في مُكرَّرات البُخاري - عقيدةُ أهلِ التوحيد المُخرجةُ من ظُلمة التّقليد - الآياتُ الواضحات في وجهِ[٦] دَلالةِ المُعجزات - المفاتيح (الغاية) القُرطاسية في شرح (القصيدة) الشُّقراطيسية[٧] (في مدح الرسول) - ٱغتنامُ الفرصة في مُحادثة عالم قَفْصَة (وهو أجوبة على مسائلَ في التفسير والفِقه وغيرِهما وردَتْ عليه من عالم قَفصةَ أبي يحيى بنِ عُقيبة)[٨] - شرحُ ابنِ الحاجبِ[٩] (في فروع الفِقه) - الدليلُ المُومِي في

---

(١) العروض: قواعد نظم الشعر.

(٢) مالك: مالك بن أنس فقيه أهل المدينة.

(٣) الزمام (بالكسر): القياد. فروع الفقه (الصلاة، الصوم، الإرث، الخ). الحائز الذي يحوز (يحصل على الأشياء)، والمالك (الذي يملك الأشياء).

(٤) حامل لواء السنّة (المدافع عن الإيمان) وداحض (مبطل، هازم) شبه (جمع شبهة: الأمر الضائع بين الحقّ والباطل أو بين الحلال والحرام، الأمر المضلّل للناس يثيره أعداء الدين) البدعة (الأمر المخالف لما جاء به الدين).

(٥) ابن ليون هو أبو عثمان سعد بن أحمد التجيبي الأندلسي (ت ٧٥٠ هـ) من العلماء والمكثرين من التآليف. والعراقي هو أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين المعروف بالحافظ العراقي (ت ٨٠٦ هـ) له ألفيّة في مصطلح الحديث.

(٦) في وجه دلالة: فيما يدلّ على.

(٧) الشقراطيسيّ هو أبو محمّد عبد الله بن يحيى التوزري (ت ٤٦٦ هـ) له قصيدة في مدح الرسول (راجع ترجمته في الجزء الرابع من هذه السلسلة).

(٨) قفصة بلدة في جنوبيّ تونس. أبو يحيى بن عقيبة (ص ٦٣٣).

(٩) ابن الحاجب هو أبو عمرو عثمان بن عمر (ت ٦٤٦ هـ) من الفقهاء وعلماء النحو.

ترجيح طهارةِ الكاغدِ الرومي[1] - مُخْتَصَرُ الحاوي في الفَتاوي لابن عبدِ النورِ التونسيّ[2] - نورُ (أنوار) اليقين في شرح أولياءِ الله المتّقين - كتاب (في التصوّف: في شأن البُدَلاءِ، تكلّم فيه على حديثٍ وَرَدَ في أوّل «الحِلْية» في شأنِ البُدلاء وغيرِهم)[3] - النُّصح الخالص في الردّ على مُدّعي رُتبةِ الكاملِ[4] للناقص (في الردّ على أبي الفضلِ قاسمٍ العَقَبانيّ[5] في مسألة الفُقراء الصوفيةِ في أشياءَ صوّبَ العَقَبانيُّ صَنيعَهم فيها فخالَفَهُ آبنُ مرزوقٍ) - المُقنع الشافي (أُرجوزة في المِيقات: آستخراجِ ساعاتِ الليل والنهار، فَلَك) - أُرجوزةٌ في تلخيص (أعمال الحساب) لِآبنِ البنّا[6] - إسماعُ الصُّمِّ في إثبات الشَّرَف من قِبَلِ[7] الأُمّ - تأليفٌ في مناقبِ شيخه إبراهيمَ المصموديِّ[8] - النورُ البَدْريّ في التعريف بالشيخ المَقْرِيّ[9] - نِهاية الأمل في شرح «الجُمَل» للخوَنْجيّ[10] (في المنطق) - نظم «الجمل» للخونجي (في المنطق) - المِعراج في آستمطار فوائدِ الأستاذِ آبنِ سِراج (أجابَ فيه قاضيَ الجماعةِ أبا القاسم بْنَ سِراجٍ[11] عن مسائلَ منطقيّةٍ ونَحْويّةٍ) -

---

(١) المومي = المومىء (المشير، الدالّ). الكاغد: الورق (ورق الكتابة) الرومي (اليوناني النصراني).

(٢) ابن عبد النور التونسي.....

(٣) الأبدال في آصطلاح الصوفية: طبقة تلي الأقطاب الأربعة، قيل لا تخلو الدنيا منهم، إذا مات واحد (منهم) أبدل الله مكانه آخر. واحدهم بدل (بفتح ففتح) وبدل (بكسر فسكون) وبديل (المعجم الوسيط ٤٣).

(٤) اقرأ: رتبة الشخص الكامل.....

(٥) أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني التلمساني (ت ٨٥٤ هـ) فقيه بلغ درجة الاجتهاد. له أرجوزة في التصوّف.

(٦) ابن البنّا من علماء الرياضيّات (ت ٧٢١ هـ) له ترجمة في هذا الجزء.

(٧) من قبل: من جهة نسبه.....

(٨) إبراهيم بن موسى المصمودي التلمساني المتوفى ٨٠٥ أو ٨٠٤ هـ (نيل الابتهاج ٥١ - ٥٢).

(٩) الشيخ المقري هو محمّد بن محمّد المقري (ت ٧٥٨ هـ) جدّ أحمد بن محمّد المقري (ت ١٠٤١ هـ) صاحب «نفح الطيب». والسجعة في هذا الكتاب تدلّ على أن «المقري» ترسم بفتح فسكون (راجع أيضاً تاج العروس - الكويت ١٤: ١٤٦): «مقرة بالفتح مدينة بالمغرب، بقرب قلعة بني حمّاد، بالقطر الجزائري اليوم»، - وقد تشدّد القاف، وبه اشتهرت (١٤: ١٤٧، راجع أيضاً نفح الطيب ٥: ٣٤٠).

(١٠) محمّد بن نامارو (ت ٦٤٦ هـ) فارسيّ الأصل سكن مصر. وهو عالم بالحكمة والمنطق. وفي بروكلمن (١: ٦٠٧، الملحق ١: ٨٣٨): أفضل الدين أبو الفضائل أبو عبد الله محمّد بن ناموار (بسكون الميم أو بفتحها) بن عبد الملك الخناجي (بالضمّ، تقيّداً باللفظ الفارسي).

(١١) ابن سراج....

أُرجوزةٌ في نظم «تلخيص المِفتاح (في البلاغة، لجلالِ الدين محمّدِ بنِ عبدِ الرحمن القزوينيِّ المُتوفَّى سنة ٧٣٩ هـ)- المفاتيح المرزوقيّة في آستخراج رُموز (القصيدة) الخَزْرجيـة[١] (في العَروض)- أُرجوزةٌ في آختصار ألفيّةِ آبنِ مالكٍ (في النحو)- إظهار صِدْقِ المودّةِ في شرح البُردَةِ (وهو شرحٌ كبيرٌ لقصيدةِ «بانتْ سُعادُ» لكعبِ بنِ زُهيرٍ في مدحِ الرسول، آستوفى فيه الكلامَ غايةَ الآستيفاءِ وضمّنَه سَبْعَةَ فنونٍ في كلِّ بيتٍ)- شرحٌ وسطٌ (للبردةِ أيضاً)- الآستيعاب لما في «البُردة» من البيان والإعراب (شرح صغير للبردة)- الرَّوْض البهيج في مسألة الخليج (؟)- شرح التسهيل (؟). ولآبنِ مرزوقٍ هذا كُتُبٌ بدأها ولم يُتِمَّها، منها (نفح الطيب ٥: ٤٣٠؛ نيل الابتهاج ٢٩٨): المتجَرُ الرَّبيح والسَّعي (المسعى؟) الرجيح والرَّحْب (نفح الطيب: المرحب). الفسيح في شرح الجامع الصحيح[٢]- روضةُ الأريب في شرح التهذيب[٣] - المَنْزِعُ النبيل في شرح مُختصرِ خليل[٤] - إيضاح السالك إلى ألفيّةِ آبنِ مالك- شرحُ شواهدِ شُرّاحِ الألفية (لابنِ مالكٍ)- التحريرُ والآستيفاء و (النزول) لألفاظِ الكِتاب والنُّقول[٥].

٣- مختارات من آثاره:

- كلام في إعراب آية.

قال آبنُ مرزوقٍ الحفيدُ في كتابهِ «آغتنامِ الفُرصة» (نيل الابتهاج ٢٩٨ - ٢٩٩): حَضَرْتُ مَجْلِسَ شَيْخِنَا العلّامةِ نُخبةِ الزمانِ آبنِ عَرَفَةَ[٦]، رَحِمَه اللهُ، فقَرَأَ: ﴿ومَنْ

---

(١) الخزرجيّ، لعلّه أبو العبّاس أحمد بن مسعود بن محمّد القرطبي الخزرجي، كان إماماً في التفسير والفقه والحساب والفرائض والنحو واللغة والعروض والطبّ. وله تآليف حسان وشعر رائق، توفّي سنة ٦٠١ للهجرة (نفح الطيب ٢: ٦١٤ - ٦١٥).

(٢) الجامع الصحيح (في الحديث، للإمام البخاري).

(٣) التهذيب.....

(٤) خليل هو ضياء الدين خليل بن اسحاق بن موسى الجنديّ (كان يلبس لباس الجند) فقيه مالكي (ت ٧٧٦ هـ).

(٥) الكتاب = القرآن الكريم. النقول: الروايات المتعلّقة بالحديث (؟).

(٦) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي (٧١٦ - ٨٠٣ هـ) إمام تونس وعالمها في عصره.

يَعْشُ عن ذِكْرِ الرّحْمنِ نُقَيِّضْ له شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قرينٌ﴾[1]. فَجرَى بيْنَنا مُذاكرةٌ رائقةٌ وأبحاثٌ حَسَنَةٌ فائقةٌ، منها أنّه قال: قُرِىءَ «يعشُو» بالرَّفْعِ و «نُقَيِّضْ» بالجَزْمِ، ووجَّهَها أبو حيّانٍ بكَلامٍ ما فَهِمْتُه[2]. وذَكَرَ (أن) في النُّسخَةِ خَلَلاً، وذَكَرَ بعضَ ذلك الكَلام[3]. فَٱهْتَدَيْتُ (أنا) إلى تَمامه. فقلتُ: يا سيِّدي، مَعْنى ما ذَكَرَ أنّ جَزْمَ «نُقيّضْ» بِـ «مَنْ» المَوْصوليةِ[4] لِشُبْهِها بالشَّرطيّة، لِمَا تَضمّنَتْها مِنْ مَعْنى الشرطِ. وإذا كانوا يُعاملون (ٱسْمَ) الموصولِ الذي لا يُشْبِه لفظُه لَفْظَ الشَّرطِ بذلك، فما يُشْبِهِ لفظُهُ لفظَ الشرط أوْلى بتِلْكَ المُعاملة. فوافَقَ، رَحِمَهُ الله، وفَرِحَ كما[5] أنّ الإنصاف كانَ طَبْعَه.

وعِنْدَ ذلك أنْكَرَ عَلَيَّ جماعةٌ من أهلِ المجلس، وطالبوني بإثباتِ مُعاملةِ (ٱسمِ) الموصولِ معاملةَ (ٱسمِ) الشرط. فقُلْتُ: (مِثالُ ذلك) نَصُّهم على دُخول الفاء في خَبَرِ (ٱسمِ) الموصول في نَحوِ «الذي يأتيني فَلَهُ دِرهمٌ». فنازَعوني في ذلك، وكُنْتُ حديثَ عَهْدٍ بحِفْظِ «التسهيل»[6]. فقُلْتُ: قال ابنُ مالكٍ فيما يُشْبِهُ (هذه) المسألة: «وقد يَجْزِمُهُ مُتَسَبِّبٌ عَنْ صِلَةٍ»، وأنْشَدْتُ من شواهدِ (هذه) المسألةِ قَوْلَ الشاعر:

---

(١) القرآن الكريم (٤٣ : ٣٦، سورة الزخرف). يعشو: يعرض (عشا فلان عن الأمر: غفل). نقيّض (نهيّىء، نسبّب، نجعل). قرين: رفيق ملازم.

(٢ و٣) الكلام هنا لابن عرفة. ما فهمته (الجُملة هنا ترجع إلى ابن مرزوق الحفيد).

(٤) من الموصولية (اسم الموصول) لها «عائد» (ضمير يعود إليها) وصلة (جملة تشرح عملها): ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ (٢٧ : ٨٩، سورة النمل): الضمير في «جاء» هو العائد (الراجع، الدال على «من»). والجملة «جاء (هو) بالحسنة» صلة الموصول لا محلّ لها من الإعراب (للتقدير: الجائي بالحسنة). والفاء في «فلهُ» زائدة، ولكنها تدل على التوكيد، أي على علاقة التركيب ﴿لهُ خير منها﴾ بالتركيب ﴿من جاء بالحسنة﴾. وهذه الجملة الموصولية تشبه الجملة الشرطية: ﴿ومن يكفرْ به (بالكتاب: بالقرآن) فأولئك هم الخاسرون﴾ (٢ : ١٢١، سورة البقرة): «من» اسم شرط جازم. «يكفر» فعل الشرط مجزوم باسم الشرط «من». والفاء في «فأولئك»: رابطة جواب الشرط «أولئك هم الخاسرون» بفعل الشرط «يكفر به».

(٥) كما: مثلما، إذ أن– «فرح ابن عرفة بالدليل الذي جئت أنا به، كما أن الإنصاف (معرفة الفضل لأهله) كان طبعاً له.

(٦) التسهيل: كتاب «تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد» لابن مالك النحوي (ت ٦٧٢ هـ).

فلا تَحْفِرَنْ بِئْراً تُريدُ بها أخاً، فإنّكَ فيها أنتَ من دُونه تَقَعْ[1].
كذاك الذي يَبْغي على الناسِ ظالماً «تُصِبْهُ»، على رُغْمٍ، عَواقِبُ ما صَنَعْ.

فجاء الشاهدُ موافقاً للحال.

- اَسْمُ اَبنِ مرزوقٍ الحفيد (نيل الابتهاج ٢٩٨ س):

حدّثَتْني أُمّي عائشةُ بنتُ الفقيهِ الصالحِ القاضي أحمدَ بنِ الحسنِ المَدْيونيّ، وكانتْ صالحةً اَلّفَتْ مجموعاً في أدْعِيَةٍ اَختارَتْها. و (كان) لها قُوّةٌ في تَعْبيرِ الرُّؤيا[2] اَكْتَسَبَتْها من كَثْرة مُطالعةِ كُتُبِ (هذا) الفنِّ، أنّه أصابَني مَرَضٌ شديدٌ أشرفتُ منه على الموت - و (كان) من شأنها و (شأنِ) أبيها أنّها لا يَعيشُ لها ولدٌ إلّا نادراً. و (كانوا قد) سَمّوْني أبا الفَضْلِ في أوّلِ الأمر. فدَخَلَ عَلَيْها أبوها أحمدُ المذكورُ، فلَمّا رأى مرضِيَ وما بَلَغَ بي، غَضِبَ وقال: أَلَمْ أَقُلْ لكُمْ: لا تُسَمّوه أبا الفضلِ؟ ما الذي رأيْتُموهُ له من الفضلِ حتّى تُسمّوه أبا الفضل؟ سَمّوهُ مُحَمَّداً. (وإنّي) لا أسمعُ أحداً يُناديه بغيرِه إلّا فعلتُ به وفعلتُ، يَتَوعَّدُ بالأدبِ . قالتْ: فَسَمّيْناكَ مُحَمّداً، ففَرّجَ اللهُ عنك.

- وقال اَبنُ مرزوقٍ الحفيدُ في مدينةِ تِلِمْسانَ - وسمّاها «بَلَدَ الجِدار»[3] - (نفح الطيب ٥ : ٤٣٣):

بلَدُ الجِدار ما أمرَّ نَواها، كَلِفَ الفؤادُ بِحُبِّها وهَواها[4].
يا عاذِلي، كُنْ عاذِري في حُبِّها. يَكْفيكَ منها ماؤها وهَواها[5].

- وقال يُشير إلى تِلِمْسانَ في رَجَزٍ له في عِلمِ الحديث (نفح الطيب ٥ : ٤٣٣):

ومَنْ بِها أهلُ ذكاءٍ وفِطَنْ في رابعٍ مِنَ الأقاليمِ قطن[6].

---

(١) هذا البيت إضافة من راوية ثانية للقصة نفسها (راجع نيل الابتهاج ٢٩٩).
(٢) تعبير (تفسير، تأويل) الرؤيا (المنام، الأحلام).
(٣) بلد الجدار: البلدة التي لها جدار (سور؟).
(٤) النوى: البعد، البعاد.
(٥) العاذل: اللائم (بغير حق).
(٦) قطن: سكن. الإقليم الرابع هو المنطقة المعتدلة (منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط).

يكفيكَ أنّ الداوِدي بها دُفِنْ   مَعَ ضَجيعِه آبنِ غَزْلونَ الفَطِنِ[1].

٤ - مسند ابن مرزوق (   )، باريس (لا روز) ١٩٢٥ م.

★★ تعريف الخلف ١٢٤ - ١٣٦؛ نيل الابتهاج ٢٩٣ - ٢٩٩ (طبعة فاس ٣٠٤)؛ الضوء اللامع ٧: ٥٠؛ نفح الطيب ٥: ٤٢٠ - ٤٣٣؛ تاريخ الجزائر العامّ ٢: ١٩٥ - ١٩٩؛ بروكلمن، الملحق ٢: ٣٤٥؛ الأعلام للزركلي ٦: ٢٢٨ (٥: ٣٢٨).

أبو يحيى بن أبي بكر بن عاصم

كان لأبي بكرٍ محمّدِ بْنِ عاصمٍ المُتَوَفّى سَنَةَ ٨٢٩ للهجرة (راجع ترجمته، فوق، ص ٦٢٥) أخٌ آسمُه أبو يحيى محمّدُ بنُ عاصمٍ (راجع «نفح الطيب» ٥: ٥١٣ س) وآبنٌ آسمُه أيضاً أبو يحيى محمّدُ بن عاصم. والترجمة التاليةُ تتعلّق بآبنهِ لا بأخيه.

١ - هو أبو يحيى محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ محمّدِ بنِ محمّدِ بنِ محمّدٍ (خمسَ مرّاتٍ) بنِ عاصمٍ القيسيُّ الغَرناطيّ، يبدو أنّ مولدَه كان (تقديراً) نحو سَنَةِ ٧٩٠ للهجرة (١٣٨٨).

أخذَ أبو يحيى بنُ عاصمٍ العِلمَ عن نَفَرٍ من شيوخِ وقتهِ، منهم: أبو الحسن بنُ سمعت (سمعة) الأندلسيّ وأبو القاسم بن السرّاج. الغَرناطيّ وأبو عبدِ الله المَنْتوريُّ وأبو عبدِ الله البيّانيّ وأبو جعفرِ بنُ أبي القاسم السَّبتي.

ويبدو أنّه كان كثيرَ النشاط (والمعرفة أيضاً) فقد تولّى آثنتَيْ عَشْرَةَ خُطّةً (مَنْصِباً) من خُطط الدولة منها الإمامةُ والخَطابة (في المسجد) ومنها الوَزارة والكِتابة. وقد كان قاضيَ الجماعة (قاضيَ القُضاة) في غَرناطَة - وكان تَولِّيهِ القضاءَ سَنَةَ ٨٣٨ للهجرة (١٤٣٤ - ١٤٣٥ م)، كما جاء في الديباج المذهب (ص ٣١٣).

وكانتْ وفاةُ أبي يحيى بن أبي بكرِ بنِ عاصمٍ، سَنَة ٨٦٠ للهجرَة (١٤٥٦ م) في الأغلب، ذبيحاً من قِبَلِ السلطانِ(★).

---

(١) الدوادي... وابن غزلون....

(★) كان سلطان غرناطة في ذلك الحين سعد بن علي بن يوسف بن محمّد (الخامس) الغنّي بالله، للمرّة الثانية (٨٥٧ - ٨٦٦ هـ) أو ابنه عليّ بن سعد (٨٦٦ - ٨٨٧ هـ).

٢ - كان أبو يحيى بنُ أبي بكرِ بنِ عاصمٍ الغَرناطيُّ من أكابرِ الفقهاءِ ومن العُلَماء الرُّؤساء حافظاً (للحديث)، بليغاً وخطيباً ومشاركاً في عدد من العلوم، كما كان مُصنِّفاً؛ له: شرحٌ على «تحفة الحكّام» (لأبيه أبي بكرٍ محمّدُ بنُ عاصمٍ المتوفّى سنة ٨٢٩ هـ) - جَنَّةُ الرِّضا في التسليم لِما قَدَّرَ اللهُ وقضى (في الحُزن على حال المسلمين في الأندلس وعلى ما كانَ الإسبانُ النَّصارى - في آخرِ أيامِ العرب في الأندلس - يفعلونه بالمسلمين. وفي المختارات نصّ من هذا الكتاب) - الرَّوضُ الأريض في تراجمِ ذَوِي السيوفِ والأقلام والقَريض (في عِدّة أجزاءٍ، كأنّه ذَيْلٌ على كتاب «الإحاطة» للسان الدينِ بنِ الخطيب). وكان له ترسُّلٌ (رسائلُ إخوانيّةٌ) وشِعْر.

وأبو يحيى بنُ عاصمٍ أديبٌ مُنشِئٌ كثيرُ التصنيعِ والتكلُّفِ في الشعرِ والنثر، فربّما نَظَمَ القصيدةَ فبَناها على نَمَطٍ يُمْكِنُ أنْ يَخْرُجَ به منها عددٌ من القصائد والمُوشّحات. وكذلك كانتِ الأسجاعُ في نثرِهِ تَتَوالى على نَسَقٍ وتَتَرَدّدُ تردُّداً يُذكِّرُنا بالموشّحات أيضاً (انظر ذلك في النصّ المأخوذِ فيما يلي من كتاب «جنّة الرِّضا»). وأمّا المَثَلُ على تولُّدِ بعضِ قصائدِهِ من بعضٍ فتراه فيما يلي (أزهار الرياض ١: ١٤٦ وما بعد):

أما، والهوى، «ماكنتُ» مُذْ بانَ عهدُهُ	أَهيمُ بلُقْيا مَنْ (تناثر) وُدُّهُ[١] *
رعى اللهُ مَنْ لو أنصفَ» الصبَّ في الهوى	لَما فاضَ منه (الدمعُ) مذ بانَ صَدّه[٢].
ولو جادَ مِنْ (بعدِ المِطال) بزَوْرةٍ	لَما شبَّ أشواقي وقلبِيَ زَنْدُه[٣].
كما خانَ صبري يومَ أصبحَ و« أصلي	لَظى »زادَ ماءَ (مِنْ جُفونِيَ) وَقْدُه[٤].

(★١) بما أن الغاية من القطع التالية في الشعر أن نرى طريقة توليد بعض القصائد من بعض، فسأجعل الشرح هنا موجزاً. بان (بعد، ابتعد) عهده (زمانه): مضى عليه زمن طويل فانقضى شبابه.

(٢) بان (ظهر) صدّه: ميله (عنّي).

(٣) الزند: قطعة من الحديد تقدح به النار من الحجر. شبّ (أشعلَ) «أشواقي وقلبي» (مفعول به متعدّد) زنده (فاعل «شبّ»).

(٤) «لظى»، إذا كانت عَلَماً على جهنّمَ، فإنّها تكون ممنوعة من الصرف فلا تُنوَّن. وأمّا إذا كانت مصدراً: لظي (بفتح فكسر ففتح) يلظى لظًى، وكان «اللظى» بمعنى اللهيب الذي لا دخان معه (كما هو المقصود هنا)، فإنّ «لظى» حينئذ تكون مصروفة وتنوّن. وأمّا إذا كانت «لظى» (اسماً مؤنّثاً) بمعنى «لهيب لا دخان له» فتكونُ حينئذٍ ممنوعة من الصرف (فلا تنوّن) لعلّتين (التأنيثِ ولأنّها مختومة بتاء التأنيث أيضاً). «واصلى» (هنا): يصل إليّ (من المحبوب).

لـــذاك أسالَ الدمـــعَ (كالـــدُرِّ) مَدْمعي

من «الوَجْدِ» فآستوْلى على الجَفْنِ سُهدُه[1]

حكى لُؤلُؤاً (مِنْ سِلْكِه) مُتناثراً و«إلّا لِيَمٌّ» قد تتابع مَدّه[2].

ذَخَرْتُ (الثمينَ) القدرِ منه بمُقلتي ومازِلتُ من خوفِ «النَّكالِ» أُعِدّه[3].

ولا عجبٌ (مُذ أعوزَ) القُربُ أنْ غدا و«كالقمر الزاهي» سَناه وبُعده[4].

أيُلحِقُ باللُّقْيا أوِ (الوصلِ) من يغو ر «في نوره» بدرُ السماء وجُنده[5].

وصيّر جسمي للصَّبابـــة (والتَّــلا في) يُتَيِّمُ قلبي إذ تمكّنَ وَجْدُه[6].

أُقطِّـعُ أنفاسي «عليه كـ»ـآبةً ولِلَّـــهِ (مِنْ بدرٍ) لِغيرِيَ سَعْدُه.

(وآستخرجَ أبو يحيى بن عاصمٍ من قصيدتِهِ هذه الطويلة- وَهِيَ مِائَةٌ وعِشرون بيتاً- قصيدةً أصغر منها، عَدَدَ أبياتٍ ووزناً، وهي سبعةَ عَشَرَ بيتاً من «مجزوء البحر البسيط: مستفعلن فاعلن فعولن»). من الكلمات المحصورة بين أهِلّة كبار ( ):

تناثَرَ الدَّمـــــــعُ من جُفوني كالـــدُّر من سِلكـــهِ الثمـــينِ.

مُـــذْ أعوزَ الوصِـــلُ والتّلاقي من بـــدر حُسْنٍ بـــلا قرينِ[7].

عَلِقــتُ في الحُـــبِّ ظَبْيَ أُنْسٍ جمالُــــــه مرتـــــعُ العيونِ.

---

(١) الوجد: شدّة الحبّ وشدّة الحزن. السهد: امتناع النوم.

(٢) حكى: شابه (الدمع). وإلّا لِيَمٌّ- يمّ: بحر. المدّ: ارتفاع الموج وكثرة الماء.

(٣) ذخرت=آدّخرت: خبأت. القدر (القيمة). والقدر (في الأصل) منصوبة، وحقّها الجرّ على الإضافة: الثمين القدر. النكال: شدّة العذاب. أُعدّه، أحتفظ (بدمعي) مهيأً (خوف عذابه الشديد المقبل- حينما يعلن المحبوب أنه قطعني بتّة؟).

(٤) أعوز الشيء فلاناً=آحتاج فلان إلى ذلك الشيء. أعوزني قربه: أصبحت محتاجاً إلى أن يكون قريباً منّي. أو عزّ قربه: آبتعد عنّي. السنا: الضوء.

(٥) أيُلحِق باللُّقيا: أيُلحقني بلُقياه (أيُنعِم عليّ بالوصل أو القرب) من (ذلك المحبوب: محبوبي أنا) الذي يغور في نوره (يختفي في كثرة نوره) بدر السماء وجنده (أيِ النجوم أيضاً): نور حبيبي (جماله) أعظم من نور بدر السماء ومن نور النجوم كلِّها مجتمعةً.

(٦) الصبابة: الشوق، حرارة الشوق (شدّته). تيّم: أمرض، ذلّل، أذهب عقل (المحبّ). الوجد: شدّة الحبّ أو شدّة الحزن.

(٧) القرين (هنا): المثيل، الشبيه.

تناثرُ الدمــــــعُ كالـــــــدرّ   مــذ أعوز الوصــلُ من بــدرِ
عَلِقْـــــــتُ في الحُـــــبّ   جَمالــــــــــه..........

(ثمّ عاد فٱستخرج منها – من الكَلِمات المحصورة بين أهِلّةٍ صِغارٍ – قصيدةً جديدة):

ما كُنـتُ لو أنصفَ بعدَ المِطالِ   أصْلَى لَظَى الوَجدِ الأليمِ النَّكالِ[1].

(ثمّ عاد أيضاً فٱستخرج منها مُوَشَّحتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ).

ويحسُنُ بمن يُريدُ تفصيلَ ذلك كُلَّه أنْ يعودَ إلى «أزهار الرياض» (١ : ١٤٥ – ١٥٨).

٢ – مختارات من آثاره

– قال أبو يحيى بنُ عاصمٍ في «جنّة الرضا» (راجع أزهار الرياض ١ : ١٥٨ وما بعد):

الحمدُ للهِ الذي عوّضَ مِنَ الخِلاف وِفاقاً، وأعقبَ مِنَ ٱلاَفتراق ٱجتماعاً وٱتّفاقاً، وهيّأ لأِسواقِ ٱلاَئتلافِ برَفع الخِلاف نَفاقاً[2]، ويسَّرَ لِوَطن الجِهاد من توثيرِ المِهاد أرفاقاً[3]، وزيّن بأنجُمِ السُّعود من النّصر الموعودِ آفاقاً، وعَقَدَ على جَمْعِ الكَلِمَةِ من الأُمّة المُسْلِمةِ إجْماعاً وإصفاقاً[4]. نَحْمَدُه سُبحانَه – وَهُوَ المحمودُ بجميعِ اللُّغات، ونشكُرُه على ما سنّى[5] من آمالٍ على وَفْقِ الأُمْنيَةِ مُبَلَّغاتٍ؛ ونُثْني عليهِ بما أسْدى من عوارِفَ مُخَوَّلاتٍ ومَواهِبَ مُسَوَّغاتٍ[6]، حَمْداً نَسْتَكْثِرُ مِنْ دُررِهِ النّفيسةِ إنفاقاً،

---

(١) انظر، فوق، ص ٦٤٣.
(٢) النَّفاق: الرواج (القبول عند الذين كانوا مختلفين).
(٣) وطن الجهاد: الأندلس – (لكثرة الحروب في سبيل الدفاع عن النفس). توثير المهاد (جعل البقاء في الأندلس ممكناً وسهلاً). المهاد الوثير: الفراش الليّن الناعم. إرفاق (في الأصل) بفتح الهمزة. لعلّها «إرفاق» (بكسر الهمزة): رفقة نافعة معينة على الخير.
(٤) الإصفاق (الإجماع على أمر ما).
(٥) سنّى = سانى فلان فلاناً: لاينه وأحسن معاشرته. والمقصود هنا (أكثر، جعل الشيء كثيراً).
(٦) أسدى فلان إلى فلان معروفاً: أولاه إيّاه، أعطاه. العوارف جمع عارفة: الإحسان. مخوّلات: معطاة، ممنوحة. مسوّغات: ممكنة، مباحة، معطاة.

وأمانتهِ العظيمة فلا نأبى من حَمْلِها إشفاقاً[1]. ونشهدُ أنّه لا إلَهَ إلّا هُوَ الواحدُ الأحدُ، الفرْدُ الصّمَدُ الّذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكُنْ له كُفُوًا[2] أحَدٌ: شهادةٌ نرفَعُ لِواءَها المُرَنّحَ العَذَباتِ خفّاقاً[3]، فلا لاقى لِمقاصدِ السعادة إخفاقاً[4]. ونشهَدُ أنّ سيِّدَنا ومَوْلانا مُحمّداً صلّى اللهُ عليه وسلّمَ عبدُه ورسولُه ونبيُّه المُصطفى وخَليلُه: نَبيُّ الرحمةِ ونورُ الظُّلمةِ وشفيعُ الأُمّةِ والمبعوثُ بالكتاب[5] والحِكمة والمجموعُ له بين مَزِيّة السَّبْق ومزيةِ التَّتِمّة[6]: شهادةً تَسْتحفِظُ بِقاعَ الأرض أرفاقاً[7] فلا تخشى مَعَها القلوبُ - وقد حَصَلَ منها الغَرَضُ المطلوبُ - شكًّا ولا نِفاقاً.....

أما بعدُ..... فإنّ لأحوالِ الوقتِ الداهيةِ[8] ﴿لَذِكْرَى لِمَنْ كانَ له قلبٌ أو ألْقى السَّمْعَ وَهُوَ شهيدٌ﴾[9]، وعِبْرَةً. لِمَنْ تفَهّمَ قولَه تعالى: ﴿إنّ اللهَ يفعلُ ما يشاءُ، وإنّ اللهَ يحكُمُ ما يُريدُ﴾[10].

فبَيْنا الدُّسوتُ عامرةٌ[11] والوُلاةُ آمرةٌ والفِئةُ مجموعةٌ والدَّعوةُ مسموعة والإمْرة مُطاعة والأجوبةِ سَمْعاً وطاعة، إذا بالنّعمة قد كُفِرَتْ والذِّمّةِ قد خُفِرَت[12]!...

---

(١) الأمانة العظيمة: التبعة (الواجبات التي يسأل الإنسان عن أدائها والقيام بها والمحافظة عليها، كالعبادات وتولّي الإدارة في الدولة والإصلاح في المجتمع، إلخ). الإشفاق: الخوف.

(٢) الأحد (الوحيد) الفرد (الذي لا شخص آخر يشبهه). الكفؤ: العديل، المُساوي.

(٣) المرنّح (هنا): المتمايل (اعتزازاً وفخراً). العذبة (بفتح ففتح): زيادة تتدلّى من جانب العِمامة.

(٤) الإخفاق: الخيبة.

(٥) الكتاب: الكتاب المنزل (الشريعة). الحكمة (هنا): الأحكام الدينية.

(٦) محمّد رسول الله كان الأوّل والأسبق (الأعظم) في الأنبياء والمتمّم (الخاتم، الأخير) في الأنبياء (لا نبيّ بعده).

(٧) إرفاقاً (في الأصل: بفتح الهمزة)؟.

(٨) الداهية: الآتية بالمصائب. (هجمات نصارى الأندلس على بلاد المسلمين).

(٩) ﴿إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾. (راجع القرآن الكريم ٥٠ سورة ق: ٣٧). ذكرى: عظة، تذكير. قلب: عقل، تفكير في الأمور. ألقى السمع: استمع إلى الوعظ، كان مستعداً لفهم ما يسمع. شهيد = شاهد لما يجري (حاضر العقل في تقلّب الأحداث).

(١٠) ﴿إن الله يفعل ما يشاء﴾ (٢٢ الحجّ: ١٨)؛ ﴿إنّ الله يحكم ما يريد﴾ (٥ المائدة: ٢). يحكم ما يريد من التحليل والتحريم (يفعل الأمور بإرادته).

(١١) الدست: صدر المجلس، المنصب العالي في الدولة، كرسيّ الحكم. الدسوت عامرة (الملوك كثيرون).

(١٢) كفر فلان الشّيء: غطّاه، ستره. كفر فلان النعمة (أنكر فضل الله عليه). الذمّة (العهد) خفرت: نقضت.

والسعيدُ مَنِ اتّعظَ بغيرِه، ولا يزيدُ المُؤمنَ عُمُرُهُ إلاّ خيراً[١]. جعَلَنا اللهُ مِمّنْ قضى (اللهُ) بخَيره.

وبَيْنما الفُرقةُ حاصلةٌ والقطيعةُ فاصلةٌ والمَضَرّةُ واصلةٌ، والحبْلُ في انبتاتٍ[٢] والوطنُ في شَتَاتٍ والخِلافُ يمنَعُ رَعْيَ مَتاتٍ[٣] والقلوب شتّى من قومٍ أشتاتٍ، والطاغيةُ يتمطّى لِقَصْمِ الوطن وقَضْمه[٤] .... ويتوقّع الحسرةَ إنْ يأذَنِ اللهُ بجَمْعِ شَمْلِهِ ونَظْمِهِ[٥] على رُغْمِ الشّيطانِ ورُغمه[٦]، إذا بالقُلوبِ قدِ ائتَلَفَتْ، و(النفوس) المُتنافرةِ قدِ اجتمعتْ بعدَما اختلفتْ، والأفئِدَةِ بالأُلفة قدِ اقْتَرَبت إلى اللهِ وازدلفتْ[٧]. و(الأيدي) المُتَضرّعة إلى الله قدِ ابْتَهَلَتْ[٨] في إصلاح الحالة التي سَلَفَتْ، فألْقَتِ الحربُ أوْزارَها[٩] وأَدْنَتِ الفِرقةُ النافرةُ مَزارَها[١٠] وجلَتِ الأُلفةُ الدينيّةُ أنوارَها[١١] وأوْضحَتِ العِصمةُ الشرعيّةُ آثارَها[١٢] ورفعتِ الوحشةُ الناشبةُ أظفارُها أعذارَها[١٣]، وأرْضَتِ الخِلافة الفُلانيّة[١٤] أنصارها وغضّتِ الفِئَةُ المُتَعرّضة أبصارَها[١٥] وأصلَحَ اللهُ

---

(١) كلّما تقدّم المسلم في العمر. زادت تقواه وأصبح أكثر ميلاً لعمل الخير.
(٢) انبتات: انقطاع، تقطّع.
(٣) المتات: ما يمتّ (يصل، يتّصل) به إنسان لآخر، القرابة.
(٤) الطاغية: لقب ملك الإسبان. يتمطّى: يحرّك ظهره (يستعدّ). لقصم (كسر). القضم (أكل الشيء من أطرافه- احتلال بلدان الأندلس).
(٥) يتوقّع الحسرة... إلخ: هو (ملك الإسبان) واثق من أنّه سيحزن حينما يسهّل الله جمع شمل أهل الأندلس (اتّفاقهم) ونظمه (واستتباب أمره).
(٦) الرغم: الإذلال، القهر (وجريان الأمور على خلاف ما يريد الخصم). ورغمه (رغم ملك الإسبان).
(٧) ازدلف: دنا، اقترب، تقدّم.
(٨) ابتهل: تضرّع (بالغ في الدعاء إلى الله مستعيناً به).
(٩) سلف: مضى. ألقت الحرب أوزارها (أحمالها): انتهت.
(١٠) الفرقة: الفئة المنشقّة من الجماعة. النافرة: الغاضبة، المبتعدة. أدنت (قرّبت) مزارها: مالت إلى الوفاق.
(١١) جلت (بفتح ففتح) وجلّت (بفتح فلام مشدّدة مفتوحة): أظهرت، كشفت.
(١٢) العصمة الشرعية (حصانة المسلمين من أن يختلفوا فيما بينهم). أوضحت آثارها: ظهرت نتائجها.
(١٣) الناشبة أظفارها (في المسلمين: باختلاف فيما بينهم) أعذارها: لم يبق، بعد ذلك، للمسلمين عذر في أن يختلفوا.
(١٤) الخلافة الفلانية (؟). أرضت أنصارها (بمنحهم شيئاً من المغانم ؟). (٩) وغضّت (خفضت) الفئة المتعرّضة (للنزاع على الحكم؟) أبصارها (تنازلت عن مطالبها وتساهلت في موقفها).

أسرارَها[١]. فتجمّعتِ الأوطانُ بالطاعةِ وٱلْتَزَمَتْ نصيحةَ الدينِ بأقصى الاَستطاعةِ وتسابقتْ إلى لُزومِ السُّنّةِ والجَماعة وألْقَتْ إلى الإمامة الفلانيّة يدَ التسليمِ والضَّراعة[٢]..........

– ومن نَظْمِ أبي يحيى بنِ عاصمٍ قولُه مُخاطباً شيخَه قاضِيَ الجماعةِ أبا قاسمِ بنَ سِراجٍ، وقد طَلَبَ ٱلاَجْتِماعَ به (في) زَمَنِ فِتنةٍ[٣]. فظنّ أبو يحيى بنُ عاصمٍ (أنّ ٱبنَ سِراجٍ يُريدُ أنْ) يَسْتَخْبِرَه عن سرٍّ من أسرارِ السُّلطانِ فأعدّه (؟) مُعْتَذِراً، و(لكن) لم يصدُقْ ظنُّ أبي يحيى. ومعَ ذلك فقد قالَ أبو يحيى يُخاطبُ شيخَه (– نفح الطيب ٦ : ١٥٠):

فَدَيْتُـك، لا تسألْ عنِ السِّرِّ كاتِباً، فتَلْقاهُ في حالٍ من الرُّشْدِ عاطِلِ[٤]،
وتَضْطَرَّه إمّـا لِحالـةِ خائنٍ أمانَتَه أو خائضٍ في الأباطل.
فلا فَرْقَ عِنْدي بَيْن قاضٍ وكاتبٍ: وَشَى ذا بِسِرٍّ أو قضى ذا بباطِـلِ.

– كتب أبو يحيى ابن عاصمٍ يُخاطبُ الكاتبَ أبا القاسمِ بنَ طركاطَ[٥]:

القضاءُ – حَفِظَ اللهُ تعالى كَمالَك وانْجَحَ آمالَك – إذا لم يَحُطْهُ العدلُ من كلا جانِبَيْهِ، سبيلٌ مُعْوَجٌّ ومذهبٌ لا يوافق عليه مُناظِرٌ ولا ينصُرُهُ مُحْتَجّ. كما أنّه، إذا حاطَهُ العدلُ، جادّةٌ للنجاة وسببٌ في حصولِ رحمةِ الله المُرْتجاةِ وسوقٌ لِنَفاقِ بِضاعةِ العبدِ المُزجاةِ[٦]. وأجملُ العدلِ ما تحلّى به في نفسِه الحَكَمُ وجرى على مُقتضى ما شَهِدَتْ به الآراءُ المَشهورةُ والحِكَمُ، حتّى يكونَ عن البَغْيِ رادعاً وبالقِسْطِ صادعاً

(١) أصلح الله أسرارها (قلوبها).
(٢) الإمامة الفلانية (؟). ألقت يد التسليم (قبلت بالحكم القائم) والضراعة (الخضوع).
(٣) زمن يقتتل فيه المسلمون.
(٤) عاطل من الرشد: قاصر عن التفكير وعن إدراك حقائق الأمور.
(٥) يبدو أن طركاط هذا كان في أوّل أمره حاجباً في المحكمة (مباشراً ينادي على المتداعين وعلى الشهود ليدخلوا إلى المحكمة بأدوارهم. ويبدو أنّه كان دقيقاً شديداً مخلصاً في عمله. ثمّ إنّه تولّى القضاء فجرت منه هفوات في آداب القضاء. فكتب إليه أبو يحيى بن عاصم هذه الرسالة وطواها على شيء من التوبيخ وشيء من النصح.
(٦) المزجاة: الرديئة (إذا كان القاضي عادلاً في نفسه نجح ولو كان علمه بالقضاء قليلاً).

ولأنفِ الأنَفَةِ من الإذعانِ للحقّ جادعاً[1] . وأنت - أجلّكَ الله تعالى - على سَعَةِ عِلمك وشِدّة ساعدِ قِيامك بالطريقة واضْطلاعِك مِمّنْ لا يُنَبَّهُ على ما ينبغي ولا يَرُدُّ على طِلْبَتِه من الإنصافِ المُبتغي. فَلَكَ في الطريقة القاضويّةِ التبريزُ. وأنتَ - إذا كان غيرُك الشَّبَهَ - الذهبُ الإبريزُ[2] ولعمليّة عَدْلكَ التوشيةُ بالنزاهةِ والتطريز..... وأنتَ - حَفِظَكَ الله تعالى - قد قُمْتَ مِنْ غِلَظِ الحِجاب بالمَقام المعصوم ومَثّلتَ من سَعَةِ المَنْزِلِ في الفضل والطَّوْلِ كالشهرِ المَصوم[3]، والبابُ قد سُدّ وداعي الشفاعة قد رُدّ والميقات لِلأذْن قد حُدّ ومطلبُ الأُجرة المُتعارَفَةِ قد بلغ الأشدّ[4]. حتّى إذا قُضِيَ الواجبُ وأذِنَ في دُخول الخصمين الحاجبُ، وكَبَحَ السابقين إلى الحدِّ الذي لا يَعْدونه وحَفَزَ إيماؤه مَنْ تَعدّاه أو وَقَفَ دونه[5]، وقد حَصَلَ باللَّحْظِ واللفظِ التساوي وأنتج المطالبُ الأربعة هذا اللازم المُساوي[6]..... وهذه - أعانَك الله تعالى - مُكَمِّلاتٌ من العدل في الحُكْم..... فهلّا راجعت فيها النظرَ وأنْجَزْتَ لها الوعدَ المُنْتَظر وكَفَفْتَ من دُموعها عيوناً مُسْتَهِلّة .... وقد أدرجتُ لك في طَيِّ هذا ما يَصِلُ إلى يَدِكَ وتلهَجُ به[7] في يومِك وغَدِك، مُنْتَظِرةً منك إطفاء الجَوَى بالجوابِ ومَحْوَ ما سَبَقَ من الخطأ بالخِطاب[8]..... في أوائلِ ذي الحِجّةِ عامَ خمسةٍ وأربعينَ وثمانِمائَةٍ[9].

٤ - ★★ نيل الابتهاج ٣١٣؛ نفح الطيب ٦: ١٤٦ - ١٦٢؛ أزهار الرياض ١: ٥٠ - ٦٠، ١٤٥ - ١٨٧: ٣: ٣١٠ - ٣١٢، ٣٢٠ - ٣٢٣؛ شجرة النور الزكية ٢٤٨؛ الأعلام للزركلي ٧: ٢٧٧ (٤٨)؛ معجم المؤلفين ١١: ٢٩٣.

(١) القسط: العدل. صدع بالأمر: أعلنه وجهر به. الأنفة: التكبّر، التفرد، التنزه، الإذعان: الخضوع للحق. جدع: قطع. قطع أنف الأنفة: حمل نفسه على الرضا بالأمور.

(٢) الشبه: النحاس الأصفر. الإبريز: الخالص، الصافي.

(٣) غلظ الحجاب: شِدّة الفاصل بينك وبين العامة. المقام المعصوم: الذي لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه. الطَّوْل: القدرة، الغنى. الشهر المصوم: رمضان.....

(٤) مطلب الأجرة قد بلغ الأشُدّ (بضمّ الشين النضج) نسبة عالية - يبدو أن الموثّقين كانوا يتقاضون (بفتح الضاد) أجراً على عملهم (المُوثّق: الكاتب بالعدل أو كاتب العدل).

(٥) يَعْدونه: يتجاوزونه. حفز: حثّ، دفع. الإيماء: الإشارة الخفيفة.

(٦) وأنتج..... (؟).

(٧) لهج (بكسر الهاء) بالأمر: ولع به، ثابر على فعله.

(٨) الجوى شدّة المرض النفسي (من الحبّ).. الاستعارتان هنا غامضتان.

(٩) أواسط نيسان - أبريل ١٤٤٢ م.

إبراهيم التازيّ

١- هو الشيخُ أبو إسحاقَ أبو سالمٍ إبراهيمُ بنُ محمّدِ بنِ عليٍّ التازيُّ- من بني لنت، وهي قبيلة من بربر تازة (نيل الابتهاج ٥٥، السطر السادس)- سكن وَهْرانَ (في القُطر الجزائريِّ اليومَ. وقيل شُهِرَ بالتازيِّ لأنّه وُلِدَ في تازة[١].

قرأ إبراهيمُ التازيّ على أبي زكريا يحيى الوازعِي، وأخذ في تونس عن عبدِ العزيز العبدوسيِّ، كما أخذَ في تِلِمْسانَ عن مُحمّدِ بنِ مرزوقٍ الحفيدِ؟ (ت ٨٤٢ هـ).

رَحَلَ إبراهيمُ التازيُّ إلى المشرق وحَجّ ولَبِسَ الخِرقةَ (أصبحَ ذا مكانةٍ عاليةٍ في التصوّف) على يدِ شَرَفِ الدين الداعي. ثمّ عادَ إلى المَغْرب ولَبِسَها مُجَدَّداً على يدِ الشيخِ صالح بنِ محمّدٍ الزَّواويِّ، بِسَنَدِه (أي بلُبْسِه الخِرقة على يدِ) أبي مَدْيَنَ شُعَيبٍ (ت ٥٩٤ هـ)[٢].

٢- كان إبراهيمُ التازيُّ مُقَدّماً في علومِ القُرآنِ وعلومِ اللغة حافظاً للحديثِ بصيراً بأُصول الدين وأصولِ الفِقْهِ ومُتصوّفاً مشهوراً. له بديعياتٌ (قصائدُ في مدحِ الرسول) وقصائدُ تنطوي على معانٍ صوفيةٍ على بعضِها أثرُ عُمَرَ بنِ الفارض. وله تآليفُ في الفِقه وأُصولِ الدين وعِلمِ الحديث.

٣- مختارات من آثاره

- قال إبراهيمُ التازيُّ (نيل الابتهاج ٥٦):

أبعدَ الأربعينَ ترومُ هَزْلاً؟ وهل بعد العَشِيَّةِ من عَرارِ[٣]!

---

(١) وهران: ثغر في القطر الجزائري. تازة: بلد قرب فاس في المغرب (تاج العروس- الكويت ١٥ : ٤٨).

(٢) لا يتّسق، في التاريخ، أن يكون إبراهيم التازيّ (ت نحو ٨٦٦ هـ) قد أخذ التصوّف عن صالح بن محمّد الزواويّ، إذا كان هذا قد أخذ عن أبي مدين (ت ٥٩٤ هـ)، إلّا أن يكون بين التازي والزواوي نفر من الشيوخ (إذ بين موت التازي وموت أبي مدين مائتان واثنتان وسبعون سنة).

(٣) رام: قصد، أراد. العَرار: نبت له زهر طيّب الرائحة. في البيت تضمين من بيت قديم:

تمتّع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار.

إبراهيم التازي يقصد: وهل بعد العشيّة (التقدّم في السنّ وراء الأربعين) عرار (مجال، أو قدرة على) الهزل وملاذّ الحياة!

وَعَـدٌّ عن الرَّبابِ وعن سُعادٍ وزَيْنَـبَ والمعارِفَ★ والعقـار[١]

فما الدنيـا وزُخْرُفُهـا بشيءٍ. ومـا أيّامُهـا إلّا عوارِ[٢].

فتُبْ واخْلَعْ عِذارَكَ في هوى مَنْ لـه دارُ النعيمِ ودارُ نـار[٣].

ولا موجودَ إلّا اللهُ حقًّـا، فـدَعْ عنْـك التعلُّقَ بالشفار[٤].

– وقال إبراهيم التازيُّ أيضاً[٥] (أزهار الرياض ٢ : ٣١٠):

ما حالُ مَنْ فارَقَ هذا الجمالْ وذاقَ طَعْمَ الهَجْرِ بعدَ الوِصالْ،

والعقـلُ منـه ذاهـبٌ، والحَشى مُلْتَهِـبٌ، والجِسْمُ يَحْكي الخَيالْ؟

أبيـتُ أرْعـى النَّجمَ في أُفْقِها، ولَيْلُ أهلِ الحُبِّ رحبٌ طُوال[٦].

يـا قبّـحَ اللهُ النَّوى إنّهـا[٧] قتْلٌ بلا سيفٍ وداءٌ عُضال[٨].

ويـا رعـى اللهُ زمانـاً مضى بالأُنسِ في وارفِ تلك الظِّلال[٩]:

ظِـلالِ تَيْماءَ الـتي تيّمَـتْ قَلْبي وخلّتْ مُهْجَتي في نَكال[١٠].

---

(١) الرباب وسعاد وزينب من أسماء النساء اللواتي يكنى بها عن المحبوبات في الدنيا. المعارف: الأصدقاء (؟)، العلوم الدنيوية (؟). العقار (بفتح العين): الأراضي والأبنية، (بضمّ العين): الخمر – عدّ (تجاوز، اترك) كلّ أمور الدنيا المادّية والمعنوية. ★ اقرأ: المعازف. المِعزَف من آلات الطرب، يشبه العود.

(٢) الزخرف: الذهب، والزينة. عوار جمع عارة وعارية (الشيء الذي تستعيره من غيرك) من الجذر «عور» (يقال: أعور الرجل: بدا فيه نقص أو خلل أو حاجة).

(٣) من له دار النعيم (الجنّة) ودار النار (جهنّم) هو الله.

(٤) المتصوفّة المتطرّفون لا يقولون: لا إلّه إلّا الله» لزعمهم أنّ هذه الصيغة تعني أنّ هنالك في العالم أشياء كثيرة منها الله. إنّهم يقولون: لا موجود إلّا الله: أي ليس في العالم كائن حقّ إلّا كائن واحد هو الله. كان محي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ) يقول بذلك أيضاً. الشفار (الأشياء المادّيّة الموجودة في الدنيا؟).

(٥) مجرّدة من تخميس لبعض الأكابر – من الصوفيّين – (راجع أزهار الرياض ٢ : ٣٠٩).

(٦) رحب: متّسع. طوال (بالضمّ): طويل (القاموس المحيط: ٤ : ٩).

(٧) في الأصل «إنه». والصواب إنّها لأنّ «النوى» مؤنّثة.

(٨) العضال: المرض الذي لا يرجى شفاؤه.

(٩) الظل الوارف: المتّسع (المنتشر على بقعة واسعة).

(١٠) تيماء مكان قرب المدينة (في شبه جزيرة العرب). وهي هنا كناية عن العزّة الالّهية. تيّم: أمرض، ذلّل. المهجة: دم القلب (القلب). النكال: العذاب الشديد.

للهِ، مـــا أحسنَ خـــالاً لهـــا   تَقْبيلُـه المحظورُ عـينُ الحَلال[1].

– صلاةٌ (دعاء) لإبراهيمَ التازيِّ، وتُعرَفُ بِالصلاة التازيّة (النبوغ المغربي ٣٦٧ من الترقيم الأوّل): اللَّهُمّ، صَلِّ صلاةً كاملةً وسلِّمْ سلاماً تامًّا على محمّدٍ نبيٍّ[2] تنحَلُّ به العُقَدُ وتنفَرِجُ به الكُرَبُ[3] وتُقضى به الحوائجُ[4] وتُنال به الرغائبُ[5] وحُسْنُ الخواتِمِ[6]، ويُستَسْقى الغَمامُ بوَجْهِه[7]، وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

– وقال (ناظراً إلى عَددٍ من مَعاني ابنِ الفارض):

أَبَتْ مُهْجتي إلّا الوُلوعَ بمَنْ تَهْوى   فدَعْ عنكَ لَوْمي والنفوسَ وما تقوى[8]،
هَوانُ الهَوى عِزٌّ، وَعَـذْبٌ أُجاجُه؛   وعَلْقَمُه أحلى من المَنّ والسَلوى[9].

---

(١) الخال: نقطة سوداء على الخدّ (عادة). المحظور: الممنوع. – تقبيل وجه الأجنبية حرام. ولكن العزّة الإلّهية (وهي أجنبيّة، أي غير المحبّ، غير الإنسان) تقبيلها (عبادتها طاعتها) عين الحلال (حلال مطلق واجب على كلّ إنسان).

(٢) اقرأ: على محمّد، وهو نبيّ..... أو: على محمّد النبيّ الذي....

(٣) الكربة: الحزن الشديد والغمّ الثقيل.

(٤) الحوائج جمع حائجة: المأربة (بضمّ الراء)، أي الرغبة التي يضمرها الإنسان في نفسه. وربّما كانت « الحوائج » جمع « حاجة » على غير قياس (وقيل: هي مولّدة نشأت في العصر العبّاسي)، وقيل: استعمالها منكر (خطأ، غير مألوف). وصاحب التاج يراها صحيحة ويستشهد عليها من الشعر الجاهليّ ومن حديث رسول الله (راجع تاج العروس– الكويت ٥: ٤٩٦–٤٩٨).

(٥) الرغيبة: الأمر المرغوب فيه، العطاء الكثير.

(٦) يقال: كتب الله لنا حسن الخاتمة (الموت على الإيمان– الإسلام).

(٧) يستسقي الغمام (المطر) بوجهه: مبارك عالي المنزلة عند الله، يستجيب الله دعاءه ودعاء الذين يجعلونه وسيلتهم إلى الله.

(٨) الولوع: التعلّق، المحبّة الشديدة. بمن أهوى (أنا) أي بالله وحده. والنفوس (أي دع: اترك) النفوس (بعض النفوس) وما تقوى تلك النفوس عليه. – إذا كنت أنت لا تقوى (تقدر، تحتمل) أن تحب الله وحده فاترك أصحاب النفوس من الذين يقدرون على ذلك: أن يحبّوا الله (يتصوّفوا).

(٩) الهوان: الذلّ، أن يصبح الشيء محتقراً لا يخيف فيهجم عليه كلّ إنسان. الأجاج: الشديد الملوحة. المنّ: طلّ (الندى) يتجمّع على الأغصان ويجمد فيتحوّل مادّة حلوة تؤكل. السلوى: السمّانى (بضمّ السين) طائر مرغوب في لحمه. والشاعر يظنّ أن السلوى مادّة حلوة كالمنّ (كما لا يزال عوامّ الناس يظنون).

وتعذيبُـه للصّــبّ عــينُ نَعيمِـه. وسَعْيُ اللَواحي في السُّلوّ مِنَ العَدْوى[1]!
وليسَ بِحُرٍّ من تَعَبَّــدَه الهوى لِلَهْوِ الدُنا، فاخْتَرْ لنفسك ما تَهْوى[2]
فما الحبُّ إلّا حبُّ ذي الطَّوْلِ والغِنَـى وأملاكِهِ والأنبيا وأُولي التقوى[3].

٤- ★★ تعريف الخلف ٢: ٧-١٢؛ نيل الابتهاج ٥٤-٥٧؛ أزهار الرياض ٢: ٣٠٩-٣١٤؛ النبوغ المغربي ٣٦٧ (من الترقيم الأوّل)، ٨١٧-٨١٨؛ الطمّار ١٤٧-١٥٠.

ابن عبد المنعم الحميري

١- هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المنعم بن عبد النور الحِمْيَرِيُّ الأندلسيُّ مِنْ أهلِ سَبْتَةَ لا نَعْرِفُ من تفاصيلِ حياتِهِ شيئاً، ولَعلّ وفاتَه كانتْ بُعَيدَ سنةِ ٨٦٦ (١٤٦١-١٤٦٢ م).

٢- كان ابنُ عبدِ المُنْعِمِ الحِمْيَرِيُّ عالماً بالبُلدانِ والسِّيَرِ[4] والأخبار، وقدِ اشتهر بكتاب «الرَوْضِ المِعطار في خَبَرِ الأقطار»[5]. ونُسخة الكتابِ المعروفةُ اليومَ مُوجَزٌ صَنَعَهُ أحدُ أعْقابِهِ في جُدّةَ (بالحِجاز) نحوَ سَنَةِ ٩٠٠ (١٤٩٤-١٤٩٥ م). وقد كان القَلْقَشَنْدِيُّ (ت ٨٢١ هـ) والمِقْرِيزيُّ (ت ٨٤٥ هـ) قدْ أخذا من النسخة الأصلية للرَوْض المِعطار والتي صَنَعَها ابنُ عبدِ المنعم الحِمْيَريُّ نفسُه.

---

(١) اللواحي جمع لاحية: التي تلوم الآخرين. وسعي اللواحي (طلب العاذلات اللائمات منّي) السلوّ (نسيان محبوبي) من العدوى (من تقليدهم للآخرين الذين يلومونني بلا علم بحقيقة حبّي لله).

(٢) - الذي يحبّ إنساناً في هذه الدنيا (مفرد دنا) يكون عبداً لهواه هذا. فاختر لنفسك من تهوى (تحبّ): من يكون أهلاً للحبّ (وهو الله وحده).

(٣) الطول (بفتح الطاء): الفضل والغنى. ذو الطول والغنى هو الله. الأملاك: الملائكة.

(٤) السير (جمع سيرة): تراجم الأشخاص، والسير أيضاً: جماعات الناس. ثمّ هي الصلات بين الدول (السياسة الخارجية).

(٥) ذكر محمّد الفاسي (البحث العلمي ١: ٦٥-٦٩) ما يلي: «الروض المعطار في أخبار الأقطار لمحمّد بن محمّد الحميريّ المتوفّى سنة ٩٠٠ هـ (١٤٩٤ م)، وهو غير الحميري صاحب كتاب يحمل تقريباً نفس هذا العنوان الذي نشر بالفرنسية ما يتعلّق منه بجزيرة الأندلس ليفي بروفنصال.....»

والفَصْلُ في أمرِ « الرَوْضِ المِعطار » ليسَ سهلاً. وفي « دائرةِ المعارف الإسلامية » (٣: ٦٧٥ - ٦٧٦) مُناقشةٌ مفصّلةٌ لتحقيق عُنوانِ الكِتاب وزَمَنه ونَسْخه. وقد قام ليفي بروفنصال بنشرِ مُختاراتٍ من « الروض المعطار » تتعلّقُ بالأندلس. وجاء في تاريخ الفكر الأندلسي » (ص ٣١١ - ٣١٢) هذا المقطعُ المفيد:

« ومَوادُّ هذا الجزءِ المنشورِ عن الأندلس مرتّبةٌ ترتيباً أبْجَدِيًّا. وهُوَ يَضُمّ مُعْظَمَ الأعلامِ الجُغرافية الهامّة التي يَرِدُ ذِكْرها في كتب الأندلسيين. وقد حَرَصَ الحِمْيَري على أن يُورِدَ ما آتّصل بعِلْمِهِ من أطرافِ التاريخ عن المَوْضع الذي يتكلّم عنه. وأكثَرُ هذه المادّةِ التاريخيةِ يتعلّقُ بعصر المُوحّدين الذي سَقَطَتْ خِلالَه مُعْظَمُ حواضرِ الأندلسِ الكبيرةِ في أيدي النصارى. والحِمْيَريُّ يُعْنى بتفصيل ذلك على نحوٍ فريدٍ وفي أسلوبٍ عربيٍّ رصينٍ ممّا يجعَلُ لهذا الكتابِ أهميةً كبيرةً للمُؤرِّخ والجُغرافي على السَّواء ».

٣- مختارات من آثاره

- من مقدمة كتاب « الروض المعطار »:

.... وبعدُ فإني قصدْتُ في هذا المجموع ذكرَ المواضعِ المشهودة عند الناس من العربية والعجمية[١]، والأصقاعِ التي تعلّقتْ بها قصةٌ أو كان في ذِكرِها فائدةٌ، أو كلامٌ فيه حِكمة أو خبرٌ لها ظريفٌ أو معنًى يُسْتَمْلَحُ أو يُستغرب ويحسُنُ إيراده. أما ما كان غريباً عند الناس- ولم يتعلّقْ بذكره فائدة، ولا له خبرٌ يحسُنُ إيراده- فلا أُلِمُّ[٢] بذكره ولا أتعرّضُ له غالباً آستغناءً عنه وآستثقالاً لذكره. ولو ذهبتُ إلى إيراد المواضِعِ والبقاعِ على الآستقصاءِ لَطالَ الكتابُ وقلّ إمتاعُه[٣]. فآقتصرتُ لذلك على المشهورِ من البِقاع وما في ذكره فائدةٌ ونكتفي عمّا سوى ذلك (!).

ورتّبتُه على حروف المُعْجَم لِما في ذلك من الإحماض[٤] (!) المرغوب فيه ولِمَا فيه

(١) من اللغة العربية واللغة الأعجمية (الأجنبية: الإسبانية).

(٢) لا ألمّ بذكره: لا أذكره. ألمّ بالشيء: مرّ به مرًّا خفيفاً.

(٣) الآستقصاء: الآستنفاد (محاولة ذكر كلّ شيء يتعلقّ بموضوع ما). الإمتاع: السرّور.

(٤) الإحماض (في الأصل): أن تأكل الإبل نبتاً حامضاً (بعد أن تكون قد آمتلأت بطونها من العشب العاديّ). والإحماض أيضاً: تناول المتحدّثين بعض أحاديث الهزل. والمقصود هنا: التنقل بين أشياءَ متباعدة (فلا تملّ النفس من مطالعة موضوعات متقاربة المعاني).

من سُرعة هجوم الطالبِ على آسم الموضع الخاصّ من غير تكلُّفِ عَناءٍ[١] ولا تجشُّمِ تعبٍ[٢]. فقد صار هذا الكتاب محتوياً على فنّيْنِ مختلفَيْنِ: أحدُهما ذكرُ الأقطار والجهات وما اشتملتْ عليه من النُّعوت والصِّفات؛ وثانيهما الأخبار والوقائع والمعاني المختلفة بها الصادرة عن مجتليها[٣]. وآختلستُ (في) ذلك ساعاتِ زماني وجعلتُه فُكاهةَ نفسي. وأنْصبتُ فيه فِكري وبدني ورُضْتُه[٤] حتى آنقاد للعمل وجاء حَسْبَ الأصل فأصبح طارداً للهموم مُلقياً للغُموم وشاهداً بقُدرة القيّوم[٥] مُغنياً عن مُؤانسة الصَحْبِ مُنبِّهاً على حكمة الربّ باعثاً على الآعتبار مُستحضراً لخصائص الأقطار، مُشيراً لآثار الأُمم وأحداثها مشيراً[٦] إلى وقائع الأخبار وأنبائها.....

وجعلتُ الإيجازَ في هذا الكتابِ قصدِيَ وحَرَصتُ على الآختصار جُهديَ حتى جاءَ نسيجَ وحدِهِ مَليحاً في فنّه، غريباً في معناه مُبهجاً للنفوس المتشوّقة ومُذهباً للأفكار المحرقة[٧]، مُؤنساً لمَنِ آستولى عليه الآنفرادُ ورَغِبَ عن مُعاشرة الناسِ. ومَعَ هذا فقد لُمْتُ نفسي على التَّشاغُل بهذا الوضعِ الصادِّ[٨] عن الآشتغال بما لا يُغني عن أمر الآخرة والمُهِمِّ عن العلم المُزْلِفِ[٩] عند الله تعالى. وقلتُ: هذا شأنُ البطّالين وشُغل مَنْ لا يَهُمّه وقتُه. ثم رأيتُ ذلك من قَبيلِ ما فيه ترويحٌ لهذه النفوس ومن حُسنِ تعليلها بالمُباح لمن ينشَطُ إلى ما هِيَ به أعْنى[١٠]. ثم هو مَهْيَعٌ[١١] يَسْلُكه الناسُ، وآعتنى به طائفةٌ من العلماء وقيّده جماعةٌ من أهل التحصيل، فلا حَرَجَ[١٢] من الاقتداء بهم.....

---

(١) العناء التعب. تكلّف عناء: بذل جُهداً (بالضمّ).
(٢) تجشّم الأمر: تكلّفه (حاول القيام به). تجشّمُ تعبٍ: مُعاناة مشقّة وعُسر.
(٣) مجتلب الشيء: الذي يأتي بالشيء من مصدره.
(٤) راض فلان الأمر: مارسه وذلّله.
(٥) القيّوم (من أسماء الله الحسنى).
(٦) «مشيراً» وردت مرّتين. لعلّ الأولى «مثيراً» (بالثاء: كاشفاً). مشيراً (الثانية): دالّاً.
(٧) المحرقة (؟)، لعلها: المُحرَّفة.
(٨) الصادّ: الرادّ، الرادع، المانع.
(٩) والمهمّ (الضروري؟). المزلف: المقرّب.
(١٠) أعنى: أكثر عناية (آهتماماً وآشتغالاً) بالشيء.
(١١) المهيع: الطريق الواضح.
(١٢) لا حرج: لا ضيق، لا ضرر.

- الاستعداد لمعركة الزلّاقة[١].

قال عبد المنعم الحميري في «الروض المعطار» (نفح الطيب ٤ : ٣٦٢):

فلمّا عَبَرَ يوسفُ وجميعُ جيوشِهِ إلى الجزيرة الخضراء انزعج[٢] إلى أشبيلية على أحسنِ الهَيْئات: جيشاً بعدَ جيشٍ، وأميراً بعد أميرٍ، وقبيلاً بعد قبيل[٣]. وبَعَثَ المُعتمدُ ابنَه إلى لِقاءِ يوسفَ، وأمر عُمّالَ البلادِ بِجَلْبِ الأقواتِ والضِّيافات. ورأى يوسفُ من ذلك ما سرّه ونَشّطَه. وتواردتِ الجيوشُ مَعَ أُمرائِها على إشْبيلِيَةَ. وخَرَجَ المُعتمدُ إلى لِقاء يوسفَ من إشبيلية في مِائَةِ فارسٍ ووُجوهِ أصحابِه. فلمّا أتى مَحَلَّةَ يوسفَ رَكَضَ نحوَ القومِ، وركضوا نحوَهُ. فَبَرَزَ إليه يوسفُ وحدَه، والْتَقَيَا مُنْفَرِدَيْنِ وتصافَحا وتعانقا، وأظْهَرَ كلٌّ منهما لِصاحبِهِ المَوَدّةَ والخُلوص[٤]، وشَكَرا نِعَمَ اللهِ تعالى وتواصَيَا بالصَّبْرِ والرحمة وبَشّرا أنْفُسَهما بما اسْتَقْبَلاه من غَزْوِ أهلِ الكُفْرِ، وتضرّعا إلى الله تعالى في أن يجعَلَ ذلك خالِصاً لوجهِهِ مُقَرِّباً إليه، وافترقا.....

وكان الأذفونش[٥] لمّا تحقّقَ الحَرَكةَ والحَرْب اسْتَنفَرَ جميعَ أهلِ بِلادِه وما يَليها وما وراءَها. ورَفَعَ القِسّيسونَ والرُّهبانُ والأساقِفَةُ صُلْبانَهُمْ ونَشَروا أناجيلَهُم. فاجتمعَ إليه من الجَلالِقَةِ والإفْرنجة[٦] ما لا يُحصى، وجواسيسُ كلِّ فريقٍ تتردّدُ بينَ الجميع. وبَعَثَ الأذفونشُ إلى ابنِ عبّادٍ أنّ صاحِبَكُمْ يوسفَ قد تَعَنّى[٧] من بِلادِهِ وخاضَ البُحورَ، وأنا أكْفِيكَ العَناءَ فيما بَقِيَ ولا أُكَلِّفُكُمْ تَعَباً: أمْضي وألْقاكم في بِلادِكم رِفْقاً بِكُمْ وتَوْفيراً عليكم[٩].

---

(١) راجع، فوق، ٥: ٣٣.

(٢) الجزيرة الخضراء في جنوبي الأندلس. انزعج: انتقل.

(٣) القبيل: القوم تجمعهم قرابة. (كان كلّ جيش من الجيوش - أو كلّ قسم من الجيش الواحد - يتألّف من جنود ينتمون إلى قبيلة واحدة أو إلى قبائل متقاربة في النسب).

(٤) الخلوص: الصفاء.

(٥) الأذفونش لقب ملوك قشطالة. والأذفونش المقصود هنا هو الفونس (ألفونسو) السادس ملك ليونة (١٠٦٥ م) وقشطالة (منذ ١٠٧٢ م) وكانت هزيمته في معركة الزلّاقة سنة ١٠٨٦ م (٤٧٩ للهجرة).

(٦) الجلالقة أهل جلّيقية (الشمال الغربي من إسبانية. الإفرنجة (سكّان غالة: فرنسة اليوم).

(٧) تعنّي: تعب، تكلّف القيام بأمر فيه مشقّة. العناء: التعب.

(٨) في هذه الجمل تهكّم.

وقال (الأذفونش) لِخاصّتهِ وأهلِ مَشُورَتِه: إنّي رأيتُ أنّي إن مَكّنْتُهُمْ من الدُّخولِ إلى بِلادي فناجَزوني فيها وبينَ جُدُرِها - وربّما كانتِ الدائرةُ عليّ[1] - يَسْتَحْكمون البلادَ ويَحْصُدون مَنْ فيها غداة واحدة[2]. ولكن أجعَلْ يومَهم معي في حَوْزِ بِلادِهم[3] ......

ثمّ بَرَزَ بالُمختارِ من جُنودِه وأنْجادِ جُموعه على باب دَرْبِه[4]، وتَرَكَ بقيّةَ جموعه خَلْفَه، وقال - حينَ نَظَرَ إلى ما اختارَه مِنهُم - بِهؤلاءِ أُقاتلُ الجنّ والإنْسَ وملائكةَ السماء. فالُمقَلِّلُ يقولُ: الُمختارون أربعونَ ألفَ دارعٍ[5]، ولِكُلٍّ واحدٍ أتباعٌ. وأمّا النصارى فَيَعْجَبون مِمّن يزعُمُ ذلك ويَرَوْنَ أنّهم أكثرُ من ذلك كلّهِ. واتّفق الكُلّ (على) أنّ عددَ الُمسلمينَ أقلُّ من الكَفَرة.......

٤- صفة جزيرة الأندلس (منتخبة من كتاب «الروض المعطار» - عني بنشرها إ. لافي بروفنصال - وقف على طبعه محمّد فؤاد عبد الباقي)، القاهرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٣٧ م؛ بيروت (الشركة المتحدة للتوزيع) ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م.

★★ نفح الطيب ٤: ٣٥٤ وما بعد، ٣٥٧ وما بعد، ٣٦٠، ٣٦٣ وما بعد، ٣٦٨ وما بعد، دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٦٧٥ - ٦٧٦؛ بروكلمن ٢: ٥٠، الملحق ٢: ٣٨، ٣: ١٢٧٩؛ الأعلام للزركلي ٧: ٢٨١ (٥٣)؛ بالنثيا ٣١١ - ٣١٢.

الجزولي(★) السِّمْلاليّ

١- هو أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ سليمانَ (أو ابن عبد الرحمن) بن أبي بكرٍ الجَزوليُّ

---

(١) ناجزوني: قاتلوني، حاربوني. الجدر (بضمّ فضمّ) جمع جدر (بالكسر): الحائط. كانت الدائرة عليّ: انهزمت، هلكت.

(٢) «استحكم» ليست هنا في مكانها (المقصود: تحكّم في البلاد: سيطر فيها). غداة واحدة = في غداة واحدة (في وقت قصير).

(٣) الحوز: قطعة من الأرض يحوزها (يملكها ويسوّرها) أهل مدينة فتكون خالصة لهم.

(٤) الأنجاد جمع نجد (بفتح فكسر أو بفتح فضمّ): الرجل الشجاع، والذي يمضي في ما لا يستطيعه غيره. الدرب (هنا): كل طريق يؤدّي إلى ظاهر (خارج) البلد.

(٥) الدارع: اللابس الدرع.

(★) الجزولي (بفتح الجيم أو بضمّها) نسبة إلى قبيلة جزولة (بجيم فارسية).

السِّمْلاليّ (من قبيلة سِمْلالةَ أحدِ فروع جَزولةَ) وهو من أهلِ (سِلسلة جبالِ) السوسِ الأقصى المَرّاكُشية (في جَنوبيّ المَغْرب).

وُلِدَ الجزوليُّ السّملاليّ سَنَةَ ٨٠٧ للهجرة (١٤٠٤-١٤٠٥ م). ويبدو أنّه غادر مَوْطِنَهُ في مطلعِ حياتهِ، بعدَ حادثةٍ محلّيّةٍ أقرّ فيها على نفسهِ بقتل مواطنٍ حتّى يُمْكِنَ الإصلاحُ بينَ أهلِ القتيل وأهلِ القاتل على عادةِ أهلِ البلد (راجع نيل الابتهاج ٣١٧ س). فخَرَجَ إلى طَنْجةَ. ثمّ رَجَعَ إلى فاس وتلقّى فيها شيئاً من العلم، ودوّن فيها «دَلائل الخَيْراتِ». وفيها أيضاً لَقِيَه الشيخُ زرّوق[1]. ثمّ إنّه عاد إلى الساحل (إلى طنجة؟) ولَقِيَ هناك «أوحَدَ وقتهِ أبا عبدِ الله أمغارَ الصغيرَ» وأخذ عنه.

ويُقال إنّه رَحَلَ إلى المشرق، بعدَ تَطوُّفِه في المغرب، وقَضَى مُدّةً في الحِجاز. وبعدَ رُجوعه من المشرق- فيما قيل- دَخَلَ في الطريقة الشاذلية ثمّ آعتزل مُعْتَكِفاً وآنقطعَ في الخَلوةِ (في فاس) أربعَ عَشْرَةَ سَنَةً.

وكانتْ وفاةُ الجزوليِّ السِّملاليِّ- فيما قيلَ- مسموماً، في مكانٍ آسمُه آفغالُ (أو أفوغال)، في السادسَ عَشَرَ من ربيعِ الأوّلِ من سَنَةِ ٨٧٠ للهجرة (١٤٦٤/٨/٩ م). وبعدَ سَبْعِ سَنَواتٍ نُقِلَتْ جُثّتُه إلى مدينة مَرّاكُش[2] في الأغلب.

٢- الجزوليُّ السِّمْلاليّ فقيهٌ صوفيّ مشهورٌ ومن ذوي المكانةِ الذين بَلَغوا في التصوّف مرتبةً عاليةً، جاء في «نيل الابتهاج» (ص٣١٧): «العالمُ العارفُ الوليُّ الصالحُ القُطْبُ... نُخبةُ الدهر ووَحيدُ العصر، مُحيي الطريقةِ (الصوفية) بالمغرب بعدَ دَرْسِها و(كاشف) شمس الحقيقة عند طَمْسها». وهو مصنّفٌ، له: دلائلُ الخَيْرات وشوارق الأنوار في ذكرِ الصلاةِ على النبيّ المختار - حِزْبُ الفلاح[3]- العُجالة في

---

(١) هو أبو العبّاس أحمدُ بنُ أحمد بنِ محمّد بن عيسى البَرنسي الفاسيّ المعروف بزرّوق، فقيه ومحدّث وصوفي. ساح في المغرب ورحل إلى المشرق وزار مصر والحجاز. له مصنّفات في الفِقه وفي التصوّف. كانتْ وفاتُه سنة ٨٩٩ (١٤٩٣-١٤٩٤ م) في تكرين (من قرى مسراته) من أعمال طرابلس (ليبيا).

(٢) نقلت جثّته إلى مراكش بعد سبع سنوات من موته؛ وفي نيل الابتهاج بعد سبع وسبعين سنة، ووجدت سليمة لم تتغيّر!

(٣) «دلائل الخيرات» تعبير أطلق فيما بعد على مجموع معيّن من الأدعية تقال في عقب الصلوات أو في فترات من التهجّد والعبادة (ألّفه في فاس). الحزب في الأصل ربع جزء من القرآن الكريم (والقرآن =

القِراءات – رسالة.

٣- مختارات من آثاره

- من دلائل الخيرات للجَزوليِّ السِّمْلاليّ:

.... أفضلُ صَلَواتِ[★] اللهِ وأحسنُ صَلَواتِ الله وأجمل صلوات الله وأكملُ صلوات الله وأسبغ[١] صلوات الله وأتمّ صلوات الله وأظهَرُ صلوات الله وأعظم صلوات الله وأزكى[٢] صلوات الله وأطيبُ صلوات الله وأبرك صلوات الله وأوفى صلوات الله وأسنى[٣] صلوات الله وأعلى صلوات الله وأكثرُ صلوات الله وأجمع صلوات الله وأعمّ صلوات الله وأدْوَمُ صلوات الله وأبقى صلوات الله وأعزُّ صلوات الله وأرفع صلوات الله على أفضلِ خلقِ اللهِ وأحسن خلقِ اللهِ وأجلِّ خلقِ اللهِ وأكرمِ خلق الله وأجملِ خلق الله وأكملِ خلق الله وأعظم خلق الله عندَ اللهِ: رسولِ اللهِ ونبيِّ الله وحبيبِ الله وصفيِّ الله ونَجيِّ[٥] الله وخليل الله ووَليّ الله وأمين الله وخِيرَةِ[٦] الله من خَلْقِ الله، ونُخْبةِ الله من

= الكريم ثلاثون جزءاً)، ويطلق على مقدار من القراءة والأدعية يأخذ المسلم نفسه بقراءته في أوقات معيّنة.

(★) يحسن أن ندرك أن في هذا الدعاء أشياءَ. أولى هذه الأشياء أنّ الجزوليّ السملالي يريد أن يجمع في دعائه هذا كلّ أنواع المديح في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم – ورسول الله أهل لكلّ هذا المديح ولأكثر منه أيضاً. ثمّ إنّ الجزوليّ هذا لا يلقي بالاً كبيراً للصفات التي يضيفها إلى الأسماء: أفضل صلوات الله وأجمل.... وأحسن... وأعلى.... وأرفع صلوات الله، إلخ. الغاية الأساسيّة جمع هذه الصفات في سلك طويل من غير تفريق في خصائصها (ظلال معانيها). ثمّ هنالك شيء أدعى إلى الملاحظة (مع العلم بأن النصّ هنا مختارات)، هو أن ترتيب الصفات المضافة إلى الصلوات (أفضل صلوات الله وأحسن صلوات الله تجري على ترتيب واحد مع الصفات التي سيخلعها الجزوليّ السملالي على الرسول (على أفضل خلق الله وأحسن خلق الله، إلخ).

(١) أسبغ: أوسع وأكثر شمولاً.

(٣) أظهر: أبين، أوضح؛ أقوى. أزكى: أظهر.

(٣) أسنى: أعلى؛ أضوأ (أكثر ضوءاً أو نوراً). أوفى: أتمّ وأكمل.

(٤) أعزّ: أقوى؛ أندر؛ أحبّ.

(٥) الصفيّ: الذي تجعله صديقاً خالصاً لك دون سواه. والنجيّ: الذي تسارّه (تطلعه على أسرارك دون غيره).

(٦) الخليل: الصديق المخالل (الذي يعرف دخائل أمورك). الوليّ: الذي يتولّى أمورك ويكون كلّ اعتمادك في كلّ شيء عليه. خيرة الله (الذي اختاره الله).

بَرِيّة[1] الله، وصفوة الله من أنبياء الله، وعُرْوة[2] الله وعِصْمة الله ونعمة الله ومِفتاح رحمة الله، المختار من رُسُلِ الله، المُنتخب من خلق الله، الفائز بالمَطْلب في المَرْهَب والمَرْغب، المُخلَص فيما وُهِب[3]، أكرم مبعوثٍ، أصدق قائل، أنجح شافع، أفضل مُشَفَّعٍ، الأمينِ فيما آستُودِعَ، الصادق فيما بلّغ، الصادع بأمر ربّه، المُضْطَلع بما حُمّل[4]، أقربِ رسلِ الله إلى الله وسيلةً وأعظمِهم غداً[5] عند الله مَنزلةً وفضيلةً، وأكرمِ أنبياءِ الله الكرامِ الصَّفْوةِ على الله[6]، وأحبِّهم إلى الله وأقربهم زُلْفى[7] إلى الله، وأكرمِ الخلقِ على الله وأحْظاهم[8] وأرْضاهم لدى اللهِ، وأعلى الناسِ قَدْراً وأعظمِهم مَحَلّاً وأكرمِهم محاسنَ وفضلاً، وأفضل الأنبياءِ دَرَجَةً وأكملهم شريعةً، وأشرفِ الأنبياء نصاباً وأبْيَنِهم خِطاباً[9] وأفضلهم مَوْلِداً ومُهاجَراً وعِترة[10] وأصحاباً، وأكرمِ الناس أُرومةً وأشرفهم جُرثومةً[11]، وخَيْرِهِمْ نفساً وأطهرهم قَلْباً وأصدقهم قولاً وأزكاهم فِعلاً وأثبتهم أصْلاً[12] وأوفاهم عهداً وأمكنهم مَجْداً وأكرمهم طبعاً وأحسنِهم صُنْعاً وأطيبهم فَرْعاً[13] وأكثرهم سَمْعاً وطاعةً[14] وأعلاهُم مَقاماً وأحلاهم كلاماً وأزكاهُم

---

(١) البريّة: الخلق (بالفتح)، مجموع البشر.
(٢) العروة: ما يمسك به الإنسان (ليستعين به على الثبات في موقفه). العصمة: الحماية ما يلجأ إليه الإنسان (ليدفع عنه خطراً ما).
(٣) المرهب: الأشياء التي يرهب (يخاف) الإنسان منها. والمرغب: المراد (بالضمّ) أو ما يريد الإنسان أن يحصل عليه. المخلص فيما وهب (أعطي): الذي خصّه الله بما أعطاه دون غيره (من الرسل).
(٤) الصادع: الذي يعلن الأمر ويجهر به (من غير تردّد أو خوف). المضطلع (القدير في القيام بالأمور) بما حمّل (من الرسالة إلى جميع البشر).
(٥) غداً (يوم القيامة).
(٦) وأكرم على الله (أعزّ وأرفع مكانة) عند الله من جميع الأنبياء (الذين هم أيضاً ذوو مكانة عند الله، والذين هم الصفوة المختارون من سائر الناس).
(٧) أقربهم زلفى إلى الله: أكثرهم أثراً في الزلفى (التقرّب) بجاههم إلى الله.
(٨) أحظاهم: أقربهم منزلة.
(٩) النصاب: الأصل، قوم الرجل. أبينهم: أوضحهم.
(١٠) المهاجر: المكان الذي يهاجر الإنسان إليه. العِترة: عشيرة الرجل وقومه.
(١١) الأُرومة والجُرثومة: الأصل الذي ينتمي الإنسان إليه من النسب.
(١٢) أزكاهم (أطهرهم) فعلاً: خيرهم أعمالاً. أثبتهم أصلاً (لا اختلاف في سرد نسبه).
(١٣) أمكنهم: أثبتهم. الفرع: النسب القريب (في مقابل الأرومة والجرثومة: الأصل البعيد).
(١٤) أكثرهم سمعاً (لقول الله) وطاعة (لله).

سَلاماً وأجلّهم قَدْراً وأعظَمِهم فخراً وأسناهُم نوراً [1] وأرفَعِهم في المَلَإِ الأعلى [2] ذِكراً وأصدقهم وعداً وأكثرهم شُكْراً وأعلاهُم أمراً وأجمَلِهِمْ صبراً وأحسنهم خَيْراً وأقربهم يُسْراً وأبعدِهِم مَكاناً [3] وأعظمهم شأناً وأثبتهم بُرهاناً وأرجَحِهم ميزاناً وأوّلهم إيماناً وأوضحِهم بَياناً وأفصحِهم لساناً وأظهَرِهم بُرهاناً [4]...

٤- دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في الصلاة على النبيّ المختار، بطرسبورج ١٨٤٢ م (١٢٥٢ هـ)؛ فاس بلا تاريخ[5]؛ القاهرة (مطبعة المدارس بالأزبكيّة) ١٢٥٦ هـ؛ القاهرة (مطبعة كاستلليّ) ١٢٧٧ هـ؛ القاهرة ١٢٨١، ١٢٨٧ هـ؛ القاهرة (مطبعة الطوخي) ١٢٨٩ هـ؛ القاهرة (مطبعة أبي زيد) ١٢٨٩، ١٢٩١، ١٢٩٤، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٣٠٤، ١٣٠٥ هـ؛ القاهرة ١٣٠٧، ١٣٠٨ هـ، إلخ؛ القاهرة (مطبعة البابي الحلبي) ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م)؛ استانبول ١٢٦٤، ١٢٧٣، ١٢٧٥، ١٢٩٣، ١٣٠١، ١٣١٤ هـ؛ وطبعت في الهند: دهلي ١٢٨٩، ١٣٠٢، ١٣١١ هـ؛ بومباي (مع ترجمة بين السطور بالسنديّة) ١٢٩٤ هـ؛ تلتشري (مع ترجمة بين السطور بالفارسيّة والهندستانية ومع زيادة في الأدعية لمولانا حفاظت حسين) ١٢٩٦ هـ؛ كاونبور ١٢٩٨، ١٣٠٣، ١٣٠٤ هـ؛ لاهور (مع ترجمة بين السطور بالهندستانيّة) ١٣٠٢ هـ؛ لاهور (مع ترجمة بين السطور بالهندستانية لغلام أحمد) ١٣١٧ هـ. مدراس (مع ترجمة بين السطور بلغة التاميل: «نوافل البركات» لمحمّد عبد الرحمن قادر مِرام) ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ)؛ الجزائر ١٣٢٢ هـ.

شروح على «دلائل الخيرات»:

- مطالع المسرّات، لأحمد بن عليّ بن محمّد المهدي الفاسيّ (ت ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٣ م)، القاهرة ١٢٧٨، ١٣٠١، ١٣٠٩ هـ. ١٣٢٧ هـ؛
- شرح، للعدويّ الحمزاوي (ت ١٢٠٤ هـ = ١٧٨٩ م)، القاهرة ١٢٨٩ هـ.
- الأنوار اللامعات شرح دلائل الخيرات، لعبد الرحمن بن محمّد الفاسي (ت ١٠٣١ هـ = ١٦٢٢ م)، فاس ١٣١٧ هـ.

★★- ممتع الأسماع في ذكر (او: بمناقب) الشيخ الجزوليّ والتّبّاع (بفتح التاء) وما لهما من

---

(١) أجلّهم (أعظمهم) قدراً (مكانة). أسناهم (أضوأهم، أسطعهم، أشدهم).

(٢) الملأ الأعلى (العالم الروحاني): لدى الله.

(٣) أقربهم يسرا: أكثرهم تحقيقاً لتيسير الأمور (على الوصول إلى صالح الأعمال وإلى الثواب عليها) وأبعدهم مكاناً (عن أن يصل إلى مرتبته ومقامه أحد).

(٤) البرهان: (النور القويّ الذي يظهر حقائق الأشياء) والدليل (الذي يثبت الأمور على ما يجب أن تثبت الأمورُ عليه).

(٥) يبدو أن جميع هذه الطبعات طبع حجر. ثمّ إنّه طبع بعد ذلك بالحروف وفي أماكن عديدة.

الأتباع، لأبي عبد الله محمّد المهديّ الفاسي[1]، فاس ١٣٠٥، ١٣١٣ هـ.
- الدلالات الواضحات: حاشية مختصرة على دلائل الخيرات، ليوسف بن إسماعيل النبهاني[2]، الطبعة الثانية، القاهرة (البابي) ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م).

نيل الابتهاج ٣١٧ (طبعة فاس ٣٣٩)؛ دائرة المعارف الإسلامية ٢: ٥٢٧-٥٢٨؛ بروكلمن ٢: ٣٢٧-٣٢٨، الملحق ٢: ٣٥٩-٣٦٠؛ الأعلام للزركلي ٧: ٢١ (٦: ١٥١)؛ معجم المؤلّفين ١٠: ٥٢؛ (١١: ١١٨، ترجمة مكرورة)؛ النبوغ المغربي ٣٦٥؛ سركيس ٦٩٧.

القاضي ابن الأزرق

- هو قاضي القُضاةِ شمسُ الدين أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ علّيٍّ بنِ محمّدِ بنِ أحمدَ بنِ القاسمِ بنِ الأزرقِ الأصبحيُّ الغَرْناطيُّ من أهلِ وادي آشَ، وُلِدَ سَنَةَ ٨٣٢ (١٤٢٨-١٤٢٩ م). تَلقّى ابنُ الأزرقِ العِلمَ في غَرناطةَ: لازمَ الأستاذَ إبراهيمَ بنَ أحمدَ بنِ فَتّوحٍ مُفتي غَرناطةَ وأخذَ عنه أُصولَ الدين وأصولَ الفقه والنَّحْوَ والمَنْطِقَ، وحَضَرَ مجالسَ أبي عبدِ الله محمّدِ بنِ محمّدِ السَّرَقُسْطيِّ- مفتي غَرْناطةَ أيضاً- في الفِقهِ وحضَرَ مجالسَ قاضيَ الجماعةِ أبي العباسِ أحمدَ بنِ أبي يحيى بنِ شَرَفٍ التِّلِمْسانيّ.

وتولّى ابنُ الأزرقِ القضاءَ في غَرنَاطة، ولكنْ لمّا اشتدّ ضَغْطُ النصارى الإسبانِ على غَرْناطةَ غادَرَها إلى تِلِمْسانَ ثمّ إلى مِصْرَ ثمّ إلى الحِجازِ فَحَجَّ ثم عاد إلى مِصْرَ؛ كلُّ ذلـك في سبيـلِ الاستنجاد بمُلوكِ المُسلمين، وأبرزُهُم يومَذاك السلطانُ قايتباي (٨٧٢-٩٠١ هـ) من أُسرة المماليكِ البُرْجية في مِصْرَ، ولكنّ دَعْوَتَه لم تُثْمر.

وأحبّ قايتباي أن يستفيدَ من عِلمِ ابنِ الأزرقِ ونزاهتهِ فعَيّنه في مَنْصِبِ قاضي القُضاة في القُدْسِ. ووَصَلَ ابنُ الأزرقِ إلى القدسِ في سادِسَ عَشَرَ شَوّالٍ من سَنَةِ

(١) هو أبو عبد الله محمّد المهدّي بن أحمد بن يوسف (من أتباع الجزولي السملالي)، ولد سنة ١٠٣٣ هـ (١٦٢٤ م) وتوفيّ ١١٠٩ هـ (١٦٩٨ م)- (بروكلمن، الملحق ٢: ٧٠٣، راجع ٣٥٩؛ سركيس ١٤٢٨).

(٢) يوسف بن إسماعيل النبهاني، ولد سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) وتوفّي سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٣٢ م): أديب وشاعر وفقيه متشدّد، ألّف عدداً كبيراً من الكتب أكثرها في الأمور الإسلامية مع حملة شديدة على الذين يخالفونه في تشدّده (راجع الأعلام للزركلي ٩: ٢٨٩ = ٨: ٢١٨).

٨٩٦ (١٤٩١/٨/٢١ م)، ولكنّه تُوفِيّ وشيكاً في سابعَ عَشَرَ ذي الحجة من سَنَةِ ٨٩٦ (١٤٩١/١٠/٢٠ م).

وفي ثاني ربيعٍ الأوّلِ من سَنَةِ ٨٩٧ (١٤٩٢/١/٣ م) استولى النصارى على الحمراءِ (نفح الطيب ٤: ٥٢٥) وانتهى الحكمُ السياسيُّ للمُسلمين في الأندلس.

٢- كان القاضي ابنُ الأزرقِ فَقيهاً وباحثاً مُتَفَنِّناً غَلَب عليه النظرُ في العُمْران البشريّ، فقد توفّرَ في كِتابَيْهِ: «الإبريزِ المسبوكِ في كيفية آداب الملوك» (نحو ٨٨٣ هـ) و«بدائعِ السِّلْك في طبائع المُلك (بدائع السلوك في نظام الملوك)» على تَلْخيص عددٍ من الآراء في مقدمة ابن خلدون أو مُحاكاتها. ولابنِ الأزرقِ من الكتب أيضاً: روضةُ الإعلامِ بمنزلةِ اللغة العربية من علوم الإسلام- شفاءُ الغَليل في شرحِ مُختصرِ خَليل[1]- فَتاوى.

وكان لابنِ الأزرقِ نَظْمٌ من شعر العُلماء أكثره مُقَطّعاتٌ مَبْنيَّةٌ على التَوْرية (كلمةٍ لها مَعْنيان أحدُهما قريبٌ مألوفٌ وثانيهما بعيدٌ ملموح). ويُنْسَبُ إليه قصيدةٌ طويلةٌ في سِتّةٍ وتِسعينَ بيتاً في الهَزْل والسُّخْفِ وبعض المُجون (نفح الطيب ٣: ٢٩٨ - ٣٠٣)، ولَعلّها بعيدةٌ عن مَنْهَجِه. من هذهِ القصيدةِ:

لا أَمَّ لي، لا أَمَّ لي ... إن لم أُبرِّدْ شَجَني[2]
وأَخْلَعَنَّ في المُجو ... نِ والتصابي رَسَني[3].
أَفْدي صديقاً كان لي ... بنفسِه يُسْعِدني:
فتارةً أَنْصَحُه، ... وتارةً يَنْصَحُني،
وتارةً أَلْعَنُه، ... وتارةً يَلْعنني.
ورُبَّما أَصْفَعُه، ... وربّما يَصْفَعُني....

---

(١) للشيخ خليل: بن إسحاق (ت ٧٧٦) كتاب في الفقه المالكي اسمه «المختصر» مشهور جدًّا.

(٢) لا أمّ لي أو لا أب لي تعبير معناه: لست على حقّ، أو لست مستحقًّا للكرامة (إن لم أفعل كذا وكذا).

(٣) المجون: الكلام المكشوف والأعمال المخجلة إذا مارسها صاحبها جهاراً. التصابي: فعل أفعال الصبا بعد ذهاب زمنها (بتقدم السن). خلع الرسن: انغمس في الأعمال السيئة بلا مبالاة.

٣- مختارات من آثاره

- قال ابنُ الأزرق في إيجازِ شيءٍ من قولِ ابن خلدون في أهل العصبية:

.... ولا يَصْدُقُ ذلك إلّا إذا كانوا ذَوِي عَصَبِيّةٍ وأهلَ تَشَيُّعٍ واحدٍ. وحينئذٍ تشتدّ شوكتُهم ويُخْشى جانبُهم لِما جُبِلَ في القلوبِ من الشَّفَقَة والنُّعْرةِ على ذَوِي الرَّحِمِ والقَرابة. ومِنْ ثَمّ قال إخْوَةُ يوسفَ عليهِ السلامُ: ﴿لَئِنْ أكَلَه الذِّئْبُ ونحنُ عُصبةٌ إنّا إذاً لَخَاسرون﴾[١]. والمُفْتَرقونَ في النَّسَبِ قَلّ أنْ يَجِدَ أحدٌ منهم نُعْرةً على صاحِبِهِ يومَ الكِفاحِ على حدّ ما هِيَ مِنْ ذَوِي الأرحامِ، فلا يَقْدِرونَ لذلك على سُكنى القَفْرِ[٢]، وإلّا كانوا فَريسةً لِمَنْ سِواهُمْ.....

- ومن آرائه في التربية والتعليم (من كتاب بدائع السلك أيضاً):

ولقد كان شيخُنا[٣] العلّامةُ أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ أحمدَ بن فتّوحٍ قدّس اللهُ تعالى روحَه يَفْسَحُ لِصاحبِ البَحْثِ مَجالاً رَحْباً وبوسع المُراجِعَ له قَبولاً ورُحْباً[٤]، بل يُطالبُ بذلك ويَقْتضيهِ ويختارُ طَريقَ التعليمَ ويرتَضيه تَوْقيفاً على ما خَلَصَ له تحقيقُه ووَضَحَ له في مِعيارِ[٥] الاختبارِ تدقيقُهُ. وإلاّ فقد كان ما يُلقيه غايةَ ما يَتَحَصّلُ ويَتَمَهّدُ به مُختارُ ما يُحْفَظُ ويَتأصّلُ[٦].....

ومُخالفةُ التِلميذِ الشيخَ في بعضِ المسائل- إذا كان لها وجهٌ وعليها دليلٌ قائمٌ يَقبَلُه غيرُ الشيخِ من العُلماء- ليسَ من سوءِ أدبِ التِّلميذِ مَعَ الشيخِ، ولكن[٧] مَعَ ملازمةِ التَوْقير الدائمِ والإجلالِ المُلائم. فقد خالَفَ ابنُ عبّاسٍ عُمَرَ وعَلِيًّا وزيدَ بنَ ثابتٍ[٨]

---

(١) القرآن الكريم ١٢: ١٤ يوسف.

(٢) يرى ابن خلدون أن سكنى القفر (البادية) بعيداً عن سلطة الدولة لا تتمّ إلّا للجماعات القوية التي تستطيع الدفاع عن نفسها.

(٣) الشيخ: الأستاذ الكبير الذي يتولّى تخريج الطلّاب.

(٤) الرحب (بالفتح): صفة بمعنى المتّسع. الرحب (بالضمّ) مصدر بمعنى السعة.

(٥) التوقيف: النصّ الباتّ كأنّه قاعدة. معيار: مقياس.

(٦) .. ما كان الشيخ يلقيه (من الدروس) غاية (نهاية، أسمى، كلّ) ما يتحصّل (ما يمكن في باب تحصيل العلوم). ويتمهّد (يستقرّ). يتأصّل (يرسخ في النفس).

(٧) لكن.... المقصود: إذا كان مع التوقير للأستاذ.

(٨) عبد الله بن عبّاس بن عبد المطّلب (ابن عمّ الرسول) كان يسمّى «ترجمان القرآن» لمعرفته بوجوه تفسير =

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وكان قد أخَذَ عنهم. وخالفَ كثيرٌ من التابعين بعضَ الصحابةِ، وإنّما أخذوا العِلْمَ عنهم. وخالفَ مالكٌ[1] كثيراً من أشْياخِه..... وكادَ كلُّ من أخذَ العلمَ أنْ يُخالفَهُ بعضُ تلاميذه في عِدّةِ مسائلَ، ولم يَزَلْ ذلك دأبَ التلاميذِ مَعَ الأساتيذِ إلى زماننا هذا. وشاهَدْنا ذلك في أشْياخِنا معَ أشْياخِهم رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى. ولا يَنْبغي للشيخِ أن يَتَبَرّمَ من هذه المُخالفةِ إذا كانتْ على الوجهِ الذي وصَفْناه.

- ولابن الأزرق مقطّعات فيها تورية:

★★ وربَّ محبوبـــةٍ تَبَـــدّتْ ... كأنّهـــا الشمسُ في حُلاهـــا[2].

فأعْجَبْ لحالِ الأنامِ: مَنْ قد ... أحَبّها فقَدْ قَلاها[3]!

★★ عُذْرِيَ في هذا الدُّخانِ الذي ... جاوَرَ داري واضحٌ في البيانْ[4].

قد قُلْتُمُ إنّ بها زُخْرُفاً ... ولا يَلي الزُخرفَ إلّا الدُّخانْ[5].

★★ تأمّلْتُ من حُسنِ الربيعِ نَضارةً ... وقد غرّدَتْ فوقَ الغُصونِ البلابلُ.

حَكَتْ في غصونِ الدَّوْحِ قَسّاً فَصاحــةً ... لِتُعْلِمَ أنّ النَّبْتَ في الروضِ باقلُ[6].

- وقال عند وفاة والدته:

= القرآن الكريم. ثمّ عمر بن الخطّاب وعليّ بن أبي طالب. وزيد بن ثابت أخو حسان بن ثابت الشاعر. وزيد بن ثابت كان الذي تولّى جمع سور القرآن الكريم بين دفّتي كتاب واحد (في مجلّد واحد).

(١) مالك بن أنس عالم أهل المدينة وأحد الأئمّة في الفقه وفي رواية الحديث.

(٢) المحبوبة كناية عن القطائف (نوع من المعجّنات تحشى بالجبن عادة ثمّ تقلى بالسمن وتغمس بالقطر أو السكر المغلي بالماء حتى يصبح على شيء من الكثافة).

(٣) التورية في كلمة «قلاها» (المعنى القريب: أبغضها لوجود القرينة «أحبها» - والمعنى البعيد المقصود «طبخها بالسمن»).

(٤) - يبدو أنّ الناس قد عاتبوا ابن الأزرق لوجود دخان يتصاعد من قرب بيته.

(٥) في البيت توريتان. الزخرف (الذهب، الزينة- والزخرف السورة الثالثة والأربعون في المصحف). والدخان (السُّخام الأسود المتصاعد من النار- والدخان السورة الرابعة والأربعون في المصحف).

(٦) حكى: شابه، ماثل. الدوحة: الشجرة الكبيرة. قسّ بن ساعدة الأيادي من خطباء العرب في الجاهلية كان مشهوراً بالفصاحة. التورية في «باقل» (باقل: نابت، لقرينة النبت- وباقل كان رجلاً من بني إياد معروفاً بالعيّ (العجز أو الكسل عن الكلام)، لقرينة قسّ (بن ساعدة الأياديّ الذي كان مشهوراً بالفصاحة).

تقولُ لي، ودموعُ العـينِ واكفـةٌ: ما أفظعَ البينَ والتَّرْحالَ، يا وَلَدي[1]!
فقلتُ: أينَ السُّرى؟ قالت: لِرَحْمَةِ مَنْ قـد عزّ في المُلك لم يُولَدْ ولم يَلِدِ[2]

٤-★★ نيل الابتهاج؛ شجرة النور الزكية ٢٦١؛ نفح الطيب ٢: ٦٩٩ - ٧٠٤، ٣: ٢٩٨ - ٣٠٣، راجع ٦: ١٥١ - ١٥٣، ٤٤٧؛ أزهار الرياض ٣: ٣١٧ - ٣٢٣؛ بروكلمن ٢: ٣٤٣؛ الأصالة (السنة الثالثة - العدد ١٣) ص ١٢١ - ١٢٤؛ الأعلام للزركلي ٧: ١٨١ (٦: ٢٨٩)؛ معجم المؤلفين ١: ٤٣.

القلصاديّ

١ - هو أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمّدِ بنِ محمدِ بنِ عليٍّ القُرَشِيُّ البَسْطِيُّ الأندلسيُّ المغربي الشهيرُ بالقَلَصادِيِّ، أصلُه من بَسْطةَ (على مَقْرُبَةٍ من غَرناطةَ شرقاً في شَمال). وفي بسطةَ كان مَوْلِدُه سَنَةَ ٨١٥ للهجرة (١٤١٢-١٤١٣ م).

ٱنتقلَ القَلَصاديُّ إلى غَرناطةَ وٱسْتَوْطَنَها لطَلَبِ العِلم فقرأ فيها على إبراهيمَ بنِ أحمدَ ٱبنِ فتّوحٍ مُفْتِي غَرْناطةَ (وكانتْ له مشاركةٌ في عِلمِ الأصولِ والنحوِ والفَلَكِ، كما كانتْ له أرجوزة في النجوم). وكذلك قرأ فيها على أبي عبدِ الله محمّدِ بنِ محمّدٍ السَّرَقُسْطيِّ، وكان فقيهاً ومُفْتِياً.

ورَحَلَ القَلَصاديُّ إلى المَشْرق، فمرّ في طريقِهِ بتِلِمْسانَ فقرأ على يوسفَ بنِ سُليمانَ ومحمّدِ بنِ النّجارِ والشريفِ محمّدٍ المعروفِ بلقبِ حمّو. ومن أشهرِ شيوخِه في تِلِمْسانَ أبو عبد اللهِ محمّدُ بنُ مرزوقٍ الحفيدُ (راجع المختارات).

ثمّ ٱرتحل من تِلِمْسانَ إلى حاضرةِ تُونِسَ وأخذ عن قاضي الجماعة أبي الفضلِ قاسمِ ٱبنِ عقابٍ والقلشانيّ وحلولو[3]. ومن تُونِسَ تابعَ سيرَه إلى المشرقِ فحجّ وسَمِعَ من نفرٍ من

---

(١) الواكف: السائل، المتحدّر. البين: البعاد والفراق.

(٢) السرى: المسير (ليلاً)، الذهاب. عزّ: قوي. لم يولد ولم يلد: هو الله تعالى (راجع القرآن الكريم ١١٢: ٣ الإخلاص).

(٣) راجع نفح الطيب ٢: ٦٩٢ - ٦٩٣ ابن عقاب (؟). القلشاني هو قاضي الجماعة في تونس أبو العبّاس أحمد ابن محمّد القلشاني المتوفّى سنة ٨٦٣ للهجرة (شجرة النور الزكية، ص ٢٥٨، رقم ٩٤٣). وحلولو هو أبو العبّاس أحمد بن عبد الرحمن اليزلطيني القروي (نسبة إلى القيروان) قاضي طرابلس الغرب، كان لا يزال حيًّا سنة ٨٧٥ للهجرة (شجرة النور الزكية، ص ٢٥٩، رقم ٩٤٧).

العُلماء مِنهُمُ الحافظُ ٱبْنُ حجَرٍ العَسقلانيّ (ت ٨٥٢ هـ) وجلالُ الدين المَحَلي (ت ٨٦٤ هـ) وتقيّ الدين أبي العبّاس الشمني المِصريّ (ت ٨٧٢ هـ) ومن القارىء محبّ الدين أبي القاسمِ محمّدِ النُّويريِّ المِصريّ (ت ٨٥٧ هـ) وغيرِهم.

ثمّ عاد القَلَصاديُّ إلى غَرْناطة. ولمّا ٱشتدّتْ وطأةُ الإسبان النصارى على غَرْناطةَ جَدّدَ القَلَصاديُّ الرِّحْلة فجاء إلى إفريقية (القُطْر التُونسيِّ). ويبدو أنّه ٱستقرّ في باجةَ (في الشّمال الغربي من القُطر التونسي)، وفيها كانتْ وفاتُه في مُنْتَصَفِ ذي الحِجّة من سَنَة ٨٩١ (١٢/١٢/١٤٨٦ م).

٢ - للقَلَصاديِّ فضلٌ على علمِ الرياضيّات بأنْ تَوسّعَ في ٱستخدامِ الرُموز في بِناءِ المُعادلاتِ الجَبْريّة وفي مُحاولته لٱستخراج القيمةِ التقريبيةِ للجِذْرِ الأصمّ[١].

والقَلَصاديُّ مُصنّفٌ مُكثرٌ في اللغة والنحو والبلاغة والعَروض والحديث والفِقه، وفي الفرائض (تقسيم الإرث خاصّة) وفي المنطق. ولكنّ أكثرَ تآليفه في علم الحساب من علم العَدد (خواصّ الأعداد) والحُسبان والجبر والهندسة والفلك. وأشهرُ كتبه: قانونُ (علمُ) الحسابِ وغُنية ذوي الألباب - شرح تلخيص أعمال الحساب لابن البنّاء - كشف الجِلباب عن علم الحساب - كشفُ الأسرار (الأستار) عن علمِ (وَضْعِ) حروف الغُبار[٢] (وفيه العمل بالأعداد الصحيحة: جمعِها وطرحِها، إلخ وبالكسور وجذورِ الأعداد الصحيحةِ وكسورِها وبالجبر والمقابلة وغير ذلك) - بُغية المُبتدي وغُنية المُنتهي (في علم الفرائض وتقسيم الارث، على المذاهب الأربعة) - شرحُ فرائضِ الشيخ خليلٍ

---

(١) العدد الأصمّ هو العدد الذي لا جذر تامًّا له. والجذر عدد إذا ضربته بنفسه نتج (بالبناء للمجهول) منه عدد آخر (هو مربع العدد الذي ضربته بنفسه). إنّ العدد «١٦» له جذر تامّ هو اربعة. ولكن العدد «١٧» ليس له جذر تامّ (إنّ جذره أربعة ثمّ كسر غير متناه: ١٢٣١٠٥٦٢٥ (إلى يمين الواحد المتطرّف أعداد غير متناهية).

(٢) حروف الغبار أو الحروف الغبارية هي الأرقام المشتقّة من الأصل الهندي إذا كتب كلّ رقم من اليسار إلي اليمين (كالأرقام التي تكتب اليوم في المغرب وفي اللغات الأجنبية). أمّا إذا كتب كل رقم من اليمين إلى اليسار فيتكوّن منه ما نسميه بالأرقام الهندية، وهي المستخدمة في المشرق ١، ٢، ٣، ٤، ٥ إلخ. والعمل (حلّ المسائل) بالأرقام يسمّى الحساب الهندي. أمّا العمل بالأحرف (أ=١، ب=٢، جـ=٣، د=٤، هـ=٥، و=٦ (إلى آخر حروف الأبجدية) فيسمّى الحساب الرومي.

المالكيّ[1]- شرح الأُرجوزة الياسمينية[2].

٣- مختارات من آثاره:

- قال القَلَصاديُّ في رِحلته يذكُرُ بَلَدَه بَسْطَةَ (نفح الطيب ٦: ٤٤٦-٤٤٧):

سقى اللهُ تعالى أرجاءها المُشرقةَ وأغصانَها المُورِقةَ شآبيبَ الإحسان، ومهّدها بالهُدنة والأمان. دارٌ تخجَلُ منها الدُّورُ، وتتقاصر عنها القصورُ وتُقرُّ لها بالقُصور، مَعَ ما حَوَتْهُ من المحاسنِ والفضائل من صِحّةِ أجسامِ أهلِها وما طُبعوا عليه من كَرَمِ الشمائل. وحسْبُكَ فيها عَدَمُ الحَرَجِ أنّ داخلَها بابَ الفَرَج.........

- من شُيوخِ القَلَصاديّ: من رِحْلتِهِ (نفح الطيب ٥: ٤٢٦-٤٢٧؛ راجع نيل الابتهاج ٧٩-٨٠، وبين النَّصّين خِلافٌ في السِّياق).

أدْركْتُ كثيراً من العُلماء والعُبّاد والزّهاد والصُلَحاء أوْلاهُمْ في الذِّكْرِ والتقديم الشيخُ الفقيه الإمام العَلّامةُ الكبيرُ الشهيرُ شيخُنا بَركتُنا أبو عبدِ الله بنُ مَرْزوقٍ، حَلَّ كَنَفَ العِلمِ والعُلا، وجَلَّ قدرُه في الجِلّة الفُضَلا. قَطَعَ الليالِيَ ساهرا وقطَفَ من العلم أزاهرا، فأثْمَرَ وأوْرق وغرّبَ وشرّق حتى توغَّلَ في فُنونِ العلمِ واَسْتَغْرَقَ، إلى أنْ طَلَعَ للأبصارِ هِلالاً لأنّ الغَرْبَ مَطْلَعُه، وسَما في النفوس مَوْضِعُه ومَوْقِعُه. فلا ترى أحسنَ من لِقائه ولا أسْهلَ من إلْقائه★. لَقِيَ الشيوخَ الأكابرَ، وبَقِيَ حَمْدُه مُتَعَرَّفاً من بطونِ الكتب وألْسِنَة الأقلامِ وأفواه المحابر. وكان، رَضِيَ اللهُ عنه، من رجال الدنيا والآخرة.

---

(١) خليل ابن إسحاق (ت ٧٧٦ هـ) فقيه مالكي. وهو غير خليل بن إسحاق (ت ٣٣٢ هـ) الشاعر المذكور في الجزء الرابع من هذا الكتاب (ص ٢٢٤-٢٢٦).

(٢) ابن الياسمين هو أبو محمّدٍ عبد الله بن محمّد بن حجّاجٍ من أهل فاس، برع في عدد من العلوم والفنون. وشهرته الأولى في الرياضيّات، وله مقدرة في نظم الشعر. له أرجوزة في الجبر قرئت عليه في إشبيلية، سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م). وكانت وفاته سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤-١٢٠٥ م). ومن أرجوزته:

على ثلاثةٍ يدورُ الجَبْرُ: المالُ والأعدادُ ثمّ الجِذرُ.
والعددَ المُطلَقُ ما لم يُنْسبِ للمال أو للجِذْرِ، فافْهَمْ تُصِبِ.
والجِذرُ والشيءُ بمعنًى واحدِ، كالقول في لفظِ أبٍ ووالدِ.

(راجع النبوغ المغربي ١٥٧؛ مجلّة «العربي»- الكويت ١٩٨٢/٥ م، ص ١٦٤).

★ إلقاء دروسه.

وكانتْ أوقاتُه كلُّها معمورةً[1] بالطاعات ليلاً ونهاراً، من صلاةٍ وقراءةِ قُرآنٍ وتدريسٍ وعِلْمٍ وفُتْيَا وتصنيف. وكانتْ له أورادٌ[2] معلومةٌ وأوقاتٌ[3] مشهورة. وكانتْ له بالعلمِ عناية تُكْشَفُ بها العَمايَةُ، ودِرايةٌ تَعْضُدُها الرِّوايةُ ونَباهةٌ تُكْسِبُ النزاهةَ. قرأتُ عليه - رَضِيَ اللهُ عنه - بعضَ كِتابهِ في الفرائض وأواخرَ إيضاح الفارسيّ وشيئاً من شرح التَسْهيل[4]. وعَرَضْتُ عليه إعراب القُرآن[5] وصحيحَ البخاريّ والشاطِبيَّتَيْنِ[6] وأكثرَ ٱبنِ الحاجبِ الفَرْعِيّ[7] والتلقينَ وتسهيل ابنِ مالكٍ[9] والألفيةَ[9] والكافِيَةَ[10] وٱبنَ الصلاح في عِلمِ الحديثِ[11] ومِنهاجَ الغزّاليّ[12] وبَعْضَ الرِّسالة[13] وغيرِها. ثمّ تُوُفِّيَ يومَ الخميس بِمِصْرَ رابعَ عَشَرَ شَعبانَ عامَ ٱثنَيْنِ وأربعينَ وثمانِمائَةٍ. وصُلِّيَ عليه بالجامعِ

---

(١) معمورة بالطاعات (مملوءة بأنواع العبادات).

(٢) الورد (بالكسر): جمل معينّة يرددها نفر من العابدين بعد الصلاة أو في أوقات معلومة (يتخذونها لذلك).

(٣) أوقات مشهورة (معروفة عند الناس). في الحاشية: مشهودة (بالدال): يحضرها عدد كبير من الناس.

(٤) لعلّه: شرح تسهيل الفوائد (في النحو) لأثير الدين أبي حيّان الغرناطي المتوفّى سنة ٧٤٤ للهجرة (راجع بروكلمن، الملحق ١ : ١٣٦).

(٥) عرضت عليه (قرأت عليه للتأكّد من معرفتي السابقة) إعراب القرآن. و «إعراب القرآن» عنوان لعدد من الكتب، ولعلّ المقصود هنا كتاب أبي حيّان أثير الدين (راجع الحاشية السابقة).

(٦) لأبي محمّد القاسم بن فيرّه الشاطبي (ت ٥٩٠ هـ) أرجوزتان (تعرف كلّ واحدة منها بالشاطبية): حرز الأماني في القراءات (راجع ترجمة الشاطبي) ثمّ عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد، وهي نظم لكتاب المقنع (في رسم: خطّ المصاحف، أو التهجئة الخاصّة بكتابة المصحف) لأبي عثمان الدانّي الأندلسي (ت ٤٤٤ هـ).

(٧) كتاب أبي عمرو عثمان بن عمر بن الحاجب المصري (ت ٦٤٦ هـ) في الفقه.

(٨) التلقين اسم لكتب منها: التلقين في فروع الفقه للإمام المازري الصقلّي (ت ٥٣٦ هـ). ومنها التلقين في النحو للعكبري (بالضمّ) أبي البقاء عبد الله بن الحسين (ت ٦١٦ هـ). ثمّ التسهيل لابن مالكٍ النحوي (ت ٦٧٢ هـ) في النحو.

(٩) الألفية لابن مالك (؟).

(١٠) الكافية (في النحو) لأبي عمرو عثمان بن عمر بن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ).

(١١) ابن الصلاح: صلاح الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن من علماء التفسير والحديث والفقه (ت ٦٤٣ هـ) تولّى التدريس في «دار الحديث» (في دمشق)، له كتاب «معرفة أنواع علم الحديث» (ويعرف بمقدّمة ابن الصلاح).

(١٢) منهاج العابدين (في التصوّف) للغزّالي (ت ٥٠٥ هـ).

(١٣) الرسالة (في الفقه المالكي) لابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦ هـ).

الأعظم. وحَضَرَ جِنازَته السُّلْطانُ[1] فَمَنْ دونَه. ولم أرَ مِثْلَها قَبْلُ. وأَسِفَ الناسُ لِفَقْدِه....

- عليّ بن موسى القرباقي[2]: من رِحلة القَلَصادي (نص ذُكر مُلَخَّصاً في نيل الابتهاج ٢٠٧):

شيخُنا وبَرَكَتُنا الفقيهُ الإمامُ الصدر العَلَم الخطيبُ الخطير الكبير الشهير أوْحَدُ الزمانِ وفريدُ البيانِ العديمُ الأقرانِ المُفتي المؤلِّفُ المُدرِّس المُصنِّفُ الذاكرُ لأحوالِ العربِ وأنسابها حافظاً لُغاتِها وآدابَها، له في العربية أوفرُ نصيبٍ، وفي التفسير والحديثِ والأُصول والطِبِّ سَهْمٌ مُصيبٌ، حتّى ارتقى لِدَرَجَةٍ عاليةٍ ورُتْبَةٍ ساميةٍ فَشُهِدَ له بالفضل في الغَيْبةِ والعِيان، وأقرَّ له صديقُه وحاسدُه للدليلِ والبرهان. قرأتُ عليه التلقينَ والإيضاحَ للفاسي[3] (؟) وأبعاضاً[4] من الجلّابِ[5] وابنِ الحاجبِ الفَرْعيّ[6] وتنقيحَ القوافي[7] وفصيحَ ثعلبٍ[8] وألْفيةَ ابنِ مالكٍ وأدبَ الكاتبِ لابنِ قُتَيْبَةَ[9]، وتأليفَه المسمّى بالتَبْصِرةِ الكافية في عِلْمَي العَروض والقافية[10] على الخَزْرجيّة[11]. وحَضَرْتُ عليه كثيراً من التفسير و(من) كُتُبٍ مُتَعَدِّدَةٍ في عُلومٍ شتّى. وكان كثيراً ما

---

(١) كانت وفاة القلصادي في أيام السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان بن محمّد (٨٣٩-٨٩٣ هـ).

(٢) قرباقة.

(٣) التلقين (راجع النص السابق). الإيضاح للفاسي (؟).

(٤) أبعاض (أشياء متفرّقة من الكتب).

(٥) في بروكلمن (الملحق ١ : ٥٩٨): أبو عبد الله محمّد بن أحمد (بن) الجلّاب (ت ٦٦٤ هـ) له كتاب (مجموع أشعار): روح الشعر ودوح الشجر.

(٦) ابن الحاجب (راجع النصّ السابق).

(٧) تنقيح القوافي (؟)- لعلّه شرح تنقيح الفصول للقرافي أبي العبّاس أحمد بن إدريس الصنهاجي المصري (ت ٦٨٤ هـ). والكتاب في الفقه المالكي.

(٨) كتاب «الفصيح» لأبي العبّاس ثعلب (ت ٢٩١ هـ).

(٩) ابن قتيبة الدينوريّ (ت ٢٧٦ هـ).

(١٠) التبصرة إلخ (؟). تأليف القرباقي (؟).

(١١) على الخزرجيّة (التبصرة إلخ) حاشية أو شرح على الخزرجية أو القصيدة الخزرجية، وعنوانها: الرامزة الشافية في علم العروض والقافية لأبي محمّد عبد الله محمّد الأنصاري الأندلسيّ (ت ٦٢٦ هـ).

يَتَمَثَّلُ بقَوْل الشاعر [1]:

وزهّـدَني في الناسِ مَعْرفتي بهم [2] وطولُ آختياري صاحباً بعدَ صاحبِ.

فَلَمْ تُرِنِي الأيّـــامُ خِلًّا تَسرُّني مَباديهِ إلّا ساءَني في العواقب [3].

ولا قُلْـتُ أرجوهُ لِدَفْـعِ مُلِمَّـةٍ من الدّهرِ إلّا كان إحدى المصائبِ [4].

ولذا كان لا يُخالطُ الناسَ، مَعَ نزاهةِ نفسٍ وآرتفاعِ هِمّةٍ، كثيرَ الصَّمْتِ فصيحَ اللِّسان لم أسمَعْ مِثْلَ خُطَبِه ووَعْظِه فيما رأيتُ من البُلدان. وغَضِبَ عليه بَعْضُ الجبابرةِ [5] فأخْرَجَهُ من بَسْطة البرشانة [6] فأقامَ بها عَشْرَةَ أشهرٍ، ثمّ عادَ لبَسْطَةَ إلى أنْ تُوُفّيَ بها في الوباءِ [7]، عاشِرَ صَفَرَ، عامَ أربعةٍ وأربعينَ وثمانِمائَةٍ. وصُلِّيَ عليه خارجَ المدينةِ لِكَثْرَةِ الناسِ في جِنازَتِه.

٤- بغية المهتدي وغنية المنتهى، فاس - بلا تاريخ.
- شرح الأرجوزة الياسمينية.
- كشف أستار الغبار، فاس ١٣١٥؛ مع كتاب «بغية المهتدي»، مصر ١٣٠٩ هـ.
- شرح فرائض الشيخ خليل المالكي، فاس (طبع حجر) ١٢٩٣ هـ.

★★ نيل الابتهاج ٢٠٩ - ٢١٠؛ الضوء اللامع ٥: ١٤ - ١٥؛ نفح الطيب ٢: ٦٩٢ - ٦٩٤، ٥: ٤٢٦ - ٤٢٧، ٦: ٤٤٦ - ٤٤٧؛ دائرة المعارف الإسلامية ٤: ٤٧٦ - ٤٧٧؛ بروكلمن ٢: ٣٤٣ - ٣٤٤، الملحق ٢: ٣٧٨ - ٣٧٩؛ تراث العرب العلمي لقدري طوقان (طبعة ثالثة) ص ٤٦١ - ٤٦٥؛ شجرة النور الزكيّة ٢٦١ (رقم ٩٥٩)؛ الأعلام للزركلي ٥: ١٦٣ (١٠)، معجم المؤلّفين ٧: ٢٣٠؛ سركيس ٤٥٧ - ٤٥٨، ١٤٤٤ - ١٤٤٥.

---

(١) الشعر للمعتصم بن صمادح الأندلسي (راجع وفيات الأعيان ٥: ٤٠).

(٢) هذا الشطر من لزوميّة للمعرّي: (وزهّدني.... وعلمي بأن العالمين هباء).

(٣) مبادئه (في أوّل أمره).

(٤) الملمّة: النازلة (المصيبة) الشديدة.

(٥) الجبابرة: الولاة الظالمون أو المتسلّطون القساة.

(٦) اقرأ: من بسطة إلى البرشانة. بسطة في الجنوب الشرقيّ من الأندلس (إلى الشمال من المريّة). البرشانة يجب أن تكون قريبة من غرناطة.

(٧) (؟).

عبد الكريم الغرناطي

١ - هُوَ عبدُ الكريم بنُ محمّدٍ القيسيُّ الغَرناطيُّ، وُلِدَ في بَسْطَةَ - على مائَةٍ وعشرينَ كيلومتراً شَمال شرقيّ غَرناطةَ - في أوائلِ القرنِ التاسعِ للهجْرة. وَبرَعَ عبدُ الكريم الغَرناطيّ في الفِقْه وعَمِلَ في التوثيق (تسجيل العُقود في المحكمة)، ولكنّه لم يكُنْ على شيء من بَسْطةِ العيش. ولكن يبدو أنّه كان على شيء من الشُّهْرة في الفِقه والدِّين، فقد دعاه أهلُ بَرْجَةَ (من مُلْحَقات ألْمَرِيَّة) في أحدِ شُهورِ رَمَضانَ لِيَؤُمَّهُمْ في مَسْجِدِهِمْ ويَعِظَهم. ولقد نَعِمَ في أثناء ذلك بشيءٍ من طَيِّب العيش.

ثم حدثتْ نُفْرَةٌ بينَه وبين ابنِ الأحولِ قاضي بَسْطة فاضْطُرَّ إلى مُغادرتِها وانتقلَ إلى مالَقَةَ ثمّ انتقل، فيما يبدو، إلى غَرْناطة واستقرّ فيها. وفي غَرناطةَ اتّصلَ بشيوخِ الغُزاة (قادةِ الحامِيَةِ التي وَضَعَها ملوك المغربِ من بني مَرينٍ في الأندلس للدِّفاع عن أهلها) ومدحَ منهم الوزيرَ ابراهيمَ بنَ عبدِ البَرِّ وأبا الحسنِ الشريفَ. ثم نشأتْ عنده ناشئةُ الجِهاد فخاض المعارك. ولكنّه وَقَع في الأَسْر وَبقِيَ فيه عدداً من السنين. ثمّ اتّفق أن أُطْلِقَ سَراحُه فعاد إلى غرناطة.

وطالتْ حياةُ عبدِ الكريم الغَرناطيِّ حتّى رَثى أبا عبدِ الله محمّدَ بنَ الأزرقِ، وقد تُوُفِّيَ في مِصْرَ سَنَةَ ٨٩٠ هـ. ويبدو أنّه لم يَعِشْ بعدَ ذلك طويلاً، ولعلَّ وفاتَه كانتْ قُبيلَ سُقوطِ الأندلسِ سَنَةَ ٨٩٨ هـ (١٤٩٢ م).

٢ - كان عبدُ الكريم الغَرناطيُّ فقيهاً عالماً، وكان شاعراً واضحَ التعبيرِ كَثيرَ الصِّدْق والإخلاص قليلَ التكلُّف ولكنّه كان مُحبًّا للمبالغة. وفنونُ شعرِه الوصفُ والغزَل مَعَ العَفافِ ثمّ رثاءُ الأفرادِ والممالك ثمّ الهِجاء. ونَجِدُ في شِعْره شيئاً من الحُوار وقليلاً من الأناقة.

٣ - **مختارات من شعره**

- قال عبدُ الكريم الغَرناطيُّ يذكُرُ طِيبَ عَيْشه في بَرْجَةَ:

وفي بَرْجةِ مَثْوايَ حيثُ تَبَسّمتْ ثُغورُ الأقاحي من بكاء الغمائم[1].
أروحُ وأغدو بين قَوْمٍ تواطأوا قديماً على إكرامِ كُلِّ إمامِ[2].
أُمَثِّلُ شخصي بَيْنَهم في حديقةٍ سقاها سَحابُ الجَوِّ صَوْبَ سِجام[3].

– وقال يصِفُ بُؤسَ حياتهِ في الأسر:

واحَسْرَتَا ! بعدَ اشتغالي بالعُلو مِ ودَرْسِها وتِلاوةِ القُرآنِ،
أُمْسي وأُصْبِحُ خادماً مُتصَرِّفاً ....[5].
إن لم أكُنْ بالحَفْر مُشتغلاً أكُنْ بالهَدْم مشتغلاً مَعَ البُنيان[6].
والكَنْسُ في يومِ الجلوسِ صِناعتي، والرشُّ يَتْبَعُه مَدى الأحيان[7].
وبغَسْل أقذارِ الكِلاب تَحَرُّمي في أكثرِ الأوقاتِ والأزمان[8].

– وقال في أسره يتغزّل بصَبِيَّةٍ نَصْرانية:

وأعْجَبُ عُبّادِ الصليبِ صَبيّةٌ سَبَتْني بِوَجْهٍ مِثْلِ بَدْرٍ مُتَمِّمِ[9].
فبِتُّ حليفَ الهَمِّ من فَرْطِ حُبِّها وباتتْ بهَجْري في فِراشِ تَنَعُّمِ[10].

---

(١) المثوي: المقام والسكنى (بضم الميم الثانية والسين). تبسّمت ثغور......: كثر تفتّح زهر الاقحوان من كثرة المطر.

(٢) الإمام: الذي يصلّي بالناس (دليل على تقواهم). الإمام: كلّ بارع في علم (دليل على إدراكهم قيمة العلم ومكانة العلماء).

(٣) الصوب: المطر بمقدار ينفع ولا يؤذي. السجام: هطول المطر.

(٤) أمّ الرجل القوم: صلّى بهم إماماً وصلّوا هم وراءه مقتدين به. الجماعة: صلاة القوم معاً. مقيمين للخمس الفروض: يصلّون الصلوات الخمس (في اليوم والليلة) ولا يتهاونون فيها.

(٥) قطع الرقيب اللبناني هذا الشطر (إذ يبدو أنّه كان تعبيراً عن أمر لا يرضاه النصارى)– من أسفل العمود الثاني من الصفحة ٥٧ من مجلّة «العربي» (الكويت) من «عدد» تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٦٧ م.

(٦) يعمل بحفر الأرض أو بالبنيان.

(٧) يوم الجلوس: يوم التعطيل (الأحد؟).

(٨) لا أعلم إذا كانت كلمة «الكلاب» هنا مستعملة على الحقيقة أو على المجاز. التحرّم: العمل بجدّ (بكسر الجيم).

(٩) سبتني: أسرتي.

(١٠) حليف: شريك، رفيق. الفرط: الكثرة.

وكم نَعّمَتْني من لذيذِ وِصالِها ... بما لم تَصِلْ نفسي له بتَوَهُّمِ.
فقبّلتُ منها الخدَّ وهو مُوَرَّدٌ ... وثَنَّيْتُ بالثَّغْرِ الَمليحِ التبسُّمِ.
ومالتْ بفَرْطِ السُّكر وهي مريضةٌ ... كَمَيْلِ الصَّبا صُبْحاً بغُصْنٍ مُنَعَّمِ [١].
ولولا عَفافي واتّقاءُ عِتابِها ... تَمَتّعْتُ منها بالُمحَلِّ الُمحَرَّمِ [٢].

٤ - ★★ مجلّة « العربي » (الكويت، تشرين الأوّل - أكتوبر ١٩٦٧ م، ص ٥٣ - ٦٤: عبد الكريم الغرناطي، بقلم محمود علي مكّيّ (يبدو أن صاحب المقال قد نشر كتاباً عن عبد الكريم هذا، أو كتاباً لعبد الكريم هذا)، ولم أستطع أنا أن أرى ذلك الكتاب.

زرّوق البُرنُسيّ

١ - هو أحمدَ بنُ أحمدَ بنِ محمّدِ بنِ عيسى البُرنُسي الشهير بلقب زرّوق(★)، وُلِدَ يومَ الخميس في الثامن والعشرين من الُمحرَّم من سَنَة ٨٤٦ (٨/٦/١٤٤٢ م).

حَفِظَ زَرّوقٌ القرآنَ في العاشرةِ من عُمُرِه. وفي السادسةَ عَشْرةَ بدأ قراءة القرآنِ[٣] والحديثِ والفِقه على نَفَرٍ كثيرين من عُلماءِ عصرِه وأخذَ التصوّفَ خاصّةً عن نفرٍ منهم ابراهيمُ التازيُّ (ت ٨٦٦ هـ). رَحَلَ إلى المشرقِ فحجّ مِراراً وقرأ فيه التصوّفَ على جماعةٍ ثمّ عاد. وقد تُوُفِّيَ في تكرور من أعمال طرابلس (ليبيا)★ في الثاني من صفر من سنة ٨٩٩ (١٢/ ١١/ ١٤٩٣ م).

٢ - كان زرّوقُ البُرنسي مُتصوّفاً تُنسَبُ إليه كراماتٌ كثيرة كما كان واسعَ المعرفةِ

(١) مريضة: مريضة الأجفان (ناعسة العينين) من صفات النساء الحسان. الصبا: ريح الشرق الخفيفة الباردة. الغصن المنعّم (الناعم) لأنّه يهتزّ مع الريح بسهولة.

(٢) المحلّ (الشيء الذي تعدّه هي حلالاً) المحرّم (الذي حرّمه الإسلام).

(★) ولد زرّوق يوم الخميس. ثم تُوُفِّيَتْ أمّه يوم السبت التالي، ثم توفي أبوه أيضاً يوم الثلاثاء بعد ذلك السبت.

(٣) قراءة القرآن: حفظ القرآن غيباً وتجويده (أحكام قراءته) وتفسيره وقراءاته والناسخ فيه والمنسوخ.

(★) « تكرور » في السودان الغربي (غربيّ إفريقية، جنوب الجزائر). وقوله (هنا): من أعمال طرابلس (على سبيل التقريب).

بعَدَدٍ من العلوم. وله تآليفُ كثيرةٌ جدًّا، ولكنَّ مُعظَمها شروحٌ مُوجَزةٌ على تآليفَ في الفِقهِ والحديث والتصوّف. فمن كتبه: جزء في علم الحديث - تعليق على صحيح البخاري - شرح «مختصر خليل» - الجُنّة للمعتصم من البِدَع بالسُّنّة - شرح رسالة ابن أبي زيد - شرح المقدمة القرطبية - شرح العقيدة القدسية - النصيحة الكافية لمن خصّه الله بالعافية - القواعد (في التصوّف) - تمهيد (في تأسيس عقائد التصوف وأصوله) - البدع التي يفعلها الفقراء (الصوفيون) - دعاء الصباح - ودعاء المساء - كناشة - رحلة - الوظيفة الزرّوقية.

٣- مختارات من آثاره

- يُنْسَبْ إلى زرّوقٍ البُرنُسي نظمٌ صرّحَ فيه بما زعم أن الله أعطاه من القُدرة على الأعمالِ التي هي في الأصل من أعمالِ اللهِ تعالى (والتصريحُ بذلك عيبٌ عند كبارِ الصوفية):

ألا قد هجرتُ الخلقَ طُرًّا بأسْرِهِمْ	لَعَلّي أرى محبوبَ قلبي بمُقلتي[١].
وعَلّقتُ قلبي بالمَعالي تَهَمُّماً	وكُوشِفْتُ بالتحقيقِ من غيرِ مِرْيَةِ[٢].
وقُلّدْتُ سيفَ العِزِّ في مَجْمع الوغى	وصِرْتُ إمامَ الوقتِ صاحبَ رُفْعةِ[٣].
ومُلّكتُ أرضَ الغربِ طُرًّا بأسرِها	وكُلَّ بلادِ الشرقِ في طيِّ قبضتي[٤]
فأعْزِلُ قوماً ثمّ أُولي سِواهُمُ،	وأُعْلي مَنارَ البعضِ فوقَ المِنصّة[٥].
وأَجبُرُ مكسوراً وأُشْهِرَ خاملاً	وأرفعُ مِقداراً بأرفعِ هِمّتي.

---

(١) طرّا، بأسرهم: كلهم. محبوب قلبي: الله. أرى الله بمقلتي: أثق بوجوده وبصنعه كأنّي أراه بعيني.

(٢) في القاموس: تهمّم الرجل الشيء (تحسّه). والشاعر يقصد «اهتماماً شديداً». كوشف الصوفي: كشف الله له عن حقائق الوجود وعن المستقبل. المِرية: الشكّ.

(٣) وقلّدت... أعطيت السلطة العظيمة. أمام الوقت: الإنسان الوحيد في زمن ما، إذا كان يملك السلطة الخارجة في العادة عن طاقة البشر.

(٤) في طيّ قبضي: أطوي عليها يدي (أفعل بها ما أشاء).

(٥) أولى الحاكم فلاناً أمراً: جعله والياً (ضدّ عزل). أُعلي (أرفع) منار (قنديل) المنصّة الطاولة. أعلى منار...: أجعل أمرهم مشهوراً.

وأقْهَرُ جبّاراً وأدْحَضُ ظالماً — وأنصرُ مظلوماً بسُلْطان سَطوتي[1].
وأُلْهِمْتُ أسراراً وأُعطِيتُ حِكمةً — وحُزْتُ مقاماتِ العُلا المُستَنيرة.
أنا لمُريدي جامعٌ لشَتاتِه — إذا ما سَطا جَوْرُ الزمان بنَكْبة[2].
وإنْ كُنتَ في كربٍ وضيقٍ وكُرْبةٍ، — فنادِ: «أيا زرّوقُ»، آتِ بسُرْعة.

- ومن كلامه في بعض رسائله:

طُفْتُ مشارقَ الأرضِ ومغاربها في طلب الحقِّ، واستعملتُ جميعَ الأسبابِ المذكورةِ في مُعالجة النفس بقَدْرِ الإمكانِ في مَرْضاةِ الحقّ. فما طَلَبْتُ قُرْب الحقّ بشيءٍ إلّا كان مُبْعِدي، ولا عَمِلْتُ في معالَجَتها بشيءٍ إلّا كان لها مُعيناً[3]. ولا توجّهتُ لإرضاءِ الخَلْقِ الا كان غيرَ مُوفٍ بالمقصود[4]. ففَزِعْتُ إلى اللجأ إليه عزّ وجلَّ في الجميع فخرجت بفضلِ ذلك علّة رؤية الأسباب[5]. ففزَعْتُ إلى الاستسلام فخَرَجَ لي منه رؤيةُ وُجودي وهو رأسُ العِلَلِ. فطَرَحْتُ نفسيَ بينَ يَدَيِ الحقِّ سُبحانَه طرْحاً لا يَصْحَبُه حَوَلٌ ولا قوّة[6]، فصحّ عندي أن السلامةَ مِنْ كلِّ شيءٍ (إنّما هي) بالتَبرّي من كلّ شيء، و (أنّ) الغنيمةَ من كلّ شيء (انّما هي) بالرجوعِ إلى الله في كلِّ شيء[7].

- وقال الشيخُ زَرّوقٌ في أصولِ الطريقة الصوفية التي كان يَتّبِعُها (النبوغ المغربي، ٦٣٤ وما بعد):

---

(١) دحض وأدحض القدم: أزلقها (جعلها تزلق) وأبطل الحجّة. أدحض الظالم: أزحزحه عن موقفه (أمنعه عن الظلم أو أهزمه وأقهره).

(٢) المريد (للشيخ الصوفي) كالتلميذ (للأستاذ).

(٣) كلّما حاولت أن أعرف الله بوساطة شيء (من المخلوقات) زاد جهلي: بحقيقة الله. وكلّما أردت معرفة الأشياء بوساطة ما، أعانني الله على ذلك (!).

(٤) وكلّما حاولت أن أعمل عملاً لأرضي به مخلوقاً لم يكن ذلك موفياً بمقصودي (لم يتّم مقصودي، لم أصل إلى نتيجة).

(٥) اللجأ كالملجأ: الحصن. واللجأ (بفتح وسكون) مصدر بمعنى اللجوء والالتجاء. فخرجت بفضل ذلك... (يبدو أن في الجملة نقصاً)، والمقصود: السبب الأقصى للوجود هو الله.

(٦) فزع: لجأ. الاستسلام: تسليم الأمر كلّه إلى الله. فخرج لي.... ظهر لي أن معرفة الله تصل بي إلى معرفة وجودي أنا (هنا شطح: كلام ظاهره يشبه الكفر) معروف في التصوّف المتطرّف. الحول: القوّة.

(٧) التبرّي- المقصود: التبرىء (بالهمزة: التخلّي، الترك). السلامة الحقيقية والغنيمة الحقيقية تكونان بترك الأمور الدنيوية وبالاعتماد في كلّ شيء على الله وحده.

أصولُ طريقتِنا التي تَنبني[١] عليها عشْرةُ أشياءَ: خمسةٌ ظاهرةٌ وخمسةٌ باطنة. أمّا الخمسةُ الظاهرةُ فأوّلُها مُلازمَةُ السمعِ والطاعة لأُمراء المسلمين وعامَّتِهم وخاصَّتهم مِنْ أهلِ اللهِ[٢]، فلا يُخالَفُ عليهم بقَوْلٍ ولا بفعلٍ، بل إيمانٌ وتسليمٌ[٣]. والثاني لُزومُ الخمسِ في الجماعة[٤] بحَسْبِ الإمكان. فإنْ كان (ذلك) في الجامع الأعظم[٥] فَهُوَ أوْلى. وتكفي المرأة والصبيّ وأيّ مَنْ كان من المُسلمين في تحصيل فضلِها[٦]. والثالثُ القناعةُ بقليلِ الرِّزقِ وكثيرِه بأيٍّ وجهٍ تَحَصَّلَ من الوُجوه المُباحة. الرابعُ إقامة الأوْرادِ[٧] الشّرعيةِ بحَسْبِ ما يكونُ صالحاً للإنسان في دينِهِ ودُنياه، وذلك يختلفُ باختلافِ الناس[٨]. والخامسُ إيثارُ الخُمول بِتَرْكِ الفُضول[٩] وعَدَمُ المُنازعة والعِنادِ في قولٍ وفعلٍ. وفي ذلك يقولُ القائل:

وقائلــةٍ: مــا لي أراك مُجانِبــاً ... أموراً، وفيهــا للتِّجــارةِ مَرْبَحُ؟

فقلـت لها: ما لي بِرِبْحِكِ حاجةٌ، ... فنَحْنُ أُنـاسٌ بالسلامـة نفرَحُ[١٠].

وأمّا الخمسةُ الباطنةُ فأوّلُها الإعراضُ عمّا يُرجى أو يُخشى مِنْ قِبَلِ الخَلْقِ[١١] بألاّ يُرجى منهم لا دفعٌ ولا جَلْبٌ[١٢]، ولا يُتَوَجَّهَ إلَيْهم في طلبٍ ولا هَرَبٍ[١٣]. والثاني

---

(١) تنبني عليها طريقتنا: تتألف منها طريقتنا.

(٢) أهل الله: المتصوّفون.

(٣) على المريدين (الداخلين حديثاً في الطريقة) أن يسمعوا لشيوخهم ويطيعوهم بإيمان وتسليم (بثقة واطمئنان).

(٤) الخمس: الصلوات الخمس.

(٥) الجامع الأعظم (أكبر جوامع المدينة والذي تقام فيه صلاة الجمعة).

(٦) المرأة والصبيّ وأي من كان من المسلمين (هم غير المريدين الداخلين في الطريقة). في تحصيل فضلها (فضل صلاة الجماعة). المقصود من هذه الجملة كلّها غير واضح.

(٧) الورد (بالكسر): سياق من الجمل (في ذكر الله والصلاة على رسول الله) يقرأها الصوفيّ في أوقات معيّنة.

(٨) .... مادّة الورد ونسقه لا يكونان واحداً لجميع الناس وعند جميع الناس.

(٩) إيثار (تفضيل) الخمول (قلّة الشهرة). الفضول: دخول الإنسان فيما لا يخصّه ولا يعنيه من الأقوال والأفعال.

(١٠) السلامة (هنا): خلاص الفرد من المشاكل والمصائب التي تحيط بالناس.

(١١) من قبل (جهة) الخلق (الناس).

(١٢) دفع مضرّة أو جلب منفعة.

(١٣) في طلب منفعة ولا هرب (لجوء إليهم لحماية).

الإقبالُ على اللهِ بألاّ تَطْلُبَ حوائِجَكَ - قلّتْ أو جَلّتْ [١] - إلاّ منه.....

وبعدَ هذه الخمسِ خمسٌ لا بُدّ لك منها: مُجاملةُ الخَلْق ومُحاسَنَتُهم في الأمور والحَذَرُ منهم في عَيْنِ حُسْنِ الظنّ بهم [٢] ومُوافَقَتُهم في كلّ أمرٍ لا يُخالِفُ الشَّرْعَ ولا يضُرُّ بالدُّنْيا ولا ينقص العقلَ [٣] ، واتّباعُ العِلْمِ في كلّ وِرْدٍ وصَدَرٍ [٤] ، فقد قالَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: « العلمُ إمامُ العملِ ، والعَمَلُ تابِعُه ».

- من كتاب « حكم ابن عطاء: شرح العارف بالله الشيخ زرّوق » (ص ٢٦)(★):

أمّا قبلَ كلّ شيء ومعَه وبعدَه ، فليس على الحقيقةِ إلاّ اللهُ وحدَه: من وَقَفَ ببابه الكريمِ أنْجحَ وملَكَ ، ومَنِ ٱسْتَنَدَ لِجَنابه العظيمِ أفلحَ وسَلَكَ[٥] ، ومن حادَ عن مَنْهَجِه القويمِ خَسِرَ وهَلَكَ. وخيرُ العباد من وَقَفَ بكُنْهِ[٦] هِمّته عليه ، وأفضلُهم من توجّه في كلّ أمورِه إليه فقام بالحقّ على بِساط التحقيق ، وجَمَعَ بينَ ظاهرِ الشرعِ وباطنِ الطريق[٧] ، ووَقَفَ للخِدمة وغيرِها مَوْقِفَ أهلِ الصِّدق والتصديق ، مُقْتَدِياً بأئمّةِ الهُدى والتوفيق كالسادةِ الشاذليّةِ[٨] ومَنْ في مَعْناهُمْ والجماعة الوَفائية[٩] ومَنْ جرى مَجْراهم.

---

(١) جلّت: عظمت ، كثرت.

(٢) في عين حسن الظنّ (؟): لا يجوز أن يحسن الإنسان الظنّ بكلّ إنسان آخر وفي كلّ أمر.

(٣) ولا ينقص (بفتح فسكون فضمّ أو بضمّ فسكون فكسر) العقل: يضعف العقل (يجعله ضعيفاً: يدلّ على عجز في العقل عن إدراك الأمور).

(٤) الورد: الذهاب إلى الماء (للشرب أو للتزوّد بالماء) والصدر: الرجوع عن الماء بعد الريّ (بالكسر: الامتلاء من الماء أو بعد التزوّد بالماء).

(★) في هذه النصوص الصوفيّة التالية سأكتفي بالإشارة إلى المعاني اللغوية والتاريخية - عند الضرورة - ولن أشرح المعاني الصوفية التي تحتمل وجوهاً كثيرة وفهماً شخصياً يختلف بين الفرد والفرد.

(٥) سلك: سار في طريق التصوّف (أصبح صوفيّاً مقبولاً عند جماعة الصوفيّين).

(٦) الكنه: جوهر الشيء وحقيقته. وكنه همّته (هنا): بجميع قصده وجهده.

(٧) ظاهر الشرع: العبادات الظاهرة (كأشكال الصلاة والانقطاع في الصوم عن الطعام). باطن الطريق (طريق التصوّف): حقيقة العبادات (إدراك معنى الصلاة عندهم بالإضافة إلى شكلها عند غيرهم: (إنّ ذكر الله في القلب عندهم صلاة ، ولو لم يقم أحدهم بالشكل المطلوب للصلاة).

(٨) الشاذلية: طريقة صوفية ترجع إلى مؤسّسها أبي الحسن الشاذلي المغربي (ت ٦٥٦ هـ).

(٩) الوفائية: طريقة صوفية مشتقّة من الطريقة الشاذلية (راجع الحاشية السابقة) وضعها محمّد بن محمّد بن محمّد الإسكندري الملقب بلقب السيّد محمّد وفا الشاذلي (ت ٧٦٥ هـ = ١٣٦٤ م).

- من كتاب «حكم ابن عطاء ...» (ص ٣٣):

وقدِ ٱخْتَصّتْ هذه التعاليقُ بثلاثِ خِصالٍ: إظهارُ المُناسبةِ في الكلام والاختصارُ في التقرير والتسهيل في البيان، مَعَ زِيادات أُخرَ تخُصُّ بعضَها وتعُمُّ كُلَّها[١]. مِنْ ذلك أنّ الكتاب مُحْتَوٍ على أربعةِ أنواعٍ: التذكيرُ والوعظُ، وهُوَ حظّ العَوامِّ[٢]، وللخَواصّ فيه نصيبٌ (ثمّ) الكلامُ على الأحكام، وهُوَ حقّ المُتوجّهين[٣] من كُلّ فريقٍ ولكلّ طريق (ثمّ) الكلامُ على الأحوال، وهو نصيبُ المُريدين[٤]، وربّما كان تنبيهاً وتشويقاً لغيرهم (ثمّ) الكلامُ على الحقائق، وهُوَ نصيبُ العارفين والمُحقّقين[٥]. وقد عَرَفَ كُلُّ أناسٍ مَشْرَبَهُم[٦] وما يَجْري به حالُهم وما يليقُ بهم.

- من متن كتاب «حكم ابن عطاء ...» (ص ٥٩ - ٦٠):

(قال ابن عطاء الاسكندريّ المتوفّى سنة ٧٠٩ للهجرة):

«الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سرّ الإخلاص فيها».

(وشرحها الشيخ زرّوق فقال):

قُلتُ: ولا عِبرةَ بصورةٍ لا روحَ فيها، كما أنّه لا قِيامَ لروحٍ دون صُورتِها. ويَحْتَمِلُ[٧] قولهُ: «سِرُّ الإخلاصِ» أنْ يكونَ ما هو أخَصُّ منه، وهو الصِّدقُ المُعَبَّر عنه بالتَبَرّي من الحَوْل[٨] والقوّة. وكِلاهُما مطلوبٌ: الإخلاص لِنَفْيِ الرياء، والصِّدقُ لِنَفْيِ

---

(١) هذه «الزيادات» منها ما يتعلّق بعدد من حكم ابن عطاالله، ومنها ما يتعلّق بجميع تلك الحكم.

(٢) العوام (هنا): الذين لم يسلكوا طريق التصوّف. والخواصّ هم السالكون في طريق التصوّف.

(٣) الأحكام = أحكام الشرع (في المعاملات)، كالبيع والشراء، والزواج والطلاق، وتقسيم الإرث (ممّا يحتاج إليه جميع الناس).

(٤) المريد: الذي بدأ السير في طريق التصوّف (بإرشاد أحد الشيوخ).

(٥) الحقائق: ما يعرفه الصوفي من طريق الإلهام (الإلهام للمتصوّف كالوحي للأنبياء). العارف: الصوفي الذي بدأ يتلقّى الإلهام. المحقّق: الصوفي الذي بلغ مرتبة «المعرفة القصوى» (وأصبحت الأمور تجري - في هذا العالم - بإرادته).

(٦) ﴿قد علم كلّ أناس مَشربَهم﴾ (٢: ٦٠، سورة البقرة) - المقصود (هنا): كلّ فريق يعرف مقداره ومكانته فيقف عند حدّه منها.

(٧) يحتمل أحد وجهين....

(٨) التبرّي = التبرّؤ (التخلّي عن أمر من الأمور). الحول: القوّة.

العُجْبِ[1]، وكِلاهُما لا كمالَ للعمل إلاّ به. فلذلك قال بعضُ المشايخ، رَحِمَهُ اللهُ: صَحِّحْ عَمَلَكَ بالإخلاص، وصَحِّحْ إخلاصَك بالتَبرّي من الحَوْل والقوّة. قال الشيخُ أبو طالبٍ المَكّيُّ[2]، رَضِيَ اللهُ عنه - عنه: والإخلاصُ عند المُخلصينَ إخراجُ الخَلْقِ من مُعاملةِ الحقّ. وأوّلُ الخَلْقِ النَّفْسُ. والإخلاص عند المُحبّين ألاّ يعملَ (المُحِبُّ) عملاً لأجلِ النَّفْس، وإلاّ دَخَلَ عليه مُطالعةُ عِوَضٍ أو مَيَلٌ إلى حظّ النفس. والإخلاص عند المُوحّدين خروجُ الخَلْق من مُعاملة الحقّ من النَّظَر إليهم في الأفعال وعَدَمِ السُّكون إلَيْهِمْ والاَستراحةِ بِهِمْ في الأحوال. آنتهى (كلام أبي طالبٍ المكّيّ). وكما أن الإخلاصَ حِصْنُ الأعمال، فالخُمول حُسْنُ الإخلاص، وهو طرحُ النفس فيما يَليقُ[3] بها من النقص والدَّناءة. وبِحَسْبِ هذا فهو دَفْنٌ (انتهى شرح زرّوق لحكمة ابن عطاء الله: «الأعمال صور قائمة...»).

٤- النصيحة الكافية لمن خصّه الله بالعافية، مصر (طبع حجر) ١٢٨١ هـ.
- قواعد التصوّف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة (صحّحه محمّد زهريّ النجّار)، القاهرة (مكتبة الكلّيات الأزهرية) بلا تاريخ؛ (ضبط ابراهيم اليعقوبي)، دمشق (مطبعة الملاّح) ١٩٦٨ م.
- شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، مصر ١٣٢٢ هـ.
- وظيفة سيدي أحمد زرّوق (الوظيفة الزرّوقيّة)، مطبوع مع «تنوير الأفئدة» لأحمد بن عبد الرحمن الساعاتي، مصر (المطبعة الجمالية) ١٣٣٣ هـ.
- حكم ابن عطا الله: شرح العارف بالله الشيخ زرّوق (تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف)، القاهرة (دار الشعب) ١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩ م.

** المنهل العذب ١: ١٨١، (؟)؛ الضوء اللامع ١: ٢٢٢؛ نيل الابتهاج ٨٤-٨٧؛ جذوة الاقتباس ٦٠؛ شجرة النور الزكيّة ٢٦٧؛ شذرات الذهب ٧: ٣٦٣-٣٦٤؛ بروكلمن ٢: ٣٢٨-٣٣٠، الملحق ٢: ٣٦٠-٣٦٢؛ سركيس ٩٦٥-٩٦٦؛ الأعلام للزركلي ١: ٨٧-٨٨ (٩١)؛ أعلام ليبيا ٦٥؛ النبوغ المغربي ١٣٨، ٢٠٧-٢٠٨، ٦٣١-٦٣٦؛ مجلّة كليّة الآداب (ليبيا)، العدد الثاني، ص ١٢٩ (١٩٦٨؟).

---

(١) العجب: الزهو (الفخر بالنفس). الكبر (بالكسر): التكبّر، الترفّع عن سائر الناس.

(٢) أبو طالب المكي هو محمد بن عليّ بن عطيّة الحارثي (ت ٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م) الزاهد الواعظ سكن بغداد، له كتاب «قوت القلوب» في التصوّف.

(٣) فيما يليق (كذا في الأصل). اقرأ: «طرح (ترك) النفس ما لا يليق بها.

ابن عبد الجليل التنسيّ

١ - هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ الجليلِ التَّنَسِيُّ التِّلِمْسانيّ ثمّ الأمويُّ (نفح الطيب ٢ : ٥٧٤) أصلُه من تَنَسَ (مدينةٍ ساحلية في الجزائر) ونشأ في تلمسانَ. وقد أخذَ عن جماعةٍ منهم (نيل الابتهاج ٣٢٩): أبو الفضل بنُ مرزوقٍ وقاسمٌ العقبانيّ (٧٦٨ - ٨٥٤ هـ) والإمام الأصوليُّ محمّدُ النجّارُ وإبراهيمُ التازيُّ (ت ٨٦٦ هـ). وتصدّرَ التَنَسِيُّ للتدريس، وكانتْ وفاتُه في جُمادى الأولى من سَنَةِ ٨٩٩ (أوائلِ ١٤٩٤ م).

٢ - كان ابنُ عبدِ الجليلِ التنسيُّ شيخَ شيوخِ زَمَنِهِ وحافظَ (محدّثَ) عصرِه إماماً في التفسير والفِقه والنحو ومؤرّخاً بارعاً له: راحُ الأرواح فيما قاله المَوْلى أبو حمّو من الشعر وقيل فيه من الأمداحِ وما يُوافق ذلك على حَسَب الاقتراح - نَظْمُ الدررِ والعُقيان في شَرَفِ بني زَيّانِ وذِكْرِ مُلوكِهم الأعيان. وكان له بَصَرٌ في الأدب والنَّقْد وشيءٌ من النظْم. لمّا وَقَفَ التنسيُّ على قصيدةِ لسانِ الدين بنِ الخطيب «أطْلَعْنَ في سَدَفِ الفُروع شُموساً» قال إنّ لسانَ الدين قد حذا في هذه القصيدة حَذْوَ أبي تمّامٍ في قصيدته «أقشيبَ رَبْعِهِمُ أراك دَرِيسا» (نفح الطيب ٦ : ٢٠١) ولم يقبَلْ أن يكون لسانُ الدين قد نَسَجَ على مِنوالِ قصيدةٍ من هذا البحرِ وهذا الرِوَيِّ لابنِ عبدونٍ «أذْهَبْنَ من فَرَقِ الفِراق نُفوسا» (نفح الطيب ٤ : ٣٠٥).

في الفِقه نَصٌّ على أن الزَّرَع للزارع (من زَرَعَ زَرْعاً في أرضٍ فله وحدَه الحقُّ في حَصاده). وكان شاعرٌ قد قال إنّ نَظَرَهُ إلى غُلامٍ حَمَلَ ذلك الغُلامَ على الخَجَل فاحْمرّ خدّه (وأصبح كالورد). فلماذا لا يجوزُ للشاعر أن يُقَبِّلَ ذلك الخدَّ لِيَقْطُفَ الوردَ الذي كان قد زَرَعه فيه. ويَرُدُّ التَنَسيُّ على ذلك بقوله: (نفح الطيب ٣ : ١١٣):

في ذا الذي قد قُلْتُمْ مَبْحَثٌ، إذ فيه إيهامٌ على السامعِ.
سَلّمْتُمُ الحُكْم له مُطْلَقاً. وغيرُ ذا نُصَّ عنِ الشارع.

يَقْصِدُ أنّ العينَ هِيَ التي زَرَعَتِ الوردَ في الخدّ (أحْدَثَتْ فيه الخجلَ) فلا يجوزُ للفَمِ أنْ يقطُفَ ذلك الوردَ لأنّه ليسَ الزارعَ.

٣- مختارات من آثاره

- احتفال أبي حمّو الثاني بالمولد.

قال ابنُ عبدِ الجليلِ التَنَسِيُّ في كتابه «راح الأرواح» (نفح الطيب ٦: ٥١٣ - ٥١٤):

إنّه[١] كان يُقيمُ ليلةَ الميلادِ النبَوِيّ، على صاحبهِ الصلاةُ والسلامُ، بمشورةٍ[٢] مِنْ تِلمْسانَ المحروسةِ مَدْعاةً حَفِيلةً يُحشرَ[٣] فيها الناسُ خاصّةً وعامّة. فما شِئْتَ من نَمارِقَ مصفوفةٍ وزَرابِيَّ مَبْثوثة[٤]، وبُسُطٍ مُوشّاةٍ ووسائدَ بالذهب مُغشّاة[٥] وشَمْعٍ كالأُسْطُوانات وموائدَ كالهالات[٦]، ومباخرَ منصوبةٍ كالقِبابِ يخَالُها المُبْصِرُ تِبْراً مُذاب[٧]. ويُفاضُ على الجميعِ أنواعُ الأطعمةِ كأنّها أزهارُ الربيعِ المُنَمْنَمَةِ[٨] تَشْتَهيها الأنفُسُ وتَلَذُّها النواظرُ، ويُخالِطُ حُسْنُ رَيّاها الأرواحَ ويُخامِرُ[٩]؛ رُتِّبَ الناسُ فيها على مراتِبِهِمْ ترتيبَ احتفالٍ، وقد عَلَتِ الجميعَ أُبَّهَةُ الوَقارِ والإجلال. وبِعُقْبِ ذلك يحتَفِلُ المُسْمِعون[١٠] بأمْداحِ المُصطفى عليه الصلاةُ والسلامُ ومُكَفِّراتٍ تُرَغِّبُ في

(١) أي أبا حمّو الثاني.

(٢) المشورة (مكان يجتمع فيه السلطان بأصحابه للتشاور- قصر كبير على مقربة من تلسمان؛ أذكُرُ أنّنا كنّا مقبلين من نزهة- في أحد ملتقيات الفكر الإسلامي (في الجزائر)- فنزلنا نزور بقايا قصر قيل، فيما أذكر، أنّه مشورة!).

(٣) مدعاة (جمعها مداع): دعوة، مأدبة. الحفيل: الكثير (يقال: جمع حفيل). يحشر الناس (يجمعون من كلّ مكان ومن جميع الطبقات).

(٤) ﴿ونمارق مصفوفة وزرابيّ مبثوثة﴾ من القرآن الكريم (٨٨: ١٥ - ١٦، الغاشية). النمرقة (بضمّ فسكون فضمّ): وسادة يتكأ عليها. الزربيّة: الحصير، البساط (ما يبسط أو يفرش على الأرض)، وقيل هي النمرقة. مبثوثة: مفروشة، متفرّقة.

(٥) موشّاة: مزركشة. مغشّاة: مغطّاة.

(٦) كالهالات (كناية عن اتّساعها). الهالة: ظاهرة ضوئيّة ترى محيطة بمصدر النور إذا كان ذلك النور محاطاً بجوّ رطب.

(٧) يخالها: يظنّها. التبر: الذهب. مذاب (كذا في الأصل) ويجب أن تكون مذاباً. ويمكن أن تكون: كأنّها التبر المذاب.

(٨) المنمنم: مرقّش، مزركش (لكثرة أنواعه) بأنماط صغيرة جدًّا.

(٩) الريّا: الرائحة الطيّبة. خامر: خالط.

(١٠) بعقب ذلك: بَعْدَ ذلك. المُسمع: المنشد (للشعر). وبعُقْبِ ذلك أيضاً.

الإقلاعِ عن الآثام [١]، يَخْرُجون فيها من فنٍّ إلى فنّ ومن أسلوبٍ إلى أسلوب ويأتون من ذلك بما تَطْرَبُ له النفوسُ وترتاح إلى سَماعه القُلوب. وبالقُرْبِ من السُّلطان، رِضوانُ اللهُ تعالى عليه، خِزانةُ المِنْجانةِ قد زُخْرِفتْ كأنّها حُلّةٌ يَمانيّةٌ [٢]، لها أبوابٌ مُوجَفةٌ على عددِ ساعاتِ الليل الزمانية [٣]. فمهْما مَضَتْ من ساعةٍ وَقَعَ النَّقْرُ بقَدْرِ حِسابها وفُتِحَ عند ذلك بابٌ من أبوابها وبَرَزَتْ منه جاريةٌ صُوِّرَتْ في أحسنِ صورةٍ في يَدَها اليُمني رُقعةٌ مُشتملةٌ على نَظْمٍ فيه تلك الساعةُ باسْمها مَسطورةٌ [٤]، فتَضَعُها بين يَدَي السُّلطانِ بلَطافةٍ، ويُسْراها على فَمِها كالمُؤَدِّيةِ بالمُبايعة حقَّ الخِلافة. وهكذا حالُهم إلى آنْبِلاج عَمودِ الصباح ونِداءِ المُنادي: حَيَّ على الفلاح [٥]!

٤ - ★★ الضوء اللامع ٨: ١٢٠؛ شجرة النور الزكية ٢٤٨؛ نيل الابتهاج ٣٢٩ - ٣٣٠؛ نفح الطيب ١: ٦٨١، ٢: ٥٧٤، ٣: ١١٣، ٤: ٣٠٥، ٦: ١٩٥، ٢٠١، ٥١٣ - ٥١٧؛ أزهار الرياض ١: ٢٤٣ - ٢٤٤؛ معجم أعلام الجزائر ١٥٩ - ١٦٠؛ بروكلمن ٢: ٣١٣، الملحق ٢: ٣٤١؛ الطهار ٢٢٦ - ٢٢٨؛ سركيس ٦٤٣؛ الأعلام للزركلي ٧: ١١٦ (٦: ٢٧٨)؛ معجم المؤلفين ١٠: ٢٢٢.

اللؤلؤي الزركشي

١ - هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ إبراهيمَ بنِ لُؤلُؤٍ، عُرِفَ باللؤلؤي نِسْبَةً إلى جَدِّهِ الذي

---

(١) المكفّرات: أشعار تقال في التزهيد فتكفّر (تغفر) ما كان من عبث (حاشية في نفح الطيب ٦: ٥١٣). الآثام: الذنوب.

(٢) المنجانة: آلة لتقسيم الوقت (ساعة دقّاقة). وفي نفح الطيب (٦: ٥١٤ - ٥١٥) وصف مفصّل للمنجانة لابن عبد الجليل التنسي نفسه. زخرفت: زيّنت. حلّة: ثوب. يمانية: من نسج اليمن (اشتهرت اليمن بالنسيج الجميل). أو هي الساعة الرملية (راجع أزهار الرياض ١: ٣٠٩).

(٣) موجفة: مغلقة.

(٤) نظم: شعر فيه تعيين الساعة، يخاطب به السلطان، نحو (عند تمام الساعة السادسة):

يا ماجداً وهو فرد تخاله في عساكر،
«ستّ» من الليل ولّت، ما إن لها من نظائر.
دامت لياليك، حتّى إلى المعاد، نواضر!

(٥) المنادي: المؤذن. «حيّ على الفلاح» من فقرات (بكسر ففتح) الأذان (أي إلى طلوع الفجر).

كان - فيما يبدو - مَملوكاً لا نَعْرِفُ له سِلسلةَ نَسَبٍ. ويبدو أنّ اللؤلؤيَّ الزركشيَّ[1] قد وُلِدَ في نحو سَنَةِ ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) ثمّ بدأ تَعَلُّمه، بعدَ سَنَةِ ٨٤٠ هـ على نفرٍ منهم: محمّدُ ٱبنُ عُمَرَ القلشانيّ (ولعلّه لازمَ القلشانيَّ هذا مدّةً طويلةً) وأحمدُ القُسَنْطينيّ ومحمّدُ البيدموريّ وأبو البركاتِ محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ عصفورٍ في الأغلب. غيرَ أنّ علومَه التي حَصَلَ عليها كانتْ - فيما يبدو - نُتَفاً، فإنّ كتابَه في التاريخِ لا يَدُلُّ على إحاطةٍ واسعةٍ بفنونِ المعرفة.

ويبدو أيضاً أنّه كان كاتباً في الدولة يعمل في خُطّة العَدْل، ولكنّه لم يكنْ من الرؤساء. أما وفاتُه فيُمْكِنُ أن تكونَ في السَّنَوات الأُوَلِ من القرنِ العاشر[2].

٢ - كان اللؤلؤيُّ الزركشيّ مُدَوِّناً للأحداثِ ولم يكن عَالماً بالتاريخ ومَجْراه. ولكنّ أهمّيّة كتابِ الزركشيّ أنّه مِنْ عصرٍ قلّ فيه تدوينُ التاريخ في تونسَ. ومادةُ الكتاب أحداثٌ مُفْردةٌ يتخلّلُها انقطاعٌ في السِّلسِلةِ التاريخية مرّةً بعدَ مرّةٍ. وفي لُغةِ المؤلّفِ ضَعْفٌ، مَعَ أنّه يُحاولُ التسجيعَ أحياناً. ويُمْكِنُ أن نَعُدَّ المؤلّفَ شاهدَ عِيانٍ للحوادثِ المُتعلّقةِ بالقرنِ التاسعِ (ص ١١٤ - ١٥٩). أمّا المُلْحَقُ (ص ١٦٢ - ١٦٨)، وهو شِبْهُ تلخيصٍ للكتاب ثمّ ٱستئنافٌ للتدوينِ حتّى سَنَةِ ٨٣٩ هـ (١٤٣٥ م)، فالأغلبُ أنه إضافةٌ ليستْ للمؤلّف.

٣- مختارات من آثاره

- مدخل «تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية»:

الحمدُ لله الذي جعلَ الأيامَ دُوَلاً، وصيَّر بعضَ الناسِ لبعضٍ خَوَلاً[3]، وجعلَ لهم في المطامع أملاً، ﴿لا يَبْغونَ عنها حِوَلاً﴾[4].

---

(١) لم اهتد إلى وجه لقبه «الزركشي»، إلّا إذا كانت «الزركشة» صنعة لأبيه أو لجدّه (بعد تحرّره) أو له.

(٢) إذا قبلنا أن يكون مولده سنة ٨٢٠، لم يبق وجه لقول بروكلمن إنّه ألف كتابه نحو ٩٣٢ هـ، ولا لتقدير خير الدين الزركلي أنّه توفيّ بعد ٩٣٢ هـ (١٥٢٥ م).

(٣) دولة: كلّ مدّة لقوم. الخول: الخدم.

(٤) آية كريمة (١٨ : ١٠٩، سورة الكهف): لا يبغون (يريدون) عنها (عن الجنّة) حولا (انتقالا). - ذلك ميل ثابت فيهم.

- حملةٌ صليبية من فرنسة وجنوة على المهديّة[1]:

وفي سَنَةِ ثِنْتَيْنِ وتِسْعينَ نَزَلَ النصارى المَهديّةَ في مِائَةِ قطعةٍ بين مراكبَ كبيرةٍ وأغْرِبَةٍ[2]. فوجّه السلطانُ أحمدُ مَحلّةً[3] نزَلَتْ قُربَ البلدِ قَدّمَ عليها وَلَدَهُ المولى أبا فارسٍ وأصْحَبَهُ بأخيه أبي زكريا. فاتّفق للمولى أبي فارسٍ عبدِ العزيزِ مَعَ النصارى وقائعُ منها في يومِ نزولهم وقعتْ بينَهم وبين النصارى حروبٌ كان للمسلمين فيها جَوْلَةٌ بحيثُ أسْلموا المَحَلّة، ودَخَلَها العدُوُّ ولم يَجِدْ فيها عيناً تَطْرِفُ عدا رجلاً واحداً مُشاغباً قتلوه. وبينَما هم (النصارى) في جمعِ الأزوادِ والأسباب[4] إذا بالمولى أبي فارسٍ نادى في المُسلمين وجَمَعَ القوّادَ ومن حَضَرَهُمْ من الجُند وكرّ راجعاً تِجاهَ العَدُوِّ حتّى أخذ المحلّةَ من أيديهم قَهْراً. فحَمِيَتِ العَرَبُ[5] وانصرفَ العدوُّ مُنْهَزِماً. وقُتِلَ منهم نحوُ خَمْسةٍ وسبعينَ رأساً. وواجه العد[6] بنفسِه ودَفَعَ في صُدورهم دُفْعةً شَتّتَ بها شَمْلَهم. فلم يَلْتَفِتْ إلّا والعدوُّ قد أحاطَ به من كلِّ جِهَةٍ. وعَلِمَ العدوُّ أنّه ابنُ الخليفة - ومن عادتِهِمْ في الحرب أنّهم إذا أخذوا مَلِكاً أو ٱبنَ مَلِكٍ فإنّهم لا يُنْزِلونه عن فَرَسِهِ - فأخذوا بعِنانِ فَرَسِهِ وساروا به. فألْهَمَهُ اللهُ سبحانه خلْعَ عِنانَ فرسِهِ من رأسِهِ وألحّ (على) الفرسِ وهَمَزَهُ[7]. فخَرَجَ الفرسُ من بَيْنِهم، فرَمَوْهُ بسِهامٍ وأسِنّةٍ، واتّبعوه بخَيْلٍ وأعِنّةٍ[8]، وهو لا يلْتَفِتُ إلى أن وَصَلَ إلى المسلمين وسَلّمه اللهُ عزّ وجلّ. ثمّ إنّ النصارى اختلفوا فيما بينَهم، وأرادَ الجَنَوِيُّ الغدر بالفرنسيّ، فارتحل الفرنسيُّ

---

(١) جنوة (في شمال غربي إيطالية) كانت في العصور الوسطى جمهورية مستقلّة.

(٢) = ٧٩٢ هـ (١٣٩٠ م). المصادر المغربية تعني بالروم وبالنصارى الإفرنج عامّة (الأوروبيّين). الملموح أن «الغراب» هنا سفينة صغيرة.

(٣) هو أبو العبّاس أحمد (٧٧٢ - ٧٩٦ هـ). محلّة: (؟)

(٤) الأزواد جمع زاد: الطعام. الأسباب: الوسائل، الآلات (يقصد: الغنائم).

(٥) حميت: ٱشتدّت (في الحرب). العرب: البدو.

(٦) لعلّ الجملة التامّة: وواجه أبو فارس العدوّ.

(٧) ألحّ على الفرَس (حثّه على الركض!). همزة: نخسه (بمهازين في الحذاء) في بطنه.

(٨) أسنّة جمع سنان (الحديدة التي في رأس الرمح - ولا معنى لها هنا، ولعلّه أتي بها لتكون سجعة مع «أعنّة» جمع عنان: لجام، كناية عن الخيل).

بسُفُنهِ. ولمّا رأى الجَنَويُّ أنّه لا يَقْدِرُ وَحْدَه رَحَلَ أيضاً. وكفى اللهُ المُسلمينَ شرَّهم. فانصرفوا خائبين.....

٤- تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية، تونس (المطبعة الرسمية) ١٢٨٩ هـ؛ (بتحقيق محمّد ماضور)، تونس (المكتبة العتيقة) ١٩٦٦ م.

★★ شذرات الذهب ٧: ٣٦٣ - ٣٦٧؛ بروكلمن ٢: ٦٠٦، الملحق ٢: ٦٧٧؛ سركيس ١٦٠٠؛ الأعلام للزركلي ٦: ١٩٢ (٥: ٣٠٢)؛ المكتبة العربية الصقلّية ٥٢٢ - ٥٢٤؛ مجلّة الندوة التونسيّة (مقال بقلم محمّد الشاذلي النيفر)، مايو - أيار ١٩٥٣ م.

شهاب الدين (بن) الخلّوف

١- هو شِهابُ الدينِ أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ أبي القاسمِ بن محمّدِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ الخلّوفِ الحِمْيَريُّ الفاسيّ التونسيّ، وُلِدَ في ثالثِ المُحرَّمِ من سَنَةِ ٨٢٩ (١٤٢٥/١١/١٥ م).

ذهبَ شِهابُ الدين بنُ الخلّوفِ في أوائلِ حياتهِ مَعَ والده إلى الحِجاز. وبعد أربع سَنَواتٍ انتقل مَعَ والده أيضاً إلى القُدس حيث حَفِظَ القرآن ولازم المقرىء أبا القاسمِ محّمّدَ بنَ محمّدٍ النُويري (٨٠١ - ٨٥٧ هـ) وأخذ عن الشِّهابِ بن رِسلانَ والعزِّ القُدسي وغيرهم.

وفي سَنَةِ ٨٥٩ هـ (١٤٥٥ م) تُوُفِّي والده فعادَ إلى المَغْرب ثمّ استقرّ في تُونِسَ وانقطعَ إلى السُّلطانِ الحفصيّ أبي عُمَرَ عُثْمانَ (٧٣٩ - ٨٩٣ هـ) وأكثرَ من مَدْحه. وفي سَنَةِ ٨٧٧ هـ حجّ ثانيةً، فلمّا مرّ بالقاهرة لَقِيَ السخاويَّ صاحب «الضوء اللامع» (ت ٩٠٢ هـ).

وكانت وَفاةُ شهابِ الدين بن الخلّوف في سَنَةِ ٨٩٩ هـ (١٤٩٣ - ١٤٩٤ م) في تونس.

٢- كان شِهابِ الدين بنُ الخلّوف أديباً بارعاً في النثر والنظم ولذلك سُمِّيَ ذا الصِّناعتين. كما كانت له مَعْرِفةٌ بالنحو. وهو شاعرٌ مُكثِرٌ مُطيلٌ له بديعيّاتٌ ومُوشّحاتٌ.

وفي شعرِهِ تقليدٌ للمشارقة. ثمّ إنّ أوْصافَه في الطبيعة جيادٌ في ألفاظِها. ولكنّ استعاراتِه بعيدةٌ جِدًّا، وكثيرٌ من مُعانيه - من أجلِ ذلك - غامضٌ. ثمّ هو مصنّف له: تحرير الميزان لتصحيح الأوزان (عَروض) - مواهب البديع.... (ميمية في علم البديع) - شرح مواهب البديع - عُمدة الفارض (أرجوزة في الفرائض: تقسيم الإرث) - جامع الأقوال في صِيَغ الأفعال - أُرجوزة في تصريف الأسماء والأفعال - نظم المغني (في النحو). وله ديوان فيه تفسير منامات وأدعية.

ويبدو آحتذاءُ آبنِ الخلّوف للمشارقة واضحاً جِدًّا - وإن كان بارعاً جدًّا أيضاً - في المقطوعة الواردةِ في «مختارات من شعره»، فإنّها تقليدٌ لقصيدةِ البُحتريِّ التي يقول فيها (في وصف الربيع):

أتاكَ الربيعُ الطّلْقُ يختالُ ضاحكاً ... مِنَ الحُسْنِ حتّى كادَ أنْ يتكلّما.
وقد نبّهَ النَّيْروزُ في غَلَسِ الدُّجى ... أوائلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأمسِ نُوَّما.

٣ - مختارات من شعره

- قال شِهابُ الدينِ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ الخلّوف في وصف الطبيعة:

رأى البرقُ تعبيسَ الدُّجى فتبسّما ... وصافحَ أزهارَ الرُّبى فَتَنَسّما[١].
ورقّ لِواءُ البرقِ لَمّا تَلاعَبَتْ ... سوابقُ خيلِ الريحِ في حَلْبة السما[٢].
وقد بلّ أردانَ الثَّرى دمعُ مُزْنَةٍ ... تناثَرَ في أسلاكِها فتنظّما[٣].
وجرّ على هامِ الرُّبى ذَيْلَ وَبْلِه ... فدبّجَ أثوابَ الرُّبوعِ وسَهّما[٤].

---

(١) تنسّم (قلقة هنا في المعنى) وفي القاموس: تنسّمت الريح (هبّت رويداً رويداً) وتنسّم فلان (تنفّس) وتنسّم المكان (أصبحت رائحته طيّبة).

(٢) الحلبة: الميدان الذي تجري فيه خيل السباق.

(٣) الردن (بضمّ الراء): طرف الثوب. المزنة: المطر. - نقط الماء التي تشبه اللؤلؤ، والتي سقطت متناثرة (متفرّقة)، قد ظلّ بعضها (بعد توقّف المطر) عالقاً بالغصون، فكأنّ الغصون أسلاك وخيوط للعقود، وكأنّ نقط الماء العالقة بها لآل منتظمة في عقود.

(٤) الوبل: المطر. دبّج المطر الأرض: سقاها فاخضرّت وأزهرت. سهّم الثوب: صوّر فيه سهاماً (خطوطاً).

تَلَوّى بأكْنافِ السَّحابِ فخِلْتُه حُباباً تَلوّى أو حَباباً تَلوّما[1].
وخَطّ بطِرْسِ الجوِّ سَطْراً مُذَهَّباً فنَقّطَه قَطْرُ الغَمامِ وأعْجما[2].
وشابَ لُجينَ الطَّلِّ عسجدُ بارِقٍ فدنّر أزهارَ الربيعِ ودَرْهَما[3].
ودارَ بِساقِ الغُصْنِ خَلخالُ جدولٍ ووشّحَ أعطافَ الغُصونِ وعمّما[4]،
إلى أن أماطَ الفجرُ فَضْلَ لِثامهِ ونوّرَ بالإسفارِ ما كان أظْلما[5].
ونبّهَ داعي الصُّبحِ إذْ هَبّتِ الصَّبا لواحظَ زَهْرٍ كُنّ في الليل نُوّما .

– وقال ابن الخلّوف مُخَمِّساً بيتينِ لآبنِ الأحمر*:

أماطَ الهوى عن واضحي بُرقُعِ النُّسكِ فوحّدتُّ مَنْ أهواه عن هُوّةِ الشِّركِ[6].
فقُلتُ، وقد أفْتَتَ لِحاظُك بالفَتْكِ: (أفاتكةَ اللحظِ التي سَلَبَتْ نُسكي[7]،
على أي حالٍ كان لا بُدَّ لي مِنكِ).

---

(١) يصعب تفسير هذا البيت (إذ يبدو أن بيتاً أو أكثر من بيت سابق عليه قد حذف). الملموح أن البرق يظهر من أطراف السحاب خطوطاً متعرّجة (منكسرة) فخلته (ظننته) حباباً (بالضمّ: ثعباناً) تلوّى: تعرّج في زحفه (مسيره، جريه) ثمّ مر (اختفى) أو حباباً (بالفتح: خطوطاً وحواجز تشكّلها الريح في رمال الصحراء) تلوّماً (تلبّث، بقي، دام).

(٢) الطرس: الورقة يكتب عليها. مذهّباً (أحمر: لون البرق) فنقّطه قطر الغمام (وضع عليه نقطاً) وأعجم اقرأ: فأعجم (مازَ بعض الحروف من بعض بوضع النقط عليها). البرق لا يرى واضحاً من خلال المطر المتساقط (؟).

(٣) وكما أن سقوط المطر قد جعل البرق قليل الوضوح (راجع البيت السابق)، فكذلك: (هذا البرق) شاب (خلط، مزج) لجين الطلّ (فضّة المطر، المطر الأبيض كالفضة) بعسجد (ذهب) فدنّر أزهار الربيع (جعل شيئاً منها كالدنانير الذهب) ودرهم بعضها الآخر (جعلها بيضاء كالدراهم الفضّية).

(٤) ودار النهر بجانب الأشجار كما يحيط الخلخال بأرجل النساء (الجميلات). ووشّح (النهر؟) أعطاف (جوانب) الغصون (بالورق الأخضر) وعمّمها (جعل لها عمامة: جعل في أطرافها أزهاراً؟).

(٥) أماط: أزاح. الإسفار (بكسر الهمزة) الكشف عن الوجه (أسفر الصبح: بان، ظهر).

(*) ابن الأحمر؟

(٦) أماط: أزال، كشف. واضحي (وجهي؟) برقع النسك (النسك المألوف عند الناس: النسك الشكلي). وحّدت (في الأصل وجدت – بالجيم). الهُوّة: الحفرة العميقة أو هويّة (بضمّ فواو فياء: حقيقة). – في الأبيات معان صوفية.

(٧) الفتك: القتل.

يمينـــاً، بِنَجْمِ القُرطِ، مِنْكِ إذا هَوى وخالٍ على عرشٍ بِوَجْنَتِكِ آستوى[1]،
لئن لم تَفي، لا بُدّ للقلبِ ما نَوى: (فإمّا بِذُلٍّ، وهو أَلْيَقُ بالهوى؛
وإمّا بعِزٍّ، وهْوَ أَليَقُ بالمُلكِ).

٤- ديوان (أحمد بن أبي القاسم الخلّوف الأندلسي)، بيروت (المطبعة السليمية) ١٨٧٣ م(★).

★★ موشّحة (في كتاب «الدراري السبع والموشّحات الأندلسيّة»، بيروت ١٨٧٦ م)؛ الضوء اللامع ٢: ١٢٢ - ١٢٣؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ٢٢٤ - ٢٣٠؛ تاريخ الجزائر العام ٦٤ - ٦٦؛ أعلام الجزائر ٣٩؛ بروكلمن ٢: ٣٠٧، الملحق ٢: ٣٣١؛ الأعلام للزركلي ١: ٢٢١ (٢٣١)؛ سركيس ٩٩ - ١٠٠، ٨٣٣؛ الطمّار ٩٨ - ٩٩؛ معجم المؤلفين ٢: ١١٨.

أبو العبّاس الونشريسيّ

١- هو أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ يحيى بنِ محمّدِ بن عبدِ الواحد بنِ عليٍّ الوَنْشَريسيُّ- نِسبةً إلى ونشريسَ، وهُوَ جبلٌ في القُطر الجزائريِّ-، وكان مولدُه في تِلِمْسانَ، نحوَ سَنَةِ ٨٣٤[2] للهجرة (١٤٣٠ م).

ويبدو أنّ الونشريسيَّ قد بدأ تلَقّي العِلمِ باكراً على نفَرٍ منهم: والِدُه (وكانَ والدُه من العلماءِ المُدرّسين) ثمّ أبو الفَضْل قاسمُ بنُ سعيدٍ العَقبانيّ (ت ٨٥٤ هـ) وشيخُ الجماعةِ أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ العبّاس التِلِمْسانيُّ (ت ٨٧١ هـ) وأبو عبدِ الله محمّدُ بنُ أحمدَ الجلّابُ (ت ٨٧٥ هـ)- وقاضي الجماعةِ بتِلِمسانَ أبو سالمٍ إبراهيمُ بنُ قاسمٍ العَقبانيّ (ت ٨٨٠ هـ) وهُوَ آبنُ أبي الفضلِ العَقبانيّ المذكورُ آنِفاً- ومحمّدُ بنُ محمّدِ بنِ مَرْزوقٍ الكفيفُ (ت ٩٠١ هـ).

(١) القرط: حلية تعلّق بالأذن. هوى القرط (كان معلّقاً بأذن امرأة ذات عنق طويل- والطول المعتدل في أعناق النساء من صفات الجمال فيهنّ).

(★) راجع ملاحظة في سركيس (معجم المطبوعات العربية): كتب بآخر الديوان أن (؟) قد تمّ طبعه في دمشق سنة ١٢٩١ الموافقة لسنة ١٨٧٤ م....»

(٢) هذا التقدير من كتاب «تاريخ الجزائر العام»، تأليف عبد الرحمن بن محمد الجيلاني (٢: ٣٢٦).

وفي أوائلِ المُحرَّمِ من سَنَة ٨٧٤ (تموز- يوليو ١٤٦٩ م) جَرَتْ على الوَنْشريسيِّ كائنةٌ (حادثة) على أثَرِ خِلافٍ معَ أحدِ رجالِ الدولة عرّضتْه لغضبِ السلطان أبي عبدِ اللهِ مُحمّدٍ المتوكّلِ (٨٦٦ - ٨٨١ هـ) فنُهِبَتْ دارُه، ففرّ بنَفْسِه إلى مدينةِ فاس. إنّ التاريخَ لم يحفَظْ لنا رِوايةَ هذه الحادثةِ، وإنْ كُنّا نعلَمُ أنّ تلك الحِقْبةَ كانتْ حِقبةَ فِتَنٍ داخليّةٍ كثيرة.

وأخـذَ أبو العبّاسِ الونشريسيُّ، منذُ نُزولهِ في مدينةِ فاس، يحضُرُ مَجلِسَ أبي عبد الله محمّدِ بنِ عبدِ الله اليَفَرْنِيِّ المعروفِ بلقبِ القاضي المِكناسيّ (ت ٩١٧ هـ). ثمّ إنّ السُّلطانَ المَرِينيَّ محمّدَ بنَ محمّدٍ المعروفَ بالشيخِ البُرتقاليِّ (٨٧٥ - ٩٣١ هـ) قدّمَهُ للتّدريس، فتَصدّرَ حينَئذٍ لِتَدْريس الفِقهِ مُعتَمِداً في ذلك «المُدَوَّنَةَ» للإمامِ سَحْنونٍ (ت ٢٤٠ هـ) وفُروعَ[1] آبنِ الحاجبِ.

وآستمرّ الوَنْشريسيُّ في التدريسِ في فاسَ- لم يُغادِرْها قَطُّ- إلى حينِ وفاتهِ في العِشرين من صَفَرَ من سَنَةِ ٩١٤ (٢٠/٦/١٥٠٨ م).

٢- كان أبو العبّاسِ الونشريسيُّ كَثيرَ الآجتهادِ والمُطالعة. ومعَ أنّهُ كان مُشاركاً في عددٍ مِنَ العُلوم، فإنّه آقتَصَرَ في التدريسِ على فُروعِ الفِقْه[2]. وكان واسعَ المَعرِفةِ بهذه الفُروعِ حتّى أصبح «حاملَ لِواءِ المذهبِ على رأسِ المائةِ التاسعةِ»[3] (نيل الابتهاج ٨٧).

وكذلك كانتْ له بَراعةٌ في النَّحْوِ، كما كان فصيحَ الكلامَ بليغاً في التعبير. وكانَ له أيضاً شيءٌ من النَّظْمِ.

---

(١) هذا الكتاب «مختصر الفروع» أو «جامع الأمهات» راجع بروكلمن ١: ٣٧٣، الملحق ١: ٥٣٨ س، لابن الحاجب، وهو جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر. والفروع (هنا) هي العبادات (الصوم والصلاة.....) والمعاملات (الزواج، البيع، الفرائض أو تقسيم الإرث، الخ). راجع في وصف هذا الكتاب وفي قيمته ومكانته مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٠٠ م، ص ٤٥٠، السطر الرابع من أسفل؛ بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦١، ص ٨٠٨ - ٨٠٩).

(٢) راجع الحاشية السابقة.

(٣) إذا كان رأس القرن أوّله (قياساً على المتعارف بقولنا: «رأس») فيكون الونشريسي «حامل لواء المذهب» على رأس المائة (القرن) العاشرة (راجعِ أيضاً «تاريخ الجزائر العام» ٢: ٣٢٦).

وكان الونشريسيُّ مُصَنِّفاً وَضَعَ عدداً من الكُتُبِ أكثرُها في الفِقه المالكيّ. من هذه الكُتُب: إيضاحُ المسالكِ إلى قواعدِ الإمامِ مالكٍ - الفُروقُ في مسائل الفِقه: عدةُ البُروق في تلخيص ما في المذهب من الجُموع والفُروق - الوِلاياتُ في مناصبِ الحكومةِ الإسلامية والخُطَطِ الشَّرْعية - القواعدُ في الفِقه - المِعيارُ المُعْرِبُ عن فَتاوى عُلماءِ إفريقِيَةَ والأندلسِ والمَغرب - غُنْيَةُ المُعاصِر والتالي في شرحِ وثائقِ الفشتاليّ[1] - المُخْتَصَرُ من أحكامِ البُرْزَليّ[2] - القَصْدُ الواجبُ في معرفة ٱصطلاحِ ٱبنِ الحاجب - حلُّ الرِبْقة عن أسيرِ الصَّفْقة[3] - إضاءة الحَلَكِ في الرَّدّ على من أفتى بتَضْمينِ الراعيِ المُشترَكِ[4] - فِهرِسَةُ شُيوخِه - شرحُ الخَزْرَجِيّةِ في العَروض[5] - وَفَياتُ الونشريسيِّ - تَرْجَمة مُحمّدٍ المَقّريّ (الجَدّ).

أمّا أهمُّ كُتُبِه فهُوَ كتاب «المِعيارُ المُعْرب....»، ٱنتهى من تأليفِه سَنَةَ ٩٠١ للهِجرة (١٤٩٦ م)، وهُوَ كتابٌ كبيرٌ (مطبوعٌ في ٱثْنَيْ عَشَرَ جُزْءاً) وشاملٌ يكادُ يُحيطُ بجميعِ بحوثِ مذهبِ الإمام مالكٍ. والكتابُ مُشتَمِلٌ على فَتاوَى الفُقهاءِ الذين كانوا في إفريقيَةَ (القُطر التّونسيّ) وفي الأندلس وفي المغرب (القُطْرَيْنِ الجزائريِّ والمَغْرِبيّ). ثمّ هُوَ، بما فيه من الفتاوى المُختلفةِ المَوْضوعاتِ، يُمْكِنُ أن يكونَ صورةً للْحياة في المَغرب والأندلس بما فيها من الميادين الحَضاريّة في الٱجتماعِ والسِّياسة والٱقتصاد والدِّين والعِلم والتَّرْبِيَةِ. وفيه وصفٌ مبسوطٌ في المدارسِ لذلك العَهْدِ[6] من حيثُ الوصفُ للأمكِنَةِ ومن حيثُ مناهجِ الحياة فيها. غير أنّه يَنُوءُ - بِسَبَبِ ٱتّساعهِ وشُموله وتَبَعاً لطبيعةِ الفَتاوى التي هي نِتاجُ حاجاتٍ طارئةٍ في الأكثرِ - بِشيءٍ كبيرٍ من الصُّعوبة في الوصول

---

(١) الفشتالي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٧٧ هـ) قاضي مدينة فاس.

(٢) البرزلي أبو القاسم بن أحمد (٧٤١ - ٨٤٤ هـ، عاش مائة وثلاث سنوات) من أئمة المالكية وكان ينعت بشيخ الإسلام، له «جامع مسائل الأحكام مما نزل من القضايا للمفتين والحكام».

(٣) الربقة: الحبل. حل الربقة: فك المقيد أو تفريج كربة المكروب. عن أسير الصفقة (عقد البيع؟).

(٤) الحلك: الظلام. تضمين الراعي المشترك (؟).

(٥) القصيدة الخزرجية (= الرامزة الشافية) لضياء الدين أبي محمد عبد الله بن محمد الأنصاري الخزرجي الأندلسي (ت ٧٢٦ أو ٧٢٧ هـ).

(٦) لذلك العهد (في زمن الونشريسيّ).

إلى مُفرداتِ حقائقهِ. إنّه مُحتاجٌ إلى فهارسَ لأعلامِ الرجالِ وللموضوعات أيضاً.

- ٣ - مختارات من آثاره

- قال الونشريسيُّ في «صِفة المُدرِّس» وفي التَحْبيس - أي «وَقْفِ المدارس»[١] على التعليم (أزهار الرياض ٣: ٣٥):

مِنْ هُنا نعلَمُ أنَ إطلاقَ آسم المُدرِّس على المُقْتَصِرِ على نَقْلِ تَقايِيدِ[٢] الرِّسالة[٣] والمُدَوَّنةِ[٤] - من غيرِ فَتْشٍ ولا تنزيلٍ ولا كَشْفٍ[٥] وآستظهارٍ بغيرِها[٦] - مَجازٌ لا حقيقة[٧]. وهذا الوصفُ[٨] كاد أنْ يَعُمَّ أهلَ الوقتِ أو عَمَّهُمْ[٩]. فنسألُ اللهُ العظيمَ المَغْفِرةَ مِنَ التَطَفُّل[١٠] وتَعاطي ما ليس في المَقْدور .

- وقال في حال نفَرٍ من طالبي العِلْمِ (أزهار الرياض ٣: ٣٥ - ٣٦):

تأمَّلْ ها هُنا الثناءَ على شيخِ الإسلام الإمامِ أبي عبدِ الله بنِ عَرَفَةَ[١١] - أسْكنَه

---

(١) الوقف: التبرّع بمرافق الحياة (من بناء وماء وأرض) يكون ريعها لمنفعة المحتاجين.

(٢) التقييد: ملاحظات يعلّقها العلماء على الكتب المشهورة.

(٣) الرسالة كتاب في الفقه (في تعليم الولدان أصول الدين) لأبي محمّد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المتوفّى سنة ٣٨٦ هـ (راجع ترجمته في الجزء الرابع من هذه السلسلة).

(٤) المدوّنة (الكبرى): كتاب في الفقه المالكيّ اجتمع من رواية كبار فقهاء المذهب لعبد السلام بن سعيد المعروف بلقب سحنون (ت ٢٤٠ هـ) عن عبد الرحمن بن القاسم (ت ١٩١ هـ) عن أسد بن الفرات (ت ٢١٤ هـ) بالاستناد إلى «الموطّأ» لمالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ).

(٥) فتش عن الشيء فتشاً (بفتح فسكون): سأل عنه أو بحث عنه. التنزيل: الترتيب، وضع الشيء في منزله (موضعه). الكشف (عن المعنى الغامض).

(٦) الاستظهار: إيراد مثل أو قول لآخرين يجعل حجّة الأستاذ (أو المؤلّف) أقوى.

(٧) اقرأ: يسمّى مدرّساً على المجاز لا على الحقيقة.

(٨) هذا الوصف (أي اقتصار نفر من المدرّسين على نقل أقوال غيرهم بلا تفسير ولا تحقيق).

(٩) اقرأ: أو هو قد عمّهم.

(١٠) التطفّل (هنا) جرأة المدرّس على تدريس فنّ لا يتقنه.

(١١) هو محمّد بن محمّد بن عرفة الورغميّ (٧١٦ - ٨٠٣ هـ) إمام تونس وعالمها في عصره، تولّى إمامة الجامع الأعظم في تونس والخطابة فيه أيضاً والفتوى، له: المختصر الكبير (في الفقه المالكي) - المختصر الشامل (في التوحيد) - المبسوط، الخ.

اللهَ دارَ السلام [١] – وعلى تآليفِه، ولا سِيّما مُخْتَصَرُه الفِقْهِيُّ [٢] الذي أعجزَ معقولُه ومنقولُه الفُحولَ [٣]، خِلافاً لِبَعْضِ القاصرين من طَلَبَةِ فاسَ، فإنّهم يقولون: «ما يقولُ (هذا) شيئاً»، يُريدون أنْ يُطفِئوا نورَ اللهِ [٤]، ويَحْتقرون [٥] ما عظّم الله. ومُسْتَنَدُهُمْ في ذلك بِزَعْمِهم حِكايةٌ تؤثَرُ عنِ الشيخ المُحَقِّق أبي العبّاسِ القَبّاب [٦]، لا رأسَ لَها ولا ذَنَبٌ [٧]. وحاشاه من ذلك. وما أراهمُ في ذلك إلّا كما قالَ الأوّلُ [٨]:

وكَمْ من عائبٍ قولاً صحيحاً، وآفَتُه من الفَهْمِ السقيمِ.

....

وقد حَبَّسَ ملوكُ المَغْرب – رِضْوانُ اللهِ عليهم – بِخِزانَتَيِ القَرَوِيّينَ والأندلُسِيّين [٩] من هذا الديوان [١٠] المَمْلوكِ نُسَخاً عديدةً؛ ثمّ لا يُعَرِّجُ عليها للمُطالعة في هذا الوَقْتِ أحدٌ من طَلَبَةِ الحَضْرةِ [١١] شِتاءً ولا صيفاً. فإنّا للهِ وإنّا إليه راجعون [١٢]. (وذلك) ما قُيِّدَ عن الشيخِ الجزوليِّ [١٣] وأبي الحسنِ الصغير [١٤]

---

(١) دار السلام: الجنّة.

(٢) راجع الحاشية التي هي قبل الحاشية السابقة.

(٣) المعقول: العلوم العقلية: (هنا) التوحيد، المنطق، الكلام، الخ. والمنقول: العلوم التي تروى من طريق الرجال (كالحديث والفقه والتاريخ). الفحول (كبار العلماء).

(٤) ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ (٩ : ٣٢، التوبة؛ راجع ٦١ : ٨، الصفّ).

(٥) «يحتقرون» معطوفة على «يريدون».

(٦) هو أبو العبّاس أحمد بن القاسم الجذامي الفاسي المتوفّى سنة ٧٧٨ للهجرة (راجع بروكلمن، الملحق ٢ : ٣٤٦؛ النبوغ المغربي ٢٠٥؛ الديباج ٥٧ ونيل الابتهاج ٥٢، من طبعة (فاس).

(٧) لا رأس لها ولا ذنب (لا يعرف لها وجه من الصحّة).

(٨) البيت للمتنبّي.

(٩) الخزانة (المكتبة العامّة). القرويّين (جامع القرويّين في فاس). والأندلسيّين (؟ جامع الأندلسيّين، في العدوة – الجانب – التي سكنها الأندلسيّون في فاس بعد خروجهم من الأندلس).

(١٠) من هذا الديوان (المختصر الكبير لابن عرفة).

(١١) الحضرة: العاصمة.

(١٢) في القرآن الكريم (٢ : ١٥٦، البقرة): ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾.

(١٣) الشيخ الجزولي السملالي، هو محمّد بن سليمان (ت ٨٧٠ هـ) – راجع ترجمته في هذا الجزء.

(١٤) أبو الحسن الصغير (بصيغة التصغير) هو عليّ بن عبد الحقّ الزرويليّ من حفّاظ الحديث ومن الفقهاء، كانت وفاته سنة ٧١٩ هـ (راجع النبوغ المغربي ٢٠٤ – ٢٠٥).... والونشريسي يأسف لأنّ الناس =

(وأمثالِها)، فإنّك تَجِدُهم يزدَحِمون عَلَيْها في كلِّ مكانٍ، وخصوصاً في فصل الشتاء، لا يلحق الآخر منها ورقة[1] واحدة مَعَ كَثْرة عَدَدِها بحيثُ ذكر[2]، بل تَجِدُهُمْ يَتنافَسون في ٱقْتِنائها بالأثْمانِ العظيمةِ المُجْحِفة[3]. ومَنْ مَلَكَ مِنهُمُ المُسَبَّعَ[4] مِنَ الجزوليِّ وتَقييدَ اليَحْمَديّ[5] عن أبي الحسنِ[6]، أو حَصَلَتْ له عِنايةٌ بِنَقْلِها فَهُوَ عالِمُ العالَمِ بأسرِهِ وحائزٌ مَذْهَبَ إمامِ دارِ الهِجرة[7] على التَّمام والقائمُ بأمرِه[8]. ولقد كان الحَسَنُ المغيليُّ[9] عِنْدَهم في أعلى طَبَقَةٍ من الفِقْه والتَفَقُّه لِقيامه على مُسَبَّعِ الجزوليّ بِخِزانَة القَرَوِيّين، زَعَموا أنّها بِخَطّ أبي عليٍّ الحسنِ المذكور[10]، وَهِيَ مشحونةٌ بالتَّصْحيف[11] تُعْمي البَصَرَ والبصائرَ. نَوّرَ الله قلوبَنا وعَمّرَ ألْسِنَتَنا بشُكْره ووَفّقَنا لما فيه رِضاهُ عنّا.

– كتب الونشريسيُّ تعليقاً على كتاب «مُثلى الطريقة في ذمّ الوثيقة» للسان الدين ٱبن الخطيب (راجع نفح الطيب ٦ : ٢٧٣، السطر السادس من أسفل) فقال – والذمُّ في هذا التعليق للموثّقين[12] لا للسان الدين – (نفح الطيب ٦ : ٢٧٨):

= يهتمّون بالجزولي المتصوّف وبأبي الحسن الصغير (وهو ليس من الفقهاء الكبار) ثمّ يهملون فقيهاً فذّاً مثل ابن عرفة.

(١) يكثر طلب الناس لكتب الجزولي وكتب أبي الحسن الصغير حتّى لا يجد بعض الطلبة ورقة من كتب هذين (مع كثرة كتب هذين) يقرأ فيها.

(٢) بحيث ذكر (في كلّ ورقة من كتاب ذكر فيها شيء عن الجزولي وأبي الحسن الصغيّر).

(٣) (الثمن) المجحف (الباهظ، المرتفع والذي يكلّف الفرد ما لا يطيق).

(٤) يبدو أن «المسبّع» هذا كتاب للجزوليّ أو كتاب فيه؛ ولم أعثر عليه فيما لديّ من المراجع.

(٥) اليحمديّ لقب لنفر معروفين (راجع تاج العروس – الكويت ٨ : ٤٥). ولم أعثر على هذا المذكور هنا.

(٦) أبو الحسن (الصغير؟).

(٧) إمام دار الهجرة (المدينة) هو مالك بن أنس.

(٨) القائم بأمره: البارع في فهمه وشرحه. – ومن الواضح أن الونشريسي يتهكّم بأولئك الذين يهتمّون بكتب الجزولي وكتب أبي الحسن الصغير.

(٩) الحسن المغيلي (؟).

(١٠) الحسن المغيلي.

(١١) التصحيف: تبديل الأحرف في الكلمة الواحدة أو اختلاف النقط في الأحرف.

(١٢) الموثّق: من يوثّق العقود (الاتّفاقات) بالطرق الرسميّة (الكاتب العدل).

الحمدُ لله. جامعُ[1] هذا الكتابِ المُقيَّدِ هذا[2] بأوّلِ وَرَقةٍ منه قد كَدَّ[3] نفسَه في شيء لا يُعني الأفاضلَ[4]، ولا يعودُ عليه في القيامة ولا في الدنيا بطائلٍ[5]. وأفنى طائفةً[6] من نفيسِ عُمُرِه في ٱلْتماسَ مساوِىءِ طائفةٍ[7] بهم تُستباح الفُروجُ[8]، وتُمْلَكُ مُشيَّداتُ الدُّورِ والبُروج[9]، وجَعَلَهُمْ أُضحوكةً لِذَوِي الفَتْك والمَجانة[10] وٱنتزع عنهم جِلبابَ الصِّدق والدِّيانة. سامَحَهُ اللهُ تعالى وغَفَرَ له. قال ذلك وخَطّه بِيُمْنى يَدَيْهِ عُبيدُ رَبِّه أحمدُ بنُ يحيى بنِ مُحمّدِ بنِ عَليٍّ الوَنْشَريسيُّ، خارَ اللهُ سُبحانَه له .

٤- إضاءة الحلَك في الردّ على من أفتى بتضمين الراعي المشترك، فاس....
- أسنى المتاجر[11] في أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتّب عليه من العقوبات والزواجر (نشره م.يْ. مولّر في «مقالات في تاريخ العرب المغاربة»، ٤١ - ٤٣)، مُنشن ١٨٦٦ م.
- غُنية المعاصر والتالي على وثائق الفشتالي (بهامش «وثائق الفشتالي»)، فاس بلا تاريخ (سركيس ١٤٥٣).
- المنهج الفائق والمنهل الواثق[12] في أحكام الوثائق، فاس ١٢٩٨ هـ.
- المعيار المغرب والجامع المغرب[13] عن فتاوى أهل إفريقية[14] والأندلس والمغرب، فاس ١٣١٤ - ١٣١٥ هـ؛ (نشره برونو وده مونبين)، الرباط (معهد الدراسات العليا المغربية)

---

(١) جامع هذا الكتاب (مؤلّف كتاب «مثلى الطريقة...»): لسان الدين بن الخطيب.
(٢) المقيّد هذا بأوّل ورقة منه (الكتاب الذي دوّنت هذه الملاحظة على الصفحة الأولى منه).
(٣) كدّ: أتعب.
(٤) شيء لا يعني الأفاضل: لا يهتمّ به كبار العلماء.
(٥) طائل: فائدة.
(٦) طائفة (هنا): مدّة.
(٧) طائفة (هنا): جماعة.
(٨) يحلّلون زواج اللواتي لا يحلّ الزواج بهنّ.
(٩) البرج: البناء العظيم، القصر.
(١٠) الفتك (هنا): الاندفاع في الأعمال اندفاعاً لا وازعَ أخلاقياً أو ٱجتماعيًّا فيها، اتّباع رغبات النفس بلا مبالاة بلوم أو بحفاظ على الصحّة مثلاً. المجانة (المُجون): قلّة الحياء في القول والعمل، مزج الجدّ بالهزل.
(١١) في بروكلمن: «التاجر».
(١٢) لعلّها «الرائق».
(١٣) لعلّها «المعرب» (بالعين المهملة).
(١٤) إفريقية = تونس.

١٩٣٧ م؛ (بإشراف محمّد حجّي)، الرباط (وزارة الأوقاف والشؤون الدينية)، بيروت - أثينا (دار الغرب الإسلاميّ) ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م.
- نوازل[1] المعيار (مستخرجة من «المعيار»)، فاس (المطبعة الشافعة) ١٣١٥ هـ.
- جامعة المعيار، فاس ١٣١٤ - ١٣١٥ هـ[2].

★★ تعريف الخلف ١ : ٥٨ - ٥٩؛ فهرس أحمد المنجور (تحقيق محمّد حجّي - الرباط ١٩٧٦ م)، ص ٥٠؛ البستان لابن مريم ٥٣ - ٥٤؛ نيل الابتهاج ٨٧ - ٨٨ (طبعة فاس ٧٤)؛ جذوة الاقتباس ٨١ (الرباط ١٩٧٣ م، ١ : ٥٦ - ٥٧)؛ درّة الحجال ١ : ٤٣، رقم ١٣٠ (تونس ١٩٧٠ م) ١ : ٩١ - ٩٢؛ شجرة النور الزكية ١ : ٢٧٤ - ٢٧٥؛ فهرس الفهارس للكتّاني ٢ : ٤٣٨ - ٤٣٩؛ الاستقصا (الدار البيضاء) ٤ : ١٦٥؛ دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى) ٤ : ١١٢١؛ بروكلمن ٢ : ٣٢٠، الملحق ٢ : ٣٤٨؛ سركيس ١٩٢٣ - ١٩٢٤؛ الأعلام للزركلي ١ : ٢٥٥ - ٢٥٦ (١ : ٢٦٩ - ٢٧٠)؛ ولوداد القاضي (الجامعة الأميركية بيروت) دراسة في أربع وأربعين صفحة (على الستانسل) لا أعلم إذا كانت قد طبعت بالحروف.

ابن غازٍ[3] المكناسي

١ - هو شيخُ الجماعة الإمامُ أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ أحمدَ بنَ محمدِ بنِ محمد بنِ عليِّ بن غازٍ العُثمانيّ المِكناسي ثمّ الفاسيّ، وُلِدَ في مِكناسةِ الزيتون، سَنَةَ ٨٤١ (١٤٣٧ - ١٤٣٨ م) وتلقّى العلمَ فيها ثمّ انتقلَ إلى فاسَ (سَنَةَ ٨٥٨ هـ = ١٤٥٤ م) فتابَعَ فيها تلقّي العِلمِ. ومن شُيوخه النيجي والقوري.

وَلِيَ ابنُ غازٍ الخَطابَة في مِكناسةَ ثمّ في فاسَ الجديدة. ثمّ تولّى الإمامةَ والخَطابةَ في جامع القَرَوِيِّينَ، وتصدّرَ فيه للتدريس أيضاً. وفي أثناءِ ذلك كلّه كان يُرابط

---

(١) النوازل.......
(٢) في سركيس: جامعة المعاير - المعاير - نوازل المعيار (أرقامها ٢، ٤، ٦).
(٣) غاز اسم فاعل من غزا، فهو اسم منقوص تَرجع إليه الياء إذا حُلّي باللام أو أُضيف (الغازي، غازي العدوّ). أما إثبات الياء في أسماء الأعلام المنقوصة، نحو: غازي، سامي، ناجي، ثمّ شوقي، بدري إلخ، فصيغة تركية.

ويُحارب[1]. وكانتْ وفاتُه في فاسَ في تاسعِ جُمادى الأولى من سَنَة ٩١٩ (١٥١٣/٧/١٦ م).

٢ - كان ابنُ غازٍ المِكناسيُّ مُقرئاً بارعاً في مَعرفة قِراءاتِ القُرآنِ الكريم عارفاً بوجوهِها واسعَ العلمِ بالتفسيرِ حافظاً للحديثِ واقفاً على أحوالِ رجالِه (رُواته) وطَبَقاتهم (مَكانتهم وتَراجِمهم) عالماً بالفِقْه مُجيداً للعربية (النحو) حَسَنَ المعرفةِ بالتاريخ والسِّيَرِ (التَّراجم) والمَغازي والأدب والعَروض والحِساب والفرائض (تقسيم الإرث).

وكانَ ابنُ غازٍ مُصنّفاً مُكثراً له: تفصيلُ الدُرَر (في قراءة القرآن) - إنشاد الشريد في ضَوَالِّ القصيد (في رَسْم القرآن؟) - نَظْمُ قراءة نافعٍ - حاشيةٌ لطيفة (مختصرة) على البُخاري - إرشاد اللبيب إلى مقاصدِ حديث الحبيب (رسول الله) - الفهرسة المباركة (في المُحدِّثين ومصنّفاتهم) - التعلُّل برسمِ الإسناد بعدَ انتقال أهلِ المنزل والنادِ (فهرست شيوخه؟ أتمّها في رَجَب ٨٩٦) - الروضُ الهَتون في أخبارِ مِكناسةِ الزيتون (إلى سَنَةَ ٩١٩) - مُنْية الحُسّاب (منظومة في الحساب) - بُغية (غُنية) الطلّاب في علم الحساب (شرح « منية الحُسّاب ») - ذيل على القصيدة الخزرجيّة (في العَروض) - عَروض القصيد والدُوبَيْت - نظم مراحل الحجاز - شرح نظم مراحل الحجاز - إمداد بحر القصيد ببحر أهل التوليد وأُناس الأقعاد (؟) والتجريد بجنسها من الشريد - المجالس المكناسيّة. ثم له مُصنّفاتٌ في الفِقه، منها: شفاء الغليل في حلّ مُقْفَلِ خليل[1] - منظومة في مُشكلات الرسالة (لابن أبي زيد القيرواني؟) - منظومة في نظائر رسالة القيرواني - المسائل الحِسانَ المرفوعة إلى حَبْرِ فاسَ وتلِمْسانَ - الجامعُ المستوفي بجداول الحوفي - المَطلب الكُلّيّ في محادثة الإمام القلّيّ - كُلّيّاتِ فِقْهية على مذهب المالكية.

٣ - مختارات من آثاره:

- قال ابن غازٍ في الشكوى من مكناسةَ:

** طلّقــــتُ مِكناسةَ ثلاثـــاً، والشَّرْعُ يأبـى الرجوعَ فيـهِ[2].

---

(١) المرابطة: السكنى على أطراف البلاد الإسلامية لدفاع الأعداء عنها تطوّعاً وتعبّداً (للجهاد).

(٢) في الشرع الإسلامي يجوز للزوج أن يطلّق امرأته مرّتين ثمّ يستردّها مرتّين أيضاً. فإذا طلّقها مرّة ثالثة فلا يجوز له أن يستردّها، إلّا إذا تزوجها رجلٌ ثم طلقها اختياراً من عند نفسه.

ليستْ بِـدارٍ سوى لقــاضٍ أو عاملِ الجَوْرِ أو سفيهِ[1]!

★★ أقمـــتُ بمكناسةٍ مُـــدّةً أُعَلِّمُ أبناءَها ما الكلامْ

فلمّــــا تَوَهَّمَـــــه بعضُهم عــليَّ بــهِ بَخِلوا، والسلامْ[2]!

– ويُنْسَبُ إليه لُغْزٌ في « القَلَم »:

ومَيِّــتِ قَبْرٍ طُعْمُهُ عنـد رأسِهِ، إذا ذاقَ من ذاك الطعامِ تكلّما[3].

يقومُ فيمشي صامتـــاً مُتكلّماً، ويأوي إلى الرَمْس الذي مِنْهُ قُوِّماً[4].

فــلا هو حيٌّ يستحــقُّ زِيـارةً ولا هو مَيْتٌ (مِنْك) يرجو تَرَحُّماً[5].

– وقال ابن غازي (النبوغ المغربي ٨١٨):

عَجِبتُ لِمُبتـاعِ الضَّلالة بالهُدى؛ وللمُشْتري دُنيـاه بالـدين أعْجَبُ.

وأعجـبُ من هَذَيْنِ مَنْ باع دينَه بدُنيـا سِواه، فَهْوَ أخْزى وأخْيب.

٤– الروض الهتون، فاس (طبع حجر) ١٣١٦، ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨م).

– بغية الطلاب، فاس (طبع حجر) ١٣١٧، ١٣١٩ هـ.

– كلّيات فقهية، فاس (طبع حجر) بلا تاريخ.

★★ نيل الابتهاج ٣٣٣ – ٣٣٤؛ أزهار الرياض ٣: ٦٥؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧٧٣؛ بروكلمن ٢: ٢١١، الملحق ٢: ٣٣٧ – ٣٣٨، راجع ١: ٥٢٣، السطر الثامن من أسفل؛ النبوغ المغربي ٢٠٨ – ٢٠٩؛ الأدب المغربي ٢١٦ – ٢١٧، ٢٨٨ – ٢٨٩، ٢٩١، ٤٠٢؛ مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق ٢٨: ٤٣٩؛ سركيس ١٩٥؛ الأعلام للزركلي ٦: ٢٣٢ (٥: ٣٣٦)؛ معجم المؤلّفين ٩: ١٦.

---

(١) تصلح داراً لقاض (لكثرة اختلاف الناس فيها فتعلو مكانته وتكثر مغانمه!) عامل الجور (الظلم). العامل (في المشرق): الذي يجبي أموال الدولة. العامل (في المغرب): الوالي، الحاكم. السفيه (في الأصل): المسرف في الإنفاق على ما لاحاجة في العادة إليه. والسفيه أيضاً: الذي لا يتأدّب مع الناس.

(٢) لمّا ظنّ نفر منهم أنهم أصبحوا قادرين على صوغ الكلام ترفّعوا عن محادثته.

(٣) ميّت قبر (كان القلم يوضع عادة في علبة مستطيلة تشبه التابوت). الطعم (بالضمّ): الطعام. عند رأسه (يوضع القلم أحياناً، في أثناء الكتابة، على طرف المحبرة. والحبر في المِحبرة طعام للقلم أو شراب!). فإذا أخذ القلم شيئاً من الحبر كتب به، فكأنّه يتكلّم (يعبّر عن المقاصد).

(٤) « قوّم » ليس (بهذا المعنى) في القاموس. يقصد: أقام (أنهض).

(٥) في الأصل « ميت فيرجو ».

محمّد بن العربيّ العقيليّ

١ - هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنِ عبدِ اللهِ العربيّ العُقيليُ، لا نَعْرِفُ من أحداثِ حياتهِ إلا أنّه كان، فيما يبدو، كاتباً للإنشاء في غَرناطةَ في أيامِ آخرِ سَلاطينها أبي عبدِ الله محّمدِ بنِ عليٍّ - في وِلايتهِ الثانية من سَنَةِ ٨٩٢ إلى سَنَة ٨٩٧ للهجرة - وأنّه كَتَبَ رِسالةً على لِسانِ سُلطانِ غَرناطةَ يستنجد فيها بالسُّلطان المَريني في فاسَ، وَهُوَ مُحمّدُ بنُ محمدٍ المعروفُ بالشيخ الوَطّاسيّ أو البُرتغاليّ (٨٧٥ - ٩٣١ هـ). وقد كانت وَفاةُ محمّدِ بنِ العربيِّ في القرن العاشرِ، ولعلّها كانتْ سَنَة ٩٢٨ للهجرة (١٥٢٢ م).

٢ - محّمدُ بن العربيّ العُقيليٌّ هو الفقيهُ والكاتبُ المجيدُ البارعُ البليغ (نفح الطيب ٤ : ٥٢٩)، بَقِيَ لنا من إنشائه رسالةٌ طويلةٌ من نحوِ عشرينَ صفحةً يمتزجُ فيها الشعرُ بالنثرِ، وقد كَتَبَها على لسانِ آخر ملوكِ غَرناطَة إلى سُلطان بني مَرينٍ في فاس محّمدِ بنِ محّمدِ المعروفِ بالشيخِ الوطاسيِّ. والمفروضُ أنّه قد كتب هذه الرسالة في سَنَة ٨٩٧ للهِجرة، قُبيلَ خُروجِ العرب من الأندلس.

تبدأ هذه الرسالةُ بقصيدةٍ لمحّمدِ بن العربيِّ العُقيليِّ نفسِه يُعارضُ فيها ميميّةَ البوصيريِّ « أَمِنْ تذكُّرِ جيرانٍ بِذِي سَلَمِ ....؟ » ونثرُ محّمدِ العُقيليِّ أحسنُ من شِعرِه معانيَ وأمتنُ تركيباً. وهو كثيرُ الاستشهادِ بآياتٍ من القرآن الكريم وبالأمثال. وفي شعره نلمَحُ مُحاكاةً لعددٍ من الشعراء كالنابغةِ وكعبِ بنِ زهيرٍ وأبي تمّامٍ والمُتنّبي وابنِ عبدونٍ وغيرِهم. والسجعُ في نثرِهِ كثيرٌ، وكذلك الصِّناعةُ المعنويّة والصِّناعة اللفظية.

٣ - مختارات من آثاره

- لأبي عبد اللهِ محّمدِ بنِ عبدِ الله العربيّ العقيليّ موشحةٌ منها:

هـــــل يَصِـــحُّ الأمـــــانْ　　من شَبيـــــهِ البـــــدْرِ،
وهو مِثـــــلُ الزمـــــانْ　　مُنْتَمٍ للغَـــــــــدْرِ! [1]

★ ★ ★

(١) منتم: منسوب، قريب (للغدر).

لم يَغُرَّ الأغرّ غيرَ غمرٍ جاهلْ،
عيشُه الحلوُ مُرّ وهو فيه ناهلْ.
والصِّبا الغضُّ مَرّ وهو عنه ذاهلْ.
مَرْشَفُ البَهْرمانْ فوق ثَغْر الدُّرِ
مُطْمِعٌ للأمانْ باقترابِ الدَّرّ[1].

– لمّا شدّدَ الإسبان الحصارَ على غَرْناطةَ وكانوا كثيراً ما يَقْرَعون الطبولَ ويَنْفُخون بالنَفير إرهاباً للمسلمين وإضعافاً لنُفوسهم قال أبو عبد الله العربي العقيلي:

بالطبلِ في كلِّ يومٍ وبالنفيرِ نُراعُ.
وليسَ من بعدِ هذا وذاك إلّا القِراع[2].
يا ربِّ، جبرَكَ يرجو من هِيضَ منه الذِّراع[3]؛
لا تَسْلُبَنِّيَ صبراً منه لقلبي آدّراعُ[4]!

– ولأبي عبدِ الله العربيِّ العقيلي قصيدةٌ في اللهو نَخْتار منها هنا عدداً من الأبياتِ التي تستقيمُ على السرد:

والعودُ ذو دَبْدَبَةٍ يَطَّبي آثارَها للطارِ دَبْداب[5].
وفُضّ لِلّهوِ ختامٌ، ولم يُسَدَّ في وجهِ الهوى بابُ.

---

(١) الأغر: الشخص الأقوى على التغرير بالناس. الغمر: القليل التجربة والعلم. ناهل: شارب. ذاهل: غافل. البهرمان: اللون الأصفر (ولا معنًى لها هنا). الدرّ (بالضمّ): اللؤلؤ (ثغر الدرّ: الفم الذي فيه أسنان كاللؤلؤ، كناية عن الشباب والجمال). الدرّ (بالفتح): اللبن ساعة يحلب. اقتراب الدرّ: بلوغ الأماني.

(٢) القِراع: القتال.

(٣) يا ربّ، إن الذي كسرت ذراعه (أصيب بمصيبة) لا يرجو جبرها (إصلاحها) إلّا منك.

(٤) – لا يدفع عنّي هذا العدوّ إلّا الصبر (فالصبر وحدَه هو درعي في هذه الحرب).

(٥) الدبدبة: كلّ صوت (على نسق معيّن) كوقع الحافر على الأرض الصلبة (القاموس ١ : ٦٥). آطّبى القوم فلاناً: تقرّبوا إليه ثمّ اغتالوه (قتلوه). والشاعر يقصد: طباه وأطباه (من طبي يطبي) دعا الشيء إليه أو صرفه عن نفسه. الطار: الدفّ (بضمّ الفاء). الدبداب: الطبل. (يصف الشاعر هنا تجاوب الآلات الموسيقية).

وكـــلّ إنسانٍ ومـــا يشتهي، ليسَ عـــلى مُنـــاهُ حُجّـــاب
مُسْتَرْسِلًا ليس لـــه عُـــذَّلٌ، كلّا ولا عليـــه رقّـــابُ.

- ولمّا اشتدّ الحصارُ على غرناطةَ للغاية طَلَبَ سُلطان غَرْناطَةَ أبو عبدِ الله محمّدٌ (٨٨٧-٨٩٠ ثمّ ٨٩٢-٨٩٧ هـ) من كاتبهِ أبي عبدِ الله محمّدِ بن العربيّ العقيلي أن يكتُبَ إلى سُلطانِ فاسَ محمّدِ بنِ محمّدِ بنِ عليٍّ المعروفِ بالشيخ الوطّاسي (٨٧٦-٩٣١) من آلِ مَرينٍ رسالةً يستنجدُ به فيها. فكَتَبَ أبو عبدِ اللهِ العقيلي رسالةً طويلةً بدأها بقصيدةٍ طويلةٍ (مائة وثلاثين بيتاً) عارضَ بها قصيدَةَ البُوصيريّ «أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بذي سَلَمٍ». ولكنّ هذه القصيدةَ ضعيفةٌ جدًّا. ثمّ تلي الرسالةُ، وفي ثناياها هنا وهنا أبياتٌ من الشّعر لنفر من الشعراء تناسبُ معاني الرسالة. والرسالة في مجموعها مديحٌ لسُلطانِ فاس واستعطافٌ وطَلَبٌ بأن يسمَحَ سُلطانُ فاسَ لسلطانِ غَرناطَةَ بأنْ يأتِيَ إلى المغربِ لاجئاً. وفي ما يلي أبياتٌ من القصيدة ومقاطعُ من الرسالة:

مَولَى الملوكِ ملوكِ العُرْبِ والعَجَمِ، رعياً لِما مِثْلُه يُرعى من الذِّمَمِ.
بِـكَ اسْتَجَرْنا - ونِعْمَ الجارُ أنتَ لِمَنْ جـار الزمـانُ عليـه جَوْرَ مُنْتَقِمِ
حتّـى غـدا مُلْكُه بالرُّغْم مُسْتَلَباً؛ وأفظعُ الخَطْبِ ما يأتي على الرغم-.
حُكْمٌ من الله حَتْمٌ لا مَردَّ لـه، وهـل مردٌّ لِحُـكم منـه مُنْحَتِمِ.
وَهِيَ الليالي - وقـاك اللهُ صَوْلَتَها - تصولُ حتّى على الآسادِ في الأجَمِ[1].
كُنّـا ملوكـاً لنـا في أرضِنـا دُوَلٌ نِمْنـا بهـا تحت أفْياءٍ من النِّعَمِ
فأيْقَظَتْنـــا سِهـامٌ للردى صُيُـبٌ يُرمى بأفْجَعِ حتفٍ مَنْ بِهِنّ رُمي!
فَصِلْ أواصرَ قد كانتْ لنا اشْتَبَكَـتْ، فالمُلْكُ بين ملوكِ الأرض كالرَّحِمِ[2].
وابْسُطْ لنـا الخُلُقَ المَرْجوَّ باسطُه، واعْطِفْ ولا تَنْحَرِفْ، واعذُرْ ولا تَلُمِ.
ولا تُعاتِـبْ على أشياءَ قد قُدِرَتْ وخُـطّ مسطورُها في اللوح بالقلم[3]

(١) تصول: تهجم، تشتدّ، تتغلّب. الآجمة: المكان المملوء بالشجر. الآساد في الأجم: في أماكنها (وتكون هنالك قويّة).
(٢) الأواصر: الصلات. الرحم: القرابة.
(٣) - قد قضاها الله علينا منذ الأزل (لمّا كتبها عنده في اللوح المحفوظ).

بنو مَرينٍ ليوثٌ في العرينِ أبَوْا رُؤيا قرينٍ لهم في البأس والكرم[١]،
النازلينَ من البيضاءِ وَسْطَ حِمًى أحمى من الأبلق السامي ومن إرَم [٢].
تُضيءُ آراؤهم في كلِّ مُعْضِلَةٍ إضاءةَ السُّرْج في داجٍ من الظُّلَم
يَرَوْنَ حقًّا عليهم حِفظَ جارِهِمُ، فلم يُضَرْ نازلٌ فيهم ولم يُضَمِ [٣]......

.... فيا مولانا الذي أوْلانا من النِّعَم ما أولانا، لا حَطَّ اللهُ تعالى لكم مِنَ العِزِّ رِواقاً ولا أذْوي لدَوْحةِ دولتكم أغصاناً ولا أوراقاً[٤]، ولا زالتْ مُخضرّةَ العُودِ مبتسمةً عن زَهَراتِ البشائر مُتْحَفَةً بثَمَراتِ السُّعود ممطورة بسحائبِ البركاتِ المُتَداركات دونَ برقٍ ولا رُعود. هذا مقامُ العائذِ بمقامِكِمُ المتعلّقِ بأسبابِ زِمامِكُم[٥] المترجّي لعواطفِ قلوبِكُم المُقَبِّل الأرضَ تحتَ أقدامِكُمُ المتلجلجِ اللسانِ عند مُحاولةِ مفاتحةِ كلامِكم. وما الذي يقولُ مَنْ وَجْهُه خَجِلٌ وفؤادُه وَجِلٌ وقَضِيّته المقضيّةُ عن التنصّل تَجِلّ[٦]. بيدَ أني أقولُ لكم ما أقولُه لربّي - واَجترائي عليه أكثرُ واحترامي له أكبرُ - اللهمّ، لا بَريءٌ فأعتذرَ، ولا قويٌّ فأنتصرَ، ولكنّي مستقيل مُستنيل مُسْتَعْتِبٌ مستغفر[٧]؛ وما أُبَرِّىءُ نفسي، إنّ النَّفْس لأمّارةٌ بالسوء[٨].....

وما لي والتكلُّفُ لِما لا أحتاجُ إليه من القَوْل.... والمَوْلى يعلَمُ أنّ الدنيا تلعَبُ

---

(١) بنو مرين: سلاطين المغرب. أبَوْا: رفضوا. قرين: مثيل، نظير. البأس: القوّة.

(٢) البيضاء: مدينة فاس (الجديدة) عاصمة المرينيّين. الحمى: ما تجب حمايته. أحمى (صيغة خطأ): أكثر منعة. الأبلق: حصن كان للسموأل. إرم: مدينة قيل كانت قائمة في صحراء اليمن ومبنيّة بالحديد والنحاس.

(٣) لم يضر نازل (لم يصب ساكن عندهم بضرر) ولم يضم (لم يلحقه ضيم: ظلم).

(٤) الرواق: مقدّم البيت. لا حطّ اللهُ لكم في العزّ رواقاً: لا زال بيتكم عالياً عزيزاً شريفاً قويًّا. الدوحة: الشجرة الكبيرة.

(٥) العائذ: اللاجىء. الزمام: الرباط.

(٦) وجل: خائف. تجلّ (فعل مضارع): تعظم، تكبر.

(٧) لا بريء فأعتذرَ: لست بريئاً (من أقوالي السيئة فيك والتي نقلت إليك) حتّى أعتذر منها (أنفيها عن نفسي). ولا أنا قوي فأنتصرَ (أدفعَ عن نفسي بنفسي في وجه خصمي). مستقيل (تائب عمّا قلته) مستنيل (طالب نوالك: عطائك، إحسانك) مستعتب (طالب العتبى: الرضا، رضاك) مستغفر (طالب الصفح عن ذنبي).

(٨) القرآن الكريم ١٢ : ٥٣، سورة يوسف.

باللاعبِ وتجرُّ براحتِها إلى المتاعب. وقديماً للأكياسِ من الناسِ خَدَعَتْ، وانحرفتْ عن وِصالِهم أعْقَلَ ما كانوا وقَطَعَتْ[١]....

وأبيها، لقد أرْهَقَتْنا إرهاقاً وجرّعتنا من صابِ الأوصابِ كاساً دِهاقاً[٢]، ولم نَفْزَعْ إلى غيرِ بابِكُمُ المَنيعِ الجنابِ المنفتحِ حين سُدّتِ الأبواب. ولم نَلْبَسْ غيرَ نَعْمائكم حينَ خَلَعنا ما ألْبَسَنا المُلْكُ من الأثواب...

ولقد عَرَضَ علينا صاحبُ قَشتالةَ مواضعَ مُعْتَبَرَةً خَيَّرَ فيها[٣] وأعطى من أمانةِ المؤكّدِ فيه خطَّه بأيْمانه ما يُقْنِعُ النفوسَ وَيَكْفيها[٤]. فلم نَرَ- ونحن من سُلالةِ الأحمرِ- مجاورَةَ الصُّفْرِ[٥]، ولا سوّغ لنا الإيمانُ الإقامةَ بَيْنَ ظَهْرانَيِ الكُفْر..... ووَصَلَتْ أيضاً من الشرق إلينا كُتُبٌ كريمةُ المَقْصِدِ لدينا تستدعي الانحيازَ إلى تلك الجَنَباتِ وتَتَضمّن ما لا مزيدَ عليه من الرَّغَبات. فلن نَخْتَرْ إلّا دارَنا التي كانتْ دارَ آبائنا من قَبْلنا، ولم نَرْتَضِ الانضواءَ إلاّ لِمَنْ بحَبْله وَصَلْنا حَبْلَنا... امتثالاً لوَصاةِ أجدادٍ لأنظارِهم وأقْدارهم أصالةٌ وجَلالةٌ[٦]، إذ قد رَوَيْنا عمّن سلَفَ من أسلافِنا في الإيصاء لمن يخْلُفُ بعدَهم من أخْلافِنا ألّا يَبْتَغوا إذا دَهَمَهُمْ داهِمٌ بالحضرةِ المَرينيةِ بدلاً ولا يَجِدوا عن طريقِها في التوجّهِ إلى فريقِها مَعْدِلاً[٧]. فاخْتَرَقْنا إلى الرياضِ الأريضةِ

---

(١) براحتها (تورية): بيدها أو بالراحة (ضدّ التعب) التي يجدها الإنسان فيها (في الدنيا) أحياناً. الأكياس جمع كيس (بالكسر: الوعاء الذي توضع فيه الأشياء). والكيّس (بتشديد الياء المكسورة: العاقل والجمع كيسى بفتح الكاف وسكون الياء (القاموس ٢: ٢٤٨). أعقل ما كانوا (في تمام عقلهم)= رجاحة العقل وطول التفكير لا يمكن أن يتغلّبا على مصائب الدنيا.

(٢) وأبيها: أقسم بأبي الدنيا، أقسم بالدنيا. الرهق: تحميل الإنسان ما يطيق. الصاب: المر (بضمّ الميم). الوصب (بفتح ففتح وجمعها أوصاب): الألم، المرض. دهاق: مملوء.

(٣) صاحب (ملك) قشتالة: الملك فرديناند.

(٤) بخطّه (بخطّ يده): كتابة. الأيْمان جمع يمين: القسم.

(٥) من سلاسلة (نسل) الأحمر (جدّ بني الأحمر ملوك غرناطة) مجاورة (جوار) الصفر الإفرنج (بنو الأصفر: الروم، اليونان).

(٦) نرتضي= نرضى. الانضواء: الانضمام، الالتجاء. وصلنا بحبله حبلنا: عقدنا معه صلات وعلاقات بإرادتنا. الوصاة (بفتح الواو): الوصيّة، النصيحة، الأمر. الأنظار جمع نظر: رأي. القدر: المكانة والمقام. أصالة: جودة رأي.

(٧) دهمهم داهمٌ: نزل بهم أمر مفاجىء. الحضرة المرينية= عاصمة بني مرين، أرض بني مرين. الفريق: الحزب، الجماعة (بالإضافة إلى كلّ فريق آخر). المعدل: الميل عن الشيء.- ... يجب أن يتوجّهوا إلى =

الفِجاجَ، وركبنا إلى البحرِ الفُراتِ ظَهْرَ البحر الأُجاج[1]، فلا غَرْوَ أن نَرِدَ منه على ما يُقِرُّ العينَ ويَشْفي النفسَ الشاكيةَ من أَلَمِ البَيْنِ[2]. ومن توصَّلَ هذا التَوصُّلَ وتوسَّلَ هذا التوسُّلَ تطارحاً على سُدَّةِ أميرِ المؤمنين المُحاربِ للمحاربينَ والمُؤمِّنِ للمُسْتأمنين فهو الخليقُ الحقيقُ بأن يُسَوَّغَ أصْفى مشارِبِهِ ويُبَلَّغَ أوفى مآربِهِ على توالي الأيامِ والشُّهور والسنينَ.....

٤-★★ نفح الطيب ٤: ٤٢٩-٥٥٣؛ أزهار الرياض ١: ٧٢-١٠٣؛ الأدب المغربي ٢٩٤-٢٩٥.

إبراهيم الفجيجي

١- هو إبراهيمُ بنُ عبدِ الجبّارِ بنِ أحمدَ الشريفِ الفجيجي (بكسر فكسر- كما ضُبطت في «النبوغ المغربي» ٧٧٥)، نِسبةً إلى فجيج أو فيفق، وهي بلدةٌ في جَنوبيِّ الجزائر.

جاء إبراهيمُ الفجيجيّ إلى فاسَ وأخذ العلمَ عن نفرٍ منهم أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ يحيىٰ الونشريسيّ (ت ٩١٤ هـ) وأبو عبد الله محمّدُ بنُ أحمدَ المِكناسيُّ (ت ٩١٩ هـ) والأستاذُ الصغير (؟) ثمّ انتقل إلى تِلِمْسانَ وأخذ عن نفرٍ آخرينَ منهم أبو عبد اللهِ محمّدُ ابنُ يوسفَ السنوسيُّ (٨٣٢-٨٩٥ هـ) وأبو عبد الله محمّدُ بنُ عبدِ الله التنسيّ (ت ٨٩٩ هـ).

وفي أواخرِ القرنِ الهِجريّ التاسعِ رَحَلَ الفجيجيُّ إلى المشرق فأخذ العلمَ في مِصْرَ عن جلالِ الدينِ السُّيوطيّ (ت ٩١١ هـ) ثمّ جاء إلى المدينة وفيها الأُشمونيُّ (ت نحو ٩٠٠ هـ) والسَخاويّ (ت ٩٠٢ هـ) فأخذ عنهما.

ثمّ إنّ الفجيجيَّ عادَ إلى بلدهِ فاشتغل بالتعليم من غيرِ أن يترُكَ الاستزادةَ من

= بلاد بني مرين رأساً وألا يبدّلوا اتجاههم (أو رأيهم) في أثناء الطريق.

(١) الرياض (الجنائن) الأريضة (الخصبة المزدهرة) الفجاج (جمع فجّ: الأرض الواسعة القاحلة). الفرات: الحلو. الأجاج: المالح.

(٢) ما يقرّ العين: ما يسرّ. البين: الفراق.

العلم. ولكنّ اضطرابَ الأحوالِ حمَله على أن يرحَلَ إلى السودان (غربيّ إفْريقِيَةَ) حيثُ بَقِيَ مدّة عاد بعدَها إلى فجيج حيثُ تُوفِّيَ نحوَ سَنَةِ ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م).

٢- ترك لنا إبراهيمُ الفجيجيُّ عدداً من المنظومات أشهرُها منظومةٌ ذكرها بروكلمن بلفظ: «الفارِد في تقييد الشارد وترصيد الوالد» (!) أو روضة السُّلْوان (وهي طَرْدِيّة: في وصف الصيد، صيد الصقور للطيور والغِزْلان وغيرها)، وهي قصيدةٌ في مِائَتَيْنِ وثَلاثَةَ عَشَرَ بيتاً من البحر الطويل فيها وصفٌ للبادية ولمجالسِ البَدْو وللطبيعةِ الصحراوية وذِكْرٌ لأحكام الصيد من الناحية الفِقْهية (الدينية). غير أنّ على هذه القصيدة شيئاً من الجَفاف لكَثْرةِ الألفاظ الفِقْهية فيها. وللفَجيجيِّ أيضاً منظومةٌ سمّاها «المُفيدة» فيها كلامٌ على الدِّيانات وعددٌ من مسائلِ الفِقْه. وله أيضاً عددٌ من المُقَطَّعاتِ الشعرية.

٣- مختارات من شعره

- من الطرديّة «روضة السُّلْوان»:

يَلومونَني في الصَّيْدِ، والصيدُ جامعٌ ... لِأشياءَ للإنسانِ فيها منافعُ.

فأوّلُها كَسْبُ الحلالِ أتتْ به ... نصوصُ كتابِ الله وهي قواطعُ[1].

وصِحّةُ جسمٍ ثمّ صِحّةُ ناظرٍ، ... وإحكام إجراءِ السوابق رابع[2]...

ويَنْفي الهُمومَ المُهْرِماتِ عن الفتى، ... ويقمَعُ وَفْدَ الشيبِ كيلا يسارع[3].

ويُورِثُ عند الالتحامِ شجاعةً، ... وفيه من السِّرِّ الخَفيّ بدائع:

كتدبيرِ أمرِ الحربِ والفتكِ بالعِدا ... وصيدِ أسودِ الإنسِ، والوحشُ تابع[4].

---

(١) - في القرآن الكريم (٩ : ٢ ، ٩٩ ، سورة المائدة) ذكر التحليل. للصيد، إلّا إذا كان الإنسان مُحْرِماً في الحجّ، فإذا أنتهى من أداء شعائر الحجّ حلّ له الصيد (في خارج الحرمين: نطاق مكة والمدينة).

(٢) أحكام.... المعرفة بإقامة السباق بين الخيل.....

(٣) المهرم: التي تسرع بالإنسان إلى الهرم. ويقمع (يبطل، يؤخّر) مجيء الشيب (يحفظ على الإنسان صحّته وشبابه). يسارع (حقّها النصب).

(٤) صيد أسود الإنس: التغلّب على الشجعان الأقوياء من الأعداء.

بنفسي عفيفاً مُتْرَفاً ذا نزاهةٍ ... له في سماء المجدِ والسعْدِ طالع[1]،
على هَيْكلٍ نَهْدٍ وفوقَ شِمالهِ ... وَقورٌ من الصُّقور أبيضُ ناصع[2].
أخي، هل ترى الأيّامَ تجمعُ شَمْلَنا ... ونحن على جُرْدٍ سِراعٍ نُطالع[3]،
لدى كلِّ رَبْوةٍ وأجراسُ طَيْرِنا ... لها زَجَلٌ من فوقِنا وقعاقع[4]؛
فنقضي من السُّلوان بعضَ غرامِنا ... ونَجْني جَنى اللذّات والدهرُ خاضع؟
عظيمُ ثلاثٍ: رأسهِ ثمّ فخذِه ... ومِنْسَرِه لِجَزْرِ ما هو صادع[5].
عليه سِماتُ الفَتْكِ، إمّا نَظَرْتَهُ ... أطَلَّتْ حواجيبٌ وغارتْ مدامع[6].
طموحٌ كثيرُ الالتفاتِ مُسَلَّطٌ ... لأُمّ السُّلاح الدهرَ منه فجائع[7].

٤-★★ تعريف الخلف ٢ : ٣-٤ ؛ النبوغ المغربي ٧٧٥-٧٨٤ ؛ بروكلمن ٢ : ١٧٠، الملحق ٢ : ١٦٨ ؛ الأعلام للزركلي (١ : ٤٥)؛ الأصالة (مجلّة)، الجزائر (السنة الثانية، العدد ١١) شوّال-ذو القعدة ١٣٩٢ (نوفمبر-ديسمبر ١٩٧٢)، ص ١٣٩-١٤٤.

محمود بن عمر أقيت التنبكتي

١ - هو أبو الثناءِ وأبو المحاسن محمودُ بنُ عُمَرَ بنِ محمدِ أقيتَ[8] بنِ عمرَ بنِ عليٍّ بنِ

---

(١) في هذا البيت يصف الشاعر صيّاداً. له في سماء......: ذو حظّ سعيد (موفّق).
(٢) هيكل (حصان عظيم الجسم) نهد (عالي الكتفين). وقور: هادىء رصين.
(٣) الجرد (جمع أجرد). حصان قصير الشعر (دلالة على كرم أصله). نطالع: نبحث عن الطرائد.
(٤) زجل: صوت.
(٥) هذا البيت وصف للصقر الأصيل. المنسر: الظفر. جزر: ذبح. صادع (ربّما: صارع).
(٦) سمة: علامة. من محاسن الصقر أن يكون حاجباه بارزين وعيناه غائرتين.
(٧) أمّ السلاح (بضمّ السين) لعلّه يقصد «الحبارى» (وهي كثيرة الذرق: القذر يخرج من مؤخرّة الطيور). وصيد الحبارى بالصقور مرغوب فيه لأنّ طير الحبارى كبير الحجم طيّب اللحم. الدهر = طول الدهر، دائماً.- هو يصطاد عدداً كبيراً من الحباري (والحبارى تضلّل الصيّادين لأنّ لون ريشها كلون التراب).
(٨) على صفحة الغلاف: تاريخ الفتّاش.... للقاضي محمود كعت بن الحاجّ المتوكّل كعت الكرمني التنبكتي الوعكري، ومثل ذلك على الصفحة التاسعة. وفي «نيل الابتهاج» (ص ٣٤٣-٣٤٤): محمود بن عمر أقيت....، وليس للكتاب «تاريخ الفتّاش» ذكر. وفي بروكلمن، الملحق ٢ : ٧١٦-٧١٧): القاضي =

يحيى الكرمنيُّ[١] الصِّنهاجيُّ المسوفيُّ[٢]، وُلِدَ سَنَةَ ٨٦٨ للهجرة (١٤٦٣ - ١٤٦٤ م) في تُنْبُكْتَ. ولسنا نعلَمُ شيئاً من حياتِهِ الأولى قبلَ أنْ يَتَولّى القضاءَ في بلده، سَنَةَ ٩٠٤ للهِجرة (١٤٩٨- ١٤٩٩ م) فيَتَشَدَّدَ في الأمور ويَتَوخّى العدلَ في الأحكام فيَقْمَع أهلَ الفساد. ومعَ ذلك، فقد كان، في الوقتِ نفسِه، يقومُ بالتدريس، وكان في الغالب يُقْرِىءُ المُدَوَّنَةَ[٣] والرِسالةَ (لابن أبي زيد) ومختصرَ خليلٍ.

وفي سَنَةِ ٩١٥ للهِجرة (١٥١٠ م) كانَ في الحجّ[٤]، وقد لَقِيَ في مِصر (في أثناءِ طريقه) نَفَراً من العُلَماء. ثمّ إنّه عاد إلى بلاده واستأنفَ التدريسَ والقضاءَ والإصلاح. وطال عُمرُهُ كثيراً حتّى أَلْحَقَ الأبناءَ بالآباءِ (علم أُناساً ثمّ علّمَ أبناءهم). وكانتْ وفاتُه في سادِسَ عَشَرَ رَمَضانَ من سَنَةِ ٩٥٥ (١٩/١٠/١٥٤٨ م). وخَلَفَه في القضاءِ أولادُه الثلاثةُ: محمّدٌ والعاقبُ وعُمَرُ.

٢ - كان محمودُ بنُ عُمَرَ أقيتَ التُّنْبُكْتيُّ هادىءَ الطبع قويَّ الحافظةِ ومن فُقَهاءِ المالكية عالِمَ بلادِ التَّكْرورِ وصالحها ومُدرّسَها وفقيهَها وإمامَها بلا مُدافِعٍ. وَهُوَ الذي أدخَلَ مُختصرَ خليلٍ والمدوّنةَ إلى بلاد السودان. وكذلك كان مُصَنِّفاً، له: تَقْيِيدٌ على مختصرِ خليل. وهُوَ الذي بدأ تأليفَ كِتابِ «الفتّاش» (أو الفتّاس)[٥] وعُنوانه على النسخة المطبوعة: «تاريخ الفتّاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس». أمّا على الصفحةِ الحاديةَ عَشْرَةَ فيبدو هذا العُنوانُ أكثرَ تفصيلاً: «تاريخُ الفتّاشِ في أخبارِ

= محمود كعت... الكرمني التنبكتي، وله «تاريخ الفتّاش». ويذكر هوار (تاريخ الأدب العربي، النسخة الانكليزية، ص ٣٩٣) محمود بن عمر هذا ولا يذكر له «تاريخ الفتّاش». غير أن خير الدين الزركلي (الأعلام، الطبعة الثالثة ٨: ٥٦، الطبعة الرابعة ٧: ١٧٩) يذكر محمود بن عمر التنبكتي ويذكر له كتاب تاريخ الفتّاش.

(١) الكرمني نسبة إلى كرمن (بالضمّ أو بالفتح): مقاطعة قريبة من تنبكت.

(٢) صنهاجة (بالكسر) ومسوفة (بالفتح) من قبائل البربر.

(٣) المقصود هنا: المدوّنة الكبرى لعبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون (ت ٢٤٠ هـ) في الفقه المالكي.

(٤) كان محمود بن عمر في الحجّ مع الأسكيا (الملك، الشيخ؟) محمد بن أبي بكر (راجع مطلع «تاريخ الفتّاش» في المختارات من آثاره).

(٥) الفتّاس (مكان «الفتاش») راجع ص ١١ و١٦ (من المقدّمة الفرنسية)، وهذا يوافق السجع: تاريخ الفتّاس..... وأكابر الناس.

البُلدانِ والجيوشِ وأكابرِ الناسِ وذِكْرُ وقائعِ التَّكْرورِ وعظائمِ الأمور وتفريقِ أنسابِ العبيدِ من الأحرار». والمؤلِّفُ قد بَدَأَ هذا الكتابَ سَنَةَ ٩٢٥ للهجرة (١٥١٩ م). ثمّ إنّ حفيدَه ٱبْنُ المختار أَتَمَّهُ إلى سَنَةَ ١٠٧٦ للهجرة (١٦٦٥ م). - ولعلّ أحدَ أولادِ المؤلّفِ كان قد وَصَلَ بالأحداث إلى سَنَةِ ١٠٠٧ للهجرة (١٥٩٩ م)[١].

وفي كتاب «الفتّاش» يَختلِطُ التاريخُ بالقَصَص الشعبيّ وبالخُرافات أيضاً. والمؤلّف نفسُه يقول إنّه كان في هذه الرواياتِ أشياءُ لا يُصَدِّقُها العقلَ (ص ٣٤)، مثلَ صُنْعِ بحر في الصحراء (ص ٣٥)، ومن أن كَنْكَ موسى لمّا خرج إلى الحجّ ما مرّ ببلد (بينَ السودان ومِصْر)، وكان يومُ جُمُعَةٍ، إلاّ بني في ذلك اليومِ مَسْجِداً في يومِهِ[٢] (ص ٣٤). ومثلُ ذلك قِصّةُ خرابِ تُنْبُكْتَ وإعادةِ بنائها (ص ١٥٦).

٣- مختارات من آثاره

- من مقدّمة كتاب الفتّاش:

الحمدُ للهِ المُنْفَرِدِ بالمُلك والمَلَكوتِ[٣] والعِزّة والجَبَروتِ والقَهْر والغَلَبوت والرأفةِ والرَّحَموت، المَلِكِ الدَّيّانِ القادرِ المَنّانِ[٤] الذي خَلَقَ الأرضَ والسماءَ وعلّمَ آدَمَ الأسماءَ[٥] وأخرَجَ من صُلْبه الملوكَ والرُّعاء[٦]، فمِنْهُمْ مُتَكبرون قاسِطونَ ومنهم مُقْتَصِدون

(١) تاريخ الفتّاس، ص ١٨٤. راجع أيضاً المقدّمة الفرنسية، ص ١٨.

(٢) يبني المسجد في يوم واحد!

(٣) فعلوت (بفتح ففتح) وفعلوتا (من الصيغ النادرة في اللغة العربية) يأتي عليها ستّ كلمات: جبروت، رحموت، رغبوت، رهبوت، قهروت، ملكوت (راجع تاج العروس- الكويت ١٠: ٣٥٦). والمؤلّف (هنا) استعمل «غلبوت» أيضاً. هذه الصيغ تستعمل في اللغة العربية مصادر. ولكن ما الفائدة من استعمالها مكان المصادر العاديّة: جبر، رحمة، قهر، ملك، الخ؟- في القاموس السرياني (اللباب لجبرائيل القرداحي، ١: ١٥٨): جبروثا (بجيم معقودة، قريبة من القاف، مفتوحة وبعدها باء ساكنة): الرجولة. وترد هذه الصيغة السريانية (بفتح ففتح فسكون وواو مضمونة): المعجزة أو الآية. وأغلب الظنّ أن العرب أخذوا هذه الصيغ لما في لفظها من الفخامة والتأثير الغريب.

(٤) الديّان: الذي يحكم بين الناس (يوم القيامة). المنّان: المانح (المعطي، الواهب) الكريم.

(٥) ﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها﴾ (القرآن الكريم ٢: ٣١، سورة البقرة).

(٤) الرعاء (بالضمّ وآخرها همزة): الرعاة (جمع راع)- راجع القاموس ٤: ٣٣٥.

صالحون[١]. فَٱبْتَلاهُمْ (جميعاً) بِظهورِ الأنباءِ والأخبار[٢] فأهْلَكَ من أباهُمْ[٣] وصَيَّرَهم عِبرةً للمُعْتَبِرين ومَوْعِظةً للمُتّقين. ثمّ أوْرَثَ العُلماءَ عِلْمَهُمْ وأخْلَفَ الخُلَفاءَ على أمرهم[٤]...... ونشهَدُ أنْ لا إلَه إلاّ اللهُ شهادةَ مَنْ أفْرَغَ قَلْبَهُ وهَواهُ لأمثالِ أمرِ مَوْلاه[٥]..... ونشهَدُ أنَّ سيّدَنا مُحمّداً عبدُهُ الكريمُ ورسولُه الرحيمُ وصَفِيُّه الحليمُ ونَجيّه الأمينُ ذو الآياتِ الصادقاتِ والمُعْجزات الباهرات والبراهينِ القاطعاتِ، أرْسَلَهُ مُوَطِّداً للإسلامِ ومُسدِّداً للأنام ومُبيِّناً للشرائع والأحكام.

وبعدُ، فلمّا كان ذِكْرُ قِصَصَ الأنباءِ[٦] والسلاطينِ والمُلوك وأكابرِ البُلدان من عادةِ الحُكَماء والعُلماء والأعيان، اتّخاذاً[٧] بسُنّةِ الرسولِ وتذكيراً لِما غَبَرَ مِنَ الزمانِ ورَدًّا للغَبيِّ عنِ الحَيْفِ والهَوان[٨] وعَوْناً للتَقيِّ على مُساعدةِ الإخوانِ. و(قد) مَنَّ اللهُ علينا بأنْ أظهَرَ لنا في زمانِنا هذا الإمامَ الصالحَ والخليفةَ العادلَ والسُّلطانَ الغالبَ والمَنصورَ القائمَ أسكيا الحاجَّ محمّدَ[٩] بنَ أبي بكرٍ التورديَّ أصلاً الكُوكَويَّ داراً ومَسْكَناً فأنار لنا الهُدى بعد ظُلَمِ الدُّجَى وأماطَ عنّا الهدى[١٠]؟ بعدَ الجُبْنِ والرَّدى[١١]. فَٱنْفَسَحَ[١٢]، بحمدِ اللهِ، البلادَ شَرْقاً وغرباً، وتداعتْ[١٣] له الوُفودُ فَرْداً

---

(١) قاسط: ظالم (تأتي أيضاً بمعنى: عادل). مقتصد: معتدل.

(٢) ابتلاهم: اختبرهم (أي اختبر الناس) بظهور الأنباء (جمع نبيّ - تاج العروس - الكويت ٤: ٤٤٥).

(٣) أباهم: رفضهم (عصى الأنبياء).

(٤) أخلف (استخلف) الأنباء (الأنبياء) على (تنفيذ) أمرهم (ما أمر به الأنبياء).

(٥) هواه (ميله، رغبته): جعل رغبته قاصرة على طاعة أوامر الله. لأمثال (اقرأ: لاَمتثال: تقيّد، طاعة) مولاه (ربّه).

(٦) الأنباء جمع نبيّ.

(٧) اتخاذاً لسنّة الرسول أو انقياداً لسنّة الرسول أو اقتداء بسنّة الرسول.

(٨) غبر: مضى. الحيف: الظلم.

(٩) الأسكيا محمّد الأول: ملك امبرطوريّة سنغي، وكانت تضمّ جميع الحوض الأوسط لنهر النيجر وقسماً من الصحراء الكبرى بما في ذلك المدن: ولاتن وتنبكت وكاو (بكاف معقودة، تلفظ كالقاف).

(١٠) أماط: أبعد، أزال. الهدى (؟) اقرأ: العدى. ويقال «أماط الأذى».

(١١) الردى: الموت، الهلاك (على يد الأعداء). الجبن: الخوف، الإحجام عن العمل (قتال العدوّ).

(١٢) انفسح البلدان (اتّسع ملكه). - لعلّها: ٱفتتح البلدان (؟).

(١٣) تداعت له الوفود (اجتمعت عنده الوفود من الشرق والغرب).

وجَمْعاً. وأذْعَنَتْ له الملوكُ كَرْهاً وطَوْعاً. فَصِرْنا مِنْ بَرَكاتِهِ في خيرٍ ونُعْمى بعدَما كنّا في ضِيقٍ وبُوسى [1]. فبَدّلَ اللهُ ذلك بفَضْلِه، كما قال لأكرم خَلْقِهِ: ﴿إنّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً﴾ [2].

أرَدْتُ أن نَجْمَعَ من أحوالِهِ الحلوان[3]، مَعَ ذِكْرِ شيءٍ عال الملعون[4](؟) ما سَهُلَ على اليد واللسانِ. وإلى الله سُبْحانَه التُّكلانُ[5]. وسَمَّيْتُهُ «تاريخَ الفتّاش في أخبارِ البُلْدان والجيوشِ وأكابرِ الناس وذِكْرِ وقائعِ التَّكرورِ وعظائمِ الأُمور وتَفْريقِ أنسابِ العَبيدِ من الأحرار».

آعْلَمْ، رَحِمَنا اللهُ وإيّاكَ، أنّ الإمامَ العادلَ والسُّلطانَ الفاضلَ أسكيا الحاجَّ محمّداً لمّا تَوَلّى السَّلْطَنَةَ أقامَ[6] طريقةَ سُنْغَيْ وجَعَلَ فيها قواعدَ[7]:.... ولا يقومُ[8] لأحدٍ إلّا للعالِمِ والحُجّاج[9] إذا قَدِموا من مَكَّةَ، ولا يأكُلُ مَعَهُ إلّا العُلَماء والشُرفاءُ وأولادُهم وسن[10]، ولو كان صغيراً، رَحِمَه الله. وهذا كُلُّه (كان) في أوّلِ أمرِه لتأليفِ قُلُوبِ قَوْمِه. فلمّا ثَبَتَتْ لهُ السلطنةُ وآستقامتِ المملكةُ خَرَجَ من ذلك كُلِّهِ وجَعَلَ يسأل العُلَماءَ العامِلينَ عَنْ سُنّةِ[11] رسولِ الله، صلّى اللهُ عليه وسلّم، ويَمْشي على أقوالِهِ، رَحِمَه الله،

---

(١) البؤسى: البؤس (المشقّة، الفقر، الشقاء).

(٢) كما قال (الله تعالى) لأكرم خلقه (محمّد رسول الله): ﴿إنّ مع العسر يسراً﴾ (القرآن الكريم ٩٤: ٥، ٦، سورة الانشراح).

(٣) من أحواله: من أحوال الأسكيا الحاجّ محمّد. الحلوان (؟).

(٤) شي عال (في التعليق على النصّ بالفرنسية، ص ١٠): أمير حكم بلاد سنغي من ١٤٦٥ إلى ١٤٩٢ للميلاد (٨٧٠ - ٨٩٨ هـ) وكان الملك الذي سبق آخر ملوك أسرة شي التي جاءت قبل الأسرة التي عرفت باسم الأسكيا (أسرة الحاجّ محمّد).

(٥) إلى (اقرأ: على). التكلان (بالضمّ): الاتّكال، الاعتماد.

(٦) أقام سنغي: عمل بها، على نمط ما كانت تلك الأسرة تعمله.

(٧) سنغي (بضمّ فسكون ففتح فسكون) أو سغي (بضمّ ففتح فسكون) تلك المملكة التي كانت عاصمتها كاو (بكاف معقودة - بين الغين والقاف)، وخصوصاً في الحوض الأوسط للنيجر.

(٨) قواعد - بعد هذه الكلمة عادات شخصيّة للذين يخدمون الملك.

(٩) يقوم: ينهض، يقف للتحيّة.

(١٠) اقرأ: أو للحجّاج.

(١١) سنّ معناها: الرئيس، الأمير (ولعلّها تشير إلى الفرد من أعضاء الأسرة الحاكمة).

(١٢) سنّة رسول الله = طريقته.

حتّى اتّفق علماءُ عصْرِه على أنّه خليفةٌ[١]. وممّنْ صرّحَ له بذلك عبدُ الرحمنِ السُّيوطي[٢] والشيخُ محمّدُ بنُ عبدِ الكريمِ المَغِيليُّ[٣] والشيخُ شَمْهروشُ الجِنّيُّ[٤] والشريفُ الحَسَنِيُّ مَوْلايَ العبّاسُ أميرُ مكّةَ[٥]، رَحِمَ اللهُ الجميعَ.

– عدد من أسماء أعلامِهِمْ مضبوطاً (الفتاش ٢٥):

....وكان اسْمُ كبيرِ الرجال المذكورينَ وَعْكُرُيْ بن بَرَاس واسْمُ زوجتِهِ آمنةُ بِنْتُ بختٍ، وَهُوَ جَدَّ قبيلةِ وَعْكُرُيْ بواوٍ مفتوحةٍ وعينٍ ساكنةٍ وكافٍ وراءٍ مضمومة[٦] مُمَالَتَيْنِ فياءٍ ساكنة. واسْمُ ثاني الرجالِ سُغُيْ بنُ بَرَاس، واسْم زَوْجته سارةُ بنتُ وَهْبٍ، وهو جَدُّ قبيلةِ سُغُيْ بِسِينٍ وغَيْنٍ مَضْمومَتَيْنِ مُمَالتَيْنِ بعدَهما ياءٌ ساكنة. وثالثُ الرِجال اسْمه وَنْكَرَ، وهُوَ أصْغَرُهُمَ، وليسَ له زوجةٌ، وإنّما كان له أمَتان[٧] اسْمُ إحداهُما سكرى واسم الآخر كسرى. فاتّخذَ وَنْكَرَ سكرى سَرِيّة له.

وكان جَدُّ قبيلةِ وَنْكَرَ بواوٍ مفتوحةٍ ونونٍ مدغمةٍ وكافٍ مفتوحةٍ فراءٍ مفتوحةٍ. وكان لهم عبدٌ يُسمّى بمينك فزوّجوه بأمَتِهِمْ كسرى، وهو جَدُّ قبيلة مِينكَ بميم مكسورة ممالة فياء مدغمة ونون مدغمة وكافٍ مفتوحة. وإلى آبائهم نُسِبوا.

ثمّ تَفَرّقوا في الأرض. وكان كبيرُهم وَعْكُرُيْ سُلطانَهُمْ، وسَمَّوْهُ كيمغ، ومعنى ذلك في كلامهم: طال الإرْثُ، يريدون بذلك «أطالَ اللهُ ورثتنا المُلْكَ».

٤– تاريخ الفتّاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس (تحرير هوداس وديلافوس)، باريس (مطبعة مدرسة اللغات الشرقية، القسم الخامس، المجلّد ١٩، العدد الأول) ١٩١٣؛

---

(١) خليفة = مستحق لقب خليفة.

(٢) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المصري (ت ٩١١ هـ) من العلماء الذين برعوا في فنون كثيرة من المعرفة الإنسانية.

(٣) المغيلي (ت ٩٠٩ هـ) هذا عالم مغربي عاش جانباً كبيراً من حياته في السودان الغربي.

(٤) شمهروش (يبدو أنه شخص خيالي) الجنّي (نسبة إلى الجنّ، خلاف الإنس– بكسر الهمزة).

(٥) أمير مكّة: (لم يذكر زامباوّر (ص ٣٢ – ٣٣) أحداً من أشراف مكّة في القرنين التاسع والعاشر والحادي عشر للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر للميلاد) باسم العبّاس.

(٦) اقرأ: مضمومتين (أي الكاف والراء).

(٧) الأمة (بفتح ففتح): الجارية المملوكة.

طبعة بالتصوير: المدرسة الباريزيّة لتدريس الألسنة الشرقية، باريس (مكتبة أميركة والشرق: أدريان ميزوننوف) ١٩٦٤ م.

★★ نيل الابتهاج ٣٤٣ - ٣٤٤؛ بروكلمن، الملحق ٢: ٧١٦ - ٧١٧؛ هوار (النسخة الانكليزية ٣٨٦)؛ الأعلام للزركلي ٨: ٥٦(٧: ١٧٩)؛ سركيس ٤٦٤؛ شجرة النور الزكية ٢٧٨ (رقم ١٠٤٣).

ثالث صفر ١٤٠٣ = ١٩/ ١١/ ١٩٨٢ م.



فهرس أعلام الأشخاص

(*) إنّ الرقم المحصور بين هلالين كبيرين يدلّ على مرتبة صاحبه في سلسلة ملوك بني الأحمر في غرناطة.

حرف الباء :

حرفا التاء والثاء:

حرف الجيم:

حرف الحاء:

حرف الخاء :

حرفا الدال والذال:

حرف الراء:

حرف الزاي:

حرف السين:

حرف الشين:

حرفا الصاد والضاد:

حرفا الطاء والظاء:

حرف العين:

حرف الغين :

حرف الفاء :

حرف القاف:

حرف الكاف:

حرف اللام:

حرف الميم:

(★) لمحمد رسول الله أسماء كثيرة منها: سيد العالمين – الشفيع – الماحي وغيرها، تجد الإشارة إليها كلها تحت «محمد رسول، الله».

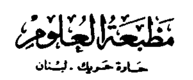
حرف النون:

حرف الهاء:

حرف الواو:

حرف الياء:




مطبعة العلوم
حارة حريك - لبنان